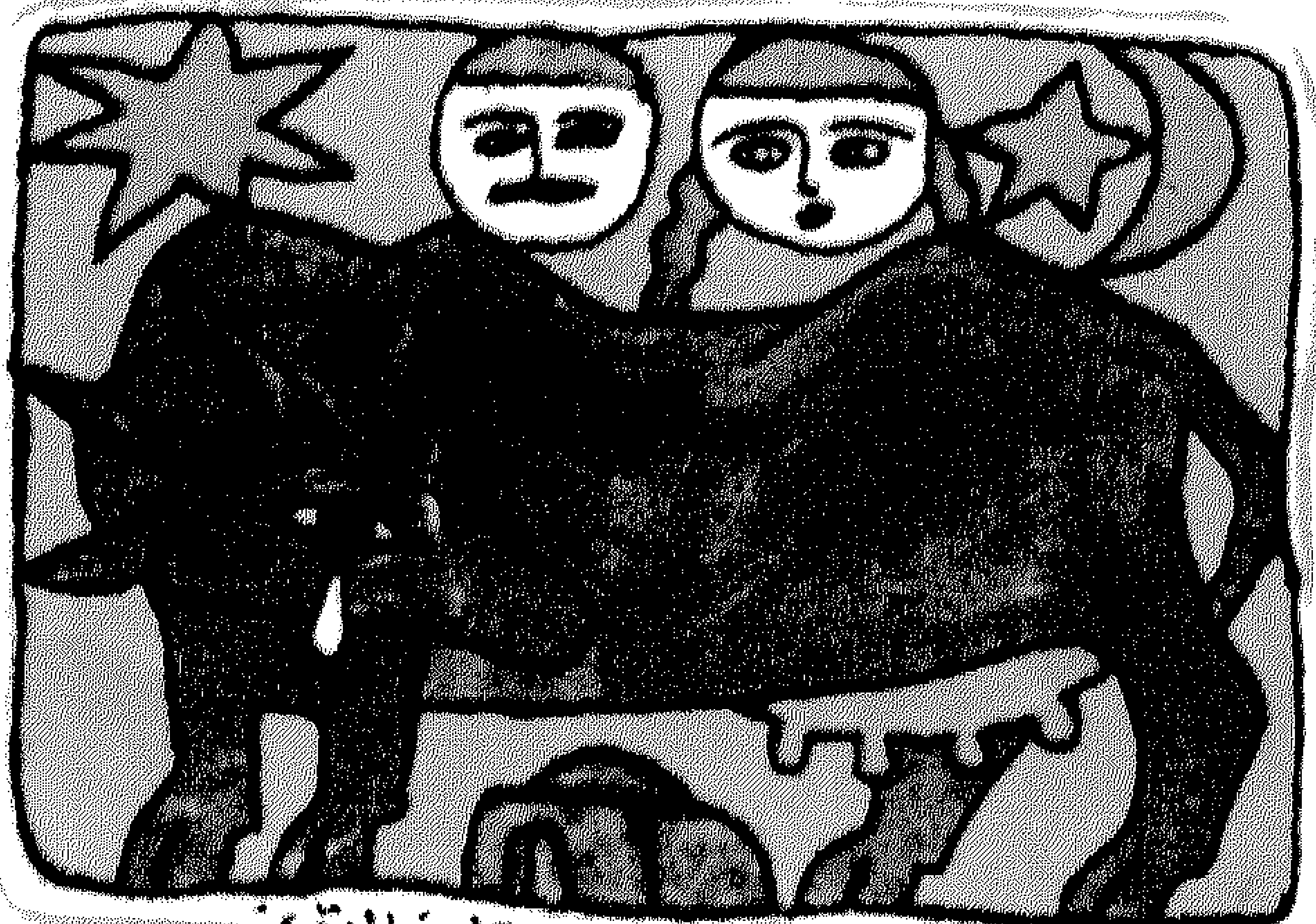


الحقيقة والوهم في الواقع المصري

د. رشدى سعيد



كتاب الهلال
KITAB AL-HILAL
الاصدار الاول
يونيو ١٩٥١

سلسلة شهرية تصدر عن دار الهلال

مكرم محمد أحمد رئيس مجلس الإدارة
عبدالحميد حمروش نائب رئيس مجلس الإدارة

مركز الإدارة

دارالهلال ١٦ ش محمد عزالعرب. تليفون: ٣٦٢٥٤٥٠ سبعة خطوط
العدد ٥٥١ - جماد ثان - نوفمبر ١٩٩٦ NO.551-NO-1996
فاكس FAX-3625469

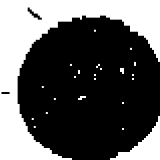
مصطفى نبيل رئيس التحرير
عادل عبدالصمد سكرتير التحرير

أسعار بيع العدد فئة ٣٥٠ قرش
سوريا ١١٥ ليرة - لبنان ٧٠٠٠ ليرة - الأردن ٢٧٠٠ فلس - الكويت ١٧٥٠ فلسا - السعودية ١٥ ريالا.

الحقيقة والوهم
فى
الواقع المصرى

بقلم

د . رشدى سعيد



دار الهلال

الغلاف للفنان
حلمى التونى

إهـــداء

إلى الصديقين فوزى هيكل ومحمود أحمد اللذين كثيرا ما شاركانى مناقشة موضوعات هذا الكتاب

د. رشدى سعيد

تقديم

بقلم: محمد حسنين هيكل

حين طلب منى صديقى الكريم الدكتور رشدى سعيد أن أقدم كتابه هذا لعامة القراء لم أتردد لحظة واحدة عن شعور عميق إلى درجة اليقين بأن ذلك واجب عام أكثر منه حماسة لصديق شخصى.

والشعور إلى درجة اليقين بالواجب العام فى هذه الحالة ينشأ بالدرجة الأولى من مشكلة عانت منها مصر، ولازالت تعانى، وهذه المشكلة تتمثل فى مفارقة مؤداها أن كثيرين من الذين ليس لديهم مايقولونه فى شئون هذا البلد وشجونه لايكفون عن الكلام، بينما الذين لديهم ما يقولونه لا يملكون فرصة كافية لقوله. وبنفس المقدار فإن كثيرين من القادرين على الخدمة العامة محجوبون عنها، فى حين أن المجال مفتوح - إلى درجة العربدة - أمام ثلاثية الجهل والعجز والفساد.

إن هذه المشكلة - أو المفارقة - أشد ما تكون وضوحا فى حالة رجل مثل الدكتور رشدى سعيد. فنحن أمام استاذ فى الچيولوچيا خطا من الجامعة إلى المجتمع ومن العلم إلى الثقافة حين استطاع أن ينفذ من طبقات الأرض إلى حياة البشر الذين يعيشون فوقها، ثم استطاع أن يحيط بطبقات الأرض وحياة البشر فى وطن بذاته إحاطة تربط

الجغرافيا والتاريخ، تصل الحاضر والمستقبل، وتكشف بالعلم والحكمة مطالب التقدم والعمران حين تصنع نوعا راقيا من المعرفة المتكاملة القادرة على الإلهام والتأثير.

إن رشدى سعيد رجل تسعى إليه جامعات الدنيا وتستضيفه محافلها - لكن وطنه بشكل ما لا يسمعه بالقدر الكافى، وهو رجل مطلوب فى مكان ولكن وطنه لم يستدعه للخدمة العامة إلا لفترة قصيرة فى منتصف الستينات وأوائل السبعينات، ثم أزاحته أجواء السياسة عن مواقع التفكير التنفيذ وتخلت عنه لكى يحتضنه هؤلاء الذين عرفوا قدره من خارج وطنه لسوء الحظ.

لكن الرجل حيث ذهب وحيث كان لا يرفع عينيه عن وطنه يتابع من بعيد مسيرته، ويشارك من بعيد فى همومه، ويتحامل على نفسه بين وقت وآخر يكتب أو يتكلم.

وكانت مجلة الهلال - وهذه شهادة لدورها أو دورانها الدائم والدائب حول أفق التنوير والتجديد - هى المفتوحة أمامه وهى الحفية بما يكتب أو يقول، وقد نشرت له بالفعل فصولا تجمعها الآن فى غلاف كتاب يستحق القراءة باهتمام، ويستحق التفكير فى أناة. ويستحق بعد ذلك أن يجد طريقه لينضم إلى المخزون المعرفى والتجريبى والثقافى للأمة حين تحتاج الأمة إلى هذا المخزون ذات يوم كى تعيد الاستثمار فى الغد وبعده.

مقدمة

يحتوى هذا الكتاب على مجموعة من الأفكار والآراء والاجتهادات التى اخترتها من بين العديد مما طرحته ، فى ندوات ومحاضرات ومقالات ، عبر الثلاثين سنة الماضية ، والتى مازال الكثير منها حيا حتى اليوم . وهدفى هو أن أنقل إلى القارئ صورة من بعض ما شغلنى حتى اليوم عبر هذه السنوات ، من أمر مصر : حالها ومستقبلها وإمكاناتها ، والهموم والأحلام التى شغلتنى ومعظم أبناء جيلى ممن عاصروا سنوات الكفاح الطويلة لنيل استقلال مصر، وخاضوا معركة التنمية ، وعاشوا الآمال العريضة التى جاءت معها .

وقد رتبت هذه المجموعة من الأفكار فى أربعة أبواب يناقش أولها الواقع المصرى المعاصر واسقاطاته على المستقبل ، ويتضمن أربعة فصول يصف الأول منها شكل المجتمع المصرى الراهن الذى انشطر ببزوغ نخبة قليلة العدد استطاعت منذ سبعينات القرن العشرين أن تستحوذ على الجزء الأكبر من الثروة ، وأن تترك وراءها جموع الشعب المصرى لتعيش فى تخلف مهين . وقد لفت هذا الموضوع ، عندما

تناولته، انتباه الكثيرين حتى أن معلقا بجريدة «الحياة» وصفه بأنه بمثابة صورة فوتوغرافية لمصر المعاصرة. ويعرض الثانى لنتائج خطط التنمية، التى تجرى فى مصر الآن، وللفشل الذى أصابها مما تسبب فى انحدار مستوى العيش لسكانها . وفى الثالث تصور لما سيئول إليه حال مصر، فى ثلاثينات القرن الواحد والعشرين لو أن أمورها بقيت على ما هى عليه واستمرت فى سياستها الحاضرة، وقد قصدت من هذه الفصول الثلاث تشخيص حال مصر وأثره على مستقبلها ، لكى أضع صورتها أمام القارىء دون خداع أو إغراق فى الوهم ، قبل أن أعرج فى الفصل الرابع من الباب الأول إلى إبراز إمكانات مصر، فى الأرض والطاقة والمياه ، والتى لو أحسن استخدامها لتفادت مصر الكثير من المصاعب التى تعانيها ولأصبح لها مكان ومستقبل أفضل. ويبين الجدول الذى يظهر فى هذا الفصل أن مصر هى الدولة الوحيدة ، من بين جميع دول الشرق الأوسط، التى تجمعت لديها أهم عناصر التنمية ، ومع ذلك فهى أفقر هذه الدول فى نوعية حياة أبنائها أو دخل الفرد فيها .

ويعالج الباب الثانى موضوع النظام العالمى الجديد ، الذى أخذ فى التشكل منذ سقوط الاتحاد السوفييتى السابق فى أواخر ثمانينات القرن العشرين ، وهو فى ثلاثة فصول : يعرض الأول منها لمعالم

ونزوعات هذا النظام فى أواخر ثمانينات القرن العشرين ولموقع مصر والشرق الأوسط فيه . ويتحدث الثانى منها عن البترول ، الذى يدير حركة عالم اليوم ويلعب دورا أساسيا فى حياة الشرق الأوسط ، وفيه أتنبأ بأن دور البترول ، المؤثر على اقتصاد العالم ، سينتهى فى غضون الخمسين عاما القادمة وأهدف من هذا تحديدا ألا يفاجأ العرب والمصريون بعالم جديد لا يعرفون لهم فيه طريق . وفى الفصل الثالث ، وصف لحالة النزاع التى تسود اليوم منطقة الشرق الأوسط ، والتى يراد لها أن تستمر دون انفلات مما يجعل هذه المنطقة نموذجا لما يسميه علماء السياسة بحالة النزاع المستمر والمنضبط .

ويتعلق الباب الثالث بعدد من الموضوعات التى شغلتنى ، عبر السنوات الطويلة من العمل فى مصر ، وهى مواضيع السكان والمياه والبيئة والتعليم. وكان هذا الموضوع الأخير هو شغلى الشاغل وقت عملى بالتدريس بالجامعة ، وأصبحت له أهمية خاصة بعد أن تركت الجامعة وشغلت بالمشاركة فى خطط تصنيع مصر . فقد رأيت أهميته فى إعداد المواطن للعمل لتنفيذ هذه الخطط وتطويرها ، خاصة وأن خريج المدرسة أو الجامعة كان يأتى إلينا وهو غير معد للقيام بالعمل الذى يوكل إليه أو الإسهام فى تقدمه ،

فقد كانت تنقصه المبادرة والقدرة على الإطلاع واتقان طرق الحصول على المعلومات . كما أتاح لى عملى التنفيذى أن أرى المأساة التى ستلحق بكتلة العاملين ، ممن لم يذهبوا إلى المدرسة أصلا أو ممن نالوا من العلم القليل ، وهم فى الطريق إلى التهميش الكامل مع دخول مصر عصر الإنتاج الآلى وعصر المعلومات . وقد شغلنى هذا الموضوع منذ وقت مبكر ، وكتبت عنه مقالا نشر بالأهرام منذ أكثر من خمس وعشرين سنة ، كما أرى أن فى إعادة طرحه اليوم فائدة كبيرة حتى تتجنب مصر تحول هذه الكتلة الكبيرة التى كان لها دور فى الماضى فى الانتاج إلى كتلة من المستهلكين الذين سيشكلون عبئا على الأمة .

والكتاب موجه أساسا إلى مثقفى مصر ، وصانعى الرأى العام فيها، أحاول فيه أن أشاركهم تجربتى فقد يرون فيها فائدة . كما أنه موجه أيضا إلى النخب الحاكمة ، لتذكيرها بحقائق الواقع المصرى وبشكل مستقبله إذا استمر الحال على ما هو عليه ، علها تتبنى سياسة جديدة للتنمية وعقدا اجتماعيا يعطى للناس أملا فى حياة ومستقبل أفضل ، ويدعم من شبكة الأمان الاجتماعى ، حتى تتحقق العدالة ولا يسقط أحد فى هوة النسيان ، ولا شك فى أن تبنى مثل هذه السياسة

وهذا العقد ، سيحقق للبلاد الاستقرار وسيحميها والنخبة نفسها من التيارات اللاعقلانية والهدامة ، التى تنتشر فى مصر والبلاد المحيطة بها، والتى أودت بالكثير منها فى هوة ساحقة .

د. رشدى سعيد

واشنطن .. يونيه ١٩٩٦

الباب الأول

فى الواقع المصرى المعاصر

الحقيقة والوهم فى
الواقع المصرى المعاصر

هذا الفصل فيه من الحقائق ما قد يزعج الكثيرين من النخب التى اعتادت أن تصور حياتها ومجتمعها على أفضل ما يكون ، تختار عند وصفة الجزء الطيب منه وتهمل بل وتحرم الكلام عن الجزء المشين منه . وفى هذا الفصل ، وصف لواقع المجتمع المصرى دون خداع أو إغراق فى الوهم ، قصدت منه أن أذكر هذه النخب بحجم العمل الذى ينتظرهم لكى يعدوا مصر للدخول فى القرن الحادى والعشرين ، الذى سيكون فيه البقاء رهنا بقدرة الأمم على التنافس الحر وبقدر الجدية التى يحتاجها مثل هذا العمل .

المجتمع المصرى ، الذى نعيشه اليوم ، هو نتاج عملية الحراك الإجتماعى التى بدأت خافتة فى أوائل القرن التاسع عشر وتسارعت عجلتها فى أعقاب ثورة يوليو سنة ١٩٥٢ ، ثم الانفتاح الذى حدث فى منتصف السبعينات من القرن العشرين والذى كان له ولا يزال أكبر الأثر فى تشكيل الواقع الحاضر للمجتمع المصرى وفى ترسيخ قواعد النخب التى نشأت عنها . ويتميز هذا المجتمع ببزوغ نخب جديدة قليلة العدد بالغة الثراء وخرجت من بين كتلة البشر الهائلة التى تركت وحالها فى فقر وتخلف مهين . وتشكل هذه النخب البارزة حوالى ٨٪ من مجمل

السكان وتحصل على أكثر من ثلثى الدخل القومى ، وتعيش فى عالم جديد يختلف اختلافا بينا عن ذلك الذى تعيشه جموع الشعب المصرى والتى يصيب ٨٦٪ من جملة سكانه مالا يزيد عن ربع مجمل الدخل القومى . وهؤلاء هم الذين سنطلق عليهم فى هذا الفصل «كتلة البشر الغاطسة» ، أما مجموع النخب فسنطلق عليهم وصف «كتلة البشر الطافية» .

أولا : كتلة البشر الغاطسة :

هذه الكتلة البشرية الهائلة والتى تبلغ الخمسين مليونا من البشر تنتظم فى حوالى ٨,٥ مليون أسرة يتراوح دخلها الشهرى بين ١٠٠ و٥٠٠ جنيه ، مما يجعلها تحصل على حوالى ٢٦٪ من جملة الدخل القومى. على الرغم من أنها تمثل ٨٦٪ من جملة سكان مصر . ويسكن ٥٦٪ من أسر هذه الشريحة الريف ، ويسكن الباقى فى المدن سواء فى أحيائها الشعبية أو على أطرافها فى مناطق عشوائية أسستها بنفسها دون تخطيط . ولا يحتاج المرء إلى خيال كبير لكى يرى أن هذه الكتلة الكبيرة من البشر تسكن «مساكن بدائية تعانى من تدنى الاشتراطات الصحية التى تتمثل فى سوء التهوية والإضاءة وتدنى المرافق الصحية وأحيانا انعدامها» ، كما جاء فى تقرير مجلس الشورى الذى نشر ملخصه فى الأهرام الاقتصادى بتاريخ ١٩٩٤/١٠/٢٤ وتزداد الحالة سوءاً ، فى حالة مساكن الريف ، لوجود حظيرة المواشى والدواجن داخل المسكن ولوضع مخلفات المحاصيل فوق أسطحها . ويشكل سكان هذه الكتلة البشرية حوالى ٧٠٪ من جملة سكان المدن والأحياء

العشوائية التى تعيش فيها ، لا تقل سوءا عن مساكن الريف كما جاء فى تقرير وزارة الحكم المحلى عن هذه المناطق (١٩٩٣) ، بل لعلها أكثر سوءا إذ لا يوجد حول هذه الأحياء خلاء أو منطقة خضراء يمكن أن يخلو إليها الإنسان كما هى الحالة بالريف . وفى تقرير أعدته محافظة القاهرة عن حالة الإسكان فى القاهرة الكبرى ، وجاء ملخصا فى مجلة المصور بتاريخ ١٤/١/١٩٩٤ أن ٨٤٪ من جملة انشاءات المساكن فيها قد تم بطريقة غير رسمية ، وأن ٤٥,٦٪ من جملة سكان القاهرة الكبرى والذين يبلغ عددهم ١٢,٩ مليون نسمة يعيشون فى المناطق العشوائية على النحو التالى :

٢,٨٥٠,٠٠٠ يسكنون فى ١٢ تجمعا عشوائيا حول القاهرة ، ٦٥٠,٠٠٠ فى مناطق بالقليوبية ، ٢,٣٨٣,٠٠٠ فى الجيزة – بمجموع ٥,٨٨٠,٠٠٠ نسمة – وتشغل هذه المناطق العشوائية ربع مساحة القاهرة الكبرى بكثافة سكانية قدرت بثلاثة وسبعين ألف فرد لكل كيلو متر مربع منها .

ويزدحم السكان فى هذه المناطق العشوائية بحيث يبلغ متوسط عدد الأنفس فى الحجرة الواحدة حوالى الستة . وباستثناء نسبة صغيرة ، لا تتعدى ٢٠٪ من جملة مساكن هذه الأحياء ، فإنه لا توجد لأى من هذه المساكن دورة مياه صحية مستقلة بل يشترك أعداد منها فى دورة واحدة ، كما أن مياه الشرب لم تدخل إلا إلى ٤٥٪ من جملة هذه المساكن أما باقيها فيعتمد على النهر أو الترعة فى الريف أو على صنبور عام فى المدينة . وليس بأى من القرى ضرف صحى إلا ما

ندر أما المناطق العشوائيـة فالصرف الصحى فيها إما أنه غير موجود أصــلا أو أنه فى حالة لا تسمح بمواكبة الزيـادة فـى السكـان أو فى استهلاك المياه.

ولا يوجد بمعظم القرى أو المناطق العشوائية بالمدن تخطيط ينظم شوارعها ، التى لايزال أكثر من ثلثها ترابيا وغير مستقيم مما يجعل إدخال الصرف الصحى فيها أو تزويدها بالمياه أو الغاز الطبيعى أمرا صعبا . وقد اضطرت شركة الغاز الطبيعى إلى تفادى أجزاء كبيرة من منطقتى دار السلام والبساتين ، اللتين تقعان إلى الجنوب من القاهرة وبين المعادى ومصر الجديدة ، لعدم وجود شارع مستقيم لمد أنابيب الغاز به، كما أن مد الغاز الطبيعى لمعظم منازل هاتين المنطقتين قد تعذر لعدم توافر الاشتراط البسيط بأن يكون جهاز الطهى الذى يستخدم الغاز موجودا فى حجرة غير تلك التى تستخدم فى النوم .

ويتمتع جزء كبير من هذه الكتلة البشرية الهائلة (يقدر بحوالى ثلثيها) باستخدام الكهرباء التى تم إدخالها فى معظم المدن وأجزاء كثيرة من الريف وهؤلاء هم من فئة المستهلكين حتى ١٠٠ كيلو شهريا والتى تقدر فاتورتها بخمسة جنيهات ، وتستهلك هذه الكتلة البشرية الهائلة أقل من ١٨٪ من جملة الكهرباء المستخدمة فى المنازل فى مصــر.

ولا يتمتع أعضاء هذه الكتلة البشرية الكبيرة بخدمات عامة كثيرة . فمعظم أعضاء هذه الكتلة الغاطسة هم بلا عنوان ، بحيث يصعب الوصول إليهم فى أماكن إقامتهم التى تنقصها خرائط مساحية وطرق

ممهدة ، ويندر أن يستخدم الواحد منهم البريد حتى أن استلام أى منهم خطابا يعتبر حدثا مهما . وقد حاولت بنفسى إرسال عَدة خطابات إلى أحد قاطنى المناطق العشوائية بالقاهرة دون جدوى ، ودون أن يعاد الخطاب إلىّ - ولا يمتلك واحد من أعضاء هذه الكتلة البشرية الغاطسة سيارة خاصة ، فهم يعتمدون فى تنقلاتهم على وسائل النقل العام والخاص وهى فى معظمها فى حالة مزرية لازدحامها وضجيجها وسوء صيانتها وخشونة العاملين فيها . كما أن أحدا من أعضاء هذه الكتلة الغاطسة ليس لديه تليفون خاص ، بل ويمكن القول إن هذه الكتلة البشرية محرومة كلية من استخدام التليفون ، فمعظم القرى والأحياء التى يسكنونها ليس بها تليفونات عامة .

ويشكل صغار السن ، ممن تقل أعمارهم عن ١٢ سنة ، حوالى ثلث أعضاء هذه الكتلة البشرية الغاطسة . ونسبة الأمية فى هؤلاء عالية تبلغ حوالى ٦٠٪ وهى أعلى فى الإناث اللائى لا يذهب منهن إلى المدرسة إلا ربعهن فقط . ويتسرب من المدرسة عدد كبير ، حتى أنه لا يصب من رافد هذه الشريحة التى تذهب إلى المدارس إلا ٢٠٪ فقط إلى المدرسة الثانوية ، أما الباقى فهو يتساقط فى الطريق ويدخل سوق العمل . ولا يعرف على وجه اليقين عدد الأطفال العاملين فى مصر وإن كان الجهاز المركزى للتعبئة والإحصاء يورد عددهم عن سنة ١٩٨٤ بحوالى ١,٥ مليون طفل تحت سن الخامسة عشرة يمثلون ١٠,٣٪ من جملة القوى العاملة والتى بلغت فى ذلك العام ١٤,٣ مليون عامل . وللمركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية ، بالاشتراك مع هيئة اليونسيف ، أبحاث

تورد أعدادا أكبر من عمالة الأطفال ، ومهما كان الأمر ، فإن عدد من لايذهبون إلى المدرسة من أطفال هذه الكتلة البشرية الغاطسة وممن يتسربون منها فيما بين السادسة والخامسة عشرة ، لايقل بحال عن ٥ ملايين طفل . وهؤلاء ، باستثناء بعض الإناث اللائى يرسل الكثير منهن إلى الخدمة بالمنازل ، لابد وأن نفترض أنهم يعملون . ويقوم أكثر من نصف هؤلاء بالعمل في الحقول «نظرا للحالة الاقتصادية واستعانة الآباء بأولادهم وبناتهم فى العمل » حسب ما جاء بتقرير مجلس الشورى السابق الإشارة إليه . أما في الحضر ، فإنهم يعملون فى مصانع السجاد وورش الحرف ، ويدخلون مختلف المهن كصبية بأمل تعلمها ، فإذا حدث وأن جاء هذا التعلم فإنه كثيرا ما يأتى بعد حياة قاسية من الإساءة والاستغلال البشع .

ومدارس المناطق العشوائية والشعبية ، كمدارس الريف ، فى حالة سيئة والكثير منها لم يبن أصلا لهذا الغرض، ومدرسوها فى حالة من الكرب ، هذا فضلا عن البرامج التلقينية والمتخلفة التى تلقى على تلاميذها.

فإذا أضيف إلى كل ذلك أن ما يزيد على عشر طلاب هذه الكتلة الغاطسة يذهبون إلى مدارس دينية ، تتبع المؤسسة الدينية ولا تشرف عليها وزارة التعليم ولا تؤهل طلابها لعمل مثمر ، لعرفنا قدر مأساة هذه الكتلة البشرية الهائلة والغاطسة تحت السطح . فهى ، بالإضافة إلى أن الجزء الأكبر من أبنائها لا يذهب أصلا إلى مدرسة أو أنه يتسرب منها، فإن الجزء الصغير منها يذهب إلى مدارس غير معدة لتأهيل طلابها .

والحالة الصحية لهذه الكتلة البشرية الغاطسة من السوء لدرجة أن ٥٥٪ من أطفالها يعانون الأنيميا (نقص كرات الدم الحمراء) و ٤٠٪ منهم يعانون سوء التغذية (تقرير مجلس الشورى المشار إليه سابقا) والمنشآت الصحية شبه المجانية ، التى أقيمت فى الريف وأطراف المدن فى الخمسينات والستينات ، أصبحت تعانى اليوم من نقص استعداداتها وهى غير قادرة على تقديم الخدمات العلاجية الطبية المتخصصة ، كما أنها لا تملك الإمكانيات الإيوائية الطبية الداخلية للمرضى ، وإن توافرت فهى توجد فى ظل ظروف قاسية هذا فضلا عن أن الأطباء العاملين فيها غير متوافرين عدديا ، ولا يقيم الكثير منهم فى مناطق العمل ، وقد أدى إهمال المنشآت الصحية الحكومية وارتفاع تكلفة المستشفيات الخاصة إلى لجوء الكثيرين من هذه الكتلة البشرية الغاطسة إلى الدجالين والمشعوذين . وتمتلئ الجرائد بأخبار هؤلاء وتتحدث عن «الممارسات العلاجية الشعبية» ، والتى عددتها ندوة أقيمت أخيرا بوزارة الصحة المصرية كالتالى «العلاج بالقرآن - تحضير الأرواح - السحر - طرد الجن والعفاريت - الذكر - الحضرة الصوفية - الزار - العمل - الحجاب » .

وقالت إحدى المعالجات فى الندوة أنها على الرغم من عدم معرفتها القراءة والكتابة فإن «الله قد هداها إلى علاج عباد الله من لمس ومس بالجن» ، وأضافت أنها تقوم بهذا العمل بالمجان ! (المصور فى ١٩٩٤/٩/٣٠) .

ولا توجـد فى الريـف أو الأحيـاء الشعبية والعشـوائيـة فى الحـضر خدمات اجتماعية أو ثقافية تذكـر . ويمكن القول أن من النـادر أن يجد المرء من أعضـاء هـذه الكتلـة البشـرية الكبيرة من دخل متحفا من أى نوع كـان ، أو زار مكتبة عامة أو حضر إجتماعا ثقافيا أو شارك فى ألعاب أو أنشطـة ترفيهية منظمـة ، يمكن أن تعلمه العيش فى الجماعـة وإحترام رأى الآخريـن ، أو أنه قـام بالمشاركة فى إدارة شئـون مجتمعه الصغير فى القـرية أو الحى، أو شئــون أمتـه بأى شكل من الأشكال . وغاية ما يأتيه من تعليم اجتماعى إنما يأتيه من مدرسته المتخلفة ، أو من أئمة الجوامـع والزوايـا التى انتشر بناؤهـا فـى الثلاثـين سنة الأخيرة انتشـارا كبيرا جعلت وزير الأوقاف يذكر فى حديث نشـرته مجلة المصور فى ١٩٩٤/٩/٢٣ «أن هنـاك فوضـى فى بناء المساجد » . وقد فاق عدد المساجـد المائة ألف ، بنى منها ستون ألفا فى الثلاثـين سنة الماضية ، وقـد استخدمت هذه المسـاجد فى إيصـال خطاب تيار الإسلام السياسى إلى جموع هذه الكتلة الضخمة من البشر. ويبدو من واقع الحـال ، وبرغـم جهود وزارة الأوقـاف ، أن دعوة هذه المساجد لهذا التيـار لم تتوقف بل أنها ازدادت تنظيما وهو ما تؤكده الحمـلة المنظمـة التى قام بها أئمـة هؤلاء المساجد بالهجوم على وزير التعليم فى قضية الحجاب وفى التعريض بمؤتمـر السكان الذى عقد بالقاهرة تحت إشراف الأمم المتحدة والحكومة المصرية .

ويلعب التليفزيون دورا فى إيصال دعوة تيار اليمين الدينى إلى هذه الكتلة من البشر . فعلى الرغم من تنوع برامجه ، فإن أكثرها قبولا عند هذه الكتلة هى تلك التى يقوم بها أكثر الدعاة الدينيين تخلفا .

وفى هذا الصدد ، علينا ألا ننسى أن العشرة بالمائة من أعضاء هذه الكتلة البشرية الغاطسة من الأقباط والذين أصبحوا معزولين بداخلها يعيشون فى جيتو بداخل جيتو هذه الكتلة الكبيرة . فهم بالإضافة إلى ما يلاقونه من نفس المعاناة التى يلقاها. إخوانهم المسلمون - غير قادرين على التعبير عن أنفسهم ، فهم محرومون من بناء كنائس جديدة أو ترميم كنائسهم القائمة إلا باستصدار قرار جمهورى وذلك تطبيقا لفرمان همايونى صدر فى سنة ١٩٥٦ ولايزال قائما حتى اليوم . وعلينا ألا ننسى أن هؤلاء يعيشون وسط مجتمع يعلم أبناءه على أن من ليس على دينهم فهو فى ضلال .

هذه هى إذن حياة هؤلاء الخمسين مليونا من البشر الذين يسكنون أرض مصر ويشكلون ٨٦٪ من سكانها ويحصلون على ٢٦٪ من مجمل دخلها القومى - يعيشون فى ازدحام هائل ، وفى تجمعات سكانية ليس فيها أبسط الخدمات ، لايذهب الجزء الأكبر من أبنائهم إلى المدرسة، وإن ذهبوا فهم يذهبون إلى مدرسة ركيكة يتسرب الجزء الأعظم منها ويعيشون طفولتهم فى العمل الشاق حيث يهانون ويستغلون،

وتشكل هذه الكتلة الضخمة من البشر جموع القائمين بالأعمال الخدمية الدنيا فى المدن ، والأعمال التى لا تحتاج إلى مهارات خاصة فى الزراعة فى الريف ، هذه الكتلة الكبيرة من البشر لا تشارك فى الحكم ولا يسمح لها بالحديث عن مشاكلها أو تنظيم نفسها فى جمعيات أو تكتلات ، وهى عاجزة عن إيصال صوتها إلى الحكام ومتخذى القرار.

ثانيا : كتلة البشر الطافية :

الأربعة عشر بالمائة من باقى السكان يشكلون كتلة البشر الطافية التى تحصل على ٧٤٪ من مجمل الدخل القومى . ويعيشون فى مستوى أعلى من العيش، عن جموع كتلة البشر الغاطسة ، وإن لم يختلفوا عنهم فى الكثير من الخصائص الحضارية، فهم يعيشون فى علاقات اجتماعية متخلفة. على أنى قبل أن أبدأ الكلام عن هذه الكتلة البشرية بالإشارة إلى أنها هى التى تملك جميع السيارات الخاصة، وهى التى يوجد بمساكنها كل التليفونات المستخدمة فى المنازل، وهى التى تظهر أسماؤها فى صحيفة الاجتماعيات فى الجرائد عندما يتزوج أبناؤها أو يولد لها مولود ، وفى صحيفة الوفيات عندما يموت أحد أفرادها . وهى أيضا التى تشكل طبقة المستهلكين التى يسعى إليها المستثمرون الأجانب لبيع منتجاتهم الإستهلاكية ، فهم الذين يأكلون هامبورجر ماكدونالد ودجاج الكنتكى ويشربون الكوكاكولا ويذهبون إلى مدن الملاهى الجديدة ويدمنون مسلسلات التليفزيون الأمريكية ويلبسون الجينز وأحذية

أديداس ويستمعون إلى موسيقى الروك الصاخبة ويلفون أطفالهم الصغار فى «كافولات» صناعة چونسون ويغسلون أسنانهم بمعاجين أمريكية الصنع والاسم . وهؤلاء كذلك هم الذين جندت الحكومة أجهزتها لخدمتهم ، تمد لهم خطوط التليفون وتقوم بتوسيع الشوارع لسياراتهم ، بل وتزيد على كل ذلك فتبنى لهم الڤيلات الفاخرة على الشاطئ الشمالى غرب الإسكندرية وتهذب لهم الشاطئ حتى يصبح بحيرة هادئة وتمد الشاطئ بالمياه العذبة والكهرباء وخطوط التليفون وكابلات التليفزيون عبر مئات الكيلومترات .

وتتفاوت دخول هذه الكتلة الطافية تفاوتا كبيرا . فعلى قمتها تقع شريحة صغيرة بالغة الثراء ، قدرتها بحوالى المليون فرد ينتظمون فى مائتى ألف عائلة ويمثلون أقل من ٢ ٪ من جملة سكان مصر ويحصلون على أكثر من ٤٠٪ من مجمل الدخل القومى ، وفى أدناها تقع شريحة أخرى قدرتها بحوالى ٣,٥ مليون فرد ينتظمون فى حوالى ٧٠٠ ألف عائلة . وهؤلاء من «المستورين» الذين يكدحون لسد متطلبات الحياة التى يمكن أن تطفو بهم على السطح ، يعيشون على دخل شهرى بين ٥٠٠ إلى ٢٠٠٠ جنيه بمتوسط ١٢٠٠ جنيه شهريا . وهذه الشريحة التى تمثل حوالى ٦٪ من مجمل السكان يحصلون على ٩٪ من مجمل الدخل القومى . وبين هؤلاء وشريحة القمة ، تقع شريحة أخرى قدرتها بحوالى ٣,٥ مليون فرد ينتظمون فى ٧٠٠ ألف عائلة ويعيشون على دخل بين ٢٠٠٠ ، ٧٠٠٠ جنيه شهريا بمتوسط ٤٠٠٠ جنيه ، ويحصلون على

٢٥٪ من مجمل الدخل القومى على الرغم من أنهم يمثلون ٦٪ من إجمالى سكان مصر .

وبطبيعة الحال ، فإن هذه الأرقام تقريبية بنيت على أساس حجم ونمط الاستهلاك ، وعلى أساس ملكية السيارات واستخدامات التليفون المركب بالمنازل وغير ذلك من السلع المعمرة والمكلفة ، وكذلك على أساس عدد الذين يعلن عن وفاتهم بصحيفة «الأهرام» عندما يموتون ، فقد أصبح الإعلام اليوم مكلفا لا يقدر عليه أغلب إن لم يكن كل أعضاء كتلة البشر الغاطسة . ففى مصر أقل قليلا من مليون سيارة خاصة هى بالقطع ملك الشريحتين العاليتين فى هذه الكتلة الطافية - والسيارات الجديدة (على الزيرو) التى تباع فى مصر هى فى حدود الثمانين ألفا وهى بالقطع التى يشترى الجزء الأكبر منها أعضاء الشريحة العالية والتى نفترض أنها تغير سياراتها مرة كل عامين أو ثلاثة على الأكثر . وفى مصر ١,٧ مليون تليفون ٤٠٪ منها مركب فى مكاتب الحكومة وشركات القطاع العام والخاص والمتاجر والمكاتب ، والباقى مركب بالمنازل وهى فى حدود المليون تليفون والتى نفترض أنها مركبة فى منازل الشريحتين العاليتين فى هذه الكتلة الطافية . أما أعضاء الشريحة الدنيا فى هذه الكتلة ، فهم فى الأغلب الذين ينتظرون الحصول على تليفون عندما يحل الفرج وتأتى الخطوط الجديدة التى يعلن عنها بين الحين والآخر . ويبلغ عدد الذين تعلن وفاتهم فى جريدة الأهرام ثلاثين ألفا فى السنة يمثلون ٨٪ من جملة الوفيات بالقطر المصرى ،

وهذه هى بالضبط نسبة الشريحتين العاليتين فى كتلة البشر الطافية التى تستطيع أن تتحمل نفقات إعلانات الوفيات الباهظة .

(أ) الشريحة العليا من كتلة البشر الطافية :

هذه الشريحة المكونة من حوالى مليون فرد هى شريحة بالغة الثراء: فهى التى تستورد لها السيارات الفارهة ، وهى التى تدفع عشرين جنيها للهطة من «الأيس كريم» أو «الزبادى» الذى يستورد خصيصا لها، وهى التى تقيم الأفراح الباذخة حيث تبعثر الأموال دون حساب ، وهى التى يدفع أفرادها ملايين الجنيهات في شراء شقق تبنى خصيصا لهم وهم الذى يملكون القصور فى جزيرة «مايوركا» «وكان» و«كاليفورنيا» ويضعون يخوتهم فى موانى مونت كارلو وسان مارينو . وقد ذكرت جريدة الأهرام الاقتصادى (بتاريخ ٢٣/١٠/١٩٩٤) اثمان شقق عمارة جديدة يجرى بناؤها بالقاهرة ، بين النيل وشارع الجيزة أمام حديقة الحيوان ، تباع فيها الشقة مساحة ٤٠٠ متر مربع بسعر ٦,٥ مليون جنيه ثم تأخذ أثمـان الشقق فى الارتفاع كلما زادت مساحة الشقة حتى تصل إلى ٥٤,٥ (أربعة وخمسين مليون جنيه ونصف المليون) للشقة مساحـة ٣٢٠٠ متر مربع (أى مساحة ثلاثة أرباع الفدان) ! وهم الذين يشكلون زبائن الصناعات الجديدة التى ظهرت لترضيـة شهيتهم فى الانفاق ، كصنـاعة المطاعم حيث تصل سعر الوجبة الواحدة خمسمائة جنيه ، والكباريهـات حيث تبعثر الأموال بلا حسـاب ، والأندية التى يبلغ اشتراكهـا آلاف كثيرة من

الدولارات ، والفنادق المعدة لكى يتدارى فيها من أراد القيام بمغامرة طائشة ، ومكاتب الديكور والاستيراد الاستهلاكى الفاخر وغير ذلك من أبواب الإنفاق .

وهذه الشريحة الصغيرة من سكان مصر ، والتى يقل عددها عن ٢٪ من مجمل السكان ، تستهلك أكثر من ٢٠٪ من جملة الكهرباء المستخدمة فى منازل الجمهورية ، وهناك عمارة واحدة - هى عمارة مصر إيران أمام حديقة الحيوان بالجيزة - تستهلك حوالى ٢ فى الألف من جملة الكهرباء المستخدمة فى كل عمارات ومنازل الجمهورية من الاسكندرية وحتى أسوان !

ومعظم أعضاء هذه الشريحة محدثو ثروة ، جمعوا أموالهم أو جلها فى العقدين الأخيرين ، وهم فى أغلبهم لاينتمون إلى طبقات عريقة الثراء . وباستثناء عدد قليل منهم ، قد لا يصل إلى الآلاف القليلة ممن جمعوا ثروتهم بالعمل الإنتاجى المثمر كبناء المصانع أو منشآت السياحة أو تجارة المال ، فإن الباقين جمعوا الثروة بطرق مريبة مثل :

(١) تجارة الاستيراد ، والتى تدر أكبر الأموال عندما تتم عن طريق التهريب أو الغش أو الاتجار فى الممنوعات ، ومن أمثلة هذا النوع من الأثرياء من وردت أسماؤهم فى قائمة وزير الصحة التى أعدها فى سبتمبر ١٩٩٤ بغرض ايقاف أعمالهم بعد أن تكرر قيامهم باستيراد «الأغذية الفاسدة - غير الصالحة للاستهلاك الآدمى» وتوزيعها فى مصر.

(٢) تجارة الأراضى التى ازداد سعرها فى العقدين الأخيرين ، وهذه تدر أكبر الأموال عندما تكون الأراضى قد «لطشت» دون ثمن يذكر من أملاك الدولة .

(٣) تحصيل العمولات من الشركات الأجنبية الموردة لمختلف البضائع والمعدات التى ترد إلى مصر . وتزداد الحصيلة عندما تكون الصفقات كبيرة ، كصفقات الأسلحة وتورد الصحف الأمريكية بين الحين والآخر أخبار قضايا رفعت ضد شركات أمريكية لدفعها رشوة لموظفين فى الحكومة المصرية « لتسليك» أمورها طبقا لقانون أعمال الفساد (Corrupt practices) الأمريكى .

(٤) أعمال المقاولات ، والتى تدر أكبر الأرباح عندما تكون المبانى والمنشآت ضخمة ، وهى عادة ما تتم ترسية عقودها على مقاولين بعينهم لهم علاقات وثيقة بالسلطة المانحة .

(٥) التوكيلات التجارية ، والتى تكون أرباحها كبيرة إذا ما تم احتكار أصنافها وصفى المنتج المماثل المحلى ، وهذه عمليات لا يمكن تنفيذها دون أن يكون للوكيل نفوذ .

(٦) عمليات النصب «التهليب» ومن أمثلتها ما تكشف خلال السنوات الأخيرة مثل عمليات توظيف الأموال والاقتراض من البنوك دون وجه حق والاختلاس وغير ذلك من ألوان الفساد التى أصبحت أخبارها تشكل بابا ثابتا فى الصحف .

هذه أمثلة من كثير لجمع الثروة أوردتها لكى أبين الموقف الصعب

الذى نجد فيه القلة الشريفة التى جمعت مالها عن طريق العمل المثمر والتى كان من المأمول أن تعطى قيادة عملية التنمية .

فمثل هذا المناخ العام لا يساعد على إطلاق طاقات الشرفاء ، فلا غرو أن جاءت حصيلة عشرين سنة من الانفتاح هزيلة فى ميدانى الصناعة والزراعة . فتنمية الإنتاج الصناعى فى مصر فى سنة ١٩٩٣ ، طبقا لتقرير البنك الدولى ، لاتزيد على ١٠ بلايين دولار لم ينتج منها القطاع الخاص إلا ربعها ، ولم يهيئ هذا القطاع من الوظائف الجديدة على مدى العشرين عاما الماضية إلا أقل قليلا من ٤٠٠,٠٠٠ وظيفة . ونفس الشئ يمكن قوله عن الزراعة التى لم تزد قيمة انتاجها السنوى على ٦ بلايين دولار فى سنة ١٩٩٣ ، فالأراضى التى استصلحت كادت أن تساوى الأراضى التى أهدرت بسبب سوء الاستخدام أو بسبب استخدامها فى البناء . وفيما عدا تجارب زراعية هنا وهناك ، لاستخدام أكثف وأفضل للأراضى فإن الزراعة المصرية فى حالة لن تسمح لها بمجابهة التحديات التى سيأتى بها القرن القادم عندما يتم التطبيق الكامل لاتفاقيات التجارة الحرة .

الأمثلة التى أوردتها فيما سبق لجمع الثروة ، والتى استخدمتها أغلبية أعضاء هذه الشريحة العالية فى جمع ثروتها ، توضح السبب الذى من أجله تعيش هذه الشريحة يومها لا تفكر فى الغد ولا تستثمر فى المستقبل وتحتفظ بالجزء الأكبر من أرصدتها فى الخارج . فكما رأينا ، فإن ثروة غالبية هذه الشريحة لم تأت عن طريق العمل المثمر بل

أتت عن طريق صفقات «علي الطائر» مرتبطة بظرف آني كنجاح عملية للتهريب أو الغش أو الحصول على مقاولة بسبب علاقة قد لا تدوم مع السلطة أو القيام بعملية اختلاس يخشى انكشافها - يصعب لذلك تصور أن يكون لهذه الشريحة دور في الخدمة العامة . فباستثناءات قليلة ، فإننا لانعرف من أعضاء هذه الشريحة أحدا أوقف مالا لأغراض البر أو لخدمة العلم أو الفن أو الثقافة أو لأى غرض عام آخر .

(ب) الشريحة الوسطي من كتلة البشر الطافية :

هذه الشريحة المكونة من ٧٠٠ ألف عائلة يشكلون ٦٪ من مجمل السكان ويستحوذون على ٢٥٪ من مجمل الدخل القومي . وهى شريحة مقبولة الثراء ، مما يؤهلها لعيش طيب، وتتراوح دخولها بين ٢٠٠٠ ، ٧٠٠٠ جنيه فى الشهر ، ومعظم أعضائها من تجار التجزئة وأصحاب المحلات الخدمية الراقية ، كالمطاعم ومحلات تصفيف الشعر ، وبها أيضا عدد لايتعدى بضعة آلاف من رجال المهن الناجحين من المحامين والأطباء والمهندسين والمحاسبين ، وكذلك عدد صغير لا يتعدى بضعة آلاف من رجال البيروقراطية المصرية الذين تتيح مواقع عملهم استغلال نفوذهم لزيادة دخلهم أو ممن شملهم عطف وزير قطاع الأعمال بتعيينهم فى مجالس إدارة الشركات العامة للمشاركة فى أرباحه . وبالإضافة إلى هؤلاء ، فإن هذه الشريحة تضم بعض قيادات مشكلى الرأى العام مثل كبار الصحفيين ورجال الإعلام وأساتذة الجامعات والذين أصبحت

أمـامهم فرصة زيادة دخولهم نتيجة اهتمام الحكومة والمنظمات الدولية والدول المانحة للمعونات ودول النفط المحيطة باحتضانهم للدعوة إلى ما يريدون إيصاله إلى الرأى العام .

وهـذه المجموعـة الأخيـرة ، على الرغـم من قلة عددها الذى لايتعدى آلافا قليلة ، أكثر المجموعات ضجيجا وأعلاها صوتا وأعمقها تأثيرا .. فهم الذين يملأون أعمدة الصحف ويترددون على التليفزيون ويعلمون طـلاب الجامعـات الذين سيقودون البـلاد فى مستقبـل الأيـام . وهـم قادرون على إيصال أى فكر والدعاية لأى هـدف ولأى دولة أو فرد فيها . ومن أجل ذلك تتدفق عليهم الأموال من كل جانب ، إما فى وضـح النهـار وتحت بصـر الحكومـة وبرضاهـا أو تحت الموائد وبعيدا عن الأنظار . ولا يعـرف بالضبـط حجم هـذه الأمـوال ، وإن كان الأستاذ محمد حسنين هيكل قد قدرها فى مقاله بالأهرام بتاريخ ٩٤/٤/٢٢ بحوالى المائـة مليون دولار سنويا . ولم تأت الحكومة بأى رقم عن هذه الأموال وإن كان من اللافت للنظر ظهور عدد كبير مما يسمى بالجمعيات غير الحكومية (والتى اصطلح على تسميتها NGOS فى الرطانة الدولية» التى تمولها الهيئات الدولية بموافقة الحكومة المصرية ، وذلك بغرض ترويج أفكار جديدة لها صفة العالمية ، لم يألفها المصريون بعـد ، كالحفـاظ على البيئة أو تمكـين المرأة أو عمـالة الطفـل أو تنظيم الأسرة . على أن أكثر الأموال تذهب إلى ترويج فكرة الخصخصـة ، فقد خصصت هيئة المعونة الأمريكيـة اثنى عشر مليون

دولار للترويج لها كما خصصت المجموعة الأوروبية ٥٠ مليون دولار منحة مقدمة للحكومة المصرية «لتشجيع عمليات الخصخصة وتوسيع قاعدة الملكية الخاصة»، كما جاء فى آخر الاتفاقيات التى وقعتها الحكومة فى شهر سبتمبر سنة ١٩٩٤ (الأهرام فى ١٧/٩/١٩٩٤) .
أما عن كيفية انفاق هذه الأموال ، فإن أغلبها يعود إلى مكاتب الدول المانحة فى صورة عقود لإعداد تقرير عن هذه الأمور يستعان فى إعداده بمكاتب محلية تدفع لها مكافآت مجزية ويتم فيها عقد ندوات يستمع فيها الحاضرون إلى محاضرات يديرون حولها نقاشاً ويتناولون خلالها أفضل المشروبات والأطعمة، ثم يرفعون تقاريرهم التى لا يلتفت إليها أحد! فالأصل فى كل هذا ليست الدراسات، بل فى جعل كلمة الخصخصة متواردة وشائعة ومقبولة بين الناس، وكذلك فى تنشيط الاقتصاد والاغداق على شركات الطيران والفنادق وأرضاء المثقفين بمكافأتهم حتى لا يتململون.

وأثر هذه المكافآت التى تكاد ترقى إلى مستوى الرشاوى هو فى إلغائها الحاجة إلى البحث العميق والجاد وإلى التفكير المستقل. فلم يعد مطلوبا، فى مثل هذا المناخ الذى خلقته هذه المنح إلا ترديد أفكار بعينها جاءت معدة وجاهزة من خالعى المنح لترديدها والدعوة لها. وقد أدى هذا الوضع إلى سقوط مصداقية وسائل الاعلام والكثير من القيادات وانحدار مستوى الجامعات ومراكز البحث.

(ج) الشريحة الدنيا من كتلة البشر الطافية:

. هذه الشريحة المكونة من ٦٪ من جملة السكان، والتى تحصل على ٩٪ من مجمل الدخل القومى، تعيش فى كفاح وقلق خوفا من السقوط فى الكتلة البشرية الغاطسة. وهى تعيش عيشة «مستورة»، وهى الشريحة المكونة من كبار موظفى الحكومة الذين لايحصلون على دخل إضافى، وباقى رجال الاعلام والجامعات الذين لايحصلون على جزء من كعكة المعونات الخارجية - سواء عن عمد أو عن عجز - كما تضم شرائح أخرى من صغار التجار والمزارعين. إلا أن تأثير هذه الشريحة قليل.

فى نهاية هذا البحث، أريد أن أؤكد أن شيئا من الحقائق التى وردت فيه لم يكن من عندى. فقد وردت من قبل فى تقارير الحكومة أو تحقيقات الصحف القومية وليس لى فيها من فضل سوى محاولتى وضعها فى إطار واحد حتى يستطيع المصريون أن يروا صورتهم الحقيقية والكاملة. ولى أمل فى أن تفيق النخب من الوهم الذى تعيشه حتى يمكن البدء فى الإصلاح، وهنا يجب التأكيد على أن أول شروط العمل أو حتى البدء فى الكلام عنه هو فى إزالة هذا الوهم. فعلى الرغم من أن هذه النخب، كباقى جموع الشعب الغاطسة، تعرف قدر المشاكل التى تواجه مجتمعنا، كما يبدو ذلك واضحا مما جمعناه من حقائق فى هذا الفصل من مصادرها هى، فإن الكلام والتصدى لهذه المشاكل مباح لها فقط عيش فى وهم أنها تفعل كل مايلزم لحل هذه المشاكل وأن كل

نقد لحلها أو اقتراح بديل لها هو من قبيل المزايدة والمتاجرة فى متاعب الناس. وإنك لتستطيع أن ترى ذلك فى أحسن صورة فى جلسات مجلس الشعب، فما أن يتم نقد عمل أو إبراز مشكلة إلا وينبرى والوزير المختص لكي يبين ما قامت به وزارته لمجابهة هذه المشكلة وحلها - ولم يجد لذلك مجلس الشعب أبدا وزيرا واحدا قصر فى عمله إذ لا توجد مشكلة واحدة لم تقم الحكومة بحلها.

وهذا هو الوهم الذى أقصده لأنه لا يمنع فقط البدء في الاصلاح الحقيقى بل وحتى الحوار ذاته !

وإذا لم تفق النخب من هذا الوهم فإن الأمل يكاد يكون معدوما فى تغيير الحال الذى يبدو أنه سيستمر طالما ظلت ملكية الصحف ووسائل الإعلام على ماهى عليه، وطالما تم تدبير الانتخابات العامة على الشكل الذى تدبر به فى الوقت الحاضر . ولذا ، فإن أولى خطوات الإصلاح يأتى بتأكيد حرية الصحافة والإعلام وما يتبع ذلك من تقنين ضرورة الإعلام عن مصادر التمويل التى تستخدم فى الترويج للأفكار وإشاعة الشفافية وحرية المعرفة ، فى جعل الحاكم مسئولا عن عمله ومتقبلا للرأى الآخر ، وفى الحد من الفساد الذى لايجد سندا له أفضل من حالة التعتيم وحجب المعلومات التى تسود فى الوقت الحاضر .

وإذا ما تحقق ذلك ، فسيكون من السهل الاتفاق على خطط التنمية المادية والبشرية التى يمكن أن تقرب بين كتلتى البشر الغاطسة

والعائمة، واللتين تعيشان في عالمين مختلفين لايبدو وأن بينهما شيئا مشتركا حتى يعم السلام الاجتماعي ويعاد بناء الأمة الواحدة والمتراصة.

وكلى أمل أن يحظى اقتراحى هذا بالجدية اللازمة فهى نصيحة مخلصة لأهل النخب من واحد قضى عمره فى الخدمة العامة وليست له أية مصالح أو مطالب من أى نوع كان فى مصر . وعندما أطلب أن يؤخذ اقتراحى هذا بالجديـة ، فإنى أقصد استبعـاد حملة القماقم الذين يروجـون الأوهام بأن مصر تعيش أزهى عصور الديمقراطية أو أن «اقتصـادها يمر فى هذه المرحلة بأزهى عصوره» (راجع حديث وزير الدولـة د. يوسف بطرس غـالى فى الأهرام ١٩٩٤/٨/٢٤) فالموضوع جاد .

كما أن أملى كبير فى ألا تؤجل النخب دعـوتى إلى البـدء فى عملية الإصلاح الديمقراطى أخذا بما قامت به الصين التى وضعت قضية التنمية سابقة على قضيتى الديمقراطية وحقـوق الإنســان فشتان بين الحالتـين، ففى حالة الصين فإن لدى نخبهـا مشروعا تنمويا متكاملا وواضح المعالم والأهـداف وطرق التنفيذ ، كمـا أن لديها القيادة الجـادة التى تعمل لإطلاق طاقات شعبها والمستثمرين منهم والتى لها رؤية اجتماعية واضحـة . وشتان بين هذا وحال مصر التى لا يؤمـل فى أن يصل إلى قيـاداتها المؤهلـين لبنـاء مشروع مماثـل إلا عن طـريق الديمقراطية التى يدفع فيهـا الشعب للمشاركة فى حكم بـلاده.

ولقضية التنمية فى مصر التى يتسبب تعثرها فى استمرار انشطار المجتمع- على الوجه الذى بينته فيما سبق - فى طرف منه قلة تستحوذ على الجزء الأكبر من الدخل القومى، وفى طرفه الآخر أكثرية غاطسة تعيش عيشة مهينة وتنال جزءا صغيرا من الدخل القومى . قضية التنمية هى قضية مصر الأولى التى ينبغى على الحكومة الرشيدة أن تضعها فى أولى اهتماماتها، فهى مفتاح حل مشكلة ضيق العيش لجموع الشعب المصرى التى تشكل ما اسميته فى الفصل السابق كتلة البشر الغاطسة حتى تضمن عيشها دون أن تضطر لدفع أطفالها للعمل أو أن تغترب إلى بلاد تحتاج الإقامة فيها إلى مصادرة جواز سفرها وقبول معاملتها كمواطنين من الدرجة الثانية .

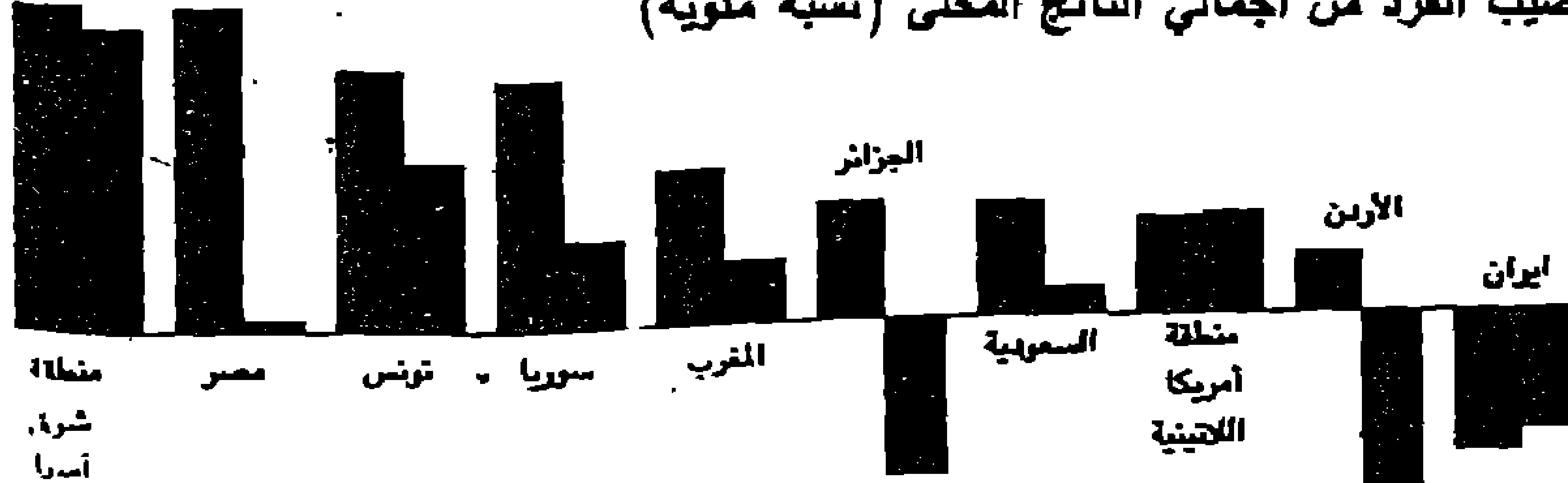
وقضية التنمية قضية متشابكة، لاتتعلق فقط ببناء المصانع وتوسيع رقعة الزراعة ونشر شبكات التليفون والطرق وغير ذلك من عمليات البناء، بل هى تتعدى كل ذلك فهى فى الأساس قضية نظام الحكم وطريقة اتخاذ القرار والمنافذ المتاحة للناس للتعبير عما فى أنفسهم وللمشاركة فى حكم بلادهم . كما أنها قضية العدل الإجتماعى، فليس من الممكن أن يأمل الناس في العيش فى هناء وسلام والفقر والحرمان حولهم في كل مكان . وهى أيضا قضية التعليم، قضية إعداد الناس لتحديث حياتهم وقبول طرق الحضارة الحديثة حتى يستطيعوا مجابهة المشاكل التى ستجلبها بالضرورة عمليات تحديث الإنتاج واتساع شبكة الاتصالات.

وتعيش النخبة الحاكمة فى وهم أنها حققت نجاحات باهرة فى تنمية البلاد، فالإنفاق الاستهلاكى واضح فى كل مكان يؤمونه، والسيارات تملأ الشوارع، والبيوت الفاخرة ترصع شواطئ البحار، والتليفزيونات تنتشر فى أعماق الريف والأموال تسيل فى أيدى الكثيرين بل وفى دوائر الحكومة ذاتها التى أصبحت مبانيها ، وخاصة السيادية منها ، فاخرة ومرصعة بالذهب، وموظفوها ينتقلون فى سيارات فارهة وينفقون عن بذخ في بعثاتهم التى تكاثرت إلى خارج البلاد. ويزداد هذا الوهم رسوخا مع انحسار صيحات الاحتجاج ومظاهر الغضب وارتفاع كفاءة وسائل الإعلام. وحتى كاتب هذه السطور ، وهو الذى يعرف الكثير عن قصور عملية التنمية التي تمت فى مصر، قد تأثر بهذه المظاهر الفاخرة مما جعله يشارك فى وهم أن تنمية ما لابد وأن تكون قد حدثت في مصر خلال الثلاثين سنة الماضية. ولذا، فقد انتابه فزع شديد وهو يراجع المقالين اللذين كتبهما منذ نيف وسبع وعشرين سنة مضت في جريدة الأهرام (١٧، ١٨ ديسمبر ١٩٦٧) عن التجربة المصرية في التنمية وأبعاد المستقبل المصرى واللذين جاء فيهما عند تقييم هذه التجربة – هو ما كانت مصر تقوم به في ذلك الوقت – أن متوسط دخل الفرد ارتفع في نهاية الخطة الخمسية الأولى فى سنة ١٩٦٥ إلى مبلغ وجدت أنه يقارب دخل الفرد فى سنة ١٩٩٤ (بالأسعار الثابتة التى تأخذ في الاعتبار ما حدث من تضخم نقدى خلال هذه الفترة) . وكدت من هول المفاجأة ألاّ أصدق نفسى، فقد عشت عمرى وأنا أسمع عن

الانجازات الكبيرة التى تتم فى مصر منذ ذلك التاريخ والتى تتغنى بها الصحافة ووسائل الإعلام صباح مساء. وقد دفعتنى المفاجأة أن اتحقق من الأمر وأن أعود إلى ما تنشره الهيئات الدولية من بيانات عن الاقتصاد المصرى والدخل القومى الإجمالى فى مصر عبر الثلاثين سنة الماضية، انجازاته ونسب نموه السنوية ومعدلات التضخم التى انتابته. وقد وجدت ذلك في عديد من الكتب التي يصدرها البنك الدولي عن حال الاقتصاد العالمي والتى يسجل فيها معدلات النمو وقيمة الدخل القومى الإجمالي للدول. وفى الكتاب الصغير الذى أصدره البنك بمناسبة انعقاد القمة الشرق أوسطية بعمان فى سنة ١٩٩٥ «اختيار الازدهار فى الشرق الأوسط وشمال افريقيا» والذى لخص فيه تطور نمو الدخل القومى لبلاد هذه المنطقة . والشكل التالى منقول من هذا الكتاب وفيه يظهر أن اقتصاد مصر وبلاد الشرق الأوسط عامة كان ينمو باضطراد خلال الحقبة ١٩٦٠ – ١٩٨٥ بمتوسط ٤,٥٪ فى السنة فى حالة مصر، وهى نسبة تفوق متوسط نمو أية منطقة أخرى فى العالم فى تلك الفترة، ثم انخفض إلى نسبة صغيرة لاتزيد على ٠,٢٪ فى المتوسط خلال الفترة ١٩٨٦ – ١٩٩٤ .

النمو فى الماضى كان سريعا.. لكنه لم يستمر

نمو نصيب الفرد من أجمالي الناتج المحلى (نسبة مئوية)



ملاحظة : تضم منطقة شرق آسيا الصين . وهونغ كونغو . واندونيسيا. وجمهورية كوريا. وماليزيا. والفلبين. وسنغافورة. وتايلند. وتضم منطقة أمريكا اللاتينية الأرجنتين. وبوليفيا . والبرازيل . وشيلى . وكولومبيا . واكوادور. وباراغواى. وبيرو. وأوروغواى . وفنزويلا. وتم حساب معدلات نمو اجمالى الناتج المحلى من المعادلة التالية :

نصيب الفرد من إجمالى الناتج المحلى فى نهاية السنة	١
نصيب الفرد من اجمالى الناتج المحلى فى بداية السنة	عدد السنوات

المصدر : بيانات البنك الدولى .

رسم منقول من كتاب
«من أجل مستقبل أفضل : اختيار الازدهار فى الشرق الأوسط وشمال أفريقيا»
يبين ارتفاع معدلات النمو فى مصر وبلاد أخرى يبين ارتفاع المعدلات فى الفترة ١٩٦٥ – ١٩٨٠ وتراجعها فى الفترة ١٩٨٦ – ١٩٩٤ .

ويخفى هذا الشكل حقيقة أن فترة النمو التى حدثت فى مصر بين سنتى ١٩٦٠ و ١٩٨٥ لم تكن نتيجة سياسة واحدة على طول الفترة، بل كانت نتيجة سياستين مختلفتين تماما من حيث الهدف والوسيلة. ففى الفترة ما بين سنة ١٩٦٠ وسنة ١٩٧٢، كانت مصر تتبع سياسة للتنمية تعتمد على مواردها الذاتية دون اللجوء إلى الاقتراض الخارجى إلا فى أضيق الحدود وتهدف إلى زيادة القدرة الانتاجية للبلاد وتوزيع فوائدها على أكبر عدد من الناس. وفى الفترة بين سنة ١٩٧٣ وسنة ١٩٨٥، تحولت مصر عن هذه السياسة واعتمدت فى زيادة دخلها القومى على إنفاق ما تدفق إليها من أموال عارضة، جاءتها عن طريق المعونات أو تصدير عمالتها وثروتها المعدنية المدفونة فى باطن الأرض، أو الاقتراض من الدول والبنوك بل والافراد. وقد أدت هذه السياسة إلى رخاء استمر لأقل من عقد واحد جاء بعده كساد هائل عندما توقف أو تباطأ مجيئ هذه الأموال وتقلص سوق العمل خارج البلاد وانخفض سعر النفط وحلت أقساط القروض .

ويمكن لذلك أن نميز ثلاث فترات مرت بها مصر منذ أن بدأت فى التفكير فى عملية التنمية: الفترة الأولى بدأت فى أعقاب تأميم قناة السويس فى سنة ١٩٥٦ واستمرت حتى حرب العبور فى سنة ١٩٧٣، وهى فترة قلقة فى تاريخ مصر الحديث دخلت فيها مصر معارك كثيرة على الجبهتين الداخلية والخارجية ولكنها كانت فترة بناء زادت فيها قاعدة مصر الانتاجية، كما كانت فترة مساواتية

حاولت فيها الحكومة أن تعيد توزيع الدخل وأن تذيب بعضا من الفوارق بين الطبقات .

الفترة الثانية هى الفترة التى كان النمو فيها ناتجا عن نشاطات طفيلية، ولم يكن نتيجة زيادة القاعدة الإنتاجية للبلاد، وهى التى امتدت بين سنة ١٩٧٣ وسنة ١٩٨٥. وفى هذه الفترة، تدفقت الأموال على مصر سواء من العاملين فى الخارج الذين تركوا مصر في هذه الفترة فى اعداد كبيرة أو من القروض التى سهل الحصول عليها. وفيها استطاع عدد من المضاربين زيادة دخولهم زيادة كبيرة، مما أخل بتوزيع الدخل الذى أخذ يتركز فى أعداد قليلة أصبحت تشكل نواة ما أسميتهم بالكتلة الطافية. وقد كان تدفق الأموال على مصر ميسرا حتى ليمكن وصف الفترة على أنها كانت فترة لغواية مصر للسير فى طريق المضاربة وهجر منجزات فترة البناء السابقة .

فترة البناء

تميزت الفترة الأولى، والتى امتدت حتى سنة ١٩٧٢ بتزايد متوسط دخل الفرد فى كل سنوات الفترة إلا فى سنة ١٩٦٧- وهى سنة الهزيمة التى لحقت بمصر فى حربها مع اسرائيل - حين هبط متوسط الدخل هبوطا صغيرا يكاد ألاّ يلحظ . كما تميزت الفترة بمعدل سنوى عالٍ للتنمية بلغ متوسطه على طول الفترة ٥,٦ ٪ .على أن أكبر معدلات النمو حدث فى السنوات التى أعقبت هزيمة سنة ١٩٦٧ حين وصلت إلى أكثر من ٦ ٪ فى بعضها وهى من أعلى نسب النمو التى حققتها مصر فى تاريخها الحديث .

وتبدو هذه الأرقام غريبة على الذين يعيشون فى ضجيج الإعلام المستمر الذى يحاول اقناع المصريين أن بلادهم قد انتهت بعد هزيمة سنة ١٩٦٧. فالحقيقة الواقعة هى أن مصر لم تستسلم للهزيمة بل كانت كلها فى حالة تعبئة كاملة يقف شبابها على جبهة القتال وجموع قوتها العاملة فى المصانع والحقول على أتم الاستعداد للعمل والتضحية، ليس فقط من أجل إزالة آثار العدوان، بل ولبناء مصر المستقبل التى حلموا بها مستقلة ينعم فيها الجميع دون تمييز . وفى هذه الفترة، تبين للقيادة وللكثيرين أن تحقيق هذه الاحلام لن يتم إلا باللحاق بالعصر وعبور الفجوة الحضارية التى تفصلنا عن العالم المتقدم وتحديث الإدارة، وقد تمت بالفعل بعض الإصلاحات فى هذا الإتجاه. كانت الفترة التى تلت هزيمة سنة ١٩٦٧، على الرغم من صعوبتها، فترة مضيئة على عكس مايردده الكثيرون. ففيها زادت إنتاجية العامل وتحسن ميزان مصر التجارى، وفيها أخذ المصريون أعمالهم بجد فقد أفاقوا بعد الهزيمة وشمروا عن سواعدهم عندما رأوا جدية القيادة بعد أن قامت بتطهير الجيش وإعادة بنائه، وأسلمت قطاعى الاقتصاد والصناعة إلى قيادات جادة استعانت فيها بعناصر جديدة ذات تاريخ نظيف. هنا إلتف المصريون حول قيادتهم وأعطوها ثقتهم، وعملوا فى حماس لم تعهده مصر إلا فى فترات متباعدة فى تاريخها الحديث . وقد انعكس هذا الجهد فى التقدم الذى حدث فى مؤشرات الاقتصاد فى تلك الفترة.

وفى هذه الفترة، حدثت التنمية عن طريق زيادة القدرة الانتاجية للبلاد وبنيت فلسفتها على ركيزتين : الأولى أن تكون تنمية مستقلة فى الأساس تعتمد فى تمويلها على ما تستطيع البلاد أن تدبره من أموال، والثانية أن تتوزع فوائدها على أكبر عدد من الناس. كانت الفترة بين سنة ١٩٥٦ وسنة ١٩٧٢ فترة قلقة فى تاريخ مصر الحديث، دخلت فيها فى معارك متصلة على الجبهتين الداخلية والخارجية ، ومهما كان تقييمنا لأحداثها فقد كانت فترة بناء فى عمومها على الرغم من انشغال مصر فيها بالحرب وانفاقها أموالا باهظة لإعداد جيشها. وفى هذه الفترة اعتمدت مصر على مواردها الذاتية ومدخراتها السابقة وما قامت بتعبئة من مدخرات عن طريق تسعير المنتجات الزراعية أو ادخال نظام التأمينات الاجتماعية وما دبرته من قروض قليلة. وفى هذه الفترة استطاعت مصر أن تدخل الحرب وأن تبنى البلاد معا. وفيها دخلت مصر فى ثلاث حروب كبيرة تسببت فى إنفاق أموال باهظة لإعادة بناء الجيش ثلاث مرات ولبناء دشم ومطارات وموان وحوائط للصواريخ ولتدريب الآلاف من شباب مصر على فنون القتال الحديثة . ولسنا هنا فى مجال تقييم هذه الفترة من تاريخ مصر، فقد تختلف الآراء فى أداء القوات المسلحة أو فى حكمة القرارات التى أدت إلى هذه التحركات العسكرية والمعارك المختلفة ، ولكن الشئ الأكيد الذى لايمكن الاختلاف عليه، هو أن مصر استطاعت دون أن تلجأ إلى إجراءات شاذة إلى الانفاق على الجيش بسخاء كبير .

كما قامت مصر خلال هذه الفترة من بناء نفسها فعلى الرغم من هذا الانفاق العسكرى الضخم فقد قامت مصر فيها ببناء السد العالى، ومد خطوط الكهرباء من أسوان إلى الاسكندرية، واستصلحت الأراضى في وادى النيل والوادى الجديد، وأقامت مئات المصانع على أرضها، وكانت بعض هذه المشروعات عملاقة بأى مقياس نتخذه . كان السد العالى واحدا من أكبر السدود العالمية، كما كانت مصانع الحديد والصلب وما لحقها من بناء المناجم فى أسوان ثم فى الواحات البحرية وإنشاء المصانع في حلوان والكبارى وخطوط السكك الحديدية والكهرباء ضخمة بأى مقياس . كذلك كانت الترسانة البحرية ، مصانع الكوك ، مصانع كيما للسماد ، مصانع الورق ، مصانع السيارات ، مجمع الألومنيوم - مشاريع هائلة ، مرة أخرى قد نختلف فى الرأى فى جدوى هذه المشروعات أو فى اقتصادياتها أو فى طريقة إدارتها ، ولكن الشئ الذى لايمكن الاختلاف عليه هو أن مصر استطاعت أن تمول كل هذه المشروعات- وأكثر منها- من عمل أبنائها دون أن تستدين إلا في حدود معقولة تبررها إمكانيات مصر وناتجها القومى .

حقا لقد كانت الفترة بين ١٩٥٦ و ١٩٧٢ فريدة فى تاريخ مصر والعالم، ففيها كانت الحرب الباردة فى أوجها والتنافس بين القوتين الأعظم واللتين كانتا حتى نهاية الفترة متقاربتين فى القوة وإمتلاك ناصية التكنولوجيا- على أشده. وفيها استطاعت بعض دول العالم الثالث الاستفادة من هذا التنافس وذلك عندما قررت قيادة الإتحاد

السوفييتى بزعامة خروشوف، بعد استيلائه على السلطة بالكامل فى سنة ١٩٥٨، أن تفك الحصار المفروض عليها وتكسب أصدقاء جدداً خارج دائرة نفوذها . وقبل ذلك كانت سياسة الاتحاد السوفييتى هى إنفاق فائض أمواله داخل بلاده ، وقصر مساعدته على من يشاركونه ايديولوچيته . ونحن نعلم الآن أن هذا القرار التاريخى لم يكن ممكنا إلا بعد عمليات التصفية التى قام بها خروشوف لأعضاء المكتب السياسى للحزب الذين كانوا يعارضونه وهى العمليات التى استمرت منذ تولى خروشوف سكرتارية الحزب الشيوعى فى أعقاب وفاة ستالين فى سنة ١٩٥٣ وحتى سنة ١٩٥٨ . وفى هذه الفترة مد الإتحاد السوفييتى مصر بالمعدات والخبرة بأقل الأسعار، وزودوها بقروض بفوائد مخفضة، وساعدها فى بناء مشروعاتها الكبرى بدءا من السد العالى ونهاية بالحديد والصلب . وزود جيشها بالمعدات التى جعلت انتصار سنة ١٩٧٣ ممكنا . وقد تمت كل هذه الإنجازات دون أن تستدين مصر أموالا كثيرة، ففى آخر الفترة لم تمثل ديونها أكثر من ٢٥٪ من جملة ناتجها القومى الإجمالى فى سنة واحدة .

فترة الغواية

أما الفترة الثانية التى امتدت من سنة ١٩٧٣ وحتى سنة ١٩٨٥ فقد تميزت بنمو اعتمد اعتمادا يكاد يكون كليا على الأموال التى بدأت تتدفق فى سنوات ما بعد حرب العبور فى سنة ١٩٧٣ وقد استهلكت كل هذه الأموال فى استيراد الكماليات والانفاق الاستهلاكى، مما أثرى عدداً غير قليل من المقاولين والمضاربين فى العملات والأراضى وعمليات

الاستيراد بعملة أو بغير عملة. وفى هذه الفترة قامت مصر بحل مؤسساتها الصناعية، وسمحت بتجريف أراضيها الزراعية واهمال قاعدتها الانتاجية، وكثر الكلام عن خسائر القطاع العام بعد أن اتخذ القرار السياسي باهماله تمهيدا للخلاص منه .

ولا يعرف حتى اليوم السبب الذى دعا القيادة السياسية إلى هذا التغيير الكامل فى فلسفة التنمية، وعما إذا كان وراء هذا التغيير صفقة أريد من ورائها تعويض مصر عن فقد قاعدتها الانتاجية بمنحها المعونات وتسهيل القروض وقبول اعداد كبيرة من العمالة المصرية فى بلاد النفط وتنشيط البحث عن النفط بداخل البلاد. ولكن الحقيقة هى أن حل القاعدة الانتاجية للبلاد قد تزامن مع هذه الأحداث بحيث يمكن القول إن تدفق الأموال إلى مصر فى هذه الفترة كان بغرض تزيين فكرة فك القاعدة الانتاجية للبلاد وغواية النخب للدخول فى العالم الذى كان يجرى اعداده عند حلول السلام مع اسرائيل. فقد بدا للنخب وكأن هذا العالم سيكون مليئا بالأموال السهلة والانفاق الاستهلاكي الفاخر .

كانت الفترة التى أعقبت حرب سنة ١٩٧٣ أكثر فترات مصر ثراء ، ففيها زاد دخلها من البترول الذى تم الكشف عن احتياطيات كبيرة منه تم تصدير جزء كبير منه بأسعار مجزية ، وفيها تم تصدير جزء من العمالة المصرية ، قيل حوالى ربعها ، إلى بلاد النفط المجاورة وإلى غيرها من البلاد . وفيها زادت دخول السياحة وعادت إلى مصر دخول قناة السويس بعد أن كانت قد توقفت لأكثر من سبع سنوات. كما

تدفقت على مصر المعونات الخارجية سواء من الدول الصناعية الكبرى، الولايات المتحدة والمجموعة الأوروبية واليابان، أو من الدول العربية المجاورة .

ولا يعرف بالضبط كمية الأموال التى تدفقت على مصر فى هذه الفترة والكثير منها من الأموال غير المتوقعة أو العارضة windfall، وهى تقدر بين ٢٠٠ و ٢٥٠ مليار دولار منها حوالى ٨٠ مليارا جاءت فى صورة معونات خارجية : من الولايات المتحدة (٣٠ ملياراً) ومن المجموعة الأوروبية ودول أوروبا واليابان (٣٠ مليارا) وبلاد النفط العربية (٢٠ مليارا) وهذا رقم تقديرى بحت لأن معظم الأموال التى تدفعها دول النفط كمنح هى من المنح التى تدفع تحت الموائد ولأشخاص بعينهم وليس لها حساب ، وقد ذهب جزء كبير من هذه الأموال إلى المؤسسة الدينية فى السبعينات لإنشاء المعاهد الدينية ونشر أفكار تيار الإسلام السياسى الذى كانت البلاد العربية تدعمه خلال الحرب الباردة بتوجيه من الولايات المتحدة الأمريكية بغرض محاربة الشيرعية وتيارات اليسار السياسى المختلفة) - كما وصل مصر خلال هذه الفترة مالا يقل عن ٦٠ مليار دولار تحويلات العاملين بالخارج، و١٥ مليار دولار من بيع البترول، و ١٠ مليارات دولار من تحويلات السياحة. كما اقترضت مصر خلال الفترة حوالى ٤٥ مليار دولار أعفى منها جزء يقل عما دفع فى خدمتها. وهذه الأموال العارضة لاتشمل الأموال التى وفدت إلى مصر للإستثمار فيها والتى لم تزد عن ٢,٣ مليار دولار على طول هذه الفترة .

ولا يعرف بالضبط فى أى المجالات أنفقت هذه الأموال العارضة والتى جاءت على غير انتظار . إلا أنه يمكن القول ان جزءاً منها، لايزيد عن ١٥ مليار دولار، قد أنفق في بناء المناطق العشوائية حول المدن وفى الريف لإسكان حوالى ٢٠ مليونا من كتلة البشر الغاطسة، بواقع حجرة واحدة لكل ستة منهم، وفى شراء بعض المعدات الترفيهية لهم كالمراوح أو الغسالات أو بعض معدات الإنتاج الصغيرة كسيارات نقل الركاب أو البضائع أو عدد العزق أو لوازم الورش الصغيرة . أما باقي تحويلات العاملين من كتلة البشر الغاطسة فقد نهبت وحول معظمها إلى الخارج عن طريق شركات توظيف الأموال .

كما ذهب جزء كبير من المنح والقروض فى بناء البنية الأساسية وعلى الأخص شبكات الكهرباء التى زادت قدرتها التوليدية من ٤,٤ مليون كيلووات فى سنة ١٩٧٠ إلى ١١,٧ مليون كيلو وات فى سنة ١٩٩٠، وشبكات التليفون التى زادت خطوطها من ٣٥٢ ألف خط فى سنة ١٩٧٠، إلى ١,٧ مليون خط في سنة ١٩٩٠ ، وشبكات الصرف الصحى فى المدن والتى زادت طاقتها ٢٠٢ مرة عما كانت عليه فى سنة ١٩٧٠ ولمد بعض الطرق والتى زادت أطوالها من ١٠ آلاف كيلومتر فى سنة ١٩٧٠ إلى ١٤,٦ ألف كيلومتر فى سنة ١٩٩٠ . وقدرت الأموال التى انفقت على البنية الأساسية بحوالى ٥٢ مليار دولار، تبعا للبيانات التى جاءت من مركز المعلومات واتخاذ القرار برئاسة مجلس الوزراء (الأهرام ١٣ يوليه ١٩٩٣) ، وهو مبلغ كان من الممكن أن يقل كثيرا لو

أن مصر كان لها من الفنيين من يستطيعون قراءة العروض المقدمة وفهمها وتقييم أثمانها الحقيقية والذين كان من الممكن أن يدرسوا بدائل أقل كلفة وأكثر كفاءة عما تم . على أن أكبر الانفاق تم فى البناء، لخدمة كتلة البشر الطافية المحدودة العدد، وقد انتشرت المباني في كل مكان على أطراف المدن وفيما سمى بالمدن الجديدة وعلى شواطئ البحار ، وهى مبان ظل أكثر من نصفها خاليا ودون استخدام. كما بنيت قاعات للمؤتمرات وملاعب أوليمبية وقصور جديدة للحكام وأصلحت قصور الملك القديمة . كما تم انفاق أموال ضخمة فى استيراد السيارات الفارهة وغير الفارهة حتى غصت الشوارع بها ، وفى استيراد الكثير من الأجهزة الاستهلاكية ، هذا بالاضافة إلى ما أنفق على تدعيم أجهزة الأمن وبناء السجون وتزويد القوات المسلحة بأحدث الأسلحة .

وأغلب الظن أن جزءا كبيرا من هذه الأموال العارضة قد وجد طريقه إلى الخارج ، وقد ذكر الدكتور إسماعيل صبرى عبدالله فى مقال له بالأهرام بتاريخ ١٥ فبراير ١٩٩٤ بناء على دراسة قام بها خبيران من البنك الدولى كلفتهما مجموعة المفاوضات المتعددة الأطراف، التى انبثقت عن مؤتمر مدريد الشهير المختصة بالتعاون الاقتصادى فى الشرق الأوسط، أن جملة استثمارات المصريين فى الخارج بلغت حوالى ٨٢ مليار دولار ، وقد تم استخراج هذا الرقم من واقع تحليل موازين المدفوعات (القروض الجارية + الاستثمار الأجنبى المباشر) ناقصا عجز حساب المدفوعات والزيادة فى الاحتياطيات – وأحسب أن هذه المليارات قد جاءت من تلك الأموال العارضة .

فترة السقوط

ولم يكن مقدرا لفترة الغواية والأموال السهلة أن تستمر. فما أن حل عقد الثمانينات حتى جفت منابع الكثير من هذه الأموال، بعد أن تقلصت أسعار النفط وانكمشت أسواق العمل فى بلاد النفط، وجفت منابع القروض بل وحلت أقساط السابقة منها. وفى هذه الفترة لم تحقق مصر معدل نمو يفوق معدل نمو السكان إلا فى سنوات قليلة. وطبقا لبيانات البنك الدولي، فقد بلغ معدل النمو فيما بين عامى ١٩٨٠ و ١٩٩٢ حوالى ١,٨٪ فى الوقت الذى بلغ فيه نمو السكان حوالى ٢,٦٪.

وقد شهدت الفترة معدلات نمو بالسالب فى سنة ١٩٨٦ (-٣,٢٪) وسنة ١٩٨٧ (-٩,٠٪) كما هبط معدل النمو فى سنتى ١٩٩٢و ١٩٩٣ إلى ٣,٠٪ ، ٥,٠٪ (التقرير السنوى للبنك الدولى ١٩٩٤) . بلغ التضخم مبلغه فى الثمانينات ووصل متوسطه فى الفترة بين عامى ١٩٨٠ و ١٩٩٢ حوالى ١٣,٢٪ .

ومما يزيد فى قتامة الصورة، هو ما حل بالبلاد خلال سنوات هذه الفترة من تغير فى الطريقة التى تتم بها توزيع الثروة بحيث أصبح معظم الدخل فى نهايتها مركزا فى فئة قليلة من السكان مما ضاعف من معاناة كتلة البشر الغاطسة .

وقد حدث كل ذلك بالزغم من أن هذة الفترة لم تتميز بأى انفاق غير عادى فقد كانت فترة سلام لم تدخل فيها مصر حربا واحدة، كما قلّت فيها مهام القوات المسلحة نتيجة عملية السلام مع اسرائيل وتحييد

شبه جزيرة سـيناء، كما قل فيها دور الحكـومة والقطـاع العام فى بناء المصانع والإسكان واستصلاح الأراضى التى ترك الجزء الأكبر منها للقطاع الخاص. وباستثناء بعض الإنجـازات فى ميدان الاتصـالات والبنية الأساسية وشبكات الكهرباء، فإن المرء لايستطيع أن يقارن هذه الإنجـازات، من حيث تكلفتها، بانجازات الفترة السابقة بأى حال .

ما الذى حدث لمصر ؟

والسؤال الذى يطرح نفسه أمام هذه البيانات هو: ما الذى حدث لمصر لكى ينقلها من حال النمو الذى شهدته فى الفترة التى سبقت سنة ١٩٧٢ إلى حال الركود الذى تعيشه الآن ؟

فى فترة النمو، كنت قد كتبت مقالى عن «أبعاد المستقبل المصرى» أستشرف فيه حال مصر عند نهاية القرن العشرين فى حال استمرارها فى تحقيق معدل للتنمية فى حدود ٧٪، وهو المعدل الذى كنا قد حققناه فى ذلك الوقت، متصورا أن الدخل سيتضاعف ثلاث مرات حتى نهاية القرن حتى يصل دخل الفرد حوالى الأربعة آلاف دولار فى السنة للستين مليونا من البشر الذين قدرت أنهم سيسكنون أرض مصر فى ذلك الوقت. وها نحن نشارف آخر القرن العشرين ولم يتعد دخل الفرد إلا سدس ماكنا نطمع أن يصله !

ما الذى حدث لمصر حتى جعلها تفقد مرة أخرى فرصة الإنطلاق لحياة أفضل وكأن التاريخ يعيد نفسه؟ ففى منتصف القرن التاسع عشر، أتيحت لمصر فرصة تراكم الأموال عن طريق بيع القطن الذى

كانت تنتجه والذى ارتفع سعره وتزايد الطلب عليه مع اندلاع الحرب الأهلية الامريكية وامتناع وروده منها، وهى أموال كان من الممكن أن تستثمر فى المستقبل وتضع مصر على طريق الانطلاق إلى حياة أفضل. ولكن الذى حدث هو أن هذه الأموال تبددت فى مظاهر آنية فارغة واستدانت مصر فوقها مما أفقدها استقلالها .

وفى هذا القرن -العشرين- أضاعت مصر فرصة أخرى ، ففى سبعينياته كانت على شفا الإنطلاق بعد أن أتاح لها ظرف تاريخى فريد بناء قاعدة صناعية وتدريب كادرات كثيرة فى الإدارة والهندسة والعلوم، كما أتاح لها النصر العسكرى فى سنة ١٩٧٣ اقرار السلام الذى جعل الأموال تتدفق عليها من كل حدب .

فما أشبه الليلة بالبارحة! فها نحن نرى الأحفاد يبددون الأموال التى جاءت اليهم دون نظر إلى المستقبل، بل ويزيدون على ذلك الاستدانة كما فعل أجدادهم فخسروا استقلالهم ليس بسبب الغزو العسكرى كما حدث مع الاجداد ولكن بالخنوع لإرادة البنوك الدولية التى أصبح الحج اليها لالتماس المعونات أمرا عاديا إذ لايكاد ينقطع سيل الوزراء والموظفين العموميين المصريين الذين يفدون إلى واشنطن، متنقلين مرة بين مكاتب وزارة الخارجية ووزارة الدفاع وهيئات المعونة ومرة بين مكاتب صندوق النقد والبنك الدولى، حاملين ما يبدو أنه طلب مصر الملح إعفائها من بعض الديون أو تخفيض نسبة الفائدة على بعضها الآخر ولزيادة المعونة أو لنقلها من بند إلى آخر أو لمدها بقرض جديد .

وماذا بعد ؟

فى هذا الفصل عرضت البيانات الخاصة بخطط التنمية، كما تنشرها الحكومة المصرية والهيئات الدولية، بغرض إيضاح الصورة الحقيقية لإنجازات هذه الخطط فى اطارها التاريخى وبغرض فرز الحقيقة من الوهم فيما تحقق ولم يتحقق من هذه الخطط وفى إبراز بعض العبر وإصلاح بعض المفاهيم التى استقرت عبر سنوات طويلة من الدعاية المستمرة . وأولى هذه الحقائق هى أن التجربة التنموية التى حققت بعض النجاح خلال الأربعين عاما الماضية هى التجربة التى تمت فى ستينات القرن العشرين والتى جرى التخطيط لها مركزيا ، والتى تمت إدارتها وتمويلها بواسطة الدولة والتى أتت معظم أموالها من المدخرات المحلية ومن الفائض المتاح . وأن أفضل سنى هذه التجربة كانت السنوات التى تلت هزيمة سنة ١٩٦٧ عندما جدت الدولة فى تحسين الإدارة وتطهيرها والاستفادة من أحسن الخبرات المتاحة . ومما هو جدير بالذكر، أن التجربة الوحيدة الأخرى فى تاريخ مصر الحديث والتى حققت نجاحا هى تجربة محمد على فى أوائل القرن التاسع عشر والتى تتماثل إلى حد كبير مع تجربة ستينات القرن العشرين فى الكثير من المظاهر . وبالرغم من ضجيج الإعلام الذى يحاول أن يقنع المصريين أن بلادهم قد ضاعت بعد هزيمة سنة ١٩٦٧، فإن السنتين التاليتين لها كانتا أفضل سنوات التجربة التنموية على الرغم من الإنفاق العسكرى الضخم الذى حدث خلالهما ، وهو أمر ينبغى أن نعتبر به لأنه يثبت أن جدية وطهارة القيادة هما مفتاحا التنمية فى مصر. بل ولعل نجاح

تجربتى التنمية فى أوائل القرن التاسع عشر وستينات القرن العشرين يعود فى المقام الأول لهذين العاملين ولوضوح رؤية القيادة والإصرار على مجابهة المشاكل التى تواجه التجربة بالاستفادة بالخبرة المتاحة اينما كانت وعدم التفريط فيها . ويمكن القول إن جدية القيادة وطهارتها تفوق فى أهميتها أية عوامل أخرى بما فى ذلك خصخصة أو عمعمة الأعمال أو اتباع تخطيط مركزى أو تأشيرى. فأيا كان الطريق فإن العامل المقرر للنجاح والفشل هو جدية القيادة وطهارتها .

وقد حاولت إبراز شكل المجتمع الجديد الذى بنى فى أعقاب بدء سياسة الانفتاح، وهو مجتمع تهمشت فيه أغلبيته وانشطر إلى الدرجة التى ستجعل استمراره على هذه الحال غير متصور دون استخدام العنف وقبول العيش فى ظل قوانين استثنائية ودولة بوليسية تطلق فيها يد أجهزة الأمن لاخماد أى تذمر يمكن أن تقوم به الاكثرية الغاطسة ولمنع أى تجمع لها أو القيام بأى مظهر من مظاهر التعبير عن آلامها وآمالها. ولا أظن أن هناك من النخب من يريد أن يرى مجتمعه وقد انقلب إلى هذه الحال، تحكمه قوانين الطوارئ سنة وراء أخرى حتى وكأنها أصبحت قانون البلاد، أو أن يسوده القلق بحيث يضطر للعيش وراء أسوار عالية وفى حماية حرس عام أو خاص، أو أن يقبل أن توقف سيارته عند كل قنطرة وأن يفحص جواز سفره ويحجز كل مرة يصل فيها إلى المطار وأن يرى شوارع مدنه وقد

امتلأت بملابسى الخوذ المدججين بالسلاح ، فمثل هذه الأعمال فضلا عن تنغيصها للحياة فهى لا تحل المشكلة الأساسية التى تسبب القلق الذى يعيشه المجتمع .

وفى الماضى وقبل انتشار وسائل الإعلام المرئية والمسموعة كان من الممكن لصفوة صغيرة من أى مجتمع أن تعيش عيشتها الهنية بعيدا عن رؤية آلام ومشاكل الغاطسين من الناس ، فلم يكن لأى من هؤلاء الطافين منهم أو الغاطسين علاقة أو معرفة بدقائق معايش الآخر . كان كل منهما يعيش حياته الخاصة راضيا بها دون أن يتدخل أحد فى مشاكل أحد - على أن ذلك كله قد تغير اليوم فلم يعد ممكنا عزل كتلة من الناس عن الكتل الأخرى فقد أصبحت أنماط معايش الصفوة معروضة على الجميع فى وسائل الإعلام المختلفة وأصبح الناس يعرفون دقائقها ويعرفون عن حياة الرغد التى تعيشها - ولابد أن نتصور أن هذه المعرفة ستدفع الكثير من الغاطسين للأسى على ماهم فيه وللرغبة فى تغيير حالهم فإن لم تتوافر لهم قنوات [illegible] التغيير فلابد لنا أن نتصور أن صرخات الاحتجاج والعصيان لابد وأن تتصاعد .

ولم يكن رضا عامة الناس فى الماضى على حالهم نتيجة جهلهم بتفاصيل حياة الجزء المترف من المجتمع فقط بل كان نتيجة التراث

الديني الذى تشكل عبر أجيال طويلة والذى كان فيه الدين ملاذاً لإشاعة الطمأنينة والرضا بما قسمه الله لها من رزق وهو تراث لازالت الحكومة والمؤسسة الدينية تأمل في الإبقاء عليه على الرغم من التحدى الكبير الذى أصابه من بعض جماعات الإسلام السياسى التى تحاول تحويل الدين من أداة للرضا بالمقسوم إلى أداة للإحتجاج والعصيان .

وليس فى مصر فى الوقت الحاضر من قوة يمكن أن أوجه إليها خطابى هذا إلا النخبة الحاكمة التى تحتكر العمل السياسي وتشكل القوة المؤثرة في المجتمع فقد استطاعت هذه النخبة عبر سنوات طويلة من الحكم أن تحتكر السلطة وأن تئد كل تحرك شعبى حتى وإن كان بريئا وأن تجعل من الأحزاب واجهات دون سند شعبى فقد حرمتها من إقامة الاجتماعات العامة ومن مخاطبة الناس خلال وسائل الإعلام ومن إمكان الوصول إلى السلطة حتى تجبرها على العمل فى حضنها . ومن هنا يجيئ خطابى هذا إلى هذه النخبة الحاكمة مناشدا إياها للبدء فى عمل جاد لتغيير هذه الصورة ففى تغييرها فائدة محققة لهم لكى ينالوا احترام وثقة مواطنيهم بل واحترام وثقة العالم ، ولكى يجعلوا من بلادهم مكانا أكثر امنا وسعادة لهم قبل غيرهم .

مصر فى القرن الواحد والعشرين

(١)

عندما طلبت منى مجلة «الهلال» - فى منتصف عام ١٩٩٦- أن أكتب عن مصر في القرن الواحد والعشرين ترددت كثيرا. فلى فى مجال الكتابة عن المستقبليات تجربة لم تكن ناجحة. فمنذ ثلاثين عاما، وفى أعقاب هزيمة سنة ١٩٦٧، كتبت أربعة مقالات متتالية بجريدة الأهرام عن تصورى عما سيكون عليه حال مصر والعالم فى آخر القرن العشرين. وفيها تنبأت بأن الحرب الباردة ستكون قد انتهت قبل نهاية القرن بمصالحة توفيقية بين النظامين المتصارعين، واللذين وصفتهما بأنهما بنات حضارة واحدة، بحيث يأخذ كل منهما الشيء الطيب من الآخر لكى ينطلقا لبناء عالم يسوده السلم والعدل الاجتماعي والديمقراطى. أما فى مصر، فقد تصورت أن سكانها، الذين سيبلغ عددهم الستين مليونا عند نهاية القرن، سيرتفع متوسط دخل الفرد فيها حتى يصل قرابة الأربعة آلاف دولار في السنة. وقد بنيت هذا التصور على افتراض أن مصر ستستمر فى تحقيق نمو اقتصادى تبلغ نسبته ٧٪ فى السنة حتى أخر القرن وهى نسبة لم تكن بعيدة عن تلك التى حققتها مصر بالفعل فى الستينات .

وكما هو واضح، فإن تنبؤاتي قد خابت، فالحرب الباردة لم تنته على الوجه الذى تصورته بل انتهت بانتصار طرف على طرف، ولم ينتج عن هذا الانتصار إلا عالم يسوده القلق انتشرت فيه الكثير من الحركات اللاعقلانية وتهمشت فيه جماعات بأسرها بل ودول بكاملها، وتراجعت فيه الديمقراطية بسبب بروز قوى جديدة أصبحت هى الحاكمة والمؤثرة فى الأحداث ومصائر الناس كالشركات عابرة الدول وأجهزة الإعلام، وهى قوى لا يعرف الناس عنها الكثير فقراراتها سرية وملاكها غير مسئولين أمام أحد. وفى مصر، خابت أيضا تنبؤاتي! صحيح أن عدد السكان أربى عن الستين مليونا، ولكن دخل الفرد لم يصل إلا إلى سدس ماكنت قد تصورت أنه سيكون .

الكتابة عن المستقبليات - لذلك - هى أمر من الصعوبة بمكان، فالتاريخ لا يسير فى خط مستقيم بحيث يمكن اسقاط معاملات فترة على فترة تالية، واتجاهاته لا يحكمها المنطق أو الصالح العام، بل فى الأغلب تحكمها المصالح الآنية للنخب الحاكمة والتى تتفاوت فى حكمتها من بلد إلى آخر ومن وقت إلى آخر. ويزيد الأمر صعوبة أننا نعيش عصرا ينبض بالحركة، ويتميز بسهولة الاتصال وكثرة الاختراعات، مما يجعل تصور شكل المستقبل صعبا . وما يكتبه توفلر وأمثاله عن المستقبل الوردى الذى ستأتي به «الموجة الثالثة» لعالم «مابعد الصناعة والمعلومات» هو وجهة نظر تكاد تكون من باب الخيال العلمى. فالحقيقة الواقعة هى أن حضارة الموجة الثالثة، على الرغم من أنها فتحت آفاقا جديدة لاستمتاع عدد محدود من الناس بالمعلومة والاتصال الفورى

بأمثالهم على اتساع العالم ولتعاظم القدرة الانتاجية، إلا أنها قللت الحاجة إلى الأيدى العاملة مما زاد من عدد المتعطلين وخاصة بين المتعلمـــين ومهـــرة العمـــال وزادت الفـروق الطبقية داخل الدولة الواحدة وبين الدول أيضا. ولذا فـإن حجم الآلام والقلق الذى حملته هذه الموجة يفوق بكثير ما جادت به حتى اليوم. فقضية الاستفادة من ثورة المعلومات على مستوى البشر عامة تحتاج أولا إلى تغيير أساسى فى النظام السياسى والاجتمـاعى للعالم وهو أمر غير باد فى الأفق حتى الآن .

(٢)

وقد سبب لى إخفاقى فى تنبؤاتى، التى تصورتها وأ.. ..ب منتصف سنوات العمر، أن أتردد فى الدخول فى تجربة أخرى. إلا أننى قررت الاستجابة لدعوة الهلال وأن أكتب ما طلبته منى عن تصورى لحال مصر فى نهاية الثلث الأول من القرن الواحد والعشرين، أكتبه وقد خط الشيب شعرى وأنا فى آخر سنى العمر محاولا أن أبين ماذا سيكون عليه شكل مصر، لو أنها استمرت على نفس النهج الذى تسير عليه اليوم، حتى يتبين للنخب قدر العمل الذى ينتظرها لكى يتركوا بلادهم وهى أحسن حالا عما استلموها .

ذلك أنه سيعيش على أرض مصر، فى ثلاثينات القرن الواحد والعشرين، ما بين المائة والمائة وعشرين مليونا من البشر سيبنى الكثير

منهم مسكنه على أرض وادى النيل الزراعية التى ستصبح نصف مساحتها على الأقل غابة من الأسمنت ومشغولة بالمبانى والطرق ومختلف المنشآت . وسينتقل إلى المدن جزء كبير من سكان الريف، وستصبح القاهرة الكبرى عاصمة يسكنها ثلاثين مليونا من البشر سيعيش الجزء الأكبر منهم مكدسين فى مناطق عشوائية على أطراف المدينة وفى مساكن ليست بها دورات مياه أو صرف صحي - أقول ذلك من واقع أن أحدا لم يقم حتى اليوم باقتراح وسيلة يمكن أن تعطى للفقراء مسكنا معقولا وبسعر يمكن أن يتحملوه. وسيزداد الضغط السكانى على الكثير من الأحياء القائمة، وسينحدر حالها من حيث الخدمات والمواصلات والضوضاء والتلوث، وسيحدث بها ما حدث لحى شبرا خلال النصف الثانى من القرن العشرين وسيهجرها القادرون إلى خارج المدن لبناء واحات لسكناهم بعيدا عن الازدحام والضوضاء .

وستجابه الزراعة فى وادى النيل مصاعب كبيرة، وسيهجر العمل فيها الكثيرون لصعوبة العمل فيها وقلة العائد منها، كما ستجابه الزراعة فى الصحراء صعوبات أكبر وسيكتشف الكثيرون أنها كانت مغامرة خاسرة بعد أن يهبط منسوب الماء الجوفى وتزيد ملوحة الآبار . وسيزداد اعتماد مصر على العالم الخارجى لتزويدها بالقمح ومختلف المواد الغذائية .

وبتناقص المساحات المزروعة فى وادى النيل، فلن يجابه المصريون نقصا فى كمية المياه اللازمة لاستخدامهم المنزلي أو فى الصناعة، فسيعوض الماء الذى سيوفرونه فى الزراعة حاجتهم المتزايدة فى الأغراض الأخرى. وأغلب الظن أن مياه النيل ستصلهم دون مشاكل تذكر مع دول أعالى النيل التي ستظل على الأغلب في حال لن يسمح لها باستغلال أكبر لمياه النيل أو تحدى حق مصر فى مياه النهر. على أن أكبر المشاكل التى قد تواجه مصر في توفير المياه، فى ثلاثينات القرن القادم، قد تكون في انسداد جزء كبير من بحيرة ناصر حول الشلال الثانى عند منطقة وادى حلفا بالطمى الذى يحمله النهر ويرسبه هناك وما يتبع ذلك من خسارة فى كمية المياه التى تصلها نتيجة البخر والتسرب . وقد وصل ارتفاع الطمى فى هذه المنطقة فى سنة ١٩٩٢ (وهى آخر سنة أتيح لى فيها الإطلاع) إلى أكثر من ثلاثين مترا - وهذه مسألة ستشغل المصريين بدءا من أولى سنوات القرن الحادى والعشرين.

كما سيواجه المصريون أيضا مشكلة تلوث المياه والتى أتوقع أنها ستصل إلى درجات غير مقبولة مع تزايد الصرف الصحى من عديد المدن على طول نهر النيل والتى ستنصرف مياه معظمها فيه .

وفى أوائل سنى القرن الواحد والعشرين، ستكون عملية خصخصة مصانع القطاع العام والبنوك قد انتهت بانتقال ملكيتها إلى نخبة منتقاة

من المصريين بالاشتراك مع الشركات العابرة للدول والمتعددة الجنسية. وسيتم إغلاق بعض المصانع التى لن يكون فى استطاعة ملاكها الجدد إدخالها فى السوق العالمى، كما سيتم تطوير المصانع الأخرى حتى تصبح قادرة على المنافسة وإيجاد مكان لمنتجاتها فى السوق العالمى، وسيكون إغلاق المصانع أو تطويرها سببا للاستغناء عن أعداد كبيرة من العاملين فيها وعلى كل المستويات مما سيسبب آلاما كثيرة. وأغلب الظن أن الحكومة ستضطر فى نهاية الأمر إلى منحهم تعويض بطالة .

وبدخول مصر منظمة التجارة العالمية، فى أوائل القرن الواحد والعشرين، فإن الكثير من مصانع القطاع الخاص - والتى تعيش اليوم على حساب الحماية الجمركية كمصانع النسيج والسيارات - ستغلق أبوابها أو ستضطر للدخول فى شراكة مع رأس المال الأجنبى .

وإذا استمر الحال على ما هو عليه للثلاثين سنة القادمة، فإن الفروق بين دخول الناس ستزيد وسيتم تكريس انشطار المجتمع إلى شطرين، في طرف منه نخبة قليلة العدد واسعة الثراء، وفى طرفه الآخر كتلة الشعب المصرى التى ستتهمش تماما ويعيش الجزء الأكبر منها على الفتات. وفى ثلاثينات القرن القادم ستكون الأجيال الجديدة من أبناء كلا الطرفين قد شبت وتثبتت قواعدها وزاد انفصالها عن بعضها البعض واختلفت طموحات وطريقة عيش ولغة كل منهما. وستعيش النخبة فى أحياء جديدة خارج المدن

محاطة بأسوار وذات حرس خاص وعام، وسترسل أبناءها إلى مدارس وجامعات خاصة وسترفه عن نفسها فى أماكن بعينها، وستترك النخبة لعامة الناس المدارس والجامعات الحالية والتى لا مناص أن يكون مصيرها مزيدا من الانحدار. وسيزداد اهتمام النخبة بتعليم أبنائها اللغات الأجنبية وفنون الإدارة والعلاقات العامة، لإعدادهم لإدارة الشركات وبيوت المال والتجارة التى يملكونها ولتمكينهم من الحوار مع شركائهم من مسئولى الشركات متعددة الجنسية والذين سيكونون مسئولين عن تطوير العمل ونقل التكنولوچيا، ولذا فلن يكون البحث العلمي أو الهندسة من بين الاهتمامات الأولى للنخبة .

وسيحتاج الحفاظ على مثل هذه التركيبة الاجتماعية إلى استخدام القهر وقبول العيش في ظل قوانين استثنائية وتحت حكم الطوارىء وإطلاق يد أجهزة الأمن لإخماد أى تذمر يمكن أن تقوم به الأكثرية الغاطسة ومنع أى تجمع لها أو القيام بأى مظهر من مظاهر التعبير عن آلامها أو آمالها . وفى مثل هذا الجو فلابد لنا أن نتصور أن استخدام أجهزة الأمان الالكترونى واستئجار الحرس الخاص وبناء الأسوار سيتزايد .

وأغلب الظن أن الاقبال على الهجرة إلى خارج البلاد سيستمر إن لم يزد عما هو عليه الآن . وستكون أغلب الفرص فى البلاد العربية التي

ستظل، وحتى ثلاثينات القرن القادم، فى رفاهية نسبية لتوقع ازدياد الطلب على نفطها وكذلك أوروبا التى ستعانى فى ذلك الوقت من قلة اليد العاملة فيها نظرا لندرة المواليد وازدياد عدد شيوخها. وتقدر المجموعة الأوروبية أنها ستكون فى حاجة إلى حوالى ٧ ملايين عامل فى ذلك التاريخ تنوى تهجيرهم إلي أوروبا من بلاد العالم الثالث وعلى الأخص من بلاد جنوب البحر الأبيض المتوسط . وستكون معظم العمالة المطلوبة هى لأداء الخدمات الدنيا، وستكون بعقود محدودة المدة يستجلب فيها العمال دون أن يصطحبوا عائلاتهم حتى يمكن إعادتهم إلى بلادهم بعد انتهاء مدة عقودهم، وهذه السياسة الجديدة هى نفس السياسة التى تتبعها سويسرا فى الوقت الحاضر، وهى بغرض تفادى مشاكل مواءمة المهاجرين لبلادهم الجديدة والتى كثيرا ما تأتى مع وصول أعداد كبيرة من بلاد العالم الثالث .

(٣)

رسمت هذه الصورة لحال مصر فى ثلاثينات القرن الواحد والعشرين، على فرض أن ما يحدث اليوم في مصر سيتم اسقاطه حتى هذه السنوات وهو أمر غير محقق وأرجو أن تخيب تنبؤاتى هذه كما خابت في المرة السابقة، على أن الشيء الأكيد، هو أن استمرار الحال على ما هو عليه سيؤدى إلى مستقبل لا أظن أن النخب ذاتها تحب أن تراه. وغرضى هنا هو تنبيهها إلى الشقاء الذى سيجلبوه على بلادهم وعلى أنفسهم قبل أى شئ آخر إن لم ينتهوا للأمر .

ولمصر من الميزات الخاصة ما يمكنها من أن تجد لنفسها مكانا بارزا فى هذا العالم الجديد الذى نراه يبزغ اليوم، فلديها الموقع والتاريخ والجو المعتدل والبشر، فهى فى موقع حاكم بين القارات الثلاث وهى وسط بين طوكيو ونيويورك مما يمكن أن يجعلها شريانا للنقل ووسيطا لانتقال المال. وهى ذات تاريخ عريق فى آثاره وتراثه، وهى ذات جو معتدل على طول العام، مما يمكن أن يخرج المحاصيل وقت مالا يستطيع غيرها أن يخرجه، ولديها امتداد مكانى هائل ومصادر للطاقة ويسكنها بشر ذوى تراث فى احترام العمل والنظام والسماحة والحياة المدنية .

وبلاد بكل هذه الامكانيات لا يجوز لها إلا أن تكون بلادا كبيرة ومؤثرة !

الاستخدام الأمثل لامكانيات مصر من الأرض والمياه والطاقة

يسكن أرض مصر قرابة الستين مليونا من البشر يزدحمون على رقعة من الأرض لا تزيد مساحتها على ٧ ملايين فدان. وهم في ازدحامهم يتنافسون على المكان حتى كادوا يفسدونه بالمناطق العشوائية التى أحاطت بالمدن دون تخطيط وبالمبانى الأسمنتية التى أقيمت فى قلب الريف وزحفت على أجود الأراضى الزراعية التى تقلصت مساحتها عاما بعد آخر .

ويبدو للناظر عن بعد، أنه لايوجد سبب واحد يجبر المصريين على العيش فى هذا الضيق. فأمامهم المكان المتسع فى الصحراء الشاسعة التى تحيط بوادى النيل، كما أن ببلادهم المقومات الأساسية التى تقوم عليها عملية التعمير من المياه والطاقة، ومع ذلك فقد عجز المصريون عن الاستفادة من هذه المصادر الثلاثة : المكان والمياه والطاقة، بل هم الآن في طريقهم لتبديدها. وتوجد هذه المصادر فى مصر دون غيرها من البلاد المجاورة فبلاد الشام عامة، وفلسطين واسرائيل والأردن خاصة، فقيرة فى هذه المصادر الثلاثة فليس لدى أى منها مكان متاح للامتداد أو مياه يمكن توفيرها أو طاقة من أى نوع لاستخدامها فى أى بناء. وربما كان هذا الفقر فى هذه الموارد الطبيعية الأساسية هو أحد أسباب اندفاع اسرائيل للسلام بعد أن فطنت إلى أنه لم يعد أمامها – وقد استفادت من مصادر ثروتها الأساسية هذه إلى أقصى الحدود – إلا

بناء جسور التعاون الإقليمي والامتداد خارج الحدود. ولا يسع القارىء لكتاب بيريز وناعور «الشرق الأوسط الجديد» الذى صدر فى سنة ١٩٩٤، ولكتاب الحكومة الاسرائيلية الذى أصدرته بمناسبة انعقاد قمة الدار البيضاء فى أكتوبر سنة ١٩٩٤، إلا أن يرى أن الانفتاح عبر العالم العربى المحيط هو أحد الأهداف الأساسية للسياسة الاسرائيلية الجديدة .

أما مصر، فعلى الرغم من امتلاكها للموارد التى تؤهلها لتعمير صحاريها فقد عجزت عن ذلك ولم تستفد منها في حل مشكلات توزيع السكان أو رفع نوعية العيش لأهلها، ومما يدعو إلى الأسى أنها فى طريق تبديدها .

المكان

يشعر المصريون، كلما ضاقت بهم الأرض التى يعيشون عليها، بأن عليهم أن ينتقلوا إلى الصحراء التى تحيط بالأرض التى يسكنونها من كل مكان والتى تشكل أكثر من ٩٦٪ من مساحة بلادهم. ولا يحتاج المرء إلى عناء كبير، لكى يدرك أن الكثافة السكانية لأرض المعمور من مصر كبيرة فهى تبلغ ألفى شخص للكيلو متر المربع الواحد ، أى أن نصيب الفرد هو قطعة من الأرض لا تزيد مساحتها على ٥٠٠ متر مربع أو ٢٠ × ٢٥ مترا، على الفرد أن يدبر منها معاشه بالكامل وأن يعطى جزءا منها لمختلف المرافق اللازمة لحركته أو تعليمه أو العناية بصحته، وجزءا آخر لإقامة البناء الأساسى الثابت للأمة كالمصانع أو المنشآت العامة .

تعيش فى وادى النيل المحدود المساحة، إذن، كتلة ضخمة من البشر تتنافس على موارد محدودة مما يجعل التفكير فى تعمير الصحراء التى تحيط بوادى النيل من كل جانب محتما. فمازالت الصحراء هى الجهة الباقية أمام مصر للتخفيف عن الوادى الذى تدهورت فيه نوعية الحياة تحت ضغط كتلة البشر.

ومما يزيد فى أهمية هذه الجبهة، هو أنها تكاد تكون المنطلق الوحيد لحل مشكلة اكتظاظ السكان وضيق العيش الذى يجعل من حسن استخدام- فضلا عن تنمية - مصادر الثروة فى وادى النيل نفسه أمرا صعبا. فالتوسع فى الأرض الزراعية فى وادي النيل تحدده كمية المياه المتاحة وقلة المساحات ذات التربة الصالحة والموجودة على ارتفاع مناسب عن مصدر المياه كما يحكم اكتظاظ السكان التوسع الصناعى الذى سيصبح باهظ النفقة إذا أريد له أن يبنى دون أن يلوث الجو أو ماء النهر. وحتى التوسع السياحى، الذى يعتقد الكثيرون أن لوادى النيل فيه ميزة خاصة له حدوده، فالآثار المهمة صغيرة المساحة والوصول إليها كائن فى دروب يصعب تصور توسيعها لاستيعاب أعداد أكبر من السائحين كما أن مشكلات الازدحام والضوضاء والتلوث تضع حدا لعدد السائحين، الذين يمكن أن تستقبلهم البلاد.

وقد ظلت الصحارى المصرية حتى وقت قريب أرضا لا عمار فيها يخافها المصريون ولا يرغبون فى العيش فيها ويحسبون زيارتها ولو زيارة عابرة مغامرة كبيرة. كما جاء وقت لم يكن يسمح للمصريين بالتجوال فيها فقد كان دخولها يحتاج إلي تأشيرة من السلطات. على

أن هذا كله قد تغير الآن، فقد اكتشف المصريون مع تقدم وسائل النقل والمواصلات وتحت عوامل الضغط السكاني وجها واحدا من إمكانات التعمير فوجدوا في شواطئ البحر الأحمر وإقليم غرب الاسكندرية أماكن صالحة للترفيه والراحة وكانوا قبل جيل واحد يظنون أنها بعيدة ككوكب المريخ . وقد رأيت هذا التغير في حياتي الناضجة فقد كانت أولى رحلاتي في الصحراء على ظهر جمل عندما لم يكن خارج وادي النيل طريق اسفلتي واحد يقطع الصحراء بما في ذلك طريقا القاهرة الاسكندرية والقاهرة السويس اللذان رصفا خلال الحرب العالمية الثانية، كما كان الوصول إلي مناطق البحر الأحمر أو الواحات أمرا شاقا يحتاج إلى استعدادات هائلة .

وكنا نحن الذين تخصصنا في دراسة الصحاري - موقنين بما لهذه الصحاري من إمكانات كبيرة تفوق بكثير إمكاناتها السياحية والترفيهية وكنا نضع لها خططا لتعميرها كانت تصطدم بندرة الماء العذب وعدم وجود مصدر للطاقة. والآن وقد أصبح من الممكن توافرهما فإننا نعود إلى كراساتنا القديمة لكي نعيد صياغة أحلامنا لكي نصطدم بمشكلة جديدة هي تبديد أجزاء كبيرة من الصحراء التي كان يمكن أن تكون مكانا مناسبا لعمليات التعمير وقد تزايدت عمليات التبديد هذه بدءا من سنة ١٩٧٤ وهي السنة التي احتفلت فيها هيئة المساحة الجيولوجية والتعدين التي كنت أرأسها بمرور مائة عام على قيام أول بعثة علمية منظمة لدراسة الصحراء الغربية والتي دعوت فيها إلي البدء في وضع خطة للاستفادة من الصحـراء، وقلت عنها إنها تمثل امتدادا لمصر مثل ذلك الذي كان يمثله الغرب الأمريكي للولايات المتحدة وسيبيريا لروسيا .

وفى ذلك العام، تم إنشاء وزارة جديدة بمصر سميت بوزارة التعمير، عين لها وزير هو كبير مقاولي مصر الذى قام - تحت شعار ماسمى في ذلك الوقت بغزو الصحراء - بعمليات بناء ضخمة استنفدت الجزء الأكبر من الأموال التي تدفقت على مصر بعد حرب سنة ١٩٧٣.

وقد ظلت سياسة البناء هذه في المناطق المتاخمة لوادى النيل هى سياسة وزارة التعمير حتى اليوم . فالتعمير، فى ظل هذه السياسة، هو إقامة مبان أسمنتية نمطية فى أطراف المدن أو فى تجمعات خارجها سميت بالمدن الجديدة ، وقد انتقل هذا النشاط فى البناء فيما بعد إلى شواطئ البحار. ولاشك فى أن حصيلة كل ذلك البناء كانت خيرا على رجال المقاولات الذين أثروا ثراء فاحشا، إلا أن ذلك كله لم يحل أية مشكلة حتى مشكلة الإسكان التى ظلت مستحكمة مما اضطر جموع الناس إلى حلها بجهودهم الذاتية ، بالبناء من وراء ظهر السلطة فى مناطق عشوائية أقاموها حول المدن وفى قرى الريف. ويقدر عدد الذين يسكنون هذه المناطق، التى أقيمت منذ إنشاء وزارة التعمير، بحوالى عشرين مليون نسمة فى الوقت الذى لم تزد جملة سكان المبانى الجديدة التى أقامتها وزارة التعمير على مليوني نسمة .

وبالاضافة إلى ذلك، فإن المبانى الأسمنتية التى أقامتها الوزارة حول المدن تتسم بأنها عديمة الطراز أو الذوق كما أنها بنيت فى ازدحام ودون مساحات خضراء مما أفسد الخطط لإمكان إعادة تخطيط المدن وتجميلها كما حدث فى حالة القاهرة عندما لم تستطع

الاستفادة بالأراضى الجديدة التى نشأت حول طريقها الدائرى الجديد. فبدلا من أن تشكل هذه الأراضى مناطق جذب لإعادة تنظيم القاهرة، أصبحت مكانا لبناء العشوائيات والمضاربة فى الأراضى التى كانت كلها ملك الحكومة تخططها كما تشاء. قارن بين ما انتهى إليه حال الطريق، وما كنا نأمل فيه عندما اقترحنا بناءه منذ أكثر من ربع قرن مضى، كنا نأمل أن يتوسط الطريق خط للمترو يلف القاهرة لتسهيل الوصول إلى أى مكان فيها وكنا نأمل أن تقسم أراضى ما حول الطريق - بعد أن تحفظ بعض أجزائه «كمحميات طبيعية» إلى نطاقات تخصص لغرض عمرانى معين، أما المحميات الطبيعية، فكانت تشمل مناطق الجبل الأحمر والمعصرة وأبو رواش، ففيها بعض أجمل وأندر الظواهر الطبيعية الفريدة فى مصر كبقايا الغابات المتحجرة والنافورات الحارة القديمة وأماكن لأقدم أدوات صنعها الإنسان فى مصر وواجهات المحاجر التى استخدمها الأجداد فى بناء الآثار العظيمة. وكنا نأمل أن نخطط النطاقات لكى يحوى واحد منها ورش ومسابك ومصانع الحرفيين الصغيرة حتى يمكن إخلاء القاهرة مما يثير الضوضاء فيها، أو مما يجثم فوق أعظم مناطقها الأثرية فى القاهرة الفاطمية وفى حصن بابليون وفى نزلة السمان ، ولم يكن هذا الأمر صعب التحقيق لو أن الطريق قد أشرف على تنفيذه المتعلمون ذوو الخبرة .

عملية البناء الأخرى التى تتم الآن، والتى سيكون لها أسوأ الأثر على مستقبل الصحراء، هى التى تحدث على شواطئ البحار حيث أفضل الأماكن لإقامة منشآت التعمير. ففى السهول التى تحدها بل وتحت مياهها، تقع مكامن الغاز الطبيعى التى تم اكتشاف جزء منها خلال السنوات الأخيرة والتى مازال جزؤها الأكبر مخزونا تحت الأرض فى انتظار كشفه واستغلاله. ويشكل الغاز مصدر الطاقة الذى يمكن أن تبنى حوله منشآت التعمير ، وكان عدم وجوده هو العامل الكابح لأحلام تعمير الصحارى في مصر ، والآن وقد وجد فإن استخدامه فى عمليات التعمير سيكون رهن وجود حرم كبير لجميع الشواطىء المصرية التى لا يصح بأية حال ملكية الأراضى المطلة عليها لفرد أو لجماعة مهما كانت الأسباب . فالمبانى التى تقام على البحر مباشرة تحد من عملية تعمير الصحارى وتوقف أى تنمية خلف خط تنظيمها ، إذ كيف يمكن تعمير مكان بالصحراء عندما لا يكون الوصول منه إلى الشاطئ ممكنا .

وإنه لأمر يصعب على الفهم أن يسمح المصريون لشواطئهم بهذا الاستغلال غير المنظم. فالساحل الشمالي إلى الغرب من الاسكندرية قد تبدد تماما بسلسلة من المبانى الخاصة بحيث أصبح الوصول الحر إلى هذا الشاطئ مستعصيا ، ونحن نسير فى الاتجاه نفسه على طول سواحل البحرالأحمر وخليجى السويس والعقبة ، وإذا تيسر اليوم

لبضعة آلاف من الناس أن ينالوا نصيبا من هذه الشواطئ فإن آلافا بل ملايين عديدة أخرى ستحرم من هذا النصيب بل سيمتد الحرمان إلى أغلبية أحفاد مالكيها في الوقت الحاضر .

الأمر الثالث الذى يسهم فى تبديد المكان هو عدم وجود طريق منظم ومحدد لامتلاك الأراضي الصحراوية وتداولها فى الأسواق مما تسبب عنه نهب أجزاء كبيرة منها خرجت من دائرة الاستفادة العامة لها. ومازالت ملكية الأراضى الصحراوية تتم كمنحة من الحاكم أو بالاستيلاء عليها عنوة وبفرض الأمر الواقع فى غفلة القانون ، وهذا واحد من أهم الأمور التى تبدد الأرض وتعيق إنشاء السوق التى يتبادل الناس فيها أملاكهم الموثقة فى حرية وأمان وهى من الأسباب التى تجمد تنمية الصحراء والحركة فيها. ويحتاج بناء سوق نشط لتبادل العقارات إلى تأكيد حقوق الملكية ووضعها فى حجة ليس فيها أى لبس عن مساحة وأبعاد وموقع العقار يتم توثيقها فى جهاز مركزى يحكمه القانون. ومثل هذه الوثائق، عندما تدخل السوق ويتبادلها الناس في حرية، ستنتقل الملكية لمن يستطيع الاستفادة منها أحسن الاستفادة، وليس فى مصر حتى اليوم نظام ناجح للتوثيق، فلا يزال أكثر من ثلاثة أرباع العقارات والأراضى في وادى النيل غير موثقة ، أما في الصحراء فالتوثيق يكاد لا يكون معروفا ، وتكاد مصر تشبه فى هذا الأمر أوروبا القرون الوسيطة قبل أن تدخل فى نظام واقتصاد السوق .

ويسهم عدم وجود خطة قومية لتنمية الصحراء إسهاما كبيرا في تبديد الأرض. ذلك أن النظر إلى الصحراء ككل سيضمن الاستفادة المثلى من كل موقع فيها كما يسهم عدم وجود قوانين تنظم دق الآبار وسحب المياه الجوفية منها فى تبوير الأرض عندما تتداخل دوائر تأثير الآبار المتجاورة أو يزيد سحب المياه على حد معين. كما أن عدم وجود الخرائط المفصلة التى تحدد الأماكن الصالحة للزراعة يضر بالأراضى الواطئة عندما تستقبل أملاح الغسيل من الأراضى العالية. وكنت قد دعوت في السبعينيات إلى ضرورة وضع خطة قومية شاملة لتعمير الصحراء، ورفع الخرائط لبعض أماكنها المرموقة للتعمير والاحتفاظ بباقيها كمحميات طبيعية، وبالفعل فقد تم وضع خطة مبدئية قام بها قطاع المشروعات بالهيئة العامة للمساحة الجيولوجية والمشروعات التعدينية إلا أن المضى قدما فى تنفيذ ما كانت تحتاج إليه الخطة من دراسات لم يتم فلم يرغب أحد من المسئولين فى السبعينيات أن يشاركنا أحلامنا فقد كانت لهم أحلام وأهداف أخرى !

المياه

تتمتع مصر دون غيرها من دول حزام الصحارى المدارية، بنصيب أكبر نسبيا من المياه لوجود نهر النيل فيها والذى يمدها فى الوقت الحاضر بحوالى ٥٥,٥ بليون متر مكعب من المياه تستخدم منها مصر فى الاستهلاك المنزلى (٦,٥٪) والصناعة (٦٪) والباقى فى الزراعة ولا

يذهب إلى الصحراء من مياه النيل إلا أقل القليل لتغذية بعض مدن ساحل البحر الأحمر وغرب الاسكندرية .

أما مصادر المياه العذبة بالصحراء، فتنحصر في الأمطار التي تتساقط على طول ساحل مصر الشمالي في حدود ١٠٠ مم في السنة ينساب الجزء الأكبر منها إلى البحر ويستخدم الباقي في الزراعة الموسمية للقمح والشعير في مواقع كثيرة من الساحل الشمالي. ويأتي أكثر المطر في سيول جارفة، وهذه يروح معظمها إلى البحر وقد حاول المصريون أخيرا حجز هذه المياه بإقامة السدود في مجاريها إلا أن محاولاتهم لم تكن ناجحة تماما، لأن السيول تأتي في موجات كاسحة تجرف أقوى بنيان. مع ذلك، فإن دراسة حديثة قدرت إمكان تخزين حوالي ٢٥ مليون متر مكعب من مياه سيول شمال سيناء . والمصدر الأساسي للمياه في الصحراء هو مخزون المياه الأرضية، الذي يقع تحت سطحها ويقع الجزء الأكبر منه تحت سطح الصحراء الغربية وشمال سيناء، وبقدر أقل أهمية في عدد من مصبات وديان الصحراء الشرقية وجنوب سيناء. أما عن مخزون المياه بالصحراء الشرقية وجنوب سيناء فهو قليل لطبيعة تضاريس هاتين المنطقتين الجبليتين حيث تنحدر المياه على سطوح جبالهما إلى البحار أو وادي النيل ولا يبقى منها إلا القليل الذي يتخلل صخور سهولها لكي يخزن تحت السطح . أما شمال سيناء فأرضه منبطحة تأتي إليه أكثر المياه التي تتساقط على

شبه جزيرة سيناء عن طريق عدد من الوديان من أهمها وادى العريش الذى يصرف أكثر من ثلثى مياه جنوب ومنتصف سيناء كما يتساقط عليه المطر. ويستغل الخزان الجوفي لمنطقة شمال سيناء فى الوقت الحاضر، ففى دلتا وادى العريش أكثر من ٢٣٠ بئرا سطحية تعطى تصرفا يقدر بحوالى ٧٠,٠٠٠ متر مكعب فى اليوم (أو ٢٥ مليون متر مكعب فى السنة) تستخدم فى زراعة ما يقرب من ٤,٠٠٠ فدان ، وفى منطقة بئر العبد تزرع الكثبان الرملية الساحلية بآبار ضحلة في حدود ٤,٠٠٠ فدان أخرى ، أما المياه الجوفية التى توجد على أعماق كبيرة فى طبقة الطباشير أو الحجر الرملي فإنها لم تستغل بعد. ويقع خزان المياه الجوفية في هذه الطبقات على أعماق تتراوح بين ٥٠٠ ، ١٢٠٠ متر تحت السطح وهى قليلة التصرف ، إذ لم يزد تصرف أى بئر دقت فيها حتى هذه اللحظة على ٣٠ مترا مكعبا فى الساعة (أى حوالى ٢٥٠,٠٠٠ متر مكعب فى السنة) .

أما خزان المياه الأرضية بالصحراء الغربية، فهو ممتد لمسافات كبيرة، وتختلف سعته وقدرة مياهه على الانسياب من مكان إلى آخر. وباستثناء بعض المناطق الصغيرة فإن هذا الخزان يحتوى على مياه خزنت منذ وقت طويل وهى غير متجددة فى معظمها ، وكان المشتغلون بالعلم فى الماضى يعتقدون أنها تتجدد نتيجة وصول أمطار هضبة تبستى بمنطقة الساحل الافريقى إليها إلا أن

البحث الحديث أثبت أن معظم الميـاه تجمعت خلال الفتـرات المطيرة التى حلت بأرض مصر خلال العصــور الجيـولوجية القـديمة وأنها لذلك غير متجددة .

ويمتد خزان المياه الأرضية تحت الصحراء الغربية لمسافات شاسعة وهو من الحجر الرملى ذى النفاذية العالية والحامل للماء بين حبيباته ، وكان هذا الخزان موضوع دراسات عديدة كان من أشملها ما قامت به مؤسسة تعمير الصحارى وهيئة الأغذية والزراعة (الفاو) التابعة للأمم المتحدة عن خزان المياه الأرضية بواحات مصر التى أطلق عليها اسم الوادى الجديد. وفى هذه الدراسات رفعت الخرائط ودق العديد من الآبار الاختبارية وجمعت البيانات الأساسية وعملت نماذج رياضية عن كمية المياه التى يمكن استخراجها منه. وقد أثبتت هذه البحوث أنه من الممكن زيادة مقدار السحب من هذا الخزان فى حدود بليون متر مكعب فى السنة للمائة سنة المقبلة ، ويسحب من الخزان فى الوقت الحاضر حوالى ٤٠٠ مليون متر مكعب على النحو التالى(بالمليون متر مكعب فى السنة) : آبار الخارجة (٩٥) - الداخلة (١٩٥) - الفرافرة (١) - البحرية (٥٠) - سيوة (٦٠) . وبالواحات ٧٢٣ بئرا قديمة ونبعا ذات تصرفات صغيرة ، ٤٨٥ بئرا عميقة يستخرج منها فى الوقت الحاضر (سنة ١٩٩٣) حوالى ٨٥٠ ألف متر مكعب فى اليوم ، وقد تناقص تصرف البئر العميقة منذ بداية مشروع الوادى الجديد سنة ١٩٦١ من

متوسط ٢٨٦ مترا مكعبا فى الساعة إلى حوالى ٧٢ مترا مكعبا فى الساعة فى سنة ١٩٩٣ ، كما تناقص تصرف آبار وعيون الأهالى أيضا بل وتوقف تدفق الكثير منها مما استوجب استخدام محطات رفع جعلت ثمن استخراج المتر المكعب الواحد بعد رفع أسعار الطاقة أخيرا أكثر من ١٦ قرشا .

وتستخدم هذه المياه فى الوقت الحاضر فى زراعة ٤٣,٠٠٠ فدان فى الوادى الجديد، بمعدل ٧٥٠٠ متر مكعب لكل فدان تبلغ تكلفتها الحقيقية حوالى ١٢٠٠ جنيه فى السنة، مما يجعل من الزراعة فى الصحراء عملا غير اقتصادى وغير مجد. فإذا أضفنا إلى ذلك أن كمية المياه المتاحة فى الصحراء - سواء المتجدد منها أو الذى يتساقط عليها فى صورة أمطار أو القابل للاستخراج من باطنها - هى كمية محدودة لا تزيد على ٤ بلايين متر مكعب، لأيقنا أن التوسع الزراعى فى الصحراء لن يؤدى إلا إلى زيادة طفيفة فى جملة الإنتاج الزراعى فى مصر .

وتشمل كمية المياه المتاحة فى الصحراء حوالى بليون متر مكعب من المياه المتجددة التى تتساقط على الحزام الشمالى فى معظمها، و٣ بلايين متر مكعب يمكن استخراجها من خزانات باطن الأرض غير المتجددة يأتى ١,٥ بليون متر مكعب منها من جنوب غرب مصر وهو ما سمى بمشروع «شرق العوينات»، وبليون متر مكعب من الوادى الجديد

ونصف بليون متر مكعب من شمال سيناء ومناطق أخرى. ومشروع شرق العوينات، شأنه شأن مشروع الوادى الجديد، من المشروعات التى درس خزانها الجوفى من المياه دراسة وافية أثبتت أن فى الإمكان استخراج حوالى ٤,٧ مليون متر مكعب يوميا من باطنها لمدة مائة سنة ينخفض خلالها منسوب الماء الأرضى بين ٦٠ ، ٨٠ مترا لكى يصل الضخ إلى عمق ١٠٠ إلى ١٤٤ مترا تحت السطح. وكما سبق القول فإن المياه الأرضية بالصحراء غير متجددة وما يسحب منها لا يأتى بدل منه، كما أن رفعها إلى سطح الأرض بالطرق التقليدية غالى التكلفة مما يجعل استخدام هذا المورد الثمين فى الزراعة من الأمور التى تدخل فى بابا التبديد فمردود استخدام المياه فيها قليل بالمقارنة بمختلف الأنشطة الأخرى .

وحتى المناطق التى يتدفق فيها الماء دون الحاجة إلى رفعه، فإن مردود الزراعة كثيرا ما يكون ضئيلا ذلك لأن التوسع الزراعى فى هذه المناطق كثيرا ما يجئ بصعوبة صرف المياه ، وأبرز الأمثلة لذلك ما يحدث اليوم فى واحة سيوة حيث تسبب تفجر المياه فيها فى ارتفاع منسوب المياه الأرضية وزيادة الأملاح وتدهور زراعتها مما سيؤدى بكل تأكيد إلى اختفاء هذه الواحة فى غضون الخمسين سنة المقبلة ما لم يتم إيجاد حل لصرف المياه الزائدة عنها .

ولنا فى الماضى عبرة، فقد تسبب تدفق المياه فى غابر الزمان إلى إفساد مناطق واسعة فى منخفضات الواحات الخارجة والداخلة بل وواحات كاملة أخرى كانت زاهرة فى ماضى الزمان إلى الجنوب والغرب من الواحات الحالية واختفت تماما اليوم عندما دق الرومان الآبار فيها دون حساب لاستخراج الماء المخزون فى الطبقات السطحية منها فتفجرت العيون فى أمكنة كثيرة، وتحولت أجزاء كبيرة من هذه المنخفضات إلى بحيرات، فلما انتهى مخزون المياه من هذه الطبقات السطحية تركت الواحات خرابا بعد أن كانت مكانا مزدهرا لفترة طويلة من الزمان وحتى تعميرها فى ستينيات القرن العشرين .

على أن كل هذه الحقائق والدراسات لم تصل بعد إلى آذان السلطة، التى مازالت تدعم الزراعة الصحراوية التى تبدد المياه المحدودة والثمينة تحت الصحراء، والتي كان من الممكن الاستفادة منها فى أنشطة أخرى تشارك في بناء مصر الجديدة .

الطاقة

البترول والغاز هما عصب الحضارة الحديثة ومصدر الطاقة التي تدير أدواتها ومصانعها ، دون وجودهما لا يتم تعمير أو بناء، وهما كالماء العذب أعمدة أساسية فى تعمير الصحراء ، وقبل اكتشافهما بكميات معقولة كان الكلام عن تعمير الصحراء لا يخرج عن الحلم .

ويوجد البترول والغاز بمصر بكميات تفيض عن احتياجاتها الحالة مما يتيح لها تصدير جزء منهما، وفى هذا تتميز مصر عن معظم بلاد العالم التى تضطر إلى استيراد حاجتها من الطاقة. وفى تصورى أن هذه الميزة التى لا يتمتع بها إلا عدد قليل من البلاد قد لايزيد على أصابع اليدين، هى مفتاح مستقبل مصر لو أحسن استخدامها واحتفظت مصر بثروتها البترولية لنفسها وأوقفت تصديرها واستفادت منها في بناء المصانع وتعمير البلاد وإيجاد فرص للعمالة ورفع مستوى العيش بها .

ونحن نعيش وسط عالم أثرى الكثير من بلاده بتصدير ثروته البترولية مما ترك لدى الكثيرين الانطباع بأن الطريق الوحيد للاستفادة من هذه الثروة هو فى تصديرها إلى خارج البلاد . وهذا أمر إن صح مع الدويلات قليلة السكان ذات الاحتياطات الضخمة من البترول، أو مع الدول التى لم يصل مستواها الحضارى للقدرة على الاستفادة من هذه الثروة، فإنه لا يصح أبدا فى حالة مصر. فهى دولة كثيفة السكان، احتياطياتها المثبتة من البترول والغاز متواضعة، كما أن لديها قاعدة كبيرة من العلماء والخبراء ورجال الأعمال مما يمكنها من الاستفادة من ثروتها البترولية محليا لبناء قاعدة صناعية متينة يمكن أن تدر لها أضعاف ما سوف تدره عليها عملية التصدير. ومع ذلك يقوم المسئولون اليوم بتصدير جزء من إنتاج مصر من البترول، كما أنهم يخططون

لتصدير الغاز لخارج البلاد ، وقد أصبح لمصر اليوم احتياطى كبير من الغاز بعد اكتشاف مكامن كبيرة له فى الصحراء الغربية والدلتا وسواحل البحار .

ولمصر تاريخ عريق فى البحث عن البترول واكتشاف مكامنه، فقد كانت واحدة من أوائل البلاد التى بحثت عنه وكانت أول بئر دقت وبهدف البحث عنه فى سنة ١٨٨٦ وأول حقل أنتج البترول تجاريا فى سنة ١٩١٠ وامتد البحث عنه فى شواطئ خليج السويس إلى أرجاء مصر ثم إلى المياه الساحلية، وكان أول حقل اكتشف تحت ماء البحر هو حقل بلاعيم بخليج السويس سنة ١٩٦١. ثم توسع البحث عن الغاز الطبيعى الذى اكتشف أول حقل له فى «أبو ماضى» بمحافظة كفر الشيخ فى سنة ١٩٦٧، وقد تزايد إنتاج مصر من البترول والغاز عبر السنين حتى أصبح أكثر قليلا من الخمسين مليون طن فى سنة ١٩٩٣ ، تستهلك منها محليا حوالى ٢٧ مليون طن (٢٠ مليون من البترول ومايوازى ٧ ملايين طن من الغاز) تشكل ٨٦٪ من مصادر الطاقة فى مصر «وباقى المصادر فيأتى من الفحم «٤٪» ومساقط المياه «١٠٪» .

وتقع حقول الغاز الطبيعى فى شمال الدلتا وسواحلها «٧٥٪ من الاحتياطى» وشمال الصحراء الغربية «٢٠٪ من الاحتياطى» كما يصاحب الغاز الكثير من حقول البترول بخليج السويس .

ويستخدم الغاز الطبيعي أساسا فى إنتاج الكهرباء «٦٤٪» وفى صناعة الأسمدة «١٧٪» وفي الصناعة عامة وعلى الأخص فى مصانع الأسمنت «١٨٪» والمنازل «١٪» . ويأتى معظم الغاز المستخدم من حقلى «أبو ماضى» «كفر الشيخ» وأبو قير بشمال الدلتا «٥٣٪» وحقول بدر الدين ، وأبو سنان، وأبو الغراديق من الصحراء الغربية ٣٤٪ ومن الغاز المصاحب لحقول بترول خليج السويس «١٣٪» ومازالت هناك حقول من الغاز الطبيعى التى لم تستغل بعد كحقول التمساح والقنطرة والطينة والقرعة وغيرها .

وتصدر مصر الفائض من إنتاجها من البترول الذى يشكل أكثر من ٥٠٪ من جملة قيمة صادراتها. أما الغاز الطبيعى الفائض فلم يتم تصديره بعد، وإن كانت النية معقودة على ذلك ، وقد تزايد الاحتياطى المثبت من الغاز الطبيعى والغاز المصاحب للبترول بسرعة كبيرة منذ اكتشافه فى سنة ١٩٦٧ حتى وصل الى ١٢.١ تريليون «مليون مليون» قدم مكعب فى سنة ١٩٩١ ثم قفز مرة واحدة الى ٢١ تريليون قدم مكعب فى سنة ١٩٩٢ .

وقد جاءت الاكتشافات الكبيرة هذه مفاجأة وجد المسئولون أن فى تصديرها طريقا سهلا للحصول على العملات التى يمكن أن تساهم فى تعديل ميزان المدفوعات فقاموا بتشجيع المشروعات المشتركة مع شركات الغاز لتصديره الي إسرائيل. ولم يفكر أحد فى استغلال هذا الغاز داخل مصر والاستفادة منه فى تعمير الصحراء. ويدفع البنك

الدولى مصر فى اتجاه تصدير أكبر كمية من بترولها وغازها من أجل الاسراع فى تعديل ميزان مدفوعاتها. وهو لايفعل ذلك بتشجيع تصدير الفائض فقط، بل ويدفع مصر لزيادة هذا الفائض بالإقلال من استخدامها المحلى للبترول والغاز وذلك عن طريق رفع سعره- على المستهلك بحجة ايصال السعر الى مايسمى «بالاسعار العالمية». وقد قامت مصر بالفعل برفع أسعار منتجاتها البترولية رفعا أدى الى ارتباك كبير فى اقتصاديات عدد كبير من صناعات وزراعات مصر. أنظر مثلا ما أدى اليه رفع سعر المواد البترولية المستخدمة فى توليد الكهرباء «والتى أصبح ٨٠٪ منها يولد حراريا) من ٧,٥ جنيه لطن المازوت فى سنة ١٩٨٥ الى ١٣٠ جنيها فى سنة ١٩٩٣ على أسعار الكهرباء التى زادت الى أكثر من أربعة أضعافها خلال هذه المدة. هذه الزيادة الهائلة فى سعر الكهرباء ستؤدى الى خراب عدد كبير من الصناعات مثل تلك التى تدخل الكهرباء فى مكوناتها كصناعة السماد والالومنيوم والحديد والصلب أو التى تدار بالكهرباء كصناعات الغزل والنسيج والصناعات المعدنية أو الغذائية. كما أن هذه الزيادة ستؤثر سلبا على الزراعة المصرية التى أصبحت تعتمد على المواد البترولية التى تعتمد على رفع الماء الى الحقول. وللقارىء أن يتصور قدر القلق الذى يمكن أن يحل بمصر ومعظم مؤسساتها الانتاجية على حافة الهاوية

الخلاصة

رأينا فى العرض الذى قدمناه أن مصر قامت بتبديد، أو هى فى طريقها الي تبديد، العناصر الثلاثة التى كان من الممكن أن تكون

أساسا لتعمير صحاريها وتخفيف اكتظاظ السكان في وادى النيل وتحسين نوعية حياة أبنائها ورفع مستوى معيشتهم. ففى حالة المكان، فقد بددته أو هى فى طريق تبديد معظمه بالبناء غير المخطط الذى قامت به عبر سنوات من النشاط الذى استنفد الجزء الأكبر من أموالها وبحرمانه من أن تكون له واجهة على البحر وبعدم تنظيم طريقة ملكيته وحجب أراضيه عن التداول فى السوق وبعجزها عن وضع خطة عامة للاستفادة من مختلف مواقع الصحراء الاستفادة المثلى ، وقد أضافت بترك أجزاء كبيرة منه لقلب زبالة المدن وبقايا مصانعها ووسائل نقلها (وقيل أيضا زبالة العالم الصناعى التى تواردت أخبار استقبال مصر لبعضها ودفنها سرا فى بعض أماكنها) .

وفى حالة المياه، فقد تبدد جزء كبير من مخزونها الموجود تحت أرض الصحراء فى أنشطة غير اقتصادية لم تعط مردودا يذكر ، كما بددت جزءا آخر باطلاقه دون رابط حتى أغرق مناطق بأكملها كما هو الحال فى واحة سيوة.

وفى حالة الطاقة، فإنها ستقوم بتصديرها الى خارجة البلاد دون الاستفادة منها فى عمليات التعمير والبناء .

والناظر الى منطقة الشرق الأوسط يجد أن مصر هى الدولة الوحيدة بينها التى تجمعت لديها هذه العناصر الثلاثة، ومع ذلك فهى أفقرها وأقلها فى نوعية حياة أبنائها، ويبين الجدول التالى أن مصر هى من أقل البلاد كثافة فى السكان وأكثرها ثراء فى الماء ومصادر الطاقة :

الدولة	دخل الفرد سنة ٩٢ بالدولار الامريكى	معامل التنمية البشرية ★	كثافة السكان فرد فى الكيلو متر المربع	نصيب الفرد من المياه المتاحة متر مكعب/ سنة	نصيب الفرد من الاحتياطيات المثبتة من		
					الفحم طن	البترول برميل	الغاز متر مكعب
إسرائيل	١٢,٢٩٠	٠,٩٠٠	٢٢٣	٤٧٥	–	–	–
الأردن	١,١٢٠	٠,٦٢٨	٤١	١٨٥	–	–	–
سوريا	١,٢٧٠	٠,٧٢٧	٦٨	٥٠٠	–	١٣٠	١٤,٥٠٠
لبنان	؟	٠,٦٠٠	٢٦٤	٢٧٠	–	–	–
مصر	٦٤٠	٠,٥٥١	٥٨	١٠٥٠	٠,٥	١٠٠	١٠,٠٠٠

★ معامل التنمية البشرية كما جاء فى تقرير الأمم المتحدة (١٩٩٤) يبين مستوى الصحة والتعليم والدخل والتى تكون فى أحسنها كلما ارتفع الرقم.

وليس لي من تفسير لما جاء فى هذا الجدول من بيانات الا أن مصر لم تستفد من امكاناتها، وأنها أقدمت على تبديد ثروتها. وأريد من القارىء فى النهاية أن يتصور معى مصر وقد استفادت من ثروتها وجعلت من بترولها خيرا على البلاد وسندا لصناعاتها وأساسا لبناء مجتمعات صناعية تبنى حول مدن كاملة تنشأ فى مواقع استكشاف الغاز بقلب الصحراء وتمتد بالماء العذب من المياه الأرضية ان وجدت أو بأنبوب من النيل بعد أن يتم ترشيد استخدام المياه فيه ، وبناء مثل هذه المدن سيقلل من كثافة السكان في وادى النيل وسيزيد من ثروة البلاد ويعطى لأبنائها عملا وأملا فى مستقبل أفضل .

ولما كانت مياه الصحراء محدودة الكمية، فإن الواجب يحتم علينا الحفاظ عليها لاستخدامها أفضل الاستخدام، وفى ظنى أن هذا يأتى بحفظ هذه المياه للتنمية الحضرية ولعمليات التوسع الصناعى المبنى على التكنولوجيا المتقدمة. ومن المؤكد أن استخدام المياه فى عمليات التوسع الزراعي قد لايكون أفضل الاستخدام لهذا الماء المحدود الذى رأينا غلاء استخراجه ورفعه الى سطح الأرض. وليس هناك من شك فى أن مردود استخدام وحدة المياه فى مجال التوسع الصناعي سيكون أكبر بكثير من مردود استخدامها فى الزراعة وأفضل أماكن بناء الصناعة هو ماجاور مصادر الطاقة وماجاور البحر مثل : منطقتى خليج السويس والبحر الأبيض المتوسط الى الغرب من الاسكندرية، وبالمنطقتين من الخامات مايصلح لإنشاء مجمعات صناعية، فحول

سواحل خليج السويس توجد خامات الفوسفات والبوتاسيوم اللازمتان لصناعة الأسمدة كما أن بالمنطقة الخامات اللازمة لصناعة الأسمنت والسبائك المختلفة. أما أفضل المناطق للزراعة فهى المناطق التى تتدفق فيها الآبار دون الحاجة الى رفعها حتى يتم ايجاد طريقة رخيصة للتغلب على مشكلة رفع الماء من الأعماق باستخدام مصادر الطاقة المتجددة.

الباب الثاني

فى النظام العالمى الجديد

مصر والنظام العالمى الجديد

(١)

نحن نعيش في بدايات عالم جديد نشأ فى أعقاب سقوط الاتحاد السوفييتي ونهاية الحرب الباردة فى سنة ١٩٨٩، وهو عالم يختلف اختلافا كبيرا عن العالم الذى عاصرناه وشهدنا ميلاده في أعقاب الحرب العالمية الثانية والذى تميز بصراع شرس بين الدولتين العظميين اللتين خرجتا منتصرتين من هذه الحرب . وفى هذا الصراع، لجأت الدولتان المتصارعتان الى كل الوسائل – شرعية كانت أو غير شرعية– فيما عدا الحرب الساخنة التى عاش العالم كله على حافتها لتقويض الأخرى . ولم تنشر بعد تفاصيل هذه الوسائل وإن كان من المؤكد أنها كانت فى الكثير من الأحيان غير أخلاقية ومنافية لمبادىء القانون الدولى ولميثاق حقوق الإنسان. وفى هذه الفترة، ازدهرت فنون الدعاية وتوجيه الرأى العام والتشويش على الأخبار بل وتشويهها "Disinformation" . وفيها كان من الممكن للكثير من حكام دول العالم الثالث الابقاء على كراسيهم فى الحكم والاحتفاظ بدولهم كوحدات قائمة بفضل معونة الدولة الأعظم المساندة، حتى وإن كانوا على جهل

بفنون الحكم والإرادة ومهما جلبوا على بلادهم من دمار . ففى فترة الحرب الباردة، كانت الدولتان الأعظم تتسابقان لالتقاط أية دولة قبل سقوطها للحفاظ عليها أملا فى الاستفادة منها فى بناء سلسلة القواعد العسكرية والاقتصادية التى كانت كل منهما تسعى لبنائها لتطويق القوة الأخرى . أما وقد انتهت هذه الفترة فقد انتشرت ظاهرة تحلل الكثير من الدول سيئة الحكم بل وسقوطها حتى ليمكن القول إن هذه الظاهرة هى إحدى سمات النظام العالمى الجديد التى لم يعد وقوعها لافتا للانتباه أو مثيرا للقلق كما حدث فى حالة تحلل دول مثل زائير أو العراق أو الصومال أو افغانستان .

كان انتصار المعسكر الغربى بقيادة الولايات المتحدة علي الاتحاد السوفييتى ساحقا وسريعا، تم دون اطلاق طلقة واحدة: ففى خلال أشهر قليلة، استسلمت هذه الدولة العظمى لكل مطالب المنتصرين، وتم تفكيكها وحل جيشها وهدم صناعاتها وتحويلها إلى دولة تابعة يكاد ألاّ يكون لها وزن أو صوت فى العالم الجديد الذى نشأ عقب سقوطها .

ويقود هذا العالم الجديد الولايات المتحدة الأمريكية التى أصبحت اليوم القوة المسيطرة على مصائر العالم . أقول ذلك من واقع مانراه على المسرح العالمى ،فهى الوحيدة التى تجوب أساطيلها البحار وتنتقل جيوشها عبر القارات، وهى التى استطاعت حسم النزاعات فى الخليج الفارسى والبلقان وأمريكا الوسطي والشرق الأوسط، وهى الوحيدة القادرة علي استصدار أى قرار من الهيئات الدولية حتى وإن بدا دون

منطق أو مستند إلى مبادىء القانون كحصار ليبيا أو العراق أو كوبا. ولست على يقين إن كانت الولايات المتحدة ستستطيع أن تحافظ على هيمنتها الحالية فى المستقبل القريب أو البعيد، ولكنها اليوم هى مركز القيادة دون منازع وفى ظنى أن المستقبل ينبىء بأن الهيمنة العالمية ستنتقل الى الشركات عابرة القارات والمتعددة الجنسية والتى نرى تباشير سطوتها اليوم وتحديها الواضح لنظام الدولة القومية "Nation State" الذى ساد العالم منذ الثورة الصناعية.

أهم سمة للعالم الجديد، لذلك يتمثل فى صعود هذه الشركات الى قمة الهرم الاقتصادى العالمى وذلك لفتح آفاق العالم على اتساعه لنشاطها بفضل التقدم التكنولوجى فى وسائل الانتاج وبسبب التخفيض الكبير فى تكلفة النقل والمواصلات مما أتاح نقل البضائع كلها أو أجزاء من خطوط انتاجها من دولة الى أخرى بسهولة كما أتاح انتقال رءوس الأموال عبر الدول حتى فاق الاستثمار الأجنبى المباشر فى الكثير من الدول مجمل انتاجها وتجارتها. وقد أدى ذلك الى كوكبة الاقتصاد، وازدادت سطوة الشركات عابرة الدول والمتعددة الجنسية والتى أصبحت محل الترحيب من جميع الدول التى باتت تتنافس لجذب استثماراتها وهى التى كان ينظر إليها وحتى وقت قريب بريبة شديدة.

وتحتاج حرية الحركة لهذه الشركات عابرة الدول إلى تسهيل الانتقال الحر للأموال والبضائع عبر الحدود، وتحرير الاقتصاد من كل قيود أو تشريعات قد تعوق حركته أو تحد من حرية المنافسة أو التجارة

كالدعم أو الحماية الجمركية أو تلك التى تعطى العمال حقوقا أو ضمانا يتنافى ومبدأ حرية السوق التى يراد لآلياتها أن تكون الحاكمة .

وتطبيق هذه المبادىء يؤدى بالضرورة الى الإقلال من سلطة الدولة، وإلى ضرورة عدم تدخلها فى تنظيم الاقتصاد أو تخطيطه أو فى الحد من حرية الشركات فى تعيين وفصل العمال والموظفين، أو فى حرية نقل الأموال أو أدوات الانتاج أو فى ادارة الأعمال. ومن هنا هذه الأزمة التى تجد الدولة القومية نفسها فيها بعد أن تقلص دورها واقتصر على خدمة الشركات متعددة الجنسية .

ومن سمات العالم الجديد، تصاعد دعوة الخصخصة والمطالبة بنقل الملكية العامة الى الخاصة وقد نالت هذه الدعوة بالذات من الدعاية ماجعلها مقبولة وكأنها من البديهيات التى لاتحتاج الى مراجعة أو نقاش، وهى من الدعوات التى تتبناها الشركات عابرة الدول لإحكام سيطرتها علي الاقتصاد العالمى فهى تتيح لها امتلاك أصول هائلة، فى مختلف الدول بأبخس الأسعار .. وعادة مايتم ذلك بعرض هذه الأصول للبيع دفعة واحدة فيعجز رأس المال المحلى عن شرائها دون مشاركة كبيرة من هذه الشركات .

وقد أدت مجمل هذه الدعوات الي بروز أحزاب سياسية جديدة، وتبنى الكثير من الأحزاب القديمة لمبدأ تحجيم سلطة الدولة وقصر دورها على بناء وصيانة البنية الأساسية لخدمة هذه الشركات. وقد نال هذا المبدأ مصداقية كبيرة وعطفا من الرأى العام، بعد انكشاف فضائح

الفساد فى الكثير من الدول والتى كثيرا ما كان الاعلان عنها والمبالغة فى إبرازها بوسائل الاعلام مقصودا .

ويسير مع دعوة تحجيم سلطة الدولة، دعوة الاقلال من سلطات المنظمات الدولية كالأمم المتحدة والاتحادات الدولية والتى فقدت الكثير من فعالياتها بعد أن غضبت منها الدول المهيمنة بسبب طريقة التصويت فيها فهى تعطى جميع الدول أصواتا متساوية مما يجعل التسلط عليها صعبا وباهظ النفقة .

وفى مثل هذا الجو العام، أمكن تفتيت الكثير من الدول وانفصال أجزاء منها إما بالرضا أو بالحرب الأهلية - لتكوين دول قزمية جديدة كسلوفينيا أو مولدافيا أو سلوفاكيا أو أرمنيا أو البوسنة أو اريتريا. كما ساعد انتهاء الحرب الباردة فى تفتيت الكثير من دول العالم الثالث وانفصالها الي وحدات يحكمها مشايخ القبائل أو رجال العصابات، كما حدث فى الصومال وليبيريا وزائير وكمبوديا، وهى دول كان تماسكها مبنياً علي المعونات التى كانت تصلها من إحدى القوتين الأعظم خلال الحرب الباردة .

كما تواكب - مع تراجع سلطة الدولة المركزية - تعاظم دور المافيا العالمية التى كانت تحت رقابة مخابرات الدول العظمى خلال الحرب الباردة فاستطاعت أن تتسلط علي قطاعات من الاقتصاد وأن تحتكر تجارة مواد بعينها وأن تستولى على مسالك ودروب خلفية بل وأن تمتلك

المطارات والأساطيل الخاصة. وليس دور المافيا العالمية فى روسيا وافغانستان وباكستان وكولومبيا بخاف على أحد، كما أن دورها فى غسيل الأموال وفى حركة الاستثمار العالمية، التى تدار من البلاد الخالية من الضرائب كجزر البهاما أو لشتنستاين، كبير .

هذه التغيرات، وغيرها التى تلاحقت فى أعقاب الحرب الباردة، حدثت بخطى سريعة ومتلاحقة. وليس أدل على ذلك من التغير الكامل للخارطة الاجتماعية فى الكثير من البلاد بظهور نخب جديدة بالغة الثراء قليلة العدد، وبتراجع دور الطبقة الوسطى وتهميش أعداد كبيرة من المجتمع، في أقل من عقد واحد. وقد أصبحت هذه ظاهرة عالمية أتت مع كوكبة الاقتصاد وهى أشد وضوحا فى بلاد العالم الثالث، ولكنها واضحة فى الدول الصناعية أيضا. وقد ذكر انتونى لويس فى مقال حديث بالنيويورك تايمز أن دخل خمس سكان الولايات المتحدة الأعلى قد زاد بنسبة ٢٥٪، فى العشر سنوات الأخيرة، فى الوقت الذى انخفض فيه دخل الخمس الأدنى بنسبة ١٠٪ .

ومن علامات النظام العالمى الجديد، كذلك، تصاعد الدعوة الى الإقلال من الضرائب، الإقلال من الانفاق على البرامج الاجتماعية إذ لايبدو أن أحدا من محدثى الثروة راغب فى الإنفاق على من عجز عن إيجاد عمل أو من تقدم فى السن أو لمن اضطر الى إعالة طفل دون شريك أو عمل. هذا علي الرغم من تزايد البطالة التى أصبحت سمة من سمات التقدم التكنولوجى وأحد الآثار الجانبية لكوكبة الاقتصاد واطلاق

حرية السوق واشتداد المنافسة مما أدى الي ادماج وتحجيم وحدات الإنتاج وتوفير أعداد كبيرة من العمالة والى نقل بعض المصانع الى حيث تكون العمالة أقل تكلفة. ومما يزيد الأمر صعوبة. تراجع قوة اتحادات نقابات العمال ـ وقد أدى كل ذلك الى حالة من الضيق والغضب فى كافة بلاد العالم الصناعى بدت واضحة فى حجم الاحتجاج الذى شارك فيه الكثيرون فى فرنسا فى ديسمبر ١٩٩٥ ضد الترتيبات الاقتصادية التى أرادت وزارة شيراك تمريرها للبدء في ادماج فرنسا فى الاقتصاد العالمى .

ومن الملاحظ أن مجمل دعوات الكوكبة الاقتصادية تتطابق وتتناغم الي حد كبير مع دعوات التيارات المحافظة وعلي الأخص تيارات الأصولية الدينية التى تصاعدت قوتها تصاعدا كبيرا فى السنوات الأخيرة. ومما هو جدير بالذكر أن بدء احتضان الحكومات العلمانية- وعلى الأخص حكومة الولايات المتحدة - لهذه التيارات حدث فى الثمانينيات حين تحالف الحزب الجمهورى مع تيار اليمين الدينى المسيحي وحين قام بتشجيع الحركات الأصولية المسيحية والإسلامية والهندوسية فى مختلف أرجاء العالم لاستخدامها لضرب الحركات اللبرالية وللإجهاز على الاتحاد السوفييتى. وغير خاف الدور الأساسى الذى لعبته الولايات المتحدة فى بناء وتمويل حركة المجاهدين الأصولية في افغانستان والذى لعبته اسرائيل فى بناء وتشجيع حركة حماس .

(٢)

وإذا كانت هذه هي حالة ونزوعات العالم الجديد الذي نعيش فيه. فأين ياترى سيكون مكان مصر والعرب والشرق الأوسط فيه؟ في ظني أنه على المدى القريب سيكون الأثر قليلا ذلك لأن منطقة الشرق الأوسط هي من المناطق القليلة إن لم تكن الوحيدة التي لازالت تهب عليها أعاصير العالم الجديد في رفق شديد ويتم ادخالها في نظام السوق في هدوء ويستمر العالم في مدها بالمعونات من أجل الحفاظ عليها طافية ويتحمل منها الكثير من التجاوزات بسبب أن منطقة الشرق الأوسط مازالت في حالة نزاع يهم العالم أن يظل منضبطا حتى ينفرج.

أما على المدى الطويل وفي أعقاب انفراج الحال وانتهاء النزاع العربي الاسرائيلي وتسويته فإن المنطقة ستزج في نظام السوق وستدمج في الاقتصاد العالمي وستتحمل تبعات هذا الإدماج بدءاً من التنافس الحر علي الأسواق ونهاية بالقدرة على العيش دون معونات أو تحويلات .

ويصعب عليَّ أن أتصور أن مصر ستستطيع أن تهرب من هذا المصير وأن تعود مرة أخرى الى اتباع سياسة مستقلة في التنمية تعتمد علي الحماية الجمركية وعلى الاتفاقيات التجارية الثنائية بين الدول المشابهة فقد قطعت مصر شوطا كبيرا في طريق الدخول في السوق العالمي سواء عن إدراك لنتائج هذا الطريق أو عن غير إدراك لهذه النتائج بحيث يكاد أن يكون من المستحيل الرجوع عن هذا الطريق، وقد

بدأت مصر طريقها الى العولمة فى السبعينات عندما أهملت قاعدتها الانتاجية وعجزت عن تعبئة المشتغلين بالبحث العلمى فيها لتطويرها وبددت كوادرها الفنية بتشجيعها علي الهجرة الى خارج البلاد .. وفى هذه الفترة تدفقت علي مصر من الأموال العارضة والمعونات والقروض ماعوضها عن ضياع قاعدتها الانتاجية وماجعلها تتهاون فى المواءمة مع متطلبات الدخول فى الاقتصاد العالمى حيث يرتب الاقتصاد بحيث تنتج الدول مايكون لها فيه من ميزة خاصة .

وفى مثل هذا النظام يسقط الكثير مما هو قائم وتحل محله أنشطة أخرى يمكن أن يكون لمنتجاتها مكان فى السوق العالمى وقد حدثت هذه التغيرات فى الكثير من الدول ففى الدول الصناعية اختفت صناعات المداخن "Smoke-Stack" والتعدين لأن تشغيلها على المستوى الإنسانى والمقبول ذو كلفة باهظة سواء من ناحية الأجور أو من ناحية إصلاح أثرها المدمر على البيئة ومن هنا فلم يعد لهذه الصناعات مكان فى هذه الدول فقد تركت لبلاد العالم الثالث التى تستطيع أن تقبل أجورا أدنى وتأمينا أقل لعمالها وتساهلا أكبر فى موضوع حماية البيئة التى مازال من الممكن إفسادها دون أن يرتفع فيها صوت احتجاج يذكر- وتثير هذه التغيرات توترا اجتماعيا شديدا شاهدنا مثالا منه عندما قررت بريطانيا إغلاق مناجم الفحم فيها منذ سنوات قليلة مما أقام عليها غضب العمال ونقاباتهم .

وفى مصر يبدو أن معظم إن لم يكن كل صناعات مصر الحالية ستجد صعوبة هائلة فى التكيف مع النظام الحر للتجارة فجميعها بما فيها صناعة السيارات التى لازلنا نبنى مصانعها تعتمد على اقتصادياتها على حماية جمركية عالية ـ وينطبق الشيء نفسه على الزراعة فمعظم منتجاتنا منها أما غالية الثمن أو غير مطابقة للمواصفات العالمية وغير قابلة للتنافس فى السوق العالمى .

وليس فى مصر حتى الآن خطة مدروسة وطويلة المدى للاستفادة من الميزات الخاصة المتاحة لها لكى تتنافس على مستوى السوق العالمى لبيع منتجاتها أو لجذب الاستثمارات اليها ولمصر من الميزات الخاصة من حيث الموقع والتاريخ والجو والبشر مايمكنها أن تجد لها مكانا فى هذا العالم الجديد الذى اختارت الدخول فيه فهى فى موقع حاكم بين القارات الثلاث ووسط بين طوكيو ونيويورك مما يمكن أن يجعلها شريانا للنقل ووسيطا لانتقال المال وهى ذات تاريخ عريق فى آثاره وتراثه وهى ذات جو معتدل على طول العام يمكن أن يخرج المحاصيل وقت مالا يمكن لغيرنا أن يخرجه ويسكنها بشر ذوو تراث فى السماحة والنظام والحياة المدنية مما يمكن إن أحسن تعليمهم وحوفظ على تراثهم أن يبنوا مراكز حيوية للفكر والفن والحرف والصناعة .

هل اقتربت نهاية عصر البترول كمصدر للطاقة ؟

(١)

ظل البترول لمعظم سنوات القرن العشرين المصدر الأساسى للطاقة الذى أدار عجلة الاقتصاد المتوسع للدول الصناعية ، وكان لسعره الرخيص وسهولة استخراجه ونقله الأثر الكبير لنجاح هذه الدول فى تنمية بلادها ورفع مستوى معيشة سكانها بمعدلات عالية وغير مسبوقة. وجاء معظم هذا البترول ، الذى أشعل هذا النمو وأعطى لسكان هذه البلاد هذا المستوى الرفيع للعيش ، من صحارى الشرق الأوسط التى كان يحكمها وقت اكتشافه بعض من مشايخ القبائل المتشاحنين . ومنذ اكتشاف هذه المنابع ، فى عقدى الثلاثينات والأربعينات من القرن العشرين ، فإن الدول الصناعية عملت كل ما تستطيع للسيطرة على هذه المنابع لضمان وصول بترولها إليها دون انقطاع وبسعر رخيص ومقبول . وقد شكل هذا الاهتمام بهذه المنابع التاريخ الحديث والمضطرب لمنطقة الشرق الأوسط ، كما كان أحد أهم الأسباب وراء تخلف دولها عن الانطلاق لتنمية اقتصادها أو عن بناء وتثبيت المؤسسات الديمقراطية والمدنية فيها .

وخلال أزمة السويس فى سنة ١٩٥٦ ، جاء أول تحد حقيقى لسياسة الدول الصناعية التى كانت تدور حول تأمين وصول بترول الشرق الأوسط لها. ففى هذه الأزمة ، أغلقت قناة السويس وقطعت الأنابيب التى كانت تنقل بترول الشرق الأوسط إلى الدول الصناعية فتوقف وصول البترول إليها ، ثم جاءت حرب اكتوبر سنة ١٩٧٣ وقرار الدول المنتجة للبترول بالمنطقة بإيقاف تصديره إلى الدول الغربية لفترة استمرت لحوالى السنة ثم تكوين كارتل يضم هذه الدول (الأوبك) أتفق فيه على تحديد حصة لكل منها لا تتعداها حتى يمكن التحكم فى سعر البترول الذى ارتفع لعدة مرات خلال عقد السبعينات مما سبب اضطرابا فى اقتصاد العالم الصناعى فيما عرف بين اقتصاديي الغرب «بصدمة السبعينات» .

وقد بينت هذه الأحداث للدول الصناعية الغربية التحدى الكبير الذى يواجهها للسيطرة على منابع بترول الشرق الأوسط التى رتبوا حياتهم عليها لتزويدهم بمصدر رخيص للطاقة . وكان رد فعل هذه الدول هو فى اتخاذ عدد من الاجراءات السريعة لتفادى الوقوع فى أزمات أخرى، مماثلة كتلك التى حدثت لهم وقت السويس وحرب سنة ١٩٧٣ ، وكذلك فى تبنى خطة طويلة الأجل لإعادة السيطرة على هذه المنابع.. وكان من الاجراءات السريعة بناء ناقلات ضخمة ، حتى يمكن نقل البترول عبر طريق رأس الرجاء الصالح فى حال إغلاق قناة السويس، وتنشيط

البحث عن البترول فى مناطق خارج بلاد منظمة الأوبك وتبنى سياسة للإقلال من الطلب على البترول وذلك بتوفير استخدام الطاقة وترشيدها، سواء فى وسائل النقل التى طلب من مصانعها أن تعيد تصميمها لتستخدم وقودا أقل ، أو فى المنازل والمكاتب وأماكن العمل باحكام فتحاتها حتى لا يتسرب الدفء منها، أو بالاستغناء عن البترول كلما أمكن ذلك واستخدام بدائل له . وهكذا تم التوسع فى أعقاب حرب سنة ١٩٧٣ فى بناء المحطات النووية لتوليد الكهرباء .

أما الاجراءات طويلة المدى ، فقد اشتملت من بين ما اشتملت العمل على إعادة السيطرة على بترول الشرق الأوسط وذلك بخلق حالة من النزاع المستمر فى المنطقة يستدعى ضبطه دعوة الدول الصناعية للتدخل لحماية المتنازعين . والناظر لحالة الشرق الأوسط فى تسعينات القرن العشرين لا يسعه إلا أن يرى أن هذه السياسة قد نجحت فقد أصبحت المنطقة اليوم مثالا نموذجيا لحالة ما يسميه خبراء العلوم السياسية «النزاع المستمر والمنضبط» والذى تقف فيه الولايات المتحدة ضابطا للإيقاع تلجأ إليه جميع دول المنطقة لحل نزاعتها المستمرة والتى لا يريد أحد منها أن تنفلت ، وكان قد سبق لى أن كتبت فى يونيه ١٩٩٤ محاولا تفسير حالة الشرق الأوسط فى إطار هذه النظرية ، وقد أثبتت الأحداث ما ذهبت إليه. فها نحن نرى ما آل إليه حال منطقة الخليج . بعد الحرب الساخنة التى اشتعلت فيها بعد عدوان العراق على

الكويت ، والتى لازالت بعد ست سنوات من انتهائها في حالة نزاع يبرر بقاء القوات الأجنبية فيها حتى لاينفلت . وفى الواقع فإن الغرض من حرب الخليج لم يكن حل النزاع بين العراق والكويت بل ابقاؤه منضبطا فقط .

وقد أعطت حرب الخليج الفرصة للولايات المتحدة لكى يكون لها حضور ظاهر فى منطقة الخليج التى كلفتها بولها بالحفاظ على أمنها وتأمين بترولها وطرق الملاحة التى تنقله . وقد كانت هذه الحرب نقطة الانطلاق للولايات المتحدة لمحاولة الهيمنة علي مصادر النفط على مستوى العالم كله . والمتتبع لحركة استثمارات النفط ، يجد أن الولايات المتحدة هى أكبر المستثمرين فيها ، وتكاد تكون الصناعة الوحيدة التى لا تلعب فيها الشركات متعددة الجنسية وعابرة الدول دورا يذكر فهى من الصناعات الاستراتيجية التى تخطط الولايات المتحدة للاحتفاظ بها لنفسها لكى تهيمن بها على عالم ما بعد الحرب الباردة . ففى هذا العالم الجديد ، فقدت الولايات المتحدة ورقة المظلة النووية التى كانت تمسك بها لحماية العالم الغربي خلال سني الحرب الباردة ، وهى الآن تسعى لكى تضع يدها على أكثر ما تستطيع من منابع النفط حتى يكون لديها ورقة جديدة تجعل كلمتها هى العليا . وقد هيأت حرب الخليج لها ذلك فى منطقة الشرق الأوسط ، كما هيأت نهاية الحرب الباردة لها فى ذلك فى روسيا والبلاد التى كانت تابعة للاتحاد السوفيتى السابق. ولا شك أن جزءاً غير يسير من الضغوط التى تتعرض لها إيران وليبيا

حاليا، والتى تعرضت لها العراق فى السابق ، يعود إلى أن هذه البلاد كانت تتعامل مع بلاد أوروبا الغربية فى شئون البترول من وراء ظهر الولايات المتحدة. ومن المحللين من يرى أن الخلاف بين فرنسا والولايات المتحدة بشأن موقفهما من الحكومة الجزائرية والجماعات الإسلامية ، حيث يقوم الجانب الأمريكى بتشجيع هذه الجماعات ، إنما يعود إلى تصميم الولايات المتحدة على أن يكون لها نصيب فى بترول الجزائر حتى ولو أدى ذلك إلى انهيار الحياة المدنية فيها .

(٢)

ويزود البترول الدول الصناعيّة فى الوقت الحاضر بحوالى ٦٠٪ من احتياجاتها من الطاقة ويزودها الفحم بحوالى ٢٠٪ منها ، بينما تتولى مصادر الطاقة الأخرى (مساقط المياه والمحطات النووية والمتجددة) تزويدها بالباقى ويستخدم العالم الصناعى بما فيه النمور الأسيوية حوالى ٦٤ مليون برميل يوميا تستهلك الولايات المتحدة وحدها حوالى ربعها . وفى سنة ١٩٩٥ استهلكت الولايات المتحدة ١٦,١ مليون برميل فى اليوم الواحد انتجت منها ٦,٧ مليون برميل واستوردت الباقى من المكسيك وفنزويلا والشرق الأوسط .

ويستهلك العالم الصناعى نصف هذا البترول فى تسيير وسائل النقل ونصفه الآخر فى توليد الكهرباء (٢٠٪) وإدارة عجلة الصناعة

(٣٠٪) . وقد قلل التوسع في بناء المحطات النووية بعد حرب سنة ١٩٧٣، من اعتماد الدول الصناعية على البترول فى ميدان توليد الكهرباء إلى النصف . وتنتج هذه المحطات فى الوقت الحاضر حوالى سدس احتياجات الطاقة في البلاد الصناعية - على أن هذا التوسع لم يكن بغير ثمن باهظ: فبالإضافة إلى أن كلفة توليد الكيلووات/ساعة من الكهرباء من هذه المحطات عال يصل إلى ما بين ١٢,٥ سنت - بالمقارنة بكلفة ٣ إلى ٨ سنتات من الوسائل التقليدية - فإن المحطات النووية خطرة التشغيل ويصعب التخلص من نفاياتها الخطيرة على حياة الانسان.

وكما سبق أن ذكرت ، فإن الدول الصناعية مشغولة اليوم بإيجاد بدائل للبترول. وقد أنفقت هذه الدول فى العقدين الماضيين أموالا ضخمة للبحث عن مصادر أخرى للطاقة وتركزت معظم الأبحاث على مصادر الطاقة المتجددة كالشمس والرياح ومد وجذر البحر . ويعود هذا الاهتمام إلى أسباب عديدة لعل من أهمها الخوف من تجدد الأزمة البترولية التى عاصرتها الدول الصناعية فى السبعينات والتى سببت قلقا كبيرا . صحيح أنه لاتوجد اليوم أو فى الأفق القريب أزمة بترولية من أي نوع كان ، فالانتاج يفوق الاستهلاك ومنابع البترول مؤمنة أكثر من أى وقت مضى واحتياطيات البترول المثبتة قد زادت نتيجة التقدم التكنولوجى الكبير فى طرق البحث عنه، إلا أن كل ذلك لايعنى أن عالم الغد لن يرى أزمات كبيرة فى امدادات البترول. فطبقا لأحد التصورات التى أصدرتها وزارة الطاقة الأمريكية ، فإن العالم سيحتاج إلى ٢٠

مليون برميل إضافية كل يوم لمقابلة احتياجاته فى سنة ٢٠١٠ وذلك لمواجهة متطلبات الزيادة المتوقعة فى السكان . وفى هذه السنة سيزيد عدد سكان العالم بمقدار النصف ، وسيكون نصف هذه الزيادة فى بلاد العالم الثالث التى سينتقل الكثيرون من سكانها إلى المدن مما سيؤدى إلى تزايد استخدام البترول عن معدلاته الحالية بسبب طبيعة العيش فى المدن نظرا لضرورة التوسع فى استخدام وسائل النقل فيها لحاجة سكانها للانتقال اليومى إلى مقار أعمالهم وحاجة متاجرها ومصانعها لنقل البضائع والمواد . وبانتقال سكان الريف إلى المدن ، فإن الطلب على البترول سيزيد فى الريف أيضا نظرا لأن هذا الانتقال سيجعل ميكنة الزراعة ضرورة – وتتوقع هذه الدراسة أن استهلاك الطاقة سيزيد بنسبة ٤٥٪ للفرد من سكان الهند والصين والذين ينتظر أن يتضاعف عددهم فى العشرين عاما القادمة.

ومما سيزيد الطلب على البترول ، انتشار عمليات التصنيع فى الكثير من البلاد ، وتستخدم الصناعة طاقة أكبر عن أى نشاط آخر لكل وحدة إنتاج وهى أعلى ما تكون فى الصناعات الأساسية التى تسعى الدول الحديثة التصنيع إلى بنائها كصناعات الفلزات الأولية (المعدنية) والأحجار والطين والزجاج ولب الورق وتكرير البترول والكيماويات وتستهلك هذه الصناعات وحدها ٨٠٪ من جملة الطاقة التى تستخدم فى الصناعات فى الولايات المتحدة .

ويتزايد فى الوقت الحاضر الاستهلاك العالمى من البترول بواقع ٢٪

سنويا . على أن ذلك المعدل سيتغير تماما إذا ما ارتفع متوسط استهلاك الفرد فى الصين والهند إلى نفس متوسط استهلاكه فى كوريا الجنوبية . ففى هذا الحال ، فإن هاتين الدولتين ستحتاجان وحدهما إلى ١١٧ مليون برميل فى اليوم أى قرابة ضعف استهلاك العالم فى الوقت الحاضر ، ويصعب تصور استيفاء مثل هذه الاحتياجات من منابع البترول الحالية ، بل ويصعب تصور إيجاد منابع جديدة يمكن أن توفى بها لمدد طويلة وبأسعار مقبولة . هذا بالإضافة إلى أن مثل هذا الاستهلاك الهائل سيلوث الجو ويجعل العيش فى جميع أرجاء الأرض صعباً .

(٣)

وتدفع هذه التصورات العالم الصناعى لاتخاذ الخطوات الجادة للإقلال من استخدام البترول تمهيدا لاستبداله تدريجيا بمصادر جديدة ونظيفة . وقد شغل هذا الموضوع الباحثين منذ سبعينات القرن العشرين عندما ارتفعت أسعار البترول . وقد نجحت البرازيل فى آخر هذا العقد فى انتاج سيارة جديدة تسير بالكحول بدلا من البنزين ، وقامت ببناء مصنع خاص لانتاج هذه السيارات ، ولكن المشروع فشل نظرا لأنه كان مبنيا على افتراض أن سعر البترول سيزيد عن ٤٠ دولارا للبرميل وهو ما لم يحدث . وقد تجدد البحث فى الموضوع فى الثمانينات حين بدأت شركات البترول العملاقة والكثير من حكومات الدول الصناعية

باجراء أبحـــاث فى هذا الشـأن ، ونذكر منها على سبيل المثال تلك التي تقوم بها حكومة الولايات المتحـدة الأمريكيـة بالاشتراك مع شركات السيارات الكبرى.لتطوير وسائل النقـل حتى تكـون نظيفة العـادم (Zero - emission) بحلول عشرينات القرن الواحد والعشرين، وقد سبقت ولاية كاليفورنيا جميع الولايات الأخرى فى استصدار قانون يحتم على شركات السيارات بأن يكون ٢٪ على الأقل من سياراتها المعروضة في السوق نظيفة العادم فى سنة ١٩٩٨ . وحتى اليوم فإن مثل هذا الشرط لا توفيه غير السيارات الكهربائية التي يجرى تطويرها اليوم لكى تعرض فى السوق فى ذلك العام . وتنوى الحكومة الأمريكية أن يكون ما بين ١٠٪ إلى ١٢٪ من أسطول سياراتها المستخدم فى مصالحها نظيفة العادم بحلول سنة ٢٠٠٠ ومن المخطط أن يعم تشغيل هذا النمط من السيارات عند خلول ثلاثينات القرن الواحد والعشرين على أن يتم استبدال جميع السيارات الدائرة بالبترول بعد ذلك بعقد أو اثنين . وإذا كان أمر إيجاد بديل للبترول فى وسائل النقل بعيدا فإن أمر إيجاد بديل له فى عملية توليد الكهرباء أصبح قاب قوسين أو أدنى من التحقيق . واليوم. أصبح من الممكن انتاج الكهرباء بالوسائل غير التقليدية بطريقة اقتصادية . ففى خلال السنوات العشر الماضية أمكن خفض ثمن توليد الكيلووات / ساعة من الكهرباء من تربينات الرياح (طواحين الهواء) من ٢٢ سنتا إلى أقل من ٦ سنتات، مما جعل استخدامها اقتصاديا فى الكثير من البلاد ، كما

أمكن خفض ثمن الكهرباء الشمسية الحرارية المولدة من الشمس لتصبح واسعة الاستخدام فى المنازل لتسخين الهواء المستخدم فى التدفئة أو الماء ، كما تم أيضا خلال هذه السنوات تطوير الخلايا الكيميائية الضوئية (Photovoltaic cells) فانخفض سعرها وأصبحت مصدرا لتوليد الكهرباء فى المناطق النائية . وهذه الخلايا هى أجهزة من أشباه الموصلات التى تولد الكهرباء مباشرة من ضوء الشمس . وقد استخدمت أول ما استخدمت فى تزويد مركبات الفضاء بالطاقة . ويتم الآن انتاج هذه الخلايا تجاريا ، وقد تمت تجربتها فى كينيا فزودت أماكنها النائية بالكهرباء بطريقة اقتصادية ودون دعم . وتتميز هذه الأجهزة الصغيرة الحجم بسهولة تركيبها فى أى مكان مهما كان بعيدا دون الحاجة إلى مد الأسلاك والخطوط كما الحال فى محطات توليد الكهرباء الضخمة الحالية ، وهذه الميزة تجعل هذه الأجهزة قليلة النفقة لعدم الحاجة عند تركيبها إلى مد أية خطوط منها وعالية الكفاءة نظرا لقصر المسافة بين مولد الطاقة والمستخدم النهائى لها .

على أن الوقت الذى ستجىء فيه نهاية عصر البترول قريب ، بل هو أقرب مما يتصوره الكثيرون ، فالأبحاث جارية على قدم وساق لاستبداله والأرباح والوظائف الجديدة لصناعة الطاقة الجديدة تجذب رءوس الأموال وأحسن العقول إليها - وأنى أسجل هذا الآن حتى لا يفاجأ العرب والمصريون بعالم جديد لا يعرفون لهم فيه طريقاً !.

الشرق الأوسط
وحالة النزاع المستمر والمنضبط

لا يسع المتتبع لأحداث منطقة الشرق الأوسط إلا أن يلاحظ أن حالة من النزاع المستمر قد سادت دول هذه المنطقة ، منذ نهاية الحرب العالمية الثانية ، وأنه وباستثناء حالات قليلة فإن أيا من هذه النزاعات لم تتم تسويته ، فقد بقيت معلقة وبلا حل تلتهب حينا فى مواجهات قد تصل إلى الحرب المسلحة ، وتهبط حينا لدرجة المغازلة بين الأطراف المتنازعة .

وبالإضافة إلى النزاع العربى الاسرائيلى الذى مازال مشتعلا منذ مطلع القرن العشرين ، فإن هناك نزاعات الحدود بين مختلف الدول التى خلفها تقسيم دول المنطقة إلى دويلات فى أعقاب الحرب العالمية الأولى ، بعد تصفية الإمبراطورية العثمانية ، مثل حدود جميع دول شبه الجزيرة العربية ، فهى مائعة وغير متفق عليها والحدود بين الجزائر والمغرب ، وبين مصر والسودان وبين العراق وإيران، والعراق والكويت ، وبين سوريا وتركيا وسوريا ولبنان وبين الإمارات وإيران، فكلها حدود متنازع عليها . وقد خلفت حالة عدم تسويتها وتركها دون حل توترات بل حروبا لعل آخرها وأبعدها أثرا حربى العراق وإيران (١٩٨٠ - ١٩٨٨) والخليج (١٩٩٠ - ١٩٩١) .. وهناك أيضا النزاعات الداخلية التى

تغذيها الاختلافات العرقية والقبلية والدينية ، والتى كثيرا ما وصلت إلى حالة الحرب الأهلية كما حدث في لبنان والعراق والسودان والصومال . كما أن هناك النزاعات الوطنية التي تنشأ عن اغتراب جزء من الأمة ، عندما يعجز عن التعبير عن آرائه والمشاركة فى حكم بلاده فيلجأ إلى أعمال العنف .

ضحايا النزاعات

وقد قدرت نشرة المجتمع المدنى ، التى يصدرها مركز ابن خلدون بالقاهرة (عدد ابريل ١٩٩٣) مجموع ضحايا النزاعات العسكرية بين دول منطقة الشرق الأوسط فى الأربعين عاما الماضية بحوالى ٦٠٠,٠٠٠ فرد والمشردين نتيجة هذه الحروب بحوالى ٦ ملايين فرد ، كما قدرت عدد ضحايا الحروب الأهلية بحوالى ١,١٥٠,٠٠٠ فرد ، والمشردين بحوالى ٦,٧٠٠,٠٠٠ فرد . وجاءت أكبر أعداد المشردين نتيجة الحرب الأهلية بالسودان (٤ ملايين فرد) ثم الحروب العربية الاسرائيلية (٣ ملايين فرد) ، فالحرب العراقية الإيرانية (مليون فرد) وحرب الخليج (مليون فرد) والحروب الأهلية بالعراق (مليون فرد) ، ولبنان (مليون فرد) واليمن (نصف مليون فرد) ..

والناظر إلى هذه النزاعات يرى أنها مستمرة منذ فترة طويلة ، حتى أصبحت جزءا من حياة الأمم ، استقر حالها عليها وآلت على نفسها أن تعيش معها ولم يعد أمر انهائها شاغلا لأحد ، مما جعلنى أخمن أنها

جزء من نظام عام يدبر للمنطقة ، تلاقت فيه مصلحة الحكام المحليين مع القوى العظمى ذات المصالح المتشابكة فى المنطقة .

وقد يبدو هذا الاستنتاج غريبا على الكثيرين الذين يأخذون مأخذ الجد تصريحات المسئولين التى يلقونها فى العلن والمليئة بأنبل الشعارات . فالحقيقة التى لا مجال لنكرانها ، هى أن هذه التصريحات العلنية لا تعبر بالضرورة عن السياسة الحقيقية التى يسعى الساسة إلى تطبيقها ! ففى العلن ، يبدو وكأن الساسة مشغولون ليل نهار بحل النزاعات بين الدول وبإشاعة الاستقرار فيها ، وبالعمل لصالح السلام لتحقيق الرفاهية ، ولتأكيد حقوق الانسان ، ولكن واقع الحال يثبت أنهم لا يلجأون فى الغالب لحل أية مشكلة إلا إذا اضطروا اضطرارا وأصبح استمرار النزاع أمرا يهدد مصالحهم . خذ مثلا قضية احتلال الأراضى العربية التى استولى عليها الاسرائيليون فى أعقاب حرب ١٩٦٧ ، وهى قضية ملحة بكل المقاييس ، ومع ذلك فها هى ذى تدخل عامها السابع والعشرين دون حل على الرغم من تأكيد كل مسئول على أن احتلال الأراضى بالقوة أمر غير مشروع ؛ وعلى الرغم من اشتراك كل المسئولين فى إصدار عشرات القرارات من مختلف المؤسسات الدولية لشجب هذا الاحتلال .

الأرض الوحيدة التى أعيدت إلى أصحابها من بين الأراضى التى احتلت عقب حرب سنة ١٩٦٧ هى أرض سيناء ، ذلك لأن النزاع عليها كاد يفلت من يد الجميع ويتحول إلى مواجهة كبرى بين القوى العظمى ،

وعند هذه النقطة فقط شمر الجميع عن سواعد الجد لإيجاد حل للمشكلة .. كان احتلال سيناء وإغلاق قناة السويس وفقدان مصر حقول بترول خليج السويس ضـربة قاسية لم يكن من الممكن لمصر أن تقبلها أو أن تعيش معها . فقناة السويس ليست في وضع الجولان أو الضفة الغربية ، فهي شريان حيوى لاقتصاد مصر ومصدر مهم لإيراداتها ، فضلا عن أنها جزء من تاريخها السياسي الحديث .. ولم يكن من الممكن لأى حاكم مهما بلغت شعبيته قبول فقدانها . ومن هنا جاء رفض المصريين كافة لنتائج حرب ١٩٦٧ ، واستعدادهم للتضحية والفداء لإزالة آثار العدوان . فمنذ اليوم الأول بعد هزيمتهم وهم يحاربون ، وعندما ثبت لهم خلال حروب الاستنزاف التفوق العسكرى لاسرائيل لم يتردد المصريون في أن يطلبوا من الاتحاد السوفييتي ، الغريم الأكبر للولايات المتحدة واسرائيل في ذلك الزمان ، أن يأخذ دورا أكثر فعالية في الحرب ذاتها وهو الأمر الذى لم يكن أحد يريده . إلا أن هذا التحرك نقل النزاع من حالة الانضباط إلى حالة الانفلات فقد بدا للولايات المتحدة حينئذ أن إبقاء النزاع دائرا قد يغير مواقع الدول والاتزان العسكرى فيها ، ومن هنا سعى الولايات المتحدة الحثيث لحل المشكلة وإعادة الأرض إلى مصر ، شرط ابعاد الاتحاد السوفييتي من المنطقة .. وهذا بالضبط هو ما حدث في أعقاب حرب ١٩٧٣ .

غزو الكويت

أما الحالة الثانية التي وصل فيها النزاع إلى درجة الانفلات ، مما اضطر الدول الكبرى للتدخل العسكرى والفورى لحله ، فقد كانت غزو

العراق للكويت فى أغسطس ١٩٩٠ ، فقد نشأت عن هذا الغزو خلخلة فى ترتيبة الدول الصغيرة التى استقر أمر الدول العظمى على أنها أفضل الترتيبات لتأكيد وصول النفط إليها بانتظام وبأسعار مقبولة ولتأكيد المشاركة فى الأرباح الناجمة عن بيعه ونقله وتوزيعه سواء كان ذلك بالمشاركة المباشرة ، أو غير المباشرة كاستردادها بإيداعها فى مصارفها أو بإنفاقها فى شراء البضائع والأسلحة منها ..

وقد كسر الغزو العراقى أهم قواعد انضباط النزاعات بين هذه الدول الصغيرة وجاراتها الكبيرة ، مما أوجب تصحيح الوضع واعادة النزاع إلى حالته السابقة ومن الواضح من الحال الذى انتهت إليه الحرب ، أن حل النزاع لم يكن قط هو غرض التدخل العسكرى ، فقد كان الغرض هو إبقاءه منضبطا فقط .

وفيما عدا هاتين الحالتين اللتين أوشكتا على الانفلات واستدعيا القيام بحلهما فإن باقى الأراضى المحتلة باقية على حالها إذكاء لحالة النزاع القائمة بين الفلسطينيين والاسرائيليين والتى يسعى الجميع لاستمرارها ، وليست اتفاقية غزة - أريحا إلا محاولة لضبط هذا النزاع عن طريق اشراك بعض الفلسطينيين فى هذه العملية .

ويبدو أن فى بقاء حالة النزاع فى منطقة الشرق الأوسط فوائد محققة ليس فقط للقوى الكبرى بل أيضاً لحكام المنطقة المحليين .. والفوائد التى يمكن أن تجنيها القوى الكبرى من استمرار هذه النزاعات واضحة ولا تحتاج إلى إسهاب فالنزاعات بين دول المنطقة - تجعلها فى

ريبة من بعضها البعض فيمتنع إتحادها على أى مستوى كما أن فى استمرارها استنفادا للثروات وتبديدا للطاقات فيقف عندها ويظل اعتمادها مستمرا على استيراد البضائع من الدول العظمى كما سيبرر شراء وتكديس الأسلحة منها مما سيجعل الدفاع عنها مرهونا برضاء هذه الدول .. ولا غرو أن أصبحت المؤسسة العسكرية فى معظم دول العالم العربى واسرائيل أكبر المؤسسات ففيها يعمل أكثر من ٢٠٪ من جملة القوى العاملة وعلى هذه المؤسسات تنفق الدول حوالى ٢٥٪ من إجمالى ناتجها القومى الإجمالى وعلى إعداد جنديها وتدريبه تنفق دول الجزيرة العربية نصف مليون دولار للفرد فى الوقت الذى تنفق فيه ٥٠٠ دولار فقط على تعليم أبنائها فى المدارس المدنية (أى حوالى واحد إلى الألف مما تنفقه على إعداد الجندى) .. النزاعات إذن هى الطريق لتدوير دولارات النفط وإعادتها إلى من دفعوها كما أن استمرارها يحدث الرعب فى قلوب الحكام فيهرعون للقوى العظمى لحمايتهم - وقد رأينا أخيرا اللهفة التى أبداها الكثير من الدول لاستضافة جيوش وأساطيل الولايات المتحدة بل الاستقرار فيها لحمايتها من انفلات النزاعات المستعرة فيها .

وكما أن لاستمرار النزاعات المنضبطة فائدة للدول الكبرى فإن لها فائدة أيضا لحكام المنطقة المحليين ففى استمرارها ما يبرر إحكام قبضة هؤلاء الحكام وتغييب الديمقراطية والحكم بالقوانين الاستثنائية واتخاذ القرارات المصيرية فى سرية ودون إعلان وبالتالى دون محاسبة

ومن أوضح الأمثلة فى هذا الميدان الجهد الكبير الذي يصرفه حكام السودان فى استمرار الحرب الأهلية فهم يعرفون أن بقاءهم فى الحكم رهن باستمرارها فهم من نخب أهل الشمال الذين درجوا على تسخير مصادر ثروة كل البلاد لصالحهم ودون محاسبة - فإنهاء الحرب معناه إشراك جميع أهل السودان على اختلاف أديانهم وأجناسهم فى ثروة بلادهم ومعناه أيضا إقامة حكم ديمقراطي يكون فيه الحكام مسئولين عما يقومون به - وليس أكثر دليلا على اهتمام حكومة السودان باستمرار الحرب من إصرارها على صبغ الدولة صبغة دينية وفرض شريعة دين واحد على جميع السكان الذين يدين الكثير منهم بغير هذا الدين فالسودان بلاد شاسعة يسكنها أقوام يختلفون فى اللغة والدين والعرق اختلافا كبيرا لا يمكن إعلاء دين على دين أو جنس عن جنس دون الدعوة إلى الحرب .

أما فى مصر فإن الذين عاصروا فترة السبعينات فيها فإنهم يعرفون مقدار الجهد الذى انفقه الحكام فى تشجيع جماعات التطرف والفتنة التى نشأ الكثير منها فى حضن المحافظين ورؤساء الجامعات وعمداء كليات التربية الذين كانوا يعينون فى هذه الفترة من بين المتطرفين أنفسهم، وقد سمح لهذة الجماعات باستخدام العنف لتصفية اليسار مما بدأ فى خلق نزاع داخلى خيل للحاكم أنه يستطيع أن يعيش به وبعيدا عنه كما أنهم يذكرون الدعم المالى الذى تدفق فى هذه الفترة لهذه الجماعات دون رقابة من دول أجنبية حتى أن مصر ، التى ألفت

أسماء ملوكها من جامعاتها ، أصبح عندها جامعات تحمل أسماء ملوك دول أجنبية – هذا فضلا عن التغيرات الكبيرة التى أدخلت على برامج الإذاعة والتليفزيون ومناهج المدارس إذكاء للفتنة التى كان المسئولون يأملون فى أن تظل دون انفلات وتشير الدلائل إلى أن هذا الأمل قد تقلص فى التسعينيات وانحصر فى حصر النزاع على المناطق العشوائية فقط بعيدا عن الأماكن التى يرتادها السياح أو تعيش فيها النخبة التى أصبحت تتحصن وراء متـــاريس رجال الأمن العام والخاص .

* * *

الكثير من النزاعات التى تجتاح منطقة الشرق الأوسط فى الوقت الحاضر ذات جذور تاريخية تعود إلى وقت أن كانت معظم هذه الدول تحت سيطرة قوى أجنبية رأت أن فى إبقائها فى حالة انضباط تكريسا لهيمنتها على المنطقة – ففى هذا الوقت جاء وعد بلفور وقسمت المنطقة بصورة تعسفية إلى دويلات ذات حدود مانعة ووئدت الحركات الديمقراطية والتنمية المدنية وعمليات التنوير وتم تشجيع الحركات السلفية والتفرقة بين الناس حسب الدين أو الجنس – ومن السهل لذلك أن نحمل حالة التفتت والنزاعات المستمرة التى نعيشها فى المنطقة على كاهل هذه القوى الخارجية. ولكن الحقيقة المرة هى أن أحدا لا يمكن أن يتحمل استمرار هذه النزاعات غير أنفسنا .. إن تكرير مثل هذه الأقوال يعكس عجز القوى السياسية فى المنطقة عن مجابهة مشاكلها ورغبتها

في تحميل أسباب هذا العجز على غيرها - فالقوى الأجنبية لم يعد لها دور كبير فى إدارة شئون دول المنطقة بعد أن نالت استقلالها - فمهما كان هامش هذا الاستقلال الذى أعطى لها فقد كان من الممكن لو أن أمورها قد استقامت أن تحل الكثير من هذه النزاعات وأن تستفيد من إمكاناتها لتنمية بلادها، ولكن الحقيقة المرة هى أن الكثير من هذه الدول قد رأت أن فى استمرار هذه النزاعات مصلحة لمجموعة الذين تولوا حكمها وتثبيتا لأقدامهم - وقد رأت القوى الأجنبية الاستفادة من حال هذه النزاعات المستمرة والعمل على ضبطها فقط وقصر تدخلها المباشر عندما ينفلت زمامها .

ومما يزيد الأسى أن الكثير من حكام المنطقة شجعوا - عن وعى أو عن غير وعى - قيام نزاعات جديدة فوق ما ورثوه من نزاعات فمشكلة السودان وشمال العراق وانتشار حركات العنف الأصولية على طول العالم العربى هى من فعل الحكام أنفسهم . ومالم يدرك هؤلاء أن عملية ضبط هذه النزاعات هى عملية صعبة وغير محققة النتائج وأن الأفضل لبقائهم هو فى حل النزاعات فإن الأمل فى أن تتبوأ المنطقة مكانها المرموق الذى يؤهله لها مكانها وتاريخ شعوبها هو أمر مستبعد - ولعل أحداث الجزائر المعاصرة تنبه الحاكم إلى أن تشجيع العنف والحركات الأصولية كثيراً ما ينفلت حالة ويؤدى إلى الشلل ! ..

الباب الثالث

بعض القضايا التى تلح على مصر

قضية السكان فى مصر

كنت ، قبل ست وعشرين سنة ، قد بدأت ما كنت أمل وقتئذ أن يكون حملة للتوعية بأهمية تنظيم الأسرة ، وذلك قبل التقدم إلى مجلس الشعب - الذى كنت عضوا فيه - بمشروع قانون يعطى حافزا ماديا للأسر التى تضبط أعدادها . وقد جاءتنى فكرة استخدام الحافز لتنظيم الأسرة عقب سماع خطبة هوجاء ألقاها أحد أعضاء مجلس الشعب البارزين يحث فيها الحكومة على إجبار المصريين على تنظيم أسرهم حتى ولو أدى الأمر إلى تشجيع تعقيم الرجال وحرمان الأبناء بعد عدد محدود منهم من الدراسة والخدمات - وقد رأيت فى خطبة العضو ما أزعجنى فقد كان العضو واحدا من أهم قيادات التنظيمات السياسية فى ذلك الوقت (وفيما تلاه من أوقات) .

وبعد أن شرعت فى الإعداد لهذه الحملة ، اتصلت برئيس مجلس الشعب وطلبت منه أن يعرض على اللجنة الدائمة مشروع قانون تقدمت به لمنح كل أسرة مصرية بلغ سن الزوجة فيها الثلاثين ولم تكن قد أنجبت غير طفلين أو أقل حافزا شهريا قدرته فى ذلك الوقت بثلاثة جنيهات (وهو مبلغ يساوى حوالى ١٥٠ جنيها بأسعار سنة ١٩٩٦) يتوقف صرفه إذا زاد عدد أطفال الأسرة عن ذلك - وبعد أن عرضت الموضوع والاقتراح على اللجنة بدا على الكثير من الأعضاء الإقتناع

بأن مشروع القانون قد يفلح بالفعل فى تشجيع الكثير من الأسر على الإقلال من المواليد، وهنا انقلب الجميع عليه بما فى ذلك خطيب المجلس المفوّه الذى كان ينادى بضرورة تنظيم الأسرة فى قاعة المجلس قبل الاجتماع بأيام . وقد أدركت فى هذه اللحظة أن الوقت غير موات لتقديم مشروع القانون فلم يكن فى اللجنة عضو واحد يؤمن فى قرارة نفسه بأهمية كبح الزيادة السكانية بل على العكس من ذلك فقد كانوا جميعا من المؤمنين بتشجيع الناس على الإكثار فقد تربوا فى إطار تراث ينادى بأن من أهم واجبات الناس عند البلوغ هو الإنجاب وهو تراث توارثته الأجيال منذ أقدم الأزمنة عندما كانت وفيات الأطفال عالية والحاجة إلى الإنجاب المستمر مهمة لبقاء النوع، وعندما كانت كثرة أعداد الأسرة مصدر قوتها – ومن الطريف أن أذكر هنا أن أغلبية أعضاء اللجنة لم تدل برأى وبقيت صامتة على الرغم من عدم تقبلها للمشروع فلم يكن قد ظهر لهذه الأغلبية التى لم تعرف من التعليم إلا التقليدى منه ومن الحضارة الحديثة إلا مظاهرها سند فكرى يؤهلها للمحاولة فى الموضوع كالذى حدث لها بعد ذلك بصعود تيار اليمين الدينى الذى نشأ مع تدفق أموال النفط على مصر ، أما القلة من أعضاء اللجنة الذين كان بعضهم يشغل وظائف عليا وممن كان عليهم التحدث فى مثل هذه الموضوعات مع المنظمات العالمية فقد كانت لهم لغتان واحدة يتشدقون بها مع العالم الخارجى وأخرى يعيشون بمقتضاها . وهكذا قيض لمشروع القانون الذى تقدمت به ألاَّ يرى النور .

وإنى أعيد نشر الموضوع ليس فقط لأنه مازال حيا وصالحا لمعالجة قضية السكان بل لأحث الحكومة والمجلس التشريعى على إعادة عرض مشروع يحفز العائلات على تنظيم أعدادها فمثل هذا القانون سيكون أكثر نفعا من الاجراءات العبثية التى تقوم بها مكاتب تنظيم الأسرة بالمشاركة مع الهيئات العالمية فى الوقت الحاضر . وفيما يلى نص الموضوع .

نظرة جديدة على التزايد السكانى فى مصر

يبلغ نصيب الفرد فى مصر من الأرض الصالحة للاستعمال ما لا يزيد عن ثمانمائة متر مربع فى كل المساحة التى عليه أن يدبر فيها مسكنه وأن يخرج منها طعامه وأن يعطى منها نصيبا لمختلف المرافق العامة اللازمة لحركته أو تعليمه أو العناية به ونصيبا آخر لاقامة البناء الاساسى الثابت للامة من مصانع أو منشآت عامة .

وهذه المساحة التى لا تزيد عن قطعة من الأرض التى يمتد طولها حوالى ٢٥ مترا وعرضها ثلاثون مترا هى كل ما يمكن أن تمنحه مصر لكل فرد فيها لكى يدبر منها معاشه بالكامل إذ أنه بالرغم من أن المساحة الكلية للجمهورية تزيد قليلا عن المليون كيلو متر مربع فإن

الامكانيات الاساسية والتكنولوجية المتاحة اليوم للامة لا تسمح إلا باستغلال ما لا يزيد عن ٣٪ من هذه المساحة الهائلة – ولا شك أن باقى الأرض الجدباء التى لا يستفيد منها أحد اليوم هى رصيد كامن سيستطيع خيال الانسان فى مستقبل الايام أن يستفيد منه إلا أن هذا أمر غير باد فى الافق القريب – وفى يقينى أن الاستفادة من هذه المساحة لكى يفيض عليها هذا الطوفان البشرى المزدحم فى شريط وادى النيل الاخضر والرفيع هو أمر ذو أهمية عظمى ينبغى أن نخطط له من الآن .

ومهما كان الأمر فان مصر اليوم ولعدد طويل من الاعوام المقبلة ستظل تعتمد اعتمادا يكاد يكون كليا على رقعة الارض التى تحف وادى النيل ، والتى لا يتوقع أحد أن تتسع بأكثر من مليون من الفدادين بعد استغلال آخر قطرة من قطرات الماء التى تحصل عليها من نهر النيل بعد ضبطه بالكامل ببناء السد العالى .

وإذا ظلت معدلات تزايد السكان على ما هى عليه اليوم أو أقل قليلا، فإن عدد سكان مصر سيتضاعف قبل نهاية القرن وسيصبح من المحتم على الجيل القادم أن يرتب حياته كلها فى مساحة لن تزيد عن ٢٠ × ٢٠ مترا . وهذا أمر مقلق حقا لأن أثره لن ينعكس فقط على لقمة العيش التى ستضيق كما سنبين فيما يلى بل وفى الحياة الروحية والنفسية التى ستنجم عن هذا الازدحام المهول .

ولعله من المفيد للجيل الناشىء أن يعى حقيقة أن جيل كاتب هذه السطور رأى مصر فى حياته الناضجة وعدد سكانها لا يزيد عن نصف من يسكنونها هذا العام - رآها ولم تكن بها أزمات فى المواصلات أو الاسكان أو امكان الاختلاء إلى النفس عندما يرغب فى ذلك الانسان سواء فى المصيف أو بين الحقول أو حدائق المدن - ولذا فإن التنبؤ بما سيكون عليه الحال عندما يبلغ الجيل الجديد عمر كاتب هذه السطور هو أمر ليس من قبيل التشاؤم أو المبالغة بل هو أمر متوقع تماما إذا ظلت العلاقات الاسرية وطريقة تفكير الناس ونظرتهم للعيال وللرزق كما هى الآن .

موقف جديد تماما

إن الموقف الخطير والمتفجر الذى تقفه مصر اليوم نتيجة هذا الازدحام - الذى لا يماثله على ظهر الارض ازدحام - موقف جديد تماما لم يخطر ببال أحد منذ أن استقر الانسان على أرض وادى النيل تحت حكومة مركزية منذ أكثر من خمسة آلاف عام. ذلك أن مصر ظلت ومنذ ذلك التاريخ وحتى منتصف القرن الماضى ثابتة فى تعداد سكانها الذين لم يزيدوا أبدا عن أربعة أو خمسة ملايين نسمة فى أطيب الأوقات.

وبالرغم من أنه لا توجد لدينا اليوم احصاءات سكانية خلال هذا التاريخ فإن لدينا ما يقودنا بكل ثقة إلى التأكيد بأن هذا العدد من

السكان يقارب الحقيقة إلى حد كبير فعندما دخل نابليون مصر فى أواخر القرن الثامن عشر سجل عدد السكان بما لا يزيد عن ٢,٥٠٠,٠٠٠ نسمة زادوا فى عام ١٨٣٤ أيام حكم محمد على إلى ثلاثة ملايين . وأغلب الظن هنا أن الزيادة لم تكن نتيجة التوالد قدر ما كانت نتيجة إحكام أكثر فى طرق التعداد .

كيف إذن ظل سكان مصر على طول تاريخهم وحتى منتصف القرن الماضى ثابتين فى عددهم تقريبا يخلف الزواج زوجا من ورائه لا يزيد ولا يقل : - إن الرد على ذلك لا يعود إلى أن المصريين على طول ذلك الزمان كانوا أقل خصوبة بل يعود أول ما يعود إلى التقدم الاجتماعى الذى عم مصر منذ منتصف القرن الماضى ، والذى أدى إلى الاقلال من الوفيات وخاصة بين الاطفال .

لقد احتفظت مصر بخصوبة شعبها ولكنها قللت من وفياتها - كانت المرأة على طول التاريخ تلد بين سبعة إلى عشرة أطفال ليعيش منهم اثنان فقط للحياة الناضجة ثم أصبحت تلد نفس العدد منذ نصف القرن الماضى فيعيش منهم أربعة ثم خمسة نتيجة لتحسن الصحة العامة فى البلاد أولا عن طريق مكافحة الاوبئة التى كانت تعم أرض مصر دوريا كل سبع إلى عشر سنوات تقريبا ثم التوسع فى انشاء المستشفيات والخدمة الدوائية وبناء دور رعاية الطفل ثم بادخال أدوية السلفا وغيرها من المضادات الحيوية وقد ارتفعت فى أثر ذلك نسبة زيادة السكان مما يقارب الصفر فى الألف . فى أوائل القرن التاسع عشر إلى حوالى ١٥

فى الألف من السكان فى آخر ذلك القرن لكى ترتفع إلى حوالى ٢٥ فى الألف من السكان فى منتصف هذا القرن ومازالت نسبة الزيادة فى السكان تتأرجح حول هذا الرقم منذ ذلك التاريخ وهكذا تضاعف سكان مصر كل ٤٠ عاما منذ عام ١٨٥٩ (٤,٥ مليون نسمة) وكل ٣٣ عاما منذ ١٩٤٠ وسيظل يتضاعف فى مثل هذه الأعوام أو أقل منها فى الاعوام القادمة مالم يحدث شيء انسانى يتقبله الناس بكامل رضاهم للتوقف عن هذه الزيادة الرهيبة والقاتلة .

ما هو تأثير هذا التزايد الذى يسميه علماء السكان عن حق بالانفجار السكانى على حياتنا وعلى حياة أبنائنا فى مستقبل الايام ؟ تأثير ذلك يقع بلا شك فى مجالى التنمية الاقتصادية التى ستبتلع جزءا كبيرا من آثارها هذه الزيادة الكبيرة فى السكان ، وكذلك فى مجال الحياة الروحية والنفسية للانسان عندما تحد حركته بالضرورة ويضطر زملاؤه من بنى الانسان الذين يزحمون عليه كل مكان إلى التدخل فى أخص خصائص حياته . وكلا المجالين خطير ينبغى أن نبدأ من اليوم لضبطهما قبل فوات الاوان وانفلات الزمام .

ولا شك أن آمال هذه الامة تتعلق برفع مستوى العيش لابنائها حتى ينتهى العوز ويتمكن كل فرد فيها من أن يجد المسكن الملائم والغذاء الكافى والصحى والفرصة المناسبة لتنمية طاقاته الذهنية والحفاظ على صحته - ومثل هذه الآمال لا يمكن تحقيقها دون أن تقوم البلاد بخطة منظمة وبعيدة المدى لتنمية مصادر ثروتها وزيادة انتاجها القومى وهذه

الخطة تحتاج فيما تحتاج إليه إلى استثمار مدخرات الامة فى عمليات انتاجية يمكن أن ترفع فى النهاية من دخل أفرادها .

التزايد يتعارض مع التقدم

إلا أن التزايد السكاني الكبير إذا صار بنفس معدلاته الحالية فى مستقبل الأيام فإنه سيؤدى إلى تقليل أثر هذه الخطط فيما نسعى إليه من رفع مستوى العيش لأفراد الأمة وذلك لسببين السبب الأول يقع فى أنه إذا استمرت الامة فى هذا الانجاب الخصيب الذى نسير عليه فإن جزءا من مدخرات ، الأمة التى كان من الممكن أن توجه إلى الاستثمار ستوجه حتما إلى انفاق استهلاكى .

ذلك لأن كل مولود جديد تستقبله الامة يحتاج حتى يصبح مواطنا منتجا إلى انفاق لكى يطعم ويلبس ويسكن ويعطى مكانا فى معهد أو معاهد للتعليم وكذا حتى يمكن التوسع فى الخدمات والمرافق الاساسية للأمة لاستيعاب مواطنيها الجدد وهناك من يقدر بأن كل طفل يولد يحتاج حتى يصل إلى مرحلة الانتاج إلي مالا يقل عن ١٥٠٠ جنيه تنفقها عليه الامة قبل أن يرد إليها شيئا مما أعطته له .

فإذا استمر الانجاب على ما هو عليه فإن على الامة أن تدبر ما لا يقل عن ألف وخمسمائة مليون جنيه سنويا للحفاظ على أود مواطنيها الجدد وهذا المبلغ سيستقطع بلا شك من مدخراتها التى كان ينبغى أن تتجه إلى الاستثمار الانتاجي – ومما يزيد الطين بلة أن مثل هذا المبلغ

يوازى ان لم يفق أقصى ما يمكن أن تدخره الامة مما سيعكس أثره بلا شك على العجز الذى سنعانيه جميعا فى مستقبل الايام من إعداد المواطن الصحيح والمدرب الذى يحتاج اعداده إلى هذا الاستثمار غير المتاح – ومن المحقق أن مصر ستضطر فى مستقبل الايام تحت ضغط حاجتها إلى تنمية ثروتها القومية إلى اهمال الحاجات الاساسية لجزء كبير من مواليدها الجدد وسيظل الناس مالم يقبلوا حقائق العصر يعانون من مشاكل الاسكان والمرافق الاساسية ومتاعب التعليم ومصـــاعب التموين – وهـــذا أمر لا أظن أن أحدا منا حاكما أو محكوما يريده لابنائنا هذا فضلا عن أن مثل هؤلاء المواطنين الذين لن نستطيع اتاحة فرص تدريبهم فى مثل هذا العصر الذى نعيشه سيكونون حتى آخر أعمارهم عالة على المجتمع الذى لم يعد فيه مكان لغير المؤهل تأهيلا متقدما وهذا بدوره سيضيف إلى المجتمع أعباء ستدخل أبناءنا فى حلقة مفرغة ستنتهى إلى آلام كبيرة .

أما السبب الثانى فى أثر مشكلة الانفجار السكانى على خطط التنمية فهو أنه بالإضافة إلى أن هذا الانفجار سيقلل من الأموال المتاحة للاستثمار الانتاجى لضرورة توجيه جزء كبير منه للاستهلاك ، فإن هذا الانفجار نفسه سيؤدى إلى توزيع ثمرات خطط التنمية على عدد أكبر من السكان مما سيبتلع كل أثر مرجو فى تحسين حالهم فى مستقبل الايام .

وبالإضافة إلى ما يمكن أن تؤديه الزيادة الكبيرة للسكان فى مصر من ابتلاع أثر خطط التنمية القومية ، فإن أثرها الاجتماعى لا يمكن أن يخفى على أحد – فأثر الازدحام على سلوك الفرد والجماعة أثر سيء جدا . ولا يحتاج الانسان إلى أن يراجع التجارب المعملية التى تمت مؤخرا على أثر الازدحام على بعض الحيوانات لكى يتصوره بل أنه يحتاج فقط لكى يرى ازدحام وسائل النقل فى الشوارع والمساكن والمدارس والجامعة والمصايف وما يمكن أن تؤديه من تدهور فى العلاقات الاجتماعية بين افراد المجتمع وهم يتسابقون لكى يحصلوا على مقعد فى سيارة عامة أو يتنافسون من أجل أن يجدوا مسكنا ينامون تحت سقفه أو مكانا فى معهد من معاهد التعليم .

فمثل هذا التنافس القاتل يغير بلا شك أكثر الكثير فى معظم ما اعتدناه وما نرجوه أن يستمر فى مجتمعنا من محبة أو تكافل أو تعاون أو بشاشة .

ولا يبدو أن مشكلات المواصلات أو التعليم أو الاسكان أو تعثر معظم المرافق الخدمية الاساسية كالمياه أو المجارى أو المواصلات السلكية يمكن أن تحل فى أمة تزيد بمثل الاعداد التى تزيدها – فشوارع القاهرة مزدحمة لدرجة أن أكثرها لا يتحمل استخدام السيارات أو العربات بل أنها كافية بالكاد لاستخدام المشاه والقول بأن حل مشكلة المواصلات يأتى باستيراد عدد اكبر من السيارات هو قول غير علمى لأنه سيزيد «من كركبة» المرور التى نعانى منها اليوم كما أن

اقامة الانفاق أو الشوارع المعلقة ستبتلع بعض الازدحام إلا أن هذا لن يحل المشكلة حلا كاملا لأن هذه الانفاق ستعج بفائض الناس بمجرد بنائها بما سيترك فراغا بالمدينة سيملأ حالا بالهجرة وبالسيل الجديد من المواليد .

والقاهرة فى آخر القرن الماضى كانت مدينة يسكنها ٤٠٠,٠٠٠ نسمة تمتد فيها خطوط الترام لكى تنقل الفئة القليلة من الناس القادرين على الحركة فى يسر، أما قاهرة اليوم فعدد سكانها قد تجاوز عشرة أضعاف ذلك العدد كما أصبحت نسبة أكبر منهم مضطرة للحركة بداخلها كل يوم مما أحست فى أثره شوارعها وازدحمت وسائل نقلها لدرجة يكاد ألاّ يكون هناك حل لها . وما يقال عن المواصلات يقال عن كل خدمة اساسية أخرى . فقضية الاسكان وما يبدو من عجز خطة العمران عن اللحاق بهذا العدد المتكاثر بما تحتاجه من مسكن صحى قد وجد حلا فى قيام عديد من السكنيات عديمة التخطيط والتى تتحول رويدا رويدا إن لم تكن قد تحولت فعلا إلى أحياء لا نظام فيها لا تليق بكرامة الانسان .

فإذا أضيف إلى ذلك كله الازدياد المخيف فى ضجيج المدينة وتلوث هوائها وعدم القدرة على التمتع بالطبيعة أو حياة الخلاء فيها وكذا خطورة العيش التى يجابهها سكانها فى كل ساعة فيها فإننا سنكون فى وضع سيتزايد فيه تدخل الانسان فى حياة اخيه الانسان حتى فى أخص خصائصها وما لم يلتزم الناس بأنفسهم لاقلال ضجيجهم

وتنظيم مرورهم وترتيب حياتهم فى وسط هذا الازدحام فإننا سنواجه وضعا سيزيد الضيق ويغير نمط الحياة لدرجة مزعجة حقا .

بعض الاقتراحات الخاصة لمجابهة مشاكل الزيادة السكانية

هذه الصورة المتوقعة لبلادنا إذا ظل فيها تزايد السكان يسير على ما هو عليه هى صورة تستدعى منا جهدا مخططا وشاقا لمجابهتها ثم التحكم فيها حتى يمكن لاعمال التنمية أن تؤتى ثمارها ولاعمال التعمير أن تحل اشكال المدينة فى مواصلاتها واسكانها ومختلف خدماتها. ولاشك أن الحل الأمثل يكمن فى أن يتقبل الناس بمحض ارادتهم تنظيم أسرهم حتى يأتى تزايد السكان متكافئا وما تستطيع الامة أن تمنحه من خدمات وتنظيم الاسرة هى عملية معقدة لأن قبولها يحتاج إلى تنظيم اجتماعى متقدم ودرجة عالية من التعليم وهى أمور تحتاج إلى استثمار والى وقت . وكلاهما يضيق أمام ساعة الصفر التى تواجهها اليوم - ومن مآسى الزمان الذى نعيشه أن افقر الناس وافقر الأمم هى أكثرهم تناسلا ذلك لأن درجة التعليم فيها لم تبلغ بعد الحد الذى يستطيع فيه الزوج أن يميز أنه من الافضل له أن يعيش اثنان فى حجرة واحدة بدلا من ثلاثة أو أربعة - ومن الملاحظ الذى لا يحتاج إلى تأكيد أن الأم المتعلمة أقل تناسلا من الأم الجاهلة .

وحتى يرتفع مستوى التعليم إلى الدرجة التى تنظم الزيادة السكانية وتجعلها متمشية مع قدرات البلاد الاقتصادية ماذا يمكن لبلادنا أن تفعله وأود بادىء ذى بدء أن أؤكد أن الدول والكثير من أفرادها المستنيرين يجاهدون فى ميدان تنظيم الاسرة جهادا حسب كجهاز تنظيم الاسرة والكثير من الجمعيات النسائية إلا أن هذه الاجهزة والجمعيات تقف عاجزة أمام عقبات أساسية فى شكل المجتمع وتركيبه علينا أن نساعد فى التغلب عليها - فعملية تنظيم الاسرة ليست مسألة طبية فقط على أهمية هذا الوجه منها أو مسألة تهم الجمعيات النسائية وحدها بل هى مسألة اجتماعية فى المقام الأول علينا أن نغوص فى اعماقها لكى نعرف أسباب عدم تقبل عامة الناس لها ثم نقوم بحلها بالتشريع أو بغير ذلك حتى يمكن ضبط مجموع السكان إلى الحد المقبول .

أولا : فى مجال التخطيط

وفى ظنى أن ما يدفع الناس إلى زيادة التناسل وخاصة بين فقراء الريف هو تنظيم الزراعة فى مصر التى تحتاج بحق إلى تخطيط يغير جذورها ، ليس فقط لتحسينها ، بل لتغيير اقتصادياتها .

فطالما ظلت الزراعة يدوية وغير مميكنة وأراضينا مفتتة وغير مجمعة ومحاصيلنا الاساسية تحتاج إلى ايد عاملة كثيرة من الاطفال فإن

الكلام فى موضوع تنظيم الاسرة سيصبح لغوا - إن زراعة فدان واحد من القطن يحتاج إلى ٤١ يوم عمل رجل و ٤٠ يوم عمل طفل - وفدان الارز يحتاج إلى ٢٥ يوم عمل رجل و ٤٠ يوم عمل طفل - إن مثل هذا التنظيم يشجع الانسان لان للطفل هنا فائدة حتى وإن لم تكن له فائدة تذكر بعد بلوغه سن الرجولة وهذه واحدة من أكبر مآسى هذا النظام المتخلف فى الزراعة الذى يرحب بالطفل عاملا ثم يلفظه رجلا فيصبح متعطلا ومصدرا للهجرة إلى المدينة دون ما تكون له المؤهلات التى تجعل منه منتجا فيها .

والحل الوحيد هو فى إحداث ثورة حقيقية مخططة معروفة الابعاد الاقتصادية والاجتماعية لتغيير هذا النظام المتخلف فى الزراعة وذلك بتشجيع التعاونيات وعمليات التجميع الزراعى وميكنة الزراعة والتفكير فى ادخال المحاصيل التى لا تحتاج إلى الاطفال فى أعمالها - وهذه الثورة بالإضافة إلى فائدتها المحققة فى عدم تشجيع التناسل فانها ستزيد الثورة وستطلق الزراعة إلى آفاق جديدة .

ثانيا : فى مجال التشريع

وفى ظنى أن جزءا كبيرا من السكان يتناسل لعدة أسباب أولها هو شعوره بأن خلفه يمكن أن يعطيه ضمانا لعيشه عندما تحل به الشيخوخة ويصبح غير قادر على كسب العيش ، ولما كان جزءاً كبيرا

جدا من الامة لا يدخل ضمن اطر التسميات الاجتماعية التى توسعت فيها الدولة مؤخرا فإن هذا الجزء سيظل يبحث عن طريق آخر لضمان معيشة كريمة فى آخر العمر لعل أسهله هو أن يكون له حفنة كبيرة يمكن أن تقوم بأوده عند الحاجة - وإذا كان هذا هو الحال فان اول ما يمكن أن نفعله هو أن نعطى لفقراء المدينة والريف بديلا آخر لضمان الشيخوخة غير زيادة الخلف والتشريع الاول . لذلك الذى اقترحه هو أن تصدر الدولة قانونا يعطى لكل أسرة بلغ عائلها سن الخمسين ولم تخلف عند بلوغ هذا السن إلا ولدين أو اقل معاشا شهريا قدره خمسة جنيهات ينقطع إذا زاد الخلف بعد هذه السن مباشرة .

ومثل هذا التشريع سيضمن حياة مستريحة للأسرة القليلة العدد وسيدفع الكثير من الاسر لتنظيم نسلها . ومثل هذا القانون لن يحمل الدولة حاليا أية أعباء مالية تذكر لأن عدد الاسر التى تبلغ فيها الخلفة اثنين أو أقل لا تمثل إلا جزءا فى المائة من عدد اسر الجمهورية - ولا شك أن صدور مثل هذا التشريع سيزيد فى مستقبل الأيام عدد مثل هذه الاسر الصغيرة إلا أن التكلفة التى ستنجم عن مثل هذه الزيادة لن توازى شيئا مما يمكن أن تتحمله الدولة لو أن التناسل ظل يسير على معدلاته الحالية سواء من وجهة متطلبات هذه الزيادة السكانية واعبائها من جهة الاستهلاك أو سوء ما تتطلبه من حيث استثمار رءوس الاموال لايجاد العمالة لها .

كما يمكن استخدام نفس الحافز المادى لتشجيع تنظيم النسل

باصدار قانون آخر يعطى لكل أسرة يبلغ عدد أطفالها اثنين أو أقل مكافأة شهرية في حدود ثلاثة جنيهات عندما يصل سن الزوجة ثلاثين عاما يتوقف منحها إذا زاد عدد اطفال الاسرة عن ذلك . وصدور مثل هذا القانون سيساعد بلا شك أجهزة تنظيم الاسرة ويجعلها اكثر فعالية وعملها اكثر ايجابية .

وخلاصة القول أننا أمام موقف جديد ومتفجر وهو موقف قد يؤدى بغذاء عيالنا وبما درجنا عليه من حضارة انسانية . أما أن ننظمه ونتحكم فيه أو يلتهمنا نحن وعيالنا وقد عرضت لبعض التشريعات الانسانية التى لا تتدخل فى حياة الناس لكى تنتظم الحياة فى مدننا المكدسة ولكى نشجع الناس لكى يتحكموا فى حجم اسرهم : وهو أمر إن لم نهتم به اليوم بارادتنا فسنقوم به غدا بطرق اكثر عنفا وأكثر تدخلا فى حياة الناس وخصوصيتها وهى أمور نرجو أن نتفاداها وان لا نضطر للجوء إليها .

إن الذى يحدد حجم أى أسرة الآن هو قرار خاص يقوم به الزوجان فقط وليس غيرهما بالرغم من أن حجم الاسرة يؤثر فى المجتمع ككل ولذا فإن لم يفق الناس إلى أمورهم بحيث يقومون بمحض ارادتهم بعمل شيء يوقف هذا التكاثر الذى لا تبرره الحاجة والذى يضيق العيش على بنى الانسان فاننا قد نصل إلى شيء قد يضطرنا إلى اتخاذ قرارات أشد عنفا لا تتفق وما درجت عليه هذه الامة على مدى آلاف السنين التى عاشتها. وهى تبنى الحضارة فى تكامل وتماسك اجتماعيين مثاليين.

وتحتاج التشريعات التى تكلمت عنها خلال هذه الدراسة إلى مناقشة عريضة للتمهيد لها وتبيين أهميتها سواء أكان ذلك فى الصحافة أو التنظيمات السياسية أو فى مجلس الامة – ثم يحتاج الامر بعد ذلك إلى دراستها فى ضوء ما يسفر عنه ذلك النقاش لصياغتها بالطريقة التى يتقبلها ضمير الامة الذى أظن أنه فاعل ذلك إذا ما أحسنا ابراز انسانية هذه القوانين وأهدافها ثم فى العمل على تطبيق هذه القوانين باجهزة ادارية حديثة قادرة على انشاء سجلات الاحوال المدنية بالالات الحاسبة سواء فى هيئة التأمينات الاجتماعية التى سيزيد عبئها أو فى مكاتب الصحة أو شهر الزواج فى انشاء جهاز بوزارة التخطيط يشترك مع وزارة الزراعة وهيئات البحوث الاجتماعية لدراسة فلسفة ثم تخطيط الثورة الزراعية التى تحدثت عنها .

مشكلة المياه فى الشرق الأوسط
من الوفرة إلى الندرة

شغلتنى مشكلة ندرة المياه العذبة التى ستجابه مصر وبلاد الشرق الأوسط فى المستقبل القريب منذ سنوات وقبل أن تصبح موضوعا تلوكه الألسن ويتحدث فيه الكثيرون ممن يعرفون وممن لايعرفون، والأفكار التي أتعرض لها في السطور التالية، جاءت فى ورقة ألقيت كمحاضرة في جمعية الاقتصاد السياسى والتشريع فى خريف سنة ١٩٩١ وقد جدّت منذ كتابته أفكار لحل مشكلة قلة المياه بالشرق الأوسط غير التى اقترحناها فى هذه المحاضرة - وكانت أكثر هذه الأفكار ديماجوجية هى التى اقترحتها تركيا بمد خط للأنابيب لنقل ٢,٥ مليار متر مكعب من المياه العذبة من نهرى سيمون وجيحون بجنوب تركيا (وهما نهران يصبان بالبحر المتوسط) الى دمشقّ ومنها يتفرع الخط الى فرعين يتجه واحد منهما الى مكة وجدة مارا بعمان بالأردن وواحد إلى الكويت فالامارات، وقد اقترح المشروع فى سنة ١٩٨٧ وقت بناء سد أتاتورك على نهر الفرات للتغطية على ما سيؤدى بناؤه من نقص امدادات المياه لكل من سوريا والعراق بمقدار النصف هذا اذا سمحت تركيا بأن تمرر الى البلدين من نهر الفرات ٥٠٠ متر مكعب فى الثانية على مدار العام كما تعهدت. ولايزيد مشروع أنبوب المياه هذا عن كونه من باب الدعاية ليس إلا، ليس فقط لصغر الكمية التى ستنقل عبر هذه المسافات بل ستكون باهظة - وقد قدرت تكاليف مد الانبوب بحوالى

٢٢,٥ مليار دولار (بأسعار سنة ١٩٨٧) وتكلفة نقل المتر المكعب من الماء لمسافة ١٠٠ كيلو متر بحوالي ٧ سنتات في حالة النقل بالراحة وحوالي ١٢ سنتا في حالة نقله بالضخ مما يجعل ثمن المتر المكعب حوالي ٤ دولارات أمريكية - وبالإضافة الى غلاء ثمن الماء فإن أحدا لايمكنه أن يقبل استيراد مياه شربه من دولة أجنبية مهما حسنت النوايا وقت ابرام الاتفاقات.

أما المشروع الآخر الذي كثر الحديث عنه مؤخرا فهو الاعتماد على البحار وتحلية مياهها وقد قدم الاقتراح بيريز رئيس وزراء اسرائيل في كتابه «الشرق الأوسط الجديد» وتلقفه الكاتب الكبير الاستاذ محمد سيد أحمد ويشر به في كتابه «سلام أم سراب» (١٩٩٤) وتصور أن مياه البحار المحيطة بمنطقة الشرق الأوسط يمكن أن تغير لون الصحراء من الاصفرار الى الاخضرار بعد تحليتها - ومثل هذا الكلام ليس الا ضربا من الأحلام التي يستحيل تحقيقها حتى ولو قلت ثمن عملية تحلية مياه البحر من دولار واحد كما هي الآن الى أقل من واحد على عشرين من هذا الرقم ذلك لأن تكلفة ري الفدان ستكون في هذه الحالة حوالي ٣٥٠ دولارا (بفرض أن الفدان سيحتاج إلى ٧,٠٠٠ متر مكعب من الماء وهو أقل كمية يمكن بها زراعة أرض الصحراء) - ولم نحسب في هذه التكلفة الثمن الباهظ لنقل المياه من مصدرها بجوار البحر إلى أراضي الصحراء الداخلية والتي يراد إخضرارها. وفي الحقيقة فإن تحلية مياه البحر لن تحل حتى مشكلة الاستخدام المنزلي وذلك لوقوع

الكثير من المدن بعيدا عن البحار مما سيحتاج لنقل الماء اليها مما سيرفع سعره . والواقع الراهن هو أن اسرائيل وفلسطين والأردن بلاد قليلة المياه صحيح أن عسكرة قضية المياه قد أعطت إسرائيل نصيبا أكبر مما ينبغي أن تأخذه ، ولكن الحقيقة هي أن البلاد الثلاث تعاني الآن وستعاني أكثر في المستقبل من مشكلة نقص المياه فيها - ومما يزيد الأمر تعقيدا انه ليس لدى البلاد الثلاث مصادر جديدة وغير مستغلة للمياه يمكن بها أن تتغلب بها على هذا الشح فالماء الأرضي الموجود بالطبقات العميقة بعيد يحتاج الى تكلفة عالية ومعظمه على درجة مرتفعة من الملوحة - والبحار كما بينا بعيدة عن معظم المدن وتكلفة تحليتها ونقلها كبيرة جدا وغير اقتصادية - وفي ظني أن الحل الوحيد أمام هذه البلاد هو في إعادة النظر في طرق استخدام المياه والنظر في أمر ترك الزراعة كلية (وهو النشاط الذي يستخدم النسبة الأكبر من الماء) وبناء اقتصادها حول الصناعة والخدمات - وقد بدأت اسرائيل بالفعل في ذلك ولم تعد تتباهى كما درجت عبر تاريخها بما فعلته في تحضير الصحراء فقد تبين للجميع أن هذا كان من أحلام الرواد وأصبح تركيز اسرائيل كله اليوم على القيام بزراعتها خارج بلادها وقد يكون ذلك وراء الاهتمام الكبير الذي تعطيه اسرائيل لتطبيع علاقاتها مع مصر في ميدان الزراعة بالذات - وإذا كانت اسرائيل قد وجدت أن نقل مياه النيل اليها أمرا صعبا من المحال ان يقبله المصريون فلا بأس من محاولة الدخول من الباب الخلفي والزراعة في وادي النيل نفسه! وفيما يلي نص المقال:

لبنان
البحر الابيض المتوسط
سوريا
الجولان
بحيرة طبريا
نهر اليرموك
اسرائيل
مثلث اليرموك
الأردن
الكرامة
فلسطين
البحر الميت
غزة

قضية المياه فى
الشرق الأوسط

منطقة الشرق الأوسط هى واحدة من مناطق العالم القليلة الأمطار والتى تقع فى معظمها فى حزام الصحارى المدارية وجل أراضيها أما قاحلة أو شبه قاحلة. وتعتبر مشكلة تيسر الماء العذب فيها واحدة من أهم القضايا المثيرة للتوتر والمؤثرة على مستقبل استقرارها ومستوى حياة سكانها. فالمياه العذبة فى منطقة الشرق الأوسط شحيحة بالمقارنة بمتطلبات أعداد سكانها المتزايدة. والناظر لخريطة الشرق الأوسط بل وشمال افريقيا لايجد فى هذه المنطقة الشاسعة الا ثلاثة انهار كبيرة هى النيل ذلك النهر الوحيد الذى استطاع أن يحمل جزءا من مياه افريقيا الاستوائية الى البحر الأبيض المتوسط عبر الصحارى والقفار ونهر دجلة والفرات اللذان ينبعان من تركيا ويمران بسوريا والعراق. وباقى الانهار الموجودة بالمنطقة اما مؤقتة أو صغيرة لايزيد مقدار ماتحمله من المياه عن المليار الواحد من الأمتار المكعبة ومن هذه أنهار الأردن وبردى والليطانى وغيرها.

وتثير قضية شح المياه توترات ونزاعات مسلحة وقد استخدمت تركيا المياه سلاحا للضغط على سوريا بالتوقف عن مساعداتها للأكراد وفكرت فى استخدام نفس السلاح للضغط على العراق خلال أزمة الخليج وليس سرا ما جرى من محادثات وراء الكواليس فى الأمم المتحدة بهذا الشأن. ويعتبر مشروع الأناضول الكبير الذى تخطط فيه

تركيا لرى حوالى ٥ ملايين فدان من المياه التى خزنت وراء سد أتاتورك المقام على نهر الفرات بالاضافة إلى توليد الكهرباء واحدا من تلك المشاريع التي أثارت توترا شديدا فقد أوقف بناء السد واقامة المشروع جريان نهر الفرات خلال شهر يناير ١٩٩٠ ثم قلل من نصيب سوريا من مياه النهر بحوالى ٤٠٪ ونصيب العراق بحوالى ٨٠٪ كما كاد أن يؤدى بناء سوريا لسد الثورة على نهر الفرات فى ١٩٧٥ الى نزاع مسلح بين سوريا والعراق، ويمكن أن نضيف الى هذه التوترات عشرات النزاعات المسلحة التي حدثت بين اسرائيل وجاراتها العربيات منذ إنشاء الدولة العبرية وحتى حرب ١٩٦٧.

وفى يقينى أن المياه كانت أحد الدوافع الاساسية لشن حرب ١٩٦٧ ففى هذه الحرب تمت عسكرة قضية المياه وكان من نتائجها أن زادت مصادر المياه العذبة لاسرائيل بمقدار ٢٥٪ على الأقل.

وعلى الرغم من تضارب الاحصاءات فإنه يمكن القول ان هناك فجوة بين الطلب على الماء والمتاح منه فى الكثير من بلاد الشرق الأوسط وتبدو هذه الفجوة كبيرة فى بلاد اسرائيل وفلسطين والأردن وهى قضية تزداد إلحاحا فى اسرائيل نظرا لسياستها التوسعية فى تهجير اليهود من الشتات سواء من أثيوبيا أو بلاد المسكوف وكذلك لتزايد استخدامها للمياه.

وقد تضاعف سكان اسرائيل فى ظرف ٢٣ سنة ٢,٦ مليون قبيل حرب سنة ١٩٦٧ الى ٥,٢ مليون فى سنة ١٩٩٠ ولما كان نمو السكان

الطبيعي هو فى حدود ١,٥٪ فإن ذلك يعنى ان اكثر من نصف الزيادة السكانية في هذه الفترة كان عن طريق الهجرة الى اسرائيل وهو اتجاه مستمر تشجعه الأحزاب الحاكمة فى اسرائيل التي لاتزال تعيش أسيرة الحلم الصهيونى بجمع شتات اليهود فى أرض الميعاد.

وقد تزايد سكان الأردن من ٢ مليون نسمة في عام ١٩٦٥ الى ٤,١ مليون نسمة فى ١٩٨٩ وتعتبر نسبة التزايد السكانى من أعلى النسب وقد أضيفت على الأردن مشكلة تدفق اللاجئين الفلسطينيين من كل حدب فى أعقاب حرب الخليج. ويقدر عدد من لجأ الى الأردن من هؤلاء منذ حرب الخليج بحوالى ٣٥٠,٠٠٠ فرد.

وليست هناك احصاءات دقيقة عن سكان فلسطين فقد أهملت المصادر الغربية حسابهم كأمة مستقلة كما أن حركتهم وهجرتهم عالية ولكنهم يقدرون فى الوقت الحاضر بأكثر من ٢ مليون نسمة.

وتبلغ جملة سكان هذه البلاد الثلاثة أكثر من ١١ مليون نسمة فى الوقت الحاضر يعيشون على مصادر للمياه لاتزيد فى مجموعها عن ٤ مليارات متر مكعب تأتى من نهر الأردن الذى ينبع من جبال الشرق التى تفصل سوريا ولبنان ويصب فى البحر الميت ومما يتساقط على المنطقة من أمطار. وتتراوح نسبة المطر السنوى من أكثر من ٦٠٠ مم فى السنة فى المناطق الساحلية الشمالية بإسرائيل وجنوب لبنان الى مابين ٢٥٠ - ٦٠٠ مم فى السنة فى المناطق الساحلية الجنوبية وقطاع غزة وكذلك فى معظم أجزاء الأردن.. وتجود الزراعة المطرية فى معظم

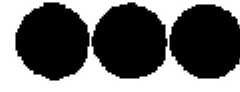
المناطق التى تزيد فيها كمية الامطار عن ٤٠٠ مم التى لاتزيد مساحتها فى البلاد الثلاثة عن ٢,٥ مليون فدان يقع أغلبها فى اسرائيل أما معظم الاراضى فهى تصلح لرعى الاغنام، اما الزراعة المروية التى تشكل عصب الاقتصاد الزراعى فى الأردن واسرائيل فإنها تعتمد على مياه نهر الأردن الذى يبلغ طوله حوالى ٣٢٠ كم ومن أهم روافده نهر اليرموك الذى ينبع من سوريا ومن هضبة الجولان أساسا وطوله حوالى ٧٥ كم ويصب اليرموك فى نهر الأردن الى الجنوب من بحيرة طبرية التى تقع بكاملها فى اسرائيل.

ولاتوجد احصاءات دقيقة عن كمية المياه المستخدمة فى أى من بلاد الشرق الاوسط أو عن كمية المياه المتاحة لاى منها اذ تتراوح تقديرات المياه العذبة المتيسرة لاسرائيل بين ١,٨ و ٢,٢ مليار متر مكعب فى السنة كما تتراوح جملة المياه المستخدمة فى اسرائيل بين ١,٧ و ١,٩ مليار متر مكعب فى السنة بكفاءة تصل إلى حوالى ٨٨٪ من جملة الماء المتاح.

- أما فى الأردن فيتراوح تقدير المياه المتاحة لها بين ١,١ و١,٣ مليار متر مكعب والاستخدامات بين ٠,٦ و ٠,٨ مليار متر مكعب بكفاءة تصل الى حوالى ٦٦٪ من جملة الماء المتاح، وهذه الكميات تجعل نصيب الفرد من المياه العذبة فى اسرائيل حوالى ٣٧٠ متراً مكعباً فى السنة وحوالى ١٩ مترا مكعبا فى الأردن فى السنة ويقدر نصيب الفرد في فلسطين المحتلة بحوالى ١٧٠ متراً مكعباً فى السنة.

وبذلك تكون جملة استخدامات المياه فى البلاد الثلاثة حوالى ٣ مليارات متر مكعب من أصل ٤ مليارات متر مكعب فى السنة بكفاءة كلية تبلغ ٧٥٪ واذا عرف ان الفرد يحتاج للشرب والاستخدام المنزلى الى حولى ٧٠ متر مكعب (باعتبار استخدام يومى فى حدود ٢٠٠ لتر) فإن ذلك يعطى فكرة عن الهامش القليل الذى يتركه هذا الاستخدام الأساسى لجميع الاستخدامات الأخرى.

ومما يزيد فى أزمة المياه تلوث أجزاء كثيرة منها نتيجة الكثافة السكانية واستخدام شواطىء النهر للترويح والسياحة وتزايد استخدام المخصبات والمبيدات فى الزراعة التى تصرف فى نهر الأردن الداخلى الذى لاينصرف الى البحر كما أدى الضخ الزائد من الآبار الى تزايد ملوحتها.



ولايوجد فى الوقت الحاضر قانون ينظم استخدامات المياه للأنهار المشتركة وانما توجد قواعد عامة وضعتها جمعية القانون الدولى وأقرتها الدول فى عام ١٩٦٦ فى اجتماع عقد بمدينة هلسنكى، كما يوجد أيضا قانون لاستخدامات المياه الدولية والانهار فى غير الأغراض الملاحية ولايعالج هذا القانون الطريقة التى ينبغى اتخاذها لتقسيم مياه الأنهار المشتركة بين دول الحوض ولكنه يعالج الطريقة التى ينبغى أن تسلكها

الدول فى معالجة المياه لصالح جميع دول الحوض ولمنعها من التلوث اما قواعد هلسنكى التى ارتضتها معظم الدول فهى قواعد عامة تحتمل تفسيرات عديدة وهى تتعلق بالمبادىء التالية :

١ - التوزيع العادل للمياه بين دول الحوض فلكل دولة بالحوض الحق فى نصيب معقول ومنصف من المياه.

وهذا المبدأ يناقض مبدأ هارمون الذى كان سائدا حتى أوائل هذا القرن والذى كان يسمح للدولة باستخدام المياه بداخل أراضيها بالطريقة التى تراها مناسبة لمصالحها وبغض النظر عن حاجات أو مصالح دول الحوض الأخرى.

ويختلف المفسرون لهذه القاعدة فمنهم من يرى أن الانصاف فى توزيع المياه يكون طبقا لعدد سكان كل دولة من دول الحوض. وهناك من يرون أن التوزيع العادل يكون طبقا للامكانيات الزراعية لدول الحوض بغض النظر عن عدد سكان كل دولة. وقد أثير هذا الخلاف عندما كانت مصر والسودان تتفاوضان فى أواخر العشرينات بشأن اتفاقية مياه النيل الأولى التى تمت عام ١٩٢٩.

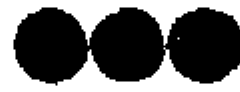
٢ - ضرورة إبلاغ دول الحوض الاخرى عند الشروع فى القيام بتنفيذ اى مشروع قد يؤثر على مياه النهر - ومثل هذا التبليغ يمكن الدول الأخرى من الدخول فى مفاوضات والالتجاء الى التحكيم قبل أن تتأثر بالمشروع.

٣ – ضرورة تبادل المعلومات الخاصة بالنهر بين دول الحوض لأن هذا التبادل مهم عند عمل الاتفاقيات الخاصة بتقسيم المياه بين الدول وعند إدارة مياه النهر عامة.

٤ – التوصية بأن يدار النهر ادارة مشتركة من دول حوضه.

٥ – التأكيد على حل المشاكل الخاصة بتقسيم المياه بين دول الحوض بالطرق السلمية كما ينص على ذلك ميثاق الأمم المتحدة.

على أن هذه المبادىء لاتزيد عن كونها مبادىء عامة غير ملزمة والناظر إلى أنهار الشرق الأوسط يري أن هذه المبادىء غير مطبقة فقد قامت تركيا وسوريا باستخدام نهر الفرات بالطريقة التى رأتها مناسبة لمصالحها دون النظر فى احتياجات دول اسفل النهر «المعقولة والعادلة» وسنرى ان الوضع نفسه يحدث فى مياه نهر الأردن ايضا فقد دأبت اسرائيل على تحويل معظم مياهه اليها.



وتحصل اسرائيل على جزء كبير من مياهها عن طريق الاغتصاب من الضفة الغربية المحتلة التى يقع تحت أراضيها خزان المياه الجوفية الذى تتحرك مياهه الى الغرب ناحية البحر الأبيض المتوسط فتتصيده اسرائيل فى شبكة كثيفة من الآبار التى دقت على طول الساحل الاسرائيلى . وتحت سطح الضفة طبقتان أساسيتان تحملان المياه الضحلة منهما من الحجر الرملى والعميقة من الحجر الجيرى المشقق

تشحنان بالمياه من الأمطار ومن تسرب نهر الأردن وقد تم اكتشاف طبقة ثالثة عميقة بواسطة سلطات الاحتلال مؤخرا أضافت تصريفا رضافيا قدره ٦٠ مليون متر مكعب في السنة. وتزود مياه الضفة اسرائيل بحوالى ٢٠٪ من جملة استخداماتها من المياه العذبة وتمثل هذه الكمية ٨٠٪ من جملة مخزون المياه الأرضية بالضفة الغربية ولايحصل الفلسطينيون من المياه الموجودة تحت أراضيهم الا على أقل من ١٠٪ منها وتمنع اسرائيل لذلك أهل الضفة من دق آبار جديدة أو إصلاح القديم منها أو القيام بأى عملية تنموية أو اعمالية قد تحتاج الى مياه حتى تحافظ على انسياب المياه من الضفة الى أرض اسرائيل لاستخدامها ولحفظ الضغط داخل الآبار المدقوقة على ساحل البحر الأبيض المتوسط حتى تمنع زحف المياه المالحة اليها ومع ذلك فإن معدل سحب المياه في اسرائيل يزيد عن معدل شحن الآبار مما يسبب انخفاض منسوب المياه وتزايد الملوحة فيها.

وتحصل اسرائيل على ٣٠٪ من جملة استخداماتها من نهر الأردن وذلك بتخزين مياهه وكذلك فائض مياه اليرموك التى تأتى خلال الفيضان فى بحيرة طبرية، وتغذى مياه البحيرة القناة الاصطناعية التى حفرتها اسرائيل من البحيرة حتى حدود مصر ولمسافة حوالى ٣٠٠ كم وهذه القناة الاصطناعية من الاعمال الهندسية المعقدة التى تتكون من سلسلة من محطات الضخ والأنابيب والقنوات بدأ العمل بها فى عام ١٩٥٣ وجهزت للتشغيل عام ١٩٦٤ ويقع مأخذ القناة عند قرية كفر

ناحوم القريبة من هضبة الجولان الواقعة تحت الاحتلال الاسرائيلى والتى تطمع اسرائيل فى ضمها اليها.

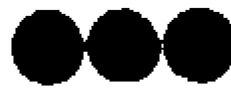
وقد حاولت سوريا بالاشتراك مع الدول العربية فى الستينات وقت أن أوشكت اسرائيل على تشغيل قناتها الاصطناعية ان تحول مياه نهر الحصبانى من بحيرة طبرية التى يصب فيها لكى يصب فى نهر اليرموك من هضبة الجولان الا أن الغارات الجوية المكثفة التى قامت بها اسرائيل على مواقع العمل فى هذا المشروع تم استيلاؤها على هضبة الجولان بكاملها خلال حرب ١٩٦٧ قد أوقفا المشروع كلية.

كما كان للاستيلاء على هضبة الجولان أثره فى منع أية تنمية على نهر اليرموك الذى ينبع من هذه الهضبة ويصب فى نهر الأردن الى الجنوب من بحيرة طبرية فقد ادى الاحتلال الى ايقاف العمل فى سد المقارن الذى كان مزمعا انشاؤه فى أعالى اليرموك كما تم هدم سد خالد الذى أقامته الأردن على النهر بغارات جوية مكثفة قام بها سلاح الجو الاسرائيلى.

ولاتوجد فى الوقت الحاضر اية اتفاقيات تحكم توزيع مياه النهر بين الأردن واسرائيل فقد رفضت الدولتان مقترحات اريك جوستون فى الخمسينات لتنظيم الاستفادة من نهر اليرموك وقد فرضت اسرائيل ارادتها لتنظيم الاستفادة من مياه النهر وذلك ببقاء النهر على حاله دون أية سدود والسماح للأردن بأن يأخذ مايستطيع أن يأخذه بعد حجز ٢٥ مليون متر مكعب عند مثلث اليرموك (وهو ذلك المثلث الذى يقع بداخل

إسرائيل تحده غربا بحيرة طبرية ونهر الأردن وشرقا نهر اليرموك) وتذهب هذه الكمية الى الأردن عن طريق قناة الغور الموازية لنهر الأردن - وتقدر كمية المياه التى تأخذها الأردن بحوالى ٣٠٠ مليون متر مكعب فى السنة وتترك مياه الفيضان لكى تذهب الى اسرائيل وذلك بتحويلها الى بحيرة طبرية تمهيدا لنقلها عبر القناة الاصطناعية الى جنوب اسرائيل - وقد حدث فى منتصف الثمانينات أن أطمى اليرموك عند مدخل قناة الغور مما عاق دخول المياه اليها ولم تنشأ حكومة الليكود ان تقوم بتطهير النهر وازالة لسان الرواسب الذى ظهر فى المجرى الا بعد ضغط شديد من القيادات المعتدلة فى اسرائيل ومن الولايات المتحدة التى رأت ان منع المياه عن منطقة الغور فيه زعزعة لاستقرار الاردن.

وأدت حرب لبنان فى سنة ١٩٨٢ التى تمت بتشجيع من الولايات المتحدة الى تحقيق الحلم الصهيونى بالاستيلاء على منطقة جنوب لبنان التى يقع فيها نهر الليطانى - وهذا النهر هو واحد من الأنهار القليلة فى المنطقة التى لم يتم تنميتها فمازال الجزء الأكبر من مياهه التى تبلغ حوالى ٣٠٠ مليون متر مكعب تذهب الى البحر فقد منعت التهديدات الاسرائيلية بل وضغط السلطات الامريكية عدم تنمية النهر وتخطط اسرائيل لاستخدام مياه الليطانى وتحويلها بقناة لايزيد طولها عن ١٠ كم عند قلعة بوفرت (الشقيف) عندما يغير النهر مجراه من الجنوب الى الغرب الى بحيرة طبرية حيث يوجد خزان اسرائيل للمياه.



ويبدو من هذا العرض أن اسرائيل وفلسطين والأردن يواجهون نقصا في المياه ستتزايد حدته مع مرور الأيام واذا كان للأردن وفلسطين من امكان الاتفاق مع سوريا والعراق حيث هناك بعض الفائض من المياه (فى حالة سوريا نصيب الفرد من المياه الكلية ٢٠٠٠ متر مكعب بعد الأخذ في الاعتبار تأثير سد اتاتورك بالمقارنة بأقل من ٢٠٠ متر مكعب فى حالة الأردن وفلسطين) فإن الطريق امام اسرائيل صعب دون الاتفاق على الحل الشامل للقضية الفلسطينية بالشروط العربية فالقول بأنه لم يعد للعرب مايستطيعون الضغط على اسرائيل هو قول مردود - وامام العرب ان استخدموا سلاح المياه بكفاءة ومقدرة القدرة على فرض السلام الذى يحقق العدل لهم.

ان اسرائيل فى أزمة مائية قاتلة وهى تقوم الآن باستيراد المياه عبر البحار من تركيا وهو إجراء فرضته ظروف الجفاف التى استمرت خلال الخمس السنوات بين ١٩٨٧ ، ١٩٩١ (زادت أمطار هذا العام زيادة كبيرة حتي فاضت الخزانات والأنهار) ولايمكن ان يكون مثل هذا الاجراء الا ان يكون مؤقتا - ومن الوجهة العملية فإنه ليس أمام اسـرائيل من خيـار ان لم ترغب فى السلام مع جيرانها العرب الا:
(١) أن تترك الزراعة كلية وتعيد تنظيم اقتصادها على هذا الاساس.
(٢) عسكرة قضية الماء والدخول فى حرب للحصول على الماء. وفى ظنى

انه من الصعب تحقيق اى من الخيارين: فالأول مستحيل بدون سلام واعادة تنظيم الادوار لمختلف بلاد الشرق الاوسط، والثانى صعب فى ظروف العالم الجديد.

نهر النيل

يشمل حوض نهر النيل تسع دول، ستة منها تقع حول البحيرات الاستوائية التى ينبع منه النهر وتسمى لذلك الدول البحيرية - ومن أراضيها يأتى حوالى ربع المياه التى تأتى الى مصر وهى كمية وان كانت قليلة الا انها لها اهمية خاصة لانها تجعل النهر مستديم الجريان على مدار السنة - ولا تعود قلة المياه التى تصل إلي مصر من هذه المنابع إلى قلة الأمطار فى الهضبة الاستوائية فهى كثيرة بل الى أن مياه النهر تتبدد فى المستنقعات والبطاح التى تنتشر فى المنطقة حيث يتبخر منها الجزء الأكبر - ويفقد فى منطقة السد وحدها والتى تعوق بحر الجبل الذى ينقل مياه بحيرة فيكتوريا والبرت حوالى نصف كمية المياه التى تصل من هاتين البحيرتين والتى قد تصل فى مجموعها بين ٢٠ و ٢٥ مليار متر مكعب فى السنة (اجمالى الماء الواصل من الهضبة الاستوائية عبر الجبل حوالى ٤٧ مليار متر مكعب يخرج منها من منطقة السد حوالى ٢٦ مليار متر مكعب - ويفقد فى مستنقعات باشار بالسوباط مايقدر بحوالى ١٠ مليارات متر مكعب ومن مستنقعات بحر الغزال كمية هائلة لاتقل عن ٢٠ مليار متر مكعب وتقدير الفاقد فى

الحوضين الاخيرين هو من باب التخمين الذكى اذ لاتوجد دراسات كاملة عن هذه المناطق اذ لاتوجد بها مقاييس منتظمة فى اماكن كثيرة بها - وتأتى ثلاثة أرباع المياه التى تصل الى مصر من الهضبة الاثيوبية ولهذه المياه أهمية خاصة بالنسبة الى كل من مصر والسودان فهى المياه التى تصل اليهما بفاقد قليل نسبيا.

وعلى الرغم من كثرة الفاقد فى حوض النيل فإنه لاتوجد فى الوقت الحاضر مشروعات متكاملة تقبلها جميع دول النهر تنظم الاستفادة من هذه المياه وتضبط مياه النهر لصالح دوله وقد ظل أمر تنظيم مياه النيل يتم فى القاهرة التى كانت وحتى وقت قريب عاصمة الدول الوحيدة من دول النهر التى تستفيد من مياه النيل - فحتى عشرينات هذا القرن لم تكن هناك دولة أخرى من دول الحوض ذات اهتمام بمياهه - كان النيل نهرا بلا فلاحين فباستثناء بعض الزراعات المتناثرة التى كانت تنتشر هنا وهناك فى كل من النوبة واثيوبيا لم يكن هناك من يستفيد من مياه النيل غير مصر - فلا عجب إن كانت شئون النيل تشغل مصر - وهى دولة مصب من حيث تأمين منابعه ووضع المشاريع للاستفادة منه منذ أقدم الأزمنة - الا أن هذا الاهتمام وخاصة بموضوع تأمين منابع النيل أصبح عصب الاستراتيجية والدبلوماسية المصرية منذ أوائل القرن التاسع عشر عندما ادخلت مصر زراعة القطن ونظام الرى المستديم - وقد ظل الحال كذلك بعد أن احتل الانجليز مصر فقد ظلت مصر مصدرا مهما للقطن الذى شكل المادة الخام لمصانع النسيج بانجلترا.

وفى عشرينات القرن العشرين مع تزايد الحركة الوطنية بمصر بدأت شركات النسيج فى بريطانيا فى التوسع فى زراعة القطن بالسودان مما أثار ذعر مصر ومما أدى الى القيام بمفاوضات شاقة استمرت بين سنة ١٩٢٥، وسنة ١٩٢٩ انتهت الى اتفاقية سنة ١٩٢٩ التي اعترف فيها لأول مرة بحق مصر والسودان التاريخى فى المياه اللازمة لزراعة الأراضى التى كانا يزرعانها فى ذلك التاريخ وقدرت المياه التى تحتاجها هذه الأراضى الى ٤٨ مليار متر مكعب لمصر و٤ مليارات متر مكعب للسودان - وقد أدى التوسع السكانى وزيادة المساحات المزروعة صيفا إلى الحاجة الى مزيد من المياه التى كانت القاهرة تأمل الحصول عليها من أعالى النيل - وكان لمصر فى هذا الشأن مشروع متكامل يتكون من عدد من السدود والقناطر والخزانات التى كانت ستبنى فى أربع دول هى زائير وأوغندا والسودان وأثيوبيا - وتؤثر فى هيدرولوجية أربع دول أخرى هى كينيا وتنزانيا ورواندا وبوروندى، وقد أقر مجلس الوزراء المصرى هذا المشروع المتكامل عن حفظ مياه النيل فى ديسمبر سنة ١٩٢٩.

وعندما نشبت ثورة يولية سنة ١٩٥٢ رأت القيادة الجديدة صعوبة تنفيذ هذه المشروعات التى تقع خارج مصر وفى بلاد إما إنها كانت واقعة تحت الاحتلال الانجليزى الذى كان ينظر اليه بالاشتباه فى نواياه أو أنها على وشك الحصول على استقلالها وعلى حقها فى استغلال منابع ثروتها الطبيعية دون اكراه أو فرض ولذلك فقد قوبل مشروع

السد العالى الذى كان سيقام بداخل حدود مصر بترحاب كبير - وحتى وقت انشاء السد العالى لم تكن هناك دول مستفيدة من مياه النيل غير مصر والسودان ولذا فقد تم الاتفاق بينهما على اقتسام المياه التى سيتم توفيرها بعد بناء السد والتى قدرت بحوالى ٢٢ مليار متر مكعب فى السنة فى المتوسط (بعد خصم حوالى ١٠ بلايين متر مكعب للبخر) تحصل السودان منها على ١٤,٥ مليار متر مكعب ومصر على ٧,٥ مليار متر مكعب فى السنة وهذه الكميات تضاف الى الكميات التى كانت مقررة طبقا لاتفاقية سنة ١٩٢٩ وبذا يصبح نصيب مصر ٥٥,٥ مليار متر مكعب فى السنة والسودان ١٨,٥ مليار متر مكعب فى السنة.

وبعد سنوات من اتمام هذه الاتفاقية بدا فى الأفق مشاكل كثيرة وشكاوى من دول حوض النهر التى ينبع منها والتى تزود مياهها خزان السد العالى فلم تكن هذه الدول قد استشيرت عند بناء السد كما بدأ تيار كبير بداخل السودان نفسه يدعو الي تعديل الاتفاقية التى اعتبرت مجحفة به هذا على الرغم من أن السودان حتى يوم القاء هذه المحاضرة لم يستوعب حصته فى المياه التى أعطيت له طبقا لاتفاقية سنة ١٩٥٩.

وتتبنى حكومة السودان خطة للتوسع فى الزراعة المروية ستحتاج إلى أكثر بكثير من الكمية المتاحة لها فى الوقت الحاضر - ومهما كانت الأسباب التى دفعت هذه المشاكل الى الظهور فلا شك أن ازدياد أعداد

السكان وانحسار الزراعة المطرية نتيجة الجفاف الذى شهدته منطقة الساحل خلال العقدين الماضيين كانا دافعا لإثارة هذه المشاكل.

المصدر الوحيد للمياه بالجزء المسكون من أرض مصر هو النيل - وينظم السد العالى دخول المياه اليها فى حدود ٥٥,٥ مليار متر مكعب فى السنة تستنفد حاليا فى استيفاء حاجات الشرب والاستخدام المنزلى (٣,٣ - ٤ مليارات متر مكعب) بواقع ١٩٠ - ٢١٠ لتر للفرد فى اليوم. والصناعة (٢,٥ مليار متر مكعب) والزراعة التى تستهلك باقى المياه وتوفى احتياجات زراعة الأراضى التى تقدر بما بين ٣,٦ ، ٧ ملايين فدان - وأيا كانت مساحة الأراضى المزروعة فانها تروى جميعا بمياه النيل فإذا قبلنا العدد الأعلى كان متوسط الماء الذى يحتاجه الفدان هو ٥١٠٠ متر مكعب واذا قبلنا الأدنى كان متوسط حاجة الفدان ٦٣٠٠ متر مكعب - ويفقد خلال عملية الزراعة حوالى ١٠,٥ مليار متر مكعب فى الصرف (يسترد منها حوالى ٤,٥ مليار متر مكعب ليستخدم مرة أخرى فى الزراعة وهى كمية مياه الصرف التى تصل فيها نسبة الملوحة الى ١٠٠٠ جزء فى المليون أو أقل من الاملاح الذاتية) كما يفقد من المياه ايضا حوالى ٥ مليارات متر مكعب تذهب الى الخزان الجوفى (يسترد منها حوالى ٢,٥ مليار متر مكعب بالضخ) فيكون الفاقد من مياه الزراعة الى البحر والبحيرات أو بحيرة قارون حوالى ٩ مليارات متر مكعب وهذا الفاقد يجعل الكفاءة الكلية لاستخدامات مياه الزراعة فى حدود ٨١٪ وهى نسبة عالية جدا - واذا اضيف الى فاقد الزراعة ما

يفقد عن طريق البحر في النهر والترع وغيرها والمقدر بحوالى ٢ مليار متر مكعب وكذلك الفاقد من مياه الصناعة (حوالى ٦٠٠ مليون متر مكعب) والاستخدامات المنزلية (حوالى مليار ونصف تخرج خارج دورة المياه) يكون الفاقد الكلى من المياه حوالى ١٣,١ مليار متر مكعب - وهناك أخيرا ذلك الجزء الذى يفقد فى البحر خلال موسم السدة الشتوية وهى فترة تطهير الترع التى لا يحتاج النبات فيها الى ماء يذكر الا ان احتياجات الملاحة فى النهر لرفع منسوب المياه لمأخذ محطات الشرب تأخذ حوالى ١,٣ مليار متر مكعب تزيد الى ٢,٨ مليار متر مكعب فى حالة استخدام توربينات السد العالى فهذه المياه تفقد فى البحر فى الوقت الحاضر - فيكون مجموع الفاقد الكلى هو ١٤,٥ الى ١٦ مليار متر مكعب من أصل ٥٥,٥ مليار متر مكعب.

ولاتستطيع مصر أن توفر من هذا الفاقد الا مياه السدة الشتوية التى يقترح تخزينها فى أحد منخفضات الدلتا وكذلك اعادة استخدام حوالى ٣ مليارات متر مكعب من مياه الصرف (ذلك الجزء الذى يقل عن ١٥٠٠ مليون متر مكعب من الأملاح الذاتية) وكذلك حوالى نصف مليار متر مكعب نتيجة تنقية مياه الصرف الصحى. وهذه الكمية من المياه هى التى ستكفى بالكاد الاحتياجات المتزايدة للاستخدامات المنزلية والصناعية خلال السنوات العشر القادمة دون أى زيادة فى الأرض الزراعية على صعوبة قبول هذا الاختبار.

السودان

يخطط السودان لزيادة زراعته المروية من ٤,٥ مليون فدان في الوقت الحاضر الى ٩,٥ مليون فدان سوف تحتاج عند استكمالها الى حوالى ٤١,٨ مليار متر مكعب فى السنة - ولما كانت حصة السودان فى الوقت الحاضر هى ١٨,٥ مليار متر مكعب فإن أمر تنفيذ هذه الخطة سوف يحتاج الى تدبير اكثر من ٢٣ مليار متر مكعب فى السنة وهو أمر يصعب تصور تحقيقه مهما بلغ الخيال مبلغه، فالخزانات الحالية بالسودان سنار والرصيرص وخشم القربة وجبل الاوليا تعطيه قدرة تخزين مقدارها ٧,٧ مليار متر مكعب وهناك مشروعات عاجلة لتعلية الرصيرص وزيادة قدرة التخزين الى ٧ مليارات (بدلا من ٣) وانشاء جديد عند مروى فى النوبة بسعة ٧ مليارات متر مكعب وخزان آخر فى أعالى العطبرة بسعة تخزين ١,٦ مليار يمكن أن تضيف للسودان ١٥,١ مليار متر مكعب أخرى . وهذه المنشآت تعطى السودان بالاضافة الى مايضخ حاليا من جانبى النيل الابيض والازرق حوالى ٢٥ مليار متر مكعب وهى كمية من المياه تفوق حصة السودان بحوالى ٦,٥ مليار متر مكعب .

ويقال إن هذا سيمكن تدبيره عند الانتهاء من مشروعات أعالي النيل التى اتفقت مصر والسودان على تحمل مصروفاتها وفوائدها مناصفة وهذه المشروعات جميعا هى فى مراحل دراستها الأولى وليس منها ماتحمل دراسته بل والبدء فى تنفيذه الا مشروع قناة جونجلى

التى خططت لتحويل جزء من مياه منطقة السد حيث تتبدد المياه الى القناة التى بدأ العمل فيها بالفعل فى آخر السبعينات ولكن العمل توقف فيها نتيجة الحرب الأهلية بجنوب السودان منذ عام ١٩٨٣ - وكانت هذه القناة ستدبر لكل من مصر والسودان حوالى ٢ بليون متر مكعب فى السنة.

اثيوبيا

لم تدخل اثيوبيا فى اية اتفاقات مع مصر وقد كررت اثيوبيا إنها لن تلتزم بالاتفاقية التى كان الامبراطور منليك قد امضاها مع السلطات الانجليزية وتعهد فيها فى سنة ١٩٠٢ بالا يقيم أية منشآت على النيل الازرق أو العطبرة كما كررت تأكيدها بحقها على الاستفادة من أنهارها بالطريقة التى تراها.

وبالفعل قامت اثيوبيا بدعوة BUREAUOF RECLAMATION الامريكى لدراسة انهارها فيما بين أعوام ١٩٥٩ ، ١٩٦٤ وهى الدراسة التى ربما كانت أيضا بمثابة رسالة خفية لمصر التى كانت فى ذلك الوقت تنتهج سياسة مستقلة عن أمريكا - وقد وصلت الدراسة الامريكية الى عدد من النتائج أهمها هو إمكان انشاء ٣٤ سدا على النيل الأزرق بسعة تخزين قدرها ٥٠ مليار متر مكعب هى جملة ايراد النهر كله يكون الغرض الاساسى منها توليد الكهرباء بقدرة حوالى ٣٠ مليون كيلووات ساعة (أى ٤ أضعاف قدرة السد العالى) وصنفت الأراضى القابلة للزراعة بحوالى مليون فدان منها حوالى ١٣٧,٠٠٠ صنفت تحت الدرجة الأولى و٣٣٠,٠٠٠ صنفت تحت

الدرجة الثانية (بمجموع أقل من نصف مليون فدان يمكن أن تستهلك ٦مليارات متر مكعب معظمها حول بحيرة تانا ورواق فنشا والرهد والدندر وبليس ودابوس وديدسا. ولم يتم تنفيذ اى من هذه المشروعات فيما عدا مشروع فنشا (بمساعدة مالية من ليبيا وموافقة من البنك الدولى) والذى يستهلك ٠,٤ مليار متر مكعب فقط ويجرى الآن تنفيذ خزان وبليس الأعلى بلس الأدنى بمعونة من ايطاليا وهما خزانان صغيران سعة كل منهما حوالى ١٠٠ مليون متر مكعب /سنة - وينظر جديا فى بناء سدين على بحيرة تانا لتوليد الكهرباء.

وبالاضافة إلى الدراسة الامريكية فقد قامت السوق الأوربية المشتركة بدراسات لتنمية رافد البارو لنهر السوباط وذلك ببناء خزان من عند مدينة جمبيلا واستصلاح ٢٥٠,٠٠٠ فدان كمرحلة أولى تزداد الى ٧٥٠,٠٠٠ فى العقد الأول من القرن الواحد والعشرين - وقد تم بالفعل استصلاح ٣٥,٠٠٠ فدان - وسيستخدم هذا المشروع عند كماله حوالى ١,٥ مليار متر مكعب.

وفى حالة استكمال كل هذه المشروعات فستستقطع أثيوبيا حوالى ٦ مليارات متر مكعب من الازرق و٠,٥ مليار متر مكعب من العطبرة، ١,٥ مليار متر مكعب من السوباط - وستؤدى كل هذه الاستقطاعات إلى إحداث إرتباك شديد فى كمية المياه الواصلة الى كل من مصر والسودان - إن قامت أثيوبيا بعمل هذه الخزانات والسدود ودون تنسيق مع دول أسفل الحوض . وهناك من المشاريع مايمكن به استغلال انهار

الحبشة لصالح البلاد جميعا بحيث يتم تنسيق مواعيد التخزين في تانا والرصيرص لصالح جميع بلاد النهر.

وعلى الرغم من كثرة المياه في الهضبة الاستوائية واعتماد معظم الدول البحيرية على الزراعة المطرية التي تتراوح بين ٧٥٠٠ الى ١٧٠٠ مم في موسمي المطر (الربيع والخريف) فإن بعض هذه الدول قد عاشت من حالة الجفاف التي سادت منطقة الساحل والقارة في معظمها خلال العقدين الأخيرين ومن هذه الدول كينيا التي امتد الجفاف الى بعض أجزائها المتاخمة لبحيرة فكتوريا والتي تقع مساحة ٦٪ منها بداخل حدودها والتي تمد البحيرة بحوالي ١٠٪ من مياهها - وقد أقر البرلمان الكيني في سنة ١٩٧٩ انشاء سلطة تنمية البحيرة وهي مصدر استصلاح ٢٧٥,٠٠٠ فدان حول شواطىء البحيرة وحوالي ٤٨٠,٠٠٠ فدان في أحواض الانهار التي تصب فيها وقد تم تنفيذ استصلاح حوالي ١٢٠,٠٠٠ فدان - لم تحدد السلطة حتى كتابة هذه السطور كمية المياه التي تحتاج إليها زراعة هذا العدد من الفدادين - كما تفكر الحكومة الكينية في تحويل نهر غزويا الذي يصب في بحيرة فيكتوريا الى وادي كويا لتعمير المناطق شبه القاحلة بكينيا - وعند كمال تنفيذ هذه المشروعات فسيتاثر مدخل الماء الى بحيرة فكتوريا - ولاتشعر حكومة كينيا بأي عائق قانوني أو أخلاقي يمنعها من استخدام الماء الذي يمر في أراضيها بالطريقة التي تراها - بل لعل هذه الحكومة هي من أكثر الحكومات ضجة حول المياه التي «اغتصبتها» مصر من النيل.

وتبلغ جملة المياه المستخدمة فى كينيا حوالى ٢٨ مليار متر مكعب من جملة الماء المتاح لها وهو ١٧٥ مليار متر مكعب ثم ٥٢ مليار متر مكعب منها من الأنهار ومن الخطط الطموحة زيادة استخدامات المياه الى ١٤٨ مليار متر مكعب .

ومن الدول البحيرية التي قد تؤثر على مياه بحيرة فكتوريا تنزانيا التى تقع حوالى ٥٠٪ من البحيرة فى أراضيها والتى يصل منها حوالى ٤٢٪ من جملة المياه التى تصل الى البحيرة - فلدى تنزانيا مشروع لزراعة هضبة VEMPENE بمنتصف تنزانيا وذلك بتحويل جزء من مياه بحيرة فكتوريا اليها وزراعة حوالى ٥٥٠,٠٠٠ فدان من القطن - وهذا المشروع قديم فكر فيه المستعمرون الألمان فى أواخر القرن الماضي.

ولتنزانيا مشروع مع دول حوض الكاجيرا باستغلال حوض النهر الذى يكتنب حوالى ٢٥٪ من المياه لبحيرة فكتوريا - وقد شكلت هذه الدول مؤسسة حوض الكاجيرا KAGERABASIN ORGANISATION وأقامت عليه سد روسومو لتوليد الكهرباء كما درست المؤسسة امكانيات الزراعة فى الحوض ورأت التركيز على ثلاث مناطق صغيرة تعطى حوالى ١٥,٦٠٠ فدان للزراعة بالرى فى رواندا وبوروندى وتنزانيا ولم يتم القيام بالمشروع لعدم وجود التمويل وللنزاع القائم بين رواندا وزائير.

لجميع دول الحوض مشروعاتها فى التنمية وهى ان لم تكن قد نجحت حتى الآن لصعوبات تمويلية أو ادارية فإنها لابد وأن تعيد التفكير فيها غدا وسيسبب تنفيذها دون تنسيق مع باقى دول الحوض

- خلخلة اقتصادية فظيعة وعدم استقرار سياسى بل وحروبا ونزاعات

- وليس هناك من حل دون العمل الدبلوماسى الجاد للتمهيد لبناء مؤسسة تقوم بدراسة الحوض ككل للتنمية لصالح جميع الأطراف.

قضية البيئة فى مصر

يحتوى هذا الملف على خمسة موضوعات تتعلق بشئون البيئة وهى موضوعات عالجتها - بصورة أو بأخرى - على مدى السنوات الماضية، والموضوع الأول نظرى أحاول من خلال طرحه هنا أن أشرح ما يمكن أن يفعله تلوث الجو في تغيير مناخ الأرض والنظم البيئية فيها .

والموضوع الثانى يركز على واحدة من أوائل صيحات التحذير عن تلوث الجو بمصر وعما يمكن أن يؤديه إن لم يبدأ المصريون فى كبح جماحه وهى صيحة سبق لى أن أطلقتها فى سنة ١٩٨٨ قبل سنوات من انشاء أقسام بالجامعات للبيئة أو أجهزة تنفيذية لشئونها .

أما الموضوعان الثالث والرابع فيتعلقان بضرورة الحفاظ على نظافة بحيرة ناصر الخزان الوحيد الذى يزود مصر كلها بالمياه وبضرورة إيقاف عمليات التعمير التى كانت تجرى حول البحيرة بل وبداخلها . وقد تجاوب مع الدعوة الكثيرون خاصة بعد أن بينا أن المنطقة المحيطة بالبحيرة قليلة الإمكانيات بحيث أن مصر لن تخسر كثيرا بعدم تنميتها. وبالرغم من ذلك ، وبالرغم من تعثر جميع مشروعات التنمية التى تمت حول البحيرة والتى تكلفت ما يزيد على ١٨٨ مليون جنيه على مدى الاثنى عشر عاما الفائتة (انظر التحقيق الصحفى بجريدة الاهرام فى ١٩ يناير سنة ١٩٩٦) فإننا مازلنا نسمع عن ندوات واجتماعات تعقد للدعوة لتعمير البحيرة وهو ما دفعنى من قبل للكتابة بغرض تفنيد ادعاءات من يدفعون التعمير فى هذه المنطقة الحساسة .

كما ينطوى الموضوع الخامس ، الذى أطرحه فى هذا الملف ، على صيحة تحذير أخرى مما يمكن أن يحدث لآثار مصر لو ترك الأمر على حاله دون العمل على إيقاف عوامل الاتلاف التى تتعرض لها وأتعرض فى هذا السياق لمجموعة أفكار كان من الممكن لو اتبعت أن تعفى مصر مما تتكلفه اليوم من إصلاح المعابد والتى يجيىء فى مقدمتها معبد الأقصر الذى يجرى حاليا فكه وإعادة تركيبه :

كوكبنا يسخن أم يبرد ؟

يلاحظ الناس تقلبات الجو بدهشة وتساؤل ، بينما يدور بين العلماء جدل عنيف حول مستقبل المناخ على الأرض : هل يتجه العالم حقا إلى الدفء ؟ أم أنه يبرد ؟ . وبين النقيضين تتزاحم البراهين العلمية، فالديمقراطية هى منطق العلم الحق . وهى منطق هذا الموضوع - البحث.

أصبح موضوع التغيرات المناخية التى ينتظر أن يتعرض لها العالم في مستقبله القريب موضوعا مثيرا للجدل وللكثير من التكهنات. ويعتقد الكثير من العلماء أنه سيكون للزيادة المنتظرة لما يسمى بغازات الصوبة الزجاجية فى جو الأرض نتيجة تزايد النشاط الإنسانى أثر مباشر علي مناخ الأرض يؤدى إلى ازدياد درجة حرارتها وإلى تغيرات في مناطق توزيع الأمطار وتدرجية الضغط الجوى والمناطق الصالحة لزراعة المحاصيل، وكذلك إلى ذوبان جليد الأقطاب مما سيرفع من منسوب سطح البحر ويغرق المناطق الساحلية والعامرة بالسكان على اتساع العالم كله .

حبس الحرارة

وغازات الصوبة الزجاجية هى تلك التى توجد بجو الأرض فى نسب صغيرة وهى التى تسبب دفء الأرض فمن خلالها تنفذ إشعاعات الشمس ذات الموجات المتوسطة وكذلك الإشعاعات تحت الحمراء ذات الموجات الطويلة لتصل إليها وبواسطتها تحتفظ الأرض بهذه

الإشعاعات لأنها تعيق هروبها عندما ترتد من سطحها . ولولا وجود هذه الغازات لكان كوكب الأرض بارداً وبلا حياة مثله مثل باقى الكواكب والأجرام السماوية الأخرى التى لا توجد بأجوائها هذه الغازات ذات الخواص الفريدة، تأثير هذه الغازات على الأرض هو أنها تحبس الحرارة في جوها كما يحبس الزجاج الحرارة فى الصوبة الزجاجية، ومن هنا كانت تسميتها .

ومن غازات الصوبة الزجاجية غازات ثانى أكسيد الكربون والميثان وبخار الماء والأوزون وغيرها من الغازات والتى توجد في جو الأرض بنسب صغيرة جدا، ومما يثير قلق العلماء أن نسبة الكثير من هذه الغازات قد زادت أخيرا نتيجة الزيادة الكبيرة فى النشاط الإنسانى بمعدلات لم تستطع الطبيعة أن تمتصها . وقد تسبب التزايد الكبير فى استخدام الوقود الحفرى (الفحم والغاز والبترول) خلال العصر الصناعي، وبالذات بدءا من القرن التاسع عشر بل ومنذ سنوات ما بعد الحرب الكونية الثانية إلى زيادة كمية ثانى أكسيد الكربون فى الجو بدرجة كبيرة، كما زادت نسبة غاز الميثان أيضا زيادة كبيرة نتيجة ازدياد عمليات التحلل العضوي التى صاحبت التزايد السكانى . فاتساع مساحات زراعة الأرز وانتشار حظائر تربية الماشية وتضخم مساحات القمامة خارج المدن وازدياد حرائق الغابات زادت من نسبة غاز الميثان فى الجو حتي تضاعفت منذ منتصف القرن التاسع عشر . ويعتقد الكثير من العلماء أن زيادة هذه الغازات في جو الأرض سيؤدى إلى ارتفاع درجة حرارتها .

ثاني أكسيد الكربون

ولثانى أكسيد الكربون أهمية خاصة فى دورة الحياة ذاتها، فهو المصدر الرئيسى للكربون الذى يدخل فى عملية البناء الضوئى فى الأجزاء الخضراء من النبات، والتى يتم فيها تخليق المركبات العضوية المعقدة من مواد بسيطة مثل الماء وثانى أكسيد الكربون. وفى ميزان الطبيعة تتعادل على وجه التقريب كمية ثانى أكسيد الكربون التى تدخل فى عملية البناء الضوئي التى يقوم بها النبات مع الكمية التى يخرجها الحيوان فى أثناء عملية التنفس ، أو تلك التى كانت تطلق فى الجو من حرق الأشجار التى كانت تشكل مصدر الطاقة الوحيد عند الإنسان قبل العصر الصناعى . كان ما يخرج من ثانى أكسيد الكربون من عملية حرق الأشجار محدوداً وقابلا للاستيعاب بواسطة النبات الذى كان يغطى مساحات كبيرة من سطح الأرض . وقد تغير الميزان تماماً مع بدء عصر الصناعة والتوسع فى حرق الفحم والغاز والبترول، فزادت نسبة غاز ثانى أكسيد الكربون التى تطلق فى الجو بحرق هذه المواد إلى درجة فاقت قدرة النبات بل والطبيعة كلها على استيعابه، فزادت نسبته فى **الجو** من ٢٧٠ جزءا فى المليون عند بدء العصر الصناعى إلى ٣٥٠ جزءا فى المليون فى ثمانينيات القرن العشرين . وكانت أسرع معدلات الزيادة فى العقود الثلاثة الأخيرة عندما زادت نسبة ثانى أكسيد الكربون فى الجو من ٣١٥ جزءا إلى ٣٥٠ جزءا فى المليون ، فيما بين سنتى ١٩٥٧ و ١٩٨٧ .

ومما يثير القلق أن هذه الزيادات الكبيرة فى غازى ثانى أكسيد الكربون والميثان تصاحبها زيادة كبيرة فى غاز أكسيد النيتروز ، وهو أحد غازات الصوبة الزجاجية الذى زاد وجوده فى الجو نتيجة ازدياد استخدام المخصبات الأزوتية فى الزراعة . وقد تسببت هذه الزيادات فى قلق المهتمين بشئون البيئة ، وفى مطالبتهم بأن تقوم الحكومات باتخاذ إجراءات حاسمة على المستوى الدولي للإقلال من غازات الصوبة الزجاجية فى الجو .

جدل مستمر

وعلى الرغم من أن هناك الكثير من العلماء ممن يعتقدون جزما بأن العالم فى طريقه إلى الدفء ، فإن هناك عدداً آخر يعتقدون أن ميزان الطبيعة معقد أشد التعقيد وأنه كامل ومتزن ولديه القدرة على تصحيح مساره كلما تعرض للخلل ، وأن الذى يحكم التغيرات المناخية العالمية عوامل كثيرة بالإضافة إلى عامل زيادة غازات الصوبة الزجاجية فى جو الأرض ، وأن حصر هذه العوامل ومعرفة كنهها هى أمور لم تستكمل بعد ولذلك فهم يدعون إلى التريث خاصة أن الإجراءات التى يطلبها البيئيون باهظة الكلفة، ستؤدى إلى كساد اقتصادى وتبديد ثروة كان يمكن أن تنفق فى التكيف مع عالم سترتفع فيه درجة الحرارة، هذا إن صحت نظرية أولئك الذين ينادون بحتمية دفء الأرض ، إذا استمر نمط ومعدل النشاط الإنسانى على ما هو عليه الآن .

تقلبات درجة الحرارة فى الماضى القريب

يختلف العلماء فى تفسير قياسات درجة الحرارة، التى تمت فى مواقع كثيرة فى العالم، خلال السنوات المائة والعشرين الماضية. فالذين يعتقدون فى تأثير غازات الصوبة الزجاجية على درجة حرارة الجو يرون أن القياسات تشير إلى أن هناك زيادة فى متوسط درجة حرارة الجو خلال هذه السنوات بمقدار نصف درجة مئوية، كما أنهم يؤكدون أن معظم سنوات عقد الثمانينيات من القرن العشرين كانت دافئة بشكل لافت ، كما أن صيف سنة ١٩٩٠ بالذات كان أحر صيف على الإطلاق. على أن الكثير من علماء الجو لا يفسرون هذه القياسات على النحو الذى ذهب إليه هؤلاء العلماء ، فهم يرون أن ازدياد درجة الحرارة لم يكن منتظما عبر سنوات هذه القياسات فقد ارتفعت فى الستين عاما التى سبقت سنة ١٩٣٨ ثم انخفضت بعد ذلك وحتى سنة ١٩٧٥ بمعدلات خشى بعض العلماء أن تكون نذيرا لبدء عصر جليدى جديد ! ثم انعكس الاتجاه بعد هذه الفترة وحتى وقتنا هذا . ومثل هذه التقلبات تثبت أنه لاتوجد علاقة بين درجة حرارة الجو ونسبة ثانى أكسيد الكربون وغازات الصوبة الزجاجية فيه. ولعل من المفيد أن نذكر هنا أن معظم علماء الجو يرون أن زيادة درجة الحرارة فى السنوات الأخيرة حدثت خلال الليل لا النهار مما كان له أثر حسن على نمو المحاصيل الزراعية .

تقلبات درجة الحرارة فى الماضى السحيق

وإذا عدنا إلى الماضى السحيق فإننا نجد أن مناخ الأرض قد انتابته تغيرات جذرية منذ مليونين من السنين ، فحول هذا التاريخ بدأت فترة فريدة في تاريخ الأرض تميزت بتراكم الثلوج عند الأقطاب، وبظهور اختلافات كبيرة فى درجة الحرارة فى مختلف مناطق الأرض وبين الليل والنهار . وهذه الظواهر لم تحدث فى تاريخ الأرض الطويل إلا لفترات محدودة جداً ، فقد كان مناخ الأرض على طول تاريخها معتدلا، ولم تكن درجات الحرارة متباينة تبايناً كبيراً باختلاف مناطق الأرض كما لم يكن بالأقطاب ثلوج. وفى خلال المليونى سنة الأخيرة من تاريخ الأرض حدثت تقلبات هائلة فى المناخ ، فقد امتدت الثلوج من الأقطاب، وزحفت لتغطى مساحات شاسعة من سطح الأرض لسبع عشرة مرة على الأقل، شكلت كل مرة منها عصراً جليديا قلت فيه درجة الحرارة وتغيرت فيه مناطق توزيع الأمطار والنبات والحيوان ، وبعد كل مرة كانت الثلوج تتراجع نتيجة دفء الأرض لفترات فصلت بين العصور الجليدية، وتراوحت مدتها بين ١٠,٠٠٠ و ١٢,٠٠٠ سنة . ونحن اليوم ومنذ ١٠,٨٠٠ سنة فى واحدة من هذه الفترات الدافئة، ولذلك فليس من المستبعد أن نكون قرب عصر جليدى جديد .

والدارس لدورات تقدم الثلوج يلاحظ أن مدة فترات العصور الجليدية تراوحت بين ١٠٠,٠٠٠ و ١٢٠,٠٠٠ سنة ، ويعتقد الكثير من العلماء أن طول هذه الفترات مرتبط بالتغيرات الدورية لموقع الأرض

بالنسبة للشمس مصدر الحرارة لها نتيجة التغيرات التى تحدث لمدارها ولمحورها . وعلى الرغم من أنه يمكن تفسير دورات تقدم الجليد ومدتها بسبب هذه التغيرات الفلكية ، فإنه يصعب إرجاع النهاية المفاجئة لعصور الجليد وتغير الجو السريع بعد ذلك إلى هذه التغيرات فقط، فقد يعود ذلك إلى عوامل أخرى مثل تفاعل جو الأرض مع المحيط العالمي .

الدفء الحالى

وإذا نحن راجعنا فترة الدفء الحالية التى تسبب عنها تراجع ثلوج العصر الجليدى الأخير ، الذى كان فى أوجه من ١٥,٠٠٠ سنة عندما كانت الثلاجات تغطى أجزاء شاسعة من قارات نصف الكرة الشمالى، فإننا نجد أنه على الرغم من أن الاتجاه كان نحو الدفء خلال فترة تراجع الجليد التى بدأت منذ ١٠,٨٠٠ سنة، فإن هذه الزيادة لم تكن منتظمة طوال الفترة، فقد تقلبت بين الزيادة والنقصان فكانت فى أقصاها منذ ٧٠٠٠ سنة عندما ارتفعت درجة حرارة الجو إلى متوسط يفوق الحديث بدرجتين مئويتين ، كما تقلبت-درجة الحرارة خلال الألف سنة الأخيرة، فقد ارتفعت لحوالى المائتى عام خلال القرنين العاشر والثانى عشر الميلاديين وهى الأعوام التى وجد الفايكنج فيها جزيرة جرينلاند – المليئة بالثلوج فى الوقت الحاضر – خضراء يمكن العيش عليها ، كما انخفضت درجة الحرارة فى نصف الكرة الشمالى فى الفترة بين سنة ١٦٠٠ وسنة ١٨٥٠ ميلادية حين تغطت مساحات كبيرة من الأراضى المزروعة فى الوقت الحاضر فى سويسرا وإيطاليا بالثلوج.

ومن العلماء من يعتقد أن دفء العصر الحديث هو رد فعل لهذا العصر الجليدى الصغير الذى انتهى فى منتصف القرن التاسع عشر .

ويبدو من هذا العرض أنه لاتوجد علاقة بين هذه التقلبات فى درجة الحرارة ونسبة غازات الصوبة الزجاجية فى الجو والتى ارتفعت نسبتها من ٢٠٠ جزء فى المليون وقت أوج العصر الجليدى الأخير إلى ٢٧٠ جزءا فى المليون منذ ٧,٠٠٠ سنة ، وثبتت عند هذا الحد حتى منتصف القرن التاسع عشر على الرغم من كثرة تقلبات درجة الحرارة ارتفاعا وانخفاضا خلال هذه الفترة، وثبات نسبة غازات الصوبة الزجاجية فيها.

النماذج الرياضية

تقلبات درجة حرارة الأرض تعتمد إذن على عوامل كثيرة بعضها معلوم لنا وبعضها لانعرف عنه أو عن كنهه الكثير ولذلك فإن مسألة التنبؤ بما سيحمله المستقبل من تقلبات هى أمر صعب حقاً، ومع ذلك فليس أمامنا من بديل عند الإقدام على هذه العملية غير استخدام النماذج الرياضية التى يدخل فيها العلماء ما يعرفونه من العوامل المؤثرة فى المناخ بالكمبيوتر، ليروا ماذا سيحمله المستقبل لو أن أحداً أو بعض هذه العوامل سيتغير . وهناك عدد من النماذج الرياضية التى يعمل عليها العلماء فى الولايات المتحدة وأوربا .

وعلى الرغم من أن جميع النماذج الرياضية تدخل فى حسابها عوامل مشتركة استنبطت من مبادىء فيزيقا الجو، فإن كل واحد منها يأتى بنتائج مختلفة . صحيح أن هناك اتفاقا عاماً بينها على أن درجة

حرارة الأرض ستزداد إذا حدث وتضاعفت نسبة غازات الصوبة الزجاجية فى جو الأرض ، إلا أنها تختلف فى تقدير هذه الزيادة بين ١,٥ و ٤,٥ درجة مئوية . وفي خلال السنوات الماضية غيرت النماذج من تقديرها لمقدار الزيادة إلى النصف ، عندما عدلت عوامل الجو الداخلة فيها بعد أن تحسنت معارفنا عنها، أو أضيفت إلى هذه العوامل المؤثرة عوامل جديدة، مثل غطاء السحاب الذى يعكس إشعاعات الشمس ويؤثر سلبا على درجة حرارة الجو ، أو تيارات المحيط التى تنقل الحرارة من مكان إلى مكان .

وتختلف النماذج الرياضية أيضا فى تحديد الأماكن التى سيصيبها المطر عندما يحدث الدفء فى الأرض .

ولعل هذه الجزئية من نتائج هذه النماذج ذات أهمية خاصة لعالمنا العربى الذى يقع فى نطاق المناطق القاحلة أو شبه القاحلة . وهنا نرى أن النماذج تختلف فى تحديد مناطق الأمطار فمنها ما يستنتج أن مناطق الصحارى المدارية ستنال قسطا من الأمطار ومنها مالا يستنتج ذلك. ومثل هذه الاختلافات لابد أن تقودنا إلى الاعتقاد بأن هذه النماذج لاتزال بعيدة عن الكمال. والحقيقة أن الملاحظة المباشرة تقودنا إلى ذلك أيضا فجميع النماذج تتفق فى التنبؤ بأن نصف كرة الأرض الشمالى سيناله دفء أكبر من ذلك الذى سينال نصف الكرة الجنوبى ، وهذا يخالف الاتجاه الذى سجلته وتسجله محطات قياسات درجة الحرارة فى نصفى الكرة الأرضية .

الملاحظة تنكر

وإذا كانت كل النماذج الرياضية متفقة على أن زيادة فعلية فى درجة الحرارة لابد أن تحدث مع تزايد غازات الصوبة الزجاجية، وهو مالا تؤيده الملاحظة الفعلية، فهل يعود ذلك إلى خطأ أساسى فى هذه النماذج أو إلى وجود عوامل أخرى تكون قد امتصت هذا الدفء ؟ هل يمكن أن يكون سطح المحيط العالمى قد امتص الدفء ؟ أو هل يمكن أن تكون هناك عوامل أخرى عادلت تأثير هذا الدفء ؟ هل يمكن أن يكون نشاط البراكين مثلاً سبباً فى تعويض هذا الدفء الذى كانت كل النماذج تتنبأ به ؟ البراكين تؤثر سلباً على درجة الحرارة لأنها تطلق غبارها فيعلق بالجو، ويعكس أشعة الشمس، ويعيق وصول جزء من إشعاعاتها إلى الأرض .

وقد تأثر جو الأرض بالفعل فى عام ١٩٩١ نتيجة النشاط البركانى الكبير الذى حدث فى جزر الفليبين فانخفضت درجة الحرارة خلال ذلك العام .

الخلاصة

يثير موضوع تأثير الإنسان على مناخ الأرض قضايا علمية كثيرة، ويدفع الإنسان للقيام بالبحث العلمى المنظم لمعرفة أسرار الكون الذى يعيش فيه. فمن الواضح من العرض السابق أن الكثير من العوامل التى تؤثر فى نظام هذا الكون الواسع والمتشابك غير معروف للإنسان. ولذلك فإنه سيكون من سبق الأمور أن يبدأ الإنسان فى اتخاذ خطوات يغير

بها نظام البيئة قبل معرفة أكثر دقة عن نظام هذا الكون . وبطبيعة الحال فإن العمل على الإقلال من إطلاق غازات الصوبة الزجاجية فى الجو هو شىء حميد فى ذاته. فمهما اختلفت وجهات النظر حول أثر زيادة هذه الغازات على المناخ ، فإن أحدا لايختلف فى أن زيادتها مفسدة لحياة الإنسان. القضية الحقيقية هى فى أن الخطوات التى يفكر العالم الصناعى فى اتخاذها لوقف الزيادة فى هذه الغازات خطوات باهظة الكلفة، إذ إنها تتعلق بإدخال تحسينات فى تصميم السيارات أو فى زيادة الكساء النباتي فوق سطح البحر، بتخصيب البحر بما ينقصه من عناصر ، أو بإطلاق ستائر معدنية فى الفضاء لها أضلاع يمكن تعديلها لإدخال القدر المطلوب من إشعاعات الشمس إلى الأرض، أو غير ذلك من الأمور المكلفة، والتى سيدفع ثمنها فى النهاية دول العالم الفقيرة. وفى رأيى المتواضع أن العلاج الحقيقى للإقلال من غازات الصوبة الزجاجية فى الأرض هو فى البحث عن مستقبل عمليات التصنيع الكثيف ، وفى مستقبل أنماط الاستهلاك الهائلة والسائدة اليوم فى العالم الصناعى .

قضية التلوث فى مصر

لايسع العائد إلى ارض مصر بعد غيبة إلا أن يلاحظ الغمامة الدائمة التى اصبحت تغلف القاهرة وتظللها على مدار العام فلم تعد الرؤية واضحة تماما لأية مسافة طويلة حتى أن ساكنى الأدوار العليا قد فقدوا الرؤية الواضحة للأهرام أو القلعة أو جبل المقطم وراء هذه الغمامة الكثيفة .

وعن القاهرة فان الغمامة التى تغلفها تأتى من عوادم المصانع الموجودة بداخلها وحدائق القمامة وقمائن الجير الموجودة باطرافها ومئات الالاف من السيارات التى تزرع شوارعها ليل نهار دون أى رابط - أما خارج القاهرة التى كنا نظن انها الملاذ الاخير للجو النقى بمصر فقد ادت عمليات التعمير والتنمية غير المنظمة إلى اتلاف الجزء الاكبر من البيئة المصرية اتلافا قد يصبح من العسير ملافاته فى مستقبل الايام - فعلى طول الطريق الموصل من المعادى إلى العين السخنة على خليج السويس مقالب ضخمة للقمامة ومدن جديدة انشئت بها عمارات للاسكان الاقتصادى دون الجمالى وعدة مصانع للطوب الطفلى ومصنعان للأسمنت تنفث دخانها إلى مسافات طويلة واخيرا محطة نهاية خط السوميد - فاذا انتقلنا إلى منطقة خليج السويس وجدنا جبال المنطقة كلها مغلفة بغمامة كثيفة تجعل رؤياها الواضحة

وتصويرها أمرا مستحيلا ذلك لأنها تقع فى ظلال السحب القاتمة التى تخرج من حريق الغاز المستمر لحوالى اربعين حقلا للبترول تنتشر على أطراف وبداخل الخليج .

وقد كان اكتشاف سبب هذه الغمامة جديدا علىّ فقد كنت اعلم ان آبار البترول أثرت أيما تأثير على الحياة البحرية والأسماك ولم اعلم عن تأثيرها علي جو الخليج فقد ظننت وكل من قابلتهم ان الغمامة نتيجة ضباب طبيعى يغلف الجبال سيزول اثره عندما تنقشع الغيوم ويصفو الجو على ان ذلك لم يحدث ولم نكشف عن سبب الغيوم الا بعد أن رأينا سحب الدخان الخارجة من آبار البترول وهى تتجمع فوق سماء الخليج وما يحيطه من جبال، واخذت اقارن بين ما كنت قد ألفته من مناظر لهذه المنطقة وجبالها وما أراه أمام عينى فقد جئت لأصور جبال البحر الأحمر التى اصبح اليوم تصويرها عسيرا .

وفي مدينة ادفو كانت صورة التلوث اشد فالمدينة مغلفة بكاملها تحت غمامة الدخان الأسود الذى تخرجه مداخن مصانع السكر وقمائن الجير المفتوحة لهذه الشركة وكذلك الدخان الرمادى الذى تخرجه مداخن مصنع الفيروسيليكون - ويتكرر المنظر نفسه فى أسوان وكافة المدن التي ازداد عمرانها عشوائيا وبدون تخطيط .

ومشكلة التلوث فى مصر انها طويلة الأثر فجو مصر صحو لا تصحبه امطار تذكر وهذه الأمطار هى التى تقوم بغسيل هذه الغمامات فى بلاد اوروبا الصناعية ذات الامطار المستمرة والجارفة أما فى مصر

فلا مناص لهذه الغمامات من ان تعلق بالغلاف الجوى للبلاد وان تتزايد كثافتها مع مرور الوقت ولعل هذا هو سبب تلوث مناطق الصحراء الواسعة فهو نتاج عدة سنوات من التلوث فى المدن عاما بعد آخر .

وقد مرت معظم البلاد الصناعية فى مشاكل مماثلة حتى فسدت بيئتها وتلوثت مياه بحيراتها وشواطئها أما هواؤها فقد غسلته الامطار التى كانت تأخذ ما علق به من كربون وكبريت فتسقطه حمضا ذا اثر مدمر على غاباتها ونباتها وتربتها - ولم تكن معركة البيئة سهلة فى دول العالم الصناعى ذلك لأن حماية البيئة تتطلب استثمارات جديدة واعادة لتنظيم المصانع وتضييقا على حريتها إلا ان التدهور السريع فى احوال البيئة ونوعية الحياة الذى حدث فى أعقاب التوسع العمرانى الكبير فى اعقاب الحرب العالمية الثانية ساعد فى خلق رأى عام وضغط كبير على المسئولين لكى يضعوا القوانين الصارمة لضبط نظافة المنشآت الصناعية وكمية ونوعية العوادم الخارجة من وسائل النقل المختلفة - وقد اصبحت هذه القوانين الآن جزءا من تراث هذه البلاد .

ونحن فى اشد الحاجة لكى نحمى بيئتنا فى مصر فقد وصل الحال إلى درجة حرجة حقا فعلى الرغم من أن مصر ليست بلدا كثيف الصناعة فإن بيئتها هشة فهي تعتمد على نهر واحد ويعيش أهلها على ارض محدودة ذات كثافة سكانية بغير نظير - وليس هناك من شك فى ان استمرار الحال على ما هو عليه سيؤدى إلى اوخم العواقب ليس فقط على صحة السكان بل وإلى افساد التربة والبحار وتآكل المبانى والآثار.

منطقة بحيرة ناصر .. كمحمية طبيعية

تفضل الأستاذ سلامة أحمد سلامة بنشر خطاب فى عموده اليومى بصحيفة «الأهرام» كنت قد أرسلته إليه لكى يتبنى قضية الاحتفاظ بالمناطق المحيطة ببحيرة ناصر (السد العالى) كمحمية طبيعية لا يجوز إقامة تجمعات زراعية أو صناعية أو عمرانية فيها إلا فى أقل الحدود حتى يمكن حماية الخزان الوحيد الذى يمد مصر بالمياه من التلوث الذى لابد أن يجيء مع بناء هذه التجمعات. وجاء في خطابى أنه بالإضافة إلى عدم الجدوي الاقتصادية لإقامة هذه التجمعات فإن إقامتها ستحرم مصر من منطقة تعمل عازلا بين المناطق الاستوائية ومنطقة البحر الأبيض المتوسط التى تقع فيها، وقد شاركنى فى هذا الرأى الأستاذ الدكتور أحمد عبدالله وكيل وزارة الصحة الأسبق ومستشار منظمة الصحة العالمية، والذى اشار إلى ما جره انتقال مرض الملاريا الاستوائية من ضرر بالغ على صحة المصريين عندما انتقل إليها عبر الوسائل النهرية فى أوائل الأربعينات .

وقد تصادف بعد نشر الخطاب بيوم واحد أن ظهر فى صفحة تحقيقات الأهرام بتاريخ ١٠/٤/١٩٩٤ تقرير مصور عن عمليات التعمير الجارية حول خزان المياه وراء السد العالى، فإذا بنا أمام عملية كبيرة وصفها التقرير بأنها «أضخم مشروع للتنمية لخلق دنيا جديدة حول بحيرة السد» وحتى لايفوت القارئ مقدار ضخامة المشروع فقد زين التقرير بصورة لحفارة هائلة تقوم بحفر قناة الرى فى واحد من

آلاف الأفدنة التى قيل أن المشروع سيقوم باستصلاحها على الرغم «من ارتفاع تكلفة استصلاح الفدان فى هذه المنطقة» حسب ما جاء بالتحقيق . واوضح السيد وزير التعمير أنه سيقوم - بالإضافة إلى كل ذلك - بتحويل مدينة أبو سمبل إلى ميناء كبير حتى يكون «بمثابة بوابة مصر الجنوبية ودافعا لإحداث التنمية الكبري بالمنطقة» وكذلك بإنشاء مراسى نيلية فى مناطق الآثار التى تنتشر حول البحيرة لتشجيع السياحة النيلية التي ستقوم وزارتا الثقافة والسياحة بالمشاركة في التخطيط لها .

ولا يستطيع القارىء لهذه التصريحات أن يرى سببا لهذا الحماس الذى يبديه المسئولون نحو إنشاء الموانى والمراسى وإدخال البواخر التجارية والسياحية إلى كتلة الماء الكبيرة التى تقع وراء السد العالى ، إلا أن الأمر قد التبس عليهم فظنوا أن كتلة الماء هذه هي بحيرة حقيقية، مع أنها ليست إلا خزانا للمياه وإلا فكيف يمكن تفسير أن يخطر ببال أحد إدخال البواخر التجارية التى تخرج عوادمها البترولية وتسكب نفاياتها في خزان للمياه تجب حمايته؟

إن عمليات التعمير القائمة الآن حول شواطىء الخزان ليس لها أى مبرر اقتصادى ، فجميع الأراضى المحيطة بالخزان منخفضة الجودة وتقع فوق منسوب ١٨٠ مترا فوق سطح البحر (وهو أعلى منسوب للخزان)، فى الوقت الذى تتذبذب فيه مياه الخزان موسميا وسنويا لعشرات الأمتار، مما سيتطلب عمليات رفع باهظة النفقة، هذا بالإضافة إلى الانفاق الضخم فى عمليات إنشاء البنية الأساسية . ومن الغريب

أن تدعم مثل هذا المشروع مؤسسة دولية كمنظمة الأغذية والزراعة (الفاو) مما يجعلني أؤكد ما كررته مرارا من ضرورة ترشيد الاستفادة من المعونات الأجنبية حسب أولويات تقررها السلطات المصرية مع ضبط حسابات مثل هذه العمليات .

ومن عجائب الأمور ألا يلقى موضوع الحفاظ على خزان المياه الوحيد لمصر اهتماما يذكر، على الرغم من أن بمصر وزارة للبيئة تنهمر عليها المعونات الدولية ولايفوتها مؤتمر دولي دون أن تحاضر فيه بفخر عن اهتماماتها وجهودها المستمرة لتحسين البيئة . كما أن بها وزارة للتعمير لديها المئات من التقارير الفنية ودراسات الجدوى التى أنفقت عليها الملايين والتى تمتلىء بالبيانات عن موضوعات البيئة والتلوث . وبمصر . وهو الأهم عشرات الهيئات الأهلية التى كان من الممكن أن تقفز لتبنى هذه القضية وهى الهيئات التى تصنف اليوم تحت مسمى «الجمعيات غير الحكومية» والتى تنال الدعم المالى الضخم من هيئات المعونة الأمريكية والدولية وبرنامج التنمية للأمم المتحدة والبنك الدولى . كما أن بمصر حزبا للخضر . وبالمكتب التنفيذى للحزب الوطنى سيدة كثيرا ما سمعنا عن اهتمامها بشئون البيئة حتى انها كانت ضمن وفد مصر للمؤتمر الدولى للبيئة بالبرازيل ، كما يعيش فى مصر الآن المدير التنفيذي السابق لبرنامج البيئة بالأمم المتحدة، والذى فهمنا من حديثه مع مجلة «المصور» بتاريخ ١٩٩٤/٣/٢٥ انه لم يفقد اهتماماته بشئون البيئة ، بل مازال دائم الأسفار والمشغولية بها . وأخيرا فإن لجريدة «الأهرام» صفحة اسبوعية عن البيئة فأين هي من قضية حماية خزان المياه الوحيد لمصر ؟

زراعة مليون فدان حـــول بحيرة ناصر
بين الوهم والحقيقة

نشرت جريدة أخبار اليوم على صفحتها الأولى منذ وقت غير بعيد : خبرا مفاده أن محافظة أسوان تعتزم القيام بالبدء في عملية استصلاح مليون فدان من الاراضى المتاخمة لبحيرة ناصر . ووصفت المشروع بأنه «معجزة» وانه واحد من المشروعات التى تدخل بها مصر القرن الواحد والعشرين .

ولما كنت قد نبهت لمرات عديدة عن عدم جدوى هذا المشروع وضرره البليغ الذى يمكن أن يجلبه إلى بحيرة ناصر التى هي فى واقعها خزان مصر الوحيد للمياه فقد دهشت من استمرار المسئولين فى المحافظة فى المضى قدما فى المشروع دون أن يعطوا ولو قليلا من الاهتمام لما أبديته من ملاحظات أيدنى فيها المسئولون عن شئون البيئة والصحة والرى والمياه.

والآن وقد قررت المحافظة تنفيذ مشروعها ضاربة برأى الخبراء عرض الحائط فماذا ياترى ستكون نتيجة استصلاح واستزراع مليون فدان حول البحيرة ؟ وماذا سيكون عليه حال سكان مصر الذين يعيشون أدنى النهر شمال محافظة أسوان ويعتمدون على ماء البحيرة لعيشهم ؟.

أول ما سيترتب على القيام بهذا المشروع هو حرمانهم من حوالى ثمن كمية المياه التى تصلهم ذلك لأن استزراع مليون فدان حول البحيرة

سيحتاج إلي مالا يقل عن ١٠ بلايين متر مكعب من المياه ستسحب بالقطع من نصيب مصر من المياه .

صحيح أن حوالي ثلث هذه المياه سيعاد إلي البحيرة مرة أخرى بعد صرفه إليها إلا أنه سيعاد محملا بالأملاح التى غسلتها من التربة وكذلك ببقايا المخصبات والمبيدات التى استخدمت في زراعة هذه الفدادين الكثيرة .

ومعنى ذلك أن أهل مصر لن يخسروا فقط جزءا كبيرا عن المياه التى تصلهم علي الرغم من شحها .. بل عليهم أن يعيشوا مع مياه أكثر ملوحة وأردأ نوعية عما هى عليه الآن مما سوف يترك أثره على خصوبة الأرض فضلا عن الصحة العامة .

على أنى قبل أن استرسل فى هذه النتائج المزعجة أسرع إلى طمأنة شعب مصر شمال أسوان بالقول أن زراعة مليون فدان حول بحيرة ناصر من قبيل الأوهام . وذلك لأسباب كثيرة يأتى فى مقدمتها صعوبة تزويد هذه المساحة الهائلة من الأرض بالمياه دون الدخول فى انفاق معجز وغير عملي !

فهذه المساحة من الأرض والتى نفترض أنها ستمتد لمسافة ٣٥٠ كيلو مترا على طول البر الغربى حيث توجد الأراضى غير الجبلية والتى سيصل عمقها لحوالى ١٥ كيلو مترا فى عمق الصحراء تقع على ارتفاع يتراوح بين ١٨٠ ، ٢٢٠ مترا فوق سطح البحر مما سيحتاج إلى رفع الماء إلى حوالى ٦٠ مترا فى المتوسط فوق منسوب فم محطات ضخ

المياه والتي ستركب على منسوب ١٥٠ مترا (وهو أقل منسوب وصل إليه الخزان فى السنة ٨٧/٨٨) . على طول الشاطىء الغربي .

وعلى القارىء أن يتصور كلفة مثل هذه التركيبات الهائلة التى ستضخ الماء من البحيرة إلى هذا الارتفاع ثم توزعه إلى أطراف المساحات التى تنوى زراعتها والتى ترتفع فى معظمها إلى أعلى ناحية الغرب كلما ابتعدنا عن البحيرة مما سيجعل وضع مضخات اضافية على طول هذه الأرض لازما - ناهيك عن حفر القنوات والمساقى (والتى لابد من تبطينها حتى لايتسرب منها الماء قبل أن يصل إلى نهاياتها) عبر مئات الكيلو مترات.

وليس لدى أى تقدير لما يمكن أن يتكلفه مثل هذا العمل ولكنى أعرف من دراسة قمنا بها منذ عشر سنوات عن جدوى مشروعات استزراع الصحراء أن تكلفة رفع متر مكعب واحد من المياه لثلاثين مترا كانت في حدود ١٦ قرشا (شاملة اهلاك وصيانة المضخات وتشغيلها فقط دون اهلاك أو صيانة القنوات أو المساقى) .

فإذا افترضنا ان الاسعار قد تضاعفت منذ وقت اجراء هذه الدراسة وان رفع المياه فى حالة السد العالى سيكون إلى اكثر من ٣٠ مترا فإن سعر المتر المكعب من الماء حتى وصوله إلى الارض لن يقل عن ٣٠ قرشا بأى حال ، ومعنى ذلك ان رى الفدان الواحد سيتكلف قرابة الثلاثة آلاف جنيه .

ونحن لم نتكلم بعد عن أى مكون آخر من مصروفات الزراعية كالتقاوى والمخصبات والمبيدات والحرث والحصاد والنقل والعمالة فضلا عن اعطاء مردود لما أنفق على استصلاح هذه الفدادين .

فإن كان عند محافظة أسوان زراعى يمكن أن يغطى مثل هذه المصروفات فليقل لنا عنه .

ولنعد الآن من عالم الأوهام إلى عالم الحقيقة الذى يحدث الآن حول بحيرة ناصر فى صورة استزراع بضعة آلاف الأفدنة حول أخوار البحيرة (وعلى الأخص خور كلابشة) فنقول للمحافظة : أن هذه لن تخرج عن كونها زراعة كفاف مبنية على محصول واحد يزرع بطريقة رى الحياض - وأثر هذه الزراعة محدود ولا يبرر الانفاق الكبير الذى تقوم المحافظة بتشجيعه .

فطبقا للخبر الذى نشرته «أخبار اليوم» قامت المحافظة ببناء خمسة آلاف منزل للشباب الذين استوطنوا الخمسة وعشرين ألف فدان فى الاثنتى عشرة قرية الجديدة التى قيل أنها انشئت حول اخوار البحيرة وأعطت لكل منهم قرضا قيمته ٢٠٠٠ جنيه وخدمات مجانية لأول زرعة ولنقل محاصيلها فضلا عن معونات غذائية . فإذا أضفنا هذه المصروفات إلى ما تكلفته المحافظة فى بناء البنية الأساسية وفى إنشاء وتسيير ادارة جديدة للإرشاد الزراعى لوجدنا أن تكلفة فدان واحد ينتج محصولا واحدا هى أكثر من ١٠ آلاف جنيه وهذا مبلغ كبير لمردود قليل.

وأخيرا فلى رجاء أن يقرأ المسئولون عن هذا المشروع ما كتبه الأستاذ محمود السعدنى بمجلة المصور بتاريخ ٢٠ يناير ١٩٩٥ تحت عنوان «الاستثمار.. والبيلى باه» فقد حذر فيه بقلمه الساخر مما يلجأ إليه بعض المسئولين في اغراق الناس فى الوهم بالاعلان عن أرقام «همايونية» عن فرص العمل التي ستتاح والثروات التى ستنهال علينا.

إن محافظة أسوان التى تنتج عشر كهرباء مصر هى واحدة من المحافظات القليلة التي لو أتيح لها استخدام ما توافر لها من طاقة بأسعار رمزية لجذبت المستثمرين إليها ولبنت حول مدنها ضيعا صناعية يمكن أن تحل مشكلة أبنائها بطريقة عملية وواقعية.

من أجل حماية آثار مصر

يتعرض ما بقى من آثار مصر الباهرة للانظار والالباب إلى واقع جديد وعوامل إتلاف نتيجة تغيير موازين البيئة وزحف العمران وتزايد زائرى الآثار واتساع التجارة غير الشرعية فيها ، وهذه المؤثرات وغيرها ان لم نستطع ان نعالجها بالحسم والجدية فاننا معرضون لكى نفقد آثارنا فى غضون الخمسين إلى المائة عام القادمة .

وعلى الرغم مما تعرضت له آثارنا فيما قبل منتصف القرن التاسع عشر الميلادى من تحطيم ونهب واهمال قام به الغزاة أو المغامرون فان ما بقى لنا من آثار يتعرض اليوم إلى نوعية جديدة من الاتلاف ذى الاثر الاكيد والبطىء .

ويبدو أن المسئولين في حاجة إلى تبصيرهم بهذا الخطر الداهم، إذ انهم لم يقوموا ببادرة عملية ، أو جادة تنم عن قلقهم على آثار مصر ، أو لايقاف هذا الاتلاف أو على اقل الايمان كبح معدلاته . ولايستطيع المرء إلا أن يستنتج ذلك بعد اول زيارة لمدينة الاقصر حيث يمكن وقف تدهور الكثير من الاثار، بقرارات ادارية بسيطة لاتحتاج إلى الرجوع إلى لجان، أو الدخول فى متاهات التوصيات المتضاربة ، أو مجابهة جماعات ضغط المصالح الخاصة - والا فكيف يمكن تفسير اطلاق مرور كافة السيارات بما فيها اللوريات ذات المقاطير الضخمة والاوتوبيسات المهولة فى الكورنيش الذى يحف معبد الاقصر (وهو الذى اقتطع اصلا من المعبد) ان هذا الجزء من طريق الكورنيش فيما بين المعبد وفندق ونتر بالاس يعج بحركة السيارات والسواح ، وترك الامر على هذا الحال يعرض المعبد للاتلاف ويجعل حركة عبور وسير آلاف الزوار عرضة للخطر الشديد - وليس اسهل على محافظ الاقليم من ان يمنع المرور فى هذا الجزء ويقصره للتجول الحر للمشاه . ان ماتنفثه السيارات من سموم وما تثيره حركتها من هز لقوائم المعبد يبدو واضحا لكل زائر حصيف !

زحف العمران

وأول عوامل الاتلاف الجديدة تأتى من اتساع العمران وزحف المساكن العشوائية دون ضابط نحو الآثار حتى تكاد ان تتداخل فى عقر مواقعها ، ومعظم هذا الزحف يحدث بوضع اليد ودون سند قانونى.

ومن هنا يجيىء دون تخطيط فيشوه المكان من الناحية الجمالية ويعرض الاثار للتلف نتيجة فساد الصرف الصحى لهذا الاسكان الجديد وطريقة التخلص من قمامته أو ضوضائه .

ولما كانت مصر عامرة بالاثار فهناك حاجة ماسة إلى وضع سياسة قومية تحدد أولاً المواقع الاثرية المهمة التى ينبغى اعتبارها محميات قومية ذات حرم مناسب ويكون التعدى عليها جريمة قومية تصل إلى درجة الخيانة الوطنية، وتحدد ثانيا المواقع ذات احتمالات وجود الآثار ولما كانت مثل هذه المناطق كثيرة العدد وكبيرة المساحة والكثير منها يقع داخل زمام مدن نائية ، فان الامر يحتاج إلى ايجاد جهاز خاص للقيام فى اسرع وقت بالمسوح الاثرية لهذه المواقع لتقرير الاحتفاظ بها كمحميات قومية إن كانت تستحق ذلك أو نقل ما بها من آثار وتركها لكى تضم إلى زمام المدن .

ولايتم رسم السياسة القومية لحفظ الآثار دون سن قانون يحتم على القائمين على كل مشروعات التعمير والتوسع الزراعي بضرورة مسح مناطق مشروعاتهم أثريا قبل البدء فى تنفيذ هذه المشروعات للتأكد من خلوها من الاثار .. وليس هذا القانون بجديد أو غريب فهو موجود . ومطبق حاليا فى الكثير من بلاد العالم المتقدم بما فى ذلك الولايات المتحدة الامريكية التي لايقارن تراثها الأثرى باية حال مع تراثنا الأثرى.

صدور مثل هذا القانون سينشط أعمال البحث عن الاثار ويرفع مستوى مهنة الاثريين ويفتح امامها مجالات جديدة للعمل وستنشأ نتيجة له مؤسسات خاصة وعامة للقيام بعمليات المسح والانقاذ كما سيدفع إلى رفع مستوى الاثريين وتدريبهم على الطرق العلمية لمجابهة تحدي عمليات التوسع العمرانى فى مصر .

ولى فى هذا المجال تجربة شخصية قد يكون من المفيد ان أذكرها ففى اوائل السبعينيات واثر قرار مد خط انابيب السوميد لنقل البترول من خليج السويس إلى غرب الاسكندرية رأيت مع بعض زملائى الاثريين التقدم إلى الشركة المنفذة للمشروع (شركة بيكتل الامريكية) للقيام بعمل مسح اثرى لخط الانابيب ، خاصة وانه كان سيشق طريقه تحت منطقة دهشور الغنية بالآثار وقد وافقت الشركة المنفذة بل ورحبت بالعرض واغلب الظن ان هذا الترحيب كان نتيجة خبرتها بالولايات المتحدة حيث يستحيل تنفيذ مشروع مماثل دون مسح المنطقة اثريا وانقاذ آثارها ان احتاج الامر إلى ذلك . على أن الجانب المصرى رفض العرض ولم ير فيه اية فائدة على الرغم من ان تكاليف المسح الاثرى لم تكن لتمثل شيئا يذكر من جملة تكاليف المشروع، ولقد أسفت لقرار الجانب المصرى ولكن هذا يدخل مرة اخرى فى باب ضرورة تبصير المسئولين بالخطر المحدق بالاثار .

أما عن محميات الآثار فقد انتهك حرم الكثير منها مثل وادى الملوك والملكات بالاقصر ومناطق ابيدوس بالبلينا ومعبد ادفو وسقارة والجيزة وغيرها الكثير وازالة هذه الانتهاكات والتعديات وايجاد حرم مناسب

لآثار هذه المناطق سيحتاج بعد طول هذا الاهمال إلى اعادة تسكين سكان هذه المناطق بعد عمل مسح اجتماعي على حالتهم لمعرفة انسب طريق لتوطينهم في مناطق جديدة دون الاخلال بارزاقهم - واذا كانت مصر بعد بناء السد العالى قد استطاعت ان تنقل وتعيد توطين شعب النوبة بأكمله فإنها بالعزم وحسن الإدارة القادرة لاعادة توطين هؤلاء الابناء الذين يتكدسون فى حرم المناطق الاثرية فى مساكن بائسة وعشوائية .. ونحن بذلك لانخدم هؤلاء الابناء فقط وننقلهم إلى المستوى اللائق ولكننا سنحمى اثارنا ونعيد إليها المهابة والكرامة فضلا عن اننا سنمنع عنها اثر مياه الصرف الصحى على جدران وارضية الآثار.

ولست اعتقد ان اعادة توطين سكان المناطق الاثرية ونقلهم إلى مقار جديدة سيحتاج إلى أموال صعبة المنال فدخل زيارة الاثار وحده كاف فى غضون سنوات قليلة للقيام بهذا العمل دون اى صعوبة .

فالقضية الحقيقية هي فى ان يبصر المسئولين بالخطر المحدق بالآثار نتيجة تزايد سكان هذه المناطق وازدحامهم.

ازدياد أعداد السائحين والزوار

وثانى عوامل الاتلاف التى جدت على آثارنا هو هذا التزايد الهائل فى أعداد السائحين وزوار الآثار واتساع مجال سياحة المجموعات التى تكاد ان تصبح الطريق الوحيد لزيارة مصر والتى تساق لزيارة المعابد والمقابر فتدخلها مجموعة وراء مجموعة مما يعرض الكثير من الآثار وخاصة القليلة التهوية إلى خطورة تآكلها سواء من اللمس أو دبيب الارجل أو من تفاعلها مع مايخرج مع النفس من ابخرة وغازات

والاستمرار فى السماح لزيارة اثار مصر ومقابر ملوكها بهذه الطريقة الفجة ينم مرة أخرى عن حاجتنا الملحة إلى تبصير المسئولين بمغبة هذا الفعل - واغلب الظن انهم يتبعون سياسة قديمة رسمت عندما لم يكن يزور الاثار الا قلة صغيرة . اما اليوم وقد ازدادت وفود السواح والزوار فان الامر يحتاج إلى سياسة جديدة لحماية الاثار قليلة التهوية، والتى لاتتحمل هذه الجموع الحاشدة وفتحها فقط للمختصين والمشتغلين بعلوم الاثار ، ومن الناحية العملية فان هذه السياسة يمكن تنفيذها على خطوات بحيث يبدأ برفع ثمن تذكرة دخول المقابر إلى مبلغ كبير، وليكن مائة دولار مثلا تزداد عاما بعد آخر حتى تمنع الزيارة نهائيا فى غضون الاربع أو الخمس سنوات القادمة . وظنى ان هذا العمل لن يؤثر على السياحة بشكل ملحوظ فلدى السائح اماكن اثرية جليلة فى الهواء الطلق كما ان لديه ، وإن كان جادا ، امكان زيارة الاماكن قليلة التهوية بعد ان يدفع ثمن صيانتها.

الهواء الملوث وارتفاع منسوب المياه الجوفية

وثالث عوامل الاتلاف يأتى من تأثير الهواء الملوث عليها، وهذه قضية تؤثر على كل مباني مصر ، ونوعية حياة وصحة ابنائها وهى قضية حيوية ينبغى اعطاؤها الاهتمام الكافى من المسئولين عن شئون البيئة . على ان مهمة حفظ الاثار تستتبع ابعاد السيارات وعوادمها من الاثار وعلى قدر الامكان وذلك بتخصيص شوارع كاملة بمدن الآثار للراجلة فقط .

وتأتى بعد ذلك التأثيرات الأخرى كارتفاع منسوب المياه الجوفية وتراكم الأملاح بفعل الخاصة الشعرية على جدران المعابد والآثار وتآكل الحوائط والألوان، وهذه مسائل متخصصة ينبغى أن تؤخذ بالجدية ، وتوضع فى أيدى العلماء والمتخصصين دون ضجيج الدعاية أو ضغط جماعات المصالح الخاصة ورجال المقاولات - هذا وقد تكون أبسط الحلول هى أنجحها فاحاطة الآثار المهددة بمصارف عميقة قد يكون مناسبا لتقليل مشاكل نشع المياه وهذا هو نفس الحل الذى يقوم به بسطاء الفلاحين عندما يجابهون مشكلة مماثلة .

عدم تنفيذ أى من الاقتراحات السابقة التى لا تحتاج إلا إلى قرارات إدارية بسيطة لا ينم فقط عن عدم إدراك المسئولين عن مدى التردى الذى وصلت إليه آثار مصر ، إنما ينم أيضا عن النظرة السائدة بين معظمنا عن آثار مصر ، والتى تنعكس فى طريقة معاملتها ، بالمصريون لا يرون فى الآثار تراثاً صنعه الأجداد يفخرون به بل يرونها كمبان قديمة لا علاقة لهم بها فائدتها استجلاب العملات وجذب السائحين وتنشيط الاقتصاد ، وليس هذا مستغربا فنحن لا نعلم أبناءنا شيئاً يذكر عن تاريخ بلادهم المجيد إذ يكاد يخلو برنامج التعليم العام من ذكر تاريخ مصر القديم .

ولا يكمل الحديث عن حفظ آثار مصر دون التعرض إلى ضرورة إنشاء شرطة خاصة لحماية الآثار التى أصبحت تجارتها غير المشروعة تدر الملايين وعصاباتها ذات سطوة ونفوذ ، ولكن الأهم من ذلك هو أن

يكون للهيئة المهيمنة على الآثار تنظيم إدارى جيد يتتبع الآثار ويمنع تسربها ، ويحمي المسئولون عن حفظ الآثار من مغريات هذه التجارة غير المشروعة فيمنع تشغيلهم فى مساقط رأسهم وينظم طريقة نقلهم من مكان إلى آخر .

وقد رأيت فى ألمانيا بعينى رأسى كتالوجات فاخرة تصور تحفاً مصرية بها أدق التفاصيل عنها توزع على جامعى التحف الأثرياء حتى يختاروا منها ما يشاءون والتحف موجودة بمصر تصور فقط عندما تجد شارياً لها .

وفى مجال حفظ الآثار تأتى عملية المتاحف المصرية ومخازنها فليس من المفهوم أن لا توجد فى متاحف مصر أجهزة أمان الكترونية فى وقت انتشرت فيه هذه الأجهزة فى أبسط المنازل .

وعلى الرغم من أنى من غير المتحمسين لفكرة عرض آثار مصر خارج حدودها فإنى على استعداد لقبول الفكرة لو أننا استطعنا الاستفادة منها فى اعادة تنظيم متاحفنا بحيث تعود كل مجموعة بعد عرضها فى الخارج لكى توضع فى متحف مستقل بأرض جديدة تخصص للتحف المصرية والتى تملأ المخازن فى كل مكان ، أما المتحف المصرى ذلك البناء الجميل والشامخ فينبغى تطويره لكى يكون عارضا لأعظم آثارنا دون ازدحام .

ومنذ أكثر من اثنتى عشرة سنة أثير فى مجلس الشعب المصرى عندما كنت عضوا فيه موضوع عرض آثار مصر خارج حدودها وطريقة

رصد الأموال المحصلة منها التى لم تكن حتى ذلك الوقت تعرض على مراقبى الحسابات. وفى تصورى أن الأمور لابد وأن تكون قد استقامت وأن مصر قد استطاعت أن تستفيد ماليا من هذه العروض ولو بجزء من المكاسب المادية لها لكى تقوم فورا بإنشاء مدينة المتاحف هذه .

والحديث عن الآثار وحفظها لابد وأن يتطرق إلى موضوع السياحة التى أرى أنها فى حاجة إلى إعادة تنظيم بعيدا عن الشعارات المرفوعة حتى تأتى بالنفع المرجو منها لمصر ، وحتى يتم توزيع عائدها على أكبر عدد من المصريين - فالبادى للعين المدققة أن السياحة بوضعها الحاضر تضيف على مصر الرسمية أعباء كثيرة ولا تدخل من العملة الصعبة مقدارا موازيا لما ينفق عليها ، كما أن سياحة المجموعات لا تدر ربحا إلا لمنظميها الذين يعيشون خارج مصر كما أن ناتجها لا يتوزع على جموع الناس . ولى مع القارىء حديث آخر عن هذا الموضوع الذى يعلق عليه الكثيرون وهم تحسين ميزان المدفوعات المصرى .

قضية التعليم فى مصر

أثارت قضية التعليم فى مصر ، ومنذ وقت مبكر ، اهتمامى إلى أقصى حد . حتى أننى كتبت مقالا حول هذه القضية بعنوان «الثورة الصناعية العلمية وأبعاد المستقبل المصرى» نشر بالأهـــرام فى ١٩٦٧/١٢/١٨ ذكرت فيه تحديداً أن «نجاح مصر فى بناء مستقبل مزدهر يعتمد فى النهاية على قدرتها على تغيير نوعية الانسان لكى يصبح رصيدا لا عبئا ولن يكون ذلك ممكنا دون الاهتمام بالتعليم فهو

أكبر الميادين التى تحتاج منا حرثا وإعادة تنظيم ولا يصح أبدا أن نتركه ميدانا ثانويا تلعب فيه أكثر العناصر جهلا بروح العصر أو تقديرا لتحديات المستقبل .

«التعليم وليس غيره هو مستقبل هذه الأمة لأن أبناءنا الذين يدخلون المدارس اليوم سيكونون فى عنفوان شبابهم عندما يكون الإنسان قد هبط على القمر واستطاع أن يزيد إلى عدة أضعاف حواسه وقدرته على حفظ واستذكار المعلومات بعشرات العدد الالكترونية أو الحاسبة ، أبناؤنا هم أثمن ما نملكه فهم الذين يمكن إن أحسن تعليمهم أن يستخدموا أدمغتهم الفضولية والمدربة لحل المشاكل التى تنتظرهم ولا يمكن أن نجعل من البشر رصيدا قادرا على الحركة فى هذا العالم الجديد إلا إذا فتحنا التعليم الجيد على مصراعيه أمام أكبر الأعداد وأبطلنا نهائيا البكاء المصطنع الذى نسمعه عن «خطورة الاتجاه إلى التعليم الثانوى أو التكالب على التعليم الجامعى» .

إن أكبر المشاكل التى قابلناها عند تنفيذ خططنا السابقة أو تلك التى ستقابلنا عند تنفيذ خططنا المقبلة ستكون دائما إيجاد المواطن الذى يعيش العصر يتحمل المسئولية ويقدر العمل ويربطه بالرزق ويعرف أين يبحث عن المعارف العلمية ويتقن طريقة استخدامها ويفهم كيف استنبطت ، فالمهارة الفنية كالسباحة خبرة يكتسبها الانسان بالممارسة وهى خبرة يكون اكتسابها سهلا لذلك الشاب الذى يقدس العمل والفضولى العقل والراغب فى

التعليم وهذه هى السمات التى يجب أن تكون نصب أعيننا ونحن نطور مناهجنا ونربى مدرسينا .

التعليم هو أهم قضايا العصر الذى ينبغى أن يكون فى أولى اهتمامات الحكومة الرشيدة التى تسعى لبناء مستقبل لبلادها فى هذا العالم الذى يبزغ اليوم والذى أصبحت نوعية الانسان فيه من أهم عناصر الأمم الناجحة بعد أن تراجعت أهمية العناصر التقليدية فى نجاح الأمم كعدد سكانها أو ما تملكه من موارد طبيعية .

وتتمثل مشاكل التعليم في ثلاث قضايا أساسية : الأولى تتعلق بكمه وضرورة إيصاله لكل الناس ، فواقع الحال ينبىء بأن مصر قد فشلت فى هذا الأمر فقد جاء فى آخر الاحصاءات أن ٥٠٪ من سكان مصر أميون وأن ٢٠٪ منهم يفكون الخط ولم ينهوا أية مرحلة تعليمية وأن من بين من أنهوا إحدى مراحل التعليم فإن ٧٪ من السكان أنهوا مرحلة التعليم الابتدائى و ٢٠٪ أنهوا مرحلة التعليم المتوسط أو الثانوى و ٣٪ أنهوا مرحلة التعليم الجامعى ومثل هذه التركيبة لا يمكن أن تدخل أمة فى عصر الصناعة أو الزراعة المتقدمة فضلا عن عصر ما بعد الصناعة أو المعلومات .

والثانية تتعلق بنوعية التعليم ومضمون المناهج التى تدرس للطلاب وطريقة تلقينها وكلها متخلفة ولا تساير العصر وليس أدل على ذلك من أن دعاة التعصب والكراهية واستخدام العنف فى المجتمع هم من خريجى المدارس وأنه كلما زادت سنى الدراسة كلما ترسخت مبادىء

التعصب والعنف فيهم ويكفى دليلا على ذلك ما يحدث فى النقابات المهنية بل وفى جمعيات أعضاء هيئة التدريس بالجامعات .

والثالثة تتعلق بدور التعليم فى بناء الأمة المتماسكة وهو أمر ينحسر اليوم مع تعدد أنواع المدارس التى أصبح لكل منها طريقه الخاص فى التعليم وفى التأكيد على أنواع بعينها من المناهج واستمرار هذا التعدد سيؤدى إلى تهديد وحدة الأمة وشرذمتها فى مجموعات بينها لغة مشتركة ويعالج التعليم الأساسى هذه القضية .

(١)
التعليم الأساسى

يعكس نظام التعليم الذى يسود مصر اليوم حال الأمة كما صورناه فى موضوعنا عن الواقع المصرى المعاصر فكما انفلق المجتمع إلى كتلتين تعيش كل منهما حياتها فكذلك أصبحت مدارسه فلم يعد التعليم الآن تلك المنظومة الواحدة التى جاهد الآباء منذ حركة الاستقلال فى بنائها لتقريب أبناء الأمة بهدف بناء الأمة المتماسكة ، فقد رأت نخب الكتلة الطافية التى تشكلت منذ السبعينات أن التعليم القائم لم يعد صالحا لأبنائها فتركوه لحاله ينعى من بناه وبنوا لأنفسهم مدارس خاصة مستقلة وقاموا بالالتفاف حول شهاداته وسعوا للحصول على إجازات المدارس الأجنبية .

وبهذه الأعمال تكون النخب قد تبنت فلسفة جديدة للتعليم تختلف تماما عن تلك التى وضع أسسها الآباء وعبر عنها فارسها الأول طه

حسين وهى الفلسفة التى تشكلت فى أعقاب النهضة القومية التى جاءت مع ثورة سنة ١٩١٩ والتى جعلت من التعليم منظومة قومية تلم شمل الأمة وتجمع كلمة أبنائها شأنه فى ذلك شأن منظومة الجيش فإلى كليهما يأتى جميع أبناء الأمة سواء من الحضر أو الريف ، من أرقى المناطق أو أفقرها ، من الصعيد أو الوجه البحرى ، مسلمين وأقباط ، أغنياء وفقراء وفيهما يتم تقريب الفجوة بين أبناء مصر بحيث يخرجون وهم يتكلمون لغة متقاربة وقد فهموا بعضهم بعضا وتعلموا السماحة واحترام عقائد الآخرين والتفوا حول مفهوم جامع للوطنية. وبالاختصار فقد كان الهدف الأول لمنظومة التعليم الأساسى حتى ظهور النخب الجديدة هو بناء الأمة المتماسكة .

ومن أجل تحقيق هذا الهدف ارتكزت السياسة التعليمية فى ذلك الزمان على إنهاء ازدواجية التعليم التى كانت سائدة منذ القرن التاسع عشر حين أضيف إلى نظام الكتاتيب الذى كان سائدا لقرون طويلة نظام آخر من المدارس المدنية ، وظلت مصر وحتى نهضتها القومية بهذين النظامين : كتاتيب يذهب إليها فقراء الناس يتعلمون فيها أصول الدين لسنوات قليلة يذهب فى نهايتها القليل من خريجيها إلى أروقة الأزهر ، ومدارس مدنية يذهب إليها متوسطو الحال وأغنياء الناس يتعلمون فيها علوم الدنيا. وكان هذا النظام تكريسا للنظام الطبقى الذى ساد معه لسنوات طويلة حين كان الحراك الاجتماعى صعبا إن لم يكن مستحيلا كما كان انعكاسا للحالة الاقتصادية والحضارية للبلاد

التى لم تكن لتحتاج إلا إلى عدد قليل من المتعلمين تعليما مدنيا لتصريف شئون صناعاتها ومؤسساتها المدنية القليلة والبازغة ودخول الأمة عصر النهضة فى أعقاب ثورة سنة ١٩١٩ القومية بدأ التحرك نحو إنهاء هذه الازدواجيه والتوسع فى بناء المدارس الابتدائية المدنية لتحل محل الكتاتيب وكان طه حسين هو فارس هذا التحرك وواضع فلسفته .

وعلى الرغم من أن أحدا لم يجرؤ على تحدى هذه السياسة الهادفة فإن الواقع الحالى يدل على أن متخذى القرار قد استسلموا لضغط المؤسسة الدينية أولا ثم لضغط نخب كتلة البشر الطافية فحادوا عن هذه السياسة حتى أصبح فى مصر اليوم نظم مختلفة وكثيرة للتعليم أخشى أنها ستؤدى فى نهاية المطاف إلى تفتيت الأمة فإليك أولا نظام الكتاتيب الذى عاد الآن فى صورة مدارس ومعاهد دينية أعيدت إلى الحياة تحت ضغط المؤسسة الدينية امتدت فيها الدراسة حتى مستوى الثانوية العامة مما يؤهل حاملها لدخول كليات جامعة الأزهر دون الحاجة إلى المرور على مكاتب التنسيق وهذه المدارس مقصورة على أهل مصر من المسلمين ، فقد أقفلت كتاتيب الأقباط منذ قيام ثورة ١٩١٩ ولم يعد لها وجود ولم تقم الدولة بإنشاء نظام مماثل للمواطنين الأقباط كما فعلت لمواطنيها المسلمين .

وإليك ثانيا المدارس الابتدائية المدنية المفتوحة أمام كل المواطنين والتى ازدادت فيها جرعة علوم الدين على حساب علوم الدنيا وهذه المدارس مفتوحة حتى الثانوية العامة فالجامعة التى يحدث على دخولها

تنافس شديد يتم فى إطار مسابقة يئن من هولها الكثيرون ، وقد أدى ازدحام هذه المدارس وتخلف مناهجها وامتلاؤها بالحشو واعتمادها على التلقين إلى ظهور مدارس اللغات الخاصة ذات المصاريف الباهظة التى لا يقدر عليها إلا نخب كتلة البشر الطافية، وهذه تؤدى فى النهاية إلى الجامعة التى يفضل أن تكون أجنبية بما فى ذلك الجامعة الأمريكية بالقاهرة التى أصبح الالتحاق بها هدف كل عائلة تطمح فى التقدم فى السلم الاجتماعى .

وهكذا أصبح فى مصر ثلاثة أنظمة تعليمية مختلفة تعمق وتكرس الاختلافات الفكرية والطبقية للأمة مما سيعمق من سوء الفهم بين خريجى هذه الأنظمة المختلفة وإلى اختلاف هويتهم وأهدافهم وتباين رؤياهم للعالم المحيط بهم .

وإذا أردنا أن نعرف خطورة هذا الموقف فعلينا أن نرى ما أدت إليه هذه السياسة التعليمية فى الجزائر حين انقسمت الأمة حتى أصبح من العسير على النخبة قبول أفكار العامة فى طرق الحكم المبنى على المبادىء السلفية، وفى نظرتها إلى العالم، وأنها لمأساة حقيقية أن تكون النخبة هى المسئولة عن نشر هذه الأفكار بين العامة ظنا منها أن فى تشجيعها تكريساً لمركزها كما كان الحال على مر الزمان فإذ بهذه الأفكار والمبادىء تأخذ ثوبا جديدا وتلبس لباس الجهاد لتعبئة كتل البشر الغاطسة للانعتاق والخروج من الأعماق وإذا كان هناك من درس يمكن أن نخرج به من تجربة الجزائر فهو أن السلام الاجتماعى لا يثبت

إلا بإيجاد لغة مشتركة بين الناس يتم تلقينها فى سنوات التعليم الأساسى الموحد الذى ينبغى أن يجمع بنات وأبناء الأمة على مختلف مستوياتهم لكى يؤصل عندهم تصور واحد أو متقارب للوطن وقواعد المواطنة والسلوك السوى . وهذا الغرض هو فى مقدمة أغراض التعليم الأساسى بل أنه يسبق فى أهميته غرض اعداد المواطن للحياة الحديثة وتلقينه المعارف اللازمة لاعداده لمجابهة المستقبل .

(٢)
التعليم الجامعى

التعليم الجامعى هو أهم أعمدة الاعداد للمستقبل ففيه يعد قادته ويتحدد شكله - وفى الماضى كان هذا التعليم مقصورا على أبناء الصفوة لا يذهب إليه إلا قلة صغيرة اختيرت لكى تعد لقيادة المجتمع . على أن هذا الوضع لم يستطع الصمود أمام طموحات الألوف من الشباب الذين اندفعوا نحو التعليم الجامعى مع مجيىء عصر الآمال العريضة الذى أعقب الحرب العالمية الثانية وما صحبه من توسعات اقتصادية كبيرة وفلسفات اجتماعية جديدة وحراك اجتماعى نشط - وفى ستينات القرن العشرين كانت قضية التعليم الجامعى فى مصر ، كما كانت فى باقى أنحاء العالم ، هى فى التوائم مع هذه الأعداد الكبيرة التى جاءت إلى الجامعة والتى لم تكن معدة لاستقبالهم .

وقد فاجأت عملية التوسع فى التعليم الجامعى الكثيرين وأزعجتهم لما يمكن أن يصيب الجامعة من انحدار لو أن أبوابها ظلت مفتوحة لهذه

الأعداد الكبيرة - وظل الكثيرون من الأساتذة يندبون هذا الحال الجديد ويتحسرون على الماضى عندما كانت الأعداد قليلة والعلاقة وثيقة بين الأستاذ والطالب - ومن أجل ذلك فقد قمت بعد أن أصبحت مسئولا عن الجامعات في التنظيم السياسى فى سنة ١٩٦٤ بقيادة حملة حاولت أن أشرك فيها أكبر عدد من الأساتذة لمواجهة هذا الموقف الجديد الذى لم يعد من الممكن الرجوع عنه . وبدأت الحملة بمقال طويل نشر بجريدة الأهرام فى ١٧ يناير سنة ١٩٦٥ حاملا بعض المقترحات التى تقدمت بها لتطوير الجامعة لتتواءم مع هذه الأعداد الوافدة ولكى تصبح «جامعة الأعداد الكبيرة» كما أطلقت عليها فى هذا المقال وذلك بتغيير هدفها بحيث تصبح مهمتها حتى مستوى شهادتها الأولى إعداد خريج ذى ثقافة عامة وحرة تؤهله لشغل مختلف المهن التنفيذية بقليل من التدريب فمثل هذا الإعداد سيعطى للخريج فرصاً أوسع لإيجاد عمل له فى عالم متغير كما سيعطى الجامعة فرصة إعادة تنظيمها لكى تتمكن من العيش فى إطار أموالها المحدودة ولكى توجه استثماراتها المتاحة إلى انشاء كليات جديدة للدراسات العليا لتدريب قلة من خيار الخريجين لكى يصبحوا الاخصائيين الذين سيقومون بقيادة عمليات البحث العلمى اللازمة لتطوير البلاد .

وقد استجاب الاساتذة للمقال وأدرنا حوارا شارك فيه الكثيرون على صفحات الأهرام لخصت أهم نتائجه فى مقال صدر لى بتاريخ ١٩٦٥/٣/٦ بالأهرام تحت عنوان «الباب المفتوح والباب المسدود»

وضحت فيه بتفصيل أكبر ما قصدته من فكرة «تعميم» الدراسة حتى مستوى البكالوريوس أو الليسانس لاخراج الممارس العام والتى أصبحت ضرورة ملحة ليس فقط لاعداد الخريج لحياة عملية أرحب، تسهل عملية توظيفه بل أيضا لأن العلوم قد اتسعت وتشابكت بالدرجة التى تجعلنا نطلب بضرورة إعطاء الطالب حتى مستوى شهادته الجامعية الأولى «فرشة كبيرة من العلوم الاساسية حتى يستطيع أن يعيش العصر وأن يصبح أقدر على متابعة تخصصه بذكاء أكبر فى مرحلة الدراسات العليا» .

وكما كان متوقعا فقد ذهبت دعوتنا هذه أدراج الرياح ولم يدعنا وزير أو أى مسئول لمناقشتها أو البحث فيها واستمر نظام الجامعات على ما هو عليه بل وتم نقل نفس النظام القديم إلى المعاهد الجديدة التى سميت بالجامعات الاقليمية والتى انشئت بعد ذلك فى مختلف المحافظات وأضيف إلى كل ذلك التوسع دون رابط فى تعيين الاساتذة ومنح الدرجات العلمية وانشاء الدوريات العلمية فأصبح حال الجامعة على ما هو عليه الآن لا هى قادرة على تخريج الأخصائى القادر ولا هى قادرة على تخريج الممارس العام الواسع الاستنارة كما أنها أصبحت غير قادرة على القيام بالدراسات الجادة التى يمكن إدراجها تحت اسم الابحاث العلمية ويندر أن يجد الواحد الان اسم استاذ من استاذة الجامعات المصرية يتردد بين أقرانه فى العالم - وقد انحدر الحال بالجامعات المصرية فلم يعد ينبغى دخولها من الطلاب إلا من لم يجد

سبيلا لدخول الجامعة الامريكية بالقاهرة أو الالتحاق بجامعة أوروبية أو امريكية - بل وذهب الحال بالنخب أن تخجل من إلحاق أبنائها بها فسعت لتأسيس جامعات خاصة بعيدة عنها - فقد أدى فرز أبنائها فى مدارس اللغات الخاصة ذات الاتجاه المدنى والمصروفات الباهظة إلى عدم تقبلهم لارسال أبناءهم إلى جامعات لا يشعرون أنها ستعد ابنائهم للحياة أو أنها لائقة بهم .

وقد رأيت بنفسى السبب الذى يدفع النخبة للإلحاح على انشاء الجامعات الخاصة عندما أقوم بالقاء المحاضرات فى الجامعات الامريكية والاوروبية فأراها مزدحمة بأبناء النخبة من المصريين الذين فشلوا فى التواؤم مع أحوال الجامعات المصرية فهجروها إلى الجامعات خارج البلاد .

وعلى الرغم من أن شيئا لم ينشر بعد عن شكل الجامعات الخاصة التى يزمع تأسيسها فى مصر فإن القليل الذى عرف عنها ينبىء بكل وضوح أن الذين ينوون إنشاء هذه الجامعات لا ينتمون إلى طبقة متسقة النشأة أو الميول أو المستوى الفكرى فمجموعة المنتجين تختلف عن مجموعة الذين استفادوا من غفلة القانون فى فترة السبعينات التى أتيحت فيها الفرصة لتكديس الثروة بالطرق المريبة التى عددت بعضا منها فى موضوع «الحقيقة والوهم» فى الواقع المصرى ، فهذه المجموعة الأخيرة تسعى لإبقاء قواعد لعبة السبعينات والجامعة التى تريد أن تنشئها هى فى تصورها ليست مكانا جادا للبحث والتحصيل بل هى

أشبه بالنادى الخاص يجتمع فيه أبناؤها لكى يحصلوا منها على شهادة تؤهلهم لارتقاء المناصب العالية والحصول على الصفقات المجزية . فالنجاح هنا لا علاقة له بالقدرة على التحصيل قدر ما له علاقة بنسب الطالب وقدرته على دفع المصاريف الباهظة . الجامعة فى هذا التصور حق للأبناء يدخلونها دون أن يحتاجوا أن يتجشموا مشقة الدخول فى مسابقات الثانوية العامة وقواعد لجان التنسيق ويخرجون منها بعد نزهة لطيفة عبر سنوات الجامعة .

أما مجموعة المنتجين فإنهم ينظرون إلى الجامعة نظرة أكثر ذكاء ، فهى أولا مشروع يمكن أن يحقق الربح فمادام الكثيرون من أبناء النخب فى مصر والبلاد العربية يسافرون إلى خارج أوطانهم لتلقى العلم فى معاهد باهظة النفقة فلماذا لا تقام فى مصر جامعة تجذب هؤلاء الطلاب وأموالهم التى ينفقونها فى الخارج . وهى ثانيا مشروع مطلوب لإعداد ابنائهم وأبناء الأذكياء من الفقراء لإدارة اعمالهم بالطرق المتقدمة التى لا يتيحها التعليم فى الجامعات المصرية وللقيام بالأبحاث اللازمة لفتح آفاق جديدة للاستثمار الداخلى والتعاون الخارجى، وهى ثالثا واجهة طيبة لتجميل وجه النخبة القبيح فهى دليل اهتمامهم بالعلم والخير ومن هنا اهتمامهم بالاعلام عن أن جامعتهم لن تكون مقصورة على الأغنياء بل ستكون مفتوحة لأذكياء الفقراء .

هذه جامعة جادة إذن لمؤسسيها الكثير من النوايا الطيبة وهم لقلة خبرتهم لا يعرفون أن الجامعة الجادة يستحيل أن تكون مشروعا لربح

لأن مثل هذه الجامعة تحتاج إلى بنية أساسية ضخمة وإنفاق باهظ لا يمكن لمصاريف الطلاب مهما بلغت أن تنفق عليها . كما أنهم لا يعرفون كم هو مكلف طلب الخبرة من الجامعات الشهيرة أو استقدام الأساتذة منها أو الانتساب إلى أى منها .

وتدل أنواع الكليات التى يرغب مؤسسيها فى البدء بها على عموم هذه النخبة المنتجة من رجال الأعمال فهم أولا مهتمون بتسيير أعمالهم بطرق الإدارة الحديثة ولديهم الرغبة فى أن يكون من بين معاونيهم رجال يعرفون أصول وفنون القانون الدولى للدفاع عن مصالحهم التى انفتحت على العالم . وهم ثانيا يتطلعون لفتح جبهة جديدة للاستثمار فى الصحراء ذات الأراضى الرخيصة والتي يرون فيها متسعا للقيام بمشروعاتهم دون أن يجابهوا مشاكل المدن المكتظة بالسكان . ومن هنا جاء التفكير فى انشاء كليات للادارة والقانون ولاستثمار موارد الصحراء على أن انشاء هذه الكليات. إن أريد لها أن تكون على المستوى الجاد يحتاج إلى انفاق ضخم لبناء الأقسام المساندة وإلى إنفاق عظيم لبناء المعامل المتقدمة ومراكز البحث اللازمة لتقدم الاساتذة وجلب كبارهم للعمل فيها فهؤلاء هم الذين سيصنعون للجامعة اسمها .

ومالم يستطع مؤسسو الجامعة من إيجاد التبرعات الضخمة اللازمة لإقامة الجامعة وهو أمر يبدو أن النخبة غير مستعدة له فإن أمر بناء الجامعة الجادة سيكون صعبا . ولازال أمام هذه النخبة طريق طويل

حتى يرتفع مستواها الفكرى لترى الفائدة التى يمكن أن تجنيها عندما تربط صالحها الخاص بالصالح العام وبرفاهية الوطن ككل ، فشواهد الحال تنبىء بأن النخب فى العالم الثالث عامة وفى مصر خاصة لم تصل بعد إلى هذا الفهم .

فرصة القرن التاسع عشر التى ضاعت
مصر والعالم قبل قرن وربع

بحلول شهر نوفمبر ١٩٩٤ ، حلت ذكرى مرور مائة وخمسة وعشرين عاما على افتتاح قناة السويس للملاحة الدولية، فقد تم تدشين القناة فى حفل كبير اتسم بالأبهة أقامه الخديو إسماعيل فى يوم السابع عشر من شهر نوفمبر ١٨٦٩ دعا إليه كوكبة من علية المجتمع الأوربى، قد بدأ الحفل بموكب بحرى اخترق القناة يتقدمه اليخت الامبراطورى إيجل ، الذى كان يحمل امبراطورة فرنسا الجميلة يوجينى وتبعه ممثلو مختلف الدول بما فيها بريطانيا التى ما فتئت تضع العراقيل أمام التعاون المصرى الفرنسى فى بناء القناة فلم يفتها أن ترسل إلى الحفل ولى عهد امبراطوريتها الأمير الوسيم ادوارد .

وأقام بهذه المناسبة الخديو إسماعيل ، على وجه السرعة ، دارا للأوبرا بالقاهرة هى الأولى فى الشرق الأوسط التى وإن لم تعرض فى افتتاحها أوبرا عايدة التى كان يعدها لهذه المناسبة الموسيقار الشهير فردى ، فقد افتتحت بأوبرا ديجوليتو المعروفة . ولم يمض على افتتاح القناة شهور إلا وقد نال فرديناند ديلسبس الفرنسي مهندس القناة شرف العشاء على مائدة الملكة فكتوريا وشرف الحصول على لقب الفارس منها .

وقد حدثت خلال المائة والخمس والعشرين سنة التى انقضت منذ افتتاح القناة أحداث جسيمة طالت مصر والعالم - أحاول أن اقتطف منها بعضا مما رأيت أنه قد أثر على تكوين مصر الحديثة وموقعها فى خارطة العالم السياسية التى نعرفها اليوم .

وقد يكون من المفيد قبل أن نبدأ الكلام عن مصر أن نؤكد على أن العالم غداة افتتاح القناة كان مختلفا تماما عن عالم اليوم بحيث يصعب على المحدثين أن يتصوروه فقد كان عالما لا يعرف من وسائل المواصلات الحديثة غير الباخرة والقطار اللذين لم يكن قد مضى على بدء استعمالهما إلا عقود قليلة كما أن عالم ذلك الزمان لم يكن يعرف من وسائل الاتصالات غير التلغراف الذى لم يدخل مصر إلا منذ أقل من خمس سنوات من تاريخ افتتاح القناة . كما لم تكن خارطة أوروبا الحديثة قد عرفت فقد كانت إيطاليا وألمانيا مجموعة من الامارات المتحاربة التى لم يتم توحيدها إلا بعد سنوات من افتتاح القناة كما كانت أوروبا تخوض أزمات متلاحقة وقلاقل اجتماعية أحدثتها الثورة الصناعية التى أخذت تنتشر على مقاييس واسعة خلال سنى القرن التاسع عشر فقد صاحبت حركة التصنيع السريعة ثورات وحروب اشتعلت من أجل تأمين العدل الاجتماعى أو من أجل الحصول على الخامات والأسواق . أما الولايات المتحدة الامريكية فقد كانت وقت افتتاح القناة قد خرجت لتوها من حرب أهلية مدمرة ، كما لم يكن قد مضى على أول اتصال لليابان بعالم الغرب أكثر من خمس عشرة سنة .

وقد بدأت الثورة الصناعية فى بريطانيا التى استطاعت حتى منتصف القرن التاسع عشر أن تحتكر أسرار الصناعة وأن تئد أى منافسة لها فقبل سنوات قليلة من افتتاح القناة كان ثلث الانتاج الصناعى العالمى بريطانى المنشأ كما كان ربع حجم التجارة العالمية يمر فى الموانئ البريطانية وكانت بريطانيا أول دولة تمد خطا للسكة الحديد بين ليفربول وما نشستر فى سنة ١٨٣٠ على أن ذلك لم يدم طويلا فقد شهدت سنة افتتاح القناة منافسة دول أوروبية أخرى لبريطانيا ، ففى هذا العام أصبحت فرنسا وبورسيا منتجين كبيرتين للصلب كما تقدمت الصناعة بخطوات سريعة فى الولايات المتحدة حتى أصبحت أعظم دولة صناعية فى العالم فى سنة ١٩٠٠ وذلك بعد استخدامها البترول كمصدر بديل للطاقة .

ومن الوجهة السياسية فقد كانت أوروبا تعيش وقت افتتاح القناة فى آخر سنوات معاهدة ڤيينا التى أبرمت فى أعقاب هزيمة نابليون فى ١٨١٥ والتى أعادت الحال إلى ما كان عليه قبل الثورة الفرنسية فأرجعت الملكية إلى فرنسا وجعلت من النمسا القوة المهيمنة على منتصف أوروبا - فلم يمض عام واحد على افتتاح قناة السويس إلا وقد أزيلت الملكية من فرنسا ونفيت الامبراطورة يوجينى التى شاركت فى احتفالات افتتاح القناة كما تم فى نفس هذا العام توحيد ايطاليا فى أعقاب ثورة الإمارات الشمالية على حكم النمسا كما تم توحيد المانيا تحت الحكم البروسى بعد ذلك بعام واحد - كان واضحا أن الأفكار

التى جاءت بها الثورة الفرنسية ذات أثر كبير فى إنهاء الثورة المضادة التى جاءت بها معاهدة فيينا وفى البدء بأخذ مبدأ اشتراك الشعوب فى الحكم عن طريق المؤسسات الديمقراطية وبتوحيد الصفوف فى دول قومية .

حقا لقد كانت المائة والخمس والعشرون سنة التى مرت منذ افتتاح القناة حافلة فى أوربا غيرت من شكلها وحولتها إلى قوة ديناميكية هائلة. هيمنت على تشكيل العالم كله .

مصر منذ افتتاح القناة

كانت مصر عند افتتاح القناة تملك مقومات الدخول فى هذا العالم الجديد الذى كان يتشكل فى ذلك الوقت ولم يكن حفل افتتاح القناة إلا تعبيرا عن قبول مصر فى عضوية هذا النادى الجديد الذى استحقته ليس فقط لوضعها الاستراتيجى فى قلب خطوط التجارة العالمية بل لأنها كانت بلادا منتجة للثروة بحيث كان متوسط دخل الفرد فيها مساويا إن لم يفق متوسط دخل الفرد فى الكثير من دول أوروبا ، ولم تأت الثروة لمصر عن طريق التجارة فقط بل أتتها أيضا عن طريق اقتحام آخر مبتكرات العصر فى ميدانى الزراعة والصناعة ، ففى مجال الانتاج الزراعى توسعت مصر فى زراعة القطن طويل التيلة الذى ارتفع الطلب عليه فى الأسواق العالمية فى ستينات القرن التاسع عشر بعد ان اختفى القطن الامريكى من الأسواق مع تصاعد الحرب الأهلية فيها - وانتشرت زراعة قصب السكر فى الصعيد واستثمرت مصر الأموال فى

شق ترع جديدة وفى فتح الترع القديمة بعد تطهيرها والتى كانت قد طمرت خلال العصر العثمانى المهين وفى توسيع الرقعة الزراعية بعد إدخال طرق الرى المستديم فى اراضى الدلتا وشمال الصعيد ، كما أدى ازدهار التجارة إلى توسيع ميناء الاسكندرية وفتح طريق الصعيد ومد خطوط السكك الحديدية وشبكات التلغراف وقد أدخلت هذه الطرق الحديثة فى المواصلات والاتصالات قبل الكثير من دول أوروبا - وفى مجال الانتاج الصناعى فقد استمرت مصر فى سياستها التى كان قد وضعها محمد على فى أوائل القرن التاسع عشر ، فى التوسع فى بناء المصانع ، بدءاً من الزجاج حتى البارود وفى إنشاء الترسانة البحرية . واحتاج أمر حماية البلاد وأمر تأمين منابع ألنيل التى أصبحت محل انظار القوى الأوروبية الصاعدة الى تدعيم الجيش المصرى الذى نجح فى السيطرة على هذه المنابع واقامة امبراطورية شاسعة امتدت من ايرتريا والصومال شرقا إلى غرب أوغنده غربا .

حقا لقد كانت مصر بلادا غنية وقت افتتاح القناة فقد كانت بلادا منتجة للثروة وجاذبة للعمالة التى وفدت إليها من كل مكان سعيا وراء الرزق أو الفرص الجديدة التى أتاحها هذا التوسع الكبير فى الاقتصاد.

الفرص الضائعة

والناظر إلى ما آل إليه حال مصر بعد مائة وعشرين سنة من افتتاح القناة يرى أن مصر التى كانت على أعتاب الدخول فى العالم

الجديد الذى كان يتشكل حينئذ قد قصرت فى خطواتها ولم تستطع اقتحام هذا العالم الجديد فها نحن أولاء نراها بعد هذه السنوات ولم تعد منتجة للثروة أو جاذبة للعمالة - ففى سنة ١٩٩٢ (تقرير البنك الدولى عن ١٩٩٤) لم يتعد انتاجها الزراعى ٦ بلايين دولار والصناعى ١٠ بلايين دولار لمجموع سكان بلغ ٥٥ مليونا كما كان قرابة ربع قواها العاملة خارج البلاد - كانت مصر وقت افتتاح القناة تمتلك كل مقومات الدخول فى العالم النامى الذى كان يتشكل فى ذلك الوقت : القاعدة الانتاجية العريضة والتراكم الرأسمالى الذى حدث نتيجة ارتفاع أسعار القطن ابان الحرب الأهلية الامريكية والعمالة الماهرة التى جاءت مع انتشار التعليم وارسال البعثات والموقع الاستراتيجى الممتاز فى قلب طرق التجارة العالمية .

والمتأمل فى سنوات منتصف القرن التاسع عشر يجد أن مصر كانت واحدة من ثلاث دول كانت لها فرصة تراكم الأموال عن طريق بيع الخامات وهى اليابان بتجارة الحرير والسويد بتجارة الأخشاب ومصر بتجارة القطن .

وقد استطاعت كل من اليابان والسويد استثمار أموالهما ، أما مصر فقد انفقت أموالها فى الاستهلاك الآتى ولم يكن لحاكمها من بعد النظر ما يجعله ينفق على المستقبل بل وزاد الطين بلة اقتراضه الأموال والسقوط فى هوة الديون التى أفقدت مصر استقلالها .

أسباب ضياع الفرص أمام مصر

وفى ظنى أن من أهم الأسباب التى أدت إلى ضياع الفرص أمام مصر هو تخلفها فى تطوير نظام الحكم فيها فعند افتتاح القناة كان نظام الحكم فى مصر لايختلف كثيرا عنه فى اوروبا فقد كان كلاهما أوتوقراطيا يحكم فيه الحاكم دون مساءلة أو محاسبة من أحد ولكن هذا النظام انتهى تماما فى أوروبا بعد سنوات قليلة من افتتاح القناة فطرد من طرد من ملوكها وقيدت سلطة الآخرين وأصبح الحاكم مسئولا عن عمله ومستمدا لشرعيته من الشعب الذى أصبح له حق تغييره أو تثبيته - أما فى مصر فقد ظل الحكم فيها مطلقا على الرغم من عديد الانتفاضات التى قامت بها البورجوازية الناشئة التى ظهرت مع إدخال العلاقات الرأسمالية فى الانتاج، وعلى الرغم من عديد المحاولات التى كللت بالنجاح حينا لإنشاء مجالس نيابية لتشارك فى السلطة ففى سنوات الاستعمار الانجليزى وئدت هذه المحاولات تماما ووضعت العراقيل أمام المجالس النيابية التى اضطر الحاكم لقيامها بعد ثورة سنة ١٩١٩ القومية ، وفى سنوات الاستقلال استخدمت المجالس النيابية كواجهة فقط لتحسين وجه الحكم الذى لم يتغير نظامه قط منذ أمد طويل .

وقد أدى هذا النظام فى الحكم الذى يعتمد على عدم الشفافية والقرارات التعسفية إلى إجهاض نمو الدولة المدنية ومؤسساتها التى تسمح بالمشاركة الشعبية مما أدى إلى انتشار حركات الاحتجاج غير

العقلانية كما أدى تركيز السلطة دون مساءلة إلى احجام المستثمرين عن الدخول فى مشروعات طويلة الأجل تستثمر فى المستقبل حتى أصبح الاقتصاد معتمدا فى أساسه على بيع الأصول وعلى تقديم الخدمات وتصدير العمالة وتقبل المعونات .

رقم الايداع ٨٨٤٩/٩٦
I. S. B. N
977-07-0498-9

فهرس الكتاب

الهلال

المجلة الثقافية الأولى فى مصر والعالم العربى
نوفمبر ١٩٩٦ .. تقرأ فيها .

فكر وثقافة

دائرة حوار

فنون

المصريون والسينما

جزء خاص

شعر وقصة

التكوين

الأبواب الثابتة

رئيس مجلس الإدارة — رئيس التحرير

مكرم محمد أحمد — مصطفى نبيل

روايات الهلال تقدم

ساعة مغرب

بقلم

محمد البساطى

تصدر ٢٥ نوفمبر ١٩٩٩

هذا الكتاب

الوطن .. همومه .. واقعه .. مستقبله .. قضايا عديدة ومهمة شغلت الدكتور رشدى سعيد ، أستاذ الجيولوجيا ، الذى خطا من الجامعة إلى المجتمع ، ومن العلم إلى الثقافة ، حين استطاع أن ينفذ من طبقات الأرض، إلى حياة البشر، الذين يعيشون فوقها، ثم استطاع أن يحيط بطبقات الأرض ، وحياة البشر ، فى وطن بذاته ، إحاطة تربط الجغرافيا والتاريخ ، وتصل الحاضر والمستقبل.. وتكشف بالعلم والحكمة مطالب التقدم العمرانى، حين تضع نوعا راقيا من المعرفة المتكاملة ، القادرة على الإلهام والتأثير .

والكتاب الذى بين أيدينا هو مجموعة من القضايا المهمة والآراء الجريئة المدروسة بعلمية وأمانة واجتهادات مخلصة شغلت الدكتور رشدى سعيد على مدى نصف قرن من الزمان ، ناقش من خلالها الواقع المصرى المعاصر ، واسقاطاته على المستقبل ، ثم تشخيص حال مصر وأثره على مستقبلها ، فنرى صورة فوتوغرافية ، صادقة المعالم ، دون خداع أو اغراق فى الوهم .

ويجسد الكتاب إمكانات مصر العظيمة ، وثروتها الغالية ، فى الأرض والطاقة والمياه ، التى لو أحسن استخدامها لتفادت مصر الكثير من المصاعب التى تعانيها ولأصبح لها مكان ومستقبل أفضل ، لأنها الدولة الوحيدة من بين جميع دول الشرق الأوسط ، التى تجمعت لديها أهم عناصر التنمية ، ومع ذلك ، فهى أفقر هذه الدول فى نوعية حياة أبنائها ، أو دخل الفرد فيها . ويتعرض الكتاب إلى قضايا أثارت الجدل واحتدم النقاش حولها أهمها النظام العالمى الجديد ، ودور البترول المؤثر على اقتصاد العالم، والذى سينتهى فى غضون الخمسين عاما القادمة ، ويهدف من هذا ألا يفاجأ العرب والمصريون بعالم جديد ، لا يعرفون لهم فيه طريقاً ، ويناقش الكتاب هموم الوطن ومنها قضايا السكان والمياه والبيئة والتعليم .

وهذا الكتاب المهم يستحق القراءة والاهتمام .. ويستحق التفكير فى أناة، ويستحق بعد ذلك أن يجد طريقه ، لينضم الى المخزون المعرفى والتجريبى والثقافى للأمة ، حين تحتاج الأمة الى هذا المخزون ذات يوم كى تعيد الاستثمار فى الغد وبعده .

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) ٤٥ جنيها داخل ج . م .ع تسدد مقدما نقدا أو بحوالة بريدية غير حكومية - البلاد العربية ٣٠ دولارا - امريكا واوربا واسيا وافريقيا ٤٠ دولارا - باقى دول العالم ٥٠ دولارا .

القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لآمر مؤسسة دار الهلال ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد .

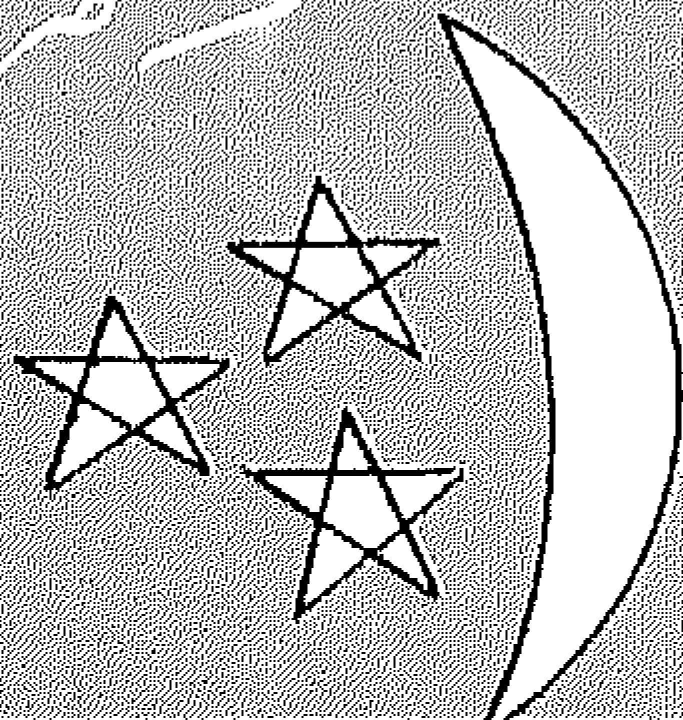
● وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

الكويت السيد / عبدالعال بسيونى زغلول ، الصفاة ـ ص . ب رقم ٢١٨٣٣

للحصول على نسخ من كتاب الهلال اتصل بالتلكس : 92703 Hilal.V.N

شخصيات تاريخية

طارق البشري





KITAB
AL-HILAL

الاصدار الاول
يونيو ١٩٥١

سلسلة شهرية تصدر عن دار الهلال

مكرم محمد أحمد رئيس مجلس الإدارة
عبدالحميد حمروش نائب رئيس مجلس الإدارة

مركز الإدارة

دارالهلال ١٦ ش محمد عزالعرب. تليفون: ٣٦٢٥٤٥٠ سبعة خطوط
العدد ٥٥٢ - رجب - ديسمبر ١٩٩٦ NO.552-DE-1996

فاكس FAX-3625469

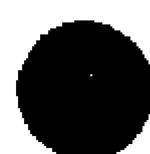
مصطفى نبيل رئيس التحرير
عادل عبدالصمد سكرتير التحرير

أسعار بيع العدد فئة ٤٠٠ قرش

سوريا ١٣٠ ليرة - لبنان ٨٠٠٠ ليرة - الأردن ٣٠٠٠ فلس -
الكويت ١٥٠٠ فلس - السعودية ١٥ ريالا.

شخصيات تاريخية

طارق البشرى



دار الهلال

الغلاف للفنان

حلمى التونى

المقدمة

هذه دراسات أربع، كتبتها في فترات متباعدة، وبين أول دراسة منها عن سعد زغلول، وآخر دراسة فيها عن مصطفى النحاس، بينهما ربع قرن من الزمان، وماأدراك ماربع القرن في القرن العشرين، هو الدهر في العصور السالفة من حياة الأمم، وعلى من عايشوا هذه الفترة أن يقارنوا بين أولها ونهايتها ليتأملوا كيف انتقلت الأوضاع من حال إلي حال، فما أبعد سنة ١٩٦٩ عن سنة ١٩٩٤، في الظروف الدولية والأوضاع العربية والشئون المصرية، وفي توازن القوى على صعيد منها، وفي الحركات السياسية والاجتماعية والفكرية.

وأنا لست من كُتَّاب السير الشخصية لزعماء أو مفكرين، لا لموقف خاص ولا لاختيار ذاتي، ولا لانصراف مقصود عن هذا الدرب من دروب الدراسات، فما أكثر ما قرأت منها وماحرصت على متابعته من شخصيات التاريخ والفكر، وما أمتع ما لقيت من هذه المتابعات، وما أغنى فكري ووجداني منها، لست من كُتَّاب السير الشخصية لأنني اهتممت بحركة المجتمع وبالحركات الشعبية أكثر مما اهتممت بالأفراد ودورهم، ولأنني وجدت الاحتياج الأكثر لهذه الدراسات لقلتها النسبية، ولأن القصور يرد منا في هذا المجال أكثر من غيره.

جذبتنى أكثر دراسة «الحركات» و«المؤسسات» سياسية أو اجتماعية، وهناك صلة وثيقة بين الحركة والمؤسسة، هى صلة المضمون بوعائه ، وصلة الماء بشواطئه ومجراه ارتفاعا وانخفاضا. فليس من حركة ولا تيار إلا وله نوع تنظيم يجرى به أو يسير فى قنواته، وليس من تنظيم إلا وقد تفتق عن احتياج حركى معين وإلا وقد تحكم فيه أيضا، وأن علاقة الحركة والتنظيم - أثرا - وتأثرا لا أقول إنها علاقة قائمة أو علاقة كبيرة، ولكننى أتجاسر بالقول إنها علاقة مصير ، صلاحا أو فسادا.

عندما أطالع هذه الدراسات الآن، أتساءل مع القارىء، ما الجامع الذى يجمع بينها، هم جميعا شخصيات سياسية، ويحتلون درجات متفاوتة من درجات الزعامة أو القيادة السياسية، وهم جميعا من مصر ومن النصف الأول من القرن العشرين، ولكن كل ذلك يشكل دلالات قريبة المنال لاتقود إلى جوهر ما.

كما أن مناسبات نشر الدراسات لايصلح أى منها لاستخراج دلالة جوهرية، دراسة سعد زغلول مثلا نشرت فى مجلة الطليعة فى مارس ١٩٦٩ بمناسبة مرور ٥٠ سنة على ثورة ١٩١٩، ثم أعيد نشرها فى صحيفة الوفد فى مارس ١٩٩٤ بمناسبة مرور ٧٥ سنة على تلك الثورة، ودراسة عبدالرحمن الرافعى سياسيا، نشرت فى مجلة الطليعة فى ديسمبر ١٩٧١ بمناسبة مرور خمس

سنوات على وفاة مؤرخنا الوطنى الكبير، ودراسة أحمد حسين نشرت في مجلة المصور في ٨ أكتوبر ١٩٨٢ بمناسبة وفاته ثم أعيد نشرها في عدد خاص لصحيفة الشعب في ٢٩ ديسمبر ١٩٩٣.

أما عن دراسة مصطفى النحاس ، فقد جاءت بمناسبة ظهور المذكرات التي أعدها محمد كامل البنا عن النحاس، وكانت هذه المذكرات قد تعاقد معدها على نشرها في دار الحرية ضمن كتبها الشهرية التي كانت تنشرها في أوائل التسعينات، وقد حدثني عنها الأستاذ الدكتور محمود محفوظ وزير الصحة الأسبق ورئيس دار الحرية، ثم حدثني عنها الأستاذ الدكتور سعد الدين إبراهيم ، ثم الأستاذ الدكتور يحيى الجمل، وهما من أعضاء مجلس إدارة دار الحرية، وذلك لأعد دراسة عن هذه المذكرات تنشر معها في شهريات كتب الدار. وأعددت هذه الدراسة، ثم حدث أن تغيرت إدارة دار الحرية فلم ينشر شيء من ذلك في كتبها، وإنما نشر في صحيفة المصري السياسي بدءا من شهر أغسطس سنة ١٩٩٤، وكانت بدايتها الدراسة التي أعددتها وقد نشرت على خمسة أعداد من ٢١ أغسطس إلى ١٨ سبتمبر ١٩٩٤. ومن ذلك يظهر أن كلا من هذه الدراسات كان قد أعد في مناسبة خاصة ، وهي مناسبات لا تشكل جامعا واحدا لهذه الدراسات .

إنما الجامع الذى أتفطن إليه عند إعادة مطالعتى لهذه المذكرات، فى ضوء ما أعرفه عن نفسى، هو أن مزاجى البحثى ينجذب أكثر لدراسة الفكر السياسى فى صورته الحركية أى بالتعبير الحركى لى، وهذا من الناحية الفكرية يشدنى إليه شغفى بدراسة الحركات والمؤسسات، والفكر السياسى والاجتماعى، أما أن نقرأ فى كتب المؤلفين ومقالات المحترفين لصناعة الفكر، وإما أن نلتقطه من حركة الواقع ومن مواقف الرجال من العاملين فى مجالات النشاط السياسى والاجتماعى، النوع الأول هو فكر أفراد علماء ودعاة نطالعه صريحا وننظر فى أثره فى الواقع، وأثر الواقع فيه بالاستنباط والقياس والاستنتاج ، ولكن النوع الثانى هو فكر الحركة ذاتها مستخلصا من قادة لها أو زعماء أو عاملين ، ويستخلص من مواقفهم الواقعية والحركية من نوع استجابتهم للأحداث وأسلوب رد الأفعال والأفعال، الأولون فكرهم نظرى يؤخذ من كتاباتهم ومعانيهم تستفاد من ظاهر عباراتهم، والآخرون فكرهم تجريبى يؤخذ من مواقفهم، وكتاباتهم هى موقف وعمل سياسى في المحل الأول، ومعانيهم تستخلص من سياق حركتهم فعلا ورد فعل.

وبهذا التصور حاولت أن أعالج كلا من الشخصيات التى يضمها هذا الكتاب، وسعد زغلول ومصطفى النحاس ساسة،

ورجال سياسة يقفُ كل منهم على رأس حركة سياسية، وفكرهم يستخلص من موقفهم. وعبدالرحمن الرافعى إن كان مؤرخا وله دراساته التاريخية التى تغطى العصر الحديث فى مصر من بداية القرن التاسع عشر حتى منتصف القرن العشرين، إلا أنه كانت له حياة سياسية متميزة فى الحزب الوطنى، ولم يلق عليها الضوء، وعرفه جيلنا كمؤرخ فحسب، فكان من النافع أن يلقى الضوء عليه فى إطار الحركة السياسية التى كان يعمل فيها. وأحمد حسين هو أيضا من رجال السياسة فى الفترة ذاتها، ورغم أنه أصدر العديد من الكتب بعد اعتزاله السياسة، فإننى حرصت على تبين مسيرته الفكرية فى إطار حركته السياسية فى حزب مصر الفتاة، مستخرجا فكره من مواقفه.

هذه الشخصيات الأربع يجمعها أنهم كانوا جميعا من رجال الحركة الوطنية، وهم منها من الفصيلين الأساسيين لها. الفصيل الذى تكون منه حزب الوفد، وكان أكثر اعتدالا فى وسائله ومرونة فى حركته، والفصيل الآخر الذى بدأ بالحزب الوطنى لمصطفى كامل ومحمد فريد، وتوالد من أروقته فى الحركة الوطنية المصرية حركات أخرى منها الإخوان المسلمون ومصر الفتاة والحزب الوطنى الجديد وأثر بارز فى الضباط الأحرار. الفصيل الأول فيه

سعد زغلول والنحاس، والفصيل الثانى فيه عبدالرحمن الرافعى من الحزب الوطنى القديم وأحمد حسين من مصر الفتاة.

ويبدو لى من مطالعة هذه الدراسات، أنه يشملها أيضا النظر إلى الجماعة الوطنية لتكوين جامع وكوحدة اجتماعية متماسكة، بحسبان أنها فى مجال النشاط الوطنى تشكل وحدة الانتماء الرئيسية. هذا النظر مبنى على مطلب الاستقلال الوطنى الذى يشكل عمود الارتكاز للحركات السياسية الشعبية لدينا على مدى التاريخ الحديث. وهو يتنوع ويغتنى على مر الزمان والتجارب، أو بدأ فى الأعوام الأولى للقرن العشرين بالدعوة إلى جلاء القوات الأجنبية عن مصر، ثم استطرد فى العشرينات إلى تحرير الإرادة الشعبية من ضغوط المستعمرين بمطلب الديمقراطية ثم تعمق فى الثلاثينات باسترداد الأصالة الإسلامية ومرجعيتها الشرعية، ثم إغتنى فى الأربعينيات بالمطالبة بالاستقلال الاقتصادى عن المؤسسات الاقتصادية الأجنبية. ثم اتسع فى الخمسينات إلى شمول البلاد العربية كلها استقلالا ونهوضا ووحدة.

على شجرة هذه الجماعة الوطنية، أضع أمام القارىء هذه الأفرع الأربعة، وأرجو أن أكمل عليها أفرعا أخرى بإذن الله.

والحمد لله

طارق البشرى



سعد زغلول وفكره السياسى

كانت ثورة ١٩١٩ ، التى تزعمها سعد زغلول ، ثورة وطنية ديمقراطية ، تركزت أهدافها فى هذين الجانبين واستهدفت تحقيق الاستقلال التام وإقامة الحياة النيابية الدستورية . والمهم هنا محاولة تقصى الفكر السياسى لسعد زغلول فى هذين الجانبين ، مع الإشارة الى موقع هذا التفكير من التيارات السياسية التى كانت دائرة فى مصر فى الأدوار المختلفة من حياته . ويقتضى الحديث عن الفكر الوطنى ، الإشارة إلى نشوء الجماعة الوطنية لمصر، عناصرها وعقباتها ، كما يقتضى الحديث عن الفكر الديمقراطى ، الإشارة الى موقف سعد من السلطة ورأيه فى طريقة تكوينها .

وأول ما يلاحظ أن سعد زغلول ، لم يكن مفكرا صاحب نظرية ولا داعية سياسيا ، يمكن أن تلتقط أفكاره من خلال كتاباته ودعاويه ، ولكنه كان «رجل دولة» عملى المنزع يهتم بالقضايا التنفيذية ويعبر عن نفسه من خلال المواقف العملية والمسائل الجزئية ، وهو يتخذ مواقفه ضمن الملابسات الواقعية التى تحيط به ، ويستجيب فى هذه المواقف للسياق العام للأحداث والظروف ، ويمكن تتبع مواقفه من خلال هذا السياق العام ، والاستدلال على نسيجه الفكرى ومنزعه النظرى ، والمصادر التى شكلته .

وثانى مايلاحظ ، أن سعدا تتلمذ على الشيخ محمد عبده منذ بداية حياته العامة ، ثم أصبح عميدا للحزب المدنى للأستاذ الإمام ، على مايذكر السيد رشيد رضا .

كان سعد زغلول جسرا بين ثورتين ، أدرك الثورة العرابية فى بداية حياته السياسية ، وهو شاب فى العشرينات ، ثم امتدت قامته السياسية ليصبح إماما للمصريين فى ثورتهم الكبرى الثانية سنة ١٩١٩ . وحمل الى جيل بداية هذا القرن ، رسالة ثورة عرابى وحلمها الوليد النامي «مصر للمصريين» .

كان ريفى المولد والنسب والتربية ، ولد سنة ١٨٥٧ بقرية ابيانة بالغربية لاحدى الأسر الريفية ذات اليسار والزعامة الاجتماعية . وقريته ـ كما يقول العقاد ـ بعيدة عن العواصم حيث تستقر سطوة الحكام ، غير بعيدة عن آثار عسفهم وفسادهم ، وأسرته من الطبقة المتوسطة ليست من الثراء بحيث تنعزل عن مطالعة شقاء المجتمع ولا من البؤس بحيث تنكسر أمام الظلم «١» . ويأتى مترجمو حياة سعد علي أخبار تصدى أبيه لحكام الاقليم الأتراك ، اظهارا لما تربى عليه هو من الشعور بالتميز القومي عن هؤلاء الحكام ، ومن اكتسابه روح المجابهة ضدهم ، وعندما شب الفتي سلك فى التعليم المسلك المتاح للمصريين أبناء الريف، حفظ القرآن وتعلم الحساب فى كتاب القرية ، ثم سافر الى القاهرة طالبا لعلوم الأزهر ، وسعد بهذا من اقحاح الفلاحين ممن لم يشب

«١» سعد زغلول . عباس محمود العقاد . ص ٥٠ ـ ٥١ .

تربيتـهم الأولى عنصـر أجنبى . ولمن يطالع برنامج «الحـزب الوطنى الأهلى» الذى شكل بزعـامـة عـرابى فـى ١٨٧٩ يلحظ أهمـيـة النشـأة الريفية فى تحديد الهوية المصرية وقتـها «من يحرث أرض مصـر ويتكلم لغتها ينضم لهذا الحزب فإنه لاينظر لاختلاف المعتقدات ..» «٢» .

وافق مـجىء سـعـد الى القـاهرة سنة ١٨٧١ ، وصـول جـمـال الدين الافغـانى اليـهـا ، ومـالبث هو أن تحسـس طريقه الى جـمـاعة الافـغـانى ومـحـمـد عبده ، وتفـاءل الأفـغـانى به خيراً لما قرأه له دفاعا عن الحرية . فلما عين مـحمد عبده رئيسـا لتحرير الوقـائع المصـرية عين سـعداً بهـا . وعند نشوب الثورة فى ١٨٨٢ ، كان سنه يصل الى الخامسة والعشرين، شـابا لفحـه لهيب الثورة يطعن الاستـبداد ويطلب حكم الشـورى ويرتبط بالأستاذ الإمام فكرا وعملا ، وكان الأستاذ الإمـام من الجناح المعارض لأساليب العرابيين المتطرفة دفاعا عن منهج الاصلاح التدريجى ، ولكنه التـحم بهم لما هاجم الانجليز مـصـر وعمل معـهم مـا استطاع تنظيـمـا للمقاومـة ، ولما فشلت الثورة ووجه بتهمـة الدعوة لخلع الخديو ، ونفى الى بيروت ثلاث سنوات . وكان سـعد خـلال مدة نفى الإمام على اتصـال به لايبدو أنه انقطع ، وتظهر صلتهما الفعلية ماكتبه سعد الى الإمام أثناء نفـيـه ، «مـولاى : ذكـرت لحـضـرتك أن الضـعف ألم بفكرى فـبـالله الا مـاقويته بتواصل المراسلة غير تارك فيـها مـا عودتنا على سمـاعه من

«٢» مجلة الطليعة ـ عدد فبراير ١٩٦٥ ـ الوثائق .

النصائح والحكم التى نهتدى بها الى سواء السبيل ، ونتمكن بها من السير فى العالم المصرى الذى اختبرت حقائقه وعرفت خلائقه ، ومايناسبها من ضروب المعاملة ..» «٢» .

فى هذه الأثناء ، فصل سعد من وظيفة حكومية كان يشغلها ثم قبض عليه بتهمة تكوين جمعية سرية باسم «جمعية الانتقام» . فلما أفرج عنه اشتغل بالمحاماة ، وكانت على مايذكر مؤرخو الفترة مهنة لايحيط بها الاحترام ، ولكن سعدا نهج فيها نهجا من الاستقامة ارتفع بها وبنفسه الى مستوى المهن ذات الاعتبار ، واشتهر فيها بقوة العارضة والتزام الجادة وبالاستقامة ، ثم عاد الأستاذ الإمام فى ١٨٨٨ وعين قاضيا بالمحاكم الأهلية بعد أن رفض الخديو اشتغاله مدرسا بدار العلوم تجنبا لتأثيره على الطلبة ، ثم عين مفتيا للديار المصرية ، بعد فصل هذا المنصب عن مشيخة الأزهر فى ١٨٩٩ ، وصرف نشاطه حتى وفاته سنة ١٩٠٥ فى الدعوة لاصلاح الأزهر والتعليم . وخلال ذات الفترة ، علا نجم سعد المحامى ، حتى اختير ـ بتوسط الإمام ـ قاضيا بالمحاكم فى ١٨٩٤ ثم مستشارا ، ثم عين وزيرا للمعارف سنة ١٩٠٦ .

من خلال الثورة العرابية اطرد نضوج الوعى الوطنى ، وبدأت الجماعة السياسية فى مصر تدرك هويتها وذاتها ، كان لظهور طبقة ملاك الأرض المصريين بعد انتهاء نظام الالتزام والعهدة أثره فى ذلك . وكان لحركة تعليم أبناء الفلاحين واستخدامهم فى الجيش والادارة أثره

«٢» تاريخ الأستاذ الإمام محمد عبده . رشيد رضا ـ الجزء الأول . ص ٢٧٥ ـ ٢٧٦ .

أيضـا . وتقـدمت الثـورة بشـعـار «مـصـر للمـصـريين» ضـد الاتراك والجراكسـة المسيطرين على جـهـاز الدولة جيشـا وإدارة ، والخـاضـعين للنفوذ الأوربى الآخذ فى التـغلغل فى الحياة الاقتصادية والسيـاسيـة . على أن المفهوم القومى كان موجها فى الأساس ضد هذا النفوذ ، وضد الاستبداد الشرقى الذى يمارسه الخديو ومن يحيط به من ذوى الأصول التركية والجركسية .

ولم يكن ثمة خلاف بين العرابيين واتجاه محمد عبده حول الفكرة الوطنيـة . وقد أوضح بيـان «الحـزب الوطنى الأهلى» مـفـهـوم هذا الولاء المتميز عن المشاعر الدينية «الحزب الوطنى حزب سياسى لا دينى . فانه مؤلف من رجال مختلفى الاعتقاد والمذهب . وجميع النصارى واليهود ، ومن يحرث أرض مصر .. وحقوقهم فى السياسة والشرائع متساوية ، وهذا مسلم عند أخص مشايخ الأزهر ..» ويذكر محمد عبده بالوقائع المصرية فى ٢٨ نوفمبر ١٨٨١ ، «لابد لذوى الحياة السياسية من وحدة يرجعون اليها ويجتمعون عليها اجتماع دقائق الرمل حجرا صلدا ، وأن خير أوجه الوحدة الوطن لامتناع الخلاف والنزاع فيه .. إن ياء النسب فى قولنا مصرى وانجليزى وفرنساوى هى من موجبات غيرة المصرى على مصر ..» «٤» .

والواضح من تتبع أحداث الثورة العرابيـة ، والحركة الفكرية التى واكبتها ، أن الهدف الوطنى اندمج بالهدف الديمقراطى ليصوغا معا

«٤» رشيد رضا .. المرجع السابق الجزء الثانى ص ١٩٤ ـ ١٩٥ .

شعار «مصر للمصريين» وسبب هذا أن الوجود الأجنبى الذى بدأت الذاتية المصرية تنهض ضده ، كان يتمثل فى جهاز الدولة الحاكم ، وكان هو ذاته عين الحكم الاستبدادى الذى يرتفع ضده مطلب الديمقراطية ، فكانت الديمقراطية سلاح الحركة الوطنية ووسيلتها لطرد الأجنبى ، وذلك بما تعنيه من تكوين مؤسسات الحكم على قاعدة من الانتخاب الذى يجرى بين أفراد الشعب . فكانت الديمقراطية وسيلة تمصير الدولة ، تعنى حكما نيابيا واقصاء للنفوذ الأجنبى معا ، وهنا نجد محمد عبده ـ فى مقاله السابق ـ يعرف «الوطن» بما يتمشى مع هذا المفهوم «مكانك الذى تنسب اليه يحفظ حقك فيه ويعلم حقه عليك ، وتأمن فيه على نفسك وآلك ومالك ، ومن أقوالهم «أهل السياسة» فيه : لا وطن إلا مع الحرية . وقال لابروير الحكيم الفرنسى : «لا وطن فى حالة الاستبداد .. إن فى الوطن من موجبات الحب والحرص والغيرة ثلاثة تشبه أن تكون حدودا ، «الأول» أنه السكن الذى فيه الغذاء والوقاء والأهل والولد ، «والثانى» أنه مكان الحقوق والواجبات التى هى مدار الحياة السياسية ، وهما حسيان ظاهريان . و«الثالث» أنه موضع النسبة التى يعلو بها الإنسان ويعز أو يسفل ويذل وهو معنوى محض» وضمن هذا النطاق عرفت لمحمد عبده أحاديث عن الشورى والاستبداد، كما حفظ التاريخ مقالا لسعد بالوقائع المصرية يقول فيه «المستبد عرفا من يفعل مايشاء غير مسئول، ويحكم بما يرسم به هواه وافق الشرع أو خالفه ، و«أن الناس نفروا من ذلك بعد أن شاهدوا النفوس تذهب فيه

ظلما وتؤكل فيه الأموال أكلا لَمًّا ، وتسفك الدماء زورا وتدمر البلاد تدميرا ..» «٥» .

تغير الوضع مع الاحتلال البريطاني «فأولا» أصابت هزيمة العرابيين الحركة «المصرية» بالانتكاس ، ويمكن أن يتصور أثر لطمة الاحتلال في تشتت ثقة جيل العرابيين بنفسه ، هزيمة عسكرية ، واحتلال أقام مهرجانات نصره بالقاهرة وضعف أبداه بعض قادة الثورة، وشعور عام مخدر من هول الصدمة ، وضعف مرير في الأمل في أن ثمة مخرجا منظورا ، واحساسا بيأس الوطنية الوليدة في مواجهة العنفوان الأوربي بآلاته ومخترعاته وبدقة تنظيماته السياسية والعسكرية والاقتصادية ثم لايكاد يلحظ في العالم الخارجي الا امتداد موجة الاستعمار في العالم غير الأوربي كله ، والا هزائم تصادفها حركات شعوب الشرق . ثم عودة لحكم الخديو المستبد مدعما بالاحتلال البريطاني ، واحساس بأنه قد أصبح قدر الأحياء في هذا الجيل أن يقضوا حياتهم في ظل حاكم يمثل لهم أبغض أساليب الاستبداد ، وأبشع أنواع الخيانة الوطنية . كانت الجراحات أعمق من أن يدركها التداوي السريع . وكان انتصار الباطل محنة للشرفاء ، ومحنة للعقائد والقيم . وقد أقصى الكثيرون من الحياة العامة بالنفي والسجن

«٥» عباس العقاد .. المرجع السابق ص ٦٥ ويلاحظ أن مقال سعد هذا لم يكن موقعا منه ، وأورده رشيد رضا ضمن مقالات الإمام في الطبعة الأولى للجزء الثاني من كتابه، فأخبره سعد زغلول أن هذا المقال له ، وأن الإمام أوصاهم وقتها بعدم توقيع مقالاتهم فاستبعده رشيد رضا من الطبعة الثانية.

وبالهرب، واستعفى آخرون لاذوا بالصمت ، ووصل غيرهم الي أسلوب نفعي ، فاذا لم يكن مانريد فأرد مايكون وراوغه ، ومادامت مصر لاتستطيع طرد الانجليز ، فلنعمل على أن تغنم من وجودهم مثيرة الصراع بين سلطتهم وسلطة الخديو .

ثانيا : مع الاحتلال ظهر في السلطة ما يمكن تسميته بالثنائية ، وهو ماعبر عنه لطفي السيد فيما بعد «بالسلطة الشرعية» و «السلطة الفعلية» . كان الخديو صاحب الأولى ، وكان الانجليز أصحاب الثانية ، وكانت بريطانيا قد اضطرت لابقاء الوضع الرسمي لمصر كما هو ، اذ كانت البلد أكثر تطورا من أن يفرض عليها حكم أجنبي مباشر بغير أن يستثير السخط ويتعرض للقلاقل في زمن غير طويل ، وإذ كان تنافس الدول الكبري على مصر مجبرا بريطانيا على ابقاء هذا الوضع ، وبهذا وجد عنصران يحكمان السياسة ، رغم تداخل السلطتين وهيمنة الانجليز بشكل عام .

وأدت هذه الثنائية ، الى ايجاد نوع من التميز بين هدفي الثورة ، فمطلب الدستور والحياة النيابية يوجه في الأساس ضد سلطة الخديو ، ومطلب الاستقلال يوجه في الأساس ضد الانجليز ويعبر عن نفسه بشعار «الجلاء» باعتبار أن الوجود الانجليزى وجود مادى صرف لايستند الى شيء من الشرعية .

وفى هذا الوقت ، كانت الحركة الوطنية ـ بعد انتكاس الثورة ـ ضعيفة ممزقة تتلمس مكانا لخطواتها الأولى المترددة ، كما كانت

سياسة الانجليز ترمى الى موازنة سلطة الخديو بقوة كبار ملاك الأرض المصريين ، والاستفادة من اتصال مصالح هؤلاء الملاك «منتجى القطن» بها ، والاستفادة من صراعهم التقليدى مع البيت الحاكم في مصر . ثم كان هناك من لايزال يستمسك بالفكرة الأساسية للثورة العرابية : والوقوف ضد استبداد الخديو والمطالبة بتمصير الحكم المصرى ، وكان لهؤلاء من ذكريات حكم اسماعيل وأسلافه ما جعلهم يرون بعض الخير فيما اجراه الانجليز فى تنظيم الادارة والمصالح ، وكان لهم من ذكريات الهزيمة ما حد من آمالهم وطموحهم فحاولوا الاستفادة من وجود الانجليز فى ترشيد أداة الحكم والحد من سلطة القصر .

ثم تمخض الوضع ، عن ظهور جيل شباب التسعينات المقطوع الصلة نسبيا بأوضاع ماقبل الاحتلال ، وبعهد اسماعيل وأسلافه ، المتفتح الأعين علي صورة الاحتلال البريطانى البغيض ، البعيد عن ذكريات الهزيمة ، وواجه هؤلاء ـ وعلي رأسهم مصطفى كامل ـ الاحتلال البريطانى باعتباره التحدى الأول للإحياء الوطنى .

اتجه الاولون إلي تأكيد الذاتية المصرية ضد الخديو والتبعية للخلافة العثمانية ، واتجه الآخرون إلي تأكيدها ضد الاحتلال البريطانى ، واستغل الاثنان التناقض بين السلطتين الشرعية والفعلية باستفادة الأولين من الانجليز ضد الخديو ، واستفادة الآخرين بالخديو ضد الانجليز . على أن الاتجاه الأول ، لم يكن كلا منسجما ، كان القسم الغالب منه لايكتفى بالاستفادة من الانجليز ضد الخديو ، إنما كانت

مصالحه الاقتصادية ترتبط بالانجليز وببقائهم ، وكان هذا هو اتجاه حزب الأمة ، وكان القسم الأقل ممن وقفوا عند محاولة الاستفادة من الوجود الانجليزى كراهة في الخديو وسلطانه ، ويبدو أنه كان من هؤلاء الاستاذ الإمام وسعد زغلول ومن جرى مجراهما ، وإذا كان مصطفى كامل وحزبه الوطنى يرون أن مركز المشكلة هو الوجود البريطاني ، وأن زواله هو الخليق بفتح السبيل للبناء الديمقراطى ، فقد كان هؤلاء يرون أن حكم الاستبداد الداخلى هو ما أوهن المجتمع المصرى وهو ما أدى به الى الاحتلال .

وقد عرف عداء الأستاذ الإمام الشديد للخديو عباس ، وله في ذلك حوادث معروفة ، وله مقال كتبه فى مجلة «المنار» سنة ١٩٠٢ عن محمد على رأس العائلة المالكة ، وجه اليه فيه من الهجوم مالم يوجهه أحد ، وأوضح فيه رأيه فى أثر الاستبداد فى تدمير البنية المصرية ، رغم مانشر محمد على من تعليم وماأسس من جيش وما بنى من صناعات وما شق من ترع ، اذ بنى المصانع وبغض الى المصريين العمل بظلمه ، واهتم بالزراعة فهرب ملاك الأرض من أرضهم ، وأنشأ الجيش ولم يحبب الجندية الى الشعب ، وترجم كتبا ولكن «حكومة محمد على لم توجد فى البلاد قراء ..» وذلك لأنه لم «يجعل للأهالى رأيا فى الحكومة فى عاصمة البلاد وأمهات الاقاليم» .. وكان هذا لدى محمد عبده هو السبب فى أن مصر لم تثبت أمام هجوم الانجليز» «٦» .

«٦» رشيد رضا ـ المرجع السابق ـ الجزء الثانى ص ٢٨٢ .

ومن حديثه يظهر سبب اهتمامه بالبناء الداخلي وبالتعليم والقانون قبل أي شيء وذلك من خلال أسلوب الاصلاح التدريجي الذي دعا اليه ، ولم يجد غضاضة في محاولة الاستفادة من الوجود الانجليزي ضد سلطة الاستبداد الشرعية ، وتوفي سنة ١٩٠٥ قبل أن يعلم أن الوجود الانجليزي هو سند حكم الخديو الاستبدادي رغم الاختلافات الثانوية ، وهو العائق ضد تمصير مؤسسات الحكم وتطويرها ديمقراطيا ولو بالاسلوب التدريجي على ما سيظهر بعد .

لا نكاد نرى لسعد زغلول ـ بعد فترة عمله «بالوقائع المصرية» كتابات سياسية توضح أفكاره . وقد استطاع بعمله في المحاماة ثم القضاء ، أن يخط لنفسه طريقا آخر غير النشاط السياسي المباشر ، ولكن لايبدو أنه انعزل عن الحياة السياسية كلها ، فقد استمرت صلاته بأستاذه محمد عبده وبغيره من وجوه الفكر والسياسة ، وعرف تردده على صالون الأميرة نازلي فاضل الذي كان يجتمع فيه كثير من رجال السياسة والفكر ، وعرفت علاقاته بقاسم أمين ، ورجال «الجريدة» صحيفة حزب الأمة ، وبعلي يوسف صاحب المؤيد الموالية للخديو ، كما عرف من كتابات المعاصرين أنه كان شخصية بارزة يعمل لها حساب ، وبحثا عن الفكر السياسي له في هذه الفترة يمكن أن يعتبر تفكير الأستاذ الإمام اطارا نظريا لسلوك سعد زغلول في هذه الفترة ، ولحركته ونشاطه .

كتبت صحيفة التايمز اللندنية عنه تقول «إنه من شيعة المرحوم

محمد عبده الذين امتازوا بالارتقاء والتهذيب ، وهم من سماهم اللورد كرومر فريق «الجيروند» فى النهضة المصرية الوطنية ، وأن سعدا عريق فى وطنيته أجمع الناس على اكرامه والاعجاب به لما اشتهر عنه من الاستقامة واستقلال الرأى ..» ٧»

وكتب أحمد شفيق وكان رئيسا لديوان الخديو عباس ، أن الخديو قابل فى ١٩٠٨ أحمد فتحى زغلول أخا سعد، وعاب عليه كونه من حزب محمد عبده الذى نشر له مستر بلنت خطابين دعا فيهما الإمام لسحب كل سلطة من يد الخديو اذا أريد وضع نظم جديدة لادارة مصر . بحيث يخرج عن سلطته الأزهر والأوقاف ، وبحيث لا يتدخل فى الادارة أبدا . وأن محمد عبده استشار فى رأيه هذا كثيرا من المفكرين فوافقوا عليه ، وسأل الخديو أحمد فتحى زغلول عن هؤلاء الذين استشارهم الإمام فى سحب سلطات الخديو ، فأجابه أنهم سعد زغلول وعبد الكريم سلمان وعبد الرحيم الدمرداش «٨» .

وعندما تكون حزب الأمة ، المناوىء للخديو والقريب من اللورد كرومر، كان الخديو يعتقد أن لسعد وأخيه يدا فى تأليفه ، وسأل أحمد شفيق عن ذلك مرتين فأجاب أنه لم تظهر لهما به علاقة ، ولكن بقى الخديو علي هذا الاعتقاد وسجله فى مذكراته التى نشرتها صحيفة المصرى سنة ١٩٥١ «٩» .

«٧» عباس العقاد المرجع السابق ص ١٠٠ ، عبرات الشرق ص ١١
«٨» مذكراتى فى نصف قرن ، الجزء الثانى ـ القسم الثانى - أحمد شفيق - ص ١٤٢
«٩» أيام لها تاريخ . أحمد بهاء الدين ١١٠ .

وحاول العقاد أن يوضح موقف سعد من الأحزاب القائمة وقتها ، فذكر أن سعدا لم يكن يرجو لمصر الاستقلال باعتماد على الدول العثمانية ولا على فرنسا كما كان يفعل مصطفى كامل ، ولم يكن يعول في هذا الأمر الا على «التربية الوطنية» وأن تستقل الأمة بمطالبها ، وأنه كان يساعد مخالفيه فيما من شأنه ايقاظ بث الحمية الوطنية ، وإن لم تسنح له فرصة لخدمة الدعوة الوطنية ، على حسب اعتقاده الا انتهزها بقدر طاقته ، وأنه أيد مصطفى كامل وعلي يوسف ، من كتاب الصحافة فيما تكفلوا به من ايقاظ روح الأمة كما أيد قاسم أمين في تحرير المرأة واصلاح الحياة الاجتماعية فلم يجد قاسم من يهدى اليه كتابه غيره «١٠» . وقد حدث أن أوشكت «المؤيد» علي الافلاس فانقذها سعد بالمال كما دافع عنها لدى صهره رئيس الوزراء مصطفى فهمي ليلغى قرارا صدر باغلاقها .

والواضح ، أن مهنة سعد كقاض وقتها ، كانت تجنبه امكانية الارتباط المباشر بالعمل السياسي وفقا لتقاليد هذه الوظيفة ، وكان كما يذكر أحمد بهاء الدين حائرا بين التيارات المختلفة إزاء أخطاء الحزب الوطني في مرحلته الأولى ، واستناده الى الخديو في الداخل ، والى التأييد العثماني في الخارج وإزاء الروابط الوثيقة القائمة بين حزب الأمة والانجليز «١١» والحاصل أنه بعد ١٩١٩ هاجم خصومه السياسيين مرة

«١٠» عباس العقاد المرجع السابق ص ٩٠ ـ ٩١ .
«١١» أحمد بهاء الدين المرجع السابق ص ١٠٤ ـ ١٠٨ .

مذكرا إياهم بانتمائهم السابق لحزب الأمة «ان حزب الأمة عاد الى بدايته وانتهى الى غايته ، ان الله لايصلح عمل المفسدين» كما خطب يقول أنه ليس وحده صاحب الدعوة الوطنية ، وعدد من يرجع اليهم الفضل فيها وهم الافغاني ومحمد عبده ، ومصطفى كامل ومحمد فريد زعيما الحزب الوطنى .

ظهر النشاط المباشر لسعد فى هذه الفترة ، فى مجالين : التعليم والقانون ، وهما الميدانان اللذان دعا الأستاذ الإمام الى الاصلاح الاجتماعى من خلالهما ، وكان أهم نشاط لسعد في التعليم أنه بادر ساعيا مع زملاء له ، فى إنشاء جامعة مصرية أهلية . وكانت دار سعد زغلول هى مسقط رأس الجامعة ، وفيها عقد الاجتماع الذى تقرر فيه انشاؤها .

أما فى مجال القانون فقد كان القضاء مهنته ، وهو وظيفة تطبيقية في الأساس ، وأحكام المحاكم مقيدة بوقائع كل دعوى وبنصوص القانون ، وبهذين القيدين يصعب أن ينطلق تفكير القاضى فى أقضيته بما يكشف في جلاء عن فكره السياسى والاجتماعى ، علي أنه يمكن من مطالعة الاحكام التي وضعها أو شارك فى وضعها ، التقاط بعض خطوط تفكيره .

كان القانون يعفى الحكومة من مسئوليتها عن أى عمل يجريه موظفوها فى شأن تفاتيش الرى . فكتب سعد زغلول يقول «لايمكن أن يكون المراد بهذه الأعمال الاجراءات الاستبدادية المخالفة للعدل والقانون

والمضرة بحقوق الافراد وليست فيها مصلحة عامة للناس ، لأن ذلك لاينطبق على مبدأ الحكومات العادلة ، ولايصح أن تتضمنه شرائعها «١٢» وذكر فى حكم آخر أن القانون إنما يوضع لخدمة العدالة الإنسانية «١٣» وسعد هنا لا يقوم بوظيفته فى تطبيق القانون فسحب ، ولكنه يناقشه ويحكم عليه حسب مضمونه ، مستندا الى معيار فكرى عام يتعلق بمبدأ الحكومات العادلة . ويصم الاجراءات الاستبدادية بوصمة المخالفة للقانون والعدل ، مادامت تضر بحقوق الافراد وبالمصلحة العامة . ويلاحظ فى تفكير سعد اتجاه ثابت فى إدراك التناقض بين القانون والاستبداد الذى عرفه من قبل فى مقالة بالوقائع المصرية بأنه العمل وفق مشيئة الحاكم ، والذى هو عمل الحكومة الطليق من الالتزام بالقواعد المقررة . والقانون لديه ليس أمرا مقدسا فى ذاته ، إنما يكون قانونا حقا بقدر مايحتفظ من حقوق ومايحقق من مصلحة عامة وبقدر مايتوخى العدالة . وقد حاول فى حكم له سنة ١٩٠٦ ايجاد نوع من الهيمنة للقضاء علي دستورية القوانين وقرارات مجلس النظار ، وأهدر قرارا للمجلس لمخالفته القانون وبعد ذلك بأعوام ـ بعد ١٩١٩ ـ كتب فى صحيفة البلاغ بامضاء «س . أ» يوصى المحاكم أن تمتنع عن تطبيق المراسيم بالقوانين التى تصدر على خلاف أحكام الدستور «١٤».

«١٢» سعد زغلول من أقضيته . عبده حسن الزيات ص ٥

«١٣» المرجع السابق ص ٢٥٧ .

«١٤» المرجع السابق ص ٢٠٥ ..

وفى أحكام أخرى يبدى الحذر والتشكك فى صحة الاجراءات التي تتبعها أجهزة الحكومة ، ويحرص على وجوب التعرض لصحتها ومناقشتها ، من المحكمة بغير أن يسلم بها «إن المباحث التى يجريها رجال الادارة والاقرارات التى تحصل أمامهم من أحد الخصوم .. لايمكن أن تكون بمقتضى المبادىء القانونية حجة يحتج بها أمام القضاء ، ولايصح أن يترتب عليها بنوع أصلى حق لخصم على آخر..» «١٥» يعلق جامع هذه الأحكام على ذلك بقوله إن فيها «أثر الضمير المتعنت وأن وراءها قولة الشك فيما سوى القضاء ، شك مكبوت» .

ثم كانت دائرته صاحبة أول حكم يقرر أنه لا عقاب على من يقذف في حق موظف عام اذا استطاع أن يثبت وقائع القذف . ويعرف الوظيفة العامة بمنطلق ديمقراطى فيقول « لكل الناس شأن فيها وفائدة فى الاحاطة بها وحق فى أن يأخذوا عليه «الموظف» في هفواته وغلطاته فيها ولا شىء عليهم «الناس» في نشر ذلك متى كان الأمر صحيحا» «١٦» . وكان هذا يعنى الافساح للصحف فى التصدى بحرية للموظفين ونقدهم . كما عرف عنه حكم صرح فيه بوجوب تشديد العقوبة إن كان المذنب موظفا «إن المتهم هو موظف عمومي وطبيعة وظيفته تقضى أن يكون على جانب عظيم من عفة النفس واستقامة الضمير ، ولذلك يتعين تشديد عقابه حتى يكون خطر مثله مأمونا» «١٧».

«١٥» المرجع السابق ـ ص ٢٤٤ ـ ٢٤٧ .
«١٦» المرجع السابق ص ٢٤٤ ـ ٢٤٧
«١٧» المرجع السابق .

وفى حكم أصدره سنة ١٩٠١ حمل حملة عنيفة علي مايتخذه رجال الادارة من اجراءات العنف والتعذيب مع المواطنين .. «تبين مما سبق أن هذا العمدة لقن نفس المأمور سببا للجناية لم يقله المصاب ، ولأن العمدة الذى يعلم من مأموره تلك الشدة التي سبق بيان بعض آثارها ، وتلك المجاهرة بمخالفة القانون لا يبعد عليه أن يلقن المصاب تحت حماية المأمور أسماء المتهمين ظلما وزورا ، وحيث أن وقوع مثل هذه التصرفات بحجة اظهار الفاعل أو كشف الحقيقة أشد خطرا علي النظام العام من خفاء الجاني أو تخليصه من العقاب ، لأن لا شيء أسلب للأمن وأقلق للراحة وازعج للنفوس من أن يعبث بالنظام من عهد اليه حفظ النظام ، وحيث أنه لايصح أن تكون مثل هذه التصرفات أساسا للحكم ، بل لايصح غض النظر عن المؤاخذة عليها ، لأن ذلك مما يضر بالقضاء ويجعله عونا للظلم بدل أن يكون نصيرا للعدالة» «١٨» هنا يظهر الحكومة بأنها من يعتدى على النظام لا من يصونه ، وأنها الخارجة على المجتمع لا الافراد ، وهو هنا لايحكم علي الحكومة من خلال النظام الذى تفرضه ، ولكن من على أسس نظام عادل يستوحيه من فكره ومبادئه ، ويصل بذلك إلى أن هذه التصرفات الفعلية لا تصلح «أساسا للحكم» هو موقف سياسي يعبر عن نفسه من خلال القانون .

واستمر هذا رأى سعد فى النشاط الاستبدادى لجهاز الإدارة والأمن ، وعندما انتخب وكيلا للجمعية التشريعية سنة ١٩١٣ ، عرض

«١٨» المرجع السابق ص ٣٩١ .

عليهم مشروع قانون عن الجمعيات التعاونية الزراعية ، وفيه حكم يبيح للادارة حق حل الجمعية ، فعارضه بشدة كما عارض هيمنة جهاز الادارة على هذه الجمعيات «لست فى حاجة لأن أشرح لحضراتكم ما يلاقيه الأهالى من العقبات للوصول إلى الحكام الإداريين..» ويتحدث عن جهاز الادارة بقوله «سلسلة طويلة جدا لاتنتهى إلى الوزير إلا بعد حلقات كثيرة تبتدىء من العمدة إلى معاون البوليس ، ثم إلى مأمور المركز ، ثم لوكيل المديرية ، ثم لسكرتير الناظر ، إلى أن تنتهى الى الناظر «الوزير» كل هؤلاء أخشاهم ، أخشاهم كما تخشونهم أنتم ، وتخشونهم لأنكم جربتم كثيرا أعمالهم ..» «١٩» .

كان المجتمع فى نظر محمد عبده ، هو نظام للحقوق والواجبات يتجسد فى القوانين ، ورأى المجتمعات نوعين ، مجتمع القوة حيث يسود الحكم المطلق ويتسلط بالرهبة والقسوة ولايرعى عدلا ولا مساواة فى جباية أو معاملة ، ومجتمع القانون الذى يحفظ الإنسان وينطلق به فى مجالات الاكتشاف والذي يبنى القوة على أساس من القانون «٢٠» .

ويرى أن الغاية من القانون ضبط المصالح وفتح سبل المنافع وسد طرق المفاسد . وأن القانون الصادر عن الرأى العام هو الحقيق باسم القانون «٢١» . وإن سعادة البلاد رهينة بارتفاع شأن القانون وعلو

«١٩» سعد زغلول فى الجمعية التشريعية. جمع وترتيب أحمد فهمى حافظ ص٦٨، ٢٨٢
«٢٠» رشيد رضا . المرجع السابق الجزء الثانى ص ٩٢ .
«٢١» رشيد رضا ـ الجزء الثانى ص ٢٠٠ .

قدره واحترام الحاكمين له قبل المحكومين «٢٢» . وفي هذا المعنى تقريبا وضع مونتسكيو مفهومه عن الحرية ، والحرية عنده تتحقق فى التنظيم الحكومى ، وتعنى القدرة على فعل مايرى الناس فعله ، والامتناع عما يرى الناس وجوب الامتناع عنه، وهى بهذا تعنى الحق فى فعل ماتسمح به القوانين ، يصدق ذلك علي الفرد كما يصدق على الدولة «٢٣» . وهذا أيضا هو المعنى الذى يلحظ من كتابات سعد زغلول السابقة ، مطبقا علي الحالات المحددة التى كان يناقشها بحكم وظيفته . ومصدر القانون لديه المصلحة والنفع ، وهو واجب الهيمنة على الحكومة وتصرفاتها .

والواقع أن سعدا ، فضلا عن تأثره بفكر الأستاذ الإمام ، وبالفكر الليبرالى الذى كان منتشرا وقتها بما ترجم من كتابات فولتير ومونتسكيو ، «٢٤» . فضلا عن ذلك فقد اسبغ عليه عمله القضائى صفات خاصة ، فهو عمل يمارس من داخل السلطة ومؤسسات الحكم ، من المحاكم ، ولكنه يتميز بوجه من أوجه الاستقلال عن السلطة بحكم كونه عملا رقابيا ، واكسبه ذلك قدرة علي الاطلاع علي عمل الدولة بغير استغراق ولا خضوع لضغط آلتها الدائرة ، ولاشك فى أن هذا العمل اكسبه خبرة بنشاط جهاز الدولة ووظيفته ، ومن ناحية ثانية ، كان

«٢٢» رشيد رضا الجزء الثانى ص ٥٢

«٢٣» The Democratic and the Authoritarian Stat Franz Neumann p.131.

«٢٤» Arabic Thought in the Liberal Age A. Hourani p.138.

تطبيق القانون مما يؤكد لديه دائما وجوب خضوع القوة للقانون ، ووجوب اخضاع أعمال الدولة وتصرفات الافراد له ، سواء فى مسائل المعاملات أو بالنسبة لنشاط الدولة إزاء الأفراد ، أو بالنسبة للمسائل الجنائية ذات الاتصال بالحريات . والخضوع للقانون يفرض علي صاحبه موقفا عقلانيا ضد العشوائية والفوضى ، أى ضد الاستبداد الذى يعنى أن يتصرف الحاكم أو الفرد وفق مشيئته بغير خضوع لنظام. وهذا يمكن من حماية الحقوق ورفع المضار ولجم الآثار السيئة للقوة المجردة ، القوة العارية ، سواء مارستها الدولة أو مارسها الافراد ومن ناحية ثالثة فإن العمل القانوني يفرض على صاحبه قيودا ، هي الإطار العام للقوانين القائمة ، أى للنظام السياسى والاجتماعي القائم ، ولايستطيع أن يرفضها دون أن يتخطى حدود وظيفته ، ولايستطيع من خلال عمله ـ ان كان معارضا لها ، الا أن يلتف عليها من خلال المواقف العملية وبالتفسيرات الجزئية . ومن ناحية أخيرة ، اكسب هذا العمل سعدا سمة رجل الدولة المسئول ، يمارس وظيفة محددة ، ويعمل فى حدود سلطاتها ، وتفرض هي على أحكامه وتقديراته حدودا لايستطيع أن يتعداها وإلاّ فقد فاعليته فى عمله ، واكسب هذا سعدا روحا نظاميا، اتضح بعد ذلك فى كل أدوار حياته .

ومما يلاحظ في أحكام سعد ، أنه مع وقوفه ضد نشاط الدولة المخالف للقانون ، ومع إدراك هذا الاتجاه فيه في حياته العامة ، فإنه لايحاول في أى من هذه الأحكام أن يضع تفكيره كله كنظرية واحدة

واضـحـة . إنما يستـجيب بفكره العـام للأحداث الجـزئية ، بمـواقف محدودة وبعبارات قصيرة يحرص ألا تتعدى الحدود المفروضة عليه ، وأن الروح النظامية التي تميز شخصية سعد وتحوطه بسمة رجل الدولة المسئول ، تجعله ينظر الى القانون لا على أنه وقاية للفرد ضد انطلاق سلطة الدولة فقط ، ولكن على أنه حماية للمجتمع والنظام العام ضد الخارجين عليه ، حدث أن ارتكب مصرى بالحجاز جريمة وعاد الى مصر بغير عقاب ، والمبادىء القانونية تمنع أن يحاكم شخص على ما ارتكبه خارج البلد الذى قارف فيه جرمه ، ولكن سعدا حاكمه وحكم عليه في مصر معترفا بأن ذلك لايجوز حسب المبادىء العامة . ولكن «من وظيفة كل حكومة أن تؤيد النظام فى بلدها على حسب ماتقتضيه المصلحة العامة . ووجود المجرم في بلاده غير مسئول عما يكون قد ارتكبه من الجرائم المهمة في غيرها مما يشين بالنظام العام ، وقد يقضى الي اختلاله بما يقوى فى نفس المجرم الميل الى الشر وما يبعث في غيره من القلق والاضطراب ومايضعف فى نظر العامة من سلطة القانون .. «٢٥» . سعد بهذا حريص على الا تضعف فى نظر العامة سلطة القانون .. حريص ألا يختل النظام العام .

ووقف بعد ذلك بسنوات فى الجمعية التشريعية ، يناقش مشروعا يبيح للمحكوم عليه فى الجنايات أن يطعن في الحكم الصادر ضده ، إن كان صدر بالأغلبية لا بالاجماع ، وطالب أن يباح النظر فى أحكام

«٢٥» سعد زغلول من القضيته ـ المرجع السابق ص ٢٦٩ .

البراءة أيضا ، قال «إننا مثل الحكومة يهمها جدا حفظ النظام العام ، يجب أن نبحث عن طريقة تضمن للبرىء الحقيقى براءته كماتضمن للعدالة أن تأخذ حقها من كل مجرم . ويجب الا ننظر لصالح المتهم فقط بل يجب أن ننظر أيضا لصالح الهيئة الاجتماعية التى نحن جزء منها .علينا هذا الواجب لأننا مشتركون فى التشريع مع الحكومة ومسئولون معها عن الأمن العام» «٢٦».

وما أكثر ما قال فى الجمعية ضد خصومه «ليست المسألة بالضوضاء تؤخذ ولكن بالقانون .. حكم القانون هو النافذ لا حكم الضوضاء» «٢٧» . وقد ذكر العقاد أن سعدا قرأ كتابا لكروبتكين ، ومذهبه الفوضى والغاء الحكومة ، وعلق على ذلك بقوله «أين سعد من هذه الأودية السحيقة؟ بيد أنك حتى تستطلع الأمر ترى أنه لم يقرأه الا عجبا من أن يكون في الدنيا من يخرجون علي النظام هذا الخروج» «٢٨» علي أن سعدا مع حرصه علي الخضوع للقانون إنما يقرر دائما وجوب الحكم عليه بمبدأ المصلحة العامة وحماية الحقوق ، ويضع القانون بهذا ضد الاستبداد وفى صالح التنظيم الديمقراطى .

فى ١٩٠٦ وقعت حادثة دنشواى ، خفق بها قلب مصر كما عبر قاسم أمين ، وواجه بها الاستعمار البريطانى أول ريح تزعزع بنيانه فى

«٢٦» سعد زغلول في الجمعية التشريعية ـ المرجع السابق ص ٤٢ ـ ٤٤ .
«٢٧» سعد زغلول فى الجمعية التشريعية ص ٤٧ .
«٢٨» عباس العقاد المرجع السابق ص ٥٧٥ .

مصر ، وحاول كرومر أن يميل قليلا مع العاصفة وأن يضفى على الحكم طابعا يسوغ به لدى الرأى العام . فكان تعيين سعد زغلول وزيرا للمعارف، كتب زتلاند فى ترجمته عن كرومر ، أن سعدا كان معروفا بنزعته الوطنية ، وأن تعيينه كان تجربة ينبغى أن تلاحظ بالدقة الواجبة قبل تكرارها «٢٩» . ونشرت الأهرام فى ٦ أبريل ١٩١٢ بامضاء «عارف» مقالا امتلأ بالطعن على سعد بعد استقالته ولكنه اعترف بأن تعيينه وزيرا كان لارضاء الوطنيين لما عرف عنه من معارضته للحكومة ولسياسة الانجليز ، وذلك تقوية لمركز اللورد كرومر بعد حادثة دنشواى «٣٠» . ويذكر أحمد شفيق أن كان الفكر السائد وقتها أن هذا التعيين قصد به إبعاد سعد عن الاشتغال بإنشاء الجامعة المصرية ظنا من كرومر أن ذلك يقضى علي المشروع . وقد قدم كرومر الاقتراح الي الخديو فى ٢٦ اكتوبر فاستأجله الخديو فى الموافقة يوما ثم وافق ، والشائع أنه لم يرتح لهذا التعيين «٣١» .

كتبت «المؤيد» رغم موالاتها للخديو تقول «بينما نحن كذلك فى هذا القنوط من وزرائنا إذا برنة جرس قوية صلت على الآذان فنبهت الاذهان الي حركة جديدة فى الوزارة .. سعد زغلول يعرفه المصريون قاطبة بالعلم والفضل وعلو المبادىء .. واستقلال الرأى كما يعرفونه

«٢٩» Lord Cromar Zethland. p.307

«٣٠» أحمد شفيق المرجع السابق ص ١١٠ .

«٣١» أحمد شفيق المرجع السابق ص ١٠٢ .

بالمقدرة الفائقة .. وهو القائل أن الأمة المصرية ينقصها العلم الصحيح وهو الداعى الى الجامعة المصرية «٣٢» .

وتساءلت «اللواء» صحيفة الحزب الوطني عما اذا كان سعد سيستطيع أن «يحيى سلطة الوزراء المصريين» وقالت إنه معروف فى ماضيه وحاضره أنه «أشد الناس تمسكا باستقلاله وحقوقه وأكثرهم انتقادا علي الذين تركوا سلطة مناصبهم لغيرهم، فنحن لا نبتهج بتعيين سعادة سعد بك زغلول ، إلا بأمل أن يكون كما كان على باشا مبارك والفلكى باشا وأمثالهم ممن خدموا العلم فى القطر خدمات خالدة ونطالبه أن يكون فى مستقبله كما هو فى حاضره وكما كان فى ماضيه الرجل المستقل الذى لايخدعه منصب ولا مال» «٣٣» .

تقدمت الاشارة الى ما كان يبديه الأستاذ الإمام من اهتمام بالتعليم وباصلاح نظمه . وكان يبدى قلقه مما يحدث فى المجتمع المصرى ، منذ بداية القرن التاسع عشر ، من صدع يتسع مع الوقت وينبغي رأبه . والمجتمع يجب أن يخضع لقانون نظامى وأخلاقى وإلا لحقه الدمار ، وهذا القانون أو مجموعة القيم تختلف باختلاف الأمم . وكان الإمام معجبا بمنجزات المدنية الحديثة فى أوربا ، ولكنه كان مقتنعا بصعوبة نقل ذات مؤسساتها الفكرية والقانونية الى مصر لاختلاف التربة الاجتماعية ، وقد لاحظ صدعا يتسع فى المنشآت الاجتماعية

«٣٢» عباس العقاد .. المرجع السابق ص ٩٧ ـ ٩٩ .
«٣٣» عباس العقاد .. المرجع السابق .

والمؤسسات الفكرية فى مصر . فثمة قوانين وضعية وفدت من الخارج وفرضت على الأهلين بغير فهم لها وبغير أمل فى أن يحترموها أو يطيعوها اقتناعا بها ، وبجوارها توجد الشريعة الإسلامية ، وليس من علاقة تربط بين المجالين . وثمة طابعان من المدارس ، مدارس حكومية لاتعلم طلبتها أى قيم اجتماعية أو سياسية ، تشترك مع المدارس التبشيرية فى تدريس برامج أجنبية تشكل الطالب بوجدان غريب عن بلده تابع لأمة أجنبية ، ومدارس دينية علي رأسها الأزهر تعلم الدين ، ولا تعلم المواد اللازمة للحياة في العالم الحديث ولاعلاقة بين نوعى التعليم ، وليس كل منهما كافيا فى ذاته أو مكتفيا عن الآخر ، وثمة تقسيم روحى مماثل بين الروح التقليدية والروح التى تشيعها أفكار أوربا الحديثة بغير أن يوجد أساس مشترك يجمع الروحين فى نسيج واحد ، وهذا يميل بالأسس المعنوية للمجتمع الى أن يوهنها القلق والشك . فيصبح المجتمع بغير قانون ولا قيم . وكان إصلاح هذا الحال عند الإمام لايكون بالرجوع الى الماضى . فقد غبر ، ولكن يكون بربط حاجات المجتمع الحديث بمبادىء الإسلام «٢٤» ووجد أن مهمته هى تفتيح الفكر الإسلامى ليستوعب حاجات الحياة المدنية، وليكون أساسا أخلاقيا ومعنويا لها ، وأن وسيلة الاصلاح هى تطوير الأزهر وتفتيح مناهج التعليم ربطا لعلوم الحياة الحديثة بقيم المجتمع ، لينطلق العقل مسيطرا علي شئون دنياه ، وهنا تبدو أهمية التعليم بالنسبة له .

«٢٤» حورانى .. المرجع السابق ص ١٣٠ ..الخ .

ويبدو أن سعد زغلول قد اتبع هذا الخط العام لفلسفة التعليم ، واذا كان التعليم الحكومى خاضعا للسياسة البريطانية تنفذ أهدافها فيه من خلال مستشار وزارة المعارف «دانلوب» وتصرف همها فى تخريج الموظفين ، وفى إحكام السيطرة البريطانية على مؤسساته بتدريس العلوم باللغة الانجليزية والإكثار من المدرسين الانجليز والنظار ووكلاء المدارس وموظفى الديوان العام حتى «صار التعليم هو الراية التى يحارب حولها دعاة الوطنية من جميع «الصفوف» «٣٥» فقد عمل سعد علي إحياء اللغة العربية فى المدارس . وعلى التوسعة للمصريين فى وظائف الديوان العام والادارة والتفتيش وعلى الاكثار من المدرسين المصريين وتعيين وكلاء المدارس الثانوية منهم تمهيدا لترقيتهم الى وظائف النظارة . واقتضى هذا البحث فى عقبات التعريب بالتوسع في حركة الترجمة ، واغضب هذا جميعه الانجليز أشد الغضب . كما بدت المهمة لوزير فرد يعمل فى وزارة خاضعة للانجليز والخديو مهمة صعبة بملاحظة العقبات السياسية والعقبات الفنية ازاء تغيير نظام استقر مدة خمس وعشرين سنة .

ومن ناحية ثانية أنشأ مدرسة القضاء الشرعى ، كما كان محمد عبده يعمل لإنشاء قسم قضائى متطور بالأزهر، فلما فشل أعد مشروعا بإنشاء مدرسة قضائية شرعية منفصلة عن الأزهر يتولى هو نظارتها

«٣٥» عباس العقاد المرجع السابق ص ٨٩ .

ولكنه توفى قبل ظهورها ، فلما عين سعد بعث المشروع وقام بتنفيذه «٣٦» . رغم أنه لم يكن يدخل في برنامج وزارته . واغضب هذا الكثير من شيوخ الأزهر الذين وجدوا فى إنشاء المدرسة اغلاقا لأهم أبواب العمل أمام خريجى الجامع الكبير ، وتحديا لهيمنته علي التعليم الدينى ، كما اغضب الخديو الذى كان حريصا على دعم نفوذه علي هذه المؤسسة الدينية العتيدة ، معارضا لاتجاهات الإمام وتلامذته فى تعديلها حذرا من أن تمتد أيديهم اليها . فلما عرض المشروع على مجلس الوزراء برئاسة الخديو اعترض عليه ، فعارضه سعد فى حدة ظاهرة ، وضرب بيده المنضدة مخاطبا أياه باسلوب لم يألفه من قبل ، وانطوى له الخديو بهذا على الاستياء الشديد . ونجح سعد فى إنشاء المدرسة وفى حمايتها ضد مؤامرات الخديو . قال له حسين رشدى يوما «أنت ياسعد لاتريد الا ابقاء مدرسة القضاء الشرعى» «٣٧» .

وإن الأستاذ الإمام عندما لاحظ الصدع الحاصل فى المجتمع بين المؤسسات التقليدية والحديثة في الفكر والتعليم ، لم يلحظ ان علاج هذا الأمر ، مهمة سياسية خليقة بأن تلقى معارضة كل من السلطتين الشرعية والفعلية ، وتطوير التعليم الدينى خليق أن يستفز الخديو ، ويدفعه للمقاومة وتمصير التعليم الحديث خليق بأن يدفع الانجليز الى مقاومته .

«٣٦» رشيد رضا .. المرجع السابق .. ص ٥٥٧ .
«٣٧» أحمد شفيق ـ المرجع السابق ص ١١٢ : ٢٧٣ : ١٦٤ .

وقد واجه سعد هذه المقاومة من الناحيتين ، وحاول الاستفادة من الخلافات بين السلطتين مستندا على كرومر فيما يعارضه الخديو ، ومعتمدا علي الرأى العام الوطنى فيما يعارضه الانجليز ، وكان اثناء عمله يميل الي الاتصال بالرأى العام شرحا لسياسته وادلاء بالاحاديث للصحف ، فكان أول وزير يعنى بهذا الأمر «٣٨» . كما أكد الصفة التى اتفق الجميع على وجودها فيه وهى استقلال الرأى والشخصية ، وحقق في علاقته مع الموظفين الانجليز ما أملته صحيفة اللواء ; وهو احياء سلطة الوزراء المصريين ، وذلك من خلال حوادث عدة جرت معهم ألزمهم فيها حدود «القانون» باعتبار أن سلطته كوزير عليهم مصدرها القانون . وكان بهذا يتحدى النفوذ البريطانى .

على أن حدود الخلافات بين الخديو والانجليز كانت ضيقة ، وكان هذا يحد من إمكان المناورة الواسعة بينهما ، ويقلل من الامكانات المتاحة لنجاح سعد واستقراره ، ولكنه بقى فى الوزارة مع ذلك أمدا محميا بالرأى العام من جهة ومستفيدا من قدرته علي الانضباط وخاصة احترامه للأوضاع المقررة وماتفرضه عليه من حدود شأن رجل الدولة دائما ، وأدى هذا الى أن يعدل الحزب الوطنى سياسته ازاءه فهاجمه بشدة متهما إياه بالخضوع للمحتل الاجنبى .

وزاد هذا الاتهام فى مناسبتين ؛ أولاهما أن الوزارة فى مارس

«٣٨» مقال الدكتور محمد أبو طايلة منشور فى كتاب عبرات الشرق عن الزعيم سعد زغلول - ص ١٩٢

١٩٠٩ أعادت العمل بقانون المطبوعات الرجعى القديم الذى يجيز لوزير الداخلية انذار الصحف وتعطيلها مؤقتا أو نهائيا . واعتبر ذلك ضربة موجهة ضد حرية الصحافة والحركة الوطنية والديمقراطية ، وسارت المظاهرات تعلن سخط الرأى العام على هذا الاجراء . وكان سعد وزيرا في الوزارة فلحقه ما لحقه من هجوم الحزب الوطنى . وثانيتهما أن الانجليز ضغطوا على الحكومة لتقبل مد امتياز شركة قناة السويس أربعين عاما بعد مدته التى تنتهى في ١٩٦٨ ، مقابل مناصفة الأرباح بين الشركة والحكومة ، وهاج الرأى العام ضد المشروع ، وقاد الحزب الوطنى الهجوم على الحكومة ، فاضطرت لعرض الموضوع على الجمعية العمومية مفوضة إياها فى أمر الموافقة أو الرفض ، ورغم أن رأيها فى كل المسائل كان استشاريا بحتا . ووقف سعد زغلول في الجمعية يدافع عن مد الامتياز ولكن الجمعية رفضته بالاجماع .

ولحق سعد فى هذا الموقف الكثير من النقد والتشهير ، ذكر العقاد دفاعا عنه أن أمر قانون المطبوعات كان محصورا بين الانجليز والخديو ورئيس الوزراء ، فلما علم به سعد عارضه ولم يقبله الا بعد تلطيف بعض قيوده ، وأنه كان معارضا لمشروع مد الامتياز في مجلس الوزراء ، ولكنه قبل الدفاع عنه اذا فوضت الجمعية العمومية فى الفصل فيه ، فكان موقفه نوعا من المناورة أخرج بها المشروع من أيدى مجلس الوزراء فرفضته الجمعية «٣٩» ويتفق كلام أحمد شفيق مع هذه الرواية،

«٣٩» عباس العقاد .. المرجع السابق ص ١٣٢ ..الخ .

وزاد عليها أن المعارضين للمشروع من الوزراء كانوا سعد زغلول وحسين رشدي وأحمد سعيد «٤٠» .

عاد سعد بعد ذلك الي التعليق على موقفه من قانون المطبوعات فقال للعقاد «إنني من وجهة المبدأ أرى أن تقييد الكتابة غير جائز ، أما الكتابة التي كانت حاصلة فعلا في تلك الأيام فغير الجائز في نظري ، وفي نظر غيري هو تركها تتدهور الى الهاوية التي كانت تندفع إليها» وعلق العقاد قائلا إن سعدا في هذه الفترة خضع لهجوم شخصي عنيف من الشيخ عبد العزيز جاويش «الذي رأس تحرير اللواء» بعد أن خاب أمله في أن يعين ناظرا لمدرسة القضاء الشرعي ، وذلك في وقت كان سعد يحارب سياسة دانلوب في التعليم ، ويناضل النفوذ البريطاني علي الوزراء المصريين تحقيقا لأمله أن تكون مصر للمصريين، وأن الشيخ جاويش كان تونسيا مشمولا بالحماية الفرنسية يدعو للخلافة العثمانية دعوة شقي بها زعيم الحزب الوطني محمد فريد.

علي أن عبارة سعد السابقة تظهر موقفه الفكرى من مسألة الحريات ، فهو مؤمن بها مبدأ ، ولكنه يقف بها عند حدود ما يراه المصلحة بمنزع عملي صرف ، وكان السياق الواقعي هو مايملي عليه مواقفه . وهنا أيضا يتفق سعد مع استاذه محمد عبده . ذكر الشيخ مصطفى عبد الرازق ، أن الاستاذ لم يكن من أنصار حرية القول والكتابة الا بمقدار ، وأنه إلتمس سن قوانين الرقابة على المطبوعات

«٤٠» أحمد شفيق .. المرجع السابق ص ١٨٦ ـ ٢٠٥ ـ ٢٥٧ .

خشية من انتشار الكتب «المشيعة للخرافات بين العامة» و «انتشار اللهجات السخيفة والموضوعات المؤذية للأخلاق وأنه كان يميل للاستعانة بالقوانين النظامية على ضبط الأخلاق» «٤١» . وقد علق سعد على موقفه هذا في الجمعية التشريعية قائلا : «كنت معارضا أولا فيه وفي اصداره «قانون المطبوعات» ثم اشتركت مع ذلك في اصداره ثم ندمت على هذا الاشتراك ، ولكن وقتما اشتركت في اصداره كنت مقتنعا بأني لاحظت ظروفا يجب عليّ ملاحظتها ، وشاهدت بعيني تطبيق هذا القانون ، واشتركت أيضا في تطبيقه..» وقال «كنت قاضيا وكنت وزيرا والآن أنا عضو بينكم ، وأحس من نفسي أن شعوري كان يختلف باختلاف مركزي . كان لي في كل مركز شعور خاص .. هذا تأثير الوسط» «٤٢» . ويبدو من هذه الأقوال أنه مع نقده لموقفه السابق علنا ، قد تطور فكره من مسألة الحريات الى مدى أبعد مما كان وهو وزير بعد أن لحظ بنفسه طريقة التطبيق لقانون ظنة وقتها ، مفيدا ، وأدرك في ذكاء كيف تعمل آلة الحكم وتعدل في معتقداتهم الشخصية ، وكيف يكون «تأثير الوسط» ولهذا جاءت معارضته في الجمعية التشريعية لفرض رقابة الجهاز الاداري على الجمعيات التعاونية قوية ومؤثرة ، وأدلي بهذه الخبرة السياسية العملية من وجوب عدم الاعتبار بحسن نية رجل الادارة وماقد ينطوي عليه من فضل ، فالمهم هو حدود سلطته ،

«٤١» محمد عبده «الشيخ مصطفى عبد الرازق» ص ١١٧ .
«٤٢» الجمعية التشريعية ـ المرجع السابق ص ٢٨١ ـ ٢٨٣ .

وطابع الوظيفة وأسلوب العمل . ودفعه هذا الى أن يصرف جهدا كبيرا في رسم الاطر النظامية وتحديد الاختصاصات والوظائف بما يتيح من الناحية العملية أكثر الأوضاع حرية ، كان يقول «نحن نحب الحرية ولكنا نحب أن تستعمل استعمالا مفيدا ، إن الدفاع عن الحرية ، نغمة لذيذة جدا يحسن وقعها في الأسماع .. ولكن هذا لاينافى أن العبث لايجوز الاشتغال به أو الالتفاف اليه ..«٤٣» ثم يبلور مفهومه عن الحرية بقوله «كل تقييد للحرية يجب أن يكون له مبرر والا كان ظلما ..«٤٤» .. وكانت الحرية عنده تنظيم للعلاقات وتحديد للمؤسسات وتوزيع للسلطات وكل ذلك يحتاج الى القانون الذى تضعه الهيئات النيابية ، وفى هذا يقدم مفهوما مكملا «نحن لا قوة لنا الا بالحق وباحترام القانون» «٤٥».

تقدمت الاشارة الى أن تباين سلطتي الخديو والانجليز والخلاف بينهما ، ساهم فى التمييز بين مطلبى الثورة «الدستور والجلاء» وذلك في ظروف كانت فيها الحركة الوطنية الديمقراطية لا تزال في مهدها ، وقد نمت الحركة نموا اظهرته حادثة دنشواى ، وما تلاها من تجمع لعناصر المقاومة . وشاءت السياسة البريطانية أن تتدارك هذا الأمر فى أوله، ورأى كرومر أن يكون التدارك بتجربة الاستعانة ببعض العناصر المعروفة بوطنيتها ، مثل سعد زغلول ، ولكن ما لبثت السياسة البريطانية أن ذهبت الي اتجاه مخالف لرأى عميدها فى مصر فاستبعد كرومر الذى جاء مكانه الدون جورست يحمل «سياسة الوفاق بين

«٤٣» الجمعية التشريعية ـ المرجع السابق ص ١٠٢

«٤٤» الجمعية التشريعية المرجع السابق ص ٢٧

«٤٥» الجمعية التشريعية ـ المرجع السابق ص ٥٢.

الخديو والاحتلال» ، وبدأ تنفيذها باطلاق يد الخديو فى أعمال الحكومة، فاستقالت وزارة مصطفى فهمى المبغضة للخديو فى ١٩٠٩ وحلت محلها وزارة يرأسها بطرس غالي عين فيها من أنصار الخديو محمد سعيد وأحمد حشمت وحسين رشدى ، وتخلى الخديو عن مساندته للحزب الوطنى ، وتخلى الانجليز عن مساندتهم لمثل سعد زغلول .

وصف العقاد هذه السياسة بقوله : «إنها تعنى تشتيت قوى الأمة وتوحيد قوى الحكومة» والحق أن توحيد قوى الحكومة لم يؤد الي تشتيت قوى الأمة بل الى تقاربها ، فاتجه الحزب الوطنى الى سياسة مناوئة للخديو الذى اتفق مع الانجليز ، واتجهت العناصر المناوئة للخديو فى الأساس الي معارضة الانجليز بعد أن انكشف ارتكاز الاستبداد المحلى على الاحتلال البريطانى ، وكان من هؤلاء سعد زغلول ، وبرغم بقاء الخلاف بينه وبين الحزب الوطنى فقد كان مسار الحوادث الى التقريب بينهما ، وقد ذكر أحمد شفيق أنه عند تشكيل وزارة بطرس غالى قال جورست للخديو عن سعد ، «إنه مستاء جدا منه بالنسبة لجفاء أخلاقه فهو متكبر وكلامه قاس مثل الحجر ، لكن اذا خرج مع الخارجين فربما يحصل منه مايسوءنا ـ يعنى أنه خائف من لسانه وأعماله ـ فاذا استصوب الخديو يبقى مدة شهرين أو ثلاثة ثم تعمل طريقة لاخراجه «فرد الخديو» أن بطرس باشا قال لى اذا طلب الانجليز ابقاء سعد فاتركه لى وأنا أعرف ما أفعله لخروجه»«٤٦» وبهذا أصبح خروج سعد من الوزارة نتيجة طبيعية لسياسة الوفاق . وقد نقل من وزارة المعارف الى الحقانية ، فلما توفى جورست وحل محله كتشنر،

«٤٦» أحمد شفيق ـ المرجع السابق ص ٢٧٢ ـ ٢٧٣ .

ساءت العلاقات بينهما ، وفى أول أبريل ١٩١٢ ، شرع فى محاكمة محمد فريد زعيم الحزب الوطنى دون استشارة سعد فقدم استقالته وانتهى عهده بالوزارة .

فى ١٩١٣ انشئت الجمعية التشريعية كهيئة استشارية شبه برلمانية، تتكون من ١٧ عضوا معينا ونحو ٦٦ عضوا منتخبا بانتخابات على درجتين ولها رئيس معين ووكيلان أحدهما معين والاخر منتخب ، وكان للقاهرة أربع دوائر انتخابية ، رشح سعد نفسه فى دائرتين منها «بولاق والسيدة زينب» فنجح فيهما معا واختار إحداهما ، ثم أصبح هو الوكيل المنتخب وعدلى يكن الوكيل المعين .

وإذا كان سعد ـ كما يقول الدكتور أبو طايلة ـ أول وزير يتجه الى الرأى العام بالأحاديث والتصريحات ، فقد كان فى المعركة الانتخابية ـ كما يذكر أحمد شفيق ـ صاحب «أول بيان انتخابى فى تاريخ النيابة المصرية» . يذكر هارولد لاسكى «أن اجراء بسيطا يقرر ضمانه للمتهم فى الدفاع عن نفسه لهو أدخل فى معنى الحرية من كل العبارات العامة الرصينة التى وصف بها روسو الحرية» وبذات المنطق ينبغى ملاحظة أهمية هذا الاجراء البسيط الذى اتخذه سعد . وكان يمكن بمراعاة شخصيته البارزة ، ومواقفه السابقة ، ومعارضته للحكومة بعد خروجه منها ، أن يخوض الانتخابات بغير برنامج يقدمه ، فى ظروف لم توجد بها تقاليد تحتم عليه ذلك ، فكان اصداره بيانه فى ذاته حدثا يكشف عن موضوعية وفكر مستنير وإيمان عملى بالديمقراطية وجاء بيانه يتضمن خمس فقرات ، اثنتان منها تتعلقان بنشاطه التقليدى في إصلاح قوانين المحاكم والتعليم وواحدة تتعلق بحرية الصحافة

وضماناتها ، كما مس الأوضاع الطبقية مسا خفيفا بالنسبة لتوسيع نطاق التعليم «ليتيسر لابناء الفقراء أن ينبغوا كأبناء الاغنياء» وبالنسبة لاحتياجات المزارعين بتسهيل الرى والنقل ودراسة اسعار القطن . كما يلاحظ علي البيان تواضعه وحذره فى ازجاء الوعود ، وحرصه على الا يعد بتحقيق ما لا يستطيع ، فانحصرت وعوده في دراسة المشاكل السابقة ومحاولة اقناع الآخرين واستمالة الحكومة وأن يكون ذلك «ضمن الحدود القانونية» ومع صيانة النظام العام من ضرر شطط الصحافة .. الخ .. ولأول مرة فى المعركة ـ كما يذكر العقاد ـ تسمع الخطب الانتخابية وتجرى الانتخابات بغير مساومات ولا شفاعات ولا توسل بجاه الحاكم أو بالعصبية . وأيدت سعدا في المعركة الأحزاب الثلاثة الموجودة .كما اكتسب فيها ثقة الناخبين من الأهالى وافراد الشعب ، اذ رفض معظم الفقراء منهم اغراء الحكومة لهم بالمال ايتخلوا عنه . وكان كيتشنر يبذل جهوده فى العمل على اسقاطه ، وبعد نجاحه كثرت رسائل الجماهير الى الصحف ، تحبذ ترشيحه لوكالة الجمعية ، أو تنصحه بالرفض حرصا على ألا يقيد المركز حريته فى العمل «٤٧» . وهذا يدل على ماتعلقت به من آمال الجماهير فى معارضة السلطتين الشرعية والفعلية المندمجتين وأرسل محمد فريد الى رجال حزبه من منفاه يطلب اليهم أن يجتهدوا فى ادخال سعد لجنة الحزب الادارية ، وانتخابه وكيلا للحزب ، وكتب فى مذكراته أن الاخبار تنبىء عن السعى لتشكيل حزب معارضة فى الجمعية التشريعية يكون تحت رياسة سعد زغلول «٤٨» .

«٤٧» أحمد شفيق ـ المرجع السابق ص ٢٠٤

«٤٨» كفاح شعب مصر ـ محمد صبيح ص ٣٩٩ .

ويدأت بهذا تحوط سعدا سمات الزعامة القومية ، تؤيده الجماهير وتعلق آمالها به وتلتقى عنده تيارات سياسية مختلفة : وبدا هو قادرا على ضم الصفوف اليه وربط الجماهير به .

انعقدت الجمعية التشريعية خمسة أشهر حتى عاجلتها الحرب العالمية الأولى فأوقفت ، وكانت الجمعية واهنة السلطة ضيقة الاختصاص ، لكن سعدا استطاع أن يلتقط بعض المسائل ، وأن يثير من خلالها ، مع مراعاته الحدود القانونية لعمله ولوظيفة الجمعية ، جملة من المبادىء السياسية التى تتخطى حدود الوضع السياسى القائم برمته . وسلك فى هذا سبيل المحامى المترافع ، المعتمد على القوانين والتشريعات القائمة المهتم بالجزئيات والتفاصيل . وكان يعلم أن ليس شىء مما يطالب به يمكن أن تقبله الحكومة ، وأنه يتخذ الجمعية منبرا لمخاطبة الرأى العام ، فكانت احاديثه تتجه إلى الجماهير فى الاساس ، وبهذا تجاوز دوره فى كل مراحله السابقة ، دور المصلح المتحرر ، إلى دور المناضل السياسى ، المتجه إلى الجماهير . وكانت هذه نقطة التحول الأساسية فى حياته وفى صلته بالجماهير .

ولكنه حتى فى هذا الموقف ، لم يتجرد من طابع «رجل الدولة» الشغوف بوضع الانظمة وبناء المؤسسات ، المهتم بالجانب التنظيمى العملى ، لا جانب الدعوة السياسية العامة ، كما كان يتبع ذات اسلوبه السابق ، فى الدعوة إلى «القانون» والنظام ، مع تحويل هذين المفهومين لصالحه ، ومع تجريد معارضيه من القدرة على الاحتماء بالقانون ، أى

العمل على كسب الشرعية لصالحه وحرمان خصومه منها . ويمكن تلخيص مواقفه فى الجمعية بأنه طالب بأشياء وأعلن عن مبادىء من شأنها تغيير النظام القائم بغير أن يصرح بذلك ، وفعل هذا باسم «الحق والقانون». كما يمكن ملاحظة أن مواقفه كانت تتسم بالانضباط والخضوع فى العمل للتقاليد المرعية ، وللضوابط الموضوعة ، والمناورة بغير تعسف ولا لجاج . وبهذا استطاع أن يورط خصومه فى الجنوح إلى الفوضى والضوضاء واعمال الاستفزاز والمقاطعة ، والظهور بمظهر التعنت بغير أن يلحقه هو شيء من ذلك ، وبغير أن يشتت جهده فيما لا يفيد .

● كانت الحكومة ترى أن يكون الوكيل المعين هو من يرأس الجمعية إذا غاب رئيسها ، ابعادا لسعد عن رئاستها فى هذه الحالة، ولم يكن فى قانون الجمعية ما يقطع فى هذا الشأن . والتقط سعد هذه النقطة مدافعا عن أولوية الوكيل المنتخب وعن «حقوق الامة وحقوق الجمعية» ، ودافع عن «حق الامة» ضد «قوة الحكومة» بذات الطريقة التى تحدث بها الليبراليون فى فرنسا عن «الحق» حق الشعب والمجالس النيابية ، «والقوة» قوة السلطة التنفيذية ، واستفز لدى اعضاء الجمعية نوازع الشعور الاستقلالى بصفتهم وكلاء عن الأمة ، «إنى فى هذا الموقف أدافع عن شرفى وشرفكم ، إذا قبلتم نظريتى كانت اصلح لى ولكم وللصالح العام» ، «رأى نافع لكم نافع للحرية مؤيد لسلطتكم» ، «نحن نبكى وندافع مادام حقنا يعتدى عليه ، ويجب علينا أن ندافع عنه

مـهـمـا كـان الآخذ له ، ولو سكتنا عن الدفا ع عن حقنا لكنا مـجـرمين» . وهو في دفاعه عن الحق يحتمي بالقانون «إننا قوم مسالمون وطلاب حق وبحاث مصلحة لا أننا مشاغبون كما أرجف بنا المرجفون» ، ويحاول أن يجرد الحكومة من حماية القانون «لا يخدعنكم هذا «موقف الوزراء» فهم سياسيون الآن لا قانونيون» ، «القانون يعطى الامة حقا لا لأن تستعمله بل لأن يكون زينة ... أنا لا أرضى أن الاستخفاف بالأمة يبلغ إلى هذا الحد» . ثم ينبه الجمعية إلى أن لها أن تعزل رئيسها ووكيلها المعين بصفتهما عضوين فيها . فلما هاجت الحكومة وانصارها ضد هجومه وتقريعه ، وكتلت أغلبية من الاعضاء تنصرها عليه ، انسحب وانصاره من الاجتماع (وكانوا ٢٨ عضوا) ليبطل اجتماع الجمعية بغياب أكثر من ثلث أعضائها ، وبرر ذلك «انسحابنا كان لأننا أبينا أن يخالف القانون ضدنا» .

● وعرضت ميزانية الأوقاف على الجمعية ، فطعن ببطلان تكوين وزارة الاوقاف لأن الخديو كونها بغير استشارة الجمعية . واستغل الفرصة ليتكلم عن حدود سلطات الخديو . قيل له أن الخديو صاحب السلطة فأكد أن الجمعية - رغم ضعفها - شريكته في التشريع وأن الخديو لا يملك صفته كحاكم إلا باشتراك القوى التشريعية معه . قيل أن اختصاص الجمعية منحة ، فرفض قائلا أنه «ضمانه لحسن نظام واتقان العمل ومنع العبث بالمصالح» . وأنه إذا كان اختصاص الجمعية ضعيفا فهو أحق بأن يصان لا أن يعبث به . قيل له أن تكوين الوزارات

فى أوروبا يملكه رئيس الدولة وحده . فرد قائلا «عجبا لكم ! تستدلون بنظام ليس عندنا منه إلا شىء قليل ! أعطونا النظام بأكمله واستدلوا كما شئتم .... (هناك) لو أن الرئيس أصدر أمرا مخالفا لنظامهم لأسقطوه من عرشه» . وقيل له أن الخديو صاحب السلطة على الاوقاف بالذات ، فقال أنه يستمد سلطته عليها من القاضى الذى يعينه ناظرا . فقيل أن الخديو يملك عزل القاضى فلا يتصور أن يستمد منه سلطته ، فقال «يمكنكم أن تعزلوه بالقوة أما نحن الآن فإننا نتكلم بالقانون» . وكان لحديثه وقع عنيف على الحكومة فاتهمته بالاضرار بالبلاد والشعب، وتبرأ بعض الاعضاء من حديثه فقال أن المطالبة بالعدل واحترام الحقوق لا يضر بالدولة ، وأنه إن تكلم عن الخديو بحرية ، فهو مسئول عن كلامه. وكانت فى عباراته نبرة من التحدى لم تقع بهذه القوة من قبل فى سمع الخديو «أمير البلاد وولى النعم» .

● وفى مناقشة مشروع قانون الجمعيات التعاونية انتهز الفرصة للحديث عن سلطات الحكومة وحدودها وسلطة المحاكم وما تكفله من ضمانات ، وعن حرية تكوين الشركات والجمعيات . وكان حديثه تطبيقا مباشرا لمبدأين هما حرية تكوين الجمعيات ، ومبدأ الفصل بين السلطات وتوزيع الاختصاصات بين السلطة التنفيذية والسلطة القضائية ، وما يكفله ذلك من ضمانات للحرية . وهذا هو المبدأ الليبرالى العتيد فى تنظيم الدولة . ومما يستحق الالتفات ، أنه عارض أن يكون للحكومة سلطة حل الجمعية التعاونية ، وطالب بأن يترك ذلك

للمحاكم ، ووصف اقتراح الحكومة بأنه سلب للسلطة القضائية ، ولكنه في الوقت نفسه تشدد أكثر من الحكومة في الحرص على منع الجمعيات التعاونية من الاشتغال بالسياسة ، إذ كان اقتراح الحكومة يتعلق بمنع الجمعيات من الاشتغال بالسياسة «اشتغالا يضر بالأمن العام» فطالب أن تمنع من الاشتغال بها أصلا «سواء كانت سياسة مباحة أو ممنوعة» وكان هذا منه نظر حصيف باعتبار أن الجمعيات التعاونية مؤسسات اقتصادية ، وأن العمل السياسي وظيفة الحزب ، وباعتبار أن الضمانة الاساسية للجمعيات لا في أن تعمل بالسياسة ، ولكن في ألا تستبد الحكومة بتكوينها وحلها والا فقدت الجمعيات استقلالها وسيطرت عليها حكومة يسيطر عليها الاحتلال وحكم الخديو الاستبدادى ، كما أن جواز اشتغالها بالسياسة «المباحة» يعنى أن تتخذها الحكومة ركيزة لها فى العمل السياسى في الريف ، وباعتبار إن كان ما يسيطر على تفكير سعد هو فكرة توزيع السلطات والاجتزاء من السلطة التنفيذية «القوة» لصالح «الحق» . وهنا تبدو منه عقلية عملية تنظيمية لا ترى الامور إلا من خلال سياقها الواقعي . والحرية لديه تنظيم للعلاقات واقرار للضمانات الفعلية وتوزيع للاختصاصات والسلطات .

● وقد اقترحت الحكومة توسيع سلطة مجالس المديريات . فعارضها سعد كاشفا عما فى ذلك من التضليل بالديمقراطية ، لأن المجالس غير قادرة على الوقوف موقف المعارضة من رؤسائها المعينين ومن الحكومة . وجاء هذا القول منه دالا على ابتعاده بالنسبة

للديمقراطية عن أسلوب حزب الأمة القديم الذى كان يرى التدرج فى البناء الديمقراطى ، والبدء بمجالس المديريات وتوسعة اختصاصاتها تدريجيا ، كما جاء قوله يحمل ذات الابتعاد عن منهج الاصلاح الديمقراطى التدريجى الذى نادى به الشيخ محمد عبده .

يذكر الدكتور أبو طايلة أن سعدا جعل للجمعية على ضيق اختصاصها مقاما كمقام البرلمانات الكبرى . «وما بلغ ذلك إلا بارتكازه على رأى عام خارج الجمعية كان يردد صــــوته ويؤيده أصدق التأييد» «٤٩» . وذكر أحمد بهاء الدين أن انتصار سعد كان ساحقا خارج الجمعية ، وتعلقت به قلوب الناس ، وأنه لما اشتبك معه أحد الاعضاء امتلأت جدران الجمعية الخارجية فى اليوم التالى بالمنشورات السرية «٥٠» . وبهذا أصبح مع سعد الجمهور ، وأصبح ضده الخديو والانجليز ، إذ غاظهم بقسوة حملاته وإذ توقعوا الشر مما بدا فى الافق من ظهور زعامة وطنية جديدة تتجمع حولها الجماهير . وفكر كيتشنر قبل الحرب فى حل الجمعية أو إلغاء نظامها كله «٥١» .

قامت الحرب العالمية الأولى ، وأعلن الانجليز الحماية على مصر وعزلوا الخديو عباس وأحلوا محله السلطان حسين ثم السلطان فؤاد . وتشتت العمل الوطنى تحت ضغط قيود الحرب ، وامسك الانجليز سلطة

«٤٩» عبرات الشرق ص ١٩٢ .

«٥٠» أيام لها تاريخ ص ١١٤ – ص ١٧٤ .

«٥١» العقاد – المرجع السابق – ص ٢٣٩ .

الحكم المستبد كله فى أيديهم . وعانت العناصر السياسية من النفي والتشريد والاعتقال . وعانت جماهير الشعب من القمع والارهاب ، وانطلقت قوات الاحتلال فى المدن والريف تستولى على المحاصيل والدواب والأموال ، وتقتنص الشباب ترسلهم إلى جبهة القتال . وانكشف عمل الانجليز عن أسلوب فى الحكم هو الاشد قسوة وظلما ، وانكشف كذب دعاية الاحتلال عن استنارة الادارة البريطانية ، أمام اكثر العناصر تخلفا . ويمكن أن يتصور أثر هذا الوضع على الجماهير بعد أن تما وعيها السياسي وازدادت تماسكا ، كما يمكن أن يتصور أثر ذلك فى تفكير سعد زغلول الذى عرف بكراهته الاستبداد والحكم المطلق منذ ثورة عرابى وتلمذته على الاستاذ الامام . وإذا كانت سياسة الوفاق قد دقت اسفين الصراع المكشوف بين سعد والانجليز ، فلا شك أن اعلان الحماية واجراءات السلطة البريطانية خلال الحرب قد أبلغ هذا الصراع إلى قمته . وإذا كانت سياسة الوفاق قد قاربت بين هدفى الثورة وبين القوى الوطنية الديمقراطية ، فقد أدت الحماية إلى التحامهما معا .

ومن جهة أخرى ، فإن سعدا رغم زيادة اتصاله بالرأى العام منذ خروجه من الوزارة ودخوله الجمعية التشريعية ، فقد كان غير مدرك لكل الطاقات الكامنة لدى الجماهير . لذلك لم يكن جازما بمجيء الثورة ، ولكنه بملكة التصور العملي ، كان يدرك جازما أنه لابد لمجيئها من قارعة تشعل نيران الغضب ، وكان يرى أن الثورة عمل شاق فى بلد

أعزل موهن بالاعباء مشحون بالجند والسلاح والارصاد وأن مايفجرها «هو شعور الناس بالاختناق والتماسهم المنفس للجهر بآرائهم» «٥٢» . ولا شك أن الاستبداد البريطاني خلال الحرب قد ابلغ القلوب الحناجر ، وإن كان هذا منبئا بما يمكن أن يحدث بعدها .

ومن جهة ثالثة ، كان للمبادىء التى اعلنها الرئيس الامريكى ولسن قرب انتهاء الحرب عن حق الشعوب فى تقرير مصيرها ، صدى عميقا لدى الحركة الوطنية المصرية برمتها ، ولدى سعد أيضا ، وانطلقت محركات الامل فى تحقيق الاستقلال التام . واتفقت هذه المبادىء لدى سعد مع جملة من أفكاره التقليدية والمتحررة ، وصفها فى أول خطبة وطنية له بعد الحرب فى اجتماع انعقد بمنزل حمد الباسل ، بأنها تتفق مع الوصايا الدينية وقواعد الفلسفة والاخلاق وربط بينها وبين مبادىء الديمقراطية ، وأدرك مع غيره أن انتهاء الحرب ينبىء بظهور تناقض بين الدول الكبرى يمكن أن تستفيد منه الحركة الوطنية فى صراعها ضد الحماية البريطانية . وتربص مع غيره انتهاء الحرب .

على أنه من الناحية المقابلة ، خرجت بريطانيا من الحرب منتصرة مزهوة ، وبدت بالنصر قوية مهيمنة تعمل فى الميدان الدولى لتثبيت «سلام بريطانى» يسود العالم وتسود به العالم .

بهذا بدأت الخطوات الأولى حذرة متربصة ، تتحسس الطريق ،

«٥٢» العقاد – المرجع السابق – ص ١١٩ .

ظهر هذا في حديث سعد الشهير مع المعتمد البريطاني ونجت في١٣ نوفمبر ١٩١٨ غداة إعلان انتهاء الحرب . اذ طلب مع عبد العزيز فهمي وعلي شعراوى التصريح لهم بالسفر إلى بريطانيا للمباحثة في شأن استقلال مصر ، وذلك باسم المبادىء الحرة التى تنادى بها الامة البريطانية العظيمة ، وقال سعد له «لا نلتجىء هنا لسواك ، ولا في الخارج لغير رجال الدولة الانجليزية . «٥٢»، وتضمن هذا اشارة حذرة إلى امكان الاتصال بالدول الاخرى والخروج بالمسألة المصرية عن نطاق العلاقات الثنائية مع بريطانيا ، في وقت تعمل فيه هذه الدول على اقتسام غنائم الحرب ، وتتوقع فيه انجلترا أن تثور أمامها المشاكل في مؤتمر السلام . وأصر سعد على طلبه باسم التمسك بمبادىء الحرية الشخصية التى تمنع مصادرة حقه في التنقل. ولم يكن هو من السذاجة بحيث يؤمن بما يقوله للمعتمد البريطاني ، وما لبث أن أفصح عن قصده في خطبه اللاحقة وهو أن القصد من السفر عرض الموضوع على الرأى العام البريطاني ، إذ كان يأمل في ضغط حزب العمال على الحكومة هناك تأييدا لمطالب مصر ، كما كان المعروف أن القصد من السفر اثارة الموضوع في مؤتمر السلام واحراج بريطانيا والضغط عليها .

وما لبث الموقف أن تصاعد ، ويظهر من تتبع الاحداث أن سعدا ، كان يدفع الموقف إلى التأزم والتوتر متخذا خطة الهجوم ، وكثرت خطبه واتسمت بالحدة المتزايدة يعلن فيها أن الحماية «أمر باطل بطلانا أصليا

«٥٣» العقاد - المرجع السابق - ص ١١٩ .

أمـام القانون الدولى» ، وشـدد حـملتـه على الانجليز ، وكـان واعيـا بما يفعل ، فقد روى أنه قال : «أما أن يدعونا نسافر أو يقبضوا علينا . والا فهم يتركوننا نموت فى مواضعنا» «٥٤» . وكان ما شاء ، إذ اعتقل هو وبعض أصـحـابه ونفـوا فى ٨ مـارس١٩١٩ ، وكـان هذا شـرارة الثـورة التى انفجر بها لهيب الشعب فى ٩ مارس .

ليس من مهمة هذا البحث تتبع أحداث الثورة ، ولكنه محدود النطاق فى بيان الفكر السياسى لسعد زغلول ، ويصعب اجلاء هذا الفكر فى ظروف يندمج فيها الفرد كلية فى التيار الجارف لحركة الشعب الثائر . يصف تروتسكى العلاقة بين الفرد والثورة فى قوله «إن الناس ينفعلون انفعالا مختلفا اذا دغدغوا ، ولكنهم ينفعلون انفعالا متشابها إذا تعرضوا لحديدة محماة ، وكما تحول المطرقة البخارية المكعب والكرة على حد سواء إلى صحيفة معدنية ، هكذا تتسحق المقاومات وتضيع حدود الشخصية الفردية تحت ضربات الاحداث العظمى ذات القوة التى لا ترحم» .

والحديث عن المطالب الوطنية والديمقراطية للثورة ، أمر لا يمكن نسبته لسعد وحده ، إنما ينظر إلى مقالاته فى هذا الشأن كعنوان للثورة ومطالبها . وصلابته هى انعكاس لمدى صلابة الحركة الشعبية ، وما يعلنه من تنازلات ثانوية أو مرحلية ، انما يستجيب به إلى الامكانيات الموضوعية الداخلية والخارجية وحدودها ، بمعنى أنها

«٥٤» العقاد - المرجع السابق - ص ٢٢٢ .

أحداث وليست مجرد فكر سياسى . ويكفى القول أن سعدا كان خلال الثورة معبرا عن مطالب الجماهير وأهدافها وإلا ما أصبح زعيما لها . وأنه لم يفرض زعامته على الثورة وعلى الشعب، ولم يكن فى مقدوره أن يفعل ، ولكنه كان بناء سياسيا وشخصيا صالحا لأن يقف على رأس الجماهير فى حركتها ، ولأن تختار هى العمل تحت زعامته ، وأنه مع الاحداث كان مؤهلا لأن ينفتح على الحركة الشعبية ويستوعبها ، وأن ينفتح على التيارات الوطنية والديمقراطية المختلفة ، وأن يجعل الكتلة الكبيرة منها ترضى به وتلتقى عنده وأن يسلك سبيلا يراعى به جوانب الاتفاق فى الحركة الوطنية ، ويبلورها ويعبر عنها ، وألا يتراخى تراخيا تسبقه به الجماهير أو احدي كتلها الواسعة ، وألا يقفز بعيدا بما يقطع أواصر ارتباطه بها . وكانت الاحداث مع تكوينه السابق هما ما أهّلاه للزعامة ، وكان قبول الجماهير له - بالضرورة- اختيارا حرا لم يفرض عليها بضغط ولا بنفوذ مادى .

أما من جهة مسار الثورة وحركة الجماهير ، فهذا يتعلق بتقدير الامكانيات الموضوعية المتاحة وقتها . وهو أدخل فى التاريخ منه فى الفكر السياسى لزعيم . وبكلمة عامة فإن ثورة ١٩١٩ رفعت شعارات عن الاستقلال التام والديمقراطية ، كانت تتخطى الكثير من الشعارات الوطنية التي رفعتها حركات أخرى فى بلاد أخرى وقتها ، وكانت أكثر طموحا وأوضح أهدافا . كما كان كفاح مصر كفاحا رائدا افتتحت به حركات شعوب الشرق بعد الحرب الأولى ، وكانت تجربتها تجربة ذات

اشعاع والهام . فإذا كانت لم تحقق أهدافها كلها فى هذا الوقت ، فيكفى القول أن الاستعمار كان مستبدا بخمسة أسداس الكرة الارضية وقتها ، وأن لم يكتب الانتصار الحاسم لحركة وطنية أخرى خلال ذات الفترة . وأن مصر حققت بثورتها هذه - التى مضى عليها خمسون عاما الآن - الكثير من التقدم سواء فى علاقتها بالاستعمار أو فى بناء أسس الحياة الديمقراطية فى الداخل ، أو فى التطور الاقتصادى . وعلى قدر ما أنجزت الثورة يمكن أن يقدر دور زعيمها فى الظروف الموضوعية . وضمن السياق التاريخى العام لمصر والعالم .

وثمة نقاط أربع تتعلق بدور سعد زغلول فى هذه الفترة :

أولا : يظهر موقفه الشخصى ، عندما أعرض مؤتمر السلام والرئيس ولسن عن مناصرة مصر واعترفوا بالحماية عليها . وأدى هذا إلى جنوح معظم رجال الوفد وقتها ممن يمثلون كبار ملاك الارض إلى مهادنة الانجليز ، والتمهيد لتسوية الخلاف معهم ، على أن سعدا قفزت عيناه من الخارج إلى الثورة الملتهبة فى مصر . ولم ييأس من فشل مساعيه الدولية ، ولكنه ارتد إلى مصادر القوة الذاتية للحركة الوطنية ، وهى حركة الشعب . وبقى متشددا فى موقفه ، يدير المعركة فى مصر من باريس ضد الانجليز ، وضد من تخلوا عن الثورة من زملائه ، وصاروا من اعدائها . وقد شهد چورچ لويد المندوب السامى البريطانى بمصر فيما بعد فى كتابه «مصر بعد كرومر» بأن إعراض الجماعة الدولية عن مناصرة مصر لم ينجح إلا فى اقناع سعد بأن المعركة

تجرى فى الأرض المصرية لا فى غيرها . واستغل فرصة وجوده بالخارج ووجود جماعة المنشقين معه بعيدا عن مصر ، فى أن يحكم اتصاله بالوفد فى مصر عن طريق عبد الرحمن فهمي ومصطفى النحاس وغيرهما من الشباب ، وأن يعزل هؤلاء المنشقين عن الحزب العامل في البلاد ويكشف مناوراتهم . ويجنب الحركة الشعبية أثر تهادنهم ، ويقطع صلاتهم بالحزب ، حتى إذا خرجوا بعد ذلك خرجوا أفرادا لم يمس خروجهم كيان الحزب ولا يمس وحدة الحركة الشعبية .

كما يلاحظ من خطبه بعد ذلك ، أنه كان ينظر للمسألة الوطنية فى ارتباطها بالديمقراطية ، وكانت شروط التفاوض التى يتقدم بها دائما تتضمن اعلان الاستقلال التام عن الانجليز ، والغاء الاحكام العرفية فى الداخل ، وعرض نتيجة المفاوضة على الشعب قبل اقرارها . فسر الاستقلال مرة بقوله أنه يعنى «خروج الانجليزمن البلاد وحكمها بأهلها دون غيرهم» «٥٥» ، وهذا شعار «مصر للمصريين» العتيد ، وبهذا كان الاستقلال والديمقراطية ، كل منهما هدف للآخر ووسيلة .

ثانيا : سبقت الاشارة إلى حديث سعد عن التناقض بين «القوة» و«الحق» ، قوة الحكومة وحق الشعب . وقد ردد ذات الكلمة فى ثورة ١٩١٩ فى بيان أرسله لمصر من الخارج ، فقال فى «قوتهم» ارغامنا على النظام الذى يريدون ، وأن تعترف به الدول الاخرى ، ولكن «حقنا لا

«٥٥» مجموعة خطب سعد باشا زغلول الحديثة . ص ٨٧ .

يضيع بهذا الارغام ولا بهذا الاعتراف» . ويظهر بهذا تصور سعد عن «الحق الاعزل» ، «القوة الظالمة» ، ويصور هذا طابع الكفاح «السلمى المشروع» والتحدى الذى تقابله الحركة الشعبية غير المسلحة أمام استبداد يمسك السلاح . وكانت مصر تعج بالمظاهرات من أقصاها إلى أقصاها والاستعمار والحكومات الرجعية تفرغ الرصاص في صدور المناضلين . على أن الثورة بقيت رغم ذلك واستمر اندفاع الجماهير فى المطالبة بحقها ، فصارت صيغة الصراع بين الحق والقوة صيغة نضالية مفعمة بالثقة في ظهور الحق ، وشاعت عن سعد عبارة أصبحت من شعارات الوفد التي يكثر ترديدها «الحق فوق القوة والامة فوق الحكومة» ، ولم يقصد سعد الواقعى بأولوية الحق هذه ، أن للحق قيمة تفترض انتصاره فى ذاته دون سعى ، ولم يدع إلى التواكل انتظارا لنصر يأتى وحده . ولكنه كان يفرغ فيه معنى عمليا واضحا فى حدود ما يراه من امكانيات متاحة ، وفى حدود الكفاح السلمى المشروع . ذكر فى رسالته السابقة أن ما يعنيه من أن الحق لن يضيع «أن نبقى مطالبين به ساعين إليه» : وأن نجتهد فى تلمس ما يكون موجودا وما يظهر مستقبلا من ثغرات فى جبهة الخصم ، كالصراعات بين الدول ، وصراعات الشعوب ضد حكوماتها ، وأن نعمل على أن تبقى جبهة الثورة متشددة مستمسكة ليعلم الجميع «أن مصر متحدة تمام الاتحاد على الوصول إلى استقلالها التام» . بهذا يؤكد حرصه على الاستفادة من ضعف جبهة الاعداء ، وعلى ضم الصفوف حتى لا يتيح للأعداء

الاستفادة من الخلافات فى صفوف الثورة ، ومن هنا كان تركيزه على الاتحاد .

ومن ناحية أخرى ، بدت القيمة النضالية لمفهوم «الحق» و «القوة» فى ظروف الكفاح السلمى المشروع . فى العمل الدائب على تجريد الحكومة والاستعمار من أية شرعية تستر وجودهما ، وتعريتهما من أى تبرير معنوى يمكن به للجماهير أن تسيغ هذا الوجود ، والحفاظ على الوعى متيقظا وعلى الروح الوطنية والديمقراطية نقية غير مستعمرة ولا مستعبدة ، وعندما ينجح فى تجريد الحاكم من كل قيمة معنوية ، تصبح قوته قوة عارية صماء ، ويظهر بمظهر العدوان السافر وتبدو سلطته جرما بحتا ، وكان قمة ما وصل إليه هذا الامر أثناء الثورة ، هو ارتفاع شعار المقاومة السلبية وعدم التعاون مع سلطة الاحتلال . فبقيت مصر فترات لا يجرؤ أحد أن يتولى حكومتها ، وانتشرت المقاومة السلبية انتشارا وجدت به سلطة الاحتلال نفسها حكومة بغير محكومين . وكان مؤدى هذا الأسلوب ، أنه إذا كان الحق يحتاج إلى القوة التى تنصره ، فإن القوة تحتاج إلى الحق الذى يبررها أو إلى مجرد مظهره . وإذا لم يمكن للتحرك الشعبى الاعزل أن يطيح بالسلطة البريطانية المسلحة الحاكمة ، فهو قادر على هجرها سلميا بأن ينسحب البلد كله من تحتها. وبهذا بلغ الكفاح السلمى قمته النضالية والثورية وقتها .

تجسد هذا الأسلوب فى شعارات تنادى كل مصرى ألا يتعامل مع أى انجليزى ، فلا يشترك مصرى فى الوزارة ولا يتلقى الموظف أمرا من

رئيس انجليزى ، ولا يتعامل المصرى مع بنك ، أو شركة ، أو متجر أو مصنع أو باخرة انجليزية .. وكان هذا ما استشاط به الانجليز غضبا فأوسعوا من حركة الاعتقالات ثم سارعوا فى تقديم ما يمكنهم من تنازلات تحفظ وجـــودهم المهدد ، وأصدروا تصـــــريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ . ويقال أن غاندى في الهند استوحى هذه التجربة المصرية وبلورها فى أسلوبه المعروف الذى أصبح علامة على الكفاح الهندى ضد الانجليز . ويبدو أن الوفد كان يدرك صعوبة هذا الاسلوب فيما يتطلبه لنجاحه من تعبئة شاملة ومن اتحاد شعبى ووطنى يبلغ أوسع نطاق . ويبدو أن كان لذلك تأثيره فى تصميم الوفد على فكرة الاتحاد وضم الصفوف ، والنأى بالحركة الشعبية عن أى نقطة يمكن أن تكون إثارتها مفرقة للجمع الكبير .

ثالثا : يذكر كرومر فى كتابه «*مصر الحديثة*» ، أن مصر بلد دولى ، وأن الحكم الذاتى فيها ينبغى أن يراعى مصالح الطوائف المختلفة من سكانها المسلمين والمسيحيين والاوروبيين والاسيويين والافريقيين . وأن خلق حكم ذاتى فى مصر قادر على مراعاة هذه المصالح المتباينة قد يحتاج إلى سنين أو أجيال «٥٦» ، وقرب انتهاء الحرب أعد المندوب السامى البريطانى «ونجت» مشروعا للنظام النيابى يعتمد على التمثيل النسبى للطوائف فى المجلس التشريعى . والخطير فى ذلك أن السياسة

«٥٦» Cromar - Moden Egypt - P. 568 - 9II

الانجليزية كانت تتعمد تجاهل الانتماء المصرى لدى الشعب ، وإن تفتتت وحدته بتصويره طوائف منفصلة . والتفكير منطقى ، فإذا أراد أجنبى أن يحكم بلدا حكما دائما ، فعليه أن يحول هذا البلد إلى «أجانب» أى إلى تجمعات أجنبية عن بعضهـــا ، يذوب هو فيها ويطمس أغترابه عنها ويستطيع بذلك أن يمسك زمام الامور بضرب الشعب بعضه فى بعض .

وخلال السنوات العشر السابقة على ١٩١٩ عمل الانجليز بنشاط على الايقاع بين المسلمين والاقباط ، واستغلوا مقتل بطرس غالى رئيس الوزراء الذى اغتاله شاب وطنى بسبب خيانته لبلاده وتعاونه مع الانجليز ، واستعملوا فى هذا الخلاف صنائع لهم من الجانبين . واستمروا مصرين على هذه السياسة بما ضمنوه تصريح ٢٨ فبراير من تحفظ على استقلال مصر يتعلق بحماية بريطانيا للاقليات فيها . وكان لسعد فى هذه النقطة جهد واضح لتوحيد صفوف الامة . وقد أدرك بمصريته ، أواصر الارتباط الوثيق بين المسلمين والاقباط ، واستعداد الشعب بعنصريه على الامتزاج الكامل ، ورأى الشيوخ والقساوسة يغشون متكاتفين المساجد والكنائس ، ويتقدمون المظاهرات، فجهد فى تأكيد هذا المعنى وتعميقه . حدث أثناء جمع التوكيلات للوفد ، أنه لم يلحظ وجود قبطى بين أعضائه فبادر بضم واصف غالى ، ثم انضم إلى الوفد سينوت حنا ومكرم عبيد وويصا واصف ، وكان لهم نشاط كبير . وكان سعد يعتبر مكرما ابنا له . فلما عين الانجليز يوسف

وهبه رئيسا للوزارة تحديا لشعار المقاطعة وافسادا لوحدة الشعب ، رد الوفد بتعيين مرقص حنا رئيسا للجنة الوفد . وذهب عبد الرحمن فهمى إلى الكنيسة يعلن أنه إذا كان بين القبط خائن فبين المسلمين ست خونة هم الوزراء الذين قبلوا العمل معه ، وتطوع شاب قبطى شرع فى اغتيال يوسف وهبه ، واثناء معركة الانتخابات سنة ١٩٢٣ كان سعد يؤكد على «الاتحاد المقدس بين الصليب والهلال» ويوصى الجماهير قائلا «احذروا هذه الدسيسة واعلموا أن ليس هناك اقباط ومسلمون ، ليس هناك إلا مصريون فقط . ومن يسمونهم اقباطا كانوا ولا يزالون انصارا لهذه النهضة وقد ضحوا كما ضحيتم .. فاحسوا التراب فى وجوه أولئك الدساسين .. ولولا وطنية فى الاقباط واخلاص شديد لتقبلوا دعوة الاجنبى لحمايتهم وكانوا يفوزون بالجاه والمناصب بدل النفى والاعتقال، ولكنهم فضلوا أن يكونوا مصريين معذبين محرومين من المناصب والجاه والمصالح يسامون الخسف ويذوقون الموت والظلم على أن يكونوا محميين باعدائهم واعدائكم .. «٥٧» ولما ألّف الوزارة سنة ١٩٢٤ اختار فيها وزيرين قبطيين ، وعلق على ذلك بان ليس ثمة تمثيل نسبى للاقباط «٥٨» . فالكل مصريون ، وأن الانجليز لم يلتزموا النسبة العددية عندما اطلقوا الرصاص على المظاهرات ولم يفرقوا بين مسلم وقبطى ، ولم يلتزموها عندما نفوا قادة الوفد . إذ نفى قبطيان وأربعة مسلمين .

«٥٧» مجموعة الخطب - المرجع السابق ص ١٣ - ١٤ .

«٥٨» انظر وثائق الطليعة عن ثورة ١٩١٩ .

ومن جهة ثانية ، كان مما يعوق الوحدة الوطنية ، ما سبق أن لاحظه محمد عبده من صدع حضارى بين القديم والجديد فى التعليم وفى المؤسسات الاجتماعية والفكرية . وليس لسعد كتابات فى هذا الشأن . وقد سبقت الاشارة إلى سياسته التعليمية التى استوحى فيها فكر محمد عبده فى اصلاح هذه الحال . على أنه خلال الثورة كان بشخصيته هو من عوامل التجميع بين الاتجاهات والتيارات الثقافية المختلفة . فهو ريفى لم تنقطع صلته بالريف حتى وفاته ، وازهرى حفظ القرآن فى الكتاب ودرس علوم الدين فى الازهر وتتلمذ على الافغانى ومحمد عبده ، ولكنه حضرى درس فى حياته الفكر الحديث ونهل منه ، ومارس تطبيق القوانين الوضعية واتصل بالبيئات المختلفة ، واكتسب القدرة على مخاطبة كل نمط فكرى وتفهمه . وهو من ناحية أخرى شيخ تمتد ذاكرته السياسية إلى ثورة عرابى ، ولكنه استطاع أن يفلت فى سن الستين من وهن الشيخوخة واثرها المحافظ على تفكيره ، كما استطاع أن يفلت من قبل من محنة جيله الموئسية بعد احتلال مصر . وادرك فى هذه السن أن الشباب هم مصدر قوة الثورة ، وقف بين الطلبة فى ١٩٢٣ وهو فى السادسة والستين يقول «اتخيل كأنى عدت إلى الصبا ، وعادت إلى صدرى حماسته فاستسهل كل صعب واستهين بكل خطب وألبى كل صوت يدعو إلى التقدم والارتقاء» «٥٩» . وبهذا كان سعد شخصية مجمعة تقف على المشارف وعند ملتقى الخطوط .

«٥٩» مجموعة الخطب – المرجع السابق ص ٩١ .

رابعا : كان فكر سعد يقف عند حدود الحركة الوطنية الدستورية . انطبع تفكيره بهذه الحدود ، وحرص ايضا خلال الثورة ألا يتجاوزها حرصا منه فيما يرى على الوحدة الوطنية وتجنبا لكل ما يثير الاختلاف. «إن الامة المصرية ليس لها إلا مبدء واحد اتفقت كلمتها عليه ، وهو مبدأ الاستقلال لمصر والسودان . وليس لها إلا برنامج واحد هو الذي سبقت الاشارة إليه ، وإلا هيئة واحدة وثقت بها كل الثقة فى تنفيذ هذا البرنامج ، وهي هيئة الوفد المصرى ..» «٦٠» ، ومن هنا كان مفهومه للوفد انه ليس حزبا ولكنه وكيل عن الأمة فى المطالبة بالاستقلال «نقول نحن لسنا بحزب وانما نحن وفد موكل عن الامة يعبر عن ارادتها فى موضوع عينته لنا وهو الاستقلال التام . فنحن نسعى لهذه الغاية وحدها ، واني أعدكم إن شاء الله أنى عند بلوغها اتنحى عن العمل فلا ترونى أعمل ولا تسمعونى أتكلم .. اما المسائل الداخلية .. فهذه مسائل أترك الامر فيها لمن هو أعرف مني بها .. وأما ما يتعلق بالاستقلال فنحن أمة لا حزب ومن يقول أننا حزب يطلب الاستقلال يكون مجرما . لأن هذا يدل على أن في الامة حزبا أو أحزابا أخرى لا تريد الاستقلال» «٦١» .

يذكر العقاد تلخيصا لدور سعد زغلول :

«إذا استطاع هذا الزعيم أن يبث هذا الروح أو يوقظه أو يجمعه

«٦٠» مجموعة الخطب ص ٨٩ .

«٦١» مجموعة الخطب ص ٢٧ – ٢٨ .

حـواليه فكل مـا تنشـئه الامـة وهـى مـأخـوذة بهـذا الروح فـهـو من عـمله وصنع يديه . أمـا إذا كـان عـمله كله هو مـا يعـمله بنفـسـه ويرسـم عليـه طابع يديه فمـا هـو بزعيم . وسعد زغلول قد بعث فى مصـر هـذا الروح ، أو هو قد ايقظه أو هـو قـد جـمـعـه حـواليه . فكل مـا نـهضـت به الأمة من الاشتغال بالصناعـات أو مصـارف الأموال أو شركـات التجارة أو معاهد التعليم أو مـجامـع السياسـة ممـا لـم يكن فـيـهـا قبل تلك النهضـة ، فـفـيـه سـهم لا ينكر لزعـامة سـعد زغلول . هـذه الزعامة هـى التى التقى حولها المصـريون فـعلموا أنـهم أمة . وعلموا أنـهم مـسلمـون ومـسـيحـيون ولكنهم أمـة . وأنهم رجـال ونسـاء ولكنهم أمة ، وأنـهم شيب وشـبان ولكنهم أمـة ، وأنهم حضـريون وريفيون ولكنهم أمة ، فـانبعـثت للأمـة حيـاة مـاثلة إلى جانب حياة كل فرد وكل طبقة وكل طائفة وكل جنس وكل دين ..»

الحمد لله

تعليق
أبو سيف يوسف

١ – يقدم طارق البشرى تحت هذا العنوان احدى المحاولات الجادة والجديدة فى هذا الموضوع ، وهو فى دراسته هذه يمسك بمفاتيح رئيسية :

– فهو يحدد الأصل الطبقي لسعد زغلول (الطبقة الوسطى من الملاك الزراعيين) .

– ويحدد أن سعدا مع ذلك مثقف ينتمى إلى طليعة المثقفين المعبرين عن الطبقة الوسطى الصاعدة .

– ويحدد الكاتب وضع سعد داخل الحركة الوطنية ، فيشير إلى أنه جسر بين ثورتين : الثورة العرابية ، وثورة ١٩١٩.

– ثم يحدد المكونات الرئيسية لفكره كمثقف مصرى تلقى العلم فى الكتاب والازهر وتأثر بقوة بفكر محمد عبده كما تأثر بالفكر الليبرالى – فكر البرجوازية الاوربية – خصوصا بافكار الثورة الفرنسية .

٢ – واعتمادا على هذه المفاتيح الرئيسية يتفادى طارق البشرى – إلى حد ملحوظ الوقوع فى براثن المنهج الذاتى فى الكتابة عن الشخصيات التاريخية . هذا المنهج الذى يعزل الشخصية عن المجتمع والطبقة والايديولوجية السائدة ، وما يترتب على هذا – بالضرورة – من

** نشر هذا التعليق من الاستاذ أبو سيف يوسف فى ذات عدد مجلة الطليعة الذى نشر فيه البحث فى مارس سنة ١٩٦٩ .

تضخم المزايا ، أو تضخيم الاخطاء والعيوب ، ونحن نعلم أن هذا المنهج الذاتى قد ساد بين عدد من المؤرخين والكتاب . فحاول بعضهم أن يرسم صورة اسطورية لسعد كبطل من أبطال الاساطير . فى حين حاول البعض الآخر أن ينالوا من مكانته فى تاريخنا القومى كقائد سياسى وزعيم وطنى ولدته الحركة الوطنية التى استأنفت النهوض بعد هزيمة الثورة العرابية .

٣ – ولابد أن نعترف بأن ثمة صعوبات جمة تواجه كل من يحاول أن ينهج فى كتابة التاريخ القومى نهجا موضوعيا «أى علميا» فالظاهرة التاريخية بطبعها معقدة أشد التعقيد . وفى مجال دراسة الشخصيات : القادة والمفكرين .. إلخ تبدو هذه الصعوبة على الوجه التالى : وهى أن فكر هذه الشخصية له – بشكل عام – جانبان :

– جانب ذاتى من حيث أن هذا الفكر نتاج ذات ، أو فرد له صفاته النوعية .

– وجانب موضوعى ، من حيث أن هذا الفكر يظهر فى مجتمع معين ويستخدم تصورات انضجها هذا المجتمع .

وتكمن الصعوبة هنا فى توضيح العلاقة الجدلية بين هذين الجانبين .

٤ – وأمام هذه الصعوبة قد يجنح الدارسون فى العادة إلى أحد اتجاهين : اتجاه يضع افكار الشخص محل الدراسة خارج نطاق القوانين العامة للمجتمع . وهذا ما حاول أن يتجنبه طارق البشرى فى

دراسته . واتجاه آخر يتمثل فى العمل على استخلاص محتوى فكر الشخص بكيفية آلية أو شبه آلية من المجتمع ومن الظروف المحيطة . واخشى أن هذا ما نجده فى دراسة طارق . فتحت تأثير الحكم العام الذى انتهى إليه الكاتب من أن سعدا لم يكن مفكرا صاحب نظرية ولا داعية سياسيا ولكنه كان رجل دولة وضع فكر سعد فى اطار صارم لا يكاد يتجاوزه ، أو يضيف إليه ، وهو فكر الاستاذ الامام محمد عبده . ولكن إذا اتفقنا مع طارق على أن الاستاذ الامام كان رائدا لسعد ، وإذا اتفقنا معه - مرة أخرى - على الفرق بين محمد عبده وبين سعد زغلول هو الفرق بين الداعية أو المفكر وبين السياسى أو رجل الدولة ، إلا أنه يصعب - مع ذلك - وفقا للضرورة التاريخية أن نتصور أن سعدا الذى قاد ثورة ١٩١٩ وتجمعت حوله الامة لم تكن له أفكاره الخاصة واجتهاداته عن أهم القضايا التى طرحتها الحركة الوطنية فى عصره .

وتحت تأثير هذه النظرة الالية فى التفاعل بين سعد وبين المؤثرات المحيطة به يجد الكاتب نفسه مرة أخرى أمام صعوبة التعرف على ملامح فكر سعد إبان انفجار ثورة ١٩١٩ . وفى هذا يقول «أنه يصعب اجلاء هذا الفكر فى ظروف يندمج فيها الفرد كلية فى التيار الجارف لحركة الشعب الثائر !» .

والواقع أنه يصعب علينا أن نسلم مع طارق بهذا المنطق :

أولا : لأن سعدا لم يكن مجرد فرد فى ثورة : لم يكن مجرد

فلاح فقير أو عامل أو مجرد مثقف عادى : أو مالك يتحرك على أرض ثورة ١٩١٩ . بل كان سعد قائد الثورة ، فيه صفات أهلته لهذه القيادة .

وثانيا : لأن سعداً كقائد لهذه الثورة ينتمى إلى طبقة صاعدة هى الطبقة الوسطى ، وكان لها النفوذ الغالب فى صياغة شعارات الثورة وفى تحديد مسارها . وسعد على هذا يقع تحت نفوذ هذه الطبقة وتحت تأثير حزبها ، ولكنه يقع أيضا - خصوصا اثناء اشتداد المد الثورى - تحت تأثير الجماهير الواسعة من الشعب الكادح . فهو يتعرض - والحال كذلك - لمؤثرات متناقضة ومتصارعة تنعكس على فكره وعلى مواقفه العملية . وهذا يفسر بشكل عام - التناقض بين مواقفه (الراديكالية) عند تعاظم حركة الجماهير ، وبين مواقف المهادنة أو الوفاق ضد حالة انحسار الهبة الثورية . ففى الحالة الأولى كان يلقى «الخطب الحادة» ويدعو إلى مواقف متشددة ضد الانجليز ، وفى الحالة الثانية كان يبدى ميلا إلى مهادنتهم على اساس أن بين البلدين «مصالح مشتركة» لا يصعب التوفيق بينها .

ولكن كيف كان سعد يحل هذه التناقضات ؟ بين ضغوط الاستعمار والاقطاع من ناحية وبين ضغوط حركة الجماهير الكادحة من عمال وفلاحين من ناحية أخرى . كان سعد يحل هذه التناقضات بالسعى إلى دعم مراكز الطبقة الوسطى فى الحكم والادارة عاملا باستمرار على وضع حركة الجماهير تحت الوصاية حتى لا تخرج عن قيادة

الوفد «٦٢» . والواقع أن دراسة طارق البشرى تقدم لنا مثلا واضحا عن مفهوم سعد للحرية والديمقراطية ، هنا يتمثل الجانب التقدمى فى فكر سعد فى أنه يضع الحرية والديمقراطية في مقابل التصورات والمؤسسات الاقطاعية المتخلفة المتمثلة فى نظام الحكم والادارة والتعليم والموقف الاجتماعى من تحرير المرأة . ولكن مفهوم سعد عن الحرية والديمقراطية كانت له أيضا جوانبه المحافظة . فالحرية عنده وعند قيادة ثورة ١٩١٩ لم تكن أصلا ثورة زراعية أو اصلاحا زراعيا يحرر فقراء الفلاحين ويلغى السخرة ولم تكن دعوة للفلاحين والعمال إلى أن ينظموا انفسهم ويقوموا بمبادرات للدفاع عن مصالحهم . وانتهت الحرية والديمقراطية إلى أن تكون فى فكر سعد « نظاما للحقوق والواجبات» وشعارات مجردة عن «النظام العام» تصوغها الطبقة المتوسطة للدفاع عن مصالحها الأساسية .

وما يقال عن التناقض القائم فى فكر سعد زغلول عن الحرية والديمقراطية يقال أيضا عن التناقضات المرتبطة بأفكاره عن الامة والحزب ، والاستقلال .. إلخ .

٥ – من هنا ، ومما تقدم نفضل عند دراسة فكر شخصية تاريخية

«٦٢» يقول فولاد يكن ، وهو أحد الكتاب الشبان الذين مجدوا سعد زغلول ، وذلك فى كتاب نشره فى باريس عام ١٩٢٧ ، تحت عنوان (ابو الشعب المصرى سعد زغلول) أنه إذا كان سعد قد استطاع خلال اللحظات التاريخية أن يستنفر الجماهير ، فإنه عرف كيف يهدئها ويدعوها إلى النظام كلما اقتضت ذلك مصلحة البلاد . وأن مظاهرات كثيرة من ١٩١٩ – ١٩٢١ تفرقت بناء على كلمة منه .

كسعد زغلول أن تبدأ الخطوة الأولى فى منهج الدراسة بعملية تحليل داخلى لفكره . وهدف هذا التحليل هو أن نحدد المشكلات النوعية التى واجهت سعد فى مجتمع معين وفى زمن معين لنصل إلى تحديد التناقضات الرئيسية فى فكره ، لنحدد الجوانب التقدمية والجوانب المحافظة وبعد هذا تأتى الخطوة الثانية وهى تقييم هذه التناقضات على ضوء الاتجاهات الاساسية السائدة فى المجتمع . ثم تأتى الخطوة الثالثة وهى تأصيل هذا الفكر . وتحديد نسبته إلى التيارات الفكرية السائدة ومدى استجابته للمتطلبات الجديدة لحركة المجتمع . ونحن نعلم أن الكاتب قد اهتم بالخطوتين الثانية والثالثة . لكن عدم الالتفات إلى إبراز التناقضات الرئيسية فى فكر سعد زغلول هو الذى يفسر وجود الاختلاف الواضح فى المنهج بين كتابة الجزء الرئيسى من الدراسة وبين خاتمة الدراسة ، هذه الخاتمة التى تبدأ بادماج فكر سعد «فى التيار الجارف لحركة الشعب الثائر». بل أن هذا يفسر لنا أيضا كيف أن خاتمة الدراسة قد شابتها بالفعل نظرة مثالية . كقول الكاتب بأن سعدا «كان مؤهلا لأن ينفتح على الحركة الشعبية ويستوعبها وأن ينفتح على التيارات الوطنية والديمقراطية المختلفة » وواضح اننا لا نستطيع بحال أن نقول أن سعدا قد انفتح على التيارات الديمقراطية المعبرة عن مصالح الكادحين فى مصر .

أكثر من هذا ، قد لا نستطيع أن نقول أن فكر سعد (حتى أثناء تعاظم مد الثورة الوطنية) كان يندمج كلية فى الشعب . والمثل

الذى نقدمه هو النداء الذى أرسله سعد زغلول بتوقيعه إلى البرلمان الفرنسى عام ١٩١٩ . وهذا النداء وثيقة حقيقية تسجل المواقف الاساسية للبرجوازية المصرية من القضية الوطنية ... وهكذا نقرأ فيها :

- أن مصر كانت تريد أن تحارب إلى جانب الحلفاء فى مقابل الاعتراف باستقلال مصر .

- وأنه من الظلم أن توضع مصر على قدم المساواة مع بعض البلدان العربية التى كانت تابعة للسلطة العثمانية ، لأن مصر فضلا عن أنها أكثر تحضرا وأكثر تطورا من النواحى الاقتصادية والاجتماعية ، قد فتحت بعض هذه الولايات لحساب تركيا ، كما أنها فتحت البعض الآخر لحسابها خلال حروب ١٨٣٢ - ١٨٣٩» .

- وأن اللغة الفرنسية «قد أصبحت بين عائلاتنا أشبه بلغة قومية ثانية . وباللغة الفرنسية تعبر النخبة الممتازة عن نفسها» .

واضح أذن أن هذا الفكر لا يعبر عن مجموع الشعب ولا يندمج فيه، ولكنه فكر الطبقة الوسطى بكل معاني الكلمة .

وأخيرا فإذا كانت هذه الملاحظات لا تنقص من الدراسة القيمة التى قدمها طارق البشرى ، فليس هدفها أيضا أن تنال من مكانة ثورة ١٩١٩ كإحدى الثورات الوطنية الكبرى فى عشرينات القرن الحالى ، ولا أن تنال من مكانة سعد زغلول كقائد يعتز تاريخنا الوطنى بما قدمه لبلاده .

هل نحاكم الماضى بمعايير الحاضر ؟*

كتب الاستاذ ابو سيف يوسف تعليقا على مقال «سعد زغلول .. وفكره السياسى» الذى نشرته لى الطليعة فى ذات العدد . ولى على هذا التعليق عدة ملاحظات :

أولا : رأى الاستاذ ابو سيف أن المقال وضع فكر سعد زغلول فى اطار صارم من فكر الاستاذ الامام محمد عبده لا يكاد يتجاوزه والصحيح - كما يبدو - أن المقال عنى باظهار الصلة الفكرية بين سعد واستاذه من خلال علاقتهما وكتابات بعض المعاصرين لهما ، ثم من خلال الاستعراض للتوافق بين مواقفهما السياسية مدة حياة الامام ، والتوافق بين الفكر السياسى الذى دعا إليه محمد عبده ومواقف سعد زغلول . وكان هذا محاولة لتكشف العمق الفكرى لسعد زغلول بوصله بأقرب تيار فكرى له ، وذلك فى ظروف لم يحفظ التاريخ لنا منها نصوصا تحدد السمات الشخصية لفكر سعد بما يميزه عن اتجاه الاستاذ الامام رغم الاتفاق الاساسى بينهما الذى شهد به معاصروهما والذى يظهر من متابعة مواقفهما السياسية والفكرية . وقد جهد المقال ألا ينقل إلى القارىء حكما مجردا ، وحاول أن يشير فى أى مناسبة إلى أقوال محمد عبده وأقوال سعد زغلول أو مواقفه ، ليضع أمام القارىء

«*» تعقيب من كاتب المقال على تعليق الاستاذ أبو سيف يوسف ، وقد نشر التعقيب فى مجلة الطليعة فى عدد ابريل سنة ١٩٦٩.

صورة عن الموضوع ، وليكون القارىء هو من يقرر ، هل ما يفترضه المقال من تشابه بين فكر الرجلين صحيح مشهود به أم غير صحيح أم يعوزه الدليل ، وما مدى التشابه بينهما .

ومن جهة ثانية ، يبدو أن «التعليق» لم يلحظ أنه بعد وفاة الشيخ محمد عبده ، تطور فكر سعد زغلول إلى ما يجاوز فكر الامام وفكره هو نفسه من قبل ، وذلك بعد خوضه تجربة الاشتراك فى الوزارة وزيرا للمعارف ، وبعد تبنى الانجليز سياسة الوفاق مع الخديو ، وازداد هذا التجاوز لفكر الامام وضوحا مع زيادة التقارب بين الانجليز والخديو ، وبلغ قمته باستقالة سعد وبمواقفه فى الجمعية التشريعية ثم بفرض الحماية البريطانية على مصر . ويبدو لى أن المقال لم يكن غامضا فى تتبعه لهذا الخط ، وقد ذكر المقال أن محمد عبده توفى «قبل أن يعلم أن الوجود الانجليزى هو سند حكم الخديو الاستبدادى رغم الاختلافات الثانوية ، وهو العائق ضد تمصير مؤسسات الحكم وتطويرها ديمقراطيا ولو بالاسلوب التدريجى ..» (ص ٤١) كما ذكر أن محمد عبده الذى لاحظ الانقسام فى المجتمع بين المؤسسات التقليدية والحديثة فى الفكر والتعليم «لم يلحظ أن علاج هذا الأمر مهمة سياسية خليقة بأن تلقى معارضة كل من السلطتين الشرعية (الخديو) والفعلية (الانجليز) » (ص ٤٨) وأن سعدا الوزير فى سعيه لاصلاح التعليم حسب مبادىء الامام وجد المقاومة من السلطتين ، ويظهر من السياق أن هذين القولين هما من تجارب سعد زغلول فى حياته السياسية بعد وفاة الامام ، وانها تجارب خطت بفكر سعد إلى ما يجاوز استاذه . ثم ذكر

المقال ، من مواقف سعد في الجمعية التشريعية اعتراضه على توسيع سلطة مجالس المديريات باعتبارها تضليلا بالديمقراطية ، وإن كان موقفه هذا «يحمل ذات الابعاد عن منهج الاصلاح الديمقراطي التدريجي الذي نادى به الشيخ محمد عبده» . (ص ٥٢) . ويظهر بهذا جميعه أن سعدا تخطى الشيخ محمد عبده بالنسبة للموقف من الانجليز وبالنسبة للاصلاح الاجتماعي وبالنسبة لمبدأ الاصلاح التدريجي ذاته . وبهذا يبدو من المقال - على عكس ما يذكر التعليق - أن سعدا الذي قاد ثورة ١٩١٩ كانت له «افكاره الخاصة ، واجتهاداته عن أهم القضايا التي طرحتها الحركة الوطنية في عصره» . وهي ما حاول المقال أن يلخصه في النقاط الأربع الواردة بآخره .

ثانيا : اقتطف «التعليق» من المقال عبارة عن دور سعد في ثورة ١٩١٩ هي أنه «كان مؤهلا لأن ينفتح على الحركة الشعبية ويستوعبها وأن ينفتح على التيارات الوطنية والديمقراطية المختلفة» . وفهم من هذه العبارة أن المقال يقصد أن سعدا انفتح على التيارات المعبرة عن مصالح الكادحين في مصر ، أي على الفكر الاشتراكي فيما يراه التعليق . والحقيقة أن هذا الفهم غير دقيق ، وأن العبارة السابقة قد اقتطفت بشكل مبتسر ، وقد تلاها في المقال مباشرة « .. وأن يجعل الكتلة الكبيرة منها ترضى به وتلتقي عنده وأن يسلك سبيلا يراعي به جوانب الاتفاق في الحركة الوطنية ويبلورها ويعبر عنها ..» واتصال العبارة ، يظهر المعنى الذي قصدته في المقال ، وهو عكس ما فهمه

التعليق . والمقصود بانفتاح سعد على التيارات المختلفة ، لا يعنى أنه يتبناها كلها على اختلافاتها ، ولكن أنه يدخلها جميعا فى حساباته السياسية مراعيا جوانب الاتفاق بينها ليبقي على الكتلة الكبيرة من الجماهير تجمعها حول مطلبى الاستقلال والحرية ، حذر أن يؤدى الخلاف إلى تشتتها . وهذا مسلك أى زعيم ذى إصالة وفهم يحرص فى سياسته العملية على أن يكون قوة مجمعة ، يحرص على أن يركز على اضعف الحلقات وأن يحشد لها كل ما يمكن من طاقة . وإذا كان من «المثالية» القول بان سعدا كان يتبني الفكر الاشتراكى ، فإن هذا القول لم يرد بالمقال ، إنما ما ورد به هو معنى عملي محدد على ما سبقت الاشارة .

ثالثا : بعد ذكر ما تقدم ، تظل هناك النقطة الاساسية ، وهى الخلاف بين «المقال» و «التعليق» حول تقدير ثورة ١٩١٩ ، وهل كان المطلوب تاريخيا منها أن تنادى بالثورة الزراعية وبتحرير فقراء الفلاحين ، أم أن ذلك كان يخرج عن حدود الممكنات التاريخية المتاحة فى ذلك الوقت . ويبدو لى أنه من المثالية اتهام ثورة ١٩١٩ بتقصيرها فى هذا الجانب ، وأنه نوع من محاكمة الماضى بمعايير الحاضر مع اختلاف الظروف التاريخية . ويصعب أن نجد حركة وطنية قامت فى ذات الفترة منادية بالثورة الزراعية . بل يصعب أن نجد حركة وطنية أخرى قامت وقتها ونجحت ضد الاستعمار نجاحا حاسما ، أو رفعت شعارات وطنية تتجاوز الشعارات التى رفعتها ثورة مصر . وحتى الحركات الشيوعية التى قامت وقتها فى البلاد المستعمرة والتابعة

وطالبت بالثورة الزراعية فى إطار الحركة الوطنية الديمقراطية ، لم تستطع أن تظفر بنصر حاسم الا فى بعضها ، وكان هذا قبل الحرب العالمية الثانية . وحتى بعد الحرب العالمية الثانية وجدت حركات وطنية أصيلة اكدت على جانب الاستقلال وحده ، ولم تنتقل إلى غيره في المجال الاجتماعى إلا بعد تحقيقه ، كما حدث فى الجزائر مثلا . وثورة شعب فلسطين اليوم تكتسب أصالتها الثورية من حرصها على ألا تشتت جهودها فى غير ما يفيد معركة التحرير الوطني من قضايا المستقبل الاجتماعية . وإذا كانت حجة هذه الثورات المعاصرة أنها تواجه عدوانا شرسا يهدد الوجود القومى أو البشرى للشعب ، فحجة ثورة ١٩١٩ أنها حدثت منذ خمسين عاما فى ظروف سيادة الاستعمار فى العالم وضعف النمو الصناعي والحضارى فى الداخل وغير ذلك من العوامل .

ومن جهة ثانية ، لم تطالب الثورة بالغاء الامتيازات الاجنبية فورا ، رغم قيام الشواهد الدالة على حرص قادتها على الغاء هذه الامتيازات مستقبلا باعتبار أن الغاءها صنو الاستقلال . وكان عدم المطالبة بالغائها فورا ، أساسه الحرص على عدم تأليب الدول الكبرى ، وعلى محاولة الاستفادة من الصراعات بينها وبين بريطانيا ، وكان هذا في وقتها موقفا سليما . فإذا كان ذلك هو الوضع القائم حينئذ ، فهل كان من الممكن تاريخيا وقتها المناداة بالثورة الزراعية وضرب كبار الملاك المصريين ، فى وقت لا تستطيع فيه الحركة الوطنية أن تلغى امتيازات

الأجانب حتى بغير المساس بأموالهم ومؤسساتهم العاملة فى الاقتصاد المصرى ؟

وإذا استفتينا خبرتنا التاريخية ، لوجدنا أن الغاء الامتيازات بدأ سنة ١٩٣٧ ، وتم سنة ١٩٤٩ . ولم يبدأ الاصلاح الزراعى إلا سنة ١٩٥٢ . وأنه بعد ١٩٥٢ كانت تصفية المصالح الاجنبية وتأميم المؤسسات الصناعية ، أجنبية كانت أو مصرية ، كانت أكثر حسما وأقل تعقيدا من انجاز الثورة الزراعية . فهل مع هذا يمكن القول بأن ثورة ١٩١٩ ، بأى معيار من المعايير كانت مطالبة باجراء الثورة الزراعية .

إن لثورة ١٩١٩ انجاز ديمقراطى هام . رغم ما فرض عليه من قيود، فإنه اتاح للشعب قدرا من الحرية احتضن نموه الاجتماعى والفكرى . ويكفى فى هذا أن يقارن بين أسلوب حياة المصريين بعدها وبين أسلوب حياتهم قبلها فى عهد الولاة والخديويين ، وعهد العثمانيين والمساليك ، تكفى هذه المقارنة ليظهر كم كان انجازها زخرا ديمقراطيا . وثورة ١٩١٩ أيضا أقامت الجماعة المصرية على أساس من الوحدة الوطنية ورمت الخلافات الطائفية بعيدا . وهذا مكسب قد لا نلتفت إلى أهميته اليوم ، لأننا ننعم به وننهل من عينه آمنين أنها عين لن تغيض ، ولو كان هذا فقط ما انجزته الثورة لكفى به مغنما .

على أن هذه الأمور جميعا ، لا تكفى فيها كلمة من هنا وكلمتين من

هناك ، انما تحتاج إلى الدراسة الجادة الهادئة ، الصبور لسائر الظروف والملابسات .

أما وما وصف به التعليق المقال من الاستخلاص «الآلى» أو «شبه الآلى» لأفكار سعد زغلول من الظروف ، فهذا أمر ينبغى أن يترك الرأى فيه للقارىء ، لأنه يستحيل على الشخص أن يقيم عمل نفسه .



مصطفى النحاس

المذكرات التى أعدها وحررها عنه محمد كامل البنا

* دراسة أعدت عن المذكرات التى أعدها محمد كامل البنا عن مصطفى النحاس .

مقدمة

(١)

مصطفى النحاس ...

كان زعيم مصر على مدى الربع الثانى من القرن العشرين ، من أغسطس ١٩٢٧ عندما خلف سعد زغلول فى رئاسة «الوفد المصرى» تنظيم ثورة ١٩١٩ والحركة الوطنية والديمقراطية ، وذلك حتى ثورة يولية ١٩٥٢ .

وصفه مكرم عبيد مرة بقوله : «رجل مد إلى الامام صدره كأنه يرى فى عيني فكره عدوا يتحداه ولا يخشى خطره..» ، وهذه الصورة هى عين الانطباعة التى التقطها عنه السير مايلز لامبسون المندوب السامى البريطانى ، وأثبتها فى مذكراته عن أول لقاء له به فى حفل بدار المندوب السامى فى ١٩٣٥ ، رجل يمشى بصدره كأنه يتحدى . ونحن الذين تفتح ادراكنا السياسى فى الاربعينات ومع نهايات الحرب العالمية الثانية فى ١٩٤٥ أدركناه زعيما غير منازع أو شبه غير منازع ، وهو يقف صنوا وندا لأعلى رأس رسمى في البلاد ، الملك فاروق ، وكانت لا تزال فيه بقية من صمود وتحد ، ختم بها حياته السياسية بالغاء المعاهدة المصرية البريطانية المعقودة فى ١٩٣٦ .

هو مصطفى ابن الشيخ محمد ابن الشيخ سالم النحاس ، ولد فى

١٥ يونيه ١٨٧٩ قبيل الاحتلال البريطاني لمصر في ١٨٨٢ وشب وعاش في عهد الاحتلال ، وولد في بلدة سمنود وهي مدينة صغيرة من أعمال محافظة الغربية في وسط الدلتا إلى الشمال الشرقي ، يقال إنه لم يكن يزيد سكانها على اثنى عشر ألفا ، منهم خمسمائة قبطي وعشرون أجنبيا . وولد لأب تاجر أخشاب متوسط الحال ، وكان مصطفى واحدا من سبعة أخوة ومن ستة أشقاء منهم ، وفي الأشقاء أخت واحدة .

تعلم في الكُتَّاب مادة الكتاتيب ، حفظ القرآن وتعلم الكتابة والحساب ، ثم دفعه أبوه صبيا إلى مكتب البرق في المدينة ليكتسب هذه المهنة ، وأغرى ذكاؤه أحد كبراء البلدة أن يقنع أباه بأن يسلكه في تعليم المدارس ، وأن يسعى ليدخله مدرسة «الناصرية» بالقاهرة ، القسم الداخلي ، وهي مدرسة أبناء الذوات ، كما أكسبه تفوقه في التعليم مجانية التعليم ، فجاز من المدرسة الناصرية إلى المدرسة الخديوية الثانوية إلى مدرسة الحقوق ، وتخرج فيها عام ١٩٠٠ ، وكان ترتيبه الأول على خريجي هذه السنة .

اشتغل بالمحاماة في المنصورة ثلاث سنوات ، ثم عين قاضيا ، وأمضى في قنا وأسوان بالصعيد ست سنوات ، ثم نقل إلى ميت غمر جنوبي المنصورة ، ثم قاضيا بمحكمة عابدين بالقاهرة ، ثم رئيس دائرة بمحكمة طنطا . ثم إخرج من القضاء لاشتغاله بالثورة لما شبت في ١٩١٩ ، بمدة كلية في القضاء خمسة عشر عاما قضاها من يناير

١٩٠٤ إلى يوليه ١٩١٩ ، وكان أعزب يسكن فى حى شبرا مع أخته يكفل أولادها .

- اتصل بالحزب الوطنى وكان عضوا نشيطا بنادى المدارس العليا الذى انشىء فى ١٩٠٥ ، وقيل أنه صار وكيلا للنادى ، ولكن من كتبوا عنه أثناء حياته لم يريدوا أن يعتنوا كثيرا بهذه الفترة ولا بصلته المبكرة بالحزب الوطنى ، نظرا للخصومة السياسية التى قامت من بعد بين رجال الحزب الوطنى وبين الوفد ، والنحاس فى العشرينات إلى الأربعينات من عمره ، قبل الحرب الأولى وأثناءها كان على اتصال بمجموعات من أهل جيله السياسيين للنظر فى مستقبل مصر - وبدأوا بعد الحرب يتحركون ويتصلون بكبار الشخصيات وعلى رأسهم سعد زغلول ، ويبدو أنه كان لهؤلاء شبكة اتصالات منظمة عرفوا بها أن وفدا يتشكل يزمع السفر للخارج لعرض قضية استقلال مصر على المنتديات الدولية ، وعرفوا أن اجتماعات سعد وأصحابه لتشكيل هذا الوفد تتابعها عيون الحكم البريطانى وأن اجتماعاتهم السرية فى بيت سعد تراقب ، وأبلغت هذه المجموعات سعدا وأصحابه بذلك .

وبعد أن تشكل الوفد فى ١٩١٨ ضم سعد إلى الوفد من هذا الشباب مصطفى النحاس وحافظ عفيفى ، ثم عين سعد مصطفى النحاس سكرتيرا عاما للوفد .

وكان عمر مصطفى النحاس منذ ولد فى ١٨٧٩ حتى ابتعد عن

السياسة كلية في ١٩٥٢ ، هو عمر الاحتلال البريطاني في مصر ، من أول ما دخلها العسكر البريطانية في ١٨٨٢ حتى غادرها آخر جندي بريطاني في ١٩٥٦ ، بفارق ثلاث سنوات في كل من البداية والنهاية .

وتاريخ مصر في عهد الاحتلال البريطاني يمكن أن ينقسم إلى مرحلتين متميزتين ، تفرق بينهما ثورة ١٩١٩ .

عصر مصطفى النحاس
(٢)

اختلف احتلال مصر عن احتلال كثير غيرها فى زمانها من بلاد المستعمرات . وعندما دخل العسكر البريطانية القاهرة فى سبتمبر ١٨٨٢ ، وجدوا بها دولة تتكون من مجلس الوزراء وبرلمان منتخب ، ومن وزارات ومصالح وإدارات ، ومن جيش نظامى حديث ، بنى على عهد محمد على وخاض معارك تاريخية فى العشرينات والثلاثينات من القرن ذاته ، ثم صفى فى الأربعينات ، ثم أعيد بناؤه على عهد اسماعيل فى الستينات ، وحارب فى الحبشة وأعالى النيل ، كما وجدوا بها شرطة نظامية وتقسيمات ادارية ومديريات ومراكز وأقسام ونظم إدارة محلية ومجالس بلدية وإقليمية ، وبيروقراطية حديثة تمسك أزمة الأمور ونظم تعليم وقضاء قديمة وحديثة ، هى دولة تكامل بناؤها على مدى ثلاثة أرباع القرن ، فصارت موطدة الأركان مدعومة البنيان .

ووجدوا بها شعبا على درجة عالية من التوحد ، تدور فيه دعوات النهوض والارتقاء من عشرات السنين السابقة ، وتختمر فيه تجارب الاصلاح والبناء المؤسسى ، وتقوده نخب سياسية واجتماعية ذات خبرة

وذات أفق واسع ونظر دقيق ، كما وجدوا بها عناصر ما كون الثورة العرابية التى جمعت جيشا وشعبا وخاضت حربا وثورة ، وهى أن كانت هزمت أمام جيش الانجليز ، فقد كان هزمها الاقتحام العسكرى لجيش غاز لواحدة من أقوى دول الأرض ، والنصر العسكرى للجيش الغازى هو أيسر الخطوات ، وبعده تبدأ المحنة وتبدأ المهمة الصعبة ، مهمة التمكن من الحكم والسيطرة على المجتمع وتوطىء الأكتاف ، وكل ذلك لا تجدى فيه كثيرا قوة الجيش الغازى ، وكل ذلك يجتمع فيه للمصريين عدد من العناصر والقدرات السابق ذكرها مما يصعب تجاهله على من يريد (من حكومات الانجليز) استدامة سيطرته على هذا المجتمع .

ومن جهة ثانية ، فقد أوجبت الأوضاع الدولية على الانجليز ألا يسفروا عن حقيقة نواياهم البقاء فى مصر ، ومن بداية القرن التاسع عشر كانت الدول الأوروبية الكبرى على تنافس على مصر ، وخاصة بريطانيا وفرنسا ، وكانت مصر جزءاً من المسألة الشرقية التى عرفتها السياسة الأوروبية فى ذلك القرن ، بمعنى التنافس الأوروبى على إرث ممتلكات الدولة العثمانية ، وتدخل فى ذلك روسيا والنمسا مع بريطانيا وفرنسا ، ومصر فريسة أكبر من أن تختطف فجأة وتلتهم فى يسر ، وحجمها وموقعها بين بلدان المسألة الشرقية ، هو حجم وموقع لا يسهل تجاهله فى الموازين السياسية بين القوى المتنافسة ، والانجليز بما اشتهر عنهم فى «اقتصاديات السياسة» ،

بقدر ما تعنيهم السيطرة على مصر ، يعنيهم ألا يؤدوا عنها ثمنا غاليا من مصالحهم ، سواء فى مصر أو غيرها من جهات العالم .

لكل ذلك كانت نقطة البداية في السياسة البريطانية أن يدخلوا مصر بدعوة من الخديو لإقرار الأمن والنظام ، وأن يبقوا فيها باسم الشرعية المستفادة من استبقاء الخديو لهم ولذلك فإن من يتابع هياكل الحكم المصرى قبيل الاحتلال وعقيب حدوثه ، دون أن يضع واقعة الاحتلال فى حسبانه ، يكاد يظن أن التعديلات فى تلك الهياكل وفى تغيير الوزارات تجرى برتابة الأحداث اليومية ، من وزارة محمد شريف إلى وزارة محمود سامي البارودى (الثورة وتصاعدها) إلى وزارة رياض إلى وزارة نوبار (الخديو والاحتلال) ، ورياض ونوبار حكما قبل الاحتلال أيضا وشريف حكم بعد الاحتلال كذلك ، بما يؤكد التداخل بين المرحلتين .

وآل الوضع إلى أن هزمت ثورة عرابى وصفى الجيش المصرى وألغى الدستور ، وانتقلت مصر إلى الحوزة البريطانية ، ولكن بقيت هياكل الحكم وقنواته كما لو أن تغييرا طفيفا لحقها ، الخديو يقف بسلطته التقليدية يشكل مجلس وزراء يتألف من رئيس وأعضاء مصريين كلهم ، ويقوم بتسيير أجهزة الإدارة والأمن بواسطة موظفين مصريين كلهم ، وبجوار هذا الجهاز هيئتان شبه نيابيتين استشاريتان تتشكلان بالتعيين والانتخاب من المصريين وحدهم ، ويمتد الحكم إلى الأقاليم بأجهزة المديريات والمحافظات والمجالس البلدية والمديرية ،

ويصل إلى القرى بالعمد والمشايخ والخفراء ، وكل ذلك يتكون بمادة مصرية صرف . وأما جيش الاحتلال البريطاني فهو موجود باستدعاء الخديو له ، وأما الجهاز السياسي البريطاني فهو يعمل من خلال القنصل العام البريطاني الذى لا يزيد وضعه الرسمي عن غيره من القناصل .

وخلال السنوات الأولى أمكن تحقيق السيطرة على أجهزة الحكم المصرية بواسطة شبكة من المستشارين البريطانيين عينوا بالوزارات المصرية ، يقدمون الخبرة والنصح دون أن يكون لأى منهم اتخاذ القرار ، الذى بقي في يد الرئيس أو الوزير المصرى ، وسدت الفجوة بين النصيحة والقرار أو بين الخبرة والسلطة ، سدت بما اسمي «بالنصائح الملزمة» ، ولم تتخذ أية خطوة كيفية لتغيير هذا الوضع إلا في ١٩١٤ عندما سمحت الأوضاع الدولية بفرض الحماية البريطانية على مصر ، وألجأت ظروف الحرب إلى اتخاذ هذا الوضع .

لا أريد أن أطيل أكثر من ذلك ، وحسبى أن أوضح أمرين مما سبق ذكره : -

أولهما :

ما ارتكن عليه النظام فى هذه المرحلة من ١٨٨٢ إلى ١٩١٩ مما سمي فى لغة سياسة العصر وقتها ؛ السلطة الشرعية والسلطة الفعلية ، الخديو والوزارة والجهاز المصرى من جهة ، والمعتمد البريطانى (القنصل) والجيش البريطاني والمستشارين الانجليز من جهة ثانية ،

سلطة اتخاذ القرارات المصرية من جهة ، ومكنة اصدار النصيحة الملزمة البريطانية من جهة أخرى ، القرار المصرى والارادة البريطانية . هذه هى الثنائية التى سادت في النصف الأول من عصر الاحتلال البريطانى لمصر .. هذا هو طابعه المميز نشير إليه لينظر القارىء من بعد فيما آلت إليه الأوضاع خلال النصف الأخير من عصر الاحتلال بعد ثورة ١٩١٩ .

ثانيهما :

كان الهيكل الحكومى العام مصريا وكانت أجهزة النشاط التنفيذى وقنوات تدفق المعلومات وإمضاء السياسات ، كل ذلك بقى مصريا فى عمومه ، ولم يكن كل ذلك يتصل بالسلطة الفعلية البريطانية إلا من خلال قنوات تحويل اصطناعية تتعلق بمكاتب المستشارين البريطانيين (أصحاب النصائح الملزمة) وببعض المناصب الكبرى فى قمة الجيش والشرطة وبعض وكلاء الوزارات .

ويمكن تصور أنه مع درجات الحرارة العالية ، أو تحت ضغط أقوى من المعتاد ، يمكن أن يذوب اللحام بين تلك الشريحة الانجليزية وبين الجهاز الحكومى المصرى ، وهذا احتمال ما كان يتأتى إلا من طريقين ، الطريق الأول هو الخديو وصاحب السلطة الشرعية من الناحية التنظيمية على جهاز الحكم ، إذا استطاع أن يدير صراعا يستثمر فيه الأوضاع الخارجية والعلاقة بالدولة العثمانية والتوازنات الأوروبية ، ويستثمر فيه القوى السياسية الداخلية ، وهذا ما حاوله الخديو عباس

حلمي فى بدايات القرن العشرين ولم يوفق فيه ، لأن التوازنات الأوروبية أفلتت منه باتفاق انجلترا مع فرنسا ثم روسيا منذ ١٩٠٤ تقريبا ، ولأن الدولة العثمانية فضلا عن ضعفها فقد إنتكست سياساتها بدخول حرب التتريك (الاتحاد والتركى) إلى الحكم فى ١٩٠٨ ، ولأن القوى الداخلية كانت أضعف من أن تحمل وحدها مع الخديو جهة التصدى .

أما الطريق الثانى ، فهو ما أنبأت عنه أحداث ثورة ١٩١٩ ، وهو أن تصير النخب السياسية إلى قدر من النضج فى فهم أوضاع السياسات الراهنة بعد التحولات العريضة التى جرت فى الداخل والخارج ، وأن تكون مؤيدة بحركة شعبية تصل إلى مشارف الإجماع ، وبلوغ مشارف الإجماع هنا مسألة مهمة لأننا نتكلم عن جهاز دولة يراد له بنزوع تلقائى أن يعدل من مألوف سيره ، وجهاز الدولة أو أى جهاز مؤسسىّ آخر «تعتبر الشرعية» هى في الصميم من تشكله الهيكلي وتكوينه المؤسسى ، وهو إن فقدها فقد تناثر اشلاء أو تساقط بعضه على بعضه ركاما ، الشرعية هى ما تصوغه جهازا بقنوات وأدوات عمل وشبكات ، والتحريك الشرعى يأتيه من أعلى من الوجهة التنظيمية في صورة قرارات ، والتحرك التلقائى له لتعديل أوضاعه ، مادام لا يأتيه من مصادر الشرعية التنظيمية ، فلابد أن يرد من حركة مدٍّ شعبى جماهيرى عريض يبلغ مشارف الاجماع ، ليقوم به الشعور العام باستدعاء اصل الشرعية العليا

المستمدة من وجود الجماعة ومن أصل الانتماء لها وأصل مصدريتها للشرعية التنظيمية .

هذا ما صنعته ثورة ١٩١٩ ، وترتب عليه أن ذاب اللحام بين جهاز الحكومة المصرى وبين قنوات التحويل إلى السلطات البريطانية ، ورغم فرض الحماية البريطانية على مصر ووجود حاكم عسكرى بريطانى ، ووجود الجيش البريطانى فى خدمة سلطة الحكم العرفى البريطانى التى قامت منذ ١٩١٤ ، فإن اللورد اللنبى المندوب السامى البريطانى قد اعترف صراحة فى مراسلاته مع حكومته بان «الحكومة صارت مستحيلة» فى ربيع ١٩١٩. لأن السلطة البريطانية كانت صارت معزولة عن قنوات تدفق المعلومات وامضاء قرارات التنفيذ من خلال الجهاز المصرى .

وكان للنخبة السياسية التى تصدت للأمر كله وقتها ، كان لها من سلامة الفطرة حُسْنِ التفهم لأوضاع الواقع وشدة الالتصاق بالوجدان العام ، كان لها من ذلك ما امكنها أن تحكم تصرفها الملائم ، فاختارت على قمة ممثليها من هم أعضاء فى الجمعية التشريعية التى تشكلت بالانتخاب قبل الحرب واوقفت سلطة الانتداب البريطانى عملها ، وفيهم وزراء سابقون وقوم من وجوه المجتمع ، ثم قاموا بحركة التوكيلات الشهيرة التى صارت بمثابة استفتاء شعبى «حقوقى» يمنحهم الصفة التمثيلية ، وهكذا احاطت بهم «سمة الدولة» وانسبغ عليهم سمت من سمات الشرعية ، فى التعبير عن الجماعة فى عمومها .

أنا لا ابتعد عن الحديث عن مصطفى النحاس ، لأن كل ما ذكرته آنفاً هو فى ظنى اقتراب من صميم الموضوع ، لأنى بما ذكرت آنفا اقتربت من الحديث عن «الوفد المصرى» كما صاغته الأحداث وكما تصوره ذووه ومؤسسوه .

(٣)

أسفرت ثورة ١٩١٩ عن عناصر ثلاثة كانت هى القوائم الرئيسية للنظام الذى انبنى فى مصر فى المرحلة الثانية والأخيرة من عصر الاحتلال البريطانى لمصر ، وهى المرحلة التى امتدت نحو الثلاثين عاما من بدايات العشرينات . هذه العناصر الثلاثة هى ، تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ بوصفه صيغة تتضمن التعديل الذى امكن بلوغه فى العلاقات المصرية البريطانية ، ودستور ١٩٢٣ ، بوصفه يتضمن الصيغة التى أمكن الوصول إليها لنظام الحكم فى مصر ، ونشوء الوفد المصرى كهيئة اهلية تنشط لاستثمار أكثر ما يمكن استثماره من الصيغتين السابقتين ، أى بوصفه أحد طرفى الصراع القائم فى إطار الصيغتين السابقتين ، والطرف الآخر فى الصيغة الأولى هو الانجليز ، والطرف الآخر فى الصيغة الثانية هو الملك . ونحن نشير إلى كل من هذه العناصر فى إجمال .

بالنسبة للعنصر الأول : فقد صدر تصريح ٢٨ فبراير من طرف الحكومة البريطانية وحدها وتضمن ثلاثة مبادىء ، الأول هو انتهاء الحماية البريطانية على مصر والاعتراف بمصر دولة مستقلة ذات

سيادة ، والثانى الغاء الاحكام العرفية التى ضربتها السلطة البريطانية على مصر فى ٢ نوفمبر ١٩١٤ وذلك فور صدور القانون المصرى الذى يعفى السلطات البريطانية من تبعة أى اجراء تكون اتخذته بموجب سلطة الحكم العرفى ، والثالث أن الحكومة البريطانية تتحفظ على هذا التصريح من أربعة جوانب تكون مجالا لاتفاق لاحق :

- تأمين مواصلات الامبراطورية البريطانية فى مصر .
- الدفاع عن مصر من أى اعتداء اجنبى أو تدخل بالذات أو بالواسطة .
- حماية المصالح الاجنبية فى مصر وحماية الأقليات .
- السودان .

صدر التصريح البريطانى ليتفادى وضعا صارت فيه حكومتهم مصر مستحيلة ما بقي الوضع على ما هو عليه ، وكان جهد البريطانيين منذ أتت لجنة ملنر إلى مصر لتنظر فى أوضاع الثورة ، كان جهدهم أنهم صاروا على استعداد لأن يعترفوا باستقلال مصر الرسمى فى مقابل أن يحصلوا على شرعية الاعتراف المصرى بمصالحهم فى مصر، وهى المصالح التى تدور حول النقاط الأربع التى بينها التصريح السابق، وهذا ما صرح به كيرزون الوزير البريطانى لعدلى يكن رئيس وزراء مصر فى مفاوضاتهما الفاشلة قبل التصريح . وكان الجديد فى تصريح ٢٨ فبراير أنه لما تعذر الحصول على الرضاء المصرى الوطنى على ما عرضه البريطانيون ، عمل الانجليز على إصدار تصريحهم من

طرف واحد بالتحفظات ، وذلك كصيغة يمكن بها فرض أمر واقع جديد على المصريين ، لذلك فقد أعطى التصريح ، وتحفظ وأطلق وقرر ورمى بانصاف المعانى ، فصار صيغة للصراع السياسى المستقبل بين الانجليز ومن يواليهم من المصريين وبين أنصار الحركة الوطنية المصرية .

وإذا كان سعد زغلول زعيم الحركة الوطنية ، والوفد من ورائه ، رفض التصريح واسماه نكبة وطنية كبرى ، ووصفه بقوله «كمن يقول لآخر أنى أعطيتك ألفا إلا ألف» .. اذا كان ذلك فإن الوفد فى الحقيقة تعامل مع الواقع الذى نشأ بالتصريح ، سواء من حيث الأوضاع الداخلية أو من حيث العلاقة مع الانجليز بعد ذلك . وكان الإنكار الشرعى الرسمى للتصريح والتعامل الفعلى به ، كان ذلك وجها من وجوه الصراع بين الطرفين صراعا محكوما بصيغة التصريح وعناصره .

ثم جاءت بعد ذلك معاهدة ١٩٣٦ بين مصر وبريطانيا ، وبها قبلت بريطانيا التنازل عن بعض ما تدعيه من هيمنة واشراف على الشئون المصرية فيما يتصل بنقاط تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ ، وقبلت صيغة للاتفاق تقوم بها علاقتها بمصر على أساس مبدأ المساواة والند للند، وأن تتنازل عن أن يكون لممثلها فى مصر مركز ممتاز ليصير سفيرا كغيره من السفراء من الوجهة الرسمية ، وقبلت أن تنسحب قواتها فى زمن السلم من أراضى مصر كلها عدا منطقة القناة ، وذلك

مقـابل الاعتـراف المصــرى بشرعية الوجود العسكرى البريطانى على أرض مصر واشـــتراك مصر معها فى أى اشتباك مسلح أو تهديد بحرب كبرى يجرى مســتقبلا بين بريطانيا وغيرها . وهذه المعـاهدة نفسها كانت فى نصوصـــها وأحكامها صيغة من صـيغ الصراع بين الطرفين حــول مدى ما يمكن أن يستفيد كل طرف من الاخر ، ومــدى ما يمكنه أن يحفظه لنفســه من مصــالح فى مواجهة الطرف الآخر .

وعلى مــدى هذه الحقبة من الأعوام الثلاثين التى تلت ثورة ١٩١٩ ، جـرت مفـاوضـات ومـباحـثـات بين مـصـر وبريطـانيـا حـول عناصـر الاسـتـقلال المصــرى وعناصر الوجــود البريطـانى ، وذلك فى ١٩٢٤ بين سـعـد زغلول ومــاكدونالدس ، وفى ١٩٢٨ بين عـبدالخـالق ثروت وتشميران ، وفى ١٩٢٩ بين محمد محمــود وهنــدرسون ، وفى ١٩٣٠ بين مصطفى النحــاس وهندرســون ، وفى ١٩٣٢ بين اسماعيل صدقى وسيمون ، وفى ١٩٣٦ التى أدت إلى معــاهدة وقعها مصطفى النحاس وأيدن ، وفى ١٩٤٦ بين اســمـاعـيل صـدقى وبيـفن ، وفى ١٩٥١ بين مـصطفى النحـاس والقــائد البـريطانى ، وذلك حـتى ألغى مـصطفى النحاس معاهدة ١٩٣٦ من الطرف المصرى وحده فى ٨ اكتوبر ١٩٥١ . وعاد الوجــود البريطــانى من جـديد وجـودا غير شرعى ، عودا على بدء .

كل ذلك كان يدور حـول الهدف الأول للحـركة الوطنيـة المصرية وهو الاستقلال السياسى .

(٤)

وبالنسبة للعنصر الثانى ، فإن الثابت أن تصريح ٢٨ فبراير واعداد الدستور قد صدرا وتقررا فى عملية سياسية واحدة بين الاحرار الدستوريين ، جناح المعتدلين الذين انشقوا من الوفد ، وبين الانجليز ، وما أن صدر التصريح فى عهد وزارة الاحرار حتى جرى تشكيل لجنة لوضع الدستور ، صدر بها مرسوم ملكى ، وألفها الملك والاحرار ، والحاصل هنا أن صدور تصريح ٢٨ فبراير بما قرره من اعتراف باستقلال مصر والتحفظات الانجليزية إنما أحال إلى مفاوضات تجرى بين الطرفين المصرى والبريطانى ، ومن هنا تظهر مسألة الدستور كمسألة متضمنة فى صميم مسألة الاستقلال ، ذلك لأن النظام الذى يوضع لحكم البلاد هو الذى عليه المعول فى تحديد الهيئة الحاكمة التى ستقوم من موقعها الشرعى الرسمى والتمثيلى بمفاوضة الانجليز والاتفاق معهم .

وأن تصريح ٢٨ فبراير كصيغة صراع حول ما تضمن من حقوق ومصالح متقابلة ، إنما يجد تحدده الأمثل ، اقرارا بحقوق المصريين أو تسليما بمصالح البريطانيين ، وفقا لما يسفر عنه نظام الحكم وحسب نوع الحكومة التى ستتولى النيابة الرسمية عن الجانب المصرى ، ومن ثم فإن ما نجح فيه التصريح تماما هو أن عملية الصراع المصرى البريطانى قد تحولت بهذا التصريح إلى عملية صراع داخلى بين الوفد وبين الملك والأحرار بوصفهم الطرفين المتقابلين فى

حكم البلاد ، وصار هذا الصراع الداخلي متضمنا ولصيقا بالصراع الخارجي .

لقد صدق عبد العزيز فهمى (وكان أحد الثلاثة الذين بدأ بهم الوفد ثم انشق عن الوفد وصار قطبا للمعتدلين ثم رئيسا لحزب الاحرار) صدق عندما وصف دستور ١٩٢٣ بأنه «تعاقد» بين الملك والأمة ، ووجه الصدق فى ذلك أن الدستور كان اتفاقا بين طرفين ، ما يأخذه أحدهما يجيء من حساب الآخر ، فهو لم يكن اتفاق مصالحة بقدر ما كان صيغة لتنظيم الصراع المستقبل بين هذين الطرفين ، ومن هذا المنطلق رسمت هياكل السلطات الدستورية على محورين ، محور يمثله الملك كصاحب سلطة فردية ، ومحور آخر يمثله البرلمان كسلطة نيابية تمثل الأمة .

وباختصار شديد ، كان الملك يعين خمس أعضاء مجلس الشيوخ ، وله أن يحل مجلس النواب الذى يشكل كله بالانتخاب ، وله أن يعين الموظفين والضباط ويعزلهم ، وكذلك رؤساء الهيئات الدينية .. أما مجلس النواب (المحور الآخر) فهو يسقط الوزارة التى تعين بمرسوم ملكى ، ويسائلها عن تصرفات الملك ... والوزارة المشمولة بتأييد مجلس النواب هى من يستعمل الملك سلطته بواسطتها ، وهى من يوقع معه فى جميع شئون الدولة ، ومنها ولا شك تعيين الموظفين والضباط وعزلهم ، ومجلس النواب والشيوخ هما من يصدر القوانين .

وبمعنى آخر فقد خول الدستور الملك عددا من السلطات ، ثم وازنها بأن خول مجلسيّ البرلمان والوزارة المؤيدة منهما امكانية احتواء سلطة الملك واستيعاب إرادته ، وترك الدستور للمستقبل وللتوازنات السياسية وصراعاتها المستقبلة أن تحسم هذه القضية ، أى من الجهتين يمكنها أن تستوعب الأخرى ، وكان تاريخ الأعوام الثلاثين التالية هو تاريخ الصراع حول بنود هذه المسألة وعناصرها ، ودارت المعارك السياسية سجالا يتبادل فيها النصر والهزيمة لكل من الجانبين.

كان الملك يستند فى ممارسته سلطاته على نفوذ يأتيه من مصادر متعددة ، منها صلاته التقليدية بجهاز الإدارة وما أمكن أن يستمسك به كسلطة شبه منفردة على الجيش وبعض الهيئات كالشرطة والخارجية بدرجة أقل ، ومنها الوجود البريطانى الذى يساند الملك حريصا على بقائه رغم ما كان يعترى علاقة الجانبين من توترات احيانا ، ومنها الحرص على ألا يستقر «الوفد» فى الحكم مدة طويلة تمكنه من تعديل موازين القوى لصالحه داخل أجهزة التنفيذ.

وكانت الحركة الوطنية الديمقراطية ممثلة فى الوفد فى الأساس ، ترتكز على ما تهيمن عليه من غالبية الرأى العام السياسي الفعال ، وتلك وظيفة «الوفد» فيما عقد من صلات شعبية وثيقة ، أنجحته دائما فى كل انتخابات حرة جرت ، وآزرته صحافة واجتماعات ونقابات ومظاهرات أحيانا للضغط والتأثير .

ورغم أن الوفد قاطع اللجنة التى أعدت الدستور وأسماها سعد

زغلول «لجنة الاشقياء» فقد كان ذلك وقت الاعداد الأول للدستور واعلان تصريح ٢٨ فبراير والشعور بأن هناك شبه اتفاق بين الأطراف السياسية المعنية ، الانجليز والاحرار والملك ، بأن تكون هذه الأطراف الثلاثة هي القوى التي تتداول العمل وأن يستبعد الوفد وأن يغيب تماما عن خريطة توزيع الادوار السياسية ، لذلك صاحب صدور تصريح ٢٨ فبراير وتشكيل لجنة الدستور ، صاحبها نفي سعد زغلول وقيادات الوفد مع محاصرة النشاط الوفدى . وكان الظن امكان استخدام الانتخابات في تشكيل مجلس برلمان شبه متوازن من انصار الملك وانصار الاحرار وأقليات محدودة أو من هنا أو من هناك . ويمكن للإنجليز بهذا التوازن والارجحيات المحدودة أن يناوروا بين البدائل تغليبا لأى من القوتين المتقاربتين .

ولكن – دون الدخول في تفصيلات – قرر الوفد دخول الانتخابات وعاد سعد وصحبه وجرت انتخابات حقق فيها الوفد الفوز بما يزيد على ٩٠ ٪ من مقاعد مجلس النواب ، ولم يفز من الاحرار إلا ستة أعضاء ، فلم يعد لهم أن يشغلوا أى نوع من المعارضة ولا كان للملك أنصار قادرون على ذلك ، ونتجت عن ذلك نتيجة مهمة وهى أن الدستور الذى كان بمثابة «عقد» بين الملك و «الأمة» ، كان الأحرار يظنون أنهم سيكونون هم الهيئة الممثلة للأمة فيه ، فجاءت الانتخابات بأن «الوفد» هو الذى يمثل الأمة كطرف من طرفي الدستور . وإذا بالوفد بعد ذلك يلتصق بهذا الدستور مصيرا ووجودا وإعمالا وتعطلا . وانعكس هذا الالتصاق على العلاقات المصرية البريطانية والمفاوضات .

وجرى الدستور من بعد على مدى الأعوام الثلاثين كصيغة للصراع بين الملك والوفد ، وعلى مدى هذه الأعوام جرى الصراع الدستورى على ثلاث مراحل :

المرحلة الأولى :

كانت بين ١٩٢٤ إلى ١٩٣٦ ، وهى مرحلة أدرك فيها واضعو الدستور أن محاولتهم تغييب الوفد عنه لم تنجح ، حتى برغم ما يحدث فى الانتخابات من تدخل إدارى ، لذلك تميزت هذه المرحلة بمحاولات الهجوم على الدستور نفسه من جانب من وضعوه أنفسهم ، الملك والاحرار ، وجرى هذا الهجوم بطريق متصاعد ، فى المرة الأولى ١٩٢٥ جرت المخالفة الصريحة للدستور من جانب الملك بحل مجلس النواب مرتين لسبب واحد مع عدم تغيير الوزارة (وزارة أحمد زيور الملكية) ، ورد مجلس النواب باجتماع قرر فيه اسقاط الوزارة فآل الوضع إلى نوع من الجرب الأهلية للمؤسسات : السلطة التنفيذية تحل السلطة التشريعية ، والسلطة التشريعية تسقط السلطة التنفيذية (الوزارة) ، وفى المرة الثانية سنة ١٩٢٨ قررت وزارة الاحرار الدستوريين وقف الحياة النيابية صراحة وإلغاء البرلمان والحكم بدونه ، ثم جاءت المرة الثالثة فى ١٩٣٠ عندما ألغى اسماعيل صدقى رئيس الوزراء الدستور كله واستبدل به دستوراً آخر لم ترض عنه أى من القوى الديمقراطية ، واستمر ذلك حتى عاد دستور ١٩٢٣ سنة ١٩٣٥ بحركة شعبية ضاغطة قوية .

المرحلة الثانية :

كانت مع إبرام معاهدة ١٩٣٦ مع الانجليز وما أحدثت من استقرار نسبي مؤقت في هذا الشأن ، استقر دستور ١٩٢٣ ، ولكن شب الصراع عنيفا بين الملك والوفد حول استخلاص مؤسسات الدستور ، إذ حاولت وزارة الوفد أن تحاصر سلطات الملك وأن تستوعبها بعد أن جمعت بين ما لها من تأييد شعبي وما ظنت أن المعاهدة أدت إليه من تحييد للإنجليز وإبعاد نسبي لهم عن هذا الصراع «الداخلي» المشتجر ، ولكن الملك جمع كل قواه الاجتماعية والسياسية ومنها التشجيع الخفي للإنجليز الذين كانوا لا يرون نفعا في بقاء الوفد بعد إبرامه المعاهدة لما في بقائه من نوع تشدد في تنفيذها ، وحدث انقسام داخل الوفد واسقطت وزارته وجرى الصراع بوسائل تزييف الانتخابات أو مقاطعتها .

المرحلة الثالثة والأخيرة :

تبدأ مع نهاية الحرب العالمية الثانية في ١٩٤٥ ، حتى قيام ثورة ٢٣ يوليه ١٩٥٢ ، كان ما يميز هذه المرحلة الثالثة عن سابقتها مباشرة أن كانت ظهرت في المجتمع قوى سياسية شعبية جديدة وشابة ، كانت بأهدافها السياسية والفكرية العقدية والاقتصادية بعيدة عن الأسس التي قام عليها دستور ١٩٢٣ ، ومن هنا كان الصراع في مؤسسات الدستور أكثر هدوءاً . لأن قسما من الرأي العام الفعال والقوى السياسية المؤثرة قد انصرفت عنه إلى أنواع وأنماط أخرى من النشاط السياسي .

(٥)

أما العنصر الثالث الذى قامت هذه المرحلة عليه فهو حزب «الوفد» . وأهم ما يلاحظ على حزب الوفد ، أنه نشأ مع ثورة ١٩١٩ ، فلم تسبق نشأته ظهور الثورة من الناحية الزمنية ، لابد أن تكون سبقته بعض خمائر تنظيمية هنا وهناك ، واجتماعات منظمة متتالية ممن شكلوا من بعد أركان قيادته ، واتفاق عام على الأهداف العامة التى قام عليها ، وأن التوافر المسبق لكل ذلك يتفق مع طبيعة الأمور فلا تقوم حركة تتخذ من بعد وضع استمرار وتتابع إلى أن تكون مسبوقة بهذه التكوينات الجنينية على أقل تقدير . ولكن المقصود أن التكوين الأساسى للهياكل المؤسسية للوفد وللتحدد الواضح لأهدافه وغاياته وللتناول الدقيق للمواقف وللسعة والشمول الشعبى . هذا التكوين كان غير سابق ولا كانت الثورة مسبوقة بأى من عناصره التنظيمية والسياسية ، إنما صنع مع الثورة ومع تتالى أحداثها ، لذلك لا أقول نشأ فجأة إنما أقول أنه نشأ باستجابات سريعة جدا ، سواء من حيث تشكل القيادات أو الانضواء الشعبى . ولا أجد مجالا متسعا لتفصيل العناصر التى أدت إلى ذلك ..

وأهم ما يلاحظ عليه أيضا ، أنه تكوين سياسى اتسع على رقعة الجماعة المصرية الوطنية فى عمومها ، كان هدفه السياسى الأساسى الحصول على استقلال مصر باخراج الانجليز عنها وكف نفوذهم عن سياساتها ، وهو هدف يشمل الجماعة المصرية السياسية فى عمومها ،

فانبنى بأفكاره وهياكله وأساليب نشاطه وطرائق مواجهاته على أساس أن يؤكد تشخيصه للجماعة المصرية السياسية ويؤكد وصفه التمثيلى لها فى عمومها ، وابتكر مسألة التوكيلات ، بأن يجمع توقيعات المواطنين على توكيل يشمل اسماء القيادة ، ولم ينس أن يشمل التكوين أن من حق هؤلاء الوكلاء أن يضموا إليها من يروا فيه الصلاحية لمشاركتهم فى الوكالة ، وكان هذا منزع طريف إن كان تفتق عن الصيغة المهنية القانونية لغالب قيادات الوفد وقتها ، فقد كان يعنى من الناحية السياسية الحرص على استبقاء الوضع التمثيلى العام له فى مطلبه الوطنى المحدد . كما أنه اسمى نفسه «الوفد المصرى» وكان يقصد المعنى اللغوى والمتعارف عليه للفظ الوفد ، وهو الجماعة المختارة للقاء آخرين ، أى المعنى التمثيلى النيابى لهذا اللفظ .

وقد ظل الوفد فى كتاباته ووثائقه وأقوال ذويه عنه متمسكا بهذه الصيغة النيابية العامة له عن الجماعة السياسية المصرية ، ولم يمكن التقاط وثيقة ولا معنى صدر عنه طوال وجوده قرن فيها لفظ «الحزب» بنفسه ، ولما أراد الملك فاروق إتهام الوفد بأنه على علاقة بالحكومة السوفيتية فى أوائل الخمسينات عن طريق خطاب منسوب صدوره إلى مصطفى النحاس اكتشف الاصطناع لأن الخطاب تضمن عبارة «حزب الوفد» التى لا يمكن أن تصدر عن النحاس . ولما صدر قانون الأحزاب فى أغسطس ١٩٥٢ واضطر الوفد للتقدم وفقا له ، لم يتضمن البيانان الصادران عنه قط عبارة «حزب الوفد» إنما صدر بيانه الأول بعبارة

«استطاع الوفد المصرى خلال الثلاث والثلاثين سنة التى انقضت على توكيل الأمة إياه » ...

وهذا التصور التمثيلى النيابى للجماعة المصرية جمعاء ، انعكس على التكوين التنظيمي للوفد ، فقد تشكلت أهم مستوياته التنظيمية من «الوفد» وهو المستوى الرئاسى الأعلى و«الهيئة الوفدية» ، ثم لجان الوفد بالأقاليم والمناطق المختلفة .. و«الوفد» اكتسب عضويته الأولى من حركة توكيلات ، وكانت العضوية تتجدد فيه طبقا «لنص التوكيل» وذلك بالضم إليه بقرار يصدره الوفد ، وليس بالانتخاب من مستوى أدنى، و«الهيئة الوفدية» تتكون أساسا من أعضاء الوفد المنتخبين فى مجلسى النواب والشيوخ ، سواء الحاليين أو السابقين فكان تشكيل «الهيئة الوفدية» أيضا يتفق مع الفكرة النيابية للتنظيم : من جهة أن واحدا من أهم عناصر اكتساب عضوية «الهيئة الوفدية» ترد من الانتخابات العامة التى تجرى لتشكيل السلطة التشريعية بمجلسيها ، بمعنى أن الجماهير بموجب كونهم مواطنين كانوا يشتركون من التأهيل لاكتساب عضوية «الهيئة الوفدية» ، وأهم ما يلاحظ على الوفد ثالثا ، إنه اتخذ اسلوبا للعمل السياسى من أول يوم لم يحد عنه حتى النهاية ، وهو السعى بالطرق السلمية المشروعة حيثما وجدوا المسعى سبيلا لتحقيق استقلال مصر استقلالا تاما . والعبارة غاية فى الدقة على المسلك السياسى الذى سلكه الوفد وقاد الرجال فيه فهو عمل سلمى لا يتجاوز إلى العنف واستخدام السلاح وهو مشروع يمضى فى

القنوات المرسومة وبذل الجهد لتوسيع هذه القنوات .

والسعى السلمى المشروع يعنى بذل الجهد العملى والفكرى للوصول لصيغ فى العمل السياسى ليس من شأنها أن تنفى الخصم نفيا تاما ، لأن النفى التام يترجح أن يجاوز صيغ التوازن الشرعى القائمة وأن يستدعى العمل العنيف ، والسعى السلمى المشروع إنما يعترف بوجود الخصم فى نطاق معين ويتمسك بوجود الذات ثم النطاق الآخر ، ويجهد من أجل تحقيق المكاسب الجزئية التدريجية مع صيانة مكتسباته السابقة بالدعم والتطوير ، وقد يصل العمل السياسى من كلا طرفيه فى بعض الأوقات إلى المشارف ويقف على الإعراف من هذا الاسلوب ، بالتلويح بالعنف أو بالعمل غير المشروع من خارج القنوات المرسومة المعترف بها ، لتحقق أقصى درجات الضغط الممكن حفاظا على المكتسبات أو تعديلا للمراكز لصالح الأهداف السياسية المقررة .

والسعى السلمى المشروع فى مواجهة الاحتلال البريطانى ، كان يعنى العمل المستمر من أجل تحقيق المزيد من المكاسب ضد الاحتلال ، وهذا لا يأتى إلا بالمفاوضات والمباحثات أو بالتحكيم الدولى إن وجدت ظروف مواتية له . لذلك كانت المفاوضات وسيلة ملازمة لهذا النوع من العمل السياسى الذى تبناه الوفد أملا فى الوصول للجلاء التام . كما أن السعى السلمى المشروع فى مواجهة الملك كان يعنى العمل من خلال المؤسسات الدستورية التى اسفرت عنها التوازنات السياسية لمرحلة ما بعد ثورة ١٩١٩ ، السعى من خلال هذه القنوات من أجل حماية ما

حصلت عليه «الأمة» من مكاسب بهذا الدستور ودعهما . وتوسعتها ، ومن أجل تقييد سلطات الملك والتضييق منها أملا فى الوصول مستقبلا إلى الحد الذى يمكن أن يكون قريبا من التلاشى ، أى العمل بالطريق البرلماني . وهكذا كانت المفاوضة والبرلمانية هما طريقا الوفد اللذان تمثل فيهما سعيه السلمى المشروع . وهو إن لم يكن اعترف بتصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ فقد راعى حدوده فى التطبيق وإن عمل دائما على تحديها بالمناوشة والضغوط ورفض الاعتراف ، وهو إن كان قاطع لجنة دستور ١٩٢٣ ، فقد عمل من بعد من خلال مؤسسات هذا الدستور ودافع عنه وارتضاه طريقا ، وإن عمل دائما على تعديل أطره وصياغاته وزحزحتها تدريجيا بالمكاسب الجزئية .

كانت هذه هى الصيغة السياسية الملازمة للعمل السياسى الوفدى ، ابان عنها فى أولى وثائقه السياسية واحتفظ بها دائما لفظا وعملا ولم يدع غيرها ولا راوده أمل فى غيرها ، ولا راود الحركة السياسية فى مصر بعامة أمل فى امكانية أخرى على يدى الوفد ، وقد ربى رجاله على هذا الاسلوب واختارهم وفقا لما هو أفعل فى هذا النوع من السعى وتراكمت له الخبرة والتجارب فى هذا الإطار ، ونظم مؤسساته بمستوياتها واشكال نشاطها على الأساس الملائم لهذا الاسلوب وحده .

(٦)

إن من يطالع تاريخ مصر فى هذه المرحلة ، يدرك فى وضوح إن كان هناك توازن دقيق بين الصيغة الضابطة للعلاقة بين مصر وبريطانيا

(تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ ثم معاهدة ١٩٣٦) .. وبين الصيغة الحاكمة للعلاقة بين الأمة والملك (دستور ١٩٢٣) وكان أى تغيير أو اختلال فى أى من الصيغتين أو فى الموازين الخاصة بأيهما ، إنما ينعكس تغييرا واختلالا فى الصيغة الأخرى وموازينها ، وقد سبقت الاشارة إلى أنهما نشأتا معا فى عملية سياسية واحدة سنة ١٩٢٢ وبقيتا متعاصرتين حتى نهايتهما فى مرحلة ما بعد ١٩٥٢ ، كما سبقت الإشارة إلى أن تصريح ٢٨ فبراير وتحفظاته وما وعد به من حل بالمفاوضة للتحفظات البريطانية على استقلال مصر ، قد ألقى المسألة الوطنية فى جوف المسألة الديمقراطية الدستورية ، وجعل مسألة من يتولى الحكم (المسألة الدستورية) هى بذاتها وبالضرورة مسألة من يفاوض الإنجليز (المسألة الوطنية) .

ونحن نلحظ أنه من ١٩٢٤ إلى ١٩٥٢ جرت عشرة انتخابات لمجلس النواب ، وأنه باستثناء التغييرات الوزارية التى تتضمن تعديلات جزئية ولا تفيد تغييرا جوهريا فى القوى المسيطرة على الحكم ، نلحظ أيضا أن كان هناك عشرة أو اثنى عشر نظاما وزاريا . وفى هذه المدة كلها تولى الوفد الوزارة ست مرات ، وسقط بنوع من الانقلاب الدستورى فى أربعة منها بسبب فشل مفاوضاته مع الانجليز حول المسألة الوطنية نتيجة تشدده فى مطالبه . كان ذلك فى سنة ١٩٢٤ ، وسنة ١٩٢٨ ، وسنة ١٩٣٠ ، وسنة ١٩٥٢ ، وأعقب سقوطه فى ١٩٢٤ مخالفة الدستور وأعقب سقوطه الثانى فى ١٩٢٨ وقف العمل بالحياة النيابية ، وأعقب

سقوطه الثالث في ١٩٣٠ إلغاء الدستور ، وأعقب سقوطه الرابع في ١٩٥٢ حريق القاهرة ، ثم إن من الوزارات غير الوفدية التي سقطت بعد مباحثات مع الانجليز ونتيجة فشلها في جمع الرأى العام وراءها بالقدر الذي يسمح بتوقيع المعاهدة ، وزارة عبد الخالق ثروت في ١٩٢٨ ، ووزارة محمد محمود في ١٩٢٩ ، ووزارة اسماعيل صدقى في ١٩٣٣ ، ووزارة اسماعيل صدقي في ١٩٤٦ .كل ذلك يوضح مدى الارتباط بين المسألتين الوطنية والديمقراطية . وكاد أن يصير على مستوى البداهة السياسية لدى المصريين ، أن من ينحرف بالنظام الديمقراطي أو ينتهكه وفقا أو اصطناعا لنتائج انتخابات أو سوء تأويل إنما يمهد للتهاون مع الانجليز ، وأن الكفاح الديمقراطي هو كفاح وطني باللزوم .

وترتب على ذلك أثر ضخم بالنسبة للتوازنات الحزبية والاوضاع المؤسسية الدستورية ، ويمكن تمثل هذا الأثر من تتبع نتائج الانتخابات العشرة التي جرت لمجلس النواب ، لقد حصل الوفد في ثلاثة انتخابات منها على نحو ٩٠ ٪ من عدد مقاعد مجلس النواب ، وذلك في سنوات ١٩٢٤ ، ١٩٢٩ ، ١٩٤٢ ، وحصل في ثلاثة أخرى على نسبة تدور حول الثلاثة أرباع ، فكانت النسبة في سنة ١٩٢٦ نحو ٧٧ ٪ ، وكانت في سنة ١٩٣٦ نحو ٧١,٥٪ ، وكانت في ١٩٥١ نحو ٧١,٥ ٪ .وكان انخفاض النسبة من التسعة أعشار إلى الثلاثة أرباع في انتخابات ١٩٢٦ بسبب تحالف الوفد مع حزب الأحرار الدستوريين واتفاقهما على

توزيع للدائرة يرضى نوعا ما ، الاحرار ، وكان انخفاضها فى ١٩٣٦ فى ظروف قيام الجبهة الوطنية بين الاحزاب كلها لمفاوضة الانجليز مما اقتضى السماح لهذه الأحزاب فى مجلس النواب ، وإذا كان الوفد لم يتفق فى هذه السنة على اقتسام الدوائر مع غيره ، فقد دعاه ذلك الموقف السياسى لأن يكون أقل حدة فى التنافس الانتخابى مع من يشاركونه جبهة المفاوضات .

كما يلاحظ أنه فى انتخابات ١٩٢٦ كان أمام الوفد ثلاثة أحزاب هى الاحرار الدستوريون وحزب الاتحاد (الذى كان نشأ بدعم مباشر من الملك) والحزب الوطنى .. حصلوا مجتمعين على ١٨ ٪ من المقاعد، وفى ١٩٣٦ كان أمام الوفد اربعة أحزاب حصلوا مجتمعين على ٢٨ ٪ من المقاعد ، وفى ١٩٥٠ كان امامه أربعة أحزاب (حزب الاحرار - الحزب السعدى - الحزب الذى كان قد انشق على الوفد منذ ١٩٣٧ والحزب الوطنى والحزب الاشتراكى) وحصلت هذه الاحزاب الأربعة كلها على ١٩ ٪ من المقاعد كما يلاحظ أن الانتخابات الأربعة الأخرى ، منها اثنان قاطعها الوفد هما انتخاب ١٩٣١ فى ظل دستور صدقى وانتخاب ١٩٤٥ ، ومنها انتخابان آخران أطرد القول بتزييف نتائجهما ، هما انتخاب ١٩٢٥ الذى جرى على درجتين وحصل منه الوفد على ٥٧٪ من المقاعد ، وانتخاب ١٩٣٨ حيث حصل على ٤,٥ ٪ من المقاعد .

ومن هنا كانت أحزاب الأقلية كلها تجأر بالشكوى مما أسمته «طغيان الاغلبية» ، ومن هنا كان تقدير الوفد لنفسه أنه حزب جامع وأن

ما عداه خوارج عليه .. والظاهرة لا يتأتى حدوثها إلا فى ظروف اجتماع الجماعة السياسية فى مواجهة غزو أو خطر عام داهم أو مكافحة احتلال أو رغبة فى استرداد الاستقلال أو الهوية .

ومن كل ذلك ، نجد إنه لما تداعت الاحداث السياسية فى عامى ١٩٥٠ و ١٩٥١ إلى أن اضطرت حكومة الوفد أن تقرر فى ٨ أكتوبر ١٩٥١ إلغاء معاهدة ١٩٣٦ كصيغة ضابطة للعلاقات المصرية البريطانية ، وأن تلغيها من طرف واحد رغم تمسك بريطانيا بهذه المعاهدة ، إنما اتخذت هذه الخطوة بالوسيلة القانونية الدستورية واستصدرت قانونا وافق عليه مجلسا النواب والشيوخ فى موجهات من الحماس الشعبي والتوقد الوطنى المنقطع النظير ..

والوفد عندما صنع ذلك فقد استخدم الصيغة الديمقراطية التى يسمح بها الدستور فى أقصى ما يمكن أن تستخدم فيه ويكون استخدامها لينهى بها وسيلة المفاوضة كوسيلة لحل المسألة الوطنية .. وأثبت بذلك أن العملية التى تراكب جزءيها لصياغة الأوضاع السياسية للمرحلة التى نتجت عن ثورة ١٩١٩ ، هذه العملية التى تمثلت فى تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ ثم معاهدة ١٩٣٦ ، وفى دستور ١٩١٢ ، هذه العملية قد استنفدت غرضها من وجهيها ، وتكون صيغة الكفاح السلمى المشروع من وجهيها قد فقدت مقومات بقائها . لقد وضعت مصر أمام وجود بريطانى غير مشروع ، وليس من وسيلة سلمية لمواجهته معارضة أو تحكيما ، وبالعمل المشروع أنهى الوفد مشروعية الوجود البريطانى ،

وبالعمل السلمى أنهى مرحلة السعى السلمى لتحقيق الاستقلال . ولكن الوفد هو حزب السعى السلمى المشروع ، لم يرتب أوضاعه ولا صاغ مؤسسته ولا جند رجاله على أساس نوع عمل سياسى آخر ، من ثم فإن الوفد بما صنع فى نهايات ١٩٥١ يكون قد جاوز نفسه وأنهى وجوده السياسى كمن يسلم الشعلة لغيره لبداية مرحلة تاريخية مغايرة.

(٧)

فى هذا الإطار التاريخى العام للحركة الوطنية المصرية وللقوى الحاكمة لمصر ، وجد مصطفى النحاس ، شب وتكون فى أولى المرحلتين من عهد الاستعمار البريطانى ، ما بين ١٨٨٢ و ١٩١٩ ، وقاد مصر خلفا لسعد زغلول فى المرحلة الأخيرة من مرحلتى هذا العهد ، وبين المرحلتين ثورة ١٩١٩ التى قادها سعد زغلول وصار علامة عليها ، وعلى مدى السنوات القليلة التى تلت بدء الثورة حتى وفاة سعد زغلول فى ٢٣ أغسطس ١٩٢٧ ، أرسيت أسس هذه المرحلة ، وهى ذاتها مرحلة ما بين الثورتين ١٩١٩ و ١٩٥٢ .

وأن مصطفى النحاس الذى رافق سعد زغلول مع غيره من قادة الوفد فى سنوات تأسيس هذه المرحلة ، كان هو من تولى زعامة المصريين وقيادة العمل الوطنى والديمقراطى فى مرحلة ما بين هاتين الثورتين ، والثورة ترسم توجها جديدا وتشق طريقا جديدا ، والسنوات التالية لها تتولى عبء التنفيذ والدعم والصقل ، وما كان رسوما وأهدافا

تتولى تحقيقه ، وما كان طريقا تتولى تمهيده والسير فيه نحو نهايته .
وأن القيادات التى تتولى العمل فى مراحل ما بين الثورات أو الانعطافات الكبرى ، إنما ينظر إلى عملها في ضوء ما ترسخه وتقومه من مبادىء أظهرتها العملية الثورية السابقة ، فهى تقوم بدور الحماية لهذه المبادىء والاهداف الناشئة ، والتحقيق لها فى الواقع السياسى والمجتمعى ، والتعهد لها بالبقاء والنمو والتغلغل فى شئون الحياة اليومية الجارية ، وإنضاج الأوضاع السياسية والمجتمعية لما تصلح به المراحل التالية .

وقد كان مصطفى النحاس مدركا لهذه المهمة ، مما يظهر من كلمته التى ألقاها على قبر سعد زغلول بعد رجوع النحاس من الخارج ، قال «كان سعد يحمل العبء عنا جميعا ، وقد ألقاه علينا جميعا .. آه يا سعد .. لم تتم بعد مهمتك ولكن روحك ستتمها معنا .. إننا جميعا على عهدك حتى الممات ، وإذا متنا فذرارينا سيقتفون الأثر . (من كتاب الزعيم والزعامة .. عباس حافظ ص ٢٤٠ - ٢٤١) وكان إتمام المهمة التى طرحتها ثورة ١٩١٩ هو على التحديد إنجاز الهدف الوطنى باجلاء الانجليز من مصر ، ودعم المنهج الديمقراطى لنظام الحكم الذى يمكن من هذا الإجلاء بالوسائل السلمية المشروعة ، على ما سبق البيان .

ويبدو لى أن مصطفى النحاس ما كان ليقوم بدوره الكبير فى تاريخ مصر ، إلا أن يكون خلفا لسعد زغلول .. والفرق بينهما هو الفرق بين

من يشق الطريق ومن يمهده ، الأول يحتاج لرؤية واسعة وثراء ثقافي وتجارب عديدة متنوعة وقدرة على التعميم وإدراك الكليات ، والتقاط المسارات الأساسية لحركة التاريخ والشعوب ، وهذا هو التأهيل اللازم لمن ألقيت عليهم مهام قيادة الثورات أو الانعطافات التاريخية الكبرى ، بما يصاحب أحداث الثورات والانعطافات الكبيرة من سرعة وكثافة في تداعي الاحداث وتشكل المسارات ، وما تطرحه من بدائل وما تستدعيه من خيارات تتكثف بها كل عناصر التأهيل اللازم ، للنظر العام المستوعب لروح الجماعة ولحركة التاريخ وأوضاع الظروف المعيشية .

أما الثاني فيلزمه ذلك القدر من الصلابة والصبر والقدرة على المتابعة ، الذي يمكن من اقرار الأوضاع الجديدة والسير بها إلى نهاياتها ، ويمكن من حمايتها لئلا تطغى عليها القوى المخاصمة لها وتئدها في مهدها أو تبتسرها قبل أن تبلغ منتهاها ، وقد يكفيه الاصرار والتصميم على المتابعة والقدرة على احتمال رتابة العمل التنفيذي اليومي .

أنني لا أجري مقارنة بين سعد والنحاس ، ولكني كنت أحاول أن أشير إلى اختلاف مهام القيادات سلفا وخلفا ، وفقا لمآل الاحداث وما يستدعيه ذلك من تأهيل خاص . لقد أدرك سعد زغلول ثورة عرابي وهو في نحو الخامسة والعشرين من عمره ، وعبر بشبابه وكهولته وشيخوخته السنوات الفاصلة بين فشلها ودخول الانجليز مصر وبين

ثورة ١٩١٩ ، وأدرك جمال الدين الأفغاني وتتلمذ على يد محمد عبده ، واتصل بدوائر الفكر والسياسة طوال هذه المدة ، وتنوعت تجاربه الفكرية والسياسية والاجتماعية ، من العمل السرى فى «جمعية الانتقام» إلى صالون الأميرة نازلى فاضل حيث يجتمع الصفوة من رجال السياسة والحكم ومنهم اللورد كرومر ، ومن دراسة الأزهر إلى دراسة الحقوق الفرنسية ، ومن ممارسة المحاماة قبل أنْ تنتظم فى مهنة محددة إلى ممارسة القضاء قاضيا ومستشاراً ، ومن بيئة الفلاحين فى قريته إبيانة من أعمال كفر الشيخ إلى دست الوزارة وزيرا للمعارف وللحقانية وصهرا لمصطفى فهمى باشا رئيس الوزراء ذى الأصل التركى .. ومن العمامة إلى الطربوش .

ذلك لم يكن غريبا ، إنه فى وسط الظروف المعقدة المتشابكة لأوضاع مصر بعد الحرب الأولى ، ورغم انتصار دولة الاحتلال العسكرى بريطانيا فى هذه الحرب ، ورغم تصفية الدولة العثمانية التى كانت تستمد الحركة الوطنية المصرية منها قبل الحرب الأولى العون المعنوى والرابط السياسى ، ورغم تناثر العالم الاسلامى والعربى اشلاء وتوزع اقطاره بين الدول الأوروبية الكبرى ، ورغم أن العديد من الصفوة الاجتماعية السياسية كانت قريبة من رجال الاحتلال البريطانى لا يرفضون مبدأ التعامل معه والتعاون ، رغم كل ذلك تحددت خيارات سعد زغلول بما يضع شعار المصرية السياسية فى وصفها الحاشد لجمهور المصريين ضد الاحتلال البريطانى ، ويضع المصرية موضع

المواجهة للاستعمار السياسي والعسكرى ، وبما يربط مطلب الاستقلال السياسى بمطلب الحكم الدستورى وبما يقوم به التنظيم السياسى الجامع للمصريين المحقق لوحدتهم الشاملة ، رغم الاختلاف بين الريف والمدن وبين التعليم التقليدى والتعليم الحديث ، رغم اختلاف الأديان ورغم اختلاف المهن والمستويات الاجتماعية المعيشية ..

وكانت هذه هى أهم السمات التى انطبعت بها الاوضاع المصرية على مدى الأعوام الثلاثين التى أعقبت ثورة ١٩١٩ ، والتى اسلمتها لأوضاع النصف الثانى من القرن العشرين ، وهى ذاتها السمات التى تولى مصطفى النحاس بخلافته لسعد زغلول حمايتها والزود عنها وتأكيدها على مدى تلك الأعوام الثلاثين .. وقد جاء فى خطابه الذى إلقاه بعد اختياره رئيسا للوفد خلفا لسعد زغلول «أننى أعاهد أمامكم روح سعد .. مستوحين الحكمة والحزم من روح سعد .. مستضيئين برشده .. وإن نحرص على الدستور .. محافظين على ائتلاف الاحزاب .. حتى تنال البلاد غايتها من الاستقلال التام الصحيح والحرية الكاملة ..» (عباس حافظ ، المرجع السباق ص ٢٤٤) .

على هذا النحو كان مصطفى النحاس خليفة لسعد زغلول ، وكان هذا ما يدعوه للاعتزاز ويؤكد لنفسه وللناس أصالته ، وبقى أمينا على ذلك ما بقى يعمل فى سياسة أمته ، على أن النحاس لم يستطع مع تغير الأوضاع الدولية والداخلية أن يهيىء من نفسه ، ما

يقـــوم به بدور المجـــدد في ظروف مـا طرحـه الواقع من جـديد بعـد الحرب العالمية الثانية ، ولا أن يهيىء من الوفد ما يستطيع بـه أن يجدد جامعيته الوطنية السياسية لاوضاع نهايات الاربعينات والخمسينات ، ولعل ذلك مما أضعف مصداقية الوفد من بعد وخالف من مسار الحركة السياسية المصرية مع بدايات الخمسينات ، على النحو الذى لا يخفى على المطالع لتاريخ مصر . وقد كنت دائما أرى لسعد زغلول فى ظروف مصر فى زمانه مالغاندى فى ظروف الهند فى زمانه ، ولكن مصطفى النحاس فى مصر على مشارف الخمسينات وبداياتها ، لم يكن لديه ما لدى جواهر لال نهرو فى الهند على مشارف الخمسينات وبداياتها ، ولا استطاع «وفد» مصر فى هذه السنوات أن يقوم بما قام به «مؤتمر» الهند من بعد .

وكان النحاس أقل حظا من سلفه سعد . لقد مات سعد فى ١٩٢٧ إبان مجده وفى عز حزبه ورجاله ، بينما مات النحاس فى ١٩٦٥ بعد أن اقصى عن الحياة السياسية وصفى حزبه وتجاوزت الاحداث حركته، وجاءت وفاته فى مجد خصومه السياسيين ، أما عن الذكرى بعد الوفاة فإن سعدا التصق بالثورة كذروه للعمل السياسى وكعلامة على المرحلة التالية لها ، بينما ارتبط عمل النحاس بالأعوام الطويلة والاعمال الرتيبة «فى أعقاب الثورة» وأننا إن جمعنا وقائع الأعوام والاحداث ، فقد نجد نظرا وجيها يرى فيما عانى النحاس وما ضحى أكثر مما أصاب سعد تضحيات ومعاناة ، كما نجد لا شك نظرا أشد وجاهة يرى فى هذا

السعى والتصميم الدءوب لمصطفى النحاس ، وفي هذا السعى الصبور في «وهاد» التاريخ ووديانه ولدى السفوح ، يرى فيه العمل الذى لولاه لما بقى ما بقى من ثمار ثورة ١٩١٩ ، ولما استقر ما استقر من أهدافها ونوازعها الوطنية الدستورية .

وهذا باذر الحب يعشى بضوئه الانظار عن رؤية من خلفه ممن تعهد البذر بالرعاية فى الأرض وسهر ليالى الشتاء ليوفر لها ماء «المحاياة» وعانى من حرقة الشمس في إقتلاع الاعشاب الضارة ، وهو لولاه ما نبت بذر ولا أثمر نبات ولا حصدت ثمار . وتعثر حظ مصطفى النحاس ، إن جاء الحصاد بعد زمانه ، فى العهد الجديد الذى نشأ بعد اقصائه ، وذلك بتمام جلاء الانجليز من مصر فى يونيه ١٩٥٦ . والنحاس فى السابعة والسبعين من عمره ، معزول فى بيته لا يسمح له برؤية الناس ولا أن يراه الناس ، ولا يرد ذكر له قط فى منشور أو مذاع .

فازت ذكرى سعد زغلول بكتاب عن حياته يحرره فى سنة ١٩٣٦ «عباس محمود العقاد» ويعتبر من أهم كتب العقاد ، اجتمعت فيه عملية البحث التاريخى مع عمق النظر التحليلى ، لمفكر كبير يغوص فى عمق الأحداث ويستخرج دلالاتها البعيدة ، واجتمع ذلك مع صعوبة الرواية لواقع معيشى مع مضاء شهادة شهود العيان ، إذ كان العقاد من أصحاب سعد وأكبر كتاب الوفد على عهد سعد زغول وما تلاه حتى سنة ١٩٣٥ .أما النحاس فلم يتوفر له من معاصريه رجال يقومون به ،

فيما عدا أعمال جد قليلة من غير أصحاب قلم اقتصرت على ذكر «مناقب» للنحاس ، ولا نكاد نجد كتابا له قيمة الدراسة الموضوعية المنهجية لمصطفى النحاس ، إلا رسالة الدكتوراة القيمة التى أعدها عنه الدكتور علاء الدين الحديدى فى لندن سنة ١٩٨٥ ، وترجمها إلى العربية من بعد . فكانت كتابتها بعد وفاة النحاس بعشرين سنة ، وكان كاتبها ممن ولد بعد انتهاء الحياة السياسية للنحاس بأعوام . فجاءت تاريخا محضا .

من كل ذلك تبدو المذكرات التى أعدها محمد كامل البنا عن الزعيم مصطفى النحاس .. ربع قرن فى السياسة المصرية ١٩٢٧ - ١٩٥٢ على قدر كبير من الأهمية ، ويلزم أن يفرغ لها الباحثون المعنيون بهذا الأمر وأن يخلصوا ليستخرجوا كل ما يمكن استخراجه منها عن هذا الذى ملأ دنيا مصر وشغل ناسها طوال الربع الثانى من القرن العشرين ، وليستخلصوا رأيه ورؤيته فضلا عن شهادته فى وقائع هذه الفترة ، وليدرسوا كيف كان ينشط فاعلا ورادا للفعل ، وكيف كان يفكر ويجمع معلوماته ويتحصل على معارفه ويشكل قراراته .

القسم الثانى

الملامح العامة للمذكرات

(٨)

كان الربيع بن سليمان المرادى هو راوية الإمام الشافعى ، نقل إلينا الكثير من كتب الشافعى ومن أهمها كتاب «الأم» ، وأهم مخطوطة لكتاب الشافعى «الرسالة» وجدناها بخط الربيع . شهد الرواة والعلماء للربيع أنه كان راوية ثبتا صدوقا وكان ثقة متفقا عليه ، وعرفوا أنه كان قريبا من الشافعى لازمه وكان محلا لحبه ، وأوكل إليه الشافعى الرواية عنه . ومن كل ذلك لم يثر شك فى نسبة كتب الشافعى إليه مما ورد إلينا عن الربيع .

أحكى ذلك لأتقرب إلى القارئ فى دراسة مذكرات النحاس التى بين أيدينا ، فنحن لم نجدها مكتوبة بخطه ولا منطوقة بصوته ، إنما قرأناها مخطوطة بخط يد الأستاذ محمد كامل البنا ، السكرتير الخاص للنحاس ، الذى لازمه وصاحبه من أوائل الثلاثينات ، وهو راوى هذه المذكرات وكاتبها .

ونحن نخلص مما كتبه «البنا» في صدر هذه المذكرات ونهايتها إلى ما يلي مما أورده صريحا بقلمه :

- إن محمد كامل البنا كان رفيقا للنحاس في كل حين ، ولازمه على توالي الأعوام ، وأن النحاس كان يملي عليه ما يريد أن يدونه .

- إن النحاس كان يدون مذكرات ، إما بخطه في نوتة من النوتات ، أو يمليها على البنا أو على الأستاذ ابراهيم فرج .

- إنه بعد ثورة ٢٣ يولية ١٩٥٢ ، لم يأمن البنا على هذه المذكرات أن تقع في ايدى السلطات ، وأن «الثورة» قامت بتفتيش منزله أكثر من مرة بحثا عنها ، وإنهم في احدى المرات عثروا على أجندة محررة بخط يد النحاس وبعض الوثائق فاستولوا عليها .

- إن البنا حرصا منه على ما لديه ، نقل المذكرات على هوامش كتب علمية وسيبية وعلى أوراق بعض الاجندات السنوية ، وخبأ ذلك بين أوراق مهملة ، وأستودع صديقا له أجندة واحدة كانت بخط النحاس عن أحداث سنة ١٩٣٢ أو سنة ١٩٣٤ .

- بعد موت النحّاس في سنة ١٩٦٥ ، وبعد تغير الأوضاع السياسية في سنة ١٩٧٢ ، بدأ البنا بتشجيع من الأستاذ فؤاد سراج الدين يستخرج ما لديه من نقول ، ويعيد ترتيبها وتصنيفها ، ويجمع ما كان لديه مما كتبه النحاس أو أملاه ؛ وقضى في النقل

والتفريغ والمراجعة والتحقيق فترة قدرها بثماني سنين مرة . وباحدى عشرة سنة مرة أخرى ، ورتب ما رتب عن الوقائع فى هيئة يوميات ما استطاع .

- إنه أنهى هذا العمل فى ١٩٨٣ .

إذن فمذكرات النحاس التى بين أيدينا ، أتت إلينا من خلال راو لها ، وهو راو وحيد . وهو راو حكي لنا طريقة تدوينه لها ، فكانت مصادره الأولية متنوعة حسبما ذكر ، بين ما خطه النحاس بيده ، وبين ما أملاه عليه أو أملاه على الأستاذ ابراهيم فرج ، ولكن هذا المحرر للمذكرات لم يعين لنا المادة التى استقاها من كل هذه المصادر ، كتابة أو إملاء .

ومن جهة أخرى فان كل هذه المادة مع اختلاف مصادرها الأولية لم تجتمع لمدون المذكرات تجميعا بسيطا ، إذ اضطرته ظروف أمنه الشخصى وخوفه على المذكرات وظروف الخصام السياسى المشتهر بين «الوفد» تاريخا ورجالا وبين القائمين على ثورة ٢٣ يوليو ، اضطره كل ذلك إلى أن ينقلها ، حسبما يذكر ، على هوامش الكتب والاجندات ، وإذ بقيت هكذا سنين مبعثرة فى هذا الشتات ، بقيت هكذا حسبما نفهم من حديث المحرر من سنة ١٩٥٢ تقريبا حتى سنة ١٩٧٣ تقريبا ، وهذه التواريخ نستخلصها نحن من قراءة ما كتب المحرر ، ولم يذكرها هو على وجه الضبط والتصريح .

وبعد هذا الفاصل الزمنى الذى يصل إلى ما يشارف عشرين عاما ، بدأ البنا حسبما يذكر عملية جمع المذكرات ، على مدى زمنى يقع بين المدتين اللتين ذكرهما وهما ثمانية أعوام وأحد عشر عاما . وراوينا حكى ما سبقت الإشارة إليه مرة فى أول المذكرات ومرة فى آخرها ، ولم يخف عنا وقائع النقل المتكرر والتشتيت والتجميع ، ولم يخف تعدد مصادره الأصلية لما حرره ، كتابة أو إملاء أو نقلا . ولكنه لم يذكر لنا شيئا عما جرى للأصول التى نقل منها إلى هوامش الكتب ثم أعاد ترتيبها وتحريرها ، هل أبيدت هذه الأصول أم ضاعت وكيف جرى ذلك ، وماذا كانت مناسبته .

وكنت حريصا على أن تنشر المذكرات لا بعنوان «مذكرات مصطفى النحاس» فقط ، ولكن بعنوان أكمل «مذكرات مصطفى النحاس التى أعدها محمد كامل البنا» . فنحن هنا أمام عمل هو وثيقة تاريخية لا تنفصل عن مصدرها ، والمروى لا ينفصل عن الراوى ابدا ، ونحن هنا نعتمدها بسندها وننسبها لسندها ، وهى تكسب لدينا قيمتها التاريخية بموجب هذا الالتصاق «للمتن» بسنده .

وبالنسبة لى أيضا ، فإن يوميات ومذكرات تسجل وقائع مصطفى النحاس من سنة ١٩٢٧ إلى ١٩٤٢ ، ثم تمتد كذكريات حتى وفاته ، لهى جديرة بالنظر الجاد ، وأن مذكرات وأوراق تتعلق

بمصطفى النحاس وتزيد من معارفنا عنه ، لهى مما يتعين أن نسعى إليه وننتقل إليه ، حيثما وجدنا امكانية لوجودها والنظر فيها والتعليق عليها .

عندما وردت لي المذكرات منسوخة على الآلة الكاتبة ، سألت عن المخطوطة فذكر لى أنها موجودة ، وأننى يمكننى أن أطالعها عندما أريد ، على أن أحصل عليها منه يدا ليد ، خوفا عليها من كثرة تداولها بين الايدى . وقدرت هذا الحرص ، ونحن رجال القانون نعرف معنى المخطوطة أو «الوثيقة» بأكثر مما يعرفه رجال التاريخ ، وأن المستند إن كان يتعلق عند المؤرخ بذكر خبر قد يمكن معرفته من مصدر آخر، فهو عند رجل القانون يتعلق «بحق» يؤول إلى صاحبه أو لا يئول ، أو بواقعة تولد حقا أو لا تولد ، والمستند هنا مصدر وحيد فى الغالب .

لكننى من جهة أخرى لم أحرص على سرعة مطالعة المخطوط ، أردت أن أترك نفسى للموضوع وأن اقرأ المذكرات كما لو كانت مطبوعة ، لا خلو للوقائع ، وقائع النحاس ، ولأعيش معه أيامه ، وأن أعرض هذه الوقائع على ما أعرفه وما هو متاح لى بمراجعة وقائع التاريخ ، ثم أسأل نفسى ، هل هذا هو مصطفى النحاس ، وذلك حسبما شاهدنا النحاس فى التاريخ ، وحسبما سمعناه فى ذكريات

صبانا وشرخ شبابنا الأول وحسبما قرأناه دارسين لتاريخ هذه الفترة الذى كان واحدا من صناع تاريخ هذا البلد فيها ، وحسبما فهمنا من دراستنا التاريخية لخطبه وأحاديثه وطرائق استجاباته أفعالا وردود أفعال .

كنت أقرأ وأنا يميل بى الظن ويرجح بالاطمئنان إلى أنه هكذا يمكن أن يفكر النحاس ويكتب ، وهكذا يمكن أن يرى الأحداث ويتحدث عنها ، وهكذا يمكن أن يتخذ مواقفه ، وكان هذا وجها من وجوه التقدير عندى ، وعنصرا من عناصر الضبط والتحقق من حجية الرواية ، ومن عناصر تحديد درجة المصداقية . ثم طلبت أن اطلع على المخطوطة وفحصتها مقارنا بينها وبين النسخة المحررة على الآلة الكاتبة ، وكانت المخطوطة على الوجه والصورة التى اثبتها فى هذه الدراسة فيما بعد .

بعد ذلك سعيت لرؤية الأستاذ محمد كامل البنا ، ومن عادتى فى دراستى التاريخية ألا ألجأ إلى اللقاءات الشخصية مع الأشخاص المتعلقين بالمادة المدروسة - حتى لو كانوا هم صانعوها - إلا بعد أن استنفد دراسة ما هو مكتوب عن هذه المادة ، فتكون اللقاءات الشخصية فى أواخر ما ألجأ إليه ، وذلك لاستكمل اسئلتى وأدوات تحقيقى وأواجهه بكل ذلك ، وليكون لدى من معرفة دقائق

الموضـوع وتفاصيله ما يعصمنى عن الانسياق وراء منطق الشخصية المعنيـة ، ولأن كل المصادر التاريخية المـادية مصادر «ليست واعية» مكتمـلة المادة لا تستطيع أن تقـدم إلى من يطالعهـا أكثـر أو أقل مما أعدت له أصـلا ، أما المصدر البشـرى فـهو مصدر حى ومتحرك فى مـادته ، وثمـة احـتـمـال أن تتـعـدل المـادة المنقولة منـه أثنـاء الحـوار معـه بالاضـافـة أو التـأويل أو الحـذف ، لذلك يتـعين أن يكون البـاحـث على أوثق إلمـام ممكن بالموضـوع قـبل أن يلتـقى بالمصـدر البشرى .

ذهبت إلى المرحوم محـمـد كامل البنا ، بعـد أن قرأت المذكرات «وامعنت النظر فيها واحضرت معى مجموعة الأسئلة والاستفسارات واستعددت للموضوعات المفتوحة التى يمكن أن يستطرد إليها الحديث أو يتطرق .

وكان مما اعددته من اسئلة ما يتعقل بسنة مولد البنا وتعلمه ومهنته وبدء معرفته بالنحاس وفترات اتصاله به اتصال ملازمة وطبيعة علاقته به فى كل فترة ، وعلاقته بغير النحاس من قادة الوفد الذين تردد ذكرهم كثيرا فى المذكرات ، ثم ماذا كان عليه حال المذكرات فى صورتها الأصلية ، وماذا كان مصير هذه المصادر الأصلية بعد نقلها ، ثم كيف

نقلت إلى هــوامش الكتب وبأى ترتيب وأية كـيـفـيــة . واين هـى هذه النقــول التى دونت على الهوامش ، وهل يمكن الاطلاع عليها الآن . أو على عينة منها .

ثم أن المذكـرات جـرت على ثلاثة أنواع ، النوع الأول فى صــورة يوميات من ٢٩ أغسطس سنة ١٩٢٥ إلى ١٠ فبراير سنة ١٩٤٢ بمدة تبلغ خمس عشرة سنة وبعدد صفحات تبلغ نحو ثلثى المذكرات ، وهذه هى الأكثـر مدعاة للاطمئنان والأفيد من حيث المادة التاريخية ، أما النوع الثـانى فـهـو ذكريات عـامـة عن وقـائـع جـرت خـلال المدة من ١٠ فبراير سنة ١٩٤٢ إلى قيام الثورة فى ٢٣ يولية سنة ١٩٥٢ لمدة عشر سنوات وبعدد صفحات يكاد يصل إلى الثلث الأخير من المذكرات وفيها من عدم الدقة فى تتبع الاحداث ومن الخطأ أحيانا فى بيانها ما يظهر منه أنـهـا كـتـبت بعـد سـنوات من ذاكـرة كليلة لم تراجع المذكـرات على الاحـداث ، وهـى دفـاعـيـة عن مـواقـف للوقـد فـى هذه الفـتـرة ، ولا تـحـمل اضافات تفصيلية يؤبه بها بالنسبة للمـادة التاريخية المتاح معرفتها الان من المصادر الأخرى . والنوع الثالث هو الكراسة الحادية عشرة الأخيرة من كراسات المخطوطة ، عن الفترة ما بين ٢٣ يولية ١٩٥٢ حتى انتقال النحاس باشا إلى رحمة الله ، ومنها صفحتان فقط وردتا محررتان على لسان النحاس ، والباقى ورد محررا على لسان البنا نفسه ، وهـى قليلة

جدا فى دقائعها وتتضمن تعليقات على وقائع الثورة ، ونكاد نرى منها كيف كان النحاس يفكر فى الفترة من ١٩٥٢ حتى وفاته في ١٩٦٥ ، أقول نكاد نرى شيئا من ذلك .

أعددت نفسى لكل ذلك ، ولكى أسأل الاستاذ البنا عن الأخبار التى وردت مكررة والتواريخ التى اختلفت لما سأشير إليه فيما بعد ، وهل هناك أجزاء ضاعت وهل يتوقع أن يشكك أحد فى هذه المذكرات ممن عايشوا النحاس .

مكثت مع الشيخ الكبير وقتا طويلا محاولا أن استخرج منه الجواب عن اسئلتى كلها أو عن أى منها ، وبسطت الحديث وزحمته وتركته لتلقائيات مجراه وركزته ، وسألت اسئلة مباشرة حينا وغير مباشرة حينا آخر ، ولكننى لم استطع قط أن أضع المحدث على طريق الجواب الكامل . كان التشتت بالغا مداه ، والكلام يجرى على لسانه سريعا بالاستطراد وبتداعى المعانى ، والذكريات تتزاحم بغير نظام محدد ، وعدم القدرة على التركيز ملحوظة . فلم استطع أن اتبين وقائع محددة عن كيفية النقل للمذكرات على هوامش الكتب وكيفية النقل من الهوامش ، ولا تبينت أمرا يتعلق بما آلت هذه الكتب المجموع منها وما صارت إليه .

كان الحديث يعلو ويهبط ويتوزع شعاعا ، إنما ما أمكن لى جمعه من هذا الشتات عن أحاديث الذكريات ، أن محمد كامل البنا ولد فى سنة ١٩١٣ ، فكان عند لقائنا سنة ١٩٩٢ قد بلغ الثمانين إلا شهورا ، وقد انتقل إلى رحمة الله بعد لقائى به بشهور قليلة . دخل فى صباه مدرسة الشيخ صالح الحديدى وتخرج فى كلية الحقوق وقيد محاميا ، وكان من أسرة عرفت بالتشيع للوفد ولمصطفى النحاس ، وأخوه الشافعى البنا يكبره بنحو عشر سنين حوكم فى قضايا اغتيالات الانجليز سنة ١٩٢٢ ومكث فى السجن سنين وعمل بعد ذلك فى صحافة الوفد موضعا لثقة النحاس ، وأخوه الثانى الشيخ محمد البنا كان من علماء الأزهر قريبا من النحاس ، وتولى وكالة الوزارة للشئون الدينية برئاسة الوزارة فى عهد وزارة النحاس الأخيرة فى ١٩٥٠ - ١٩٥١ . وقيل أنه كان مرشحا لمشيخة الأزهر الشريف .

ومحمد كامل البنا عرف النحاس صغيرا من هذا الطريق ، كما كان صديقا لمصطفى شوقى من أولاد أخت النحاس ، واتصل به من صدر الشباب فى بدايات الثلاثينات ، ثم لازمه ، وهذه الملازمة هى الاساس فى درجة الحجية التى تتوافر فيما يكتبه البنا الآن وينشره عن مصطفى النحاس . وقد ذكر لى فى هذا اللقاء الوحيد الذى جرى أنه كان أودع الكتب المنقول من هوامشها منزل صديق له بوزارة الأوقاف وكان يسكن

فى السبتية ، وأن ما سجله عما بعد ١٠ فبراير سنة ١٩٤٢ كان إملاء من النحاس عليه وعلى القريبين منه .

وأقول فى النهاية أن هذه الدرجة من الحجية الآتية من ملازمة البنا للنحاس ، هى درجة تسمح لدارس التاريخ أن يعتمد هذه المذكرات بين مراجعه عن مصطفى النحاس ، بحسبانها مذكرات محررة بيد سكرتيره وملازمه .

كما أقول أيضا أن يوميات تحرر ويرد مع كل منها تاريخها ، وذلك من ٢٩ أغسطس سنة ١٩٢٧ إلى ١٠ فبراير سنة ١٩٤٢ ، وتتفق وقائعها مع الاطار العام للتاريخ السياسى ، وتنسجم أحداثها وأجزاء أحداثها فى الغالب مع وقائع التاريخ العام وأحداثه ، ومع وجوه نشاط صاحب المذكرات ، تكون مذكرات شأنها شأن أى مرجع تاريخى جاد تتضمن ما يلزم الباحث أن يعتمده بين مراجعه وأن يبحثه فى الوقت نفسه ويمحصه فى ضوء النظر النقدى للوثائق والمستندات .

وأن القدر المتيقن بالنسبة لهذه المذكرات أنها عن مصطفى النحاس وإنه حررها بخطه سكرتيره محمد كامل البنا ، وخرجت الينا بخط البنا ، وأنها حررت فى صورتها الأخيرة منه فى مدة تنتهى فى سنة ١٩٨٣ . وانها بهذا تقوم لها من المصداقية ما

يتناسب مع مصدرها من محرر ذي اتصال وثيق ومباشر ومستمر بالنحاس ، ولها منزلة الشهادة عن النحاس ، وأن النظر في متن المذكرات ووقائعها ووجهة النظر المنسوبة إلى النحاس فيها ، كل ذلك يثبت لها هذا القدر من المصداقية الذي يضعها بين مراجع هذه الفترة خاضعة لما يخضع له كل مصدر تاريخي من وجوه النقد والتحليل والتحقيق .

إن المذكرات التي تحت أيدينا عبارة عن إحدى عشرة كراسة مكتوبة بخط اليد ، في كراسات من نوع «البلوك نوت» الكبيرة ، وتقلب صفحاتها لأعلى ، أولها غير مسطور وباقيها مسطور ، والخامس والسادس والسابع منها معظم أوراقها سائبة ، وبعض الأوراق يكاد يتماسك .

والكراسة الأولى تتكون من ٧٨ صفحة وتبدأ بسيرة ذاتية عن النحاس على لسانه ، ثم من صفحة ٧ تبدأ بلفظ «المذكرات» وفي شكل يوميات من ١٩٢٧/٨/٢٩ وتنتهي في ٢ يونية ١٩٣٠.

والكراسة الثانية تتكون من ٦٠ صفحة وتبدأ من أول يوليو ٣٠ وتنتهي في ٢٥ ديسمبر ١٩٣٣ .

والكراسة الثالثة تتكون من ٦٤ صفحة وتبدأ من ٢ يناير ١٩٣٤ وتنتهي في ١٥ ديسمبر ١٩٣٥ .

والكراسة الرابعة تتكون من ٨١ صفحة وتبدأ من ١٨ ديسمبر وتنتهى فى ٥ مارس ١٩٣٨ .

والكراسة الخامسة تتكون من ٦٤ صفحة وتبدأ من ٧ مارس ١٩٣٨ وتنتهى فى ١٧ يونية ١٩٣٩ .

والكراسة السادسة تتكون من ٢٥ صفحة مكتوبة (والباقى غير مكتوب) وتبدأ من ١٨ يونية ١٩٣٩ وتنتهى فى ٦ نوفمبر ١٩٣٩ .

والكراسة السابعة تبدأ بترقيم صفحاتها برقم ٢٦ وتنتهى صفحاتها برقم ٨١ فهى والكراسة السابقة متصلين بترقيم واحد ، والصفحة الأولى من هذه الكراسة التى تبدأ برقم ٢٦ تبدأ بتاريخ ١٤ نوفمبر ١٩٣٩ ، وتنتهى فى صفحة ٨١ بتاريخ ٢٠ أكتوبر ١٩٤٠ .

والكراسة الثامنة تتكون من ٨٧ صفحة وتبدأ من ٢١ أكتوبر ١٩٤٠ وتنتهى فى ١٢ يوليو ١٩٤١ .

والكراسة التاسعة تتكون من ٧٦ صفحة وتبدأ فى ١٤ يوليو وتنتهى اليوميات فى الصفحة رقم ٦١ بتاريخ ١٠ فبراير ١٩٤٢ . ومن صفحة ٦٢ تبدأ طريقة أخرى فى كتابة المذكرات ، وهو أن ترد فى فقرات طويلة عن موضوعات معينة وليس حسب اليوم .

والكراسة العاشرة تتكون من ٧٦ صفحة وهى كلها ترد بفقرات طويلة بسرد لموضوعات متفرقة على مدى الفترة من انتهاء «اليوميات» فى ١٠ فبراير ١٩٤٢ حتى سقوط وزارة أحمد نجيب الهلالى قبل قيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ . والموضوعات التى عولجت فيها لم يجر ترتيبها ترتيبا تاريخيا . ولم تنضبط وقائعها بتواريخ محددة فى المتن المكتوب ، الأمر الذى يجعل قارئها أكثر فهما لها إن كان على سابقة دراية بوقائع تلك السنوات العشر من فبراير ١٩٤٢ إلى يولية ١٩٥٢ . ويبدو أنها كتبت جميعها فى وقت تراخى كثيرا عن الاحداث المروية فى كل من فقراتها . وسأشير فى نهايات هذه الدراسة إلى ما يعن لى فى هذه المسألة إن شاء الله .

والكراسة الحادية عشرة ، وهى تتكون من ٥٥ صفحة ، وتبدأ فى الصفحتين الأولى والثانية بحديث للنحاس عن سماعه عن قيام ثورة ٢٣ يوليو . ثم فى صفحة ٣ يرد وسط السطر الأول عنوان «كلمة كاتب المذكرات» ولفظ «كاتب» مشطوب ومكتوب فى أعلاه لفظ «جامع» فتصير «كلمة جامع المذكرات» ثم يرد فى الصفحتين ٣ ، ٤ حديث الاستاذ محمد كامل البنا عن جمعه للمذكرات بعد وفاة النحاس مما أشرت إليه فيما سبق . ثم مع صفحة ٥ يرد فى وسط السطور الأولى عنوان «انطباعات النحاس عن ثورة ٢٣ يولية وآراؤه فيها» . وتحته عنوان

«كيف علم بثورة ٢٣ يولية» . ثم بعد ذلك إلى نهاية الكراسة يرد الحديث عن النحاس «بضمير الغائب» ، ومن ثم فهو نص ليس منسوبا إلى النحاس كتابة ولا إملاء ، وإن كان كله يتعلق بمواقف وحوادث وآراء للنحاس بعد قيام ٢٣ يولية ١٩٥٢ حتى وفاته وانتقاله إلى رحمة الله تعالى .

(٩)

كانت الكتابة اذن فى صيغة يوميات لمدة خمسة عشر عاما من ٢٨ أغسطس ١٩٢٧ إلى ١٠ فبراير ١٩٤٢ ، ثم أتت في صيغة مذكرات تتضمن فقرات مطولة على أحداث برمتها مكتوبة بعد الحدث بما لا نعرف من زمان ، وذلك لمدة عشرة أعوام . ثم ما كتبه الراوى عن النحاس بعد ٢٣ يولية ١٩٥٢ يرد بعد ذلك الحديث عن قراءتي للمذكرات، فإن صيغة الكتابة وأسلوبها ، وطريقة عرض الحدث ، دلنى فى بعض الاحيان على إنه كتب بعد الحدث وليس إبان تشكله ، رغم أنه مصوغ فى يوميات ، وهذا يمكن تفسيره بما صادف اليوميات من نقل متكرر . وإن كنت لم ألحظ هذه الظاهرة كثيرا ولست واثقا من صدق انطباعى بشأنها فى البعض الذى لاحظته ، ولكنها ملاحظة اقدمها بين يدى القارىء أستثير بها كوامن النظر والمطالعة النقدية وهو يقرأ ويتفكر فيما يقرأ . ومثالى على هذا القليل الذى لاحظته ، يرد مثلا فى يومية

١٢ ابريل ١٩٣١ عند حديث النحاس عن بدء الانشقاق الذى جرى فى الوفد من القادة الثمانية (المعروفين اسم السبعة ونصف) ، فقد جاء الحديث كما لو كان كتب بعد تمام الانشقاق ، أي بعد اكتمال الحدث وليس اثناءه حيث لم يكن عرف بعد هل سيفضى إلى انشقاق ام لا وما حجمه بالضبط ومن هم أعيان أشخاصه بدقة ، ومثال آخر عن حديث النحاس عن احتمالات الحرب العالمية فى كتابته ليومية ٢٦ مايو ١٩٣٨ ، اذ بدا من عبارات الحديث أن وقوع الحرب أمر محسوم .وقد لاحظت انه منذ نهايات حكم اسماعيل صدقى ومع فترة الانتقال التالية فى عامى ١٩٣٤ و ١٩٣٥ بدأت اليوميات تنتقل من الايجاز إلى التفصيل فى الاتصالات واللقاءات والمباحثات وما يثيره ذلك كله من أفكار ورؤى . كما لاحظت أنه على مدى السنوات الخمس عشرة لليوميات من ١٩٢٧ إلى ١٩٤٢ ، فإن حجم ما اثبتته اليوميات فى السنوات الخمس الأخيرة قد يفوق حجم ما اثبتته عن السنوات العشر الأولى ، وهذا قد يدل على اتجاه الاحداث إلى الكثافة وقد يدل أيضا على تأكد عادة كتابة اليوميات لدى صاحبها .

ولاحظت أيضا أن نقل المذكرات على هوامش الكتب ثم اعادة جمعها قد يكون اوقع محرر المذكرات فى التكرار أو الخطأ فى بعض

الاحيان، أما التكرار فقد وقع أغلبه فى يوميات الفترة ما بين أكتوبر ١٩٣٩ إلى أكتوبر ١٩٤٠ ، من ذلك تكرار تاريخ ١٢ اكتوبر ١٩٣٩ ، قبل ٧ اكتوبر وبعد ٨ اكتوبر وهو فى التكرار يتضمن أحداثا مغايرة ، لعل التاريخ الأول مقصود به ٩ أو ١٠ أو ١١ . وكذلك تكرار ٢٦ اكتوبر ١٩٣٩ قبل وبعد ٢٣ اكتوبر ، وكذلك تاريخ ٢٧ اغسطس ١٩٤٠ ثم هناك اخبار تكرر ذكرها فى تواريخ مختلفة ، منها ما ورد فى ١٢ ديسمبر ١٩٣٩ ، وما ورد فى ٢٨ يناير و ٥ ، ٧ عن اسمهان المغنية وعن الفريق عزيز المصري ، ٢٥ مارس عن تشرشل ، ١٢ ابريل عن اعتقال ايطاليين، ١٥ ابريل عن مقتل ابن الوزير السعدى على ايوب وتكرار تاريخ قصة دخول الملك فاروق على أمه الملكة نازلى وهى مع رئيس الديوان الملكى أحمد حسنين ، إذ تكررت ثلاث مرات فيها ٨ مارس ١٩٣٨ ، ٢١ سبتمبر ١٩٤٠ . وكذلك خبر شطب رقيب الصحافة اخبارا عن مقابلات النحاس يذكر فيها . الدار العامرة وذلك فى ٥ نوفمبر ١٩٤٠ ، وفى ١٦ يولية ١٩٤٠ ، وكذلك قصة تعجب النحاس من عثوره على المصحف مفتوحا للقراءة في منزل طه حسين ، إذ ذكرت هذه القصة فى اوائل الثلاثينات ثم فى ٢ يناير ١٩٤٢ .

وثمة أخطاء وقعت ، لعلها من النقل بعد سنين ، منها مثلا خبر يرد فى ٢٨ فبراير ١٩٤١ عن صحيفة صوت الأمة وهى فى الواقع لم تصدر إلا فى ١٩٤٦ ، ولعله كان يقصد صحيفة الوفد المصرى التى صدرت

فى ١٩٣٨ وبقيت حتى ألغتها حكومة صدقى باشا فى ١٩٤٦ فحلت محلها «صوت الامة» . منها إشارة سريعة فى ٢٣ يناير ١٩٣٨ ورد بها لفظ «الغاء» المعاهدة الصحيح إبرامها ، فلا يرد الخطأ فى ذكر لفظ «الغاء» الا لمن ذهنه مشغول بالالغاء ، ولم يكن ذلك حادثا فى سنة ١٩٣٨ .

وهناك ما ذكر فى ١٠ مارس ١٩٤١ من ذهاب النحاس ليعزى فى وفاة الشيخ محمد العدوى ، ثم حديثه فى ١٠ نوفمبر ١٩٤١ أن النحاس طلب كلا من الشيوخ محمد البنا ومحمد ابو زيد العدوى ودراز يسألهم عن امر يتعلق بالهتد . ثم ما ورد فى ٨ يولية ١٩٤١ من لفظ «الهوية» للاشارة إلى ما يثبت الشخصية ، فلا اخال أن هذا اللفظ كان مستخدما فى مصر فى ذلك الوقت بهذه الدلالة .

تظل كل هذه الملاحظات محدودة ، ولا تحمل أثرا جوهريا يتعلق بمصداقية الصياغة اليومية للمذكرات خلال المدة من ١٩٢٧ إلى ١٩٤٢ . أما الفترة التالية لذلك التى صيغت فيها المذكرات فى صورة فقرات طويلة يتعلق كل منها بموضوع محدد ، ومن هذه الموضوعات مثلا ما يتعلق باوجه نشاط وزارة النحاس فى ١٩٤٢ ، وأحداث الوزارات التى خلفت الوفد بعد ١٩٤٤ مثل حادث كوبرى عباس ومحاولة قتل النحاس ، ثم أحداث وطرد النحاس فى ١٩٥٠ .

أما تلك الفترة فيلاحظ أن كثيراً من هذه الفقرات اتخذ طابع الرد

أو الدفاع عن موقف الوفد إزاء أزمة قامت أو تهمة سياسية واجهته من خصومه أو غير ذلك ونحن نلحظ حديثا مثلا عن تهم الكتاب الاسود الذى أصدره مكرم عبيد بعد انشقاقه عن الوفد وغيره ، مثل الفراء الخاص بزوجة النحاس وشراء النحاس لمنزله ونظارته على وقف عبد العال ، ووقائع تهم المحسوبية والاستثناءات واستغلال النفوذ ، وكتب ذلك كله دون تاريخ فلم يتبع التتالى الزمنى فى رواية الاحداث ، ومن ذلك ما أثاره خصوم النحاس عند طلبه تقبيل يد الملك عندما تولى الوزارة في ١٩٥٠ ، وخطاب النحاس والملك فى أوروبا فى صيف ١٩٥٠ وكل ذلك من حيث انتقاء المادة والوقائع ومن حيث أسلوب الكتابة وطريقة تناول الحدث ، مما يرجح معه الظن بأنها كتبت بعد مدة طويلة من وقوع الحدث ، فهو يعالج أحداثا مكتملة وهو يعالجها من منظور دفاعى أو تفنيدى . وبعضها وضح من سرده أن الذاكرة كانت صارت كلية مثل ما ذكره عن أن «أحمد عبد العزيز» أطلق عليه فى حرب فلسطين بطل الفالوجة ، والصحيح أن من أطلق عليه ذلك هو السيد طه، وكان أحمد عبد العزيز قائمقام فى الجيش تطوع لتحرير فلسطين ١٩٤٨ ودخول الجيش المصرى رسميا إليها فى ١٥ مايو ١٩٤٨ واستشهد قبلها ، ومثل ما ذكر عن قصة مجىء محمد مصدق رئيس وزراء ايران إلى مصر بعد تأميم البترول فى ايران وورد بعدها الحديث

عن حكومة النقراشي وجلاء الإنجليز عن المدن الكبرى وقتها ، والنقراشي أغتيل فى ديسمبر ١٩٤٨ ، ومصدق جاء مصر فى عهد وزارة النحاس التى تولت الحكم من يناير ١٩٥٠ إلى يناير ١٩٥٢ وعلى أية حال فان هذا القسم من المذكرات الذى تلا اليوميات المحررة التى توقفت اعتبارا من ١٠ فبراير ١٩٤٢ ، هذا القسم يبدو لى أنه قليل الأهمية من الناحية التاريخية من حيث المحتوى العام للوقائع ومن حيث المادة التاريخية التى تضمنها ، وأنا لم أجد فيه ما يثير الانتباه أو يلفت النظر ، بله أن يضيف شيئا إلى معارفنا عن هذه الفترة أو يصحح من وقائعها أمرا .

(١٠)

أول ما يقابلنا فى قراءة المذكرات هو تبين ملامح شخصية النحاس كزعيم وكسياسى وكانسان ، وهذه فيما يبدو تكون أول مرة تتكشف شخصية مصطفى النحاس لمن لم يعايشوه من أهل جيله . وأول ما أريد أن أشير إليه فى تبين ملامح شخصيته من مذكراته ، هذه المسألة التى أشار إليها فى مقدمة مذكراته عن سيرته ، فعندما أخذه أبوه من بلدته السنبلاوين وذهب به إلى القاهرة ليلتحق بمدارسها ، شددت الأم توصيتها للأب بان يسلم مصطفى «لسيدنا الحسين» أول وصوله إلى القاهرة ، ولم يكن الاب يحتاج تأكيدا منها ليعمل بهذه «الوصية» وما أن وصل هو وابنه إلى القاهرة حتى بلغ به مسجد الحسين وهتف عند

الضريح أنه يسلم مصطفى لسبط رسول الله صلى الله عليه وسلم . وسيعرف القارىء من تتبع المذكرات على مدى عمر مصطفى النحاس ، إنه كان يذهب للصلاة فى مسجد الحسين كلما حزبه أمر أو ضاقت فى وجهه الدروب ، وأنه كان لديه دائما حس إيمانى مرهف .

أما عن زعامته ، فلا ابدأ بالاشارة إلى نشاطه السياسى وشعبيته ، ولكنى اشير إلى واقعتين أثبتتهما المذكرات ، أولاهما ما ورد فى يومى ١٢ ، ١٣ يناير ١٩٤١ ، إذ كان النحاس يقضى اياما فى مشتاه بالصعيد ، واتفق وجود السفير البريطانى ، وكان أحد رجال الوفد هناك أهدى «كامل البنا» سكرتير النحاس حصانا صغيراً لابنة شقيقه يتيمة الأم وحدث أن ابن مايلز لامبسون السفير البريطاني وكان صبيا وحيدا رأى الحصان فتعلق به ، وبذلت المحاولات ليتدخل النحاس لاقناع البنا بالتنازل عن الهدية ، ولكن اصرار النحاس على رفض التدخل ، ورفضه شفاعة رجال الوفد الآخرين ، ورفضه ابداء هذا القدر من المجاملة البسيطة للسفير فى ظروف تقارب سياسى وشيك ، كل ذلك يلقي ضوء على السلوك الشخصى للنحاس ومدى استقامته فى تعامله ، وأهم من ذلك تكشف عن عبء الزعامة الحقة من حيث كونها امانة وشعورا عالي المستوى بأن الزعيم أمين على ما ائتمن عليه بالنسبة لما يتعلق بالمحيطين به ولمن أسلموه قيادهم . هذه المراعاة الدقيقة للحق فى مسألة محدودة الاهمية لدعم علاقة خطيرة الأهمية ، هذه المراعاة تكشف الدرجة العالية

من الشعور بالتبعة لدى الزعيم أو القائد تجاه من يقودهم ، سواء حقوقهم أو مصائرهم أو مصالحهم .

وثانية الواقعتين ، أوردتها المذكرات بين ١٨ و ٢٣ نوفمبر ١٩٤١ ، اذ ورد فى بريده خطاب بالفارسية من بلدة بايران ، وطلب النحاس من يترجم له الخطاب ، فإذا به من اخ ايرانى يبحث عن أخيه الشاعر الكفيف الذى انقطعت أخباره وهو بالقاهرة (الشاعر عبد المحسن الكاظمى) واهتم النحاس بالامر وكلف من يبحثون عنه حتى وجدوه وهو مصاب بالشلل ، ونظرا لظروف انقطاع المواصلات بالحرب أرسل النحاس إلى صاحب الرسالة يرد عليه عن طريق الصليب الأحمر .

ونحن نلحظ فى المذكرات على طولها واتساع مساحتها الزمنية ، مدى اهتمام النحاس الفائق بشعبيته وشعبية التنظيم الذى يقف على رأسه ، وهو دائم الوصف لما يلقاه عند سفره وترحاله وزياراته للأقاليم من احتفاء وتجمهر شعبى ، لا يمل ولا يكل من ذكر ذلك ، ووصفه حماس الجماهير وحسن استقبالهم ، وعلى كثرة ما وصف ذلك فهو فى كل مرة يصفه كما لو كان يحدث لأول مرة ، وهو يذكرها دائما كما لو كان فوجىء بهذه الاستقبالات وبالحشود وتنظيمها وأن الامر كان يجرى بتلقائيات الاوضاع وعفوياتها .وكان النحاس يقضى شهور الصيف بما

يجاوز الأربعة أشهر في الاسكندرية وبعض أسابيع طويلة من الشتاء في الصعيد ، والمذكرات تكشف إن لم يكن الأمر أمر نزهة فقط ، فهو فى كل من هذه الأماكن يستقبل الوفود من المناطق المجاورة ويرتحل إلى الأقاليم المحيطة ، سواء الوجه البحرى أو فى الصعيد ، وهو فى كل من هذه اللقاءات والمواكب ترد الخطب السياسية منه ومن غيره ويجرى التعليق على الأحداث ، ويختبر شعبيته ويزكيها وهكذا . وندرك كذلك فى وضوح عندما رآه الملك فى ردهة فندق باسوان (يناير وفبراير ١٩٤١) ورفض أن يصافحه فكانت عودة النحاس من مشتاه هناك ومن الاقصر على طول المسافة إلى القاهرة بمثابة استعراض لقوته الشعبية .

ويلحظ القارىء من مطالعته لهذه المذكرات ، أن اكثر اثنين حظيا بالحديث فيها هما «الملك» فؤاد ثم «فاروق» و «السفير البريطاني» ، وهذا يوضح وجهة مصطفى النحاس ، الذى قضى عمره السياسى كله يحارب القوى السياسية المتمثلة فى هذين الشخصين ، وقضاه فى محاربة هذين الشخصين فيما يمثلانه ولا ازيد على القارىء فى ذكر شواهد هذا الأمر ، فالمذكرات مليئة بما يؤكد هذه الدلالة ، ولا اورد فضل حديث عن ذلك ، ولكننى أشير إلى أمرين ، أول هذين الأمرين ما يلحظه القارىء من مطالعته ما ذكره مصطفى النحاس عن لقائه لكل من

هتلر فى المانيا فى فبراير ١٩٣٧ ، وللحكومة الايطالية فى أغسطس وسبتمبر ١٩٣٨ ، كانت كل من الدولتين تعرض على زعيم المصريين الصداقة في مواجهة بريطانيا ، وكان النحاس بالحس الأصيل لرجال الحركات الوطنية فى مثل بلادنا ، يرى فيهما طامعين لا صديقين وهو لا يأمن أيا منهما على وعود يقدمانها لمصر ، ولا يرى فى اى منها خيرا عن الاحتلال البريطاني ، فلم يكن للنحاس فى هذا الشأن أية أوهام . ثم نقرأ عن غضبته لما عرض عليه موسولينى رئاسة مصر إن احتلها الايطاليون ، وذلك فى أغسطس ١٩٣٩ .

والأمر الثانى أن اهتمام النحاس بالمسألتين الوطنية والديمقراطية ، يكاد يكون اهتماما مقصورا عليها دون ما يضطرب به المجتمع من مشاكل وقضايا اجتماعية واقتصادية فى شتى المجالات ونحن لا نكاد نلتقط للنحاس في هذه المذكرات على مدى خمس وعشرين سنة اهتماما بقضية أخرى غير الاحتلال والدستور ، اهتماما يحتل بؤرة إدراكه السياسى فى فترة معينة . ونلحظ ذلك عند حديث النحاس عما طرح من فكرة عقد مؤتمر للوفد يبحث فى الشئون السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، خرجت الفكرة فى المذكرات فى ١٥ فبراير ١٩٣٤ واعلن هذا المؤتمر حسبما ورد بالمذكرات فى ١٨ يونية ١٩٣٤ ، ثم ورد الحديث عن المؤتمر عند انعقاده فى ١٧ و ١٨ نوفمبر ١٩٣٥ ، وفى كل هذه الاشارات فى المذكرات لا نجد انشغالا للنحاس اقتضى منه الاشارة فى

المذكرات لأى من موضوعات المؤتمر الاجتماعية أو الاقتصادية مما كان يثور من قضايا التعليم والصحة والعمالة والريف والزراعة وتطوير الصناعة والمصايف ... الخ ولما طرحت فكرة عقد مؤتمر آخر وسجلتها المذكرات فى ١٥ يونية و ١١ اكتوبر و ١٥ ، ١٨ نوفمبر ١٩٣٨ ، لم يظهر انشغال خاص للنحاس باى من هذه القضايا ولا بالسياسات المقترح اتباعها ولا بالبحوث التى تقدم أو قدمت .

وقد يكون لهذه الملاحظة أثرها السلبى بالنسبة للنحاس وللوفد ، وخاصة بعد تصاعد المشاكل الاجتماعية الاقتصادية عقب ابرام معاهدة ١٩٣٦ ، إذ بدأ الرأى العام يضع هذه المشاكل فى بؤرة اهتمامه ، وبدأت الكتابات والمقترحات والرؤى الاجتماعية تظهر فى الصحافة والكتب وغيرها ، ولم يجد للوفد ولممثليه رؤية واضحة يقود بها الرأى العام فى هذه المجالات وتربط بينها وبين قضيتى الاستقلال والديمقراطية لتتغذى الحلول من بعضها البعض فى هذا الشأن ، وكان هذا من أهم اسباب خفوت الرؤية الوفدية المستقبلية عن فترة ما بعد جلاء الانجليز وتحقيق الاستقلال ، كما كان من أهم اسباب الفجوة التى حدثت من بعد بين المسألة الديمقراطية وبين قضايا الاصلاح الاجتماعى سواء على مستوى مفكرى هذه القضايا من الحرب العالمية الثانية (مثل ابراهيم بيومى ومحمد خطاب و ... الخ) أو على مستوى

الحركات السياسية الشعبية التى ظهرت فى أواخر الثلاثينات وخلال الأربعينات كالتيارات الاسلامية والاشتراكية وغيرها ، ومن هنا تصدق لدىّ الملاحظة التى سجلتها فى القسم الاول من هذه الدراسة من إنه إذا كان سعد زغلول فى مصر يماثل غاندى في الهند ، فإن مصطفى النحاس لن يستطيع أن يماثل نهرو خليفة غاندى هناك ، ومن هنا لم يستطع الوفد أن يبقى لأنه لم يستطع أن يستجيب إلى المتطلبات الجديدة التى أفرزها الواقع الاجتماعى فى مصر منذ ابرام معاهدة ١٩٣٦ ، وبخاصة منذ نهاية الحرب العالمية الثانية .

ولكن كل هذه الآثار السلبية ، لا ينبغى أن تفسد رؤيتنا لأمر آخر مهم ، قد يكون تأثر بالضرورة تأثرا ايجابيا باقتصار اهتمام النحاس على قضيتى الاستقلال والدستور ، ذلك أنه بهذا القصر استبقى لاطول فترة ممكنة امكان التجمع المصرى الواسع للمطالبة بالاستقلال وصب القضية الدستورية فى نسيج بناء الجماعة الوطنية بما تتصف من شمول وعموم ، ثم هو ترك لصحافة الوفد أن تكون ذات ثوب فضفاض فى تصديها للمشاكل الاقتصادية والاجتماعية والفكرية المختلفة .

كما نلحظ من قراءة هذه المذكرات أن النحاس عندما كان يعتلى

الوزارة ، كان يترك لكل وزير اعداد خطة وزارته يتصرف بها حسبما يراه الأصلح ، فلم يكونوا يعودون للنحاس فى كل صغيرة وكبيرة فى شئون وزاراتهم .

كل ذلك يمكن فهمه وتقديره ، بمراعاة سبق معرفة القارىء بالنحاس وبالوفد وبالحركة الوطنية الديمقراطية ، وقد أفادت المذكرات فى هذا الخصوص انها أكدت معانى واضفت عليها وقائع ملموسة وعززت رؤية من يطلع التاريخ من حيث التكوين الذاتى لزعيم مصر فى ذلك الوقت .

أما ما فاجأنى كثيرا ولم استطع أن اغفل عن الاندهاش له فهو رؤية النحاس للسودان كما وردت فى هذه المذكرات التى حررها سكرتيره محمد كامل البنا ، فنحن نعلم أن وحدة مصر والسودان كانت الهدف الصنو لهدف الجلاء البريطانى عن مصر ، وبالهدفين معا تشكل الشاغل الاساسى للحركة الوطنية المصرية على مدى النصف الاول من القرن العشرين ، وكان الشق المتعلق بالسودان من شقى التوجه الوطنى المصرى هو ما تحطمت على صخرته مفاوضات عديدة بين المصريين والانجليز ، نذكر منها على سبيل المثال مفاوضات سعد زغلول فى١٩٢٤ ، ومفاوضات مصطفى النحاس فى١٩٣٠ ، ومفاوضات اسماعيل صدقى فى ١٩٤٦ .

هذه الأهمية القصوى للسودان ، التى يستشعرها المصرى بعامة ، ويستشعرها المصرى فى النصف الأول من القرن العشرين بخاصة ، ويستشعرها رجال الحركة الوطنية على وجه أخص ، ويتوقعها الجميع من الوفد ومن النحاس . هذه الأهمية لا نجدها متمثلة ولو بأدنى درجات الاهتمام ، فى المذكرات المطروحة علينا هنا ، لا نجد حديثا ولا تعليقا ولا رؤية ولاذكرا للسودان فى المذكرات إلا عند حديثه عن وقائع مفاوضات سنة ١٩٣٠ ومفاوضات سنة ١٩٣٦ أو عن نص السودان فى الدستور المصرى لسنة ١٩٢٣ (١٩ نوفمبر ١٩٣٥) ، فيذكرها كنقطة من نقاط المفاوضة مع الانجليز ، أما السودان ذاته وناسه ورجاله وأوضاعه ، وعلاقات النحاس بكل ذلك ومتابعته لأخباره ووقائعه وما يحدث هناك وما يحدثه الانجليز ، فلا نجد من كل ذلك إلا خبرين أو ثلاثة ، فى ٩ أكتوبر ١٩٤٠ عندما تأسس مؤتمر الخريجين بالسودان وما أرسلوا به إلى النحاس بهذه المناسبة ، ثم فى ٤ فبراير ١٩٤١ عندما شاهد فى الصعيد فرقة مسرح مصرية عائدة من السودان ، ثم ما حكاه عن رفض الحكومة التصريح له بالسفر إلى السودان فى ١٩٤٧ أو ١٩٤٨ . ولعلها كانت المرة الأولى التى «فكر» النحاس فيها أن يذهب إلى السودان .

إن هذا يدلنى على أن السودان كجزء من وادى النيل ومتمم لمصر ، كان خارجا عن مجال الرؤية اليومية وعن اطار الشاغل اليومى أو الادراك الملموس لقيادة الوفد وقتها ، ولذلك لم يكن غريبا أن يعلق النحاس على معاهدة السودان بين مصر وبريطانيا فى ١٩٥٣ ، بأن تخيير المعاهدة للسودانيين بين الاستقلال والوحدة مع مصر سيؤدى إلى اختيارهم الاستقلال .لقد سبق لى أن عرضت لهذا الموضوع فى دراسة لى عن (سعد زغلول يفاوض الاستعمار ، ١٩٧٧) ، ودراسة أخرى وردت في كتاب (دراسات فى الديمقراطية المصرية ١٩٨٧) ، وذلك عن وضع السودان فى الحركة الوطنية المصرية خلال النصف الأول من القرن العشرين . ومجمل الأمر حسبما ذكرت ما يلى :

أولا : يبدو لى أنه لم يكن صحيحا أن الحركة الوطنية المصرية كانت فى النصف الأول من القرن العشرين تستهدف الوحدة بين مصر والسودان ، أن هذه الحركة انبنت على اساس من الجامعة الوطنية المصرية ، وكانت غايتها اجلاء المحتل من مصر والنهوض بمصر ، ودليل ذلك أن حزبا مصريا من احزاب النصف الأول من القرن العشرين لم يحاول أن يتكون على أساس جامع بين مصريين وسودانيين ، ولا حاول جادا أن ينشط بين

السودانيين كما ينشط بين المصريين ، ولا أن يبنى تشكيله من أهل البلدين معا .

ثانيا : إن سعى المصريين لتحقيق هدفهم بشأن السودان كان يجرى فى إطار العلاقة الثنائية بين مصر وبريطانيا ، وقد عالجتها المفاوضات والمباحثات فى هذا الاطار ، بواسطة جميع القوى السياسية التى كانت تتبادل الحكم من ١٩٢٠ إلى ١٩٥١ ، وإن كان بدأ نوع من الاتصال المنظم نسبيا بالأحزاب السودانية فى النصف الثانى من الاربعينات .

ثالثا : يمكن القول بان السودان فى السياسة المصرية لم يكن مسألة وحدة بين بلدين بقدر ما كان شعار الوحدة مقصور الدلالة فى هذه السياسة على حماية الامن الاستراتيجى لمصر باعتبار أن منابع النيل آتية من السودان وما وراءه ومياه النيل كلها ترد مصر عبر السودان .

لذلك كان جهد السياسة المصرية أن تحذر كل الحذر من وجود دولة اجنبية تحكم السودان وتطمع فى مصر وتستطيع بقوتها العلمية والاقتصادية والعسكرية التحكم فى مياه النيل لتسيطر على مصر . وهذا ما نلمسه فى موقف رجال الوفد من موضوع السودان فى مفاوضات ١٩٣٠ ومن تعليقهم على ذلك اثناء

مفاوضات ١٩٣٦ ، وخاصة ما ورد على لسان فتح الله بركات فى ١٩٣٠ .

أننى لاحظت ببالغ دهشتى أن ما نسب للنحاس فى هذه المذكرات عن الهند كان أكثر كثيرا مما ذكره عن السودان ، ولست أندهش لاهتمامه بالهند فهو بلد مشارك لمصر في حركته الوطنية ضد الانجليز في الفترة نفسها ، وهو بلد يخوض معركة فتنة طائفية انقذ الله مصر منها، وهو بلد يؤثر مصيره في مصير الاستعمار البريطاني بعامة ، ولكن المثير للدهشة هو زيادة الاهتمام به عن الاهتمام بالسودان ، حسبما يكشف الحديث فى المذكرات عن شواغل النحاس اليومية في أمور السياسة ، ولا أريد هنا أن أعيد ما ذكره النحاس عن الهند ولكنى أشير لما ورد بالمذكرات عن الخلاف بين المسلمين والهندوس ، وادراك كل من محمد على جناح زعيم المسلمين هناك وغاندى ونهرو لمنزلة الحركة الوطنية المصرية وأثرها المعنوى واحترامهم لها ولزعيمها وكذلك ما تشير إليه المذكرات من استغاثة المسلمين الهنود بالنحاس من اضطهاد الهندوس لهم ، وشكاية محمد على جناح من ذلك وطلبه من النحاس التدخل بنفوذه لدى غاندى ونهرو ليبذلوا سعيهم لوقف اسباب الشكايه ، وما تشير إليه المذكرات ايضا من اهتمام النحاس بذلك كله

وبذله ما وسعه الجهد لمساعدة التوجه الوحدوى للحركة الوطنية الهندية ولمساعدة المسلمين هناك ، وما تشير إليه كذلك من اعتراف كل من غاندى ونهرو في رسائلهما للنحاس بما يرتكبه الهندوس من تجاوزات ضد المسلمين ، ثم اقتراح النحاس على محمد على جناح أن يستقل المسلمون بدولة لهم إن لم يمكن بد من ذلك ، ويجمع النحاس الوفد لمناقشة هذا الأمر ولتأييد الانفصال ، كل هذه الاخبار والمواقف بدت لى هامة أردت التأكيد عليها فى هذه الدراسة (تطالع المذكرات على وجه الخصوص أيام ٢ أغسطس ١٩٣٦ و٢٤ نوفمبر ١٩٣٨ و١٧ و٢٠ و٢٢ يناير و٨ فبراير ١٩٣٩ ، ١٧ مايو و١٨ و٢٠ و٢١ سبتمبر و١١ و١٢ و١٩ أكتوبر ١٩٤٠ و١ و٢ و٣ نوفمبر ١٩٤١ ثم اقتراح النحاس على محمد على جناح تأليف دولة خاصة باسم باكستان فى المذكرات التالية لليوميات ، ص٩١٠) ، ثم زيارة نهرو للنحاس فى معزله بعد الثورة ٢٣ يوليو .

أما علاقة النحاس بالحركة الوطنية فى كل من سوريا ولبنان وفلسطين والعراق ، فهى قد حازت الاهتمام الذى فرضه عليه رجال هذه الحركات الوطنية بما كانوا يرسلون إليه به من رسائل وبلقاءاتهم به ، وهى غالبا ما تبدأ فى أعوام ١٩٣٩ و١٩٤٠ و١٩٤١ (يولية ١٩٣٨ ، اكتوبر ونوفمبر ١٩٤٠ ، مارس وابريل ١٩٤١) .

(١١)

من مطالعة هذه المذكرات يتأكد لدى القارىء ما اتصف به النحاس من حيث معارفه وردود فعله ، فهو رجل سياسة عملى ، بمعنى أنه يستغرق فى الرؤية اليومية للأحداث وينتظر الامكانيات أن تتفتح أمامه دون أن يستشرف رؤية المسار بنظر الطائر ولا أن يعمل على إيجاد الأحداث إيجادا .

يبدو لى أن هناك نوعين من المعارف السياسية ، نوعا يتعلق بالسياسات والاحداث الجارية وقد يستقى من الاتصالات الشخصية والاحاديث المباشرة ، وكان هذا متوافرا للنحاس فى كل يوم وكل لحظة ، والمذكرات تظهر أن النحاس لم يكن معزولا ولا كان ثمة عوائق بينه وبين الناس ، واليوميات تظهر كم كانت حياته اليومية وسط الاحداث ووسط الرجال ، ولقاءاته ومقابلاته لا تنقطع يوما ، ومطالعة صحف تلك الفترة يكشف ذلك أيضا ، فقد كان هناك مكان ثابت فى أهم صحيفة من صحف الوفد يثبت يوميا لقاءاته ، وستكون هذه اللقاءات المثبتة فى اليوميات وسيلتنا فى هذه الدراسة لتتبع بعض الأحداث المهمة فى حياة النحاس وتاريخ الوفد .

أما النوع الثانى فهو يتعلق بالمعارف التى لها صفة النظر

السياسى الكلى لأوضاع المرحلة التاريخية المعيشة أو أوضاع المرحلة التالية ، وما يتشكل من الظواهر العامة فى التوجهات السياسية ، سواء فى الداخل أو فى الخارج ، وهذه أمور لا يكفى فيها التلقى العابر من اللقاءات الجارية ولا الأحاديث والقراءات التى تقع عفو الساعة ، وهذا المستوى من المعارف السياسية هو ما تعد فيه الكتب والدراسات وتنشر المقالات المتخصصة ، وتكمله الكتابات فى التاريخ المعاصر أو فى سياسات الأمم وأحوال الشعوب وتوجهات الحركات السياسية ، ومن الرؤية المستمدة من هذه المعارف ، يمكن ترسم الخرائط السياسية للحركة ويمكن تبين أوضاع التحركات المستقبلة .

هذا النوع الأخير من المعارف ، لايبدو لى من مطالعة هذه المذكرات أن مصطفى النحاس كانت له مصادره ومراجعه الاساسية فيه ، ولا أنها معارف تشكل احتياجا متبلورا لديه . لم أجد إشارة إلى كتاب قرئ أو مجال من مجالات النظر السياسى شعر باحتياج لدراسته وأوصى من حوله بتبين جوانبه . وكانت مجالات النظر «السياسى» تحتاج لمن يدرسها ويتبينها من المعايشين لاحداث الثلاثينات والاربعينات وبصفة خاصة فى الشئون الدولية ، اننا نجد هذا النوع من المعارف لدى النحاس ، حسبما نستظهر من «اليوميات» ، إنما يرد من

حديث عابر (على سبيل المثال ٢٠ أغسطس ١٩٣٢ ، ١٥ أبريل ١٩٣٣ ، ١ مايو ١٩٣٤ إذ بدأ يستشعر خطورة احتمالات الحرب من رسالة أتته من الطلبة المصريين فى ألمانيا) وإن كنا نلحظ أنه عندما بدأت نذر الحرب تلوح فى الافق القريب ، كانت ترد إليه تقارير عن الحالة الدولية (٢١ فبراير ، ١٦ أغسطس ١٩٣٩) وجمع الوفد لمناقشة هذا الأمر فى ١٨ أغسطس ١٩٣٩ قبل إعلان الحرب بأقل من اسبوعين (أول سبتمبر ١٩٣٩) . ونحن أيضا لا نجد فى المذكرات على طول مدى الفترة التى كتبت فيها من ١٩٢٧ إلى ١٩٥٢ ، لا نجد تحليلا سياسيا مرتبا ومنظما لأى من أوضاع الموقف السياسى المتغير عبر مراحل هذه الفترة ، كما نلحظ مثلا أنه اثبت فى يوميات ١٤ مارس ١٩٣٣ أنه عرف مصادفة أن حزب العمال البريطانى مؤيد له .

ويتصل بهذه الملاحظة ما تركته قراءة المذكرات لدىَّ من انطباع بأن سياسة النحاس كانت تنبنى فى الاساس على التحصن بصلابة فى موقفه الوطنى الديمقراطى دون أن يهتم كثيرا بأن تكون لديه المبادرة فى الفعل السياسى ، كان أساس موقفه هو موقف المقاومة ، أكثر مما يكون موقفا للهجوم أو لتحريك الاحداث أو العمل المبادر لإعادة تشكيل الاوضاع بما يفضى إلى الاسراع فى تحقيق الاهداف المرجوة . لم

تكشف لنا هذه المذكرات أنه كان يناور ولا أنه يسعى بايجابية لعقد التحالفات مع أي من القوى أو الشخصيات التي يمكن أن تفيده في مسعاه في لحظة ما ، ولا أنه يبادر باستغلال الخلافات بين خصومه . والمذكرات مثلا تتضمن أحاديث كثيرة متناثرة تجرى في مناسبات اجتماعية بينه وبين أفراد من الأسرة المالكة ممن لم يكن يرضيهم مسلك الملك فاروق (أو فؤاد من قبله) ، ومن هؤلاء الأمير محمد على ولي العهد الطامع في العرش ، والأمير عمر طوسون الكاره للانجليز والسلطانة ملك زوجة السلطان السابق حسين كامل والنبيل عباس حليم ، ومع كراهة النحاس وعداءه الشديد للملك فاروق مما يبدو جليا في المذكرات ، لم يعمل على استغلال أي من هذه الخصومات داخل الأسرة المالكة ضد الملك لاحراجه (٢ ، ١٢ ، ١٥ ، ٢٠ يناير ، ٥ فبراير ١٩٣٣ ، ١٠ يناير ١٩٣٤ ، ٢٢ يولية ١٩٣٩ ، ١٦ يولية ١٩٤١) .

والتوجه الاساسي للنحاس في مذكراته أنه رادٌ للفعل أكثر منه مبادر بالفعل ، وهو يصوب محدثه أكثر منه محرك لمحدثه ، وهو يجيب بلا ونعم أكثر منه ساع لتعديل اتجاهات من يتكلم معه ، ثم هو يحكي في مذكراته عما قال أكثر منه متأملا ومحللا لما استقبل من حديث الغير أو لاحظ من سلوك الآخرين . ويمكن للقارىء عند القراءة

لهـذه المذكرات المقارنة بين مسلك النحاس هذا وبين مسلك السـفير البريطـانى مايلز لامبسـون حسبما اثبتته المذكرات ذاتها ، أنه دائمـا مبادر وهو لا يمل ولا يكل فى سعيه الدءوب لتغيير موقف النحاس ، رغم أنه كثيرا مـا كان يواجه من النحـاس بأكثر مما يواجه من الصـخر الصلد .

وأتصـور أنه كان يمكن للوفد بثقل حجمه الكبير وانتشاره بين الناس وفى كل البيئات الاجتماعية وتخلله لكل الأجهزة والهيئات ، وتعامل الكافة معه كهيئة لها وجود كبير معترف به فى كل المستويات (حتى الملكة نازلى والـدة فاروق كانت على علاقة طيبة بالنحاس ، ٢ أغسطس ١٩٤٠ ، وحتى مراد محسن ناظر الخاصة الملكية كان على علاقة وثيقة بالنحاس ٢ أكتوبر ١٩٤٠ ، وحتى الشـيخ المراغى كان على علاقة وثيقة بحمدى سـيف النصر أحد قادة الوفد ٢٤ سبتمبر ١٩٤٠ ، - وهكذا) ، كان يمكن للوفـد بكل ذلك وبسياسة أكثر حركية يستخدم بها كل هذه الممكنـات أن يحقق أكثـر مما حقق . على أننى فى هذه الفقـرة أضـع افتراضات وأتركها يتـأمل فيها القارئ وأنا أعرف سلفا أن «الافتراض» فى التـاريخ أمر تحـوطه محاذير ضخمة من الخطـأ . ولكن كل مـا أردت أن اثبتـه هنا أن أثير لدى القارئ نوعا من القلق العلمى فى هذا الشـأن ، مع سـابق ادراكى باستحالة

اليقين وصعوبة الترجيح فى وضع البدائل لاحداث الماضى وفى تصور قيام ما لم يتحقق فى سياقه الزمانى . والأمر كله هنا هو أمر إثارة الشبهات .

على أنه يتعين فهم ما سبق ذكره فى إطار أمرين ، أولهما بالنسبة لحدود المعرفة السياسية لمصطفى النحاس ، إن كان أهل جيله فى مصر على هذه الشاكلة غالبا ، وكانت علوم السياسة فى بدايتها ومراكز البحوث غير قائمة ودوريات الفكر السياسى المتخصصة نادرة .

وثانيهما بالنسبة لدرجة المبادرة فى سياسة مصطفى النحاس ، فان المذكرات تكشف أيضا لدى النحاس عن درجة استيعاب للاحداث السياسية كبيرة وقدرة على التعامل معها بذكاء واضح ، ويستطيع القارىء أن يلحظ ذلك فى مواقف كثيرة سجلتها المذكرات ، ومن ذلك مثلا ثقته الواضحة فى توقع انتصار الحلفاء على المانيا وإيطاليا فى الحرب العالمية الثانية ، وهى ثقة يبدو أنها لم تهتز حتى فى ذروة الانتصارات الألمانية فى سنوات ١٩٣٩ ، ١٩٤٠ ، ١٩٤١ ، وهو ذاته ما يمكن ملاحظته من يقينه الذى لم يعادله يقين مثله لدى كل قادة الوفد الكبار الملتفين حوله ، يقينه من أن الانجليز والملك لابد سيتصاعوا إلى قبول وزارة وفدية خالصة ، وعلى

هـذا الأسـاس بقـى مصـــرا بعنـــاد على رفـض الـوزارة القـومـية التى تشترك فيها احزاب أخرى مع الوفد . وهذا يبـدو جلـيا مـن تتبـع المذكـرات عن السـنوات مـن ١٩٢٨ إلى ١٩٤٢.

كـمـا نلـحـظ - لدهشـتى - أن حـزب الوفـد الذى بدأ وانتـهى مسـتمسكا بصـيغـة الكفـاح السلمى المشروع وانه منذ بدأ نشـاطه الدســتورى بعـد ١٩٢٢ كـان تخلى تمامـا عن مـحض التـفكيـر فى استـخـدام أى من وسـائل العنف فى عـمله السـيـاسـى . وهكذا كـان النحـاس منـــذ تولى زمـام الوفـد ، أقـول نلـحظ لدهشــتى أنه يوم دعـا النحـــاس لاجتمـاع الوفـد فى ٢٧ ديسمبر ١٩٤٠ ليتبـاحثـوا فيمـا يمكن عمله إذا دخـل الجيش الألمانى مصـــر ، فكر المجتمعـون ومنهم مـصطفى النحـــاس بوجـــوب المقـاومـة بكل الطـرق الممكنـة وغـيـر الممكنـة ، وأثير موضـوع «السلاح» فاقترح أن يشتروا الاسـلحة بأى طـــريق ليسلحـوا بهـا الشـعب ويشـــكلون المقـاومـة السـرية حتى لا يترك المحتل يدخـسل الأرض ، وقـال النحـاس أن مـهمـة الوفـد أن يقـود الشعب فى السـلم وفى الحـرب ، واتخـذ الوفـد هذا القـرار وتكتمـه ، وقد ذاع الخـبـــر ووجــه النحـاس بسـؤال عنه من لجنة السـيـدات الوفـديات (١٢ فـبـراير ١٩٤١) ، ورغم إننا لم نعـرف مـا حظ هذا القـرار من التنفيــذ وأن متابعته جـرت بأقـل مما يناسبه من الأهمية إذ أوكل لكل

عضو فى دائرته أن ينظم هذا الأمر (١٤ فبراير ١٩٤١) . فان التفكير فى مثل هذا الأمر ومن الوفد وفى ١٩٤٠ فهو أمر يستوجب الاشارة .

لقد نادى النحاس الوفديين بعد أول تجربة له فى رئاسة الوزارة بقوله «اثبتوا ولا تهنوا واستمسكوا ولا تفرطوا واشتدوا ولا تلينوا» (١٠ ديسمبر ١٩٢٨) ، هكذا بدأ وهكذا بقى مدافعا أكثر منه مهاجما ، ومن هنا كان اهتمامه بالثبات والاستمساك وعدم الملاينة . واتجه جهده وملكاته لخدمة موقف الدفاع أكثر منها توجهت لتفتيح ممكنات الهجوم .

(١٢)

فى قراءتى لهذه المذكرات حاولت أن استطلع اطار ما هو فردى وما هو جماعى فى قيادة الوفد ، أى مدى ما يملك النحاس من نفوذ فى اتخاذ القرار داخل الوفد ومدى ما تتحقق جماعية القرار المتخذ ، وذلك استقاء من هذه المذكرات .

عندما توفى سعد زغلول فى ١٩٢٧ كان النحاس من رجال الجيل الثانى فى قيادة الوفد ، من حيث شريحة الأعمار ، وقد رشحه للقيادة أهل جيله ومن كانوا أدنى للشباب وأبعد عن الشيخوخة ،

وذلك بعد أن اعتذر فتح الله بركات باشا عن رئاسة الوفد . وكان النحاس مطالبا في البداية أن يثبت استحقاقه لخلافة سعد ، وكذلك جدارته للزعامة في ذاتها ، وبدا منه في البداية درجة من التشدد والصلابة لا تسمح لنظام دولة واحدة أن يسع الوفد وخصومه معا . وسقطت وزارة عبدالخالق ثروت التي قامت على ائتلاف بين الوفد والأحرار الدستوريين ، وجيء بمصطفى النحاس على رأس وزارة الائتلاف ذاتها ، فأثار موضوع قانون الاجتماعات وأبدى من التشدد والصلابة ما لا يسمح أيضا لنظام أن يسع القوى السياسية العاملة في الساحة ، ناهيك أن يسمح ببقاء الائتلاف الوزارى . فسقطت الوزارة . وجاء حكم الأحرار الدستوريين وحدهم الذى سمى «اليد الحديدية» لعام ونصف . ثم سقط بعد أن لاح للانجليز فى الأفق أن الوفد ومصطفى النحاس يمكن أن يقبلوا عقد المعاهدة مع الانجليز . وجيء بحكومة وفدية خالصة برئاسة النحاس ، وأهم مسئولياتها المفاوضة لابرام المعاهدة مع الانجليز . وكان ذلك في النصف الأول من سنة ١٩٣٠ .

كادت مفاوضات النحاس مع الانجليز فى لندن ان تنجح وتفضى إلى عقد المعاهدة ، وانحل الخلاف بين الطرفين بالنسبة لأخطر الموضوعات وهى الجلاء والقاعدة البريطانية والدفاع المشترك ، انحل

مما أرضى الطرفين المتفاوضين ، ويبقى موضوع السودان الذى حكاه النحاس فى المذكرات (١٩ ، ٢٥ ، ٣٠ أبريل سنة ١٩٣٠) ، إذ تمسك النحاس بتبعية السودان للتاج المصرى ، وتمسك الانجليز بالرفض ، وذكر النحاس أن التفريط فى السودان يخرج عن حدود التفويض الذى تلقاه من المصريين ، فاقترح هندرسون (رأس المفاوضين البريطانيين) على النحاس أن يرجع إلى زملائه فى مصر يستشيرهم ، وأرسل النحاس محمد صلاح الدين بهذه المهمة ، وعاد صلاح الدين إلى لندن برد شفوى من الوزراء الوفديين فى مصر ينصح النحاس بالتساهل فى مسألة السودان ، وبرد آخر مبعوث فى برقية رسمية يوصى بالتشدد ، وذلك ليقوى الوفد المفاوض فى سعيه للحصول على أكبر مكسب ممكن ، ولكن خبر هذه المناورة التى كان أعدها النحاس من البداية ونفذت بناء على توصيته السرية لصلاح الدين ، هذا الخبر تسرب إلى هندرسون فواجه النحاس بالحقيقة وقطع المفاوضات وفشلت المفاوضات وفشل مشروع كان الوفد يراه مناسبا . وترتب على ذلك أن سقطت حكومة الوفد فى يونية ١٩٣٠ وجئ باسماعيل صدقى ، وخضع الوفد لحملة تأديب سياسية امتدت ثلاث سنوات كانت عجافا . عرف فيها الوفديون الكثير من الضغوط والاضطهاد ، اغنياؤهم عرفوا شدة الأزمة الاقتصادية المشهورة فى الثلاثينات دون أن تمتد

إليهم يد الحكومة بالمساعدة ، وموظفوهم عرفوا اضطهاد السلطات فصلا وظلما ، وشبابهم عرفوا السجون والتعذيب ، وصحفهم عرفت المصادرة – وهكذا . ثم لم يصل الوفد لاتفاقية أجود من مشروع ١٩٣٠ ، وجاءت معاهدة ١٩٣٦ التى وقعها الوفد لاتحقق لمصر ولا للسودان وضعا أحسن مما كان مطروحا فى ١٩٣٠ ، ويبقى رأى الكثير من الوفديين سنة ١٩٣٦ أنه يجب التساهل في موضوع السودان اكتفاء بضمان مياه النيل ، لذلك بدا فى حدود الإمكانات المتاحة وحسب أوضاع المرحلة التاريخية ووفقا للطبيعة الكفاحية للوفد ، بدا أن التشدد الوفدى فى ١٩٣٠ كان يجاوز امكانياته وقدرته على تحقيق ما تجاوز فيه ، وهذا أمر تتحمل قيادة الوفد تبعته . ويمكن أن يثور فى وجهها فى أية لحظة أن خطأ منها فى التقدير ترتب عليه كل هذه المحن بغير عائد .

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فان للقيادة أن تصوغ الموقف بطريقة أخرى ، إذ يقوم لديها التصور ان كان ثمة إمكان تحقيق المزيد من المكاسب فى ١٩٣٠ لولا تلك الوشاية التى أدت إلى تسرب أخبار المناورة إلى صفوف الانجليز ، وهذه الصياغة تحتاج إلى البحث عن «المسئول» عن تسرب الأخبار . وان استبقاء الثقة العامة فى القيادة يستوجب منها تقديم الآثم فى هذا الشأن .

وهذا ما حدث ، فإن قراءتنا للمذكرات تكشف عن أن اهتمام مصطفى النحاس بهذه الوشاية كان اهتماما ثابتا ومستمرا مع امتداد السنين . وقد تناثر الحديث عن هذه المسألة عبر اليوميات ، ولكنه كان دائما حديثا جادا وتترتب عليه نتائج خطيرة . لقد كان من المعروف أن نجيب الغرابلي أحد قادة الوفد كان يمثل حلقة وصل بين القصر والوفد ، وذلك لقيام علاقة المصاهرة بينه وبين زكي الابراشي أهم رجال السراي في ذلك الوقت (١٨ فبراير ١٩٢٨ ، ١٥مارس ١٩٢٩) ، فلما كان أمر تلك الوشاية «استنتج مكرم أن يكون الغرابلي ... هو الذي نقل الخبر» (٢٠ مايو ١٩٣٠) ثم يستطرد الحديث في المذكرات من شك النحاس في ذلك إلى تصديقه . ثم كان الغرابلي من الفريق الذي انفصل عن الوفد بعد ذلك بأقل من عام (٢و١٢ ابريل ١٩٣١ و١٢ أكتوبر ١٩٣١) .

ولقد كان أحمد ماهر والنقراشي من أعمدة الوفد منذ أيام سعد زغلول ، وكانا من أكبر زعمائه مع قيادة النحاس . ونحن نقرأ في المذكرات أن الانجليز كانوا يعترضون على تولي أي منهما الوزارة ، وكان النحاس يصر على اختيارهما . وتأخر اسناد الوزارة للنحاس في بداية ١٩٣٠ عشرة أيام لهذا السبب ، وحُلَّ الموقف بتنازل أحمد ماهر (٣ ، ١٥ ديسمبر ١٩٢٩) ثم يتكرر اعتراض

الانجليز على أحمد ماهر عند تشكيل وفد المفاوضة ، فيتمسك به النحاس ثم يقترح أن يتبادل الطرفان حق الاعتراض على اعضاء الوفد المقابل ، ويستجيب للإعتراض على أحمد ماهر مقابل اعتراضه هو على «هور» الوزير البريطاني (٢٠ يناير و٢ فبراير ١٩٣٠) .

ورغم هذه المنزلة فان الذى حدث أن بدأ الشقاق يدب بين النقراشى (وأحمد ماهر معه) وبين مكرم عبيد فى وقت كان الملك يرى أن يتقارب من الوفد ، وقابل الملك مكرم عبيد سرا ، وقابل النقراشى سرا ايضا (٥ و٩ و١٦ مارس ١٩٣٤) . ومع بداية سنة ١٩٣٥ بدأ الخلاف يشتد بين الفريقين ، وكان النحاس أقرب إلى مكرم ، وكان النحاس ومكرم يمثلان جانب الاعتدال ، وماهر والنقراشى يمثلان التشدد (٢٩ مارس ١٩٣٥) وبدأ عباس العقاد يهاجم مكرم منضما لماهر والنقراشى ، وبدأ مكرم يدفع النحاس لموقف مضاد للعقاد وللنقراشى (٢٨ ابريل ١٩٣٥) .

وفى هذه الظروف ذكر مكرم للنحاس أنه عرف من الملك فى لقائه به أن من أفشى مناورة النحاس عن السودان فى ١٩٣٠ التى سببت فشل المفاوضات هو النقراشى ، وأن الغرابلى كان مظلوما فى ذلك (١٢ فبراير ١٩٣٥) ، وظهر فى البداية أن النحاس غير

مستجيب لهذه الوقيعة ، وكان مكرم على اتصال بالانجليز عن طريق أمين عثمان وبالملك ، وهو يؤكد للنحاس أن النقراشى هو من أفشى سر مناورة ١٩٣٠ (٧ يولية ١٩٣٥) . وكان النحاس يرى العراك بين النقراشى وماهر من جهة وبين مكرم أمرا يتعلق بالمنافسة الشخصية ، ومع ميله لمكرم كان شبه محايد فى هذا الخلاف (١٩ و٢٠ أغسطس ١٩٣٥) . واستمر الخلاف قائما فى هذا الاطار مع اشتداده وتتابع أحداثه من سبتمبر إلى ديسمبر ١٩٣٥ حسبما يتضح من المذكرات ، حتى ذكر النحاس في يومية ٢٥ ديسمبر أنه تأكد لديه أن النقراشى هو من أبلغ الملك فى ١٩٣٠ بموضوع السودان ، ولم يذكر النحاس كيف تأكد من ذلك ، والظاهر أنه «اقتنع» بذلك وكانت هذه المسألة من عناصر تشكل موقف النحاس المعادى للنقراشى ، وما لبث الأمر كله أن أفضى إلى استقالة النقراشى ثم ماهر وفريقه معهم فى يونية وأغسطس ١٩٣٧ ، وكان تأخر الاستقالة بسبب دخول الحكومة والوفد كله فى مفاوضات معاهدة ١٩٣٦ (٤ و٧ سبتمبر ، ١ و١٠ أكتوبر ، ٢٠ و٢٢ و٢٥ نوفمبر ، ٣٠ ديسمبر ١٩٣٥) ، ٩ يناير ١٩٣٦ ، ١٣مايو ، ٧ و٩ يونيه ، ٣ و٥ و٨ أغسطس ١٩٣٧) .

هذه الواقعة مع تتابعها منذ ١٩٣٠ حتى ١٩٣٧ وأثرها الكبير ، تفيد عندى الكشف عن مدى أهمية موقف النحاس فى إدارة الحزب وحسم صراعاته ، ومدى الثقل الخاص الذى كان يملكه فى هذا الشأن ، وأثر ذلك فى أكبر انشقاقين عرفهما الوفد فى عهد النحاس ، لا يقارن بهما من بعد الانشقاق مكرم نفسه فى ١٩٤٢ . وكان لهذه الواقعة هذا المفاد ، لأنها أكثر من غيرها تتعلق بالعنصر الذاتى وتشتبك بالجوانب الشخصية ، وتتأثر بهذا العنصر وهذه الجوانب سواء بالنسبة لاتخاذ النحاس موقفه أو بالنسبة لتأثر الآخرين داخل الوفد بهذا الموقف .

دلالة غلبة العنصر الشخصى فيها تستفاد من أن المذكرات تفيد فيما ذكرته فى ١٩٣٥ عن موقف النقراشى ومعه ماهر أنه كان موقفا سياسيا متشددا بالنسبة للتفاهم مع السراى والانجليز ممثلين فى وزارة توفيق نسيم ، وكان مكرم ومعه النحاس فى الجانب المعتدل ، ثم تحول الموقفان فى ١٩٣٧ خلال عامين فقط فصار النقراشى وماهر إلى جانب الاعتدال السياسى بالنسبة للملك والانجليز ، وصار مكرم والنحاس إلى الجانب المتشدد ، بما يفيد أنه إذا كان كلا من موقفى الاعتدال والتشدد موقفا سياسيا ، فإن تكون الفريق المؤيد لكل من

الموقفين قام – على أسس شخصية ذاتية ، وان الصلات بين أهل كل فريق كانت أوثق من الموقف السياسى الخاص بالاعتدال والتشدد . وأن موقف النحاس فى الانحياز لمكرم ومخاصمة النقراشى لم ينحسم إلا بعد أن استقر فى وجدانه أن للنقراشي صلة بمسألة فشل المناورة والتى جرت من النحاس فى ١٩٣٠ بالنسبة لموضوع السودان . هذا عن النفوذ الذاتى لمصطفى النحاس ، وهو نفوذ يبدو أيضا من أنه استطاع أن يستبقى لنفسه كزعيم «الوصف الوفدى» رغم كل الانشقاقات التى جرت فى الوفد .

تبقى نقطة أخيرة فى هذا الموضوع وهى تتعلق بما قد يستفاد من المذكرات بالنسبة للسلطة التنظيمية لمصطفى النحاس فى الوفد . فنحن نشعر من مطالعة المذكرات ، أن النحاس كان يحكى عن اتصالاته ومواقفه وردوده على الأحداث والأقوال ، يحكى عن ذلك من موقع الزعامة الشعبية أكثر مما يحكى من واقع الرئاسة لهيئة هى الوفد، ولكننا نشعر أيضا بالقدر نفسه من القوة بان الوفد كهيئة لم يكن غائبا قط فى أى من ثنايا هذه المذكرات ، وأن لقاءات النحاس بقادة الوفد تكاد تكون يومية ، أحمد ماهر والنقراشى ومكرم عبيد وأحمد نجيب الهلالى ومحمد صبرى أبو علم وغيرهم وذلك مع اختلاف الاشخاص باختلاف المراحل ، وفى الفترة التى تلت انشقاق ماهر

والنقراشي نكاد نلقى «مكرم ونجيب وصبرى» فى كل صفحة من صفحات المذكرات حتى نكاد نشعر أنهم يدخلون فى صميم التشكيل الداخلى لفكر مصطفى النحاس . وأن رجلا مثل مصطفى النحاس كان مفتوح البيت والصدر والعقل على الناس ، سواء قادة الوفد أو أعضاء الوفد أو غيرهم من الذين يظهرون له فى صورة الجموع ، رجلا مثله كان يتشكل تفكيره فيما يمكن أن نسميه «الهواء الطلق» بين رجاله وناسه . ومن ثم فهناك قدر من التشابك بين النحاس وبين الوفد كقيادة وقادة ورجال . ونحن ندرك من الممارسة والمعايشة أن تكرار اللقاء بين أعضاء معنيين أو لجماعة معينة ، وتطاول هذا التكرار واطراده انما ينشئ مع الوقت بين أعضاء هذه الهيئة أو رجال الجماعة ما يمكن أن نسميه «العقل الجمعى» فيعتاد الواحد منهم أن يفكر وهو وحده مدخلا فى اعتباره ما عسى أن يثيره الآخرون من ملاحظات وتحفظات ووجهات نظر ، ويصير ذلك اشبه بالعادة الفكرية التى تشملهم جميعا ، وهو يتأتى بالمعايشة وطول الخبرة وتشابه المشاكل . واتصور أنه يتعين أن نستصحب هذا التصور العام عند قراءة . وتقدير أى من الوقائع التى وردت بالمذكرات .

ويمكن أن نلحظ ، أن الصفة الزعامية لدى النحاس بدأت تنمو وتتكشف من حوالى عام ١٩٣٢ أو ١٩٣٣ ، بعد نحو خمس سنوات من

توليه رئاسة الوفد ، وهي مدة من شأنها في الظروف العادية أن تعيد التشكل الذاتي للإنسان وفقا للوضع الذى صار يشغله ، أى مدة التأهل والتكيف النفسي للاوضاع الجديدة ، كما أن هذا التاريخ يتواكب مع خروج «السبعة ونصف» من الوفد في أول انشقاق يحدث في الحزب على عهد رئاسة النحاس ، وغالب هؤلاء من أهل الجيل الأسبق على النحاس ومن يعتبرون الأقدم بحكم السن والمنزلة الاجتماعية مثل فتح الله بركات ، وخروج هؤلاء جعل النحاس يوجد بين أهل جيله وبين الأحدث منه ، ويمكن أن نسجل مثلا على ذلك ما حكاه عن زيارته مدينة أدكو في ٢ أغسطس ١٩٣٢ من ترحيب استقبل به ووصف أحد المستقبلين له بإنه «رمز أمانيهم وعنوان نهضتهم واللسان الصادق المعبر عن مطالبهم» ، واضطرد ذكره لهذه الأوصاف التى ترد عنه على لسان الآخرين ، بما يفيده ذلك من نمو الشخصية «الكارزمية» لديه .

كما نلمس في المذكرات أن مكنة اتخاذ الموقف واصدار القرار كانت في يده ، وإن اعضاء الوفد كانوا يعرضون عليه آراء هم ، وأنه كان أحيانا عندما يجد جديد ويقدم إليه اقتراح ما كان يتخذ قراره فيه على الفور (راجع مثلا اقتراح الأمير محمد على عليه في ١٢ يناير ١٩٣٣) .

وفى ٥ ديسـمبر ١٩٣٥ عندما التقى بالمندوب السامى البريطانى ذكر فى اليوميات «أخطرت مكرم وماهر والنقراشى بهذا الموعد حتى لا يظنـوا أنى استـأثر بالأمور دونهم» ، وهذه العبارة يبدو منها الخط المميز بين «الانفـراد» وبين «المشاركة» وكان النحاس بينهما فعلا لا ينفـرد ولايتهـرب من المشاركة إلا على الطريقة التى وصفتها فيما سـبق مما يتـراكب فى الوجدان من تفكيـر جـمـعى يتـأتى من طول المزاملة والاعتيـاد على الاختلاط بين أناس محددين . وقد ذكر مرة مثلا أنه فى خطبه التى يلقيها فى المناسـبات السـياسية ، كان يضع نقاطها بنفسه ويشـرح الموقف السـياسى الداخلى والخارجى وأنه قد «يفاجأ بها أعضـاء الوفـد كجميـع حاضرى احتفال عيد الجهاد» (٢٢ أكتوبر ١٩٤١) .

ولكن من جـهة أخـرى فـهو فى الظـروف التى كـان يـرى أنها ظـروف حرجة أو تسـتدعى تغييـرا فى الموقف السـياسى أو تطرأ فيها أوضاع جديدة ، كان يجمع «الوفـد» ويعـرض عليه هذا الأمر ، وكـان يشـيـر باعـداد جـدول الأعـمـال ويكلف بذلك من يرى من الاعضاء ومنهم طبعا سـكرتير عام الوفد ويوصى بتحـديد النقـاط التى يرى أنها تسـتوجب الطـرح ، ومن ذلك ما حدث فى ٧ سبتمبر ١٩٤١ فى ظـروف الأزمة السـياسـية والاقـتصـادية الناجـمة عن

الحرب ، إذ جمع الوفد لمناقشة الحالة الحاضرة . وكان يترك الحضور يتكلمون ثم يتدخل فى الوقت المناسب لحسم الخلاف الذى يثور باستخلاص ما يمكن استخلاصه من آراء المتكلمين وعرضه عليهم فى اقتراحات توقف الخلاف وتجمعهم فى موقف مشترك. وفى هذا الاجتماع مثلا استخلص من الآراء المختلفة التى بلغت حد التعارض بين المتشددين والمعتدلين ، استخلص أن يبدأ التصعيد السياسى الشعبى بتقديم الاستجوابات ضد الحكومة فى البرلمان ، وهذا سيمكن من إثارة الناس فتبدأ الحركة الشعبية حسبما تسفر عنها الامكانية فى شكل مظاهرات أو نحوها ، وأحيانا ما كان يجمع الهيئة الوفدية وهى المستوى الأكبر من المستويات التنظيمية للوفد التى تتكون من أعضاء مجلسى الشيوخ النواب الوفديين ، وذلك لمناقشة الأمور العامة وليقدم كل عضو نوعا من كشف الحساب عما أداه فى دائرته الانتخابية لفائدة أهل الدائرة. (١٤ ديسمبر ١٩٤١) . وبهذا كانت الدائرة الانتخابية كما لو كانت وحدة اقليمية من وحدات الوفد كتنظيم .

على أننى أشير فى نهاية هذه الفقرة إلى ما سبقت الاشارة إليه ، إن ما كان يمكن أن ينسب للنحاس من توحد مع العمل العام كان يتعلق بالمسألتين الوطنية ضد الانجليز والدستورية ضد الملك ، كان يشعر أن

له علاقة مباشرة بها ، إما غير ذلك فكان يتركه فى الغالب الأعم لكل صاحب خبرة فنية وزيرا أو غيره ويتشكل رأى النحاس فى تلك القضايا فى إطار ما يقدمه إليه هؤلاء من تصوير للمشاكل ومن مقترحات للحلول .

القسم الثالث
(أحداث تاريخية)
(١٣)

أشرت من قبل فى الفقرة (١٢) إلى واقعة من وقائع انفصال محمود فهمى النقراشى وأحمد ماهر عن الوفد وتكوينهما مع رهط من رجال الوفد المنسلخين معهما حزبا جديدا هو حزب «السعديين» ، وهى واقعة إتهام مكرم عبيد للنقراشى بأنه من أفشى سر الموقف من السودان فى مفاوضات ١٩٣٠ ، ويظهر من المذكرات أن مكرم كان هو من اثار هذه التهمة ، تهمة افشاء السر ، ووجهها أولا إلى نجيب الغرابلى ، ثم وجهها بعد أكثر من أربع سنوات إلى النقراشى ، وسبق توجيهها إلى النقراشى بدء احتدام الخلاف بين مكرم والنقراشى ، وضمن مكرم بعد تصديق النحاس لهذه التهمة وقوف النحاس معه واحتدام الخصومة بين النحاس والنقراشى ، بعد أن كان النحاس ينظر، الى خلاف مكرم والنقراشى على أنه تنافس شخصى ، وإن نقل مكرم هذه الواقعة من الملك فؤاد ، لا ندرى لماذا ذكرها الملك لمكرم ، ولماذا

يكشف الملك النقراشى أمـام حـزبه ويـعـرض نفسه لضـيـاع مـصدر معلومات له فى حجم النقراشى .

لايشـغلنا فـقط أن نتسـاءل هذا السـؤال ، ولكن يشـغلنا أيضـا أن مكرم لم يسائل نفسه هذا السؤال ، وهل كان الملك يبغى بذلك الوقيعة بين زعماء الوفد ، إن النحاس لما عرف هذا الأمر من مكرم لم يستسلم له فى البداية ، ولكنه يظل يشغله ويحوك فى صدره حتى وجدناه فجأة يقول أن تأكدت لديه صحة الخبر ، دون أن يصرح فى مذكراته عن كيفية التأكد ، وعلى أية حال فإن هذه الواقعة تبدو فى «المذكرات» من الوقائع التى من شأنها أن تلقى ظلالها على عدد من الأشخاص والأحداث ، سواء بالنسبة لمكرم عبيد ، أو للنقراشى أو للنحاس ، أو لانسلاخ ماهر والنقراشى من الوفد وتكوينهما الحزب السعدى ، «والمذكرات» بوجه عام تفيد أن العنصر الذاتى فى الانسلاخ كان له أثر أكبر مما أعطى فى التقويمات المختلفة لهذا الأمر حتى الآن ، والمتتبع للمذكرات فى هذا الشأن يقوى لديه هذا المفاد .

وتحكى المذكرات عن النحاس فى ٢٤ أغسطس ١٩٤١ ، أنه كان فى ابيانه بلدة سعد زغلول فى محافظة كفر الشيخ ، واختار تلبية الدعوة فى ذكرى وفاة سعد (٢٣ أغسطس ١٩٢٧) وزار هناك بيت سعد ، وحكى للجمهور الذى اجتمع يستمع له من المنطقة كلها ، حادثة

مفاوضات ١٩٣٠ وأن النقراشي هو من كشف المناورة في لقاء له بالملك وأن الملك أخبر مكرم بذلك ، وفي ٢٢ سبتمبر ١٩٤١ عندما ظهر في الأفق مشروع تشكيل وزارة قومية من ائتلاف الأحزاب ، وكان النحاس يرفض الفكرة وبحسم ، في ذلك الوقت ، عقد السعديون اجتماعا لهم ، وذكروا لمحمد صلاح الدين - من رجال الوفد - أن النحاس برفضه الوزارة القومية يعتبر سببا للأزمة القائمة ، ثم تحدث النقراشي وماهر لصلاح الدين أنهم لا يأخذون على النحاس إلا انحيازه لجانب مكرم ، وكانوا يعتبرون النحاس الأخ الأكبر والرئيس ، لكن دسائس مكرم كانت سبب الخلاف. أورد ذلك النحاس وقال أن من أسباب الخلاف هو تحدى النقراشي لمكرم (٢٢ سبتمبر ١٩٤١) .

ومن جهة أخرى فإننا إذا تتبعنا مكرم عبيد في المذكرات ، فسنجد مادة خصبة عنه ، أنه بطبيعة الحال ظاهر ظهورا واضحا في المذكرات، وبخاصة من ١٩٢٧ إلى ١٩٤٢ حين خرج على الوفد وكون حزب الكتلة الوفدية ، وليس هذا غريبا ، فمكرم عبيد كان سكرتير عام حزب الوفد ، ومن ثم كانت خطوط سياسية وتنظيمية عديدة تلتقى عنده على طول هذه الفترة .

كان مكرم يجمع علاقات كثيرة ويمثل همزة اتصال مع كثير من القوى ، وخاصة منذ سقطت وزارة اسماعيل صدقي في نهايات ١٩٣٣،

ونشطت الاتصالات بالوفد من الانجليز والملك وغيرهما لتحسس تشكل عناصر الموقف السياسى خلال المرحلة التالية ، مع ملاحظة أن الأوضاع العالمية كانت تتأزم مع صعود النازية فى ألمانيا ومخاطر الفاشية الإيطالية سواء فى ليبيا غربى مصر أو بعد احتلالها أثيوبيا فى ١٩٣٥ الواقعة على حدود السودان الشرقية ، ومع ملاحظة أيضا أن الملك فؤاد كانت صحته تتدهور مما أوجب التفكير فى أوضاع مصر عند اختفائه ، ومع ملاحظة المشاكل المصرية المزمنة بالنسبة لعدائهم التقليدى للانجليز ولاستبداد الملك ، وكل ذلك أوجب على الانجليز التفكير فى صيغة للتعامل مع الوفد لضمان استقرار الأوضاع فى مصر ، أو بالأقل تحسس ردود الفعل الوفدية ازاء ما عسى أن يتخذ من سياسات أو يجد من مواقف وأحداث .

فى هذه الفترة ظهر أمين عثمان ، الذى صار من بعد حلقة الاتصال الأولى بين الانجليز والوفد، وتصاعد دوره مع نمو هذه العلاقات وخاصة بعد معاهدة ١٩٣٦، ثم صار وزيرا وفديا فى١٩٤٢ وقتله رصاص الوطنيين المصريين فى ١٩٤٦، كان أول ما شهدناه فى مذكرات النحاس عندما أشير إليه فى يوميات ٢ مارس ١٩٢٠ ضمن سكرتارية وفد المفاوضة مع بريطانيا (ولعله هو من كان تسرب اليه فى هذا الوضع نبأ مناورة النحاس عن السودان ونقلها للانجليز لما عرف عنه من

علاقات وثيقة بهم) المهم أن أمين عثمان كان ينقل ما يراه الانجليز إلى مكرم أو إلى النحاس ، ويبدو أنه كان ثمة قناة اتصال بالانجليز عن طريق أمين عثمان إلى مكرم ثم إلى النحاس ، أو إلى النحاس مباشرة ، كما كان جزء من اتصالات الانجليز المباشرة تتم بمكرم الذى ينقلها إلى النحاس (٢ أكتوبر ١٩٣٤ مثلا) .

ثم يظهر موقف الخلاف بين النقراشي ومكرم ، ولا نكاد نرى سببا سياسيا للخلاف تظهره المذكرات ، فالنقراشي وماهر مثلا يتهمون مكرما بأنه يعطل أعمال من يمت اليهما بصلة ، ويريان أن النحاس يحابيه ويقولان أن مكرما يشجع الاقباط (١٩ يوليه ١٩٣٦) . ويبدو الخلاف أيضا في مسائل تعيين الموظفين (١٥ أغسطس سنة ١٩٣٦ ، ٤ مارس سنة ١٩٣٧) ومكرم يشجع صعود أحمد نجيب الهلالى فى الوفد وتقريبه من النحاس والنقراشي يعترض على ذلك من قبيل التوازن (٢٠ يناير ، ١٠ مارس سنة ١٩٣٦ ، ٤ مارس سنة ١٩٣٧) .

ومن مطالعة المذكرات يبين لى أن الخلاف الذى أدى إلى الانشقاق كان ينمو ويتعمق قرب وصول الوفد إلى السلطة منذ ربيع ١٩٣٥ وأعيد هنا القول بأن الشكل السياسى الذى اتخذه لم يكن سببا له بقدر ما كان مسوغا ، لأن أحمد ماهر والنقراشي وعباس العقاد وصحيفة روز

اليوسف وسائر هذه الرموز التي بدأت تبتعد عن الوفد منذ ١٩٣٥ ، إنما قام المظهر السياسي لابتعادها على أساس أنها الأكثر تشددا وأبعد عن المساومة والاعتدال عن النحاس ومكرم (٣ ، ١٩ ، ٢٥ أبريل سنة ١٩٣٥) ثم انعكست الصورة نفسها بعد ذلك في خريف ١٩٣٧ فآل المتشددون الى الاعتدال بذواتهم وجمعهم ، وآل المعتدلون (النحاس ومكرم .. الخ) إلى التشدد بذواتهم وجمعهم ، وقد عمل مكرم على الوساطة بين الوفد وبين ماهر والنقراشي ، ففشل بطبيعة الحال لأنه من عوامل الانشقاق ويظهر أنه لم يكن جاداً (٢٥ أبريل ١٩٣٧) .

ومن هذه المطالعة يبين لى أيضا ، أن قمة نفوذ مكرم عبيد فى الوفد كانت فى سنوات خلافه مع أحمد ماهر والنقراشي ، وفى سنوات عقد معاهدة ١٩٣٦ وما سبقها وما تلاها من وقائع ، وأنه بعد إقالة وزارة النحاس الوفدية فى ديسمبر ١٩٣٧ ، وعلى مدى عام ١٩٣٨ ، يبدو أن تسرب الفتور إلى علاقة النحاس بمكرم ، حتى وجدنا النحاس فى ١٠ ديسمبر ١٩٣٨ يتكلم عن مكرم عبيد بالنقد وبلهجة استنكار وريبة .

وبدأت هذه اللهجة أكثر استرابة فى مكرم فى ٤ يناير ١٩٣٩ (كذلك ١٥ يونيه ١٩٣٩) وتلك الفترة كان الانجليز - بسبب اقتراب خطر الحرب العالمية الثانية - يتوددون إلى النحاس ، وكان ذلك يجرى غالباً عن طريق أمين عثمان وعبر مكرم عبيد ، ويبدو من المذكرات أيضا أن

مكرم فى هذه الفترة كان من انصار التهدئة مع الانجليز (١٠ ، ١١ يونيه ١٩٣٩) .

ثم نلحظ أيضا أنه مع نهايات ١٩٣٩ وعلى مدى عامى ١٩٤٠ ، ١٩٤١ ، كان الانجليز من جانبهم والملك من جانبه يضغطون على الوفد وعلى النحاس بصفة خاصة لتشكيل وزارة قومية تجمع الاحزاب كلها ومن بينها الوفد ، وكان النحاس يزداد عنادا وتصميماً على الرفض كلما ازدادوا ضغطا عليه ، وكان مكرم فى نظر مذكرات النحاس يستجيب لهذه الضغوط وللاستمالة ، وهو يقبل فى نقاشه مع النحاس الوزارة القومية والنحاس يرفضها والخلاف بينهما يبدو للقارئ واضحا، ويبدو أن الخلاف كان معلوما للانجليز (١٢ أكتوبر ١٩٣٩) والنحاس يلوم مكرم لحديث لم يوافق عليه النحاس (٨ أكتوبر ١٩٣٩) ، كما نرى أن مكرم يحاول أن يتوسط لدى النحاس حتى يستقيل محمد التابعى الصحفى الذى كان قد خرج على الوفد وصار صديقا لأحمد حسنين بالديوان الملكى (٢٩ يناير ، ٢٦ فبراير ، ١٧ أغسطس ١٩٤٠) ، مما يكشف عن صلة مكرم بالقصر الملكى ، وكان مكرم يخشى أن تنتهى الحرب دون أن يكون للوفد صفة رسمية فتضيع عليه فرصة ما بعد الحرب (١٩ أبريل ١٩٤٠) ، وصار النحاس يعمل احيانا على تصعيد الخلاف ومكرم يعمل على التهدئة (١٥ ، ١٦ فبراير ١٩٤٠) . ومع

منتصف ١٩٤٠ نلحظ ابتعادا شخصيا بين مكرم والنحاس ، هو ابتعاد نسبى ولكنه ملحوظ ، سواء فى قضاء الصيف فى أماكن مختلفة أو فى قلة التزاور وهكذا (مثلا ٢٥ سبتمبر ، ١٨ أكتوبر ١٩٤٠) .

وتظهر لهجة الخلاف أكثر فى اجتماع الوفد الذى حكى عنه النحاس فى ٧ مايو ١٩٤١ ، كان الخلاف حول الوزارة القومية ، ودافع مكرم عن مبدأ قبولها واستشهد بصديق انجليزى لم يذكر اسمه الذى حسن له ذلك لكى تقوم للوفد صفة رسمية إذا انتهت الحرب ، والنحاس يرد على مكرم يشرح أن التحالفات يجب أن تقوم على أسس وأن يكون للمتحالفين هدف مشترك الأمر الذى لايتحقق فى العناصر التى ستضمها الوزارة القومية ، ودل النحاس على عمق فى الفهم السياسى واضح ، ثم يكتب معبراً عن شكه فى مكرم ، ثم يتكلم عن استياء مكرم من إساءة النحاس الظن به (١٦ مايو ١٩٤١) . ثم يتحدث النحاس بتهكم واضح عن مكرم وخوفه من غارات الطائرات الألمانية على مصر الجديدة (١٥ أكتوبر ١٩٤١) ، ثم يحكى أنه عرض على صبرى أبو علم ونجيب الهلالى ومكرم عبيد النقاط التى سيثيرها فى عيد الجهاد فى ١٣ نوفمبر المقبل ، ليجعله خطاب مواجهة للملك والانجليز فيوافق صبرى ونجيب ويتحفظ مكرم (٢٤ أكتوبر ١٩٤١) ، وفى ٦ ديسمبر ١٩٤١ يشرك النحاس حمدى سيف النصر مع مكرم فى إعداد جدول أعمال

اجتماع الهيئة الوفدية ، وفى ١٦ ديسمبر يشرح الوضع السياسى وقد صار بالغ الحساسية من مكرم وعباراته الضمنية عن الوزارة القومية ويحدث مكرم بلهجة عنيفة .والملاحظ أن الخلاف مع مكرم إن كان ظهر فى سنة ١٩٣٨ وبدأ نموه وصعوده ، فلم يكن فؤاد سراج الدين قد ظهر بعد ظهورا مؤثرا فى النحاس بأى من وجوه المعرفة ، وقد ذكر النحاس فى ٥ أغسطس ١٩٤٠ أن حضر وفد من قرية «كفر الجرايدة» يضم أسرة سراج الدين وعلى رأسها فؤاد بك واشقاؤه وطلبوا زيارته لبلدتهم، وهو خبر كثر ذكر امثاله فى المذكرات عن الأسر والقرى المختلفة ، ولم يظهر حتى هذا التاريخ ذكر آخر لفؤاد سراج الدين ولا كان هذا الخبر يحمل قرينة ما على اهتمام خاص لدى النحاس به .

ثم يرد بعد ذلك ذكر مكرم عبيد فى وزارة الوفد فى ٤ فبراير وطلبه أن يكون وزيراً لوزارتين واجابة النحاس له ثم بدأ الخلاف بينهما ومكرم وزيراً للمالية وللتموين يرفض طلبات النحاس إلى آخر هذه القصة ، التى انتهت بخروج مكرم من الوزارة ومن الوفد واتصاله بالملك وتأليفه الكتاب الأسود عن مفاسد وزارة الوفد .

(١٤)

يعرف القارئ من المذكرات قنوات الاتصال التى كانت نشأت واستقرت بين دار السفير البريطانى وبين النحاس ، وبخاصة فى الفترة

من سنة ١٩٣٤ قبل عقد المعاهدة حتى فبراير ١٩٤٢ ، ولا أقصد بقنوات الاتصال أن كان ثمة علاقة سرية أو تدبير خفى بين الوفد والانجليز ، لكننى أقصد بها حركة أولئك الرجال الذين كانوا على علاقة بكلا الطرفين وكان يجرى من خلالهم تحسس المواقف واستكشاف ردود الفعل لامكان التقدير السياسى ، وما وضح لى أن غالب هذه القنوات كانت قنوات ممدودة من الجانب البريطانى فى الأساس لتصل إلى النحاس وليست ممدودة من جانب النحاس ليصل أو يتقرب إلى الانجليز، وهى ممدودة من الجانب الانجليزى بمعنيين ، أولهما أن الأشخاص كانوا فى الأساس اختيارا انجليزيا وصلتهم بدار المندوب السامى البريطانى وبدار السفارة البريطانية بعد معاهدة ١٩٣٦ كانت صلة قوية تكاد تكون معروفة للرأى العام المصرى ، وثانيهما أن المبادرة كانت في الغالب تأتى من الطرف الانجليزى ، عرضا لمشروع معين ، أو محاولة لاقناع الوفد بأمر ما ، أو توضيحا لموقف انجليزى أو تحسسا لوجهة نظر الوفد فى مسألة معينة أو ما شابه .

وأهم الأسماء التى قامت بدور حلقات الاتصال بين الانجليز والوفد فى هذه الفترة كانت أمين عثمان الذى سبقت الاشارة إليه ، وفارس نمر صاحب صحيفة المقطم التى عرفت بموالاتها للاحتلال البريطانى من نهايات القرن الماضى ، وحسن صبرى الذى كان مرشحا لرئاسة

الوزارة وتولاها فعلا في ١٩٤٠ ثم توفى فجأة وكان على صلة وثيقة بالانجليز ، وأحمد عبود الذى كان من كبار رجال المال والصناعة ومن أغنى أغنياء مصر ، ومحمود غزال من رجال الأمن العام ووزارة الداخلية، ومستر ريد من رجال التعليم في المدارس الأجنبية بمصر ، ومحمد فرغلي الذى كان من كبار تجار القطن وصديقا حميما لأمين عثمان ، وجورج نعمة الله وأحمد فريد رفاعى الذى كان مديرا عاما لمصلحة الصحافة ثم عين سفيرا ، فضلا عن عناصر أخرى ترد ورودا طارئا من صحفيين انجليز أو رجال أعمال انجليز أو من فرنسا أو غيرها .

لقد سبق أن أشرت في القسم الأول من هذه الدراسة (التى شملت الجانب النظرى أو الرؤية العامة لأوضاع تلك المرحلة) ، إلى ذلك الرباط بين الحركة الوطنية والحركة الديمقراطية ، وإلى أن الموازين السياسية حكمت الأمرين معا بحيث قام نوع من التلازم بينهما في سياسة الوفد وغيره من القوى السياسية ، فكانت الديمقراطية تعني في الممارسة وصول الحركة الوطنية ممثلة في الوفد إلى الحكم فتواجه الانجليز بالمفاوضات لتصل إلى أقصى ما يمكن أن تصل إليه من اجلاء لنفوذهم ووجودهم بأساليب «الكفاح السلمي المشروع» كما أشرت من قبل إلى أن في هذه المرحلة تبلورت ثلاث قوى الملك ومن وراءه ، والانجليز ومن

حولهم ، والوفد ، وكلما تقاربت قوتان من هؤلاء سقط الثالث وبهذا النهج كانت تدور الأحداث على مدى السنوات الثلاثين لفترة ما بين ثورتي ١٩١٩ و ١٩٥٢ .

أرجو من القارئ أن يستحضر هذه التصورات وهو يقرأ ويتابع أحداث هذه الفترة ، وبخاصة سنوات ما بين ١٩٣٧ و ١٩٤٢ ، فإن تلك الدورات الثلاثية نجم عنها الاضطراب وصبغت الأوضاع السياسية بقدر غير قليل من القلق وعدم التحدد وعدم القدرة على التوقع أو الحساب ، واتفاق الانجليز مع الملك ضد الوفد تضمن بقاء التوجه السياسي لمصر في اطار المصالح والسياسات البريطانية ، ولكنه يرخي للملك العنان إلى ما ينذر بانفلات الأوضاع وارتفاع موجة السخط والتذمر من الفساد والاستبداد ، فتتجه دفة التقارب بين الوفد والانجليز فتتحرك سياسة الوفد كممثل للحركة الوطنية المصرية ، تتحرك بعيدا عن إطر السياسة البريطانية ومصالحها ، فيتقارب الانجليز من الملك ، ثم يتقارب الوفد والملك .. وهكذا .

. وفي الفترة ما بين عامي ١٩٢٤ و ١٩٤٢ ، نشأ عامل جديد ظل يتصاعد ليظهر بمظهر الحاكم لمسألة الحكم كلها في مصر ، وهو خطر الحرب العالمية الثانية ثم اشتعال الحرب في سبتمبر ١٩٣٩ ، ومن الطبيعي أن ينشأ لدى الانجليز أشد حالات الاحساس بالخطر وأقوى

مشاعر الضرورة الملجئة الى ضمان استقرار الأوضاع ، وبخاصة أن مصر آلت إلى أن تكون أرضا للمعركة وأرضا لواحدة من المعارك الحاسمة التى من شأنها تغيير وجهة الحرب نفسها بين منتصر ومهزوم، وبصفة أخص أن الملك لم يعد عنصر استبداد أو عنصر استفزاز غير رشيد فى السياسة فحسب ، وإنما صارت لديه نوازع للاقتراب من أعداء الانجليز فى الحرب سواء بسبب تربية أبيه الملك السابق فؤاد فى ايطاليا ووجود ايطاليين فى حاشية الملك أو بسبب مضاربة الملك على العلاقة مع الحليف الجديد ، وهو الجيش الالمانى ، ووجد الانجليز أنفسهم فى لعبة كراسى الحكم الثلاثية محاصرين بين قوتين ، احداهما تبدو منها نوازع الوصل مع العدو المحارب للانجليز وهو قوة دولية يخشى بأسها ، والثانية وهى الحركة الوطنية المصرية ممثلة فى الوفد وهى إن كانت ضد الألمان اعداء بريطانيا ، فإن عداءها لبريطانيا عداء تقليدى وي؛ ، مبرر وجودها على أنها القوة التى تسعى لاجلاء الوجود والنفوذ الانجليزين ، وهى قوة تستطيع عند اللزوم وفى الظرف السياسى المناسب أن تحرك الشعب المصرى كله فى حركة تثير الاضطراب الكامل للوجود الانجليزى فى لحظات حرب حاسمة مع عدو شرس .

كان الهدف التقليدى للسياسة البريطانية من منتصف العشرينات أن يقوم نظام الحكم المصرى على تحالف تتمثل فيه القوى الثلاثة ،

وقامت تجربة لهذا المسعى فى وزارات عدلى يكن وعبد الخالق ثروت ومصطفى النحاس بين يونية ١٩٢٦ ويونية ١٩٢٨ وفشلت هذه التجربة ولم تتكرر ، لأن الوفد والنحاس أدركوا أن هذه «الوزارات القومية» يقوم استقرارها بسبب وجود الوفد بها دون أن تحقق أهدافه ، وبعد هذه التجربة صار الوفد إلى رفض مبدئى لهذا النوع من الحكومات والوفد قبل أسلوب المفاوضة أى الأخذ والعطاء والمساومة مع الانجليز وقبل دستور ١٩٢٣ والمشاركة للملك فى الحكم فى نظام يعطى الملك امكان إقالة الوفد من الوزارة ، ثم قبل إبرام معاهدة ١٩٣٦ وقبل مبادئها نفسها منذ مفاوضات ١٩٣٠ ، وبلغ حداً بعيدا فى المساومة ، ولكن بقيت لديه خطوة وجد فى الامتناع عنها ما يمثل الاحتفاظ بخط الدفاع الأخير له كقوة سياسية متميزة عن الملك والانجليز وأعوانهما ومخاصمة لهما ، وكقوة تستهدف تحقيق الاستقلال والديمقراطية ، هذه الخطوة هى ما عبر عنه فى المصطلح السياسى الجارى وقتها بعبارة «الوزارة القومية».

فى هذه القضية بالذات يعطينا النحاس مثلا عجيبا من الصلابة والامتناع ، على طول المذكرات ، وبخاصة أنه كان هو من فضّ ائتلاف ١٩٢٦ - ١٩٢٨ إذا أحرج وزارة ثروت فسقطت وتولى هو قيادة الائتلاف ثم قاده إلى ما يخرجه عن جمود الأمر الواقع وما يمكن من

تحقيق بعض الخطوات ضد الانجليز والاستبداد ، فانفض التحالف وسقط النحاس ، وشكل المتحالفون السابقون وزارة منهم وحدهم خلفته وحاربته وأوقفت الدستور ، ومن يومها وهو يرفض «الوزارة القومية» بحسبان أنها قامت لديه صنوا للتخلي عن أهداف الوفد .

قرأت في هذه المذكرات أن رفض النحاس العتيد الذى يصل كثيرا إلى حد الخشونة في التعبير ، هذا الرفض يتجاوز فى التمسك به حدود أنه أمر يتصل بالملاءمات فى أمور السياسة الجارية وتقديراتها وحساب القوى المتغيرة ، يتجاوز ذلك للوصول الى أنه أمر مبدئى يتعلق بأصول الموقف السياسى وغاياته الاساسية ، وفكرت فى التصور الذى يصدر عنه هذا الموقف وارجعته - بقدر ما واتانى النظر - إلى التصور السياسى الذى سبق أن بينته فى الفقرات السابقة عن سياق حركات الصراع منذ سنة ١٩١٩ . وفهمت مما كتبته هذه المذكرات عن النحاس أن هذا الموقف ثابت لديه يرتكز فى إدراكه السياسى الواعى على أمور ثلاثة .

أول هذه الأمور أن الوزارة القومية التى يشارك الوفد فيها غيره من القوى الأخرى ، لا تمكن الوفد من أن يستخلص ما يرى امكان استخلاصه من الانجليز فى المساومات الدائرة بين الطرفين ، لأن قرار الوزارة لن يكون خالصا للوفد فى الوزارات المشتركة .

وثانى هذه الأمور أن الوزارة القومية تعنى نوعا من التحالف بين قوى سياسية متعددة في الحكم ، والتحالف لا يقوم إلا إذا تكشف أطراف التحالف أن ثمة هدفاً مشترك بينهم يسعون جميعا لتحقيقه أو الوصول إليه ، والحاصل أنه لم يوجد هذا الهدف المشترك بين الوفد وبين أحزاب أخرى لاتصل إلى الحكم إلا مستندة إلى الملك أو الى الانجليز ، ومتى ضاع الهدف المشترك لم يمكن تحقيق التحالف .

وثالث تلك الأمور أن الاشتراك لقوى سياسية متعددة فى حكومة واحدة أو فى تحرك واحد يوجب على القوى المشاركة أن تلتزم فى سيرها بأبطأ الخطوات لأى من المشاركين وإلا انفصل عن المشاركة ، والمشاركون فى الوزارة القومية أو بعضهم فى تقدير الوفد لايتحركون ومن ثم سيفرضون السكون على الحكم المشترك، أى عدم السعى لتحقيق أى خطوات فى الجوانب الوطنية والديمقراطية.

بعد ذلك ، هناك السبب التطبيقى الذى يمكن متابعته فى يوميات النحاس ، وهو المتعلق بحسابات السياسة الجارية وتقدير ضغوطها ومدى الكسب المحتمل من التشدد أو الاعتدال ، ونحن نجد بالمذكرات تصويرا بالحركة البطيئة وبتفاصيل كثيرة جدا لعلاقة النحاس والوفد بالانجليز .

أحسب أن الإغراء أمامى شديد لأطيل البيان وأفصله فى هذا الأمر، ولكنى ساكتفى بأن اقتطف قطوفا .

لعل هذه المذكرات من أكثر ما يكشف أمامنا الدور الذى لعبة أمين عثمان منذ ظهر فى سكرتارية وفد المفاوضة المصرى فى سنة ١٩٣٠ ، ونراه يقوم بدور وساطة بين المندوب السامى البريطانى وبين عبد الفتاح باشا يحيى الذى خلف إسماعيل صدقى فى رأسة الوزارة فى ١٩٣٣ (١٠ يوليه ١٩٣٣) ، ونرى عبد الفتاح يحيى يستدعيه فى أغسطس ١٩٣٤ يسأله عن سبب تعيين مندوب سام بالنيابة فيرد عليه أمين عثمان بقوله «إن علمت شيئا ولم يبلغ لى بصفة سرية فاخبرك» (٢٧ أغسطس ١٩٣٤) . بمعنى أن أمين عثمان يصرح بأنه يمكن أن يعرف من أمر الانجليز شيئا يبلغونه له ولا يفصح عنه لرئيس وزراء مصر ، وأمين عثمان يحكى لمكرم عبيد أن المندوب السامى البريطانى لامه بشدة على أنه لم يبادر بالاتصال به ليخبره عن خبر يتعلق بالمؤتمر الوطنى الذى لم يكن يعرفه المندوب السامى فيعتذر أمين عثمان له (١٦ أغسطس ١٩٣٤) وهكذا لا ينبغى أن يكون لديه سر على الانجليز وان جاز أن يقوم السر لديه بالنسبة لرئيس وزراء بلده (يراجع أيضا ٢٠ سبتمبر ١٩٣٤) وصار أمين عثمان على علاقة وثيقة بمكرم وتقرب إلى النحاس كثيرا من نحو منتصف ١٩٣٥ ، أمر آخر يتعلق بالسير مايلز لامبسون الذى عين مندوبا ساميا لبريطانيا فى مصر فى أواخر عام ١٩٣٤ وكان هو من خطط لمهادنة الوفد وهى السياسة التى انتجت معاهدة ١٩٣٦ ، وكان

هو الاتجاه المرجح فى السياسة البريطانية لمهادنة الوفد ، بين اتجاهين يرى أحدهما التشدد مع الوفد ، سواء داخل دار المندوب السامى (٢ أكتوبر ١٩٣٤) أو فى السياسة البريطانية بعامة ، وقد اتخذ منذ جاء مصر سياسة التحسس لمواقف الوفد والنحاس ومراعاة ذلك توطئة للتقارب الذى يستهدفه، وذلك سواء بالنسبة لموضوع الاوصياء على عرش مصر بعد وفاة الملك فؤاد أو موضوع السودان أو موضوع نظام الحكم فى مصر ، وأيد عودة دستور ١٩٢٣ والغاء دستور صدقى الذى صدر فى ١٩٣٠ ، بحسبان ذلك مما يحقق مطلب الوفد ومما يمكن أن يمهد لوصول الوفد إلى الحكم ، وتغلب بهذا على السياسة المخالفة التى كان يمثلها فى بريطانيا هو « هور » الوزير البريطانى (١٧ و ٢٥ نوفمبر و ١٥ و ٢٥ ديسمبر ١٩٣٤ ، و ٧ ، ٢١ يناير ١٩٣٥) .

وقد فهم النحاس ذلك كله واستغل قلق الانجليز فى موضوع اختيار الأوصياء على العرش بعد أن مات الملك فؤاد ، استغل قلقهم من أن يأتى من الأوصياء مما لا يطمئنون إلى موالاته لهم ، استغل النحاس ذلك ليضغط عليهم للموافقة على اعادة دستور ١٩٢٣ لتعود الصيغة من جديد ، الانجليز يضمنون الملك والوفد يمكن أن يضمن البرلمان ويصل إلى الوزارة (١٨ فبراير ، ٣ مايو ١٩٣٥) وبلغ الأمر بمايلز لامبسون فى موافقة الوفد على إعادة الدستور والضغط بذلك على السياسة

البريطانية فى لندن ، بلغ به الأمر إلى حد أن طلب إلى النحاس اظهار شعبيته بتحريك المظاهرات ليتمكن مايلز لامبسون من اقناع لندن بالأمر (١٨ مايو ١٩٣٥ ، ١٥ و ٢٣ أكتوبر ١٩٣٥) .

وبعد معاهدة ١٩٣٦ ، ترك مايلز لامبسون الصراع بين الملك والوزارة الوفدية يأخذ مجراه ، ولعل الانجليز كانوا وراء الستار فى صراع القصر الملكى ضد الوفد (يونيه و ٢٢ يولية ١٩٣٩) ، فقد كان تأجج الصراع فى صالحهم كما كان سقوط وزارة النحاس فى صالحهم إذ غنموا منها معاهدة ١٩٣٦ وصار تنفيذ المعاهدة مع قوة مصرية موالية للانجليز وغير متشددة معهم تشدد الوفد ، صار ذلك أصلح للسياسة البريطانية ، على أنه يلحظ من حديث مايلز لامبسون مع النحاس أن وجها من وجوه اطمئنان الانجليز للملك فؤاد كان يرد من أنه كان يلجأ اليهم للمشورة (١١ يولية ١٩٣٧) ، إما الملك فاروق فقد كان صغيرا ورأس ديوانه علي ماهر رئيس الوزراء السابق من أواخر ١٩٣٧ ، ولم يكن الانجليز يطمئنون إلى على ماهر وكانوا يعتبرونه ذا ميول فاشية (١٨ نوفمبر ١٩٣٨) وما أن تولى على ماهر الوزارة حتى بدأ الانجليز يضيقون به ويزدادون ميلا للتقارب مع النحاس ، وهنا نجد فى المذكرات الكثير جدا من الوقائع التفصيلية المتعلقة بحركة مايلز لامبسون للتقارب مع النحاس ، كما يلحظ امتناع النحاس عنه ورفضه

الدائم اقتراح الوزارة القومية ولتشدده وهجومه على الانجليز فى مناسبات عديدة (من أكتوبر ١٩٣٨ وما بعدها) ومن هنا نصل إلى حادث ٤ فبراير ١٩٤٢.

(١٥)

قبل الكلام عن حادث ٤ فبراير ، تحسن الاشارة إلى الاطار العام له حسبما يمكن استظهاره من سياسة الوفد ، وفى ظنى أن حادث ٤ فبراير بالنسبة للوفد هو ابن معاهدة ١٩٣٦ ، ومن هنا يلزم ايضاح نظرة الوفد لمعاهدة ١٩٣٦ في اطار خريطة القوى السياسية العاملة فى مصر ، سبقت لى الاشارة إلى هذا الامر فى دراسة لى عن معاهدة ١٩٣٦ بين الوفد والقصر نشرتها فى كتاب الاقباط والمسلمون فى اطار الوحدة الوطنية سنة ١٩٨٠ واشرت إلى ان تعديل موازين الحكم فى مصر كان يتم باقتراب اى قوتين من القوى الثلاثة التى تشغل الساحة المصرية، وهى الملك والانجليز والوفد. ومن جهة الوفد، فقد كانت له معركة مع كل من الملك والانجليز ، ولكن كان يحاول الاستفادة من الخلافات التى تطرأ بينها كلما تقاربا وانفردا وحدهما بالحكم، وفى ١٩٢٣ إستفاد من الخلاف بين الملك والانجليز الذين كانوا يؤيدون حزب الاحرار الدستوريين ويدعمون مايطمح إليه من اقتناص بعض سلطات الملك بالدستور، وتقارب الوفد من الملك، ولكن تقارب الانجليز مع الملك

بعد فشل مفاوضات سعد زغلول معهم فى ١٩٢٤، أدى إلى سقوط الوفد من الوزارة. وفى ١٩٢٦ تهادن الوفد مع الانجليز وتحالف مع الاحرار الدستوريين للوقوف ضد سلطات الملك فتولى معهم الوزارة، ثم سقط من الوزارة بسقوط الائتلاف الوزارى فى يونية ١٩٢٨. ثم جرب التلويح بعقد المعاهدة مع الانجليز في يناير ١٩٣٠ فتول الوزارة ثم سقط بعد فشل مفاوضاته مع الانجليز .

كان الوفد حسبما سبقت الاشارة حزبا للكفاح السلمى المشروع، وقد مارس في ظل دستور ١٩٢٣ الكفاح الدستورى، بحسبانه الوسيلة المتاحة لمحاصرة الاستبداد الملكي ومفاوضة الانجليز تحقيقا لهدفه الوطنى ، وتبلور سعيه السلمى المشروع فى ارهاف اسلحته الدستورية للوصول إلى الحكم وتأمين استمراره فيه ، باعتبار أن هيمنته على جهاز الدولة هي وسيلته الفعالة لتحقيق هدفيه الوطنى والديمقراطى، ولكن تجربة اثنتى عشرة سنة رجحت لديه أن تأمين ظهره دستوريا لن يتأتى الا بضغط سلطات الملك فى اضيق نطاق ممكن، وان سلطان الملك لا ينفى الديمقراطية فقط، ولكنه يستخدم فى اللحظة الحاسمة لصالح الاحتلال البريطانى عند تصاعد الصراع بين الوفد وبين الاحتلال.

لذلك كان من أهم أهداف الوفد من معاهدة ١٩٣٦ ان تكفل له هدوءاً ولو نسبيا ومؤقتا مع جبهة صراعه مع الانجليز، ليحشد أهم

أسلحته في جبهة صراعه مع الملك، ضمانا لهيمنته على جهاز الدولة وتأمينا لاستقراره فيه ، هذا المسلك الوفدى قصد بمعاهدة ١٩٣٦ ضمان حيدة الانجليز في معركة الوفد مع الملك.. ولم يكن الأمر جديدا على الحركة الوطنية المصرية، التي حاولت من قبل مرارا تحييد احد خصميها في معركتها مع الخصم الآخر، وذلك حسبما سبقت الاشارة حالا ، وكان كل الفارق الجديد يتعلق بالدرجة، اذ وقفت محاولات الوفد السابقة عند حدود التهدئة النسبية، بينما بلغت فى ١٩٣٦ حد عقد المعاهدة، وساهم فى بلوغ هذا الحد ، ظروف تتعلق بالوضع الدولى وبالمرحلة التى بلغها الصراع فى مصر.

ويفهم من حديث الاستاذ محمود سليمان غنام، وقد صار من بعد أحد قادة الوفد – فى كتابه «المعاهدة المصرية الانجليزية ودراستها من الوجهة العملية » ، يفهم أن الوفد فى تلك الفترة بلور نظرة سياسية .. توضح معنى الاحتلال لديه، وهى أن مجرد وجود القوات الاجنبية لا يعتبر احتلالا بالمعنى الذى يتنافى مع الاستقلال ، لأن الاحتلال المنافى للاستقلال هو الاحتلال الذى يمكن المحتل من التدخل فى شئون البلاد ويحرك سياستها، اما وجود القوات الأجنبية المعزول عن هذا التأثير، فلا يتنافى مع الاستقلال (ص ٤٦ ، ٥٩، ٢١٥).. وهذا التصور العام لموازين السياسة والحكم نجد النحاس مدركا له ومعبرا عنه صراحة فى

هذه المذكرات عندما تولى الحكم سنة ١٩٥٠ مما ستأتى الاشارة عنه ان شاء الله .

ويهذا المفهوم يتضح ان زعيم الوفد مصطفى النحاس كان يتطلع إلى أوضاع الحكم المصرى وهو يوقع المعاهدة مع الانجليز، وكان يتهيأ لمواجهة الاحتلال الملكى للإرادة المصرية ولجهاز الدولة. وهذا ما حدث على مدار عام ١٩٣٧ بالنسبة لسعى الوفد تعيين وزير للقصر ليتمكن من السيطرة به على القصر كمؤسسة سياسية ، ولكن لم يحسب الوفد حساب ان الانجليز كانوا يفهمون بالضبط هذه المسألة وانهم اذا كانوا يستكثرون على الوفد أن يشغل وحده مقاعد الوزارة ، فهم من باب اولى لن يمكنوه من السيطرة على الوزارة والقصر من فوقها، وكان ما كان من سقوط الوفد بالاقالة التى وجهها الملك اليه فى ديسمبر ١٩٣٧.

وتشير المذكرات إلى هذه الامور كما تشير فى ٢٢ اكتوبر ١٩٣٧ إلى ان الوفد كانت تتنازعه هيئتان الملك وجيش الاحتلال ويذكر انه يتمنى على الله ان يوفقه ليمكن بالمعاهدة ضمان عدم تدخل الانجليز فى شئون مصر الداخلية ليتفرغ للملك وتوطيد دعائم الدستور.

وفى ١٩ يونيه ١٩٣٨، يذكر انه بعد عقد المعاهدة ، كان المفروض ان تستقر البلاد وتتأصل الحياة النيابية وتدوم دورة البرلمان المدة المقررة

لها في الدســتور وهى خمـس سنوات فماذا كـان ... » ويذكر ان ما حدث كان على خلاف ذلك اذ سـقطت الوزارة بعـد سـتة عشـر شهرا من توقـيع المعاهدة ، وجىء بوزارة أقليـات ثم سـقطت وجـاءت وزارة لاسند لهـا مـن اكثرية ، ولا اقليـة والانجليـز يحكمـون مـن وراء ستار يتفرجـون ويسكتون لأن مصالحهم لم تمس ولكنهـم يتدخلون عندما تمس مصالحهم.

ومـن هنـا كان النحـاس ضيق الصـدر جدا من الانجليـز، اذ لم يتحقق له ما قصـد من ابـرام المعـاهده. وكان النحاس حسبما بين من المذكرات فى أشـد حالات الضـيق من الملك فاروق والجـهاز السـياسى للقصـر الملكى كـله ، والمذكرات ممتلئة بحديثه عن قصـص فجور الملك وفسقه ومباذله فى السهرات وغيرها، وفى هذا الظرف من الضـيق بدأت محاولات ما يلز لامبسـون ترويـض النحاس ودفعـه او استمالتـه إلى قبول الوزارة القومية كشريك فيها، ولكن صـلابة النحاس كانت أشد من قدرة السفير البريطانى على الترويض .

والمذكرات من اكتـوبر ١٩٣٩ تقـريبـا حـتى فـبراير ١٩٤٢ تكشف بالتصوير البطىء عن تفاصيل هذه الحركة ، السفير البريطانى محاصر بين تقدم الالمان فى الحرب وفى الصـحراء الافريقية الكبرى ثم تقدمهم فى مصر، وبين تزايد ميل ملك مصر للالمان والدسائس التى بدأت تحاك

فى القصر الملكي ضد الانجلين، وبين تشدد النحاس ورفضه الاشتراك في وزارة قومية. والنحاس محاصر أيضا بين ضغط الانجليز عليه للاشتراك فى وزارة قومية وبين كراهة الملك له وللوفد .

وبين ٧و١٢ اكتوبر ضغط السفير على الملك لاسقاط وزارة على ماهر التى كان يراها ذات ميول المانية ، ووجه شبه انذار للملك بذلك ، وعرض على النحاس الوزارة القومية ولكن النحاس رفض . وفى ١٦ يناير يرسل السفير الى النحاس متوددا ويتحسس موقفه من قبول الوزارة عند الضرورة ، فيبدو من رد النحاس انه يزداد بعدا عن الانجليز ، وعاد يشير الى انه لا استقرار مادام «جيش الاحتلال» بمصر وكان بعد المعاهدة قد عدل فى احاديثه عن الاشارة الى الاحتلال مكتفيا بالحديث عن «التدخل عن الشئون الداخلية» ، فجاءت عودته للاشارة الى الاحتلال بمثابة تخط « لفكرية » المعاهدة حسبما افصح عنها محمود سليمان غنام .

وفى ١٦ مارس يعود أمين عثمان لاستمالة النحاس الي الوزارة القومية ويخبره ان السفير ينتظر نضج الوقت ليضغط علي الملك ، ولكنه يريد أن يطمئن الى موقف النحاس ولكن النحاس يرد على ذلك متحدثا عن «الجلاء» ، ثم يحضر الى النحاس عبد الوهاب طلعت من الديوان الملكي متحدثا عن «الوزارة القومية» وذلك في ٦ أبريل ثم فى ١٩ ابريل

يبعث السفير بتنازل جزئى للنحاس فيعرض عليه الوزارة القومية على ان تكون ذات اغلبية وفدية ويختار النحاس رجال احزاب الاقلية المشتركين معه ، ولكن النحاس يرفض ويتكلم عن معاهدة ١٩٣٦ وان الانجليز لم ينفذوا التزاماتهم وانه يرى الغاء المعاهدة ، وفى ٢ يونية يقدم السفير للنحاس عرضا جديدا يتحصل فى وزارة قومية تتشكل ببرنامج توافق عليه الاحزاب وتلتزمه والنحاس يرفض مبدأ أن يأتى به الانجليز الى الحكم ثم يذهب الى دنشواى فى ذكرى حادث ١٩٠٦ الشهير ليخطب ضد الاحتلال (١٧ يونية ١٩٤٠) والانجليز يبدون استياءهم واستنكارهم ، وفى ٧ اغسطس يتحدث مكرم وامين عثمان مع النحاس عن مخاطر الحرب وقلق السفير والنحاس يجيب بأنه لن يغير خطته ، وفى ١٨ اغسطس يخطب النحاس بمناسبة ذكرى معاهدة ١٩٣٦ مهاجما بريطانيا فيستاء الانجليز من عنف الخطاب والحكومة ترد على الخطاب بتفريق المظاهرات التى احتشدت لاستقبال النحاس وباستخدام العنف معها ، والنحاس يبلغ بأن مايلز لامبسون منع اعتقاله ثم تثور فكرة نفى النحاس ، والوفد يجتمع ليتصدى للتهديد باعتقال النحاس أو نفيه والسفير يبلغ النحاس. ان ثمة اختلافاً عند الانجليز حول نفى النحاس، ثم يقدم عرضا بأن تقوم وزارة قومية مع وعد بأن تتلوها وزارة وفدية بعد الانتخابات واستقرار الاوضاع ، والنحاس

يرفض الوزارة القومية ويرفض تدخل السفير (٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ اغسطس و ٢ سبتمبر ١٩٤٠) ، ثم يخطب النحاس فى ١٣ نوفمبر بمناسبة عيد الجهاد فتحكى قصة تفكير الحكومة البريطانية فى اعتقاله .

وفى ١٧ نوفمبر يبعث السفير للنحاس انه يفكر فى استخدام القوة ليعرض على الملك وضعا جديدا فى الوقت المناسب ، والنحاس يرفض هذا التدخل والحكومة تقبض على محمد كامل البنا سكرتير النحاس ثم تفرج عنه والنحاس يتهم الانجليز بأنهم من أمر بذلك (١٦ ، ١٩ ديسمبر ١٩٤٠) .

مع ابريل ١٩٤١ تقريبا يبدأ الوضع فى التغير، والصحف البريطانية تدعو للتعاون مع النحاس ثم يجرى ابلاغ النحاس بأن مشاهدة الانجليز والاجانب التأييد الشعبى الواسع الذى يتمتع به النحاس وذلك خلال رحلته بالفيوم احدث انقلابا لدى المسئولين الانجليز، مما يسهل مهمة السفير التى ينتويها منذ درس شئون مصر وأنه ازداد اقتناعا ان امور مصر ومصالح بريطانيا فى الحرب لن تسير فى طريقها الصحيح الا اذا تولى الحكم رجل يوثق به ، وأن الوفد هو محل ثقة الامة ويجب أن يشترك فى الأمر أو يستقل به إذا دعت الضرورة لذلك ، وفى ذلك اشارة إلي امكان قبول الانجليز وزارة وفدية خالصة (٢٥ ابريل ١٩٤١) . ولكن النحاس كان يثير مسألة ما الذى يضمن الا

يستغنى الانجليز عن حلفائهم بعد تحقيقهم أهدافهم ، على أن هذا لم يمنع من حدوث تقارب وترك بطاقات الزيارة للمجاملة فى المناسبات واصطناع مناسبات اللقاء .

ومع الصيف بدأت الازمات تحيط بوزارة حسين سرى مثل العجز فى التموين واضطراب الاوضاع الاقتصادية ، ومظاهرات تهتف للملك وللألمان ملجأ للقوة ، والانجليز يبلغون النحاس ان حل الازمة فى يده وصار النحاس ملجأ القوى كلها سواء الملك الذى يطلب وزارة قومية او الانجليز او غيرهم (يوميات من اغسطس الى ديسمبر ١٩٤١) ، وفى ١٢ ديسمبر ينقل أمين عثمان الى النحاس رغبة السفير فى الاجتماع به فيرفض النحاس، وفى ١٥ ديسمبر بدأت صحيفة الاهرام تكتب عن الموقف السياسى وعرف النحاس أن كاتبها انطون الجميل رئيس التحرير ذو الصلة الوثيقة بالسفارة البريطانية وبالقصر وبالجاليات الاجنبية وبدا من ذلك أن الوضع نضج لتغيير ما سيحدث .

فى صميم هذا الموقف سافر النحاس الى الاقصر ليقضى ايام الشتاء فى دفء الصعيد ، وبلغ الاقصر فى ١١ يناير ١٩٤٢ ثم سافر الى اسوان فى ٢٢ يناير ١٩٤٢ وفى كل ذلك يصف اللقاءات والاستقبالات والحفلات والتجمعات والخطب ، حتى كان يوم ٣١ يناير

حيث عاد للاقصر وزار مقام سيدى عبد الرحيم القنائى واستقبل من استقبل ثم خاطبه اسماعيل باشا تيمور كبير امناء الملك يبلغه دعوة الملك له لمقابلته في الخامسة مساء الغد .

يحكى النحاس حسبما تنقل هذه اليوميات فى ٣١ يناير ١٩٤٢ ايضا أنه حاول الاعتذار لاسماعيل تيمور فرد تيمور بأن الامر بالغ الخطورة . وكان مكرم بجوار النحاس فخطف سماعة التليفون وقال أن النحاس سيحضر الى القاهرة ، فلما ابدى النحاس غضبه من احراج مكرم له وانه يحسب ان الاجتماع لن يكون الا امرا تافها عن الوزارة القومية قال مكرم: لا أنا متأكد ان الحالة اصبحت لا تطاق وان الأمر جد هذه المرة ، وقرر النحاس السفر وحده ومعه كامل البنا فقال مكرم انه عائد معه ، ويعلق النحاس وسوس لى الشيطان ان مكرم ربما يكون يعلم اشياء كتمها على .. ويحكى كامل البنا فى الهامش ان مكرم ذكر له فى القطار انه يرجح ان تعرض على النحاس وزارة وفدية خالصة وأن الملك سيرغم على ذلك وإلا فقد عرشه ، وانه اذا تمسك النحاس برفض الوزارة القومية فسيرغم الانجليز الملك على أن تشكل وزارة وفدية صرف.

ثم تجرى احداث الايام التالية بما يعرف القارىء معظمه من مصادر التاريخ الأخرى عن هذا اليوم ويوم ٤ فبراير حتى تولى

النحاس الوزارة الوفدية الخالصة.

وأتصور أن المذكرات تلقى اضواء جديدة على هذا الحدث وأهم جديد فيها فى ظنى هو تصورها اللقاءات والاتصالات والعروض السابقة على الحادث على مدى الاعوام الثلاثة السابقة ودور مكرم عبيد فى هذه المسألة .

بقيت لى ملاحظات قليلة اسردها تباعا فى هذه الفقرة.

(١٦)

فان التصور الذى سبقت الاشارة اليه عن الحديث عن نظرة الوفد الى معاهدة ١٩٣٦ واثر ذلك فى حادث ٤ فبراير هذا التصور المتعلق بتهدئة الوفد مع الملك تارة ومع الانجليز تارة اخرى محاولا التغلب على خصميه الواحد بعد الآخر ، هذا التصور نجد أن النحاس يعبر عنه صراحة فى هذه المذكرات عند حديثه عن خطة الوفد عندما وصل الى الحكم فى يناير ١٩٥٠ ، قال صراحة ماخلاصته ان الوفد كان كلما تولى الحكم وجد نفسه بين عدوين الملك والانجليز أو هم ثلاثة اعداء اذا اضيفت احزاب الاقلية والانجليز ضد الحكم الوطنى والملك ضد من ينتقص من سلطاته واحزاب الاقلية تتربص للقفز للحكم عن غير طريق الدستور ، وانه كلما اصدمت الحكومة الوفدية بالانجليز أوعزوا للملك ان يسقطها ، واذا اغضبت الملك سارع للانجليز يقنعهم باسقاطها وهكذا .

وإذا كان هذا هو التصور الذى حكم خطة الوفد فى ابرام معاهدة ١٩٣٦ والوصول الى الحكم فى ٤ فبراير ١٩٤٢ اذ تهاون مع الانجليز ليقضى على سلطة الملك ثم يواجه الانجليز ، ففشل فى اتمام مخططه اذ سمح الانجليز للملك باسقاط حكومة الوفد فى ١٩٣٧ بعد ابرام المعاهدة، وسمحوا بإسقاطها فى ١٩٤٤ بعد زوال خطر الحرب عن مصر ودخول المانيا فى مرحلة الهزيمة ، اذا كان ذلك فقد شاءت حكومة الوفد فى سنة ١٩٥٠ ان تجرب النقيض الذى يمليه عليها التصور ذاته وذلك بأن تهادن الملك لتتفرغ للانجليز ، وقد يكون هذا معروفا من قبل ولكن الجديد ان المذكرات تؤكده وتوضح أن النحاس كان مدركا لهذا التصور الحاكم لاسلوب الكفاح السلمى المشروع لقوة سياسية تتبع هذا الاسلوب وتجد نفسها بين عدوين ولا تستطيع بالاسلوب السلمى المشروع إلا ان تواجه كلا منها على حدة. وهنا كانت المعضلة التاريخية التى احاطت بالوفد فى كل هذه المرحلة. وسنجد ويجد النحاس ان الملك غدر بحكومة الوفد ايضا واسقطها فى ١٩٥٢ منضما للسياسة البريطانية .

على أنه فى الحقيقة ففى كل هذه التجارب وسواء فى ١٩٣٦ أو ١٩٤٢ أو ١٩٥٠ كان الوفد يحقق الكثير من الاهداف فى سعيه السلمى المشروع لتحقيق الاستقلال والديمقراطية ، وكان آخر هذه

الانجازات الكبرى الغاء معاهدة ١٩٣٦ في ظل حكومته التى تشكلت في ١٩٥٠ .

وبمراعاة تلك الملاحظة العامة السابقة التى تعبر عن رؤية عامة للنحاس ، لا نجد اعتناء له في المذكرات أن يعبر عن مثيلاتها عند استشرافه لكل مرحلة من المراحل ، سواء عند انتهاء الحرب فى ١٩٤٥ أو عند تولى الوزارة فى ١٩٥٠ أو عند قيام ثورة ٢٣ يولية ١٩٥٢ ، وأن كان القارئ يلحظ بطبيعة الحال تجاوبا سريعا وذكيا مع الأوضاع الجديدة والظروف المتغيرة ، شاهدنا ذلك مع حرب الحبشة ثم مع احتمالات الحرب العالمية وغير ذلك .

على أنه من جهة أخرى لا نلحظ جديدا هاما يضاف إلى معارفنا بالنسبة لما سجله النحاس فى المذكرات عن احداث الفترة التى تلت حكومة الوفد فى ٤ فبراير ، وقد سبقت الاشارة أن اليوميات توقفت فى ١٠ فبراير ١٩٤٢ . ثم أتت المذكرات بعد ذلك على أساس موضوعات يتتالى الحديث عن كل منها كحادثة أو واقعة متميزة بذاتها ، واتسمت بالسرد واتسمت باختيار ما كان محل جدل سياسى بين الوفد وخصومه من وقائع أو أحداث أو مواقف .

على أنه فيما حكاه النحاس عن وقائع وزارته فى ١٩٥٠ ، بدا لى ، ولعله يبدو للقارئ ، أن النحاس لم يكن في هذه الفترة مسيطرا على

حكومته كما كان من قبل . فهو يذكر أن اختياره لوزير ماليته زكى عبدالمتعال لم يكن اختيارا موفقا ، وأن وزير اوقافه حسين الجندى رشحه للوزارة معاونو النحاس دون أن يخطروه أن ترشيحه جاء رغبة من الملك .. وكان حسين الجندى هو من اصطنع للملك نسبا شريفا بآل البيت وأذاعه مما احرج حكومة الوفد ، كما يحكى النحاس أنه خدع فى ترشيح الشيخ أحمد حمروش شيخا للأزهر . وأنه لما اثير فى مجلس الوزراء موضوع حرية الصحافة ومشروع تقييدها لم يقف مع حرية الصحافة مع النحاس إلا محمد صلاح الدين ومحمود سليمان غنام ، وأما الوزراء الباقون وعلى رأسهم طه حسين فكانوا مع تقييد الصحافة . كما يحكى فى بداية تشكيل الوزارة أنه فوجئ بان أحمد نجيب الهلالى يعتذر عن الاشتراك فيها مما يشير إلى أن النحاس لم يعد متابعا لاتجاهات اقرب الناس إليه ومن هم من أكبر قادة الوفد .

وبدا أن الوزارة لم تعد في قبضة النحاس وحده ، وأنه مع سياسة موالاة الملك تسرب نفوذ الملك إلى اختيار الوزراء وقامت روابط بين بعضهم وبين القصر الملكى مما صار به النحاس يفاجأ احيانا باعمال وزرائه ، وقد ذكر عن حسين الجندى «خدع الذين رشحوه وخدعونى معهم» .

كان النحاس قد جاوز السبعين من عمره ، والسبعين من العمر فى مثل جيل مصطفى النحاس وفى بلده كان سنا يعد كبيرا. ولعله ايضا كتب ماكتب عنها بعد سنين . ولعل هذا وذاك هو مايفسر أن حديث النحاس عن وقائع هذه الفترة هو حديث لا يضيف الى معارفنا عنها الكثير، ولا المهم، رغم أنه كان يقف على رأس الأحداث كلها فقد كانت مصر على مشارف حريق القاهرة وعلى مشارف ثورة آتية . وكانت الفترة ذاتها المحكى عنها هى فترة ازمة حكم عميقة ، ولعل ما زادها عمقا ان ادراك دلالات أحداثها لم يكن على النحو المرجو .

نحن نلحظ أن النحاس فيما يحكى كان مستغرقا فى الجدل السياسى الدائر من القوى والهيئات التى تنتمى الى جيله وجيل ثورة ١٩١٩، أما القوى السياسية الجديدة المكونة من شباب الثلاثينات والاربعينات فهى إما غائبة أو شبه غائبةعن وعيه، وحديثه النادر عن بعضها لا يدل على ادراك لحجمها وحقيقة أهدافها. وذلك سواء الاخوان المسلمين أو «مصر الفتاة» او اتجاهات الماركسيين او شباب الوفد نفسه..

وقد حكى عن حكومة ٤ فبراير ان الانجليز طلبوا اليه اعتقال الشيخ حسن البنا ، وانه قابل الشيخ البنا فى منزل فؤاد سراج الدين ، واستمع للشيخ ولحديثه الدينى الروحى الذى صادف هوى لديه وعرف منه انه وانصاره لا يبغون إلا استقلال البلاد ، فنصحه النحاس ألا

ينشط اتباعه ضد اية جهة حتى إذا حان أوان الجهاد « كنت معك ومؤيدك فى سبيل الكفاح لاعلان كلمة الله » ، وصمم النحاس على رفض الطلب الملح للسفير البريطانى باعتقال البنا. ولكنه هاجم الاخوان من بعد بمناسبة حرب فلسطين فبدا كما لو كان اقرب لخصمه النقراشى منهم ، ثم بعد إلغاء المعاهدة لم يبد أنه حاول أن يتصل بأى من هذه القوى التى كانت تؤيد إلغاءه للمعاهدة وأن ينسق العمل معها، سواء من كانوا يكتفون بالتأييد السياسى أو من شاركوا فى أعمال الفدائيين ، ولو كان فعل لاستطاع أن يقوى بهم على خصومه الذين نزعوه من الحكم ، ولكن فارق السن والتجربة ومرحلة العمر والمرحلة التاريخية ونوعيات القضايا كل ذلك اعاق الرؤية كما اعاق الاتصال ، وقد كان النحاس دائما إن كانت تعوزه المبادرة السياسية والخيال الذى يستشرف لآفاق الواقع والمستقبل، فقد كان وطنيا كبيرا امينا صاحب موقف ، هكذا كان .

وبقى وقد كان النحاس متيقنا انه سيقال بعد الغائه المعاهدة وخاصة مع حريق القاهرة ومع ذلك فرض الاحكام العرفية ليلة الحريق وكتبت هذه المذكرات عنه لابد عما ليس منه بد كان قدرا تاريخيا امسك بيده لمنع هذا القرار ، وأقيل النحاس بعدها وآذت الاحكام العرفية هؤلاء الشباب الذين ذهبوا الى منطقة القناة حيث المعسكرات البريطانية ليجاهدوا دفاعا عن قراره بالغاء

المعاهدة وبقيت الاحكام العرفية من بعده أربعين سنة إلا شهورا تتخلل هذه المدة.

(١٧)

ثم يرد بعد ذلك ماسجله محمد كامل البنا عن النحاس بعد ثورة ٢٣ يوليه ١٩٥٢ ، وأن خصومة النحاس لثورة ٢٣ يوليو ورجالها لا يماثلها إلا خصومة هذه الثورة ورجالها للنحاس وللوفد . ويحكى عن النحاس فى هذه الصفحات أن المرة الوحيدة التى زاره فيها طه حسين بعد ثورة ٢٣ يوليه كان بعد انفصال سوريا عن مصر فى ١٩٦٢ وكان محملا برسالة يطلب من النحاس تأييد الثورة ، فأجاب النحاس برد طويل عما فعلته الثورة معه وانهى حديثه بطرد طه حسين من منزله . ونحن نلمس فيما كتب عن النحاس فى هذه المرحلة بالمذكرات انه لم يدرك السياسات الوطنية التى اتبعتها ثورة ٢٣ يوليه مثل تأميم قناة السويس وبناء السد العالى ومعاداة الاحلاف ، مما كان يعتبر استمرارا لسياساته هو وتشييدا على ما أنجز هو ، ولكن ذلك لايدهشنا قط فان ثورة ٢٣ يوليه والقائمين عليها لم تكن تدرك هى الاخرى السياسات الوطنية التى اتبعها وأرسى اسسها وعمق اصولها زعيم لمصر سابق التفت عليه جماهير الشعب المصرى واسلمته قيادها مطمئنة لأمانته

وصلابته وحسن تمثيله لما دعا اليه من اصول تتعلق بالاستقلال والديمقراطية ، وبقى على رأس حركة هذا الشعب خمسا وعشرين سنة .

نقرأ الصفحات الأخيرة ونرى هذا الذى ملأ دنيا المصريين وشغل الناس، معزولا لا يرى إلا افرادا قليلين يمازحهم ويلعب معهم النرد وقد جاوز الثمانين ببضع سنين . نقرأ ذلك فلا نملك منع دمعة صادقة تسيل، ونمسحها مع دعائنا لله سبحانه أن يرحمه، وأن يسكنه فسيح جناته، جزاء ما نفع أمته وبذل فى سبيلها ، وجزاء امانته وصدقه واخلاصه، وجزاء صلابته وقوته وعناده فى الدفاع عنها .

والحمد لله ..



عبدالرحمن الرافعي

أهم مايذكر به الأستاذ عبدالرحمن الرافعي ، وما سيذكر به مستقبلا، هو تأريخه للحركة الوطنية المصرية من نهاية القرن الثامن عشر حتى نهاية الخمسينات من القرن العشرين . فقدتتبع هذه الحقبة ذات الأهمية البالغة في مصير مصر الحاضر والمستقبل، في خمسة عشر مجلدا أخرجها للناس على مدى ثلاثين عاما منذ ١٩٢٩. وليس من قارىء في التاريخ المصرى، وليس من مهتم به إلا وللرافعي في عقله وجود .

كان الرافعي من الجيل الذى شب في السنوات الأولى من هذا القرن، وصنع ثورة ١٩١٩، وعاش أحداثا «في أعقاب الثورة»، حتى استوفي العمر وأسلم الشعلة في نهايات الأربعينات إلى من يليه من أجيال أخرى . وهو جيل لم يصنع ثورة ١٩١٩ فحسب، ولكنه الجيل الذى صنعته الثورة، ثورة «مصر للمصريين» بما يعنيه هذا الشعار من قيم وطنية وديمقراطية وبما يلقيه على عاتق حامليه من مسئوليات النهوض بالمجتمع، وتمدينه في كافة ميادين التطور. وقد ألقت نيران الثورة في قلب رجاله وهجا لم تبرد حميته ، فقدم في الأدب أمثال طه حسين وأحمد صادق الرافعي والعقاد وأحمد أمين وزكي مبارك ، وفي الاسلاميات أمثال الشيخين مصطفى عبد الرازق ومحمد شاكر والشيخ دراز ، وفي القانون أمثال أبو هيف وأحمد أمين والسنهورى وعبد الحميد بدوى والشيخ أحمد إبراهيم ، وفي الطب أمثال على إبراهيم ونجيب محفوظ، وفي الاقتصاد أمثال طلعت حرب، وغير هؤلاء

فى هذه الفروع وفى غيرها كثيرون، وكان هؤلاء جميعا هم طليعة من قام باستزراع العلوم والمناهج الحديثة فى التربة المصرية، ومن شاد – فى حدود الامكانيات التاريخية – الهيكل الحديث للمجتمع المصرى ، فكرا واقتصادا وسياسة وادارة وعلما. وللرافعى مكانته بين هؤلاء فى تأريخه لمصر الحديثة .

ولعل كتابات الرافعى التاريخية فيما تكشفه من فكر سياسى، تعتبر أكثر ما يقرأ الآن من الأدب السياسى ، لرجال هذا الجيل . إن غالب ما يقرأ الآن من كتابات هذا الجيل ، تجده فى مجال الأدب والفكر والمجالات المتخصصة كالقانون والفلسفة ونحوهما، مثل أحمد أمين والعقاد والسنهورى وغيرهما . أما كتابات رجال السياسة ومفكريها، أو الكتابات السياسية لأمثال العقاد وسلامة موسى، فلا تكاد تجد قراء لها فى غير دوائر البحث والدراسة . وليس الا الرافعى تقريبا من تشيع قراءته الآن وتتصل كتاباته أوثق اتصال بالسياسة فكرا ومنهجا لرجال جيله ، وذلك بحكم الصلة الوثيقة بين التاريخ السياسى والسياسة ، وبحكم أن الرافعى كان من رجال السياسة في وقته ، وبسبب أن قسما كبيرا من أعماله التاريخية يتعلق بالفترة التى عاشها مع جيله منذ بداية هذا القرن حتى منتصفه ، والرافعى فى هذا يمثل نموذجا مهما من نماذج الفكر

السياسي الوطني الذي كان يدور في مصر من خلال النصف الأول من القرن العشرين .

وإذا كانت أجيال الحاضر المعيش ترى في كتابات الرافعي - رغم الاقتناع بنزعته الوطنية والتقدير البالغ لهذه النزعة في جميع ما كتب - ترى فيها قدرا من «التبسيط» للمشاكل والتيارات، ونظرة «محدودة الجوانب» في تحليل الأحداث التاريخة. فان هذه الأوصاف لا تلحق فكر الرافعي وحده، ولكنها تشير أيضا إلى اختلاف الصياغة السياسية لعقلية الأجيال الحاضرة على اختلاف تياراتها، عن الصياغة المماثلة لجيل هذا المؤرخ الكبير، وذلك نتيجة اختلاف المشاكل وتطور الأوضاع السياسية والاجتماعية. فاذا كان الفكر السياسي للرافعي لايزال مقروءا للآن، فتلك ميزة امتاز بها الرجل لتآليفه التاريخية، ولكن هذه الميزة أردفت في ركابها شيئاً من سوء الحظ، إذ نظر جمهور الحاضر إلى فكره كعنصر في الحياة السياسية المعيشة لا كفكر ينتمي إلى الجيل السابق ، وتطرف كثيرون فقيموه بميزان الحاضر فطفت كفة الرجل ظلما.

وأن من أفضل ما تثبته مدرسة التاريخ المصري للرافعي المؤرخ ، أن مجموعته التاريخية تكاد تكون أجمع مجموعة صدرت في عصره وإلى الآن تغطي حقبة التاريخ المصري الحديث كاملة . كما تثبت ما قدر للرافعي من أن يضع نقطة البداية للحركة الوطنية في العصر الحديث،

وهى المقاومة الشعبية للحملة الفرنسية التى غزت مصر فى نهاية القرن الثامن عشر . وكان تعيينه لهذه البداية تعيينا علميا ذكيا يشير إلى حاسة سياسية تاريخية مرهفة . كما تثبت له أنه صاغ تاريخ هذه الفترة على مدى مائة وستين سنة صياغة وطنية مصرية تتسم بالأصالة رغم ما يظهر فيها من نواحى القصور.

ومن أفضل ما يثبت للرافعى المؤرخ أيضاً ، هذا الدأب الدءوب والصبر الصبور الذى تميزبه وعانى منه عشرات السنين رغم عدم الرواج وركود السوق. وقد بدا اعداد المجلد الأول من مجموعته فى ١٩٢٦ وتلته مجلدات ثمانية حتى ١٩٤٢، وبذل فى ذلك جهودا مضنية وتكلف عناء كبيرا ، ولكن حتى هذا التاريخ الأخير كان اقبال المثقفين على قراءته ضعيفا وكان يطبع كتبه على نفقته ويعانى فى توزيعها، وبدا الاقبال على كتبه من أوائل ١٩٤٣ عندما اشترت منه مكتبة النهضة المصرية مخزون كتبه كله ودفعت جملة الثمن اليه مخصوما منه ٤٠٪ فبلغ ما استلمه عن تسعة مؤلفات ٨٨٣ جنيها «وقبلت الصفقة مغتبطا . وأدركت فى هذا اليوم أن كتبى قد لاقت شيئا من الاقبال الذى كنت انتظره منذ أكثر من خمس عشرة سنة.» وحتى بعد ذلك ظل الرافعى يجد من المثقفين من يسأله عما إذا كان كتب عن مصر محمد على فى وقت كان قد وصل بتأريخه إلى ثورة ١٩١٩، أو

يسـأله عمـا إذا كان كتب جزءاً أم جزءين في وقت كان أخرج فيه اثنى عشر جزءا.(١)

وكـان هذا الـدأب منه فضيلـة أخلاقيـة قل من يتصـف بـها، بما فيـه من انكار للذات وبذل لأقصـى الجـهـد بغير عائد أدبى عاجل ولا عـائد مـادى عـاجل أو آجل . وهـو وضع أشـبـه بمقـام الفنـاء فى لغـة المتصوفة، ولا يكاد يشاهـد مثل بـارز له الآن إلا مـا كـان من الأسـتـاذ نجيب محفوظ فى الشطـر الأول والأكـبر من تـاريـخ نشاطه الأدبـى. فـرد يعمل وينشط بغير مشجـع من هيئـة ما ولا انتـماء إلى مؤسسـة بعينها ويكرس لهـذا الجهـد حياتـه ، رغم ما يعنيـه ذلك من تضحيات مادية وأدبية فيما كان يمكن أن ينحو فيه من مسالك الحياة الأخرى، ولا يرتكن فى كل ذلك إلا على ايمان بغايته العامة وثقته بملكاته الذاتية . وتبقى لديه القدرة على معالجة نفسه ومشاكل حياته بهذا الاصرار الذى لا يستند إلا إلى هـدف عام مجرد وثقة بالنفس لا يؤيدها مظهر خارجى سنين طويلة ، ويمكن أن يتـصـور كيف تكون أزمـات النفس فى هذه الأحوال، رغم الضيق أحياناً ، والضغط والتضييق أحياناً واغراء المفاتن فى أكثر الأحايين . لقـد صدق الرافعى قـراءه عن نفسه عنـدما قال

(١) مـذكراتى ١٨٨٩ - ١٩٥١ . عبدالرحمن الرافعى ص ٧١ - ٧٧ . ذكر لى أحد أقارب الرافعى ، أنه كان يطبع كتبه على نفقته ثم يحملها على عربة كارو يدور بها على المكتبات يوزعها.

«انى اجتهدت أن آخذ من الحيـاة التالية أقصى ما استطيع ويمكننى أن أقول أن نصيب الانسان منها يتبع مبدئيا الوسط والبيئة التى يعيش فيها ، فالمجتمع الذى يؤمن بها يساعد بداهة على أن يحياها المواطن الصالح، والمجتمع الذى لا يؤمن بها يخذلها ويباعد بين الانسان وما ينشده منها ، على أن الارادة الشخصية لها دخل فى توجيه المواطن إليها ، وهى على أى حال تحتاج إلى ذخيرة من الصبر، ومن الصوفية الوطنية ، تجعل المرء غير مكترث لما يلقاه من العقبات والمتاعب» [٢]. ثم يكشف عما يتصف به من «الحياء» و«العناد» ويقول أنه عبثا حاول أن يعالج هذا الأمر «وتساءلت لكى اقنع نفسى بالاقلاع عنه (العناد) : كيف يتفق الحياء مع العناد؟ فلم أجد جوابا مقنعا إلا أن كليهما عيب ولكن لا سبيل إلى التخلص منهما» [٣].
والحقيقة أن الحياء كثيرا ما يظهر على أنه احتجاج سلبى على واقع سىء ، وأنه دليل على الرفض وعدم التلاؤم، وأن العناد هو المظهر الايجابى لهذا الاحتجاج، وهو معاندة سلبيات الواقع ومقاومتها من دون النفس والاصرار على موقف يراه الانسان حقا ولو حاصره ما يظن أنه الباطل . ويبدو أنه لولا هذين «العيبين» ولولا هذه الصوفية الوطنية لما شاهدنا مجموعة الرافعى التاريخية كاملة .

---

(٢) المرجع السابق ص ١٩ .

(٣) المرجع السابق ص ١٤٨ .

وإذا كان رواج مؤلفاته نسبيا ، قد بدا في الأربعينات وعلى مشارف نهاية الحرب العالمية الثانية ، فيمكن أن يتصور كيف أفاد بها شباب الأربعينات الذى ولج ميدان السياسة مع نهاية الحرب بنزوع وطنى ديمقراطى وفكر جديد وطاقة مشحونة .. وبشوق زائد لمعرفة تاريخ وطنه ، ويمكن القول بأن مؤلفات الرافعى التاريخية كانت المادة الأساسية التى تغذى بها شباب الأربعينات فى تطلعه لمعرفة أحداث بلده ، وساعدته هذه المادة على تفتيح اتجاهاته السياسية ووصلها بتاريخ وطنه ، وإن أى مطلع على إلكتابات السياسية لشباب الأربعينات ليدرك مقدار ما أفادت من تاريخ الرافعى فى استطلاع أحداث الحركة الوطنية المصرية والاعتبار بمسيرتها .

وإذا كان المعروف عن الرافعى لدى أجيال الماضى أنه مؤرخ فحسب، فالحقيقة أنه كان فى نظر جيله سياسيا أولا : عمل بالسياسة منذ كان طالبا ، وكان يشتغل بالمحاماة منذ تخرجه في الحقوق قبل أن يبلغ العشرين من عمره حتى صار نقيبا للمحامين . وكان برلمانيا فى أول مجلس نواب بعد ثورة ١٩١٩ وهو فى الخامسة والثلاثين من عمره ثم فى مجلس الشيوخ على مشارف الأربعينات ولم يصدر أول كتبه التاريخية إلا وهو فى الأربعين .

وقد يكون من المفيد تقديم «الرافعى السياسى» من خلال الصيغة الفكرية التى شكلته ، ومن خلال نشاطه العملى ، ولا شك أن «الرافعى السياسى» هو خير من يفسر «الرافعى المؤرخ».

تكوينه السياسى :

ولد عبد الرحمن الرافعي في ٨ فبراير ١٨٨٩ بعد الاحتلال الانجليزى لمصر بسبعة أعوام ونصف. وتفتحت بصيرته مع بداية القرن العشرين على صحيفة «اللواء» وخطب مصطفى كامل ونشاط الوطنيين من هذا الرعيل، تفتحت مع تفتح أكمام الحركة الوطنية في مرحلتها الجديدة ، مرحلةالمقاومة للاحتلال البريطاني .

ولد لعالم من الأزهر الشيخ عبد اللطيف الرافعي ، الذى تولى مناصب فى القضاء الشرعى فى بعض أقاليم مصر ثم تولى الافتاء للاسكندرية وأحيل للمعاش فى ١٩٠٩ وتوفى بعدها بتسعة أعوام . وكان من أخوة عبد الرحمن الرافعى ، أمين الرافعى الذى كان له بعده الوطنى البارز فى السياسة المصرية حتى توفى فى ١٩٢٧ . أدرك عبد الرحمن سن التمييزمع والده بالاسكندرية تلميذا بالثانوية، وكان وقتها مستغرقا فى دراسته لا يظهر له اهتمام بغيرها ، تقع فى يده صحيفة اللواء كلما ذهب إلى مقهاه المعتاد فلا يكاد يدرك للصحيفة منهجا متميزاً ، فلما

نال الثانوية فى ١٩٠٤ انتقل إلى القاهرة ليدرس فى مدرسة الحقوق ، وفى هذه المدرسة وبين أساتذتها المصريين وطلبتها، وفى القاهرة، صيغ التفكير السياسى له .

كانت الحركة الوطنية تشب على يدى مصطفى كامل، وكان الاتفاق الودى بين فرنسا وانجلترا قد انعقد سنتها كعلامة مهمة على اعتراف المجتمع الدولى بالاحتلال البريطانى لمصر .وتكوّن نادى المدارس العليا فى السنة التالية من صفوة الشباب الوطنى ، ثم لم يمض عامان آخران حتى أعلن عن تكوين الحزب الوطنى . وبين كل هذه العلامات عرف نشاط الشباب الوطنى، خطبا واجتماعات ولقاءات، وبدأت فيها المظاهرات السياسية . وعرف الرافعى طريقه بين هؤلاء ونشط فيما نشطوا فيه من مجالات العمل السياسى . واشترك فى الجمعية التأسيسية لنادى المدارس العليا ، وانضم إلى الحزب الوطنى فور الإعلان عنه ، وادرك مصطفى كامل قبيل وفاته فى فبراير ١٩٠٨ . ثم لازم محمد فريد من بعده ونشر أولى مقالاته السياسية باللواء بعد وفاة مصطفى كامل بشهر واحد . فلما نال أجازة الحقوق فى السنة نفسها، تردد فترة قصيرة فى الاختيار بين احتراف المحاماة واحتراف الصحافة فى اللواء . واستقر فى النهاية على احتراف المحاماة مع ابقاء أوثق اتصال له بصحيفة اللواء . واشتغل فى المحاماة شهرا بأسيوط مع محمد علوية ، ثم انتقل إلى الزقازيق مع صديقه

أحمد وجدى فى ١٩٠٩ ، ثم انتقـل إلى المنصورة وعمل فيـها بمفرده منـذ ١٩١٣ . وكـان يمـد اللواء بمقـالاته السـيـاسـيـة . كـتب عن الدستور فى أكتوبر ١٩٠٥ ورد على تقرير جورست في تسعة عشرة مقـالة فى مايـو ١٩٠٩ . وكتب عن الأوضـاع الاقتصادية من يناير إلى مارس ١٩٠٩ ، وكان مع من تطوع للتدريس فى مدارس الشعب التى فتحها الحزب الوطنى ، واعتاد حضور مؤتمرات الحزب الوطنى التى كانت تعقد سنويا على عهـد محمد فريد ، وانتخب فى مؤتمر ١٩١١ عضوا باللجـنة الادارية للحزب ، وسافر مع فريد لحضور مؤتمر السلام الذى أزمع عقده بروما فى سبتمبر ١٩١١ . كما أمد مؤتمر بروكسل فى السـنة السابقة بموضـوع عن مركزالصـحـافـة المصرية والأدوار التى تعـاقبت عليـها منـذ الاحتلال . فلما هاجر محمد فريد فى ١٩١٢ بقى الرافعى على اتصال دائم به ، واستمر عضوا نشيطا بالحزب.

فلمـا شبت الحرب العالمية الأولى ، فرضت بريطانيا الحماية علي مصر وخلعت الخديو عباس وأحلت محله السلطان حسين كامل وفرضت الأحكام العـرفيـة وفى ظل هذه الظروف فـرضت السلطات البـريطانيـة ألوان القمع والعسف على العناصر الوطنية؟ وكان في مقدمتهم الحزب الوطنى ورجاله، إذ ضـبطت أوراق الحزب ووثائقه وأعتـقل الكثيـر من أعضائه ، ونفى منهم جمع إلى مالطة وأوربا . وكـان نصـيب الرافـعي الاعتقال بالمنصورة فى أغسطس ١٩١٥ والترحيل إلي القاهرة بسجن الاستئناف ثم بليمان طرة ، حيث مكث إلى يونيه ١٩١٦ .

الحزب الوطنى والعنف :

يذكر الرافعي في «مذكراتي»[٤] «كنت سنة ١٩١٩ لاأزال في الثلاثين من عمرى .. وكانت تغلب عليّ نزعة الشباب، وأتوق إلى أن تسلك الأمة سبيل العنف في جهادها ، أما الآن (١٩٥١) فاني أميل إلى مبدأ عدم العنف .. » ويبدو أن سبيل العنف هذا لم يكن يتوق اليه الرافعي وحده ، ولا كان قاصرا لديه ولدى غيره على ثورة ١٩١٩. إنما كان طريقا اتجه اليه الحزب الوطني قبل الحرب الأولى ومنذ مقتل بطرس غالى، واستمر فيما تلا ذلك من أعوام ، على أن هذه العبارة هى العبارة الوحيدة التى صرح بها الرافعى عن «سبيل العنف».

والذى يظهر من تتبع نمو الحركة الوطنية على يدى اللواء والحزب الوطنى فى السنوات الأولى من هذا القرن ، يظهر أن الحركة الوطنية فى هذه المرحلة الجديدة ، كانت تنمو من خلال ردود الفعل الواعية لسياسة الاحتلال تجاهها أى من خلال تطور الصراع بينها وبينه ، بدأت أولا معتمدة على التناقض بين المصالح البريطانيا ومصالح القوى الأوربية المتنافسة معها على مصر ، وعلى التناقض بين سلطة الإحتلال الفعلية وسلطة الخديو الشرعية . واكتفت وقتها من الرأى العام المصرى بالتعبئة السياسية العامة من خلال صحيفة اللواء . ثم كان الاتفاق الودى بين فرنسا وانجلترا فى ١٩٠٤ وتجردت الحركة الوطنية من

(٤) المرجع السابق ص ٣٠، وثورة ١٩١٩ الجزء الأول عبد الرحمن الرافعي ص ٢٣٥.

حليفها الفرنسى (والأوروبى عامة) المظنون . ثم كانت سياسة الوفاق بين الإحتلال والخديو فتجردت من حليفها المحلى المظنون منذ١٩٠٧ . وبهذا ردت الحركة الوطنية إلى منابع قوتها الذاتية الكامنة فى الشعب المصرى الذى يعانى من الإحتلال ومن استبداد الخديو، وبدأت تتلمس طريقها إلى هذه المنابع .

وقال مصطفى كامل أن الأمة لا تسترد استقلالها إلا بمجهوداتها . وكانت البداية تكوين نادى المدارس العليا ، ثم شجع الاحتلال بتنظيم حلفائه المصريين فتكون حزب الأمة، فادركت الحركة الوطنية أنه لا يكفيها فى الاعتمادعلى منابع قوتها الذاتية أن تنشر اتجاها وطنيا ، وتكوّن رأيا عاما وطنيا متحمسا لقضية الإستقلال، انما لابد لها من بناء كيان تنظيمى يجمع العناصر الفعالة لهذا الاتجاه ويربطها ارادة وفعلا، فتكون الحزب الوطنى. وحتمت ضرورات إقامة هذا التنظيم ، انشاء روافد تغذية على المستوى الاقتصادى والشعبى، فنشط الحزب على يد محمد فريد فى انشاء مدارس الشعب وفى خلق الحركة التعاونية فى الريف والحركة النقابية بين العمال. إذ كان تجمع كبار ملاك الأرض فى حزب الأمة ، اشارة إلى وجوب تجمع غير هؤلاء فى حزب الحركة الوطنية وهم المثقفون (نادى المدارس العليا) والمزارعون (الجمعيات التعاونية) والعمال (النقابات).

وعلى وفق هذا السياق من ردود الفعل الواعية ينبغى النظر إلى تأثير حادث دنشواى فى ١٩٠٦ . والشائع ان كان لهذا الحادث أثره فى هدم سمعة «العدالة البريطانية» فى أوربا وفى أثارة سخط المصريين على الاحتلال إلى أقصاه وهذا صحيح، ويبدو أنه كان كذلك فقط بالنسبة لمصطفى كامل . ولكن يبدو أيضا أن كان له أثر اضافى فى العناصر الراديكالية بين شباب الحركة الوطنية وفى نفس محمد فريد . وقد ارتجت به روح المصريين بعنف لا بسبب الظلم وحده ، ولكن بسبب ما تكشف مما يمكن للإحتلال أن يتورط فيه من أساليب البطش والعنف.

كانت سياسة كرومر التقليدية من قبل أن يحفظ الوجود البريطانى فى مصر بأقل ما يمكن من النفقة وبأقل ما يمكن من استعمال العنف ، وكان يحرص دائماً على اخفاء السلاح فى طوايا سياسته الهادئة المظهر المستترة خلف حكومة «مصرية» ، وخلف القوانين واللوائح التى تمارسها هذه الحكومة . وكانت هذه حدود الرؤية أمام الجيل الناشىء الذى شب فى ظروف استتباب هذه الأوضاع ولم ير ثورة عرابى ، ورأى الانجليز مستشارين «للإدارة المصرية» لا حكاما مباشرين ولا غزاة مسلحين . ثم فجأة ظهر السلاح فى يد المحتل عاريا براقا ، والمشانق فى الساحة وجثث المصريين على النطع ، وانحسرت البراقع ورفعت الستور . لاشك أن الحادث ظل يختمر فى ضمير الشباب الثورى

كتجربة سياسية ونفسية كبيرة ، وخلق الفعل ردود فعله فيما بعد. وليس غريبا بعد ذلك أن يقع أول حادث للاغتيال السياسي على بطرس غالي رئيس الوزراء ١٩١٠ ، وهو قاضي محكمة دنشواي ، ويقع على يد شاب وطني اعترف أن من أسباب الاغتيال كون بطرس هو قاضي دنشواي . وتوالت بعد ذلك حوادث الاغتيال السياسي والشروع فيه كأسلوب من أساليب المقاومة الوطنية للإحتلال وحلفائه المصريين حتى ثورة ١٩١٩ .

لم يكشف التحقيق الجنائي لمقتل بطرس غالي عن صلة «جنائية» للحزب الوطني به . ولكن كشفت الوثائق التاريخية فيما بعد عن الدور الذي قام به الحزب في تكوين جماعات الاغتيال السياسي منذ ١٩١٠. وقد كتب شفيق منصور الذي عرف هذه الجماعات وحكم عليه بالأعدام في قضية مقتل السردار سنة ١٩٢٥ ، كتب اعترافات كاملة قبل إعدامه، كشف بها عن الأجهزة السرية التي قامت في مصر منذ ١٩٠٧، وعن الجمعية السرية التي تكونت سنة ١٩٠٦ ، وعن كيفية اغتيال بطرس غالي ، وعن اسماء أعضاء الجمعية التي دبرت اغتيال اللورد كيتشنر والخديو ومحمدسعيد رئيس الوزراء في ١٩١٢، وعن مؤامرة اغتيال السلطان حسين كامل في ١٩١٥(٥).

---

(٥) نشر ملخص التقرير في صحيفة الأخبار في أول سبتمبير ١٩٦٣.

وكتب عبد الفتاح عنايت أحد المحكوم عليهم فى قضية مقتل السردار، فى مذكراته يقول (أن المغفور له محمد فريد كان أكبر مؤيد لحركة الفدائيين، وكان يمدهم بكل نوع من أنواع المساعدة مادية كانت أو أدبية حتى أنه عند مروره لزيارة الفدائيين كان يوزع عليهم المسدسات داخل العلب على أنها ساعات سويسرية بصفة هدايا ، وذلك تشجيعا لهم ... «وذكر أن محمود مظهر طالب الطب الذى أطلق الرصاص على الخديو عباس فى ١٩١٤ كان «أحد أعضاء الجهاز السرى الذى كان يقوده الزعيم محمد فريد ، وكان ذلك بالاستانة بعد سفر الخديو عباس اليها قبل الحرب العالمية الأولى» . وقال أن المنظمة الفدائية نشأت «فى مصر وظهرت فى هذا الوجود الذى نعيش فيه منذ بدء الحركة الوطنية المصرية عام ١٩٠٦»، وانها استمرت من ابراهيم الوردانى قاتل بطرس غالى حتى بعد قيام ثورة ١٩١٩(٦).

ويحكى محمود طاهر العربى قصة شروعه مع أمام واكد ومحمد عبد السلام فى اغتيال كيتشنر وعباس ومحمد سعيد ، وكان واكد من الحزب الوطنى، وكان محمد عبد السلام من محررى اللواء، وانضم إليهم عدد من الشباب المتحمس، لم يذكر أسماءهم، وفى أحد الأيام

---

(٦) قصة كفاح «عبدالفتاح عنايت» ص ١٠ – ١٨ .

ذهب العربى مع واكد إلى نـادى المدارس العـليا «حيث حـصلت هناك من شخصية حزبية كبيرة ومحترمة على مسدس محترم أيضاً (موزر) ذى عشر طلقات»(٧).

وكان ثمة أدب سياسى يعكس هذه الفكرية فى كتابات بعض من شباب الحزب الوطنى وفى الصحف . جمع منها عبد الخالق ثروت مجموعة طيبة فى مرافعته ضدالعربى وواكد سنة ١٩١٢، «هلموا أبناء البلاد إلى السيف والحسام، هلموا إلى القتل والقتال .. لاهناء ولا عيش ولا سعادة إلا إذا أجريت الدماء على ظبى الأسنة والرماح».

«والشعب أن رام الحياة عزيزة
خاض الغمار دما إلي آماله»
«إذا الملك الجبار سعر خده
مشينا اليه بالسيوف نعاتبه»
«ولا تحسبن المجد زقا وقينة
فما الموت إلا السيف والفتكة البكر»

وقد كتب إمام واكد فى ٣١ يوليه ١٩١٢، باللواء، مقالا يذكر فيه بحادث دنشواى وما حدث فيه من وحشية ، واشار إلى الشعوب التى

---

(٧) هذا المجتمع الظالم ، محمود طاهر العربى ، ص ٣٢ .

تخلصت من الاستعباد بالثورات الفرنسية والأمريكية وثورة الاستانة ، وانتهى إلى أنه « لولا السيف » لما أجيب سؤالها «ولولا الدماء التى أريقت والنفوس التي ازهقت» لظلت مستعبدة ذليلة ، كما كتب الشاعر محمود رمزى نظيم يقرن السيف «بلواء» الحزب الوطنى:

فاحمل السيف واشرع الرمح وأقدم
واجمع الرأى تحت ظل (اللواء)

ويلاحظ من مطالعة مذكرات محمد فريد، ما يبديه من عطف وحماس تعليقا على ما يبلغه بالخارج من حوادث الاغتيال السياسى في مصر .. كتب فى ٩ إبريل ١٩١٥ عن اطلاق الرصاص على البرنس حسين الخائن «لقد سررت من هذا الحادث الذى أثبت للعالم أن الأمة غير راضية عن الحماية الانجليزية .. وعلى أى حال فان هذا درس للخونة من المصريين.»

وكتب فى ٤ سبتمبر ١٩١٥ عن الشروع فى قتل الوزير إبراهيم فتحى أن سن المعتدى كان ٣٥ سنة وهذا يدل على انتشار روح التذمر وشيوع الفكرة الثورية . وذكر أنه قبض فى هذا الحادث على الكثير من رجال الحزب الوطني واعتقلوا في طره وأرسل بفصلهم إلى مالطة(٨) .

(٨) كفاح شعب مصر «محمد صبيح» ص ٤٤٢ ، ٤٧٥ ، ٤٨١ .

يظهر من ذلك أن استعمال العنف كان أحد أساليب الحركة الوطنية قبل الحرب العالمية الأولى، وإن كان لحادث دنشواى ولاجراءات القمع التى اتخذت ضد العناصر الوطنية قبل الحرب وفى اثنائها آثره فى سلوك هذا السبيل .. وكان استعمال العنف يتم بطريقة الاغتيالات السياسية وتكوين الجمعيات السرية التى تمارس العنف على كبار رجال الاحتلال ورجال السياسة المصريين المتعاونين معه . وأن الحزب الوطنى - سيما على عهد محمد فريد - لم يكن بعيدا عن هذه الحركة برجاله وبتشجيعه ، وكان من رجال الحزب أو المتصلين به أو بنادى المدارس العليا من هم أعضاء هذه الجمعيات .

ومن هذا تتضح الدلالة الحقيقية للاشارة الغامضة التى سجلها الرافعى فى مذكراته والتى سبق ايرادها ، والراجح أن اقتناعه بالعنف كطريق للتحرير كان سابقا لثورة ١٩١٩ منذ أن كان الحزب الوطنى يؤيد هذا الاسلوب ، وكان الرافعى عضوا باللجنة الادارية كما سبقت الاشارة ومن ملازمى محمد فريد . كما سبقت الاشارة إلى اعتقال الرافعى مع كثيرين غيره من رجال الحزب فى أغسطس ١٩١٥ . والراجح أن هذه الاعتقالات هى ما أشار اليه محمد فريد فى مذكراته عن يوم ٤ سبتمبر وقد أشار اليها فى سياق حوادث الشروع فى الاغتيال السياسى. وقد سجل الرافعى فى مذكراته اشارة غامضة

أخرى عن اجراء التحقيق معه وقتها، إذ نقل إلى سجن انفرادى بالحدرة بالاسكندرية مع لفيف من معتقلي المنصورة وحقق معهم فى « بلاغ كاذب » ثم ظهر بطلان هذه التهمة(٩) .

والملاحظ أن الرافعي كان حريصا في كل ما كتب، ان يبتعد تماما عن الاشارة إلى أية صلة له أو للحزب الوطنى بهذه الحوادث ، والمعروف أنه كان من تقاليد نشاط هذه الجمعيات السرية أن يقسم رجالها بألا يبوحوا بشيء عن نشاطها حتى الموت . ويبدو أن الرافعى ظل أميناً على قسمه لا يحنث فيه . ولم يكن الأمر - كما يظهر - مجرد بر بقسم ، ولكنه حرص على ألا يفشى سرا يمس أشخاصا أخرين خشية أن تمتد إليهم يد الانتقام من السراى أو الانجليز ، وقد بقى نفوذ هذين قويا ومؤثرا عشرات السنين بعد هذه الأحداث ، ويلاحظ أنه لم يصرح بشيء من هذه الأحداث إلا من كشفت التحقيقات الجنائية والمحاكمات عن مساهمتهم فيها، وكان كشفهم عنها في حدود ما كشفت عنه هذه المحاكمات، فقط وهم لم يفعلوا إلا بعد مرور عشرات السنين، ولم يحدث أن أحدا منهم دل على اسم أحد ممن لم يشملهم التحقيق ، إلا ما كان من شفيق منصور قبل أعدامه سنة ١٩٢٥ (١٠) .

وقد يكون السبب الثانى لهذا التكتم ، أن الرافعى مالبث بعد أن

---

(٩) مذكراتى . المرجع السابق ص ٢٩ .

(١٠) صحيفة الأخبار ٤ سبتمبر ١٩٦٣.

تقدمت به السن أن فقد ايمانه بالعنف ، وأفقده هذا المبرر والرغبة فى التصريح بما نشط فيه هو وغيره في هذا السبيل .

والحاصل أنه يكاد يكون من الأخبار الشائعة على ألسنة معاصرى الرافعي وعارفيه من أهل جيله في تلك الأوقات، أنه كان على صلة بأعمال العنف منذ مقتل بطرس غالي وخلال الحرب العالمية الأولى ، وإن كان هذا من الأسرار الشائعة عنه بين معاصريه فيما تلا ذلك من أعوام . وذلك حسبما سمع كاتب هذا المقال من عديدين منهم .

الحزب الوطنى وثورة ١٩١٩ :

لما شبت ثورة ١٩١٩، تألف الوفد المصرى بتأييد شعبى كاسح . وكان الحزب الوطنى لايزال قائما بوصفه حزبا حمل أمانة الكفاح بضع عشرة سنة الماضية ، ولكن كانت اجراءات القمع قد أضعفته كما أضعفته غيبة محمد فريد بالخارج عنه، والخلافات التى نشأت بين قادته ، وسعى السراى لأن تجذب فريقا منهم لجانبها ، مما يبدو واضحا من مطالعة مذكرات محمد فريد ، ومما يشير اليه الرافعى في أحد خطاباته إلى زعيمه بالخارج[11] .

وقد جهد الوفد مع الحزب الوطنى فى أن يتقاربا . ورئى أن يمثل الحزب الوطني في هيئة الوفد واتفق على ذلك . وكان الرافعي ممن

(١١) مذكراتي ، المرجع السابق ص ٢٣ .

قابلوا سعد زغلول لاتمام هذا التوفيق ، ولكن اختلف الطرفان فى تعيين من يمثل الحزب فى الوفد، وانتهى الأمر بأن اختار الوفد من تلقاء نفسه مصطفى النحاس وحافظ عفيفى ليمثلا الحزب الوطنى(١٢) .

وكان سعد زغلول يرغب أولا فى ضم عبد الرحمن الرافعى وأمين الرافعى إلى الوفد، ووضع اسميهما فى مقدمة كشف عن «الأشخاص الذين يمكن الاعتماد عليهم» سلمه إلى عبد الرحمن فهمى فى ديسمبر ١٩١٨ . ويذكر أمين يوسف (وكان قريبا لسعد) أن سعدا لما عرف صلته القديمة بالحزب الوطنى ، طلب اليه فى نهاية ١٩١٨ استخدام نفوذه لدى زميله عبد الرحمن الرافعى ولدى شقيقه أمين ليوافقا على الانضمام إلى الوفد . وكان الاخوان على علاقة ودية بسعد، وكانا نشطين نشاطا ملموسا فى الدعوة الانتخابية له عندما رشح نفسه فى الجمعية التشريعية سنة ١٩١٣ . وتم هذا المسعى وعرض على اللجنة الادارية للحزب ولكنها رفضته ، وآثر الرافعى الانصياع إلى قرار حزبه، وحدث الشىء نفسه بالنسبة لعبد اللطيف الصوفانى(١٣) .

وقد كشفت اعترافات شفيق منصور سنة ١٩٢٥ ، أن كلا من عبدالرحمن الرافعى وعبد اللطيف الصوفانى ، كان عضوا بالمجلس الأعلى للاغتيالات الذى شكل فى الجهاز السرى للوفد ابان ثورة ١٩١٩،

---

(١٢) ثورة ١٩١٩ ، المرجع السابق ص ١٠٣ ،تطور الحركة الوطنية في مصر ١٩١٨ - ١٩٣٦ . د . عبدالعظيم رمضان ص ٩٧ .

(١٣) صحيفة الأخبار ٤ ديسمبر ١٩٦٣ .

إذ كانت «نزعة الشباب» لاتزال تغلب على الرافعى[١٤] ، كما كانت لاتزال تقتحم القلب الجسور للشيخ الكبير عبداللطيف الصوفانى وضابط بوليس اسمه مصطفى حمدى ومحمد شراره وعبد الرحمن الرافعى، وكان حسن كامل الشيشينى مستشارا له. وفي عهد الرافعى بالمجلس تمت محاولات اغتيال محمد سعيد رئيس الوزراء فى سبتمبر ١٩١٩، ويوسف وهبة رئيس الوزراء في ديسمبر ١٩١٩، واسماعيل سرى وزير الأشغال فى يناير ١٩٢٠، ومحمد شفيق وزير الأشغال فى فبراير ١٩٢٠ وحسين درويش وزير الأوقاف فى مايو ١٩٢٠، وعقد المجلس عدة اجتماعات له في منزل عبد اللطيف الصوفانى .

ويذكر شفيق منصور أن كلا من أعضاء المجلس كان يشرف على فرع من فروع التنظيم ويتصل بأفراد يكون كل منهم مجموعة وهكذا . وقد انقطع الرافعى والصوفانى عن اجتماعات المجلس بعد الحوادث السابق الاشارة اليها. والمعروف أن الصوفانى كان على رأس إتجاه فى الحزب الوطنى يدعو إلى أن يناقش الحزب الوطنى الوفد ولا يسلم له بمدأ تمثيله الامة ، وكان عبد الرحمن وأمين الرافعى يعارضاه فى هذا المسعى . وقد ندد أمين الرافعى بموقف الصوفانى من الوفد فى مقال نشره فى صحيفة الأهالى فى ٢٠ إبريل سنة ١٩١٩. ومالبث الصوفانى أن عدل عن فكرته[١٥] .

---

(١٤) صحيفة الأخبار ٤ سبتمبر ١٩٦٣ .

(١٥) د . عبد العظيم رمضان . المرجع السابق . ص ١٦٥ - ١٦٦ .

وقد تطورت أحداث الثورة فى السنين القليلة التالية .. فانسلخ عن الوفد جماعة المعتدلين الذين عرفوا «بالعدليين» وما لبثوا أن كونوا حزب الأحرار الدستوريين، وصدر تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ ثم صدر دستور ١٩٢٣ على ماهو معروف ، ونفى سعد وجمع من أصحابه . واعتقل كثيرون من الوفديين، ولكن سعد والوفد خاضوا معركة الانتخابات وعاد من هذه المعركة بما يزيد عن ٩٠٪ من مقاعد مجلس النواب. وشكل سعد زغلول أول وزارة دستورية فى يناير ١٩٢٤ . وخاض عبد الرحمن الرافعى المعركة الانتخابية فى دائرة المنصورة وانتصر على المرشح الوفدى بصوت واحد . وكانت لجنة الطلبة العامة بالدقهلية تزكى مرشحى الوفد فى جميع الدوائر ولكنها استثنت دائرة الرافعى فأثروه على مرشح الوفد . ولم يكن له فى الدائرة عصبية عائلية أو عزوة اقتصادية . كان مجرد عامل يعمل بالمنصورة ولكنه دخل الانتخابات بسمعته السياسية وسابق كفاحه الوطنى ونصاعة سلوكه الشخصى وفاز . واحتل مقعده فى صفوف المعارضة لحكومة سعد فى أول مجلس نيابى يقوم فى ظل دستور ١٩٢٣ .

بين الوفد والحزب الوطني

كان الحزب الوطنى يقف من الوفد موقف المعارضة الوطنية الهادفة إلى المزيد من التشدد ازاء الاحتلال . والحاصل أن الوفد، فور قيامه

استطاع أن يمسك بزمام مصيره ومصير شعبه وأن يحظى بتأييد شعبى كاسح . واستفاد في ذلك من تجربة الحزب الوطنى السابق : ومن جهة أخرى اتبع أساليب من النضال مكنته من أن يصبح مؤسسة سياسية جامعة لأوسع فئات المصريين وطبقاتهم وتياراتهم ، كما توافر له عنصر من الزعامة المصرية المستنيرة القادرة المدربة واسعة الافق واسعة الحيلة ، تمثلت فى سعد زغلول. أما الحزب الوطنى فقد خرج من الحرب ضعيفا اسقمته اجراءات القمع وفرقته الخلافات الداخلية مفتقدا الزعامة القادرة بعد هجرة محمد فريد ، وانطوى فى أحسن أحواله على جماعة من الشباب المتحمس المثالي ضعيف الصلة بحركة الجماهير ، واضطربت به مسالك السياسة ومناوراته . فاتصل بالوفد طورا، واتصل بالأمير عمر طوسون طورا آخر فى محاولة هذا الأمير منافسة الوفد على تمثيله الامة، واختلف رجاله بين هذين الاتجاهين وعانى من أزمة من يستمسك بماضى جهاده وسابقة نضاله وأصالته السياسية ولكنه يفتقد القدرة على تفهم حقائق الأوضاع الجديدة ووجد نفسه بين أمرين ، أما أن ينحاز إلى الوفد فيستوعب فى كتلته العريضة ، وأما أن يقف ضده فيستوعب فى كتلة المنافسين للوفد مثل الأمير عمر طوسون وغالبهم مبغوض من الجماهير واستطاع الوفد أن يستخلص قسما من خيرة رجاله فاضعفه هذا بالضرورة .

وقد اعترض الحزب الوطني على صيغة التوكيل الذى وزعه الوفد ليكسب به صفة تمثيل الأمة فى دعوته ، وذلك لما تضمنته من عبارة تحمل معنى الاشادة بالعدالة البريطانية ، ولخلو هذه الصيغة من الاشارة إلى السودان ووحدة وادى النيل، واستطاع بهذه المعارضة أن يعدل الصيغة فحذفت العبارة الأولى، ولكن التوكيل جاء خاليا من موضوع السودان (١٦) . ثم تبلور موقفه فى مبدأ أساسى واحد يتميز به ويستمسك به حتى النهاية ، وهو مبدأ «لا مفاوضة إلا بعد الجلاء» كان الوفد لايستبعد المفاوضة كوسيلة لتحقيق الاستقلال التام، ويعتبرها إحدى وسائل «الكفاح السلمى المشروع» حسبما ورد بصيغة التوكيل وببرنامج الوفد . ولكن الحزب الوطني انكر أسلوب المفاوضة كوسيلة لتحقيق الاستقلال، وهذا من شأنه أن يميزه عن الوفد ، ولكنه رغم هذا الانكار لم يستطع أن يميز نفسه من جهة تحديد أساليب الكفاح . فكان الوفد متسقا مع نفسه اتساقا واضحا من جهة الهدف الذى قرره والأساليب التى رسمها لتحقيقه ، فإذا كان للإحتلال وجوده المادى بمصر ، وله ركائزه العسكرية والسياسية ، وله حلفاؤه فى مؤسسات السلطة المصرية كالملك وفى القوى الاجتماعية ككبار ملاك الأرض والفئة العليا من كبار موظفى الدولة وكبار أصحاب المصالح الاقتصادية

(١٦) ثورة ١٩١٩ ، المرجع السابق . ص ١٠٢ .س

والمالية من أجانب ومصريين ، إذا كان ذلك صحيحا فللوفد أن يتخذ موقف التشدد الكامل ورفض أية مساومة مع الانجليز ، وفى هذه الحالة لا يكون موقفه عمليا مأمول النجاح إلا إذا نظمت الحركة الوطنية نفسها كحركة للكفاح المسلح وكانت قادرة على ذلك شعبيا وتنظيميا .

فإذا وجد أنه غير قادر على اتباع هذا الاسلوب لتحقيق أهدافه النهائية بسبب الأوضاع الاجتماعية أو الظروف الدولية أو مستوى التطور التاريخي للحركة الشعبية أو لهذه الاسباب مجتمعة ، كان المحتم عليهم كتنظيم سياسي عاى أن يبرر استبعاده لهذا الاسلوب بقبول مبدأ المساومة، وأن يقبل بالمفاوضة كوسيلة لتحقيق مطالبه فى حدود الامكانيات العملية المتاحة فى اطار الظروف السياسية الدولية والموقف الداخلي . لكل هدف الاسلوب المناسب الذى يتحقق به ، وينبغى أن يقوم التلاؤم بين الأمرين . وقد رسم الوفد لنفسه بحس سياسى عملي موقفا منسجما يلائم بين قدرته وأهدافه . فعبر عن هدفه بالاستقلال التام ، وعن وسيلته بالكفاح السلمى المشروع ، ولم يرفض بذلك مبدأ المفاوضة واحتمال المساومة .

أما الحزب الوطنى ، فقد طرح شعاره المتشدد الذى يميزه

عن الوفد، ولكنه لم يستطع أن يميز نفسه من جهة أسلوب النضال السياسي ، ولا أن يختار أسلوبا يمكنه عمليا أو يمكن للشعب به أن يحقق هذا الشعار ، ورد في بيان الحزب بمناسبة مجيء لجنة ملنر أنه يتمسك بشعاره المذكور ، ثم ذكر «يرى الحزب الوطني أن تثابر الامة على المطالبة باستقلالها ، وأن تصر على المطالبة به ، وأن تعمل على الوصول إلى هذه الغاية بجميع الوسائل المشروعة ، وأن لا يزيدها ما تصادفه من العقبات الا ثباتا على المبدأ الجليل ... يجب أن ترفض كل مفاوضة أو مناقشة مع الغاصب ، ويجب أن لاتقبل مساومة في الاستقلال[١٧] .. » ثم رد الحزب على بلاغ اذاعه اللورد ملنر وقال الرد أن الحزب يتمسك باعتراف بريطانيا بالاستقلال رسميا «وايدته بجلاء الجنود الإنجليز عن وادى النيل وسميت إعلان الحماية ..» ثم أصدر بيانا يرفض فيه مشروع ملنر الذى قدمه لسعد زغلول ويقول في النهاية «الاستمرار فى الجهاد الوطنى بجميع الوسائل المشروعة »[١٨] .

ومؤدى هذا أن الحزب الوطنى لم يكن يكتفى بالاستقلال التام، أى باعتراف بريطانيا به، ولكنه يطالب بأن يكون الاعتراف مصحوبا بالجلاء

(١٧) ثورة ١٩١٩ ، الجزء الثانى ، ص ١٠٠ .

(١٨) ثورة ١٩١٩ المرجع السابق : ص ١٢٥، ١٧٠ .

العسكرى عن مصر ، ولا يكفي مصر إنما يجب أن يتم الجلاء عن مصر والسودان وأن تعترف بريطانيا بوحدة وادى النيل ، ثم بعد أن يتم ذلك كله تجرى «المفاوضات» بين البلدين لتحديد العلاقات المستقبلة بينهما . ومن الواضح أن المفاوضة هنا تستحيل إلى تصور صورى ، اذ لا تكون لها قيمة عملية بعد أن يتم كل ذلك . وقد كان من المألوف أن يسخر معارضو الحزب الوطنى منه من هذه الزاوية ويصموه بالسذاجة السياسية ان يضع شعارا غير عملى وهو الجلاء بغير شرط ثم يوافق على المفاوضة حيث لا لزوم لها واذ يحاول «تضليل» الانجليز بوعد صورى بالمفاوضة بعد جلائهم.

على أن النقطة الجوهرية فى هذا الموقف ليست اصرار الحزب على رفض المفاوضة ، فهذا تشدد لا يرفضه وطنى أن أمكن تحقيقه . ولكن المشكلة كانت فى أن هذا التشدد يتطلب رفضا لأسلوب الكفاح السلمى المشروع ودعوة للكفاح غير السلمى «ولا المشروع» وهو الكفاح المسلح ، وفى هذه الناحية لم يميز الحزب نفسه عن الوفد فى أسلوب الكفاح، وهذا أساس وصمه بالسذاجة لدى الغالبية من أقسام الحركة الوطنية ، ودل شعار الحزب على نوع من التضارب وفقدان الاتجاه ، واحال هذا موقفه إلى موقف من الرفض المطلق للمنطلق العملى تمسكا بمثاليات مجردة.

والحاصل أن الوفد وأن تبنى طريق الكفاح السلمى المشروع ، فلم يقتصر عليه ، بل استطاع أن يستوعب أسلوب العنف بالقدر الذى كان قائما وقتها ، وعلى النحو الذى عرفته مصر خلال السنوات العشر السابقة ، وهو تكوين الجمعيات السرية أو تشجيعها للأغتيال السياسى، وكان هذا بعض مهام التنظيم السرى للوفد الذى أشرف عليه عبد الرحمن فهمى وتزعمه أحمد ماهر والنقراشى . وإذا كان الحزب الوطنى قد شارك في هذا النشاط كما سبقت الاشارة ، وكان هو من بدأ تجربة هذا الاسلوب منذ مقتل بطرس غالى ، فان الحزب الوطنى اكتفى فى هذا النشاط بدور المشارك للوفد ولم يعرف أنه حاول الاستقلال بنشاطه فيه، ولا عرف أنه حاول تطوير هذا الاسلوب إلى اسلوب من استخدام العنف الشامل ضد الاحتلال بغير اكتفاء بعمليات الاغتيال السياسى ، ومن ثم كان نشاط الحزب الوطنى فى هذا الشأن محصورا فى نطاق النشاط الوفدى مستوعبا فيه، غير قادر على تخطيه. وقد سبقت الاشارة إلى أن الرافعى والصوفانى قاطعا مجلس الاغتيالات سنة ١٩٢٠ ، ولم يعرف لهما ولا لغيرهما من رجال الحزب نشاط مماثل بعد ذلك ولا وجه الحزب دعوته إلى اتباع طريق العنف ولا ميز نفسه عن الوفد فى هذا الشأن .

والحاصل أيضا ، أن النشاط العنيف الذى مورس فى ثورة ١٩١٩،

لم يكن بالحجم الذى يمكن به اعتبار الكفاح المسلح طريقا وحيدا ولا طريقا أساسيا لهذه الثورة . كان نشاطا صغير الحجم نسبيا ، وكان يمثل أسلوبا مساعدا لأساليب الكفاح السلمية الأساسية ، وذلك رغم أهميته غير المنكورة فى التأثير على سير الأحداث . والاغتيالات السياسية وان اعتبرت من أساليب العنف فهى بذاتها محدودة الاثر والنطاق والفاعلية ، وهى لا تصلح بطبيعتها الا أن تكون عاملا مساعدا للأساليب السلمية، لأنها بذاتها ووحدها غير قادرة على تغيير الهيكل السياسى والاجتماعى . والاغتيالات السياسية لا تستلزم من الناحية التنظيمية الا أشكالا مبسطة وبدائية من أشكال التنظيم .

والفارق واضح من هذه الناحية بين جماعات الاغتيال وبين جيوش حرب العصابات أو جيوش التحرير النظامية . ومن ثم فهى غير قادرة على انشاء مؤسسة سياسية ثورية بديلة للمؤسسات المعادية، وغير قادرة على تطوير الصراع السياسى إلى صراع مسلح . لذلك لا يعرف أن كان لجهاز الاغتيالات فى الوفد أثر ضاغط وحاسم فى سياسة الحزب العلنى، وبقيت اليد العليا فى تقرير السياسة للحزب العلنى ، وصفى هذا الجهاز «سلميا» بغير مقاومة تذكر عندما وجد الحزب أنه استوفى غرضه السياسى منه ، وأنه صار عبئا على سياسته بعد أن تحدد طريق كفاحه البرلمانى . وقد يكون ذلك أثار بعض سخط أعضاء

الجهاز ، وقد يكون دفع بالبعض إلى توريط حكومة الوفد سنة ١٩٢٤ بحادث مقتل السردار كما ذكر مصطفى أمين فى تحقيقاته المنشورة فى صحيفة الأخبار في سبتمبر ١٩٦٣. ولكن كان هذا أشبه بردود الفعل الفردية ، اذ وجدت عناصر التنظيم السرى نفسها فى جهاز غير قادر على تشكيل سياسة الوفد كله أو النفوذ إلى مواطن اتخاذ القرارات فى الحزب ، وكان الغذاء السياسى الأساسى للحزب يأتيه من نشاطه الجماهيرى «المشروع» وكان وصوله إلى الحكم بفضل الطريق «المشروع» أيضا وهو الانتخابات ، وكانت الجماهير حول الوفد من خلال منابره العلنية فى الأساس ، وكان سعد زغلول يدرك حجم هذا النشاط العنيف ويعى امكانياته السياسية المحددة . والمعروف أن جمعيات الاغتيال السياسى لا تحتاج إلى روابط عضوية مستمرة بالجماهير على خلاف أشكال الكفاح المسلح الأكثر تطورا . لذلك تكون ضيقة محدودة العلاقات الجماهيرية فلا تستطيع تحريك الجماهير.

فلا يعرف أن الحزب الوطنى فى تشدد أهدافه المعلنة ، ميز نفسه بأسلوب للعنف أكثر تطورا من أسلوب الوفد ولا رسم العنف طريقا أكثر شمولا ، ولا ميز نفسه فى هذا النطاق بنشاط مستقل ، ولا دعا علنا إلى غير الوسائل السلمية . وكان هذا

هو التناقض الأساسى الذى وقعت فيه سياسة الحزب ، اذ دعت إلى أهداف واتبعت أساليب لا توصل إلى تحقيقها . وبقى الحزب مصرا على هذا الموقف .

بين الرافعى وسعد زغلول :

وفى هذا السياق يمكن النظر إلى المواجهة التى تمت بين الحزب الوطنى والوفد عندما تولى الوفد الحكم . وجرت هذه المواجهة بين سعد زغلول رئيس الوزراء وبين الرافعى والصوفانى فى مجلس نواب ١٩٢٤، وأيا كان وجه التقييم السياسى والتاريخى لهذا الموقف، فقد اتصف نائبا الحزب الوطنى فيه بقدر من الاصرار ومن الشجاعة الأدبية كبير. قال الرافعى «قد حرصت مع إخوانى على أن نسير على مبادىء الحزب الوطنى داخل مجلس النواب . فكنا لانفتأ نتمسك بالجلاء ووحدة وادى النيل..» وقال إنهم أرسوا مبادىء المعارضة البرلمانية و«أن المثالية هى التى جعلتنى اختار المعارضة فى البرلمان الأول .. فقد شعرت أن واجبى كنائب أن اتخذ من الحياة النيابية أداة للكفاح الوطنى..»(١٩)

كان أول هذه المواقف بعد افتتاح البرلمان بأسبوعين فى ٢٩ مارس عند مناقشة المجلس خطاب العرش الذى يمثل برنامج الحكومة . ولسعد صاحب البرنامج ورئيس الوزراء وزعيم الأمة أغلبية ٩٠ فى المائة من

(١٩) مذكراتى ، المرجع السابق : ص ٤٨

النواب وتأييد شعبى يشارف حدود الاجماع من الرأى العام السياسى. والوفد قد صار عقيدة وطنية يصعب تحديها. وعلمت أحداث الأعوام السابقة الجماهير ورجال الوفد أن المؤامرات تحاك له من القوى المعادية للثورة . وأكسبهم هذا طاقة حاشدة من الحذر والتوجس تجاه الدوافع الحقيقية لأى هجوم أو نقد يوجه للوفد أو زعيمه ، ظنا أنه هجوم لن يفيد إلا الاحتلال أو الملك حتى لو اتخذ مظهر التشدد فى المطالب الوطنية ، حذر أن يكون التشدد حقا يراد به باطل . والجميع مشفق على الوفد فى حكم ويتمنى لهذه التجربة النجاح ويحاول أن يجنبه نطاق الأزمات.

فى هذا الجو وقف الرافعى يتكلم ، سبقه عبد اللطيف الصوفانى فقوطع أكثر من مرة، فنصح أحد الأعضاء الرافعى أن يرجع عن عزمه فى الكلام خشية ما قد يقابل به من رد فعل عنيف. ولكنه قام وتحدث مبتدئا باعلان الثقة فى زعيم الأمة فى الوزارة وليدة ارادة الشعب، وقال أن هذه الثقة لا تتناقض مع معارضة الوزارة فى بعض مواقفها ولا مع معارضة الاسلوب المتهاون الذى استعمل فى خطاب العرش عند ذكر المسألة الوطنية ، وسكوت الخطاب عن ابداء الرأى فى تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ ، وفى ١٠ مايو تحدث مشيرا إلى ما صرح به رئيس وزراء بريطانيا من أن المفاوضات ستجرى بين الحكومتين على أساس

السياسة التى أقرها البرلمان الانجليزى فى ١٤ مارس ١٩٢٢ والتى تستند إلى تصريح ٢٨ فبراير . وانتهى إلى القول بأن ثقته فى حكومة الوفد لا تتنافى مع رفضه المفاوضة على هذا الأساس .

وفى ١٣ إبريل وجه سؤالا إلى وزير الأشغال مرقص حنا عن مشروعات الرى التى تنفذها بريطانيا فى السودان والتى من شأنها الاضرار بمصالح مصر . فرد عليه الوزير فى ٢٤ مايو وجرت المناقشة بين الاثنين ، أعلن فيها الرافعي أن المشروعات ضارة بمصر وأن على الحكومة أن تتدخل لوقفها . هنا تدخل سعد وسأل كيف تتدخل الحكومة، أبجواب أم باحتجاج ؟ وإذا كانت الحكومة توافق على كونها مشروعات ضارة، فيكف توقفها؟ ثم دفع سعد الحوار إلى نقطة أساسية بقوله «ما هى الطريقة التى نحوز بها السودان دون الانجليز، أما سياسة وخز الابر فلا أعرفها ونحن قوم عمليون .. نحن لا نفرط فى حقوق الأمة ولا نتهاون فى أمر السودان، إنما قوة الوزارة مستمدة من قوة الأمة . فما هى الطريقة التى نحوز بها السودان دون منازع .. (وقال للرافعى) .. قل لنا الطريقة العملية أو تفضل نوليك الوظيفة التى تعجبك لنرى ماذا تعمل ..» ويشير الرافعى إلى أن سعدا سأله متحديا «هل عندكم تجريدة» أى قوة مسلحة (وهى عبارة لم ترد بمضابط جلسة المجلس). فرد الرافعى قائلا أن موظفى الاشغال فى السودان تابعون

لوزارة الأشغال المصرية ، فللوزارة أن تعلن وقف هذه المشروعات، فقال سعد «نحن نعرف أن مشروعات السودان مضرة ولكن قل لنا الطريقة العملية لمنعها ، وإذا كنت لا تريد أن تقولها جهرا فتعالى قلها لى سرا ، نحن وزارة الشعب نريد أن نعرف الطريقة .. ونحن ليس فى امكاننا أن نمنع ماهو حاصل..».

كرر الرافعى قوله عن تبعية عمال الأشغال هناك لمصر وقدرة مصر على منع المشروعات وقال لسعد «أنا لا أريد وظيفة وإنما أطلب من وزارة الأشغال أن تتدخل وتعمل واجبها ..» فقال سعد أن الوزارة طلبت فعلا وقف المشروعات «فأوقفت الأعمال النافعة لمصر واستمرت الأعمال الضارة بها» (كان ذلك فى عهد الوزارة السابقة) . وتوقف الحديث عند هذا المأزق. الرافعى يرى لمصر حقا فى وقف مشروعات ضارة بها، وسعد يوافقه على ضرر المشروعات وحق مصر، ولكنه يرى حقها حقا تعوزه القوة والقدرة العملية على التنفيذ . وسعد يدرك تماما حدود الكفاح السلمى المشروع ، ويعرف أنه وسيلة كفاح قاصرة عن تحقيق كل ما تطمح اليه الحركة الوطنية، ويعلم أن ليس للحق قدرة سحرية تمكنه من التحقق تلقائيا لمجرد كونه حقا ، إنما القوة هى ما به يتحول الحق إلى واقع. ويناقش الرافعى من هذه الزاوية بالتحديد .

وفى ٢٤ يونيه ، نظر قانون تعويضات الموظفين الأجانب . إذ كان تقرر فى يوليه ١٩٢٣ قبل نفاذ الدستور منح تعويضات للموظفين الأجانب الذين تركوا خدمة الحكومة المصرية ، وصيغ هذا القرار فى شكل خطابات متبادلة بين حكومتى مصر وبريطانيا ليأخذ شكل الاتفاق الدولى الذى يصعب التحلل منه مستقبلا . فلما تولى الوفد الحكم عمل على تنفيذ الاتفاق وادرج له بمشروع ميزانية ٢٤ – ١٩٢٥ مبلغ ١,٣ مليون جنيه. فوقف الرافعى مع المعارضين لهذا الاتفاق ولادراج الاعتماد عنه بالميزانية وأنكر قيام القانون وطالب بتقرير بطلانه ، وساق الحجج القانونية التى تثبت بطلانه ، باعتبار أنه صدر فى فترة تعطيل الجمعية التشريعية ولم يعرض على البرلمان طبقا للمادة ١٦٩ من دستور ١٩٢٣ . وأنكر قول من قال أنه معاهدة ، لا يجوز نقضها . واتخذ الحوار بينه وبين بعض رجال الوفد طابعا قانونيا فنيا حول صحة أو بطلان القانون ، حتى قال ويصا واصف أنه سليم قانونا ضار سياسيا . وكاد الأمر يتوقف عند هذه الحدود ، لولا أن قام سعد ليرفع الموضوع إلى مستواه السياسى، وليصل به فى هذا الوضع إلى قمة نقطة الخلاف فى النظرة بين سياسة الوفد وسياسة الحزب الوطنى .

قال سعد أنه ينتقد هذا القانون ويستنكره مع الناقدين المستنكرين

ويعتبره «ضربة على الخزانة ونكبة على أموال الدولة وأنه سابق لأوانه، بل أقول أيضا أنه مخالف للدستور ..» وذكر أنه كتب بذلك إلى الحكومة الانجليزية بوصفه رئيسا للحكومة، وأنه يوافق الرافعي على أنه ما كان يجب أن يعقد الاتفاق به، ثم استدرك سعد مصرحا «فرق بين أن يستنكر الانسان شيئا ويعتبره باطلا وبين أن يتوقف عن تنفيذه .. مكره أخاك لابطل ..» وأنه لا يمكن انهاء ما بين مصر وبريطانيا بمجرد القول بالبطلان . ثم وضع الأمر موضعه فى المساومات السياسية متسائلا عما إذا كان من الخير دفع هذا التعويض وهو فادح ، أما إعادة الموظفين الأجانب إلى عملهم بالحكومة المصرية . «لقد اشترينا بهذا المبلغ سعادتنا الداخلية» وقال نحن لسنا قضاة أو محامين فقط ولكننا سياسيون .

ومن أهم ما اشار اليه سعد فى جداله مع الرافعى حول مشروعات رى السودان ، أنه إن كان لدى الرافعى اقتراح يفيد فى استخلاص حقوق مصر ولا يستصوب الجهر به ، فعليه أن يسره إلى سعد ولعله كان في هذه الدعوة اشارة إلى الجانب السرى من كفاح ثورة ١٩١٩، وكان ذلك جانبا يستحيل وقتها التصريح به، اذ كان يخرج عن نطاق المشروعية القائمة وعن نطاق ما تعلنه الحركة الوطنية من التزام بالكفاح «المشروع» وحده . ولاشك أن سعد أو الرافعى كان كل منهما يعلم ما

كان مـن أمر صـاحبه في هذا النشاط . ويظهر أن سعدا بحديثه مع الرافعى كان يقصد القـول أنه إن كـان الرافعى يريد الاشـارة إلى أفضلية استعمال العنف ، فهـو يدعوه للمناقشة فى شأنه . والواضح من واقع سـياسة سـعد بعد ذلك أنه كـان يرئ أن هذا الاسلوب الذى اتبع خـلال سـنى الثورة الأولى تقصر امكانياته عن تحقيق ما يطالب به الرافعى.

وإن موقف الرافعـى والحـزب الوطنى عامة يمكن أن يبدو متسقا مع ذاته ، لو روعى فـيمـا يطلـب أنه يدعو إلى اسـتـخـلاص المطالب الوطنية بالعنـف . وللرافعى وحزبه سابق نشاط فى هذا الكفاح يؤيد الظن بأن هذا الاسـلوب كان يدور بخـلده وخلد زملاء حزبه . ولكن هذا الموقف لايبـدو مستنـدا إلى منهج عملى واضح لو صح ما كان يدعو اليه الحزب فى بياناته من التزام «الوسـائل المشروعة» بل يظهـر أنه أغراق فى المثالية . وقد يكـون من الطبيعى أن يقف الرافعى فى مجلس النواب عند حدود عدم التصريح بما يميل اليه من استعمال العنف والاستمرار فيه، استجابة لما لا يخفى من اعتبارات الأمن السياسى والحزبى والفردى، وقد يكـون الرافعى فى تشدده بالمجلس يقصد أن يستحث سـعدا «من تحت المائدة» على ابقـاء العمل بالاسلوب العنيف بعد أن وصل الوفـد إلى الحكم بالاسلوب البرلمانى السلمى ، ويقصد

القـول بـأن نجـاح الوفـد فى الوصـول إلى الحكم بالطريق السلمى لا ينبغي أن يجعله يتغافل عن أهمية استمرار جانب العنف من نشاطه . على أن مـا يـضـعف هذه الفـروض ، أنه لم يلحظ للرافـعى ولا للحـزب الوطنى ، ولا أفـصـحت الوثائق التـاريخيـة المتاحة ، عن اسـتمـرار الحـزب الوطنى فى هـذا الطريق بعـد ١٩٢٤ ولا أن مـحـاولة بذلت للاستـمـرار فى هـذا النوع من النشـاط . وقد سبقت الاشـارة إلى أن العنف في حدود الاغتيالات السـياسية ذو فاعلـية محدودة الأثر . وهنا تظهر المثالية واضحة فيما يدعو اليه الحـزب الوطني وما روج اليه من معارضة للطريق الوفدى .

وقـد نظر الوفـديون إلى مـواقف الرافـعى - رغم مـا يتمـتع به من احترام وتقدير بينهم - كمواقف يقصد بها أن تنتهى إلى إحراج حكومة سعد وإضعافها فى نظر الشعب ، ويظهر أنهم انطووا على الغيظ منه رغم سعـة الصـدر التي لاحظها الرافعى نفسه في ردود فعل النواب الوفـديين تجـاهه . وكـان هو يرد على تهمـة الاحراج بقـوله أن الحـيـاة النيابية ميدان لاستمرار الكفاح ضد الإحتلال ويتعين أن يتخذ البرلمان - أكثر من الحكومة - موقف التشدد ضد المحتل ، وكان الحرج يستبد بسـعـد زغلول أحيـانا فيقـول والأزمـات تحيـط به من كل جانب والدسـائس تتكاثر عليه «لا تقف موقف المعجز فقوتى من قوتك وقل لي

ما يمكن تنفيذه». وكان يقول لمعارضيه الوطنيين «لا تكشفوا عن ضعف الأمة [٢٠].»

الرافعى خارج البرلمان :

تعاقبت الأحداث حتى اغتيل السردار واستقالت وزارة الوفد وحل مجلس النواب وأجريت انتخابات جديدة نجح فيها الرافعى فى دائرته نفسها على المرشح الوفدى ، ولكن المجلس حل فى أول أيام انعقاده ، ومن وقتها بقى الرافعى بعيدا عن البرلمان ثلاثة عشر عاما . ويرد الرافعى هذا الابتعاد إلى وقوف الوفد ضده ، إذ قسمت الدوائر فى عهد الائتلاف بين الوفد والأحرار الدستوريين سنة ١٩٢٦ ورفض الوفد أن يترك دائرة المنصورة بسبب سابقة معارضته لحكومة سعد ، كما نافس الوفد الصوفانى سنة ١٩٢٥ وأحمد لطفى (من أقطاب الحزب الوطنى) سنة ١٩٢٦ واسقطهما ، مما ترك احساسا بالمرارة الشديدة لدى الحزب الوطنى . ويذكر الرافعى أن صدمة سقوط الرجلين عجلت بوفاتهما ، وان موقف الوفد انطوى على كثير من العنت وكشف عن قصور كبير لديه فى تقبل المعارضة[٢١] .

ويمكن تصور وجهة نظر الوفد فى حرصه كحزب برلمانى على الظفر

---

(٢٠) ثورة ١٩ والسلطة السياسية . طارق البشري ، مجلة الكاتب : أكتوبر ١٩٦٧.

(٢١) مذكراتى . المرجع السابق ص ٥٧ - ٦٠ .

بأكبر قدر من مقاعد مجلس النواب ، ولا تثريب على حزب فى ذلك مادام يحتكم إلى الجماهير احتكاماً حرا غير مزيف . والواقع أن الحزب الوطنى ساهم فى تعميق الخلاف بينه وبين الوفد ، إذ اضطر فى معارضته للوفد ذى الكيان السياسى الكبير إلى الوقوف حليفا للقوى والتيارات المعادية له، وكانت كلها - سيما فى العشرينات - تنحصر فى اتجاه السراى والأحرار الدستوريين . وذلك رغم الاختلاف السياسى البين بين مبادىء الحزب الوطنى وبين هؤلاء .

والظاهر أن الحزب لم يستطع أن يحدد الوضع السياسى وقواه تحديدا يمكنه من اتباع سياسة عملية تتمشى مع أهدافه البعيدة : وقد سبقت الاشارة إلى سبق وقوفه ضد الوفد حليفا لعمر طوسون فى بداية الثورة. ثم بعد ذلك ساهم مع الأحرار الدستوريين فى حملة الهجوم على الوفد فور استقالة وزارة سعد ، وذلك قبل أن ينشق الأحرار على وزارة زيور الذى خلف سعدا وحكم باسم الملك ، وكان هذا الهجوم مما ساهم فى دعم حكومة زيور فى بدايتها . ثم ما لبث الحزب أن هاجم الحكم فى ١٩٣٠ وقام بانقلابه الدستورى الذى ألغى به دستور ١٩٢٣ ووضع دستور ١٩٣٠ الذى انتكس بما حققه الدستور الأول من مكاسب للشعب، عندما تم ذلك قاطع الوفد والأحرار انتخابات صدقى ، ولكن كان غريبا أن يقرر الحزب الوطنى دخول انتخابات قاطعتها الأمة[٢٢] .

---

(٢٢) د . عبد العظيم رمضان ، المرجع السابق ص٧٤٦ .

كان تفكير الحزب الوطني في هذا الشأن - حسبما يتضح من كتابات الرافعي عن ثورة ١٩١٩ وعن أعقاب الثورة وكتابات غيره من رجال الحزب - يصدر عن أن الوفد لا يعدو أن يكون امتدادا لحزب الأمة القديم ، وأن الخلاف الذى نشأ داخل الوفد وأدى إلى انسلاخ من كونوا الأحرار الدستوريين ، ليس خلافا سياسيا ولا خلافا أساسياً وانما مصدره أطماع سعد زغلول في التفرد بالزعامة ، وان محمد فريد كتب في مذكراته بمنفاه أن الوفد بتشكيله الأول لا يتأخر عن الاتفاق مع الانجليز «لا يبقى يطالب فعلا وباخلاص حقيقي باستقلال مصر التام الا حزبنا الحزب الوطني ..»(٢٣) وان الوفد والأحرار كلاهما يقبل مبدأ المفاوضة . ومن الطبيعي إن صدر التفكير من هذا الاساس أن ينظر إلى ما يتمتع به الوفد من شعبية على أنه شعبية أساسها التضليل والغوغائية، وأن ينظر اليه باعتباره أخطر على المطالب الوطنية من زملائه الأحرار .

وعلى أى حال ، فقد كان لابتعاد الرافعي عن المنبر البرلماني أثر جد سيىء فى نفسه ، وإذا كان هو والحزب الوطنى قد نفضوا أيديهم من العنف كأسلوب لتحقيق المطالب الوطنية ، وإذا لم يكن

---

(٢٣) ثورة ١٩١٩ . المرجع السابق ص ٦٣ . وفى نفس المعنى : عصر ورجال فتحى رضوان ص ٤٥١ .

للحـزب الوطـنى علاقات واسعة وثيقـة بالجماهير ، ولا نشاط يعتد به في المؤسسات الجماهيرية السياسية والاقتصادية كالتعاونيات والنقابات (على ما كان يهدف قبل الحرب) فلم يعد أمامه من أساليب الكفاح الوطنى إلا النشـاط البـرلماني والصـحـفي . وجـاءت سـياسـة الوفـد هادفة إلى اقصاء معارضيها من البرلمان . ووجد الرافعي السياسى أن أبعاده عن البرلمان قد أغلق من دونه أهم ميادين الكفاح . فـانحصـر جـهده الأسـاسـي فى الكتابة أحـياناً بالصـحف تعليـقا على الأحـداث الجارية وتذكيـرا للرأى العام بما ينبـغى أن تكون عليه المطالب الوطنية من نقاء وتشدد .

وفى هذه الفـتـرة ، سـعى بعض كـبـار رجـال الحـزب الوطنى ، إلى البحث عن ميدان للنشـاط الشعبى . والمعروف أنه كان قسم من رجال الحزب قبل الحرب الأولى يميل إلى الفكرة الاسلامية وتجميع الشعوب المسلمة ضـد الاحتلال وبقيت أساسـا من أسس تفكيرهم السـياسى . وبهذا سـاهموا فى ١٩٢٧ فى تكوين جمعيات الشـبان المسلمين لتكون مجالا لنشـاط الشباب الإسلامى فى مصـر والبلاد العربية ، وانشئت لها فروع فى المشرق العـربى خلال الأعوام القليلة التـالية . وكـان من أهم مؤسسى هذه الجمعيات الدكتور عبد الحـميد سـعيد والشيخ عبد العزيز جاويش من رجال الحزب الوطنى .

على أنه لا يكاد يلحظ للرافعي نشاط واضح في هذا الخصوص ، وتلفت الرجل يختار مجالا يمارس فيه حيويته السياسية والثقافية ، وكان منذ صباه يميل للنشاط الثقافي والكتابة وتأليف الكتب ، فقد كتب أول مقالاته وهو في التاسعة عشرة وكان يجنح لكتابة المقالات المسلسلة في موضوع واحد[٢٤]. وأصدر أول كتبه في ١٩١٢ باسم «حقوق الشعب» شرحا للمبادىء الديمقراطية وتعميقا للدعوة لها، وكان ذلك في وقت اشتداد المطالبة الجماهيرية بالدستور وقيام المظاهرات تطالب به وبالحريات تحيط بركب الخديو هاتفة «اللائحة يا أفندينا» .

ثم أصدر كتابه الثاني عن «نقابات التعاون الزراعية ، نظامها وتاريخها وثمراتها في مصر وأوربا» كأول كتاب يصدر عن مصري في هذا الموضوع ، ودعاه لاختيار هذا الموضوع نشاط الحزب الوطني في تأليف التعاونيات كجزء من نشاطه للنمو بالحركة الشعبية ضد الاستغلال الرأسمالي الاستعماري . وفي ١٩٢٢ أصدر كتابه الثالث باسم «الجمعيات الوطنية – صحيفة من تاريخ النهضات القومية في فرنسا وأمريكا وألمانيا وبولونيا والاناضول» نشر هذا الكتاب مسلسلا في صحيفة «الأخبار» سنة ١٩٢١ ، وقدم فيه صورة من

(٢٤) مذكراتي . المرجع السابق : ص ١٦ .

الجمعيات الوطنية والهيئات النيابية التى لعبت دورا تاريخيا فى تنظيم جهاد الأمم ووضع الدستور وتنظيم الحياة السياسية فيها . ودعا فيه إلى استمرار سياسة المقاومة الوطنية التى تعتبر سياج الأمم المهضومة الحقوق ، وانها ما يتحقق به الاستقلال وما تحفظ به روح الاتحاد الوطنى(٢٥) . ويظهر الهدف السياسى المباشر لاصدار هذا الكتاب واضحا لايحتاج إلى تفصيل ، كما يلاحظ أنه فى فترة صدوره كانت ظهرت نية السراى والاحرار الدستوريين ، فى اعداد الدستور - عقب صدور تصريح بريطاني يعترف بالاستقلال الاسمى - بواسطة لجنة يعينها الملك (كانت هى لجنة الثلاثين المعروفة) . وكان موقف الوفد والحزب الوطنى الدعوة لاعداد الدستور بواسطة جمعية تأسيسية منتخبة من الشعب لا معينة من الملك وصدر هذا الكتاب مؤيدا لهذه الدعوة من خلال ما أورده من تجارب تاريخية .

فلما ابتعد الرافعى عن النشاط النيابى منذ ١٩٢٦ ، لجأ إلى نزوعه الثقافى القديم في التأليف «أوجد الله لى مخرجا من هذه المحنة، فالهمنى أن أشغل نفسى بعمل استغرق معظم تفكيرى وجهودى،

---

(٢٥) الجمعيات الوطنية . عبدالرحمن الرافعي .

وصـرفنى وقـتـا طويلا عن الحـيـاة البـرلمانيـة ، وهو تـأريخ الحـركـة القومية».[26]

بدا تفكيره فى هذا العمل ، بمنزع سياسى واضح ، شأنه فى ذلك شأنه في جميع ما كتب، وبمنزع حزبى أيضاً . واختار أن يضع كتابا عن «مصطفى كامل » رائد الحركة الوطنية فى مفتتح القرن العشرين وأول زعيم للحزب الوطنى يعتمد فى نشاطه السياسى دائماً إلى ما يقتنع به فى نفسه من أصالة وعراقة مصدرها نشاطه قبل الحرب وزعامة مصطفى كامل ثم محمد فريد له، وفي الكتابة عن أى من هذين ترويج للحـزب الوطنـى كـمـبادىء وكـمـؤسسـة . والرافـعى نفسه يستشعر عاطفة قوية للوفـاء لزعيميـه الراحلـين تدفعـه إلى اختيارهما كموضوع للبحث . ولكن ما أن بدأ الرافعى فصوله الأولى ، حتى فرض منطق البحث نفسه ، علـى الباحـث ، وتكشفـت أمامه مسألة تاريخية مهمة ، هى تحديد بداية تاريخية للموضوع ، وإذا بأحـداث التـاريخ يمسـك بعضـها بأهـداب بعض وتتـداعى أمامـه فى تسلسل وثيق الحلقات ، فمضـى في بحثـه صعـدا ليصـل إلى نقطة تصلح بداية لظهـور الحركـة القومية فى تاريخ مصر الحديث، حتى وضع يده على المقاومةالشعبية التى واجهت الحملة الفرنسية .. فأرجأ كتاب مصطفى

---

(26) مذكراتى ، المرجع السابق : 60 .

كامل . وبدأ من نقطة البداية[٢٧]. وقد استغرق اعداد الجزء الأول منه ثلاث سنوات حتى صدر فى يناير ١٩٢٩، ثم تلاه الجزء الثانى فى ديسمبر . ثم أصدر «عصر محمد على» فى ديسمبر ١٩٣٠ ، وعصر اسماعيل فى ديسمبر ١٩٣٢ ، ثم الثورة العرابية والاحتلال الانجليزى «فى فبراير ١٩٣٧ ، ثم وصل إلى «مصطفى كامل» فى يناير ١٩٣٩ و«محمد فريد» فى يوليه ١٩٤١، ومصر والسودان فى أوائل عهد الاحتلال فى «يونيه ١٩٤٢ . ثم أصدر «ثورة ١٩١٩»، فى جزءين فى إبريل ١٩٤٦ ، وتوالت الأجزاء الثلاثة « فى أعقاب الثورة » حتى أتمها فى اكتوبر ١٩٥١. ثم أصدر جزءيه عن مقدمات ثورة ٢٣ يولية وعن هذه الثورة فتمت المجموعة فى ١٩٥٩ .

الرافعى فى الثلاثينات :

فى ديسمبر ١٩٣٢ ، صار الرافعي سكرتيرا للحزب الوطنى خلفا لمحمد زكى على الذى عين هو ومصطفى الشوربجى (من قادة الحزب) مستشارين بالقضاء فى عهد اسماعيل صدقى، وكان الرافعى قد رفض التعيين معهما لعمله الحر فى المحاماة . وصدر أول بيان للحزب موقع عليه منه فى ٥ يناير ١٩٣٣ يتضمن معارضة محاولات صدقى التفاوض مع الانجليز ، وطالبا الغاء القوانين المقيدة للحرية ، وداعيا لاحكام البناء

---

(٢٧) مصطفى كامل باعث الحركة الوطنية . عبدالرحمن الرافعي . ص ١ – ٢ .

التنظيمى للحزب بتكوين لجان فرعية له تدعو لمبادئه . كما نص البيان على «لفت نظر حضرات أعضاء الحزب الوطنى إلى وجوب المحافظة على تقاليد الحزب فى خطبهم وتصريحاتهم ورسائلهم باعتباره حزب معارضة للحكم القائم ..» بما يشير إلى ضعف روح الانضباط بين أعضاء الحزب وضعف روح المعارضة فيه لحكم صدقى.

ومن المعروف أنه على مشارف ١٩٣٥ كانت حكومة صدقى قد سقطت ، وظهر اتجاه تكوين الجبهة الوطنية وعقد المعاهدة مع بريطانيا مع احتمال عودة الوفد ودستور ١٩٢٣ . وقد ساهم الرافعى مع حافظ رمضان رئيس الحزب الوطنى فى تقريب وجهات النظر بين الوفد وغيره من الأحزاب لتحقيق الائتلاف وتكوين الجبهة[٢٨] . ونشر الحزب بيانا موقعا عليه من رئيسه وسكرتيره عن سعيهما «لتوحيد الكلمة وضم الصفوف.» وذلك فى صحيفة الأهرام ٢٨ نوفمبر ١٩٣٥ . ثم تكونت الجبهة ممثلة للأحزاب كلها وللوفد فيها أغلبية الأعضاء ولكل حزب ممثل واحد عدا الحزب الوطنى الذى مثل برئيسه وسكرتيره اعترافا بسعيها فى نجاح الائتلاف . وساهم الاثنان مع الجبهة فى سعيها لاعادة دستور ١٩٢٣ ، وكان الرافعى ضمن لجنة صياغة كتاب الجبهة للملك للمطالبة بعودة الدستور ، ثم انسحب عن أعمال الجبهة فى سعيها

(٢٨) صحيفة الأهرام ١٥ ديسمبر ١٩٣٥ : مذكراتى . المرجع السابق . ص ٨٧ .

لتحقيق هدفها الثاني وهو ابرام المعاهدة ، اتباعا لمبدأ الحزب[٢٩] . ولم يشترك الحزب الوطني بطبيعة الحال في وفد المفاوضة الذي أبرم معاهدة ١٩٣٦ .

وبعد أن أبرمت معاهدة ١٩٣٦ ، عارضها الحزب الوطني في البرلمان وفي خارجه ، وكان رجاله بمجلس النواب هم عبد العزيز الصوفاني وفكري أباظة ومحمد محمود جلال وعبد الحميد سعيد . أما الرافعي فلم يكن عضوا بأحد مجلسي البرلمان ، إذ رفض الوفد في الانتخابات الأخيرة أيضاً أن يترك له دائرة المنصورة، واعتبر الرافعي ذلك غبنا كبيرا «حرمت طيلة حياتي من معاونة الغير لي» . وقد أوضح الرافعي رأيه في المعاهدة بما نشر من مقالات في الصحف ، سيما مقال كبير بالأهرام في ٢٦ سبتمبر ١٩٣٦ طبع في كتيب وجرى توزيعه كأحد مطبوعات الحزب[٣٠] . ثم استمر بعد ذلك على موقف المعارضة من المعاهدة ، لا يمل تكرار القول واعادته ضدها .

وقد عاد الرافعي عضوا منتخبا بمجلس الشيوخ على عهد وزارة على ماهر في أكتوبر ١٩٣٩ ، وبقي به حتى ١٩٥١ . ومنذ دخل المجلس كان دائم الاشارة في كل ما يقول - سيما في تعليقه على خطابات

(٢٩) في أعقاب الثورة . الجزء الثاني . عبد الرحمن الرافعي ص ٢٠٣ ... الخ.
(٣٠) مذكراتي . المرجع السابق . ص ٩٠ .

العرش التى تفتتح بها الحكومة كل دورة من دورات البرلمان - إلى فساد الاساس الذى بنيت عليه المعاهدة مادام لم يصحبها الجلاء الكامل عن مصر ووحدة وادى النيل[٣١] . ورفض تأييد وزارة حسن صبرى التى خلفت على ماهر فى ١٩٤٠ . وكان يقول أنه لا يتصور استقلالا بغير جلاء ولا احتلالا بغير تبعية. وأن المعاهدة ليست الا صكا بالحماية[٣٢] وعارض حكومة الوفد بعد توليها الحكم فى ١٩٤٢ لأن خطاب العرش الذى ألقاه مصطفى النحاس لم يشر إلى مبدأ الجلاء ووحدة وادى النيل . وكان دائم الاشارة إلى وجوب تجنيب مصر ويلات الحرب العالمية الثانية التى كانت دائرة وقتها [٣٣] . واعاد المعنى ذاته فى تعليقه على خطب العرش الوفدية فى السنين اللاحقة قائلا فى مرة منها «نحن نعتبر الجلاء مبدأ لا مطلبا فحسب ، ونعتبره عقيدة لا وسيلة للمعارضة فحسب[٣٤] .»

ومن المعروف أنه كان من تقاليد الحزب الوطنى، رفض الاشتراك فى الحكم مع أية وزارة لا يكون مبدأها لا مفاوضة إلا بعد الجلاء. وظل الحزب أمينا على هذا التقليد ، حتى حدث أن قبل رئيس الحزب

---

(٣١) أربعة عضر عاما في البرلمان . عبدالرحمن الرافعى ص ١١٥ .

(٣٢) المرجع السابق . ص ١٨١ .

(٣٣) المرجع السابق . ص ٢٥٠ .

(٣٤) المرجع السابق . ص ٣٥٣ .

الاشتراك فى حكومة الأحرار برئاسة محمد محمود فى ١٩٣٧ بغير قرار من اللجنة الادارية للحزب ، وسكت الحزب على رئيسه على مضض . ثم اشترك الرئيس مرة أخرى فى وزارة حسن صبرى فى ١٩٤٠ رغم مبادرة لجنة الحزب فى هذه المرة بتقرير عدم الاشتراك فيها قبل تشكيلها ، فخالف رئيس الحزب القرار ودخل الوزارة ، وحدث انقسام بالحزب ووجدت لجنتان اداريتان - أى قيادتان للحزب وذلك حتى نوفمبر ١٩٤٦ إذ تصالح الفريقان على مبدأ عدم الاشتراك فى الوزارة إذا كان برنامجها يتعارض مع مبادىء الحزب . وكان الرافعى من المعارضين لحافظ رمضان فى هذا الانقسام. ثم اشترك الرافعى فى وزارة حسين سرى الائتلافية فى ١٩٤٩ وزيرا للتموين ، ووجد من رجال الحزب من عارضه فى قبول الاشتراك رغم سابقة رفضه الاشتراك فى حكومة سرى الأولى فى ١٩٤٠ ، وكان من هؤلاء محمد محمود جلال ومحمود العمرى . ورأى الرافعى فى معارضتهما تشددا لم يقتنع به . حتى استقالت الوزارة وشكل رئيسها وزارة مستقلة أجرت الانتخابات ثم عاد الوفد .

الرافعى والتعاون :

كان للحزب الوطنى منذ عهد محمد فريد، دوره الهام فى ارساء أسس الحركة التعاونية فى مصر ، وظهر أول داعية للتعاون فى ١٩٠٨

عمر لطفى وكيل مدرسة الحقوق ورئيس نادى المدارس العليا وأحد المقربين لمصطفى كامل . فلما توفى عمر فى ١٩١١ تزعم الحركة شقيقه أحمد لطفى عضو اللجنة الإدارية للحزب الوطنى[٣٥] .

ومن هذا الوقت بدا اهتمام الرافعى بالحركة التعاونية . وقد لاحظ الرافعى أن الحزب الوطنى قبل ١٩١٩ كان أكثر اهتماماً بالجانب الاقتصادى للحركة الوطنية من الوفد بعد ذلك . وفى ٢٥ ديسمبر ١٩١٣ أرسل محمد فريد إلى الرافعى خطابا يأسف فيه على ما لحق نشاط الحركة الوطنية من ضعف وينصحه قائلا «إذا كان الخوف من رجال السلطة حدا بالكثيرين إلى عدم اظهار احساسهم الوطنى ، فما يمنعهم من صرف همتهم إلى المشروعات الاقتصادية كالنقابات وشركات التعاون المنزلى والمالى ... فاستقلال مصر الاقتصادى مقدمة لاستقلالها السياسى»[٣٦]. وعمل الرافعى بالنصيحة وكتب فى صحيفة «الشعب» سلسلة مقالات عن ميزان مصر الاقتصادى فى ديسمبر واكتوبر١٩١٣، كما وضع مؤلفه عن التعاون الزراعى وارسله إلى فريدالذى شجعه على ذلك وشجع أحمد لطفى على انصرافه إلى دعم هذه الحركة . وقال للرافعى أنه يأمل «أن كل النقابات (التعاونيات) التى تؤسس تنشأ حرة بحيث يسقط قانون الحكومة من نفسه وتضطر هى لتعديله»[٣٧] . وقد

---

(٣٥) جلسة ٥ فبراير ١٩٤٦ .

(٣٦) تاريخ التعاون في مصر . طارق البشري . مجلة الطليعة .: سبتمبر ١٩٦٥ .

(٣٧) مذكراتى . المرجع السابق ٢٤ - ٢٦ - ٣٩ .

قسم كتابه بابين خص الأول بتجارب التعاون فى بلدان أوربا ، وخص الثانى بمصر فذكر أن نظام التسليف الزراعى يضع الفلاحين تحت نير الاستغلال من التجار والمرابين الأجانب ، وتكلم عن دعوة عمر لطفى والجمعيات التى نشأت فى البداية وأساليب نشاطها . ثم وجه فى النهاية اهتمامه إلى مهاجمة مشروع تشريع التعاون الذى أعدته الحكومة والذى يفرض رقابة صارمة عليها فى تكوينها ونشاطها . وقارن بين هذه الرقابة وما تتمتع به شركات الاستغلال الرأسمالى التى تنشأ طبقاً لقانون التجارة من حرية كبيرة فى نشاطها (٣٨).

فلما قامت ثورة ١٩١٩، حاول إحياء نشاط الحزب الوطنى فى هذا الشأن بعد ما أصابه من ضعف خلال الحرب، وأسس مع بعض زملائه فى يوليه ١٩١٩ «جمعية تعميم النقابات الزراعية» بمديرية الدقهلية لنشر التعاونيات فى المديرية ، وأصدروا بيانا وقع عليه كثيرون منهم محمد حسين هيكل وإبراهيم الطاهرى وحسن هلال . وفى بداية ١٩٢٠ دعا لإنشاء جمعيات للتعاون الخيرى مقاومة للغلاء ، وكتب عن ذلك فى صحيفة الأخبار وتكلم عنها فى اجتماع دعا إليه محمد أمين يوسف بدار الأوبرا لهذا الغرض . وأسست جمعية من هذا النوع فى فبراير ١٩٢٠ ثم أنشىء عدد آخر فى بعض المدن . على أنه يظهر أن هذه

(٣٨) نقابات التعاون الزراعية . عبد الرحمن الرافعى .

الحركة لم تحظ بانتشار واسع . وقد لحقها مالحق نشاط الحزب الوطنى من انغلاق بسبب فقدانه الروابط الجماهيرية الواسعة .

وحدث عشية إعلان دستور ١٩٢٣ ، أن أصدرت وزارة يحيى إبراهيم الموالية للملك وللإنجليز مجموعة من التشريعات المقيدة للحريات وللحركات الشعبية ، كقانون الاجتماعات العامة والمظاهرات وقانون الأحكام العرفية وقانون الانتخابات ، وذلك كنوع من محاصرة الدستور ولجم النشاط الجماهيرى الذى يتوقع فى ظله . وكان من هذه القوانين القانون رقم ٢٧ لسنة ١٩٢٣ «شركات التعاون الزراعى» (٣٩) فلما اجتمع مجلس نواب ١٩٢٤ اقترح الرافعى فى ٢٥ مارس تشكيل «لجنة التعاون والشئون الاجتماعية» ضمن لجان المجلس . وقال : إن التعاون ركن مهم فى الحياة الاقتصادية ، وكان يسير ببطء خلال الاثنى عشرعاما الماضية بسبب عدم وجود تشريع ينظمه . وتكونت اللجنة فعلا وفيها الرافعى سكرتيرا ، وفحصت قانون ١٩٢٣ وقررت إجراء عدد من التعديلات به تنظيما لتمويل الحكومة لها وتحديدا لجوانب الاشراف على الجمعيات التى تشكل طبقا له لا الجمعيات التى يمكن تشكيلها طبقا لاحكام القانون العام ، وألح الرافعى على المجلس أن ينظر هذا القانون

---

(٣٩) تاريخ التعاون في مصر ،، المرجع السابق ، دستور ٢٣ بين القصر والوفد . طارق البشرى . مجلة الكاتب مايو ١٩٦٩ .

فى دورته الجارية ، ولكن تقرر تأجيله لعدم استعداد الحكومة لمناقشته فنيا ثم أجل لدورة تالية ، ثم حل المجلس كما هو معروف [٤٠]. وفى عهد حكومة الائتلاف سنة ١٩٢٧ صدر قانون جديد للتعاون بمبادرة فتح الله بركات وزير الزراعة الوفدى ولم يتح للرافعي أن يساهم فيه لابتعاده عن البرلمان وقتها .

والملاحظ أن الرافعى بقى أميناً للحركة التعاونية ، كعهده طوال حياته بالنسبة لنشاط الحزب الوطنى على عهد زعيميه الأولين، وذلك طوال حياته السياسية التالية . ولكن حدث هنا ماحدث لنشاطه ولنشاط الحزب كله ، وهو الاقتصار على النشاط البرلمانى وذلك للتأثير فى سياسة الحكومات المختلفة بما يدفعها إلى تشجيع التعاون ، وبغير مبادرة ذاتية أو شعبية فى تكوين التعاونيات . ومنذ ١٩٢٤ بدأ الرافعى يركز على أهمية الرقابة الحكومية الفنية على جمعيات التعاون وعلى أهمية مساعدة الحكومة لها تمويلا ورقابة على خلاف نزعة الانطلاق الشعبية التى كانت طابع الحزب فى هذا المجال قبل الحرب الأولى ، ولعل من أسباب ذلك نمو العنصر الوطنى فى حكم البلاد منذ ١٩١٩ ، ولكن من أسبابه أيضاً افتقاد القدرة على النشاط الشعبى الواسع والاقتصار على العمل من خلال البرلمان ومؤسسات الحكم . وقد

(٤٠) أربعة عشر عاما ... ص ٧٣ - ٩٣ .

اختيرالرافعى عضوا باللجنة التى شكلتها وزارة على ماهر من المعنيين بالحركة التعاونية فى ١٩٣٩ فوجهت عنايتها للمطالبة بإنشاء بنك للتعاون مع دعم المساعدة المالية والفنية من الحكومة لها[٤١].

ولما عاد الرافعى إلى البرلمان فى ١٩٣٩ ، كان سكرتيرا للجنة العمال والشئون الاجتماعية بمجلس الشيوخ . واستمريطالب بزيادةالاعتمادات المخصصة بالميزانية لمصلحة التعاون وتوسيع نواحى الاشراف على التعاونيات وتنظيمها ومراجعة أعمالها [٤٢]. وجعل من الحديث عن تشجيع التعاون بندا شبه ثابت فى خطاباته الدورية تعليقا على خطب العرش[٤٣] . ثم كان هو سكرتير لجنة الشئون الاجتماعية والعمل التى درست مشروع التعاون الجديد فى ١٩٤٤ وأقرت إدخال عدد من التعديلات به على القانون القائم، مع إنشاء بنك للتعاون[٤٤] . كما ساهم فى أول مؤتمر للتعاون انعقد فى ٥ يونية ١٩٤٣ برئاسة فؤاد سراج الدين وزير الشئون الاجتماعية فى المنصورة [٤٥] .

وكان الرافعى سكرتيرا للجنة الشئوت الاجتماعية بمجلس الشيوخ

---

(٤١) مذكراتى . المرجع السابق . ص ١٠٥.
(٤٢) أربعة عشر عاما ... ص ١٣٨ ، ١٦٥ ، ١٩٠
(٤٣) جلسة ٣ يونيه ١٩٤٢ .
(٤٤) أربعة عشر عاماً ... ص ٢٧٩ .... الخ .
(٤٥) مذكراتى . المرجع السابق ص ١٠٨

عند نظر البرلمان لأول قانون لنقابات العمال وعند نظره لقانون عقد العمل الفردى فى عهد وزارة الوفد ، وكان مقرر اللجنة الذى قدم كلا من المشروعين إلى المجلس فى ٨ أغسطس ١٩٤٣ و٢ فبراير ١٩٤٤ وما تلاهما من جلسات . كما قدم للمجلس اقتراحا بقانون فى ١٢ فبراير ١٩٤٠ لحماية الملكية الزراعية الصغيرة تعديلا لقانونى سنتى ١٩١٢، ١٩١٣ بما يسبغ الحماية على صغار ملاك الأراضى الزراعية بعدم الحجز على ملكية عشرة أفدنة بدلا من خمسة وبما يمكن من التمسك بعدم جواز الحجز إلى وقت التنفيذ بدلا من سقوط الحق فى التمسك به من وقت صدور الحكم(٤٦). كما قدم فى ١٤ ابريل ١٩٤١ اقتراحاً بمد مواعيد تقديم طلبات خفض الضرائب عن صغارالملاك الزراعيين حماية لهم .

ويلحظ كثير من مناقشاته البرلمانية ، نزعته الانسانية الواضحة تجاه ما يعرض من أمور تمس مصالح الفلاحين والعمال أو «الفقراء» عامة . وقد طالب بجلسة ٢٦ مارس ١٩٤٠ بتشجيع الصناعات المنزلية مساعدة لزيادة دخل الفلاحين مع تخفيف أعباء الديون عنهم . وفى ١٧ ابريل طالب بزيادة اعتمادات الميزانية لتقوية الجيش على أن تتحمل الطبقات الغنية وحدها تكاليف هذه الزيادة لأن الفقراء «تكفيهم الأعباء

---

(٤٦) أربعة عشر عاما ص ١٣٠ – ١٣١ .

المكلفون بها فى الميزانية العادية » [٤٧] ، وأثار قوله هذا ضجيجا وموجه من عدم الارتياح لدى الشيوخ . وصفت صحيفة البلاغ وقع الاقتراح ورد فعله بقولها «أحمر وجه الشيخ (الرافعى) وقال وهو يخترق الصفوف إلى مكانه : قولوا اللى تقولوه، لازم الاغنياء يتحملوا ، جه دورهم[٤٨] .» وتكلم كثيرا عن تنمية الصناعة ومحاربة الفقر .

وفى ديسمبر ١٩٤٨ قدم مشروعه عن منع تملك الأجانب للأراضى الزراعية والعقارات ، ووجد تأييدا من الرأى العام ، ومالبث أن ووفق عليه بالمجلس وصدر برقم ٣٧ في مارس ١٩٥١ . وقد صدر مقتصرا على الأراضي دون المباني، كما أنه كان يمنع تملك الأجانب مستقبلا دون مساس بالملكيات القائمة ولا بالحق فى توريثها .

المثالية السياسية :

هذا مجمل عن حياة الرافعي السياسية. ومن الطبيعى أن مقالا أو حتى كتابا لا يمكنه أن يحيط بشمول ودقة بحياة فرد تمتد سنين تطول أو تقصر . ولا شك فى أن رفع أى واقع لحادث أو بلد أو فرد ، رفعه على الورق ينطوى على قدر يقل أو يزيد من التجريد . وثمة دقائق لابد من أن تسقط فى هذه العملية . وكل محاولة للتسجيل تنطوى على حذف وتثبيت – وعى المسجل أو لم يع – وعلى قدر من الاختيار للمادة ووزن للحادث وعلى اختيار للزاوية التى يعالج منها وللسياق الذى يرد

(٤٧) ، (٤٨) المرجع السابق ... ص ١٥٢ ، ٣٠٤ .

فيه وكل ذلك يجرد الواقع بدرجة ما . فحسب الكاتب فيما يكتب ، لا أن ينقل الواقع برمته ، ولكن أن ينقل منه نماذج ذات دلالة يرجو أن تكون صادقة أمينة . وحسبه لا أن يصل إلى الحقائق النهائية فهى غير متناهية ، ولكن أن يدرك الطريق وأن يسلكه بأطول الأشواط المستطاعة. فهو من «أهل الطريق» الذى يسمى منهجا .

ويبدو أن الطريق لفهم التاريخ ، هو استكشاف ترابط أحداثه . وليس من حدث يمكن فهمه أو يكون له أى معنى بمعزل عن غيره ، ولا من تيار يدرك بعيدا عن غيره . فلا يبدو أنه يمكن فهم الحياة السياسية لفرد إلاَّ فى خضم الأحداث والتيارات العامة ، وتبيان موقعه من الصورة العامة . وهذا وحده الخليق بأن يعطى المعنى الملموس لدوره ، وهذا ما تحاوله هذه الدراسة بالنسبة للرافعى السياسى ، فلم تعزله عن علاقات التناقض والتآلف، ولكن حاولت وضعه فى قلب هذه العلاقات ، ليبدو الرافعى من خلال التاريخ الذى عاشه لا بمعزل عنه .

أما الرافعى «فى ذاته» ، فإن خير تلخيص له وللتيار السياسي فى حزبه، هو وصفه «بالمثالية السياسية» وهو الوصف الذى اختاره لنفسه . وقد ارتبط لديه الايمان بالمبدأ كفكر سياسى بالاخلاص للوطن كموقف وكخلق بعاطفة الوفاء لزعيميه الأولين مصطفى وفريد . فامتزجت فى صدره السياسة بالأخلاق بالعواطف . وكان اختياره لزعيميه الأولين ، لا يصدر عن ادراك عملى لقدرتهما السياسية واقتناع بمواقفهما العملية ، بقدر ما يصدر عما عبر عنه بقوله «رأيت فيهما المثل العليا

للوطنية الحقة» . والوطنية عنده ليست سعيا لتحقيق مصالح الوطن انما هى تمسك «بحقوقه»، وهى فوق ذلك تنطوى على مفاد أخلاقى ذاتى يضعه فى المقدمة وهو الإخلاص للوطن وتغليب مصالحه العليا على مصالح الانسان الشخصية(٤٩) .

وهو لا يفهم من الوطنية فقط انها نضال اجتماعى، ولكنه استنبط منها معنى ذاتيا ، فهى نضال فى سبيل المثل العليا يقتضى «توطين النفس على احتمال الأذى فى سبيل محبة الوطن» وهى من هذا الجانب تجربة ذاتية . والمواطن الصالح هو المواطن المثالى الذى يصلح شأن نفسه فيصير قدوة لغيره ، ويصلح شأن نفسه فتكون نفسه الصالحة «لبنة فى صرح النهضة القومية.» وإذا كان فلاسفة الاقتصاد الفردى يبدأون بمقولة أن ما ينفع الفردينفع المجموع، فالرافعى يبدأ بالفرد أيضاً، ولكن من الجانب الذاتى الاخلاقى، ويحول المعنى المادى الواقعى إلى معنى أخلاقى مثالى، أى يبدأ بالنفس لا بالفرد . ويصنف الناس مثاليين ونفعيين ووصوليين . والأمم تنهض بالصنف الأول وتتخذل بالصنف الثانى. وللحرية والاستقلال معناهما الذاتى أيضا . اختار المحاماه وأحب الصحافة ولكنه رفض قطعا التوظف ، لأن المهنتين الأوليين تكفلان الحرية والاستقلال(٥٠) . لامن حيث تأثيرهما ولكن من

(٤٩) مذكراتى . المرجع السابق ص ١٩ ، ٢١ .

(٥٠) مذكراتى . المرجع السابق ص ١٩ ، ٢١ .

حيث انفراد العامل فيها بنفسه، فهما نقيضا الانضباط والخضوع الوظيفي . وهذا معنى فردى فح يضع الفرد فى مواجهة المؤسسة . وينسجم مع ميله إلى تحويل الصراع السياسى فى المجتمع إلى صراع أخلاقى وسلوكى داخل النفس .

بهذا المزاج الذاتي ، عالج الرافعى أمور حياته العملية . برفض التوظف حرصا على حريته . ويصدمه قول من ينصحه بالزواج من ذات مال فيلفظ النصيحة قطعا . ويختار صاحبه يقدر لها دائما أنها لم ترغبه فى أن يلحق «بركب الحياة العملية كما يصفونها» . وبهذا المزاج الأخلاقى بنى بعضا من تقييماته التاريخية ، فأهم ما يصف به محمد فريد على عنوانه كتابه عنه أنه «رمز التضحية والإخلاص.» وكثير من هجومه على سعد زغلول وعلى سياسة الوفد ينبنى على حكم أخلاقى وعلى نظرة إلى السلوك . وبهذا المزاج المثالى عالج السياسة ، واتخذ مواقفه . فالمثالية هي ما جعلته يختار جانب المعارضة فى البرلمان ١٩٢٤ كما يقول . والوفاء لحزب زعيميه الأولين هو ما تحكم فيه دائماً . وكان من وجوه نشاطه فى البرلمان والصحافة ، العمل على إحياء ذكرى الزعيمين والمطالبة باقامة التماثيل لهما وبناء الأضرحة ، والتذكير بهما فى كل موقف سياسى يعرض «اعترافا بالفضل» وكان ذلك من بعض

دوافعه الأولى عندما بدا له أن يكتب التاريخ إذ حاول البداية بمصطفى كامل .

وفى هذه المثالية السياسية ، ما يفسر بقاء الرافعى (وكثير من رجال حزبه) مستمسكا متشبثا بمبادىء الحزب الوطنى الأولى كما رسمها زعيماه بوجدان يحتكم إلى الماضى فى النظر إلى مشكلات الحاضر ، ويرى فى ماضى حزبه شعاع الإلهام . واختلط الوفاء بالعقيدة السياسية . على أن المثالية السياسية تعنى هنا شيئا أهم فلم يكن الرافعى ولا الحزب الوطنى مثاليا بمعنى أنه يضع أهدافا منقطعة الصلة بالواقع والتطور الواقعى ، لم يكن يقيم فى خياله مدينة فاضلة ، وأن استهداف جلاء المحتل عن مصر ووحدة وادى النيل لم يكن يمثل شططا فى التخيل السياسى وإنما هى أهداف تقع فى المجال المنظور من حركة التاريخ المستقبلية . انما كان وجه المثالية يتعلق بتناقض هذا الهدف مع وسيلة تحقيقه كما سبقت الاشارة . ولم يكن «الجلاء والوحدة» هدفا مثاليا رغم بعده البعيد عندما كان الحزب الوطنى قبل الحرب الأولى يبدأ أولى خطواته متلمسا الطريق الصحيح للوصول اليه بالنشاط التعليمى الشعبى والنشاط الاقتصادى والسياسى ، وبالخطوات الأولى فى طريق استعمال العنف . ثم صار هذا الهدف مثاليا ، رغم اقتراب مصر تاريخيا من تحقيقه بعد ثورة ١٩١٩ عما

كانت قبلها - بسبب استبعاد الحزب نظرا وعملا لوسائله الأولى واقتصاره على النشاط «المشروع» الذى اتخذ شكل العمل البرلمانى وحده . فتحول الهدف الواقعى إلى هدف مثالى ، واستحالت النزعة السياسية العملية إلى نزعة أخلاقية تستمسك بالهدف استمساكها بالعرض وترفض المساومة عليه استكبارا لا اقتدارا، وأنفة لا جدالا . وأدى هذا أحياناً إلى أن يفتقد الرافعى فيما يقترحه من إجراءات محددة ، يفتقد لغة التفاهم مع سامعيه . حدث عندما اشتدت الغارات على الاسكندرية فى يونيه ١٩٤١ أن طالب الرافعى بمجلس الشيوخ جعل القاهرة والاسكندرية مدينتين مفتوحتين ، بما يعنيه ذلك من اجلاء وحدات البحرية البريطانية عن مياه الاسكندرية. وذلك رغم وجود معاهدة ١٩٣٦ ورغم الوجود العسكرى الانجليزى فى مصر كلها ورغم حيوية هذا الوجود لبريطانيا سيما فى تلك الفترة ، مما كان يستحيل تحقيقه بمجرد قرار تصدره الحكومة ويستطيع الانجليز إخراجها من الحكم . وفوجىء أعضاء مجلس الشيوخ بالاقتراح[٥١] . إذ كان الرافعى يستهدى فيه بذاته وبعقيدته فقط لا بالواقع الحاصل.

لم تكن هذه المثالية السياسية ، فى التقييم التاريخى طويل المدى ، لم تكن سلبا محضا ، إنما كان لها جانبها الايجابى ، كانت تمثل موقف

---

(٥١) أربعة عشر عاما ... ص ١٩٦ ... الخ

الرفض للتهاون والمساومة وانصاف الحلول، وتذكر دائما بالهدف البعيد ألا ينسى ، وكانت تمثل طاقة للرفض ، إذا كانت غير فاعلة، فيكفى أنها طاقة مختزنة مادامت لا تضلل ولا ترتد فى النهاية لتبرير الواقع وتثبيته . وكانت احتجاجا على نثريات الحياة السياسية ان لم يكن نشيطا فهو مختزن . والتاريخ لا يصنعه فرد ولا جماعة بعينها ولا جيل واحد . وهو شركة ومشاع بين الجميع وعلى تعاقب الأجيال . وعناصر أى حدث أو موقف ما ، ليس من المحتم أن تستجمع فى يد واحدة ، فردا كان أو مؤسسة . إنما تتداول بالاسهام المتبادل والتوليد المتعاقب لتتشكل بجهد مشترك ومستمر . وليس من المحتم فى التاريخ أن يكون الرافض هو الهادم والداعى هو البانى بنفسه . إنما الأمر يتداول ويبدأ الآخرون من حيث توقف الأول . وهى تجارب تتالى تستفيد اللاحقة من السابقة . والموقف غير المتحقق هو فعل في المآل على يد آخرين . وقد اختزن الحزب الوطنى من طاقة المعارضة الوطنية ومن موقف الرفض للمساومات . وتناول هذا الموقف منه جيل شباب الثلاثينات ليحول الخطو به خطوة أوسع . ثم جيل شباب الأربعينات ليصنع المزيد على التعاقب . وحفظ الرافعى ومن ماثله خلاصة نقية من فكرة أن الجلاء لا يتم بالمفاوضة وحدها .

روى أنه عندما غزا أبرهة الكعبة بجيشه وأفياله التى لا تقاوم ، ذهب إليه عبد المطلب جد النبى صلى الله عليه وسلم يطلب منه رد بعير له أخذها جنده ، وعجب أبرهة لشيخ العرب والكعبة يطلب بعيرا ولا يطلب البيت الحرام ، فقال عبد المطلب «أنا رب الأبل ، وللكعبة رب يحميها .» وعند مواجهة قوة لا تقاوم يرتد المرء ويرتد ، حتى لقد يقف عند حدود نفسه يدافع عنها ألا تنخذل أو تقتحم، يدافع عن إبله . ولعل الرافعى قد فعل شيئا شبيها ، عندما أحيط به وبمثاليته ، فحمل هدفه السياسى وعقيدته الوطنية فى نفسه ودافع عنهما ضنينا، وأخرج منهما خمسة عشر مجلدا فى تاريخ مصر، كانت هى إبله التى حفظها .

أما مصر فلها رب يحميها . وستتجلى فى شعبها يوما .

والحمد لله ..



أحمد حسين

من وجهة نظر التاريخ

(١)

ودع «احمد حسين» الدنيا ، ودنياه هي مصر بأعمق دلالاتها وأوسع روابطها ، مصر الوطنية والحضارة والعقيدة مصر العروبة والاسلام ، الازهر وكنيسة الاسكندرية وجامعة عين شمس كما كان يصفها .

لقد ودع بلده لكني لا اخال مصر ودعته وهي تشيعه لانه سيظل حاضراً في وجدانها وعقلها لا يغيب . ابن بار وخادم امين . ومجاهد لم يسكن عن الذود عنها . سواء فى عهد نشاطه السياسى قبل يوليو ١٩٥٢ عندما كان يذود عنها بيده أو بعد أن كفت حركة جسمه فكان يذود عنها بقلمه . واظنه فى رقدته بعد أن كفت حركة جسمه. كان يذود عنها بقلبه حتى سكن . رحم الله قلبا نبض بحب بلده ودفق فى الشرايين ماء الحماس لها. ودفع فى العضلات قوة الجهاد من اجلها .

ولد احمد حسين فى ١٩١٠ فهو من هذا الجيل الذى تفتح ادراكه على ثورة ١٩١٩ ، وعلى جموع المصريين تواجه رصاص الانجليز اقوى دول الارض وهى تهتف تحيا مصر ، الاستقلال أو الموت » .

ولم تأذن سنه له ولا لجيله بالاشتراك فى احداث الثورة ولكنهم رضعوا حليبها وجرت روحها فى نسيج اجسامهم وبقوا مهما تقدمت بهم السن خداما لبلد احبوه كأم ومجاهدين لوطن لم يرد على خاطرهم قط خيار بين استقلاله ونهضته وبين أى شىء آخر فى الحياة . يذهب الرجل إلى فسيح رحمة ربه . لا أظنه خلف قرشا ولكنه ترك آلافا من الصفحات خط نصفها بقلمه وخط باقيها بنشاطه .

وما كادت العشرينات تنتهى حتى بدا احمد حسين ورهط من الشباب نشاطهم السياسى بما سمي بحركة مشروع القرش .

فى مارس ١٩٣٠ ، كانت حركة شباب مثالى ومكافح،، استطاعت ان تلفت نظر الرأى العام بشدة فى ذلك الوقت ، وفى ظروف الازمة الاقتصادية العالمية التى دهمت المصريين فيمن دهمت وقتها . وقام المشروع على اساس التجييش القوى للمصريين بأن يسهموا بالتبرع فى بناء الصناعة الوطنية وكان هذا التصنيع رغم مثاليته - ارهاصا تقدم به الشباب ، بأن الاستقلال السياسى لابد أن يقوم على قاعدة من الاستقلال الاقتصادى والصناعة الوطنية .

وإذا كان المشروع لم يقدم أساسا لبناء الصناعة فقد اثار حماسا

ونبه إلى أمر مهم وكشفت حركة الشباب عن قصور « الاستقلال السياسى والدستور » كهدفين يقوم عليهما وحدهما صرح الوطن المستقر المناهض ونبهت الحركة الى أن الهيمنة الاقتصادية الاجنبية هى فى استعمار مصر صنو لجيش الاحتلال، لا تقل اهمية .

(٢)

- كان مشروع القرش من حركة الشباب فى الثلاثينات ، وهى من حركات الشباب التى عرفها التاريخ المصرى من قبل ومن بعد.. وعلى العموم فان حركات الشباب تنجم عادة عن حدوث تغيير أساسى فى الهياكل الاجتماعية يترتب عليه قيام الفجوة بين مجموع الهياكل الفكرية والتنظيمية القائمة وبين جموع من المتطلبات الجديدة .

أ - ومن ثم لا تصبح المؤسسات القائمة قادرة على تمثيل الحركة الاجتماعية الجديدة وعلى استيعابها، ولا يعنى ذلك مؤسسات الدولة وحدها انما يعنى ايضا المؤسسات الجماهيرية ذات الصدارة والمؤسسات والانساق الفكرية السائدة .

ب - تكون الظروف الاجتماعية قد استوجبت تصنيفا جديدا للقوى السياسية والاجتماعية. اذ تضمر بعض هذه القوى ، او تتغير التوازنات السياسية والاجتماعية القائمة .

جـ - تكون الظروف الاجتماعية قد استوجبت ظهور تيار سياسى او اجتماعى جديد، أو استوجبت ان يحتل مكانا بين التيارات الرائدة للرأى العام .

.لقد ظهرت اول تلك الحركات فى مصر وافتتحت فى فبراير ١٩٠٦ باضراب طلبة مدرسة الحقوق . ورغم نشاط مصطفى كامل وصحيفته اللواء قبل ذلك بسنين فلم يظهر «الحزب الوطنى» كتنظيم الا مواكبا لتلك الحركة وبه ظهرت قوى وطنية جديدة منظمة على مسرح الحياة السياسية لتشارك القوى القائمة وقتها وهى : الخديو ، الانجليز . الاعيان . تشاركها فى صياغة الرأى العام، ولتقدم صيغة جديدة للنشاط السياسى أساسها المطالبة بجلاء الاحتلال اعتمادا على القوى الذاتية للجماهير المصرية . وتكونت فى الاساس من مجموعة الافندية المثقفين.

- وظهرت ثانية فى ١٩٣٠ بحركة مشروع القرش.. ومنها ظهرت جمعية مصر الفتاة كتيار سياسي يقف على يسار حزب الوفد فى مطالبه الوطنية والاجتماعية ، وظهر تيار يدعو لتعديل الهياكل السياسية القائمة ويدعو لمبدأ الاستقلال الاقتصادي. ثم حركة الشباب بعد ذلك فى ١٩٤٦ .

★★★

كان مشروع القرش اعلانا لظهور تيار جديد اتخذ شكله التنظيمي بتأسيس «مصر الفتاة» في ۱۹۳۳ تنظيم يقوده احمد حسين ومن قادته «فتحي رضوان ومصطفى الوكيل» .. تيار لايقف عند حدود الاستقلال السياسي والدستور . ويتجاوز الصيغة السياسية لثورة ۱۹۱۹ من جملة نواح .

(٣)

في الثلاثينات كانت التيارات السياسية الوطنية في مصر استقطبت بين التيار القومي المصرى وعلى رأسه الوفد وبين التيار الإسلامي وعلى رأسه الاخوان المسلمون وجهد «مصر الفتاة» على أن يعمل بصيغة تضم الجامع الديني مع الجامع القومي في اطار واحد والجمع بين الدين والوطنية في نشاط سياسي متناسق ، فالاسلام جامع سياسي والمصرية جامعة لما عرف تاريخ مصر من اديان ولا حياة للوطن بغير دين ولا للدين بغير وطن . ويؤكد على أهمية الدين في بناء الفرد وتنظيم الجماعة وأهمية المصرية الجامعة لذوى الاديان من المصريين وينفتح على الانتماء العربي والتوجه للشعوب الاسلامية . ولايغفل صلة الدين بين كنيسة مصر ومسيحيي اثيوبيا .

كان ما يميز «مصر الفتاة» في دعاويه التي طلع بها على الرأى العام هو صيغة الجمع بين الدين والوطنية في اطار سياسي واحد. رفع

الدين كشعار سياسى وفى الوقت نفسه تصاعد بالمصرية الى درجة كبيرة فأكد ان كلمة المصرية هى العليا وأن مصر فوق الجميع وأن هدفه انشاء امبراطورية عظيمة تتألف من مصر والسودان وتحالف الدول العربية وتتزعم الاسلام .

أكد على ان الدين والوطنية هما ميدانا العمل السياسى . وافرد فى برنامجه بندا خاصا بالجهاد الاجتماعى فى الدين والاخلاق فدعا الى احترام الاديان وقداستها والارتقاء بالاخلاق ومحاربة الدعارة والخمور والتخنث . وصدر شعاره بلفظ الجلالة مقرونا بالوطن ثم بالملك .

والوطن عنده هو موئل الاديان .اذ خرجت من مصر الديانة الموسوية واحتمت بها المسيحية ثم ارتفع فيها لواء الاسلام بانشاء الازهر. ليقاوم اوروبا الصليبية ، وجهاد المجاهدين هو فى اعادة القداسة للدين وللاخلاق قوتها، ليعود المصرى قادرا على أن يصبو الى اكتمال المثل العليا، قادرا على أن يجاهد بالمال والروح فى سبيل الله . والدين ايضا هو مابه ترتقى العقيدة الوطنية وتسمو الى مصاف العقيدة ، الدين بهذا المفهوم الدينى الوطنى يربى الشباب على الجهاد ويحفظ به قوام الشخصية المناضلة، هذه هى السمة الاولى التى ظهر بها هذا التيار .

والسمة الثانية لـ «مصر الفتاة» انه بعد أن قرن الدين بالوطن قرنهما بمجموعة من الاهداف الاجتماعية والاقتصادية فطالب فى برنامجه بالغاء الامتيازات الاجنبية والمحاكم المختلطة وتمصير الشركات الاجنبية وجعل اللغة العربية هى اللغة الرسمية فى الحياة التجارية ، مع القضاء على أمية الفلاح المصرى وجهله وكفالة الرخاء له. ومع الارتقاء بالثروة الزراعية واستصلاح الاراضى وتعميم النظام التعاونى لاقراض الفلاحين ومدهم بالبذور والالات وبيع محصولاتهم ، مع فرض الحماية الجمركية للصناعات المصرية. وتمصير التجارة الداخلية ، بعدم التعامل الا مع التجار المصريين شراء واستهلاكا للمنتجات المصرية – وانشاء بنك مركزى للاصدار فضلا عن مجانية التعليم الابتدائى وتقليل نفقات التعليم الاعلى.

هنا نجد أن الجامع الاساسى لجميع هذه الاهداف هو التمصير تمصير كل الجوانب الاقتصادية والاجتماعية فى حياة المصريين والنهوض بمصر وطنا للمصريين .

تلك كانت المرحلة الاولى «لمصر الفتاة» التى تصل به الى عام ١٩٣٦ تقريبا، مرحلة جرت خلالها صياغة تيار سياسى يقرن الاستقلال السياسى ويقرن الوطنية بالدين ويستشرف الى وضع مصر بين جاراتها العربية. والمرحلة تتميز ايضا بالصراع مع الوفد صراعا ادى

بمصر الفتاة الى توجيه اعنف هجماته الى الوفد. وأدى به الى ان يتلقي من الوفد أشد الضربات وكان الوفد يضم الكتلة الاساسية التقليدية للرأى العام الوطني الديمقراطي وقتها. وقد أدى هذا الصراع الى أن يجنح «مصر الفتاة» بعيدا عن المطالب الديمقراطية التى تمثلت وقتها فى الدفاع عن النظام النيابى ذى الاحزاب المتعددة .

المرحلة الثانية في تاريخ مصر الفتاة تقع تقريبا بين ١٩٣٦ وبدايات الحرب العالمية الثانية وهى تتميز بصعود التوجه الاسلامى لدى الحزب الى ما يعتبر قمة ما وصل اليه مصر الفتاة في الدعوة السياسية الدينية.

لقد عرفت مصر فى الثلاثينات نمو التيار السياسى الاسلامى. وانتعاش روح المقاومة الاسلامية كعامل سياسي وكجامعة سياسية وكان ظهور الاخوان المسلمين ونموهم السريع في هذه الفترة شهادة واضحة على ذلك .

ويرجع ذلك الى النشاط التبشيرى الذى استفز مشاعر المسلمين فى البلاد الاسلامية عامة والى اتصال هذا النشاط بالسياسة الاستعمارية وضرباتها القوية السريعة وخاصة فى بلاد المغرب العربى، كما يعود بطبيعة الحال الى أحداث فلسطين والسياسة

الاستعمارية الصهيـونية لتـوطين اليـهود هناك والى اسبـاب اخرى لامجال هنا لتفصيلها .

إن مايهمنا هنا فى تطور «مصـر الفتاة» فى هذه الفترة أمران : الاول هو مـاافضت اليه السياسـة الاستعمارية الصهيونية فى فلسطين منذ احـداث حـائط البـراق ١٩٢٩ ممـا أدى الى استـفـزاز العـواطف الاسلامية لدى المصريين واستشعارهم ان الخطر الاستعمارى لا ينبعث فقط من احتلال البريطانيين لمصر. ولكنه يرد فى صورة استيلاء اليهود على الاراضى المقدسـة وطرد العـرب والمسلمين منهـا والتـهديد الدائم لمصر من هذا الوضع لانتمائها العربى والاسلامى، مما أدى الى انعاش المخزون القديم للجامعة الاسلامية كانتماء مصيرى تدفع به مصـر عن نفسـها الاخطار كمـا كانت هذه الاحداث من اسباب تصاعد الاتجاه الاسلامى الدينى بعامة .

والأمـــر الثانى هو ابـرام معاهدة ١٩٣٦ واتفـاقية مـونترو ١٩٣٧ التى ألغت الامـتيـازات الاجنبية .. إذ بدأت الكتلة الاساسـية من الرأى العام.. المصـرى تتجه أنظارهـا الى المشكلات الاقتصـادية والاجتماعية وتميزت التيارات السـياسية بما تطرحه من هذه المشكلات وما تقترحه من حلول لها، وفقا للاوضـاع الطبقية والاجتماعية لكل من هذه التيارات ومفكريها.

وكانت حركة الشباب تجد انتشارها أساسا بين شباب الطلبة وحديثى التخرج وصغار الموظفين والمهنيين وتمثلت الازمة الاجتماعية الاساسية لهؤلاء وقتها فى ضيق فرص التوظيف والعمالة وماسمى وقتها بمشكلة البطالة بين المتعلمين، وفى انخفاض الرواتب والدخول وافصحت الازمة عن نفسها بمجموعة ضخمة من اضرابات طلبة الكليات والمعاهد العليا فى ١٩٣٨، طلبا لاتساع فرص التوظيف وتحسينا للرواتب .

(٤)

وكان هذا الوضع مما يؤثر على نظرة مصر الفتاة فى طرح المشكلات والبحث عن الحلول ولقد لوحظ على شعارات مصر الفتاة وقتها اهتمام واضح بالمشكلات الاجتماعية وبالفوارق الكبيرة بين الدخول والثروات وبين الاغنياء والفقراء ودعوة إلى العدالة الاجتماعية وإلى المساواة تكاد تتواكب مع دعوته إلى مكارم الاخلاق وترابط ذلك جميعه مع مبادىء العدالة الاجتماعية التى اتبعت فى الصدر الاول فى الاسلام على ايدى الخلفاء الراشدين فجاء التجييش عن العدالة الاجتماعية مقرونا بالنزعة الدينية .

ومع هذين العاملين حاول «مصر الفتاة» استيعاب حركة الاخوان أو الاندماج فيها ليقوم تنظيم واحد يستوعب التيار الاسلامى النامى، ولم

يكتب لهذه المحاولة النجاح فاعاد الحزب صياغة برنامجه تحت اسم «الحزب الوطنى الاسلامى» تضمنت اهم اهدافه تحرير مصر والسودان وتحقيق الوحدة العربية بين جميع الدول العربية بتوحيد سياساتها الخارجية ودفاعها الوطنى وثقافتها والغاء الحواجز الجمركية بينها بالتخفيض التدريجى لها. ومكافحة الاستعمار وتحرير البلاد الاسلامية. وتحقيق الجامعة الاسلامية الروحية. واحياء مجد الاسلام ونشر رسالته في ارجاء العالمين، وأن وسيلة الحزب هى تحقيق هذه الغايات خلال خمس سنوات من الوصول الى الحكم بالطرق المشروعة. ومن أهمها الكسب فى الانتخابات العامة. وأنه يروم نشر العدالة الاجتماعية بين طبقات الشعب «متخذا لذلك الشريعة الاسلامية واحكامها السامية اساسا لهذا البناء» .

وعرض البرنامج لتعديل التشريعات والدستور بأن تستمد القوانين كل أصولها مع الشريعة «أو بما لا يتعارض مع الشريعة» ويتخذ الدستور من قواعد الاسلام «على اساس الحرية والمساواة والشورى» وأن تعاد صياغة القوانين من الشريعة او بما لا يتعارض معها بواسطة مجمع من العلماء يمثل جميع مذاهب المسلمين والقضاء الشرعى والقضاء المدنى وفقهاء القانون الوضعى مع توحيد القضاء والقانون على

الكافة - مصريين وأجانب فيما - عدا مسائل الاحوال الشخصية لغير المسلمين .

وكانت مزية هذا البرنامج انه لم يقصر دعوته الاسلامية على اهداف عامة ومجردة تتعلق بتطبيق الشريعة بصورة عامة.. ولكنه ربط هذه الدعوة بمجمل من الاهداف الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التى تمس الاوضاع الراهنة وقتها. وهو برنامج يدور فى الاطار الذى بدأت به حركة «مصر الفتاة» وهو اقتران الدين بالوطنية بالعدالة الاجتماعية .

ومما يلحظ على نشاط «مصر الفتاة» فى تلك المرحلة انه كانت أوضح صفاته هى كونه تيارا متمردا يجهد فى طرح صياغات سياسية جديدة ويقتحم بها ما استقر من الاعراف فى الحياة السياسية. ويجهد فى تجريب صياغات تتسم بالنزعة التوفيقية وتكون قادرة على التعبئة والحشد والتجميع . ولكن أظهر عيوبه كان اتسامه بالجيشان اكثر مما يمتاز بالبناء الصلب. وقد فرضت عليه نزعته التجريبية قدرا من القلق السياسى اضعف ثباته الفكرى. وانه كان يستند الى الزعامة الفردية كنواة جامعة يستعيض بها عن الوجود التنظيمى القوى . او على الاقل يتضاءل إزاءها هذا الوجود التنظيمى ولعل هذا ما ألجأ «مصر الفتاة» وقتها الى التركيز على التجييش العاطفى المستمر والى اثارة الرأى العام فترة من الوقت .

وقد انتهت هذه المرحلة بما عاناه الحزب من ضغوط الاحكام العرفية التي فرضت مع قيام الحرب العالمية وتعقب السلطات لأحمد حسين وقادة الحزب ورجاله باجراءات القمع والمطاردة فاعتقل الكثيرون من رجال الحزب وتخفى احمد حسين عن أعين الشرطة زمنا.. وكانت هذه التجربة هي ما أدى فيما بعد الى اهتمام احمد حسين و«مصر الفتاة» بالمطلب الديمقراطي على ما يظهر من مسلكه السياسي خلال الاربعينيات.

(٥)

وتتمثل المرحلة الثالثة لمصر الفتاة فى فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية الى قيام ثوة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ انها فترة تصاعد حركات التحرر الوطني فى بلدان اسيا وافريقيا ضد الاستعمار فى ظروف دولية قامت فيها نظم اشتراكية ونمت فيها ثورات ترفع لواء الاشتراكية فى بلدان عديدة. وانتشر الفكر الاشتراكي بين حركات التحرر .

وقد أمضى احمد حسين و«مصر الفتاة» بعد الحرب فترة لتفهم الاوضاع الداخلية والخارجية التى اسفرت عنها ظروف ما بعد الحرب واصدر برنامجا جديدا عام ١٩٤٨ لمصر الفتاة ثم عاجله سنة ١٩٤٩ ببرنامج آخر تضمن ما استقر عليه من مبادىء واهداف تحت اسم

«حزب مصر الاشتراكي» وبه انطلق في نشاط سياسي عنيف خلال السنوات التالية التي انتهت بثورة ٢٣ يوليو.

واهم ما دلل به حزب مصر الاشتراكي على نفسه انه ادرك الازمة السياسية للنظام القائم وأن الظرف التاريخي يواتي بالتغيير . كان شعار «مصر الفتاة» من قبل « الله الوطن .. الملك » فعدل الحزب الاشتراكي عن هذا الشعار الى « الله الشعب » ودلل بذلك على التوجه إلى خارج الإطار العام للنظام السياسي والاجتماعي القائم . وطالب بتحديد الملكية بخمسين فدانا وتوزيع الزائد على صغار الفلاحين وتأميم مصادر الانتاج الكبرى والصناعات الرئيسية وانشاء الدولة للجديد منها حتى تكون مملوكة للمجموع وحتى يحل الانتاج الجماعي محل الانتاج الفردي.. وكل ذلك وفقا لخطط ومشروعات شاملة تضعها الدولة. مع اعادة توزيع الثروة بحيث لا يزيد دخل الفرد علي خمسة الاف سنويا ولا يقل عن ثلاثمائة.

.كما أكد على تحرير وادي النيل من الاستعمار والعمل على توحيد الشعوب العربية، مع رفض اسلوب المفاوض كوسيلة لتحقيق الاستقلال ورفض مبدأ التحالف مع الدول الاستعمارية وطالب بأوسع قدر من انطلاق الحريات. فقرن الاهداف الاجتماعية بالمطالب الوطنية

والديمقـراطية بالمطـالب الوطنية والديمقراطية كعملية سياسية واحدة. مما يذكر بما عـرف فيما بعد الى الادب الاشتراكى باسم الطريق غير الرأسمالى لحركات التحرر ، حيث تقوض حركات التحرر النظـام الرأسمالى فى ذات العملية التى تصفى فيها الاستعمار .

وعندما فاز ابراهيم شكرى بعضوية مجلس الشعب عن الحزب الاشتراكى فى ١٩٥٠ تقدم للمجلس بمشروعات قوانين لتحديد الملكية بخمسين فدانا . والغـاء الرتب والالقـاب وغير ذلك مما كان الحزب يكافح له.

(٦)

كل ذلك معروف عن الحزب الاشتراكى فى تلك الفترة على أن مايهمنى ايضاحه هنا نقطتان اولا انه فى تبنيه للاشتراكية لم يبتعد عن نزعته الدينية إنما قرن الاثنين كما قرن من قبل الوطنية بالدين .

وقد ذكر ان الاشتراكية هى من صميم الاسلام ولب دعوته وأن الدين اساسها. وأن الايمـان بالله وعبادته هو اساس الاجتماع البشرى وأن عبادة الله تتجلى فى خدمة الشعب وتحريره من الخوف والجهل والمرض والعوز ، وحمايته من القهر والاعنات والاستغلال

وانعكس هذا الفهم فى موقفه من الحركة الاسلامية فبقى يعتبرها حركة تقدمية تعبر عن الثورية والكفاح ضد الاستعمار . وضد الطغيان والفساد لان الاسلام بحسبانه دينا ودولة يتعارض مع الاستعمار والفوارق الاجتماعية ويحقق اقصى ماتطالب به الاشتراكية والديمقراطية . واعتاد الحزب ان يرفع شعار أن الاسلام يحرم الربا فهو يحرم الرأسمالية .

النقطة الثانية هى أن الحزب الاشتراكى كان من اكثر التنظيمات السياسية استجابة لمطلب تكوين جبهة تضم التنظيمات الثورية والوطنية جميعا، وجاهد فى نشاطه العملى للدعوة لها. وكما كان يطالب فى الثلاثينات بأن يصلى المسلم فى جامعه والمسيحى فى كنيسته ليتمسك كل ذى دين بدينه، صار يدعو الى ان ينضم كل مصرى الى الجماعة السياسية الاقرب لتحقيق ما يصبو اليه سواء كانت الحزب الاشتراكى أو الاخوان المسلمين أو انصار السلام أو غيرها، على أن تتكتل هذه الهيئات كلها لتحقيق الاهداف الوطنية والشعبية وكان يحرص فى مؤتمراته على دعوة من يمثلون التيارات السياسية المختلفة وكان تبنيه لطبيعة الدعوة الاسلامية مما يجعله همزة الوصل الاساسية بينها وبين التيارات الوطنية والثورية الاخرى فى تلك الفترة .

على أن خصومة «مصر الفتاة» التقليدية للوفد منذ الثلاثينات ، هذه الخصومة لم يتمكن الحزب الاشتراكى بنزوعه الى الجبهة من أن يتخلص منها فى الفترة الأخيرة .

ومن ناحية أخرى. فان الحزب ساهم فى التجييش العنيف للجماهير تجييشا فاق كل حدود المقدرة التنظيمية والتحكم التنظيمى فى مسار هذه الحركة واتسم الحزب الاشتراكى بما اتصف به «مصر الفتاة» من قبل من الاعتماد على الزعامة الفردية مع الضعف النسبى بالتكوين التنظيمى فى سياق الحجم الكبير للتجييش والتعبئة الحاصلة. ولعل هذا ما ادى الى أنه عندما انفلتت السلطة من القابضين عليها فى فترة الغاء المعاهدة وكفاح القتال. انفلتت ايضا السيطرة على الاحداث من جانب التنظيمات السياسية المختلفة ومنها الحزب الاشتراكى فكان حريق القاهرة وكانت بعده فترة الاظلام الدامس التى ضربت فيها الحركات الشعبية وصفيت حركة المقاومة حتى قام الضباط الاحرار بحركتهم فى ٢٣ يوليو .

لم يكن كل ذلك من احمد حسين وحزبه مجرد برامج تكتب او صحافة تصدر او مؤتمرات تعقد . كان كل ذلك يجرى فى عملية صراع تستدعى الجهد والكفاح ومقاومة السلطات ومصادرة الصحف وتعقب

الرجال وكان تيارا يجتهد فى المزج بين الاصول الحضارية والاوضاع المحلية وبين وجوه الاصلاح للواقع المعاش. بأسلوب للتوفيق كان علامة على «مصر الفتاة» .

وإن المطالعين للتاريخ المصرى قد يلحظون صلة استمرار تاريخية بين الحزب الوطنى على عهد مصطفى كامل ومحمد فريد وبين مصر الفتاة ثم حزب مصر الفتاة وحزب مصر الاشتراكى والحزب الوطنى الجديد فى الاربعينيات الذى قاده فتحى رضوان ولعلهم ايضا يلحظون الصلة التاريخية ورابط التأثر بين هذا التيار التاريخى وبين السياسات التى بلورتها ونادت بها ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ من بعد.. وكان من رجال الثورة من سبق أن اندرج فى حركة شباب الثلاثينات من قبل وتشكلت على وفقها نظرته السياسية .

(٧)

إن أحمد حسين الذى مورست معه اجراءات القمع فى الثلاثينات وتعقبته الشرطة اثناء الحرب خاض مع غيره من التنظيمات الوطنية اعنف معركة ضد الاستعمار والنظام الملكى فى ١٩٥٠ - ١٩٥١ ، احمد حسين الذى قدمته حكومة الملك فى مايو ١٩٥٢ الى المحاكمة طالبة اعدامه فى قضية حريق القاهرة . استمات المحامون والرأى العام

ليفلتوا رقبته من حبل المشنقة. حتى سقط الملك في ٢٦ يوليو ١٩٥٢ فأفرج عنه .

لقد توقف النشاط السياسي العملي لاحمد حسين مع حل الاحزاب جميعها عام ١٩٥٣ وكانت سنه لا تجاوز ٤٢ عاما ، قضى اكثر من نصفها يدور على مسرح السياسة بنشاط لا يكل. ثم انصرف في السنوات الثلاثين التالية الى الكتابة، يدون مذكراته السياسية في شكل كتاب ومقالات وروايات. ويكتب في التاريخ المصرى الذى اصدر فيه - فيما اصدر - اربعة مجلدات ويفسر القرآن الكريم. ومن ذلك ما كان يكتبه شهريا في منبر الاسلام .

وأصدر عشرات من الكتب، ولم يستطع الشلل شبه الكلى الذى أصيب به من ١٩٦٩ ، أن يوقف نشاط هذا الزجل العجيب. ذى الايمان والارادة وظل نظره يفحص وفكره يعمل ويده تدون مابقي قلبه ينبض .

وبدأ يقل في كتاباته الأخيرة.. لا لأن إرادته وهنت. ولكن لأنه لم يعد يريد ، لعله رأى في زماننا ما اشعره بالألم الكبير او ما تمنى أن لم يره.

هذا رجل سلك الى مكانه بين أبناء مصر الكبار، وسيبقى معهم في ضمير المصريين حيا، وسيجيء أمثالهم بإذن الله .

الحمد لله ..

الفهرس

صدر الجزء الرابع من موسوعة:

شخصية مصر

عبد الوهاب

تأليف: د. جمال حمدان

الثمن ٣٥ جنيهًا

اطلبوا الأجزاء الأربعة من مكتبات دار الهلال

مكتبة دار الهلال بالقاهرة: ١٦ ش عز العرب / السيدة زينب

" " بالأسكندرية: ٢٥ شارع النبي دانيال

" " بطنطا: عمارة الأوقاف / ميدان المحطة

" " بالمنصورة: ٥ ش سليمان البربري / ميدان المحطة

واطلبوها أيضا من المكتبات الكبرى ومكتبات الأهرام

الهـــلال

المجلة الثقافية الأولى فى مصــر والعالـم العربى
ديسمبر ١٩٩٦ .. تقـرأ فيهـــا .

فكر وثقافة

رئيس مجلس الإدارة | رئيس التحرير

مكرم محمد أحمد | **مصطفى نبيل**

روايات الهلال تقدم

زينة الحياة

بقلم

أهداف سويف

تصدر ١٥ ديسمبر ١٩٩٦

رقم الايداع
١٣١٩١ / ٩٦
I . S . B . N
977 - 07 - 0511 - X

هذا الكتاب

كتاب «شخصيات تاريخية» ، يقدم أربع شخصيات ، سعد زغلول ومصطفى النحاس وعبد الرحمن الرافعى وأحمد حسين ، يتناولها الكاتب الكبير طارق البشرى ، بنظرته التاريخية الثاقبة ، بعد أن احتل مكانة بارزة كمفكر عربى مرموق .

وأضاف إلى المكتبة العربية العديد من الكتب المهمة ، «الحركة السياسية فى مصر ١٩٤٥ - ١٩٥٢ » المسلمون والأقباط» ، «الديمقراطية ونظام ٢٣ يوليو» ، وغيرها .

يكتب عن مصطفى النحاس مرثية حزينة مشحونة بالشجن : «فازت ذكرى سعد زغلول بكتاب عن حياته يحرره عباس العقاد ، .. أما النحاس فلم يتوافر له من معاصريه رجال يقومون به» .. وكان النحاس خليفة سعد زغلول وأقل حظا منه ، ولم يستطع النحاس أن يهيىء من نفسه ما يقوم به بدور المجدد فى ظروف ما طرحه الواقع بعد الحرب العالمية الثانية .. لقد مات سعد فى ١٩٢٧ إبان مجده وفى عز حزبه ورجاله ، بينما مات النحاس فى ١٩٦٥ بعد أن أقصى عن الحياة السياسية ، وصفى حزبه ، وتجاوزت الأحداث حركته . رغم أن ما عانى النحاس وضحى أكثر مما أصاب سعداً .

ونجد هذا الذى ملأ دنيا المصريين وشغل الناس ، معزولاً لا يرى إلا أفراداً قليلين يمازحهم ويلعب معهم النرد ، وقد جاوز الثمانين ، نقرأ ذلك فلا نملك منع دمعة صادقة تسيل ، نمسحها وندعو له جزاء ما نفع أمته .

حقا .. إن ما يبقى من التاريخ حاضراً وحيا ، هو الوعى بآثاره سلبا وايجاباً .

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) ٤٥ جنيها داخل ج . م .ع تسدد مقدما نقدا أو بحوالة بريدية غير حكومية - البلاد العربية ٣٠ دولارا - امريكا واوربا واسيا وافريقيا ٤٠ دولارا - باقى دول العالم ٥٠ دولارا .

القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لآمر مؤسسة دار الهلال ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد .

● وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

الكويت . السيد / عبدالعال بسيونى زغلول ، الصفاة - ص . ب رقم ٢١٨٣٣

للحصول على نسخ من كتاب الهلال اتصل بالتلكس : 92703 Hilal.V.N

حيرة عربي وحيرة يهودي

مصطفى الحسيني ○ ايزاك دويتشر

كتاب الهلال

سلسلة شهرية تصدر عن دار الهلال



KITAB
AL-HILAL

الاصدار الأول
يونيو ١٩٥١

مكرم محمد أحمد رئيس مجلس الإدارة
عبد الحميد حمروش نائب رئيس مجلس الإدارة

مركز الإدارة

دار الهلال ١٦ ش محمد عز العرب. تليفون: ٣٦٢٥٤٥٠ سبعة خطوط

العدد ٥٥٣ - شعبان - يناير ١٩٩٧ NO. 553- JA-1997

فاكس FAX-3625469

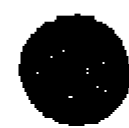
مصطفى نبيل رئيس التحرير
عادل عبد الصمد سكرتير التحرير

أسعار بيع العدد فئة ٤٠٠ قرش

سوريا ١٣٠ ليرة - لبنان ٨٠٠ ليرة - الأردن ٣٠٠٠ فلس
الكويت ١٥٠٠ فلس - السعودية ١٥ ريالا

حيرة عربيّ
وحيرة يهودى

مصطفى الحسينى
ايزاك دويتشر



دار الهلال

الغلاف للفنان

محمد العيسوى

تمهيد

يتألف هذا الكتاب من قسمين :

القسم الأول : مستقبل اسرائيل ، وصاحبه هو كاتب هذا التمهيد ، ويضم فصولا أربعة ، لا تتناول كلها موضوع العنوان تناولا مباشرا ، وإن كان ليس فيها ما هو مقطوع الصلة به .

وقد كتبت هذه الفصول ونشرت متفرقة على مدى الأعوام فيما بين ١٩٨٨ و ١٩٩٦ . وقد آثرت أن أنشرها كما هي ، دون أن أعيد النظر فيها ، لأنني اعتبرتها جزءا من ثبت تاريخي الشخصي (الذى قد لا يعنى أحدا غيرى) ، ومع ذلك فإنه لغرض هذا الكتاب كان عليَّ أن أقحم على القارىء لمحة من هذا التاريخ الشخصي ، لأنني أعرض عليه ما استطعت أن أمسك بأطرافه من عناصر حيرتي حيال موضوع قدرت أنه يعنيه ، لانه بالضرورة يعنينا جميعا ، أو يجب أن يعنينا جميعا ، هو القضية الفلسطينية .

أما القسم الثاني : اليهودى اللا يهودى (*) ، فمؤلفه هو المفكر

(*) نشرت الطبعة الأولى من هذه الترجمة عن دار الحقيقة فى بيروت فى ١٩٧١ ، تحت عنوان : «دراسات فى المسألة اليهودية» .
وقد اخترت هذا العنوان فى ذلك الحين ، مع إثبات العنوان الأصلى داخل الكتاب ، تجنبا لافتقار عبارة «اليهودى اللايهودى» للسلاسة اللازمة لعنوان كتاب باللغة العربية .

اليهودى البولندى الأصل البريطاني الجنسية اسحق دويتشر ، ويضم فصولا متفرقة نشرت فيما بين العام ١٩٤٦ والعام ١٩٦٧ ، أى قبل وفاة المؤلف بأشهر قلائل . وقد جمعت زوجته هذه المتفرقات ونشرتها فى كتاب بعد وفاته .

وفوق مسئوليتى عن ما كتبت فى القسم الأول ، اتحمل مسئولية اختيارى لكتاب دويتشر هذا وترجمته والسعى إلى نشره ، وأتحمل ايضا مسئولية إعداد هذين القسمين للنشر فى كتاب واحد .

وهى مسئولية تحتاج إلى تفسير وربما إلى تبرير ، قد يجدهما القارىء فى سياق القسم الأول من الكتاب ، وقد يلمسهما فى الكتاب بقسميه .

وإن كان ثمة ما يضاف فى هذا الشأن ، فهو أننى اعتبر ما كتبته هنا نوعا من التفكير على الملأ ، أو حسب العبارة الشائعة نوعا من التفكير بصوت عالٍ فى القضية الفلسطينية وأننى رأيت فيما كتبه دويتشر واخترت أن اترجمه إلى العربية نوعا من التفكير بصوت عالٍ فى المسألة اليهودية .

وقد شاءت أحداث التاريخ أو مآسيه أن تتشابك القضية الفلسطينية والمسألة اليهودية على نحو يبدو أن لا فكـــاك له ، إلى حد أن أصبح حل أى منهما مرتبطا إما بحل الأخرى ، أو بإشعالها أو بزيادتها تعقيـــدا .

وأعرف أن مسألة التفكير بصوت عال تجعل القارىء يرتاب في أن الكاتب يسوقها إما ذريعة لنشر أفكار أو اراء قد تكون قليلة الحظ من القبول العام ، أو أن الكاتب يريد بها أن يتحوط للتراجع عن ما كتب ، ودون حرج .

وقد يصدق هذا على ما كتبت هنا ، بعضه أو كله ، غير أنى لا أرى فى هذا نقيصة فى الكتابة .

فما أردته هو أن اشرك القارىء فى حيرتى التى أصفها فى بعض ما كتبت .

مصطفى الحسينى

١٩٩٦

القسم الأول :

مستقبل اسرائيل

الفصل الأول

مستقبل إسرائيل

أي مستقبل ؟

فإسرائيل تصف نفسها ويصفها أصدقاؤها بأنها «الدولة اليهودية» بينما كان حلم الحركة الصهيونية التى أقامتها أن تكون «دولة اليهود»، الدولة التي يهاجر إليها اليهود كلهم من أطراف الأرض أو على قولها «يعودون» ليبنوا دولتهم ، فيصبحوا «شعبا كسائر الشعوب وأمة بين الأمم» .

بعد أربعين سنة من إقامة الدولة «عاد إلى صهيون» من كل أربعة يهود واحد ، وبقي ثلاثة حيث هم ، ومن هاجر منهم فمن «منفى إلى منفى » فالعالم الواسع عند الصهاينة هو المنفى . بل أنهم لا يريدون العودة ، بل إنهم يصلّون كل يوم ثلاثاء «من أجل العودة إلى صهيون» دون نية العودة . وكيف يصبحون «شعبا كسائر الشعوب» بينما ثلاثة أرباع «الشعب» يحملون جوازات سفر دول العالم أو معظمها ، وبينما نسبة غير قليلة من «مواطنى» الدولة يحملون أيضا جوازات سفر دول

أخرى ؟ بينما تعداد اليهود الذين يعيشون في الدولة يزيد قليلا عن نصف تعداد اليهود الذين يعيشون في مدينة واحدة ، نيويورك ، حتى أن الصهيوني الأمريكي البارز «لوم ديان» قال عنها وعن إسرائيل إنه «إذا كانت اسرائيل هي مركز العالم اليهودي فإن نيويورك هي مصدر وجوده وليس فقط بعدد يهودها وإنما بأموالهم التي يمدون بها إسرائيل وبنفوذهم الذي يحميها» .

وكيف يصبحون «أمة بين الأمم» بينما دولتهم وبعد أربعين عاما منذ أقاموها ، مازال شغلها اليومي هو الدفاع عن شرعيتها ، عن بشرعية وجودها وعن شرعية سلوكها معا ، وبينما مازال مطلبها الذي ترفعه كل يوم .. ومن موقع القوة ! هو المطالبة «بالاعتراف بحقها في الوجود» .

حتى علم الآثار ، الذي عرفه العالم استجلاء لغابر التاريخ وكشفا عنه ، أصبح في الدولة اليهودية «أداة لإثبات الوجود» حتى قال فيها الكاتب الأمريكي الفذ جور فيدال « أنها دولة أثرية ، في حرب مع جيرانها جميعا ، لا تحب العالم وبالتالي لا يحبها » .

فأي مستقبل ؟

مفارقات الشتات

وأصبحت المفارقات في علاقة «الدولة اليهودية » مع يهود العالم أكثر من التوافقات أو أغلب .

فإذا كان لإسرائيل أن تصبح «دولة اليهود» فعلى يهود العالم أن

يهاجروا إليها . بل بغير هذه الهجرة ، فإنه حتى «الدولة اليهودية» قد لا تبقى .

لكنه إذا كان «للدولة اليهودية » أن تقوى لكى تبقى ، فعلى يهود العالم أن يبقوا حيث هم يمدونها بالمال ويذودون عنها بالنفوذ .

فأى مستقبل ؟

أى مستقبل لهذه الدولة التى نزح منها ، حسب أكثر تقديراتها الرسمية اعتدالا، واحد من كل عشرة من سكانها اليهود فى السنوات العشرين الأخيرة ، ناهيك عن أن هؤلاء النازحين ، فى أغلبهم ، هم الأكثر فتوة (فئات الأعمار بين ٢٥ و ٤٠ سنة) والأكثر كفاءة .

(فى الولايات المتحدة وحدها ٣٢ ألف أكاديمى و ٨ آلاف مهندس يهود ، والأكثر قدرة على الإبداع والانجاز والأوفر مبادرة نازحين من إسرائيل) .

وأى مستقبل لهذه «الدولة» التى تعرف أن طوق نجاتها الوحيد من الغرق فى المحيط العربى الذى أصبح فى داخلها هو المزيد من الهجرة اليهودية ، ودعك من أن اليهود لا يهاجرون إليها ولا يريدون ، المسألة أن اليهود فى العالم كله يتناقصون . فتعدادهم فى عالم اليوم يقارب ١٣ مليونا حسب احصاءات المنظمة الصهيونية العالمية ، وحسب تقديرها سيصبح تعدادهم بعد ٢١ سنة فى سنة ٢٠٠٠ حوالى ٩ ملايين .

أى مستقبل لدولة معين سكانها ينضب ؟

دولة خيبة الأمل

وهذه دولة الآمال الخائبة ، فضلا عن الأحلام الضائعة .

فإذا كانت الصهيونية قد قنعت من حلم دولة اليهود بواقع الدولة اليهودية فهذا حلم ضائع ، أما الآمال الخائبة فهى آمال هؤلاء اليهود المتدينين الذين ظنوا «العودة إلى صهيون» كفيلة لهم بـ «حياة يهودية كاملة» فوجدوا أنفسهم مواطنى دولة حكامها يجاهرون بالالحاد ، ويحددون اليهودية بأنها تمايز اليهود عن الأغيار ، ويسعون إلى إحلال القومية التى لم يعرفها اليهود من قبل ، محل الدين الذين عاشوا القرون وعبروها واخترقوها يحملونه فى وجدانهم ، وإذا بالصهاينة يفشلون فى خلق الأمة ويضيقون الخناق على الدين الذى يراه هؤلاء المتدينون ويريدونه دينا كسائر الأديان .

وخابت أيضا آمال من داعبتهم أحلام صهيونية اشتراكية تصحح وضع الهرم الاجتماعى اليهودى المقلوب فى الشتات ، وتعيد اليهود إلى قيمة العمل أو تعيد قيمة العمل إلى اليهود كما قال فيلسوفهم بوروخوف، فانشقوا أو تابعوا انشقاق اسلافهم عمًّا كانوا فى صفوفه وأحيانا فى طلائعه من حركات اشتراكية وأحزاب ، ليقيموا اشتراكيتهم على أرض إسرائيل ، فلا يمضى وقت طويل حتى ينهار الحلم ، ويرون الكيبوتز ، صورتهم المثالية للمستوطنة الاشتراكية ، يبتلعه اقتصاد السوق، وإذا عماده ليس العمل اليهودى الذى عادت قيمته .

إلى اليهود أو عادوا إليها إنما عماده عمل مأجور ملوث بالتمييز العرقي .

يستخدمون العرب الذين أفقروهم ويميزون اليهود عليهم فى الأجر والرعاية ، بل ويستخدمون المهاجرين اليهود الذين جاءوا من بلاد العرب، وأيضا يميزون أنفسهم عليهم فى السلطة التى اتتهم من ملكية الكيبوتز الجماعية الاشتراكية ، ويتحول أبناء الكيبوتز أو أصحابه إلى نخبة أسبرطية تتمتع بالامتيازات وتتميز بالصلف وتتيه بالزهو على من سواها من المواطنين بأنها الأكثر ولاء للدولة وكأن لها على ولائهم مطعناً .

وأيضا خابت آمال هؤلاء اليهود الذين هاجروا من بلاد العرب ، حيث كانوا – معظمهم – فى صفوف طبقاتها الوسطى ، أو كانوا متميزين فى تلك الطبقات ، وما لبثوا أن وجدوا أغلبيتهم فى الدولة اليهودية محصورة فى قاع المجتمع ، دون فرصة تذكر للنمو أو للصعود أو للانتقال ، فهذه دولة أقامها يهود أوربا لأنفسهم وعلى هيئتهم وقياسهم ، وعلى من يريد الصعود من سواهم فعليه أن يتماثل معهم ، ينضو عنه تراثه وثقافته ويهوديته الشرقية الأصلية ويرتدى يهودية أخرى غريبة وغربية ، نمت أو بالأحرى تعوق نموها ، فى أحياء اليهود المعزولة فى مدن أوروبا وأصبحوا ، هؤلاء اليهود الشرقيون ولا يسمعون عن ثقافتهم بل وعن يهوديتهم إلا الزراية بينما لا يرون فيها

ما يزرى ، فهى توصف بألسنة يهود المعازل الأوروبية بأنها شرقية وبأنها عربية ولذلك فهى لزوما متخلفة ، بينما الذى يميز إسرائيل هو تفوقها النوعى على العرب الذى هو ضمان أمن اسرائيل ، ناهيك عن بقائها .

فأى خيبة للآمال !

اليهود يضطهدون اليهود

وبررت الحركة الصهيونية حلم «دولة اليهود» الذى اختزله الواقع إلى «دولة يهودية» بأن هدفها ومسعاها ومبررها هو «تحرير اليهود » فإذا الدولة اليهودية هى أكبر مستودع فى العالم للتفرقة والتمييز ضد اليهود!

ففى الجيش الاسرائيلى ما يسمى خريطة عمليانية (أى غير رسمية) للأمن الطائفى ؛ على أساسها يعامل الجيش جنوده اليهود . وتقسمهم الخريطة إلى الفئتين المعروفتين : الاشكناز أى اليهود الأوروبيين والسفارديم أى اليهود الشرقيين ، وتعتبر هذه الخريطة أن الفئة الأولى أكثر ولاء للدولة ، وأكثر كفاءة وبالتالى فمن المفروض أن تشكل هيكل الجيش والمؤسسة الأمنية كلها ، بينما تعترف للفئة الثانية بالولاء الشديد للدولة ، لكنها تراها ذات كفاءات غير مستوية ، وبالتالى فمهمتها أن تزود الجيش ومؤسسة الأمن بالطاقة البشرية الكبيرة الحيوية لمهمات الأمن ، أى بالوقود البشرى .

وطبقا لهذه الخريطة ، كان ٦٧ ٪ من الأنفار وضباط الصف فى الجيش الإسرائيلى فى أواخر السبعينات من السفارديم ، بينما كان نصيبهم بين صغار الضباط حتى رتبة نقيب ٣٠٪ ، تتضاءل إلى ٣ ٪ (ثلاثة) بين كبار الضباط ، أما مجموعهم فى سلك الضباط فلم يزد على ١٧٪ ومن بين ٢٥ ضابطا برتبة لواء فى الجيش الإسرائيلى، كان ثلاثة فقط من السفارديم ، واحد منهم فقط يحتل منصبا عسكريا فعليا .

ويقول عالم الاجتماع الإسرائيلى سامى سموحة (ويبدو من اسمه أنه شرقى - سفاردى) الذى رسم هذه الخريطة أو كشف عنها ، إن هذا ليس وضعا مؤقتا ولا عابرا والأسباب عديدة : فالجيش الإسرائيلى هو امتداد للهاجاناه، التي أقامها المهاجرون اليهود الأوروبيون الذين أقاموا الدولة ، فأقاموا الجيش على عقلية غربية أوروبية ، اعتبروها متفوقة ، واعتبروا تفوقها هو الذى يضمن التفوق النوعى على الجيوش العربية واعتبروا هذا «التفوق النوعى» ضرورة وجود لإسرائيل .

لكن سموحة يقول : أن المسألة أعمق ، فكما الجيش كما المجتمع ، فهو يقرر أنه فى إسرائيل هناك تطابق بين الخريطة الطبقية والخريطة الطائفية ، فالشريحة الهامشية فى المجتمع ، معظمها يهود شرقيون ، وشريحة العمالة الدنيا ، كلها شرقيون تقريبا ، وشريحة العمالة الماهرة، معظمها شرقيون ، وفى الطبقة الوسطى وحدها يوجد قدر من التوازن

بين الشرقيين والاشكناز مع أفضلية للأخيرين ، أما الطبقة الوسطى - العليا ، فمعظمها من الاشكناز ، ونخبة السلطة اشكنازية بالكامل تقريبا .

ويقول إنه مع ذلك فما زالت المسألة أعمق ، لأن هذا التطابق بين الخريطتين الطائفية والاجتماعية قد تحول إلى ظاهرة دائمة فى المجتمع، ينتقل من جيل إلى جيل ويكتسب شرعية إجتماعية .

فأى تحرير لليهود !

وقالت الصهيونية أن دافعها وغرضها معا هو تحرير اليهود من العداء للسامية .

وبعدما أقامت الدولة اليهودية ، اكتشفت أن جرائم النازية قد حذرت العالم وطهرته من هذا العداء للسامية ، أو العداء لليهود .

فانزعجت ، لأن اليهود عندما لا تواجههم مشكلة يهودية بهذا المعنى، فهم لا يهاجرون ، لا يعودون إلى صهيون ، يبقون حيث هم .

واعتبرت «الدولة اليهودية» اختفاء المشكلة اليهودية من الشتات عرضا لمرض مستفحل وعدم واقعية ، وأحد معالم التفسخ والاحتضار كما يورد ميخائيل روزنيك ، وهو استاذ مرموق لفلسفة التربية فى الجامعة العبرية .

بينما يرى يهود الشتات (أى الذين لم يهاجروا إلى إسرائيل) أن

اليهود فى إسرائيل ، هم بالأحرى الذين يواجهون مشكلة يهودية أمنية ديموغرافية ، فجيرانهم لايريدونهم ، ولأن غير اليهود الذين يعيشون معهم سيصبحون أكثر منهم عددا فى مستقبل منظور .

الدولة اليهودية لا تستطيع أن تقيم وفاقا بينها وبين يهود العالم الذين تعتبرهم امتدادها الطبيعى فى هذا العالم .

فأى مستقبل ؟

وأرادت الصهيونية أن تحرر اليهود من عقد المنفى ، لكن بن جوريون عندما أبلغ فى ١٩٧٥ بأن الأمم المتحدة أدانت الصهيونية بالعنصرية كفكر وكحركة ، لم يجد ما يقوله سوى « ليس مهما ما يقول الأغيار ، المهم ما يقول اليهود» .

وهى عقدة من عقد المنفى .

وعندما تجد إسرائيل نفسها معزولة عن العالم وأممه ، لا شغل لها فى مجتمع الدول سوى الدفاع عن سلوكها ، لاتجد ما تقوله سوى «العالم كله ضدنا» .

وهى عقدة أخرى من عقد المنفى ، سوى أنها قبل إقامة الدولة كانت صيحة مريرة عاجزة ، أما بعد إقامة الدولة فترجمت نفسها فى الاعتماد على القوة العسكرية دون غيرها من وسائل الدول .

وبررت الصهيونة حلمها أو مشروعها بأنها تبغى تحرير اليهود من

الطفيلية الاقتصادية ، لكنها - الحركة الصهيونية - لما أقامت الدولة ، لم تلبث أن وجدت أنها أقامت دولة ذات اقتصاد طفيلي ، يعتمد على العون من الخارج ، ويقول مفكر استراتيجي أمريكي مرمق - انتوني كورد سمان - أنه لن يلبث أن يتحول إلى اقتصاد متسول .

بينما يقول مفكر إسرائيلي إن اقتصاد إسرائيل قد تحول إلى «اقتصاد مضاربات ، غير منتج ، يبتعد بإجماله عن جوهر الحلم الصهيوني الذى تطلع إلى مجتمع يهودى عامل ومنتج ، ويبدو أحيانا أن اقتصاد المنفى دخل من جديد إلى تخوم دولة إسرائيل » .

فأى مستقبل ؟

انكار اليهودية

والدولة اليهودية هى الدولة الوحيدة فى العالم التى لاتنتمى إلى مجموعة طبيعية من الدول .

وأعتبرت الدولة اليهودية أن الشتات اليهودى يعوضها عن ذلك رغم أن حلمها ، أو الحلم الذى قامت كى تحققه هو أن ينتهى الشتات الذى أعتبرته كتلتها الطبيعية .

إنما فوق عجزها عن إقامة وفاق بينها وبين هذا الشتات فهى لاتفتأ تهدده وفى يهوديته ، فلو أخذت إسرائيل بالتعريف الأورثوذكسى لليهودى، لأنكرت على غالبية الشتات يهوديته ، وفى هذه الأغلبية معظم

اليـهـود الأمـريكيين مـصـدر المال الذى يدعم والنفوذ الذى يحـمـى . والضغط فى إسرائيل للأخذ بهذا التعريف قوى ومتزايد .

ثم إنها تطالب هذه الكتلة الطبيعية بولاء مزدوج ، تطالبهم بالولاء لها ، لا موازيا وإنما متقدما على ولائهم للبلدان التى يحملون جنسيتها ويعيشون فيها .

لكن كثرتهم تقول لإسرائيل « أنا أمريكى أولا ، أو أنا فرنسى أولا ثم يهودى ثانيا » حتى ولو كانوا يقولونها ، رعاية لمصلحة ظاهرة وحاكمة.

وتقول هذه الكثرة للإسرائيليين : لقد حققتم مشروعكم - الدولة - فلماذا تحاولون تخريب مشروعنا - الاستقرار ؟

فأى مستقبل ؟

المسكينة العظمى

وإسرائيل أصبحت الدولة الأعجوبة بين الدول ، فهى الدولة المسكينة التى يحاصرها بحر من العرب يناصبونها العداء وتتعاظم قوتهم كل يوم، لكنها تتصرف كأنها دولة عظمى فتفرض إرادتها وسطوتها على هؤلاء العرب ، ولا تفتأ تتحدث عن ذراع إسرائيل الطويلة ، وتقرر بقنابل الطائرات أن لها ، ولها وحدها حق تحديد سقف التطور العلمى والتكنولوجى للعرب أجمعين ، على نحو ما فعلت بالمفاعل النووى العراقى.

حتى أصبح العالم يحار كيف يعاملها هل هى دولة من الدول تدافع عن مصالحها الأمنية المشروعة أم هى عنصر لعدم الاستقرار في النظام الدولى كما قال دبلوماسى إسرائيلى بارز .

فأى دولة ؟

أى دولة تلك ، التى يأخذ فيها فريق من الناس القانون بيدهم فى أدق ما يعنى الدولة - أى دولة - من أمور . فتقول حركات مثل حركة المستوطنات وهتحياه وموراشا وكاخ وغيرها إن الحكومة التى تتنازل عن أى جزء من الأراضى المحتلة حكومة غير شرعية ، وكلها حركات مسلحة برضا الدولة أو برضوخها . بمقتضى الاستيطان الذى هو من مقتضيات أمن إسرائيل .

فهنا مقتضيات أمن إسرائيل تتحدى أمن إسرائيل إن رأت حكومة ذات يوم أن الانسحاب من الأراضى المحتلة يوفر لإسرائيل الأمن .

فأى دولة ؟

ماذا لو ؟

أى دولة هذه التى تقوم على حلم تحقق القومية والاستقلال لشعب تصورته لنفسها (بقى معظمه خارجها يحمل جنسيات دول أخرى) ثم لا تلبث أن تجد نفسها رهينة وملحقا لدولة أخرى ، وتجد نفسها كذلك بحكم الضرورات التى كانت هى صلب إقامتها ؟ أو كما يقول بيتر

جروز وهو كاتب أمريكى صديق لإسرائيل ، يعمل مديرا لتحرير مجلة فورين افيرز «الشئون الخارجية» ومديرا لبرنامج الشرق الأوسط في مجلس العلاقات الخارجية الأمريكى الذى هو من أهم المؤسسات الفكرية للسياسة الأمريكية إن لم يكن أهمها جميعا ، يقول جروز : «إسرائيل محمية اقتصادية لدولة أجنبية كبرى هى الولايات المتحدة ، لهذا فإن وضع إسرائيل الاقتصادى لم يعد مسألة داخلية ينبغى بقاؤها في أيدى الاسرائيليين وبذلك تلاشت رؤيا الاستقلال الاقتصادى التى عول عليه الحالمون الصهيونيون الذين أقاموا الدولة ، وعاجلا أو أجلا ، سيكون للأمريكيين شاءوا أو أبوا ، كلمتهم فى تحديد الأولويات السياسية لإسرائيل » .

ولقد رأت إسرائيل فى ضمان الولايات المتحدة لوجودها ، ثم لأمنها، ثم لرخائها أيضا ضمانا ما بعده ضمان .

لكن ما فاتهم أن يروه ، كما يقول ديبلوماسى إسرائيلى مخضرم هو سيمحا دينتز الذى عمل فى سفارتها في واشنطن من بعد حرب ١٩٦٧ حتى عام ١٩٧٨ ، وزيرا مفوضا ثم سفيرا ، يقول إن ما فاتهم أن يروه هو أن إسرائيل ليست الرصيد الإستراتيجى الوحيد للولايات المتحدة في هذه المنطقة ، فهناك أيضا :النفط وطرق نقله إلى مواقع استهلاكه فى الغرب .

على أى حال ، فهو لا يمد هذه النظرة التحذيرية على استقاماتها ، فيقول أن المصلحة الأمريكية الأصلية هى النفط وطرق نقله ، وهى التى بيد العرب ، وإن مكان إسرائيل فى هذه المصلحة الأمريكية هو مكان وظيفى .

أى إنه إذا تغيرت المصلحة ، أو تغيرت الموازين التى تحكمها ، تغير المكان الوظيفى ، إلى حد أنه يمكن أن تفقد وظيفتها .

وفى إسرائيل هذا قلق كبير على مستقبل الدولة يعبرون عنه بالقول إنه لا أحد فى إسرائيل يجرؤ أن يسأل نفسه ماذا لو غيرت الولايات المتحدة موقفها ، أو فقدت مصالحها فى المنطقة ، أو تغيرت أقدارها ومقاديرها ، أو تغيرت موازين القوى ، أو تغيرت قواعد الصراع الدولى أو حل فى علاقات السوفييت والأمريكيين نوع من الوفاق الإيجابى بدلا من الاستقطاب أو ما سبق بينهما من وفاق بالامتناع ، بل إذا حل السلام الشامل الذى تقوله إسرائيل إنها تنشده ؟

وهو سؤال أصبح من الشيوع ، بحيث يختصره الإسرائيليون فى كلمتى : ماذا لو .

لكن الإسرائيليين لايسألون أنفسهم : وماذا لو استجمع العرب أمرهم وغيروا ما بأنفسهم ، واستبدلوا بضعفهم قوة ، واحتكموا على النفط وسيطروا على طرقه ؟

فأى دولة ؟

لا بالحرب ولا بالسلام

وأي مستقبل ينتظر دولة تواجه مأزق أمن ، لا تخرجها منه الحرب ونتصور أنه لن يخرجها منه السلام ؟

وقد بدأ مأزق الأمن مع النشأة ، بل هو صلب هذه النشأة ذاتها ، فقد بنت الحركة الصهيونية تصورها عن دولة اليهود على وهم آخر من الأوهام ، وهم أن فلسطين التى تسميها أرض إسرائيل هى أرض بلا شعب وبالتالى يستحقها هذا الشعب اليهودى الموهوم والذى لا أرض له. لم تكن المسألة تدور بين المعرفة والجهل ، لأن العالم كله كان يعرف أن هذه الأرض هى أرض شعب آخر ، لكن المسألة هى أن الطمع فى الحقائق لا تبرره إلا أوهام ، وقامت الحركة الصهيونية فنظمت وخططت وعملت وتآمرت متذرعة بهذا الوهم ، وجاءت بمن استطاعت أن تجئ به من اليهود ، ووجدت أن إقامة الدولة تقتضى أن تضعهم وتضع نفسها فى خدمة القوى التى بيدها الأمر فلم تتردد . لم يجعلها تتردد أن هذه القوى التى بيدها الأمر ، كانت قوى معادية للأمة التى ينتمى إليها الشعب صاحب الأرض ، بل أن ذلك بالذات كان يناسبها ، فالطامع لا يعينه إلا المغتصب ، وكانت هذه هى البذرة الأصلية لمأزق الأمن ، جاءت الدولة اليهودية محمولة على موجة معادية ، وقاتلت الحركة الصهيونية لتقيم الدولة ونجحت ، وأقامتها وإن يكن على قسم من أرض إسرائيل ،

وإذا كان أصحاب الأرض قد غلبوا ، فإنهم لم يستسلموا ، فبدأ نمو مأزق الأمن .

فالعرب لم يعترفوا بأن هزيمتهم فى ١٩٤٨ و ١٩٤٩ هزيمة نهائية ، فانتهت تلك الحرب بهدنة مسلحة ، أدت إلى حرب أخرى ومن حرب إلى حرب ، كما هو معروف .

وفى كل حرب انتصرت إسرائيل وهذا أيضا معروف ، حتى حرب أكتوبر ١٩٧٣ ، رأت فيها إسرائيل هزيمة فى البداية ونصرا فى النهاية.

لكن النصر فى هذه الحروب جميعا كان نصرا كالهزيمة .

لأن هذا النصر لم يحقق لها اعتراف العرب .

ولأن هذا النصر هو الذى قاد الدولة اليهودية إلى أن تصبح تابعة ، ملحقة ، رهينة لقوة دولية كبرى على نحو ما رأينا ونرى .

ولأنه من مفارقات هذه الحروب جميعا ، أنه كلما كان النصر العسكرى الإسرائيلى واضحا وحاسما، كلما ضؤلت ثماره السياسية ، مثلما حدث في حربى ١٩٥٦ / ١٩٦٧ ، وكلما كانت نتيجة القتال بين - بين استطاعات إسرائيل أن تجنى بعض الثمار مثلما حدث فى حرب ١٩٤٨ حيث جنت إقامة الدولة وإن لم يكن على أرض إسرائيل كلها ، ومثلما حدث فى حرب ١٩٧٣ حيث جنت إسرائيل سلاما مع مصر

وكان من شأن هذه المفارقة أن تتعلم إسرائيل درسها ، فكان من شأن نتيجة حرب ١٩٧٣ مثلا ، أن تتعلم الحركة الصهيونية أن طريقها إلى حل مأزق الأمن هو مبادلة الأراضى بالسلام على نحو ما حدث مع مصر .

لكنها لم تتعلم .

هل نقول لأنه ليس ممكنا أن تتعلم ؟

لم تتعلم «الدولة اليهودية» أن الحرب لن تأتيها بالأمن ، رغم أن مأزق الأمن أصبح يبتلع ثلث ناتجها الاقتصادى ، ورغم أن كل حرب «ظافرة» تزيد من هذا العبء ، ورغم أن كل حرب «ظافرة» تؤدى بها إلى امتداد أوسع لما تعتبره مصالحها الأمنية حتى وصلت هذه المصالح إلى حدود الهند شرقا والمحيط الأطلسى غربا وجنوب أوروبا شمالا ، والمحيط الهندى وجواره فى شرق أفريقيا جنوبا .

وكأنها امبراطورية عظمى من امبراطوريات التاريخ .

أليست مفارقة أن هذه الدولة المسكينة ترى لنفسها مصالح أمنية تفوق أحلام الاسكندر الأكبر ، وحدود الأمبراطورية الرومانية وأطماع بونابرت ؟

وهل تطيق دولة مثل إسرائيل بحجمها وبعدد سكانها من اليهود ، وقدرتها الاقتصادية مضافة إليها معونات الامبراطورية التى تحميها ومعونات يهود العالم ، هل تطيق هذا الدور ؟

أم أنها لا تستطيع أن ترى ما تحت أنفها من حقائق ؟

فأى مستقبل ؟

والدولة اليهودية تعتصم بالحرب لأنها تخاف السلام .

تخاف إن حل السلام أن تفقد وجهها فى المطالبة بالعون ، سواء من الولايات المتحدة أو غيرها من الدول ، أو من يهود العالم .

وهى فى غياب العون لا تستطيع أن تعيش ، فقد جاءت إلى هذه الأرض بشعب يريد أن يحيا الرخاء فى اقتصاد فقير بالضرورة ، وعودته أن له حقا فى أن يعيش الرخاء على حساب الآخرين .

فهى تؤسس حقها فى المعونة الأمريكية بالقول أن حاجة الولايات المتحدة إليها ، لا تقل عن حاجتها هى إلى الولايات المتحدة .

لكن الأمريكيين فى الحقيقة يشكون فى ذلك ، يقول بيتر جروز الذى سبق ذكره «أن هناك نزاعا أمريكيا - اسرائيليا خفيا حول شرعية المعونة الأمريكية ، التى ينفقها الإسرائيليون على الاستهلاك ، ويرون أن لهم حقا فيها لأنهم يعيشون على جبهة استراتيجية ؛ الحياة عليها قصيرة» .

فإذا حل السلام ، لم تعد الدولة اليهودية هى هذه الجبهة الاستراتيجية التى يتحدث عنها الإسرائيليون ، أو لم تعد لها هذه الأهمية ومن شأن هذا أن يأكل مبرر المعونة .

حتى ولو أتى هذا التغير بطيئا ، وهو بالضرورة سيأتي بطيئا .

وتخاف إن حل السلام أن يستعيد اليهود الشرقيون وهم الآن أغلبية السكان وعيهم بأولوية هويتهم الشرقية التى يسميها الاشكناز بازدراء : عربية .

تخاف المؤسسة الصهيونية - إن حل السلام - أن يتوحد اليهود الشرقيون مع العرب ضد المؤسسة الصهيونية .

تخاف السلام لأسباب تمتد من أكبر القضايا إلى التفاصيل والعوامل الثانوية والتنبؤات الاحصائية .

ولأنها تخافه ، فإنها لا تريده قائما حتى على شيء من العدل .

فهى تعرف أن العرب مستعدون لقبول سلام قائم على قدر من العدل .

لكنها بعد أن حاربت هذه الحروب كلها وقاتلت هذا القتال وحققت هذه الانتصارات أصبحت تخشى أن قدرا من العدل فى صلب السلام ، سيؤدى إلى أن يطمع بها العرب .

لذلك لا تريد إلا سلاما تفرضه وإن يكن من خلال شكل المفاوضات، تريد سلاما يقنع العرب بقوتها وسطوتها وبأنها لا تهزم أو تتراجع .

أى تريد سلاما مستحيلا .

وحتى لو حصلت عليه ، لو حصلت على سلام يعطيها ما تحتل من الأراضى ، أليست هذه بذرة حرب جديدة ؟

وحتى لو حصلت على السلام على هذا النحو ، فالمفارقة فيه تصل إلى حد الكارثة بالنسبة للدولة اليهودية ، ففى ظل هذا السلام يصبح العرب هم أغلبية سكانها خلال ربع قرن من الزمان أو يزيد قليلا .

وتكف إسرائيل عن أن تكون دولة يهودية وتجد الحركة الصهيونية نفسها صفر اليدين ، فبعد أن ضاع الحلم يضيع الواقع الذى حققته .

وقد تؤجل هجرة يهودية يشجعها السلام هذه الكارثة لكنها لن تلغيها .

وهذا كله إذا حققت إسرائيل السلام بشروطها ، وفى الوقت ذاته أقرت لسكان ما ستضمه من أراض بحقوق المواطن .

فإذا أنكرت هذه الحقوق ألقت ظلالا كثيفة على ديموقراطيتها فى نظر قسم من شعبها اليهودى ، وفى نظر العالم ، وهذه الديموقراطية هى إحدى وسائلها فى استدرار التعاطف والمعونات .

حتى إذا قبلت سلاما قائما على قدر من العدل ، فانسحبت من الأراضى التى احتلتها فى ١٩٦٧ فإن الأغلبية العربية سوف تتأجل ، إنما ليس وقتا طويلا ، إلى حوالى النصف من القرن المقبل ، بدلا من حوالى الربع منه .

وهذا هو مـأزق الأمن الذى لم تحله الحـرب ، ولا تثق إسـرائيل ، بل لا تعـتقـد ، بأن السـلام قادر على إخـراجـها منه ، وعندها فى هذا ما يقرب من اليقين .

لذلك تجد نفسها محكومة بالمضى من حرب إلى حرب .

كأنه قدر !

فأى مستقبل ؟

بل ، ويياله من مستقبل !

الفصل الثانى

مستقبل إسرائيل – ٢

مأساة الوطن المستحيل

صفة الوطن أن يكون تاما ونهائيا لمواطنيه. تاما تعنى أن لا تعتقد جماعة معتبرة من المواطنين أن شيئا من أرضه يقع خارج حدوده السياسية المعترف بها، ونهائيا تعنى أن لا جماعة معتبرة من المواطنين تتطلع إلى غيره وطنا لها.

مثال هذا : مصر للمصريين ، وفرنسا للفرنسيين ، وبريطانيا للبريطانيين ، على تعدد أعراقهم، وهكذا.

مصر للمصريين وطن تام ونهائى، فلا أحد من المصريين – فضلا عن جماعة معتبرة منهم – تعتبر الوطن منقوصا حتى . دعاة وحدة وادى النيل وأنصارها، لم يدخل فكرهم يوما أن مصر لا تتم إلا

بالسودان، وإن جاز القول انهم اعتقدوا انها «تزداد تماما» وإن كان الارجح أن صياغتهم لتلك الدعوة ومعتقدها ألبست المصلحة ثوب وحدة الوطن والتراب، بحكم أن المصالح ثابتة وغلابة ولا متناهية ومصكوكة فى التراب معجونة بمياه النيل.

وحتى دعاة القوميـــة العربية وأنصارها ، لم يدر بخلدهم أن مصر وطن ناقص أو منقوص بكون امتداد التراب العربى يقع خارج حدوده، انما ربمـــا قد رأوا فى الجـــامع العربى حافظـــا للهويـــة، أو مبررا لدور مصر فى «مجال حيوى» لا غنى عنه، أو تعويضا عمّايعرفون أن عليهم بذله ذودا عن بيئة تربطهم بها وشائج تاريخية ودينية وثقافية عميقة، وفى سبيل تحقيق قدر مطلّوب من وحدة القياس مع شعوبها، أو صياغة أرقى للمصلحة المشتركة تتنزه بها عن عارض الغرض.

وهذا هو معنى أن مصر «وطن تام» للمصريين.

أما معنى نهائيته فأيسر أمرا، فلا جماعة معتبرة من المصريين تتطلع إلى وطن آخر بديل للوطن، فمن يهاجرون يعودون، ومن يهاجرون هجرة نهائية أفراد من الجماعات كلها، لكنهم ليسوا جماعة بعينها ولا من جماعة بذاتها.

ولقد استغرق المثال المصرى على تمام الوطن ونهائيته ما استغرق

من سطور هذا المقال، رغم أن هذا المثال ليس موضوعا له، إنما لأنه هو المثال القريب الحميم لتوضيح فكرة قد تتبدى غير واضحة.

- ١ -

اما الموضوع فهو إسرائيل.

هل هى وطن لمن تقول دعواها وعقيدتها أنهم مواطنوها؟

هل يمكن أن تصبح وطنا لهم؟

هل يمكن أن تبقى كذلك إن هى أصبحت؟

مايبرر طرح هذه الأسئلة وعلى هذا النحو أن الحركة الصهيونية، وعاء العقيدة التى قامت عليها الدولة قد انتحلت صفة «حركة التحرر الوطنى».. وبهذا الانتحال وصفت هدفها بأنه «إعادة إقامة الدولة اليهودية فى وطن اليهود» أو «فى أرض الميعاد» أو فى «أرض إسرائيل» على تنوع الصياغات دون اختلاف الدلالات وعلى ما يجمع بين هذه الصياغات من إبقاء «تراب الوطن» محاطا بالغموض، فتحديده غيبى وحدوده مغيبة.

أى أن إسرائيل تزعم أنها «وطن اليهود» أو أنها تريد أن تكون كذلك، أو فى نهاية المطاف ستكون، ولايرضى عقيدتها أن تكون «وطنا لليهود» بما يعنيه هذا الوصف الأخير من أن تكون إسرائيل وطنا لليهود ولغيرهم، وفى الوقت ذاته أنه تكون لليهود أوطان أخرى غير إسرائيل.

أنظر الجدل الدائر حول الحفاظ علىٰ «يهودية الدولة» وهو الجدل الذى يدور بين «الحمائم» السياسيين الذين يعارضون ضم الأراضى المحتلة «محافظة على يهودية الدولة» من طغيان محتوم لأعداد غير اليهود، وبين «الصقور» السياسيين الذين يدعون الى التوسع أو «استكمال التراب الوطنى» وطرد السكان غير اليهود، وأيضا «محافظة على يهودية الدولة».

أنظر أيضا فى علاقة «الدولة» اليهودية و«الحركة» الصهيونية باليهود الذين لم يصعدوا (يهاجروا) إلى إسرائيل، تراها علاقة تعيير وصل إلى واحد من حدين لئيمين، بن جوريون يدعو إلى «التسامح» مع هؤلاء و«الصبر» حيالهم. بينما مناحيم بيجين يعيرهم بنقص يعيب «يهوديتهم» ، وهى فى الحالين علاقة ابتزاز، فعليهم أن يفعلوا ماتأمرهم به إسرائيل أو الحركة الصهيونية وأن يدفعوا ما تطلبه منهم ممتثلين صاغرين.

- ٢ -

إسرائيل - إذن - تزعم أنها «وطن اليهود»..

وعلينا أن ننظر فى هذا الأمر وأن نرى إلى ما له من أوجه.

وطن اليهود فى عقيدة الدولة الصهيونية تعنى أنها وطن لليهود جميعا، ولذلك يقول إعلان قيامها انها «سوف تفتح أبواب الوطن على

مصاريعها أمام كل يهودى» وأنه سوف تفتح دولة إسرائيل أبوابها أمام الهجرة اليهودية لتجميع شمل المنفيين»..

ولقد أوفت إسرائيل بما وعدت، ولكن أغلبية اليهود لم يذهبوا، لم يهاجروا إليها، لم «يصعدوا» إلى «أرض الميعاد» . فمازال اثنان على الأقل من كل ثلاثة يهود يعيشون «خارج الوطن» ولاينوون «العودة» إليه، لكن إسرائيل تعتبرهم «منفيين» أى أنها تعتبرهم «مواطنين» وتعتبر نفسها «وطنا» لهم بالمآل.

أى انه بهذا الوجه من أوجه هذا الأمر، فإن إسرائيل قد أصبحت «وطنا» يعيش أغلبية «مواطنيه» خارج حدوده.. حاملين جنسيات أخرى، منقسمين فى «مواطنات» أخرى، ولاينوون «العودة» إلى ذلك الوطن، وأقصى مايقول بعضهم صادرا عن «ورع صهيونى» ، أن إسرائيل هى «وطنهم الروحى»، أو أقصى مايقول بعضهم صادرا عن «خوف يهودى» أن إسرائيل هى «وطن الملجأ الأخير» يقصدون «الملجأ الأخير» أن تحققت أسوأ مخاوفهم، واندفع - مرة أخرى - إلى العلن والعمل ما هو مستكن فى الحضارة المسيحية الأوروبية من عداء لليهود يتسمى «العداء للسامية».

إسرائيل إذن، وعلى خلاف دعاواها جميعا، ليست وطنا - لا حقيقيا ولا موهوما، لا راهنا ولا مأمولا، لأغلبية ساحقة من مواطنيها المفترضين.

فلننظر إذن فى مواطنيها المقيمين، واحد على الأقل من كل عشرة منهم يعيش – نهائيا – «خارج البلاد» وإن كان يحتفظ بجنسيتها وما إلى ذلك من سمات، والمقصود هنا هم المواطنون اليهود، ويقول بعض مفكريهم أن من أبرز خواص «الشعب الإسرائيلى»، أى هؤلاء اليهود المقيمون فى الدولة، والتى لايصارح أحد نفسه بها أن «عقدة الحصار» تستحكم بهم، فالدولة انشئت محاصرة، ولذلك ما أن يجد واحدهم فرصة للفرار حتى يهرب متظاهرا بنية العودة حتى لايواجه نفسه بالتخلى عن أسطورة الانتماء إلى «أرض الميعاد» وهى الأسطورة التى تشكل قوام وجدانه.

حتى ان بعض الساخرين المتشائمين من هؤلاء يقولون أن «السلام» مع العرب، وانتهاء الحصار يهدد الدولة بهجران سكانها أو معظمهم، ففى ظل الحصار غادرها الأكفاء والأذكياء ما لم يكونوا متعصبين.. وما لم يكونوا عظما من عظام المؤسسة الصهيونية، وما أن يحل السلام حتى يجد الأقل كفاءة وذكاء فرصتهم فى الفرار أيضا، حيث يمكن أن تكون فرصهم أفضل فى مجتمعات أقل تقدما، خصوصا من تعود أصولهم إلى تلك المجتمعات.

إلى هؤلاء تعرف الدولة اليهودية ضربا من المواطنة لم تعرفه دولة لا من قبل ولا من بعد، هؤلاء هم «المواطنون العابرون» الذين هاجروا إلى الدولة لكى لايستقروا فيها . وانما لانها «معبر» ضرورى إلى بلد آخر.

أحدث الأمثلة لهؤلاء «المواطنين العابرين» هم اليهود الذين هاجروا إلى إسرائيل من بلدان الاتحاد السوفييتى السابق فى السنوات الأخيرة. ذهبوا إلى إسرائيل لأنهم يريدون أن يهاجروا إلى الولايات المتحدة ويستقروا فيها، لكن تلك الأخيرة – خدمة للمشروع الصهيونى – حجبت عنهم سمات الدخول إلى أراضيها، فذهبوا إلى إسرائيل معلقين الآمال على «العلاقة الخاصة» التى تيسر لمواطنى الدولة اليهودية الدخول إلى أرض الأحلام.

هل يمكن القول أن إسرائيل «وطن نهائى» لهؤلاء وأولئك؟ لمن هاجروا منها ولمن ذهبوا إليها «عابرين»؟

وليست هذه وتلك هى منتهى مفارقات «الوطن» اليهودى، فالمفارقة الكبرى هى حالة المواطنين الإسرائيليين من غير اليهود ، أى الفلسطينيين، واحد من كل خمسة مواطنين اسرائيليين من هؤلاء، والمفارقة أن هؤلاء هم الجماعة الوحيدة المعتبرة من بين السكان التى يستقر اليقين بأنهم يعتبرون ذلك البلد «وطنا نهائيا لهم» وإن لم تكن الدولة دولتهم ، بل وإن كانوا – فى نهاية التحليل – أعداء لتلك الدولة.

هذا بصفة عامة هو مدى «نهائية» اسرائيل كوطن لسكانها، اليهود وغير اليهود، وهذه هى حدود هذه النهائية.

– ٣ –

أما «تمام» الوطن، فهو المسألة الكبرى فى إسرائيل، فهى موضوع

انقسام «الشعب» كما أنها باقية مصدرا للنزاع والصراع مع العرب، حتى ولو تحقق السلام، وبعد أن يتحقق السلام إن كان له أن يتحقق .

منذ أن بدأ الاستيطان اليهودى المنظم فى فلسطين مطلع هذا القرن، أو ما أسمته الحركة الصهيونية «استعمار فلسطين» والخلاف ناشب في صفوف الحركة الصهيونية حول «حدود الوطن اليهودى» أى حول التعريف الجغرافى لأرض الميعاد. فى الأســـاس - أى فى الأسطورة - لم يختلفوا كثيرا، فلم يقل أحد أو طرف انها ليست من النيل إلى الفرات، حسب ما أصر المتطرفون، إنما كان النزاع حول ما هو «مثال» وما هو «ممكن» كان خلافا بين «التبشيريين» وبين «السياسيين» اذا شئت، لذلك عندما اقترحت بريطانيا، عظمى الدول فى ذلك الزمان فى الثلاثينات ، خطة لتقسيم فلسطين بين العرب واليهود، دعا ديفيد بن جوريون، إلى قبول الخطة، بينما رفضتها الأغلبية فى المؤتمر الصهيونى العشرين . لكن بن جوريون استطاع أن يحصل على ترخيص له بالتفاوض حول الخطة البريطانية، وكانت أقوى حججه التى اتاحت له الحصول على ذلك الترخيص بالتفاوض أنه رأى «إمكانية نقل السكان العرب، برضاهم أو بالقوة، ومن ثم توسيع الاستيطان اليهودى».

وتكرر الخلاف نفســـه وبالأبعاد ذاتها حيال قـــرار الأمم المتحدة تقسيـــم فلسطين فى ١٩٤٧ ، وعندئذ كسب «الســـياسيون» الجولة من «التبشـــيريين» لأن بن جوريون أصدر أوامره إلى قوات

الهاجاناه والبالماخ بتوسيع حدود الدولة وراء ما قررته الأمم المتحدة.

لكن الحدود لم تكن أبدا نهائية ومازالت كذلك.

اقرأ برنامج الليكود للانتخابات الاسرائيلية (التى ستكون قد جرت عندما يصدر هذا المقال) : «حق شعب إسرائيل في الحياة من البحر المتوسط إلى نهر الأردن.. حق أبدى لايمكن زعزعته ، وإن هضبة الجولان هى جزء لايتجزأ من أرض إسرائيل».

ويجوز القول أن هذه الدعاوى هى الأقرب تمثيلا للتفكير السائد فى إسرائيل، فبرنامج التحالف العمالى - المعتدل - يأخذ منها بطرف غير قليل، فما سيجرى بحثه فى مفاوضات «الوضع النهائى» مع الفلسطينيين هو «الحدود الفاصلة» بين إسرائيل وبين هؤلاء، اما الحدود الأمنية للدولة فهى نهر الأردن، وما يمكن أن تقدمه إسرائيل مقابل السلام مع سوريا هو «انسحاب فى الجولان» وليس من الجولان.

الوطن إذن - فى نظر الحركة الصهيونية والدولة الإسرائيلية لم يتم بعد.. وفى اعتبار العقيدة الصهيونية فإن هذا الوطن لايتم إلا وفق الاشارات الاسطورية التوراتية.

- ٤ -

قد يتبين ذات يوم ان مأساة الصهيونية هى فى تلك العلاقة الجدلية بين صفتى الوطن اللازمتين ليكون وطنا، أن يقتنع مواطنوه بتمامه ونهائيته.

والمصدر الممكن والمحتمل لمساواية تلك العلاقة أن الوطن اليهودى الذى أرادته الصهيونية فى فلسطين لن يكون وطنا نهائيا لغالبية سكانه من اليهود إلا عندما يتحقق تمامه.

ومقتضى تحقق هذا التمام أن يتفق الصهاينة فيما بينهم على تطبيق جغرافى لأرض الميعاد. ومقتضى العقيدة الصهيونية فى هذا الشأن أن تتطابق رؤى «التبشيريين» من الصهاينة مع رؤية «السياسيين» منهم، فإذا استطرد المناخ الروحى السائد فى إسرائيل الآن، سيكون على «السياسيين» أن يحققوا «للتبشيريين» رؤاهم وهو مانرى مقدماته فى وجل السياسيين، متشددين ومعتدلين، أمام حركة الاستيطان اليهودى فى أراضى الضفة الغربية وقطاع غزة.

لكننا نرى هذا المقتضى ذاته فى عمق أبعد غورا أو أشد خطورة، فى حرص الدولة اليهودية على استبقاء سلاحها النووى حتى «بعد أن يتحقق السلام» وهو حرص عبر عنه «الحمائم» الحاكمون الآن بأوضح مما عبر عنه «الصقور» المعارضون، ومهما كانت الذريعة التى تقول أن إسرائيل تحتاج سلاحها النووى «كملجأ أخير» أى إن أصبح وجودها كدولة معرضا للخطر، فإن أحدا فى هذه الأمور لا يفصح عن حقيقة أغراضه، أما الغرض الأولى بالاشتباه فهو أن مزاوجة بين الاستيطان وبين السلاح النووى تعبر عن خطة ابتزاز عسكرى ترمى إلى «إتمام» الوطن حسب الرؤية التبشيرية الصهيونية.

حتى هنا قد تكون هذه مأساة العرب في المستقبل، مأساتهم حيال الدولة اليهودية التي يسعون الآن إلى إقامة سلام معها وفق شروطها.

لكن ما يرشح المستقبل لأن يكون مأساة الصهيونية او المأساة التي تجلبها الصهيونية على اليهود، هو مفارقة انه إلى جوار إسرائيل، وممتدا في داخلها، وكامنا تحت سطحها وطن آخر يتوازى معها ويتناقض، وهو وطن يعي مواطنوه أنه لم يحقق تمامه بعد، لكنه في كل الأحوال وطنهم النهائي الذين لم يتطلعوا يوما ولن يتطلعوا يوما إلى سواه.

موضع المأساة أن الوطن اليهودي، لايتم إلا على حساب الوطن الفلسطيني بإلغائه، وأن الوطن الفلسطيني، لايتم إلا على حساب الوطن اليهودي وبإلغائه.

وقد تبدو هذه وكأنها مأساة الاستحالة، مستحيل يقابل مستحيلا وينازعه.

وهي مأساة لايحلها إلا جدل التاريخ وتجربته القاسية، انما سيظل كون اسرائيل وطنا «غير نهائي» لمواطنيها المقيمين والمفترضين - الذين تصفهم بالمنفيين، خميرة حية لعدم استقرارها.

لكن الأخطر هو اقتناع اسرائيل - مواطنين ومؤسسات والدولة ذاتها - بأنها «وطن لم يتحقق له التمام بعد، فسيبقى هذا الاقتناع مصدرا لعدم الاستقرار في المنطقة كلها، رغم اى اتفاقات للسلام وايا كانت شروطها.

الفصل الثالث

من التسوية إلى اعادة توحيد فلسطين

لا يمضغ الاسرائيليون كلامهم . فلماذا نمضغ نحن كلامنا ؟

بينما يقول منهم قائل «ولا شبر من الأرض» ، يقول منا قائل أننا نقبل «نهائيا» بتسوية «نهائية» نتنازل فيها «نهائيا» عن أكثر من ثلاثة أرباع الأرض .

وبينما يقول منهم قائل بضرورة طرد العرب من فلسطين ، يتحدث البعض منا عن التآخى الفلسطيني – الاسرائيلى أو العربى – الصهيونى.

وعندما يأتى إلينا «دعاة السلام» منهم يطلبون منا المزيد من التنازلات كى «يدعموا بها موقفهم معنا» و «ليكسبوا بها الجمهور من المتشددين» ، نغرق طواحينهم بزيت التنازلات ومشكلتنا فى هذا كله :

أننا عندما نعلن التنازل النهائى عن الأرض لا نصدق أنفسنا فلا يصدقنا الاسرائيليون .

وأننا عندما نتحدث عن التآخى معهم نشد وتر إنسانيتنا أكثر مما يطيق ، فنفقد الكرامة ولا نكسب الواقعية ، فيستهين بنا الاسرائيليون .

وأننا عندما نغرق طواحين «دعاة السلام» بزيت التنازلات ، نقوى مراكز المتشددين بل والمتعصبين .

الفرق بيننا وبين الاسرائيليين فى هذا المجال ، أنهم حيث لا يمضغون كلامهم ، يصفُّون العالم من ورائهم كى يقنعنا بالمزيد من التنازل ، ولكى يسعى إلى ارضائهم ، بينما نغالط نحن أنفسنا ، ونظن أننا نكسب اعجاب العالم ورضاه بسماحتنا وأريحيتنا ، ونكسب بالتالى تأييده ، بينما ما يراه العالم فى هذا هو «واقعيتنا» التى لا تعنى أكثر من اقرارنا بالهزيمة .

لقد عرف الاسرائيليون ، ولم نعرف نحن : أن الصراع بيننا وبينهم قد وصل إلى حد أصبحت فيه الصراحة جارحة ، والغمغمة عديمة الجدوى .

وقد اختاروا الجارح .

بينما اخترنا ما لا يجدى .

صراحتهم الجارحة هى مطالبهم القصوى.

فهل لنا صراحتنا الجارحة؟

نعم ، بل وإن الصراحة الجارحة هي بعض ما نحتاج الآن ؟

وفى هذه الصراحة الجارحة علينا أن نقول الآن وعلنا ورسميا ما يلي :

- ١ -

إن التسوية المطروحة الآن ، تسوية تعنى بمستقبل اسرائيل وليس بمصير الشعب الفلسطيني ، فهدفها هو ضمان أمن اسرائيل واستقرارها ورخائها وبقائها .

وأن ادراج «حق الشعب الفلسطيني فى تقرير مصيره» - المختلف عليه ، والقبول غير الشامل حتى الآن بقيام دولة فلسطينية مستقلة فى الضفة الغربية وقطاع غزة - كحد أقصى ، إنما يقع فى سياق هذه التسوية كأحد الضمانات التى تقدم لاسرائيل .

وهنا علينا أن نقول أن ما يعنينا هو مستقبل فلسطين وليس مستقبل اسرائيل .

أى أن الفرق بين التسوية المطروحة وبين ما يعنينا ، هو أنه فى تلك التسوية ، أمن اسرائيل وبقاؤها هو الأصل ، وما عداه فروع وضمانات.
أما عندنا فإن مستقبل فلسطين هو الأصل ، ما عداه تفريعات ورواسب وبقايا غير باقية فى مسيرة التاريخ .

- ٢ -

إن هذه التسوية يطرحها إجماع دولي تحركه عوامل سلبية ، تحركه الحاجة إلى وضع حد لهذا الصراع العربي - الاسرائيلي الذي أرهق أربعين عاما من السلام العالمي المفترض ، وأصبح استمراره مهددا لهذا السلام .

ولم يكن لهذا الاجماع الدولي أن ينعقد ، لولا أن أحس أطرافه بخطر هواننا ، وهو الخطر الذي رآه في الانتفاضة الفلسطينية . ولولا أن استفزتهم مغالبة اسرائيل الاعتراف بحدود قوتها .

فهو إجماع ينعقد لصالح أطرافه ولصالح اسرائيل ، أكثر مما هو لصالحنا.

- ٣ -

إننا ندرك أن لا حيلة لنا في قبول هذا الإجماع الدولي ، لأنه لا مفر لنا من قبوله . وهذه هي الأسباب :

أ - أنه إجماع شامل وضاغط ، يضم أصدقاءنا إلى حلفاء أعدائنا .

ب - أنه رغم ترتيبه لأولوياته - أمن اسرائيل وبقاؤها هو الأصل والدولة الفلسطينية هي الفرع وهي من الضمانات التي أصبحت ضرورية للأصل - رغم ذلك ، يمكننا أن نحقق من خلاله وعلى أساسه ما لا نستطيع أن نحقق بدونه .

ج - أننا نعرف أن العالم على أبواب توازن دولى جديد ، وأننا نتخوف من أن هذا التوازن الجديد لن يكون خادما لما قد نسعى إليه من بناء قوتنا على نحو يرفعها إلى مستوى مهمات الصراع ومتطلباتها ، لذلك ، فإن مسعانا هو اللحاق بذيول التوازن المتقادم بما استجد فيه لصالحنا - ولو كان ثانويا ، ولأن ندخل ما ندركه بالتسوية المطروحة فى صلب التوازن المستجد .

- ٤ -

إن هذا الأجماع الدولى الموصوف ، يرتكز على حصيلة تاريخ الصراع حتى الآن ، أو بالأحرى ، تاريخنا فى الصراع حتى الآن .

وهو تاريخ من الانتصارات الاسرائيلية ، وأن احاطتها فى المراحل الأخيرة انتكاسات محدودة يقدر على استيعابها المنتصر ، مقابل تاريخ من الهزائم العربية ، لمعت وسطها فى المراحل ذاتها مؤشرات على قدرات ، لكنها لا تقيم عثرة المهزوم .

وانتكاسات المنتصر وقدرات المهزوم قرائن .

ففى حرب ١٩٧٣ ، كما فى غزو لبنان ١٩٨٢ ، بانت حدود لا تستطيع قوة اسرائيل العسكرية أن تحقق شيئا بعدها ، كما استبانت للقدرة العسكرية العربية - المصرية والسورية فى الأولى ، والفلسطينية

واللبنانية فى الثانية - ممكنات جديرة بأن تكون عوامل انتصار ، إن نمت وتراكمت .

لكن التراكم التاريخى للنصر إلى جانب والهزيمة على جانب ، أتاح للاسرائيليين أن يحققوا على أساس حرب ١٩٧٣ ما يفوق حدود قوتهم ، ومنع العرب من أن يدركوا بها ما كشفت عنه تلك الحرب من قدرتهم.

وجرى الشئ الشبيه من حول حصيلة حرب لبنان ١٩٨٢ ، فقد كسبت منها اسرائيل ما يفوق قوتها : أرضا لبنانية محتلة . معترفا بها كأمر واقع حتى من الأمم المتحدة ، ومزيدا من التمزيق فى لبنان ، ولم يدرك الفلسطينيون من شجاعة صمودهم ومعنهم اللبنانيون فى بيروت المحاصرة ، ما هو أكثر قليلا من «خروج المقاتلين الشجعان» .

بل وأكثر من هذا بالنسبة لحرب لبنان : إذ يمكن أن توسم فى تاريخ الصراع بأنها الحرب الأولى من حروبه التى أدار لها بقية العرب ظهورهم وأغمضوا عنها العيون : فلا القتال ولا المدد ولا حتى الكلام .

هل ينكأ هذا جراحا ؟

لا بأس ؛ فالجرح المفتوح أقرب إلى الشفاء من الجرح الملتئم على صديد .

بل ، ولقد كانت حرب لبنان - فى ناحيتنا التى تعنينا - حربا كاشفة .

فهى لم تكشف فقط عن أن الدول العربية قد برمت بتكرار الحرب مع اسرائيل ورضيت بمراوغة النصر أو يئست منه .

إنما كشفت أيضا عن الطبيعة الحقيقة للحروب العربية السابقة ضد اسرائيل .

كشفت عن أنها كانت حروبا من أجل الأمن لا من أجل النصر ، فقد كانت حروبا ضد العدوان الاسرائيلى الشامل الذى يهددها ، وليست حروبا ضد المشروع الصهيونى الذى ابتلع فلسطين ، كشفت عن أن هذه الحروب كانت تعبيرا عن مخاوف الدول العربية وليست سعيا إلى أهدافها .

حرب ١٩٤٨ ، خاضتها دول عربية حديثة الاستقلال ، ترى أمامها قرارا دوليا يقطع أرضا من مشروع دولة شقيقة لها ، فكانت حرب الخوف من اتساع القرار الدولى أو تكراره لمصالح أخرى ، كما كانت حرب تأكيد هذه الذاتيات الوطنية المستجدة ، تأكيدها للذات فى مواجهة العالم ، كما فى مواجهة بعضها البعض .

بينما كانت حربا ١٩٥٦ و ١٩٦٧ ، وقوفا فى وجه عدوان اسرائيلى لا جدال يذكر على وصفه بذلك .

وكانت حرب ١٩٧٣ ، هي حرب تحقيق مطلب «إزالة آثار العدوان ، أي إعادة الجغرافيا السياسية إلى ما كانت عليه قبل حرب ١٩٦٧ ، بما فيها وجود اسرائيل كما كانت قائمة قبلها .

— ٥ —

أننا نقبل بهذا الاجماع الدولي الموصوف ، المرتكز على هذا التوازن ، لأننا نقر بهذا التوازن . نقر بأن المسعى العربى لرد العدوان الصهيونى على أرض فلسطين ، بالسلاح ، لم ينجح .

وأننا بهذا القبول وهذا الاقرار نحاول أن ندرك بالسياسة وبالدبلوماسية ما لم ندركه بالمدفع .

فهدف حرب ١٩٧٣ - إزالة آثار العدوان - لم يتحقق بعد ، والتسوية المطروحة ، هى مسعى لتحقيق هذا الهدف بالسياسة ، إنما مقابل ثمن هو أن تكون «إزالة آثار العدوان» أو ما يتحقق منها هى نهاية المطاف أو خاتمة الصراع .

ومن صالحنا ، على خلاف ما يظن الكثيرون ، أن نقول صراحة أننا نقبل الهدف ، أما الثمن فمسألة أخرى ، قد نقر به اليوم ، لكننا نترك مصيره للمستقبل .

لأننا ، اذ نقر بهذا التوازن ، وما قد يودى إليه هذا الاقرار ، ندرك فى الوقت ذاته أن أساس هزيمتنا هو ضعف تصميمنا الوطنى ، وليس افتقارنا إلى عوامل القوة .

وأنـــنا نقبل النتيجة المترتبة على هذا التوازن ، أى التسوية المطروحة ، لأنها قد تفسح لنا من المواجهة مع النفس ما يتيح لنا تنمية عوامل قوتنا ويرأب ما فى تصميمنا الوطنى من صدوع .

أى أننا نرى فى حصيلة التسوية – عندما تتحقق إن تحققت – الطريق إلى فرصتنا التى لم ندركها بالحرب .

أى أننا ، وبصراحة جارحة ، نقبل بالتوازن ونسعى إلى ما تسعى إليه التسوية المطروحة من سلام نراه سلاما جريحا أو هدنة مستقرة ، لأن هذا قد يحقق لنا أهدافنا بغير الحرب.

فهدفنا ، بوضوح لا يقبل المضغ أو الغمغمة ، هو أن نهزم الصهيونية : نظرية وحركة وواقعا على الأرض ، فعندئذ تصبح اسرائيل – حتى لو بقيت دولة – كيانا عاريا عن المبرر . كذبة مكشوفة ، تتكفل بها عوامل فشلها .

– ٦ –

أننا لا ندخل إلى مجرى هذه التسوية عراة تماما مما يستر عورة الهزيمة .

فالانتفاضة الفلسطينية هى التى حركت الاجماع الذى يطرح التسوية وبلورته .

وهى التى جعلته يخاف على اسرائيل وعلى سلام العالم من عمق هواننا . لكن علينا هنا أن نعرف حدود هذا الرصيد .

فإذا كانت الانتفاضة تبدو للبعض ، وبما للكثيرين ، تصحيحا لمسار سابق راوغه الصواب ، فإن وعدها كأسلوب حاسم فى النضال قد انقضى مع ما انقضى من تاريخ ، فالانتفاضات أو «حركات المقاومة الشعبية» تجد مكانها الصحيح فى مجرى الصراعات عندما تكون تمهيدا أو مقدمة لالتقاء السلاح بالسلاح ، ثم تصبح مؤخرة مدنية له ، لكن الحاصل هو أن الانتفاضة تخوض مجدها بينما الشعار العربى المطروح هو : «وداعا للسلاح» .

لذلك ، فالانتفاضة بكل ما لها من مجد ، ليست حربا أرقى ولا أفعل من كل الحروب ، إنما هى ، ولسبب لا يرجع إليها ، وإنما يرجع إلى موقعها فى زمن الصراع وتطوره ، هى «الحرب المظلومة» . فهى الحرب التى يقتل فيها المدنيون ويتعذبون ويتألمون ، بينما أصحاب الجيوش والسلاح يطاردون موائد التفاوض .

لأنه ، والوضع هو ما نعرف ، لا مفر من التفاوض .

وعلى هذه القاعدة تتخذ الانتفاضة موقعها الصحيح .

فهى الدعم الأقوى والأكرم لمفاوض يحاول أن يستخرج أفضل النتائج من حرب انتهت بالهزيمة .

- ٧ -

أنه لولا هذا الرصيد ، ولولا معرفتنا أنه هو الذى حرك الاجماع الدولى وبلوره ، ما قبلنا الدخول إلى مجرى هذه التسوية ، حتى ولو كانت قد طرحت .

فنحن نعرف أننا سندخل مفاوضات تسوية مع عدو غير ضعيف الثقة فى قوته ، ويعرف أن ميزان القوى يميل إلى كفته . وأن معقد الاجماع الذى يطرح التسوية هو تحقيق أقصى ما يمكن له محفوفا بأدنى ما يمكن لنا ، لذلك يطرح مطالبه القصوى .

وعندما يطرح عدو هذا وصفه ، مطالبه القصوى ، فإنها تكون هى برنامجه الذين لا يقبل التنازل .

لا يقبل التنازل إلا إذا أدرك أنه يتفاوض مع خصم يعرف أيضا قيمة ما لديه من قوة ، وهذة القوة ليست مجرد الانتفاضة ، وإنما كون الانتفاضة هى التى فرضت إجماعا دوليا يطرح التسوية بعد أن كان ينتظر منا التسليم .

- ٨ -

وأننا ندخل أيضا إلى مجرى التسوية المطروحة ، لأننا نرى فى وضع العدو ما لا يحب أن يرى ، نرى عوامل الضعف التى

تـــدب فيـه ، في داخـــله . فى مـركـزه الدولـــى ، فى عـلاقتـه مع يـهـود العالم .

ونراها عـوامل ضـعف قـد يرعـاها السـلام ، وقـد يـحـفـز اسـتـمـرار الحرب مقاومة لها .

فـالديموغـرافيـا تصـبح تدريجيا عدو اسـرائيل الأول على مسـتويات ثلاثة :

* المسـتـوى الأول أنه ، حل السـلام أم لـم يحل ، يـتـغـيـر التـوازن السكانى فى فلسطين لصالح العرب على حساب اليهود .

وهو تغير تعطله هذه الهجرة اليهودية الضخمة والمضطردة ، والتى تعلق عليه الحركة الصهيونية آمالها .

وقـد أتت هذه الهـجرة بـفعل عوامل لا تتصل بصـراعنا مع اسـرائيل أو الحركة الصـهيـونية ، وأحد الرهانات هو أن تحقيق هذا النوع من السلام لن يكون حافزا علـى الهجرة ، بل وقد يوقف قدرة اسـرائيل على اسـتيـعـاب الهـجـرة ، وفى مـسـعـانـا أن يكون من شـروط السـلام وقـف الهجرة .

* المستوى الثـانـى : أنه بافتـراض أن أبواب الهـجـرة إلى اسـرائيل ستبقى مفتوحة ، وأنها ستبقى قـادرة على الاستيعاب ، وهما شـرطان يرجع تـحـقـقـهـمـا فى مناخ اسـتـمـرار الحـرب وغـيـاب التـسـوية ، فـإن الديموغـرافيا اليهودية هنا ، وليست مـجرد الاسـرائيلية أو الفلسطينية ،

تعمل ضد اسرائيل ، فيهود العالم يتناقصون عددا وبمعدلات غير قليلة ولا بطيئة .

ورغم أن تاريخ الديموغرافيا لم يشهد ارتدادا عن اتجاه مطرد إلى التناقض ، فإن افتراض هذا الارتداد يبقى قائما - نظريا على الأقل ، وتحفزه عوامل الخوف ، أما الطمأنينة فأكفل أن تدع الطبيعة تجرى على أعنتها .

* أما المستوى الثالث : فهو تنامى انقسام التجمع اليهودى فى فلسطين بين سحنتين وثقافتين وحضارتين .

فالمشروع الصهيونى كما نعلم - فكرة وحركة ثم دولة - ولد فى أحضان اليهودية الغربية الاشكنازية ، هى التى فكرت وهى التى نظمت، وهى التى قاتلت ، وهى التى أقامت الدولة ، وهى التى جذبت وجلبت إليها المهاجرين .

لذلك قامت الدولة على قياس الاشكنازيين وتحت سيادتهم ، وكجهاز لتمييزهم وتحقيق الأحلام لهم والأوهام ، كانت هذه ثمار النصر الذى حققوه فاستحقوها .

لكنهم فى تيار هذا كله ، جذبوا وجلبوا إليها مهاجرين يهودا ليسوا منهم : يهودا شرقيين ، يهوديتهم مغايرة ، ثقافتهم مغايرة ، الحضارة التى نشأوا فيها وتوارثوا قيمتها مغايرة ، هى فى الحقيقة أحد أوعية الثقافة والحضارة العربية الاسلامية .

ودون خوض في التفاصيل : في عنفوان المشروع الصهيوني ، كان هذا التمايز غائب الفعالية ، وربما زاد من هذا الغياب مجهود متعمد لتربية عداء للعرب لدى هؤلاء اليهود الشرقيين .

ثم إنه إبان هذا العنفوان كانوا أقل عددا ، وأضعف تعليما ، وأهون تنظيما لكنهم الآن قد أصبحوا الأغلبية المتزايدة .

وهى أغلبية تعيش وضعا بالغ التعقيد ، فيه من التماهى الحضارى - الثقافى مع العدو ، الذى هو نحن ، وفيه من العداء الذى تربى عن عمد ، وفيه من الاحساس بالغربة عن الاشكنار ، وفيه من التمثل بهم والنزوع إلى التماثل معهم ، فيه من السخط على الاشكناز الذين يحكمون فى الدولة ، وفيه من الاحساس «بعزة الدولة» وفيه من عجز الأغلبية العددية عن أن تترجم نفسها إلى أغلبية سياسية ، وفيه من الركون إلى الأقلية العددية التى هى الأغلبية السياسية المتفوقة .

وهم ، بهذه المواصفات وغيرها ، قوة يمكن أن تفعل فعلها فى اتجاهين متضادين :

اتجاه أن يغلب تماهيها الثقافى والحضارى ، وإتجاه أن تغلبها التربية الاسرائيلية . فتقيس نفسها على اليهودى الاشكنازى .

والظن الأرجح ، أن سلاما – ولو كان جريحا أو كان هدنة مستقرة – أولى بتغليب عوامل التماهى الثقافى والحضارى معنا لدى اليهود الشرقيين .

ولولا ادراكنا لعوامل الضعف هذه في اسرائيل ، ورهائنا المحدد – وربما المتفائل – عليها ما جاز أن نقبل الدخول فى مجرى التسوية .

وبالطبع ، ليست هذه كل ما هنالك من عوامل ضعف فى اسرائيل ، إنما هذه هى الأهم ، لأنها الأقرب والأميل إلى الاضطراد ، ولأنها التى تتصل بصلب المشروع الصهيونى .

أى أننا – ولنقل هذا بصراحة جارحة – ندخل إلى مجرى التسوية وهذه العوامل فى حسابنا .

أى أننا نتهيأ للدخول إلى تسوية مع عدو مقضٍ عليه بهزيمة تاريخية ، نريد – بالتسوية – أن نعجل بحلولها ، وأن نجعلها أقل إيلاما وأكثر رحمة ، وليكن هذا هو منتهى اسهامنا الانسانى فى تحسين مصير اليهود .

– ٩ –

أى أننا الآن نقبل الدخول فى مجرى تسوية مطروحة تقوم على تأكيد تقسيم فلسطين ، إنما باعتبارها نقطة الانطلاق إلى إعادة توحيد فلسطين .

نقبل الدخول فى مجرى هذه التسوية باعتبارها حصيلة لتوازن موصوف ، ولذلك فإن مهمتها هى تحقيق قدر من الاستقرار للصراع عند مستوى معين ، كى تبدأ ممارسته انطلاقا من هذا الاستقرار .

فالاستقرار هو الحصيلة القصوى لهذا المستوى من السلام ، وأساسه هو شرعية معينة تحظى بقبول عام من الأطراف ومن الضامنين ، وهى شرعية تعبر عن التوازن الذى سبق وصفه وتعتمد عليه .

إنما لا يجوز الخلط بين هذه الشرعية وبين العدل ، فهذه الشرعية لا يجوز أن تعنى أكثر من اتفاق دولى على طبيعة الترتيبات القابلة للتحقيق ، وليس على الأهداف التى يسمح لكل طرف بالسعى إليها ، إنما الوسائل التى لا يجوز أن يستخدمها كل طرف لتحقيق أهدافه .

فالتسوية التاريخية ، وما نحن بصدده قد يكون كذلك ، تقوم على محاولة التوفيق بين ما يعتبر عدلا وبين ما هو ممكن ، الممكن يتوقف على التوازن . أما العدل فيتوقف على الامكانيات .

فخلاصة التاريخ كله فى الحروب والمفاوضات والتسويات والمصالحات ، أنه عندما تسكت المدافع لا تتهيأ التسوية ، وعندما

تعقد التسوية لا يحل السلام ، وعندما يبرم السلام لا يتحقق العدل ؛

طالما أن القضية لم تجد حلها بعد .

لأنه ، إذا اتخذ المسار الحالى للصراع العربى - الاسرائيلى مجراه ، وحقق مطامحه القصوى ، أى ، إذا انسحبت اسرائيل إلى الحدود التى كانت فيها فى ٤ يونيو / حزيران ١٩٦٧ ، وقامت فى الضفة الغربية وقطاع غزة دولة فلسطينية مستقلة ، وأبرم هذا كله فى إطار تعاقدى . معاهدات سلام بين اسرائيل والدول العربية بما فيها الدولة الفلسطينية المفترضة ، وأحيطت هذه المعاهدات بضمانات دولية ؛

فإن السلام لن يكون قد تحقق .

إنما ستكون قد تحققت هدنة مقبولة من الأطراف جميعا : من العرب ، ومن الدولة الصهيونية ، ومن القوى الدولية التى ضمنت الهدنة تحت اسم السلام .

والهدنة المقبولة لا تعنى بالضرورة ترقب استئناف بالحرب ، مثلما لا يعنى السلام مجرد تجنب الحرب .

فالهدنة المقبولة والسلام الذى يعنى مجرد منع الحرب ، صنوان ، أو هما سيّان بل هما فى الحقيقة الشئ ذاته .

أى أن الهدنة المقبولة هى منع الحرب باسم السلام .

وما نحن بصدده الآن هو السعى إلى هذا النوع من السلام.

لكنه ليس السلام .

فـإذا كنا – العرب والصـهـاينة والعـالم أو دوله المتنفـذة – ننشـد السلام، فالسلام صنو العدل لا يقوم بدونه .

ومـا يتـرتب على هذا أن نـعرف ، أن يـعرف الجـمـيع ، أن الصـراع سوف يتواصـل بأسلحة أخرى ، وأن نعرف أيضا أن الهدنة مهما كانت مقبولة ، إذا كـانت لا تؤدى بالضرورة إلى استئناف الحرب ، ولو بعد حين ، فـإنهـا أيضـا لا تلغى احـتـمـال الحـرب إذا لم يتـحـقق السـلام بالأسلحة الأخرى .

إن من مصلحة السلام أن يستمر الصراع .

– ١٠ –

بما أننا نتكلم باسم أنفسنا ، لا نيابة عن العدو ، فإننا نقول أن الدولة الفلسطينية التى قد تتمخض عنها التسوية فى حدها الأقصى ، رغم أنهـا دون الحق الفلسطينى بكثـيـر ، وتظلم العدل ، فـإنهـا مطلب يستحق النضـال ، بل أنها مطلب دونه نضال لا يستطيع أحد فى هذه اللحظة أن يقيس مداه ، ولا أن يتصور أبعاده ، ولا أن يتخيل مـا قد يحفل به من مخاطر وأخطار .

لماذا ؟

لأن هذه الدولة ، هي الاقرار المتجسد لاعتراف العالم ، وأهم ما فيه اعتراف الحركة الصهيونية ، بأن للفلسطينيين حقا فى دولة وطنية ، شأنهم شأن سواهم من شعوب المنطقة .

فالفلسطينيون يعيشون فى منطقة هي منظومة من الدول الوطنية ، ومن لا دولة وطنية له ، هو ببساطة - فاقد الهوية .

حتى وإن قيل أن الدولة الوطنية - مفهوما وتكوينا - قد عفا عليها الزمن ، وحتى لو قيل مع أنصار اللحاق بالعصر أن العالم يتخطى الآن مفهوم الدولة الوطنية وتكوينها ، فلا الاتحاد السوفييتى دولة وطنية ، ولا الولايات المتحدة دولة وطنية ، وها هى ذى أوروبا تسعى للتوحد من فوق الحدود الوطنية جميعا : حدود السياسة والثقافة واللغة ؛

فالفلسطينيون أبناء لهذه المنطقة من العالم دون سواها وحقهم أن يتميزوا فيها تميز غيرهم من أهلها والقاطنين فيها .

حتى وإن قيل أن الفلسطينيين هم جزء من أمة أكبر هى الأمة العربية ، فهذه الأمة إن كانت يوما سوف تجتمع فى دولة واحدة ، فلسوف يحدث هذا عبر الدول الوطنية العربية القائمة ، ومن لا دولة وطنية له لا دور له ولا صوت فى تشكيل تلك الدولة العربية

الموحدة التى تداعب الأمل والمخيلة عن بعد مازال فى رحم ما هو آت من تاريخ .

- ١١ -

إننا نقبل هذه الدولة الفلسطينية ، بل ونناضل فى سبيل قيامها ، مع أننا نعرف أن هذه البقعة المقسومة من الأرض ، مزدحمة بسكانها ، فأين لها أن تستوعب النصف الآخر من الفلسطينيين ؟

ونعرف ما يترتب على ذلك :

مشكلات توطين حبلى بالتوترات الخطرة ، فى لبنان وفى سوريا وفى الأردن .

وعن التوطين تتوالد مخاوف الولاء المزدوج : ولاء الفلسطينى الذى لم يتسع له ما تبقى من وطنه ، فقبل مواطنة أخرى ليست من اختياره ، ولا من اختيار من فرضت عليهم التسوية توطينه .

ومشكلة «مصداقية ولاء» لابد أن تزداد حدتها داخل اسرائيل . فهؤلاء الفلسطينيون الذين يحملون جنسيتها أصبحت لهم دولة هى منهم على طول ذراع .

فوق هذا وأكثر منه تعقيدا ، مسألة «قانون العودة» المعمول به فى اسرائيل والذى يبيح لليهودى فى أى من أرجاء الأرض أن يهاجر إلى اسرائيل ويحصل على جنسيتها بمجرد أن تطأ قدماه الأرض التى تحتل .

ولا مـــراء فى أن من شـــأن هذا القـــانون إذا بقى أن يكون فى المستقبل حافزا على التوسع ، إلى بذرة خبيثة للحرب .

خصوصا إذا اقترن هذا القانون بمشكلة أخرى هى : أين يقيم الفلسطينى وأين يقيم اليهودى على أرض فلسطين .

فالصهيونية تعتبر أن من حق اليهـودى أن يقيـــم فى أى بقعة يختـــار من «أرض الميعاد» والفلسطينى بغير شـــك يعتبر فلسطين كلها له ، ولكل منهما اليهـــودى والفلسطينى حـــق فى ذاكـــرته التاريخية مهما طعن عليها الآخر . ثم إن الفلسطينيين من غير أبناء الضـــفة والقطـــاع ، بهم ولا شك شـــوق إلى العودة إلى بيوت الأهل أينما كانت .

وبقدر ما يعتمد الفلسطينيون على الحق التاريخى وعلى الحق القانونى للاجئين فى العودة أن اختاروا ، يعتمد الصهاينة على ما يعتبرونه حقا تاريخيا والهيا ولو رأيناه أثريا ، لكن حجتهم القوية عند التفاوض أنه طالما تسمح الدولة الصهيونية لعرب بالإقامة فيها كمواطنين ، فليقابل هذا سماح من الدولة الفلسطينية المفترضة عندما يقبلون بها إذا قبلوا ، بأن يقيم فيها يهود ، لكن اسرائيل أيضا بعقلية المنتصر المزهو والمتعصب ، قد تطلب أن يبقوا على أرض الدولة الفلسطينية مواطنين للدولة الصهيونية يخضعون لقوانينها ويشاركون فى حياتها السياسية .

وهكذا تبدو الدولة الفلسطينية المستقلة فى الأراضى التى احتلتها اسرائيل فى حرب ١٩٦٧ وكأنها ستخلق من المشاكل أكثر مما سوف تحل .

ومع ذلك نقبـل بها ، وليكن واضحـا أننا لا نفعـل ذلك من باب التضحية فى سبيل السلام ، وإنما لأننا نـرى فيها منطلقا نحـو هدفنا الذى هو السـلام العـادل القائم على وحـدة فلسطين ضمن بيئتها العـربية الغالبـة ، بل ونرى فى هذه المشـاكل التى سـوف تترتب على قيامهـا منطلقا عمليا نحو هذا الهـدف .

- ١٢ -

هذه المشـاكل الجـديدة التى سـوف تتـرتب على التسـوية المطـروحة عندما تتحقق إن تحققت ، هى الأسـاس العمـلى لاستمرار النضال .

لأن هذه المشاكل هى التعبير عن الفجوة ما بين حصيلة تلك التسوية وبين العدل ، الذى هو الأساس الوحيد المتين للسلام .

هذه المشاكل ووجهة حلها تشير إلى طريق محدد ، هو أن لا حل لها إلا «إعادة توحيد فلسطين» .

وهو حل يشمل بالعدل حقوق العرب ومـأزق اليهود من سكان اسرائيل . فهذه دولة محكوم عليها بالتحلل والانهيار الداخلى ، وخير

لهؤلاء السكان اليهود أن يحدث ذلك عندما يحدث ، في ظل مناخ من السلام . عندئذ يكونون قد أصبحوا أبناء للمنطقة وبيئتها الثقافية والحضارية ، قادرين على العيش فيها ، جديرين بكل ما تضفيه عليهم هذه البنوة من حقوق والتزامات .

وما تعنيه «إعادة توحيد فلسطين» هى أن تعود إلى ما كانت عليه عند نهاية الحرب العالمية الأولى وبدء تصفية الدولة العثمانية واقتسامها ، عندما كانت فلسطين مفهوما جغرافيا سياسيا موحدا (وإن كان لم يكتسب صفة الدولة حتى ذلك الحين) أى توحيد الأردن والدولة الفلسطينية المفترضة واسرائيل فى كيان سياسى واحد.

عندئذ لن تكون هناك مشاكل استيعاب أو توطين أو ولاء مزدوج ، أو ولاء يفتقر إلى المصداقية ، ولا نزاع على اقتسام الثروات.

إنما ما أسهل إطلاق هذا القول وما أصعب تحقيقه .

- ١٣ -

على هذه الأسس ، يمكن الدخول إلى مجرى التسوية المطروحة بضمير وطنى مرتاح . شرطه اللازم هو وضوح الأفق .

عندئذ لا يصبح التفاوض مع اسرائيل والصلح معها والاعتراف

بها ، وتبادل العلاقات معها . لا يصبح هذا كله ، ولا أى منه ، تراجعا .

إنما يصبح شرطا ضروريا للانتقال إلى مرحلة أخرى من النضال .

طالما بقى هذا كله محاطا بفهم واضح لمعنى هذا النوع من السلم .

فبعد هذا السلم وفى ظله يبقى العدو عدوا ، والفرق بين ما قبل السلم وما بعده ، أن الأخير قرار بالتعايش إلى أن يتحقق السلم الحقيقى باقرار العدل .

وهنا يجب أن يفهم هذا السلم على أنه تحديد واضح متفق عليه لما بيد كل طرف من الحق المتنازع عليه .

ويكون النزاع قد تمت تسويته في إطار ظروف محدودة أملت طبيعة هذه التسوية ، فإن منطق التسوية لا يفترض انتهاء الصراع ، إنما قد يفرض تغيير ادوات التعامل معه .

وفى هذا النوع من السلم بين العرب واسرائيل يجب أن يكون واضحا أن أساسه هو أن مستقبل فلسطين هو توحدها وبقاؤها جزءا لا يتجزأ من بيئتها العربية الغالبة .

وأن التسوية هى خطوة فى هذا الاتجاه .

وإذا كان وضوح الأفق شرطا لازما لقبول النتائج المتوقعة والمفهومة للتسوية المطروحة ، فإن اعلان الأفق على نحو واضح ومسئول ، شرط لازم لهذا الوضوح .

وقيمة الاعلان أنه يشكل مناخ المفاوضات . ففى عمليات التفاوض ، المناخ هو الذى يحدد مجراها ، لأنه إعلان من كل طرف عن فهمه لذاته وللطرف الآخر . والمناخ هو الذى يحدد سقف المطالب وقاع التنازلات .

الفصل الرابع

حيرة عربى وحيرة يهودى

لماذا أعيد نشر هذا الكتاب (*) فى هذا الوقت ؟

ربما لا يستوفى هذا السؤال جوابه دون سؤال آخر : لماذا ترجمت هذا الكتاب ونشرته منذ أكثر من عشرين سنة ؟ فلست مترجما محترفا، بل وقد أقول إننى لا أحب الترجمة ، ومع ذلك نقلت إلى العربية كتبا ثلاثة غير هذا الكتاب (١) وكان دافعى إلى ذلك واحدا فى المحاولات جميعا : يعجبنى كتاب أو يثير اهتمامي إلى حد أن أحس أنه يجب أن ينشر بالعربية ، فأحاول إقناع أحد غيري بترجمته ، فإن فشلت فى هذا المسعى ، قمت أنا بالعمل وأمرى إلى الله . وبالطبع لم يحدث هذا فى شأن الكتب التى أعجبتنى أو أثارت اهتمامى جميعا إلى حد الرغبة فى أن أراها منشورة بالعربية ، وإنما فى هذا العدد القليل منها .

(*) المقصود : كتاب دويتشر الذى سبقت إليه الاشارة .

ولقد أقول أيضا أن هذا الكتاب بالذات قد ألح على إلحاحا خاصا ، لأسباب عديدة قد لا يكون - بينها من صلة سوى المؤلف : ايزاك دويتشر .

بدأت معرفتي بأعمال دويتشر في النصف الأول من الستينيات ، وأذكر أن أول ما قرأته له كانت ثلاثيته عن ليون تروتسكى ، ذلك الرجل الفريد من بين قادة الثورة البلشفية الروسية ، الذى تمرد على الحصار الذى فرضه يوسف ستالين على حلم الثورة الاشتراكية العالمية وعلى الثورة ذاتها فى روسيا «وطن الاشتراكية فى بلد واحد» ، حسب الاختيار الذى رآه ستالين اختيارا واقعيا . وهو التمرد الذى جعل مصير تروتسكى النفى ثم الموت غيلة . في هذه الثلاثية يبدو ليون تروتسكي شخصية رومانسية وتراجيدية من طراز فريد . وقد كتب عنه دويتشر كتابة مؤرخ وفنان ، أوفت التاريخ حقه من التوثيق والتقييم ، بينما الرومانسية وضاءة وآسرة ، والتراجيديا عنيفة وأخاذة .

وكان أن شرعت فى ترجمة هذه الثلاثية ، إلى أن «أنقذنى» من هذه المهمة أن عرفت أنها تترجم فى لبنان .

لكن دويتشر استحوذ على قدر منى ، فسعيت إلى كتبه الأخرى ، وهو هذا البولندى الذى تعلم الانجليزية وعمره يناهز الثلاثين ، فكتب بلغة منها لا يكاد يبلغها كثير ممن تربوا على تراثها ، لغة تجمع إلى الدقة العنفوان وقوة الإيحاء .

وهو هذا الماركسي الذي أصبح من قادة الحزب الشيوعي في بلده في مطلع العشرينيات من عمره ، ثم تمرد على الحزب وعلى الشيوعية «الدولية» عندما صدمته التجربة الستالينية ، فخرج عن الشيوعية كما هي معروفة واستبقى الماركسية أو استبقته حتى آخر يوم في حياته ، وبغض النظر عن قبول الفلسفة الماركسية أو رفضها أو التحفظ عليها ، فإن مفارقة دويتشر تستلفت النظر ، خروج على الشيوعية «الستالينية» وبقاء على الماركسية . ما يستلفت النظر وموقع المفارقة هو نجاته من «الاستدراج الفكري» إن جاز التعبير . ففي الحركات السياسية المذهبية يبدأ الخلاف عادة من السياسة ، لينتهي تدريجيا إلى تآكل الاقتناع بالمذهب ، وفي معظم الأحيان العداء له والانضمام إلى صفوف خصومه، وهو مصير آل إليه الشيوعيون الذين خرجوا على الستالينية جميعا وبلا استثناء يستحق الذكر تقريبا . لكن دويتشر لم يطرق هذا الدرب ، بل وشغلته ظاهرة الاستدراج الفكري هذه ، فوضع كتابا عن أبرز من مضوا عليه ، وكان عنوانه يلخص رؤيته لهم «هراطقة ومارقون».

وفي العنوان رنين من الستالينية ، فلو أن ستالين تناول الموضوع نفسه ، ما خرج عنوانه عن هذه المعاني .

وهو هذا اليهودى الذى حيرته يهوديته ، تربى تربية تكاد تكون يهودية خالصة وفي بيئة يهودية تكاد تكون مغلقة ، وعندما بلغ الثامنة (!) كان قد قرأ أصول الديانة على حاخامات مدينته كراكوفيا ببولندا وأدى امتحان الحاخامية . وفى مراهقته وشبابه الأول كتب الشعر بلغة يهود شرق أوربا - الييدش ، وقرآه على تجمعات اليهود ، وكان فى خروجه على الستالينية شيء من هذه اليهودية ، فقد اندلع الخلاف من رفض الشيوعيين الستالينيين تحذيراته من خطر النازية على اليهود .

ولا يملك قارىء أعمال دويتشر إلا أن يلحظ ذلك الجهد الذى يبذله كى يبدى تماسكا روحيا وانسجاما ، إنما لا يفوته أن فى عمق هذا الذي يبديه جهدا خارقا لتحقيقه ، أى لطمأنة نفسه إلى تماسكه الروحى، وقد وضح هذا فى عنوان هذا الكتاب الذى صدر بعد وفاته : «اليهودى اللايهودى» وليس هو الذى اختار عنوان الكتاب ، وإن كان عنوانا لأحد فصوله ، وهو لم يكتب ما ضمه الكتاب لكى يكون كذلك ، فهى مقالات ومحاضرات وأحاديث إذاعية وصياغة لأحاديث صحفية تفرقت ما بين الأعوام من ١٩٤٦ إلى ١٩٦٧ ، أى عام وفاته ، ثم جمعتها وأشرفت على تحريرها ونشرتها زوجته «تمارا» ، وربما كان العنوان الأوفق هو «اللايهودى اليهودى» ، فقد خرج دويتشر عن يهوديته

خروجا كاملا ، أو هكذا اعتقد ، وبقى يهوديا . والعنوان تعبير ساطع عن حيرته الروحية .

لذلك عندما سمعت بهذا الكتاب سعيت إليه ، وما إن انتهيت من قراءته ، حتى راودنى هذا الشعور بأنه يجب أن يتوافر بالعربية .

إنما كان هذا واحدا فقط من سببين رئيسيين لقرارى بأن أترجم هذا الكتاب ، إذ يبقى سؤال : ولماذا هذا الكتاب بالذات دون غيره من كتبه ؟

والجواب بإيجاز هو ان حيرة دويتشر كانت تقابلها عندى حيرة أخرى ، تختلف وتلتقى .

فى ذلك الوقت ، آخر الستينيات وأول السبعينيات ، كنت فى خضم الخروج من تجربة فى حياتى لها قدرها من الخصوصية وقدرها من العمومية ، أى من الاتصال بالحياة العامة .

ودون الخوض فى كثير مما لا يتسع له هذا الفصل ، وليس هذا مجاله على أى حال ، كنت فى بداية العام ١٩٦٨ ، متأثرا بهزيمتنا الساحقة والمهينة فى ١٩٦٧ ، قد وضعت مهنتى وقلمى (وحياتى الخاصة جانبا) وذهبت إلى الأردن والتحقت بصفوف حركة «فتح» الفلسطينية .

ولم يطل بى الوقت حتى اكتشف أو أدرك أن هذه الحركة التى

تحمل هدف تحرير فلسطين «من النهر إلى البحر» حسب التعبير السائع آنذاك ، يموج داخلها بأفكار وتيارات وقوى تصطرع ، قد يجمعها هذا الهدف ، لكن أيا منها لا يكاد يتضح لديه ما الذى يعنيه بالضبط «تحرير فلسطين» ، ولا كيفية تحقيقه بأى معنى من معانيه ، وكان مصدر هذا الارتباك يدور فى نهاية المطاف حول مصير السكان اليهود الذين يعيشون على أرض فلسطين فى «دولة إسرائيل» وكانت التيارات تتراوح ما بين أكثرها سذاجة المرتكنة إلى العموميات : أن فلسطين بلادنا أو أنها جزء من الأرض العربية وأنها حق للفلسطينيين أو للعرب دون غيرهم وأن مصير اليهود الذين يعيشون على هذه الأرض «ليس مشكلتنا» . وبين من لا يخفي انشغاله بمشكلة هؤلاء اليهود ودولتهم ، فيقول عنهم قائل إن على الدول العربية الأخرى أن تفتح أبوابها وقلوبها لعودة اليهود الذين هاجروا منها ، وأن هذا سيوفر للعرب المبرر الأخلاقى لدعوة بقية دول العالم إلى «استعادة يهودهم» ، ويقول منهم قائل إن اليهود «الآخرين» ، أى الذين جاءوا إلى فلسطين من غير البلاد العربية ، لن يقبلوا – على أى حال – أن يعيشوا تحت حكم عربى (عندما تتحرر فلسطين) ، إلى قائل إنه يجب تصنيف اليهود ليس فقط حسب «أصولهم القومية» ، وإنما حسب «أقدميتهم» فى فلسطين ، فمن كانوا فيها مستقرين قبل «إقامة الدولة» ، لهم دون من عداهم حق البقاء ... إلى ما لا نهاية من التباديل والتوافيق .

ولم تكن الحيرة أقل فيما يخص الطريق إلى «تحرير فلسطين» كان الشعار الشائع هو أن الكفاح المسلح هو الطريق الوحيد ، مع التشديد على كلمة «الوحيد» إلى قائل أن «التحرير» لا يتحقق إلا بوحدة عربية تخنق «الدولة» ثم تجهز عليها ، إلى قائل أن «الكفاح المسلح» من أجل التحرير هو الذى سيحقق تلك الوحدة ، التى هى القادرة دون غيرها ولا أقل منها ، على تحقيق التحرير ، إلى قائل إن العرب قد تكرر خذلانهم للفلسطينيين ، فليس أمام الفلسطينيين إلا «أن يأخذوا قضيتهم بيدهم» ليحرروا أنفسهم وأرضهم ، إلى قائل بأن «التحرير» إنما يعنى «نزع الصهيونية» عن الدولة اليهودية ليسهل إدماجها فى اتحاد عربى لن يلبث أن يستوعب اليهود متفرقين فى بلاد العرب لا متجمعين فى دولتهم ، وأن الطريق إلي هذا هو إقناع اليهود من مواطني الدولة اليهودية أن دولتهم لا توفر لهم الأمن ولن يكتب لها البقاء ... أيضا إلى ما هنالك من تصورات السبل والوسائل .

وكان طبيعيا أن يشارك واحد مثلى فى هذا الجدل ، خصوصا وأننى «هناك» .

وقد كان لبعض أحداث هذه التجربة ما له صلة بقرارى ترجمة هذا الكتاب (وهى صلة أراها الآن فيما كان مختزنا فى وعيى الباطن أنذاك).

من هذه الأحداث أن المناضل الفقيد (وعلى عهدتي : الفريد) خليل الوزير (أبو جهاد) عضو قيادة «فتح» وافق على اقتراح تقدمت به إليه ، بأن تنشىء «فتح» «مدرسة كادر» . وكانت موافقته محاطة بغير قليل من التحفظ الضمني ، فقد اقترح أن نبدأ بدورة تجريبية ، أكون وحدى المسئول عنها ، ويختار هو «الدارسين» فيها . واختار مقرا لها بيتا ريفيا متواضعا في سقبا ، واحدة من قرى غوطة دمشق ، وعين لنا مسئولا عن إعاشتنا واحدا من قدامى المجاهدين الفلسطينيين الذين قاتلوا في حرب ١٩٤٨ ، عرفناه باسم «أبو أحمد» ، وكانت عدتنا - غير الإعاشة - مكتبة متواضعة وبستان فسيح وقرية يحترم سكانها «المجاهدين» . وحدد أبو جهاد للتجربة شهرا واحدا . فإذا اقتنع بنجاحها ، دخلنا بها إلى مرحلة تجريبية أوسع . ولقد استنتجت فيما بعد ، وعلى ضوء خافت من الملابسات ، أن تحفظه كان يرجع إلى عدم حماس أعضاء آخرين في قيادة تلك الحركة بفكرة «مدرسة الكادر» ، كما فهمت أن بعض مراجع عدم الحماس هذا ، ضمن أشياء أخرى هو نوع من «القبلية» أو «العصبية» الذى يوجد على نحو طبيعى فى مثل هذه الحركات التى تبدأ سرية وفى ظروف صعبة تؤدى بها إلى تحالفات متضاربة وإلى عداوات لا تقل تضاربا . وكانت هذه عصبية «القدامى» حيال «المستجدين» ، فالأولون هم الموثوق بهم والمجربون . أما الآخرون

فـ «الله أعلم بهم» . وكنت أنا من «المستـجدين» . إنما على مسـتـوى أوسع كانت تلك الحركة السرية قد فاجـأتها الظروف بنجاح لم يكن فى حسـابهـا ، دفع بهـا إلى العلن ، ودفع إليـهـا بسـيل مـتـدفق من «المستجدين» .

فبعد معركة «الكرامة» فى مارس ١٩٦٨ (٢) ، تدفق هذا السيل من المتطوعين ، ولم تكن قيادة «فتح» تتوقعه ولا كانت قادرة على استيعابه . كما لم تكن تستطيع رفضه ولا كبحه . وفى هذا السياق فإن إنشاء «مدرسة كادر» يعنى عمليا ، ادخال عناصر جديدة ، سيكون أغلبها بالضرورة من «المستجدين» إلى مستويات قيادية ، وكان طبيعيا أن يثير هذا مقاومة «القدامى» .

وبالطبع ، كان هناك أيضا ذلك الحرص على «نقاء» فكر الحركة والتوجس من المدخلات الجديدة .

وعندما أقنعت المرحلة التجريبية الأولى «أبو جهاد» بالفكرة ؛ إنما - فيما استنتج - لم تقنع سواه من أعضاء القيادة ، انتقلت المدرسة إلى مرحلتها التجريبية الثانية . فأصبح مقرها موقعا إلى الجنوب الغربى لدمشق على الطريق إلى بيروت فى مقر مصنع مهجور للحلوى يضم مبنيين وبقايا بستان قاحل وفناء فسيحا وعزلة عن بيئة الحياة العادية . وتقرر أن تستغرق هذه التجربة أشهرا ستة . وأن تصبح مسئوليتها

مشتركة بينى وبين المناضل الراحل سعيد حمامى (٣) . ثم انضم إلينا فيما بعد الزميل القديم فاروق القاضى ، الذى عرف فيما بعد فى الأوساط الفلسطينية باسم أحمد الأزهرى . كما أوكل إلينا - حمامى وأنا - مهمة اختيار «الدارسين» من أوساط مراكز إعادة التدريب العسكرى التابعة للحركة ، بالإضافة إلى أعضاء الدورة التجريبية الأولى .

لكن هذه الدورة لم تكمل عمرها على أى حال ، فقد فضتها قيادة «فتح» بعد حوالى ثلاثة أشهر ، فى انقلاب خاطف ، فى غيبة «أبو جهاد» الذى كان يرعاها ويحميها من المعترضين .

لكن هذه قصة أخرى ، وأيضا ليس هنا مجالها .

إنما أروى هذا الجزء من التجربة لعلاقته فى وعيى الباطن بقرارى ترجمة هذا الكتاب .

فقد كان أسلوب العمل فى المدرسة مزيجا من المحاضرات المثيرة للجدل ، فى فروع عديدة من المعرفة ، والنقاش الحر المفتوح بلا كوابح ، حول الأفكار والأحداث ، وتشجيع القراءة على نحو يستهدف تأصيل المعارف وتنويعها وتوسيعها ، ومناقشة ما يقرأ .

وفى العمر القصير لتلك الدورة ، بدأ يتوضح عندى مدى الحيرة السائدة . ليس فى صفوف المقاومة الفلسطينية فحسب ، إنما التى لابد

أن تمسك بخناق كل من يتعرض للقضية الفلسطينية ، بدءا من محاولة تحديد ما هى هذه القضية ، وليس انتهاء بمن يحاول أن يبحث لها عن حل .

ومن أحداث هذه التجربة أيضا ، أنه فى مطلع ١٩٦٩ ، انتدبتنى «فتح» ضمن وفد لها لحضور مؤتمر الحزب الاشتراكى الموحد الفرنسى، الذى كان يقوده آنذاك ميشيل روكار . وكانت المرة الأولى التى يدعو فيها حزب أوروبى وفدا فلسطينيا لشهود مؤتمره . ورأيت أن أنتهز هذه الفرصة لأختبر بعض حيرتى (وأظنها عندئذ والآن حيرة عامة) وأجرى اتصالا مع بعض عناصر اليسار الإسرائيلى المقيمين فى فرنسا ، وكنت قد سمعت بمنظمة إسرائيلية اسمها «ماتسبين» أى «البوصلة» . واطلعت على وثائقها الأساسية ، كما عرفت أنها تجد قدرا غير قليل من الصدى والاهتمام فى أوساط الشباب فى إسرائيل . وعن طريق زميل فرنسى رتبت لقاء فى باريس مع بعض من يمثلونها .

إنما ما كنت أحسب أنه سيكشف عنى بعض حيرتى ، لم يفعل سوى أن يزيدها عمقا وارتباكا . فهؤلاء الشباب (ماركسيون - تروتسكيون) المعادون للصهيونية ، كانوا يرون حل المشكلة الفلسطينية ومعها المشكلة اليهودية فى الثورة التى ستعم العالم كله ذات حين ؛ ربما وجدت فى هذا تعليقا للمستقبل على المجهول ، إنما يبدو أيضا أننى تعلقت بأمل أو وهم أن يستطيع أمثال هؤلاء أن يكسبوا

رأيا عاما فى إسرائيل . وقادنى هذا التعلق إلى أمر آخر لن يلبث أن يأتى ذكره .

أما الحدث الثالث ، فى تجربتى الفلسطينية ، أو قل إنها «الفتحوية»، والذى أحس أن له صلة بالحيرة التى جعلتنى أترجم هذا الكتاب ، فهو أنه فى أواخر عام ١٩٦٨ ، وقبل لقائى مع ممثلى «ماتسبين» ، كنت ضمن مجموعة عمل انعقدت فى القاهرة ، لصياغة خطاب ألقاه الدكتور «نبيل شعث» (باسم حركة فتح) أمام مؤتمر «نصرة الشعوب العربية» الذى شهدته القاهرة فى نهاية ذلك العام ، وتداولت المجموعة أفكارا متعددة ، وتذاكرت أحداثا من التاريخ القريب للفكر السياسى الفلسطينى ، وفى سياق المناقشة بزغ أمامنا ما اعتبرناه ضوءا ساطعا ؛ كانت لجنة تحقيق بريطانية / أمريكية قد زارت فلسطين فى عام ١٩٤٦، واستمعت إلى شهادات عديدة ، كانت من بينها شهادة للقائد النقابى الفلسطينى سامى طه ، الذى رأى الحل فى إقامة دولة واحدة فى فلسطين تتساوى فيها المصالح والحقوق بين المواطنين ، المسلمين والمسيحيين واليهود على السواء ، وقد أخذت اللجنة بهذا الرأى فى توصيتها الأولى . وعلى هذا الضوء كتبنا خطابا يدعو إلى أن تكون «فلسطين دولة ديمقراطية علمانية يعيش فيها العرب واليهود على قدم المساواة ». وفى اليوم التالى عرضنا مسودة الخطاب على صلاح خلف (أبو إياد) عضو قيادة فتح المسئول عن الإعداد

للمشاركة الفلسطينية فى المؤتمر ، فأقره . وعرف هذا فيما بعد بأنه «خط الدولة الديمقراطية العلمانية» .

وفى البداية ، أحدث الخطاب ما يمكن وصفه بأنه «صدمة ايجابية» فها هم الفلسطينيون لا يريدون «إلقاء اليهود فى البحر» ، بل يريدون التعايش معهم وترددت لذلك أصداء إيجابية أيضا على نطاق العالم ، خصوصا فى أوساط اليهود ، وبدت معالم انقسام حوله فى «الوسط السياسى» الإسرائيلى .

لكن هذا كله لم يلبث أن ذهب أدراج الرياح . فدون خوض فى التفاصيل ، بقيت البرامج السياسية الفلسطينية والممارسات تعتبر «الكفاح المسلح الطريق الوحيد لتحرير فلسطين» واستخدمت الحركة الصهيونية ومؤسستها الإسرائيلية الحاكمة هذا «الكلام» لإقناع الآخرين بأن «الدولة الديمقراطية العلمانية» مجرد دعاية ونفاق .

أما الحدث الأخير الذى سأذكره في هذا الشأن ، فهو أننى فى وقت ما من العام ١٩٦٩ ، كنت ضمن مجموعة عسكرية من «فتح» قامت بضرب هدف مهم فى إسرائيل بصواريخ «كاتيوشا» . وكانت الضربة فى غبشة الفجر ، وكان بوسعنا أن نرى بالعين المجردة ما لحق بالهدف من دمار وما حققناه من نجاح . إنما لم تحل السابعة صباحا إلا وكانت الطائرات الاسرائيلية تقصف المدينة الأردنية التى أطلقت

الصواريخ من تخومها ، وعلى الفور عرفنا معرفة مباشرة فداحة الخسائر التي لحقت بسكان المدينة من المدنيين . ومع نشرة الأخبار الأولى من الإذاعة الإسرائيلية ، سمعنا بخسائر اسرائيل ، وقالت تلك الإذاعة فيما قالت أن من بين المصابين طفلة رضيعا تمزقت أحشاؤها ونقلتها طائرة مروحية إلى مستشفى في وسط اسرائيل . وكان ضمن المجموعة التي نفذت العملية : سعيد حمامي . وما إن طرق سمعه ذكر الطفلة الرضيع ، حتى قال في هدوء كظيم كان يتميز به عند الغضب : لسنا مناضلين ، نحن مجرمون وقتلة . تخيل لو أن غارة إسرائيلية أصابت «رشا» أو «مصعب» (طفليه) وقال إن هذه هي نهاية صلته بالعمل العسكري ، ليس فقط ممارسة ، وإنما مجرد التأييد .

وربما كنت في ذلك الحين أكثر «برودا» أو أقل حساسية من سعيد حمامي . ففهمت غضبه لكني لم أفهم قراره . فهؤلاء الإسرائيليون يقتلون منا ، كبارا وأطفالا ، كل يوم ، ثم : أليست هذه هي الحرب ؟

إنما فيما بعد ، أخذت أسأل نفسي إن كانت الحرب هي السبيل ؟ وحتى هذه اللحظة لم أصل بيني وبين نفسي إلى إجابة على هذا السؤال.

إنما بقي السؤال يمسك بخناقي ويزيد حيرتي عمقا .

أما الأمر الآخر الذي قادني إليه لقائي مع جماعة «ماتسبين» ، فهو

أنني بعد أن تركت «فتح» وعدت إلى مصر ، شرعت فى وضع كتاب عن «الاتجاهات غير الصهيونية فى إسرائيل» . وانتهيت منه ودفعت به إلى واحدة من دور النشر ، فقبلت نشره .

إنما بعد ذلك أقلقنى الكتاب ، واستبد بى هذا القلق أثناء زيارة قمت بها إلى لندن ، فأبرقت من هناك إلى الناشر أطلب ألا ينشر الكتاب . ولم ينشر .

لماذا فعلت هذا ؟

كان ما اقلقنى فى الكتاب هو ما أسميه الآن «طابعه المعملى» . ففى ذلك الحين كان فى اسرائيل العديد من الحركات السياسية والدينية الصغيرة المعادية للصهيونية ، وبعضها يرفض من الأساس وجود دولة يهودية أو دولة لليهود . وتلك الحركات هى التى تناولتها فى ذلك الكتاب. وبعد أن انتهيت منه لم أحصد إلا القلق . إذ أدركت أنه عندما يركز الكاتب اهتمامه ونظره على ظاهرة محددة ، فإنها ستبدو للقارىء أكبر من حجمها بكثير . ومهما تحفظ الكاتب إلى نسبية الظواهر والأشياء ، فإن قيام هذا الانطباع لدى القارىء وارد وباحتمالات كبيرة . وعندئذ ألا أكون مذنبا بخلق «وهم ما» لدى القراء العرب ، وهو وهم له أخطاره البالغة ؟ ألا أكون مذنبا بتعليق المستقبل على المجهول كما تفعل جماعة «ماتسبين» وهو ما أخذته عليها ؟

وكان وضع الكتاب ثم النكوص عن نشره عنوانا آخر من عناوين «حيرتى العربية» التى تقابل «الحيرة اليهودية» التى أحسستها فيما يكتبه إيزاك دويتشر.*

لكننى لم أكن قد قرأت بعد شيئا مما كتبه دويتشر عن اسرائيل أو الصهيونية أو فلسطين أو العرب .

إنما فى ذلك الوقت تقريبا ، قرأت له هذا الكتاب ، فقررت أن أترجمه لعله يساعدنى على أن أشرك غيرى فيما أعانى من حيرة .

وفى ذلك الحين ، كتبت لهذه الترجمة مقدمة (قصيرة تميزت بالتحفظ) . أو قل إنه الحذر ، فالكتاب «يساعد على الفهم» .

لهذا - إذن - ترجمت هذا الكتاب فى سنة ١٩٧٠ .

فلماذا أعيد نشره الآن ؟

أبدأ بأن أقول إنها مصادفة ، لكن هذا يحتاج إلى تفصيل .

كنت مع مضى الزمن واضطراب الحياة ، قد فقدت الكتاب ، طبعته الأصلية بالإنجليزية وترجمتى له إلى العربية . لكن أمرا ما - لا أعرفه - جعلنى أتذكره دون أن أتذكر شيئا محددا من محتوياته ، أو أنه كان مختلطا بما قرأت فى غيره وممتزجا .

إذ يبدو أننا عندما نستوعب ما نتلقى من أفكار ، تدخل فى سياق تفكيرنا العادى ، لا مقبولة كلها ولا مرفوضة كلها ، ولا تعود تتمايز

فيما بينها ، ولا فيما ساعدتنا على تكوينه وتشكيله من آراء . حتى يصعب أن نكون قادرين على أن ننسبها إلى مصدرها .

ولذلك ، عندما تذكرت الكتاب ألح عليّ سؤال ذاتى : يا ترى ما هى أفكارى المتعلقة بما تناول من موضوعات ترجع إلى هذا الكتاب ؛ إثباتا أو نفيا ؟ ما الذى ساعدنى هذا الكتاب على قبوله من أفكار وما الذى ساعدنى على رفضه منها ؟ على أى نحو أسهم فى صياغة تفكيرى ؟ فأخذت أبحث عن نسخة من الكتاب ، إلى أن وجدت نسخة من الترجمة وقرأتها . وعند تلك القراءة المتأخرة ، كانت قد تغيرت أمور كثيرة .

كانت البيئة التى يجرى فيها هذا الصراع العربى / الإسرائيلى ويدور ، غير البيئة التى كانت سائدة وقت أن ترجمت الكتاب وكتبت له تلك المقدمة المتحفظة والحذرة .

وليس هنا مجال التعرض لما تغير فى هذه البيئة ، فمجرد سرد الأحداث والتطورات التى أدت إلى هذا التغير ، فضلا عن تحليلها وتصور آثارها ، يحتاج إلى كتب عديدة وكثرة من المؤلفين .

لكن ما قد يتسع له المجال هنا هو القول إن الموقف العربى قد أحاط به تغير كبير ، من أهم معالمه انحسار موجة القومية العربية أو انكسارها وخفوت الاقتناع بها خصوصا فى صفوف ما تعرف بأنها «النخب السياسية والفكرية» وأن هذا شمل النظرة إلى الصراع ومكانه فى تسلسل الأولويات العربية . وأن الانقسام العربى قد دخلت إليه

خطوط فاصلة مستجدة ، في مقدمتها حلول الانقسام على قاعدة من الثروة والفقر محل الانقسام على قاعدة من الراديكالية والاعتدال . وأن الانقسام العربي بصيغته المستجدة قد ازداد عمقا بينما أصبحت أساليب معالجته أكثر خفوتا أو هدوءا ، ربما على أساس من القبول المتبادل أو الاعتماد المتبادل . وكان السلام المصرى / الإسرائيلى الذى وقع منفردا فى تلك الفترة ، وأيا كان الرأى فيه ، قد أصبح من المكونات التى لا يمكن تجاهلها فى بيئة الصراع وأخذ يدرج لكى يصبح (أو هو قد أصبح) توجها عربيا عاما . وكانت حرب ١٩٧٣ التى أنتجت هذا السلام ، ثم حرب ١٩٨٢ الإسرائيلية / الفلسطينية / اللبنانية ، قد أنتجتا معا معالم اقتناع عربى بأن الحرب ليست هى الوسيلة المثلى ، أو على الأقل أنها ليست الوسيلة الوحيدة أو الفعالة لمعالجة هذا الصراع . وأصبح الجدل يدور حول شروط السلام مع إسرائيل وليس حول السلام معها من حيث المبدأ . وخرجت من التصور العربى لمآل هذا الصراع أفكار من قبيل «عودة اليهود من حيث أتوا» ، ومن قبيل أن يعيش اليهود كأقلية دينية قومية ضمن دولة عربية فلسطينية أو أكبر من فلسطينية . وفتحت الحرب الأهلية اللبنانية العيون العربية وبقسوة شديدة ، على أوضاع الأقليات الدينية والعرقية أو القومية التى تعيش وسط الأغلبية أو الأغلبيات العربية على مستوى ، والمسلمة على مستوى آخر ، والمسلمة السنية على مستوى ثالث ، من الأكراد إلى البربر إلى

الزنوج ، ومن الموارنة إلى الشيعة ، وبدأ يدخل إلى الوعى العربى تفكير فى تلك الأقليات يتحول من التجاهل والاستثناء والتسامح إلى الإقرار بالحقوق .

وبالطبع ، ليس هذا حصرا لمعالم التغير فى البيئة العربية ، وإنما كان هذا التغير يتميز بصفات أساسية ثلاث :

١ – أنه شمل الفلسطينيين فيمن شمل من سواهم من العرب . وأقصد بالفلسطينيين هنا المؤسسة الكبرى المعبرة عنهم – منظمة التحرير الفلسطينية – وبفصائلها جميعا الراديكالية منها والمعتدلة ، وما كان «برنامج النقاط العشر» الذى أقره المجلس الوطنى للمنظمة فى عام ١٩٧٤ ، و «جبهة الرفض» التى اصطفت ضده إلا من مخاض هذا التغير ، فقد أقر هذا البرنامج إقامة «سلطة وطنية فلسطينية» على أى جزء من الأرض الفلسطينية يتحقق «تحريره» . وكان رفض «جبهة الرفض» يدور حول ما يعنيه هذا بالنسبة لمستقبل الصراع ، أكثر مما هو رفض لفكرة «قيام سلطة وطنية فلسطينية» تتوازى مع اسرائيل وتتجاور ، وإن كان ظاهر لغة تلك الجبهة يتباين مع ذلك ، فالمقياس الأولى بالاعتبار هو أن «جبهة الرفض» تلك بقيت فى صفوف المنظمة وكأنها حزب معارضة برلمانية .

٢ – أن هذه التطورات ، شأن التطورات التاريخية عموما فى كل زمان وكل مكان وحيال كل قضية ، لم تكن متجانسة ، لم تكن صفتها

الغالبة التحرك التاريخى إلى الأمام ولا الارتداد التاريخى إلى الخلف ، كانت تفاعلات حياة يدور فيها ما يدور فى الحياة من زيادة ونقصان ، من تقدم وتأخر ، من اندفاع وتعثر ، من ائتلاف وتضارب ، إنما هذه التغيرات ولدت احساسا عربيا يكاد يكون شاملا بالتراجع والهزيمة ، وشاعت فى التعبيرات العربية كلمات من قبيل «الزمن الردىء» ، كما شاع بين العرب تسليم بالهامشية والعجز عن الفعل ، وأصبح جدلهم يدور حول تأثيرات التطورات والأحداث وأفعال غيرهم عليهم . وغاب عن هذا الجدل أو كاد ، الحديث عن دور لهم أو فعل ، شاع التسليم بأننا «موضوع» بلا «ذات» . «الذات» هى الآخر ونحن «الموضوع» ، وإن دار الحديث عن دور للعرب أو فعل ، تدهور إما إلى المثل وإما إلى التصورات فضلا عن الادعاءات . وأصبح الحنين إلى الماضى قريبا كان أو بعيدا حالة نفسية شائعة ، أصبحت «السلفية» عامة ، وتكاد تكون شاملة ، لا تقف عند حد ما يرتكز على الدين ، والبديل الشائع لهذه السلفية ، إن كان لها بديل شائع ، أصبح هو السعى إلى الاستعارة والمحاكاة والنقل عن الغير ، والذى هو «الآخر» الذى هو الغرب ، والذى كان هو «العدو» حتى وقت قريب ، وفى أعمق أعماق الوعى لا يزال ، إنما أصبح يبدو وكأنه «عدو محبوب » .

٣ - أن أيا من هذه التغيرات لم يكن حاسما ولا نهائيا ، ولم يزل كذلك ، لذلك أراها إلى التقلصات والمخاض أقرب ، ولعل فى هاتين

الصفتين الأخيرتين شيئا من معالم الفترات الانتقالية فى التاريخ ، أو أن هذا ما بقى لدى من أمل أتعلق به . لكن المقلق هو شيوع التخلى عن الإرادة كظاهرة اجتماعية وجماعية ، الذى يعبر عنه شيوع النظر إلى الذات باعتبارها موضوعا .

وإذا كانت البيئة العربية الحاضنة لهذا الصراع قد تغيرت على هذا النحو (وأكثر وأعقد) ، فإن اسرائيل والحركة الصهيونية ويهود العالم ، قد أصابهم بدورهم وبالضرورة قدر غير قليل من التغير ، لن أتعرض (هنا) إلا لأقل القليل منه ، ففيما يخص إسرائيل ، كانت قد دخلت فى تجربة احتلال أرض لا يسلم لها بها مجتمع الدول شأن الأراضى التى أقيمت عليها فى ١٩٤٨ . واشتبكت اشتباك حياة أو موت مع عرب غير الذين حاولت وتحاول منذ ١٩٤٨ ، استيعابهم وعزلهم فى الوقت ذاته ، وهى محاولة عزل مزدوجة ، عن المجتمع اليهودى فى إسرائيل من ناحية وعن بيئتهم العربية من الناحية الأخرى . واتصور أن ترددها فى ضم ما احتلت من أرض ، لا يرجع إلى محاذير الشرعية الدولية ، بقدر ما يرجع إلى محاذير التفكير الصهيونى أو العقيدة الصهيونية ، وهو ما يعبر عنه الخوف على «يهودية» الدولة ، وبقدر ما يرجع إلى حيرة تشبه حيرتنا ونحن ننادى بتحرير فلسطين أمام وضع السكان اليهود فى إسرائيل ، وما سياسة التهجير الجماعي المعروفة باسم «الترانسفير» والتى تراود اسرائيل ، إلا المقابل الإسرائيلي لفكرة «عودة اليهود من

حيث أتوا» التى نادينا بها ذات حين . كما أنه فى هذه التجربة يمثل أمام إسرائيل ما أصبح يعرف باسم «القنبلة الديمجرافية» ، أى تفاوت التزايد السكانى الطبيعى بين اليهود والعرب فى إسرائيل وفى الأرض التى تحتل . كما واجهت اسرائيل فى سياق هذه التجربة اهتزاز الصورة التى تحرص على أن تقدم عن نفسها إلى العالم ؛ صورة تلك الدولة «الإنسانية» و «الديمقراطية» ، كما أن المتغيرات العربية التى ترى فيها كثرة العرب انكسارا وتراجعا ، تبدو فى رؤية اسرائيل حبلى ببذور النهوض والتقدم ، بدءا من القدرة العسكرية العربية التى عبرت عن احتمالاتها فى حرب ١٩٧٣ ، إلى قدرة المقاومة الشعبية ، أى غير الرسمية سواء فى برود «السلام المصرى / الاسرائيلى» ، أو فى المقاومة اللبنانية أو فى الانتفاضة الفلسطينية ، إلى تقدم انتشار التعليم والتخصص العلمى عند العرب بالمقاييس النسبية ، إلى ما تراه إسرائيل نضجا وواقعية فى التفكير السياسى العربى ، على نحو تراه يضعها فى خطر مواجهة السلام بعد أن تعودت على رؤية نفسها فى مواجهة خطر الحرب ، وعلى نحو ما تنبأ به كاتب يهودى فرنسى «مارك هيليل» فى ١٩٦٨ .

وبالطبع ، ليس هذا كل ما هنالك من تغيرات على تلك الجبهة ، فالحركة الصهيونية آخذة بتخفيض مثلها النهائية ، فتحل «الدولة اليهودية» محل «دولة اليهود» . وتعبر اليهودية العالمية من آن لآخر عن

تململها من سياسات اسرائيل أو من مطالبها ، ويتوضح مدى الوهم فيما اختارت إسرائيل وقيادتها الصهيونية أن تتصوره من «وحدة روحية» و «ارتباط مصير يهودي» بينها وبين يهود العالم ... وغير هذا كثير .

لكن لب هذا التغيير أن ثقة اسرائيل بنفسها ، لم تعد كما كانت تبدو . وأن حيرتها أمام مصيرها ، أصبحت توازى الحيرة العربية أمام المسألة الفلسطينية ، إن لم تكن أكبر .

ولقد جرت هذه التغيرات كلها ، وغيرها كثير ، ومع ذلك بقى معناً صراع عربى / إسرائيلى يطلب حلا .

هذا فى الشأن العام .

أما فى الشأن الخاص ، أى شأنى ، ففى تلك الفترة انتقلت بحياتى مرة أخرى إلى خارج مصر . وفى هذا الانتقال امتزجت ضغوط عامة بأسباب شخصية ، لكن ما استطيع قوله هنا إننى قضيت أحد عشر عاما من نهاية ١٩٧٥ إلى نهاية ١٩٨٦ فى غربة إنما لم اغترب ، أو حاولت جهدى ألا أغترب . توزعت تلك الفترة ما بين بريطانيا ولبنان والولايات المتحدة الأمريكية علي الترتيب وعلى تفاوت فى عدد السنوات. وتخللها سفر غير قليل . وفيها توفر لي احتكاك متفاوت الاقتراب مع ثقافات وحضارات وتجارب وأفكار ، تأملتها وحاولت فهمها ما استطعت، وبإيجاز ، كان لما جرى علىّ فيها تأثيره الكبير على تفكيرى.

لكن مجمل هذا التأثير لا يخرج عن محاولة أن أستوعب ما يحل بالعالم وبما يخصنا منه من تغيير ، ما استطعت . وأن أتوصل فيه إلى ما اعتقد صوابه من استنتاجات . ومجمله لا يخرج عن هذه النتيجة ذاتها وهى أنه أيا كانت التغيرات والتطورات ، فهذا الصراع العربى / الاسرائيلى لم يحل بعد ، وأن تصور حله لابد وأن يكون على خلاف ما درجنا عليه وتربينا ، أى الرفض المطلق لاسرائيل بسكانها ، وأن وسائل حله لابد وأن تتغير .

وعاد إلى ذاكرتى ذلك المشروع السياسى القديم الذى أسهمت فى صياغته ، مشروع «الدولة الفلسطينية الديمقراطية التى يعيش فيها العرب واليهود على قدم المساواة» . وبدأت أفكر فى أن هذا المشروع المفعم بالمثالية والعدل ، قد ضاع أدراج الرياح أو دفنته الرمال . ورحت أتأمل ما الذى أدى به إلى هذا المصير . وتوصلت إلى أن قدر المسئولية الذى يتحمله الصف الذى أنا فيه ، يمكن تلخيصه فى أن من يقول بهذه الفكرة ، لا يقول فى الوقت ذاته إن «الكفاح المسلح هو الطريق الوحيد لتحرير فلسطين» . فالحرب ليست الوسيلة الوحيدة لحل المشاكل مع من نتصورهم شركاء فى الوطن ، لكن هذا هو ما حدث . ولا تغنى أسباب حدوثه شيئا فى تدارك الخسارة إلا بالتعلم من تلك الأسباب . لكن ، وفى الوقت نفسه ، لم يغب عن تفكيرى أن معالجة هذا الصراع تحتاج إلى مزيج من العنف والسياسة مع دقة النسب فى هذا المزيج ، وتغيرها

وتفاوتها حسب ظروف الصراع ومجرياته وتطوراته ، وأصبح يتردد على تفكيرى مثال المؤتمر الوطني الإفريقى بقيادة نلسون مانديلا ، فهو من ناحية قد وضع «الكفاح المسلح» في مكان بين الوسائل ليس على رأسها فضلا عن أن يكون وسيلة وحيدة ، وهو ، من ناحية أخرى ، رفض التخلي عن العنف ، وما زال يرفض حل الجناح العسكرى للمؤتمر رغم وصول المفاوضات لتصفية الحكم العنصرى إلى مراحل متقدمة (*) .

كان هذا هو قدر المسئولية الذى يتحمله الصف الذى أنا فيه ، وهو لا يعفى الآخرين من مسئوليتهم ، على أى نحو وبأى قدر .

وفى ١٩٨٨ ، حاولت صياغة بعض أفكارى فى مقال لمجلة «الهلال» حول «مستقبل إسرائيل» ، واختصار هذا المقال أننى لا أرى لها - كما نعرفها وكما هى قائمة - أى مستقبل (٤) .

وفى ١٩٨٩ ، وكنت فى زيارة طويلة لباريس ، وجدت نفسى استجمع حصيلة ، مناقشات مطولة ، بعضها مع صديقى القديم لطف الله سليمان أمد الله فى عمره (**) ، ومعظمها مع صديقة لبنانية

(*) رفض «المؤتمر الوطنى الافريقى اعلان «التخلى عن العنف» إلى أن تسلم السلطة فى البلاد عن طريق الانتخاب وفقا للدستور المؤقت الذين توصلت إليه المفاوضات .

(**) توفى لطف الله سليمان فى ١٩٩٥.

يستهوينى ويستفزنى دائما الجدل معها ، فهى تداوم على اعتـــراض أفكارى على نحو يضيف إليها وينضجهـــا ، هى «ليلى غانم» . ورغم تمكنهـــا من ناصية ثقافة واسعة ، وتمتعها بذهن متوقد تمتزج فيه طاقة فنية لم تجد تعبيرها بعد ، فهى - على كرمها - بخيلة أو كسول ، نادرا ما تكتب .

المهم . استجمعت حصيلة هذه المناقشات فى مقال طويل ، هو بالبيـــان أشبه ، واخترت له عنوانـــا «من التسوية إلى تحرير فلسطين» .(٥) ولا أحتاج إلى القول إن لطف الله سليمان وليلى غانم اعترضا على الكثير منه . وبالطبع لا يحمل أيهما أى مسئولية عنه . ودفعت بالمقال إلى صديقى وزميلى بلال الحسن ، الذى كان يرأس تحرير مجلة «اليوم السابع» على مدى عمرها القصير (حوالى ٨ سنوات) ، واقترحت نشره فاتحة لنقاش حول «المسألة الفلسطينية» . وإذ كانت المجلة تعبر على نحو غير رسمى عن منظمة التحرير الفلسطينية ، فقد رأى بلال أن يبدأ بعرض المقال على بعض قادة المنظمة . وبعد مفاوضات أحسست بما بذل فيها بلال من مشقة ، لم ينشر المقال ، وبقى طى أوراقى ، حيث كنت أتحين فرصة أو مجالا لينشر من منبر فلسطينى ، وقد كانت «اليوم السابع» وكما تبين فيما بعد - للأسف - ملجأ أخيرا .

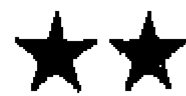
إنما نشر المقال بعد ذلك ، فى صيف ١٩٩١ ، فى وقت واحد فى كل من «السفير» اللبنانية و «صوت الكويت» التى كانت تصدر فى لندن .

بعد ذلك خطر على ذهني هذا الكتاب الذى ترجمته ونشرته منذ أكثر من عشرين سنة .

فلما قرأته تلك القراءة المتأخرة ، تراءت لى فائدة إعادة نشره بعد هذا الزمن ، فلعل من بعض حكمة إيزاك دويتشر ، التى تبدت فى بعض ما تضمنه هذا الكتاب من فصول ، أنه لا يرى حلا للمسألة الفلسطينية/ الاسرائيلية إلا أن يكون منصفا للطرفين ؛ الفلسطينيين الذين طردوا وأهينوا ، والعرب الذين هزموا وأهينوا وانتهكت آمالهم ، ولليهود الذين هاجروا إلى إسرائيل ، بعضهم بأوهام الحلم الصهيونى وجاذبيته لهم ، وبعضهم بعد أن انهارت ثقتهم بالحضارة المسيحية - اليهودية الأوروبية، لكنهم ذهبوا إلى فلسطين أو إسرائيل ، ليعيشوا على فتات أفضالها ، ويحتموا بنفاق دعمها مقابل أن يكونوا عملاءها وحراس مصالحها . وبعضهم بتأثيرات دينية أو أوهام أسطورية .

وأعتقد - واثقا - أو أننى أتطلع - متمنيا - أن يجد القارىء فى بعض ما كتب دويتشر ما وجدت ، وأنه لن يقبل من أطراف أفكاره ما لم أقبل ، وسيتحفظ على ما أتحفظ عليه ، على خلاف فى المواضع والتأكيدات والتخفيفات .

ولعلنى لم أخطىء



تذييـــل

كتب هذا الفصل في شهر فبراير ١٩٩٣ ، أي قبل أن يتوصل الفلسطينيون والإسرائيليون إلى الاتفاق المعروف باسم «غزة – أريحا أولا» ، وكان من بين العناصر الرئيسية وراء ما ورد فيه – الفصل – من أفكار واقعة لم تذكر فيه ، وملخصها أن كاتب هذه السطور ، في سبتمبر ١٩٩٢ قد تداول مع عضو اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية محمود عباس (أبو مازن) في فكرة فتح «مسالك» غير رسمية بعضها غير علني ، توازي المفاوضات العلنية التي كانت دائرة في واشنطن في ذلك الحين بين الفلسطينيين والإسرائيليين . ويقر الكاتب أنه في تلك المداولة كان يحبذ هذا المسلك ، ويسجل – على مسئوليته – أن الفلسطيني الذي كان في ما بعد هو المفاوض الرئيسي حول الاتفاق المذكور ، قد شاركه هذا الرأي ، بل وأبدى أنه يستطلع سبلا لفتح مسالك تفاوضية من هذا القبيل .

هوامش الفصل الأول

(١) الكتب التى أشير اليها هى :

١ - الدون الهادىء ؛ رواية الكاتب الروسي ميخائيل شولوخوف الحائز على جائزة نوبل للآداب عام ١٩٦٥ ، ولم يقدر لهذه الترجمة أن تنشر كاملة . فقد صدر القسمان الأول والثانى منها عن دار النديم بالقاهرة عام ١٩٥٨ ، وقبد اغلقت تلك الدار ضمن الحملة على الشيوعيين فى مطلع ١٩٥٩ .

وفى ١٩٦٥ وبعد حصول شولوخوف على جائزة نوبل ، طلبت منى «دار الكتاب العربى» (الآن : الهيئة المصرية للكتاب) حقوق نشر الترجمة الكاملة ، وأعادت طبع القسمين اللذين سبق نشرهما ، وضاعت ترجمة القسمين الآخرين فى دهاليز تلك المؤسسة بعد صدور أمر طبعهما ، وهو ما كان قد طمأننى إلى التخلص مما كان عندى من نسخ هذه الأصول !

٢ - الاقتصاد والادارة فى مصر فى مطلع القرن التاسع عشر ؛ بالاشتراك مع الدكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى . دار المعارف - القاهرة - ١٩٦٧ وهو ترجمة كتاب The Agricultural Policy

of Mohamed Ali in Egypt تأليف هيلين آن ريفيلين ، وقد تغير العنوان في العربية لأن الرقابة آنذاك كانت تمنع ذكر اسرة محمد على فى عناوين الكتب !

٣ – مدخل إلى التاريخ الاقتصادى للشرق الاوسط للكاتب الاسرائيلى ن . هرشلاج – دار الحقيقة – بيروت – ١٩٧٢ .

كما ترجمت للبرنامج الثاني – الثقافي – فى الاذاعة المصرية الأعمال المسرحية للكاتب الروسى الكسندر بوشكين ، ومسرحيتين للكاتب البريطانى جون أوزيورن هما : «لوثر» و «تحت غطاء شفاف» .

ولم يطبع أى من هذه الترجمات .

(٢) الكرامة : مخيم فلسطينى تحول إلى قرية ، يقع فى غور الأردن شمال جسر اللبنى ، بعد حرب ١٩٦٧ أصبحت الكرامة «قاعدة ارتكاز» لقوات المقاومة الفلسطينية . وشنت عليه اسرائيل هجوما جويا وبريا فى ٢١ مارس ١٩٦٨ وأبلى الفلسطينيون والجيش الأردنى بلاء حسنا .

(٣) سعيد حمامي : مناضل فلسطينى أغتيل فى لندن فى يناير ١٩٧٨ ، وكان ممثلا لمنظمة التحرير الفلسطينية في العاصمة البريطانية، ورغم أن قضية اغتياله لم تحل بعد ، شأنها شأن كثيرات مثلها ، فإنه يعتقد أن للاغتيال علاقة غير مباشرة بالحدث الذى أرويه

هنا ، فقد كان تحوله إلى «الديبلوماسية» مترتبا على تلك التجربة ، وفى عمله الديبلوماسى تولى بعض مسئولية الاتصالات السرية مع شخصيات اسرائيلية للبحث عن أرضية مشتركة لحل الصراع .

(٤) انظر الفصل الأول .

(٥) انظر الفصل الثالث .

القسم الثانى :

اليهودى اللايهودى

مقدمة الطبعة الأولى

قيمة هذا الكتاب لا تمثلها الآراء والأفكار والاحكام التى يقدمها مؤلفه اسحق دويتشر . فهذه الآراء والأفكار والأحكام الصائبة كثيرا ، المخطئة قليلا ، الموضوعية أحيانا ، المتحيزة أحيانا ، العلمية أنا، والعاطفية أنا ، نقول هذه الآراء والافكار والاحكام ، فى قيمتها الكبيرة وعلى أصالتها وعمقها ليست هى وحدها التى تعطى الكتاب قيمته . قيمة الكتاب أنه صدر عن دويتشر بالذات ، أو بالأحرى عن تجربته بالذات .

فقيمة تجربة اسحق دويتشر ، من زاوية المشكلة اليهودية وإسرائيل، ناجمة عن أنها تجربة تمت فى ثلاثة اتجاهات :

أولا : تربية وثقافة يهودية عميقة واسعة ، تعرضت من قبل صاحبها الى إعادة نظر نقدية ، يغلب عليها الموقف العلمى الأصيل .

ثانيا : ثقافة ماركسية واسعة ، يعمقها ويؤصلها، ويزيد من قيمتها ثقافته التاريخية الواسعة وتحرره من الدوغمائية والذرائعية .

ثالثا : تجربة وممارسة واسعة فى الحياة فى المجتمع الغربى ، وهى أيضا تجربة استوعبها النقد العلمى الدقيق ، وشغلت من حياة صاحبها نصفها الأنضج .

لذلك ، فقيمة الكتاب أساسا ، ليست في أنه كتاب يقف معنا أو ضدنا ، أو في أنه كتاب يقدم لنا حقائق جديدة لا يقدمها كتاب غيره ، وإنما في أنه كتاب «يساعدنا على الفهم» ، بسبب نوعية تناول كل من القضية والمادة، ذلك التناول الذي يتم من خلال تجربة خاصة جدا ، وعامة جدا ، في وقت واحد ، وتكاد تكون فريدة .

فمن بين المفكرين اليهود في الغرب ، دويتشر أحد القلائل الذين عاشوا وعملوا في قلب يهودية شرق أوروبا ، التي انتهى بها المطاف ، قاعدة واحتياطيا للحركة الصهيونية العالمية .

ومن بين المفكرين الماركسيين ، ذوي الأصول اليهودية ، دويتشر أحد القلائل ، الذين تجاوزوا مرحلة المعارضة الديمقراطية ، على مستوى أو النكوص النظري على مستوى آخر .

ومن المفكرين الماركسيين ذوي الأصول اليهودية الذين تمردوا ، دويتشر هو ـ عدا تروتسكي ـ الوحيد الذي عاش الحياة الغربية . علما بأن تروتسكي ، المثل الأعلى لدويتشر ، لم يكن يهوديا بأي معنى ، سوى معنى وراثة الديانة شكليا عن الأبوين .

فالكتاب ، خلال هذه التجربة المتشابكة شبه الفريدة ، يعاوننا على فهم قضيتين :

الأولى: كيف نعالج الموقف من قواعد الحركة الصهيونية عموما ، ومن جماهير اليهود في إسرائيل على وجه الخصوص .

ويوضح الكتاب أن تلك قضية لا تحتمل التبسيط الشائع ، بل أن هذا التبسيط الشائع يشكل كارثة بالنتيجة .

الثانية : كيف نفهم ونعالج قضية موقف أجزاء واسعة من اليسار العالمي من الحركة الصهيونية واسرائيل .. دون أن نقع في غشاوة الاستفزاز والحنق .

وهما قضيتان مهمتان للنضال العربي الآن .

وبالطبع ، فإن الكتاب ليس وحده الذي يساعد على الفهم في هذا المجال ، إنما هو واحد من كتب أخرى ، لكنه ـ في موضوعه ـ كتاب فعال .

القاهرة ـ أيلول / سبتمبر ١٩٧٠

مصطفى الحسيني

كلمة المحرر

ننشر هذه المقالات في مجلد واحد ، بعد وفاة مؤلفها . ولو أن اسحق دويتشر كان حيا ، لبذل مزيدا من العناية في مراجعة عمله ، وقد قررت أن يكون تدخلي في هذه المقالات ، أقل ما يمكن ، وهي مقالات سبق نشرها في وقت أو آخر ، فأضفت هامشا هنا ، وحذفت جملة هناك ، لقد تحملت مسئولية تحرير المحاضرة التي تتناول «الثورة الروسية والمسألة اليهودية» والتي تركها مؤلفها ناقصة . أما مقاله «من هو اليهودي؟» فقد احتاجت قدرا أكبر من العمل في الاختيار والتركيز .

ولا مفر من بعض التداخل ، في حالة تجميع محاضرات ومقالات ومحاورات تتناول موضوعا واحدا معينا ، رغم أن تناوله قد يتم من زاويا مختلفة . ومع ذلك ، فلن يجد القارىء ذرة من الشك ، في أن اسحق دويتشر ظل موضوعيا في آرائه حول دور اليهود البالغ التعقيد، وحول مصيرهم المأساوي في أوروبا وفي اسرائيل .

وإني على يقين ، بأنني خلال عملي في هذه المقالات ، قد نجحت في أن أحافظ بإخلاص ، في كل الأحوال ، على فكر اسحق دويتشر .

تامرا دويتشر

لندن - يناير ١٩٦٨

اسحق دويتشر
١٩٠٧ ـ ١٩٦٧

بدأت شهرة اسحق دويتشر في البداية كشاعر ، عندما نشرت قصائده ، وهو بعد فى السادسة عشرة من عمره فى المجلات الأدبية البولندية ، ولقد كانت قصائده الأولى ، التى مازال جمهرة قرائه المبعثرين يحملونها في ذاكراتهم ، تحمل أصداء قوية للغيبية اليهودية ، بقعا من التاريخ اليهودى والأساطير الدينية اليهودية ، وتمزج الرومانسية البولندية بالفولكلور الغنائى اليهودى ، فى محاولة لبناء جسر على البرزخ الفاصل بين الثقافتين البولندية واليدشية . كما ترجم قدرا كبيرا من الشعر العبرى واللاتيني والألمانى واليدشى الي البولندية .

وعندما كان يتلقي ـ كطالب مستمع ـ فى جامعة ياغيلون كراكوفيا، التى تحمل طابع العصور الوسطى ، محاضرات فى الأدب والتاريخ والفلسفة ، أصبحت الأمسيات المخصصة لقراءة شعره ، أحداثا ملحوظة فى تلك المدينة البولندية التي عرفت بطابعها الفنى والأكاديمى .

وعندما بلغ الثامنة عشرة ، غادر كراكوفيا الى وارسو ، كما هجر الشعر الى النقد الأدبى ، والى دراسة أوسع للفلسفة والاقتصاد والماركسية ، وحوالى سنة ١٩٢٧ ، التحق بالحزب الشيوعي البولندى المحظور ، وسرعان ما أصبح رئيسا لتحرير الصحافة الشيوعية السرية وشبه السرية . وفى عام ١٩٣١ ، قام برحلة واسعة فى الاتحاد السوفييتى ، ليتعرف على أحواله الاقتصادية في ظل الخطة الخمسية الأولى ، ورفض عروضا لاحتلال مراكز أكاديمية فى جامعتى موسكو ومينسك ، كأستاذ لتاريخ الاشتراكية والنظرية الماركسية . وفى العام التالى طرد من الحزب الشيوعى .

وكان السبب الرئيسى لطرده أنه «بالغ فى خطر النازية» وأنه كان «ينشر الذعر فى صفوف الشيوعيين» . إذ أنه فور عودته من الاتحاد السوفييتى ، نظم ، مع ثلاثة أو أربعة من رفاقه ، أول معارضة للستالينية في الحزب الشيوعي البولندى ، وقد اعترضت مجموعته على خط الحزب الذى اعتبر الاشتراكية الديمقراطية والنازية «ليستا صنوين وإنما توأمين» . وعندما ظهرت الصحف الشيوعية السرية ذات يوم تحمل عنوان «خطر البربرية فوق أوروبا» ، طرد رئيس التحرير من الحزب ، ومنذ ذلك اليوم أصبح ظلان يتبعانه : واحد تستخدمه الشرطة البولندية، والآخر متطوع من الخلية الحزبية الستالينية .

فى أبريل ١٩٣٩ غادر دويتشر وارسو الى لندن كمراسل لصحيفة يهودية بولندية ، كان قد عمل فيها أربع عشرة سنة كمصصح تجارب طباعة ، وكان من حسن حظه ، أنه عندما اندلعت الحرب ، وانقطع عنه دخله ، رفضت صحيفة بيدشية ، تصدر فى لندن مساهمته فيها ، فاضطره هذا الى التفرغ بأقصى مالديه من طاقة وحماس لتعلم الانجليزية ، وكتب مقالته الأولى بالانجليزية مستعينا بكومة من المعاجم وكتب النحو والصرف والمراجع ، وأرسلها الى «الايكونوميست» فنشرت فى الأسبوع التالى ، ومن وقتها أصبحت مقالاته تنشر بانتظام .

فى ١٩٤٠ ، التحق دويتشر بالجيش البولندى فى سكوتلاندا، لكنه انفق معظم خدمته العسكرية فى معسكرات العقاب كعنصر «خطر وهدام» جزاء اعتراضاته المستمرة على الموقف المعادى للسامية الذى كان سائدا في هذا الجيش . وعندما سرح سنة ١٩٤٢ ، انضم إلى هيئة تحرير الايكونوميست ، وأصبح خبيرها فى الشئون السوفييتية ، ومعلقها العسكرى ، ومراسلها الرئيسى فى أوروبا ، كما انضم إلى أسرة تحرير الاوبزرفر ، التى أصبح مراسلا متجولا لها فى أوروبا ،يكتب باسم أدبى هو «برجرين» .

حوالى عامى ١٩٤٦ ــ ١٩٤٧ ، ترك الـ «فليت ستريت» شارع الصحافة فى لندن ، والعمل الصحفى المنتظم ، ليتفرغ لعمل ذى قيمة

أكبر . وفى ١٩٤٩ نشر كتابه «ستالين، سيرة سياسية» الذى وصف بأنه «أكثر السير إثارة للنقاش في عصرنا» ، فنشر فى طبعات عديدة ، وطبع باثنتى عشرة لغة ، وتضم طبعته التى صدرت سنة ١٩٦٧ ، ملحقا عن سنوات ستالين الأخيرة .

وقد أدى نشر «ستالين» الى الاعتراف بدويتشر كمرجع فى الشئون السوفييتية ، وكمؤرخ للثورة الروسية ، أما ثلاثيته عن تروتسكى : «النبى المسلح» ١٩٥٤ ، و«النبى الاعزل» ١٩٥٩ ، و«النبى المنبوذ» ١٩٦٣ ، فلقد ركزت سمعته ككاتب يسيطر على النثر الانجليزى . وقد اعتمدت سيرة تروتسكى تلك على بحث تفصيلى فى ملفات تروتسكى فى جامعة هارفارد ، على أن قدرا كبيرا من مادة المجلد الثالث ، تعتبر مادة فريدة، لأنه حصل على أذن خاص من أرملة تروتسكى - المرحومة نتاليا سيدوف - بأن يقرأ فى القسم المغلق من الملفات ، والذى سيظل بناء على وصية تروتسكى نفسه ، مغلقا حتى نهاية هذا القرن .

وقد كان فى خطة دويتشر أن يختتم سلسلة سيره ، بدراسة عن لينين ، وكثيرا ما عبر عن أمله ، فى أن ينظر الى عمله «كمحاولة واحدة فى التحليل الماركسى لثورة عصرنا ، وكذلك كثلاثية تتمتع بقدر من الوحدة الفنية» .

ولقد حاضر دويتشر ضمن برنامج ج.م. تريفيليان فى جامعة

كمبريدرج سنة ١٩٦٦ ـ ١٩٦٧ ، واستمع إليه جمهور غفير ، أحرز انتباهه الفائق واستجابته الحارة ، ونال الصدى نفسه خلال اقامته لستة أسابيع فى جامعة ولاية نيوريورك فى بنجهامتن ، كلية هاربر ، وكذلك عندما حاضر فى جامعات نيوريورك وبرنستون وهارفارد ، وكولومبيا فى ربيع ١٩٦٧ ، ولقد ظهرت محاضراته فى برنامج ج.م. تريفيليان تحت عنوان «الثورة غير المنتهية» فى أربع عشرة أو خمس عشرة لغة . ورغم أن كتبه ظهرت فى طبعات كثيرة وترجمت الى لغات عديدة ، إلا أن أيا منها لم ينشر حتى الآن فى بلدان الكتلة السوفييتية ، ومع ذلك فهناك ما يدل على أنه له هناك قراء شجعان ومتحمسين غير قليلين .

وكثيرا ما خاطب دويتشر ، كخطيب ذى قدرات مسيطرة ، ومناقش ذى قدرة جدالية ، جماهير غفيرة على شاطىء الأطلنطى ، وفى عام ١٩٦٥ ، اشترك فى أول ندوة تثقيفية عن فيتنام ، حيث انتظم خمسة عشر ألف طالب في جامعة بركلي ، ليستمعوا الى بيان اتهامه ضد الحرب الباردة .

ولقد كان دويتشر على قدر غير عادي من الحيوية ، مكنه ، رغم انشغاله بمفرده تقريبا ، في عمله الفكرى الخالد ، من أن يواصل

متابعة السياسات الجارية باهتمام حار ، وطوال أربع عشرة سنة ، كانت تحليلاته للأحداث الدولية الرئيسية تلقى جمهورا واسعا من القراء، في الصحف الرئيسية في أوروبا والولايات المتحدة واليابان والهند وأمريكا اللاتينية .

ولقد ظل يعمل حتى آخر يوم من حياته ، ومات في روما في ١٩ أغسطس «آب» ١٩٦٧ .

مايو «أيار» ١٩٦٨ .

تامرا دويتشر

اليهودى اللايهودى (١)

هناك قول تلمودى قديم ، يقول : «يظل اليهودى الذى يرتكب خطيئة، يهوديا» وتفكيرى يذهب بالطبع إلى أبعد من فكرة «الخطيئة» أو «عدم الخطيئة» لكن هذا القول ، أعاد لى ذهنى ذكرى من ذكريات الطفولة ، قد لا تكون عديمة الدلالة بالنسبة للموضوع الذى أتناوله .

أذكر أننى فى طفولتى ، قرأت المدراش (التفسير اليهودى التقليدى للتوراة) فصادفت قصة ووصفا لمشهد استولى على خيالى ، تلك هى قصة الحاخام ماير ، القديس والحكيم العظيم وعماد الارثوذكسية اليهودية وأحد واضعى المدراش ، والذى تلقى دروسا فى اللاهوت من الملحد إليشا بن أبيوه ، الملقب بـ «آخر» (أى الغريب) .

فذات يوم سبت كان ماير مع معلمه . وكالعادة استغرقا فى نقاش عميق ، وكان الملحد راكبا حماره . ولما كان الحاخام لايستطيع الركوب فى يوم السبت ، فقد كان يمشى الى جواره ، وينصت باهتمام الى

---

(١) بنيت هذه المقالة ، على محاضرة ألقيت على المؤتمر اليهودى العالمى فى فبراير ١٩٥٨ ، خلال أسبوع الكتاب اليهودى .

كلمات الحكمة ، التى تخرج من شفتيه الملحدتين ، وقد استغرقه الانصات الى حد أنه لم يلحظ أنه هو ومعلمه قد وصلا الى الحد الذى تمنع الطقوس اليهودية اليهود من اجتيازه في يوم السبت ، فاستدار الملحد العظيم الى تلميذه وقال : «انظر ، لقد وصلنا الى الحد ، فيجب أن نفترق الآن ، ليس لك أن تصاحبنى الى أبعد من ذلك . عد» وعاد الحاخام ماير الى الطائفة اليهودية ، بينما واصل الملحد مسيره الى ما وراء حدود اليهودية .

كان فى المشهد مايكفى ليثير حيرة طفل يهودى أورثوذكسى . كنت اعجب لماذا يتلقى الحاخام ماير ، ذلك الضوء الموجه من أضواء الارثوذكسية ، دروسه على الملحد ؟ ولماذا كان يبدى له كل هذا الحب ؟ لماذا كان يدافع عنه أمام غيره من الحاخامات ؟ ويبدو أن قلبى كان مع الملحد ، من هو ؟ كان يبدو من داخل اليهودية وخارجها فى الوقت نفسه، فقد أبدى احتراما غريبا لارثوذكسية تلميذه ، عندما أعاده الى اليهود فى يوم السبت المقدس ، بينما اعرض هو نفسه عن الشريعة وعن الطقوس، وسار الى ماوراء الحدود . وعندما كنت فى الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة ، شرعت فى كتابة مسرحية عن «آخر» والحاخام» ماير، وحاولت أن اكتشف المزيد عن شخصية «آخر» ، ما الذى جعله يتجاوز اليهودية ؟ هل كان من الغنوصيين؟ هل كان من أنصار مدرسة

أخرى من مدارس الفسلفة اليونانية أو الرومانية ؟ لم استطع التوصل الى جواب ، ولم أنجح فى المضى الى أبعد من الفصل الأول .

إن اليهودى الملحد الذى يتجاوز اليهودية ينتمى الى تقليد يهودى . يمكنكم اذا شئتم ان تروا فى «آخر» نموذجا لهؤلاء الثوريين العظام فى الفكر الحديث : سبينوزا ، هاينه ، ماركس ، روزا لوكسمبرج ، تروتسكى ، فرويد ، ويمكنكم اذا شئتم أيضا ، وضعهم ضمن تقليد يهودى . لقد ذهبوا جميعا الى ما وراء حدود اليهودية، وكلهم وجدوا اليهودية شديدة الضيق ، مماتة ، مليئة بالقيود ، وكلهم بحث عن مثل عليا وعن تحققها فيما وراءها ، وهم يمثلون كل ومحتوى الكثير مما هو أعظم ما فى الفكر الحديث ، كل ما وقع من تطورات فى الفلسفة وعلم الاجتماع والاقتصاد والسياسة ومحتواها العميق فى القرون الثلاثة الأخيرة .

هل كان ثمة شىء مشترك بينهم ؟ أيمكن أن يقال أنهم أثروا فى فكر البشرية كل هذا التأثير العظيم بسبب «عبقريتهم اليهودية» الخاصة ؟ أننى لا أؤمن بالعبقرية الفريدة لأى عنصر ، ومع ذلك أعتقد أنهم كانوا فى الحقيقة يهودا جدا على نحو ما . كان فيهم شىء من جوهر الحياة اليهودية والفكر اليهودى . كان بصورة قبلية استثناء من حيث كونهم يهودا عاشوا على تخوم حضارات وديانات وثقافات قومية مختلفة ، لقد ولدوا وتربوا على تخوم عصور مختلفة . ونضجت عقولهم

حيث كانت التأثيرات الثقافية المتنوعة تتداخل وتخصب بعضها بعضا عاشوا .علي حدود أممهم وفى زواياها وشقوقها ، وكان كل منهم فى المجتمع وفى خارجه فى ذات الوقت ، ولقد كان ذلك هو الذى مكنهم من أن يرتفعوا بفكرهم فوق مجتعاتهم ، وفوق أممهم ، وفوق عصورهم وأجيالهم ، وأن يضربوا عقليا فى أفاق جديدة فسيحة ، تستشرف مستقبلا بعيدا .

وأظن أنه مؤرخ انجليزى بروتستانتى لحياة سبينوزا هو الذى قال إنه لم يكن أحد يقدر أن يقود ذلك التمرد الذى قاده سبينوزا فى فلسفة عصره ، سوى يهودى ، يهودى غير مرتبط بعقائد الكنائس المسيحية ، الكاثوليكية والبروتستانتية ، ولا بعقائد الديانة التى ولد عليها (١) .

فديكارت ، ولايبنز بالذات لم يستطعا أن يحررا نفسيهما الى نفس الدرجة من أحابيل تقليد العصور الوسطى الفلسفى المدرسى .

لقد تربى سبينوزا فى ظل تأثيرات أسبانيا وهولندا وألمانيا وانجلترا، وايطاليا فى عصر النهضة ، وقد ساهمت كل تيارات الفكر الإنسانى المؤثرة آنذاك فى تشكيل فكره ، وقد كان وطنه هولندا فى

---

١ ـ «إن من أخطر المحاذير الناتجة عن الانتصار الظاهرى العظيم الذى أحرزته المسيحية هو أن مفكرى المسيحية نادرا ماحققوا احتكاكا حيويا مع الديانات الأخرى ، ومع غيرها من أنماط التفكير العالمى . ونتيجة هذا الافتقار الى التجربة ، فان الطرق المسيحية في النظر الى العالم مأخوذة بالصحة كأمر تقرره طبيعة الاشياء .. ولقد كان اشجع المفكرين وأكثرهم أصالة .. هو سبينوزا ، الذى تسامى على التحيزات اللاهوتية التي لم يستطيع الأخرون انتزاع أنفسهم منها» «مراسلات سبينوزا ، مقدمة بقلم أوولف» .

غمار الثورة البورجوازية ، أما أسلافه فقد كانوا ، قبل مجيئتهم الى هولندا ، من «المارانيم» ، أسبانا برتغاليين ، يهودا سابقين ، يهودا فى الباطن ومسحيين فى الظاهر ، شأن كثير من اليهود الأسبان الذين فرضت عليهم محاكم التفتيش التعميد ، وبعد أن جاءت عائلة سبينوزا الى هولندا كشفت عن يهوديتها ، إنما بالطبع، لم يكونوا هم ولا أبناؤهم غرباء عن المناخ الفكرى للمسيحية .

إن سبينوزا نفسه ، عندما بدأ كمفكر مستقل وكرائد للنقد الحديث للكتاب المقدس ، وضع يده على الفور على التناقض الرئيسى فى اليهودية . التناقض بين الاله الواحد والكون ، والوضع الذى يظهر به ذلك الاله فى الديانة اليهودية ، كإله مرتبط بشعب واحد فقط ، التناقض بين الاله الكونى وبين «شعبه المختار» ونعرف ماذا جلب ادراك هذا التناقض على سبينوزا : الطرد من الطائفة اليهودية والحرم . كان عليه أن يحارب ضد رجال الدين اليهود الذين كانوا هم أنفسهم حتى عهد قريب ضحايا محاكم التفتيش ، وأصابتهم عدوى روح محاكم التفيش ، ثم كان عليه أن يواجه عداء رجال الكنيسة الكاثوليك والقساوسة الكالفانيين . كانت حياته كلها صراعا للتغلب على قيود ديانات عصره وثقافاتها .

من بين اليهود ذوى الطاقات الفكرية العظيمة ، الذين تعرضوا لتناقض مختلف الديانات والثقافات ، من تجاذبتهم المؤثرات والضغوط

المتناقضة ، فى اتجاهات مختلفة ، الى حد أفقدهم التوازن الروحى فانهاروا ، كان أوريل اكوستا ، رائد سبينوزا ، الذى تمرد على اليهودية أكثر من مرة ، وتاب أكثر من مرة . وتكرر حرمان الحاخامات له من الرحمة، وتكرر سجوده أمامهم على أرض كنيس امستردام ، وعلى خلاف أكوستا ، تمتع سبينوزا بالسعادة الفكرية العظيمة فى أن يكون قادرا على الملاءمة بين المؤثرات المتضاربة وأن يخلق منها نظرة أعلى الى العالم ، وفلسفة موحدة .

فى كل جيل تقريبا ، كلما وضع المثقف اليهودى فى سياق الثقافات المختلفة وتصارع مع نفسه ومع مشاكل عصره ، نجد من ينهار تحت الثقل ، مثل أوريل اكوستا ، ومن يجعل من ذلك العبء جناحين للعظمة مثل سبينوزا ، ولقد كان هاينه على نحو ماهو أوريل اكوستا عصره ، وكانت نسبته الى ماركس ، حفيد سبينوزا الفكرى ، تقابل نسبة أوريل اكوستا الى سبينوزا .

كان هاينه ممزقا بين المسيحية واليهودية ، وبين فرنسا وألمانيا ، ففى الراين حيث موطنه ، تصادمت مؤثرات الثورة الفرنسية والامبراطورية النابوليونية مع مؤثرات امبراطورية القياصرة الألمان الرومانية المقدسة العتيدة . وتربى فى فلك الفلسفة الألمانية الكلاسيكية ، وفى فلك الأفكار الجمهورية الفرنسية ، رأى كانت فى زى روبسبير ، وفيختة فى زى

نابليـون ، من حـيث الروح ، وهو هـكذا يصـفـهـم فى واحـدة من أغنى فقرات كتابه : «حول مسألة الدين والفلسفة فى ألمانيا» ، وأكثرها تأثيرا، وفى سنواته الأخيرة احتك بالاشتراكية والشيوعية الفرنسية والألمانية ، وقابل ماركس بنفس الاعجاب والعطف الواعي اللذين قابل بهما اكوستا سبينوزا .

وبالمثل تربى ماركس فى منطقة الراين ، ولما كان أبواه قد تخليا عن اليهودية ، فلم يدخل فى صراع مع التراث اليهودى مثلما فعل هاينه ، وكان الأكثر الحاحا عنده هو معارضته للتخلف الاجتماعى والروحى فى ألمانيا المعاصرة ، ولما كان قد عاش معظم حياته منفيا ، فقد تشرب فكره بالفلسفة الألمانية ، والاشتراكية الفرنسية ، والاقتصاد السياسى الانجليزى . ولم يحدث أن التقت هذه المؤثرات المتباينة فى عقل معاصر، مثل هذا اللقـاء المثمـر ، فـقـد ارتفع مـاركس فـوق الفلسـفـة الألمانيـة والاشتراكية الفرنسية والاقتصاد السياسى الانجليزى ، وتمثل أفضل ما فى كل من هذه التيارات ، وتخطى حدودها جميعا وتسامى عليها .

ولكى نقترب أكثر من عصرنا ، هناك روزا لوكسمبورج وتروتسكى وفرويد ، وقد تكوّن كل منهم فى غمار تيارات تاريخية متقاطعة ، فروزا لوكسمبرج مزيج فريد من الشخصية الألمانية والبولندية والروسية ، ذات المزاج اليهودى ، وكـان تروتسكى تلميذا للمدرسـة الثـانوية الروسـيـة الألمانية اللوثرية فى أوديسا الكوسموبوليتية ، على حافة امبراطورية

القياصرة الارثوذكسية اليونانية ، ونضج عقل فرويد فى فيينا ، فى غربة عن اليهودية ، ومعارضا للكنيسة الكاثوليكية فى عاصمة الهابسبرج، وكان يجمعهم كلهم ذلك العنصر المشترك : ان ذات الظروف التى عاشوا وعملوا فيها ، لم تسمح لهم بالتصالح مع الافكار التى كانت محدودة وطنيا أو دينيا ، ودفعتهم الى التطلع الى نظرة كونية شمولية .

لم تكن أخلاق سبينوزا هى الأخلاق اليهودية ، إنما كانت أخلاق الإنسان عامة ، تماما كما أن إلهه لم يكن الإله اليهودى ، فعندما أتحد إلهه مع الطبيعة ، سفح هويته المنفصلة المميزة المقدسة ، ومع ذلك ، فعلى نحو ما ظل إله سبينوزا وأخلاقه يهوديين ، فيما عدا أن يهوديته كانت هى التوحيد اليهودى ممدودا الى نتيجته المنطقية ، والإله اليهودى الكونى بعد اخضاعه لتفكير شامل . وما أن يتم اخضاعه لتفكير شامل حتى يكف ذلك الإله عن أن يكون يهوديا .

ظل هاينه طيلة حياته فى صراع مع اليهودية ، كان موقفه منها مزدوجا بصورة خاصة ، مليئا بالحب الكاره ، أو الكراهية المحبة . وكان من هذه الناحية أدنى من سبينوزا ، الذى لم يصبح مسيحيا عندما حرمه اليهود من الرحمة ، لم تكن لهاينه قوة عقل سبينوزا وشخصيته وكان يعيش فى مجتمع أكثر تخلفا من المجتمع الهولندى فى

القرن السابع عشر ، رغم أنه كان في بداية القرن التاسع عشر ، ولقد علق آماله من البداية على ذلك التحرير . الزائف لليهود ، ذلك الذى قال عنه موسى مندلسون «أن جبن ذلك المثل الأعلى اليهودى الألمانى ، يتجانس مع خسة ليبيرالية البورجوازية الألمانية غير اليهودية ، فالليبيرالى الألمانى «رجل حر» داخل بيته ، وأكثر الرعايا اخلاصا خارجه» .. ولم يستطيع هذا أن يقنع هاينه طويلا ، فتخلى عن اليهودية واستسلم للمسيحية ، أما فى دخيلته فلم يتصالح ابدا لا مع التخلى ولا مع التحول ، فبطله دون ايزاك يقول للحاخام فون باكراش : «لاأستطيع أن أكون واحدا منكم ، إنى أحب طعامكم أفضل بكثير مما أحب ديانتكم . لا ، لا استطيع أن أكون واحدا منكم . وأشك أنه حتى فى أفضل عصوركم فى ظل حكم ملككم داوود ، فى أفضل عصوركم ، كنت سأهرب منكم الى معابد أشوريا وبابل ، التى كانت مليئة بالحب ومتعة الحياة» ومع ذلك فقد كان يهوديا منيعا غاضبا .

أما ماركس الذى كان أصغر منه بحوالى عشرين سنة فقد تغلب على المشكلة التى عذبت هاينه ، ولم يقع فى براثنها سوى مرة واحدة ، فى كتابه المبكر الشهير : «المسألة اليهودية» . وكان هذا الكتاب هو رفضه لليهودية رفضا لايقبل النقض . وبسببه هاجم المدافعون عن

الارثوذكسية اليهودية والقومية اليهودية ماركس كـ «عدو للسامية» ومع ذلك، أعتقد أن ماركس قد وصل الى لب قلب الموضوع ، عندما قال إن اليهودية قد عاشت ، ليس رغما عن التاريخ ، وإنما من خلال التاريخ ، وأنها مدينة ببقائها للدور المتميز الذى لعبه اليهود ، كعملاء لاقتصاد نقدى فى محيط يعيش فى ظل اقتصاد طبيعى ، إن اليهودية كانت أساسا هى خلاصة علاقات السوق وعقيدة التاجر ، وإن أوروبا المسيحية لدى تطورها من الاقطاع الى الرأسمالية ، أصبحت يهودية على نحو ما ، ورأى ماركس فى المسيح «اليهودى المنظر» ورأى فى اليهودى« المسيحى العملى» وعلى ذلك رأى فى المسيحى البورجوازى «العملى» يهوديا .

ولما كان قد عالج اليهودية كانعكاس دينى لطريقة التفكير البورجوازية، فقد رأى أن اليهودية تمتص أوروبا البورجوازية. ولم يكن مثله الاعلى هو المساواة بين اليهودى وغير اليهودى فى مجتمع رأسمالى «مهود» . إنما تحرير اليهودى وغير اليهودى معا من طريقة الحياة البورجوازية، أو كما وضعها هو، على نحو أكثر استفزازا بمفردات الهيجلى الشاب المغـــرقة فى المفارقة :: «تحـــرير المجتمع من اليهودية». كانت فكرته تماثل فكرة سبينوزا فى كونيتها ، لكنها متقدمة زمنيا بمائتى ســنة - كانت فكرة الاشتراكية والمجتمع اللاطبقى، بلا دولة .

من بين تلاميذ ماركس واتباعه ، لا يكاد يكون هناك من هو أقرب اليه من حيث الروح والمزاج من روزا لو كسمبرج وليون تروتسكى . ويتبدى شبههما به فى رؤيتهما الدرامية الديالكيتكية للعالم وصراعاته الطبقية، وفى ذلك التوافق النادر فى التفكير والاحساس والتخيل الذى يمنح لغتهما وأسلوبهما ميزة الوضوح والكثافة والغنى (ربما كان برنارد شو يفكر فى هذه الصفات عندما تحدث عن مواهب ماركس الادبية اليهودية الخاصة) . ولقد تطلع كل من تروتسكى وروزا لوكسمبرج، مثلما تطلع ماركس، مع رفاقهما من غير اليهود، الى الحلول الكونية كنقيض للحول الخاصة، والى الحلول الاممية كنقيض للحول القومية لمشاكل عصرهما. وحاولت روزا لوكسمبرج ان تتخطى التناقض بين الاشتراكية الاصلاحية الالمانية والماركسية الثورية الروسية، حاولت ان تحقق الاشتراكية الالمانية بشىء من الحماس والمثالية الثورية الروسية والبولندية ، بشىء من هذه الرومانسية الثورية، التى أطراها ، دون استحياء ، مفكر واقعى عظيم مثل لينين. وفى نفس الوقت، حاولت روزا أن تزرع الروح والتراث الديموقراطى الاوروبى الغربى فى الحركات الاشتراكية السرية فى شرق اوروبا . وفشلت فى هدفها الرئيسى، ودفعت حياتها ثمنا لذلك. لكنها لم تكن وحدها التى دفعت الثمن، فباغتيالها احتفلت المانيا الهوهنزلرن بانتصارها الأخير، واحتفلت النازية بانتصارها الأول .

أما ترتسكي ، مؤلف الثورة الدائمة فقد كانت أمامه رؤيا ثورة عالمية تغير البشرية ، ولقد اصطدم الرجل الذي شارك لينين قيادة الثورة الروسية، والذى أسس الجيش الاحمر ، بالدولة التي ساعده على خلقها، عندما رفعت الدولة وقادتها راية الاشتراكية في بلد واحد، اذ لم يدر بخلده أن تتحدد رؤيا الاشتراكية بحدود بلد واحد.

عانى هؤلاء الثوريون العظام نقطة ضعف خطيرة، فقد كانوا، كيهود، يفتقرون على نحو ما ، إلى الجذور . لكنهم كانوا يفتقرون الى الجذور في بعض النواحي فقط، اذ كانت لهم أعمق الجذور في التراث الفكرى ، وفى أنبل امانى عصورهم . ومع ذلك فعندما يتصاعد التسامح الدينى أو الشعور القومي، حيثما ينتصر ضيق الافق المذهبى والتعصب، يصبحون أول الضحايا . فقد نبذهم الحاخامات اليهود، واضطهدهم القساوسة المسيحيون، وطاردتهم شرطة الحكام الريفيين المستبدين كما طاردتهم المرتزقة العسكرية. كانوا موضع كراهية الديمقراطيين الزائفين من أعداء التقدم ، كما كانوا طريدى أحزابهم ، كما نفوا كلهم تقريبا من بلادهم، وأعدمت مؤلفاتهم جميعا حرقا فى وقت أو آخر . فاسم سبينوزا ظل ممنوعا ذكره لاكثر من قرن بعد موته، وحتى لايبنز، المدين لسبينوزا بكثير من فكره، لم يجرؤ على ذكره، ومازال تروتسكي ملعونا فى روسيا حتى اليوم، وكانت اسماء ماركس وهاينه وفرويد وروزا لوكسمبرج ممنوعة فى المانيا حتى وقت قريب،

لكنهم هم الذين يحرزون النصر فى النهاية. فبعد قرن من اغراق اسم سبينوزا فى النسيان، أقاموا له التماثيل. واعترفوا به كواحد من أعظم من اخصبوا العقل البشرى. ولقد قال «هردر» مرة عن جوته : «أتمنى لو اقرأ جوته بعض الكتب اللاتينيه ، غير كتاب الاخلاق لسبينوزا» فالحقيقة أن جوته تربى فى احضان فكر سبينوزا، وقد وصفه هاينه بحق بان «سبينوزا هو الذى ألقى برداء الصيغ الرياضية ووقف امامنا شاعرا غنائيا» ، وكذلك انتصر هاينه نفسه على هتلر وجوبلز. وسيعيش الثوريون الآخرون من ابناء هذا الخط وسينتصرون إن عاجلا أو آجلا على من اجتهدوا لمحو ذكراهم .

واضح جدا لماذا ينتمى فرويد الى نفس الخط الفكرى، فهو فى تعاليمه - أيا كانت مزاياها وعيوبها - يتخطى حدود ماسبقه من مدارس علم النفس، فالانسان الذى يحلله ليس المانيا أو انجليزيا أو روسيا أو يهوديا، أنه الانسان العالمى الذى فيه اللا وعى مع الوعى، الانسان الذى هو جزء من الطبيعة ومن المجتمع ، الانسان الذى تتوحد رغباته وتطلعاته، وساوسه ومحرماته ، مصادر قلقه ومآزقه، بغض النظر عن العنصر أو الدين أو الأمة التى ينتمى اليها. ولقد كان النازيون ، من وجهة نظرهم ، على حق عندما قرنوا اسم فرويد باسم ماركس، واحرقوا مؤلفاتهما معا .

كل هؤلاء المفكرين والثوريين كان يجمعهم ضرب من لمبادىء فلسفية عامة مشتركة. ورغم ان فلسفاتهم تتنوع، طبعا ، من قرن الى قرن ومن جيل الى جيل. فهم جميعا ، من سبينوزا الى فرويد ، حتميون ، وكلهم يؤمن بأن الكون تحكمه قوانين متأصلة وسائدة ؛ وهم لا يرون في الحقيقة الواقعة خليطا من المصادفات ، ولا التاريخ جماعا لرغبات الحكام ونزواتهم الجامحة. ويعلمنا فرويد، انه لا شيء يخضع للصدفة في احلامنا ولا حماقاتنا ، بل ولا في زلات ألسنتنا ، ويقول تروتسكي أن قوانين التطور «تجسد» نفسها خلال الاحداث ، وبقوله ذلك، يقترب جدا من سبينوزا .

كلهم مؤمنون بالحتمية ، لأنهم بمراقبتهم لكثير من المجتمعات ، ودراستهم لكثير من «أساليب الحياة» عن كثب، يلتقطون العناصر الاساسية المنتظمة في الحياة. وطريقتهم في التفكير جدلية. ولأنهم عاشوا على تخوم الامم والديانات ، يرون المجتمع في حالة تدفق ، ويدركون في الحقيقة تغيرها لاثباتها، أما المسجونون داخل مجتمع واحد، وامه واحدة ، او ديانة واحدة ، فيميلون الى تصور أن اساليب حياتهم وطريقتهم في التفكير على صواب مطلق لا يتغير، وان كل مايناقض ما تواضعوا عليه هو على نحو ما «غير طبيعي» أو أدنى، أو شرير. ومن ناحية أخرى فإن هؤلاء الذين يعيشون على تخوم مختلف

الحضارات يفهمون بوضوح أكثر، الحركة العظيمة والتناقض العظيم في الطبيعة والمجتمع .

ويتفق كل هؤلاء المفكرين على نسبية الاخلاق الدارجة. وليس منهم من يؤمن بالخير المطلق او الشر المطلق ، فقد راقبوا جميعا مجتمعات تعتنق اخلاقيات مختلفة درجت عليها، وقيما اخلاقية مختلفة ، فما كان خيرا عند محكمة التفتيش الكاثوليكية الرومانية، التى عاش في ظلها اجداد سبينوزا ، كان شرا عند اليهود ، وما كان خيرا عند الحاخامات والشيوخ اليهود فى امستردام ، كان شرا عند سبينوزا نفسه. ولقد عانى هاينه وماركس فى شبابهما الصدام الكبير بين القيم المعنوية للثورة الفرنسية، والقيم المعنوية لالمانيا الاقطاعية .

ومع ذلك فكل هؤلاء المفكرين تقريبا تجمعهم فكرة فلسفية عظيمة أخرى مشتركة ، فكرة أن المعرفة لكى تكون حقيقة يجب ان تكون فعالة، وأثر ذلك على أرائهم في الاخلاق ، لأنه إذا كان لا يمكن فصل المعرفة عن العمل او التطبيق ، الذى هو بطبيعته نسبي ومتناقض مع ذاته، فان القيم المعنوية ، معرفة ماهو خير وما هو شر، لا تنفصل ايضا عن التطبيق ، وهى أيضا نسبية ومتناقضة مع ذاتها، ولقد كان سبينوزا هو الذى قال : «أن تكون يعنى أن تفعل ، وأن تعرف يعنى أن تفعل» ، ولم تبق سوى خطوة واحدة الى قول ماركس: «حتى الآن قام الفلاسفة بتفسير العالم. ومن الآن فصاعدا، المطلوب هو تغييره . » .

وأخيرا فكل هؤلاء الرجال من سبينوزا الى فرويد، آمنوا بالتضامن النهائي بين البشر، وقد كان هذا متضمنا في موقفهم من اليهودية. ونحن الآن ننظر الى هؤلاء الذين آمنوا بالانسانية خلال ضباب عصرنا الدامي. ننظر اليهم خلال دخان غرف الغاز، ذلك الدخان الذي لا تستطيع أي ريح أن تبدده عن ابصارنا . لقد كان «هؤلاء اليهود غير اليهود» اساسا متفائلين، وقد اوصلهم التفاؤل الى قمم ليس من السهل الارتقاء اليها في عصرنا، لم يتصوروا انه سيكون بوسع اوروبا «المتحضرة» في القرن العشرين، أن تغرق الى عمق من البربرية ، تقع معه مجرد كلمات «تضامن البشرية» في آذان اليهود وقع السخرية الشريرة ، ولقد كان لدي هاينه وحده حدس الشعراء الهاجس بذلك عندما حذر اوروبا من المذبحة الموشكة للآلهة الجرمان القدامي المنحدرين من الغابات الجرمانية السحيقة في القدم، وعندما توجس من أن «مصير اليهود العصري مأساوي بما يفوق التعبير والادراك، مأساوي الى درجة أنهم يضحكون منك عندما تتحدث عنه . وهذه هي أعظم المآسي» .

لا نجد هذا الهاجس عند سبينوزا أو ماركس . ولقد ترنح فرويد عقليا في شيخوخته تحت ضربة النازية، ولقد صدم تروتسكي عندما استخدم ستالين ضده التعريض المعادي للسامية، فقد استنكر تروتسكي في شبابه وباوضح العبارات مطلب «الاستقلال الذاتي

الثقافي» اليهودي ، الذي رفعه البوند، الحزب الاشتراكى اليهودى فى ١٩٠٢. ولقد فعل ذلك باسم تضامن اليهودى وغير اليهودى فى المعسكر الاشتراكى، وبعد ذلك بحوالى ربع قرن، عندما كان طرفا فى صراع غير متكافيء مع ستالين ، وذهب الى خلايا الحزب فى موسكو ليعرض أراءه ، قوبل بإشارات فارغة الى يهوديته بل وباهانات صريحة معادية للسامية. ولقد صدرت الاهانات من اعضاء فى الحزب الذى قاده هو ولينين ، فى الثورة والحرب الاهلية، وبعد ربع قرن اخر ، وبعد «اوشوينز» و«ماجدانك» و «وبلسن»، لجأ ستالين مرة أخرى، وهذه المرة بصراحة وعداء اشد،الى الاهانة والتعريض اللاساميين .

انها حقيقة لا نزاع فيها، أن المذبحة النازية لستة ملايين من اليهود الاوروبيين لم تترك أى أثر عميق على أمم اوروبا. انها لم تصدم ضمائرهم صدمة حقيقية ، بل تكاد تكون قد تركتهم باردين، هل وجد الايمان المتفائل بالانسانية الذى عبر عنه الثوريون اليهود العظام مايبرره إذن ؟ هل ما زال بوسعنا ان نشاطرهم ايمانهم بمستقبل الحضارة ؟

اعترف انه إذا ما حاول المرء أن يجيب عن تلك الاسئلة من وجهة نظر يهودية خالصة، فانه يكون صعبا، وربما مستحيلا، أن يجيب بالايجاب، أما بالنسبة لى، فليس بوسعى أن اتناول الموضوع من وجهة

نظر يهودية خالصة . وجوابى هو : نعم . لقد تحقق ايمانهم، تحقق على أى حال طالما أن الايمان بأن التضامن النهائى للبشرية هو نفسه احد الشروط اللازمة لبقاء البشرية ولتطهير حضارتنا من أدران البربرية التي مازالت موجودة بها، ومازالت تسممها .

لماذا أذن واجهت اوروبا ، أو العالم غير اليهودى كله، مصير اليهود الاوروبيين بموقف هو أقرب الى البرود ؟ لسوء الحظ ، كان ماركس اكثر صوابا ،فيما يتعلق بمكان اليهود من المجتمع الاوروبى ، مما كان بوسعنا ان ندرك حتى وقت قريب. لقد تضمن الجزء الرئيسى من المأساة اليهودية ما يلى : انه كنتيجة لتطور تاريخى طويل، اعتادت جماهير اوروبا ربط اليهود ، بداية بالتجارة والوساطة وإقراض النقود ومراكمتها ، وأصبح اليهودى فى العقل الشعبى، مرادفا ورمزا لهذه الاعمال . ولننظر فى قاموس اكسفورد الانجليزى ، لنرى كيف يعطينا المعنى المتداول لكلمة «يهودى أولا : هو «شخص من العنصر العبرى» . ثانيا : - وهو الاستخدام الدارج - «المرابى الجشع الشديد المساومة»، ويقول المثلَ «غنى كاليهودى» ، وتستخدم الكلمة ايضا كفعل ، متعد : يقول لنا قاموس اكسفورد أن «يستهود» معناه «يغش، يخدع» . هذه هى الصورة العامية لليهودى ، والتعصب العامى ضده، وهى صورة ثابتة فى كل اللغات ، وليس فى الانجليزية وحدها ، وفى كثير من الأعمال الفنية، وليس فى «تاجر البندقية» وحدها .

وعلى كل فليست هذه هى الصورة العامية فحسب ، ولنتذكر المناسبة التى توسل فيها ماكولاى ، والطريقة التى توسل بها من أجل المساواة السياسية بين اليهودى وغير اليهودى ، ومن أجل حق اليهودى فى الجلوس فى مجلس العموم. كانت المناسبة هى دخول أحد أبناء عائلة روتشيلد الى المجلس وهو أول يهودى يجلس فى المجلس ، اليهودى الذى انتخب نائبا عن مدينة لندن. ولقد كانت حجة ماكولاى هى مايلى : اذا كنا نسمح لليهودى بأن يدير لنا شئوننا المالية ، فلماذا لا نسمح له بالجلوس بيننا هنا، فى البرلمان ، والمشاركة فى ادارة شئوننا العامة ؟ كان ذلك هو صوت المسيحى البورجوزاى الذى نظر الى شيلوخ نظرة جديدة ورحب به كأخ .

اعتقد أن ما مكن اليهود من البقاء كطائفة منفصلة ، هو كونهم قد مثلوا اقتصاد السوق وسط شعب يعيش فى اقتصاد طبيعى. أن تلك الحقيقة وذكرياتها الشعبية، كانت أيضا مسئولة ، جزئيا على الأقل ، عن الشماتة او اللامبالاه التى شهدت بها جماهير اوروبا مذبحة اليهود. لقد كان من سوء حظ اليهود، أن أمم أوروبا عندما انقلبت ضد الرأسمالية ، فعلت ذلك على نحو سطحى فقط، وهذا صحيح ، على أى حال بالنسبة للنصف الاول من هذا القرن ، فهاجموا ، ليس لب الرأسمالية ، ليس علاقاتها الانتاجية، ليس تنظيمها للملكية والعمل، وإنما أحابيلها الخارجية القديمة. التى كانت حقيقة يهودية فى كثير من

الاحيان . هذا هو صلب المأساة اليهودية ، لقد تجاوزت الرأسمالية البالية عمرها وانحطت بالبشرية معنويا، ودفعنا نحن اليهود ثمن ذلك، وربما كان لم يزل علينا بعد أن ندفع ثمنه .

لقد أدى كل ذلك باليهود الى أن يروا أن دولتهم هى المخرج ، على أن أغلب الثوريين العظام الذين ناقشت تراثهم ، قد رأوا أن الحل النهائى لمشاكل عصورهم وعصرنا، لا يتمثل في الدول القومية، وإنما في المجتمع العالمى . ولقد كانوا، كيهود ، هم الرواد الطبيعيون لهذه الفكرة، لأنه من أكثر جدارة بالتبشير بالمجتمع الدولى والبشر المتساويين، من اليهود المتحررين من كل من الارثوذكسية والقومية ، اليهودية وغير اليهودية ؟

وعلى كل حال ، فان تدهور البورجوزاية الاوروبية قد أجبر اليهود على الايمان بالدولة القومية. وهذه هى التكملة المتناقضة للمأساة اليهودية، لأننا نعيش فى عصر تتجه فيه الدولة القومية بسرعة الى أن تصبح مفارقة، وشيئا باليا. ليس فقط دولة اسرائيل القومية، وإنما الدولة القومية في روسيا والولايات المتحدة وبريطانيا العظمى وفرنسا والمانيا وغيرها. لأنها جميعا مفارقات، ألا ترون ذلك بعد ؟ أليس واضحا انه فى العصر الذى تختصر فيه الطاقة الذرية يوميا حجم الكرة الارضية ، وينطلق فيه الانسان فى رحلته بين الكواكب، وتطير فيه

سفينة الفضاء فوق دولة قومية عظيمة فى دقيقة او فى بضع ثوان، أنه فى مثل هذا العصر تحول التكنولوجيا الدولة القومية الى سخف فات أوانه، مثلما كانت امارات العصور الوسطى الصغيرة في زمن الآلة البخارية؟

وحتى تلك الدول القومية التى خرجت الى الوجود نتيجة للنضال التقدمى الذى شنته شعوب المستعمرات واشباه المستعمرات من أجل التحرر – الهند ، بورما ، غانا، الجزائر، وغيرها – لا تستطيع المحافظة على طبيعتها التقدمية لوقت طويل، فالدولة القومية تمثل مرحلة ضرورية فى تاريخ بعض الشعوب ، لكنها مرحلة سيكون على هذه الشعوب أيضا أن تتجاوزها لكى تجد أفاقا أوسع لوجودها. إن أى دولة قومية فى عصرنا ، فور تكونها ، تبدأ فى التأثر بالتدهور العام لهذا النمط من المؤسسة السياسية. ولقد ظهر هذا نفسه بالفعل فى تجربة الهند وغانا واسرائيل .

لقد اجبر العالم اليهودى على أن يعتنق الدولة القومية، ويجعل منها فخره وأمله فى عصر أصبحت فيه وليس فيها من الامل إلا القليل ، وربما لا شىء. لا يمكنكم أن تلوموا اليهود على ذلك، عليكم أن تلوموا العالم. لكن على اليهود على الاقل – أن يدركوا التناقض ويدركوا أن حماسهم المشبوب «للسيادة القومية» متخلف تاريخيا . فهم لم

يستفيدوا من مزايا الدولة القومية في العصور التى كانت فيها مجالا لتقدم البشرية ، وعنصرا ثوريا وتوحيديا عظيما فى التاريخ . لقد حصلوا عليها بعد أن أصبحت عنصرا للتفرقة والتدهور الاجتماعى .

وعلى ذلك فإننى أمل، أن يدرك اليهود فى النهاية، مع غيرهم من الأمم - أو أن يستعيدوا ادراك - عدم ملاءمة الدولة القومية . وأن يجدوا طريقهم مرة أخرى الى التراث المعنوى والسياسى الذى خلفه لنا اليهود الذين تخطوا اليهودية - رسالة التحرر الانسانى العالمى .

\- ٢ -

من هو اليهودى ؟ [(١)]

إن مجرد أمكان طرح سؤال «من هو اليهودي؟» يمنحني شعورا غريبا بأنني موشك على مناقشة الموضوع الشائع لعدد كبير من الروايات الحديثة من كافكا إلى نيجل دنيس : موضوع هويات ضائعة، هويات بعضها لا يمكن العثور عليه .

فعندما يرفض كثير من المثقفين طقوس ومحرمات وأوامر ونواهي أي ديانة، كيف يتوقع الانسان من مثقف يهودى أن يربط نفسه بالتقليد الارثوذكسي اليهودي الممات؟

---

١ - «من هو اليهودى ؟»، «ما هو مكان المثقف اليهودى فى المجتمع الحديث، وأى دور عليه أن يؤديه؟» . كان هذان السؤالان فى قلب حوار دائر فى الدوائر اليهودية في منتصف الستينيات، واتخذت مساهمة اسحق دويتشر فى هذا الحوار، شكل حديث أدلى به إلى الـ «جويش كوارترلى» (لندن، ١٩٦٦)، وضع فيه موضع التساؤل الضمنى وجود «متحد اجتماعى يهودى» بالمعنى الايجابى، كما شارك فى مناقشة نظمها القسم البريطاني من المؤتمر اليهودى العالمى فى نوفمبر ١٩٦٢ . وهذه المقالة خلاصة مركزة للحديث ولقسطه فى المناقشة .

منذ حوالى ثلاثين سنة كنت اعتبر سؤال «ما الذى يكون هوية اليهودى والمثقف اليهودى؟» سؤالا عديم المعنى بالمرة. وأنا أعتقد ذلك جزئيا الآن أيضاً. لا يكفى أن نسأل عن هوية مثقف يهودى مجرد، ولا من المفيد أن نتحدث عنه كأنه احدي تجليات الذات العظمى - بحروف مكبرة - الموجودة فى نوع من فراغ ابدية يهودية. هوية المثقف اليهودى. نعم، لكن فى أى عالم، فى أي محيط ، فى أي نوع من العلاقة مع مشاكل عصرنا؟ أننى أحس أنه إذا كان لابد من طرح السؤال على الاطلاق، فهكذا يجب أن يطرح.

أنه لأمر غير حقيقي وعبث أن يشغل الانسان نفسه حصرا بالمثقف اليهودى الذى يحاول تعريف نفسه دونما كثير إشارة إلى العالم الخارجى، وإلى العداوات التى تقسمه والتي تفرق بين البشر، فإذا كنا مهتمين أيضا بمكان اليهودى فى المجتمع ، فيجب أن نعرف على الفور، فى أى يهودى وفى أى مجتمع نفكر؟ اليهودى فى المجتمع الامريكي أم السوفييتى؟ فى بريطانيا؟ في فرنسا؟ فى ألمانيا أم فى إسرائيل؟ ففى كل من هذه المجتمعات يختلف وضع اليهودى، ما هو المقياس المشترك بين اتجاهات وأدوار ووظائف اليهودى فى مثل هذه الظروف المتباينة؟

إن من الأمور ذات المغزى الكبير، والمميزة لعصرنا، أنه الآن أكثر من أى وقت مضى، يشعر اليهودى بضرورة محاولة تحديد وضعه فى مواجهة محيطه غير اليهودى. أنه يعرف أن دوره مختلف نوعيا عن دور

- لنقل - المثقف الايرلندى فى الولايات المتحدة. هل حدث أن بحث الرئيس كنيدى فى هويته كمثقف ايرلندى؟ اضف إلى ذلك أن اليهودى يعى دائما، ويعى بألم أن هناك فارقا شاسعا بين وضعه وبين وضع الايرلندى فى أمريكا. أنه على نحو ما يشعر أنه فى الدولة الديمقراطية العظمى، هو الزنجى «الآخر» . زنجى أبيض البشرة، وأنه كثيرا ما يتكىء بظهره إلى الزنجى الأسود. ففى الولايات الجنوبية من الشائع أن يكون اليهودى أكثر معتنقى فكرة تفوق الرجل الأبيض تعصبا، وكم يصعب فى ظل هذا الخليط الكثيف المتشابك من المشاعر والمخاوف والتحيزات والصلف العنصرى أن تجد هوية أحد، وكم يصبح شبه مستحيل أن تكتشف فهما مقنعا لكل تعقيدات الموقف.

أعتقد، أنه منذ ثلاثين أو خمسة وثلاثين سنة، لم يكن المثقف اليهودى يشعر بالحاجة إلى تحديد دوره وهويته، وإذا أخذنا حالتى الخاصة، لم أكن لاناقش مثل هذا الموضوع، وليس ذلك لافتقارى إلى الجذور فى التراث اليهودى، فعلى العكس، تربيت فى محيط يهودى، فى مدرسة تلمودية، كنت أطلق سوالفى وأرتدى الزى اليهودى الطويل، حتى بلغت السابعة عشرة . ولقد تمردت على الارثوذكسية الدينية اليهودية فى وقت مبكر، لكننى انجذبت إلى عناصر الثقافة اليدشية العلمانية التى عبرت عن نفسها فى الأدب وفى المسرح، ولقد كتبت أنا شخصيا باليدش، وخاطبت باليدش اجتماعات عمالية كبيرة - ولم تكن دائما

اجتماعات سياسية. ومازلت أرى أمامي جماهير الشباب والشيوخ من العمال والحرفيين والمعوزين، الذين كانوا يتجمعون في الامسيات للاستماع إلى قراءات في الشعر والمسرح. وكانوا كثيرا ما يحضرون بملابس العمل ليحيوا «بيرتز ماركش» أو «أتزيك مانجر» وهما يقرأن الشعر ، أو «جوزيف أو بانوشو» أو «ج.ن. وسنبرج» وهما يقرآن النثر، أو هـ. د. نومبرج يروى ذكريات عن كتاب البيدش السابقين، ولم يحدث في العالم ، لم يحدث في أرقى بقاع العالم المتحضر، ربما فيما عدا موسكو اليوم ، أن كان الناس يستمتعون بالاستماع إلى كتابهم وشعرائهم مثل اليهود من عمال وارسو وعمال الاقاليم البولندية - الليتوانية، فهناك كان شيء من قبيل وعي ثقافي يهودي جديد يتكون، وكان ذلك يحدث خلال فراق حاد مع الوعي الديني.

ومنذ ذلك الوقت ، قضيت أجمل سنوات حياتي، سنوات النشاط السياسي، بين عمال يهود. كنت أكتب بالبولندية وباليبدش. وكنت أحس أن هويتي قد اتحدت بالحركة العمالية في شرق أوروبا عموما، وفي بولندا على الخصوص. وكماركسيين، حاولنا نظريا أن ننكر على الحركة العمالية اليهودية هويتها الخاصة، لكن كانت لها هذه الهوية الخاصة رغم ذلك. وكان واضحا تماما أنه في الحركة العمالية اليهودية وجد المثقف دوره ، ولم يكن عليه أن يعاني عبء تحديده . وبين صفوف الطبقة العاملة اليهودية في شرق أوروبا أزدهر الادب البيدشي. ولقد

كتب على هذه اللغة الجياشة الزاخرة، التى كانت تغني وتجدد نفسها باستمرار، أن تصبح بين يوم وليلة، لغة ميتة، ولقد كان الكُتّاب اليهود مربوطين بتلك الحركة العمالية التى رأينها تغرق فى العدم ، كأنها أطلانتيك أخرى.

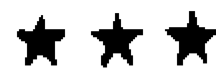
أننا نعرف إلى أى حد كانت بعض أوساط اليهود فى الغرب منفرة، تلك الاوساط التى لم يكن لديها شىء سوى قليل من المحرمات وكثير من النقود . أما بالنسبة لنا ، فى الوسط الذي عرفته ، كان الأمر على العكس، لا نقود ولا محرمات، إنما كثير من الآمال والافكار والمثل، كنا نكن احتقارا كاملا ليهود الغرب، كان رفاقنا مصنوعين من طينة أخرى.

فى أواخر الثلاثينات ، أتيحت لى فرصة العمل فى علاقة وثيقة مع رجل أكبر منى بحوالى عشرين سنة. ولد فى فقر مدقع، وظل أميا حتى بلغ السابعة عشرة. وعندما عرفته كان واحدا من أكثر من قابلت فى أى بلد من المثقفين العمال تعليما. أين تعلم القراءة، لم أعرف أبدا ، لكنه فى زنزانات سجون روسيا القيصرية وبولندا بيلوسودسكى، وفى الدورات التعليمية اللينينية فى موسكو وحلقات المناقشة فى الحلقات الثورية السرية استوعب بشغف وشره كل ما قدمه الادب العالمى، والمؤلفات الاشتراكية العالمية .

ولقد كان فتات المعرفة بالنسبة لذلك الطفل الذى عاش أكثر أشكال الفقر اليهودى مدعاة للفزع ، أثمن بكثير من لقمة الخبز، ولقد كانت الثورة الروسية الأولى فى ١٩٠٥، التماعة برق اضاءت الآفاق، وعلى نورها، فى السجن وخارجه، قرأ أعمال ماركس وانجلز وكاوتسكى، وقرأ روايات تولستوى وأشعار ميكيوتش ومسرحيات بيرتز. ويقول عن نفسه فى مذكراته «ولولا الثورة لغرقت فى مستنقع الاجرام السرى فى شارع سموتشا» . لكنه ترك شارع سموتشا بعيدا وراءه، بمومساته ومواخيره، بنشاليه ولصوصه، بانحطاطه المعنوى والمادى، حقا ، لقد صعد من وادى الدموع فى طفولته، إلى قمة العصر الروحية. كان عليه أن يعرف من أجل ماذا يناضل، ولقد عرف . لم يكن له مكان فى المجتمع الذى ولد فيه، فأوقف حياته على تغييره. فى حى مورانوف فى وارسو، كان فى طليعة العمال اليهود ، حيث كانوا جميعا يحملون هوياتهم مطبوعة على وجوههم ، فى عيونهم وفى أيديهم التى أبلاها العمل. أما نحن المثقفين اليهود، الذين كنا مشغولين بمصيرهم وبتطورهم وتعليمهم وبآمالهم وتطلعاتهم، فقد كانت لنا أيضا هويتنا المحددة جيدا، دون أن نبحث عنها.

أما يهود الغرب، البورجوازيون الحاكمون الاثرياء، فقد كانوا يحملون أساطيرهم وحكاياهم كشىء يدعم أحساسهم بالاحترام والكرامة. كان عليهم أن يقلدوا غير اليهود الذين يحملون كتاب صلواتهم

كل أحد إلى الكنيسة. كانت لنا كرامتنا، ولم نكن بحاجة إلى أن نعززها، كنا نعرف التلمود، وقد تربينا في ظل الخاسيدية، وكانت كل مثاليتها لا تزيد بالنسبة لنا عن رماد ذر في عيوننا. تربينا في ذلك الماضي اليهودي، فكانت تعيش إلى جوارنا القرون الحادي عشر والثالث عشر والسادس عشر من التاريخ اليهودي. وتحت سقفنا نفسه، كنا نريد أن نهرب من تلك القرون ونعيش في القرن العشرين. ومن خلال كل بريق ولمعان الرومانسيين، من أمثال مارتن بوبر ، أستطعنا أن نرى ونشم غموض ديانتنا ورجعيتها البالية، وما أرتبط بها من طريقة حياة لم تتغير منذ العصور الوسطى. وبالنسبة لشخص له مثل تكويني، كان التطلع الشائع بين يهود الغرب إلى العودة إلى القرن السادس عشر، وهي العودة التي يفترض فيها أن تعينه على استعادة هويته الفكرية اليهودية أو إعادة اكتشافها، كان هذا التطلع يبدو كافكاويا وغير حقيقي .



فلننتقل من الذكريات الشخصية إلى مشاكل أكثر عمومية. عندما يطرح المرء مسألة الهوية اليهودية ، يكون قد بدا من التسليم بوجود هوية ايجابية. لكن هل من حقنا أن نصل إلى مثل هذه المسلمة؟ في هذه الفترة من تاريخ العالم، أليس الوعي اليهودي، في أساسه، انعكاسا للضغوط المعادية للسامية؟ اعتقد أنه لو لم تثبت اللاسامية أنها على هذا

القدر من عمق الجذور والتأصل والقوة فى الحضارة المسيحية الاوروبية، لما وجد اليهود الآن كمتحد اجتماعي متميز، لكان قد تم تمثلهم تماما. إن ما كان يبعث اليهودية باستمرار ويمنحها حيوية متجددة تماما هو غير اليهودى المعادى. فمنذ ثلاث مائة سنة لم ير سبينوزا شيئا من المعجزة فى كون اليهود قد استمروا في البقاء، رغم تشتتهم وفقدانهم للدولة خلال هذا الزمن الطويل. فهم ، كما يقول سبينوزا: «قد اثاروا كراهية عالمية بعزل أنفسهم كلية عن أية شعوب أخرى» (رسالة فى الدين والسياسة، الفصل الثالث)، أنه يرجع إلى حد كبير بقاءهم إلى عداء غير اليهود، ويذكر أنه عندما أجبر ملك أسبانيا اليهود على الاختيار بين قبول ديانة مملكته أو الذهاب إلى المنفى، أعتنق عدد كبير منهم الكاثوليكية الرومانية، وبعد أن فعلوا ذلك منحوا كل المزايا والشرف اللذين يستحقهما المواطنون الآخرون. وسرعان ما ربطوا أنفسهم بالاسبان، وفى مدى بضع سنوات اندمجوا بالسكان المحليين . وحدث العكس فى البرتغال. فعندما اجبر مانويل الاول اليهود على أعتناق ديانته، «تحولوا» بالفعل. لكنه ظل لا يعتبرهم جديرين بأى مركز شرف. وهكذا ظلوا يعيشون منفصلين عن المجتمع البرتغالى .

قد يقول المرء أن ما يثير مثل هذه المشاعر السلبية، لابد أن تكون شخصية أو هوية محددة إيجابيا بذاتها. وعلى كل، فمنذ حين من الوقت، ولنقل مع بداية القرن، كانت «الهوية المحددة ايجابيا» لليهود فى

دور التحلل. وبعد كل شيء، ظهرت الصهيونية كاعتراض على ذلك التحلل، بينما قبلت الاشتراكية الاوروبية كقاعدة عامة وشجعت استيعاب اليهود كجزء من حركة تقدمية أوسع، استيعابا يفترض أنه نتيجة له سيسفح المجتمع الحديث تراثه التمايزى والقومى.

لقرون عديدة، كان جذر العنصر الايجابى للهوية اليهودية يتمثل فى الدور الذى لعبه اليهودي فى المجتمع الأوروبى. ففى عصر الاقطاع وفجر الرأسمالية، كان يمثل الاقتصاد النقدى وأفكاره لدى أناس تتحدد طرائق تفكيرهم بالاقتصاد الطبيعى ، ولم يكن من قبيل الصدفة أن ارتبط اليهودى فى العقل المسيحى برمز كـ«شيلوخ» أو «فاجين». وهو رمز يظهر في الادب العالمى بصور وتنويعات متعددة. لم يكن خبث «مشوماد» هو الذى جعل ماركس يقول أن إله اليهودى الحقيقى هو النقود. فهو لم يقصد بذلك اليهود من الزاوية الاخلاقية. وأنما كان قصده تقرير حقيقة وظيفة اليهود المتميزة في المجتمع المسيحى. واستطرد ليقول أن المجتمع المسيحى، كلما أغرق فى الرأسمالية ، أغرق في «التهود» . وكان مقتنعا تماما بأنه عندما ينتقل المجتمع الأوروبى من الرأسمالية إلى الاشتراكية، سيكف كل من المسيحيين واليهود عن أن يكونوا «يهودا» أو ، فيما يتعلق بهذا الموضوع ، مسيحيين . وفى حياة ماركس، في عصر التمثل، كانت الهوية اليهودية فى الحقيقة فى دور الاختفاء، فى غرب أوروبا على الأقل.

وفى رأيى ، أن أحداث العهد النازى المأساوية ، لا تبطل التحليل الماركسى الكلاسيكى للمسألة اليهودية ، ولا تدعو إلى إعادة النظر فيه. فلا حاجة إلى القول بأن الماركسية الكلاسيكية تضع فى حسابها شيئا مثل «الحل النهائى» النازى. أو التعقيدات الخطيرة للمشكلة فى العهد الستالينى والعهد التالى لستالين فى الاتحاد السوفييتى. فالماركسية الكلاسيكية، قدرت تطورا أكثر صحية وطبيعية لحضارتنا عموما، أى قدرت تحولا من المجتمع الرأسمالى إلى المجتمع الاشتراكى يقع فى الوقت المناسب، ولم تحسب حسابا لتشبث الرأسمالية بالبقاء وتأثيراته المدمرة على حضارتنا عموما. ومع ذلك فإن ماركس وانجلز وروزا لوكسمبورج وتروتسكى، قد كرروا القول بأن العالم يواجه الاختيار بين الاشتراكية الاممية أو البربرية، اختيارا لابديل عنه. وربما لم يعرفوا هم أنفسهم ، كم كانوا على صواب، وكم كان الاختيار حقيقيا. وعلى كل، فلم يكن بوسعهم أن يتخيلوا إلى أى هوة من البربرية يستطيع العالم أن يغرق، عندما يفشل فى اعتناق الاشتراكية.

لم تكن النازية شيئا سوى دفاع النظام القديم عن نفسه ضد الشيوعية، ولقد كان النازيون أنفسهم يشعرون أن هذا هو محتوى دورهم. ولقد رآهم المجتمع الالمانى كله فى هذا الدور، ولقد دفع يهود أوروبا ثمن بقاء الرأسمالية، ثمن نجاح الرأسمالية فى الدفاع عن نفسها ضد ثورة اشتراكية. وهذه الحقيقة، على وجه التأكيد ، لاتدعو

إلى إعادة النظر في التحليل الماركسي الكلاسيكي، أنها بالاحرى تؤكده، فالطبيب الذي يواجه سرطانا مستشريا على نحو خاص، لا يشعر بالتأكيد بالحاجة أو التبرير لإعادة النظر في علم الطب. إن مصير اليهود لا يضعف أية قناعة ماركسية ، على العكس إنه يدعم الماركسية كنظرة عالمية تعانق العالم ككل.

إن الماركسية ، كمنهج وكنظرة مادية للتاريخ، تساعد على تحليل القوى التي تشكل المجتمع وتكونه ، ولقد ساور من استخدموا هذا المنهج، هاجس بالوحشية التي تهدد بتطويق أوروبا (وفي حالة تروتسكي كان ذلك الهاجس رؤيا غير عادية) ، لكن الرعب والانحطاط الكامل، الشخصية المرضية للنظرية والتطبيق النازيين، فاقا الخيال البشرى الطبيعي السوى.

إنها حقيقة مأساوية ومروعة، أن أعظم من «أعاد تحديد» الهوية اليهودية، كان هو هتلر، وليس هذا سوى نصر من انتصاراته الصغيرة التي تحققت بعد موته، لقد كان معتقل الموت في أوشفتز المهد الرهيب للوعي اليهودي الجديد وللأمة اليهودية الجديدة. ونحن الذين رفضنا التراث الديني، ننتمي الآن إلى الجماعة السلبية التي تضم هؤلاء الذين فرزوا للاضطهاد والافناء مرات كثيرة في التاريخ، بعضها قريب ومأساوي . أما من كانوا يؤكدون على اليهودية وعلى استمرارها، فمن الغريب والمرير أن يفكروا أن أبادة ستة ملايين من اليهود، قد منح

اليهودية هذه الفرصة الجديدة للحياة، وأنني لافضل لو أن الستة ملايين رجل وامرأة وطفل بقوا على قيد الحياة وفنيت اليهودية. لقد بعثت عنقاء اليهودية من رماد ستة ملايين من اليهود. فيا له من بعث !

والآن، تصرخ هذه الهوية الجديدة، التى أنبعثت انبعاثا مأساويا، لكي تحدد نفسها، لكي تجد لها موقعا فى الحقيقة الواقعة التى مزقها الماضي. وسكيون هذا الجهد البائس جهدا بغير طائل، إذا تم من وجهة نظر يهودية خالصة. فمن ذا الذى ينطلق «بحثا عن هويته اليهودية»، أهو سير أسحق وولفسون أم منديس فرانس؟ بن جوريون أم لازار كاجانوفيتش؟ كبير حاخامات بريطانيا أم أنا ؟

ولا تحدث عن نفسى مرة أخرى: بالنسبة لى، ما زالت الجماعة اليهودية جماعة سلبية، ليس غير. ليس هناك شيء مشترك بينى وبين يهود ما، فلنقل: مى شاريم «المئة بوابة»، أو أى نوع من القوميين الاسرائيليين. أننى أميل إلى الماركسيين اليساريين فى إسرائيل، لكننى أحس بنفس الدرجة من القربى إلى أصحاب نفس العقلية، مثلا فى فرنسا وإيطاليا وبريطانيا واليابان، أو إلى تلك الجماهير من الامريكيين الذين حاضرتهم في واشنطن وسان فرانسيسكو، في اجتماعات واسعة للاحتجاج ضد الحرب فى فيتنام. هل نحن مطالبون الآن بقبول فكرة أن الروابط العنصرية أو «روابط الدم» هى التى تقيم الجماعة اليهودية؟ إلا يكون ذلك انتصارا أخر لهتلر وفلسفته المنحطة؟

إذا لم يكن العنصر هو الذى يشكل اليهودى، فما الذى يشكله ويكونه ؟

الديانة ؟ أنا ملحد . القومية اليهودية؟ أنا أممى. لست أذن يهوديا بأى المعنيين. ومع ذلك فأنا يهودى بمعنى ما، بقوة تضامنى غير المشروط مع المضطهدين والمعرضين للابادة. أنا يهودى لانى أحس أن المأساة اليهودية هى مأساتى أنا، لانى أحس نبض التاريخ اليهودى، لأنى أحب أن أفعل كل ما أستطيع لاضمن الامن واحترام الذات، الحقيقيين ، لا الزائفين ، لليهود.

إن تباين الخلفية، وظروف الوجود، والنظرة العالمية، النظرة إلى العالم ككل، ذلك الذى يميز ويفصل مثلا بين سير إسحق وولفسون وكبير حاخامات بريطانيا، وبينى أنا وصديقى من حى موراتوف فى وارسو (الذى رسمت صورته عن قصد)، يبرز عدم انسجام الطرح اليهودى الخالص للمسألة التى تشغلنا. إن تحديد اليهودى محير جدا، بالذات لأن الشتات (الدياسبورا) عرض اليهود لعدد كبير من الضغوط والمؤثرات المتباينة، كما أن التباين مماثل فى الوسائل التى اتخذوها للدفاع عن أنفسهم ضد العداء والاضطهاد. وأن أنشغالى بالمسائل اليهودية، فى بولندا ما قبل الحرب ، يعتبر بلا شك تخريبا وهرطقة وسلوكا غير يهودى بالمرة، فى نظر كل كرادلة جميع معابد اليهود فى نيويورك وباريس ولندن.

إن الحديث عن «الجماعة اليهودية» ككيـــان شــامل، إذن ، أمــر لا معنى له، وبالنسبة للماركسى، هو كذلك مرتين. إن الماركسي يرى كل المجتمعات أولا من وجهة نظر انقساماتها الطبقية، لكن الطائفة اليهودية لا تضم فقط طبقات اجتماعية متضاربة وحسب، بل لقد انقسمت جغرافيا أيضا، ففى كل بلد كان اليهود فيه أقلية، أثر فيهم التراث الثقافى القومي على نحو مختلف، وطبع منطلقهم الفكرى بطابع مختلف (أن التوتر والعداء بين اليهود الالمان ويهود شرق أوروبا مثلا مازالا قائمين وما زالا موضوعا لعدد لا يحصى من النكات الساخرة حتى الآن فى إسرائيل).

فى شرق أوروبا، كانت الحياة الثقافية اليدشية العلمانية، مرتبطة أرتباطا لا فكاك فيه بالحركة العمالية. تلك الحياة وتلك الحركة لا يمكن أحياؤهما، وشظاياهما في الولايات المتحدة وغيرها، هى بلا شك في دور الاندثار. وأذكـر أننى منذ حـوالى أربعين سنة، كنت أناقش هذا الموضوع مع موشي نادر، أستاذ اليدش العظيم وأستاذ المفارقة أيضا. فى ذلك الوقت كان الناس يناقشون بالفعل فرص بقاء وتطور اليدش فى أمريكا، وكان نادر ميالا إلى الشك، قال : «لا أعتقد أن اليدش ستبقى، لكنى لا أهتم لذلك، إذا ماتت لغتنا، فإننا نحن الكتاب سنقرأ وندرس كما يقرأ ويدرس أساتذة أى أدب ميت، الاغريقى أو اللاتينى.

سنصبح من الكلاسيكيات، ستقرأ الاجيال القادمة هجائياتى كما تقرأ وتدرس الآن هوراس أو أوفيد».

ولقد تحققت مفارقة نادر مبكرا، وبطريقة أكثر كآبة مما تخيل، فبالرغم من لامبالاته الواضحة أو المصطنعة بمصير لغته، فلابد أن نادر كان يهمه أن يجد وسيلته كي يشاركه القراء الناطقون بالانجليزية، النكهة الكاملة للشعر والنثر اليدشي، ولينقل إليهم غنى التراث الادبى اليدشي. لكنه كان يدرك أنه بغض النظر عن مدى ما يمكن أن تصل إليه هذه الجهود من ذكاء ورقة ومحبة، فأنها ستحمل فى داخلها عناصر البحث الأثرى، مثلها مثل عمل يستهدف الاحتفاظ بقطع من عمود بومبى الضخم. صحيح أن ألافا أو عشرات الآلاف من اليهود مازالوا يتكلمون اليدشية، لكنهم أقل من أن يشكلوا قاعدة لنمو أى أدب أو ثقافة حية.

إن بقايا من اليهود مبعثرون فى جميع انحاء العالم. كذلك يجد بعض التراث الأصيل تعبيره فى لغات أخرى، فاحتل العنصر اليهودى مكانا بارزا فى الرواية الامريكية الحديثة. لكن هذا لا يستطيع أن يساهم بأى درجة في بقاء التراث اليهودى الحقيقي. فمنذ وقت طويل، وحتى يومنا هذا، يناقش الكتاب اليهود السؤال التالي: هل هاينه كاتب يهودى؟ هل بورن كذلك؟ هل يجب اعتبارهم يهودا أم مجرد ألمان؟ لا توجد ولا يمكن أن توجد إجابة واضحة قاطعة. ولقد صارع هاينه

حيرته اليهودية طيلة حياته، وكذلك فعل بورن. «بالامس بطل ، أما اليوم فأنت مجرد شرير» . هكذا علق هاينه على تحول بورن إلى المسيحية، لكن الوقت لم يطل به قبل أن يتبع خطاه، ليحصل ، عبر التعميد، على «بطاقة دخول إلى الحضارة الاوروبية» . بعد جيل واحد، بدا أن عبء اليهودية أخف حملا على كتاب ألمان مثل فرانز ورفل، وأرنولد وستيفان زفايج، وسرمان، والكثيرين غيرهم ممن احرزوا شهرة عالمية فيما قبل النازية .

إن عددا قليلا من الكتاب اليهود البولنديين، هم الذين كانوا ينتمون إلى أصل بولندى مثل جوليان توون، وانتونى سلو ينمسكى، أشهر شعراء فترة ما بين الحربين، وتبدو القسمات اليهودية المميزة فى كتاباتهما أحيانا، لكنها تظل على نحو ما عابرة فقط، إلى أن أضفت مذبحة حوارى اليهود على شعرهما بعدا جديدا، وحتى عندئذ لم يحرزا ذلك الوعى الحاد بيهوديتهما، ذلك الوعى الذى نجده عند ايزاك بابل، البلشفى الذى حارب في الحرب الاهلية وعاش وغرق فى بحر الثورة الروسية.

أما فى روسيا، فان «معزل المستوطنات» جعل أى نمو عضوى روحى مشترك بين اليهود والسلاف مستحيلا، أما فى بولندا فقد عاش اليهود فى معزل (حارة يهود) فعلي قبل ١٩٤٠ . لكن القومية البولندية واللا سامية، والارثوذكسية اليهودية والصهيونية من ناحية أخرى، عملت

كلها ضد أي تعايش مثمر. ويجب أن نتذكر، أن منظرى الصهيونية، لا منظرى الاشتراكية فحسب، قد تحدثوا أيضا عن الطبيعة غير المنتجة للاقتصاد اليهودى في المنفى (الدياسبورا)، ولقد كان العداء بين العناصر المنتجة والعناصر غير المنتجة فى المجتمع أمرا حتميا فى كل الاحوال . وعلى أساس هذا العداء الاجتماعى والاقتصادى المؤكد، نما على مر القرون البنيان الفوقي للغربة الفكرية. وقد كانت الغربة من العمق، إلى حد أنه في بولندا ، مثلا ، لم توجد أبدا أى نقطة احتكاك بين الادب البولندى والادب الييدشى، أو بدقة أكثر ، فأن الكتاب والاكاديميين ورجال التعليم البولنديين لم يكونوا حتى يعرفون أن وارسو هي مركز أدب بيدشى حديث مزدهر، يقرؤه اليهود ومن يعجبون به (ليس اليهود فحسب) فى جميع انحاء العالم.

فى مطلع القرن، كان الوضع فى روسيا معقدا، فالثقافة الروسية تتمتع بقدرة فائقة على الاستيعاب، أساسا بسبب الطبيعة العالمية للافكار التى أحيتها فى العصر الحديث، أفكار تولستوى وبليخانوف ولينين، ويصعب على أى حال أن نتكلم عن أى تأثير يهودى خاص على على الثقافة الروسية. بل أن اليهود لم يبدأوا الدخول إلى الادب الروسى قبل تسعينيات القرن التاسع عشر، ولم يدخلوه بصفة نهائية إلا مع الثورة التي كانت هى «بطاقة دخولهم» إلى الثقافة التى أبقتهم قرونا على مبعدة منها. فايزاك بابل يكاد يكون بغير اسلاف، أما ليون

تروتسكى، اليهودى الذى كان أعظم أساتذة النثر الروسى فى عصر الثورة، فلم يباشر على أى حال نفوذا بصفته يهوديا، أما الادب البولندى من ميكيوتش إلى اورتسسكوا وكونوبنيكا، فقد دخلته الموضوعات اليهودية قبل ذلك بكثير، وشغلت المشكلة اليهودية الشعراء والروائيين البولنديين قبل أن تستعيد بولندا استقلالها، ومع ذلك فاننى أرى أن القسمات اليهودية في أشعارهم ورواياتهم دخيلة وخفية - بل ربما غير مفهومة بالمرة - لجيل اليهود البولنديين الذين تربوا فى بولندا بعد أن تخلصت من اليهود.

هل يمكن على أى وجه، ألا يبقى أى أثر للوجود اليهودى فى شرق أوروبا؟ بالتأكيد بقيت بعض الآثار، لكن هل سيكون لها، على المدى الطويل، معنى يفوق معنى الآثار التى تركها الهنود الحمر على الحضارة الامريكية اليوم؟ هذا أمر آخر: يصعب جدا على يهود جيلنا أن يستوعبوا أن يصبح وسط وشرق أوروبا خالصين من اليهود، أى استئصال كل العنصر الاجتماعى الذى كان له وزنه الكبير ذات حين.

إن فى إسرائيل اليوم، تحول جديد مفاجىء فى اليهودى وهويته. أن وعى إسرائيل الثقافى عبرى، ومن حيث تكونه يستمد مادة الحياة التاريخية من الكتاب المقدس ومن التلمود، فهو مدعوم بأشباح الماضى، ولم تفرز الـ مى شاريم» (المئة بوابة) أى أدب على الاطلاق، لان أى كتابة علمانية باللغة العبرية هى، بالنسبة لليهودى الارثوذكسى، من قبيل

التجديف، وبغض النظر عن اضطرار الكاتب الحديث الشاب إلى اعلان مروقه عن التراث الديني واستقلاله عنه، فان عليه أن يحفر في الماضي ليحيي اللغة التي كانت، مثل اللاتينية، ميتة لحوالي الفي سنة. لقد عاشت في اللاهوت، والآن لا تستطيع أن تحرز العلمانية بسهولة ، فللتقليد منطقه الموضوعي، ولابد أن يكون ذا وزن كبير على الجيل الجديد من كتاب إسرائيل ، أما بالنسبة لي، فلا أستطيع قبول ذلك التحول المفاجيء في الوعي اليهودي واستيعابه في هويتي، فقد تكونت من هذه الناحية، وعلى نحو قوي، في تقليد وتراث أممي أوروبي، بولندي وروسي وألماني وانجليزي، وفوق كل ذلك ماركسي. أن العبرية تنتمي إلى طفولتي ومراهقتي المبكرة، ولما كنت قد تخليت عنها ورفضتها آنذاك، فلا أستطيع العودة إليها الآن .

★★★

كماركسي غير نادم وكملحد وكأممي ، بأي معنى أنا يهودي إذن ؟ ما الذي يقربني من هذه «الجماعة السلبية» ؟ .

إنها لمفارقة ، إن أجد نفسي ، على غير توقع ، قريبا من مخاوف اليهودي الارثوذكسي والصهيوني . انني لا أعتقد أن الصهيونية قد انتهت كقوة ، اخشى أن نكون في دولة الرفاهية الغربية ، نعيش في فردوس مغفلين . كما أن الاحساس الواثق بالتحرر من اللاسامية قد يكون وهما آخر ، وهما يهوديا خاصا ، ولده مجتمعنا الغني .

عندما واجه تروتسكى ظاهرة النازية ، وصفها بأنها «الرفض الجماعى للفكر السياسى الأممى» الذى دخل فى تشكيل «الخزانة الفكرية للمسيحية الالمانية الجديدة» ، والتى أثارت وعبأت كل قوى البربرية ، المترصدة تحت غلاف رقيق من المجتمع الطبقى «المتحضر» . وفى عبارة خالدة تعيش مع هواجس غرف الغاز ، استجمع تروتسكى خلاصة النازية : «كل ما كان المجتمع سيلفظه ، لو انه تطور تطورا طبيعيا (أى : نحو الاشتراكية) ، كبراز للثقافة ، يندفع الان من حلقه إن الحضارة الرأسمالية تتقيأ ما لم تهضمه من البربرية ...» . لست أعتقد أن مجتمعنا البورجوازى فى الغرب (ولسوء الحظ ينطبق ذلك على مجتمع ما بعد الرأسمالية فى روسيا) قد استطاع أن يهضم ويطرد من جهازه بربرية العصور التى كان هتلر يمثلها ، ولقد سمعت اناسا يعيدون كيف أنه عندما بدأت مرحلة العقلانية ، اعتنق اليهود التسامح العالمى ، وراحوا يقولون لبعضهم البعض : «فلنكف عن الاهتمام بالتلمود والتوراة ، ولنرقص جميعا حول آلهة العقل» . ولقد كانت آلهة العقل تلك هى التى سقطت ، لقد كانت آلهة بورجوازية جدا ، ترعى مجتمعا لم يسمح له انشغاله بالنقود (الذى لم يكن انشغالا يهوديا صرفا !) بأن يهضم البربرية . وهو مجتمع كلما احتد احساسه بعدم الأمن ، لسع بسياطه العنصرية والقومية والخوف من الاجانب وكراهية الغريب والخوف منه . ومن ذا أكثر غربة من اليهودى ؟

علينا ألا نتخيل أن بورجوازية ما بعد الحرب ، فى قمة رخائها ، وقد عاودت الرقص حول آلهة العقل ، لن تخذلنا هذه المرة ، بل ستسبغ علينا كل فضائلها إلى الأبد ، فحتى فى المجتمع الانجليزى المعتدل ، الحر ، المتحضر ، نرى الصلبان المعقوفة تظهر هنا وهناك ، مرسومة على المبانى السكنية فى الاحياء «المحترمة» . ومن تجربتى الخاصة أعرف أنه عندما تبحث عن مسكن فى لندن ، لنقل فى هامستد ، سيقال لك أن الجيران سيعترضون على سكن مستأجر زنجى أو يهودى ، لكنهم بالتأكيد سيرحبون بك أنت كاستثناء ..نعم ، تحت الغلاف الناعم تعشش البربرية ، خشنة ، فجة ، مستعدة دائما للانطلاق .

قد نحس أن اللاسامية قوة قد انتهت ، لأن الناس فى دولة الرفاهية تلك قانعون وراضون بصورة عامة ، ويبدو أن متاعبهم الاجتماعية قد تبددت . لكن دع هذا المجتمع يعانى صدمة قاسية ، من النوع الذى يتحتم عليه أن يعانيه ، فليكن هناك مرة أخرى ملايين العاطلين ، وسنرى نفس الطبقة الوسطى الدنيا مرة أخرى مع حثالة البروليتاريا ، حيث جند هتلر اتباعه ، يجرون مسعورين باللاسامية . فطالما تفرض الدولة القومية تفوقها ، وطالما أن ثروة كل أمة فى يد أقلية رأسمالية قومية ، سيكون عندنا تعصب وطنى وعنصرية ، وقمتهما اللاسامية . هذا هو السبب فى أننى اعتقد أن دور المثقفين - اليهود وغير اليهود على السواء - هؤلاء الذين يعون عمق المأساة اليهودية وخطر تجددها ،

هو أن يظلوا معارضين دائما ، وأن يتمسكوا بمعارضة القوى الكامنة ، ان يقفوا بقوة فيه ضد المحرمات والمواضعات ، ان يناضلوا من أجل مجتمع تفقد فيه القومية والعنصرية في النهاية سيطرتهما على العقل البشرى . انني أعلم أن هذا ليس مخرجا سهلا ، وقد يكون كئيبا ومؤرقا ، ولن تكون لدى من يعتنقونه صيغة محددة من قواعد العمل . لكننا إذا لم نظل معارضين ، سننتجرك في دائرة مفرغة مهلكة ، دائرة انتحارية .

عندما ينظر المرء إلى سجل المثقفين اليهود في الغرب ، يصل إلى نتائج محزنة ومخيبة للآمال . ان الذى يصدمنا فيما يتعلق بالمثقفين اليهود فى الغرب ، هو تكيفهم غير العادى ، السياسى والايديولوجي والاجتماعي . ان اليهود من أبرز العاملين في الحرب الباردة المسيطرة على حياتنا لأكثر من ثلاثة عشر سنة . وربما يستثنى من هذه الادانة المشتغلون بالدراسات العلمية . لكننا عندما ننتقل إلى ميادين العلوم الانسانية ، نرى بين جمهرة المؤرخين والسياسيين وعلماء الاجتماع ... إلخ ، عددا كبيرا من اليهود مستغرقين بحماس في هذه الحرب الباردة ، باسم مجتمعنا هذا ، ببربريته التى لم تهضم . وعندما ينظر المرء في فرق المتعصبين قوميا ، التى تعلن أن «أسلوبنا الامريكى فى الحياة» أو «أسلوبنا البريطانى فى الحياة» هو أحسن ما يمكن من أساليب ، يجد المرء نفسه يتمنى

أن يفرض تحديدا عدديا على قبول اليهود فى مهنة التعصب القومى ، التى ترتفع فيها أصواتهم بمثل هذه الاغلبية النسبية . ان من أبعد الأمور بالنسبة لى ، أن يكون رد فعلى نحوهم ، هو أن اتخذ دور «كاسندرا» ، لأننى مازلت واثقا من أن «المعترض الابدى» (وأنا اسمح لنفسى باستخدام تعبير البروفيسور دياشز) سيرى مثله العليا تتحقق وآماله تتجسد . فى رأيى أن البحث عن هوية ، يكون له ما يبرره فقط ، إذا كان من شأنه أن يساعد المثقف اليهودى فى نضاله من أجل مستقبل أفضل للبشرية جمعاء .

٣ ـ

الثورة الروسية والمسألة اليهودية [١]

إن من يتناول موضوع هذه المحاضرة ، الثورة الروسية والمشكلة اليهودية ، يجب أن يعتصم بالوجل ، لأنه موضوع شديد التعقيد ، متعدد الأوجه ، وليس أسهل ولا أكثر ضررا من تبسيطه ، ومحاولة توزيع اللوم ، لوم اليهود ، أو الثورة ، أوالروس . كما يجب أن نحذر أيضا التفكير في هذه المشكلة على نفس أسس العلاقة بين روسيا الثورة وغيرها من قوميات الاتحاد السوفييتي ، فالمشكلة اليهودية ، فريدة من هذه الناحية ، ولكي نراها بكل تعقيدها يجب أن نعود إلى منبعها يجب أن نحلل بايجاز تغيرات وتحولات الثورة الروسية نفسها ، وأن نتبين أثر تلك التغيرات

---

(١) (نص محاضرة ألقيت على الجمعية اليهودية ، في اتحاد طلاب مدرسة لندن للاقتصاد السياسي ، في ٢٩ أكتوبر «تشرين الأول» ١٩٦٤).

على مصير اليهود في الاتحاد السوفييتي . إن السؤال الرئيسي الذي يتعين مواجهته والاجابة عليه بنزاهة ، هو : لماذا لم تنجح الثورة الروسية ، خلال ما يقرب من نصف قرن ، في حل المشكلة اليهودية ؟

لابد أن ابدأ ببيان تباين حاد بين مكان اليهود في المجتمعات الغربية ، ومكانهم في شرق أوروبا ، خصوصا في روسيا ، وبالتحذير من أن النظر إلى المشكلة اليهودية في روسيا من خلال «منظور» حياتهم في غرب أوروبا ، معناه أن تروا المشكلة رؤية مشوهة ، وان تبدأوا بحثا لن يؤدى بكم إلى أى مكان . عليكم ألا تتصوروا للحظة واحدة أن الحياة اليهودية والجماعة اليهودية في شرق أوروبا ، وفي روسيا ، كانت تشبه على أى نحو الطائفة اليهودية في انجلترا أو فرنسا ، أو حتى الولايات المتحدة .

طوال القرن التاسع عشر ، كان اليهود في بلدان غرب أوروبا ينتمون أساسا إلى الطبقة الوسطى . كان هناك قليل من العمال اليهود ، وعدد غير كبير من الحرفيين اليهود ، وبعض أصحاب الحوانيت الصغار ، وكان أغلبية اليهود تجارا يديرون أعمالهم على نطاق واسع في كثير من العواصم الغربية ، وكان بعضهم صيارفة كبارا ، وكاد بيت روتشيلد يصبح رمزا للبورجوازية العليا اليهودية ، فكان الطابع البورجوازى الغالب على الطائفة اليهودية في غرب أوروبا مختلفا بوضوح عن طابع الجماعة اليهودية في شرق أوروبا . صحيح أنه في

الشـرق ، كـانت لنا أيضـا بورجـوازيتنا الـيـهـودية ، كـان لنا تجـارنا ، وأصـحـاب حـوانيـتنا ، لكن الاغلبـيـة العظمي من اليـهـود كانوا كـادحين فقراء ، وحرفيين بدائيين ، وعمالا غير مهرة ، وخياطين ونجارين ، ومن كنا نسميهم عموما «عمال المعادن» . لكن لا تخطئوا وتفكروا بمقاييس أقل عمال المعادن الفرنسيين وعمال الصلب الانجليز . إن «عمال المعادن» هؤلاء كما عرفتهم ، كانوا غالبا سمكرية ، وصناع صفائح ، وصناع أقفال ، وكانوا عادة يشكلون نوعا من الجمعيات يسمونه «نقابة عمال المعادن» . كانت دفعة ضخمة لهؤلاء المحلقين ان ينتموا إلى نقابة لها مثل هذا الاسم الضخم ، لكنهم كـانوا مملقين على أى حـال . تصوروا شعبا من ملايين اليهود والمعوزين الذين ضربهم الفقر ، بينهم جمع ممن يسمون «العايشين من الهوا» Luftmenschen ، هذا هو الشعب الذي لا جذور له فى الهيكل الاجتماعى للمجتمع ، بلا أى عمل ، بلا أى مصدر منتظم للرزق ، باعة جوالون ، باعة ملابس قديمة ، ناس يعيشون على العمل كخطاب ، لم يكونوا ينظمون الخطوبات ، بل الزيجات والاعراس ، ويساومون على النسبة المئوية التي ستكون نصيبهم من البائنة .

في غرب أوروبا ، بعد الثورة الفرنسية ، تمتع اليهود بمساواة رسمية فى نظر القانون (فى سنة ١٨٤٨ ، انتخب لعضوية مجلس العموم ليونيل روتشيلد ، أول عضو يهودي في البرلمان) . وقد سارت

هذه المساواة القانونية ، يدا بيد مع الاستيعاب المتنامي للطائفة اليهودية ، لأنه حتى تلك الفئات التى احتفظت بدينها ووعيها اليهودى ، استوعبت من خلال تبنيها لغات البلدان التى عاشت فيها ، واكتسابها للمظهر الخارجي لمواطنيها . أما فى شرق أوروبا ، فقد عاشت كتلة ضخمة من اليهود ، ملايين منهم ، في جماعات متلاحمة محكمة الأواصر ؛ منفصلة عن محيطها غير اليهودى . لم تكن هذه المعازل اليهودية رسمية ، كان مسموحا لليهود بالخروج منها ، وكانوا بالفعل يخرجون . ومع ذلك ظلوا يعيشون في جماعات متماسكة ، يرتدون ملابس مميزة ، تكملها اللحى والسوالف ، وكانوا يتحدثون لغتهم الخاصة ، وأنشأوا ثقافتهم الخاصة ، وأدبهم الخاص ، وكانت معرفتهم بالبولندية أو الروسية فى كثير من الاحيان أقل من بدائية ، فقد ظل لسانهم ييدشيا . كما كانت هناك بالطبع أقلية من اليهود المتعلمين الذين أصبحوا مستوعبين أكثر من غيرهم ، وأقل من غيرهم تميزا عن المثقفين من أبناء البلاد ، فى عاداتهم وعوائدهم . لكن طريقة حياة الكتلة العظمى من اليهود الارثوذكس لم تتطور إلا قليلا على مدى قرون، ظلوا يواصلون نوعا من الحرف البدائية ، كالخزف ، كانت تمارس فى القرن السادس عشر أو السابع عشر ، وكانت محرماتهم وطقوسهم الدينية على نفس القدر من القدم والتخلف .

فى غرب أوروبا سار انعتاق اليهود جنبا إلى جنب مع استيعاب اليهود . وهو ما لم يحدث فى شرق أوروبا ، وفى روسيا خصوصا ، حيث كان اليهود فى وضع «مواطنين من الفئة الثانية أو الثالثة» . لم يكن مسموحا لهم بالاقامة فى روسيا بعمومها ، بل فيما سمى بالمقاطعات اليهودية . لم يكن مسموحا لهم بتملك الأرض ، وكانت بعض الاعمال مغلقة فى وجوههم . كان وضعهم أفضل بقليل من وضع الاقنان الفلاحين الروس أو البولنديين . لكن الفلاحين على الاقل لم يكونوا معرضين للمذابح والهبّات اللاسامية ، والمذابح الجماعية ، التى كانت تلقائية ، وفى كثير من الأحيان بتشجيع من السلطات . ومن الحقائق ذات المغزى أن كلمة Pogrom التى تعنى مذبحة منظمة ، أصلها روسى ، رغم أنها الآن قد دخلت إلى اللغات الأوروبية . وقبل الثورة الروسية بخمس سنوات فقط ، كانت قد وقعت محاكمة بايليس الشهيرة فى كييف ، والتى لخصت وضع اليهود فى ظل القيصر ، ففى هذه المحاكمة – التى سميت محاكمة جريمة القتل الطقوسية – اتهم يهودى – هو بايليس – بقتل طفل غير يهودى ، لكى يستخدم دمه لاعداد الفطير فى عيد الفصح ، وكان «المئات السود» (جمعيات الرجعيين المتطرفين العتاه أو أظلم الارثوذكس اليونانيين الذين يتمتعون بدعم القيصرية) فى حالة هياج . هنا ، أمامكم ، التباين غير العادى بين وجود اليهود غير الآمن فى روسيا ، وبين الحياة اليهودية فى الغرب .

قد تقولون أنه فى الغرب أيضا كانت عندنا انفجارات لاسامية – قضية دريفوس – لكن هذا كان على مستوى مختلف تماما من التطور الاجتماعي والسياسى . وعلى كل فلا شك أن قضية دريفوس تقف شاهدا على نقطة تحول فى تاريخ اليهود فى غرب أوروبا ، إذ أن الحركة التقدمية للتحرير لم تبدأ فى معاناة الردة الكاسحة إلا قرب نهاية القرن التاسع عشر ، حيث اللاسامية تظهر وتنمو، وتصل فى النهاية إلى الحجم المروع الذى وصلت إليه فى العهد النازى . لقد حمل القرن التالى للثورة الفرنسية ، التنوير والتقدم ، ومعهما استيعاب اليهود فى محيطهم . أما فى شرق أوروبا ، فكان قرنا من اضطهاد اليهود وعزلهم .

كان ذلك هو وضع اليهود عندما بدأت الحركة الاشتراكية الديمقراطية ، فى العقد الأخير من القرن التاسع عشر والعقد الأول من القرن العشرين ، تنتشر وتكتسب طابعها الجماهيرى . وكثيرا ما يقال الآن ، أن الموقف من اليهود كما نراه فى روسيا الآن ، يتفق مع ما أعده أصلا لينين والبلاشفة ، ومن الشائع ، خصوصا بين اليهود ، أن يلقى اللوم فى كل ما حل بأبناء دينهم فى روسيا من مساوىء على البلشفية والشيوعية ، ومع ذلك فعندما نعود إلى المصادر الأصلية، عندما ندقق فى الوثائق ، نجد أنه حتى يوم الثورة ، كان البلاشفة والمناشفة ، بل والاشتراكيون الثوريون ، أى جميع تيارات الاشتراكية

الروسية على الاطلاق ، متفقين على تناولهم للمشكلة اليهودية . هنا كان البلشفى الروسى لينين والمنشفى اليهودى مارتوف واليهودى تروتسكى من فكر واحد . لقد تلقوا أفكارهم عن اليهود من الماركسيين الغربيين ، وعن ماركس وانجلز على وجه الخصوص . وفى مقالة شهيرة لماركس عن المشكلة اليهودية ، كتبها فى اربعينيات القرن التاسع عشر ، قال أن مسألة تحرر اليهود لم تعد قائمة كمسألة مستقلة . فكل الجهود يجب أن توجه نحو تحرير المجتمع الأوروبى ، خصوصا المجتمع الغربى ، من الرأسمالية . وما أن يلقى نير الاضطهاد الرأسمالى ، حتى يحصل كل أفراد المجتمع ، بما فيهم اليهود ، على المساواة والحرية .

فى الكتابات الماركسية المبكرة حول هذا الموضوع ، كان ثمة عداء خفى معين ضد اليهود ، ليس كيهود ، وانما كقطاع بارز وظاهر من بورجوازية غرب أوروبا . وكان آل روتشيلد يمثلون السلطة والسيطرة المالية للبورجوازية المالية بين الطبقات الوسطى الفرنسية والبريطانية والالمانية . ومن الناحية الأخرى ، كان هناك القادة الاشتراكيون البارزون ذوو الأصل اليهودى مثل ماركس ولاسال . لكن مرة أخرى ، قرب نهاية القرن التاسع عشر ، عندما بدأت اللاسامية تنمو حتى في المجتمع الغربى ، أصبحت الحركة الاشتراكية كلها مشغولة بالمشكلة اليهودية . وفى ذلك الحين كتب أوغيست بيبل ، قائد الاشتراكية الديمقراطية الالمانية العظيم ، كتابه الشهير عن اللاسامية ، حيث

سماها «اشتراكية المغفلين» . ولقد كانت هذه التسمية شيئا أكبر من مفارقة براقة أو فكرة ذكية لبقة . فالحقيقة أن الدور التآمرى الذى لعبه اليهود بين المصرفيين والتجار ، قد أثار بالفعل العداء ضد اليهود بين الطبقات الأفقر في المجتمع الأوروبى . وحاول بيبل وغيره من الاشتراكيين ، ومن بينهم كاوتسكي ، أن يشرحوا للعمال أن عليهم أن يوجهوا نضالهم ليس فقط ضد البورجوازية اليهودية ، التى لم تكن سوى جزء صغير من طبقة الرأسماليين ، انما ضد البورجوازية ككل . كانت هذه هي الاشتراكية الحقيقية ، والذين يحاولون تغيير النظام الاجتماعى ، ضد بعض أعضاء الطبقة المسيطرة من اليهود ، ليسوا سوى مغفلين . وعندما نتأمل الاحداث نستطيع أن نرى مدى بعد نظر بيبل ورفاقه ، عندما بينوا أن رأسماليي غرب أوروبا ، على استعداد للتضحية بأخوتهم اليهود ككباش فداء ، بل كانوا مستعدين لاثارة العمال وحثالة البروليتاريا ، وصغار أصحاب الحوانيت ضد البورجوازية اليهودية ، لينقذوا حياتهم وممتلكاتهم . فهذه هى أرخص الطرق لكى يحولوا عنهم كراهية الجماهير المضطهدة .

فى غرب أوروبا لم يكن ثمة عمال يهود ، أو بالاحرى كانوا قليلين جدا . وبالتالى فلم تكن هناك حركة طبقة عاملة يهودية . وتمسك القادة الاشتراكيون بوجهة النظر القائلة بأن الرد الوحيد على المسألة اليهودية هو الاستيعاب الكلي . وفي ذلك الحين كان لينين ، وكذلك رفاقه ، يعلنون

أنفسـهم بفخـر تلاميذ للاشـتراكيـة الديمقراطيـة الالمانيـة . ولذلك فـقد اعـتقـدوا هـم أيضـا أن المشكلة فى روسـيا أيضـا تحل بالاسـتيعـاب ، بامتصاص الطوائف اليهودية كليا فى المجتمع الاشتراكى الكبير . ومع ذلك ، فسرعان ما رأوا أن المشكلة في الشرق أصعب منها فى الغرب . وبالتـحديد لأن المعوزين والعمـال اليـهود والقطاعـات الدنيا من الطبـقة الوسطى منهـم يعيشـون فـى مناطق مـعزولة ، فى احياء يهودية مـحكمـة الأواصـر ، يزرعـون وينمـون نمـطهـم الخـاص من الحـيـاة . ومـع ذلك فـقد كـان لينين ومـارتـوف ، البلشـفي والمنشـفي ، مـصـمـمـين تمامـا على جـذب العمال اليـهود إلى نضـال رفاقـهم الروس ضـد القيـصـرية وضـد النظام القديم الذى كان حاكما فى شـرق أوروبا ، وكانت روزا لوكسمبرج ، تلك المرأة الثورية العظيمـة ، ذات الأصل اليـهودى ، تتبنى نفس الرأى ، بل كانت أكثر من لينين ومارتوف تمسكا باستيعاب اليهود .

فى هذه الفـتـرة بدأت الصـهـيونية أيضـا تنمـو كحـركة سـيـاسـيـة ، تجتذب مؤيديها اسـاسـا من الجماعـات اليـهودية فـى البلدان الغربيـة . ويجب أن نعرف أن الاغلبية العظمى من يهود شرق أوروبا ، كانوا حتى اندلاع الحـرب العالـيـــة الثـانية مـعـارضـين للصـهـيونية . وهذه حقيقة يندر أن يعـنيـها اغـلـب اليـهـود غيـر اليـهـــود فى الغـرب . لقـد كـان الصـــهـــاينة فى هذا الجـزء من العـــالم ، أقلـيـة ذات وزن ، لكنهـم لم ينجـحـوا ابدا فى جـذب أغلبـيـة من ابناء دينـهـم ، وكـان أكـثـر اعـداء

الصهيونية تعصبا هم بالتحديد العمال بالذات . هؤلاء الذين كانوا يتحدثون الييدش ، هؤلاء الذين كانوا يعتبرون انفسهم يهودا ، كانوا أشد المعارضين لفكرة الهجرة من شرق أوروبا إلى فلسطين . ففى بولندا ، فى ١٩٣٩ ، كان السكان اليهود ينتخبون لآخر مرة رؤساء طوائفهم . واعتبر الشيوعيون ، الذين كانوا ذوى نفوذ قوى أنذاك ، أن الطوائف مؤسسات كنيسية ، فقاطعوا الانتخابات ، بينما شارك فيها البوند (حزب العمال اليهود) ، ذو الميول شديدة العداء للصهيونية ، وكسب الاغلبية العظمى من الأصوات (لم يحاول أن يجمع بين الاشتراكية والصهيونية سوى قطاع صغير نسبيا من الحركة الاشتراكية هو «احباء صهيون») وكثيرا جدا ما يسوى الرأى العام اليهودى فى الغرب بين العداء للسامية والعداء للصهيونية . وحسب هذا الرأى ، كان يهود شرق أوروبا ، فى اغلبيتهم العظمى ، مجرد «أعداء للسامية» . لكن هذه النتيجة ، بالطبع ، عبث باطل .

كانت المعارضة اليهودية للصهيونية مأساة ، فقد فشلت وانتهت إلى هلاك اليهود . لقد رأى اعداء الصهيونية فى فكرة الرحيل ، فى الهجرة من بلادهم التى عاش فيها اسلافهم منذ قرون ، تخليا عن حقوقهم ، واستسلاما للضغوط المعادية وتسليما للاسامية ، وبدا لهم ، أن اللاسامية تحقق انتصارها فى الصهيونية ، التى اعترفت بصحة

وسلامة الصيحة القديمة : «ايها اليهود ، اخرجوا !» . كان الصهاينة يوافقون على أن «يخرجوا» .

ساد بين يهود شرق أوروبا الشعور بأنه ليس غير الثورة للاطاحة بالقيصرية ، طريقا إلى الخلاص من التفرقة والاضطهاد اللذين كانوا يتعرضون لهما ، فلعب اليهود دورا بارزا فى الحركة الثورية .

لكن عندما جاءت الثورة فعلا ، كان للتحول الفجائى فى المجتمع ، أثره الاليم والمفتت على جزء غير قليل من السكان اليهود ،، إذ أنه لما كان كثير من اليهود فى روسيا من صغار أصحاب الحوانيت والحرفيين والمضاربين و«العايشين من الهوا» فقد حاولت الثورة بالضرورة أن تعيد صياغة هيكل حياتهم بأكمله . ان ما حاولت الثورة تحقيقه هو ما سمي جعل اليهود منتجين ، تحويلهم إلى عمال مصانع ، إلى مزارعين ، إلى قوة عمل عصرية . ووجد صاحب الحانوت نفسه على حافة هاوية . فالنظام الجديد لم يحابه . صحيح أنه حرره من الخوف من المذابح والاضطهاد ، لكنه هدد طريقته المألوفة فى الحياة كوسيط وكتاجر بدائى. وفى العشرينيات بدأ البلاشفة يشجعون اليهود على الاستقرار فى الأرض فى مستوطنات يهودية فى القرم وخيرسون وبيروبيجان . ولقد زرت هذه المستوطنات فى حينها ، وشهدت الجهود غير العادية التى يبذلها بعض الرواد

المثاليين وبعض اليهود المتحمسين ، لكي يحولوا على الأقل قطاعا من السكان اليهود إلى مزارعين صالحين . ولقد وضعت في هذا العمل استثمارات غير بسيطة وجهود ضخمة من أجل هذه العملية التي استهدفت تغيير عقلية «العايشين من الهوا» . وكان متوقعا منه أن يتخلى عن حرفه تجارة التجزئة وحيلها ، وان يتعلم على مهل مهنة حراثة الأرض وتقليبها . لكن كل هذه الجهود لتحويل التاجر إلى مزارع فشلت ، فاليهود ، ببساطة ، لم يكونوا مهيئين لمثل هذا التحول ، لمثل هذا التغير العميق والغنى في نمط وجودهم باكمله . حتى في اسرائيل اليوم تعيش على الأرض اقلية صغيرة جدا من السكان في الكيبوتزات ، ومازالت الاغلبية العظمى من السكان تندفع إلى المدينة وتفضل أن تكون من سكان الحواضر ، على أن تكون من سكان الريف والفلاحين . (في اسرائيل عام ١٩٦٥ ، كان أكثر من مليوني يهودي يعيشون في المدن ، بينما يعيش على الأرض ٢٦٧ ألفا فقط .) ولا عجب ، فقد ظل اليهود قرونا سكان مدن ، وأصبحت التقاليد الحضرية ، طبيعة ثانية لهم . ولم يهاجر من روسيا ليحترف الزراعة سوى أكثر الصهاينة مثالية ، هؤلاء الذين ارادوا العيش على أرض صهيون المقدسة . أما من بقوا في الاتحاد السوفييتي فلم يكن لديهم استعداد ليصبحوا مزارعين ، فكان عليهم أن يدخلوا الصناعة الحديثة ، وقد أصبح كثيرون جدا منهم بالفعل عمالا في المصانع الكبيرة ، لكن هؤلاء مع ذلك أقلية .

أما الاغلبية العظمى ، بتقاليدهم الحضرية ، وبما يتمتعون به من مستوى تعليمي يفوق في عمومه مستوى السكان الروس ، فقد اصبحوا موظفى مكاتب ، ودخلوا جماعيا فى صفوف بيروقراطية ما بعد الثورة ، فى الحزب وفى مكاتب ومؤسسات الدولة ، كذلك لعبوا دورا كبيرا فى العالم الاكاديمى فى الاتحاد السوفييتى . ولم تبدأ عملية التعليم العالى الجماعية هذه الا بعد عام ١٩١٧ ، عندما الغى «التحديد العددى» ، وفتحت أبواب الجامعات على مصاريعها أمام الطلاب اليهود .

على الرغم من كل ذلك ، ففى أثناء أكثر مراحل الثورة بطولية ، كان هناك بين الشعب الروسى تيار خفى من اللاسامية القديمة المتأصلة ، أين يجب أن نبحث عن منبع هذا السم اللعين ؟ أولا ، فى تخلف وفى جهل وفى أمية جماهير الموجيك الروس ، بل وبعض قطاعات عمال المدن أيضا ، كان هناك النفوذ الفعال للكنيسة الارثوذكسية اليونانية ، أكثر كنائس أوروبا رجعية ، وكانت هناك ـالاسطورة المسيحية العميقة الجذور عن اليهود باعتبارهم من صلبوا المسيح . تلك الاسطورة ، التى كما ندرك الان ، تخللت الحضارة المسيحية كلها ، على نحو اشمل مما كان يتخيل الناس حتى خمسين سنة مضت (على عتبة القرن العشرين ، العلمانى ، كان ثمة أمل فى أن يحرر عصرنا الحديث نفسه ، ان يسفح التحيزات الدينية ، والتأثير السام

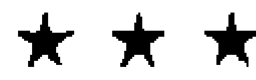
للخرافات والاساطير) . فى روسيا مثلما فى أى مكـان آخر ، لم تكن الكراهية والتحيز اللذين غرسا في أذهان النـاس عبر القرون ، لتجتث في مدى بضع سنوات ، أو حتى بضع عقود . لم يكن هذا كل شئ . لكن مادة أخرى غذت النزعة اللاسـامية لدى الجماهير . كان الفلاح الروسى الفقير ينظر بغير ثقة إلى صاحب دكان أو صاحب حانة القرية اليهودى ، الذى كانت تجارته فى كثير من الاحيان تقوم على الغش . فى ذلك البؤس الساحق الذى عاش فيه الأخير ، كان يحاول أن يتخلص من فقره على حساب الموجيك ، الذى كان يماثله بؤسا . وهنا يمكن أن نرى كيف تكون عداء الفلاح أو العامل الفقير ضد جاره اليهودى .

وعلى مستوى آخر ، كان المثقفون اليهود ، أو موظفوا المكاتب منهم ، الذين احتلوا مراكز عليا فى الحزب والدولة والجيش والمؤسسات المدنية ونظام التعليم ، ومن كان منهم بارزا فى الصحافة والسينما والمسرح ، يثيرون نوعا من الحسد أو الغيرة المهنية . ففى مراسلات تروتسكى إلى لينين اثناء الحرب الاهلية ، ورد وصف بارع لهذا الجو . فقد كتب تروتسكى ، الذى كان آنئذ قائد الجيش الأحمر ووزير الدفاع ، رسالة سرية من الجبهة يطلب فيها أن يسحب جميع اليهود الذين يعملون فى الوظائف الادارية العسكرية الآمنة من مكاتبهم ، وان يرسلوا

إلى الجبهة ، فهناك كثير من الكلام بين الجنود ، كما كتب اليهودى تروتسكى ، أنه في الاماكن البعيدة والآمنة ، يوجد من اليهود أكثر مما يوجد منهم فى خط المواجهة في المعركة . حتى أثناء الحرب الاهلية ، عندما كان الجيش الأحمر يدافع عن اليهود ضد مذابح الحرس الأبيض ، كان هناك هذا التوتر الشديد ، انما الانسانى والمفهوم ، فى موقف الروس المعادى من اليهود «المميزين» بقدر أو آخر .

فى عهد لينين ، قام البلاشفة بمجهود دعائى متشدد فى عدائه للقوميات والديانات والنظم الكنيسية ، وقد قاموا به بلا أى تمييز ، يدينون ويستنكرون ويحاولون اجتثاث أى نوع من القومية ، وفى مقدمتها التعصب القومى الروسى الشديد ، وينادون بمساواة كل القوميات الصغيرة والاقليات القومية ، وسمحوا لليهود ، بل وشجعوهم ، على نشر صحفهم وأدبهم باليدش ، وان يقيموا مسرحهم . ولقد كان المسرح اليدشى من أحسن ما عرفت من مسارح . وربما أصبح منسيا الآن أن أول مسرح عبرى عظيم في التاريخ ، مسرح الهابيما ، قد تأسس فى روسيا بمبادرة وزير التعليم ، لوناتشارسكى (سرعان ما غادر الهابيما إلى فلسطين) . بالتأكيد كان ثمة تضارب هنا : كان البلاشفة ، من حيث المبدأ ، ضد احياء العبرية ، التى كانت عندئذ لغة ميتة ،

وعندما مثلت الهابيما مسرحية دايبك ، مسرحية انسكى الغيبية، ارتفعت اصوات الاحتجاج ضد تمجيد الأساطير الخاسيدية على مسرح روسيا الحمراء . لكن قوة الخلق الفنى كانت عصية على الترويض فى ذلك العصر الذهبى القصير والجياش ، لفن ما بعد الثورة .



واضح أن البلاشفة قد تبنوا وجهة نظر مبالغة فى تفاؤلها حول فرص حل المسألة اليهودية . ولم يكونوا وحدهم فى التقليل من قيمة الغريزة اللاسامية فى الفولكلور المسيحى . وقد فكروا فى ثورتهم كمقدمة لثورة تشمل القارة كلها ، تصوروا أن القوى التقدمية فى ألمانيا وفرنسا ستساعدهم على التحرك إلى الامام ، وان مرض العداء للسامية سيختفى فى أوروبا الاشتراكية الصحيحة ، المنظمة تنظيما أصيلا . لكن ذلك لم يحدث ، فقد بقيت الثورة الروسية معزولة ، وهزمت الثورة الألمانية ، ولم تخف أوروبا لانقاذها ، وتركت روسيا وحدها تتلظى بنسغ تخلفها الموروث عن القيصرية ، من قرون من الارثوذكسية اليونانية والأمية والفقر والبربرية. وفى ظل هذه الظروف تعمقت كل العداوات الكامنة فى المجتمع الروسى. ومن بينها العداوة بين اليهودى وغير اليهودى . ولا يجوز للمرء أن يفكر أن المسألة اليهودية وجدت فى فراغ ، وانها كانت مستقلة عما كان

يجرى فى المجتمع السوفييتى . لقد كانت مطمورة فى بنيان هذا المجتمع ومرتبطة ارتباطا وثيقا بتطوره ونموه ، وبنمائه وتقدمه ، بالتقهقر وبالتقدم الجديد .

وبالتحديد لأن المشكلة التى نحللها تشكل جزءا عضويا من المسرح السوفييتى بأكمله ، لا توجد طريقة بسيطة لمعالجة كل وجه من وجوهها فى محاضرة أو عدة محاضرات ولذلك سأقوم بقفزة منطقية ، وأحاول أن أوضح كيف أثر تطور نظام الحزب الوحيد فى مصير اليهود .

فى عهد لينين ، لم يكن الحزب الواحد موضع تفكير ، لكن نظام الحزب الوحيد كان بالفعل يلقى ظلاله على نحو ينذر بالسوء . حتى سنة ١٩٢٤ ، بل ولمدة السنتين أو الثلاث سنوات التالية كان النقاش الحر المفتوح بين البلاشفة ما زال دائرا ، وكان ضرب الاحزاب الأخرى يجرى تدريجيا . ولنتذكر مثلا واحدا : ظل حزب «أحباء صهيون» اليسارى ، الحزب الاشتراكى الصهيونى ، موجودا قانونا فى روسيا حتى سنة ١٩٢٥ أو ١٩٢٦ . ورغم أن البلاشفة كانوا ضد الصهيونية ، فان حظر الآراء الصهيونية حظرا تاما لم يكن فى برنامجهم . ولقد ناقشت فى كتبى عن ستالين وتروتسكى ، العملية التى أدت إلى اختفاء جميع الاحزاب السياسية تدريجيا . وهنا استطيع أن أضيف أن هذه العملية قد أدت ، آليا ومنطقيا إلى اقامة نظام الحزب الواحد بين اليهود أيضا . فقد منعت كل الاحزاب اليهودية : البوند ، أحباء صهيون ،

وغيرهما من التجمعات الصهيونية . كان يمكن اعتبار الصهيونية ، إلى حد ما ، وبقدر كبير من الصحة ، عقيدة معادية ، أو على الأقل غير صديقة للثورة ، إذ لم تضع كل آمالها فى الاشتراكية والنضال الأممى ، وانما فى اقامة دولة يهودية منفصلة ، انها لم تكن تستهدف خلق مستقبل افضل للشعوب السوفيتية في الاتحاد السوفييتى ، انما استهدفت هجرة جماعية منظمة من الاتحاد السوفييتى وفى كلمة واحدة ادارت الصهيونية ظهرها للثورة ، أو على أفضل الأحوال ، حاولت تجاهلها . لكل ذلك لم يكن هناك سبب موضوعى لإعلان الصهيونية نظرية معادية خطرة ، وكانت فكرة أن «الصهيونية تهدد الثورة الروسية» ، فكرة سخيفة وغير منطقية بالنظر إلى الأهمية الكلية لكل التجمعات اليهودية في روسيا . وكانت الحقيقة أنه فى النظام الواحدى الشمولى ،لم يكن هناك مكان لأي خروج على الاجماع أو تعدد فى الآراء أو التيارات السياسية (كما يقول المثل اليهودى القديم : مثلما تسير الأمور بين المسيحيين ، يجب أيضا أن تسير بين اليهود) . فطالما أن حزبا واحدا ونظرة واحدة هى المسموح بها بين غير اليهود ، فان نظرة واحدة يمكن السماح بها بين اليهود. والذى حدث أن الروس لم يكونوا هم أشد انصار منع الاحزاب اليهودية تعصبا ، إنما كانوا اليهود انفسهم ، الشيوعيون اليهود، بيفسكتسيا (القسم اليهودى من الحزب الشيوعى) . لقد كنت فى روسيا عندما كانت هذه المشاكل

موضوع مناقشـــات ســـاخنة ، وكثيرا ما شهدت كيف كان البلاشفة الروس ، ميـخـائيل كـالينين ، رئيس الاتحـاد السـوفـيـيـتي وآخـرين ، يناقشـــون الرفـــاق اليـهـــود ، مـحـاولين اسـتـئناس عدائهم الشديد للفكرة الصهيـونية ، ولبقـايا البوند ، بل وضد رجال الدين اليهود . لكن الشـيـوعيون اليهود ، كانوا يحسـون أن عليـهم أن يكونوا أكثر أرثوذكسيـة ، أكثر «شرعيـة» (بالتعبير اليهودى) وأكثر تصميما من زملائهم الروس . ونحن فى العادة نكون أقل تسـامحـا مـع من نختلف معـهم من أبناء محيطنا ، منا مع خصومنا البعيدين عنا . وفى نفس السياق ، يمكننا أن نتذكر أن دوجاشفيلى الجورجى (ستالين) وابناء بلده هم الذين اظهروا اشـد الحمـاس والعنف والقـوة فى تصـفـيـة «القوميين المحليين» فى تفليس .

بنظام الحزب الواحد ، بدأ تطور الستالينية وتبلورها . أن سنوات العزلة وخيبة الآمال فى العون الخارجى ، وهزيمة الشيوعية فى أوروبا : كل ذلك مهد الأرض التى تستطيع فيها نظرية ستالين عن الاشتراكية فى بلد واحد أن تمد جذورها . ولقد استجاب البلاشفة لعزلة روسيا بصياغة عقيدة عن العزلة ، وجعلوا من الضرورة افضلية . وعندما انقطعوا عن العالم ، قاطعوا العالم .

اننا الآن نعرف كم اضطر الحزب البلشفى ان يطرح من تراثه الاممى على طريق الاشتراكية فى بلد واحد ، الطريق الذى كان ستالين

ينطلق فيه . في روسيا ، كما في الغرب ، بلا اختلاف ، تمهد اللاسامية طريقها إلى السطح في أوقات الردة . وتتغذى وتنمو على المشاعر والاحقاد القومية . ولم يتعفف ستالين ، الذى لم يكن ابدا حساسا في اختيار الوسائل ، عن استغلال الاتجاهات المعادية لليهود في صراعاته مع المعارضة . ففي البداية ، حرك الدعاة الستالينيون خفية ، بالاشارات والتلميحات المبهمة ، الاحساس المعادى للسامية ، وقربوه من السطح ، حتى وصل إلى قمته الأولى في زمن التطهير الكبير ، وبلغت التلميحات اللاسامية في الدعاية حدا من الشناعة. آنذاك جعل تروتسكي ، وكان عادة متحفظا في هذا الموضوع ، يتعذر عليه أن يضبط نفسه ، فكتب في رسالة إلى بوخارين ، في مارس ١٩٢٦ : «.. هل صحيح ، هل هو ممكن في حزبنا ، في موسكو ، في «خلايا العمال» أن تجرى الاثارة المعادية للسامية بلا عقاب ؟» ولم يتلق اجابة على نفس السؤال الغاضب عندما طرحه على اجتماع المكتب السياسى بعد ذلك بأسبوعين . كان هناك بعض الحرج وهز الأكتاف .. صحيح أن اليهود كانوا بارزين جدا بين قادة المعارضة، فصورهم خدم ستالين المخلصون بأنهم «كوسموبوليتيون بلا جذور» ، حيث أنهم كأناس ليسوا أبناء وطنيين لأمنا روسيا ، فهم بالطبع لايحرصون على الاشتراكية في بلد واحد ، في وطنهم ، ووصل هذا النفاق إلى درجة أن كلمة يهودى لم تذكر أبدا ، لكن الاشارة التى تضمنتها هذه الأتهامات كانت واضحة .

من ناحية أخرى ، كان هناك كثيرمن اليهود بين البيروقراطية الستالينية أيضا .فعلى رأس التجميع الأجبارى فى أوكرانيا ، حيث نفذ التجميع بأشد الطرق قسوة ودموية ، كان يقف اليهودى كاجانوفيتش . وهنا تجدون المأزق المأساوى الذى وقع فيه اليهود . فى المدينة كانوا يضطهدون على أنهم «كوسموبوليتيون بلا جذور» ، معارضون لتقدم الاشتراكية فى روسيا ، وفى الريف كانوا مكروهين من جانب الفلاحين الذين رأوا فى اليهودى البلشفى كاجانوفيتش معذبهم الرئيسى . وأضيفت إلى هذه التناقضات ، تناقضات أخرى ،لاتقل عنها حرجا ، فتاجر المفرق ، والمضارب و«العايش من الهوا» ، اليهودى ، كان مازال طافيا على موجات التغييرات الشاسعة ، ومازال يثير عدم ثقة السكان الروس وكراهيتهم ، ومن ناحية أخرى كان هناك اليهود فى الجامعات، الأساتذة ، والمعلمون ، والدكاترة العظام ، الذين كانوا يعلمون ، إجمالا، جيلا جديدا من المثقفين ، الذين كانوا يسهمون بقدر كبير في تطوير روسيا والدفع بها فى أتجاه العصر . كل هذا يرسم لنا صورة الأتجاه الذى أتخذته التناقضات المتأصلة فى المجتمع السوفييتى المتغير إلى التأثير فى اليهود على نحو أكثرحدة وأكثر قسوة مما كان ممكنا أن تؤثر فى أى جماعة عنصرية أو قومية أخرى فى الاتحاد السوفيتى .

ثم جاءت الحرب العالمية الثانية . وبالطبع فانه فى خلال فترة الصلح والتعاهد قصير الأجل بين هتلر وستالين ، وقع اليهود فى روسيا بين

نارين : أصبح وضعهم - بأقل وصف - غيرمريح بالمرة . وقد وجد ذلك تعبيره الرمزى فى إستقالة وزير الخارجية ماكسيم لتفينوف ، وأستبداله بالروسى العظيم فاشيسلاف مولوتوف ، كيف يمكن لليهودى لتفينوف أن يوقع معاهدة مع هتلر أو روبنتروب ؟ إن مثل هذاالعمل يحتاج إلى آرى خالص . كان شيئا من قبيل التلوث العنصرى يهب من ألمانيا إلى روسيا . كانت تلك هى الأيام التى أرسل فيها ستالين ومولوتوف إلى هتلر رسالة عن الصداقة الروسية - الألمانية ، «المعمدة بالدم»، وعندما أعلن ستالين أنه يحرر «أخوانه فى الدم» ، الأوكرانيين ، من السيطرة البولندية . وأغتنت اللغة الستالينية بتعابير عنصرية من هذا النوع . وسرعان ما أستبدل ذلك بلغة عظمة روسية قومية متعصبة متشددة . ثم جاء ٢١ يونيو ١٩٤١ ، وأصبح بطل العداء للسامية مرة أخرى هو العدو العنيد لروسيا السوفيتية .

بعد كل ما مر بروسيا من تغيرات حادة فى سنوات قبيل الحرب ، وبعد الأعمال الوحشية التى أرتكبت أثناء التجميع الإجبارى ، بعد مأساة التطهيرات الكبرى ، ونفى جماهير غفيرة إلى معسكرات الاعتقال ، بعد ذلك كله، كان التوتر فى المجتمع السوفيتى من الحدة والخطر ، بحيث أنه فى بداية الحرب ، بدا البنيان كله - المعنوى والاقتصادى والسياسى - على حافة الأنهيار . ففى أوكرانيا أستقبل السكان هتلر وجيوشه المحتلة بإحساس بالخلاص بل وبالفرح ، واستمر

ذلك إلى اللحظة التى أظهر فيها النازيون للأوكرانيين قدراتهم الحقيقية وسرعان ما وصل الأوكرانيون إلى النتيجة المرة بأن ستالين فى أسوأ أحواله، كان مايزال أفضل من هتلر . ومع ذلك فان الغزو النازى لأوكرانيا وروسيا الغربية ، حمل معه موجة قوية جدا من العداء للسامية فقد تفجرالتحيز القديم ، الكــامن دائما، الذى يغوص إحيانا ، لكنه لا ينتفى أبدا ، وحوله النازيون إلى لهب فظيع . وكان ستالين وحكومته من ناحيتهم يخشون أن يرى الأوكرانيون والروس الحرب ضد النازيين كمجرد حرب للدفاع عن اليهود . ولم يكن صوت الدعاية النازية الحاد (الراديو النازى والمنشورات والكتيبات النازية) يكل عن الترديد لسكان الاتحاد السوفيتى : «هذه مؤامرة يهودية إنكم تخوضون هذه الحرب لصالح اليهود !» . وكثيرا ما كانت هذه الحجة المزورة تبدو معقولة لأعداد كبيرة من الأوكرانيين والروس .

وكان يهم ستالين أن يواجه هذه الدعاية ، فأنطلق يفعل ذلك بطريقته الخبيثة الملتوية .فبدلا من مهاجمتها صراحة وإظهار ديماغوجيتها الخسيسة ، حاول غدرا وخلسة ، أن يوارى الموضوع الرهيب كله ويخرجه من الوجود . ولذلك ، رأيتم تلك الظاهرة البالغة الغرابة . فطوال الحرب العالمية الثانية لم تكن الصحافة السوفيتية تنشر شيئا عن مصيراليهود فى ظل النازية ، ولم تكن تذكر «أوشويتز»أو «ماجدانك» وكذلك فإنه بصورة نادرة وبطريقة عرضية

ومختصرة ما أمكن، كانت جماهير الاتحاد السوفيتى المحارب تعطى فتاتا من المعلومات عن آبادة اليهود . ولما كان ستالين بطبعه لا يثق بشعبه ويحتقرة ، فقد كان مضطرا أقل من أى وقت مضى لأن يولى معنوياته إهتماما كبيرا . ففى شهور الهزيمة ، كانت دعايته غير متقنة فى معالجتها وتبدو كاذبة . وكان الاضطراب الناتج عن ذلك يحمل لليهود إحيانا نتائج مأساوية كان يمكن تجنبها . ولاقدم لكم مثالا واحدا: كان فى تاغانروج، وهى مدينة صناعية واسعة فى منطقة بحر أزوف ،عدد كبير من السكان اليهود ، وعندما عرضت الحكومة السوفيتية فى سنة ١٩٤٢ ، تهجير السكان اليهود ، من أمام الجيوش النازية المتقدمة ، رفضوا أن يتحركوا ، رفضوا أن يصدقوا أن الأمة الألمانية ، أمة جوته وبيتهوفن ، أمة الشعراء والمفكرين ، أمة ماركس وأنجلز ، يمكن أن ترتكب ماتخبرهم به الآن السلطات السوفيتية من فظائع ضد اليهود.لم يصدق اليهود دعاية ستالين ، حتى عندما كانت هذه الدعاية صادقة ، وهلكوا جميعا فى ظل الاحتلال الألمانى ، بينما نجا من هجروا من أماكن أخرى .

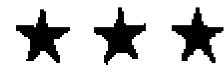
رغم كل جرائم ستالين ، يجب أن نذكر أن مليونين ونصف مليون يهودى من الأراضى الروسية المحتلة قد تلقوا ، بناء على أوامره ، مساعدات للانتقال إلى داخل البلاد ، فنجوا بذلك من معتقلات النازى وغرف الغاز . وهذه حقيقة كثيرا ما تميل الصحافة القومية اليهودية

والصهيونية إلى نسيانها . لقد وجد هؤلاء اليهود أنفسهم في وضع غريب : لما كانوا قد هجروا على وجه السرعة إلى كازاخستان وأوزبكستان وإلى جمهوريات اسيا الوسطى ، مذهولين وبائسين، فقد ألقى بهم في وسط لم يألفوه ، وأقتلعوا مرة أخرى من جذورهم . كان عليهم أن يكسبوا رزقهم وسط الفقر المدقع وقلة الطعام ، وسط جوع ومجاعة حقيقيين ، فأصبحوا مرة أخرى تجاراً في الأسواق السوداء ، أصبحوا مرة أخرى «عايشين من الهوا» (روى لى كثير من أصدقائى البولدنيين الذين أبعدوا من تلك المناطق الروسية هذه القصة المحزنة) .
إن من الظلم أن نلوم هؤلاء اليهود والمهجرين ، فهم لم يكونوا مزارعين ولا فلاحين يستطيعون أن ينتزعوا من الأرض شيئا حتى في أسوأ الظروف ، ولم يكن أغلبهم عمالا صناعيين مهرة ، كان أغلبهم أكبر سنا من أن يعبأ في الجيش . لقدكانوا لايزالون يحملون شيئا من عقلية التاجر ، (أذكاها الآن الأحساس المطلق بعدم الأمان) الذى يختزن قليلا من الشاى والسكر وعددا من أكياس الحبوب والبطاطس ويبيعها بأفضل سعر يستطيع الحصول عليه . ومن حولهم كانت جمهرة العمال الروس تموت جوعا . وقد أعطى هذامرة أخرى قوة دفع جديدة للموجة المعادية للسامية . وعلى كل حال ، فهؤلاء المليونين ونصف أو الثلاثة ملايين من اليهود ، الذين يمثلون الكتلة الكبرى من الجماعات اليهودية في روسيا ،قد نجوا من المذبحة النازية .

فى أعقاب الحرب ، كانت أعصاب الأمة ، مرة أخرى ، شديدة التوتر .فبالاضافة إلى الفوضى والتعب والأنهاك أضيفت كارثة جديدة فى١٩٤٦ : فقد وقع أنخفاض فى المحصول بلغ حد الكارثة ، أنخفاض لم تعانى روسيا مثله منذ أكثرمن نصف قرن . انتشرت المجاعة ، وهكذا خيم اليأس عندما بدأ الناس يحصون موتاهم : فقدوا ٢٠مليون رجل فى القتال ! جاء إدراك هذه الخسارة الفادحة بطيئا فى البداية ، لكن سرعان ما صدم الأمةبقوة لاتحتمل .لم يكن بوسع المرء أن يرى رجلا فى الحقول والمزارع الروسية ،كان النساء والشيوخ والأطفال وحدهم يفلحون الأرض وينتجون المحاصيل الضئيلة التى لاتكاد تكفى لطعام الأمة ، ورفعت كل القيود على استخدام عمل الأحداث ، كان العمل والعمل المجهد ، هو قانون اليوم .

كانت التناحرات القديمة والجديدة حادة وأليمة . ومرة أخرى بدأ الصراع الخفى بين التيارين الكبيرين فى طريقة التفكير الروسية ، وفى عقيدة المجتمع السوفيتى ، الصراع بين القومية والأممية . وإذا لم يذكر المرء دوما حقيقة كون هذا الصراع ، يمثل الظاهرة الأساسية فى المجتمع السوفيتى ، فإنه يفقدالمفتاح إلى فهم تاريخ الفترة الستالينية ، والأحداث التى تلتها ، والمكان الذى تحتله المسألة اليهودية فى الحياة السوفيتية .إننا نجد قوميين ولا ساميين بين الفلاحين والعمال

والبيروقراطية والمثقفين . ونجد أمميين وبالتالي أعداءا للاسامية في كل هذه القطاعات من المجتمع أيضا .



علينا أن نتجه بإهتمامنا إلى عمل من أعمال سياسة ستالين الخارجية ، قد يبدو مناقضا ليس لموقفه من اليهود فحسب ، بل ولكل الموقف السوفيتي التقليدى من الصهيونية .

في ١٩٤٨ ، عندما كانت إسرائيل تشكل نفسها في دولة ، شهدنا موقفا غريبا ، حيث التقى الروس والأمريكيون ، العدوان اللدودان ، ونجحا معا في إخراج البريطانيين من الشرق الأوسط ،ولعبا معا ، في ميلاد إسرائيل ، دور القابلة .

أيا كانت حساسيات ستالين ، فان إسرائيل ، ويا للمفارقة ، مدينة له بوجودها المستقل . ولقد جاءت الترسانة الرئيسية للهاجاناة من تشكوسلوفاكيا الستالينية ، من مصانع السلاح التشيكية ، بهذه الأسلحة «الموصومة» هزم اليهود في فلسطين البريطانيين والعرب . إن المساعدة والعون المادى الفعال ، اللذين كان ستالين يمنحهما لليهود ، بدت شريرة في أعين الساسة الغربيين ، وأثارت الغضب ، وحركت قدرا لايمكن تجاهله من المشاعر السيئة نحو اليهود .

ثم جاءت الحرب الباردة . وكانت إسرائيل مهتزة الأسس، محاطة

بالعالم العربى المعادى ، خائفة على مستقبلها، تعتمد على العون الاقتصادى من اليهود الأمريكيين ، فربطت نفسها فى الحقيقة الواقعة ، إن لم يكن بصورة صريحة ، بالولايات المتحدة . ولم يكن هذا ليؤدى إلا لاستفزاز عداء روسيا . وعندما وصلت السيدة جولدا مائير ، أول سفيرة للدولة الجديدة ، إلى موسكو ، حياها اليهود بإبتهاج وعبروا بصوت مرتفع عن تضامنهم مع اسرائيل . أما ستالين ، الذى كان ربما يرقب المشهد من نافذته فى الكرملين ، فقد قرر أن اليهود فى الاتحاد السوفيتى لايطمأن إليهم . وانطلاقا من تقديره لإمكان وقوع نزاع مع الولايات المتحدة الأمريكية، بل حرب بين روسيا والغرب ، بدأ يضطهد اليهود ، ويدينهم كأناس «بلا وطن» ، بلا جذور ، ومرة أخرى كـ «كوسموبوليتيين» وسرى القول همسا أن كل يهودى ، له قريب فى الغرب ، وعلى الأغلب فى أمريكا . فكيف يمكن الوثوق به كوطنى روسى مخلص ؟ هل يستطيع المرء أن يثق ثقة مطلقة من أنه فى وقت الشدة ،سيكون ولاءه للدولة السوفيتية ؟ لاشك أن هذه كانت هى وجهة النظر السوفيتية .

أن الوضع بأكمله ، حسبما قدم نفسه فى جو الحرب الباردة ، إذا ما حللناه موضوعيا وبهدوء ، يجعل لزاماعلينا أن نعترف ، أن هذا النوع من التقييم ، مع غرابته ، لم يكن خاليا تماما من المنطق . كان اليهود فى روسيا يحملون ولعا بأمريكا وولعا بأقاربهم هناك. وإذاكان

للمرء أن يتصور مثلا ، الجيوش الأمريكية زاحفة تتقدم فى روسيا مثلما فعلت الجيوش الألمانية ، فربما وجدت قدرا كبيرا من التعاطف ، وقليلا من المناوأة بين اليهود المحليين . لا حاجة لأنكار ذلك . إن مالم يسأله ستالين لنفسه ، بفجاجته ، هو أكثر الأسئلة أهمية : بعد كل هذه السنين التى تلت الثورة ، كيف مازلنا نجد أناسا فى روسيا ، يمكن الشك فى ولائهم للنظام السوفيتى ؟ إذا كان صحيحا أنهم «لايطمأن إليهم» ، أفلا يكون محتملا أن اليهود ليسوا هم الذين يستحقون اللوم ، وإنما الحكومة السوفيتية ؟ حتى لو أن ستالين سأل نفسه هذا السؤال ، هل كان سيعترف أبدا أن حكمه ، وأن أنحرافه بالثورة ، هو المسئول ؟

على أى حال ، كانت هذه عقدة شديدة التشابك من المسئوليات ، وعدم الثقة والخوف . فقد كانت أية مبادرة سياسية فى أيدى ستالين تميل إلى الوصول إلى حدأقصى من العبث والوحشية والطيش . وهكذا دفع بالعالم بأكمله إلى مشهد دنىء ، عندما اصطنع ستالين ما سمى بـ «مؤامرة الأطباء» . ففى ٣يناير ١٩٥٣ ، أعلن أن تسعة من أساتذة الطب ، الذين كانوا يعملون كأطباء داخليين للكرملين ، قد أعتقلوا فجأة، وألقى بهم فى السجن ، وأتهموا بأنهم سمموا بعض مرضاهم المهمين، وبالأعداد لمزيد من الاغتيالات وبمحاولات لأغتيال المارشالات والجنرالات السوفييت بقصد أضعاف دفاع البلاد وبالعمل في نفس الوقت لصالح ولحساب المخابرات الأمريكية والبريطانية ، والمنظمة اليهودية العالمية ،

منظمة الـ Joint (المنظمةالمشتركة) . وكانت هناك أشارات غامضة إلى مزيد من بيانات منتظرة عن تشعب المؤامرات ومداها ، وعن جرائم أخرى ، أرتكبها المتآمرون وحسب بعض الروايات ، أنتهت الحملة التى شنت ضد اليهود إلى نقل جميع اليهود من مساكنهم وإعادة إسكانهم إجباريا في مكان في الشرق الأقصى أو في بيروبيجان .

وكغيرها من الخطط الدنيئة المؤذية التى كان ستالين يديرها فى السنوات الأخيرة من حياته ، إنهارت هذه الخطة أيضا فى لحظة وفاته وبدء عملية تصفية الستالينية . وكان أول ما فعلته حكومة مالينكوف الجديدة ، الذى كان السكرتير الأول للحزب ، ورئيس الوزراء فى نفس الوقت ، هو أن أعلنت أن ما سمى «مؤامرة الأطباء» هى أمر باطل وفارغ .

بموت ستالين دخل الاتحاد السوفيتى مرحلة جديدة ومرة أخرى أصبحت الحرب المستمرة بين القومية والأممية شديدة الوضوح .فأعقبت وفاة ستالين ردة فعل ضد خطه القومى الشوفينى والمعادى للسامية ، كما أعقبتها دفعة للأممية.لكن ذلك لم يكن الانتصار الأخير والحاسم للأممية القادر على هزيمة القومية بأكملها إلى الأبد . كان أبعد ما يكون عن ذلك . فقدكان هناك لسنوات ما يشبه التوازن المهزوز بين الاتجاهين، وكان ذلك التوازن الذى يميل إلى ناحية ثم إلى أخرى ، ينتج كل تلك التضاربات والتعرجات التى كنا نشهدها فى الاتحاد السوفيتى.

كما تميزت فترة الانتقال الخروشوفية بالغموض فى معالجة المسألة اليهودية . إنتهى العداء للسامية الذى ساد السنوات الأخيرة من عهد ستالين . روعيت مساواة اليهود ، لكن مازال هناك، طبقا لكل التقارير ، تيار خفى قوى نسبيا من العداء للسامية . إن المعالجة الصحيحة حقا للمسألة اليهودية لاتبدو فى الأفق البعيد . ولانستطيع أن نأمل – إلى أن تطرح كل مشاكل ماضى روسيا وحاضرها الفتى ، المأساوى، الملهم ، والكريه – لفحص حر وصريح من جانب الحكام السوفييت والمواطنين السوفييت ، والشيوعيين ككل.

٤ - بقايا عنصر [١]

(الليفتنانت جنرال سير فريدريك مورجان ، رئيس عمليات وكالة الأمم المتحدة لغوث اللاجئين فى ألمانيا ، ونائب رئيس الأركان السابق للجنرال أيزنهاور ، قال فى فرانكفورت أنه شهد هجرة جماعية يهودية من بولندا ، و«كلهم يرتدون ملابس أنيقة، حسنو التغذية ، يتمتعون بصحة طيبة ، وجيوبهم مكتظة بالنقود» وقال أنهم كلهم يرددون نفس القصة المكررة عن التهديدات والمذابح والفظائع فى بولندا كسبب لمغادرتهم أياها .

ولم يعرف من الذى يمول الحركة ، أو يحشو الجيوب اليهودية . وهو يعتقد أن «تنظيما عالميا لليهود في طور التكوين» ، وأن لدى اليهود خطة إيجابية لهجرة جماعية ثانية ، من أوروبا ، هذه المرة) . التايمس - ٢ يناير (كانون الثانى) ١٩٤٦ .

سلط تصريح سير فردريك مورجان الضوء على وضع المسألة

(١) الـ «إيكونوميست» ، ١٢ يناير (كانون الثانى) ١٩٤٦ .

اليهودية فى أوروبا اليوم . ومن المؤسف أن كلا من التصريح والردود الغاضبة عليه ، قد أتخذت مثل هذه اللهجة الميلودرامية المثيرة.ولابد أن الجنرال مورجان كان لديه بالتأكيد سبب للحديث عن خطة منظمة لهجرة جماعية يهودية . فالدلائل على وجودها يمكن فى الحقيقة رؤيتها فى برلين على صورة الاف من اليهود القادمين من شرق أوروبا. ولو انه أقتصر على ذكر هذه الحقيقة ، وعلى تحذير قاطع وعاجل ضد المتاعب التى تخلفها الهجرة الجماعية لحكومات الحلفاء العسكرية فى ألمانيا ولليهود أنفسهم ، لما أختلف أحد مع تصريحه . ومن الممكن طبعا أن يكون قد قصد أن تحمل كلماته مثل هذا التحذير . وهو احتمال لم يعترف به أبدا أعنف من تصدوا لنقده ، ولكن حتى على هذاالنحو ، كانت صيغة التحذير هى أقلها توفيقا ، فقد تضمنت التلميح إلى أن اليهود ، بجيوبهم المحشوة بالنقود ، يكررون الحيل التى مارسوها ذات يوم على المصريين أثناء خروجهم الكبير الأول ، عندما أقترضوا – حسب ما يروى ؛ كل رجل من جاره ، وكل امرأة من جارتها ، المجوهرات الفضية ، والمجرهرات الذهبية .

كما لمح أيضا أنهم، مرة أخرى ،قد أنتهكوا الحواجز الرسمية وتقسيمات الحدود ، مرة بتستر من الله عبروا البحر الأحمر ، والآن بتستر الروس يدخلون إلى المنطقةالبريطانية .باختصار ، نسبت إلى

اليهود أسوأ الدوافع ، فى هرب يمكن أن تعطى له كثير من الأسباب الطبيعية تماما .

أن رغبة يهود أوروبا فى «هجرة جماعية» جديدة ، لايمكن إنكارها . والمنظمات الصهيونية ،وبخاصة أكثرها تطرفا ،تذكيها ، وتحاول حثها وتشجيعها قبل أن يضرب من بقى من يهود أوروبا جذورهم مرة أخرى فى بلادهم القديمة . وهم يتصرفون على هذا النحو إنطلاقا من قناعة بأن اليهود على أى حال ، سوف يمنعون من الاستقرار الدائم فى مجتمعاتهم القديمة . إنهم بإختصار ، يتصرفون على اساس عدم ثقة عميق فى مستقبل أوروبا المتحضرة والمتسامحة ، وهو عدم ثقة تؤكده، للأسف ، المظاهر المستمرة للعداء للسامية في القارة . وهذه المظاهر لايمكن إنكارها، رغم أن الخوف والذعر اليهوديين يضخمانها فالمسافرون العائدون من بولندا ، ومن منطقة الدانوب ، وتقارير صحف تلك البلدان ،وتصريحات المسئولين، لاتدع مجالا للشك فى أن مناخ شرق أوروبا مازال مصابا بعداء خبيث للسامية .

إن المسألة تفوق فى أهميتهاحادثة مورجان ، بل والمتاعب الإدارية التى يسببها للحكومات العسكرية تدفق اليهود إلى ألمانيا .فالعداء للسامية يعكس ، على أى حال ، أويرسم ظلال حالة مريضة فى الحضارة الأوروبية ، وربما كان قيامها وسقوطها هو أكثر المقاييس حساسية لصحة أوروبا المعنوية والسياسية .لقد كان اليهودى هو

الضحية الأولى لعربدة الجنون النازى ،وللدمار الذى حاصر القارة كلها، وكان من الممكن التفكير بأنه بعد الأبادة التى تمت فى السنوات القليلة الأخيرة، يكون من حق اليهود الآن أن يتوقعوا العطف أو الفهم الإنسانى من مواطنيهم ومن العالم ككل ، لكن حقيقة أن العداء للسامية مازال على أى حال قائما فى شرق أوروبا ، ويتزايد بالتأكيد ، رغم أنه مازال بعد كامنا ،ليس غير ، فى غرب أوروبا ، وعلى ذلك فإن اللاسامية عرض مخيف من أعراض التحلل الاجتماعى والسياسى .

لقد نبع تحرير اليهود فى القرن التاسع عشر من ليبرالية الطبقة الوسطى ، ومن انتشارها عبر أوروبا . أن أول اعلان للحقوق المتساوية لليهود ، الأول فى تاريخ الحضارة المسيحية كلها ، جاء من فرنسا اليعقوبية فى ١٧٩١ .«فليتطلع اليهود إلى أورشليم فى فرنسا» : ذلك كان الشعار المستنير الذى اطلقة نابوليون ، الذى لم يعرف أبدا بتعاطفه مع اليهود ، بل كانت هناك لسة من الاستبداد فى سياسته تجاههم . فعلى سبيل المثال ، اقترح جديا ، أن واحدا من كل ثلاثة يهود ، رجلا كان أم امرأة ، يجب أن يلزم بالزواج من مسيحى . لكن قصده عدم تعويد اليهودة تجارة الربا غير المشروعة ، وتحطيم إنفصاليتهم وجعلهم يدمجون أنفسهم فى السكان غيراليهود ، كان بالتأكيد قصدا مقبولا ، - ومن يدرى ؟ - لو أنه تحقق فعلا فى أوروبا كلها ، لأصبحت المسألة اليهودية منسية منذ زمن طويل ، ولكفى ذلك

جيلنا عارا لايمحى لشهوده القتل العمدة لستة ملايين من البشر فى معسكرات الاعتقال وغرف الغاز .

إن تحرير اليهود فى الجزء الأعظم من ألمانيا ، كان أيضا نتاجا جانبيا للغزو النابوليونى. لكن انتصار الرجعية فى القارة فى ظل الحلف المقدس ، حرم اليهود من معظم الحقوق التى كانوا قد حصلوا لتوهم عليها . وبالنسبة للفرد اليهودى ، أصبح التعميد - مرة أخرى - تذكرة المرور إلى الحضارة الأوروبية ، إلى أن جاء «ربيع الشعوب» سنة ١٨٤٨ ليمنح دفعة قوية جديدة لتحرير اليهود فى أوروبا الغربية على الأقل . ولقد كان أرتباط تحرير اليهود بانتشار الليبيرالية ، من القوة (رغم أنه ليس بالضرورة مرتبطا بوجود حكومات ليبرالية ملتزمة) إلى درجة أنه حيث لم ينتشر نفوذ تلك الليبرالية ، لم يحصل اليهود مطلقا على مساواة فى الحقوق . وكانت قوة الطبقات الوسطى وأفكارها الليبرالية ، تضعف تدريجيا من غرب أوروبا إلى شرقها . وكانت الطبقات الوسطى غير اليهودية ، فى روسيا وبولندا ورومانيا (وهى البلدان التى عاش فيها أغلب يهود أوروبا) هى نفسها أضعف وأعمق إغراقا فى التخلف الاجتماعى والتحيز العنصرى ، من أن ترفع راية المساواة فى الحقوق لليهود ،الذين كانوا فى الغالب منافسيهم . وما حققته الليبرالية البورجوازية لليهود فى غرب أوروبا ، كانت البلشفية وحدها هى القادرة على تحقيقه لهم فى شرق أوروبا . ولاشك أن الشيوعيين لم يكونوا

ليسمحوا لليهود بالاستمرار كرأسماليين أو «كعناصر غير منتجة» . لكنهم بدلا من ذلك منحوهم حقوقا متساوية .

كانت المسألة اليهودية قبل الحرب أكثر ما تكون حدة في بولندا ورومانيا بملايينهما الأربعة من اليهود . وكان العداء للسامية حركة شعبية أكثر منها في أى بلد آخر حتى في ألمانيا . وكانت تجسد كل أنواع الأتجاهات والدوافع : الغيرة التي تستشعرها الطبقات الوسطى البولندية المتخلفة نحو منافسيها اليهود ، الكراهية الدينية العميقة الجذور لليهود «كأعداء المسيح» وأخيرا ، خوف كل الحكومات من الشيوعية المنتشرة بين الكتلة العامة للحرفيين اليهود الفقراء والمعوزين . ولقد ظلت الطبقة العاملة والفلاحون غير اليهود في تلك البلدان ، غير متأثرين عموما بالدعاية اللاسامية الملحة . لكنهم ظلوا بعيدين عن اليهود ، وعلى نحو أو آخر لا مبالين بمصيرهم. وكانت الهوة الفاصلة بين اليهودى وغير اليهودى مسئولة جزئيا على الأقل عن السلبية واللامبالاة الغريبة، التي شهدت بها جمهرة غير اليهود مذبحة اليهود «الرؤيوية» (نسبة إلى سفر الرؤيا)، رؤيا اقتراب نهاية العالم.

ليست هذه هى الصورة كلها..لقد أصبحت مقبرة الطبقة الوسطى اليهودية مهد طبقة وسطى جديدة غير يهودية في شرق أوروبا . ففى أوج المذبحة، كتبت صحيفة بولندية : «أن النازيين يحلون المشكلة اليهودية

لصالحنا بطريقة لم نكن لنحلها بها أبدا». لقد استولى البولنديون والرومانيون والمجريون على حوانيت اليهود وبيوتهم ومساكنهم وممتلكاتهم الشخصية، وكان المستفيدون من ذلك هم أكثر عناصر تلك الأمم انحطاطا وشرها، وأكثرهم انعداما للضمير - حثالة بروليتاريا تحولت في يوم وليلة إلى حثالة بورجوازية. وكانت اليهود القتلى هى الرخص الوحيدة الصالحة لتجارتهم . إن هذه الطبقات الوسطى الجديدة تعانى بلا شك عقدة ذنب تجعل مزاجها بالغ العصبية والوحشية. وهم ينظرون بتوتر وقلق فى وجوه اليهود القلائل الذين يحاولون اليوم العودة إلى بلادهم. هل عاد المالك الحقيقى للحانوت؟ أو ابنه أو قريبه؟ وكلما زاد الفقر فى شرق أوروبا، وكلما أصبح التدافع على السلع المادية أكثر ضراوة، زاد مقدار اليأس وانعدام الضمير فى تصميم هذه الطبقة الوسطى الرهيب على الاحتفاظ بملكيتها. ان الملكية هى، فى كل الأحوال تسعة أعشار القانون، ويكفل العداء الحيوانى للسامية العشر الأخير، والطريقة الوحيدة التى تستطيع بها «الطبقة الوسطى» الجديدة أن تنقذ بها، ليس ثروتها المكتسبة حديثا فى الأساس، وانما أعصابها وادعاءها للاحترام، هى احراق من بقى من اليهود.

هذا بالتأكيد هو أقوى الملامح المرضية للحياة فى شرق أوروبا اليوم. والويل لشرق أوروبا إذا أصبحت طبقة الضباع هذه طبقة حاكمة! إن أسود وجوه نظم الحكم الحالية، الواقعة تحت الرقابة

الروسية، ستكون باهتة بالمقارنة بما تستطيع هذه الطبقة ان تختزنه من فظائع، ليس لليهود (لأنه لم يعد لديهم إلا القليل ليفقدوه) بقدر ما هو لشعوب شرق أوروبا. ان هذه الطبقة تشكل النواة الصلبة للمعارضة المعادية للروس في كل بلد. انهم الآن «كوادر» مختلف المنظمات الإرهابية، وهم على استعداد لأن يكونوا أكثر العناصر وحشية وتصميما فى أية ثورة مضادة في شرق أوروبا. وما الانفجارات الأخيرة للعنف المعادى للسامية سوى مجرد تحذير من عنف مختلف تماما، قد يهدد السلام فى ذلك الجزء من العالم.

ماذا لدى العالم ليقدمه للناجين من بلسن وأوشوتز وداشو وماجدانك؟ بعد الحرب العالمية الأولى ، قدم لليهود أملين : وعد بلفور بموطن يهودى في فلسطين وحماية الاقليات من قبل عصبة الأمم. وأثبت إعلان حماية الاقليات انه قصاصة ورق. وقوبل مشروع الوطن القومى اليهودى، بالمعارضة الكاسحة من العالم العربى، وهو ما كان التنبؤ به سهلا هل يمكن أن تكون أمم العالم الديمقراطية العظيمة ، قد أصبحت من العجز لدرجة أنها لا تستطيع أن تقدم لليهود قطعة أرض في مكان ما من الكرة الأرضية، أو بضع مئات الآلاف من تأشيرات الدخول إلى بلادها؟ أو ترى أصبحت من الفقر بحيث لا تستطيع أن تقوم بايماءة احسان إلى أسوأ حطام وضحايا لهذه الحرب : بقايا عنصر غير عادى وتعيس لكنه ليس جديرا بالاهمال تماما؟

٥ – مناخ إسرائيل الروحى[١]

ما هو الإسرائيلى ؟ وما هو اليهودى ؟ هذا السؤال يناقش بكثرة فى إسرائيل، لأن العلاقة بين إسرائيل وبين يهود العالم ذات أهمية واضحة بالنسبة إليها. ان كثيرا من الصهاينة يؤمنون بالـ «كيبوتز هاغالوث» ، أى عودة اليهود من كل بلدان الشتات، وكل يهودى خارج إسرائيل، هو فى نظرهم، منفى عمليا. وعليه واجباته نحو إسرائيل، والواجب الأقصى هو أن يصبح مواطنا إسرائيليا. أما الإسرائيليون الشبان، من الناحية الأخرى، خصوصا «الصابرا» – الذين ولدوا وتربوا فى البلاد، فليس لديهم احساس بالانتماء إلى «اليهودية العالمية» وبالتالى لا يرون «اليهودية العالمية» منتمية إلى إسرائيل، ويصل بعضهم إلى حد القول بأنهم إسرائيليون وليسوا يهودا.

ربما كان التمييز غير حقيقى تماما. ففى إسرائيل لمسة من

---

(١) ذى ريبورتر ، أبريل – مايو (نيسان – أيار) ١٩٥٤ .

اللايهودية : نجدها في المزارعين الذين يناضلون مع الصحراء ليحولوا رقعا منها إلى بساتين للكرمة والزيتون والأحراش، وفي الجنود الذين يشهدون العرب عبر الحدود بدم بارد، في الوعي الشائع بالدولة، وفي الضرورة التي تميز استعداد الشعب للدفاع عن دولتهم ضد العالم الخارجي.

ويسألون الزائر : «ألا تحس اننا، نحن اليهود، لنا جذورنا هنا؟» ويكثر ترديد كلمات «جذور» و«انعدام الجذور» في الحديث. ان النزيل السابق في معسكرات الاعتقال النازية، والذي عاني العداء البولندي القديم للسامية، وضحية الحرس الحديدي الروماني، يشعر أخيرا أنه في وطنه وانه آمن . أنه يعبر عن رضاه، وعن احساسه بالخلاص، وعن اعتزازه.

ومع ذلك فكثيرا جدا ما تطن في الأذن نغمة حادة من الصوفية الوطنية الصارخة، صوفية لا تخلو من عنصرية الشعب المختار القديمة، والتي تتفق أسوأ توافق مع عنصر التعقل البارد في العقل اليهودي، لكن إسرائيل بعد كل شيء، هي بلد «زوهار»، الانجيل الثاني لصوفية العالم، ووطن القبلانيين الذين نسجوا رؤاهم على صخور صفد القريبة الزاهية.. وعلى كل، فهناك شيء مقلق في توتر الشعور الوطني الذي يتخلل الأحاديث مع الإسرائيليين من رئيس الوزراء، إلى عامل رصف الطرق.

كان بن جوريون يحدثنى بمرارة عن اليهود اللاصهيونيين قائلا : «أنهم لا جذور لهم، انهم كوسموبوليتيون، مقطوعو الجذور، لا يمكن أن يكون هناك ما هو أسوأ من ذلك». فعلقت بقولى انه يتحدث كما كان الدعاة الستالينيون يتحدثون عن اليهود كلهم حتى وقت قريب. لكنه لوح بيده معترضا :

«لا، لا ، اننى كرئيس وزراء لهذا البلد، كنت حريصا دائما، على أن يشعر الإسرائيليون انهم مواطنون للعالم كله، لكى يكونوا ذوى قيمة وجدوى بالنسبة لدولتهم، اننى لا أندد بـ «الكوسموبوليتيين العديمى الجذور» بنفس الطريقة التى نددوا بها بهؤلاء فى موسكو».

هذا بالطبع تفكير بن جوريون بعد أن راجع نفسه. أما غريزيا فأنه يدين ويشجب كل هؤلاء اليهود اللاصهاينة، الذين لا يمثل الانتماء لليهودية بالنسبة لهم فكرة مركزية أو احساسا مسيطرا، لكنه ما ان يلفت أحد نظره إلى التوافق بين كلماته وبين الدعاية الستالينية (على عهد مؤامرة الأطباء) حتى يحمر وجهه حرجا ويصحح نفسه.

فى إسرائيل، أقام أقدم شعب فى العالم أحدث دولة قومية، وهم يتطلعون عاطفيا إلى تعويض ما فاتهم من زمن. وبالنسبة لجميع اليهود تقريبا هنا، فان المثل الأعلى للسعادة الفردية والجماعية هو إقامة صدفة قومية صلبة وقادرة على حمايتهم، ويتضمن ذلك الخلاص من الشتات «الدياسبورا» والذكريات والعادات والأذواق وروائح المنفى، ألفى عام من

المنفى. انه يتضمن نسـيان مناخات وطبيعة وأصوات ولغات بلدان كثيرة : بولندا ، روسيا، ليتوانيا، النمسا، المغرب، تركيا، العراق. ويا لها من عملية اجتثاث ذاتي ونفسي معقدة ومتعددة الوجوه، تعقب عملية احلال عضوي تراجيدية، والحقيقة ان الأغلبية الساحقة من هذا الجيل من الإسرائيليين لم تمد لها أي جذور في إسرائيل، وهي لاتستطيع ذلك. ان إسرائيل هي دولة الشخص الطريد، وهذا هو السبب في انهم يتحدثون كثيرا عن «الجذور».

انهم يتطلعون إلى الهرب من ماضيهم، وان يطردوا من عقولهم علامات المهانة وكل ندوب العار، وكل الوصمات التي نتجت عن كراهية اليهودي، بل انهم يتطلعون إلى أن يطردوا من عقولهم جزءا من عقولهم. ان بعض الإسرائيليين ، مثلا يشعرون بالخجل العصابي من الييدش، لغة أغاني مهدهم الأول، وقصصهم الانجيلية الأولى، و«الرطانة» التي نما بها، في شرق أوروبا قبل الكارثة اليهودية، أدب مذهل في ثرائه، فسواء على ظهر سفينة إسرائيلية، أو في تل أبيب، كنت اقترب من شخص غريب وأسأله عن اللغة التي أستطيع أن أحدثه بها، وغالبا ما تكون الإجابة بالألمانية، ونادرا جدا ما تكون بالييدش. لكن ما أن يفتح الغريب فمه، حتى يتضح أنه يتحدث اليدش، وانه لا يكاد يعرف شيئا من الألمانية الصحيحة، لكنه لن يعترف بذلك. ان اليدش هي «وصمته اللغوية» التي يصر على التخلص منها.

ان الموقف من اليدش، كان على أى حال من مميزات الصهيونية قبل هتلر بوقت طويل. فقد استهدفت الصهيونية منذ بدايتها إحياء العبرية. ان فى ذلك نوعا من الحذلقة، كما هو شأن محاولة يقوم بها اليونانيون أو الايطاليون للتخلى عن لغاتهم الحديثة والعودة إلى اليونانية أو اللاتينية الكلاسيكية. لقد رأت الصهيونية دائما فى اليهودية، أمير الأساطير الذى كتب عليه أن يعيش فى املاق لسنوات كثيرة لكنه يعود إلى قصره الملكى، ويطرح عن نفسه خرق التنكر المتربة القذرة ويرتدى الذهب والارجوان الملكى. وهكذا يطرح اليهود على عتبة إسرائيل خرق اليدش ليستبدلوها بذهب وارجوان العبرية.

ولقد سألنى بن جوريون بنبرة موحية بالثقة بالنفس : «متى ستبدأ كتابة كتبك بالعبرية بدل الانجليزية؟». وهو يعتبر أمرا مسلما به ان كل كاتب يهودى المولد، مدين بالتزام أدبى لأدب إسرائيل العبرى.

ان تأكيد الذات الإسرائيلى - العبرى هذا يعول عليه أن يصهر كل عناصر إسرائيل المتباينة فى أمة واحدة وان يمنح تلك الأمة عناصر وحدة روحية وثقافية. وعلى كل، فمن وراء تأكيد الذات هذا يوجد أيضا حنين اليهود الطبيعى إلى بلدان وثقافات طفولتهم وشبابهم. وهو حنين يعبر عن نفسه أحيانا فى أشكال من النبل البالغ.

تكاد كل واجهة مكتبة إسرائيلية تروى لك حكاية هذا الحنين، وتكاد كل واجهة مكتبة من هذا النوع أن تكون مرثاة ثقافية يهودية، والمكتبة

عنصر بالغ الأهمية فى الحياة الإسرائيلية، لأن اليهود ظلوا هنا هم الـ «أن هاسافر» (آهل الكتاب). ان الكتاب هنا ضرورة أولى، وفى تل أبيب وحيفا والقدس ، يبدو أن هناك من المكتبات ومكتبات الاعارة بقدر ما هناك من حوانيت البقالة والخضر، وفى المستوطنات الزراعية توجد مكتبات غنية يندر أن تجد مثلها فى أى ريف آخر.

وليس ما يملأ الرفوف هو قصص الجريمة والجنس أو القصص الهزلية أو الكتاب الرائج الرخيص، انما الكتب العظيمة والجادة للشعراء والمفكرين والحالمين الاجتماعيين لكل الأمم . وتجدها هنا فى ترجمات عبرية وفى لغاتها الأصلية. وعلى سبيل المثال : فى واجهة مكتبة صغيرة فى شارع خلفى، وجدت طبعة جيدة لجوته بالألمانية، وترجمة عبرية جديدة لكتاب هاينه «كتاب الأغانى»، وطبعات إسرائيلية جديدة من جوجول وبوشكين، إلى جانب ترجمات عبرية لأعمال فرويد، ومختارات من أشعار والت ويتمان، وإخراجا جديدا لكتاب ميكيويتش : Pan Taoeusz ، ملحمة بولندا الوطنية، وبعض الروايات المجرية والرومانية، ويبدو أن كل جماعة من المهاجرين مهتمة بأن تنقل المتع الفنية والروائع الأدبية لطفولتها وشبابها، إلى الأطفال الذين يتربون فى إسرائيل. فان محاميا أصله من ليبزغ، يحب أن يتذوق ابنه معه ثراء أسلوب نيتشه، ولا تستطيع يهودية بولندية أن تتصور ابنتها تكبر دون

أن تقرأ روايات تشير موسكى الاجتماعية - الوطنية، ويتجادل يهودى عجوز من أوديسا مع حفيده حول عمق «الاخوة كرامازوف».

كتب هنريخ هاينه ذات مرة، أن اليهود عندما طردوا من أرضهم، تركوا وراءهم كل ثرواتهم، وأخذوا إلى المنفى متاعا واحدا : الكتاب، ثم على مر القرون وقف «طيف الشعب» حارسا على الكتاب، الانجيل، يحافظ عليه من أجل بقية البشرية، والآن يتجسد «الطيف» مرة أخرى فى أمة، وعند عودتها إلى بلدها تعيد معها إلى ضفاف الأردن وتلال يهودا، كل ما لدى أمم العالم من كتب عظيمة.



لقد كانت دولة إسرائيل أساسا حُصيلة جهد يهود أوروبا الشرقية، خصوصا روسيا وبولندا وليتوانيا. فمن بينهم جاء جميع مبشرى الصهيونية تقريبا، فيما عدا هرتزل ونورداو، ومنهم جاء تقريبا جميع الساسة ورجال الدولة والرواد الأوائل. وعندما أعلنت الدولة اليهودية فى ١٩٤٨، كان اليهود ذوو الأصول الروسية والبولندية، يشكلون حوالي نصف سكانها تقريبا.

ففى أحياء اليهود فى أوروبا الشرقية، جرى نهر الحياة اليهودية القديمة أقوى ما يكون، وهناك داعب اليهود أحلاما صهيونية بأعلى درجات التوتر. وعندما كانوا يتبادلون فى الأعياد تحيتهم التقليدية «العام القادم فى أورشليم»، كانت التحية تبدو مختلفة الوقع تماما عنها

فى البيوت اليهودية فى غرب أوروبا أو أمريكا. كما أن الأساليب التى كان اليهود الفرنسيون والبريطانيون والايطاليون والألمان «يستوعبون» بها، قبل قيام الفاشية، هذه الأساليب لم تؤت مفعولها فى روسيا وبولندا، فقد كان اليهود هناك يعيشون فى كتل كبيرة متماسكة، وكانت لهم طريقتهم الخاصة الأصيلة فى الحياة. وكانت قوى الاستيعاب فى الحضارات السلافية ، على أى حال أضعف من أن تجذبهم وتستوعبهم، ولذلك كان شرق أوروبا هو وطن اليهودية الأفضل (لم يكن عبثا ان سميت «فيلنا» أورشليم ليتوانيا). لذلك فلا عجب أن تكون إسرائيل «مستعمرة روحية لاحياء اليهود فى شرق أوروبا» كما قال يهودى من أصل غربى.

ومع ذلك، فقد كانت أحياء يهود شرق أوروبا منقسمة على نفسها، كانت فى حالة ثورة ضد نفسها، ضد تراثها وارثوذكسيتها، وضد العالم الخارجى ، وقد اتخذت هذه الثورة الصورتين المتعارضتين : الصهيونية والاشتراكية الماركسية الثورية.

وبينما كانت كل من الاشتراكية والليبرالية والصهيونية فى الغرب، متقاربة معا، كانت فى شرق أوروبا فى حالة تنافس حاد على ولاء الجماهير اليهودية. كانت هناك دائما هوة عميقة بين اليهودى الصهيونى واليهودى المعادى للصهيونية. كان المعادى للصهيونية يحرض اليهود على الثقة بمحيطهم غير اليهودى، وان يساعدوا القوى التقدمية فى هذا

المحيط لكى تصل إلى القمة، وبذلك يساعدون هذه القوى على أن تدافع على نحو فعال عن اليهود ضد اللاسامية. كانت الحجة الرئيسية لأجيال من اليساريين اليهود أن «الثورة الاشتراكية ستمنح اليهود المساواة والحرية، وبذلك لا يكونون فى حاجة إلى الصهيونية». لكن الصهاينة فى الجانب الآخر كانوا يقارعونها بالكراهية العميقة المستكنة التى يكنها غير اليهود لليهود، وكانوا يحرضون اليهود على ألا يضعوا أمانة مستقبلهم فى أى يد غير يد دولتهم، وفى هذا الصراع أحرزت الصهيونية نصرا مفزعا، نصرا لم تكن تفكر فيه أو تتوقعه. فقد كان لابد أن يهلك ستة ملايين يهودى فى غرف الغاز الهتلرية لكى توجد إسرائيل، وكان أفضل لو أن إسرائيل لم تولد وبقى الستة ملايين يهودى أحياء. لكن من ذا الذى يستطيع أن يلوم الصهيونية أو إسرائيل على هذه النتيجة، ان إسرائيل تمثل ما هو أكثر من مستعمرة روحية لأحياء اليهود فى شرق أوروبا ، إنها تمثل نضالهم المأساوى العظيم من أجل البقاء، بحيوية تبهر الأنفاس.

إن صهيونية شرق أوروبا رجعية بالضرورة، ومع ذلك فقد استنشقت نسيم الثورة الروسية، نسيم تلك الحركة الشاسعة من الأفكار الثورية التى سبقت الثورة البلشفية، ووصلت إلى قمتها فى تلك الثورة، لقد تركت حركة هذه الأفكار على الصهيونية أثرا لا يمحى.

ان اليهودى الشاب الذى لم يثق بالمعتقدات الثورية الروسية أو البولندية، فى كييف أو أوديسا أو وارسو، وتطلع إلى الريادة من أجل الدولة اليهودية فى فلسطين ، كان كقاعدة عامة منوما مغناطيسيا بالمعتقدات التى هرب منها، واكتشف ذلك بعد أن ألقى مراسيه فى فلسطين. جاء إلى فلسطين بفتات من مائدة الثورة الروسية واستخدم هذا الفتات كبذرة يبذر بها صحارى الجليل وسماريا ويهوذا المقدسة.

فى تل أبيب، فى مبنى الهستادروت الجديد المهيب ، يكون بعض القادة على رسلهم عندما يتحدثون بالروسية، أكثر منهم عندما يتحدثون أى لغة أخرى، رغم انهم هاجروا من روسيا منذ أكثر من ثلاثين سنة. وما أن استقبلنى بن جوريون حتى انطلق فى محاضرة عن الثورة الروسية. وواضح ان الموضوع يبهره.

قال : «ثمة رجل واحد كان يستطيع انقاذ العالم كله، لكنه، لسوء الحظ، أضاع فرصته، ذلك الرجل هو لينين».

وبن جوريون يهودى بولندى أكثر مما هو روسى لكنّ هذا الحكم الفج هو ثناؤه غير المقصود على الثورة الروسية.

وعندما تسأل موردخاى تامير، السكرتير العام للهستادروت عن المبدأ التنظيمى الذى يوجه الهستادروت يجيب بثقة لا تهتز :

«إن المبدأ الحاكم هنا هو الديموقراطية المركزية. ألا تعرفها؟».

والديموقراطية المركزية بالمعنى الدقيق، ليست بالطبع اختراعا روسيا أو بلشفيا. لقد جاء بها الروس والبلاشفة من غرب أوروبا، لكنها جاءت إلى إسرائيل وإلى الهستادروت من روسيا.

إن فى إسرائيل تفاوتات بين الغنى والفقر. فالمسافة بين حجرات المعسكرات الانتقالية فى معايارا، المخصصة للمهاجرين المفلسين، والفنادق والفيللات الفاخرة على جبل الكرمل هى مسافة شاسعة جدا فى الحقيقة، لكن هناك أيضا احساس منتشر وحاد بالخجل بسبب تلك التفاوتات، احساس بالخجل يشبه ما وجد فى روسيا تولستوى وتشيكوف. فبين الطبقة العاملة تسود روح مساواة حية مثل تلك التى ازدهرت فى روسيا السوفيتية قبل أن تقتلعها الستالينية. وتتمسك النقابات بسياسة أجور تقوم على شبه مساواة فمستويات أجور العمال المهرة وغير المهرة، موظف المكتب والمهنى وموظف الحكومة، تتفاوت من حيث الحجم تفاوتا محدودا نسبيا. ويشكو الناس من أن نقص الأجر الحافز يعوق تقدم إسرائيل الاقتصادى.

ان الكيبوتز (الوحدة الزراعية الجماعية) هو مثال المساواة الإسرائيلية، كما انه أهم ملامح صورة إسرائيل المعنوية والفكرية، والكيبوتز سليل غير مباشر لفكرة من أفكار النارودنيك (أو الشعبيين) الروس. ويبدو أن رؤيا نارودنيكية للاشتراكية الزراعية هى التى تجسدت في الواحات اليهودية المبعثرة فوق ما كان من قبل صحراء عربية.

ولقد بشر النارودنيك باشتراكيتهم الزراعية فى النصف الثانى من القرن الماضى، عندما لم تكن روسيا تملك بعد أى صناعة حديثة، ولقد جاء «أحباء صهيون». الرواد الأول للصهيونية الحديثة، من روسيا إلى فلسطين من قبل أن تخبو اليوتوبيا النارودنيكية تماما. وجاءت موجة الهجرة التالية بعد هزيمة الثورة الروسية فى ١٩٠٥ – ١٩٠٦ وأقام رجال تلك الموجة عددا من أعظم وأجمل الكيبوتزات فى الجليل قرب طبرية وفى تلال يهودا على مشارف القدس، ووصلت الكتيبة التالية من المهاجرين بعد الثورة البلشفية، أما اليهود الروس الأغنياء الذين نجحوا، عندما هاجروا، فى انقاذ بعض ثروتهم، فقد استقروا فى برلين أو باريس أو لندن، أما الذين جاءوا إلى فلسطين فقد كانوا ملهوفين على انقاذ حلمهم بالدولة اليهودية ليس غير.

وفى روسيا، فى ظل السياسة الاقتصادية الجديدة ، شجعت حكومة لينين حفنة من الفلاحين المثاليين ومثقفى الحزب على تكوين جماعيات زراعية تجريبية تطوعية، اعتبرت «معامل للمستقبل»، لا يجوز الخلط بينها وبين المزارع الجماعية فى عهد ستالين. ولقد انشئت الكيبوتزات الجديدة على نمط تلك الجماعيات الروسية المبكرة ، بنيت بأيد صبيان وبنات تركوا بيوتهم وأنضموا إلى منظمات صهيونية اشتراكية راديكالية مثل هاشومير ، هاتزير لا لكى يناضلوا فى صراعات طبقية، وإنما لكى

يجففوا مستنقعات الحولة، وليغطوا سفوح الكرمل وسماريا بخضرة الكروم والحدائق.

والكيبوتز مؤسسة فريدة من الناحية الاجتماعية. وترجع أصول الكيبوتزات الأولى ربما إلى ما هو أبعد من الشعبية الروسية القديمة، ربما نجدها فى تصميمات فورييه لمستوطناته التعاونية، أو فى تجارب روبرت اوين التعاونية، وفى غيرها من المشروعات الغربية البارعة للعصر الكلاسيكى للاشتراكية الخيالية. ومثلهم مثل الاشتراكيين الخياليين. داعب مؤسسي الكيبوتز الأمل فى تحقيق الاشتراكية عن طريق القدوة الشخصية بدلا من أى إطاحة ثورية مبرمجة بالمجتمع القائم. وتصادف أن لم يكن فى الصحراء الفلسطينية أى مجتمع قائم، وكانت الصروح التى تبنيها الاشتراكية الخيالية فى الهواء تنهار عادة بمجرد إقامتها. والكيبوتز مبنى فعلا على الرمال، لكنه أبدى صلابة أكبر. وستحتفل أقدم الكيبوتزات قريبا بعيدها الذهبى، وهناك كيبوتزات كثيرة يبلغ عمرها عشرين أو ثلاثين سنة، وقد أوغلت فى الرخاء والنجاح.

والذى لم ير الكيبوتز لا يكاد يستطيع أن يتخيل شجاعة وأصالة الفكرة وتطبيقها، فالكيبوتز يتكون عادة من بضع مئات من الأعضاء يعيشون فى مساكن صغيرة، تكون أحيانا مبنية ومؤثثة بذوق جمالى رفيع، وثمة صفوف مقابلة من الأكواخ البيضاء المحاطة بشرائح الزهور، هى غرف الطعام العامة والمكتبات والمدارس والمركز الطبى

وغيرها من المباني ذات النفع العام، مع ورش وحظائر على أطراف المستوطنة، وتقسيم العمل بين أعضاء الكيبوتز تطوعي ، وتتزايد كفاءته مع التقدم في التقنية الزراعية، كما توجد في بعض الكيبوتزات مصانع اضافية ذات أحجام لا بأس بها، وساعات العمل تسعة للأعضاء دون سن الخمسين وأربعة لمن هم أكبر من ذلك، وإذا أبدى أي عضو استعدادا علميا أو فنيا فمن حق هيئة المستوطنة أن تقلل ساعات عمله أو أن تمنحه سنة تفرغ.

والمكافآت العينية متساوية للجميع، والطعام والملابس والأثاث ، والمؤن الطبية والسجاير والكتب ، (بل واللوحات أو المنتجات الفنية) توزع كلها من صندوق جماعي : «لكل حسب حاجته» ، ويحصل كل عضو على بضعة ليرات كمصروف شخصي ، ويتوقف مستوى المعيشة في أي كيبوتز على حجم الصندوق الجماعي أو على الثروة المتراكمة على مر السنين ، وعلى إنتاجية العمل الجاري ، وعلى الربح الذي يحققه جهاز التسويق الذي يبيع فائض الإنتاج لمشترين من الخارج.

وقد امتد المبدأ الشيوعي بشجاعة إلى تعليم الأطفال ، الذين يتربون داخل الكيبوتز ، لكنهم يعيشون في أماكنهم الخاصة ، ويقضون مع ذويهم ساعتي فراغ في المساء ، وقد لاحظت أن أعضاء الكيبوتز قد تعودوا على التربية الجماعية للأطفال إلى حد أنهم بطريقة طبيعية

تماما، غير مفتعلة ، يتحدثون عن جميع الأطفال فى الكيبوتز كأنهم يتحدثون عن أطفالهم هم.

والكيبوتز فى بعض النواحى ، مزيج من معسكر الكشافة ودير البندكتين ، يضيئه غياب النظام الجبرى وسهولة ووضوح أهداف العلاقات الأنسانية ، ولدى أعضاء الكيبوتز كل دواعى الفخر بمعنوياتهم، وهم يدركون ذلك تماما ، وهم يروون لك أنه أثناء الحرب زار المبعوث الدبلوماسى السوفيتى هو وهيئته كثيرا من الكيبوتزات محاولين أن يروا وجه المقارنة بينها وبين المزارع الجماعية السوفيتية ، وكانت حصيلة المقارنة – طبعا – فى غير صالح الكولخوزات السوفيتية التى تعتمد على الموجيك المكرهين ، الكسالى ، المتخلفين ، بينما بنيت الكيبوتزات بشجاعة مثقفين وعمال مثاليين وتضحيتهم بالنفس . وفى أحد الكيبوتزات ، بعد أن تفقد المبعوث السوفيتى معمل الألبان الحديث، والمدرسة ، ومكتبة المزرعة المكونة مما كان مكتبات عشرين أستاذا (جامعيا ألمانيا) وحلبة المسرح ، ثم طلب الدبلوماسى السوفيتى أن يرى سجن الكيبوتز .

وكانت الإجابة : «ليس عندنا سجن هنا» .

فصاح الدبلوماسى : «مستحيل ! وكيف إذن تتعاملون مع المجرمين والمذنبين ؟ » .

وحاول أعضاء الكيبوتز أن يشرحوا له أنهم حتى الآن لم يضطروا إلى مواجهة ذنب له من الخطورة ما يجعله يستحق مثل هذه العقوبة . وان هذا طبيعي تماما ، فالأعضاء يختارون بأقصى قدر من العناية ، وهم رجال ونساء على مستوى عال من الخلق الاجتماعى ، والمتذمرون لهم حرية المغادرة ، وفى الحالات القصوى يستطيع الكيبوتز أن يطرد من يراه غير ملائم من بين أعضائه ، وكان هذا الكيبوتز بالذات تحت سيطرة حزب المابام الموالى للستالينية ، لكن المبعوث السوفيتى رفض أن يصدق ما قيل له :

وقال «مؤكد أن مجتمعا من عدة مئات لا يمكن أن يعيش بغير سجن !» .

لم يخف الروسي ميله إلى الشك ، وأصر أنه يعتبرها نكتة جيدة ، أن يحدث أن يعرض اليهود على روسيا قريتهم البوتيمكينية .

وعلى كل ، فان حوالى ٧٠ ألف نسمة فقط ، ليس أكثر من خمسة بالمئة من سكان إسرائيل يعيشون فى الكيبوتزات ، هؤلاء هم آباء إسرائيل الروحيين ، ونفوذهم أعظم بكثير من عددهم ، وفى المدن تقابل أناسا كثيرين ، انتموا فى وقت أو آخر إلى كيبوتز ، ومازالوا يستجيبون لجاذبيته المثالية ، وكثيرا من سكان المدن يحبون أن يرسلوا أطفالهم إلى مدارس الكيبوتز المشهورة بأساليبها التعليمية العصرية جدا .

فى ظل الانتداب البريطانى كان وزن الكيبوتز فى حياة فلسطين أكبر كثيرا مما هو الآن. كان السكان اليهود عندئذ أقل عددا. ولم يكن هناك جهاز حكومى يهودى ، ولا جيش يهودى ، ولا شرطة ولا قضاء ، فكان الكيبوتز بتنظيمه المحكم ومعنوياته العالية ونظامه يشكل نوعا من دولة ظل يهودية . وكثير من الموظفين المدنيين الحاليين ومن الرسميين جاءوا من الكيبوتز ، وظلوا كقاعدة عامة أعضاء فى جماعياتهم الزراعية، وبعضهم يحاول أن يجمع بين خدمة الدولة والعمل فى الكيبوتز، وهذا ممكن فقط بسبب صغر الدولة وبسبب الطبيعة القبلية على نحو ما للمجتمع الإسرائيلى . فى أحد الكيبوتزات مثلا ، اكتشفت أن سائق الجرار كان سابقا سفير إسرائيل فى براغ وبودابست وفى كيبوتز أخر ، قابلت راعى غنم، طويل قوى ، لوحته الشمس ، حافى القدمين (يشبه كثيرا داوود فى لوحة مايكل انجلو) . يسوق القطيع عائدا من الحقول فى وقت الغروب الذهبى ، وقيل لى أن هذا كان واحدا من قادة الجيش الإسرائيلى أثناء حرب «التحرير» سنة ١٩٤٨ .

مازال الكيبوتز هو محطة الطاقة المعنوية لإسرائيل ، لكنه منذ بعض الوقت يعيش على شفا الأزمة ، فقد غطت عليه الدولة الجديدة البازغة ، وهزة تدفق المهاجرين الجدد ، أن رواد الصهيونية يشاركون غيرهم من الرواد المصير الحزين : هزمهم نجاحهم نفسه .

فمنذ ١٩٤٨ ، تضاعف سكان إسرائيل . والقادمون الجدد ليسوا من طينة المثاليين الذين جاءوا فى الهجرات القديمة ، أنهم حطام معسكرات الاعتقال ، انهم بقايا وحثالة يهود أوروبا ، وجماهير كبيرة من اليهود الشرقيين ، اللاجئين نجاة من الكراهية العربية والثأر العربى. وبالنسبة لكثيرين من المهاجرين الجدد ، تبدو أفكار الآباء الروحيين الصهاينة غريبة وغير مفهومة ، وبالنسبة لهم يبدو حانوت صغير أو كشك لبيع السجاير فى مكان ما من المدينة ، أفضل وأدعى للاحترام ألف مرة من العجائب الجماعية التى يقدمها الكيبوتز . أن عشرات الألوف من هؤلاء المهاجرين الجدد مازالوا يعيشون فى المعسكرات الانتقالية ، بل أن بعضهم يرفض الانتقال إلى المساكن الجديدة التى تبنيها لهم الحكومة ، انهم يفضلون أن يعيشوا مجانا فى جحورهم القديمة على أن يدفعوا ايجارا لبيت جديد . إن عددا قليلا يهاجر مرة أخرى عائدا إلى تونس أو المغرب ، فان اقتصاد البلاد لا يستطيع استيعابهم إلا ببطء وألم ، ان استطاع استيعابهم بالمرة ، وعبثا يدعوهم الكيبوتز إلى الانضمام إلى صفوفه كأعضاء متساوين.

«نحن أبناء مدن ، لن نصبح ريفيين سذج !» : هكذا يجيب من كانوا خياطين فى بوخارست ، وباعة جوالين فى فيلنا .

ويقـول البـعض : «نريد أن نكسب نقـودنا ، وان نجنى بعض المدخرات ، نحن نؤمن بالملكية ، الملكية العامة ليست لنا !».

ويقول أخرون : «لا نريد أن نأكل فى غرف طعام جماعية طوال حياتنا ، وان يفصل عنا أطفالنا » .

ومازال آخرون يسألون : «وظفونا كعمال واجراء عندكم ، لكن ادفعوا لنا نقدا ، ولا تطلبوا منا أن نكون أعضاء في جماعيتكم !»

وهذه أكثر من اهانة لعقيدة الكيبوتز ، وهى أيضا تخلق (أو ربما فقط تضع تحت الضوء) حيرة معنوية جدية، فالكيبوتز يجد نفسه فى مواجهة طلب بأن يصبح «صاحب عمل رأسمالى» . والغريب أن هذا الطلب يأتى ممن يمكن أن يكونوا عمالا واجراء . وبالنسبة للكيبوتز ، ان يستأجر عمالا ، معناه أن يتخلى عن مبدئه الأول ويخونه ، هكذا على أي حال ، تشعر جمهرة الأعضاء حتى من الكيبوتزات التى تنتمى إلى اشتراكية الماباى المعتدلة ، من الناحية الأخرى ، فالحكومة التي يرأسها قادة الماباى ، مهتمة باسكان المهاجرين الجدد ، وتدعو الكيبوتز إلى التخلي عن «التطهر العقائدى» وان يستأجر العمال العاطلين من المعسكرات الانتقالية ، كما تصدر الأصوات الداعية إلى نفس الشيء من داخل الكيبوتز ، فقد توسع اقتصاد الكوميونات الزراعية جدا في السنوات الأخيرة لكن عضويتها تميل إلى الثبات ، لابد من استئجار عمال من الخارج للمحافظة على التوسع ومنع الركود . «أن نستأجر أو لا نستأجر» : تلك هى القضية

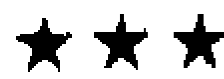
الاخلاقية التى يدور حولها النقاش الحاد الآن . ولقد فتحت فعلا بعض الثغرات فى قلعة الملكية العامة ، اذ توجد الآن مجموعات من الاجراء فى داخل حدود كثير من الكيبوتزات . ويجتهد المنظرون ليخرجوا صيغا جديدة تستهدف وضع حد لكمية العمل المستأجر . وتقسم كل الكيبوتزات من «دان الى بئر سبع» الا تصبح ابدا مشروعات رأسمالية ، وبغض النظر عن تصاعد فيضان الرأسمالية خارج جدرانها .

وهكذا تعيد قصة الاشتراكية الخيالية نفسها فى اسرائيل ، فان كل المؤسسات التجريبية للاشتراكية الخيالية كان مصيرها إما الأنهيار او التحول الى مشاريع رأسمالية ذات كفاءة . وقد يكون هذا هو المصير النهائى للكيبوتز ايضا مالم يغير تحول اجتماعى مافى الشرق الأوسط من محيط الكيبوتز .

إن الكيبوتز الان يناضل للاحتفاظ بأرضه ، تساعده فى ذلك حقيقة كونه يخدم مصلحة وطنية عامة . فهو مازال الشبكة الرئيسية فى دفاع اسرائيل ، وقد تحمل وطأة الحرب عام ١٩٤٨ ، مقاتلا معارك الطليعة والمؤخرة . وهيكل تنظيم الكيبوتز يجعل منه مستوطنة مثالية للحرس الشعبى (الميليشيا) . وفى كل كيبوتز يأخذونك الى المقبرة المحلية ، يرونك قبور أزواجهم وأخواتهم ، الذين قتلوا فى العمل ضد العرب ، والأنصاب القائمة للذين سقطوا ، أقامها النحاتون المحليون

(بعضهم يتمتع بشهرة عالمية) . واذا تصادف ان وصلت الى كيبوتز بعد الغسق ، فان الحارس الذى يستوقفك وفى يده بندقيته الآلية عند بوابة الكيبوتز قد يكون فتاة فى الثامنة عشرة ، وأغلب الكيبوتزات قريبة من الحدود ، وعليها تقيم اسرائيل كل خططها للدفاع عسكريا ومعنويا .

إن معاقل الاشتراكية الخيالية فى اسرائيل متحفزة بالبنادق الآلية.



تتأثر نظرة اسرائيل الثقافية تأثرا شديدا بالتغيرات فى تركيب الشعب . ففى ظل الانتداب البريطانى ، كان اليهود الذين ينتمون الى أصول أوروبية يشكلون الأغلبية الساحقة ، أما الآن فليسوا سوى أقلية ، فالمهاجرون من آسيا وأفريقيا ، يشكلون أكثر من خمسين بالمئة من شعب اسرائيل .

إن اليهود القادمين من شمال افريقيا الفرنسية ، ذوى النظرة نصف العربية نصف الفرنسية ، يجلسون مع عائلاتهم أمام أكواخهم وحوانيتهم التى استولوا عليها من أصحابها العرب ؛ الآباء يتحدثون فى شئون الحوانيت ، ويتحدثون عن مزايا ومساوىء العودة الى المغرب أو تونس . بينما أبناؤهم يقرأون ويناقشون العدد الأخير من مجلة «نوفيل ليترير» الباريسية . ثم هناك يهود إيران بملابسهم

المصنوعة من القراء الأسود ويهود العراق ويهود تركيا، بعضهم قد اكتسب صبغة غربية ، وبعضهم مازال محافظا على طابعه الشرقى . ويهود بخارى بملابسهم الحريرية البيضاء الواسعة التى يرتدونها فى أيام السبت ، ويطلقون لحى توراتية خفيفة . وأخيرا هناك اليمنيون بعيونهم السوداء البراقة وسوالفهم الطويلة السوداء المجعدة ، التى تتدلى عن رءوس محلوقة بالموس ، تزحم بناتهم أسواق العمل التى تعقد فى الهواء الطلق ، بحثا عن عمل كخادمات فى المنازل .

تروى قصة مجيء الطائرات المدنية البريطانية بأكثر من خمسة وأربعين الف يمنى الى اسرائيل ، مابين رجال ونساء وأطفال ، وقد صعدوا فرحين الى الطائرات التى لم يكونوا قد شاهدوها من قبل . كانوا يعتقدون أن هذه هى «أجنحة النسر الأبيض» التى كان مقدرا لهم ، حسب نبوءة قديمة ، أن يعودوا عليها الى الأراضى المقدسة ، عندما يعود المسيح . لكنهم عندما هبطت الطائرة أصابهم خوف قاتل عندما طلب منهم أن يصعدوا الى سيارات ستحملهم من المطار الاسرائيلى ، الى المعسكرات الانتقالية ، فلم يكن فى النبوءة ذكر لمثل هذه المركبات .

هنا لم يعد اليهود مجرد فائض أوروبا الذى قذفته الى آسيا ، كما كان الحال لسنوات طويلة ، فقد ساهم حوض البحر المتوسط ، وساهم جنوب الجزيرة العربية فى اسرائيل . لكن كيف يمكن أن يؤثر هذا

اللقاء بين الشرق والغرب على نظرة اسرائيل الثقافية ؟ فى القدس ، فى تل ابيب ، يسمع المرء كل انواع النظريات والتلفيقات . والبعض يشير الى نسبة المواليد العالية لدى اليهود الشرقيين ويتنبأ لاسرائيل بحتمية تمشرقها ، بينما يتوقع آخرون «مزيجا» وحضارة اسرائيلية جديدة . اما انا فأعتقد ان اليهود الغربيين سيتمثلون اليهود الشرقيين. انهم يمثلون الحضارة الارقى ، التى تقهر الحضارة الادنى عادة ، وهم بالفعل يقهرونها عبر المدرسة والجيش ، وكلاهما له أهميته الحاسمة فى توحيد لغة اسرائيل وثقافتها وعاداتها .

فى نفس الوقت يمكن ملاحظة عداوة معينة بين اليهودى الشرقى واليهودى الغربى . فاليهودى الغربى يتولى كل المراكز المهمة فى الوظائف المدنية والجيش والتعليم والصناعة والتجارة والمال . بينما يشعر اليهودى الشرقى انه مواطن من الدرجة الثانية ، ضحية للصلف والتمييز الاوروبيين (وفى بعض الاحيان يشكون من وجود حاجز لونى) . إن المظالم التى اعتدنا سماع اليهود يرددونها ضد غير اليهود تتردد هنا بين يهودى ويهودى . أن بعض اليهود الشرقيين يجدون أن وضعهم الاجتماعى أدنى منه فى بلدهم القديم . وعلي سبيل المثال ، ففى شمال افريقيا الفرنسية كان التاجر اليهودى فى مركز وسط بين المعمر الفرنسى وبين العربى المتخلف ، وكان يحتل مكانا فى وسط السلم الاجتماعى ، أما فى اسرائيل فإنه فى أسفل السلم . ففى

مواجهة اليهودى الأوروبى يجد نفسه فى وضع مماثل لوضع عرب شمال أفريقيا بالنسبة للفرنسى .

واليهودى الاوروبى يدرك حسد اليهودى الشرقى له وغضبه منه ، وفى بعض الاحيان يخاف منه ، بل أنه يمكن أن تسمع التشكيك بولائهم كمواطنين .

«اللع وحده يعلم ، فى وقت الأزمة قد يمدون اياديهم إلى العرب ، فليس هناك فرق كبير بينهم وبين العرب ، هل ثمة فارق !» .

وربما لم تكن هذه وجهة نظر تؤخذ مأخذ الجد ، لكنها تعكس وجود التوتر . كما أن البعض يعتقد أن عداء اليهود الشرقيين يمكن اشعاله واستغلاله مثلا من جانب التحريفيين (الصهاينة) وهو الحزب الفاشستى القومى ، والذى تبدو قوته الان تافهة ، وفى نفس الوقت تتحرك كل الاحزاب والزعماء ، وأعينهم على النصف الشرقى من الشعب ، فى محاولة لازالة حساسياتهم والتأثير فى معنوياتهم . وعندما يدعو بعض كبار الرسميين إلى اتباع سياسة خشنة نحو العرب لان الشرقيين أميل إلى اعتبار أى سياسة أخرى علامة ضعف ، فانه لا يكون فى حسابهم العرب وحدهم ، وانما الاسرائيليين الشرقيين ايضا . إن أعمال «الردع» التى تمارس ضد العرب ، بما فى ذلك مذبحة «قبية» استهدفت التأثير فى معنويات الاسرائيليين الشرقيين بقدر ما استهدفت إخضاع العرب .

إن أغلب اليهود الشرقيين ارثوذكسيون فى المسائل الدينية ، ويتبعون أحيانا قيادة حاخامات شرق أوروبا المتعصبين . ولقد كان

هذا هو الحال في المظاهرات الصاخبة ضد إدخال الخدمة العسكرية الاحتياطية للنساء . ومع ذلك فان أورثوذكسية اليهود الافريقيين والاسيويين تستوحى المحافظة الاجتماعية أكثر مما تستوحى التعصب الديني الاعمى ، وهي على اى حال أكثر مرونة وتسامحا من أورثوذكسية اليهود الأوروبيين . فان الحاخامات البولنديين والروس والليتوانيين هم بين أكثر المتعصبين الدينيين في العالم ضراوة ، وارتباطهم بـ الـ «مى شاريم» (المئة بوابة) يمثل تمسكا حقيقيا بالعصور الوسطى اليهودية .

وبرغم الاسم الذى يوحي بالآثار الشرقية الرومانتيكية ، فان «المئة بوابة» يرجع تاريخها فقط الى القرن الماضى . فقد نشأت فى ذلك الحى القديم من القدس الذى يستقر فيه عجائز اليهود المتدينون عندما يجيئون الى فلسطين ليموتوا في الارض المقدسة . وفى كل لحظة من النهار ، تردد صفوف من البيوت السكنية المزدحمة القذرة أنغام الصلوات وقراءات التلمود . وفي الـ «مى شاريم» يوجد من الكنائس ومدارس التلمود ، والحوانيت التى تبيع ادوات الطقوس الدينية قدرما يوجد فيها من مساكن . ويرتدى السكان ذوو اللحى الطويلة والعيون الغائمة والوجوه الشاحبة اردية طويلة سوداء ، حتى في اشد أوقات الحر . كذلك يفعل الصبيان الصغار الذين يتمتعون بدراسة معلقى التلمود على مرمى حجر من جبل صهيون . وهنا مازال شعار

الـ «ميشنا» (اساس التلمود – وهو مجموعة شرائع غير مكتوبة) الرهيب فى كامل قوته ، ذلك الشعار الذى يقول انها خطيئة قاتلة ان يقول اليهودى : «أنظر ، ما أجمل تلك الشجرة هناك» ، لأن الاله وحده هو الذى يجوز ان يكون موضع الأعجاب . ويتجه رجال بل صبيان الـ «مى شاريم» بأنظارهم الى انفسهم او الى أسفل ، وبذلك يتجنبون القاء نظرة خاطئة على الشجرة او على المرأة العابرة . هنا يمكن طرد المارق من الكنيس على صوت قرن الخروف وعلى ضوء شمعة ، لأنه اين يمكن تنفيذ القانون الحاخامى بكل تشدده ان لم يكن بقرب الـ Gan Himan .

كل يوم جمعة قبل الغسق يحتل المتعصبون من الـ «مى شاريم» الممر المؤدى من وسط المدينة الى احيائهم ويستقبلون يوم السبت برقص محموم ، ويوقفون حركة المرور كلها حتى الليلة التالية ، وويل للعابر الذى يغامر بالسير في يوم سبت في شوارع «مى شاريم» الملتوية وفى فمه غليونه او فى ذراعه فتاة . فلسوف يتساقط عليه وابل من الأحجار لان الـ «مى شاريم» يؤمنون برجم الخاطىء طبقا للتوراة . واذا غامر طبيب فى سيارة او سيارة اسعاف بالسير فى هذه الشوارع الملتوية فى يوم سبت ، فسيسقط عليه ايضا وابل من الاحجار .

ان الـ «مى شاريم» مهمة ، ليس بسبب «لونها المحلى» الغريب لكن

بسبب نفوذها على مناخ اسرائيل الفكرى . ولا يجوز التقليل من قيمة ذلك النفوذ ، فالكيبوتز والـ «مى شاريم» ، هما العمادان المتعارضان لحياة اسرائيل الروحية . و«المفكرون الاحرار» و«المناضلون التقدميون»، من اليهود ، يتضاءلون جدا عندما يتركون وحدهم مع الارثوذكس اليهود . وهكذا فانه في اسرائيل مازالت الشريعة التلمودية تحكم علاقات الزواج والاسرة . وليس هذا الا بعض من الحيز من الحياة اليهودية الواقع تحت سيطرتها ، فحتى وقت قريب جدا ، كان حاخام ارثوذكسى من الطراز القديم ، يكاد يكون بلا تعليم علمانى على الاطلاق ، عميدا لكلية الحقوق فى جامعة اورشليم . وفي كل خطوة يلتقى الانسان بشاهد يدعم التهمة القائمة القائلة بأن فى اسرائيل ماهو اكثر بكثير من لمسة لاهوتية قديمة .

ولقد ناقشت ذلك مع رئيس تحرير صحيفة يسارية رفيعة الثقافة ، وهو كاتب موهوب ترجم شكسبير الى العبرية ، واعترض بشىء من الحرارة على ملحوظة بأن اسرائيل واقعة تحت السيطرة الروحية لـ «مى شاريم» . لكنه عندما الححت عليه بالاسئلة ، اعترف بأن الاسرائيليين قدموا للارثوذكسية الدينية تقديرا غير قليل . ولنأخذ مثلا مضحكا مبكيا : انه لايجوز لهم ان يقوموا بتربية الخنازير ، رغم ان تربية الخنازير يمكن ان تحل بسرعة مشكلة اسرائيل الغذائية وتصحح ميزان المدفوعات . ان الـ «كيرين كايمت» (الصندوق القومى)

الذى يملك معظم الاراضى ، يؤجرها بشرط صريح ينص على ان المستأجر لن يربى خنازير ، وهكذا فان الكيبوتز اللادينى المنتمى الى اقصى اليسار عليه ان يمتثل لارادة الحاخامات . لقد حاول المحرر فى البداية ان يجد مبررات «تقدمية» من كل لون ، لكن وجهه احمر اخيرا وفقد اعصابه وصاح :

«هل تقترح حقيقة انه لكى نحل مشكلتنا الاقتصادية ، يجب ان نسمح بتربية الخنازير فى هذه الارض المقدسة ؟ أبدا ، أبدا ، أبدا !»

★★★

إن كثيرا من الاسرائيليين الذين عرفونى عدوا مزمنا للصهيونية ، يتطلعون الان بفضول ليسمعوا رأيى فى الصهيونية ، وانا بالطبع قد تخليت منذ زمن طويل عن عدائى للصهيونية ، ذلك العداء الذى كان مبنيا على الثقة بالحركة العمالية الأوروبية ، أو على قاعدة اعرض من الثقة بالمجتمع الأوروبى والحضارة الأوروبية ، وهى ثقة لم توفها تلك الحضارة حقها ، ولو اننى بدل الجدل ضد الصهيونية فى العشرينيات والثلاثينيات ، كنت قد دعوت اليهود الاوروبيين للهجرة الى فلسطين ، ربما كنت قد ساعدت فى انقاذ بعض الأرواح التى ابيدت بعد ذلك فى غرف الغاز الهتلرية .

بالنسبة لبقايا يهود اوروبا (هل هذا بالنسبة لهم فقط؟) اصبحت الدولة اليهودية ضرورة تاريخية ، وهى حقيقة حية ايضا . ايا كانت

انقساماتهم ومصائبهم وفشلهم، ، فان يهود اسرائيل . ينعشهم احساس قوى وطازج بالقومية وتصميم عنيد على تدعيم وتقوية دولتهم بكل ما فى متناولهم من وسائل ، كما ان لديهم الشعور - المبرر - بأن «العالم المتحضر» الذي يحمل في ضميره مصير يهود اوروبا على نحو او آخر ، لايجد له ارضا معنوية يقف عليها ، عندما يحاول ان يوبخ او يهدد اسرائيل بسبب اى خرق حقيقى او متخيل للالتزامات الدولية .

ومع ذلك ، فأنا الان ، لست صهيونيا ، وقد قلت ذلك مرارا علنا وفى احاديث خاصة ، والاسرائيليون يقبلون ذلك بتسامح غير متوقع ، لكنهم يبدون حائرين .

يسألون : «كيف يمكن الا تعتنق الصهيونية ؟ اذا كان المرء يعترف بدولة اسرائيل كضرورة تاريخية ؟»

وياله من سؤال صعب وأليم !

من سفينة محترقة او غارقة ، يقفز الناس ، لا يهم الى اين ، الى قارب نجاة ، الى طوف ، او الى خشبة . ان القفز بالنسبة لهم «ضرورة تاريخية» والطوف على نحو ما ، هو اساس وجودهم كله . لكن هل ينبنى على ذلك ان يصبح القفز برنامجا ، او ان يتخذ المرء من «دولة طوف» اساسا لفكر سياسى ؟

وفى رأيى انها مأساة يهودية أخرى ان العالم قد اضطر اليهود

الى البحث عن الأمان فى دولة قومية ، فى وسط هذا القرن ، حيث تتجه الدولة القومية الى التحلل .

لمدى عدة قرون ، كان كل تطور تقدمى فى حياة الأمم الغربية مرتبطا بتكون ونمو الدولة القومية او بحركة الدولة القومية . ولم يكن اليهودى مرتبطا بتلك الحركة ولم يستفد منها ، بقى سجين كنيسه وولاءاته الدينية . بينما جعل الانسان الغربى الولاءات الدينية تابعة للولاءات القومية ووجد وضعه داخل امته بدلا من داخل الكنيسة، والآن فقط ، عندما لم يعد وضع الانسان ينمو داخل الامة ، وعندما اصبح لايجد نفسه الا فى نطاق مجتمع اكبر من القومى ، وجد اليهودى امته ودولته ، يالها من مفارقة محزنة .

يقول أصدقائى الاسرائيليون : «لكن أرنا تلك الامة التى تخلت عن دولتها من أجل حكم كوسموبوليتى أو أممى»

لم يفعل احد ذلك طبعا ، ولم يدر بخلدى ان اقنع الاسرائيليين بأن يفعلوا ذلك ، لكن المسألة هى ان الدولة القومية تتآكل وتتقلص ، سواء ادرك الناس ذلك ام لا ، ولا اهمية لجهودهم للابقاء عليها ، وهو تطور عالمى مهما تنوعت مظاهره المحلية . ان قدرا كبيرا من قوة الكتلة السوفيتية متضمن فى سعيها لان توحد اقتصاد الرقعة الممتدة من وسط اوروبا الى بحار الصين وتوحد القوى الانتاجية للثمانمئة مليون الذين يسكنون المنطقة ، ولتحقيق ذلك حولت السياسة

الستالينية السيادة القومية الى خدعة ، رغم انها تركت رموزها الخارجية سليمة . وتحتفظ الدول القومية الغربية بما هو أكثر من الواجهات الرمزية ، لكنها ايضا ، قد تخطت عصرها الذهبى بكثير جدا . وماتمسكها بسيادتها في أغلب الأحوال الا مصدر ضعفها ، وكأى جهاز عصرى عاش أكثر من عمره ، لاتستطيع الدولة القومية ان تطيل بقاءها ، الا بزيادة وتيرة عمليات انحطاطها . ولقد وجدت الدولة القومية فى الرايخ الثالث اوجها ودركها الأسفل معا ، مجدها وقداسها الحزين معا ، وعندما تنضم اسرائيل الان الى الدول القومية، لاتملك الا ان تشاطرها تحللها .

ولو شاء أحد ان يضع كتابا ساخرا عن الدولة القومية ، فلن يخرج بشيء أفضل من دولة اسرائيل ، بكل ممراتها ونتوءاتها وأعناقها ومثلثاتها الغريبة ، التى رسمها اساتذة الرسم فى الامم المتحدة .

والعادة ان لامعقولية الدولة القومية تتركز فى حدودها وحواجزها الجمركية ، حيث تنفصل امة عن امة . اما فى داخل الحدود ، فوق عشرات او مئات او آلاف من الاميال المربعة ، فيبنى الناس بيوتهم ، ووجودهم العادى على نحو او آخر ، وفقط فيما بعد هذه المساحات ، عند الحد الآخر يحدق فى وجهك مرة أخرى جنون الدولة القومية الصارخ . اما فى اسرائيل فلا تستطيع ابدا ان تهرب من النظرة المجنونة : اينما ذهبت فأنت عند حد من الحدود .

«انظر ، على التل هناك ، يوجد السوريون!»

«العرب الاردنيون يتسللون من هذا الوادى ليلة بعد ليلة !»

«هنالك يسير الحارس المصرى»

«انظر الى هذا الممر هنا ، انه يأخذك مباشرة الى لبنان ، على بعد ثلاثين ياردة من هنا !» .

«لقد بنينا محطة الكهرباء هذه تحت الارض والا تهدمت فى اول الحرب»

«هنا تسير خطوطنا الحديدية ثلاث مرات فى أراض أجنبية».

«على هذا الطريق لا تسافر بعد الغسق ، فانه قريب جدا من الحدود».

وفى القدس ، اخذنى موشى شاريت ، رئيس الوزراء ووزير الخارجية ، الى نافذة مكتبه وأرانى كثيبا رمليا فى الخارج يقسمه حزام من السلك الشائك . ان الحد الاردنى – الاسرائيلى ، او خط الهدنة ، يمر على أقل من مرمى حجر من هنا . ان وزير الخارجية ، عليه فقط ان يرفع رأسه من على مكتبه لكى يواجه «العدو» . واذا كان للأجيال اللاحقة ان تقيم متحفا لعبث الدولة القومية ، فعليها ان تعرض صورة لهذا المنظر من مكتب رئيس الوزراء ، ويجب ايضا ان تعرض السلك الشائك الذى يقسم ارض المستشفى الفرنسى فى القدس ،

وأكشاك الحراسة على الحائط القديم في مواجهة جبل صهيون ، وصور الاطفال الذين يسقطون صرعى الرصاص وهم يلعبون خارج بيوتهم بين شبكات السلك الشائك . لقد جاءت حماقة الدولة القومية الى القدس ، وقسمت مهد ديانات العالم قسمين .

بأية مقاييس عادية ، يعتبر اقتصاد اسرائيل مفلسا . فصادراتها تغطى تكلفة جــــزء صغير فقط من الواردات . ومعظم العجز يدفع من جيب اليهود الامريكيين المتضخم ومن المعـــونة الحكومية الامريكية ، فاسرائيل تشترى طعاما ومواد خام غالية بالجنيهات والدولارات ، وتجتهد ان تجد اسواقا بعيدة لمنتجاتها ، وفى سالف الأيام كانت الطرق من فلسطين الى جاراتها العربية ، تزدحم بالشاحنات تحمل الطعام من البلدان العـــربية الى فلسطين وتحمل لهم الســـلع الصناعية ، اما الأن فان التجارة راكدة لأن الدول العربية ترفض الاعتراف بوجود اسرائيل السياسى وتصر على مقاطعتها .

تعانى اسرائيل الغاما مدفونة فى اساسها ذاته . تلك هى مظالم مئات وآلاف من العرب المطرودين . ولا يستطيع المرء بنزاهة ان يلوم اليهود على ذلك ، فالناس الذين يطاردهم وحش فيجرون لانقاذ أرواحهم لايستطيعون تجنب ايذاء من فى طريقهم ولاتجنب التعثر فوق متاعهم . ويشعر اليهود ان ما ألحقوه بالعرب من اذى هو عبث

اطفال بالقياس الى مأساتهم هم . وهذا صحيح ، لكنه لايمنع العرب من التلظى بأحزانهم واعداد الثأر . وفى نظر الاسرائيليين ، فلسطين يهودية ولم تكف ابدا عن ان تكون كذلك . وفى نظر العرب ، اليهود معتدون ودخلاء وسيظلون كذلك لزمن طويل . وطالما يجرى البحث عن حل للمشكلة على اسس قومية ، مقدر على العرب واليهود معا ان يتحركوا ضمن دائرة مفرغة من الكراهية والثأر . والعرب يقتلون نساء واطفال يهود ، واليهود يرتكبون مذبحة «قبية» ، والعرب يرقبون تحولا فى شئون الشرق الأوسط يسمح لهم بسحق اسرائيل ، والى ان يحين ذلك يترصدون باهتمام اى خطوة خاطئة قد تتخذها اسرائيل ، وأمل اسرائيل هو ان تظل الدول العربية متخلفة ، متراخية ، فاسدة ، وبلا اصدقاء ، مثلما كانت اثناء الحرب العربية – اليهودية ، والا فان الاسرائيليين ، حتى لو زادوا ثلاثة اضعاف ، لن يستطيعوا الحفاظ على اراضيهم فى مواجهة اربعين مليون عربى . وكل جانب يرى أمنه ورخاؤه ، فى انعدام أمن وخراب وكارثة الاخر. ولايبدو ان هناك مخرج عاجل من هذا المأزق ، أما على المدى الطويل ، فقد يوجد مخرج فيما وراء الدولة القومية ، ربما فى ظل نطاق اوسع يتمثل فى أتحاد فيدرالى للشرق الأوسط ، وعندئذ تلعب اسرائيل ، بين الدول العربية دورا من التواضع يناسب عددها ، ومن

التواضع يوازى مكنوتاها الفكرية والروحية ، وقد قيل ان هذه الفكرة بدأت تكسب أرضا بين الساسة والمفكرين السياسيين الشبان على الجانبين ، لكن لايحتمل ان تكسب كثيرا من الأرض في المستقبل القريب . فاليهود مازالوا مغرقين فى السكر بدولتهم القومية التى كسبوها حديثا ، والعرب تسيطر عليهم مظالمهم تماما الى حد يمنعهم من النظر بعيدا الى الامام . ان اى مؤسسة مافوق قومية ، كاتحاد فيدرالى للشرق الأوسط هى موسيقى المستقبل المفرحة لكليهما .

لكن فى بعض الاحيان تكون موسيقى المستقبل هى وحدها التى تستحق الانصات .

٦- الذكرى العاشرة لقيام اسرائيل (١)

يوشك الاسرائيليون من «دان الى بئر سبع» على الاحتفال بالذكرى العاشرة لقيام دولتهم . وهم يستعيدون باعتزاز بالغ البطولة التى حمل بها رجالهم ونساؤهم السلاح فى ربيع ١٩٤٨ ، وانتزعوا الاستقلال وصفة الدولة من العرب والبريطانيين وسياسات الدول الكبرى المترددة والمتآمرة . كما انهم يلتفتون وراءهم برضا وثقة الى سجل العقد الأول من عمر اسرائيل ، وهو سجل ملىء بالمنجزات فى بناء حياة وثقافة وطنية .

والحقيقة . ان قيام اسرائيل ، مثل كل تاريخ اليهود الطويل والدرامى ، هو ظاهرة فريدة فى نوعها ، أعجوبة ومعجزة فى التاريخ ، يقف امامها اليهودى وغير اليهودى معا فى جلال ودهشة ، يتأملان مغزاها . هذه هى المادة التى خلقت منها فى مراحل أسبق الأساطير والخوارق البطولية العظيمة مثل اساطير المكابيين .

---

(١) الأوبزرفر ، أبريل (نيسان) ١٩٥٨ .

لذلك فليس مدعاة للدهشة ان ينظر الاسرائيليون الى تجربتهم بشيء من التمجيد المبالغ فيه . فمثلا يقول السيد ابا ايبان ، أحد ساستهم البلغاء : «ماذا تكون اسرائيل سوى اتحاد هذا الشعب والارض واللغة فى تحقيق سام لدورة التاريخ ، جسرا ألقى عبر خليج القارات والأجيال ليكون رمزا لوحدة التجربة التاريخية كلها ؟» . ومع ذلك فلا يفوت المرء ان هذا التفسير الرومانتيكى المهيب لأصول اسرائيل ومعناها غير كاف . أنه يحيط الحقائق التى كنا جميعا شهودا لها ، بضباب ذهبى من الخيال ، ويلقى قناعا من الخيال فوق حقائق الماضى القريب ، وقد يستحضر امام اسرائيل آفاقا غير حقيقية وخطرة .

فنحن لم نعد نعيش فى عصر الاسطورة البطولية ، فكل الاساطير التى قذف بها عصرنا كانت رثة وقصيرة العمر . ان دولة اسرائيل رغم تفردها فى العالم المعاصر . لم تأت الى الوجود «كتحقيق سام لدورة التاريخ ... لتكون رمزا لوحدة التجربة التاريخية كلها» فليس حنين اليهود الدينى الى ارضهم الموعودة هو الذى منحها الميلاد ، ماهى الحقائق ؟

قبل حلول النازية ، بل وبعدها ، كانت الأغلبية الساحقة من اليهود ترفض نداء الصهيونية ، حتى فى شرق اوروبا ، حيث كانوا يشكلون

تجمعات كبيرة متماسكة ، يتحدثون لغتهم الخاصة ، ويطورون ثقافتهم وأدبهم ويعانون من تفرقة وحشية ، كانوا يعتبرون انفسهم مواطنين للبلدان التى يعيشون فيها ، وليس لذلك الوطن اليهودى فى فلسطين . ان نصف يهود اوروبا الشرقية ، خصوصا حركتها العمالية الضخمة النشطة ، كانت تنظر الى فكرة مثل هذا الوطن بعداء واع لاينكر . كانت الصهيونية هى الصوفية الوطنية للطبقة الوسطى اليهودية ، والتى لم تكن مستعدة مع ذلك ، ان تتخلى عن اوضاعها المستقرة وتقتلع نفسها من اجل الحلم الصهيونى . ومع ذلك فقد شكل يهود شرق اوروبا الخزان الرئيسى الذى حصلت منه الصهيونية على دعمها ، فمن هناك جاء أغلب القادة والرواد والجنود . اما فى سائر البقاع الاخرى فقد كانت الاستجابة الى الصهيونية اضعف نسبيا .

قد يقول الصهاينة : من ذا الذى ينكر ذلك ؟ ان يهود اوروبا كان يمكن ان ينجوا لو أنهم اتبعوا نداء الصهيونية والحقيقة ان عداء يهود اوروبا او فتورهم نحو فكرة الوطن اليهودى ، كان ينبع من ثقتهم بالأمم التى كانوا يعيشون بينها ، ومن ثقتهم العميقة فى التقاليد والتطلعات الانسانية للحضارة الأوروبية . وكانت الصهيونية

ترى ، الا مستقبل لليهود فى اوروبا ، لقد كانت التعبير السياسى عن عدم ثقة اليهودى بالعالم غير اليهودى .

ان عار اوروبا الابدى قد برر عدم الثقة ذاك نفسه على افضل وجه، وفقط بعد ان اصبح ذلك واضحا مرعبا ، بعد ان هلك في غرف الغاز ستة ملايين من مجموع خمسة عشر مليونا من اليهود ، وبعد ان رأى الاسرائيليون البريطانيين يطاردون حول سواحل فلسطين سفنا متسللة محملة بحطام يهود اوروبا ، بعد ذلك فقط اصبحت اسرائيل حقيقة قائمة . لقد جاءت الى الوجود ليس «كتحقيق سام لدورة التاريخ » وانما كعمل من اعمال اليأس اليهودى . وكشاهد على أكثر مراحل التاريخ الأوروبى كآبة ، مرحلة من الجنون والتدهور .

وبلغة السياسات العملية ، تدين اسرائيل بوجودها وبقائها إلى توافق غريب فى الظروف، لايكاد يلحظ عندما ينظر إلى الأحداث من علياء القومية الرومانتيكية. إن المؤرخين الاسرائيليين، وهذا أمر مفهوم، يعالجون شجاعة وأصالة ومآثر البالماخ (فيلق الدفاع اليهودى الصغير، الذى أوقع الهزيمة بعدة جيوش عربية رغم حصارها له وتفوقها العددى عليه) ومع ذلك، فقد حظى الاسرائيليون ببعض العوامل المؤاتية.

كان العرب متخلفين تماما، منقسمين ضد بعضهم البعض، وبلا أصدقاء، وكانت بريطانيا وامبراطوريتها تتحلل، وتنسحب من الشرق الأوسط، وكانت الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي، العدوان الرئيسيان فى المرحلة الجديدة، متحدين مؤقتا ضد بريطانيا، وضغطا عليها لتنسحب مسافات أبعد. ورغم أن اليهود كانوا هم الأقل عددا، الا انهم استفادوا من مزايا التنظيم والتدريب الاوروبيين الأكثر تفوقا. وكانوا يحصلون على عصب حرب استقلالهم والسلاح الذى حاربوا به من الولايات المتحدة ومن شرق أوروبا. وربما اختلفت نتيجة الصراع لو أن العرب كانوا أقل انقساما أو أفضل تسليحا وأفضل تدريبا. ولو لم تكن بريطانيا فى تراجع، ولو أن أيا من الاتحاد السوفيتى أو الولايات المتحدة قد ساند العرب.

ولقد كان فعل الظروف المؤاتى انتقاليا بطبيعته. ويبدو أن قادة إسرائيل ينسون ذلك، وعن وعى أو غير وعى يعكسون ظروف ١٩٤٨ على مستقبل غير مطمئن. وعلى هذا الانعكاس يقيمون سياستهم. انهم خائفون إلى حد ما من المساندة التى منحها الاتحاد السوفيتى أخيرا للقومية العربية. يبدو القادة الاسرائيليين واثقين من أنهم على نحو ما سيجدون دائما اصدقاء أقوياء فى العالم، ويعتقدون أن جيرانهم العرب سيظلون إلى الأبد أو على أى الأحوال لزمن طويل، متخلفين ومنقسمين مثلما كانوا منذ عشر سنوات مضت.

كأنهم أصيبوا بعدوى الغرور والترفع الأوروبى نحو الآسيويين والافريقيين (وهو ترفع يشفى منه الأوروبيون أنفسهم بالتأكيد خلال تجربة مرة). يقلل الاسرائيليون بوضوح من امكانيات جيرانهم ومن قدرتهم على التقدم. ويبدو بن جوريون كأحد أواخر مستودعات فلسفة عبء الرجل الأبيض، لاشك ان مغامرة السويس. والتقدير الضئيل الذى أعطاه المصريون لأنفسهم، تميل إلى تأكيد غرور الاسرائيليين، واذا كان الأمر كذلك، فإن نجاح السلاح الاسرائيلى فى صحراء سيناء سيكون أكثر وبالا على الاسرائيليين من الهزيمة بكثير.

هنا تأتى عقدة علاقة اسرائيل بالعالم: موقفها من الأمم الناهضة فى آسيا وافريقيا. فعندما ينتقد المرء سياسية اسرائيل. يلقى جوابا بأن قيام اسرائيل يجب أن ينظر اليه كجزء من يقظة الشعوب المستعمرة وشبه المستعمرة. فيقول كاتب صهيونى تقدمى: على كل، هذا (النقد) ينطبق على آسيا وافريقيا كلها تقريبا. ان اسرائيل ليست وحدها، هناك الهند وبورما، وسيلان وغانا ونيجيريا. والمغرب وتونس وليبيا والسودان. والعملية مستمرة.

هنا مرة أخرى تختلط الاسطورة بالحقيقة. ان خروج الهند وبورما وغانا.. الخ من التبعية الاستعمارية الى وضع الدولة المستقلة. كان تطورا عضويا اجتماعيا وسياسيا بطريقة لم يكن بها قيام

اسرائيل كذلك. فعندما قامت إسرائيل، وجدت نفسها في صراع ظاهر أو كامن، مع عدد كبير من الدول الناشئة في آسيا وافريقيا. ولايمكن أن تجمع إسرائيل بين الأمرين. فتقدم نفسها كواحدة من تلك الأمم، وتزعم لنفسها ما لهم من حقوق، وتتبع في نفس الوقت مصالحها الخاصة الحقيقية او المتصورة، في تعارض ثابت معهم، او في تعال مغرور.

هذا التعارض يرجع جزئيا الى الظروف التي ولدت فيها إسرائيل، ففي لحظة ميلادها لم تستطع أن تتجنب الاستحواذ على حقوق العرب. لكن كان يمكنها ويجب عليها ان تفعل، وهذا في صالحها، كل ما في مقدورها لتجبر مظالم العرب وتخفف العداء. بدلا من ذلك، فعلت اسرائيل تقريبا كل من شأنه تشديد العداء واستمراره، وكان أبلغ مافعلت من هذا القبيل هو غزو سيناء. وفي الحساب الختامي للعقد الأول من عمر إسرائيل، تقف هذه الحملة كدين كبير وخطير، يمكن في أي وقت أن يفوق كل الأرصدة الحسنة، ولاتستطيع اسرائيل، في المدى الطويل، أن تبقى على حدود آسيا وافريقيا. وفي نزاع مع آسيا وافريقيا. لقد أصبحت ملاذا يأوي من بقي من يهود أوروبا فعليها ألا تصبح فخ موت لهم!

انها لمفارقة حزينة من مفارقات التاريخ ان اليهود لم يحصلوا على صفة الدولة إلا في منتصف هذا القرن، حيث تتضح أكثر فأكثر،

من سنة إلى أخرى، ايلولة الدولة القومية الى الزوال، ان اليهود لم يكونوا مرتبطين بالدولة القومية فى ذروتها، عندما كانت بالنسبة لكثيرين عاملا من عوامل التقدم المادى والمعنوى، عندما كانت شاهد تقدم على خصوصيات العصور الوسطى، عندما كنست انقاض الاقطاع، وساعدت على تحرير الاوروبيين من القيد الروحى الى الكنيسة، ولقد أعطت اليهودية الحديثة لأوروبا، أعظم رواد النظرة العالمية للإنسان، من سبينوزا الى ماركس، من حيث أن أفاقها الذهنية لم تكن محدودة بالكنيس او السوق.

لقد كان اليهود مهيئين بظروف وجودهم للسمو فوق حدود النظرة القومية، والتغلب على طقوس الدولة او الامبراطورية، والتطلع إلى نمو اشكال «فوق - قومية» للوجود الاجتماعى، ومع ذلك، فالآن، والدولة القومية تتحلل، وهى تصبح مفارقة تاريخية فات زمانها، مثلما كانت الامارات الاقطاعية ذات يوم، وعندما جعلت الثورة المستمرة فى التقنية العثور على أشكال الوجود فوق - قومية، مسألة حياة أو موت للبشرية، يستثمر اليهود حماسهم غير المحدود ومواهبهم العظيمة فى دولتهم القومية وفى قوميتهم الخاصة.

هذه ليست غلطتهم، وليس للعالم غير اليهودى اى حق أدبى فى لومهم، لكن المفارقة قائمة، وقد يصبح اليهود أكثر ادراكا لها مما هم

الآن، صحيح، لايتوقع أحد من إسرائيل أن تعطى العالم المثل فى التخلى عن الدولة القومية من اجل أشكال أرقى من التنظيم الاجتماعى، لكن يجب أن يتبنى الاسرائيليون على الأقل موقفا أكثر وعيا بمأزقهم وبما أمامهم من فرص، وان يحذروا ان تجرفهم قوميتهم العصرية والمتوهجة، كما أن عليهم أن يعتادوا فكرة أن دولتهم ليست فوق النقد. انها خلق ارض وليست حرمة انجيلية، ليست دولة قومية «مختارة».

مرة أخرى، يجب أن نذكر أنفسنا بقوميات الأمم الأخرى الشابة، بقومية الهنود والمصريين، وهكذا. فالتناقض فى حالة اى منهم ليس صارخا الى هذا الحد، فليس لأى من هذه الشعوب تراث كوسموبوليتى أو أممى يقارن بالتراث اليهودى. وقومية هذه الشعوب بالطبع، مفتوحة لنفس أوجه النقد والاعتراض.

إن حماس شعب يجتهد لتحرير نفسه من الحكم الأجنبى يستحق الاحترام والاعجاب، ولكن كثيرا جدا ما يحدث أن بعد كسب التحرر، يستمر الحماس تزايدا ثم يساء استخدامه ويسخر من أجل سياسات أقل احتراما بكثير. بالنسبة لشعب تابع، تعتبر الدولة المستقلة ضرورة حيوية، وخطوة تقدم، لكن ما أن يصل هذا الشعب الى مرحلة الاستقلال، لايكون هناك ما هو أكثر انتكاسا له من ان

يثبت ذهنه على تلك المرحلة. ويرفض النظر إلى ما بعدها. إن قومية الشعب المستقل، لاتستطيع أن تزعم لنفسها التبرير الذى تدعيه لنفسها وطنية الشعب المقهور.

هذه ليست مسألة مبدأ مجرد فحسب. إن مستقبل إسرائيل يتوقف على ما إذا كان الاسرائيليون متيقظين ضد الغرور القومى وقادرين على ايجاد لغة مشتركة مع الشعوب المحيطة بهم، هل سيجدونها فى العقد الثانى من وجود دولتهم؟

٧ - الحرب الإسرائيلية - العربية ، يونيو / حزيران ١٩٦٧[(١)]

لم تحل الحرب و«معجزة» انتصار اسرائيل أيا من المشاكل التى تواجه اسرائيل والدول العربية، بل أنها. على العكس. قد زادت القضايا القديمة حدة، وخلقت قضايا جديدة أكثر خطرا، انهما لم يزيدا أمن إسرائيل بل جعلاه أكثر تعرضا مما كان قبل ٥ يونيو ١٩٦٧، ان «إعجوبة الأيام الستة»، ذلك النصر الأخير السهل للسلاح الاسرائيلى، سينظر اليه ذات يوم، ليس فى المستقبل البعيد، على أنه كارثة فى المحل الأول على اسرائيل نفسها.

لنتأمل الخلفية الدولية، يجب أن ننسب هذه الحرب الى صراع الدول الكبرى، وإلى المنازعات العقائدية فى العالم الذى يشكل بيئتها، ففى تلك السنوات الأخيرة، اشتبكت الامبريالية الأمريكية والقوى

(١) حديث أدلى به دويتشر إلى مجلة «نيولفت ريفيــو» فى٢٣ يونيو ١٩٦٧ .

المرتبطة بهـا والقـوى المؤيدة منهـا، فى عـدوان سـيـاسـى وعـقـائدى واقتصـادى واسع على مساحة كبيرة من آسيا وافريقيا، بينما القوى المعادية للتغلغل الامريكى، وفى مقدمتها الاتحاد السوفيتى، حافظت بالكاد على أرضـهـا، او تراجـعت، وقـد نبـع هذا الاتـجـاه من سلسلة طويلة من الأحداث؛ التمرد الذى وقع فى غانا وأطاح بحكومة نكروما، نموّ الرجعية فى عديد من البلدان الافروآسيوية، الانتصـار الدامى الذى أحرزته القوى المعادية للشيوعية فى اندونيسيـا، والذى كان انتصارا ضخما للثورة المضادة فى اسيا، تصعيد الحرب فى فيتنام، والانقلاب العسكرى اليمينى فى اليونان . ولم تكن الحرب العربية - الاسرائيلية حدثا معزولا، فهى تنتمى إلى تلك الفئة من الاحداث . ان الاتجاه المضاد قد عبر عن نفسه فى قلق ثورى فى أجزاء متعددة من الهند، وفى اتجاه المزاج السياسى فى البلدان العربية نحو المزيد من الجذرية، وفى النضال الفعال للجبهة الوطنية لتحرير فيتنام، وفى نمو المعارضة العالمية للتدخل الامريكى. ان تقدم الامبريالية الامريكية والثورة المضادة الافروآسيوية، لم يتم دون معارضة، لكن نجاحه فى كل مكان، عدا فيتنام، كان واضحا.

أما فى الشرق الأوسط فإن الاندفاع الامريكى الى الامام، كان حديثا نسبيا، فأثناء حرب السويس كانت الولايات المتحدة مازالت تتبنى الموقف «المضاد للاستعمار»، وتصرفت بتوافق ظاهر مع

الاتحاد السوفيتى، لتحقيق الانسحاب البريطانى - الفرنسى، وكان منطق السياسية الامريكية مازال هو منطق أواخر الاربعينيات، عندما كانت دولة إسرائيل فى دور القيام. وطالما أن الطبقة الأمريكية الحاكمة. كانت مهتمة أساسا باخراج الدول الاستعمارية القديمة من افريقيا وآسيا. كان البيت الأبيض مقرا «للعداء للاستعمار». ولكن بعد أن ساهمت الولايات المتحدة فى انهيار الامبراطوريات القديمة. أصبحت تخشى «الفراغ»، الذى قد تملؤه القوى الثورية المحلية أو الاتحاد السوفيتى أو مزيج منهما، فانطفأ العداء الأمريكى للاستعمار. و«دخلته أمريكا». وفى الشرق الأوسط، حدث ذلك فى الفترة ما بين أزمة السويس والحرب الاسرائيلية الأخيرة، وكان الانزال العسكرى الامريكى فى لبنان فى عام ١٩٥٨، مقصودا به أن يكبح مدا ثوريا عاليا فى تلك المنطقة، خصوصا فى العراق. ومنذ ذلك الوقت والولايات المتحدة تتجنب اى تورط عسكرى مباشر فى الشرق الأوسط، معتمدة بلا شك الى حد ما على «الاعتدال» السوفيتى، فحافظت على موقف من التجرد، لكن هذا الموقف لايقلل من حقيقة الوجود الامريكى هناك .

★★★

لقد تصرف الاسرائيليون ، بالطبع، حسب دوافعهم الخاصة، وليس لمجرد التلاؤم مع مطالب السياسة الأمريكية. ولا حاجة الى الشك فى كون القادة الاسرائيليين والجمهرة العظمى منهم، يعتقدون انهم مهددون بالعداء العربى، وواضح ان بعض التصريحات العربية «المتعطشة للدماء» عن «محو إسرائيل من الخارطة» جعلت أبدان الاسرائيليين تقشعر، ان الاسرائيليين تنتابهم ذكريات المأساة اليهودية فى أوروبا، وهم الآن يشعرون انهم معزولون ومحاطون بملايين «محتشدة» من عالم عربى معاد. ولم يكن هناك ما هو أسهل على دعاتهم، تعاونهم مبالغات العرب اللفظية، من أن يثيروا الخوف من «حل نهائى» آخر يهدد اليهود، فى آسيا هذه المرة. واستحضر الدعاة الأساطير الدينية، والرموز الدينية – القومية العتيقة كلها من التاريخ اليهودى، واستنفروا ذلك السعار من العداوة والصلف والتعصب، التى استعرضها الاسرائيليون بشكل مثير وهم يندفعون الى سيناء وحائط المبكى ونهر الأردن وجدران اريحا. ومن وراء السعار والصلف، كان يرقد احساس اسرائيل المكظوم بالذنب نحو العرب، الاحساس بأن العرب لن ينسوا أبدا أو يتسامحوا ابدا فى الضربات التى كالتها لهم إسرائيل: الاستيلاء على أراضيهم، مصير مليون لاجئ وأكثر، هزائم عسكرية واهانات متكررة، فقبلت الأغلبية الساحقة من الاسرائيليين – مدفوعين بالخوف من الانتقام العربى –

النظرية التى تلهم سياسة حكومتهم، تلك «النظرية» التى تقول أن أمن إســرائيل يقـوم على حــرب دورية، تنزل بالدول العـربيـة كل بضع سنوات الى درك العجز.

ومع ذلك، فـأيا كـانت دوافـعـهم ومـخـاوفـهم الخـاصــة، فـإن الاسرائيليين ليسـوا، ولايستطيعون ان يكونوا عملاء مستقلين، ان عوامل تبعية اسرائيل هى الى حد ما «مبنية» فى تاريخها فى العقدين الاخيرين، فقد أقامت كل الحكومات الاسرائيلية وجود إسرائيل على «التوجه الغربى» . وكان يمكن أن يكفى هذا وحده ليحول اسرائيل الى مـخـفـر امـامى غـربى فى الشـرق الأوسط، وبذلك يدخلها فى الصـراع الكبير بين الامبريالية (والاستعمار الجديد) والشعوب العربية المناضلة من أجل تحررها، ولقد نشطت عوامل اخرى ايضا. فقد اعتمد اقتصاد اسرائيل فى توازنه ونموه الضعيفين، على المعونة المالية الصـهيونية الاجنبية، وخصـوصـا على المنح الامريكية. ولقد كـانت هذه المنح لعنة مـقنعـة للدولة الجـديدة، فـمكنت الحكومـة من معالجة ميزان مدفوعتها بطريقة لايستطيعها اى بلد فى العالم، بدون الدخول في تجارة مع جيرانها. لقد شوه تدفق الأرصدة الاجنبية بنيـان اقـتـصـاد اسـرائيل بتشـجـيع نمو قطاع ضـخم غـير منتج، ومستوى معيشة لا علاقة له بانتاجية البلد وايراداته (فى السنوات الأخيرة، كانت اسرائيل تتلقى ٢٥٠ مليون دولار سنويا كمنح وقروض

من الدول الغربية، ومعونة من الولايات المتحدة. ومساهمات من اليهود فى الخارج، وهذا يصل الى حوالى ١٢٥ دولار سنويا للفرد من سكان اسرائيل). ولقد حافظ هذا بالطبع على ابقاء اسرائيل فى نطاق «مجال النفوذ الغربى» على نحو ثابت. والواقع ان اسرائيل قد عاشت على مايفوق امكانياتها بكثير. فلسنوات طويلة كان غذاء اسرائيل يستورد من الغرب، ولما كانت الادارة الامريكية تعفى من الضرائب المكاسب والارباح المخصصة كمنح لاسرائيل، فإن وزارة الخزانة فى واشنطن تضع يدها على الحوافظ التى يعتمد عليها اقتصاد اسرائيل، وتستطيع واشنطن فى أى وقت أن تضرب إسرائيل برفض الاعفاء الضريبى (رغم ان ذلك قد يفقدها الأصوات اليهودية فى الانتخابات). ان التهديد يمثل هذه العقوبة (الذى لم يذكر ابداء لكنه قائم دائما. ويلمح إليه أحيانا) كان كافيا لربط السياسة الاسرائيلية بشدة الى الولايات المتحدة.

عندما زرت اسرائيل منذ سنوات، سرد لى مسئول اسرائيلى كبير، المصانع التى لم يستطيعوا اقامتها بسبب اعتراضات امريكية، ومن بينها مصانع للصلب ومشروعات لانتاج الالآت الزراعية، ومن ناحية أخرى، كانت هناك قائمة لمصانع عديمة الجدوى تنتج كميات هائلة من أدوات الطبخ واللعب البلاستيك.. الخ.. ولم تحس أى إدارة إسرائيلية بالحرية فى تقدير حاجة إسرائيل الحيوية الطويلة الأمد

للتجارة والعلاقات الاقتصادية مع جاراتها العربيات، او لتحسين العلاقات الاقتصادية مع الاتحاد السوفيتي وشرق أوروبا.

ولقد أثرت التبعية الاقتصادية على سياسة اسرائيل الداخلية و«مناخها الثقافى»، بأشكال أخرى أيضا. ان المحسن الأمريكى هو أيضا مستثمر أجنبى يعمل فى الأرض المقدسة، إن اليهودى الأمريكى الذى، هو «رجل أعمال دنيوى». بين شركائه واصدقائه غير اليهود فى نيويورك أو فيلادلفيا او ديترويت، وهو فى دخيلة نفسه فخور بأن يكون أحد افراد الشعب المختار، وهو يمارس نفوذه فى اسرائيل لصالح الظلامية والرجعية الدينية، ولأنه مؤمن بالمشروع الحر ومتحمس له، فإنه ينظر بعين العداء، حتى إلى «اشتراكية» الهاستدروت اللينة، والى حركة الكيبوتزيم وساهم بدوره فى ترويضها. وبالإضافة إلى ذلك، ساعد الحاخامات على المحافظة على قبضتهم القوية على التشريع وعلى قدر كبير من التعليم. وعن ذلك الطريق استطاع المحافظة على احياء التمييز العنصرى والتفوق التلمودي وقد غذى كل هذا العداء نحو العرب وأشعله.

لقد منحت الحرب الباردة للاتجاهات الرجعية فى اسرائيل زخما عظيما، واذكت النزاع العربى - الاسرائيلى، فالتزمت اسرائيل تماما بالعداء للشيوعية، صحيح أن سياسة ستالين فى سنواته الأخيرة، وتفجر اللاسامية فى الاتحاد السوفيتى، والشعارات المعادية لليهود

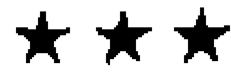
فى محاكمات سلانسكى وراجيك وكوستوف، والتشجيع السوفيتى حتى لأقل أشكال القومية العربية أصالة، تحمل كلها نصيبها من المسئولية عن موقف اسرائيل. ومع ذلك فلا يجب أن ننسى ان ستالين كان أبا روحيا لاسرائيل. وأن اليهود قاتلوا جيش الاحتلال البريطانى وقاتلوا العرب فى ١٩٤٧ و١٩٤٨ بذخيرة تشيكية، قدمت بناء على أوامر ستالين، وان المبعوث السوفيتى كان أول من صوت لاعتراف الأمم المتحدة بدولة اسرائيل، فيمكن أن يقال أن تغير موقف ستالين من اسرائيل كان رد فعل لالتزام اسرائيل بالغرب، وفى مرحلة مابعد ستالين أصرت اسرائيل على هذا الالتزام.

هكذا أصبح العداء العنيد لآمال العرب فى الوحدة والتحرر الوطنى من الغرب، بديهية فى سياسة اسرائيل. ومن هنا كان دور اسرائيل فى ١٩٥٦، فى حرب السويس، واعتنق وزراء اسرائيل الاشتراكيون الديمقراطيون - بدرجة لاتقل عن الاستعماريين الغربيين - سياسة دولة ترى حكمتها العليا فى إبقاء العرب منقسمين ومتخلفين، وفى استخدام الهاشميين وغيرهم من العناصر الرجعية ضد القوى القومية الثورية الجمهورية، وفى مطلع ١٩٦٧، عندما بدا أن تحركا جمهوريا قد يطيح بالملك حسين، لم تتردد حكومة اشكول فى إعلان انه فى حالة وقوع انقلاب ناصرى قد يطيح بالملك حسين، ستزحف القوات الاسرائيلية إلى الأردن. ولقد كانت

مقدمات أحداث يونيو (حزيران) الماضى، هى تبنى اسرائيل لموقف عدوانى نحو النظام الجديد فى سوريا، الذى أدين بأنه ناصرى، بل «ناصرى متطرف» (لأن حكومة سوريا بدا انها أشد قليلا فى عدائها للامبريالية وأكثر جذرية من حكومة مصر).

هل خططت إسرائيل حقا، لمهاجمة سوريا ذات حين فى شهر مايو، كما اعتقدت المخابرات السوفيتية، وكما حذرت موسكو عبدالناصر؟ لانعرف، ولقد كانت نتيجة لهذا التحذير، وبتشجيع سوفيتى، أن أمر عبدالناصر بالتعبئة وبحشد القوات على حدود سيناء. ولو أن إسرائيل كان لديها مثل هذه الخطة، لأجلت حركة عبدالناصر الهجوم على سوريا بضعة أسابيع، ولو أن إسرائيل لم تكن لديها مثل هذه الخطة، فان سلوكها أضفى على تهديداتها ضد سوريا نفس القيمة التى كانت للتهديدات العربية فى نظر إسرائيل. وعلى كل حال، كان حكام إسرائيل واثقين تماما من أن عدوانيتهم - على العكس من عدوانية سوريا أو مصر - ستلقى عطفا غربيا، وسينالون عنها الثواب. ولقد كان هذا الحساب وراء قرارهم بتوجيه الضربة الأولى فى ٥ يونيو. لقد كانوا واثقين من الدعم الادبى والسياسى والاقتصادى الامريكى، وإلى حد ما، البريطانى. وكانوا يعرفون أنه بغض النظر عن الحد الذى يذهبون إليه فى الهجوم على العرب، فبوسعهم أن يعتمدوا على الحماية الدبلوماسية الامريكية، أو

فى أدنى الاحوال، على التساهل الرسمى الأمريكى. ولم يكونوا مخطئين. فالبيت الابيض والبنتاجون، لا يسعهما ألا أن يقدرا رجالا صمموا لاسبابهم الخاصة على هزيمة العرب اعداء الاستعمار الامريكى الجديد، وقد قام الجنرال دايان بدور مارشال «كى» * للشرق الاوسط، وبدا أنه يقوم بعمله بسرعة وكفاءة وشدة مذهلة. ولقد كان، ومازال ، حليفا أرخص وأقل كلفة من «كى» ،



يمثل السلوك العربى، خصوصاً عقل عبدالناصر الموزع وتردده عشية الحرب، نقيضا صارخا لتصميم إسرائيل وعدوانيتها التى لا تكبح. فبعد أن قام عبدالناصر، بتشجيع سوفيتى، بنقل قواته إلى حدود سيناء ، بل ووضع صواريخه الروسية الصنع فى حالة استعداد، قام بدون استشارة موسكو، باعلان اغلاق مضائق تيران، وهى حركة أستفزازية، رغم أنها عمليا ذات مغزى محدود جدا، ولم تعتبرها الدول الغربية من الاهمية بحيث تحاول أن «تختبر» الحصار. ولقد أمدت عبدالناصر بكسب أدبى، ومكنته من أن يدعى أنه انتزع من إسرائيل آخر ثمار انتصارها فى ١٩٥٦. (قبل حرب السويس لم

---

* «المارشال» كاوكى ، رئيس فيتنام الجنوبية الذى كان الاميركيون يدعمونه وقد أصبح اسمه «كى» مصطلحا رمزيا لعملاء الولايات المتحدة . (المترجم) .

تكن السفن الاسرائيلية تستطيع عبور تلك المضايق). وصورت إسرائيل الاغلاق على أنه خطر مميت على اقتصادها، بينما لم يكن كذلك، وردت بتعبئة قواتها والتحرك إلى الحدود.

واصلت الدعاية السوفيتية تشجيعها للعرب علنا، وعلى كل، فقد انعقد مؤتمر للاحزاب الشيوعية في الشرق الاوسط في مايو (لخصت قراراته في البرافدا) وكان متحفظا تحفظا غريبا بشأن الازمة، ونقد عبد الناصر تلميحا ، لكن المناورات الدبلوماسية خلف الكواليس كانت أكثر أهمية . ففى ٢٦ مايو ، فى هدأة الليل (فى منتصف الساعة الثالثة صباحا) ، أيقظ السفير السوفيتى عبدالناصر، ليحذره تحذيرا جديا من أن الجيش المصرى يجب ألا يكون البادىء باطلاق النار. وامتثل عبدالناصر، وكان الامتثال تاما إلى حد أنه عزف عن بدء الحرب. بل أنه لم يتخذ أى احتياطات لمواجهة احتمال هجوم إسرائيلى، فتركت المطارات بغير دفاع والطائرات على الارض بلا تمويه، بل ولم يجر الاهتمام بلغم مضائق تيران، أو وضع عدة مدافع على شواطئها (كما اكتشف الاسرائيليون ذلك – لدهشتهم – عندما وصلوا هناك).

كل ذلك يوحي بعمل غير متقن من جانب عبدالناصر ومن جانب القيادة المصرية. لكن أقطاب الكرملين كانوا هم العمال غير البارعين حقيقة. إن سلوك بريجنيف وكوسيجين كان خلال هذه الاحداث

مماثلا لسلوك خروشوف أثناء الازمة الكوبية، بل أنه أشد فى تشوشه الذهنى، كان الطراز هو نفس الطراز، ففى المرحلة الأولى ، كان هناك استفزاز للجانب الآخر، دونما حاجة إليه، وتحرك أحمق نحو «الحافة» وفى المرحلة التالية، ذعر مفاجىء وتراجع متسرع، ثم تبعت ذلك محاولات محمومه لانقاذ ماء الوجه وتغطية الاثار. فبعد أن آثار الروس مخاوف العرب. ودفعوهم إلى تحركات خطرة، ووعدوهم بالوقوف إلى جانبهم، وبعد أن أرسلوا وحداتهم البحرية إلى البحر المتوسط لتواجه تحركات الاسطول السادس الامريكى، قام الروس بتقييد عبدالناصر من اليدين والقدمين.

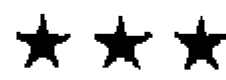
لماذا فعلوا ذلك بينما كان التوتر يتصاعد ، كان الخط الساخن بين الكرملين والبيت الأبيض يعمل. اتفقت الدولتان الكبيرتان على تجنب التدخل المباشر وعلى كبح جماح طرفى النزاع. وإذا كان الامريكيون قد قاموا بعملية كبح جماح الاسرائيلين، فلابد أنهم فعلوا ذلك بشكل روتينى، أو بكثير من الايماءات، إلى حد أشعر الاسرائيليين، حقيقة، بالتشجيع على مواصلة خطتهم للضربة الأولى (لم نسمع، على أى حال أن السفير الامريكى أيقظ ليفى أشكول رئيس وزراء إسرائيل وحذره بأن على الاسرائيليين إلا يكونوا البادئين باطلاق النار). بينما كان لجم السوفيت لعبدالناصر ثقيلا ووقحا ومؤثرا. ومع ذلك يظل عدم قيام عبدالناصر باتخاذ احتياطات

عكسرية أولية أمرا محيرا. هل أخبر السفير السوفيتي عبدالناصر، أثناء زيارته الليلية ، أن موسكو واثقة من أن الإسرائيليين لن يضربوا أولا، هل أعطت واشنطن لموسكو مثل هذا التأكيد، وهل كانت موسكو من السذاجة بحيث أخذت هذا التأكيد بقيمته الظاهرة، وتصرفت بناء عليه ؟ إن تفسيرا غير هذا التفسير للاحداث، لا يمكن أن يفسر ركود عبدالناصر ، ودهشة وذهول موسكو لدى اندلاع القتال.

من وراء كل هذا التصرف غير المتقن يبدو التناقض المركزي في السياسة السوفيتية واضحا. فمن ناحية، يرى القادة السوفيت أن المحافظة على التوازن الدولي، بما في ذلك التوازن الاجتماعي، شرط أساسي لأمنهم القومي و«للتعايش السلمي». ولذلك يهمهم أن يكونوا على «مسافة آمنة» من مراكز عواصف الصراع الطبقي في العالم، وأن يتجنبوا المآزق الخارجية الخطرة. بينما لا يستطيعون أن يظلوا على مسافة آمنة، عندما يصطدم الاستعمار الامريكي الجديد، على نحو مباشر أو غير مباشر، مع اعدائه الافروآسيويين أو الامريكيين اللاتينيين، والذين ينظرون إلى موسكو باعتبارها صديقتهم وحاميتهم. في الاحوال العادية، يكون هذا التناقض كامنا، وتتلمس موسكو الانفراج والتقارب مع الولايات المتحدة الامريكية، وتساعد وتسلح بحذر أصدقاءها الافروآسيويين والكوبيين، ولكن عاجلا أو آجلا، تأتي لحظة الازمة، وينفجر التناقض في وجه موسكو، ويكون

على السياسة السوفيتية عندئذ أن تختار جانب حلفائها وربائبها، فتعمل ضد التوازن، أو أن تلتزم بالتوازن. وعندما يكون الاختيار ملحا ويتعذر تجنبه، تأخذ جانب التوازن.

إن الحيرة حقيقية، وهى خطرة فى العصر الذرى. لكنها تواجه الولايات المتحدة الامريكية أيضا، لان لها مثل اهتمام الاتحاد السوفيتى بتجنب حرب عالمية وصدام ذرى. ويقلل هذا على أى حال من حرية تحركها، ومن حرية هجومها السياسى والمذهبى، أقل كثيرا مما يقيد حرية السوفيت. أن واشنطن أقل بكثير فى خوفها من أمكانية أن تحركا ما من جانب أحد ربائبها، أو من أن تدخلها العسكرى قد يؤدى إلى مواجهة مباشرة بين الدول الكبرى. فبعد الازمة الكوبية، والحرب فى فيتنام، أظهرت الحرب العربية - الاسرائيلية، هذا الاختلاف بصورة حادة.



تقرر الوضع الحالى، إلى حد ما ، بمسيرة العلاقات العربية - الاسرائيلية بأكملها منذ الحرب العالمية الثانية، بل ومنذ الحرب العالمية الأولى. ومع ذلك أعتقد أن بعض الاحتمالات كانت مفتوحة أمام الاسرائيليين . وهناك مثل حاولت أن أستعين به فى عرض هذه المشكلة على جمهور إسرائيلى.

ذات مرة، قفز رجل من الطابق الاعلى في بيت يحترق، كان قد هلك فيه عدد كبير من أفراد أسرته، فحاول أن ينجو بحياته، لكنه اصطدم وهو يقفز بشخص واقف تحت البيت فكسرت ساقى هذا الرجل وذراعيه. لم يكن أمام الرجل الذى قفز من خيار. ومع ذلك، فبالنسبة للرجل الذى تكسرت أطرافه، كان هو سبب مصيبته، ولو تصرف كلاهما تصرفا عقلانيا، فلن يصبحا عدوين، فالرجل الذى هرب من المنزل المحترق، بعد أن يشفى، كان عليه أن يحاول مساعدة المصاب الآخر وتعزيته، وكان على الآخر أن يدرك أنه ضحية ظروف لا يتحكم فيها أى منهما، لكن ، لننظر ماذا يحدث عندما يتصرف هذان الاثنان على نحو غير عقلاني: الرجل المصاب يلوم الآخر على مصيبته ويقسم أن يجعله يدفع ثمنها، والرجل الآخر، يدفعه الخوف من انتقام الرجل المشوه، يهينه، ويركله، ويضربه كلما التقيا. فيقسم الرجل الذى ركل مرة أخرى على الانتقام، ومرة أخرى يضرب ويعاقب. وتشتد العداوة المرة، التى نشأت مصادفة، ثم تغطى وجود الرجلين كله وتسمم عقلهما.

إننى واثق انكم ستتعرفون على أنفسكم (هكذا قلت لمستمعى من الاسرائيليين) يا بقايا يهود أوروبا، فى إسرائيل، فى ذلك الرجل الذى قفز من البيت المحترق. وتمثل الشخصية الاخرى، طبعا، عرب فلسطين. أكثر من مليون منهم، فقدوا أرضهم وبيوتهم. أنهم

غاضبون، وهم ينظرون عبر الحدود إلى مواطنهم السابقة، ويغيرون عليكم خلسة، ويقسمون على الانتقام، فتضربونهم وتركلونهم بلا رحمة، ولقد أظهرتم انكم تعرفون كيف تفعلون ذلك، ولكن ما معناه؟ وما هو المستقبل؟

إن مسئولية مأساة يهود أوروبا، مسئولية أو شفتز وماجدانك، والمذابح التى وقعت فى احياء اليهود، تقع كليا على «حضارتنا» البورجوازية الغربية، التى كانت النازية - على انحطاطها - نتاجها الشرعى. ومع ذلك فقد أجبر العرب على دفع ثمن الجرائم التى ارتكبها الغرب فى حق اليهود، ومازالوا يجبرون على دفع الثمن، لان «ضمير الغرب المذنب» ، مع إسرائيل وضد العرب. وما أسهل ما سمحت إسرائيل لنفسها بأن ترتشى وتخدع «بنقود الضمير الكاذب».

إن علاقة عقلانية بين الاسرائيليين والعرب، كان يمكن أن تكون ممكنة لو أن إسرائيل حاولت على الاقل أن تقيمها، لو أن الرجل الذى ألقى بنفسه من البيت المحترق حاول أن يقيم صداقة مع الضحية البريئة لقفزته وأن يعوضه . وهو ما لم يحدث . بل أن إسرائيل، لم تعترف أبدا بالمظالم التى وقعت على العرب. فمنذ البداية عملت الصهيونية على خلق دولة يهودية خالصة، وفرحت بتخليص البلاد من سكانها العرب. ولم تبحث أية حكومة إسرائيلية عن أية فرصة

إزالة وجبر المظالم، بل لقد رفضوا أن يبحثوا مصير الكتلة الضخمة من اللاجئين، ما لم تعترف الدول العربية بإسرائيل أولا، أى ما لم تستسلم الدول العربية سياسيا قبل أن تبدأ المفاوضات. وربما أمكن تبرير ذلك كمناورة من مناورات المساومة. إلا أن الاساءة للعلاقات العربية - الاسرائيلية ، والتى تبلغ حد الكارثة، جاءت بها حرب السويس، عندما تصرفت إسرائيل بغير خجل، كرأس رمح لامبرياليات أوروبا المفلسة فى موقفها الاخير المشترك فى الشرق الاوسط، فى محاولتها الاخيرة للاحتفاظ بقبضتها على مصر. إن الاسرائيليين لم يكونوا مضطرين لربط أنفسهم بحملة أسهم شركة قناة السويس. كانت المزايا والعيوب واضحة : لم يكن هناك أى اختلاط بين الصواب والخطأ على أى من الجانبين. وقد وضع الاسرائيليون أنفسهم كلية فى الجانب الخطأ، أدبيا وسياسيا.

إن النزاع العربى - الاسرائيلى، على السطح، هو صدام بين قوميتين متنافستين، كل منهما تتحرك داخل دائرة مغلقة من الصحة الذاتية، والمطامح المتضخمة، أما من وجهة نظر أممية مجردة، فليس هناك ما هو أسهل من رفض كليهما باعتبارهما يتساويان رجعية وعدم جدارة. إلا أن مثل هذه النظرة تتجاهل الحقائق الاجتماعية والسياسية للوضع. إن قومية الشعب، فى البلدان شبه المستعمرة والمستعمرة، الذى يناضل من أجل استقلاله، لا يجوز أن توضع على

نفس المستوى السياسى، المعنوى، مع قومية الغزاة والمسيطرين. إن للأولى تبريرها التاريخى ووجهها التقدمى الذى تفتقر إليه الاخرى. وواضح أن القومية العربية، على خلاف الاسرائيلية ، مازالت تنتمى إلى الفئة الأولى.

ومع ذلك، فحتى قومية المستغلين والمقهورين، لا يجب النظر إليها بغير انتقاد، لان هناك مراحل متعددة للتطور. فى احدي المراحل تتغلب المطامح التقدمية، وفى الاخرى تندفع الاتجاهات الرجعية إلى السطح. فمنذ لحظة الحصول على الاستقلال أو الاقتراب منه، تميل القومية إلى سفح محتواها التقدمى تماما، وتتحول إلى عقيدة رجعية. لقد رأينا هذا يحدث فى الهند واندونيسيا ، بل وإلى حد ما فى الصين، بل وحتى فى المرحلة الثورية، تكون لاى قومية مسحتها من عدم الاصالة، التى تتمثل فى الميل إلى التفرد والذاتية القومية والعنصرية. والقومية العربية، برغم كل مزاياها التاريخية، ووظائفها التقدمية، تحمل أيضا فى داخلها بعض تلك المحتويات الرجعية.

ولقد كشفت أزمة حرب يونيو ، بعضا من نقاط الضعف الاساسية فى الفكر والعمل السياسى العربى: الافتقار إلى الاستراتيجية السياسية، الميل العاطفى إلى خداع الذات، الاعتماد الزائد على الديماغوجية القومية. إن نقاط الضعف هذه كانت ضمن الاسباب الحاسمة للهزيمة العربية. هذا التورط فى التهديدات بتدمير

إسـرائيل بل و«بالابادة»، وهى تـهـديدات كـشف عـدم الاسـتـعـداد العسكرى العربى المطبق عن مدى فراغها، قد أدى إلى أن يقدم بعض الدعاة المصريين والاردنيين كثيرا من الزيت للشوفينية الاسرائيلية، كما مكن الحكومة الاسرائيلية من طى جمهرة شعبها فى نوبة الخوف والعدوانية الضارة ، التى انفجرت عندئذ فوق رءوس العرب.

من البديهى أن الحرب هى استمرار للسياسة . ولقد اظهرت حرب الأيام الستة ، عدم النضج النسبى لنظم الحكم العربية الحالية . إن الاسرائيليين مدينون بانتصارهم ليس للضربة الأولى وحدها ، وإنما أيضا لتنظيم اقتصادى وسياسى وعسكرى عصرى . وإلى حد ما ، كانت الحرب مقياسا للتطور العربى منذ حرب السويس ، واظهرت خلله الحاد . إن أضفاء العصرية على الهياكل الاجتماعية - الاقتصادية لمصر وغيرها من الدول العربية ، وعلى التفكير السياسى العربى ، قد سار ببطء أكثر بكثير مما ظن من كانوا يتخذون من النظم العربية الحالية مثلا أعلى .

إن التخلف المستمر متأصل بالطبع فى الظروف الاجتماعية - الاقتصادية ، لكن الفكر العربى وأساليب التنظيم العربية ، هى فى ذاتها عوامل ضعف . واذكر : نظام الحزب الواحد ، نزعة التقديس الناصرية ، غيبة النقاش الحر . كل ذلك قد أعاق التثقيف السياسى للجماهير ، وفاعلية التنوير الاشتراكى ، وظهرت النتائج السلبية فى

مستويات متعددة .. فعندئذ تعتمد القرارات السياسية ، تقريبا على زعيم مطلق السلطة ، وعندئذ لا توجد فى الأوقات العادية ، مشاركة شعبية حقيقية فى التطورات السياسية ، ولا وعى حذر فعال ، ولا مبادرة من أسفل . إن الضربة الاسرائيلية الأولى ، والتى تمت بأسلحة تقليدية ، كان يمكن ألا يكون لها هذا الأثر الماحق ، لو أن القوات المسلحة المصرية ، كانت معتادة على الاعتماد على مبادرة الضباط والجنود الافراد ، عندئذ كان القادة المحليون سيتخذون الاحتياطات الدفاعية الاولية دون انتظار أوامر من أعلى . إن عدم الكفاءة العسكرية هنا ، كان انعكاسا لضعف اجتماعى سياسى أوسع وأعمق . كذلك فإن الأساليب البيروقراطية العسكرية الناصرية ، تعوق الاندفاع السياسى فى حركة التحرير العربية . إنها تسهل ازدهار الديماغوجية السياسية ، لكنها ليست بديلا لنبض حقيقى للوحدة القومية ، ولتعبئة حقيقية للقوى الشعبية ضد العناصر الانفصالية والاقتصادية والرجعية . ولقد رأينا كيف أن الاعتماد فى وقت الخطر على قائد واحد ، قد جعل مصير الدول العربية ، معتمدا فى الحقيقة على تدخل الدول الكبرى ، وعلى مصادفات المناورة الدبلوماسية .

إنها مفارقة أن يبدو الاسرائيليون الآن فى دور بروسى الشرق الأوسط . فقد كسبوا حتى الآن ثلاثة حروب ضد جيرانهم العرب . وهذا بالضبط ما فعله البروسيون منذ قرن مضى ، عندما هزموا كل جيرانهم

الدانمركيين والنمسويين والفرنسيين ، خلال سنوات قليلة ، ونمّى فيهم تتابع الانتصارات ثقة مطلقة فى كفاءتهم الخاصة ، واتكالا أعمى على قوة سلاحهم ، وصلفا شوفينيا واحتقارا للشعوب الأخرى ، ونخشى أن يكون انحطاط مماثل - لأن هذا انحطاط - يحدث الآن فى شخصية اسرائيل ، كبروسيا الشرق الأوسط ، إلا أن تكون تقليدا رديئا للأصل . فقد كان البروسيون على الأقل ، قادرين على استخدام انتصاراتهم كى يوحدوا فى الرايخ كل الشعوب الناطقة بالالمانية ، والتى تعيش خارج الامبراطورية النمسوية - المجرية ، وكان جيران المانيا منقسمين على أنفسهم بالمصالح والتاريخ والديانة واللغة ، وكان بوسع بسمارك وويلهلم الثانى وهتلر أن يستخدموهم ضد بعضهم البعض . أما الاسرائيليون فلا يحيطهم غير العرب ، ومحاولات استخدام الدول العربية ، الواحدة ضد الأخرى ، مكتوب عليها الفشل فى النهاية . ولقد كان العرب متناحرين سنة ١٩٤٨ ، عندما شنت إسرائيل حربها الأولى ، وكانوا أقل انقساما بكثير فى ١٩٥٦ ، أثناء حرب إسرائيل الثانية ، وشكلوا جبهة متحدة فى ١٩٦٧ ، وقد يثبتون أنهم أكثر اتحادا بكثير فى أى مواجهة مقبلة مع إسرائيل .

ولقد لخص الألمان تجربتهم الخاصة فى جملة مريرة : «تستطيع أن تدفع بنفسك منتصرا إلى قبرك» ، وهذا ما يفعله الاسرائيليون ، لقد قضموا أكثر مما يستطيعون ابتلاعه ، ففى الاراضى المحتلة وفى

إسرائيل يوجد الآن حوالى مليون ونصف مليون من العرب ، يمثلون أكثر من أربعين بالمئة من جملة السكان ، هل سيطرد الاسرائيليون هذه الجماهير العربية لكى يسيطروا على الأرض المحتلة «بأمان» ؟ إن هذا كفيل بخلق مشكلة لاجئين جديدة ، أكبر وأخطر من المشكلة القديمة . هل سيتخلون عن الأراضى المحتلة ؟ يقول معظم زعمائهم : لا ، ويدعو بن غوريون ، الروح الشريرة للشوفينية الإسرائيلية ، إلى خلق « دولة فلسطينية عربية » على ضفاف الأردن تكون محمية إسرائيلية ، هل تستطيع إسرائيل أن تتوقع أن العرب سيقبلون مثل هذه المحمية وأنهم لن يحاربوها باسنانهم واظافرهم ؟ إن أى من أحزاب اسرائيل ليس مستعدا حتى للتفكير فى دولة عربية – إسرائيلية مزدوجة القومية . وفى نفس الوقت « أغريت» اعداد كبيرة من العرب بترك بيوتها على ضفاف الأردن ، ويلقى من بقى معاملة أسوأ بكثير من معاملة الأقلية العربية فى إسرائيل ، والموضوعة تحت الحكم العسكرى منذ ١٩ سنة ، نعم ، إن هذا الانتصار أسوأ لإسرائيل من الهزيمة ، فهو أبعد ما يكون عن منح إسرائيل درجة أعلى من الأمان ، بل لقد جعلها أقل أمنا بكثير ، فإذا كان الانتقام والابادة العربيين هما ما كان يخافة الاسرائيليون ، فقد تصرفوا كمن يحول الشبح الى خطر داهم .

لقد كانت هناك لحظة ، عند وقف اطلاق النار ، بدا فيها أن هزيمة مصر قد أدت إلى سقوط عبد الناصر ، وانهيار السياسة المرتبطة

باسمه ، ولو أن هذا حدث لعاد الشرق الأوسط بالتأكيد إلى مجال النفوذ الغربى، ولأصبحت مصر غانا أو اندونيسيا أخرى . وعلى كل ، فهذا لم يحدث ، فالجماهير العربية التى خرجت إلى شوارع وميادين القاهرة ودمشق وبيروت لتطالب ببقاء عبد الناصر ، قد حالت دون ذلك ، ولقد كانت هذه واحدة من النبضات الشعبية التاريخية النادرة ، التى تصحح أو تقلب ميزانا سياسيا فى لحظات قليلة ، هذه المرة فى ساعة الهزيمة ، أحدثت المبادرة من أسفل ، أثرها الفورى ، ولا توجد إلا حالات قليلة فى التاريخ وقف فيها شعب بهذه الطريقة ، إلى جانب قائد مهزوم ، إن الوضع ، بالطبع ، مازال مائعا ، فالمؤثرات الرجعية ستواصل فعلها داخل الدول العربية لتصل إلى ما يشبه الانقلاب الغانى أو الاندونيسى. أما الآن ، فقد حرم الاستعمار الجديد من ثمرة الانتصار الإسرائيلى.

«الروس تخلوا عنا !» كانت هذه هى الصيحة المريرة التى جاءت من القاهرة ودمشق وبيروت فى يونيو ، وعندما رأى العرب المندوب السوفيتى لدى الأمم المتحدة يصوت فى توافق تام مع الأمريكيين ، فى صف وقف اطلاق النار ، دون ربط ذلك بشرط انسحاب القوات الإسرايلية ، شعروا بأنهم قد غرر بهم تماما . وقيل أن عبد الناصر قال للسفير السوفيتى : «الآن سينحدر الاتحاد السوفيتى إلى مستوى دولة من الدرجة الثانية أو الرابعة» ، بدا أن الأحداث تؤيد الاتهام الصينى

بالتواطؤ السوفيتي مع الولايات المتحدة ، كذلك أثارت الهزيمة فزعا في شرق أوروبا ، وقال البولنديون والتشيك : « إذا كان بوسع الاتحاد السوفيتي التخلي عن مصر على هذا النحو، أفلن يتخلى عنا أيضا عندما يواجهنا العدوان الألماني مرة أخرى؟! كذلك غضب اليوغوسلاف ، واندفع تيتو وجومولكا وغيرهما من الزعماء إلى موسكو ليطلبوا تفسيرا وعملية انقاذ للعرب . ولقد كان هذا أمرا جديرا بالملاحظة ، حيث ان الطلب جاء من «المعتدلين» و «التحريفيين» الذين يقفون عادة مع «تعايش سلمي» ، وتقارب مع الولايات المتحدة الامريكية ، إنهم هم الآن يتحدثون عن «التواطؤ السوفيتي مع الامبريالية الامريكية » .

وكان على القادة السوفيت أن يفعلوا شيئا ، إن حقيقة أن تدخل الجماهير العربية قد انقذ نظام عبد الناصر ، قد أمد موسكو على غير توقع بمجال جديد للمناورة . فبعد التخلي الكبير ، جاء الزعماء السوفيت مرة أخرى إلى المقدمة كأصدقاء وحماة للدول العربية ، فإن عددا قليلا من الايماءات المسرحية ، وقطع العلاقات الدبلوماسية مع اسرائيل ، والخطب في الأمم المتحدة تكلفهم القليل ، بل انه حتى البيت الابيض ابدى «تفهما» «لمأزق» الاتحاد السوفيتي ، و «للضرورة التكتيكية» التي جاءت الآن بكوسيجين الى الجمعية العامة للامم المتحدة .

وعلى كل ، فقد كان مطلوبا ما هو اكثر من الايماءات للمحافظة على مركز السوفيت . اذ طالب العرب ان يساعدهم الاتحاد السوفيتى على الفور لا عادة بناء قوتهم العسكرية ، تلك القوة التى فقدوها بسبب الامتثال للنصح السوفيتى . طلبوا طائرات جديدة ، ودبابات جديدة ، ومدافع جديدة ، وكميات جديدة من الذخيرة . لكن بغض النظر عن تكلفة ذلك (تقدر قيمة المعدات العسكرية التى خسرتها مصر وحدها بألف مليون جنيه استرلينى) فان اعادة بناء القوات المسلحة العربية ، يتضمن من وجهة نظر موسكو ، مخاطر سياسية كبيرة . فالعرب يرفضون التفاوض مع اسرائيل ، وبوسعهم ان يتحملوا ترك اسرائيل تغص بانتصارها . واعادة التسليح هى الأولوية الأولى عند القاهرة . لقد علمت إسرائيل المصريين درسا : فى المرة القادمة على القوة الجوية المصرية ، أن تضرب الضربة الأولى ، وكان على موسكو أن تقرر ما إذا كانت ستقدم الأسلحة لهذه الضربة .

ليس بإمكان موسكو أن تؤيد فكرة مثل هذا الرد العربي ، لكنها أيضا لا تستطيع أن ترفض إعادة تسليح مصر . ومع ذلك فإن إعادة التسليح العربى ، فى الأغلب ، ستغرى إسرائيل بقطع سير التطورات وتوجيه ضربة أولى أخرى ، وفى هذه الحالة سيواجه الاتحاد السوفيتى مرة أخرى بالحيرة التى قهرته فى مايو ويونيو . إذا ضربت مصر أولا ، فالأغلب أن الولايات المتحدة ستتدخل ، فأسطولها السادس لن يقف

موقف المتفرج فى البحر المتوسط إذا ضربت القوة الجوية الإسرائيلية ضربة قاضية ، وأصبح العرب على وشك الزحف إلى القدس وتل ابيب ، وإذا بقى الاتحاد السوفيتى مرة أخرى خارج الصراع ، فإنه يحطم مركزه الدولى تحطيما لايعوض .

بعد أسبوع من وقف اطلاق النار ، كان رئيس الاركان السوفيتى فى القاهرة ، وازدحمت الفنادق هناك بالمستشارين والخبراء السوفيت، بادئين العمل فى اعادة بناء القوات المسلحة المصرية . ومع ذلك فإن موسكو لا تستطيع أن تواجه برباطة جاش امكانيات تسابق عربى - اسرائيلى على الضربات الأولى ، وباحتمالاتها الاوسع ، ربما كان الخبراء السوفيت فى القاهرة يسرعون ببطء ، بينما تحاول الدبلوماسية السوفيتية أن «تكسب السلام» للعرب بعد أن أفقدتهم الحرب ، لكن حتى أمهر اللعب لكسب الوقت لا يستطيع أن يحل المسألة المركزية للسياسة السوفيتية ؛ إلى أى مدى من الزمن يستطيع الاتحاد السوفيتى تكييف نفسه مع الاندفاع الامريكى إلى الامام ؟ إلى أى مدى يستطيع الاتحاد السوفيتى التراجع أمام الهجوم الاقتصادى السياسى العسكرى الامريكى عبر المنطقة الافرو - أسيوية ؟ إن أشارة صحيفة «كراسنايا زفيزدا» فى يونيو إلى أن المفهوم السوفيتى الحالى للتعايش السلمى ، ربما كان فى حاجة إلى شئ من المراجعة ، لم تكن بلا مبرر ، ويخشى العسكريون (وليسوا هم وحدهم) أن التراجعات السوفيتية تزيد من

ديناميكية الاندفاع الامريكي ، وأنه إذا استمر ذلك فإن صداما امريكيا – سوفيتيا مباشرا ، سيكون محتوما . وإذا لم ينجح بريجينيف وكوسيجين فى معالجة المسألة ، فإن تغييرات فى القيادة ممكنة جدا . لقد اسهمت الازمتان الكوبية والفيتنامية فى سقوط خروشوف ، ومازالت النتائج الكاملة لأزمة الشرق الأوسط غير متكشفة بعد .

★★★

لا أعتقد أن النزاع بين العرب والاسرائيليين يمكن حله بالوسائل العسكرية ، وبالتأكيد ، لا يستطيع أحد أن ينكر على الدول العربية حقها فى اعادة بناء قواتها المسلحة إلى حد ما . لكن ما يحتاجونه على نحو أسرع هو استراتيچية اجتماعية وسياسية ، وأساليب جديدة فى نضالهم من أجل التحرر ، وهذه لا يمكن أن تكون استراتيچية سلبية تماما يسيطر عليها الهاجس المعادى لإسرائيل ، لهم أن يرفضوا أن يتفاوضوا مع إسرائيل ، طالما أنها لم تتخلى عن الأراضى المحتلة ، ولسوف يقاومون بالضرورة حكم الاحتلال على ضفة الأردن وفى قطاع غزة ، لكن هذا لا يعنى بالضرورة تجدد الحرب .

إن الاستراتيچية التى يمكن أن تحقق للعرب كسبا أكبر مما يمكن تحقيقه بحرب مقدسة أو بضربة أولى ، الاستراتيچية التى يمكن أن تحقق لهم نصرا حقيقيا ، نصرا متحضرا ، يجب أن تتركز على الحاجة الملحة والعاجلة إلى تحقيق العصرية الشديدة لبنيان الاقتصاد العربى

والسياسة العربية ، وعلى الحاجة إلى التوحيد الحقيقى للحياة القومية العربية ، التى مازالت محطمة بفعل الحدود والتقسيمات الموروثة التى أقامها الاستعمار ، ولا يمكن تحقيق هذه الأهداف الا بتقوية وتنمية الاتجاهات الثورية والاشتراكية فى السياسة العربية .

وأخيرا ستكون القومية العربية أكثر تأثيرا ، بما لا يقاس ، تأثيرا كقوة تحرير إذا نظمت وحققت أساسا عقلانيا بقدر من الأممية يمكن العرب من تناول مشكلة اسرائيل على نحو أكثر واقعية مما حدث حتى الآن ، ليس بامكانهم أن يواصلوا انكار حق إسرائيل فى الوجود ، واطلاق العنان لخطب متعطشة للدماء ، إن النمو الاقتصادى والتصنيع والتعليم والتنظيم الأكثر كفاءة ، والسياسات الأكثر اعتدالا وواقعية يمكن أن تعطيهم ما لم تستطع أن تعطهم أياه الارقام المجردة والغضب المعادى لاسرائيل . وهذه العوامل تمثل التفوق الحقيقى الذى يستطيع تلقائيا تقريبا أن يهبط باسرائيل إلى نسبتها المتواضعة وإلى دورها الصحيح فى الشرق الأوسط .

إن هذا بالطبع ليس برنامجا للمدى القصير ، ومع ذلك فإن تحقيقه لا يحتاج إلى وقت كثير ، وليس هناك طريق أقصر منه إلى التحرر . إن الطرق المختصرة التى تعتمد الديماغوجية والثأر والحرب ، قد يثبت أنها تجلب الكوارث . وإلى أن يتحقق ذلك البرنامج ، يجب أن تقوم السياسات العربية على التوجه المباشر إلى الشعب الاسرائيلى من فوق رءوس الحكومة الاسرائيلية ، على التوجه الى العمال وأعضاء

الكيبوتزات . إن هؤلاء يجب تحريرهم من مخاوفهم بالتأكيدات والتعهدات الواضحة بأن مصالح اسرائيل المشروعة هى موضع الاحترام ، بل أن اسرائيل يمكن أن تقبل عضوا فى اتحاد فيدرالى للشرق الأوسط يمكن قيامه فى المستقبل ، أن هذا من شأنه أن يجعل عربدة الشوفينية الاسرائيلية تخمد ، وأن يدعم المعارضة لسياسة إشكول ودايان القائمة على الغزو والسيطرة ، ولا يجوز التقليل من قابلية العمال الاسرائيليين للاستجابة لمثل هذا النداء .

كذلك من الضرورى تحقيق قدر أكبر من الاستقلال عن لعبة الدول الكبرى ، لقد شوهت تلك اللعبة التطور الاجتماعى – السياسى للشرق الأوسط . ولقد بينت كم فعل النفوذ الامريكى ليضفى على سياسة اسرائيل طابعها الحالى الرجعى المنفر ، لكن النفوذ الروسى قد فعل بدوره شيئا ليلف العقول العربية بتغذيتها بشعارات قاحلة ، وبتشجيع الديماغوجية ، بينما عززت أنانية موسكو وانتهازيتها الضلال والتكالب ، وإذا استمرت سياسة الشرق الأوسط كمجرد لعبة للدول الكبرى ، سيكون المستقبل مظلما حقا . ولن يكون بمقدور لا اليهود ولا العرب أن يخرجوا من لوالب دائرتهم المفرغة ، هذا ما يجب علينا نحن اليساريين أن نقوله لكل من العرب واليهود بأوضح وأصرح ما نستطيع.

★★★

كان ارتباك اليسار العالمي أمرا لا ينكر وواسع الانتشار . ولن أتحدث هنا عن اصدقاء اسرائيل مثل موليه وشركاه ، مثلهم مثل لورد افون وسلوين لسويد ممن رأوا في هذه الحرب استمرارا لحرب السويس وثأرا لخيبتهم في ١٩٥٦ ، ولن أبدد الكلمات على النادي الصهيوني اليميني في حزب العمال . بل حتى في أقصى يسار «ذلك الحزب» تصرف رجال مثل سيدني سيلفر مان بطريقة كان يمكن أن تكون نموذجا لتجسيد قول أحدهم : «حك جلد يهودي يساري ، ولن تجد غير صهيوني» .

لكن الارتباك تبدى حتى إلى مدى أبعد في اليسار ، وأثر في أناس لهم سجل لا تشوبه شائبة في النضال ضد الامبريالية . إن كاتبا فرنسيا معروفا بموقفه الشجاع ضد حرب الجزائر وحرب فيتنام ، نادى بالتضامن مع اسرائيل ، معلنا أنه إذا احتاج بقاء اسرائيل إلى تدخل أمريكي ، فإنه سيؤيد بل وسيرفع شعاراً : «يعيش الرئيس جونسون» .[٦]

ألم يعن له مدى التضارب بين الصياح «يسقط جونسون» في فيتنام و «يعيش» في اسرائيل ؟ . كذلك نادى جان بول سارتر ، رغم أنه قرن ذلك ببعض التحفظات ، بالتضامن مع اسرائيل ، لكنه تحدث بعد ذلك بصراحة ، عما في ذهنه من ارتباك وعن اسبابه . قال أنه اثناء الحرب العالمية الثانية ، تعلم كعضو في المقاومة أن ينظر إلى

اليهودى كما ينظر إلى أخ يجب الدفاع عنه في كل الظروف . وأثناء حرب الجزائر كان العرب هم أخوته ، وقد وقف إلى جانبهم ، وعلى ذلك كان النزاع الحالى بالنسبة له نزاعا يقتتل فيه الأخوة ، لم يكن يستطيع أن يمارس فيه قضاء باردا ، وتغلبت عليه عواطف متصارعة.

ومع ذلك علينا أن نصدر حكمنا ، وعلينا ألا نسمح للعواطف والذكريات مهما كانت عميقة أو ملحة ، أن تلقى بسحبها عليه ، بل أن علينا ألا نسمح للتوسلات بأوشفتز أن تبتزنا إلى تأييد القضية الخطأ . إننى أتحدث كماركسى من أصل يهودى ، هلك أقرب الناس إليه في أوشفتز ، ويعيش اقرباؤه فى اسرائيل : إن تبرير حروب اسرائيل ضد العرب ، والصفح عنها ، يؤدى فى الحقيقة أسوأ خدمة لاسرائيل ، ويمثل ايذاء لمصالحها على المدى البعيد. إن أمن اسرائيل - وأنا أكرر ذلك - لم يتعزز بحرب ١٩٥٦ أو ١٩٦٧ ، بل لقد ضعف وهان من جرائهما . إن «اصدقاء اسرائيل» قد حرضوا اسرائيل فى الحقيقة على السير في طريق مهلك.

كذلك ، فإنهم ، شاءوا أو أبو ، قد شجعوا التيار الرجعى الذى سيطر على اسرائيل أثناء الأزمة ، إننى لم أستطع إلا أن أحس بالاشمئزاز وأنا أشاهد على شاشة التليفزيون مشاهد اسرائيل فى تلك الأيام : استعراض زهو الغزاة ووحشيتهم ، انطلاقات الشوفينية .

الاحتفالات الضارية بالنصر المخزى ، تتعارض جميعا مع صور آلام العرب وخرابهم ، أفواج اللاجئين الفلسطينيين وجثث الجنود المصريين الذين قتلهم العطش فى الصحراء . ولقد رأيت مشاهد الحاخامات والخاسيديين التي ترجع إلى العصور الوسطى ، وهم يقفزون فرحا عند حائط المبكى ، ورأيت كيف تزاحمت فى البلاد أشباح الظلامية التلمودية ، التى أعرفها جيدا ، وكيف أصبح المناخ الرجعى فى اسرائيل ثقيلا وخانقا ، ثم جاءت الاحاديث الكثيرة مع الجنرال دايان ، البطل والمنقذ ، بعقليته السياسية التى تليق برقيب في الجيش ، يتحدث عن الضم ، ويكشف عن قسوة خشنة فيما يتعلق بمصير العرب فى الأرض المحتلة «ماذا يهمنى من أمرهم؟» ، «فى حدود ما يعنينى ، يمكنهم أن يبقوا أو يرحلوا» ، وبعد أن أحيط بأسطورة عسكرية كاذبة - الاسطورة كاذبة لانه لم يخطط حملة الأيام الستة ، ولم يقدها - إتخذ هيئة شريرة ، توحى بمرشح لوظيفة الديكتاتور ، وقد أشير إلى أنه إذا اتخذت الاحزاب المدنية موقفا لينا تجاه العرب ، فإن هذا الـ «يشوع الجديد» ، الـ «مينى ديجول» ، سيلقنهم درسا ويتولى السلطة بنفسه ، ويعلى «مجد» اسرائيل . ومن وراء دايان ، هناك بيجن وزير وزعيم الصهاينة اليمينيين المتطرفين ، الذى يدعى منذ زمن طويل أنه حتى شرق الأردن جزء من اسرائيل «التاريخية» . إن حربا رجعية

تنمى بالضرورة الأبطال والاتجاهات التى تعكس بأمانة ، طبيعتها وأهدافها .

على مستوى تاريخى أعمق ، تجد المأساة اليهودية فى اسرائيل تكملتها الكئيبة . إن زعماء اسرائيل يستخدمون ويبالغون فى استخدام أوشفتز وتربلنكا ، لتبرير الذات ، لكن أفعالهم تسخر من المعنى الحقيقى للمأساة اليهودية .

لقد دفع اليهود الأوروبيون ثمنا باهظا للدور الذى لعبوه فى العصور الماضية ، والذى لم يختاروه ، كممثلين لاقتصاد قائم على السوق ، اقتصاد نقدى ، وسط شعوب تعيش فى اقتصاد زراعى طبيعى غير نقدى . لقد كانوا الحملة المتآمرين للرأسمالية المبكرة ، تجارا ، ومرابين فى المجتمع قبل الرأسمالى . إن صورة التاجر والمرابى اليهودى الغنى عاشت فى الفولكلور غير اليهودى ، وظلت محفورة فى الذهن الشعبى ، تثير عدم الثقة والخوف . وأمسك النازيون بهذه الصورة ، وكبروها إلى أبعاد ضخمة ، ورفعوها دوما أمام أعين الجماهير .

قال أوغيست بيبل مرة أن معاداة السامية هى «اشتراكية المغفلين» . لقد كان هناك قدر كبير جدا من ذلك النوع من الاشتراكية ، وقليل جدا من الاشتراكية الحقيقية فى فترة الازمة الكبرى والبطالة الضخمة واليأس الكاسح فى ثلاثينيات

هـــذا القــرن . ولم تكن الطبـقـات العـاملة الأوروبيـة ، قـادرة على الاطـاحة بالنظــام البورجــوازى ، لكن كراهيـة الرأســمالية كانت من الحــدة والانتــشار بحيث تفتح لنفسها مخرجا وتركز على كبش فداء . وبين القطــاعات الدنيا من الطبقة الوسطى - حثالة البورجــوازية - وحـــثالة البروليتاريا ، كـــان العداء المكبوت للرأسمالية الممتزج بالخوف من الشيوعية ، والخوف العصابي من الاجانب ، وكـــان تأثير التحريض النازى ضـد اليـهود ، قـويا جـدا . جـزئيا ، لأن صـــورة اليـهـــودى ، غريبا و«مصاص دماء» وحش ، كانت بالنسبة لكثير من الناس ما زالت مـاثلة ، وإلى هذا أيضـا ترجع اللامبــالاة والســلبيـة النســبيـة التى شـهد بها كثير من غير الألمان مذبحـة اليهود . وشـــاهدت اشـــتراكية المغفلين ، بفرح ، شيلوخ مسوقاً إلى غرفة الغاز .

ولقد وعدت اســرائيل من بقى من الطــوائف اليـهودية الأوروبية ، ليس فقط بــأن تمنحه «الوطن القومى» ، وإنمــا بأن تحرره من الوصمة القـاتلة . ولقـد كـانت هذه رســالة الكيــبوتزيم والهـيـستـادروت ، بل والصـهيـــونيـة ككل . كـان مـفـترضـا أن يكف اليـهـود عن أن يكونوا عنــاصـر غيـر منتـجـة ، أصـحـاب حــوانيت ، طفيليـات اقتـصـــادية وثقـافـيـة ، وحملة للرأســمالية . كـان عليهم أن يستـقروا فـى أرضـهم «كعمال منتجين» .

ومع ذلك فهم الآن يظهرون في الشرق الأوسط في الدور المشين ، كعملاء ليس لرأسماليتهم الضعيفة نسبيا فحسب ، بل وللمصالح الغربية الواسعة القوية ، وكربائب للاستعمار الجديد . هكذا يراهم العالم العربي ، وليس ذلك مجانبا للصواب . ومرة أخرى يثيرون أحاسيس وكراهيات مريرة لدى جيرانهم ، ولدى كل من كانوا أو ما زالوا ضحايا للامبريالية . ويا له من مصير للشعب اليهودي أن يجبر على الظهور في هذا الدور ! كعملاء للرأسمالية المبكرة ، كانوا على أي حال ، روادا للتقدم في المجتمع الاقطاعي ، أما كعملاء للرأسمالية الاستعمارية الشائخة المتأخرة ، في عصرنا ، فإن دورهم يدعو إلى الرثاء ، ويضعهم مرة أخرى في وضع كبش الفداء . هل تكتمل دورة التاريخ اليهودي بهذه الطريقة ؟ إن هذا قد يصبح هو حصيلة «انتصارات» اسرائيل ، ومن هنا يجب أن يحذّرها أصدقاؤها .

ومن الناحية الأخرى يجب تحذير العرب من اشتراكية المغفلين ومن عداء المغفلين للاستعمار . ونحن واثقون أنهم لن يستسلموا لهما ، وأنهم سيتعلمون من هزيمتهم ، وسيفيقون ليرسوا أساس الشرق الأوسط ، الاشتراكي التقدمي حقا .

(٨)

مارك شاغال والخيال اليهودى[1]

إننى واثق أن كتاب «مارك شاغال» [2] لفرانز ماير ، هو اشمل دراسة عن الفنان . لقد قرأت صفحاته الستمائة بانتباه لا يكل ، وقضيت ساعات كثيرة أتأمل نسخه الجميلة عن اللوحات . والكتاب يحيط بالمرحلة الأخيرة من فن شاغال ، مثل إحاطته بمراحله المبكرة ، وأن ما يقوله المؤلف عن لوحات شاغال الأولى ، أعاد إلى ذكريات انبهارى المراهق بشاغال فى أوائل العشرينيات .

---

١ – أذيع من البرنامج الثالث فى الاذاعة البريطانية بتاريخ ١٢ أغسطس (أب) ١٩٦٥.

٢ – رسام وحفار من أصل يهودى روسى ولد فى فيتبسك عام ١٨٨٧ ، وعين مفوضا للفنون فى فيتبسك بعد ثورة أكتوبر حيث أسس أكاديمة للفنون . ثم غادر الاتحاد السوفييتى ليستقر فى باريس ، بعد جولات عديدة فى العالم الغربى . وسافر إلى فلسطين عام ١٩٣١ لكى يحضر رسوماته لكتاب التوراة . أعماله الفنية قد طبعت فى كثير من الاحيان بطابع «فانتيزى» وبطابع فولكلورى يهودى .

عن «لاروس» .

إن ماير هو زوج ابنة شاغال . وهذه الدراسة ، هي بالتأكيد عمل يصدر عن الحب البنوى والولاء الأسروى ، مثلما يصدر عن التعمق والتحليل .

أن ماير ، كما يقول ، يفكر فى «مغزى رسم شاغال ومكانه من الفن المعاصر» . ويقول أن شاغال «يقف موقف المعارضة من الكثير مما يميز عصرنا ، موقف المعارضة من عقلانية العلم ، ومن المنفعة ، ومن التأثير المغفل للتقدم الفنى» ، ويعتبر الفنان أن «رسالته» هى أن يناضل ضد «مرض العقلانية» ، وأن يعرفنا «الحقيقة الداخلية لارواحنا». وربما لم يكن من العدل أن ننسب إلى فنان مثل هذه الفلسفة المطلقة والرفيعة ، أو نأخذ مثل هذا الزعم حرفيا إذا زعمه الفنان نفسه .

أن ناقدا آخر ، اقتبس عنه ماير ، يقترب أكثر من حقيقة الأمر ، عندما يقابل بين شاغال وبيكاسو فيبين أنه بينما يمثل بيكاسو أقصى درجات انتصار الذكاء التحليلى فى الفن ، فإن رسم شاغال يمثل تمجيد الاحساس والشعور . إن الموضوعية هى المثل الأعلى فى الفن بالنسبة لبيكاسو ، بينما الذاتية هى ذلك المثل الاعلى بالنسبة لشاغال ، وهذا ما يحاول ماير أيضا أن يقوله . لكنه يلفه فى مبالغة التعبير.

كان شاغال ، فى أعماله فى مرحلة الشباب ، أعماله التى رسمها

قبل ١٩١٠ ، رائد السيريالية . ويصفه مؤرخو الفن الألماني بأنه كان مفجر التعبيرية ، وكما يقول اندريه بريتون : عند شاغال هزم الحلم والمجاز الفن الحديث .

ومنذ البداية ، كانت منابع رؤيته التى تشبه الحلم ثابتة ، فجزئيات الحقيقة الخارجية تتكرر مرة بعد مرة فى مجرى خياله ، وهو مجرى واحد للخيال يجرى خلال كل صورة . حلم واحد يحلمه ويرسمه فى عدد كبير جدا من التنويعات .

وخلال دراسته كلها ، يركز ماير على خلفية شاغال الدينية اليهودية (رغم أنه فى خاتمته يقول أنها كانت فقط واحدة من العناصر التى كونت موقف شاغال) .فهو يقول : «إن مياه الغيبية اليهودية تروى دائما جذور عالمه الروحى السلفى» ، وعن هذا الطريق تروى منابع فنه ، وأن «عداءه الاساسى للواقعية يتفق مع لا وثنية اليهودية» .

ومرة بعد أخرى يشير ماير إلى أن الخاسيدية - الرومانتيكية الدينية ليهود شرق أوروبا - بل والقبلانية (مذهب صوفى سرى اعتنقه بعض يهود ومسيحيى العصور الوسطى ، ويقوم على تفسير الكتاب المقدس تفسيرا صوفيا) كانت مصادر وحى الرسام .

إن يهودية شاغال لا تنكر . فهو مغرق فى الفولكلور اليهودى ،

لكن مديونيته للقبلانية وللتراث اللاهوتي يصعب تصديقها . والأصعب من ذلك على التصديق ، أن يقال أن سيرياليته تتفق من كل وجه مع اليهودية الحاخامية . فعداء اليهودية للفنون المرئية معروف . فاليهودية التي نفذت بصرامة التعاليم القائلة «لن تصنع ابدا صورة محفورة» أحبطت نمو الفنون المرئية بقسوة أكثر من قسوة الكالفنية .

إن حوائط الكنيس اليهودى عارية كئيبة ، رغم أن شعراً أو أغانى طقوسية سامية تتردد أصداؤها تحت سقفه . إن أى مدينة يهودية صغيرة فى المعزل اليهودى في شرق أوروبا ، كان لها منشدوها وموسيقيوها وشعراؤها الملحميون ومؤلفوها الموسيقيون وحكاياتها الفولكلورية ، لكن لم يكن فيها رسامون ولا نحاتون . وحتى الثورة الخاسيدية ضد المدرسة التلمودية ، لم تستطع أن تنال من العداء العريق الراسخ «للصورة المحفورة» . وسرعان ما تحجر الاحياء الخاسيدى إلى ارثوذكسية حاخامية أخرى .

ولقد كان نفيا للتراث ، خارج الكنيس ، ومعارضة له ، أن بدأ اليهودى الروسى أو البولندى يرسم . ولم يحدث ذلك إلا قبيل نهاية القرن التاسع عشر . إن ايزاك ايليتش ليفيتان ، أعظم من رسم المنظر

الطبيعي في روسيا بدأ عمله في ثمانينيات وتسعينيات القرن التاسع عشر ، لكنه تربى خارج المعزل .

وفي داخل المعـــزل ، لم يبـزغ الجيل الأول من الرسامين اليهود إلا مؤخرا . ويمكن اعتبار شاغال واحدا من هذا الجيل ، واحدا من الرواد ، فبالنسبة لليهودى كان أن يرسم معناه أنْ يثور ، أن يحقق عملا من اعمـــال الانعتاق . وكانت الثورة موجهة ضد النظام الاكليـــريكى اليهودى ، وموجهة فى نفس الوقت ضد الاضطهاد الروسـى . فحـــوالى ١٩٠٥ ، ألقى العـلم الاحمر بانعكاسـاته على لوحة الرســام . فقد اتجه شـــاغال إلى الرســم بعد هزيمة ثورة ١٩٠٥ مباشرة ، عندما بدأت تنتشـر داخل المعـــزل اليهـــودى وخـــارجه روح التخلى والقنوط . كل المثقفين اليهـود يمارسون الندم عن «حماقاتهم» الثورية . وكان ج . ل . بيرتز قائدهم ، فى «طريق العودة إلى الكنيس» . ومع ذلك فعند شـــاغال وخـــلاله ، كان خبال الرؤية اليهودية ، الذى طال كبته ، ينفجر كالبركان الذى يتحول إلى أقواس قزح .

ومع ذلك ، فرسم شاغال ، بكل ما يتضمنه من تمرد ضد التراث اليهـــودى المثبط ، يهودى بنفس القـــدر الـــذى تعتبر به رسوم موديلياني وسوتين الكوســموبوليتية ، غير يهـودية . ففى أغلب اعماله ، التي هى بلا شـك تمثيلية ورمزية ، هو رســام مدينته اليهودية ،

فيتبسك ، ورؤيته مركزة عليها ، فهو يرسم شوارعها الضيقة الملتوية ، بيوتها ، يرسمها أثناء وجوده فيها ، ويواصل رسمها بعد ذلك وهو فى باريس ، حيث يضعها تحت أقواس برج إيفل ، ويراها مرة أخرى فى كوابيسه المضرجة بالدماء أثناء مذبحة يهود شرق أوروبا . إنه يرسم المدينة اليهودية التى يعيش فيها الحطابون والسقاون ، وليست تلك التى تعيش فيها الطبقات الوسطى .

إن أباه ، الذى تألفه لكثرة ما رسمه ، قد قضى حياته فى عمل الحمال الذى يقصم الظهر ، يدفع براميل سمك الرنجة للتجار المحليين . إن الاشباح المتعددة الألوان التى تزحم عالم شاغال السيريالى ، كانت تتكون من المتسولين والجزارين وتجار الماشية والجنود ، وصغار أصحاب الحوانيت والمبشرين الجوالين ، والموسيقيين الهائمين ، وفى بعض الأحيان كان يرسم يهودا يشبهون ، فى اعتزازهم الجليل بأنفسهم ، سلالة حاخامات رامبرانت . ولكن كما يخبرنا هو نفسه ، كان هؤلاء متسولين ، يلبسهم خمار الصلاة الخاص بأبيه ، قبل أن يجلسهم للرسم .

حتى المناظر الداخلية التى كان يرسمها ، البيوت الريفية ، الأسرة والموائد والكراسى وساعات الحائط المحطمة الناطقة بالفقر ، التى تبدو

شديدة الواقعية ، كانت فى عدم واقعيتها التى تشبه الحلم ، تنتمى بوضوح إلى بيت اسرته . إنه يهب الروح إلى فقر المدينة اليهودية ويحيله إلى شعر . وعندما يرسم صورة بيلا خطيبته ثم زوجته . ابنة إحدى الأسر اليهودية الغنية فى فيتبسك ، فإنه ينظر إليها عن بعد ، ينظر إليها إلى أعلى ، ويحدد وضعها الاجتماعى ، كأنه يرسم أميرة اسبانية .

عندما ننظر إلى أعمال شاغال المبكرة ، نصطدم بظهور شخصيته الفنية مبكرا . فالرسام المبتدئ الساذج الذى نعرفه ما بين ١٩٠٧ و ١٩١٠ ، يصبح باصالة وشجاعة باهرتين ، قادرا على تجسيد رؤيته فى «الموسيقيين» و «العرس» و «الزوجين» و«العائلة المقدسة» و «الختان» و«المهرجان» .

وبدفعة واحدة تقريبا وجد شاغال تعبيره واحساسه بالطبيعة ومزاجه ، ووحدته التى لازمته طول حياته .

ولقد استوعب منذ وقت مبكر ، تأثيرات سيزان وفان غوخ وغوغان ، ولكن هذه التأثيرات قد أثرته وذابت فى تكوينه الفنى . ويقول ماير عن ردود فعله الأولى نحو الطليعة فى باريس : «استعار شاغال من التكعيبيين .. عددا قليلا من حيل التكوين ... التقسيم الحسابى للمساحة ، والتقسيم المتسق تكعيبيا للشخوص» ، لكنه يستطرد : «لم تباشر التكعيبية أبدا أى تأثير

تكويني عليه ، وظل تكعيبه لمساحة الصورة وشخوصها عرضا سطحيا» .

إذا كان رد فعل شاغال نحو بيكاسو والتكعيبية غير متكافىء ، فإن رد فعله إزاء الرواد الروس الأوائل للفن التجريدى ، خصوصا ماليفتش ومن يسمون التفوقيين Suprematists كان العداء الصريح . أن الفن الذى لا يمثل شيئا كان بالنسبة له تناقضا فى المصطلحات ، ورؤيته للعالم محكمة الانغلاق ولا تتسامح بأى تطفل خارجى .

إن تلقائية سيريالية شاغال تشهد بكونية الافكار الفنية . فلابد أن هذا المذهب الجديد كان فى الجو ، طالما أنه هو ، وهو فى محيط فيتبسك الراكد ، قد التقطه حتى من قبل أن يتعرف المثقفون فى العاصمة الروسية على هذا التناول الفرويدى للفن .

وربما لم يكن بوسع أحد سوى رسام شاب ، لم ترهقه المراسم الاكاديمية، أن يتجاهل بشجاعة القواعد الواقعية والطبيعية المتعارف عليها، والتى كانت لاتزال مسيطرة على الرسم الروسى، لكن سيريالية شاغال نبعت أيضا من خياله اليهودى، ومن الممكن القول بأن وجود اليهود الروس كله داخل المعزل كان امرا سيرياليا.

كان يهود شرق أوروبا يحومون على شفا الهاوية، شرق أوروبا التى طحنها الفقر والاضطهاد، وهزتها المذابح، وخدرتها عقيدة

مسيحية عتيقة، ممزقة بين آمال تقدمها الصهيونية من ناحية أو الاشتراكية الثورية من الناحية الأخرى. وكان اليهودى، «العايش من الهوا»، غير المنتج اقتصاديا، المعدوم الجذور، يناضل عاجزا، وان يكن بعناء، من أجل البقاء، ولقد بقى كأنما بمعجزة.،

ولقد رفع نفسه بخياله الى مافوق حقائق وجوده، واعتلى مرتفعات ضبابية من تحقيق الرغبة لمجرد أن يتدحرج مرة بعد مرة فى نوبات يقظة وقحة، كان الخيال اليهودى يحاول ان يهرب من الحقيقة او ان يجعل الحياة منسابة وضاءة، غنية بالمعجزات التى تفوق التنبؤ، وكأن حاسة السخرية والسخرية من النفس اليهوديين، تضحكان من الصدام الدائم بين الآمال والحقائق.

ولقد خلق شولم اليخم فى شخصية مناحم مندل، كيشوت شرق أوروبا اليهودى، شخصية تماثل فى السمو والطرافة، شخصية الفارس الرحالة القديم، لكنها شخصية سانكوبانزا أيضا فى داخلها. كان هذا المزاج اليهودى، هو مصدر مشاعر شاغال، وفى خياله أيضا لم يكن الحلم والحقيقة متوازيين، ولم يكونا منفصلين عن بعضهما البعض.

انه ينظر إلى العالم بعين الطفل اليهودى الغبشاء المحمومة، ذلك الطفل مازال عالم المعجزات حيا بالنسبة له. ولذلك فإن العشاق يطفون فوق أسطح بيوت فيتبسك. والمتسول ملاك هبط او قد يكون

كذلك، ان لم يكن قوة سحرية أو حيوانا مسحورا، والنجوم تستجيب للمقطوعة التى يعزفها لها عازف ملتح من فوق سطح أحد البيوت. هناك يكمن سر فن شاغال، حيث يتصارع خيال الطفل اليهودى مع كوابيس الوجود اليهودى.

لكن شاغال على أى حال، ليس اليهودى المطلق، انه اليهودى الروسى، وكثيرا ماسجل على حافة لوحاته حنينه الى الماضى، وكان يسجله بالحروف الروسية، مثلما يسجله بالحروف العبرية - الييدش، وكثيرا مايصطدم عالم الموجيك بمدينة فيتبسك اليهودية، ويرسم شاغال «أنا والقرية» فى تنويعة بعد تنويعة.

ورغم أن بعض «يهوده» يشبهون سلالة كهنة وتجار امستردام القرن السابع عشر الذين رسمهم رامبرانت، فإن أغلبهم، بما فى ذلك والدى شاغال نفسه، يشبهون جيرانهم الارثوذكس اليونانيين أبناء روسيا البيضاء.

والحقيقة ان فى شاغال الكثير من الشاعر الريفى الروسى، ان هناك رابطة وثيقة بينه وبين «خيالية» سيرجى يسينين. فشاغال، مثل يسينين، يذكرك بموجيك الحكاية الشعبية، الذى حاول ان «يمسك بالشمس ويضىء بها بيته الريفى». عند كليهما المجاز أساسى.

ان شاغال أيضا، «ينحنى امام صورة البقرة فوق حانوت الجزار»، وهو على استعداد «لأن يحمل ذيل حصان روسى كما

يحمل طرف ثوب العروس». كما أن كليهما استجاب للثورة الروسية بطريقة متماثلة، استجاب كليهما لجاذبيتها البطولية المبكرة، كما أصابت كليهما عدوى من الوهم والهبوط المعنوى.

فى لوحة شاغال، «الحرب على القصور»، فلاح عملاق يحمل قصر أحد الاقطاعيين على رأسه ويدك الأرض بخطواته. لقد فتحت الثورة أمام شاغال آفاقا لم يكن يحلم بها.

عين قوميسارا للفنون فى مقاطعة فيتبسك، وقام، بتدعيم من لوناتشارسكى، وزير التعليم العظيم على عهد لينين، بفتح اكاديمية للفنون، حيث اندفعت اليها كتل كبيرة من أطفال موجيك روسيا البيضاء والعمال اليهود الأميين.

وبعد ذلك عندما افتتح فى موسكو مسرح الدولة بلغة البيدش بدأ شاغال عمله العظيم للمسرح، وانتج لوحاته الجدارية وتصميماته المسرحية لمسرحيات غوغول، تشيكوف، وشولم اليخم. ولكى نفهم الأثر غير العادى لافتتاح مسرح بلغة البيدش فى موسكو، علينا أن نتذكر انه فى ظل القياصرة، كانت موسكو، قدس أقداس الارثوذكسية اليونانية، عمليا، مدينة ممنوعة على اليهود، وكان شاغال يطمح «لتحويل المسرح البيدشى الى مسرح عالمى». والحقيقة ان أسلوبه فى التصميمات المسرحية قد ترك بصماته على كل الحرفية المسرحية الروسية المتقدمة آنذاك.

كان ذلك وقتا عظيما وملهما، لكن الانتكاس كان ينتظره في أوائل العشرينيات، اذ وجد شاغال نفسه مطوقا بين منظرى الفن التجريدى المعاندين، وبين رسميى الحزب الذين كانوا قد شرعوا يصرخون من أجل فن المنفعة المنتمى الى «الواقعية الاشتراكية» فغادر موسكو وروسيا، مثبطا، عام ١٩٢٢.

وراء مأزق شاغال الفنى، كانت هناك مأساة أكثر أهمية، لقد حررت الثورة، المدينة اليهودية، من الاستبداد القيصرى، لكنها أيضا انهت اسلوبها في الحياة، وتراثها الدينى، وتجارها، وحرفييها الصغار، و«العايشين من الهوا» فيها.

هنا مرة أخرى، تناظر بين شاغال ويسينين، لأن الثورة قد حررت ايضا موجيك يسينين وقضت على طريقتهم العتيقة في الحياة، قال يسينين «أنا آخر شعراء الريف. وسيطحن القمر ساعتى الأخيرة، كما يطحن ساعة خشبية».

قدر شاغال أن يكون آخر رسامى المدينة اليهودية الأوروبية، فالساعة الخشبية والقمر الذى يطحن الساعة الأخيرة، موجودان فى الكثير جدا من لوحاته.

ومع ذلك، فحتى وهو فى برلين وباريس ونيويورك. كان يعيش على ذكرياته فى فيتبسك وروسيا، اما الآن فقد وجد ملجأه فى التراث اليهودى ، يغرق نفسه فيه أعمق وأعمق.

فاليهودى الذى يحتضن بين ذراعيه الوثائق المقدسة ينقذها من النيران، يصبح وحدة دائمة فى صور شاغال: هكذا يفعل اليهودى التائه، الذى يسلك طريقه المكتوب وسط كل مايموج به العالم من فوران، ونرى هذه الوحدات فى وسط وفى مقدمة لوحته «الثورة» التى رسمها سنة ١٩٣٧.

فالى جوار يهودى يصلى، نرى شخصا يشبه لينين، مقلوبا، واعلاما حمراء، ومشاهد من الحرب الأهلية الروسية فى الخلفية المزدحمة، لقد كان هذا تكوينا طموحا وان كان مرتبكا: كان يفتقر الى بؤرية الشكل وبؤرية الفكرة معا، كان شاهدا على حيرة شاغال فى موضوعه، ولقد مزق هو نفسه هذه الصورة.

ومع ذلك، فان شاغال، ليس بحكم تكوينه فنانا تراجيديا، لقد فرضت عليه التراجيديا، فالفترة التالية لعودته الى غرب أوروبا، الفترة بين ١٩٢٣ و١٩٣٣، كانت بالنسبة له فترة راحة، ومتعة وانتصار، فلم يعان فيها أبدا شيئا من القلق الذى يدفع بيكاسو دوما إلى نفى وانكار نفسه وما حققه.

يتميز شاغال بالسكون القانع، بل بالرضا، انه متفائل، يبحث عن اليقين، والعزاء، فى الدوام العضوى للحياة، ومع ذلك فإن محنة اليهودية الأوروبية تأتى لتملأ لوحاته، فهو يرسم جيرنيكا، او بالأحرى أكثر من جيرنيكا ، وتلك السلسلة الطويلة من لوحات

«الصلب»، الصلب باللون الأحمر، باللون الأبيض، باللون الأزرق، باللون الأصفر، ان مسيح شاغال ليس مسيحيا، انه رمز الاستشهاد اليهودى، انه ممدود بكل آلامه المبرحة فوق عالم الفظائع، من حوله رجال يسقطون فريسة المطاردة والاضطهاد والقتل. وهو دائما متلفع بخمار الصلاة اليهودى. وأحيانا يرتدى طاقية القماش والسراويل الممزقة التى يرتديها فقراء يهود فيتبسك، ومن تحته على الأرض، حشود من اليهود الهاربين يتملكهم الفزع، والمعابد اليهودية والوثائق الدينية تلتهمها النار والدخان، وبينما فى اللوحات المسيحية، نجد كل المعاناة تتركز فى المسيح الذى يتغلب عليها بتضحياته، فإنه فى لوحات «الصلب» التى رسمها شاغال، نجد المسيح لايقهر الآلام.

إن صورة المسيح عند شاغال، تفتقر الى فكرة الخلاص، فبكل قدسيته لايبدو بأى حال ربانيا، انه رجل يعانى الآلام فى ألف شكل، ويحترق إلى الابد بنيران العالم، ومع ذلك يبقى عصيا على الدمار.

وأخيرا، فإننا نرى صورا كثيرة للمسيح، لا صورة واحدة، يرتدى ملابس العمل اليومى لفقراء اليهود، ممدودين على الصلبان على امتداد شوارع فيتبسك الضيقة الملتوية كما رسمها شاغال، ويعود

شاغال بالمسيح الى التاريخ اليهودى، ففى لوحة «عبور البحر الأحمر» التى رسمها فى عامى ١٩٤٥ و١٩٥٢ يفتح نظرة رمزية على مصير اليهود، عندما يرسم صورة موسى سامقة فى مقدمة اللوحة، والشهيد اليهودى على الصليب فى خلفيتها، ان رؤية شاغال تزداد قوة وحدة وتوترا، ومع ذلك فإن ابراز ذلك كله، هو شكل مصالحته مع التاريخ اليهودى واستسلامه له. انه لايستنكر ولا يدين احدا، ففوق اطلال ماجدانك واوشفتز يبكى صلاته العظمى على الموتى.

(٩)

المأساة اليهودية والمؤرخ

بالنسبة لمؤرخ يحاول أن يفهم المذبحة اليهودية، ستكون العقبة الكبرى هى التفرد المطلق للكارثة، لن يكون ذلك مجرد مسألة عصر ومنظور تاريخى، وأشك انه فى خلال ألف سنة، سيفهم الناس هتلر واوشفتز وماجدانك، وتربلنكا، أفضل مما نفهمهم الآن، هل سيكون لديهم منظور تاريخى أفضل؟ بل على العكس، ان الاجيال القادمة قد تفهمهم اقل مما نفهمهم نحن.

هل فهم يهود وغير يهود عصر التنوير والعقلانية محاكم التفتيش الاسبانية افضل مما فهمها اليهود الذين عاشوا فى ظل فرديناند وايزابيلا؟ لقد كان «فعل الايمان» (الاحتفال الذى كان يرافق الحكم بالموت من قبل محاكم التفتيش) عبث أطفال اذا قورن بأوشفتز وماجدانك. ففى محاكم التفتيش كان ثمة منطق انسانى، على أى حال، عامل اليهود كما عامل غيرهم من الكفرة والهراطقة، وسمح لهم بالبقاء عضويا، بل وكان يكافئهم عندما يبدون استعدادهم للاستسلام روحيا.

ان السعار النازى ، الذى كان مصرا على الابادة غير المشروطة لكل رجل وامرأة وطفل يهودى، فى متناول يده، يتخطى فهم المؤرخ الذى يحاول كشف دوافع السلوك، البشرى، وان يتبين المصالح الكامنة وراء الدوافع، من ذا الذى يستطيع ان يحلل الدوافع والمصالح من وراء فظائع اوشفتز؟

اننى واثق، ان ارتباطى الشخصى بالكارثة اليهودية، ليس هو الذى يمنعنى الآن - كمؤرخ - حتى من الكتابة عنها موضوعيا، انه بالأكثر، حقيقة اننا نواجه بلغز ضخم مشئوم من انحطاط الشخصية الانسانية، سيظل دائما يحير البشرية ويرعبها.

ربما يستطيع اسخيلوس وسوفوكليس عصريين ان يتناولا هذا الموضوع، لكنهما سيفعلان ذلك على مستوى يختلف عن مستوى التفسير والشرح التاريخيين.

المحتويات

الهــلال

المجلة الثقافيـة الأولـى فى مصر والعالم العربى
يناير ١٩٩٧ .. تقرأ فيها .

فكر وثقافة

حال الثقافة المصرية

جــزء خــاص

شعر وقصة

التكوين

الابواب الثابتة

رئيس مجلس الإدارة
مكرم محمد أحمد

رئيس التحرير
مصطفى نبيل

روايات الهلال تقدم

مصرية

تأليف

فوزية أسعد

ترجمة

أحمد عثمان

كتاب الهلال يقدم

الدين والعلم

تأليف

برتراند راسل

ترجمة

رمسيس عوض

[illegible] ١٩٩٧

رقم الايداع
٩٦ / ١٤١٤٣
I. S . B. N
977 - 07 - 0513 - 6

هذا الكتاب

عندما قدم المؤلف الكاتب مصطفى الحسينى ترجمة كتاب إيزاك دويتشر «اليهودى واللايهودى» للنشر ، اقترح عليه كتاب الهلال ، أن يقدم للقارئ العربى رؤية مقابلة ، فكان هذا الكتاب .

وقدم الكتاب معالجة فكرية للصراع العربى الاسرائيلى يمتد إلى الأصول، ويميز بين المتغيرات والثوابت ، وهو حصيلة تأملات كاتب عربى وكاتب يهودى ، وكلاهما يرفض الصهيونية ، ويشترك كل منهما فى التفكير بصوت عال ، يقدم ما أمسك بأطرافه من عناصر حيرته ، وهذه الحيرة تتمثل فى الفجوة بين العدل والقوة ، بين الرغبة والقدرة ، بين الأهداف والوسائل، بين الفكرة والواقع .

يقول الكاتب العربى .. « لم تعد ثقة إسرائيل بنفسها كما كانت ، وأن حيرتها أمام مصيرها ، أصبحت توازى الحيرة العربية أمام المسألة الفلسطينية ، إن لم تكن أكبر .

وعلى الجانب العربي يقول .. شاعت كلمات من قبل «الزمن الردئ»، وتم التسليم بالهامشية والعجز عن الفعل ، وأصبح جدل العرب يدور حول تأثير غيرهم عليهم، وغاب عن هذا الجدل، الحديث عن دور لهم أو فعل، وشاع التسليم بأننا موضوع بلا ذات ، الذات هى الآخر ونحن الموضوع .

وحان وقت الفعل .

إنه كتاب يحرك العقل ، ويطلق التفكير ، وهو ما نحتاجه للوصول إلى الدرب الصحيح .

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) ٤٥ جنيها داخل ج . م . ع تسدد مقدما نقدا أو بحوالة بريدية غير حكومية - البلاد العربية ٣٠ دولارا - أمريكا وأوربا وآسيا وافريقيا ٤٠ دولارا - باقى دول العالم ٥٠ دولارا .
القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لآمر مؤسسة دار الهلال ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد .

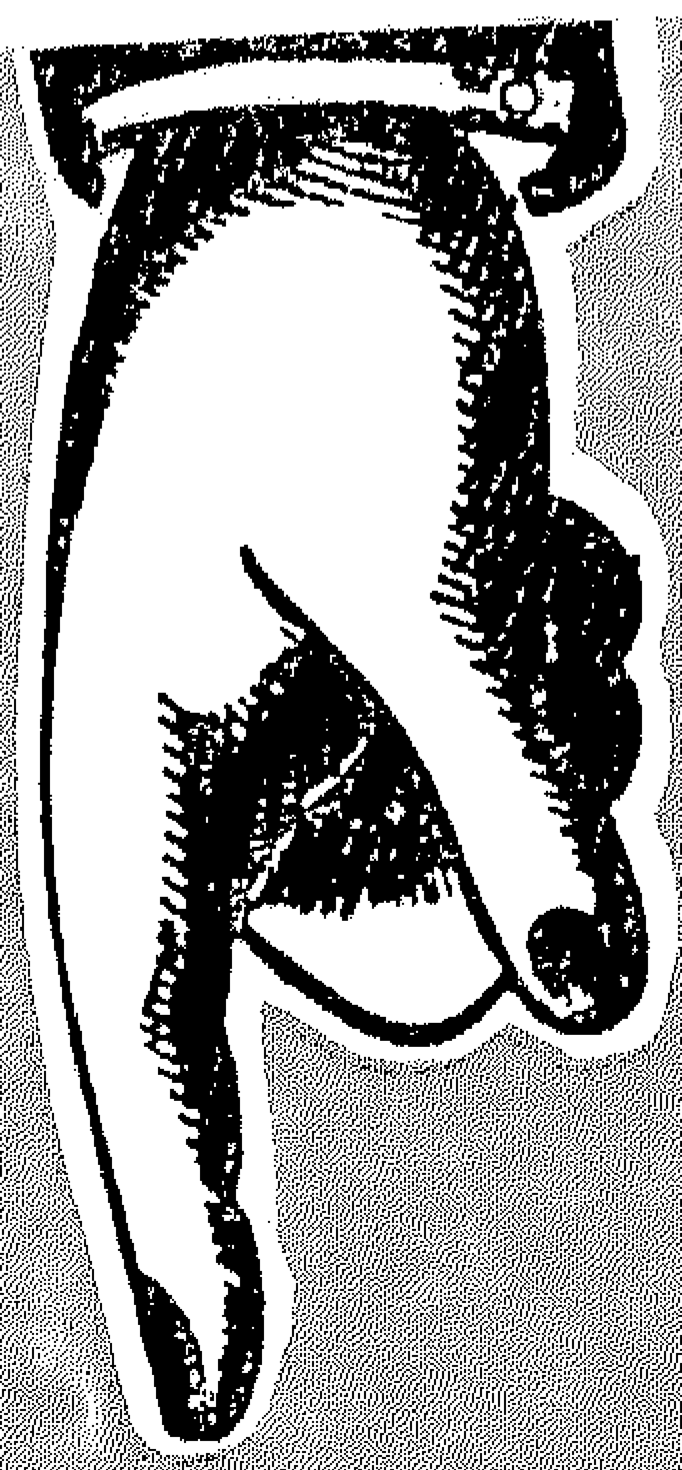
● وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

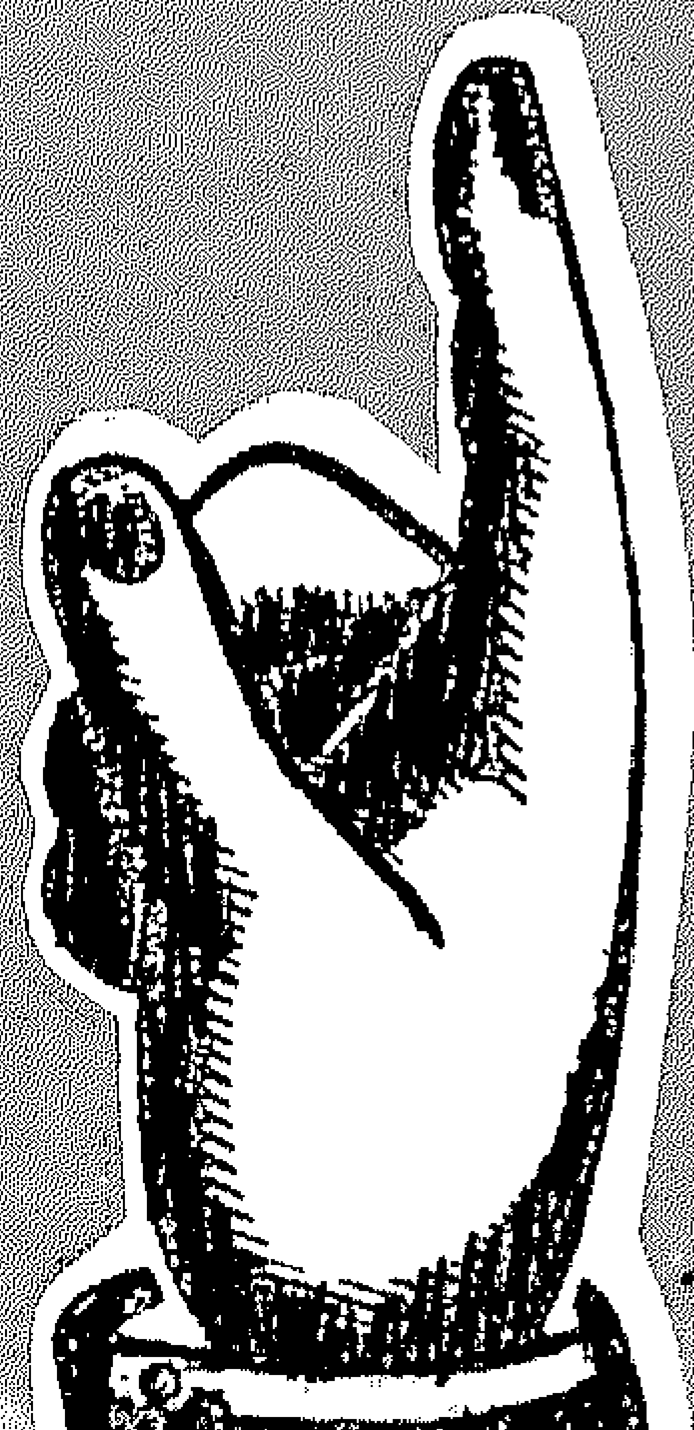
الكويت : السيد / عبدالعال بسيونى زغلول ، الصفاة - ص . ب رقم ٢١٨٣٣
للحصول على نسخ من كتاب الهلال اتصل بالتلكس : 92703 Hilal.V.N

برتراند
رسل

الدين والعلم

ترجمة
رمسيس
عوض



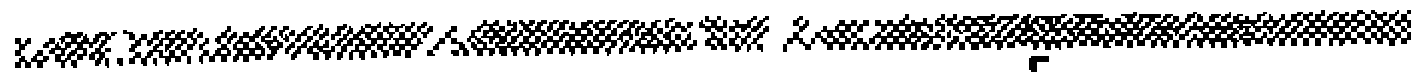




KITAB
AL-HILAL

الاصدار الاول
يونيو ١٩٥١

سلسلة شهرية تصدر عن دار الهلال



دارالهلال ١٦ ش محمد عزالعرب. تليفون: ٣٦٢٥٤٥٠ سبعة خطوط

العدد٥٥٤ - رمضان ١٤١٧ - فبراير ١٩٩٧ NO- 554-FE-1997

فاكس FAX-3625469

أسعار بيع العدد الفئة ٣٥٠ قرشاً

سوريا ١١٥ ليره - لبنان ٧٠٠٠ ليره - الأردن ٢٧٠٠ فلسا

الكويت ١٧٥٠ فلسا - السعودية ١٥ ريالاً.

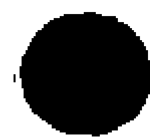
الدين والعلم

تأليف

برتراندراسل

ترجمة

د . رمسيس عوض



دار الهلال

الغلاف للفنان

حلمى التونى

الفصل الأول

أسباب الصراع بين الدين والعلم

الدين والعلم وجهان للحياة الاجتماعية . وقد برزت أهمية الدين منذ نشأة تاريخ الفكر على الأرض فى حين برزت أهمية العلم فجأة فى القرن السادس عشر بعد فترة من الوجود المتقطع عند الاغريق والعرب ليشكل على نحو متزايد الأفكار والمؤسسات التى نعيش فى ظلها . واحتدم بين الدين والعلم صراع طويل ظل العلم فيه منتصرا بصورة أو أخرى حتى السنوات الأخيرة . غير أن ظهور ديانات جديدة فى كل روسيا (الشيوعية) وألمانيا (النازية) تستخدم العلم فى أساليب نشاطها التبشيرى جعل مسألة انتصار العلم أمراً مشكوكا فيه غير ما كان عليه الحال مع بداية عصر العلم كما جعل من المهم فحص تاريخ وأسباب الحرب التى شنها الدين التقليدى ضد المعرفة العلمية .

والعلم محاولة عن طريق الملاحظة وإعمال العقل القائم على هذه الملاحظة لاكتشاف الحقائق الخاصة بالعالم ثم اكتشاف القوانين التى تربط الحقائق بعضها ببعض . والعلم فى الحالات التى تصادف حسن الحظ يجعل من الممكن التنبؤ بأحداث المستقبل . والتكنيك العلمى يرتبط

بهذا الوجه النظرى للعلم . ويستخدم هذا التكنيك المعرفة العلمية لتوفير الراحة ووسائل الترف التى كان ينبتخيل تحقيقها فيما مضى أو التى كانت على أقل تقدير تتكلف نفقات باهظة فى العصور السابقة على عصر العلم.

وإذا نظرنا إلى الدين من الناحية الاجتماعية نرى أنه ظاهرة أشد تعقيدا من العلم . فجميع الأديان التاريخية العظيمة لها ثلاثة وجوه هى:

١ - الكنيسة .

٢ - العقيدة .

٣ - نظام يحكم الأخلاق الشخصية .

والأهمية النسبية لهذه العناصر الثلاثة تختلف اختلافا كبيرا باختلاف الزمان والمكان . فالأديان القديمة عند الاغريق والرومان لم يكن فى جعبتها الكثير لتقدمه عن الاخلاق الشخصية . وقد ظل الوضع كذلك حتى جاء الرواقيون وأضافوا بعدا أخلاقيا لهذه الأديان . وفى الاسلام لم تكن الكنيسة لها أهمية بالمقارنة بالملك أو الحاكم الزمنى . وفى البروتستانتية الحديثة هناك اتجاه للتخفيف من تشدد العقيدة وقيودها . ورغم هذا فجميع هذه العناصر الثلاثة بدرجات متفاوتة ضرورية للدين كظاهرة اجتماعية ، وهو الأمر الذى يحتل أهمية أساسية فى الحرب التى يشنها الدين ضد العلم . فالدين الشخصى

البحث يمكنه أن يعيش حتى فى أكثر العصور علمية دون أن يعكر صفوه شيء طالما أنه يتجنب التورط فى أية تأكيدات يمكن للعلم أن يدحضها.

والعقائد هى المصدر الفكرى للصراع المحتدم بين الدين والعلم. ولكن الحدة التى اتسمت بها معارضة الدين للعلم ترجع إلى الصلة التى تربط العقيدة بالكنيسة كما تربطها بنظام الأخلاق. فالذين يعبرون عن شكوكهم فى العقيدة يضعفون سلطة رجال الكنيسة وقد يقللون دخلهم. أضف إلى ذلك الاعتقاد بأنهم يدمرون الأخلاق لأن رجال الكنيسة درجوا على استخلاص الواجبات الأخلاقية من العقائد. ومن ثم فإن الحكام الزمنيين ورجال الكنيسة يشعرون بأن هناك من الأسباب ما يجعلهم يخشون التعاليم الثورية التى يقدمها رجال العلم.

وسوف لا نعنى فى الصفحات التالية بالعلم بوجه عام أو بالدين بوجه عام ولكن باستجلاء نقاط التصارع بينهما فى الماضى والحاضر.

وبالنسبة للعالم المسيحى كان هناك نوعان من هذا الصراع. وقد يحدث أحياناً أن نجد آية فى الكتاب المقدس تؤكد صحة بعض مما يعرض لنا فى حياتنا اليومية مثل القول بأن الأرنب البرى يجتر طعامه. وعندما تدحض الملاحظ العلمية مثل هذا التأكيد فإن ذلك يسبب صعوبات ومشاكل أمام المؤمنين مثلما حدث لمعظم المسيحيين مرجعها اعتقادهم بأن كل كلمة وردت فى الكتاب المقدس موحى بها من الله،

وذلك قبل أن يضطرهم العلم لنبذ هذا الاعتقاد . و لكن عندما لا تكون لتأكيدات الكتاب المقدس أية أهمية دينية كامنة فإنه يسهل على المؤمنين في هذه الحالة غض النظر عنها أو تجنب الملاحاة بالقول بأن الكتاب المقدس يفتى فقط فى مسائل الدين والأخلاق.

وعلى أية حال نشب صراع أعمق حين تصدى العلم لدحض بعض المسلمات المسيحية المهمة أو بعض المذاهب الفلسفية التى يعتبرها رجال اللاهوت ضرورية للفكر الدينى الأرثوذوكسي الراسخ . وبوجه عام كانت الخلافات بين الدين والعلم في بادىء الأمر من النوع الأول ولكنها أصبحت بالتدريج تعنى بالأمورالتي تعتبر جزءا حيويا من التعاليم المسيحية .

إن المتدينين والمتدينات فى الوقت الحاضر صاروا يشعرون أن معظم عقيدة العالم المسيحى كما كانت سائدة فى العصور الوسطى غير ضرورية وانها فى الواقع مجرد عائق أمام الحياة الدينية . ولكننا إذا شئنا أن نفهم المعارضة التى لقيها العلم فعلينا أن ندرك بخيالنا ذلك النظام الفكرى الذى جعل هذه المعارضة تبدو معقولة . ولنفرض أن رجلا سأل قسيسا ما الذى يمنعه من ارتكاب جريمة قتل فإن إجابة القسيس له «لأنهم سيشنقونك» تبدو غير مقنعة لسببين أولهما أن الشنق يحتاج إلى تبرير . وثانيهما أن أساليب الشرطة كانت قاصرة الأمر الذى أتاح فرصة الهرب لعدد كبير من القتلة .

وعلى أية حال كانت هناك قبل نشأة العلم إجابة بدت مقنعة فى نظر معظم الناس مفادها أن القتل تحرمه الوصايا العشر التى أوحى بها الله لموسى على جبل سيناء . فالمجرم الذى يهرب من عدالة الأرض لا يمكنه الهروب من غضب الله . الذى يخص القتلة غير التائبين بعقاب أفظع بكثير جداً من الشنق . مثل هذه المحاجاة تقوم على سلطة الكتاب المقدس . وهى محاجاة لا تتوافر لها السلامة إلا فى حالة قبول الكتاب المقدس ككل . وعندما يبدو أن الكتاب المقدس يقول إن الأرض لا تدور فعلينا أن نستمسك بهذا القول على الرغم من محاجاة جاليليو لأننا إذا لم نفعل هذا فسوف يكون هذا بمثابة تشجيع للقتلة وسائر الأشرار الآخرين . ورغم أن القليلين يقبلون هذه المحاجاة فى الوقت الراهن فلا يمكن اعتبارها محاجاة سخيفة ومضحكة كما أنه لا يمكننا أن نوجه اللوم والتقريع الأخلاقى إلى الذين بنوا تصرفاتهم على أساس هذه المحاجاة .

إن النظرة التى سادت تفكير المتعلمين فى القرون الوسطى اتسمت باتساق منطقى اختفى الآن . ويمكننا أن نعتبر توماس الأكوينى المدافع الثقة عن العقيدة التى وجد العلم نفسه مضطرا إلى التصدى لها والهجوم عليها . ولاتزال نظرة هذا الفيلسوف تسود الكنيسة الكاثوليكية الرومانية حتى يومنا الراهن . ومفاد هذه العقيدة أن بعض حقائق الدين المسيحى الجوهرية يمكن اثباتها عن طريق استخدام العقل وحده بدون

الاستعانة بالوحى أو التنزيل . ومن بين هذه الحقائق وجود خالق قادر على كل شيء وتسع رحمته كل شيء . ونستنتج من قدرته ورحمته أنه لن يترك مخلوقاته تجهل أوامره ونواهيه بشكل يحول بينها وبين طاعة ارادته . ويستتبع ذلك أنه لابد من وجود تنزيل إلهى من الواضح أن الكتاب المقدس يحتويه كما تحتويه القرارات التى تتخذها الكنيسة . ويترتب على التسليم بهذا أن بقية ما نحتاج إلى معرفته يمكن استنباطه من الكتاب المقدس وقرارات المجامع المسكونية. هذه المحاجاة من أولها إلى آخرها تقوم على الافتراضات التى سبق أن قبلها جميع سكان البلاد المسيحية تقريبا . وإذا كانت هذه المحاجاة فى نظر القارىء الحديث تبدو مخطئة أحياناً فإن غالبية الناس المتعلمين وقتها لم ينتبهوا إلى مافيها من خطأ .

ويمكن القول إن الاتساق المنطقى يحمل فى طياته القوة بقدر ما يحمل من ضعف . وترجع قوته إلى أن كل من يقبل صحة احدى مراحل المحاجاة عليه أن يقبل صحة جميع مراحلها التالية . أما ضعف الاتساق المنطقى فيرجع إلى أن كل من يرفض أيا من مراحل المحاجاة اللاحقة عليه أيضاً أن يرفض على الأقل بعض مراحلها الباكرة. وقد أظهرت الكنيسة فى صراعها ضد العلم كلا القوة والضعف المترتبين على الاتساق المنطقى الذى تميزت بها مسلماتها .

والأسلوب الذى يستخدمه العلم للوصول إلى معتقداته يختلف تماماً

عن الأسلوب الذى يستخدمه لاهوت العصور الوسطى . فالتجربة أظهرت خطر التعميم والبدء بالمبادىء العامة لاستنباط الحالات الفردية منها وذلك لسببين أولهما أن هذه المبادىء العامة قد لا تكون صحيحة وثانيهما لأن الاستدلال العقلى القائم عليها قد يكون خاطئا : فالعلم لا يبدأ بالفروض العريضة بل بالحقائق الفردية التى تكتشفها الملاحظة أو التجربة . ويستخلص العلم قاعدة عامة من عدد من هذه الحقائق الفردية . فإذا كانت القاعدة العامة سليمة فإن الحقائق الفردية موضوع البحث تكون مجرد أمثلة . والعلم لا يؤكد هذه القاعدة العامة بشكل مطلق ولكنه يبدأ بقبولها كافتراض صالح للعمل به . وفى حالة سلامة هذا الافتراض فإن بعض الظواهر غير الخاضعة للملاحظة حتى الآن سوف تحدث فى ظروف معينة . فإذا رأى المرء أنها تحدث فإن هذا يعتبر تأكيدا لصحة الافتراض . وإذا لم تحدث فلابد من نبذ هذا الافتراض واختراع افتراض جديد بدلا منه .

وعلى أية حال يتم العثور على حقائق كثيرة تتمشى مع الافتراض دون أن تجعل هذا الافتراض يقينا وإن كانت فى نهاية الأمر تجعل منه أمرا محتملا إلى حد كبير . وفى هذه الحالة يتحول الافتراض إلى نظرية ويمكن لعدد من النظريات (التى ينهض كل منها مباشرة على الحقائق) أن تصبح الأساس لافتراض جديد أكثر عمومية وشمولا وهو افتراض لو صح فإن جميع هذه النظريات سوف تترتب أو تنبنى عليه .

وليس هناك لعملية التعميم هذه أية حدود . وفي حين نجد في فكر القرون الوسطى أن المبادىء العامة هي نقطة البداية نجد في العلم إن هذه المبادىء العامة هي الخاتمة النهائية بمعنى أنها نهائية عند لحظة ما رغم أنها قد تصبح أمثلة على قانون أشمل وأوسع في مرحلة لاحقة . إن العقيدة الدينية تختلف عن النظرية العلمية في أنها تزعم أنها تجسد الحقيقة الخالدة واليقينية بصورة مطلقة في حين أن العلم غير نهائي على الدوام ويتوقع ضرورة إدخال التعديلات على النظريات الحالية إن عاجلا أم آجلا . فضلا عن أنه يدرك أن طريقته من الناحية المنطقية غير قادرة على الوصول إلى براهين كاملة ونهائية . غير أننا نجد في العلم المتقدم أن التغييرات المطلوبة هي في العادة تلك التي توفر له بصورة طفيفة درجة أكبر من الدقة . والنظريات القديمة تظل صالحة للوصول إلى نتائج تقريبية . ولكنها تبقى عاجزة عندما تطرأ بعض مناحي التدقيق على الملاحظة . أضف إلى ذلك أن الاختراعات التقنية التي توفرها النظريات القديمة تبقى دليلا على تمتعها إلى حد ما بنوع من الحقيقة العملية .

ومن ثم نرى أن العلم يشجع التخلي عن البحث عن الحقيقة المطلقة ويستبدل بها ما يمكن تسميته بالحقيقة التقنية المنتمية إلى أية نظرية يمكن استخدامها بنجاح في الاختراعات أو التنبؤات بالمستقبل . والحقيقة التقنية هي مسألة درجة فالنظرية التي ينبع منها عدد أكبر

من الاختراعات والنبوءات الناجحة أصدق من النظرية التى ينبع منها عدد أقل من هذه الاختراعات والنبوءات وهكذا تتوقف المعرفة عن أن تكون مرآة للكون لتصبح مجرد أداة عملية فى تناول المادة ومعالجتها . ولكن هذه الايماءات التى ينطوى عليها الأسلوب العلمى لم تكن واضحة أمام رواد العلم الذين رغم انتهاجهم لأسلوب جديد فى استقصاء الحقيقة ظلوا ينظرون إلى الحقيقة بشكل مطلق مثلما فعل معارضوهم من اللاهوتيين.

وهناك فرق مهم بين نظرة القرون الوسطى ونظرة العلم الحديث فيما يتعلق بالسلطة الواجب الرجوع إليها . فبالنسبة لعلماء اللاهوت فى العصر الوسيط كان الكتاب المقدس ومسلمات العقيدة الكاثوليكية وتعاليم أرسطو (التى كادت مرجعيتها تصل إلى نفس مرجعية هذه العقيدة) أمورا لا تقبل الشك . والفكر الأصيل والجديد بل حتى استقصاء الحقائق تعين عليهما ألا يتجاوزا الحدود التى رسمها ما يتضمنه الكتاب المقدس ومسلمات العقيدة الكاثوليكية وتعاليم أرسطو من تأملات جريئة . والذى كان يحدد الاجابة عن مثل هذه التساؤلات التالية : هل يوجد بشر فى الأطراف المتقابلة من الأرض؟ وهل للمشترى توابع تدور فى فلكه ؟ وهل تسقط الأجسام بمعدلات تتناسب مع كتلتها؟ جميع هذه التساؤلات لم تكن الملاحظة هى التى تحددها بل كان الذى يحددها الاستنباط مما ذهب إليه أرسطو والكتاب المقدس . والصراع الذى ينشب بين اللاهوت والعلم كان فى حقيقة الأمر صراعا بين

مرجعية هذا السلف وبين الملاحظة . والعلماء لم يطالبوا بالاعتقاد في صحة الافتراضات اعتمادا على أن سلطة مهمة قالت بصحتها . بالعكس فهؤلاء العلماء اعتمدوا على شواهدالحواس وذهبوا إلى الايمان فقط بتلك المذاهب التى رأوا أنها تعتمد على الحقائق الواضحة الجلية أمام كل من يلتزم بالملاحظة اللازمة . وحققت الطريقة الجديدة نجاحاً نظريا وعمليا هائلا . الأمر الذى اضطر اللاهوت بالتدريج إلى أن يؤقلم نفســـه مع العلم . ولهذا بدأ تفســـير نصوص الكتـــاب المقدس التى لا تساير العلم على نحو اليجورى أو رمزى . ثم قام البروتستانت بنقل مركز السلطة الدينية من الكنيسة إلى الكتاب المقدس وحده ثم إلى التركيز على روح الفرد بعد ذلك . وبالتدريج أخذ الدين يدرك أن الحياة الدينية لا تعتمد على مايقوله بشأن حقائق الحياة مثل الوجود التاريخى لآدم وحواء . وهكذا لجأ الدين إلى التخلى عن ابنيته الخارجية حتى يتمكن من الاحتفاظ بقلعة منيعة وحصينة . وسوف نرى إذا كان الدين قد نجح أو أخفق فى ذلك .

وعلى أية حال فهناك وجه من وجوه الحياة الدينية قد يكون مرغوبا فيه أكثر من سائر الوجوه ... هذا الوجه يبقى مستقلا عمايحققه العلم من اكتشافات . وهو وجه يمكن أن يكتب له الاستمرار بغض النظر عما نؤمن به بشأن طبيعة الكون . فالدين يرتبط بالحياة الخاصة التى يشعر المؤمنون بها بأهميتها وليس فقط بالعقيدة أو الكنيسة . ونحن نجد عند أفضل القديسين والمتصوفين مزيجا من الايمان ببعض المسلمات

العقائدية وبعض المشاعر المعينة الخاصة بالغاية من الحياة الانسانية . فالانسان الذى يشعر شعورا عميقا بمشكلات المصير البشرى والرغبة فى تخفيف ويلات الانسانية وعذابها ويتطلع إلى الأمل فى أن يحقق المستقبل أحسن امكانيات النوع البشرى أصبح يعتبر اليوم فى أغلب الأحيان صاحب نظرة دينية حتى لو كان لا يؤمن بالدين المسيحى التقليدى . وطالما أن الدين يتلخص فى طريقة الشعور وليس فى مجموعة من المعتقدات فإن العلم لا يستطيع أن يتعرض له أو يمس منه شعرة .

وعلى الصعيد النفسى فإن تآكل وتفتت المسلمات الدينية يجوز بصفة مؤقتة أن يجعلا هذه الطريقة فى الشعور أكثر عسرا وصعوبة بسبب ارتباطها بالمعتقدات اللاهوتية . ولكن هذه الصعوبة لن تدوم إلى الأبد . ففى الواقع أظهر كثير من أصحاب الفكر الحر فى حياتهم أن مثل هذه الطريقة فى الشعور لا ترتبط بالعقيدة ارتباطا جوهريا . وليس هناك امتياز حقيقى يمكن أن يقترن بشكل لا محيص عنه بالعقائد التى لا أساس لها من الصحة . وإذا كانت المعتقدات اللاهوتية ليس لها أساس من الصحة فلا يمكن أن تكون ضرورية للحفاظ على ما هو طيب فى النظرة الدينية . أما إذا فكرنا على نحو مغاير فسوف تملؤنا المخاوف حول ما قد نكتشف ، الأمر الذى سيقف عائقا أمام محاولتنا لفهم العالم فى حين أن امكانية وصولنا إلى الحكمة الحقة تكمن فقط فى مقدار تحقيقنا لهذا الفهم .

الفصل الثانى

نظرية كوبرنيكوس

تتمثل أول معركة حامية الوطيس بل أبرز جميع المعارك من بعض النواحي بين اللاهوت والعلم فى النزاع الفلكى الذى احتدم حول صحة القول بأن الشمس مركز مانسميه الآن بالمجموعة الشمسية . فقد كانت النظرية البطليموسية هى النظرية الأصيلة والراسخة . وطبقا لهذه النظرية فإن الأرض تستقر فى مركز الكون فى حين أن الشمس والقمر والكواكب ونظام النجوم الثابتة تدور حولها كل فى فلكه الخاص به . وطبقا لنظرية كوبرنيكوس الجديدة فإن الأرض غير ثابتة فى مكانها ولها حركتان . فهى تتحرك حول محورها مرة كل يوم كما أنها تدور حول الشمس مرة كل عام .

ونظرية كوبرنيكوس رغم أنها بدت جديدة تماماً فى القرن السادس عشر . إلا أنها فى واقع الأمر من اختراع الاغريق الذين كانوا على درجة عالية من الكفاءة والمقدرة فى علم الفلك . فقد نادت بها مدرسة فيثاغورث التى نسبتها دون أى سند تاريخى إلى فيثاغورث مؤسس هذه المدرسة .

ومن المؤكد أن أول عالم فلك قال بدوران الأرض هو أريستاكوس من ساموس الذى عاش فى القرن الثالث قبل الميلاد . وكان رجلا نابها من عدة نواح . فقد قام باستحداث طريقة سليمة من الناحية النظرية لاكتشاف المسافات النسبية التى تفصل بين الشمس والأقمار رغم أنه توصل إلى نتائج خاطئة للغاية بسبب ما ارتكبه من أخطاء فى الملاحظة . وقد اتهم هذا الرجل مثل جاليليو بالكفر . وأدانه الرواقى كليثينس ولكنه كان يعيش فى عصر ليس للمتعصبين فيه أى نفوذ يذكر على الحكومات . ومن ثم فإن اتهامه بالكفر فيما يبدو لم يلحق به أى أذى.

تميز الاغريق تميزا عظيما فى علم الهندسة الأمر الذى مكنهم من الوصول إلى الاثبات العلمى لبعض المسائل . توصل الاغريق إلى معرفة أسباب الكسوف والخسوف واستنبطوا كروية الأرض من شكل ظل الأرض الواقع على سطح القمر . وتمكن أراتو شيتس الذى جاء بعد أريستاركوس بوقت قصير للغاية من التوصل إلى تقدير حجم الأرض . ولكن الاغريق لم يكونوا يملكون علم الديناميكا . ولهذا فقد عجز المؤمنون بمذهب فيثاغورث القائل بدوران الأرض عن تقديم أية حجة قوية يؤيدون بها وجهة نظرهم . وفى نحو عام ١٣٠ ميلادية قام بطليموس بنبذ فكرة أريستاكوس وأعاد الأرض إلى وضعها المميز فى وسط الكون وظل رأيه سائدا لا يقبل الشك حتى الأزمنة القديمة اللاحقة وطوال فترة العصور الوسطى .

وينسب إلى كوبرنيكوس (١٤٧٣ - ١٥٤٣) شرف من الجائز أنه لايستحقه فى تسمية النظرية باسمه . درس كوبرنيكوس فى جامعة كراكوا فى بولندا ثم ذهب فى شبابه إلى إيطاليا . وفى عام ١٥٠٠ تم تعيينه أستاذا للرياضيات فى روما . وبعد مضى ثلاثة أعوام عاد إلى بولندا حيث قام بإدخال الاصلاحات على نظام العملة والتصدى للفرسان التيوتون . وأمضى وقت فراغه خلال ٢٣ سنة من عام ١٥٠٧ حتى عام ١٥٢٠ فى تأليف كتابه العظيم «حول دوران الأجسام السماوية» الذى نشر عام ١٥٤٣ قبيل وفاته .

وبالرغم من أن نظرية كوبرنيكوس كانت مهمة باعتبارها جهدا للخيال المثمر الذى جعل المزيد من التقدم أمرا ممكنا إلا أنها كنظرية كانت شديدة القصور . فالكواكب كما نعرف الآن لا تدور حول الشمس فى دوائر ولكن فى أشكال اهليلجية «بيضاوية» لا تحتل فيها الشمس مكان المركز ولكنها تحتل احدى بؤراتها .

وتمسك كوبرنيكوس بالرأى القائل بأن مدار الشمس لابد أن يكون دائريا، مفسرا عدم انتظامه بافتراضه أن الشمس ليست تماماً فى مركز أى من المدارات .. وهو افتراض قضى إلى حد ما على بساطة النظام الفلكى الذى استحدثه .. تلك البساطة التى كانت أهم ما تميزت به نظريته على نظرية بطليموس الأمر الذى كان قمينا بأن يجعل

تعميمات نيوتن فيما بعد مستحيلة لولا ما أدخله كبلر على نظرية كوبرنيكوس من تصحيح .

كان كوبرنيكوس يدرك أن أريستاركوس قد سبقه فى المناداة بجوهر نظريته . ويرجع الفضل فى إدراكه هذا إلى إحياء المعارف الكلاسيكية في إيطاليا . فبدون هذا الاحياء كان من الجائز أن تخونه شجاعته فيمتنع عن نشر نظريته لولا اعجاب الناس غير المحدود فى تلك الأيام بتراث الأقدمين . غير أنه أجل نشر نظريته لفترة طويلة خوفا من لوم الاكليروس له . وبالنظر إلى أن كوبرنيكوس نفسه كان واحدا من رجال الاكليروس فقد أهدى كتابه إلى البابا . وقام ناشره أوسياندر بإضافة تصدير إلى الكتاب (من الجائز أن كوبرنيكوس نفسه لم يكن راضيا عنه) قال فيه إن نظرية دوران الأرض هى مجرد افتراض وغير مؤكد كحقيقة إيجابية . وهذه حيلة ظلت كافية لتحاشى المشاكل حتى أظهر جاليليو تحديا وجرأة أكبر قامت الكنيسة على إثرهما بتوجيه إدانة رسمية بأثر رجعى إلى كوبرنيكوس.

وفى بادىء الأمر كاد البروتستانت أن يظهروا عداوة مريرة لكوبرنيكوس أكثر من الكاثوليك . فقد قال لوثر عنه إن «الناس يستمعون إلى فلكى نصاب يحاول أن يبين أن الأرض هى التى تدور وليس السماوات والجلد والشمس والقمر . ويتعين على كل راغب فى إظهار ذكائه أن يستحدث نظاما جديدا يدعى بطبيعة الحال أنه أفضل

مـا استـحـدث من نظم . هذا المأفـون يريد أن يغـيـر وجـه علم الفلك تمامـاً ولكن الكتـاب المقـدس يخـبـرنا أن (هو شـع) أمـر الشـمـس وليس الأرض أن تقف في مكانهـا». ثم جـاء ميلدتشـثون ليـؤكـد هذا القـول . وكـذلك كـالفن الذى أورد الآيـة «١» من المزمـور ٩٣ : «أيضـا تثـبـتت المسكونة . لا تتزعزع» ليخـتـتم قوله منتصـرا: «من الذى سـيـجرأ على وضـع مرجـعية كوبرنيكوس فوق مرجـعية الروح القـدس؟» حتى «ويسلى» الذى لم يجـرؤ على تأكـيـد هذا الرأى على هذا النحـو قـرر أن المذاهب الجديدة في علم الفلك «تميل إلى الكفر» . وانى فى هذا الصدد أظن أن ويسلى كان بمعنى مـا على حق . فـأهمـيـة الإنسـان جـزء أسـاسـى من تعاليم العهدين القديم والجديد حيث نجد في واقع الأمر أن غاية الله في خلق الكون تعنى أسـاسـاً بمصـائر البـشـر . ويبـدو أن مذهب التجـسـد ومذهب الكفارة يصبحان بلا معنى إذا لم يكن الانسان أهم المخلوقات طرا .

وليس هناك فى نظرية كوبرنيكوس الفلكية مايثبت أن البشر يقلون فى أهميتهم عما درج الناس فى الماضى على الاعتقاد . ولكن إزاحة كوكب الأرض واقصائه عن وضعه المركزى يوحى إلى الخيال باقصاء مماثل للإنسان عن مكانه المميز فى الكون . وبينما كان من المعتقد أن الشمس والقمر والكواكب والنجوم الثابتة تدور مرة واحدة حول الأرض كان من السهل على الانسان أن يفترض أنها جميعها مخلوقة من أجله

وان الخالق يهتم به اهتماماً خاصا . ولكن عندما أقتنع كوبرنيكوس وخلفه العالم بأن الأرض هي التى تـــدور دون أن تأبه بها سائر النجوم ... أكثر من هذا عندما اتضح مقدار صغر حجم كوكب الأرض بالمقارنة بعدة كواكب أخرى بل وأن هذه الكواكب الأخرى ضئيلة الحجم بالمقارنة بالشمس ... وعندما أماطت الحسابات الفلكية والتلسكوبات اللثام عن اتساع المجموعة الشمسية واتساع مجرتنا ، فضلا عن اتساع الكون بمجراته التى لا تحصى ولا تعد ... عندما حدث كل هذا أصبح من العسير بشكل متزايد أن نصدق أن ضآلة حجم الأرض وانحسار أهميتها إلى مكان ناء وقصى خليقان بالأهمية التى ينبغى أن تكون عليه المسكونة ... هذا إذا كان الانسان بالفعل يتمتع بتلك المكانة الكونية المهمة التى يضفيها اللاهوت التقليدى عليه . ومجرد التفكير فى ضآلة الأرض بالنسبة للكون ربما توحى بأن الانسان ليس الغاية من هذا الكون . وأوحت البقية الباقية من احترامنا لأنفسنا أنه طالما أن الانسان ليس الغرض من وجود هذا الكون فإنه من المرجح أنه ليس للكون أى غرض على الاطلاق . ولست أعني القول إن مثل هذه الأفكار لها أى ترابط منطقى أو القول بأن نظرية كوبرنيكوس كانت سببا فى انتشار هذه الأفكار فى الحال علي نطاق واسع . بل أعنى فقط أن أقول إن هذه النظرية كانت قمينة بأن تثير هذه الأفكار فى العقول التى تختمر فيها (مثل جيوردانو برونو الذى أحرقته محاكم التفتيش حيا بعد

أن قامت بسجنه لمدة سبع سنوات) . ومن ثم فليست هناك أدنى غرابة في أن الكنائس المسيحية سواء كانت بروتستانتية أو كاثوليكية شعرت بالعداء نحو الفلك الجديد وسعت إلى إيجاد المبررات لوصمه بالهرطقة.

ثم جاء كبلر (١٥٧١ - ١٦٣٠) ليخطو الخطوة العظيمة التالية . ورغم أن آراءه كانت نفس آراء جاليليو فإنه لم يدخل أبداً في صراع مع الكنيسة . بالعكس غفرت له الكنيسة الكاثوليكية إيمانه بالمذهب البروتستانتي تقديرا له على علو مكانته العلمية . (وربما يرجع هذا إلى تقدير الامبراطور لخدماته الفلكية) . وعندما انتقلت مقاليد الأمور ، من مدينة جواتز التي عينته أستاذا بها ، من أيدي البروتستانت إلى أيدي الكاثوليك انتهى الأمر بطرد الأساتذة البروتستانت . ولكنه رغم فراره أعيد إلى سابق وظيفته بفضل رضاء طائفة الجيزويت عنه .

ثم خلف «تايكو براهي» كعالم رياضيات القصر الامبراطوري في عهد الامبراطور رودولف الثاني وآلت إليه جميع السجلات الفلكية التي لا تقدر بثمن والتابعة لتايكو . ولو أن كبلر اعتمد في معاشه على وظيفته الرسمية لتضور من الجوع لأن راتبه الكبير كان لا يصرف له . وبالإضافة إلى كونه فلكيا اشتغل كبلر بالتنجيم . ولعله اعتقد في التنجيم اعتقادا مخلصا . وعندما قرأ كبلر طالع الامبراطور وطالع رجالات الدولة استطاع طلب أجره عن ذلك نقدا وعدا . ويحدثنا كبلر بإخلاص يثير الاعجاب قائلاً : «إن الطبيعة التي أعطت لكل حيوان

وسيلته في الاستمرار في الحياة أعطت التنجيم كمساعد وحليف للفلك».
ولم تكن قراءته للطالع والأبراج السماوية مصدر رزقه الوحيد إذ تزوج وريثة . ورغم شكواه الدائمة من الفقر فقد تبين عند وفاته أنه لم يكن معدما على الاطلاق.

كانت عقلية كبلر فريدة . دافع كبلر عن نظرية كوبرنيكوس بسبب اقتناعه العقلاني بها من ناحية وبسبب عبادته للشمس من ناحية أخرى. وفي جهوده التي أدت إلى أكتشافه قوانينه الثلاثة اهتدى إلى نظرية خيالية مفادها أن هناك علاقة بين المجسمات المنتظمة الخماسية الشكل وبين الكواكب الخمسة الآتية : عطارد والزهرة والمريخ والمشترى وزحل . الأمر الذي يعطينا مثلا صارخا على ظاهرة كثيرة الجدوث في تاريخ العلم وهي أن النظريات التي تثبت الأيام صحتها وأهميتها تخطر للوهلة الأولى على أذهان مكتشفيها نتيجة اعتبارات غير واقعية ومضحكة للغاية . وليس هناك تكنيك من شأنه أن يسهل هذه الخطوة الجوهرية للغاية في طريق التقدم العلمي ؛ وتبعا لهذا فإن أية خطة نظامية تطرحها الافتراضات الجديدة قمينة بأن تكون ذات فائدة . فإذا كان الباحث يؤمن بها إيماناً راسخاً فإنها تعطيه الصبر على فحص إمكانياتها المتجددة باستمرار رغم نبذ الكثير من هذه الامكانيات المتجددة في وقت سابق . وهكذا كان الحال مع كبلر فنجاح كبلر الأخير وخاصة في استحداث قانونه الثالث يرجع إلى صبره الذي لا ينفد كما

أن صبره يرجع إلى معتقداته الصوفية القائلة بأن مفتاح السر لابد أن يكون كامنا في شيء له علاقة بالمجسمات المنتظمة الخماسية الشكل وفي أن الكواكب في دورانها كانت تعزف «موسيقى الأفلاك» . وهي موسيقى لا تسمعها سوى روح الشمس .«ولا غرو فقد كان مقتنعا اقتناعا راسخا بأن الشمس بشكل أو آخر تجسد روحاً مقدسة.

نشر كبلر قانونيه الأول والثاني عام ١٦٠٩ ثم نشر قانونه الثالث عام ١٦١٩ . «وكان قانونه الأول أهم هذه القوانين الثلاثة فيما يتعلق بإعطاء صورة لنظام المجموعة الشمسية . وينص القانون الأول على أن الكواكب تدور حول الشمس في مدارات اهليلجية (بيضاوية) تحتل فيه الشمس احدى بؤرها . (وحتى نرسم شكلا بيضاويا يمكننا تثبيت دبوسين في قطعة ورق بحيث يبعد كل دبوس عن الآخر مسافة بوصة واحدة . وبعدئذ نحضر دوبارة طولها بوصتان ثم نقوم بتثبيت طرفي الدوبارة بالدبوسين . عندئذ تكون النقاط التي يمكن الوصول إليها بعد شد الدوبارة ذات شكل بيضاوي يحتل فيه الدبوسان مكان البؤرتين . ومعنى هذا أن الشكل البيضاوي يتكون من نقاط بحيث يكون مجموع بعدى أى نقطة عن البؤرتين ثابتا . وفي بداية الأمر افترض الاغريق ان كل الأجرام السماوية تدور في دوائر لأن الشكل الدائرى هو أكثر المنحنيات اكتمالا . وعندما أدركوا أن هذا الافتراض لا يوصلهم إلى شيء بدأوا يقولون إن الكواكب تدور في

حـــــركة فوق دائـــرية epicycles أى فى مجموعة من الدوائرالتى ترتكز جميعها على نقطة تتحرك فى شكل دائرى . (وحتى نرسم صورة للفوق دائرى نحضر عجلة كبيرة ونضعها على الأرض ثم نحضر عجلة أصغر منها يوجد فى حافتها مسمار . ثم نجعل العجلة الصغيرة تدور حول العجلة الكبيرة بينما يحك المسمار فى الأرض . عندئذ يصبح ناتج الشكل الذى يتركه المسمار على الأرض على هيئة فوق دائرية . فإذا افترضنا أن الأرض تتحرك فى دائرة حول الشمس والقمر يتحرك فى دائرة حول الأرض فإن القمر سيدور بطريقة فوق دائرية حول الشمس . ورغم أن الاغريق عرفوا الكثير عن الشكل البيضاوى وخواصه الرياضية فإنه لم يخطر على بالهم أنه يمكن للأجسام السماوية أن تتحرك فى أية أشكال غير الأشكال الدائرية أو مضاعفاتها . ويرجع هذا إلى أن أحساسهم الجمالى كان يسيطر على تأملاتهم الأمر الذى جعلهم ينفذون كل الافتراضات باستثناء الافتراضات المنتظمة . ثم جاء المفكرون المدرسيون ليرثوا هذه التحيزات الاغريقية . وكان كبلر أول من عارضهم فى هذا الشأن .

والأفكار المسبقة النابعة من جذور جمالية لا تقل فى قدرتها على التضليل عن الأفكار المسبقة فى مجالى الأخلاق واللاهوت . ويكفى هذا السبب وحده لأن يجعل من كبلر عالماً له أهميته القصوى . فضلا عن أن

قوانينه الثلاثة تحتل أهمية أعظم فى تاريخ العلم لأنها وفرت لنيوتن الدليل الذى اعتمد عليه لإثبات قانون الجاذبية .

وتختلف قوانين كبلر عن قانون الجاذبية في أنها ذات طابع وصفى خالص فهى لم تقترح أى سبب تفسر به حركة الكواكب ولكنها أعطت أبسط الصيغ والقواعد التى يمكن عن طريقها تلخيص نتائج الملاحظة . إن البساطة الوصفية كانت حتى ذلك الوقت الميزة الوحيدة للنظرية القائلة إن الكواكب تدور حول الشمس ولا تدور حول الأرض . وان دوران الأفلاك السماوية اليومى الظاهر يعود فى حقيقة الأمر إلى دوران الأرض حول نفسها . وفى القرن السابع عشر بدا لعلماء الفلك أن المسألة تتجاوز حدود البساطة فقد رأوا أن الأرض تدور بالفعل حول نفسها وأن الكواكب تدور بالفعل حول الشمس ، وهو الأمر الذى أكدته اكتشافات نيوتن . ولكن بالنظر إلى أن الحركة شيء نسبى فإنه لا يمكننا أن نميز بين الافتراض القائل بأن الأرض تدور حول الشمس والافتراض بأن الشمس تدور حول الأرض . فكل من هذين الافتراضين مجرد وصف لنفس الواقعة . مثل القول بأن أ تزوج ب أو أن ب تزوج من أ . ولكن عندما ندخل في التفاصيل نجد أن الوصف الكوبرنيكى الأكثر بساطة فى غاية الأهمية لدرجة أننا لن نجد شخصا عاقلا على استعداد لأن يعيق نفسه ويكبلها بالأغلال والتعقيدات الناجمة عن الايمان بأن الأرض ثابتة . فنحن نقول إن القطار سافر إلى ادنبرة

وليس ادنبرة هي التي تسافر إلى القطار . ونحن يمكننا أن نقول إن ادنبرة تسافر إلى القطار دون أن نرتكب خطأ منطقياً . ولكن علينا في هذه الحالة أن نفترض أن كل المدن والحقول التي يمر عليها القطار أخذت فجأة تندفع إلى الجنوب . وينطبق هذا على كل شيء على سطح الأرض فيما عدا القطار . وهو أمر ممكن من الناحية المنطقية ولكنه شديد التعقيد بدون داع أو مسوغ . ونحن نجد نفس هذا التعسف وانتفاء الغاية في الاعتقاد بدوران النجوم اليومي طبقا لما افترضه وذهب إليه بطليموس . غير أنه اعتقاد يخلو بنفس الدرجة من الخطأ العقلي . ومن وجهة نظر كبلر وجاليليو ومعارضيهم فإن المسألة موضع النقاش على أية حال بدت وكأنها تحر لوجه الحقيقة الموضوعية وليست مجرد افتراض مريح لأن فكرة نسبية الحركة كانت لا تخطر لهم على بال . ويبدو أن هذا الخطأ من جانبهم كان حافزا ضروريا لتقدم علم الفلك آنذاك لأن القوانين التي تحكم سير الأجرام السماوية لم تكن لتكتشف لولا التبسيطات التي استحدثتها نظرية كوبرنيكوس.

كان جاليليو جاليلي (١٥٦٤ – ١٦٤٢) أبرز شخصية علمية في عصره بسبب اكتشافاته من ناحية وصراعه مع محاكم التفتيش من ناحية آخرى . وأيضا كان والده عالما في الرياضيات رقيق الحال بذل أقصى جهده لتوجيه ابنه إلى الدراسات القمينة بأن تدر عليه ربحا وفيرا . ونجح الأب في أن يمنع ابنه من أن يعرف بوجود علم

الرياضيات حتى بلوغه سن التاسعة عشرة ولكن الغلام تصادف ، عن طريق استراق السمع ، أن سمع محاضرة فى الهندسة فانكب على هذا العلم بنهم شديد . ولا غرو فقد اجتذبه إليه هذا العلم بسحر يشبه سحر الفاكهة المحرمة . ولسوء الحظ نجد أن مثل هذا الدرس يغيب عن أذهان رجال التربية والتعليم .

وتتلخص ميزة جاليليو العظيمة فى جمعه بين المهارتين التجريبية والميكانيكية وبين القدرة على صياغة نتائجه فى معادلات رياضية . وفى الواقع يرجع إليه الفضل فى دراسة الديناميكا أى دراسةالقوانين التى تحكم حركة الأجسام . لقد سبق أن قام الاغريق بدراسة الستاتيكا أى دراسة التوازن . ولكنهم كانوا – شأنهم فى ذلك شأن رجال القرن السادس عشر – يسيئون تماماً فهم قوانين الحركة وخاصة الحركة ذات السرعات المتغيرة .

نبدأ بالقول بأنه كان يُعتقد أن الجسم الذى فى حالة حركة – إذا ترك وشأنه – يتوقف عن الحركة . أما جاليليو فقد ذهب إلى أنه سيستمر فى الحركة فى خط مستقيم بسرعة متماثلة مادام لا يوجد عائق خارجى يعترض سبيله . وبتعبير آخر فإن ظروف البيئة المحيطة هى السبب ليس فى حركة الأجسام ولكن فى تغير حركتها سواء فى الاتجاه أو السرعة أو فى كليهما . والتغير فى سرعة الحركة أو اتجاهها

يسمى بالتسارع acceleratian وهكذا نجد فى شرح أسباب حركة الأجسام أن تغيير السرعة وليست السرعة نفسها هى التى توضح القوى الممارسة من خارج هذه الأجسام . ويعتبر اكتشاف هذا المبدأ لاغنى عنه فى اتخاذ أول خطوة فى عالم الديناميكا . وقام جاليليو بتطبيق هذا المبدأ فى شرح نتائجه وتجاربه على سقوط الأجسام . لقد ذهب أرسطو إلى أن سرعة سقوط أى جسم تتناسب مع وزنه بمعنى أنه إذا تم اسقاط جسم يزن عشرة أرطال وجسم آخر يزن رطلا واحداً من نفس الارتفاع وفى نفس الوقت فإن الجسم الذى يزن رطلا واحدا يستغرق عشرة أضعاف الوقت الذى يستغرقه الجسم الذى يزن عشرة أرطال . واعتاد جاليليو الأستاذ بجامعة بيزا والذى لا يكن أدنى احترام لزملائه من الأساتذة الآخرين أن يسقط الاثقال من فوق برج بيزا المائل أثناء توجه زملائه من اتباع أرسطو إلى القاء محاضراتهم وكانت أوزان الرصاص الصغيرة والكبيرة تصل إلى الأرض فى نفس الوقت تقريبا ، الأمر الذى أثبت لجاليليو أن أرسطو كان على خطأ . ولكن زملاءه الأساتذة رأوا فى ذلك دلالة على شر جاليليو . جلب جاليليو على نفسه بسبب عدد من الأفعال الشريرة المماثلة الكراهية المشبوبة من جانب هؤلاء الذين اعتقدوا بوجود الحقيقة فى بطون الكتب وليس فى اجراء التجارب . واكتشف جاليليو أنه بغض النظرعن مقاومة الهواء فإن الأجسام عند سقوطها دون عائق تسقط بسرعة متماثلة . وهى فى

الفراغ نفس السرعة التى تسقط بها بقية الاجسام بغض النظر عن حجمها أو عن المادة التى تتكون منها . وفى أثناء سقوط الجسم فى الفراغ دون عائق نجد أن سرعته تزداد نحو ٣٢ قدما فى الثانية . وأيضاً أثبت جاليليو أنه عندما يقذف بالجسم أفقيا مثل الرصاصة فإنه يتحرك فى شكل قطع متكافىء بينما فى السابق كان يفترض أنه يتحرك حركة أفقية لهنيهة . وبعد ذلك يسقط رأسيا . هذه النتائج التى توصل إليها جاليليو قد لا تبدو الآن مدهشة ولكنها كانت بداية المعرفة الرياضية السليمة المتعلقة بكيفية حركة الأجسام . وقبل جاليليو كان للرياضيات البحتة وجود ولكنها كانت تعتمد على الاستنباط ولا تعتمد على الملاحظة كما كان يوجد قدر معين من التجريب فى مجال الكيمياء القديمة الخاصة بتحويل المعادن إلى ذهب . ويرجع الفضل إلى جاليليو فى أنه بذل قصارى جهده لاستحداث ممارسة التجربة بهدف الوصول إلى قانون رياضى . وبذلك جعل من الممكن تطبيق الرياضيات على المادة التى لا تعتمد على المعرفة القبلية apriori (أى المعرفة المستقلة عن التجربة) كما أنه بذل قصارى جهده ليبين بطريقة درامية لا سبيل إلى أنكارها أنه من السهل على جيل تلو جيل أن يتناقل فكرة على أنها أمر مؤكد رغم أن أقل محاولة لاختبارها قمينة بأن تثبت زيفها . ففى خلال فترة الألفى عام التى تفصل بين أرسطو وجاليليو لم يعن لأحد أن يتثبت من صحة القوانين الخاصة بسقوط الأجسام كما قال بها

أرسطو. إن وضع هذه المقولات قيد الاختبار قد يبدو طبيعيا فى نظرنا ولكنه كان فى زمان جاليليو يتطلب النبوغ والعبقرية . ورغم أن اجراء التجارب على الاجسام الساقطة قد يغضب المتحذلقين إلا أنه لم يكن بالأمر الذى تدينه محاكم التفتيش . فقد كان التلسكوب هو الذى جر على جاليليو المشاكل والمخاطر . إذ ترامى إلى سمعه أن أحد الهولنديين اخترع تيلسكوبا فقام جاليليو باختراع تيلسكوب مماثل ، وسرعان ما استخدمه ليكتشف عددا كبيرا من الحقائق الفلكية الجديدة كان أهمها فى نظره وجود توابع سيارة حول كوكب المشترى . وترجع أهمية هذه التوابع إلى أنها نسخة من الصورة التى رسمتها نظرية كوبرنيكوس لنظام المجموعة الشمسية . ولكن كان من الصعب أن تتفق هذه التوابع مع النظام الفلكى الذى ذهب إليه بطليموس . أضف إلى ذلك كانت هناك أسباب عديدة ومتنوعة إلى جانب النجوم الثابتة تحول دون الاعتقاد بوجود سبعة أجرام سماوية فقط (هى الشمس والقمروالخمسة كواكب) . وكان اكتشاف أربعة أجرام سماوية أخرى سببا فى إثارة الانزعاج الشديد لأن هذا لا يستقيم مع إشارات الكتاب المقدس . أو ليست الاجرام السبعة الشمعدانات السبعة التى تحدث عنها سفر الرؤية والسبع كنائس الأسيوية؟!

لقد رفض أتباع أرسطو رفضا قاطعا النظر من خلال التيلسكوب وتشبثوا فى عناد بالقول ان أقمار المشترى مجرد وهم؟ غير أن جاليليو

توخى الحكمة والحصافة فأطلق على الأقمار التي اكتشفها نجوم ميدسى تيمنا باسم دوق توسكانيا ، الأمر الذى ساعد كثيرا على اقتناع حكومتها بوجود الأقمار . وجاءت هذه الأقمار لتدعيم نظرية كوبرنيكوس الأمر الذى جعل المنكرين لوجود هذه الأقمار لا يستمرون فى إنكارها لفترة طويلة .

وبالإضافة إلى أقمار المشترى فإن التيلسكوب كشف عن وجود أشياء فظيعة روعت علماءاللاهوت فقد أثبت أن لكوكب الزهرة وجوها مثل وجوه القمر . إن كوبرنيكوس كان يدرك أن نظريته بحاجة إلى هذا الدليل الذى قدمه جاليليو . وهكذا حول تليسكوب جاليليو المحاجة الموجهة ضد كوبرنيكوس إلى محاجة فى صالحه . واكتشف جاليليو عن طريق تيلسكوبه إن هذا القمر به جبال الأمر الذى كان له وقع الصدمة على الناس ، وزاد من فظاعة اكتشاف جاليليو أنه وجد بقعا على الشمس الأمر الذى فسره الناس بأنه اظهار لما يشوب عمل الخالق من عيوب . ولهذا صدرت أوامر إلى الأساتذة بالجامعات الكاثوليكية بالامتناع عن ذكر وجود هذه البقع الشمسية فى محاضراتهم . بل إن هذا الحظر ظل سارى المفعول لدةقرون فى عدد من هذه الجامعات . (جاء فى كتاب هوايت «الحرب بين العلم واللاهوت»)الفصل الأول ص ١٣٢) أن الأب كلافيوس على سبيل المثال يقول «من أجل رؤية توابع المشترى تعين صنع آلة من شأنها أن تخلق هذه التوابع.» وقد تمت

ترقية قسيس دومنيكانى بسبب موعظة ألقاها حول نص الكتاب المقدس القائل : «وأنتم ياسكان الجليل لماذا تقفون محملقين فى السماء؟» ذهب منها إلى أن الهندسة رجس من الشيطان وأنه ينبغى استبعاد علماء الرياضة باعتبارهم مؤلفى كل الهرطقات . ولم يتوان علماء اللاهوت فى الاسراع بتوضيح أن المذهب الفلكى الجديد من شأنه أن يجعل من الصعب الايمان بفكرة تجسد المسيح . أضف إلى ذلك أن رجال الكنيسة ذهبوا إلى القول إلى أنه طالما أن الله لا يفعل أى شىء عبثا فانه يجب الافتراض أن الكواكب الأخرى آهله بالسكان . ولكن يبقى السؤال : هل هؤلاء السكان من نسل نوح وهل جاءهم المسيح ليعطيهم الخلاص؟ تلك كانت مجرد نماذج قليلة فقط للشكوك الفظيعة التى قال عنها الكرادلة ورؤساء الأساقفة أن جاليليو يثيرها بحبه الكافر للإستطلاع.

وكانت نتيجة هذا أن محاكم التفتيش أولت علم الفلك اهتمامها . وعن طريق الاستنباط من نصوص الكتاب المقدس وصلت محاكم التفتيش إلى حقيقتين هامتين.

«وأول هاتين الحقيقتين الافتراض أنه من السخف والعبث والزيف فى مجال اللاهوت بل ومن الهرطقة القول إن الشمس هى المركز وانها لا تدور حول الأرض لأن هذا القول يتعارض تماماً مع نصوص الكتاب المقدس . والافتراض الثانى القائل بأن الأرض ليست المركز ولكنها تدور

حول الشمس افتراض ينطوى على العبث والزيف فى مجال الفلسفة كما أنه من الناحية اللاهوتية على أقل تقدير يتعارض مع الايمان الحقيقى . ولهذا قام البابا باستدعاء جاليليو للمثول أمام محاكم التفتيش التى أمرته بنبذ أخطائه ففعل هذا فى ٢٦ فبراير ١٦١٦ . وفى جدية ووقار قطع جاليليو على نفسه عهدا بالتخلى عن نظرية كوبرنيكوس والامتناع عن تدريسها شفاهة أو كتابة . ولم يكن قد مر على حرق برونو غير ستة عشر عاماً .

وبناء على تعليمات البابا قامت الكنيسة بحظر كل الكتب المنادية بدوران الأرض عندئذ ولأول مرة تمت إدانة مؤلفات كوبرنيكوس نفسه . وانسحب جاليليو إلى فرنسا ليعيش فيها لفترة قصيرة عيشة هادئة متجنبا اغضاب أعدائه المنتصرين عليه .

وكان جاليلو على أية حال ذات طبيعة متفائلة وعلى استعداد فى جميع الأوقات للتفكه من المغفلين والاستخفاف بهم. وفى عام ١٦٢٣ اعتلى صديقه الكاردينال ماربرينى كرسى البابوية وأصبح يلقب باسم ايربان الثالث الأمر الذى وفر لجاليليو احساسا بالأمان . ولكن الأيام أثبتت له أن هذا الاحساس كان خادعا .

بدأ جاليليو فى تأليف كتابه «حوارات حول أعظم نظامين فلكيين فى العالم» ، الذى انتهى من تأليفه عام ١٦٣٠ ونشره عام ١٦٣٢ . وفى هذا الكتاب تظاهر جاليليو تظاهرا واهيا باتخاذ موقف محايد من أعظم

نظامين فلكيين هما نظامـا بطليمـوس وكوبرنيكـوس . غير أنه كـان واضحا أن الكتاب يتضمن محاجاة قوية تدافع عن نظرية كوبرنيكوس .

وبينما صفق العلماء لجاليليو عبر الاكليروس عن شديد استيائهم منه . وفى الفترة التى أرغم فيها جاليليو على التزام الصمت أغتنم أعداؤه هذه الفرصة لتعبئة الشعور ضده عن طريق طرح بعض المحاجات التى من شأنها توريط كل من يتصدى للرد عليها . وذهبت هذه المحاجات إلى أن تعاليم جاليليو تتنافى مع الاعتقاد بوجود الله وجودا حقيقيا . وذهب الأب الجيزويتى ميلشيور أنشوفير إلى أن الرأى القائل بدوران الأرض هو أفظع الهرطقات جميعا وأشدها خطرا وأكثرها إثارة للفضائح ولهذا فإن مبدأ عدم دوران الأرض مبدأ مقدس فى ثلاثة وجوه وأنه يمكن التغاضى عن الأفكار التى تنكر خلود الروح ووجود الله والتجسد فى حين أنه لا يمكن السماح بالمحاجات التى تثبت دوران الأرض ، وهكذا نجح رجال اللاهوت عن طريق اطلاق صرخات الاستثارة الشبيهة بصرخات الصياد وهو يطارد فريسته أن يجعلوا مرجل الغضب يغلى فى عروق زملائهم . وبذلك صاروا جميعا على استعداد للانقضاض على جاليليو ذلك الرجل العجوز الذى دب فيه الوهن وأصبح فى طريقه إلى فقدان ضوء عينيه .

ومرة أخرى تم استدعاء جاليليو إلى روما للمثول أمام محاكم التفتيش التى أصبحت الآن فى حالة مزاجية متشددة عما كانت عليه عام ١٦١٦ بسبب شعورها بأنها عجزت خلال التحقيق معه أن تأخذ منه حقا أو باطلا . فى بادىء الأمر اشتكى من أن مرضه لن يمكنه من تحمل مشاق السفر من فلورنسا إلى روما ، فهدده البابا بإرسال طبيبه الخاص للكشف عليه ، كما أن البابا أصدر أمرا باقتياده مكبلا بالأغلال إذا ثبت أنه مرضه ليس شديد الوطأة ، الأمر الذى دفع جاليليو إلى أن يبدأ الرحلة دون أن ينتظر قرار عدوه طبيب البابا الخاص . وعندما وصل جاليليو إلى روما تم الزج به فى سجون محاكم التفتيش حيث هددوا بتعذيبه إذا لم يتراجع عن آرائه .

وباسم سيدنا يسوع المسيح المقدس وباسم العذراء مريم المجيد أصدرت محاكم التفتيش قرارا بعدم تطبيق العقوبات الخاصة بالهرطقة عليه بشرط أن ينبذ ويلعن ويشهر مقته بقلب خالص وايمان لا ريب فيه لما هو منسوب إليه من أخطاء وهرطقات . وبالرغم من تراجع جاليليو عن آرائه فقد أمر البابا بإدانته والاحتفاظ به فى السجن التابع لقداسته لفترة يقوم البابا بتحديدها وفقا لما يراه مناسبا . وأمره البابا من باب الاستغفار المفيد أن يقوم فى خلال السنوات الثلاثة التالية بتلاوة السبعة مزامير الخاصة بالتوبة . وكان هذا الحكم المخفف مشروطا بتراجعه عن آرائه . وبناء عليه تلا جاليليو أمام الملأ وهو جاث على ركبتيه صيغة

مطولة أعدتها محكمة التفتيش جاء فيها : «إني أنبذ وألعن وأمقت الأخطاء والهرطقات المنسوبة إليَّ ... وأقسم أنني في المستقبل لن أقول أو أوكد أبدا شفاهة أو كتابة أي شيء قد يدعو إلى اثارة الشكوك المماثلة حول شخصي» واستطرد جاليليو ليقطع على نفسه وعدا بالاستنكار وتبليغ محاكم التفتيش عن كل المهرطقين الذين قد يجد في المستقبل أنهم لا يزالون يؤمنون بدوران الأرض وأن يقسم على الكتاب المقدس أنه نبذ هذا الرأى بالفعل ، واقتناعا من جانب محاكم التفتيش بأنها أدت خدمة جليلة للحفاظ على الدين والأخلاق بارغام أعظم رجل في عصره على النطق بشهادة زور سمحت له هذه المحاكم بقضاء بقية حياته في عزلة وسكوت . ورغم أنها لم تلق به في غياهب السجن فإنها راقبت كل تحركاته ومنعته من زيارة أهله وأصدقائه . وفي عام ١٦٣٧ أصيب بالعمى ومات عام ١٦٤٢ وهو نفس العام الذى ولد فيه نيوتن . واضطلعت الكنيسة بمنع تدريس نظام كوبرنيكوس وأعلنت بطلانه في جميع المؤسسات العلمية والتعليمية الخاضعة لسيطرتها . واستمرت الكنيسة الكاثوليكية في حظر تدريس دوران الأرض حتى عام ١٨٣٥م . وعندما أزيح في وارسو الستار عن التمثال الذى نحته ثوروالوش لكوبرنيكوس عام ١٨٢٩ اجتمع حشد كبير من الناس لتكريم هذا الفلكي ولم يظهر في هذا الجمع قسيس واحد من القساوسة الكاثوليك . وظلت الكنيسة الكاثوليكية على مدار مائتي عام تعارض معارضة

شديدة - اضطرت مكرهة إلى تخفيفها - نظرية اقتنع بسلامتها كل علماء الفلك من ذوى الكفاءة والمقدرة خلال كل تلك الفترة تقريبا .

ومن الخطأ أن نفترض أن علماء اللاهوت البروتستانت فى أول الأمر أبدوا عداوة ضد النظريات الجديدة تقل فى ضراوتها عن عداوة الكاثوليك لها . غير أن معارضة البروتستانتية لهذه النظريات الجديدة كانت لعدة أسباب أقل فى فاعليتها من معارضة الكاثوليك . ولا غرو فقد خلت البلاد البروتستانتية من أية هيئة لها نفس قدرة محاكم التفتيش على فرض التماثل الدينى . فضلا عن أن تنوع الملل والنحل البروتستانية جعل الاضطهاد الفعال أصعب وأكثر عسرا . وزاد من هذا العسر أن الحروب الدينية بين البروتستانت والكاثوليك جعلت توحيد الصفوف شيئا مرغوبا فيه . وانتاب ديكارت الهلع عندما سمع بإدانة جاليليو عام ١٦١٦ ففر هاربا إلى هولندا . ورغم أن علماء اللاهوت هناك طالبوا بتوقيع العقاب عليه فإن الحكومة الهولندية رفضت الاستجابة لهم واستمسكت بمبدأ التسامح الدينى . والأهم من كل هذا أن الكنائس البروتستانتية كانت لا تدعى العصمة لنفسها مثلما فعلت الكنيسة الكاثوليكية التى ذهبت إلى أن الباطل لا يأتها من قدام أو وراء . ورغم أن البروتستانت كانوا مقتنعين بأن الأناجيل الأربعة موحى بها من لدن الله فإنهم تركوا مسألة تفسيرها إلى الحكم الشخصى لكل فرد عليها . وسرعان ما انتهى الأمر بالبروتستانتية إلى ايجاد تفسيرات

مـريحـة للنصـوص غـيـر المريحـة الواردة فى الاناجـيل . لقـد بدأت البروتستانتية كثورة ضد السيطرة الكهنوتية وعملت فى كل مكان على ازدياد قوة السلطة الزمنية ضد الأكليروس . وليس هناك أدنى شك أن الاكليروس - لو توافرت لهم أسباب القوة - كانوا سيستخدمونها فى وجه أنتشار مذهب كوبرنيكوس . فنحن نرى فى وقت متأخر يصل إلى عـام ١٨٧٣ أن الرئيس السابق لمدرسة الرهبان الأمريكية من أتباع مـارتن لوثر ينشر كتابا فى سانت لويس عن الفلك قال فيه أنه يجب علينا أن نبحث عن الحقيقة فى الكتاب المقدس وليس فى مؤلفات علماء اللاهوت . ولهذا يجب نبذ تعاليم كوبرنيكوس و جاليليو ونيوتن ومن ساروا على دربهم . ولكن مثل هذه الاحتجاجات المتأخرة تثير الشفقة والرثاء . فقد أصبح من المعترف به الآن فى كل أرجاء العالم أنه بالرغم من أن نظرية كوبرنيكوس ليست الكلمة الأخيرة فى علم الفلك فإنها كانت خطوة ضرورية ومهمة للغاية فى تطوير المعرفة العلمية .

ورغم أن رجال اللاهوت بعد إحرازهم «النصر» المأساوى الكئيب على جاليليو وجدوا أنه من الحكمة أن يتجنبوا التعبير عن موقف رسمى شديد التحديد مثلما فعلوا فى حالة جاليليو فإنهم استمروا فى دعوتهم الظلامية والوقوف فى وجه العلم كلما وجدوا فى أنفسهم الجرأة على ذلك . وهذا ما يتضح لنا من موقفهم من موضوع المذنبات التى

يرى العقل الحديث أنها منفصلة عن الدين ولا تتصل به اتصالا مباشرا وحميما .

وعلى أية حال فإن اللاهوت في العصور الوسطى لم يكن بإمكانه أن يتجنب التعبير عن مواقف شديدة التحديد بشأن كل شيء تقريبا نظرا لكونه نظاما منطقيا متفردا لا يخضع للتغيير أو التبديل . ومن ثم كان يميل إلى شن حرب ضد العلم على جميع الجبهات . وبالنظر إلى قدم اللاهوت فإن الكثير منه كان مجرد جهل منظم يخلع القدسية على أخطاء لم يكن من المفروض أن تستمر في عصر التنوير . أما فيما يتعلق بالمذنبات فإن رجال الدين استمدوا آراءهم عنها من مصدرين . ففي المقام الأول نرى أن العصور الوسطى لم تؤمن بسيادة القوانين الطبيعية مثلما نؤمن نحن بسيادتها الآن .

ومن ناحية أخرى اعتقدت العصور الوسطى أن أي شيء فوق الغلاف الجوى للأرض لا يفنى ولا يستحدث .

نبدأ بسيادة قانون الطبيعة فنقول إن العصور الوسطى اعتقدت أن بعض الأشياء تحدث بطريقة منتظمة مثل شروق الشمس وتعاقب الفصول في حين أنها اعتبرت الأشياء الأخرى علامات ونذرا تشير إلى أحداث آتية أو أنها دعوة إلى الناس كي يتوبوا عن خطاياهم .

ولكن منذ أن جاء جاليليو ورجال العلم ينظرون إلى القوانين الطبيعية على أنها قوانين متغيرة وليست ثابتة . فهذه القوانين تخبرنا

كيف أن الأجسام تتحرك فى ظروف معينة وبذلك تستطيع أن تمكننا من حساب ما سوف يحدث في المستقبل دون أن يعني هذا أن ما حدث لابد وأن يستمر في الحدوث . فنحن نعرف أن الشمس سوف تستمر فى الاشراق لأحقاب طويلة ولكنها في نهاية المطاف قد تتوقف عن ذلك بسبب احتكاكات حركات المد والجزر فيها . وذلك طبقا لنفس القوانين التي تتسبب فى اشراق الشمس الآن . مثل هذا المفهوم كان أصعب من أن يستوعبه العقل فى العصور الوسطى الذى فهم قوانين الطبيعة على أنها تأكيد لاستمرار حدوثها . فضلا عن أن هذا العقل نسب الظواهر غير المعتادة وغير المتكررة إلى إرادة الله مباشرة وليس إلى أى قانون طبيعى .

إن كل شيء تقريبا في السماء بدا منتظما فى نظر القرون الوسطى ومن ثم بدا الكسوف والخسوف استثناء من القاعدة الأمر الذى أثار الفزع والخزعبلات فى نفوس الناس . ولكن الكهنة فى بابل استطاعوا أن يتوصلوا إلى القانون المنظم للكسوف والخسوف . إن الشمس والقمر والكواكب والنجوم الثابتة ظلت على تعاقب الأعوام تفعل نفس الشيء الذى توقعه القدامى منها . ولم يلاحظ الأقدمون ظهور شموس وأقمار وكواكب ونجوم جديدة . ولهذا بدت الأجرام السماوية المألوفة لهم وكأنها لم تعرف الشيخوخة قط . ولهذا أيضا ذهب الأقدمون إلى أن كل شيء يعلو الغلاف الجوى للأرض مخلوق على ما هو عليه وعلى أكمل

وجه أبد الدهر. ونسبوا الكمال إلى الخالق ورأوا أن النمو والفساد يقتصران على الأرض وحدها كما رأوا أن هذا النمو والفساد جزء من العقاب الذى أنزله الله بآدم وحواء بسبب ما اقترفاه من إثم ومعصية . ولهذا اعتقدوا أن الشهب والمذنبات العابرة لابد وأن تكون تحت القمر وداخل غلاف الأرض وهو أمر صحيح بالنسبة للشهب وخاطىء بالنسبة للمذنبات . لقد تمسك رجال اللاهوت تمسكاً شديداً بالرأيين القائلين بأن المذنبات نذر شؤم وأنها داخل الغلاف الجوى للأرض . ومنذ قديم الزمان والمذنبات تعتبر دائما نذيرا لحلول المصائب . وهو ما نراه على سبيل المثال فى مسرحيتى شكسبير «يوليوس قيصر» و «هنرى الخامس» . وقد ربط كاليكستوس الثالث الذى أصبح بابا روما فى الفترة من عام ١٤٥٥ حتى عام ١٤٥٨ والذى أزعجه إزعاجا شديد استيلاء الأتراك على القسطنطينية بين وقوع كارثة هذا الاستيلاء عليها وبين ظهور مذنب عظيم وأمر شعبه بالانخراط فى الصلاة حتى «تتحول كل المصائب الوشيكة الوقوع بعيدا عن المسيحيين لتقع على رءوس الاتراك ، كما أضيفت إلى القداس عبارة : «أيها الرب الصالح انقذنا من الأتراك والمذنب معا» .

وقد كتب جرانمر إلى هنرى الثامن فى عام ١٥٣٢ يقول عن مذنب ظهر فى الأفق آنذاك : «الله وحده يعرف مدلول الأشياء الغريبة التى تشير إليها هذه النذر فى المستقبل» . وفى عام ١٦٨٠ عندما ظهر مذنب

مرعب بشكل غير عادى عبر كاهن اسكتلندى مرموق عن احساسه القومى بطريقة تدعو إلى الاعجاب قائلا إن المذنبات ليست سوى أحوال دنيوية عظيمة تحل بهذه البلاد بسبب خطايانا لأنه لا يوجد شعب أثار غضب الله مثلما فعل شعبنا .» ولعله كان فى ذلك يسير دون وعى منه على درب مارتن لوثر الذى صرخ قائلا : «إن الكفرة يقولون أن المذنبات ترجع إلى أسباب طبيعية . ولكن الله لا يخلق شيئا لا يكون سلفا نذيرا بحدوث كارثة مؤكدة » .

ومهما كانت الخلافات بين الكاثوليك والبروتستانت فقد أتفقوا فى الرأى حول موضوع المذنبات . وأصبح لزاما على أساتذة الفلك فى الجامعات الكاثوليكية أن يقسموا قسما لا يتمشى مع النظرية العلمية للمذنبات وفى عام ١٦٧٣ نشر الاب أوجستين دى أنجيليس عميد كلية كلنستين فى روما كتابا عن الشهب ذكر فيه إن المذنبات ليست دائما أجساما سماوية ولكنها تنشأ أسفل القمر وداخل الغلاف الجوى للأرض» ، إذ أن كل ما هو سماوى لابد وأن يكون خالدا ولا يطرأ عليه الفساد فى حين أن المذنبات لها بداية ونهاية . وبناء عليه لا يمكن للمذنبات أن تكون أجساما سماوية .» وقد ورد هذا الكلام فى معرض دحض أفكار تايكو براهى الذى استطاع عن طريق مساعدة كبلر له أن يعدد أسبابا كثيرة للاعتقاد أن مذنب عام ١٥٧٧ كان أعلى من القمر .

وفسر الأب أوجستين حركات المذنبات المتعرجة بأنها ترجع إلى ملائكة عينها الله لأداء هذه المهمة .

وعند ظهور مذنب هالي الذى تمكن الفلكيون من حساب مداره لأول مرة أورد رالف ثورنبى عضو الجمعية الملكية البريطانية عام ١٦٨٢ مدخلا فى يومياته ينم عن ميل البريطانيين إلى الحلول الوسطى جاء فيه : «أيها الرب أجعلنا مستعدين لتقبل التغيرات التى ينذرنا المذنب بها . فرغم أنى أعلم أن هذه الشهب نتجت من أسباب طبيعية فإنها أيضا غالبا ما تنذر بحلول الكوارث الطبيعية » .

ويرجع الفضل فى الاثبات النهائى أن المذنبات تخضع لقوانين الطبيعة وأنها ليست داخل الغلاف الجوى للأرض إلى ثلاثة رجال أولهم سويسرى يدعى دور فيل الذى أوضح أن مدار المذنب الذى ظهر عام ١٦٨٠ كان على شكل قطع مكافىء أو بارابولا تقريبا ثم جاء هالى ليوضح أن مذنب ١٦٨٢ (الذى تسمى باسمه) والذى سبق أن اثار الذعر عام ١٠٦٦ عند سقوط القسطنطينية له مدار بيضاوى شديد الاستطالة وأن دورته تستغرق نحو ستة وسبعين عاما ثم جاء نيوتن ليثبت عام ١٦٨٧ فى مؤلفه «المبادىء» أن قانون الجاذبية قادر على تفسير حركة المذنبات مثلما هو قادر على تفسير حركة الكواكب ، الأمر الذى اضطر اللاهوتيين الذين يسعون إلى تفسير المذنبات على أنها نذر

إلى التخلى عن أفكارهم والقول بأن الزلازل والبراكين وليست المذنبات هى نذر الشر . ولكن الزلازل والبراكين لا تندرج تحت علم الفلك ولكنها تندرج تحت علم مختلف هو الجيولوجيا الذى تطور فيما بعد ليخوض معركة مستقلة ضد الأفكار الجامدة المتزمتة الموروثة من عصر الجهل .

الفصل الثالث

التطـــور

تطور العلم على نحو يتناقض مع توقعات البشر منه . فقد كانت أبعد الأشياء عن الأنسان هى أول ما تمكن الانسان من اكتشاف القوانين التي تحكمها ، ثم بدأ بالتدريج فى إدراك القوانين التى تحكم الأشياء الأقرب فالأقرب منه . ومن ثم اكتشف الانسان أولا النجوم والكواكب ثم الأرض ثم عالمى الحيوان والنبات ثم الجسم البشرى . وكان آخر ما اكتشفه هو العقل البشرى وهو اكتشاف لا يزال ناقصا حتى يومنا الراهن . وليس فى هذا أية غرابة أو ما يستغلق على الفهم فكلما عرف الانسان شيئا بالتفصيل كان من الصعب عليه أن يرى خطوطه العامة . فالخطوط العامة للطرق التى أنشأها الرومان سهل تتبعها من الطائرة بشكل أوضح من تتبعها من الأرض . وأغلب الظن أن أصدقاء أى شخص أقدر على التكهن بتصرفاته من الشخص نفسه . فعندما يصل حديث هذا الشخص إلى نقطة معينة فانهم يتهكنون فى حتمية مروعة أن يحدثهم باحدى قصصه الأثيرة إلى قلبه فى حين أن الشخص نفسه يبدو وكأنه يتصرف بدافع تلقائى لا يخضع

لقانون أو تحكمه سنة . والمعرفة التفصيلية بالشيء التي يستمدها المرء من واقع تجربته ليست أسهل مصدر لإدراك ذلك النوع من المعرفة العامة التي يسعى العلم إلى الوصول إليها .

وعلينا أن نفهم أنه كان هناك اعتقاد في صحة الحرفية التاريخية لهذه الحقائق الواردة بالفعل في الكتاب المقدس أو التي يمكن أستنتاجها مما ورد فيه . ومن ثم فقد أمكن استنتاج تاريخ خلق العالم من الأنساب في سفر التكوين الذي يخبرنا عن عمر كل شيخ عند مولد ابنه البكر . وكان هناك هامش للخلاف في الرأي بسبب وجود بعض مناحي الغموض وأيضا بسبب الخلافات الموجودة بين النسخة الأصلية من العهد القديم المترجمة إلى اليونانية والنص العبري له . ولكن العالم البروتستانتي بوجه عام استقر على أن خلق العالم حدث عام ٤٠٠٤ ق. م وهو التاريخ الذي حدده أشر رئيس الأساقفة . أما الدكتور لاتيفوت نائب رئيس جامعة كامبردج فلم يكتف بتحديد هذا التاريخ لخلق العالم فحسب بل اعتقد أن الدراسة المتفحصة لسفر التكوين قمينة بأن تحدد تاريخ الخلق على نحو أكثر دقة . ومن ثم ذهب إلى أن خلق الانسان حدث في تمام الساعة التاسعة صباحا في يوم ٢٣ أكتوبر من العام المشار إليه . ولكن هذا التحديد على أية حال لم يكن ملزما للمسيحيين فقد كان من المسموح به لأي مسيحي الاختلاف حول هذا التاريخ كأن

يؤمن بأنه تم خلق آدم وحواء يوم ١٦ أو ٣٠ أكتوبر دون أن يكون هذا سببا فى اتهامه بالهرطقة طالما أنه يبنى اعتقاده على أساس سفر التكوين . وكان من المعروف أن يوم الخلق هو يوم الجمعة بطبيعة الحال استنادا إلى أن الله استراح يوم السبت .

وتعين على العلم أن يحصر نفسه فى هذا الاطار الضيق ، وتعرض للهجوم والتجريح كل من سولت له نفسه أن يعتقد أن فترة ستة آلاف عام وقت أقصر من أن يكفى لخلق الكون المتطور . صحيح أنه لم يعد من الممكن حرقهم أو الزج بهم فى السجون . ولكن رجال اللاهوت بذلوا قصارى جهدهم للتنفيص عليهم ومنع أفكارهم من الأنتشار . وحتى بعد أن تم قبول نظام كوبرنيكوس الفلكى لم تتسبب مؤلفات نيوتن فى اهتزار العقيدة الدينية الراسخة فقد كان نيوتن نفسه رجلا عميق التدين ومؤمنا بأن كل كلمة من الكتاب المقدس موحى بها . والكون كما رآه نيوتن لم يتطور . ويبدو أن آراءه تشير إلى أن خلق الكون تم دفعة واحدة . وافترض نيوتن فى تفسير السرعات التماسية للكواكب التى منعتها من السقوط فى جوف الشمس أن يد الله هى التى قذفت بهذه الكواكب فى البداية وأن قانون الجاذبية يفسر ما حدث بعد أن فعل الله هذا . صحيح أن نيوتن اقترح فى خطاب بعث به إلى بنتلى طريقة يمكن

للنظام الشمسي من خلالها أن يتطور نتيجة التوزيع البدائي والمتماثل تقريبا للمادة . ولكن يبدو من تصريحاته العلنية والرسمية أنه يحبذ فكرة الخلق المفاجيء للشمس والكواكب كما نعرفها وأنه لا يترك مجالا لتطور الكون.

واستمد القرن الثامن عشر من نيوتن الايمان بنوع من الموداعة والتقوى يتجلى فيهما الله أساسا كواضع للقوانين الذى خلق العالم أولا ثم أستن بعد ذلك القواعد التي سيرته وحددت ما تلا عملية الخلق من أحداث دونما الحاجة إلى أى تدخل خاص من جانبه .

غير أن المؤمنين بالعقيدة الأرثوذكسية الأصيلة اعتقدوا فى وجود الاستثناءات مثل المعجزات المرتبطة بالدين . ولكن التأليهيين آمنوا بأن القانون الطبيعي ينظم كل شيء دون استثناء . وقد عبر الشاعر إلكسندر بوب في قصيدته «مقال عن الأنسان» عن هاتين وجهتى النظر .

إن خالق الكون القادر على كل شيء
يتصرف وفقا للقوانين العامة
ولا يتصرف وفقا للقوانين الجزئية
أما الاستثناءات فهى قليلة
حتى هذه الاستثناءات اختفت عندما نسيها أصحاب العقيدة

الأصيلة الأرثوذكسية وعندما تخلوا عن الاصرار على وجودها . يقول بوب في هذا الصدد :

إذا وقعت ضربة على أية حلقة في سلسلة الطبيعة فعشر هذه الضربة أو حتى الواحد على العشرة آلاف منها كاف لكسر هذه الحلقة.

وإذا كان كل نظام في تدرجه ضروريا للكل المثير للدهشة فإن أقل قدر من الفوضى يدب فيه لا يقوض هذا النظام وحده بل يقوض الكل معه .

ولو أن الأرض فقدت توازنها وطاشت طائرة بعيدا عن مدارها
ولو أن الملائكة الحاكمة قذفت بها بعيدا عن أفلاكها
ولو أن كل وجود انهار وتحطم على كل وجود
وكل عالم انهار وتحطم على كل عالم
فسوف نرى أركان السماء تومىء إلى مركزها
والطبيعة ترتجف أمام عرش الله.

إن سيادة القانون كما كانت مفهومة في عهد الملكة آن ترتبط بالاستقرار السياسي وترتبط أيضا بالايمان بأن زمن الثورات ولى وانقضى . وعندما عادت إلى الانسان رغبته في التغيير فإن مفهومه لعمل القانون الطبيعي أصبح أقل استاتيكية .

وكانت أول محاولة جادة لبناء نظرية عن نمو الشمس والكواكب والنجوم هي تلك المحاولة التى ضمنها كانط عام ١٧٥٥ فى كتاب ألفه بعنوان «التاريخ الطبيعى العام ونظرية السماوات أو فحص المكونات والأصل الميكانيكى لكل بناء الكون وفقا لمبادىء نيوتن . «وهذا كتاب متميز للغاية يسبق فى بعض النواحى النتائج التى توصل إليها الفلك الحديث . يبدأ الكتاب بالقول بأن جميع النجوم التى نراها بالعين المجردة تنتمي إلى نظام واحد يعرف فى علم الفلك باسم طريق اللبانة . وجميع هذه النجوم تقع تقريبا فى مستوى مكانى واحد . ويذهب كانط إلى أنها تتسم بوحدة لا تختلف عن وحدة النظام الكونى . وببصيرة نافذة وقدرة مذهلة على التخيل رأى كانط أن السدم هى مجموعات أخرى من النجوم المشابهة والبعيدة بعدا هائلا . وهو الرأى السائد الآن بوجه عام . ونادى كانط بنظرية لا يمكن الاعتقاد بصحة بعض أجزائها على أساس رياضى ولكنها تنهض بوجه عام على أساس اجراء استقصاءات تالية أدت به إلى الاعتقاد أن السدم والمجرات والنجوم والكواكب والأقمار التى تدور في فلكها نجمت جميعا نتيجة تكثيف مادة كانت أصلا موزعة حول مناطق تصادف أنها كانت بعض الشيء أكثر كثافة وتركيزا من غيرها من المناطق . وآمن كانط أن الكون المادى بلا نهاية معتبرا لا نهائيته الشيء الوحيد الجدير بلا نهائية الخالق . وذهب كانط إلى أنه حدث انتقال من الفوضى إلى النظام وأن هذا بدأ عند

مركز الجاذبية فى الكون وهى عملية تطلبت الفراغ اللانهائى والزمان اللانهائى .

وهذا الرأى مميز لسببين فهو من ناحية يتصور الكون المادى ككل واحد تشكل فيه المجرات والسدم وحداته المكونة له .كما أنه من ناحية أخرى يتصور فكرة التطور التدريجى الناتج عن توزيع المادة الأولية والتى لا تختلف عن بعضها البعض تقريبا من خلال الفراغ . ويعتبر هذا أول محاولة جادة لإحلال فكرة التطور محل الخلق المفاجىء . والأمر الذى يثير الاهتمام أن نلاحظ أن هذه النظرية الجديدة ظهرت أول ما ظهرت في نظرية تخص السماء والأفلاك ولا تختص بالحياة على الأرض .

ولعدة أسباب عجزت آراء كانط على أية حال عن لفت الأنظار إليها ولا غرو فقد كان لا يزال شابا فى الواحدة والثلاثين من عمره عندما قام بنشر نظريته . فضلا عن أنه كان فيلسوفا وليس عالم رياضيات أو فيزياء محترف . كما أن افتقاره إلي المقدرة والكفاءة فى علم الديناميكا تجلى فى افتراضه أن النظام القائم بذاته يمكنه أن يكتسب خاصية الدوران حول نفسه التى لم تكن في الأصل موجودة فيه . أضف إلى هذا أن بعض أجزاء نظريته كانت مجرد خيالات . فقد ظن مثلا أن سكان الكواكب الأخرى لابد وأن يكونوا أفضل كلما ازداد بعدهم عن

الشمس وهو رأى جدير بالامتداح بسبب تواضع نظرته إلى الجنس البشري ، ولكنه رأى لا يستند إلى أية اعتبارات علمية . ولهذه الاسباب ظلت نظرية كانط مجهولة تقريبا حتى جاء لابلاس فاستحدث نظرية مشابهة ولكنها على مستوى الاحتراف تفوق نظرية كانط فى الكفاءة والاقتدار .

نشر لابلاس عام ١٧٩٦ افتراضه السديمى المشهور فى كتاب له بعنوان «شرح نظام العالم» وسطره وهو فيما يبدو على جهل تام بأن كانط قد سبقه فى ذلك الرأى إلى حد كبير ، ولم يغدو هذا الرأى فى نظر لابلاس أن يكون افتراضا ضمنه فى مذكرة قال فيها إنه مجرد افتراض «يحيط به الشك الذى يجب أن يحيط بكل شىء لا يأتى نتيجة الملاحظة والحسابات .» ورغم أن نظرية أخرى قد حلت اليوم محل نظرية لابلاس فقد قيض لنظريته أن تسيطر على الفكر التأملى لمدة قرن من الزمان . وذهب لابلاس إلى أن المجموعة الشمسية ونظام الكواكب كان فى الأصل عبارة عن سديم واحد موزع وأن هذا السديم انكمش تدريجيا الأمر الذى زاد من سرعة دورانه وأن قوته المركزية الطاردة تسببت فى قذفه بعض الكتل التى تحولت إلى كواكب وأن تكرار نفس العملية أدى إلى ظهور الأقمار والكواكب . وبالنظر إلى أن لابلاس عاش فى وقت الثورة الفرنسية فقد كان ملحدا تماما ورافضا لفكرة الخلق

باكملها فعندما لاحظ نابليون (الذى اعتقد أن الأيمان بوجود ملك فى السماء من شأنه أن يشجع الناس على احترام الملوك على الأرض) أن كتاب لابلاس العظيم بعنوان «ميكانيكا السماء» لايحتوى على أية اشارة إلى وجود الله رد عليه هذا الفلكى بقوله : «لسنا بحاجة إلى افتراض وجوده يامولاى» . وبطبيعة الحال آلم هذا رجال اللاهوت . غير أن كراهيتهم ضد لابلاس امتزجت برعبهم من الثورة الفرنسية ومن الشر العام الذى ساد فرنسا آنذاك . وعلى أية حال اتضح لهؤلاء اللاهوتيين أن حربهم ضد علماء الفلك ضرب من العبث.

إن تطور النظرة العلمية في مجال الجيولوجيا من ناحية من النواحى صار فى الاتجاه المضاد لعلم الفلك . ففى علم الفلك نرى أن الايمان بأن الأجرام السماوية لا تعرف التغير قد حلت محله نظرية مفادها أن تطورا تدريجيا اعترى هذه الأجرام .

ولكن مع التقدم العلمي نجد أن الايمان فى مجال الجيولوجيا بفترة سابقة من التغير السريع الذى يحمل الكوارث فى طياته أعقبه أعتقاد بأن هذا التغير كان دائما بطيئا للغاية . وفي بادىء الأمر كان من المعتقد أنه يتعين اختزال تاريخ الأرض باسره فى مدة ستة آلاف سنة. وبالنظر إلى الأدلة التي وفرتها الصخور المترسبة وبقايا الحمم البركانية الخ ... أصبح من الضرورى افتراض شيوع الكوارث

على الأرض فيما مضـــى حتى يتمكن المرء من ادراك ما اســتغرقه التطور من حقب .

وبإمكاننا معرفة مقدار تخلف علم الجيولوجيا في تطوره عن علم الفلك من النظر إلى حالة علم الجيولوجيا في عصر نيوتن . فنحن نرى أن وود وارد في عام ١٦٩٥ يفسر وجود الصخور المترسبة بالافتراض بأن «كل الكرة الأرضية تفتت وتحللت بفعل الطوفان وأن طبقات الأرض خرجت مستقرة من هذه الكتلة القذرة مثلما تترسب الرواسب الترابية في قاع المحلول» . ويذكر لنا لبيل أن وود وارد قال إن الكتلة المتكونة من الطبقات التي تحتوي على بقايا كائنات عضوية متحجرة والموجودة في القشرة الأرضية تكونت في غضون بضعة شهور . وفي عام ١٦٨١ أي قبل ذلك بأربعة عشرة عاما نشر القس توماس بيرنت الذي أصبح فيما بعد المسئول عن جبانات الموتى كتابا بعنوان «النظرية المقدسة عن الأرض الشاملة على تفسير أصل الأرض وكافة التغييرات العامة التي طرأت عليها أو التي سوف تطرأ عليها حتى يوم الدين وفناء كل الأشياء» . وذهب توماس بيرنت إلى أن خط الاستواء كان موجودا على نفس مستوى دائرة البروج حتى زمن الطوفان . ولكن خط الاستواء تزحزح إلى وضعه المائل الحالي .. (والرأي الأصح من وجهة النظر اللاهوتية هو رأي الشاعر ميلتون القائل بأن التغير حدث في وقت طرد

الانسان من الجنة) . وظن توماس بيرنت أن حرارة الشمس شققت الأرض وجعلت المياه تتدفق من مستودع تحت الأرض ، الأمر الذى كان سببا فى حدوث الطوفان . وأيضا ذهب إلى قدوم فترة ثانية من الفوضى تسود الألف عام التى سوف يأتى فيها المسيح لدينونة العالم . وعلى كل حال ينبغي النظر إلى أرائه بحذر لأنه لم يكن يؤمن بعقاب السماء الأبدى . والأدهى من هذا أنه اعتبر أن قصة السقوط قصة رمزية لدرجة - كما تخبرنا بذلك دائرة المعارف البريطانية - أن الملك وجد نفسه مضطرا إلى ابعاده عن وظيفته ككاتب دورات مياهه . ولكن ويتسون الذى جاء بعده استطاع أن يتحاشى خطأه فيما يتصل بخط الاستواء ويتحاشى أيضا أخطاءه الأخرى . وقد نشر ويتسون عام ١٦٩٦ كتابا بعنوان «نظرية جديدة عن الأرض توضح أن خلق الكون فى ستة أيام والطوفان الذى اجتاح العالم والحريق العام الوارد ذكره فى الكتاب المقدس كلها يتمشى تماما مع الفلسفة وأحكام العقل» . وإلى حد ما دفع ظهور مذنب عام ١٦٨٠ هذا المؤلف إلى تأليف كتابه إذ جعله يعتقد أن مذنبا لابد وأن يكون السبب فى حدوث الطوفان . واعتقد ويتسون أن الستة أيام التى خلق فيها الله العالم أطول من الأيام العادية

ومن الخطأ أن يدعونا هذا إلى الاعتقاد أن وود وارد وبيرنت

وويتسون كانوا أدنى فى مستواهم العلمى من بقية علماء الجيولوجيا فى عصرهم . بالعكس فقد كانوا أفضل الجيولوجيين فى زمانهم . فضلا عن أن ويتســــون على الأقل حظي بثناء الفيلسوف جون لوك العاطر عليه .

كان القرن الثامن عشر مشغولا بملاحاة احتدمت بين مدرستين هما المدرسة المائية التى نسبت وجود كل شىء تقريبا إلى الماء والمدرسة البركانية التى بالغت فى تقدير أهمية البراكين والزلازل . وركزت المدرسة الأولى (التى انصرفت دوما إلى جمع الأدلة الخاصة بالطوفان) علي بقايا الكائنات العضوية المتحجرة الموجودة على ارتفاع شاهق فوق قمم الجبال . ولما كانت هذه المدرسة هى الأكثر أرثوذكسية ومحافظة فى العقيدة الدينية فقد حاول أعداء الأرثوذكسية الدينية أن ينكروا أن البقايا المتحجرة والمترسبة هى بالفعل بقايا حيوانات . وبوجه عام كان فولتير نفسه يتشكك فى أنها بقايا حيوانات . وعندما وجد نفسه مضطرا إلى الاعتراف بأنها بقايا من أصل عضوى ذهب إلى أن بعض الحجيج إلى الأماكن المقدسة تركوها وراءهم . ويدلنا هذا المثل على أن الالحاد الجامد والمتزمت كان فى هذه الحالة بالذات يفوق الأرثوذكسية الدينية فى اتجاهها المناهض للعلم .

وقد آمن العالم الطبيعى الكبير بيفون فى كتابه «التاريخ الطبيعى»

(١٧٤٩) بأربعة عشر مبدأ أدانتها جميعا كلية اللاهوت بجامعة السوربون فى باريس واصفة إياها «بأنها مبادىء كريهة ومخالفة لعقيدة الكنيسة . ويؤكد مبدأ من المبادىء الأربعة عشر - وهو يتعلق بالجيولوجيا - أن «الجبال ووديان الأرض الحالية ترجع فى نشأتها إلى أسباب ثانوية وأن نفس هذه الأسباب بمرور الوقت سوف تدمر كل القارات والجبال والأودية وتنتج قارات وجبالا وأودية مماثلة . ومعنى الأسباب الثانوية هنا كل الأسباب الخارجة عن نطاق تعسف القدرة الالهية في عملية الخلق . وهكذا وجدت الأرثوذكسية الدينية بحلول عام ١٧٤٩ أنه يتعين عليها الايمان بأن العالم خلق بنفس الجبال والوديان وبنفس التوزيع الحالى لليابسة والماء باستثناء البحر الميت الذى طرأ عليه التغير بسبب حدوث معجزة .

ورأى بيفون أنه من غير المناسب أن يدخل فى جدل مع جامعة السوربون فتراجع عن آرائه واضطر إلى نشر الاعتراف التالى . «أعلن أنه لم يكن لدىَّ نية لمعارضة نصوص الكتاب المقدس وأنى أومن إيمانا راسخا بكل ما جاء فيه عن خلق العالم وفقا لترتيبه الزمنى وما احتواه من حقائق . وانى أنبذ كل شىء فى كتابى يتعلق بتكوين الأرض كما أنبذ بوجه عام كل ما قد يتناقض مع قصة موسى».

وهكذا يتضح لنا أنه باستثناء علم الفلك فإن رجال اللاهوت فشلوا في اكتساب الحكمة واستيعاب الدرس الناجم عن صراعهم مع جاليليو .

كان أول كاتب ينادى بوجهة نظر علمية حديثة فى مجال الجيولوجيا هو هاتون الذى ألف كتابا بعنوان «نظرية الأرض» نشره لأول مرة عام ١٧٨٨ ثم أعاد نشره فى طبعة موسعة عام ١٧٩٥ . ذهب هاتون إلى أن التغيرات التى حدثت فى الماضى على سطح الأرض ترجع إلى أسباب لا تزال فعالة حتى يومنا الراهن كما ذهب إلى أنه ليس هناك ما يدعو الى الافتراض بأنها كانت أكثر فاعلية فى الماضى عن الحاضر . ورغم أن هذا الرأى سليم فى جوهره فإن هاتون بالغ فى تطبيقه فى بعض النواحى ولم يطبقه بالدرجة الكافية فى بعض النواحى الأخرى ، نسب هاتون اختفاء القارات الى الفيضانات الكاسحة وهو الأمر الذى أدى إلى خلق طبقات من الرواسب فى قاع البحار ، غير أنه نسب ظهور القارات الجديدة الى التقلصات الأرضية العنيفة ، وهو لم يعترف بالدرجة الكافية بغرق اليابسة المفاجىء أو بظهورها التدريجى ، ولكن منذ أيامه حتى الآن درج كل علماء الجيولوجيا على قبول طريقته عموما فى تفسير الماضى من خلال الحاضر « وأيضا فى نسبة التغيرات الهائلة التى حدثت خلال الحقب الجيولوجية إلى نفس الأسباب التى نراها تعمل الآن ببطء فى إدخال التغييرات على السواحل وفى زيادة ارتفاع الجبال أو انخفاضها وأيضا فى رفع أو خفض قاع المحيطات ،

لقد كان الترتيب الزمني لتكوين العالم كما جاء به موسى السبب الرئيسي الذي منع الانسان من الاقتناع بوجهة النظر هذه في وقت باكر . وشن المؤمنون بصحة سفر التكوين في الكتاب المقدس هجوما ضاريا على هاتون وتلميذه بلاى فير . يقول ليسيل في كتابه «مبادىء الجيولوجيا» (الطبعة الحادية عشرة المجلد الأول ص ٧٨) : إن القارىء يكاد ألا يصدق مشاعر العداء المثارة ضد آراء هاتون والتجاهل الواضح للصدق وحسن الخلق أثناء مناقشة هذه الآراء اللهم إلا إذا تذكر هذا القارىء أن الهياج المحموم كان يسود عقلية الجمهور الانجليزى آنذاك . لقد درج نفر من الكتاب في فرنسا على بذل الجهود الحثيثة لعدة أعوام للتقليل من نفوذ رجال الاكليروس عن طريق إضعاف الأسس التي قامت عليها العقيدة المسيحية ، وكان نجاحهم في هذا المضمار والنتائج المترتبة على اندلاع الثورة سببا في تنبيه أشد العقول قوة وعزما في حين امتلأ خيال المذعورين بالرعب من التجديد ، وكأنهم أمام شبح كابوس مزعج للغاية ، وفي عام ١٧٩٥ اعتبر كل الأثرياء الانجليز تقريبا أن كل مذهب يعارض الكتاب المقدس بمثابة هجوم على الملكية الخاصة وتهديدا باستخدام المقصلة ، وظل الرأى العام البريطاني لعدة سنوات أقل ليبرالية عما كان عليه قبل نشوب الثورة الفرنسية .

وبسبب كثرة أشكال الحياة المندثرة التي يسجلها وجود بقايا

الكائنات العضوية المترسبة ارتبط وتشابك التقدم المتزايد في مجال الجيولوجيا مع علم الأحياء ، وبالنسبة لتحديد مدى قدم العالم أمكن لعلم الجيولوجيا أن يتصالح مع اللاهوت عن طريق اتفاقهما على تفسير الأيام الستة التي تمت فيها عملية الخلق على أنها ستة «عصور» أما فيما يختص بمسألة الحياة الحيوانية فإن اللاهوت تمسك بعدد من الآراء الشديدة الوضوح والتحديد والتي تزايدت صعوبة التوفيق بينها وبين العلم . فقد ذهب اللاهوتيون إلى أن افتراس الحيوان للحيوان لم يبدأ إلا بعد سقوط الانسان في وهدة الخطيئة وان كل الحيوانات الموجودة حاليا تنتمي إلى أنواع تمثلت في الحياة في سفينة نوح * . كما أن الأنواع المندثرة باستثناء القليل منها أغرقها الطوفان . ورأى اللاهوتيون أن الأنواع ثابتة لا يطرأ عليها التغيير أو التبديل وان كلا منها جاء نتيجة فعل منفصل من أفعال الله ، وكان الشك في هذه المعتقدات قمين بإثارة عداوة اللاهوتيين ، وبدأت الصعوبات تظهر عند اكتشاف العالم الجديد ، فأمريكا كانت أبعد ما تكون عن جبل أراراط الذي وجدت عليه سفينة نوح ، ومع ذلك فقد عثر فيها على حيوانات

★ لم يخل هذا الرأي من الصعوبات التي تكتنفه فقد اعترف القديس أوغسطين أنه يجهل السبب الذي حدا بالله أن يخلق الذباب ، وبجسارة أكبر قرر لوثر أن الذباب من خلق الشيطان لتشتيت أنتباهه عن تأليف الكتب الجيدة وهو رأي يفوق الرأي الأول في معقوليته .

كثيرة ليس لها وجود فى الأماكن التى تحتل مركزا وسطا ، فكيف استطاعت هذه الحيوانات السفر الى هذه الأماكن النائية للغاية ؟! لقد ظن البعض أن البحارة أتوا بها ، ولكن هذا الافتراض اكتنفته الصعوبات ، الأمر الذى جعل الحيرة تستبد بعقل الرجل الجيزويتى الورع جوزيف أكوستا الذى كرس حياته لهداية الهنود إلى المسيحية . « لكنه هو نفسه واجه صعوبة في الاحتفاظ بعقيدته ، ويناقش أكوستا هذا الأمر بقدر كبير من التعقل السليم فى كتابه «تاريخ الإنديز الطبيعى والأخلاقى» (١٥٩٠) حيث نراه يقول : «من ذا الذى يستطيع أن يتصور أن الناس في مثل هذه الرحلة البحرية الطويلة سوف يجشمون أنفسهم مشقة حمل الثعالب إلى بيرو وخاصة ذلك النوع من الثعالب المسمى «ألياس» وهو أقذر أنواع الثعالب التى وقعت عليها عيناى ؟ «من ذا الذى يقول على نفس النحو أنهم سوف يحملون معهم النمور والأسود حقا أن مجرد التفكير فى هذا الأمر يثير الضحك . فلو أن عاصفة عاتية دفعت هؤلاء الناس أمامها ضد إرادتهم فى رحلة بحرية مجهولة تستغرق كل هذا الوقت الطويل لكفاهم جدا أن يهربوا بجلدهم دون أن يلخموا أنفسهم بحمل الذئاب والثعالب واطعامها فى عرض البحر ،» (هذه الفقرة مستقاه من كتاب هوايت «حرب العلم ضد اللاهوت») ودعت إثارة مثل هذه المشاكل اللاهوتيين إلى الاعتقاد بأن الشمس قامت تلقائيا بخلق ثعلب «الأكياس» القذر من الطين وكذلك عدد آخر من الحيوانات الضارية الغريبة المماثلة ، ولكن لسوء الحظ أنه لا توجد

إشارة الى هذا فى قصة سفينة نوح . غير أنه لم يكن هناك مفر من هذا الاعتقاد فمثلا لو أن حيوان السلوث slorh المعروف بحركاته المتكاسلة كما يدلنا على ذلك اسمه بدأ من جبال أراراط الذى رسا عليه فلك نوح فكيف تمكن من الوصول إلى أمريكا الجنوبية ؟!

وثارت مشكلة أخرى بسبب عدد الأنواع التى عرفها الانسان مع تقدمه فى مجال الأحياء ، فالأنواع المعروفة الآن تحصى بالملايين . ولو أن زوجا من كل هذه الأنواع كان موجودا فى سفينة نوح لضاقت هذه السفينة بهم . أضف إلى هذا أنه تعين على آدم أن يجهد نفسه فى ايجاد أسماء لهذه الأنواع ، وهو أمر ينطوى على مشقة هائلة فى بدء حياته . وقد نجمت عن اكتشاف استراليا مشاكل أخرى ، فماذا دعا حيوان الكانجارو الى القفز عبر مضايق توريز ليستقر فى استراليا وحدها دون أن يخلف وراءه ولو زوجا واحدا منه . وأيضا جعل التقدم فى علم الأحياء من الصعب الإفتراض بأن الشمس والطين خلقا زوجا من حيوان الكانجارو كامل التكوين ، ورغم هذه الصعوبات لم يكن هناك مناص فى ذلك الوقت بالذات عن أى وقت مضى من المناداة بمثل هذه النظرية .

إن هذه الصعوبات ومثيلاتها أجهدت عقل رجال الدين طوال القرن التاسع عشر . ولنطالع على سبيل المثال كتابا صغيرا بعنوان «لاهوت الجيولوجيين كما يتمثل فى حالات هيوميلر وآخرين» تأليف جيلسباى .

وقد نشر هذا الكتاب عام ١٨٥٩ وهو نفس العالم الذى نشر فيه داروين «أصل الأنواع» . وهو من وضع لاهوتى اسكتلندى ، ويحدثنا كتاب وليم جيلسباى عن «الافتراضات الفظيعة التى يذهب إليها الجيولوجيون» ويتهمهم بأنهم مستودع اساءات أفظع من أن يفكر المرء فيها» . المشكلة الرئيسية التى تشغل بال هذا المؤلف هى نفس المشكلة التى أثارها هيوميلر فى كتابه «شهادة الصخور» الذى جاء فيه أن «عالم الحيوان» أظهر بالضبط نفس حالة الحرب التى يخوضها الآن وذلك عبر عصور سحيقة حتى قبل أن يعرف الانسان الخطيئة أو العذاب .

ويصف هيوميلر فى رعب وصفا حيا أدوات الموت بل التعذيب التى استحدثها ضد بعضها البعض أنواع الحيوانات التى بادت واندثرت حتى قبل ظهور الانسان على الأرض . ورغم شدة تدينه وجد من العسير عليه أن يفهم سببا لأن يلحق الخالق كل هذا العذاب بمخلوقات غير قادرة على ممارسة الخطيئة .

وأمام هذه الشواهد أعاد جيلسباى بجسارة تأكيد الرأى الأرثوذكسى القائل بأن الحيوانات الأدنى تتعذب وتموت بسبب خطيئة الانسان مستندا إلى الآية التى تقول : بسبب الانسان جاء الموت» ليثبت أن الحيوانات لم تعرف الموت إلا بعد أن أكل آدم التفاحة .

كان هذا رأى جميع الملل الدينية . وهكذا نرى ويسلى يقول إن العنكبوت قبل سقوط آدم كان عديم الآذى مثل الطير ولم يكن يتحين الفرصة السانحة لامتصاص الدماء » .

وبعد أن اقتطف جيلسباي وصف هيوميلر للحرب الدائرة بين الحيوانات المندثرة تراه يصرخ قائلا إن الله الذى تشمل رحمته كل شيء لا يمكن أن يكون خالق هذه الوحوش الكواسر . وقد نتفق معه فى هذا الرأى لولا غرابة الحاجات التى يسوقها فيما بعد . ولكن شجاعته خانته فى نهاية الأمر . فنحن نراه يقول إنه بالرغم من كل شيء ربما كانت هناك مثل هذه الوحوش الكواسر . ولكنه يستبعد أن الله خلقها خلقا مباشرا . بل ذهب الى أنها كانت فى الأصل مخلوقات بريئة ضللها الشيطان وأنها ربما - مثل خنازير كرة الجدريين - كانت بالفعل أجساد حيوانات تسكنها أرواح الشياطين . ويفسر هذا لماذا يحتوى الكتاب المقدس على قصة خنازير الجدريين * التى وقفت حجر عثرة فى سبيل الكثير من المؤمنين .

★ جاء فى الاصحاح الثامن من انجيل متى أن المسيح أراد أن يشفي مجنونين بهما شياطين وأرواح نجسة على مبعدة من قطيع من الخنازير وصرخت هذه الشياطين قائلة « ما لنا ولك يايسوع ابن الله» وطلبت الشياطين من يسوع المسيح أن يأذن لها بترك المجنونين والذهاب الى قطيع الخنازير . وأذن لها المسيح بذلك «وإذا بقطيع الخنازير كله قد اندفع من على الجرف الى البحر ومات فى المياه ، وقد دعت هذه الرواية بعض الناس الى التساؤل عن الذنب الذى ارتكبته هذه الخنازير المسكينة حتى يحدث لها ما حدث . (المترجم) .

وقام العالم الطبيعى جوس والد أدموند جوس بمحاولة غريبة لإنقاذ الفكر الأرثونكسى فى مجال الجيولوجيا . اعترف جوس اعترافا كاملا بكل الشواهد التى أوردها الجيولجيون للتدليل على قدم العالم . ولكنه ذهب إلى أنه عندما حدثت عملية الخلق كان كل شىء قد تم خلقه كما لو كان له تاريخ ماض . وليس هناك من الناحية المنطقية ما يدحض هذه النظرية . ولهذا قرر اللاهوتيون أن آدم وحواء خلقا بسرتين تتوسطان بطنيهما تماما كما لو كانا مولودين من بشر بالطريقة العادية . (وربما كان هذا السبب فى أن جوس سمى كتابه أو مغالوس Omghalos * وعلى نحو مشابه أمكن الاعتقاد أنه من المستطاع أن كل شىء تم خلقه بعد أن اعتراه النمو . فالصخور يمكن أن تكون قد ملئت بالبقايا العضوية المترسبة بحيث جعلها الله تبدو تماما على ما كانت سوف تبدو عليه لو أن خلقها قد جاء نتيجة فعل البراكين ومستودعات الرواسب . ولو أننا اعترفنا بصحة هذه الامكانيات فليس هناك ما يدعو إلى تحديد النقطة التى بدأ فيها خلق العالم فجميع النقاط تصبح متساوية ، وطبقا لهذا يجوز أننا جميعا قد خلقنا منذ خمسة دقائق مزودين بذاكرة جاهزة الصنع وجوارب مثقوبة تحتاج الى الرتق وشعر طويل يحتاج الى

★ يتكون عنوان الكتاب من مقطعين om أى ome ومعناها تكوين الجذور والأعضاء و phalos وهو عضو الذكورة . (المترجم) .

القص ورغم ما ينطوى عليه ذلك من امكانية حدوثه من الناحية المنطقية فإن أحدا منا لا يستطيع تصديقه ، واكتشف جوس الذى ملأت خيبة الأمل المرة قلبه أن الناس لا يصدقون سعيه الى التوفيق المنطقى المثير للاعجاب بين اللاهوت والعلم . وتجاهله اللاهوتيون الذين تخلوا عن الكثير من قلاعهم السابقة وتخندقوا للزود عن القلاع التى تبقت لهم .

ويمكن تقسيم المذهب المؤمن بتطور النبات والحيوان التدريجى الذى تحقق عن طريق الأصل والتنوع والذى انتقل الى حد كبير من علم الجيولوجيا الى علم البيولوجيا الى ثلاثة أقسام . أولا هناك الحقيقة المؤكدة - بقدر ما يمكن التأكد من أية حقيقة - عن العصور السحيقة ومفادها أن أشكال الحياة الأولى هى الأقدم عمرا وأن الكائنات ذات التركيب الأكثر تعقيدا ظهرت لأول مرة فى مرحلة لاحقة . وثانيا هناك النظرية التى تقول إن الأشكال اللاحقة والأكثر تنظيما لم تظهر الى الوجود من تلقاء نفسها . ولكنها نمت وكبرت وخرجت من الأشكال السابقة عليها من خلال سلسلة من التبديلات والتعديلات . وهذا بالذات ما تعنيه كلمة التطور فى علم البيولوجيا . وثالثا هناك دراسة لم تكتمل بعد عن آليات التطور أى عن أسباب التنوع واستمرار بعض الأنواع فى الحياة على حساب أنواع أخرى . ونحن نرى أن علماء البيولوجيا فى كل أرجاء العالم يقبلون الآن مذهب التطور بوجه عام رغم أن الشكوك لا تزال تراودهم بشأن آليات هذا التطور .

وترجع أهمية داروين الأساسية من الناحية التاريخية إلى أنه اقترح آلية للتطور هى الانتخاب الطبيعى ، وهى آلية جعلت التطور يبدو أكثر احتمالا ، ورغم أن سلامة اقتراحه لا تزال مقبولة حتى الآن فإنها لا توفر الاجابات الكافية الشافية التى ترضى رجال العلم المحدثين بالقدر الذى أرضى العلماء الذين جاءوا مباشرة بعد داروين .

كان لامارك (١٧٤٤ - ١٨٢٩) أول عالم بيولوجي يجعل من التطور مذهبا بارزا . ومع ذلك فقد فشل مذهبه فى أن يحظى بالقبول ليس فحسب بسبب تحيز الناس لفكرة ثبات الأنواع وعدم خضوعها للتعديل والتبديل ولكن أيضا لأن آلية التغيير التى اقترحها لم تكن بالآلية التى يمكن لرجال العلم الأخذ بها . آمن لامارك بأن ظهور عضو جديد في جسم الحيوان يرجع إلى شعوره بحاجة جديدة لوجود هذا العضو ، كما أنه آمن أن ما يكتسبه الفرد خلال حياته ينتقل إلى ذريته . ولولا هذا الافتراض الثانى لأصبح افتراضه الأول عديم الجدوى كجزء فى شرح عملية التطور ولكن داروين رفض الأفتراض الأول كعنصر مهم فى تطور الأنواع الجديدة غير أنه قبل الأفتراض الثانى دون أن يسند إليه نفس الدور البارز الذى أسنده لامارك إليه . أما الإفتراض الثانى الخاص بانتقال الصفات المكتسبة عن طريق الوراثة فقد تصدى وايزمان بقوة لانكاره . ورغم أن الجدال لا يزال محتدما فهناك الآن

دليل كاسح - باستثناء حالات نادرة - على أن الصفات المكتسبة الوحيدة التي تورث هي تلك التي تؤثر في خلايا الجسم وهي قليلة للغاية . ولهذا فإنه لا يمكن قبول آلية التطور التي اقترحها لامارك .

وفي عام ١٨٣٠ نشر ليبل كتابه «مبادئ الجيولوجيا» وأثار نشر هذا الكتاب صرخات الاعتراض العالية بين المؤمنين التقليديين بالدين ، وذلك بسبب تأكيده على الشواهد الدالة على القدم الساحق للأرض والحياة . هذا على الرغم من أن الطبعات الأولى من هذا الكتاب لم تدافع عن الافتراض القائل بالتطور العلمي . اشتمل كتاب لبيل على مناقشة متفخصة لنظريات لامارك التي رفض الأخذ بها لاعتبارات علمية جيدة . وفي الطبعات اللاحقة بعد ظهور «أصل الأنواع» (١٨٥٩) لداروين دافع ليبل عن نظرية التطور بحرص وحذر .

لقد كانت نظرية التطور في جوهرها امتدادا في مجال علم الحيوان والنبات لاقتصاد السوق الحر ، وقد سبق لنظرية مالثوس في السكان أن اقترحته . إن كل الكائنات الحية تتناسل بسرعة لدرجة أن الجانب الأعظم من كل جيل يتعين عليه أن يموت قبل أن يصل إلى العمر الذي يسمح له بانجاب ذرية . فأنثى سمك البكلاة تضع تسعة ملايين بيضة كل عام . ولو أن كل هذا العدد من البيض فقس وأنتج المزيد من سمك البكلاة لتحول البحر في سنوات قليلة إلى طبقات متراصة من سمك البكلاة تكفي لإزاحة ماء البحر الذي سوف يغرق اليابسة بطوفان

جديد. حتي البشر أنفسهم - رغم أن معدل زيادتهم الطبيعية أبطأ من معدلات الزيادة الطبيعية عند بقية الحيوانات باستثناء الفيلة - يتضاعف عددهم كل خمسة وعشرين عاما . ولو أن معدل زيادة البشر استمر علي هذا النحو خلال القرنين القادمين لارتفع عدد سكان العالم الى خمسمائة ألف مليون نسمة غير أننا في حقيقة الأمر نجد أن تعداد الحيوان والنبات يتسم بالثبات بوجه عام . ونفس الشيء ينطبق على البشر في أغلب الفترات . ولهذا نجد داخل كل نوع وبين الأنوا ع المختلفة عن بعضها البعض تنافسا مستمرا ينتهي بموت الجانب المنهزم ونتيجة لذلك فإنه إذا اختلف بعض أعضاء النوع الواحد عن بقية أعضائه بميزة فالأرجح انه سيكتب له البقاء على قيد الحياة ، وإذا كان وجه الخلاف مكتسبا فإنه سوف لا ينتقل إلى الذرية . ولكنه إذا كان وراثيا فإنه يحتمل أن يعود إلى الظهور على الأقل في نسبة لا بأس بها من ذريتها . لقد اعتقد لامارك أن طول رقبة الزرافة يرجع إلى أنها تمد رقبتها حتى تتمكن من الوصول على أفرع الشجر العالية وأن الطول الناجم عن هذا المد يورث . ، ولكن وجهة النظر الداروينية ، على الأقل وفقا لتعديل وايزمان لها ، مفادها أن الزرافة لا تمتلك منذ مولدها هذا الاستعداد لطول الرقبة . بل إن رقبتها الطويلة أصلا هي التي تجعل احتمالات تضورها من الجوع أقل من تضور الحيوانات الأخرى . ولهذا السبب نرى أن الزرافة تنجب عددا أكبر من الذرية التي يحتمل بدورها

أن تكون لها رقاب طويلة . ومن ثم يحتمل أن تصبح رقاب بعضها أطول من رقاب الأبوين التي تتميز بالطول أصلا ، وهكذا يقوم الزراف بالتدريج بتطوير خصائصه المميزة له حتى تبطل الفائدة من الاستمرار في تطورها .

قامت نظرية داروين على حدوث التغييرات البيولوجية بالصدفة ، وهي تغيرات اعترف بأن أسبابها مجهولة ، وتدل الملاحظة على أن ذرية أي زوج لا تتشابه وأنه بالامكان تغيير الحيوانات الأليفة تغييرا كبيرا عن طريق الانتخاب الصناعي . فعن طريق تدخل الانسان أمكن للابقار إن تدر كمية أكبر من اللبن وأمكن لخيول السباق أن تركض على نحو أسرع وأمكن للأغنام أن تنتج كمية أكبر من الصوف . مثل هذه الحقائق المتاحة لداروين وفرت أغلب الشواهد المباشرة الدالة على أهمية الانتخاب . صحيح أن المربين لا يستطيعون تحويل السمكة الي حيوان من النوع الذي يحمل صغاره في جراب في بطنه . وصحيح أيضا أنهم لا يستطيعون تحويل مثل هذا الحيوان إلي قرد . ولكن من الممكن توقع حدوث مثل هذه التغيرات الضخمة والهائلة خلال الحقب الجيولوجية التي لا تحصى والتي يحدثنا عنها علماء الجيولوجيا . أضف إلى هذا أنه كانت هناك في كثير من الحالات شواهد على وجود سلالات تنحدر من أصل مشترك . فالرواسب العضوية الموجودة في الصخور تبين أن الحيوانات الوسيطة بين الأنواع المنفصلة الشديدة التباين في الوقت

الحاضر كانت موجودة فى الماضى مثل بعض الحيوانات المجنحة المنقرضة التى تنتمى إلى عالم الطير بقدر ما تنتمى الى عالم الزواحف . وقد اكتشف علماء الأجنة أنه فى خلال عملية التطور تقوم الحيوانات الناقصة النمو والنضج بتكرار بعض الأشكال السابقة . فجنين الثدييات تظهر فيه عند مراحل معينة خياشيم بدائية كخياشيم الأسماك . وهذه الخياشيم عديمة الفائدة تماما ويصعب تفسير وجودها اللهم إلا إذا كانت هذه الثدييات تستعيد تاريخ أسلافها . وتضافرت الحاجات المختلفة لاقناع علماء البيولوجيا بحقيقة التطور وأيضا بأهمية الانتخاب الطبيعى كعامل رئيسى فى إحداث هذا التطور .

لقد سدد مذهب داروين الى علم اللاهوت ضربة قاسية تماما كما فعل كوبر نيكوس فى عالم الفلك . فالداروينية لم تجعل فحسب من الضرورى التخلى عن الاعتقاد بثبات الأنواع والتخلى عن فكرة إتيان الله بأفعال الخلق المنفصلة التى يبدو أن سفر التكوين فى الكتاب المقدس يؤكدها . بل إنها جعلت من الضرورى أن نفترض انقضاء حقب سحيقة منذ بداية الحياة ، الأمر الذى صدم مشاعر المؤمنين بالأرثوذكسية الدينية . ولم يعد من الضرورى فقط التخلى عن طائفة من الحاجات الدالة على وجود إله رحيم والقائمة على تأقلم الحيوانات الرائع البديع مع بيئتها . وهو الأمر الذى أصبح الآن يفسر على أنه نتيجة الانتخاب الطبيعى . ولكن الأدهى من كل هذا أن المدافعين عن

نظرية التطور تجرأوا وأكدوا أن الانسان ينحدر من الحيوانات الأدنى . والواقع أن علماء اللاهوت والناس غير المتعلمين ركزوا اهتمامهم على هذا الجانب وحده من نظرية داروين . وصرخ العالم في رعب : «إن داروين يقول إن الانسان ينحدر من القردة !» وشاع بين عامة الناس أن داروين اعتقد في هذا بسبب ما كان بينه وبين شكل القرود من شبه وهو ليس بالأمر الصحيح » . وعندما كنت صبيا تلقيت تعليمي على يد مرب قال لي بكل تؤدة ووقار : «إذا كنت من أتباع المذهب الدارويني فإني أشفق عليك لأنه يستحيل أن يكون المرء مسيحيا ومؤمنا بمذهب داروين في أن واحد» وحتى يومنا الراهن نرى أن القانون في ولاية تينيسي بالولايات المتحدة يحظر تدريس مذهب التطور لأنه يتعارض مع كلمة الله .

وكما يحدث غالبا كان علماء اللاهوت أسرع من أنصار مذهب التطور الجديد في تبيان النتائج المترتبة على هذا المذهب . ورغم اقتناع أنصار الداروينية بالأدلة المتوافرة على صحتها فإن أغلبيتهم كانوا يؤمنون بالدين ، ويرغبون قدر استطاعتهم في الإحتفاظ بمعتقداتهم الدينية السابقة . إن افتقار المدافعين عن التقدم في القرن التاسع عشر على وجه الخصوص إلى المنطق كان السبب في تسهيل تقدم العلم كثيرا فقد مكنهم من التعود على التغير قبل أن يتعين عليهم قبول التغيرات الأخرى التالية . فعندما تظهر كل النتائج المنطقية المترتبة على أي

تجديد فإن هذا قمين بأن يصدم العادات صدمة هائلة من شأنها أن تجعل الناس يرفضون التجديد فى مجمله فى حين أنه إذا طلب إلى الناس أن يخطوا خطوة واحدة كل عشرة أو عشرين سنة فإن هذا من شأنه أن يغريهم بالسير فى طريق التقدم دون اظهار مقاومة كبيرة . إن عظماء القرن التاسع عشر لم يكونوا ثوريين فى مجال الفكر أو السياسة . ولكنهم كانوا على استعداد للدفاع عن الاصلاح عندما أصبحت الحاجة الى الاصلاح واضحة ، هذا المزاج الحذر فى استحداث التجديدات جعل القرن التاسع عشر يتميز بالسرعة الفائقة فى احراز التقدم .

على كل حال كان اللاهوتيون أسرع من الجمهور فى إدراك عواقب التجديد بوضوح فاعترضوا على الداروينية بقولهم إن الانسان يملك روحا خالدة لا يملكها القردة وأن الله غرس فيه احساسا بالخطأ والصواب بينما نجد أن القردة لا تحركها إلا غرائزها . وإذا كان الانسان قد تطور بخطوات غير مرئية وغير ملحوظة من القردة فما هى اللحظة التى اكتسب فيها فجأة هذا الانسان تلك الخصائص المهمة من وجهة النظر اللاهوتية ؟ وعند اجتماع الجمعية البريطانيـــة عام ١٨٦٠ (وهو العام التالى لنشر «أصل الأنواع») ارغد الأسقف ولبرفورس وأزبد وهاجم الداروينية صارخا : « إن مبدأ الانتخاب الطبيعى يتنافى تماما مع كلمة الله » «لكن كل بلاغته ذهبت أدراج الرياح ، وساد

اعتقاد عام بانهزامه فى الملاحاة التي دارت بينه وبين توماس هكسلي الذى ناصر الداروينية ودافع عنها . ولم يعد الناس يخشون غضب الكنيسة منهم . وسرعان ما انتشر الايمان بتطور أنواع الحيوان والنبات بين علماء البيولوجيا رغم أن عميد كلية تشستر قال في الخطبة الجامعية التى ألقاها فى جامعة اكسفورد : « إن الذين يرفضون قبول تاريخ خلق آدم وحواء طبقا لمدلوله الحرفي الواضح ويدافعون عن استبداله بحلم التطور الحديث يسببون انهيار فكرة خلاص الانسان من أولها إلى آخرها » وأيضا رغم أن كارليل الذي احتفظ بتعصب المتدينين التقليديين دون الاحتفاظ بعقيدتهم الدينية وصف داروين بأنه «الرسول الذى يدعو إلى عبادة القذارة » .

ويوضح جلادستون موقف المسيحيين العاديين غير العلميين من خارج دائرة الاكليروس . إن العصر (أي القرن التاسع عشر) اتسم بالليبرالية . غير أن جلادستون زعيم الحزب الليبرالي (الأحرار) سعى ما وسعه السعي للقضاء على ما في هذا العصر من ليبرالية . «في عام ١٨٦٤ فشلت محاولة لانزال العقاب باثنين من رجال الاكليروس لعدم إيمانهم بالنار والعقاب الأبدى لأن اللجنة القضائية التابعة لمحكمة البلاط الملكي قامت بتبرئتهم من التهم الموجهه ضدهم . فارتاع جلادستون لتبرئتهم وقال : » إن مثل هذه التبرئة قمينة بأن تساوى تماما بين الايمان بالعقيدة المسيحية وإنكار هذه العقيدة » وعندما نشر

داروين نظريته لأول مرة عبر جلادستون عن ادانته لها بأسلوب رجل اعتاد أن يحكم الناس ويسوسهم فقد قال : «إن ما يسمى بالتطور أعفى الله من تجشم مشقة الخلق . كما قام بطرده من حكم العالم باسم القوانين التى لا تتغير .» وعلى كل حال لم يحمل جلادستون أية مشاعر عداء شخصية ضد داروين . بل إنه عدل من معارضته لداروين بالتدريج وزاره مرة عام ١٨٧٧ . ولم يكف جلادستون خلال هذه الزيارة عن الحديث غن الأعمال الوحشية التى يرتكبها البلغاريون . وعند أنصراف جلادستون قال داروين ببساطة متناهية : «ياله من شرف كبير أن يأتى مثل هذا الرجـــل العظيم لزيارتى !» غير أن التـــاريخ لا يحدثنا عن الأثر الذى تركه داروين فى نفس جلادستون . إن الدين في يومنا الراهن تأقلم مع مذهب التطور . بل أنه استمد محاجات جديدة منه . فنحن نسمع الآن رجال دين يقولون لنا «هناك غرض متنام يسرى فى كافة العصور» كما يقولون لنا إن التطور هو إماطة اللثام عن فكرة كانت تستقر فى عقل الله طيلة الوقت » . ويبدو أنه خلال تلك العصور التى أرقت هيوميلر وأقضت مضجعه عندما كانت الحيـــوانات تفتك ببعضها البعض وتعذب بعضها البعض باستخدام قرونها الضارية ولدغاتها الأليمة كان القادر على كل شىء ينتظر في هدوء أن يظهر فى آخر الأمر ذلك الأنسان الذي يملك قدرات على التعذيب أكثر روعة من تلك التى يملكها الحيوان المفترس وقدرة أكبر على نشر القسوة على

نطاق أوسع ؟ إن علماء اللاهوت العصريين لا يفسرون لنا السبب الذى دعا الخالق إلى أن يفضل تحقيق هدفه عن طريق هذه العملية التطورية المروعة بدلا من الوصول إلى هدفه مباشرة ؟! فضلا عن أنهم لا يقولون الكثير لتبديد ما يساورنا من شكوك حول روعة الانجاز الالهى الذى يتجلى فى عملية خلق الانسان . وإنه لمن الصعوبة بمكان ألا نحس باحساس الطفل الذى يعانى من المرار أثناء تعلمه الأبجدية ليكتشف أن الابجدية بأسرها لا تستحق منه كل هذا العناء . فقد عانى الكثير فى تعلمها ليجنى من ورائها النذر اليسير . ولكن هذا على أية حال مسألة متروكة لذوق المرء وتقديره الشخصى .

وهناك اعتراض آخر أجل وأكثر خطورة ضد أى لاهوت يقوم على أساس نظرية التطور ، ففى الستينات والسبعينات (من القرن التاسع عشر) عندما كانت موضة التطور جديدة درج الناس على اعتبار التقدم القانون الذى يحكم العالم . ألسنا نزداد ثراء عاما بعد عام ونتمتع بفائض فى الميزانية بالرغم من خفض الضرائب ؟ أليست الآلات التى استحدثناها وحكومتنا النيابية نموذجا يحتذيه المستنيرون من الاجانب ؟ وهل هناك من يخالجه أدنى شك فى أن التقدم سوف يستمر الى مالا نهاية ؟ إنه يمكننا الوثوق بأن العلم والمهارة واختراع الآلات سوف يخلق إلى الأبد المزيد من هذا التقدم . وفى مثل هذا العالم بدأ التطور وكأنه مجرد تعميم لما يحدث فى الحياة اليومية .

غير أن هناك جانبا أخر اتضح حتى أنذاك لمن هم أقدر على التفكير والتدبر . فقد تبينوا أن نفس القوانين التى تسبب النمو تسبب التآكل والموت كذلك فيسأتى يوم ما في المستقبل تبرد الشمس وتتوقف الحياة على الأرض . إن كل الحقب التى عرفت وجود الحيوان والنبات هى مجرد فترة وجيزة وسيطة بين العصور التى تجتاحها الحرارة المميتة والعصور التى تصيبها البرودة القاتلة . وليس هناك قانون كونى ينص على التقدم بل هناك فقط تأرجح بين الصعود والهبوط مع ميل بطىء بوجه عام الى الهبوط بسبب فقدان الطاقة . هذا على أقل تقدير ما يعتبره العلم فى الوقت الحالى محتملا . وهو الأمر الذى يسهل علينا الاعتقاد بصحته في جيل ينفض عن نفسه الأوهام والأحلام . ويتضح لنا مما نملكه من معرفة فى الوقت الحالى أنه لا يمكننا أن نستقى على نحو صحيح من التطور فلسفة متفائلة فى نهاية المطاف .

الفصل الرابع

الطب وعلم الشياطين والجان

لقد تعين على الدراسة العلمية للجسم البشرى والأمراض التى تصيبه ـ ومازال يتعين عليها إلى حد ما ـ أن تقف فى وجه مجموعة من الخزعبلات ترجع أصولها إلى حد كبير إلى فترات سابقة على نشأة المسيحية ولكنها تحظى حتى وقت حديث للغاية بالتأييد الكامل من السلطة الدينية، ومن ثم اعتقد الناس أحيانا أن الأمراض عقاب يوقعه الله على ارتكاب المعصية، ولكنهم كانوا فى الأغلب والأعم ينسبون هذه الأمراض إلى عمل الشياطين، ومن الممكن شفاء هذه الأمراض عن طريق شفاعة القديسين إما بأشخاصهم أو عن طريق مايخلفونه وراءهم من بقايا مقدسة، وكذلك عن طريق الصلاة والحج إلى بيت المقدس، أو يمكن الشفاء منها (فى حالة كون الشياطين سببا لها) عن طريق طرد هذه الشياطين والأرواح النجسة. وأيضا عن طريق العلاج الذى وجده الشياطين (وكذلك المرضى) مدعاة للإشمئزاز.

وقد وجد الكثير من هذه الممارسات الدعم والتأييد من جانب الأناجيل وقام آباء الكنيسة بتطوير بقية النظرية التى استندت إليها مثل

هذه الممارسات . أو أن تأييد هذه الممارسات كان النتاج الطبيعى لما اعتنقه هؤلاء الآباء من مذاهب، فقد ذهب القديس أغسطين إلى أن جميع أمراض المسيحيين ترجع إلى هذه الشياطين. هذه الأمراض أساسا تعذب المسيحيين الحديثى المعمودية بل تعذب الأطفال الأبرياء الحديثى الولادة.. وعلينا أن ندرك من خلال كتابات الآباء أن «الشياطين» معناها آلهة الوثنيين التى يفترض أن الغضب استبد بها بسبب ماحققته المسيحية من تقدم. ولم ينكر المسيحيون الأوائل على الأطلاق وجود الألهة على جبل الأولب. ولكنهم ذهبوا إلى أن هذه الآلهة خدم عند إبليس. وهو رأى تبناه الشاعر ميلتون فى «الفردوس المفقود». وذهب جريجورى نازياتزن إلى أن الطب عديم الجدوى. ولكن وضع الأيدى المقدسة المباركة غالبا مايشفى المريض، وقد عبر الآباء الآخرون عن أراء مماثلة.

وفى العصور الوسطى زاد الاعتقاد بفاعلية بقايا القديسين وأثارهم، وهو اعتقاد لايزال موجودا إلى يومنا هذا. وكان امتلاك الكنيسة لمخلفات القديسين ذات القيمة مصدر دخل لها وللمدينة التى توجد فيها هذه المخلفات. وقد أدت نفس هذه الدوافع الاقتصادية إلى إثارة أهل أفسوس ضد القديس بولس. وغالبا ما يستمر الإيمان بالمخلفات المقدسة حتى بعد تبيان عدم صحتها، فعلى سبيل المثال نجد أن الناس ظلوا لقرون كثيرة يعتقدون فى قدرة عظام القديسة روزاليا

المحفوظة في باليرمو بايطاليا على شفاء الأمراض. ولكن عندما قام عالم تشريح دنيوى بفحص هذه العظام اكتشف أنها بقايا عظام ماعز. ومع ذلك فقد استمر الإيمان بقدرتها على الشفاء، ونحن نعرف الآن أن الإيمان قادر على شفاء بعض الأمراض فى حين أنه يعجز عن شفاء بعضها الآخر. وليس من شك أن «معجزات» الشفاء تحدث، ولكن فى الجو غير العلمي نرى أن الأساطير سرعان ماتعمل على تضخيم الحقيقة ومحو الفرق بين أمراض الهستيريا التى يمكن شفاؤها عن هذا الطريق والأمراض الأخرى التى تتطلب علاجا قائما على الطب الباثولوجى أو علم الأمراض.

ونحن نجد أمثلة غير عادية تشير إلى نمو الأساطير في الأجواء المضطربة إبان الحرب العالمية الأولى مثل الاعتقاد بأن الروس اخترقوا انجلترا للوصول إلى فرنسا خلال الأسابيع الأولى من الحرب. ومثل هذه المعتقدات ـ إذا أمكننا تتبع مصدرها ـ تفيد المؤرخ فيما عساه أن يصدقه فى آية أدلة تاريخية قد تبدو يقينية، ويمكننا أن نسوق كمثال كامل بصورة غير عادية تلك المعجزات المنسوبة إلى القديس فرانسيس انسافيير صديق لويولا وأول وأهم مبشر جيزويتى فى الشرق، وقد عالج هوايت هذا الموضوع معالجة تستحق الإعجاب فى كتابه «حرب العلم ضد الدين» الذى أدين له بكثير من الفضل.

قضى القديس فرانسيس انسافيير سنوات عديدة في الهند والصين واليابان، ووافته المنية في النهاية عام ١٥٥٢م، وقد سطر هو ورفاقه عددا كبيرا من الرسائل المطولة التي لم تندثر حتي الآن شرحوا فيها ماتجشموه من متاعب، ولكن جميع الرسائل المكتوبة عندما كان فرانسيس أكسافيير حيا يرزق تخلو من كل أثر يدل على القدرة على الإتيان بالمعجزات، وبوجه خاص يؤكد جوزيف أكوستا أن هؤلاء المبشرين لم يلجأوا إلى المعجزات في جهودهم المبذولة لتحويل الوثنيين إلى الدين المسيحي، ولكن ما أن توفى اكسافيير حتى أخذت الحكايات عن معجزاته تنتشر بين الناس. فقيل عنه انه يمتلك موهبة اتقان اللغات في حين أن خطاباته تمتلأ بالإشارات إلى الصعوبات التي واجهها في تعلم اللغة اليابانية والى ندرة المترجمين المجيدين، وقيل أيضا عن معجزاته أنه في أحدى المناسبات عندما عاني رفاقه من العطش في عرض البحر قام بتحويل ماء البحر المالح إلى ماء عذب. وعندما سقط منه الصليب في البحر قامت سمكة كابوريا بانتشاله وأعادته إليه. وفي رواية أخرى لاحقة قيل أنه قذف بالصليب في الماء من فوق سطح السفينة لتهدأ العاصفة العاتية التي اجتاحتها وفي عام ١٦٢٢ عندما رسمه بابا روما قديسا كان من الضروري أن تقتنع سلطات الفاتيكان بأنه صانع المعجزات لأنه لايمكن تقديس أي إنسان إلا إذا كان بالفعل يمتلك القدرة على صنع المعجزات، ومن ثم اعترف البابا رسميا بقدرته

علي التمكن من امتلاك ناصية اللغات، كما أنه تأثر بشكل خاص بقدرة اكسافيير علي إضاءة المصابيح بالماء المقدس بدلا من الزيت، وهذا البابا هو البابا نفسه ايربان الثامن الذي وجد أن أقوال جاليليو لايصدقها عقل. واستمرت الأسطورة في النمو لدرجة أنه قيل أن هذا القديس في فترة حياته بعث أربعة عشر شخصا من الموت حسبما جاء في سيرة حياته التي كتبها الأب بوهور عام ١٦٨٢، ويتضح من هذا المثل أنه لا يمكن الوثوق كثيرا بحكايات المعجزات فى الفترات التى تقل فيها الوثائق والمستندات عن تلك التي تتوافر فى حالة القديس فرانسيس اكسافيير.

والبروتستانت والكاثوليك على حد سواء يؤمنون بالشفاء الناجم عن المعجزات، فقد كان من ا لمعتقد فى انجلترا أن الملك إذا لمس إنسانا شفاه من مرض يعرف باسم «شر الملوك»، وأن الملك القديس تشارلس الثانى شفا وحده عن طريق اللمس نحو مائة ألف شخص . ونشر الجراح الخاص بجلالته حكايات عن ستين حالة شفاء من هذا القبيل ، وذكر جراح آخر أنه رأى بعينى رأسه (حسبما يقول) مئات من حالات الشفاء التى ترجع إلى لمسة الملك وأن الكثير من هذه الحالات كان يتجاوز قدرة أمهر الجراحين على الشفاء . وكان هناك فى كتاب الصلاة قداس خاص يقام فى المناسبات التى يمارس فيها الملك قدراته الإعجازية على الشفاء . وهى قدرات اتصف بها الملك جيمس

الثاني ووليم الثالث والملكة آن . غير أنها فيما يبدو لم تنتقل إلى من خلفوهم على العرش من عائلة هانوفر .

وكان الطاعون والأوبئة الفظيعة التى أنتشرت فى القرون الوسطى ترد إلي الشياطين أحيانا وغضب الله أحيانا أخرى . وأوصى الإكليروس بشدة بتقديم الأراضى كهدايا للكنيسة من أجل تفادى غضب الله . وفي عام ١٦٨٠ عندما اجتاح الطاعون روما تبين أنه يرجع إلى غضب القديس سبباستيان الذى تجاهله الناس وأهملوه دون وجه حق . ولم ينقشع الطاعون إلا بعد أن أقيم نصب تذكارى من أجله . وعندما بلغ عصر النهضة ذروته فى عام ١٥٢٢ أخطأ الرومان في بادئ الأمر فى تشخيص الطاعون الذى أصاب المدينة معتقدين أنه يرجع إلى غضب الشياطين أى إلى غضب الآلهة القديمة . ولهذا قاموا بتقديم ثور كضحية إلى الإله جوبتر فى مجمع الآلهة . وعندما ثبت لهم عدم جدوى هذا «أقاموا المواكب للتزلف إلى العذراء مريم واسترضاء القديسين الذين كان يتعين عليهم إدراك أنهم يفوقون الآلهة فى الكفاءة والمقدرة» .

وتسبب الطاعون (أو الموت الأسود كما كان يسمى) الذى اجتاح البلاد عام ١٣٤٨ في انتشار الخزعبلات من كل الأنواع فى أماكن متعددة . وكانت إحدى الوسائل المفضلة والمتبعة فى تهدئة غضب الله

هى الإقدام على قتل اليهود . ففى إقليم بافاريا بلغ عدد القتلى من اليهود اثنى عشر ألف يهودى . وتم قتل ثلاثة آلاف يهودى فى إيرفورت وحرق ألفين آخرين فى استراسبورج إلخ .. وكان البابا هو الوحيد الذى اعترض على هذه الإبادة الجماعية الملتاثة لليهود . وشاهدت بلدة سينيا الايطالية واحدا من أبرز نتائج انتشار وباء الطاعون . فقد اتخذ نتيجة انتشار هذا الوباء قرار باجراء توسعات هائلة في كاتدرائية سيينا . وكان قد تم بالفعل انجاز جانب كبير من هذه التوسعات . ولكن أهل سيينا الذين نسوا أن الوباء لم يقتصر على مدينتهم اعتقدوا أنه يرجع إلى انتقام خاص من أهل سيينا الغارقين فى آثامهم عقابا لهم على زهوهم بتشييد كاتدرائية بمثل هذه الروعة والإبداع . ومن ثم توقفوا عن أعمال التشييد والبناء وظلت الكاتدرائية غير مستكملة حتى يومنا الراهن كشاهد أو تذكار على ندمهم .

ولم يقتصر الأمر على الاعتقاد العام بأن الخزعبلات هى أنجح وسيلة لمقاومة الأمراض بل تعداه إلى التصدى بقوة لوقف أية دراسة علمية للطب . وكان أبرز الأطباء من اليهود الذين استمدوا علمهم من المسلمين . وثارت الشكوك حول ممارسة هؤلاء اليهود للسحر . ومن الجائز أنهم لم يعترضوا على هذا الشك لأنهم وجدوا أن هذا يدر عليهم ربحا أكبر .

وكان علم التشريح يعتبر شيئا شريرا لأنه يقف فى سبيل بعث الأجسام من الموت ، ولأن الكنيسة كانت تمقت إراقة الدماء . وقد أصبح التشريح بالفعل محظورا بسبب اساءة فهم مرسوم أصدره البابا يونيفاس الثامن . وفى النصف الثانى من القرن السادس عشر دعا البابا بيوس الخامس إلى تجديد المراسيم السابقة . وأصدر أمرا للأطباء أن يبدأوا باستدعاء القسيس لزيارة المريض على أساس أن مرض الجسد ينشأ فى الغالب من الخطيئة . ثم التوقف عن المضى فى معالجة المريض إذا لم يعترف للقسيس خلال ثلاثة أيام . ولعل البابا كان حكيما فى قراره نظرا لحالة الطب المتردية فى تلك الأيام .

ويمكننا أن نتصور أن علاج الأمراض العقلية كان بوجه خاص قائما على الخزعبلات . وظل كذلك لفترة أطول من أى فرع من فروع الطب الأخرى . وكان من المعتقد أن الجنون يرجع إلى مس من الشيطان . وهو رأى يمكن أن يستند إلى ما جاء فى العهد الجديد . وأحيانا كان الشفاء يتم عن طريق طرد الأرواح الشريرة أو عن طريق لمس أثر من آثار أولياء الله الصالحين أو عن طريق قديس يأمر الشياطين بالخروج . وفى بعض الأحيان امتزج الدين بعناصر تفوح منها رائحة السحر . فعلى سبيل المثال وعندما يمتلك الشيطان إنسانا أو يتحكم فيه من داخله عن طريق المرض فعليه أن يتناول شرابا مقيئا

مكونا من نبات الترمس ومزيج من الخمور ونبات الهبنين المستخرج من مواد التخدير بالاضافة إلى الثوم . وينبغي طحن هذه الأشياء جميعا واضافة البيرة والماء المقدس إليها .

إن اتباع مثل هذه الأساليب في العلاج لم يكن له ضرر كبير . ولكن سرعان ما تصور الناس أن أنجح وسيلة لطرد الأرواح الشريرة هي تعذيبها واخضاعها وإذلال احساسها بالفخر لأن الفخر كان السبب في سقوط إبليس . واستخدمت الروائح الكريهة والمواد التي تثير الاشمئزاز من أجل طرد هذه الأرواح النجسة . وبمضي الوقت أصبح أسلوب طرد الأرواح الشريرة يستغرق وقتا أطول فأطول . فضلا عن أنه امتلأ أكثر وأكثر بالبذاءات . وباتباع هذه الطرق قام الجيزويت في فيينا عام ١٥٨٣ بطرد ١٢٦٥٢ شيطانا . وعلى أية حال عندما فشلت هذه الطرق عولج المريض بالجلد بالسياط . وكان المريض يعذب إذا رفض الشيطان أن يتركه . واستمر السجانون المتوحشون يسومون مر العذاب لمدة قرون عددا لا يحصى من المجانين الذين لا حول لهم ولا قوة . وحتى بعد أن توقف الناس عن الإيمان بالخزعبلات التي أوحت أصلا باستخدام القسوة فقد استمر التقليد الخاص باستعمال هذه القسوة في معاملة المجانين . وكان حرمان المريض من النوم والحاق العقاب به طريقتان متبعتان معترف بهما في التعامل مع المجانين . وعندما أصابت اللوثة عقل

الملك جورج الثالث أوسعوه ضربا رغم أن أحدا لم يفترض أن به مسا من الشيطان أكثر من مس الشيطان الذى أصابه وهو فى كامل قواه العقلية .

وارتبط علاج الجنون فى القرون الوسطى ارتباطا وثيقا بالايمان بالسحر . فالكتاب المقدس يقول في سفر الخروج إصحاح ٢٢ أية ١٨ «ولا تدع ساحرة تعيش» . وعلى أساس هذا النص وغيره من النصوص ذهب ويسلى إلى أن عدم الاعتقاد بالسحر هو فى حقيقة الأمر عدم الاعتقاد بصحة الكتاب المقدس . والرأى عندى أنه كان على حق فيما ذهب إليه . (١) فعندما آمن الناس بالكتاب المقدس بذلوا قصارى جهدهم لتنفيذ ما يتضمنه من أوامر ونواه تتعلق بالساحرات . والمسيحيون الليبراليون المحدثون الذين لا يزالون يؤمنون بصحة الكتاب المقدس من الناحية الأخلاقية على استعداد لنسيان هذه النصوص وأيضا نسيان الملايين من الضحايا الأبرياء الذين فاضت أرواحهم وهم يتعذبون لا لشئ إلا لأن الناس فى وقت من الأوقات آمنوا باخلاص أن الكتاب المقدس مرشد يهدى إلى

---

(١) اللهم إلا إذا قبلنا الرأى المعترض على الايمان بالسحر في فترة ضعفه واضمحلاله ومفاده أن هناك خطأ فى ترجمه كلمة الساحرة الواردة فى سفر الخروج والتى تعنى فى حقيقة الأمر «الذى يدس السم» . وحتى هذا لا يفسر معاملة ساحرة عين دور الوارد ذكرها في العهد القديم .

حسن السير والسلوك . إن موضوع الممارسات السحرية وموضوع السحر والشعوذة الأشمل منه يثيران من الاهتمام بقدر ما يكتنفان من غموض .

ويفرق علماء الأنثروبولوجيا بين السحر والدين عند الأجناس البدائية للغاية . ورغم أنه من المؤكد أن المبدأ الذى يتبعونه يتفق مع الهدف من دراسة الأنثروبولوجيا إلا أنه ليس بالمبدأ المطلوب إذا أردنا تتبع الاضطهاد الواقع على ممارسة السحر الأسود . يقول ريفرز فى كتابه الشائق للغاية عن ميلانيزيا الذى يحمل عنوان «الطب والسحر والدين» (١٩٢٤) : «عندما أتحدث عن السحر فإنى أعنى به مجموعة العمليات التى يستخدم فيها الإنسان الطقوس التى يعتمد فى أثرها على ما يملكه هذا الإنسان من قوة أو على القوى التى يعتقد أنها كامنة فى أشياء وعمليات معينة تستخدم فى هذه الطقوس أو فى الصفات والخصائص التى تتسم بها هذه الأشياء والعمليات . أما الدين فيحتوى على مجموعة من العمليات التى تعتمد فى مفعولها على إرادة قوى عليا يلجأ إليها الإنسان ويسعى إلى تدخلها عن طريق طقوس الابتهال إليها ومحاولة استرضائها» ونحن نرى أن مثل هذا التعريف مناسب إذا كنا نتعامل مع أناس يؤمنون بالقوة الغريبة التى تمتلكها بعض الأشياء غير الحية مثل الحجارة المقدسة أو مع أناس يعتبرون كل الأرواح غير الإنسانية تفوق

الإنسان . وهو الأمر الذى لا ينطبق تماما على المسيحيين فى القرون الوسطى كما لا ينطبق على المسلمين . صحيح أن حجر الفيلسوف وأكسير الحياة كانا ينسب إليهما قوى غريبة . ولكنهما أقرب ما يكونان فى تصنيفهما إلى العلم . فالبحث عنهما يتخذ من التجربة أسلوبا له . ولم تكن صفاتهما المنشودة أبعث على الدهشة بكثير من الصفات الموجودة في مادة الراديوم . إن السحر كما درجت القرون الوسطى على فهمه كان دوما يستلهم معونة الأرواح الشريرة على وجه التحديد . غير أن أهل ميلانيزيا لم يفرقوا بين الأرواح الخيرة والأرواح الشريرة .. وهى تفرقة حيوية فى المذهب المسيحى . فإبليس - شأنه شأن الله - يستطيع الأتيان بالمعجزات . ولكن إبليس يصنع معجزاته لمساعدة الأشرار فى حين أن الله يصنعها من أجل الأخيار. وكما يتضح لنا من الأناجيل كانت هذه التفرقة مألوفة لدى اليهود الذين عاشوا فى زمن المسيح . فاليهود اتهموا المسيح بطرد الأرواح بمساعدة بعلزبول . لقد كان السحر والشعوذة فى القرون الوسطى يعتبران في الأساس وليس بالضرورة اساءة موجهة إلى الكنيسة . ووجه المعصية فيهما بالذات يكمن فى أنهما يتطلبان التحالف مع القوى الشيطانية . وإنه لمن الغرابة بمكان أن ترى الشيطان أحيانا يصنع أشياء تعتبر فاضلة لو أن الذى قام بصنعها كائن غيره . وفى عام ١٩٠٨ كانت

هنـاك فى جـزيرة صقـلية (أو بالأحرى كانت توجـد فيـها حتى وقت قـريب) مسـرحيات انحدرت دون انقطـاع مـن العصـور الوسطى . وشـاهدت فى باليـرمـو احدى هـذه المسـرحيـات التي تدور حـول الحرب بين الامبراطـور شارلمان والمسـلمين في شمـال أفريقيا . وفى هذه المسـرحية نرى البـابا قبل نشـوب معـركة عظيمـة يحـصل على مسـاعدة الشـيطان . وفـي خـلال المعـركة يشـاهد الشـيطان في الهـواء وهو يعطى النصـر للمسـيحـيين . ورغم هذه النتـيجـة الممتـازة فقـد اعتـبـر عمـل البابا شـريرا . الأمـر الذى صدم مشـاعر شـارلمان وله الحـق فى ذلك بالرغم مـن أنه اسـتفـاد مـن هـذا النصر .

وفي يومـنا الراهـن يذهب أكثر الدارسـين للسحر جدية إلى أن السـحـر أثر خلفتـه في أوربا المسـيحـية العبادات الوثنية - وكذلك عبادة الألهة الوثنية .

ويرى علم الجـان المسـيحي أن هـذه الآلهـة اتخـذت شـكل الأرواح الشـريرة . وبالرغم من توافـر الدليـل على امـتزاج العناصـر الوثنيـة بطقـوس السـحـر كـانت هناك صـعـوبات كـأداء تمنع نسـبـة السـحـر أسـاسـا إلى هذا المصـدر . فالسـحـر كـان جـريمة يعـاقب عليـها فى الأزمنة السـابقـة على المسـيحية . وقد وضـع الرومـان قـانونا لمحاربة السـحـر ورد ذكـره فـي الاثنى عشرة لوحـة التى عثر عليها في روما .

وفي التاريخ القديم في عام ١١٠٠ ق . م . تم تقديم بعض الضباط وبعض النسوة التابعات لرمسيس الثالث إلى المحاكمة بتهمة صنع صورة من الشمع لهذا الملك وتلاوة بعض التعاويذ السحرية عليها بهدف القضاء عليه . وفي عام ١٥٠ بعد الميلاد حوكم الكاتب أبو ليوس بتهمة السحر لأنه تزوج من أرملة ثرية على غير رضا إبنها . ولكنه على أية حال نجح مثل عطيل في اقناع المحكمة بأنه لم يستخدم سوى جاذبيته وفتنته الطبيعية .

لم تكن ممارسة السحر في الأصل جريمة ترتكبها النساء وحدهن . وبدأ التركيز على دور النساء في ممارسة السحر في القرن الخامس عشر . ومنذ ذلك الحين حتى وقت متأخر في القرن السابع عشر أخذ الاضطهاد للساحرات في الانتشار . ففي عام ١٤٨٤ أصدر البابا أنوسنت الثالث مرسوما ضد السحر وعين اثنين من المحققين في محاكم التفتيش لمعاقبة ممارسته . وفي عام ١٤٨٩ نشر هذان المحققان باللاتينية كتابا ثقة تحت عنوان «مطرقة النساء الشهيرات» وذهب الرجلان في كتابهما إلى أن ممارسة السحر أقرب إلى طبيعة النساء منها إلى طبيعة الرجال نظرا لما للنساء من قلوب مليئة بالشر الكامن فيها . وكانت أكثر التهم ضد الساحرات شيوعا آنذاك أنهن يتسببن في سوء الأحوال الجوية .

وأعدت قائمة بالاسئلة التى توجه إلى النساء المشتبه فى ممارستهن للسحر . وكان يتم تعذيب المشتبه فى أمرهن بتمديدهن على آلة التعذيب التى تعرف فى الانجليزية باسم الراك حتى يعطين الاجابات المرغوب فيها . وفى ألمانيا وحدها يقدر عدد الساحرات اللائى صدرت ضدهن أحكام بالموت معظمها بالحرق فى الفترة من ١٤٥٠ إلى ١٥٥٠ بمائة ألف ساحرة .

وحتى عند بلوغ اضطهاد الساحرات ذروته تجرأت قلة من المفكرين العقلانيين الجسورين فعبرت عن شكها فى أن مؤامرات الساحرات هى السبب الحقيقى فى إثارة الزوابع وأعاصير البرد والرعد والبرق . ولكن هذه القلة العقلانية عوقبت بدون رحمة . وهكذا نجد قرب نهاية القرن السادس عشر أن فلاد رئيس جامعة تريف ورئيس قضاة المحكمة الانتخابية تراوده الشكوك فى أنه من الجائز أن اعترافات الساحرات ترجع إلى رغبتهن فى تحاشى التعذيب على آلة التمطيط ، الأمر الذى جعله يحجم عن إصدار أحكام بادانتهن . فاتهم هذا الرجل بأنه باع نفسه إلى الشيطان . ووقع عليه نفس التعذيب الذى سبق أن ألحقه بالآخرين . واعترف - كما اعترفت الساحرات من قبل - بذنبه . وفى عام ١٥٨٩ تم خنقه وإحراقه .

ولم يكن البروتستانت أقل من الكاثوليك في رغبتهم في الحاق الاضطهاد بالساحرات . وأظهر الملك جيمس الأول تحمسا خاصا في هذا الأمر فكتب كتابا عن علم الجان والشياطين . وفي العام الأول من حكمه لانجلترا (عندما كان كوك يشغل وظيفة المدعي العام وفرانسيس بيكون عضوا في مجلس العموم) أضاف هذا الملك مادة إلى القانون بقيت سارية المفعول حتى عام ١٧٣٦ كانت نتيجتها تغليظ العقوبة على ممارسة السحر . وقد تعددت محاكمات الساحرات . وصرح السير توماس براون الشاهد الطبي في احدى هذه المحاكمات في كتابه (الطب الديني) : «كنت دائما اعتقد ومن المؤكد أنني أعرف الآن أن الساحرات موجودات والذين يشكون في وجودهن لا ينكرونهن فحسب بل ينكرون وجود الأرواح . ومن ثم يترتب على ذلك على نحو غير مباشر أن هؤلاء المفكرين ليسوا مجرد كفرة بل ملاحدة أيضا» . وفي الواقع كما أوضح لنا ليكي : «كان عدم الإيمان بالشياطين والساحرات أحد الخصائص البارزة التي تميزت بها الفلسفة المتشككة في القرن التاسع عشر . وفي بادئ الأمر اقتصر عدم الايمان بها على الذين كانوا بصراحة من أصحاب الفكر الحر .»

وفي اسكتلندا حيث كان اضطهاد الساحرات يفوق في قسوته اضطهاد انجلترا لهن نجد أن الملك جيمس الأول يصيب نجاحا

عظيما فى اكتشاف أسباب الزوابع التى داهمت سفينته أثناء عودتها فى رحلة بحرية من الدانيمارك . واعترف طبيب اسمه الدكتور فيان تحت وطأة التعذيب أن هذه الزوابع أثارتها مئات الساحرات اللائى أبحرن فى منخل من مكان يطلق عليه اسم لبيث . وكما يقول بيرتون فى كتابه «تاريخ اسكتلندا» (المجلد السابع ص ١١٦) « والذى زاد من قيمة هذه الظاهرة تعاون جماعة من الساحرات الاسكندنافيات مع الساحرات الإسكتلنديات فى اجراء التجارب الهامة على قوانين علم الجان وقد بادر الدكتور فيان بسحب اعترافاته فزاد ذلك من شدة التعذيب الواقع عليه . فتكسرت عظام رجليه إلى قطع عديدة ولكنه بقى صامدا . عندئذ قام الملك جيمس الأول الذى كان يشاهد سير المحاكمة باختراع وسيلة جديدة لتعذيبه تتلخص فى نزع أظافر أصابع الضحية وغرس الإبر حتى رءوسها فى أطراف هذه الأصابع . وكما ورد فى أحد السجلات المعاصرة : «غير أن الشيطان الذى ملأ كل قلبه جعله ينكر تماما كل ما سبق له الاعتراف به» . وهكذا تم إحراقه (أنظر «تاريخ العقلانية فى أوربا» تأليف ليكى المجلد ١ ص ١١٤) .

وقد تم إلغاء القانون الصادر ضد ممارسة السحر فى اسكتلندا بمقتضى نص قانون ١٧٣٦ الذى ألغاه فى انجلترا .

ولكن الايمان بالسحر فى اسكتلندا استمر فى قوته . وقد جاء فى مرجع قانونى محترف منشور عام ١٧٣٠ «لاشئ يبدو لى أوضح من وجود الساحرات . ومن الجائز أن الساحرات لازلن الآن موجودات بالفعل» ، وهو الأمر الذى أنوى بمشيئة الله ايضاحه فى كتاب أضخم حول القانون الجنائى» . وقد قام زعماء حركة انفصالية مهمة عن كنيسة اسكتلندا بنشر بيان فى سنة ١٧٣٦ حول انحطاط ذلك العصر . وشكا البيان من تشجيع الرقص والمسرح . فضلا عن أنه جأر من الشكوى «من الغاء القانون الخاص بمعاقبة الساحرات مؤخرا الأمر الذى يتعارض مع ما جاء حرفيا فى قانون الله القائل (لا تجعل الساحرة تعيش) : (بيرتون نفس المرجع السابق المجلد الثامن ص ٤١٠) غير أن الإيمان بممارسة السحر سرعان ما اضمحل بين الطبقات المتعلمة فى اسكتلندا» .

والجدير بالذكر أن إلغاء العقوبات الخاصة بممارسة السحر جاء فى توقيت واحد فى كل بلاد أوربا الغربية . وفى انجلترا ظل الاعتقاد بوجود السحر أشد رسوخا بين الطائفة البيوريتانية المتزمتة فى عقيدتها الدينية من أتباع الملة الانجليكانية . وشاهدت فترة حكم كرومويل عددا كبيرا من أحداث إعدام السحرة لا يقل عن عدد المحكوم عليهم بالإعدام لنفس السبب فى

عهدى حكم عـائلة التيودور وعائلة ستيوارت . ومع انتهاء حكم كروموبل وعودة الملكية انتشرت موضـة الشك في وجود السحر . وآخر اعدام للسـاحرات من المؤكد وقـوعه حدث في عـام ١٦٨٢ . ولكنه يقـال إن حوادث اعدام أخـرى للسـاحرات وقعت في زمـن متأخر يصل إلى عـام ١٧١٢ . ففي تلك السـنة تم تقـديم الساحرات للمحـاكمة في منطقـة هيرتفورد شـير بتحـريض من رجال الاكليروس المحـليين . ولم يصدق القاضي امكانية اتيـان تلك السـاحرات بالجرائم المنسوبة إليهن . ولفت نظـر المحلفـين إلى ذلك . غير أنهم أصدروا أحكامهم بإدانة المتهمات . ولكن هـذه الأحكـام تم الغـاؤها . الأمر الذي أدى إلى اعـتراض الإكليـروس القـوى على ذلك . وفي اسكتلندا حيث كـان تعذيب السـاحرات وتنفيـذ حكم الاعـدام فيهن أكثر شيوعا من انجلترا فإن حـوادث الاعـدام أصبحت نادرة بنهـاية القرن السابع عشر . وآخر حادثة حرق سـاحرة وقعت في عام ١٧٢٢ أو عام ١٧٣٠ . وفي فـرنسا كـانت آخر حـادثة حـرق عـام ١٧١٨ . وفي نيوإنجـلاند بأمـريكا الشـمالية اندلعت أعـمال عنيفة لاصطياد الساحرات قـرب نهـاية القرن السابع عشر . ولكن هذه الحوادث لم تتكرر بعد ذلك على الإطـلاق . ونحن نجد أن الإيمان العام بالسحر ظل مستـمرا في كل مكان ولا يزال مسـتمرا في بعض المناطق الريفيـة النائيـة . وآخر حادثة من هذا القـبيـل وقعت في انجلـترا عـام ١٨٦٣ في منطقـة

إسكس عندما قام جيران رجل عجوز بسحله كساحر . واستمر الاعتراف القانونى بالسحر كجريمة ممكنة الوقوع لفترة أطول فى كل من أسبانيا وايرلندا .

وفى ايرلندا لم يلغ القانون الذى ينص على معاقبة السحر إلا فى عام ١٨٢١ وفى أسبانيا تم حرق ساحر عام ١٧٨٠ .

وينبهنا ليكى الذى يتناول كتابه «تاريخ العقلانية» موضوع السحر باستفاضة إلى حقيقة غريبة مفادها إن المحاجات لم تكن مجدية فى دحض الاعتقاد بامكانية حدوث السحر الأسود - ولكن الانتشار العام لفكرة ضرورة سيادة القانون هو الذى عمل على دحض مثل هذا الاعتقاد بالسحر . بل إن ليكى يذهب إلى حد القول أن المدافعين عن السحر هم الذين كان لهم قصب السبق فى أية مناقشة تدور حول موضوع السحر . وربما لا يكون فى ذلك أية غرابة إذا تذكرنا أن المدافعين عن السحر كانوا يستندون إلى نصوص الأيات الواردة فى الكتاب المقدس في حين أن الجانب المعارض للسحر لم يكن يجسر على القول بأن الكتاب المقدس ليس علي صواب دائما . أضف إلى ذلك أن أفضل العقول العلمية لم تشأ أن تنشغل بالخزعبلات الشائعة لسببين أولهما أن أصحابها أرادوا الانصراف إلى أداء أعمال أكثر ايجابية من مجرد التفكير فى الخزعبلات وثانيهما أنهم كانوا يخشون إثارة

العداوة ضدهم . وقد أثبتت الأيام أنهم كانوا على حق فمؤلفات نيوتن حدث بالاعتقاد أن الله هو الأصل في خلق الطبيعة وسن القوانين المنظمة لها حتى يتوصل هذا الإله إلى ما قصد إليه من نتائج دون حاجة إلى أى تدخل جديد من جانبه فيها إلا في مناسبات عظيمة مثل تنزيل الديانة المسيحية . وقد راود الناس الأمل في استحداث علم رصد الأحوال الجوية حتى لا يكون هناك أى مجال للنساء العجائز في ممارسة السحر عن طريق استخدام مقشاتهن في إثارة الزوابع والأعاصير . وظل الاعتقاد سائدا لبعض الوقت أنه من الكفر تطبيق مفهوم القانون الطبيعي على البرق والرعد لأنهما على وجه الخصوص أفعال اختصت بها الذات الإلهية . ويتضح لنا هذا من الاستمرار في الاعتراض على استخدام مانعات الصواعق البرقية . وهكذا نرى أنه عندما اجتاحت الزلازل ولاية ماساشوستس الأمريكية عام ١٧٥٥ نسب القس الدكتور برايس في خطبة منشورة حدوث هذه الزلازل إلى مانعات الصواعق التي اخترعها المستر فرانكلين الحكيم والتي سماها هذا القس «الأطراف الحديدية المدببة» . يقول هذا القس في هذا الصدد : «إن هذه الأطراف الحديدية المدببة تنتشر في بوسطن أكثر من انتشارها في أى مكان آخر في نيوانجلاند الأمريكية . ومع ذلك يبدو أن تأثير الزلازل كان أشد ترويعا في بوسطن عن أى مكان آخر . آه ! ليس هناك وسيلة للخلاص من

قبضة الله القادر على كل شئ .» ورغم هذا التحذير استمر أهل بوسطن فى اقامة مانعات الصواعق دون أن يزيد هذا من كثرة حدوث الزلازل .» ومنذ وقت نيوتن فصاعدا تزايد الشعور بأن وجهة نظر القس الدكتور برايس وأمثاله تفوح برائحة الإيمان بالخزعبلات . وبانتهاء الاعتقاد فى تدخل المعجزات فى سير الطبيعة اختفى بالضرورة الايمان بامكانية السحر . ولم يتصدى العقلانيون لدحض وتفنيد الأدلة التى تشير إلى وجود السحر فقد بدا ببساطة أنها أدلة لا تستحق مجرد الفحص والتمحيص .

وكما رأينا فقد سعى الناس خلال القرون الوسطى إلى الوقاية من الأمراض والشفاء منها بوسائل قائمة على الخزعبلات أو بوسائل تعسفية لا منطق فيها تماما . ولم يكن بالامكان تقدم العلم بدون علمى التشريح ووظائف الأعضاء . واستطاع فيساليوس الذى يعتبر أول من جعل التشريح علما أن يتفادى لوم وتقريع المسئولين لفترة من الزمن فنظرا لأنه كان يشغل وظيفة طبيب الامبراطور تشارلس الخامس الذى خشى على صحته من التدهور إذا أصاب أى مكروه طبيبه المفضل . وفى فترة حكم الامبراطور تشارلس الخامس سعى البعض إلى استشارة مؤتمر عقده علماء اللاهوت وأخذ رأيهم بشأن فيساليوس فأفاد علماء اللاهوت بأنهم يرون أن تشريح الجسد ليس رجسا من عمل الشيطان . ولكن الملك فيليب الثانى الذى لم يكن يشكو

من اعتلال الصحة وكثرة الأمراض مثل تشارلس الخامس لم ير أن هناك ما يدعو إلي توفير الحماية لرجل مشكوك في أمره . ولهذا عجز فيساليوس عن الحصول على المزيد من الجثث ليقوم بتشريحها . واعتقدت الكنيسة أن الجسم البشرى يحتوي على عظمة لا يمكن تدميرها وأن هذه العظمة هي النواة التي يقوم عليها بعث هذا الجسد . وعندما سئل فاسيليوس عن هذا اعترف بأنه لم يعثر على مثل هذه العظمة . وكان هذا شيئا سيئا ولكن ربما كان هناك ما هو أسوأ منه . فقد قام الأطباء في اتباع جالينوس - الذين أصبحوا عقبة تقف في سبيل التقدم الطبي مثلما كان الفيلسوف أرسطو عقبة في سبيل تقدم علم الفيزياء - بمطاردة فاسيليوس بضراوة لا تعرف اللين أو الرحمة ، واستطاعوا في نهاية الأمر اقتناص فرصة لتدميره . فأثناء تشريحه جثة نبيل اسباني بموافقة أهله ادعى أعداؤه أنه لوحظ على قلب الميت وهو تحت مبضع فيساليوس ظهور بعض علامات الحياة . ولهذا وجهت إليه تهمة القتل وتم تبليغ أمره إلى محاكم التفتيش . غير أن ملك اسبانيا استخدم نفوذه فسمح باستتابة فيساليوس عن طريق زيارة الأراضي المقدسة . ولكن السفينة التي أقلته عند عودته منها تحطمت ، وعلى الرغم من وصوله إلي اليابسة سالما فإنه مات من النصب والاعياء . ولكن الأثر الذي تركه فيساليوس استمر بعد موته . فقد قام أحد تلاميذه ويدعى فالوبيوس بأداء عمل طبي ممتاز . وبالتدريج

أصبحت مهنة الطب على اقتناع أن الطريق لاكتشاف حقيقة الجسم البشرى لابد أن يعتمد على الفحص والتمحيص .

ولكن تطور علم وظائف الأعضاء جاء متأخرا عن تطور علم التشريح . ويمكن القول إن دراسة وظائف الأعضاء أصبحت علما على يدى هارفى (١٥٧٨ - ١٦٥٧) مكتشف الدورة الدموية . وهو يشبه فيساليوس فى أنه كان طبيبا فى البلاط الملكى - فى بلاط الملك جيمس الأول ثم فى بلاط الملك تشارلس الأول . ولكنه يختلف عن فيساليوس فى أنه لم يكابد الاضطهاد والتنكيل حتى بعد سقوط الملك تشارلس الأول . فقد ساد القرن التالى لإعدام هذا الملك وخاصة فى البلاد البروتستانتية جو أكثر ليبرالية وحرية عن ذى قبل فى مجال البحث الطبى . ولكن الجامعات الأسبانية استمرت فى حظر تدريس الدورة الدموية حتي نهاية القرن الثامن عشر كما استبعد التشريح من أى تعليم طبى .

غير أن التحيزات اللاهوتية القديمة - رغم ما أصابها من ضعف ووهن - عادت إلى الظهور كلما أثارها وأفزعها أى بحث جديد . فالتلقيح ضد الجدرى أثار عاصفة من الاعتراض من جانب رجال الدين . وتصدت جامعة السوربون للهجوم على التلقيح على أساس لاهوتى . وقام قسيس انجليكانى بنشر موعظة جاء فيها أن قروح أيوب ترجع

دون شك إلى أن الشيطان قام بتلقيحه . واشترك كثير من قساوسة اسكتلندا في إعداد بيان جاء فيه أن التلقيح يعتبر «محاولة لإصابة حكم الله وتقديره بالارتباك» .

وعلى أية حال كانت نتيجة التلقيح فى خفض معدلات الوفيات ملحوظة لدرجة أن فزع اللاهوتيين من التلقيح تضاءل أمام ذعر الناس من انتشار المرض . وبالاضافة إلى هذا قبلت الامبراطورة كاترين عام ١٧٦٨ تلقيحها هى وابنها ضد مرض الجدرى . ورغم أنها لم تكن نموذجا يحتذى من الناحية الاخلاقية فقد اطمأن الناس إلى التلقيح باعتبار الامبراطورة مرشدا أمنا فى الأمور التى تقتضى الحكمة الدنيوية .

وتلاشى الجدال المحتدم حول التلقيح حتى اكتشاف التطعيم المضاد للمرض الأمر الذى أحيا الجدال وفجره من جديد ، فقد اعتبر رجال الاكليروس (والعاملون فى المجال الطبى) التطعيم «عملا ينطوى على تحدى السماء بل وتحدى إرادة الله .» وفى كامبردج ألقى رجل دين موعظة مناهضة للتطعيم . وحتى وقت متأخر إلى عام ١٨٨٥ عندما اجتاح وباء الجدرى مونتريال بكندا قام الجانب الكاثوليكى من هذه المدينة بمقاومة التطعيم يساندهم فى ذلك رجال الإكليروس . وقال أحد القساوسة : إذا كنا قد ابتلينا بمرض الجدرى

فإن ذلك يرجع إلى ما مارسناه من عربدة فى الشتاء الماضى . فقد انغمسنا فى شهوات الجسد لدرجة أثارت غضب الله .. واستمر آباء طائفة الأوبلات التى كانت كنيستهم فى وسط المنطقة الموبوءة فى التصدى للتطعيم وفى استنكار استخدامه وطلبوا إلى المؤمنين الاعتماد على الابتهالات والتمارين الروحية من كل نوع . وأصدرت رئاسة التنظيم الكنسى أمرا بإقامة موكب عظيم ومناشدة العذراء مريم بكل وقار أن تخفف عنهم كما أن الكنيسة حددت بكل عناية وحرص ضرورة استخدام المسبحة» (هوايت ، نفس المرجع السابق مجلد ٢ ص ٦٠) .

وكان اكتشاف التخدير مناسبة أخرى تدخل فيها اللاهوتيون للحيلولة دون التخفيف من المعاناة الانسانية . ففى عام ١٨٤٧ اقترح سيمسون استخدام التخدير فى حالات الولادة . ولكن رجال الدين اعترضوا على ذلك وذكروه على الفور بأن الله قال لحواء في الاصحاح الثالث آية ١٦ من سفر التكوين : «بالوجع تلدين أولادك .» فكيف إذن يتحقق ذلك إذا كانت المرأة تحت تأثير مخدر الكلوروفورم ؟ غير أن سيمسون نجح فى اثبات أنه ليس هناك ثمة ضرر فى تخدير الرجال نظرا لأن الله وضع آدم فى نوم عميق عندما نزع ضلعه . ولكن رجال الاكليروس - وهم ذكور - رفضوا الاقتناع بتخفيف آلام المرأة وهى فى حالة الولادة على أقل تقدير .

والجدير بالملاحظة أنه تعين على المرأة فى اليابان - رغم أن اليابان لا تعترف بصحة سفر التكوين فى الكتاب المقدس - أن تكابد ألام الوضع دون اللجوء إلى أى تخفيف صناعى لهذا الألم . ومن السهل أن يستنتج المرء أن كثيرا من الرجال يجدون شيئا من المتعة فى عذاب النساء . ومن ثم فإنهم يميلون إلى الاستمساك بأية قواعد لاهوتية أو أخلاقية من شأنها أن تفرض عليهن واجب الصبر على تحمل العذاب حتى إذا كان هناك مبرر معقول لتحاشيه . .

إن الضرر الذى ألحقه اللاهوت لا يتلخص فقط فى خلق نوازع القسوة بل أيضا فى اضفاء الشرعية على التظاهر بالاخلاق السامية واضفاء ما يبدو أنه قداسة على ممارسات ترجع إلى عصور أكثر جهلا وبربرية .

ولم ينته تدخل اللاهوت فى المسائل الطبية عند هذا الحد . فالآراء حول موضوعات مثل تحديد النسل والسماح بالاجهاض من الناحية القانونية لايزال فى بعض الحالات يخضع لتأثير نصوص الكتاب المقدس والمراسيم الكهنوتية . ولننظر على سبيل المثال إلى الخطاب الخاص بالزواج الذى أرسله البابا بيوس الأربعون منذ سنوات قلائل إلى اساقفته فى الكنيسة الكاثوليكية . يقول هذا البابا عن الذين يمارسون تحديد النسل «إنهم يرتكبون خطيئة ضد الطبيعة كما

يرتكبون فعلا مخجلا وشريرا فى جوهره . فلا عجب إذن إذا كان الكتاب المقدس يشهد بأن الله العلى جل جلاله ينظر إلى هذه الجريمة النكراء بأكبر قدر من المقت والكراهية . وأنه أحيانا عاقب مرتكبيها بالموت .» ويسترسل هذا البابا فى اقتطاف ما سطره القديس أوغسطين حول الاصحاح الثامن والثلاثين آيات ٨ - ١٠ من سفر التكوين . ولا يذكر هذا البابا أية ضرورة لايراد أسباب أخرى لإدانة تحديد النسل . أما فيما يتعلق بالحاجات الاقتصادية التى تقتضى تحديد النسل فإنه يقول: «نحن ننظر ببالغ الحزن والأسى إلى هؤلاء الآباء الذين يدفعهم فقرهم المدقع إلى مواجهة المصاعب فى تربية أولادهم» ولكنه يضيف : «ما من صعوبة يمكنها أن تبرر التغاضى عن قانون الله الذى يمنع من ارتكاب كل الأفعال الشريرة فى جوهرها . وفيما يتعلق بالاجهاض لأسباب طبية أو شفائية أى عندما يكون من الضرورى إنهاء الحمل لانقاذ حياة الأم فإنه يرى أن هذا لا يبرر الاجهاض . يقول البابا فى هذا الشأن : «ما من سبب على الاطلاق يبرر قتل الأبرياء بطريقة مباشرة . وسواء كان هذا القتل من نصيب الأم أو الطفل فإنه ضد تعاليم الله وقانون الطبيعة الناهى عن القتل.» ويسترسل البابا فى الحال ليشرح أن هذا النص الوارد فى الكتاب المقدس لا يدين شن الحروب أو تطبيق عقوبة الاعدام . ويختتم قائلا : «إن الأطباء الشرفاء والمهرة يسعون جاهدين على نحو يثير الاعجاب إلى حماية حياة كل من الأم

والطفل والحفاظ عليهما . وعلى النقيض من ذلك نرى أن الذين يتصرفون على نحو يخل بشرف مهنة الطب تحت شعار ممارسة الطب أو دوافع الشفقة الكاذبة هم الذين يتسببون فى وفاة الأم أو وليدها .» وهكذا نجد أن مذهب الكنيسة الكاثوليكية لا يستمد وجوده من نص فى الكتاب المقدس فحسب بل إن الكنيسة ترى أن هذا النص يصلح للتطبيق على الجنين الإنسانى حتى فى أولى مراحل تطوره . ومن الواضح أن هذا الرأى الأخير يرجع إلى الاعتقاد أن الجنين فى مراحله الباكرة يحتوى على ما يسميه اللاهوت روحا (١) . إن النتائج المستخلصة من مثل هذه المقدمات قد تكون مصيبة أو مخطئة . ولكن فى كلتا الحالتين ليست هذه بالحاجة التى يقبلها العلم أو يقتنع بها . فموت الأم التى يتوقعها الطبيب سلفا فى الحالات التى يناقشها البابا ليس قتلا نظرا لأن الطبيب لا يمكن له التأكد من حدوث الوفاة كما أن حياة الأم قد تنقذ بأعجوبة .

ورغم أن اللاهوت - كما رأينا لتونا - يحاول أن يتدخل فى الطب حيث يفترض بوجه خاص وجود مشكلات أخلاقية فإن الطب استطاع

---

(١) اعتقد اللاهوتيون فيما مضى أن الجنين الذكر يكتسب الروح فى اليوم الأربعين من تكوينه وأن الجنين الأنثى يكتسب الروح فى اليوم الثمانين . والآن تذهب أفضل الآراء إلى أن الجنين سواء كان ذكرا أم أنثى يكتسب الروح فى اليوم الأربعين (انظر كتاب نيدهام «تاريخ الأجنة ص ٥٨)

أن يحقق انتصارا على اللاهوت فى معظم المعارك الدائرة بينهما . فليس هناك الآن من يعتقد أنه من الكفر تجنب الأوبئة وتجنب انتشار العدوى عن طريق مراعاة النظافة وقواعد الصحة العامة . ورغم أن بعض الناس لا يزالون حتى الآن يعتقدون أن الله هو الذى يرسل الأمراض فإنهم لا يرون نتيجة لهذا الاعتقاد بأنه من الكفر محاولة تجنب هذه الأمراض .

إن التحسن فى صحة الإنسان وإطالة عمره الناجمين عن مراعاة قواعد العامة هى أبرز خصائص العصر الذى نعيشه ومن أكثرها مرعاة للاعجاب . وحتى لو أن العلم لم يفعل أكثر من هذا لسعادة الإنسان فان هذا يكفينا كى نشعر نحوه بالامتنان : وسوف يجد الذين يؤمنون بفائدة المذاهب اللاهوتية صعوبة في إبراز أية مزايا مماثلة يمكن أن يكونوا قد قدموها من ناحيتهم إلى الجنس البشري .

الفصل الخامس

الروح والجسد

يعتبر علم النفس أقل تقدما من سائر فروع المعرفة العلمية المهمة . ومن حيث الاشتقاق فإن علم النفس معناه «نظرية الروح .» ورغم أن الروح مسألة مألوفة لدى اللاهوتين فإنها تكاد ألا تعتبر مفهوما علميا ونحن لانجد عالما من علماء النفس يقول إن الروح موضوع دراسته ، ولكن عندما يسأل عن الروح فلن يجد من السهل عليه الاجابة عن هذا السؤال . ويرى فريق من الناس أن علم النفس معناه «دراسة الظواهر الذهنية .» ولكن الحيرة سوف تصيب هذا الفريق إذا طلب منهم أحد أن يوضحوا النواحى التي تختلف فيها الظواهر الذهنية عن الظواهر التى تشكل البيانات التى تقوم عليها علم الفيزياء .. والأسئلة السيكولوجية سرعان ماتقودنا الى مناطق الشك الفلسفي . ويصعب على علم النفس أكثر من العلوم الأخرى أن يتحاشى التساؤلات الجوهرية نظرا لأن هذا العلم يتسم بقلة المعرفة التجريبية الدقيقة وندرتها . ومع ذلك فقد استطاع علم النفس أن ينجز شيئا . وقد أرتبط الكثير من هذه الأخطاء القديمة باللاهوت بحيث أصبح اللاهوت سببا فى ارتكاب هذه الأخطاء

بقدر ما أصبح نتيجة ناجمة عن ارتكابها . وعلى خلاف المسائل التى ناقشناها حتى الآن لم تكن هذه الأخطاء مرتبطة بنصوص محددة بالذات أو بما ورد في الكتاب المقدس بل بحقائق الحياة . ولعل الأصح أن نقول إن الارتباط كان بالمذاهب الميتافيزيقية التى تعتبر لسبب أو لآخر جوهرية فى مجموع المعتقدات الدينية الارثوذوكسية الجامدة والمتزمتة .

إن الروح كما وردت في الفكر الاغريقى كان لها أصل دينى دون أن يكون هذا الأصل مسيحيا .. وبدا فيما يتعلق بالاغريق أن الروح ظهرت أول ماظهرت فى تعاليم أتباع فيثاغورث الذين آمنوا بالتناسخ وتطلعوا إلى الخلاص النهائى الذى يتلخص في التحرر من عبودية المادة التى أصبح لزاما على الروح أن تعانى منها مادامت حبيسة الجسد . ومارس أتباع فيثاغورث نفوذهم على أفلاطون ثم أثر أفلاطون بدوره على آباء الكنيسة . وهكذا أصبح المذهب القائل بانفصال الروح عن الجسد جزء لايتجزأ من العقيدة المسيحية . ثم تدخلت مؤثرات أخرى أبرزها تأثير أرسطو والرواقيين ، ولكن الافلاطونية بالذات وخاصة فى أشكالها اللاحقة أصبحت أهم عنصر وثنى فى الفلسفة التى أرساها آباء الكنيسة .

ويتضح من كتابات أفلاطون أن الجمهور فى زمانه آمن على نطاق واسع بمذاهب شديدة الشبه بالمذاهب التى بشرت بها الكنيسة فى وقت

لاحق . تقول إحدى الشخصيات في جمهورية أفلاطون : «تأكد ياسقراط إنه اذا أوشك إنسان على الاقتناع بدنو أجله فسوف ينتابه الذعر والقلق على أشياء لم تكن تؤثر فيه فيما مضى حتى تلك اللحظة . كان مثل هذا الإنسان يضحك من الحكايات التي تدور حول الموتى والتى تخبرنا بأن الخطاة فى الأرض لابد وأن يتعذبوا فى العالم الآخر . ولكن عقله الآن يتعذب خوفا من أن تكون هذه الحكايات حقيقية . » وفى فقرة أخرى نعلم أن الشاعر الاغريقي الاسطورى مسيوس وابنه إيومولبيوس يريان أ ن البركات التي تمنحها الآلهة للمنصفين والعادلين أكثر مدعاة للبهجة من جميع كنوز الأرض» لأن هذه البركات تأخذهم الى مسكن حاديس إله الأرواح والعالم السفلى واصفة إياهم بالاتكاء على الوسادات فى وليمة الورعين والاتقياء وهم لابسون الغار على رء وسهم ويقضون كل الأبدية فى ارتشاف الخمر» ومن الواضح أن الشاعر ميسيوس والإله أورفيوس نجحا ليس فقط فى اقناع الافراد بل اقناع مدائن بأسرها بأنه يمكن تطهير البشر من جرائمهم ليس فحسب أثناء حياتهم بل أيضا بعد مماتهم وذلك عن طريق أضحيات معينة وتسليات ممتعة يطلق عليها اسم «الأسرار» وهى مجموعة من الأشكال السرية للعبادة التى تخلصنا من عذاب الآخرة فى حين يعاقب عدم مراعاة هذه الأسرار وإهمالها بالمصير المروع الفظيع .

وفى جمهورية افلاطون يرى سقراط ضرورة تصوير العالم الآخر على أنه شيء ممتع حتى يتشجع المقاتلون على الاستبسال فى المعارك غير أن سقراط لايذكر لنا إذا كان بالفعل يؤمن بالآخرة أم لا .

إن مذهب الفلاسفة المسيحيين الذى كان فى جوهرة افلاطونيا فى العالم القديم أصبح فى جوهره ارسطاطيليسيا بعد القرن الحادى عشر . ويظل الفيلسوف الدينى توماس الاكوينى «١٢٢٥ ـ ١٢٧٤» الذى يعتبر أفضل اللاهوتيين المدرسيين حتى يومنا الراهن أفضل نموذج للارثوذوكسية الفلسفية فى الكنيسة الكاثوليكية الرومانية . وتعين على المدرسين العاملين فى المؤسسات التعليمية التابعة للفاتيكان وهم يعرضون لشرح نظم ديكارات ولوك وكانط الفلسفية باعتبار أنها موضوعات ذات أهمية تاريخية أن يوضحوا أن أهم نظام فلسفى على الاطلاق هو الذى وضعه الأب النقى الطاهر توماس الأكوينى . وكان أقصى ما يمكن للكنيسة أن تسمح به أن يقترح المرء ـ مثلما اقترح مترجمه ـ أنه كان يهذر وهو يناقش ماذا يحدث عند بعث جسم واحد من أكلة لحوم البشر المولود أيضا من أبوين من أكلة لحوم البشر . فمن الواضح أن الناس الذين قام هذا الإنسان بالتهامهم لهم أحقية فى جسده لدرجة أنه سوف يصبح بلا جسد حين يطالب كل من ضحاياه بنصيبه فى هذا الجسد .

وهذه صعوبة حقيقية تقابل كل المؤمنين ببعث الأجساد الذى تؤكده عقيدة الرسل . وإنها لدلالة على ضعف الفكر الديني الارثوذوكسي فى عصرنا الراهن أن نحتفظ بايماننا بالعقيدة الدينية الجامدة فى نفس الوقت الذى نأخذ مأخذ الهذر مناقشة جادة للمشاكل الغريبة المرتبطة بها ، وإذا شئنا أن ندرك قدرة هذا الاعتقاد على الاستمرار حتى يومنا الراهن فلنرجع الى الاعتراض على حرق جثث الموتى المبني عليه ، هو اعتقاد يؤمن به الكثيرون فى البلاد البروتستانتية بل فى فرنسا المتحررة نفسها ، وعندما حرقت جثة أخى فى ماريسليا أخبرني الحانوتي أنه يكاد ألا يذكر أية حالات مماثلة لحرق الجثث نظرا للاعتراض على حرقها بسبب التحيزات الدينية ، ويبدو أن الا عتراض يرجع الى الظن بأن الله القادر على كل شيء يجد صعوبة أكبر فى اعادة تجميع أجزاء الجسم البشرى عندما تنتشر على هيئة غازات من تلك التي يجدها فى حالة بقائها مدفونة في فناء الكنيسة فى شكل ديدان وطين، وإذا كان لى أن أعبر عن رأيى في هذا فإن مثل هذا التفكير دلالة على الهرطقة ، ولكنه على أية حالة وفي حقيقة الأمر التفكير السائد بين أكثر الناس رسوخا فى العقيدة بصورة لاتعرف الشك .

وتتكون كل من الروح والجسد فى الفلسفة المدرسية (التي لاتزال الكنيسة الرومانية تؤمن بها) من المادة . والمادة فكرة مستمدة من الاعراب أو ترتيب الألفاظ . وهذا بدوره مستمد من ميتافيزيقا الأجناس

البدائية غير الواعية بدرجات متفاوتة ـ والتى حددت تركيب اللغة ، والجمل تحلل الى مبتدأ وخبر «أو موضوع ومحمول فى لغة المنطق» ومن المعتقد أنه بينما الكلمات قد ترد أما كمتبدأ أو كخبر فإن بعضها الأخر «الذى يستخدم بمعنى غير واضح تماما» يمكن أن يرد فقط كمبتدأ ، وهذه الكلمات التى تتمثل خير وجه فى أسماء الأشخاص والاشياء يفترض أنها تدل على المادة ، والكلمة الشائعة لنفس هذه الفكرة هى الشىء أو الشخص فى حالة استخدامها على الجنس البشرى ، والمفهوم الميتافيزيقي للمادة ليس سوى محاولة فقط لتحديد مايعنيه الادراك السليم بالشىء أو الشخص .

وقد نقول على سبيل المثال : «كان سقراط حكيما» أو «كان سقراط اغريقيا» أو «سقراط علم أفلاطون» الخ .. ونحن فى كل هذه العبارات ننسب خواصا مختلفة لسقراط ، وكلمة سقراط لها بالضبط نفس المعنى فى كل هذه الجمل ، ومن ثم فإن الشخص المعروف باسم سقراط شىء مختلف عن الخاصة التى تميزه . إنه شىء يمكن القول إن الخواص تكمن فيه . والمعرفة الطبيعية تمكننا فقط من التعرف على الشىء من خلال خواصه ولو أن لسقراط توأما له نفس الصفات تماما لما استطعنا التمييز بين الاثنين . ومع ذلك فإن المادة شىء مختلف عن مجموع خواصها . ويتجلي لنا هذا بوضوح فى مذهب الايوخارست أو المناولة ، فعند تحويل الخبز والخمر الى جسد المسيح ودمه تبقى خواص الخبز

كما هى . ولكن المحصلة المادية تصبح جسد المسيح وفى الفترة التى نشــأت فيها الفلسفة الحــديثة نجد أن الفلاســفة المجددين من ديكــارت الى ليبنتز «باستثناء سبينوزا» تجشموا المشــاق لاثبات أن مذاهبهم تنســجم وتتسق مع تحويل الخبز والخمر الى جسد المسيح ودمه . وترددت السلطات «الدينية» فى قبول هذا لفترة طويلة انتهت بأن قررت أن الأمــان يتوافــر فقط فى المذهب المدرسى أو السكولاستى .

وهكذا اتضح أنه باستــثناء تنزيل الدين لايمكننا أبدا القطع بأن الشيء أو الشخص الذى نراه فى وقت ماهو الشيء نفسه أو الشخص الذى نراه فى وقت آخر .. أى أننا فى حقيقة الأمر نتعرض على الدوام للوقوع فى كوميديا أخطاء مستمرة . وقد خطا أتباع لوك الذين تأثروا بفلسفته خطوة لم يجرؤ لوك نفسه على اتخاذها فقد أنكروا أن للمادة أية فائدة . ذهبوا الى حد القول بأنه بقدر مايمكننا معرفة أى شيء عن سقراط فإن معرفتنا به تتم عن طريق خواصــــه ، فإذا قلنــا أين ومتى عــــاش سقراط وماهو منظره وماذا أتى به من أفعال الخ .. فإننا بذلك نكون قد قلنا كل مايمكن قوله عنه ، ومعنى هذا أننا لسنا بحاجة الى الافتراض بأن له كينونة لاسبيل الى معرفتها .. كينونة تكمن فيها خواصــــه تماما مثلما تنغرز الأبــر فى «خددية الدبابيس» .

فالذى بالضـــرورة وعلى وجه الاطلاق لاسبيل الى معرفته ليس له وجود وليس هناك أى جدوى من افتراض وجوده .

لقد احتفظ ديكارت وسبينوزا وليبنتز بالإيمان بمفهوم المادة كشىء له خواص ولكنه متميز عن أى من هذه الخواص أو كلها . كما أن لوك احتفظ بهذا الإيمان ولكن تأكيده عليه يقل كثيرا عن تأكيدهم عليه . ثم جاء هيوم ليرفض هذا المفهوم الذى تم استبعاده تدريجيا من علمى النفس والفيزياء ، وسوف نعرض في الصفحات التالية للطريقة التى حدث بها هذا . غير أن الايماءات اللاهوتية لهذا المذهب والصعوبات الناجمة عن رفضه هي مايعنينا فى الوقت الحاضر .

ولنأخذ الجسد على سبيل المثال ، فطالما احتفظ الإنسان بمفهوم المادة فإن بعث الجسد معناه إعادة تجميع المادة الفعلية التى يتكون منها هذا الجسد فى فترة حياته على الأرض ، قد يكون قد طرأت على المادة عدة تحولات ـ ولكنها بالرغم من ذلك تحتفظ بهويتها ، إما إذا لم يخرج الشىء المادى عن كونه إعادة تجميع خواصه فإنه يفقد هويته عندما تتغير هذه الخواص . ولن يكون هناك أى معنى عندما نقول إن الجسد السماوى بعد البعث هو الشىء نفسه الذى كان يوما ما جسدا أرضيا .

ومن الغرابة بمكان أن نجد فى الفيزياء الحديثة صعوبة مشابهة تماما ، فالذرة بما يصاحبها من إلكترونات تتعرض للتحولات المفاجئة

ولكن هوية الإكترونات التي تظهر بعد التحول تختلف عن هويتها قبل التحول ، وكل الكترون مجرد طريقة لتجميع الظواهر الخاضعة للملاحظة في مجموعة دون أن يكون لها تلك النوعية من «الحقيقة» اللازمة للاحتفاظ بالهوية من خلال التغير .

والنتائج المترتبة على نبذ «المادة» كانت أجل وأخطر شأنا في مجال الروح عنها في مجال المادة ، ولكن هذه النتائج على أية حال ظهرت بصورة تدريجية للغاية فقد استمر الاعتقاد لبعض الوقت أن بعض الاشكال المخففة المتنوعة للمذهب القديم لايزال من الممكن الدفاع عنها ، وفي بادىء الأمر حلت كلمة العقل محل كلمة الروح بهدف الرغبة في تحاشي أية ايماءات لاهوتية . وبعد ذلك حلت كلمة الذات ومازالت هذه الكلمة تستخدم وخاصة في التناقض المفترض بين كلمتي ذاتي وموضوعي .

ومن الواضح أن هناك شيئا من المعنى عندما أقول عن نفسي أنني ذات الشخص الذي كنته بالأمس . وكي نضرب مثلا أكثر وضوحا نقول إنني إذا رأيت رجلا وسمعته يتحدث في الوقت نفسه فإن هناك شيئا من المعنى عندما أقول إن ذاتي التي ترى هي الذات نفسها التي تسمع . وهكذا صار من المعتقد أنني عندما أدرك شيئا فإن هناك ثمة علاقة بيني وبين هذا الشيء . فالرائي في هذه الحالة هو الذات في حين

أن الشيء المرئي هو الموضــوع ، ومن المؤسف أنه اتضح أنه لايمكن معرفة أي شيء عن الذات فهي ترى الاشياء الأخرى ولكنها لاترى نفسها . وبجسارة أنكر هيوم وجود الذات غير أن هذا لم يكن كافيا ، فإذا انتفى وجود الذات فما هو الخالد إذن ؟ وماذا عن حرية الارادة ؟ وماذا عن معاقبة الخطاة في الجحيم ؟ لا توجد اجابة عن هذه الاسئلة ولم يكن لدى هيوم رغبة في ايجاد اجابة عنها ، غير أن الأخرين افتقروا الى مايتحلى به هيوم من جسارة .

وتصدى كانط للاجابة عما أثاره هيوم من مشاكل . وظن كانط أنه عثر على نموذج بدا عميقا بسبب مايكتنفه من غموض ، يقول كانط إننا نجد في مجال المدركات الحسية أن الاشياء تؤثر فينا ، ولكن طبيعتنا تضطرنا الى رؤية الاشياء ليس كما هي في حد ذاتها بل كشيء أخر ناجم عما نقوم باضافته الى هذه الأشياء من اضافات ذاتية متنوعة وأبرز هذه الاضافات جميعا هي الزمان والمكان .

يذهب كانط الى أن الاشياء في حد ذاتها خارج نطاق المكان والزمان رغم أن طبيعتنا تضطرنا الى رؤية الاشياء في اطار الزمان والمكان . والأنا «أو الروح» كشيء في ذاته أيضا يتجاوز الزمان والمكان . والذى يمكننا ملاحظته في عملية الادراك هو العلاقة بين الذات الظاهرية والموضوع الظاهرى . ولكنه توجد وراء كل منهما نفس

حقيقية وشيء فى حد ذاته حقيقى لايمكن على الاطلاق ملاحظة أى منهما ، فلماذا إذن نفترض أنهما موجودان ؟ وللرد على هذا نقول لأنهما لازمان للدين والأخلاق . ورغم أنه لايمكننا عن طريق العلم معرفة أى شىء عن الذات الحقيقية فإننا نعرف أنها تتمتع بحرية الارادة وأنها يمكن أن تختار بين الفضيلة والرذيلة وأنها (رغم أنها لاتدخل فى نطاق الزمان) تتصف بالخلود وأن الظلم الظاهرى الكامن فى العذاب الذى يعانى منه الاخيار على هذه الأرض يجب تصلويبه عن طريق فرحهم فى السماء ، وعلى هذا الأساس ذهب كانط (الذى رأى أن العقل والصرف عاجز عن اثبات وجود الله) الى أنه يمكن اثباته عن طريق العقل «العملى» فهو النتيجة للضرورية لما ندركه بالحدس فى مجال الاخلاق .

ووجدت الفلسفة أنه من المستحيل عليها البقاء طويلا فى مثل هذا الوضع المتأرجح . واتضح أن الاجزاء المتشككة فى مذهب كانط أبقى فى قيمتها من تلك الاجزاء التى حاولت انقاذ الفكر الدينى التقليدى . وسرعان ماتضح أنه ليست هناك حاجة الى الافتراض بوجود الشىء فى ذاته الذى كان مجرد المادة القديمة مع التوكيد على أنه ليس من سبيل الى استكناهها ، وطبقا لنظرية كانط فإن الظواهر التى يمكن ملاحظتها هى مجرد اشياء ظاهرية وأن الحقيقة التى تكمن وراءها شىء لم نكن لنعرف عنه أكثر من مجرد وجوده لولا الافتراضات التى

يذهب اليها علم الأخلاق ، وأصبح من الواضح عند الذين جاءوا بعد كانط ـ وذلك بعد أن وصلت أفكاره الى الذروة على يدى هيجيل أن الظواهر هى كل مايمكننا أن نعرفه عنها من حقيقة وإنه ليست هناك حاجة الى الافتراض بوجود نوع اسمى من الحقيقة يتجاوز مايمكننا ادراكه ، قد يكون هناك بطبيعة الحال مثل هذا النوع من الحقيقة ، ولكن الحاجات التى تثبت وجوب وجودها لاتنهض على أساس ولهذا فهى لاتخرج عن كونها مجرد واحدة من امكانات لاتحصى ولا تعد ينبغى علينا تجاهلها لأنها امكانات تتجاوز نطاق ماهو معلوم أو أنها قد تصير معلومة فى الآخرة . ولايوجد داخل نطاق مايمكن معرفته مجال لمفهوم المادة ، أو مجال لتعديلها على شكل ذات وموضوع ، إن الحقائق الأولية التى يمكننا ملاحظتها ليس فيها مثل هذه الازدواجية وليس فيها سبب واحد يدعونا الى اعتبار الاشياء والاشخاص أكثر من مجرد مجموعة من الظواهر .

وحين نعرض للعلاقة بين الروح والجسد نجد أن مفهوم المادة ليس الشيء الوحيد الذى يصعب التوفيق بينه وبين الفلسفة الحديثة . فضلا عن وجود صعوبات متساوية تتصل بالسببية .

إن مفهوم السببية دخل الى اللاهوت فى الأمور المتصلة بالخطيئة أساسا وكان من المعتقد أن الخطيئة صفة من صفات الارادة وأن

الارادة هي السبب وراء الافعال ، ولكن الارادة نفسها لم تكن دائما محصلة أسباب سابقة عليها لأنها لو كانت كذلك فسوف نصبح غير مسئولين عن أفعالنا ولهذا أصبح لزاما لاستمرار الإيمان بفكرة الخطيئة الاعتقاد بأن الارادة «في بعض الأحيان على أقل تقدير» ليست نتيجة بل سبب ، واقتضى هذا عددا من الأفكار المتعلقة بالأحداث الذهنية وكذلك تحليل العلاقة بين الجسد والروح ، وبمضى الوقت أصبح من الصعب الاعتقاد بصحة هذه الأفكار .

ونشأت الصعوبة الأولى بسبب اكتشاف قوانين الميكانيكا وفي خلال القرن السابع عشر بدا أن القوانين التي تشهد التجربة والملاحظة على صحتها كانت تلك القوانين التى تحدد تحديدا كاملا كل حركات المادة . ولم يكن هناك سبب يدعو الى استثناء أجسام الحيوان والإنسان من هذه القاعدة واستنتج ديكارت أن جميع الحيوانات تتحرك تحركا آليا . ولكن تقدم علم الفيزياء سرعان ما أظهر استحالة هذا الرأى . وجاء أتباع ديكارت لينبذوا الاعتقاد بأن العقل يمكنه التأثير فى المادة ، وحاولوا الاحتفاظ بتعادل كفتى الميزان عن طريق الاعتقاد المضاد بأنه ليس يمكن للمادة أن يكون لها تأثير على العقل . وقادهم هذا الى نظرية المسلسلين المتوازيين وهما المسلسل الذهنى والمسلسل الفيزيقى أو الجسدى والى أن كل مسلسل تحكمه القوانين الخاصة به ، فعندما تقابل إنسانا وتقرر أن تقول له كيف حالك ؟ فإن قرارك هذا ينتمى الى

المسلسل الذهنى ولكن حركات الشفتين واللسان والحنجرة التى تبدو ناجمة عن هذا المسلسل لها أسباب ميكانيكية محضة فى حقيقة الأمر ، وقد شبهوا العقل والجسد بساعتين مضبوطتين انضباطا كاملا لدرجة أنه عند بلوغ كل منهما تمام الساعة فإنهما يدقان فى الوقت نفسه دون أن يكون لأى من هاتين الساعتين المنضبطين أى تأثير على الأخرى ، فإذا أمكنك رؤية احداهما فى حين تعرف فقط بوجود الأخرى عن طريق دقاتها فسوف يخيل اليك أن الساعة التى تراها هى التى تسبب دقات الساعة الأخرى . وبالإضافة الى صعوبة الاعتقاد بهذه النظرية فإن هذه النظـرية يشوبها عيب مفاده أنها تعجز عن تأكيد حرية الإرادة .

كان من المفترض وجود علاقة قوية وصارمة بين حالة الجسد وحالة العقل الى حد أنه اذا تم معرفة احداها يصبح فى الامكان من الناحية النظرية معرفة الأخرى ، وكان من المفترض أن الإنسان الذى يعرف قوانين هذه العلاقة ويعرف أيضا قوانين الفيزياء يمكنه اذا توافرت له المعرفة والمهارة الكافية التنبؤ بوقوع الأحداث الذهنية والأحداث البدنية على حد سواء وعلى كل حال كانت الارادة الذهنية عديمة الجدوى مادام أنها لاتتخذ لنفسها أشكالا بدنية ، وهكذا حددت قوانين الفيزياء متى يتفوه الإنسان بعبارة كيف حالك ، باعتبار أن هذا التفوه فعل بدنى أو فيزيقى، ولم يكن هناك أى عزاء يذكر فى اعتقاد المرء أن

باستطاعته إذا شاء أن يتفوه بكلمات الوداع مادام أنه كان من المقدر عليه سلفا أن يتفوه بعبارات الترحيب .

ولهذا فليست هناك غرابة في أن يتحول مذهب ديكارت في فرنسا في القرن الثامن عشر الى فلسفة مادية صرف تعامل الإنسان على أنه محكوم تماما بقوانين الفيزياء ، وتختفي الارادة تماما من هذه الفلسفة فضلا عن اختفاء مفهوم الخطيئة ، ولاتؤمن هذه الفلسفة المادية بوجود الروح ومن ثم فهي تنكر الخلود باستثناء الذرات المنفصلة التي تتجمع مؤقتا لتشكل الجسم البشري . وقد أصبحت هذه الفلسفة التي يفترض أنها أسهمت في ارتكاب الثورة الفرنسية للأعمال المتطرفة مصدرا للرعب في بادىء الأمر بعد قيام عهد الرعب والارهاب يبث الفزع في نفوس الذين يحاربون فرنسا الثائرة ثم يبث الفزع في نفوس كل الفرنسيين الموالين لحكومتهم بعد عام ١٨١٤ . وانتكست انجلترا وعادت الى حظيرة الارثوذكسية الدينية . أما ألمانيا فقد تبنت الفلسفة المثالية التي وضعها خلفاء الفيلسوف كانط . ثم جاءت الحركة الرومانسية التي أعلت من شأن العاطفة ورفضت فكرة سيطرة القوالب والمعادلات الرياضية على الافعال الإنسانية . وفي الوقت نفسه نرى في مجال علم وظائف أعضاء الإنسان أن الذين حملوا المقت للمذهب المادي التجأوا الى الاسرار أو لاذوا بفكرة «القوة الحيوية .» وظن البعض أن

العلم لن يتمكن أبدا من فهم الجسم البشرى وأعلن آخرون أن بامكان العلم أن يفهم الجسم البشرى لو أنه استعان بغير مبادىء الكيمياء والفيزياء وكلا النظريتين لاتجدان الآن شعبية كبيرة بين علماء الأحياء ولكن النظرة الثانية لاتزال تجد عددا محدودا من الأنصار .

إن الأبحاث التى أجريت على علم الأجنة وفى علم الكيمياء العضوية وفى الانتاج الصناعى للمركبات العضوية تزيد من احتمالات الاعتقاد بأن خصائص المادة الحية يمكن شرحُها شرحا كاملا بلغة الكيمياء والفيزياء وبطبيعة الحال نجد أن نظرية التطور جعلت من المستحيل أن نفترض أن المبادىء نفسها التى تنطبق على جسم الحيوان تختلف عن تلك التى تنطبق على الجسم البشرى .

ولنعد الى علم النفس ونظرية الارادة لقد كان من الواضح دائما أن الكثير من إرادتنا وربما معظمها لها أسباب . ولكن الفلاسفة المتدينين التقليديين ذهبوا الى أن هذه الأسباب لاتتولد عنها نتائجها بالضرورة بخلاف الأسباب القائمة فى العالم المادى . بل إنهم رأوا أنه بالامكان دائما مقاومة حتى أعتى الرغبات واشدها قوة عن طريق استخدام الارادة . وهكذا أصبح من المعتقد أنه حين تتحكم العواطف المتأججة فينا فإن أفعالنا تفقد حريتها لأنها أفعال تنهض على أسباب . ولكنهم ذهبوا الى أن الإنسان يتمتع بملكة تدعى العقل أحيانا والضمير أحيانا

أخرى وهو الذى يعطيه الحرية الحقيقية اذا اتبع إرشاداته ، وهكذا أصبحت الحرية الحقيقية - على النقيض من مجرد النزوة - صنو لطاعة القانون الأخلاقي ، ثم خطا اتباع هيجل خطوة أبعد من ذلك فاعتبروا القانون الأخلاقي وقانون الدولة شيئا واحدا لدرجة أنهم رأوا أن الحرية الحقيقية تتمثل في طاعة البوليس ، وهو مذهب رحبت به الحكومات ترحيبا كبيرا .

ولكن كان من العسير للغاية علي أية حال الاستمساك بالنظرية القائلة بأن الارادة ليس لها سبب فى بعض الأحيان وإنه لمن غير الممكن القول بأنه حتى أكثر الافعال اتساما بالفضيلة ليس لها دافع . فالإنسان قد يرغب فى ارضاء الله وقد يرغب في أن ينال رضاء جيرانه أو رضاء ه عن نفسه أو فى أن يرى الناس سعداء ، أو يعمل على التخفيف من آلامهم ، وقد تكون كل رغبة من هذه الرغبات سببا فى اتيانه بعمل طيب ولكن طالما أنه لاتعتمل فى نفسه رغبة طيبة فانه لن يأتى بالافعال التي يرضى عنها القانون الأخلاقي ونحن نعرف أكثر بكثير عن أسباب الرغبات عما عرفناه فى الماضى . وتعود هذه الأسباب أحيانا الي الغدد الصماء وأحيانا الى التربية الباكرة وأحيانا فى التجارب التي يطويها النسيان وأحيانا أخرى الى الرغبة فى الحصول علي الرضا الخ .. من الواضح أننا عندما نتخذ قرارا فإن قرارنا يأتى نتجة بعض الرغبات رغم أنه قد توجد في ذات الوقت رغبات أخرى

تشدنا في الاتجاه المضاد . وكما يقول هوبز تصبح الارادة فى هذه الحالات «الشهية الأخيرة» فى حالة تفكر وتدبير ومن ثم فإن فكرة وجود عمل ارادى ليس له أى سبب على الاطلاق أمر أو لايمكن الدفاع عنه ، وسوف تعنى بتتبع النتائج المترتبة على هذا فى مجال علم الأخلاق فى فصل لاحق .

وباكتساب علمى النفس والفيزياء ، درجة أكبر من العلمية نجد أن مفاهيمها التقليدية تمهدان الطريق بصفة متزايدة الي مفاهيم جديدة أكثر صحة وسلامة . لقد كان علم الفيزياء حتى عهد قريب قاصرا على تناول المادة والحركة ، وعلى أية حال مهما بلغ التفكير بصدد المادة في اللحظات الفلسفية فإن هذه المادة من الناحية الفنية لم تخرج عن كونها المادة بالمفهوم السائد فى العصور الوسطى . وقد تبين الآن أن المادة والحركة غير كافيين حتى من الناحية الفنية ، واقترب المسار الذى يحتضنه علماء الفيزياء النظرية اقتربا كبيرا من مسار الفلسفة العلمية ومتطلباتها وعلى نفس النحو يجد علم النفس أنه من الضرورى أن ينبذ مفاهيم مثل «الادراك» و«الوعى» لأنه اتضح أنهما عاجزان عن التحديد الدقيق ومن أجل توضيح هذا نرى أنه من الضرورى أن نقول شيئا عن هذين المفهومين .

وللوهلة الأولى يبدو لنا الادراك مباشرا تماما . نحن ندرك الشمس

والقمر والكلمات التى تصل الى مسامعنا وخشونة أو نعومة ملمس الأشياء أو عفن البيض الفاسد أو طعم الموستاردة ولا يوجد شك فى وجود الأحداث التى نغطيها هذا الوصف . ولكن الشك يوجد فقط فيما نعطيه من وصف . فعند إدراكنا الشمس نجد أن هناك عملية سببية طويلة تبدأ بالثلاثة والتسعين مليون ميل التى تفصلنا عن الشمس ثم مايحدث فى العين المبصرة والعصب البصرى الخ .. ولايمكننا أن نفترض أن الحادثة الذهنية الأخيرة التى نسميها رؤية الشمس تحمل شبها كبيرا للشمس نفسها فالشمس مثل الشىء فى احد ذاته حسب تعبير كانط تبقى خارج دائرة تجربتنا ويمكن معرفتها فقط (هذا اذا كان لنا أن نعرفها على الاطلاق) عن طريق الاستنتاج الصعب المستخلص من تلك التجربة التى نسميها رؤية الشمس ونحن نفترض أن للشمس وجودا خارج تجربتنا نظرا لأن الكثيرين يشاهدونها على الفور ولأن كافة أنواع الأشياء مثل ضوء القمر ـ يمكن شرحها ببساطة عن طريق الافتراض بأن الشمس لها نتائج فى أماكن لايوجد فيها مشاهدون لها . غير أننا بكل تأكيد لاندرك الشمس بالمعنى المباشر والبسيط الذى يبدو أننا نحس به مثل ادراك السببية الفيزيقية المعقدة القابعة وراء المدركات الحسية .

وبمعنى عام يمكننا القول بإننا ندرك أى موضوع حين يحدث لنا شىء يكون فيه هذا الموضوع السبب الرئيسى فى حدوثه وحين يكون

من شأن طبيعة هذا الموضوع أن تسمح لنا بالوصول الى استنتاجات بصدده فعندما نسمع شخصا يتحدث فإن الاختلافات فيما نسمع تتجاوب مع الاختلافات فيما يتفوه به . وبوجه عام فإن الأثر الذى يتركه الوسط الذى يصلنا الكلام من خلاله يتسم بالثبات ، ومن ثم يمكن تجاهله بشكل أو بآخر ، وعلى نحو ماثل عندما نرى بقعة حمراء وأخرى زرقاء جنبا الى جنب فإنه يحق لنا أن نفترض وجود بعض الفارق بين الأماكن التى يأتى منها الضوءان الأحمر والأزرق ، بالرغم من أنه لايمكن الافتراض بأن هذا الفارق يشبه الفارق بين أحساسنا باللونين الأحمر والأزرق ، وقد نحاول بهذه الطريقة انقاذ مفهوم الإدراك ولكننا لن ننجح أبدا فى اضفاء الدقة على هذا المفهوم ، ويمارس الوسط الفاصل بين الرائى والمرئى قدرا من الأثر الشائب فالمكان الأحمر قد يبدو أحمر بسبب وجود ضباب منتشر فى الوسط الفاصل كما أن المكان الأزرق قد يبدو أزرق لأننا نلبس نظارات زرقاء ، وإذا أردنا الوصول الى استنتاجات بشأن الشىء المدرك ـ نستمدها من نوع التجربة التى من الطبيعى أن نسميها ادراكا – فإننا يجب أن نعرف الفيزياء وعلم وظائف الاعضاء الخاصة باعضاء الحواس . وأيضا يجب أن تتوافر لدينا معلومات مستفيضة عن الفراغ الذى يفصل بيننا وبين ذلك الشىء الذى ندركه ، فإذا توافرت لدينا كل هذه المعلومات وافترضنا حقيقة وجود العالم الخارجى فإنه يمكننا استقاء بعض

المعلومات الشديدة التجريد بشأن الشيء المدرك ، ولكن كل هذا الدفء والاحساس المباشر الذى تتضمنه كلمة إدراك ، سوف يتلاشى فى عملية الاستنتاج الذى نصل اليه عن طريق المعادلات الرياضية الصعبة . وليس من الصعب ملاحظة هذا فى حالات الاشياء البعيدة عنا مثل الشمس . ولكن هذا ينسلخ بدرجة متساوية على مانلمسه ونشمه ونتذوقه لأن ادراكنا لمثل هذه الاشياء يرجع الى عمليات معقدة تنتقل عبر الأعصاب الى المخ .

وربما تكون مسألة الوعى أكثر عسرا فنحن نقول إننا نعى بينما العصى والحجارة لاتعى . ونحن نقول إننا نعى ، عندما نكون فى حالة يقظة ، وليس عندما نكون نياما ، نحن بالتأكيد نعنى شيئا عندما نقول هذا ، ونعنى بذلك شيئا حقيقيا ، ولكن من العسير أن نعبر بأية دقة عن ذلك الشيء الذى نصفه بأنه حقيقي كما أن هذا التعبير يقتضى منا تغيير اللغة التى نستخدمها .

وعندما نقول إننا نعى فإننا نعنى بذلك شيئين أولهما أن رد فعلنا نحو بيئتنا يتم بطريقة معينة وثانيهما أنه يبدو عند النظر الى داخل ذواتنا أننا نجد أن أفكارنا ومشاعرنا تتسم بصفة ماليس لها وجود فى الجوامد ، ويتلخص رد فعلنا نحو البيئة فى كوننا نصبح على وعى بشيء ما . فإذا أنت صرخت قائلا : هية فسوف يلتفت اليك الناس فى

حين أن الحجارة لاتلتفت اليك ، وأنت تعلم إنك إذا التفت من حولك فى مثل هذه الحالة فان هذا يرجع الى سماعك ضوضاء . وطالما أنه يمكن الافتراض بأن المرء «يدرك» الاشياء فى العالم الخارجى فيمكن القول فى حالة الادراك أن المرء يصبح على وعى بها ، ويمكننا الآن أن نقول فقط إن ردود أفعالنا تأتى نتيجة منبهات أو بواعث وهو الحال نفسه مع الحجارة ، ولكن البواعث المسببة لردود الأفعال فى حالة الجوامد قليلة ، ومن ثم نجد فيما يختص بالادراك الخارجى أن الفروق بيننا وبين الحجارة هى فروق فى الدرجة فقط .

والجزء الأهم من فكرة الوعى ، يتعلق بما نكتشفه عن طريق الاستبطان . وليست لنا فقط ردود فعل نحو الاشياء الخارجية بل إننا نعلم أن لنا ردود فعل تجاهها . وعند القيام بتحليل الأمر نجد هنا أيضا أن الفرق بين الإنسان والجماد فرق فى الدرجة . وليس هناك حقا أى جديد فى القول إننا نعرف أننا نرى الاشياء فهذا لايعدو أن يكون مجرد رؤية اللهم الا اذا أضيفت الذاكرة الى الرؤية ...فعندما نرى شيئا فى بادىء الأمر ثم نفكر فى أننا رأيناه بعد ذلك مباشرة فإن هذا التفكير الذى يبدو استبطانا لايخرج عن كونه عملية تذكر مباشرة ، وقد نقول إن الذاكرة شىء «ذهنى» على نحو متميز ، ولكن حتى هذا نفسه يمكن انكاره فالذاكرة شكل من أشكال العادة ، والعادة شىء تتميز به أنسجة

الأعصاب علي الرغم من أننا نرى مظاهر هذه العادة فى أشياء أخرى مثل لفة الورق التى تعود الى الطى إذا ما تركناها بعد فردها ، ولست أزعم أن ماسبق أن ذكرت يمثل تحديدا وافيا لما نسميه على نحو غامض الوعى فهذا الموضوع واسع ويتطلب لاستيفائه مجلدا كاملا ، فقط أعنى أن اقترح أن مايبدو فى بداية الأمر مفهوما دقيقا ومحددا هو فى حقيقة الأمر بعكس ذلك تماما وأنه يتعين على دراسى النفس بطريقة علمية استخدام مصطلحات مختلفة .

وأخيرا ينبغى القول إن الفرق بين الروح والجسد قد تلاشى ليس فقط لأن مفهوم المادة فقد خاصية الجوامد تماما بل أيضا لأن العقل أو الذهن فقد روحانيته .

ولايزال من المعتقد أحيانا وهو اعتقاد كان سائدا فيما مضى أن البيانات التى ينهض عليها علم الفيزياء تتسم بالعمومية بمعنى أنها بيانات واضحة لكل إنسان فى حين أن البيانات التى ينهض عليها علم النفس تتسم بالخصوصية بمعنى أن الإنسان يحصل عليها عن طريق الاستبطان ، ولكن هذا الفرق بينهما على أية حال فرق فى الدرجة. فليس هناك شخصان يدركان بالضبط نفس الشىء فى نفس الوقت لأن الخلاف القائم بين وجهتى نظرهما يسبب شيئا من الخلاف فيما

يشاهدان . وعندما نمحص بيانات الفيزياء بدقة يتضح أن لها نفس الخصوصية التى تتسم بها بيانات علم النفس. ومثل هذه العمومية المشكوك فى عموميتها الموجودة فى علوم الفيزياء يمكن أن تقوم لها قائمة فى علم النفس.

وعلى الأقل نشاهد تطابقا فى الحقائق التى ينطلق منها العلمان. فبقعة اللون التى يقع عليها بصرنا معلومة تدخل بالتساوى فى نطاق علم الفيزياء والنفس معا. فالفيزياء تقدم مجموعة من الاستنتاجات فى سياق من نوع واحد فى حين أن علم النفس يقدم مجموعة أخرى من الاستنتاجات فى سياق من نوع آخر. وقد يكون من التبسيط المخل القول بأن علم الفيزياء يعنى باستقصاء العلاقات السببية خارج المخ فى حين يعنى علم النفس باستقصاء العلاقات السببية داخل المخ باستبعاد تلك التى يتم اكتشافها فى الحالة الثانية عن طريق الملاحظة الخارجية التى يقوم بها علماء الفسيولوجيا أى علم وظائف الأعضاء أثناء فحصهم للمخ. إن البيانات التى يقوم عليها علم الفيزياء، وعلم النفس عبارة عن وقائع تحدث بمعنى ما فى المخ، ولكلا العلمين سلسلة من الأسباب الخارجية يتولى علم الفيزياء بحثها وسلسلة من النتائج الداخلية مثل الذاكرة والعادات الخ.. يقوم علم النفس باستقصائها .

ولكن ليس هناك دليل على وجود خلاف جوهرى بين مكونات علمى الفيزياء والنفس. ونحن نعرف النذر السير حول كلا العلمين بالمقارنة بما كنا نعتقد إننا نعرفه فيما مضى. ولكننا نعرف مايكفينا كى نتأكد من أنه لا مكان للروح أو الجسد فى العلم الحديث.

ثم يبقى لنا أن نستفسر عن أثر المذاهب الحديثة فيما يتعلق بعلم النفس وعلم وظائف الأعضاء على مصداقية الايمان الدينى الأرثوذوكسى بفكرة الخلود.

لقد شاهدنا أن الإيمان ببقاء الروح بعد فناء الجسد مذهب شائع بين المسيحيين وغير المسيحيين والشعوب المتحضرة والبربرية. لقد كان الفريسيون من اليهود فى عهد المسيح يؤمنون بالخلود فى حين أن الصدوقيين اليهود استمسكوا بالتقاليد الأقدم منكرين بذلك الخلود، وفى الدين المسيحى نجد أن الإيمان بالأبدية والحياة الأخرى يتبوأ على الدوام مكانة عالية للغاية، فالبعض حسب معتقدات الكنيسة الرومانية الكاثوليكية يتمتع بفردوس النعيم بعد فترة يقضونها فى المطهر حيث يطهرهم العذاب من أوشابهم. والبعض الآخر يقاسى فى الجحيم من العذاب الأبدى. ونحن نرى فى الأزمنة الحديثة أن المسيحيين الليبراليين غالبا مايميلون الى الاعتقاد أن الجحيم ليس أبديا. وهو رأى اعتنقه كثير من رجال الدين المنتمين

إلى الكنيسة الانجليزية منذ أن قرر مجلس البلاط الملكى عام ١٨٦٤ أن مثل هذا الاعتقاد لايعتبر انتهاكا للقانون ولكننا نجد حتى منتصف القرن التاسع عشر أن قلة قليلة للغاية ممن يقولون عن أنفسهم أنهم مسيحيون هى التى أظهرت تشككها فى حقيقة العقاب الأبدى.

إن الخوف من الجحيم كان (ولايزال حتى الآن بدرجة أقل) مصدر قلق وفزع شديد قضى على الكثير من السلوى والعزاء اللذين يستمدهما الإنسان من الايمان بخلود الروح، وكان الدافع لانقاذ الآخرين من نار جهنم يساق كمبرر للاضطهاد ولأنه إذا قام مهرطق بتضليل الأخرين وتسبب فى إنزال اللعنة بهم فإنه لايمكن اعتبار أى درجة من التعذيب فى هذه الدنيا تطرفا طالما أن هذا التعذيب يستخدم للحيلولة دون حلول هذه اللعنة الفظيعة. ومهما يكون التفكير الآن فقد كان الناس فيما مضى يعتقدون – باستثناء أقلية ضئيلة – أن الهرطقة تتعارض مع الخلاص.

إن اضمحلال الإيمان بجهنم لم يأت نتيجة أية محاجات لاهوتية جديدة أو نتيجة النفوذ المباشر للعلم بل أتى نتيجة الاقلال العام من ضراوة التصدى للمهرطقين خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر.

هذا الاضمحلال جزء من نفس الحركة التى أدت قبيل اندلاع الثورة الفرنسية إلى إلغاء الأحكام القضائية التى تنص على التعذيب فى كثير من البلاد والتى أدت فى أوائل القرن التاسع عشر إلى إصلاح بربرية قانون العقوبات التى كانت سببا فى تلطيخ اسم انجلترا. ويسود في يومنا الراهن حتى بين الذين لايزالون يؤمنون بالجحيم اعتقاد بأن عدد الذين كتب عليهم أن يتلظوا بعذابه أقل بكثير مما كان يعتقد فى الماضى. وفى الوقت الحاضر نجد أن ضراوة عواطفنا المتأججة تتجه إلى السياسة أكثر مما تتجه إلى اللاهوت.

ومن الغريب أنه عندما صار الإيمان بالجحيم أقل تحديدا نرى أن الإيمان بالجنة فقد حيويته. ورغم أن الأرثوذوكسية المسيحية لاتزال تعترف بالجنة فإن المناقشات العصرية تستبعدها ولاتذكر عنها سوى النذر اليسير، بالمقارنة بما يذكر عن شواهد الهدف الآلهى القابع وراء مسيرة التطور، والمحاجات التى تستخدم الآن للدفاع عن الدين تركز على أثره في تحسين ظروف الحياة على الأرض أكثر من ارتباطه بالحياة الآخرة. إن الايمان (الذى كان يؤثر فيما مضى فى الأخلاق والسلوك) بأن الحياة لاتعدو أن تكون مجرد تمهيد للأخرة قد فقد الآن الكثير من نفوذه حتى لدى الذين لايرفضون الدين عن وعى.

إن ما يمكن للعلم قوله فى موضوع خلود الروح ليس بالأمر الشديد الوضوح والتحدد. صحيح توجد محاجاة تدافع عن خلودها وهى محاجاة علمية تماما فى مقصدها على أقل تقدير. وأعنى بها تلك المحاجاة المتصلة بالظواهر الخاضعة للأبحاث النفسية.

ولست أملك معلومات عن هذا الموضوع تكفى للحكم على مدى صحة الأدلة المتوافرة ولكن من الواضح أنه يمكن وجود دلائل كافية لاقناع العقلاء. غير أنه يجب على كل حال اخضاع هذه المحاجاة لبعض الشروط المعينة. ففى المقام الأول تثبت هذه الدلائل المقدمة على أحسن تقدير أننا نستمر فى الحياة ولكن ليس إلى الأبد. وفى المقام الثانى من العسير للغاية قبول حتى شهادة الأشخاص الذى يتصفون فى العادة بالدقة فيما إذا استبدت بهم الرغبات الجامحة، وهناك دلائل كثيرة تشير إلى هذا فى الحرب العالمية الأولى، فضلا عن توافرها فى كافة الأزمنة التى تتسم بالاضطراب الشديد. وفى المقام الثالث إذا بدا من غير الممكن لأسباب أخرى ان شخصياتنا لاتموت بموت أجسامنا فسوق يتطلب هذا منا دليلا على البقاء على قيد الحياة أقوى بكثير مما تحتاج إليه فى حالة التسليم المسبق لاحتمال هذا الافتراض. حتى أكثر الناس حماسا فى إيمانه بالروحانيات لايستطيع الزعم بأن لديه من الدلائل على استمرار الحياة بعد الموت مايعادل تلك الدلائل التى يمكن للمؤرخين أن يسوقوها لإثبات أن

الســـاحرات كانـــوا يســتـخـدمون الأجـسـام لتـقـديم فروض الطاعة والولاء للشيـاطين. ومع هذا فمن النادر أن نجد الآن من يؤمن بجدية حدوث مثل هذه الوقائع.

والصعوبة التى يقابلـها العلم تنشأ عن حقيقة مفادها على مايبدو عدم وجود كينونة اسمهـا الروح أو النفس. وكما شـاهدنا لم يعد من الممكن اعتبار الروح والجسد مـادتين باقيتين على مر الزمان يراهما الميتافيزيقيون مرتبطين من الناحية المنطقية بفكرة المادة. وليس هناك فى علم النفس سبب لافتـراض وجـود ذات، تتـصل من حيث الادراك بموضـوع، وحتى وقت قـريب كان من المعـتـقـد أن المادة خـالدة ولكن أسلوب علم الفيزياء لم يعد يفترض هذا الخلود.

فـالذرة الآن أصـبـحـت مـجـرد طريقـة مريحـة لتـجـمـيع أحـداث مـعـينة. ومن المريح إلى حـد مـا أن نفكر فى الذرة باعتـبـارهـا نواة تصـاحـبـهـا الكتـرونات. غـيـر أننا نجـد أن الالكتـرونات فى وقت مـا لايمكن أن تتطابق مع نفسـها عنـها فى وقت آخر، وعلى أية حال ليس هناك بين علماء الفـيزياء المعـاصـرين من يعـتـبـر النواة وألكترونـاتهـا شيئا حقيقيا.

وعند وجـود شـىء مادى من المفـترض أنه أبدى يصـبح من السـهل القول بأن العقل يسـاويه فى أبديته. ولكن هذه المحـاجـاة التى لم تكن شـديدة القـوة فى أى وقت من الأوقـات لم تعـد مـسـتـخـدمة فـى يومنا

الراهن ولأسباب كافية قام علماء الفيزياء بتخفيض الذرة الى سلسلة من الأحداث.

وأيضا لأسباب جيدة مماثلة يجد علماء النفس أن العقل ليست له الهوية المستمرة لشيء مفرد. ولكنه سلسلة من الأحداث ترتبط معا بعلاقات حميمة معينة. ولهذا تحول موضوع خلود الروح الى تساؤل عما إذا كانت هناك علاقات حميمة بين الأحداث المرتبطة بجسد حى وبين أحداث أخرى تقع بعد موت هذا الجسد.

قبل أن نحاول الاجابة عن هذا السؤال يجب علينا بادىء الأمر أن نقرر ما هى تلك العلاقات التى تربط بين أحداث معينة على نحو يجعل منها الحياة الذهنية لشخص ما. من الواضح أن الذاكرة من أهمها جميعا فالأشياء التى أتذكرها هى تلك التى حدثت لى وإذا كان بإمكانى أن أتذكر مناسبة معينة ثم أتذكر فى هذه المناسبة شيئا آخر فلابد أن يكون هذا الشىء الآخر قد حدث لى. غير أنه يمكن الاعتراض على هذا بالقول بأن شخصين قد يتذكران نفس الحادثة. ولكن مثل هذا القول ينطوى على خطأ فلا يوجد شخصان أبدا يريان بالضبط نفس الشىء بسبب الاختلاف فى موقعيهما. ولايمكن أن تكون لهما بالضبط نفس تجربة السمع والشم واللمس والذوق. إن تجربة شخص قد تبدو قريبة الشبه بتجربة شخص آخر ولكنها دائما تختلف عنها بدرجات متفاوتة، فتجربة كل شخص

تجــربة حميمة تخصه وحده. وعندما تتلخص إحدى التجارب فى تذكر تجربة أخرى فإنه يقال إن كلتا التجربتين تنتميان الى نفس الشخص .

وهناك تعريف آخر للشخصية أقل استنادا الى الناحية النفسية وهو تعريف مستمد من الجسد، إن تعريف مكونات هوية الجسد الحى فى الأوقات المختلفة قد يكون معقدا. ولكننا سوف نأخذه فى هذه اللحظة على علاته .. وسوف نسلم أيضا بأن كل تجربة ذهنية، معروفة لدينا تتصل بجسد حى، حينئذ يمكننا تعريف الشخص، بأنه سلسلة من الأحداث الذهنيــة المتـصلة بجسـد مـا. وهذا هو التعريف القانونى فإذا قام جسد شخص ما بارتكاب جريمة قتل ويلقى البوليس القبض عليه فإن الشخص الذى يسكن هذا الجسد فى وقت القبض عليه يصبح قاتلا.

وتتعارض هاتان الطريقتان فى تعريف الشخصية فى الحالات التى تسمى الشخصية المزدوجة أو الفصامية، ففى هذه الحالات نجد أن مايبدو للمراقب الخارجى أنه شخص واحد ينقسم ذاتيا إلى شخصين. وأحيانا لايعرف كلا الشخصين أى شىء عن الشخص الآخر. وأحيانا أخرى يعرف أحد هذين الشخصين الشخص الآخر دون أن يعرفه ذلك الشخص الآخر. وفى الحالات التى لايعرف فيها أى من الشخصين أى شىء عن الشــخص الآخر يوجـد شخصان

لا شخص واحد اذا استخدمت الذاكرة كتعريف. ولكن يوجد شخص واحد فقط لاغير اذا استخدم الجسد كتعريف.

وهناك تدرج منتظم نحو الحالة المتطرفة المعروفة بالشخصية الازدواجية تتراوح بين شرود الذهن والتنويم المغناطيسى والمشى أثناء النوم. وهذا يجعل من الصعب استخدام الذاكرة كتعريف للشخصية ولكن يبدو أنه من الممكن استرجاع الذاكرة المفقودة عن طريق التنويم المغناطيسى أو طريق التحليل النفسى. ومن ثم يجوز إنه بالامكان تخطى هذه الصعوبة.

وبالاضافة الى التذكر الفعلى نجد أن عناصر متنوعة أخرى تشبه الذاكرة تدخل بصورة أو بأخرى فى تركيب الشخصية مثل العادات التى تتكون نتيجة التجارب الماضية. وبالنظر إلى أنه – حيث توجد الحياة – يمكن للأحداث أن تشكل العادات فإن التجربة تختلف عن مجرد الحدث . والتجربة تشكل الحيوان بل تشكل الانسان بصورة أوضح بطريقة لاتتشكل بها المادة الخالية من الحياة . ولو أن حادثة ارتبطت سببيا بحادثة أخرى على هذا النحو الخاص الذى له علاقة بتشكيل العادات فإن كلتا الحادثتين تنتميان إلى نفس الشخصية. هذا تعريف أوسع من تعريف الشخصية بالذاكرة

وحدها، وهو تعريف لايحتوى فقط على كل مايشتمل عليه التعريف بالذاكرة بل يشتمل على ماهو أكثر منه.

وإذا اعتقدنا فى بقاء الشخصية بعد موت الجسد فيجب علينا أن نفترض وجود استمرارية فى الذكريات أو على أقل تقدير فى العادات لأنه بدون ذلك لايوجد سبب يدعونا الى الافتراض باستمرار نفس الشخص.

ولكن علم الفسيولوجيا (أى وظائف الأعضاء) قمين بإثارة الصعاب عند هذه النقطة. فكلا العادة والذاكرة يرجعان إلى الآثار التى تترك على الجسد بوجه عام وعلى المخ بوجه خاص. ولاجناح علينا إذا فكرنا أن تكوين العادة أشبه مايكون بتكوين مجرى مائى. ولكن هذه الآثار المتروكة فى الجسد والتى تكون سببا فى تكوين العادات والذكريات تنمحى وتزول بفعل الموت والفناء. ومن العسير إلا إذا حدثت معجزة أن نتصور كيف يمكن نقل هذه الآثار إلى جسد جديد مثل الجسد الذى يفترض أننا سنسكنه فى الآخرة. وسوف يزداد الأمر عسرا لو أننا صرنا أرواحا بدون أجسام. وإنى حقا أشك اذا كانت النظرة الحديثة للمادة تقبل فكرة وجود روح بدون جسد كشىء يستسيغه المنطق.

فالمادة هى فقط طريقة معينة لتجميع الأحداث ومن ثم فالمادة

توجد حيث توجد الأحداث. واستمرارية الشخص خلال حياته الجسدية (إذا كانت هذه الحياة كما أرى تعتمد على تكوين العادات) يجب أن تعتمد أيضا على استمرارية الجسد. ولعل انتقال شخص إلى السماء لايقل فى صعوبته عن نقل مجرى مائى إليها بدون أن يفقد هذا المجرى هويته.

والشخصية فى جوهرها مسألة تنظيم. فالشخص يتكون من أحداث معينة تجتمع معا من خلال علاقات معينة. ويحدث هذا التجميع عن طريق قوانين السببية - أى تلك القوانين المتعلقة بتكوين العادات التى تشمل الذاكرة. وهذه القوانين السببية تعتمد على الجسد. ولو أن هذا صحيح - وهناك أسباب علمية قوية للاعتقاد بأنه صحيح - فإن توقع بقاء الشخصية على قيد الحياة بعد فناء المخ أشبه مايكون بتوقع استمرار نادى ألعاب الكريكيت بعد موت جميع المشتركين فيه.

ولست أزعم أن محاجتى هذه هى أول وآخر المحاجات. ومن المستحيل التنبؤ بمستقبل العلم وخاصة علم النفس الذى بدأ لتوه فى أن يصبح علما. فمن الممكن أن تتحرر السببية النفسية من اعتمادها الحالى على الجسد. ولكن فى الحالة الراهنة لعلمى النفس والفسيولوجيا لايمكن على أية حال للايمان بالخلود أن يجد فى العلم

مايدعمه ويسانده. والمحاجات الممكنة حول هذا الموضوع تشير إلى احتمال فناء الشخصية عند الموت. وقد يكون من دواعى أسفنا أننا سنندثر ولكننا نجد العزاء والسلوى فى الاعتقاد بأن كل الجلادين وصائدى اليهود وأقرانهم من السفهاء لن يستمروا كذلك فى الحياة حتى أبد الدهر. وقد يقال أن أمرهم سوف ينصلح فى الوقت المناسب غير أنى أشك فى هذا.

الفصل السادس

مذهب الجبر

مع تقدم المعرفة أضحى التاريخ المقدس الذى يرويه الكتاب المقدس والنظام اللاهوتى المعقد للكنيسة فى العصور القديمة والوسطى أقل أهمية عما كان عليه فيما مضى بالنسبة لمعظم الرجال والنساء من ذوى التوجهات الدينية. فقد جعل نقد الكتاب المقدس بالإضافة الى العلم من الصعب الاعتقاد بأن كل كلمة وردت فى الكتاب المقدس صحيحة . وكلنا يعلم الآن على سبيل المثال أن سفر التكوين يحتوى على روايتين متباينتين وغير متسقتين عن الخليقة لمؤلفين مختلفين. ويسود الآن اعتقاد أن مثل هذه الأمور غير جوهرية. ولكن هناك ثلاثة معتقدات أساسية هى الله والخلود وحرية الاختيار ذات أهمية بالغة بالنسبة للمسيحية طالما أنها لاترتبط بالأحداث التاريخية. وهذه المعتقدات تنتمى إلى مايطلق عليه «الدين الطبيعى». وهى فى رأى توماس الأكوينى والكثير من الفلاسفة المحدثين يمكن إثبات صحتها دون الحاجة إلى الايمان بالتنزيل. وذلك عن طريق العقل البشرى وحده. ومن ثم فإنه لمن الأهمية بمكان

استيضاح رأى العلم فى هذه المعتقدات الثلاثة. وفى اعتقادى الخاص أن العلم لايستطيع اثباتها أو نفيها فى الوقت الراهن وانه لاتوجد وسيلة خارج حدود العلم لاثبات أو دحض أى شيء. ومع هذا فإنى أعتقد أن هناك حججا علمية تتعلق باحتمال صحتها. ويعد هذا صحيحا على وجه الخصوص بالنسبة للأختيار ومقابله الجبر اللذين سنتناولهما بالبحث فى هذا الفصل.

وقد سبق لنا أن تناولنا بالذكر تاريخ الجبر والاختيار. ورأينا كيف أن الجبرية وجدت في الفيزياء أقوى حليف لها، حيث أن الفيزياء اكتشفت على مايبدو قوانين تنظم حركات المادة كلها أو جعلت من الممكن من الناحية النظرية التنبؤ بها. ومن الغريب أن أقوى محاجاة تستخدم حاليا ضد الجبر مستقاة بنفس القدر من الفيزياء. ولنحاول قبل أن نعرض لهذا الأمر تعريف الموضوع بأكبر قدر من الوضوح.

لمذهب الجبر خاصيتان، فهو من ناحية يعد مثلا عمليا يسترشد به الباحثون فى مجال العلم وهو من الناحية الأخرى يعتبر مذهبا عاما يتعلق بطبيعة الكون. وقد يبدو المثل العملى سليما حتى ولو كان المذهب العام غير سليم. ولنستهل حديثنا عن المثل العملى ثم نتطرق إلى المذهب.

ويوصى هذا المثل الناس بالبحث فى قوانين السببية ويقصد بها تلك القواعد التى تربط بين الأحداث فى وقت ما. وفى حياتنا اليومية يسترشد سلوكنا بقواعد من هذا النوع. غير أن القواعد التى نستخدمها تؤثر البساطة على حساب الدقة. فإذا ضغطنا على مفتاح الكهرباء فإن المصباح سيضىء إلا إذا كان محترقا. وإذا أشعلنا عود ثقاب فإنه سيحترق إلا إذا تطايرت رأس العود. وإذا طلبنا رقما على الهاتف فسوق يتم الاتصال به إلا إذا كنا قد اخطئنا فى الرقم. ومثل هذه القواعد لاتجدى فى مجال العلم الذى لايعترف سوى بالثوابت. وقد أرسى علم الفلك كما وضعه نيوتن المثل الأعلى للعلم حيث يمكن عن طريق قانون الجاذبية حساب مواقع الكواكب فى الماضى والمستقبل عبر أزمنة ممتدة بلا نهاية. وكان البحث عن قوانين تحكم الظواهر أكثر صعوبة فى مجالات أخرى عما هو عليه بالنسبة لمدارات الكواكب نظرا لوجود تعقيد أكبر فى الأسباب. - على اختلاف أنواعها - فى المجالات الأخرى ونظرا لوجود قدر أكبر من الانتظام فى فترات تكرارها.

ومع هذا فقد تم اكتشاف قوانين السببية فى علوم الكيمياء والكهرومغناطيسية وعلم الأحياء بل حتى فى علم الاقتصاد. إن اكتشاف قوانين السببية هى جوهر العلم. ولهذا فليس من شك أن العلماء محقون فى البحث عن هذه القوانين. ولو افترضنا وجود

مجال يخلو من قوانين السببية فإن هذا المجال لاتربطه بالعلم أية صلة. والقول بأنه ينبغى على العلماء أن يبحثوا عن قوانين السببية أمر لايقل فى وضوحه عن القول بضرورة أن يبحث حاصدو عش الغراب عن هذا النبات.

وقوانين السببية فى حد ذاتها لاتتضمن بالضرورة تحكم الماضى فى المستقبل تحكما كاملا. فأحد قوانين السببية ينص على أن أبناء البيض يصبحون بيضا كذلك. ولكن لو كان هذا هو قانون الوراثة الوحيد المعروف لما أمكننا التنبؤ كثيرا بما سوف يكون عليه أبناء الآباء البيض. ومن الناحية النظرية تؤكد الجبرية كمذهب عام أنه يمكن للماضى أن يشكل المستقبل دائما إذا ما كانت معرفتنا بالماضى وقوانين السببية كافية. وطبقا لهذا المبدأ ينبغى على الباحث الذى يراقب بعض الظواهر أن يجد الظروف السابقة وقوانين السببية التى تتضافر معا على جعل الظاهرة أمرا لامحيص عنه. ويتعين عليه بعد أن يتم له اكتشاف هذه القوانين أن يتمكن عند ملاحظة الظروف المشابهة فى استنباط حدوث الظواهر المماثلة.

إنه من الصعب بل من المستحيل أن نصيغ مذهب الجبرية بدقة. فنحن إذا حاولنا أن نفعل ذلك وجدنا أنفسنا نؤكد أن هذا أو ذاك ممكن «من الناحية النظرية» وما من أحد يعرف معنى «من الناحية

النظرية». وليست هناك جدوى من التأكيد على وجود قوانين تشكل المستقبل اللهم إلا إذا أضفنا أننا نأمل فى أن يأتى اليوم الذى نكتشف فيه هذه القوانين. ومن الواضح أن المستقبل سوف يكون ما سيكون عليه، وهو بهذا المعنى محتوم. إنه الله العليم بكل شىء (كالذى يؤمن به التقليديون من أصحاب العقيدة الأرثوذوكسية) يجب أن يعرف الآن ما سوف يكون عليه المستقبل بأسره. ولهذا لو افترضنا وجود إله عليم بكل شىء فإن هناك حقيقة حاضرة مفادها وجود المعرفة الالهية المسبقة التى يمكن استنباط المستقبل منها. ولكن هذا على أية حال يقع خارج نطاق مايمكن وضعه من الناحية العلمية موضع الاختبار. وحتى يكون فى مقدور مذهب الجبرية أن يؤكد أى شىء يكون هناك دليل على احتمال أو عدم احتمال حدوثه فإنه يتعين بيانه فى حدود ما لدى البشر من قوة. والا جازفنا بأن نشارك شياطين قصيدة ميلتون «الفردوس المفقود» مصيرهم فهذه الشياطين «جادلت عاليا حول الغاية الالهية والمعرفة الالهية السابقة والاختيار والقدر المحتوم وحرية الارادة والمعرفة الالهية السابقة المطلقة دون بلوغ اية نهاية ضائعة فى تيه من التجوال» .

وإذا كنا نريد ان نعتنق مذهبا يمكن وضعه موضع الاختبار فلا يكفى القول بأن قوانين السببية تشكل مجرى الطبيعة كله. من الجائز أن يكون هذا صحيحا ولكنه رغم ذلك ليس من سبيل الى اكتشافه.

فعل سبيل المثال لو كنا نتأثر بما هو بعيد عنا أكثر من تأثرنا بما هو قريب منا عندئذ سنحتاج الى معرفة تفصيلية عن أكثر النجوم بعدا عنا قبل أن نتمكن من التنبؤ بما سوف يحدث على الأرض. وإذا استطعنا أن نضع مذهبنا موضع الاختيار يتعين علينا بيانه فيما يتعلق بجزء محدود من الكون. ويجب أن تكون القوانين على قدر من البساطة بحيث يمكننا من عمل الحسابات اللازمة. فنحن لانستطيع أن نعرف الكون كله. وأيضا لانستطيع أن نضع موضع الاختبار قوانين على درجة من التعقيد بحيث يتطلب مهارة أكبر من تلك التى نأمل أن نملكها كى نقوم بحساب ما يترتب عليها من نتائج.

والقدرة المطلوبة على عمل الحسابات قد تتجاوز امكانياتنا فى الوقت الحالى. ولكننا قد لانتجاوز مايحتمل أن نكتسبه قبل مضى وقت طويل. وهذه نقطة واضحة إلى حد ما. ولكن هناك صعوبة أكبر فى تقرير مبدئنا على نحو يجعل فى الإمكان تطبيقه عندما تكون بياناتنا قاصرة على جزء محدود من الكون. وقد تسقط علينا وتصطدم بنا دائما أجسام آتية من الفضاء الخارجى، الأمر الذى قد تنجم عنه آثار غير متوقعة، ويظهر فى بعض الأحيان نجم جديد فى السماء ولكن ظهور مثل هذا النجم أمر لايمكن التنبؤ به من واقع البيانات القاصرة على المجموعة الشمسية. وحيث انه لايوجد أى شىء يفوق فى سرعته سرعة الضوء فليست هناك وسيلة نستطيع بها

الحصول على رسالة مسبقة تخبرنا مقدما أن نجما جديدا فى طريقه الى الظهور.

ويمكننا محاولة التغلب على هذه الصعوبة كالتالى. لنفترض أننا نعرف كل مايحدث فى بداية عام ١٩٣٦ فى مجال دائرى معين نحتل فيه مكان المركز، ولنفترض أيضا تحريا للدقة أن هذا المجال الدائرى واسع لدرجة أن الضوء يستغرق عاما واحدا فقط كى ينتقل من المحيط الى المركز وحيث لايوجد شىء أسرع من الضوء فإن كل شىء يحدث فى مركز هذا المجال الدائرى خلال عام ١٩٣٦ لابد - لو كان مذهب الجبر صحيحا - أن يعتمد فقط على ماكان موجودا داخل هذا المجال الدائرى فى بداية العام نظرا لأن الأشياء الأكثر بعدا تستغرق أكثر من عام كى يظهر أثرها فى المركز. وفى حقيقة الأمر سوف لانستطيع الحصول عل كل بياناتنا المفترضة الا بعد انتهاء العام لأن الضوء سوف يستغرق هذه المدة حتى يصلنا من المحيط، ولكن بعد انقضاء العام يمكننا أن نفحص بأثر رجعى إذا كانت البيانات المتوافرة لدينا الآن بالإضافة الى قوانين السببية المعروفة تفسر لنا كل ماحدث على الأرض فى غضون تلك السنة.

وبناء عليه يمكننا الآن ايضاح الفرضية الخاصة بمذهب الجبر

رغم أني أخشى أنه إيضاح يحيط به شيء من التعقيد. تذهب الفرضية الى مايلي:

هناك قوانين سببية يمكن اكتشافها كتلك القوانين التي اذا توافرت لدينا القوى الكافية (وليس القوى فوق البشرية) لحسابها فإن الإنسان الذي يعرف كل مايحدث داخل أي مجال دائري معين في وقت معين يمكنه التنبؤ بكل ماسوف يحدث في مركز هذا المجال الدائري خلال الوقت الذي يستغرقه الضوء في الانتقال من المحيط إلى المركز.

أريد أن أوضح انني لست هنا بصدد التأكيد على صحة هذا المبدأ ولكني أؤكد فقط أن هذا لابد أن يكون المقصود من كلمة «الجبر».. هذا إذا كان هناك ثمة دليل يشير الى صحته او بطلانه.. وأنا - كأي شخص آخر - لا أعرف إذا كان هذا المبدأ صحيحا أم لا، ويمكننا اعتباره مثلا أعلى يضعه العلم نصب عينه. ولكن لايمكن اعتباره - اللهم إلا على اساس قبلي apriori - اكيدا في صحته أو أكيدا في زيفه. من الجائز اننا عندما نفحص المحاجات التي استخدمت للدفاع عن مذهب الجبرية أو الهجوم عليه، فسوف نجد أن مايتبادر الى ذهن الناس أقل في دقته وتحديده من المبدأ الذي توصلنا اليه.

والآن نحن نرى لأول مرة فى التاريخ العلماء يهاجمون مذهب الجبرية على أسس علمية. وجاء هذا الهجوم نتيجة دراسة الذرة عن طريق نظريات الميكانيكا الكمية. وقد تزعم هذا الهجوم السير آرثر ادنجتون.

وبالرغم من أن بعضا من أفضل علماء الفيزياء من أمثال اينشتين لايتفقون معه فى الرأى فى هذا الصدد فإن محاجاته تتسم بالقوة ويجب علينا ان نعرضها بقدر مانستطيع دون الخوض فى جوانبها الفنية.

طبقا لنظريات الميكانيكا الكمية نحن لانستطيع أن نعرف ماعسى للذرة أن تفعله تحت ظروف معينة. فهناك مجموعة محددة من البدائل يمكن للذرة أن تختار من بينها. وهى فى بعض الأحيان تختار هذا البديل أو ذاك. ونحن نعرف نسبة الحالات التى يقع فيها اختيار الذرة على بديل دون الآخر. ولكن لانعرف عن وجود أى قانون يقنن هذا الاختيار ويحدده فى كل حالة فردية على حدة. فوضعنا أشبه مايكون بوضع موظف شباك التذاكر فى محطة القطارات فى محطة بادنجتون الذى يستطيع - إذا شاء - أن يكتشف نسبة المسافرين من محطة بادنجتون الى محطة برمنجهام. وكذلك النسبة المسافرة إلى اكستر الخ.. ولكنه لايعرف شيئا عن الأسباب الفردية التى دفعت المسافرين الى اختيارهم السفر الى تلك المحطة دون الأخرى.

وعلى أية حال فإن هذه الحالات ليست متماثلة تماما لأن موظف شباك التذاكر لديه فسحة من الوقت لايؤدى فيها مهام وظيفته ويستطيع فيها الكشف عما لا يفصح عنه هؤلاء المسافرون وهم يقومون بحجز تذاكرهم. أما عالم الفيزياء فلا يتمتع بهذه الميزة لأنه ليست لديه فرصة لمراقبة الذرات فى غير أوقات عمله فحين يكون عالم الفيزياء خارج معمله يصبح فى مقدوره فقط أن يراقب ما تفعله الكتل الكبيرة المكونة من عدة ملايين الذرات. وتكاد الذرات أثناء قيامه بعمله فى معمله الا تفصح عن نفسها مثلها فى ذلك مثل المسافرين الذين لايفصحون عن أنفسهم أثناء قيامهم بحجز تذاكرهم من شباك التذاكر فى عجلة قبيل تحرك القطار. ولهذا فإن معرفة عالم الفيزياء بتصرفات الذرة تشبه معرفة موظف شباك التذاكر بتصرفات المسافرين كما لو كان هذا الموظف فى حالة نوم مستمر باستثناء ساعات اليقظة التى يؤدى فيها عمله.

وقد يبدو حتى الآن أن المحاجة المستخدمة ضد مذهب الجبر المستقاة من مسلك الذرات تقوم تماما على مانعانى منه من جهل فى الوقت الحالى. ولكن يمكن دحض وتفنيد هذه المحاجاة فى المستقبل اذا تم اكتشاف قانون جديد. ان هذا صحيح الى حد ما. فمعرفتنا التفصيلية بالذرات حديثة للغاية. وجميع الأسباب تدعونا الى

الافتراض بأن هذه المعرفة سوف تزيد. إن أحدا لايستطيع أن ينكر احتمال اكتشاف القوانين التى من شأنها أن توضح لنا لماذا تختار الذرة مسلكا ما فى مناسبة ثم تختار مسلكا آخر فى مناسبة أخرى. ونحن فى الوقت الحاضر لا نعرف عن وجود اختلافات متعلقة بهذا الأمر فى الظروف السابقة على الاختيارين المختلفين للذرة. ولكننا قد [illegible] فى [illegible] الأيام وجود مثل هذه الاختلافات فى هذه [illegible] الآن هنـــاك ثمة مايدعونا بقوة إلى الايمـــان [illegible] الجبر فإن هذه المحاجاة سوف تصبح ذات وزن كبير فى [illegible]

و[illegible] المؤمنين بالمذهب الجبرى نجد أن القول بأن مسلك الذرة يتسم بالنزوة خطا خطوة أخرى إلى الأمام. لقد توافر لدينا - أو هكذا ظننا - قدر هائل من الأدلة المستمدة من الفيزياء العادية [illegible] إلى اثبات أن الأجسام تتحرك دائما طبقا للقوانين التى تحدد تماما ما سوف نفعله هذه الأجسام.

ولكن يبدو لنا الآن أن كل هذه القوانين قد لاتعدو أن تكون مجرد قواعد احصائية. فالذرات تختار مسلكها من بين عدة امكانيات بنسب معينة. وهى عديدة لدرجة تجعل النتيجة (فيما يتعلق بالأجسام الكبيرة بالدرجة الكافية لأن تقوم الوسائل التقليدية بمراقبتها) تبدو [illegible] الانتظام الكامل.

ولنفترض إنك عملاق لايستطيع رؤية الأفراد وانه لايحس بوجود أية مجموعة من الناس يقل عددها عن المليون شخص. عندئذ سيكون بإمكانك فقط أن تلاحظ أن لندن تحتوى على قدر من المادة أكبر فى النهار مما تحتويه بالليل ولكن لن يكون فى مقدورك أن تدرك أن المستر ديكسون أصبح ذات يوم طريح الفراش بسبب ما ألم به من مرض وأنه لم يستقل القطار الذى اعتاد أن يستقله. واهذا فإنك سوف تعتقد أن حركة المادة داخل لندن فى الصباح وخارجها فى المساء أكثر بكثير فى انتظامها عما هى عليه فى واقع الأمر. وليس من شك فى أنك سوف تنسب هذه الحركة الى قوة خاصة فى الشمس. وهو افتراض تؤكده ملاحظة تعذر رؤية هذه الحركة اذا خيم الضباب على الأرض. واذا أمكنك فى وقت لاحق رؤية الأفراد فإنك ستدرك أن هناك انتظاما أقل من الانتظام الذى افترضت وجوده. فالمرض سوف يصيب مستر ديكسون فى يوما ما. ويصيب المستر سمبسون فى يوم آخر. ولن يؤثر هذا على المتوسط الاحصائى لأنه لايوجد فرق فى أية ملاحظات تتم على نطاق واسع. وسوف تجد أن كل الانتظام الذى سبق لك أن لاحظته يمكن تفسيره عن طريق القانون الاحصائى الخاص بالأعداد الضخمة دون أن نتمكن من معرفة السبب الذى حدا بكل من مستر ديكسون ومستر سيمسون إلى عدم التوجه صباحا الى لندن سوى اتسام تصرفاتهما بالنزوة. وهذا

بالضبط الوضع الذى توصل اليه علم الفيزياء فيما يتعلق بالذرات. فهو لايعرف القوانين التى تحدد سلوكها تحديدا كاملا. وتكفى القوانين الاحصائية التى اكتشفها علم الفيزياء لتفسير الانتظام الملحوظ الذى تتسم به حركات الأجسام الكبيرة. وبالنظر الى أن مسألة الجبرية قد نهضت على هذه القوانين فإنه يبدو أن هذه المسألة قد تقوضت وانهارت.

والمؤمن بمذهب الجبرية قد يحاول الرد على هذه المحاجة بطريقتين. فقد يجادل بأن الظواهر الواقعة فى الماضى والتى بدت لأول وهلة انها لاتخضع لقانون اتضح فيما بعد أنها تتبع قاعدة ما وأنه فى الحالات التى لاتتبع فيها الظواهر أية قاعدة فإن هذا يفسر مايؤدى اليه هذا الوضع من تعقيد شديد. ولو كان هناك - كما يعتقد كثير من الفلاسفة - أسباب قبلية للإيمان بسيادة القانون فإن هذا سيوفر لنا محاجاة جيدة. ولكن أن لم تكن هناك مثل هذه الأسباب القبلية فإن هذا من شأنه أن يجعل الرد على هذه المحاجاة قويا للغاية. ان انتظام الظواهر الواسعة النطاق ينبع من قوانين الاحتمال دون الحاجة الى افتراض وجود انتظام فى سلوك الذرات المنفردة.

والذى تفترضه النظرية الكمية فيما يتعلق بالذرات المنفردة هو قانون الاحتمال، أى الاختيارات الممكنة المتاحة أمام الذرة، فهناك

احتمال معروف يتعلق بذرة ما واحتمال آخر معروف يتعلق بذرة أخرى وهكذا دواليك. ويمكن عن طريق قانون الاحتمال هذا أن نستنتج ان الأجسام الكبيرة تكاد أن تتصرف على غرار مايتوقعه منها علم الميكانيكا التقليدية. ومن ثم فإن الانتظام الملحوظ للأجسام الكبيرة انتظام محتمل وتقريبي فحسب ولايوفر لنا أي أساس استقرائي inductive كي نتوقع وجود انتظام كامل في تصرفات الذرات الفردية.

وهناك إجابة ثانية أكثر صعوبة قد يحاول المؤمن بمذهب الجبر إعطاءها ويكاد أن يكون حتى وقتنا هذا من غير الممكن تقدير صحة هذه الإجابة فهو قد يقول لك: «إنك تعترف بأنك إذا لاحظت اختيارات الأعداد الكبيرة من الذرات المتماثلة في ظروف بادية التماثل فسوف تجد انتظاما في تكرار مايعتريها من الانتقالات والتغيرات المتنوعة الممكنة. وهذه الحالة شبيهة بحالات ولادة الذكور والإناث. فنحن لانعرف اذا كان المولود القادم بعينه ذكرا أم أنثى. ولكننا نعرف أن هناك في بريطانيا العظمى نحو ٢١ مولود ذكر مقابل كل ٢٠ مولودة انثى. وهكذا نرى أن هناك تقاربا وانتظاما في كلا الجنسين على مستوى جميع السكان رغم أن هذا الانتظام لايوجد بالضرورة في أية عائلة على انفراد. ويعتقد كل شخص الآن أن هناك في حالات ولادة الذكور والاناث أسبابا تحدد جنس المولود في كل

حالة على حدة ويمكن أن نعلن أن القانون الاحصائى الذى يعطينا نسبة ٢١ مولودا الى ٢٠ مولودة يجب أن يكون نتيجة قوانين تنطبق على الحالات الفردية. ويمكننا أن نجادل على نحو مماثل انه اذا كان هناك انتظام احصائي فى حالات الأعداد الضخمة من الذرات فإن ذلك يجب أن يرجع الى وجود قوانين تحدد ماسوف تفعله كل ذرة على انفراد وقد يحتج المؤمن بالجبر قائلا انه اذا لم تكن مثل هذه القوانين موجودة فلن يكون للقوانين الاحصائية وجود كذلك.

والسؤال الذى تثيره هذه المحاجاة سؤال لايرتبط بالذرات بأية علاقة خاصة ويمكن ... النظر اليه أن نستبعد من أذهاننا كافة تعقيدات الميكانيكا الكمية. وبدلا منه دعنا نأخذ عملية مألوفة هى قذف العملة المعدنية لكى تستقر على الكتابة او الصورة. نحن نعتقد بثقة أن قوانين الميكانيكا هى التى تحدد دوران العملة المعدنية على ذاتها وأن ... اذا تسمنا الدقة - لاتحدد إذا كانت هذه العملة ستستقر على الكتابة أو الصورة ولكن حساب هذا أمر بالغ التعقيد لدرجة أننا لانعرف ما عسى أن يحدث فى كل حالة على حدة. فيقال (رغم انى لم اصادف ابدا أى دليل تجريبى جيد يدل على ذلك) اننا اذا قذفنا العملة المعدنية عددا كبيرا من المرات فسوف يكون عدد مرات استقرارها على الكتابة مماثلا لعدد مرات استقرارها على الصورة

ويقال أيضا أن هذا ليس بالأمر المؤكد ولكنه أمر محتمل للغاية. إننا قد نقذف العملة المعدنية عشرة مرات متتالية ويمكنها أن تستقر على الصورة فى كل هذه المرات العشر. ولن يكون هناك مايستدعى الدهشة لو أن هذا حدث مرة إذا مانحن كررنا ١٠٢٤ مرة قذفنا للعملة المعدنية عشر مرات. ولكننا فى حالة الأعداد الأضخم من القذف نجد أن ندرة استقرار العملة باستمرار على الصورة سوف تقل بكثير. فماذا قذفنا بالعملة ١,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠ مرة فسوف نكون محظوظين لو أننا حصلنا على مائة صورة متتالية . هذه هى النظرية، ولكن الحياة أقصر من أن نضعها موضع التجربة.

وقبل اختراع الميكانيكا الكمية بزمن طويل لعبت القوانين الاحصائية دورا مهما فى علم الفيزياء. فعلى سبيل المثال نجد أن الغاز يتكون من عدد هائل من الجزيئات التى تتحرك بطريقة عشوائية فى جميع الاتجاهات بسرعات متفاوتة وحين يكون متوسط سرعتها كبيرا يكون الغاز ساخنا . وعندما يكون متوسط سرعتها صغيرا يكون الغاز باردا. وحين تصبح الجزيئات فى حالة سكون تكون درجة حرارة الغاز صفرا مطلقا. وبالنظر إلى أن الجزيئات تصطدم باستمرار ببعضها البعض فإن الجزيئات التى تتحرك أسرع من

المتـوسط تنخـفض سـرعـتـهـا فى حـين أن الجـزيئـات الأبطأ تزداد سرعتها . لهذا السبب نرى أنه إذا حدث اتصال بين غازين فى درجة حرارة مـختلفة فإن الغاز الأبرد يزداد سخونة والغاز الأسخن يزداد برودة حـتى يصل الاثنان الى درجـة حـرارة واحـدة. ولكن كل هذا مجـرد احـتمـال. فـقد يحـدث في حـجـرة متسـاوية اصـلا فـى درجـة حـرارتها أن كل الجزيئات التى تتحرك بسـرعة تتجمع فى جانب منـهـا فـى حـين ان كل الجـزيئـات التـى تتـحـرك ببطء تتـجـمـع فـى الجـانب الآخـر . فى هذه الحـالة نجد - طالما لايوجد سبب خـارجى - ان البـرودة سـوف تصـيب جـانبـا من الحـجـرة فى حين تصـيب السخونة جانبها الآخر . بل إنه قد يحدث أن كل الهواء يتجمع فى نصف الحـجرة تاركا نصفهـا الآخر فارغا منه. وهذا أقـل احتمالا بكثير جـدا فى حدوثه من اسـتقـرار العملة المعدنية مائة مرة متتالية على الصورة وذلك لأن عدد الجزيئات ضخم للغـاية. ولكن حدوثه - إذا تحرينا وجه الدقة - ليس بالأمر المستحيل.

ولايتلخص الجديد فى الميكانيكـا الكمية فى استحداث القوانين الاحصـائية بل فى القول بأنها قوانين نـهائية بشكل مطلق وليست مستمـدة من القوانين المنظمة للأحداث الفردية. وهذا مفهوم صعب للغاية بل أكثر صعوبة فيما أرى عما يظنـه أنصـاره . لقد لوحظ أنه

فى كل ما تأتى به الذرة من أفعال فإنها تأتى بكل فعل منها بنسبة معينة من الحالات. والسؤال المطروح هو إذا كانت كل ذرة مفردة منفصلة ولا تخضع لقانون فلماذا يوجد هذا الانتظام فيما يتعلق بالأعداد الضخمة من الذرات ؟ لابد من الافتراض بوجود شيء من شأنه أن يجعل الانتقالات النادرة تعتمد فى حدوثها على مجموعة غير عادية من الظروف . ويمكننا أن نضرب مثلا يقترب حقيقة من ذلك بعض الشيء . ففى حمام السباحة توجد سلالم تمكن السابح من الغطس فى العمق الذى يفضله . فإذا كانت السلالم تصل إلى ارتفاع شاهق فسوف يقع اختيار أمهر السباحين على أكثر السلالم ارتفاعا . ولو أننا قارنا بين الغطس فى فصول السنة فسوف نجد قدرا معقولا من الانتظام فى السباحين الذين يختارون القفز من السلالم المختلفة . ولو كان هناك ملايين الغطاسين لامكننا أن نفترض وجود قدر أكبر من الانتظام . ولكن من الصعب أن نرى سببا لوجود هذا الانتظام إذا لم يكن هناك دافع يدفع كلا من الغطاسين على حدة إلى اختيار الارتفاع الذى يريد . ويبدو الأمر كما لو كان يتعين على بعض الأشخاص اختيار الغطس من السلالم العالية كى يحافظوا على النسبة الصحيحة . وفى مثل هذه الحالة لن يكون مسلكهم نتيجة النزوة.

إن نظرية الاحتمال ليست فى حالة تبعث على الرضا تماما من الناحيتين المنطقية والرياضية ولست أعتقد أنها تستطيع بعصا سحرية

أن تنتج الانتظام فى الأعداد الكبيرة بدافع من النزوة الخالصة فى كل حالة على انفراد .

ولو أن العملة المعدنية شاعت فى حقيقة الأمر بسبب نزوتها أن تستقر على الكتابة أو الصورة فهل هناك سبب يدعو إلى القول إنها تختار استقرارها على الكتابة بنفس القدر الذى تستقر به على الصورة ؟ أليس من الجائز أن تدفعها النزوة إلى أن تختار الاستقرار الدائم على نفس الوجه ؟ إن تساؤلى هذا لا يعدو أن يكون مجرد فكرة مطروحة لأن الموضوع أكثر غموضا من أن ينفع فيه ابداء الرأى المتزمت والقاطع . ولكن إذا كان لتساؤلى أى نصيب من الصحة فنحن لا نستطيع أن نقبل الرأى القائل بأن هناك ثمة علاقة بين ما نجده فى العالم من انتظامات نهائية والأعداد الكبيرة من الحالات . وسوف يتعين علينا أن نفترض أن القوانين الاحصائية التى تحكم سلوك الذرة مستمدة من قوانين سلوك الذرة المفردة التى لم تكتشف حتى يومنا الراهن . وحتى يصل عالم الفيزياء أدنجتون إلى نتائج بهيجة من الناحية العاطفية يستخلصها من حرية الذرة على افتراض أن هذه الحرية حقيقية - نراه يضطر إلى الذهاب إلى افتراض يعترف ادنجتون بأنه لا يعدو فى الوقت الحاضر أن يكون مجرد افتراض . وهو يرغب فى أن يضمن للإنسان حرية الاختيار التى يجب - إذا أردنا لها أن تكون لها أية أهمية - أن تتوافر لها القدرة على إحداث حركات جسمية

على نطاق واسع - بخلاف تلك الحركات النابعة من قوانين الميكانيكا ذات النطاق الواسع. وقوانين الميكانيكا الواسعة النطاق - كما رأينا - لم يطرأ عليها أى تغيير فيما يتعلق بالذرة تحت تأثير النظريات الجديدة . والفرق الوحيد بين قوانين الميكانيكا الواسعة النطاق وبين النظريات الجديدة يتلخص في أن هذه النظريات استبدلت اليقين بالاحتمالات الكاسحة. ويمكننا أن نتخيل أن هذه الاحتمالات يقابلها على الجانب المضاد نوع خاص من عدم الاستقرار الذى يؤدى إلى أن قوة صغيرة للغاية قد تنتج أثرا كبيرا للغاية . ويتخيل إدنجتون أن هذا النوع من عدم الاستقرار قد يوجد فى المادة الحية وفى المخ على وجه الخصوص فالفعل الإرادى يمكنه أن يقود الذرة الواحدة إلى اختيار ما دون الآخر : الأمر الذى قد يؤدى إلى ايجاد نوع من الخلل فى الميزان الدقيق للغاية . وهكذا يفضى إلى نتيجة واسعة النطاق مثل الانسان الذى يوشك أن يقول شيئا ولكنه يقول بدلا منه شيئا أخر . ولاسبيل إلى انكار أن هذا الأمر ممكن من الناحية المجردة . غير أن هذا أقصى ما يمكننا الموافقة عليه . وهناك أيضا إمكانية - تصل فى تقديرى إلى حد الاحتمال الكبير - وهى أن قوانين جديدة سوف تكتشف من شأنها أن تلغى الحرية المفترضة فى الذرة . وحتى بفرض أن للذرة حرية فإنه لايوجد دليل تجريبى على أن حركات الأجسام البشرية الواسعة النطاق مستثناة من عملية أخذ المتوسط، التى تجعل علم الميكانيكا التقليدية

ينطبق على حركات الأجسام الأخرى ذات الحجم الكبير . ولهذا فإن محاولة ادنجتون التوفيق بين حرية الارادة الانسانية وعلم الفيزياء - رغم أنها مشوقة وليس هناك ما يدحضها فى الوقت الحالى - لا تبدو لى معقولة بالدرجة الكافية مما يتطلب تغييرا فى النظريات التى كانت سائدة حول هذا الموضوع قبل استحداث الميكانيكا الكمية .

إن علم النفس وعلم وظائف الأعضاء يميلان إلى جعل حرية الإرادة أمرا غير محتمل . فالابحاث المتصلة بالافرازات الداخلية والزيادة فى معرفة وظائف أجزاء المخ المختلفة وأبحاث بافلوف حول الفعل الشرطى الانعكاسى ودراسات التحليل النفسى المتعلقة بالآثار الناجمة عن الذكريات والرغبات المكبوتة ساهمت جميعها فى اكتشاف قوانين سببية تحكم الظواهر العقلية . صحيح أن أيا من هذه العلوم لم يثبت بطلان حرية الارادة . ولكن هذه العلوم جعلت من المحتمل جدا إذا حدثت أفعال إرادية دون سبب فسوف يكون حدوثها أمرا نادرا للغاية .

يبدو لى أن الأهمية العاطفية التى يفترض أنها تنتمى إلى حرية الارادة تنهض أساسا على بعض التشويشات الفكرية المعينة . ويتخيل الناس أنه إذا كانت للإرادة أسباب فإنهم قد يجدون أنفسهم مضطرين إلى فعل أشياء لايرغبون فعلها . وهذا خطأ بطبيعة الحال لأن الرغبة هى المحرك للفعل حتى إذا كانت للرغبة نفسها أسباب . نحن

لا نستطيع أن نفعل مالا نرغب في فعله . ولكن يبدو أنه من غير المعقول أن نشكو من هذا القيد . وإنه لأمر لا يدخل البهجة والسرور علينا حين نجد أن هناك حوائل تقف فى طريق رغباتنا لافرق فى ذلك سواء كانت لرغباتنا مسببات أو ليس لها مسببات . حتى مذهب الجبر لايضمن لنا الشعور بأننا لاحول لنا ولاقوة . وتتلخص القوة فى قدرتنا على تحقيق النتائج التى ننوى تحقيقها . وهو أمر لايزيد أو يقلل منه اكتشافنا للأسباب القابعة وراء نوايانا.

والذين يؤمنون دائما بحرية الارادة يعتقدون فى نفس الوقت فى مكان ما من عقولهم بأن للإرادة أسبابا . فهم يرون مثلا أنه يمكن غرس الفضيلة عن طريق التربية الصالحة وأن التربية الدينية مفيدة جدا لإصلاح أخلاقهم . إنهم يعتقدون أن المواعظ تصنع الخير وأن الحث الأخلاقى قد ينطوى على النفع . والآن يتضح لنا إنه إذا كانت إرادة فعل الخير ليس لها مسببات فإننا لانستطيع أن نفعل أى شىء على الاطلاق لتنمية هذه الارادة . وبقدر ما يؤمن الانسان أن بمقدوره أو بمقدور أى شخص آخر تنمية السلوك الحميد والمرغوب فيه فى الآخرين فإنه يؤمن فى نطاق هذه الحدود بالسببية النفسية ، وليس فى حرية الإرادة . ومن الناحية العملية فإن كل معاملاتنا مع بعضنا البعض مبنية على الافتراض بأن أفعال الانسان تنبع من ظروف سابقة . فالدعاية السياسية وقانون العقوبات الجنائية وتأليف الكتب الداعية إلى

الايمان بفكرة ما سوف تفقد المبرر لوجودها لو كانت لاتترك أثرا في أفعال الناس . إن المؤمنين بمذهب حرية الإرادة لايدركون ما ينطوى عليه هذا المذهب من ايماءات . فنحن نسأل شخصا «لماذا فعلت هذا ؟ ونتوقع من الاجابة عن هذا السؤال أن توضح المعتقدات والرغبات التي سببت هذا الفعل . وعندما لا يعرف المرء نفسه الأسباب التى دعته إلى التصرف على النحو الذى تصرف به فإننا قد نبحث فى لاشعوره عن سبب . ولكنه لا يلوح لنا أبدا أنه قد لايكون هناك سبب».

إنه يقال لنا إن الاستبطان يجعلنا ندرك وجود حرية الارادة على نحو مباشر . وهذا خطأ إذا كنا نعنى انعدام السببية . والذى نعرفه هو أننا إذا استقر أختيارنا على شيء فانه كان بمقدورنا أن نختار شيئا آخر لو أننا أردنا ذلك . ولكننا لا نستطيع أن نعرف عن طريق مجرد الاستبطان إذا كانت أو لم يكن هناك أسباب لرغبتنا فى أن نفعل ما فعلناه . وقد نعرف الأسباب وراء الأفعال الواضحة العقلانية وعندما نلتمس النصيحة القانونية أو الطبية أو المالية ونتصرف بمقتضاها فإننا نعرف أن النصيحة هى السبب وراء أفعالنا . ولكن الاستبطان بوجه عام لايكشف النقاب عن أسباب الأفعال فهذه الأسباب يتم اكتشافها - مثل أسباب الأحداث الأخرى - عن طريق ملاحظة الظروف السابقة عليها واكتشاف قانون ما ينظم تتابعها .

أضف إلى هذا أنه ينبغي القول أن فكرة الارادة فكرة شديدة الغموض والابهام ومن المحتمل أن تختفي من قاموس السيكولوجيا العلمية . ومعظم أفعالنا لايسبقها أى شيء نحس منه إنها أفعال إرادية . وإنه لشكل من أشكال المرض العقلي أن يعجز الانسان عن القيام بأبسط الأشياء دون الحاجة لاتخاذ قرار مسبق . وقد نقرر على سبيل المثال المشي للوصول إلى مكان معين . وعندئذ - إذا كنا نعرف الطريق - تبدأ عملية السير حتى تصل إلى هدفها من تلقاء ذاتها . والقرار الأصلي وحده هو الذي نشعر أنه يتضمن الارادة . وعندما نصل إلى قرار بعد تفكير وتدبر تنشأ في أذهاننا امكانيتان أو أكثر كل منها أقل أو أكثر جاذبية من الآخر . ولعل كل منها كريه بدرجة أكبر أو أقل . وفي النهاية يثبت لنا أن إحدى هذه الإمكانيات هي الأكثر جاذبية وإنها طغت على بقية الامكانيات . وحين يحاول المرء اكتشاف الإرادة عن طريق الاستبطان فإنه يكابد احساسا بالتوتر العصبي . وأحيانا تصدر عنه عبارة تأكيدية هي : من المؤكد أني سأفعل ذلك . ولكني أنا شخصيا لا أستطيع أن أجد في نفسي أى نوع خاص من الأحداث الذهنية التي يمكنني تسميتها بالإرادة .

ويطبيعة الحال إنه من العبث أن ننكر الفرق بين الأفعال الإرادية وغير الارادية . فالتنفس والتثاؤب والعطس الخ أفعال غير إرادية ولكن يمكن (إلى حد ما) السيطرة عليها عن طريق الأفعال الارادية والحركات

الجسدية كالمشي والتكلم حركات إرادية تماما . وتختلف العضلات المتصلة بالأفعال الإرادية في نوعها عن تلك التي تتحكم في أمور مثل دقات القلب . ويمكن للأفعال الارادية أن تنجم عن السوابق الذهنية ولكن ليس هناك سبب - أو هكذا يبدو لي - لاعتبار هذه السوابق الذهنية صنفا خاصا من الأحداث مثل ما هو مفترض في الأعمال الارادية » .

لقد كان من المعتقد أن لمذهب حرية الإرادة أهمية فيما يتعلق بالأخلاق والسلوك الحميد وذلك من أجل تعريف «الخطيئة» وتبرير العقاب وخاصة العقاب الالهي . وسوف أعالج هذا الجانب من المشكلة ، في فصل لاحق عندما أتناول أثر العلم في الأخلاق .

وقد أبدو في هذا الفصل كما لو كنت متهماً بالتناقض في هجومي بادىء الأمر على مذهب الجبر ثم هجومي بعد ذلك على مذهب حرية الإرادة . ولكن كلا المذهبين يتسمان بالمتافيزيقية المطلقة التي تتجاوز ما يمكن التدليل عليه من الناحية العلمية . وكما سبق أن رأينا فإن البحث عن قوانين السببية هو جوهر العلم . ولهذا نجد أن رجل العلم يجب عليه دائما - من الناحية العملية البحتة - أن يفترض صحة مذهب الجبر . ولكنه ليس مضطرا إلى تأكيد وجود قوانين السببية إلا في حالة عثوره على هذه القوانين بالفعل . ورجل العلم يفتقر في حقيقة الأمر إلى الحكمة إذا لم يفعل ذلك .

ولكنه يفتقر إلى الحكمة أكثر وأكثر إذا أكد بايجابية أنه يعلم بوجود منطقة ليس لقوانين السببية فيها أى عمل ، فمثل هذا التأكيد يخلو على الفور من الحكمة النظرية والعملية معاً : فهو يفتقر إلى الحكمة النظرية لأنه لايمكن أبدا لمعرفتنا أن تكون كافية بحيث تضمن صحة مثل هذا التأكيد ، كما أنه يفتقر إلى الحكمة العملية لأن الايمان بعدم وجود قوانين سببية فى أى من الحالات من شأنه ألا يشجع على إجراء البحوث وقد يحول دون اكتشاف القوانين .

ويبدو لى أن هذا النزق المزدوج يتصف به على حد سواء هؤلاء الذين يؤكدون أن التغييرات الجارية بداخل الذرات لاتتسم بالحتمية الكاملة أو هؤلاء الذين يؤكدون حرية الإرادة بطريقة قاطعة . وحين يجد العلم مثل هذه الآراء القاطعة المتضاربة ينبغي عليه أن يبقى تجريبيا تماما وأن يخلو من التأكيد أو الإنكار إلا ما يتوافر عليه الدليل الفعلى .

إن الملاحاة الدائمة كتلك التى تحتدم بين مذهبى الجبر وحرية الاختيار ينشأ بسبب صراعين عاطفيين متأججين يحتدمان فى النفوس على نحو جباردون أن يكون هناك سبيل إلى التوفيق بينهما . وللمذهب الجبرية ميزة تتلخص فى أن القوة تنبع عن طريق اكتشاف قوانين السببية . وعلى الرغم من صراع العلم ضد التحيزات اللاهوتية فإن

الانسـان يقبله لأنه يمنحـه القوة . وأيضـا يوفـر الاعـتـقـاد بـأن مـجـرى الطبيعة يتسم بالانتظام الاحساس بالأمان فهو يمكننا إلى حد ما من التنبؤ بالمستقبل ومن منع الأحداث غير السارة من الوقوع . وعند ما كانت الأمراض والعواصف تنسب إلى عـوامل شيطانية تحركها النزوة كانت تثير قدرا أكبر من الفزع من الذى تثيره الأن . كل هذه الدوافع تدفع الناس إلى أن يفضلوا الإيمان بمذهب الجبر . وهم يحبون الاستمتاع بالسيطرة على الطبيعة ولكنهم لايحبون أن تسيطر الطبيعة عليهم.

ولو أنهم اضطروا إلى الاعتقاد بأن القوانين كانت قبل وجود الجنس البشرى تضطلع بعملها وأن هذه القوانين أنتجت خلال نوع من الضرورة العمياء ليس فقط الرجال والنساء بوجه عام بل أيضا الفرد وكل ما يتصف به من خصائص وسائر أفعاله وأقواله التى يأتى بها فى الوقت الحاضر لشعروا أننا بذلك نجردهم من شخصياتهم وأن نجعل منهم خلائق عديمة الفائدة وعبيدا أذلاء فى يد الظروف عاجزين عن أن يجروا أبسط التعديلات على الدور الذى أسندته إليهم الطبيعة منذ البداية . ويلجأ بعض الناس إلى الهرب من هذا المأزق المحير للألباب عن طريق افتراض الحرية فى الكائنات البشرية وافتراض مذهب الحتمية فى كل شىء آخر . كما يلجأ الآخرون إلى الهرب عن طريق

القيام بمحاولات سفسطائية ذكية تهدف إلى التوفيق المنطقى بين الحرية والحتمية . وفى حقيقة الأمر ليس هناك سبب يدعونا إلى تبنى أى من هذين البديلين ولكن ليس هناك أيضا سبب يدعونا إلي الافتراض بأن الحقيقة - أيا كانت - تجمع بين الملامح السارة الموجودة فى كلا هذين البديلين أو أن الذى يحددها إلى حد ما علاقتها برغباتنا .

الفصل السابع

التصوف

كانت الحرب الدائرة رحاها بين العلم والدين ذات طابع خاص وكان أغلبية العلماء في كل مكان وزمان من أنصار الأفكار الدينية التقليدية السائدة فى عصرهم باستثناء العلماء الفرنسيين فى أواخر القرن الثامن عشر وعلماء روسيا السوفيتية وكان أبرز هؤلاء العلماء ينضوون تحت لواء هذه الأغلبية . فبالرغم من أن نيوتن اعتنق المذهب الأريوسى فإنه كان فيما عدا هذا نصيرا للدين المسيحى . ولكن حتى العالم فاراداى نفسه المنتمى إلي الملة الساندمانية بدا له أنه ليس بامكان المحاجات العلمية أن تبين الأخطاء التى تورطت فيها هذه الملة . كما أن أى رجل دين مسيحى استقبل بالترحاب آراءه المتعلقة بعلاقة العلم بالدين . إن الحرب كانت مستعرة بين اللاهوت والعلم وليس بين اللاهوت ورجال العلم . وحتى عندما كان رجال العلم يؤمنون بآراء موصومة بالإدانة فإنهم فى العادة بذلوا قصارى جهدهم لتجنب نشوب صراع بينهم وبين الدين ، وكما رأينا آهدى كوبرنيكوس كتابه إلى البابا وتراجع جاليليو عن آرائه . ورغم أن ديكارت رأي أن الحكمة

والحصافة تقتضيان منه أن يعيش فى هولندا فإنه تجشم المشاق وفعل كل ما فى وسعه كى يبقى على علاقة طيبة برجال الدين واستطاع عن طريق صمته المحسوب أن يتجنب لوم رجال الدين له بسبب ايمانه بأفكار جاليليو . وفى خلال القرن التاسع عشر استمر معظم رجال العلم البريطانيين فى الاعتقاد بعدم وجود صراع جوهرى بين العلم وتلك الأجزاء من العقيدة المسيحية التى لايزال المسيحيون الليبراليون يعتبرونها أجزاء جوهرية فى الدين المسيحى فقد وجدوا أنه من الممكن التضحية بحرفية الايمان بقصة الطوفان أو حتى بحرفية الايمان بآدم وحواء .

ولا يختلف الوضع الراهن كثيرا عما كان عليه فى كل الأزمنة منذ أن حقق كوبرنيكوس انتصاره فى مجال علم الفلك . وكانت الاكتشافات العلمية المتتالية سببا فى أن ينبذ المسيحيون معتقداتهم الواحد تلو الآخر التى اعتبرتها العصور الوسطى من جوهريات الدين المسيحى . ومكنت هذه التراجعات المتوالية رجال العلم من الاحتفاظ بعقيدتهم المسيحية اللهم الا إذا كان عملهم يتناول تلك الحدود المتنازع عليها والتى وصل إليها العراك بين العلم والدين فى يومنا الراهن . والآن يرتفع (كما كان الحال فى معظم الأوقات خلال القرون الثلاثة الماضية) صوت يعلن عن حدوث مصالحة بين العلم والدين . فالعلماء يعترفون فى تواضع بوجود مناطق يجد العلم نفسه عاجزا عن الوصول إليها . كما

أن اللاهوتيين الليبراليين ارتضوا عدم التجرؤ على أنكار شيء يمكن للعلم أن يثبت صحته . صحيح أن هناك بعض المشاغبين الذين يعكرون الصفو . فنحن نرى مواجهة بين الأصوليين واللاهوتيين الكاثوليك العتيدين وبين الدارسين الاكثر راديكالية لموضوعات مثل الكيمياء العضوية وعلم نفس الحيوان الذين يرفضون الموافقة حتى على ذلك الجانب المتواضع من الاراء الذى يتقدم به المستنيرون من رجال الكنيسة . والشيوعية والفاشية هما العقيدتان الجديدتان اللتان تعتبران وريثتي التعصب اللاهوتي . وربما كان الاساقفة والأساتذة في أعماق لاشعورهم يشتركون في الاهتمام بالحفاظ على الأوضاع القائمة ويمكننا التأكد من طبيعة العلاقة الراهنة بين العلم والدين حسبما يتراءى للدولة من كتاب مفيد للغاية بعنوان : «مناظرة بين العلم والدين» تتكون من اثنى عشرة حديثا أذاعتها محطة الاذاعة البريطانية في خريف عام ١٩٣٠ . وبطبيعة الحال تم استبعاد المعارضين الذين يجاهرون بمناوئتهم للدين لأن هذا وحده قمن بإيلام المستمعين الاكثر استمساكا بالدين التقليدى . صحيح أن هذه الأحاديث الاذاعية تضم مقدمة رائعة للبروفيسور جوليان هكسلى لا يشتم فيها أى تأييد حتى لموقف أقل الناس استمساكا بالعقيدة الأرثوذكسية التقليدية ولكنها أيضا احتوت على القليل الأقل مما يعتبره رجال الدين الليبراليون فى يومنا الراهن شيئا مرفوضاً . أما المتحدثون الذين سمحوا لأنفسهم

بالتعبير عن طائفة من الآراء المجددة وساقوا المحاجات المؤيدة لها فقد اتخذوا مواقف متعددة تتراوح بين تصريح البروفيسور مالينوسكى الذى يثير الرثاء باشتياقه المعوق إلى الايمان بالله وبالخلود وبين تأكيد الأب أوهارا الجرىء بأن حقائق التنزيل أكثر يقينا من حقائق العلم وأن هذه الحقائق لابد أن تنتصر فى حالة وجود صراع بين التنزيل والعلم . ولكن بالرغم من اختلاف التفاصيل فإن الانطباع العام الذى تركته هذه الأحاديث الاذاعية هو انتهاء الصراع الدائر بين الدين والعلم . وهذه النيتجة كانت أقصى ما يمكن للمرء أنه يأمله . وهكذا قال القس ستريتر الذى تحدث مؤخرا «إن الشيء المدهش حول المحاضرات السابقة، هى اتفاقها جميعا على التحرك فى نفس الاتجاه» .. فضلا عن ترديد الفكرة المنادية بأن «العلم وحده لايكفى» ولا يستطيع أحد الجزم إذا كان هذا الاجماع ينم عن حقيقة طبيعة العلاقة بين العلم والدين أم أنه ينم عن موقف المسئولين فى محطة الاذاعة البريطانية ولكن رغم وجود الخلافات الكثيرة فإنه لابد من الاعتراف بإن المشاركين فى المناظرة يظهرون ما يشبه الاتفاق حول الموضوع الذى ذكره القس ستريتر .

وهكذا نجد أن السير ج . آرثر تومسون يقول : «إن العلم بوصفه علما لايسأل عن السبب» أى أنه لايستفسر أبدا عن معنى أو مغزى أو غاية الوجود والصيرورة و «الكينونة» ويستطرد قائلا : «وهكذا نرى أن العلم لايزعم أن يكون أســـــاس الحقيقة وجوهرها» ، فالعلم على حد

قـوله : «لايمكن تطبـيق أسـاليبـه على المجـالين الروحي والصـوفي» .

ويذهب البروفيسـور ج.س هولدين إلى أننا «نجد تنزيل الله فقط داخل أنفسنا وفي مثالنا الأعلى الذي يصبو إلى الحقيقة والصواب والاحسان والجـمـال وأخـوتنا مع الآخـرين المتـرتبـة على ذلك . «يقـول الدكـتـور مـالينوسكي أن «التنزيل الديني من ناحـية المبـدأ يتـجـاوز مـجـال العلم» واني هنا لا أسوق مقتطفات مما يقوله اللاهـوتيون في هذا الشـأن حيث أنه من المتوقع منهم الموافقة على مثل هذه الأراء .

ولنكن واضـحين بشـأن مـا تم التـأكيـد عليـه في هذه الأحـاديث . الاذاعية ومدى ما فيه من حقيقة أو كذب قبل أن نتطرق إلى مـوضـوع آخر فعندما يقول القس ستريتر إن «العلم ليس كافيا» فهو من نـاحيـة ينطق بمقولة مفروغ منها . فالعلم لايشمل الفن أو الصداقة أو العناصر الأخرى القيـمة والمتنوعة من الحيـاة . ولكن هذه المقولة بطبـيـعة الحال تحمل من المعنى أكثر من هذا . فلها في رأيي معنى آخر أكثر أهمـيـة من هذا مفاده أن العلم غير كاف . وهو معنى يبدو لي سليما . فالعلم لايحدثنا عن القيم ويعجز عن أن يثبت إذا كان «الحب أفضل من الكره» أو أن «الشـفقة أمر مرغوب فيه أكثر من القسوة.» إن العلم يمكنه أن يخبرنا الكثير عن الوسائل التي نحقق بها رغباتنا ولكنه لايستطيع أن يقول لنا إذا كانت رغبة ما أفضل من رغبـة أخـرى . وهذا مـوضـوع واسع يتعين عليَّ أن أستفيض فيه في فصل لاحق .

ولكن لاريب في أن المتحدثين الذين اقتطفت جانبا من أقوالهم يبغون ابراز شيء آخر أبعد من هذا أرى أنه زائف . فالقول بأن العلم لايزعم أنه أساس الحقيقة وجوهرها ، (وأنا هنا أضع خطا تحت كلمة الحقيقة) يعني ضمنيا وجود طريقة أخرى غير علمية للوصول إلى الحقيقة . والقول بأن التنزيل الديني يتجاوز مجال العلم ، يوضح لنا شيئا عن ماهية الطريقة غير العلمية . انها طريقة التنزيل الديني ويعبر إنج رئيس القساوسة عن موقف أكثر وضوحا عندما يقول : «إذن فاثبات الدين يخضع للتجربة» (قال انج هذا في معرض حديثه عن شهادة المتصوفين) ويضيف انج قوله «إن هذا الاثبات يكمن في التقدم في معرفة الله ذي الصفات الثلاث التي كشف بها عن نفسه للجنس البشري - وهي ما نسميه أحيانا بالقيم المطلقة أو الخالدة وهي قيم الخير أو الحب والحق والجمال . ولكن المرء قد يعلق على ذلك بقوله لو كان هذا كل ما في الأمر فليس هناك سبب بالمرة يدعو الدين إلى الدخول في صراع مع العلم الطبيعي ، فأحدهما يبحث في الحقائق والآخر يبحث في القيم ولو أننا سلمنا بأن كلا العلم والدين حقيقي فإنهما يقعان على مستويين مختلفين . غير أن هذا ليس بالأمر الحقيقي تماما . لقد رأينا العلم يتجاوز علم الأخلاق والشعر وغيرهما ولا يعبأ بهما وليس بوسع الدين إلا التجاوز كذلك . ومعنى هذا أن الدين يجب أن يقوم بتأكيد ما هو قائم وليس فقط التأكيد على ما ينبغي أن يكون»

وهذا الرأى الذى صرح به انج رئيس القساوسة موجود ضمنيا فى الكلمات التى ألقاها كل من السير. ج أرثر تومسون والدكتور مالينوسكى .

هل ينبغى علينا الاعتراف بوجود مصدر للمعرفة (يستند إليه الدين) يقع خارج نطاق العلم ويمكن وصفه على وجه الدقة بالتنزيل ؟ إنه يصعب الاجابة عن هذا السؤال لأن الذين يؤمنون بأن الحقائق قد أنزلت عليهم يدعون بشأن هذه الحقائق نفس اليقين الذى يتوافر لدينا بشأن الأشياء الحسية . فنحن نصدق الانسان الذى يرى الأشياء التى لم نرها قط من خلال التلسكوب . ومن ثم نجدهم يتساءلون لماذا إذن لانصدقهم عندما يبلغوننا بوجود أشياء يرون أنها على نفس القدر من اليقين والتأكيد ؟

لعله من غير المجدى أن نحاول الدخول في مجادلة من النوع الذى يروق للانسان الذى تمتع شخصيا بالاشراقة الصوفية . ولكن يحق لنا ان نتساءل إذا كان ينبغى علينا نحن الأخرين قبول مثل هذه الشهادة . فهذه الشهادة فى المقام الأول لاتخضع للاختبارات العادية . فحين يخبرنا رجل العلم بنتائج تجربة فانه يخبرنا أيضا بالطريقة التى أجريت بها هذه التجربة بحيث يمكن للآخرين أن يجربوها بأنفسهم . فإذا لم تتأكد هذه النتيجة فإنها تعتبر غير حقيقية . ولكن كثيرا من الناس قد يضعون أنفسهم في نفس الوضع الذى حدثت فيه رؤية المتصوف دون

أن يتمكنوا من الحصول على نفس الرؤية المنزلة . وقد يرد البعض على هذا بقولهم أنه يجب على الانسان الذى يبغى استشراف التنزيل أن يستخدم الجاسة المناسبة لأن التلسكوب يصبح عديم الفائدة بالنسبة لرجل يغمض عينيه . وهكذا نجد أن المحاجاة الخاصة بمصداقية شهادة المتصوف قد تمتد وتطول إلى أجل يكاد أن يكون غير مسمى . إن العلم ينبغى أن يكون محايدا وحتى تتصف المحاجاة بالعلمية يجب اجراؤها بالضبط كما تجرى المحاجاة الخاصة بالتجربة غير المؤكدة فى نتائجها . إن العلم يعتمد على الادراك والاستدلال وترجع مصداقية العلم إلى حقيقة مفادها أن مدركاته من النوع الذى يمكن لأى مراقب أن يضعها موضع الاختبار .. إن المتصوف نفسه قد يكون على يقين من أنه يعرف الحقيقة وأنه ليس بحاجة إلى الاختبارات العلمية . ولكن هؤلاء المطلوب منهم قبول هذه الشهادة سوف يخضعونها لذات النوع من الاختبارات العلمية مثل تلك الاختبارات التى تطبق على من يقول إنه ذهب إلى القطب الشمالى . والعلم على هذا النحو ليست لديه توقعات بالايجاب أو السلب حول النتيجة .

إن المحاجاة الرئيسية التى تؤيد موقف المتصوفين تتلخص فى أنهم جميعا متفقون فى شهاداتهم مع بعضهم البعض . يقول انج رئيس القساوسة : «لست أعرف ما هو أكثر إثارة للدهشة من اجماع المتصوفين سواء كانوا من القدامى أو من العصور الوسطى أو الحديثة

أو البـرتسـتـانت والكاثوليك أو حـتـي من البـوذيين والمسلمـين ولكن المتصـوفين المسيـحيين أهل للثقة أكثر من سواهم .» ولست أرغب فى التقليل من شـأن هذه المحـاجـاة التى اعتـرفت بها منذ فتـرة طويلة في كتابى «التصوف والمنطق» .

إن المتصـوفـين يختلفون اخـتلافا كبيرا فى قدرتهم على التعـبير بـالألفــاظ عن تجـاربهم ولكنى أظن أننا نفـــهم من ذلك أن كل الذين أصابوا نجاحا كبيرا فى هذا الصدد يرون ما يلى :

(١) أن كل مظاهر الانقسـام والانفصـام غيـر حـقـيـقـيـة لأن الكون وحدة واحدة لاتتجزأ

(٢) ان الشـر لا يعـدو أن يكون وهمـا منشـؤه النظر الزائف إلى الجزء على أنه قائم بذاته .

(٣) إن الزمن ليس له وجود حقيقي وأن الحقيقة خالدة ليس بمعنى أنها سرمدية بل أنها خارج نطاق الزمن تماما .

اننى لا أزعم أن هذا يلخص تلخيصـا كـاملا كـافـة المسـائل التى يجـمع عليـها كل المتـصـوفـين . ولكن هذه النقـاط الثـلاث التى ذكـرتهـا يمكنهـا أن تكون ممثلة للكل ، والآن دعنـا نتـخـيل أنفسنا مـحلفـين في ساحة القضاء كلفتهم المحكمة باصدار قرار بشأن مصـداقية الشـهود الذين يبرزون هذه التـأكيدات الثلاثة الداعية للدهشة والاستـغراب بعض الشيء .

سوف نجد في المقام الأول أنه بينما يتفق الشهود إلى حد ما فإنهم يختلفون اختلافا كاملا بعد تجاوز نقطة الاتفاق رغم أن يقينهم من اختلافهم لايقل عن يقينهم من اتفاقهم . ومن مظاهر الاختلاف أن الكاثوليك وليس البروتستانت تلوح لهم رؤى وتجليات تظهر لهم فيها مريم العذراء . ثم أن المسيحيين والمسلمين وليس البوذيين قد تكون هبطت عليهم حقائق أنزلها عليهم جبريل كبيرالملائكة . والمتصوفون الصينيون من أتباع التاو يحدثوننا – كنتيجة مباشرة لمذهبهم الرئيسى – عن فساد كل الحكومات في حين أن المتصوفين الأوربيين والمسلمين يحثون بنفس القدر من الثقة على ضرورة الخضوع للسلطة الزمنية . وفيما يتعلق بالنقاط التى يختلفون فيها نجد أن كل مجموعة منهم تذهب إلى أن المجموعات الأخرى غير جديرة بالتصديق . ولذلك إذا شئنا أن نرضى بمجرد انتصار جدلى يمكننا التنويه بأن معظم المتصوفين يظنون أن معظم المتصوفين الآخرين مخطئن فى معظم النقاط . وهم على أية حال يجعلون نجاحهم في هذا الشأن نصف نجاح بسبب اتفاقهم على الأهمية العظمى للمسائل التى يتفقون فيها بالمقارنة بالمسائل التى تختلف فيها آراؤهم حولها ، وقد ركزوا على الدفاع حول هذه النقاط الثلاث التى تتخلص فيما يلى : وحدة العالم – إن طبيعة الشر مجرد وهم – أن الزمن ليس له وجود حقيقي . فما هو الأختبار الذى يمكننا كمراقبين محايدين أن نطبقه على ما أجمعوا عليه من شهادة .

وبوصفنا من ذوى الاتجاهات العلمية فمن الطبيعى أن نبادر بالسؤال إذا كان بإمكاننا أن نستيقن بأنفسنا من صحة شهادة المتصوفين . وسوف نتلقى فى هذا الصدد اجابات متنوعة . فقد يقول لنا البعض أنه من الواضح أننا لسنا فى حالة ذهنية تمكننا من استقبال التجربة الصوفية وأننا نفتقر إلى التواضع المطلوب أو أن الصيام والتأمل الدينى أمران ضروريان لاستقبالها . أو إذا كان الشاهد على الصوفية هنديا أو صينيا أن الشىء الجوهرى المطلوب هو مجموعة من التدريبات الرياضية الخاصة بالتنفس . وأظن أن وزن الدليل التجريبى على صحة التصوف يقف فى صف هذه التدريبات الرياضية رغم أنه تبين أن الصوم كثيرا ما يكون فعالا ، وفى حقيقة الأمر هناك نظام بدنى محدد يسبق التصوف لابد من ممارسته للوصول إلى اليقين الصوفى . وهو نظام يوصى بممارسته الذين خاضوا التجربة الصوفية وهم على ثقة بفاعليته (١) وتدريبات التنفس هى أكثر مظاهر التصوف حيوية . وتيسيرا للأمور دعنا نركز على تمرينات التنفس ونتجاهل ما عداها .

وحتى نرى كيف يمكننا أن نضع موضع الاختبار التأكيد بأن اليوجا تمنح الانسان نفاذ البصيرة دعنا نقوم بتبسيط هذا التأكيد ولو

---

(١) فيما يتعلق باليوجا فى الصين يمكن الرجوع إلى كتاب (الطريق وقوته) تأليف وإلى ص ١١٧ - ١١٨ .

على نحو مفتعل : دعنا نفترض أن عددا من الناس يؤكدون أننا إذا تنفسنا لمدة معينة بطريقة معينة فسوف نقتنع بأن الزمن ليس له وجود حقيقى . ثم دعنا نخطو خطوة أخرى ونفترض بعد قيامنا باتباع الوصفة التى يقترحونها أننا خضنا نفس التجربة الذهنية التى يصفونها . ولكن الآن بعد أن نعود إلى حالتنا التنفسية الطبيعية لن نكون على يقين من قدرتنا على تصديق الرؤية التى رأيناها. كيف إذن يمكننا استقصاء هذا الأمر .

وبادىء ذى بدء : ماذا نعنى بقولنا إن الزمن لاوجود له . فاذا كنا نعنى حقا ما نقول فلابد وأن نعنى أن القول بأن هذا سابق على ذاك مجرد عبارة جوفاء لاطائل من ورائها ولو أننا افترضنا أى شىء أقل من هذا المعنى مثل القول بأن هناك علاقة بين «الأحداث» ، فى نفس ترتيب العلاقة بين السابق واللاحق ولكنها علاقة مختلفة . عندئذ سوف يكون أبوك عند أخيك أى أننا لانكون قد قمنا بعمل تأكيد من شأنه أن يجرى أى تغيير حقيقى فى نظرتنا . ولن يزيد هذا القول عن مجرد الافتراض بأن هوميروس لم يكتب الالياذة ولكن الذى كتبها رجل آخر يحمل نفس الاسم . فى هذه الحالة يتعين علينا أن نفترض عدم وجود أحداث بالمرة ، بل لابد أن يكون هناك فقط الكون الواسع الفسيح بأكمله الذى يشتمل على ما هو حقيقى فى المظاهر المضللة الخداعة

الخاصة بموكب الدنيا ، ويجب ألا يكون هناك في الحقيقة أي شيء يتطابق أو يتفق مع التميز الظاهري بين الأحداث الباكرة واللاحقة، فالقول بأننا نولد ونكبر ثم نموت لايقل في زيفه وخداعه عن القول بأننا نموت ثم نصغر ثم نولد في النهاية . في مثل هذه الحالة تصبح الحقيقة البادية المتمثلة في حياة الفرد مجرد غزل زائف ووهمي لعنصر واحد في وجود الكون الذي لايعرف الزمن أو التجزئة ولن يكون هناك فرق بين التقدم والتأخر أو بين الأحزان التي تنتهي بالسعادة أو بالسعادة التي تنتهي بالحزن . فإذا عثر المرء على جثة وقد انغرس فيها خنجر فلا يوجد فرق إذا كان هذا الرجل قد مات بجراحه أو أنه تم غرس الخنجر في جسده بعد الموت . ولو كان مثل هذا الرأي صحيحا لوضع نهاية ليس فقط للعمل بل للاتزان والأمل والجهد ، وهو لايتمشى مع الحكمة الأرضية كما أنه - وهو الأهم من وجهة نظر الدين - لايتمشى مع الأخلاق .

وبطبيعة الحال لايقبل معظم هؤلاء المتصوفين هذه النتائج على إطلاقها ومع ذلك نراهم يدعون إلى اعتناق مذاهب لامفر من أن تؤدي إلي هذه النتائج . وهكذا نرى إنج رئيس القساوسة يرفض أي نوع من الدين يروق في نظر المؤمنين بالتطور لأن مثل هذا الدين يؤكد كثيرا على العمليات الأرضية . يقول إنج : «لايوجد قانون للتقدم وليس هناك تقدم كوني» فضلا عن أنه يقول : إن مذهب التقدم الأوتوماتيكي

والكوني والدين الدنيوي وغير الكنسي الذي آمن به الكثيرون في عصر الملكة فيكتوريا يشوبهما عيب مفاده أنهما يكادان أن يكونا النظرية الوحيدة التي يمكن بكل تأكيد دحضها.

وإني أرى نفسي متفقا مع رئيس القساوسة (الذي أكن له عظيم الاحترام لأسباب كثيرة) في هذا الشأن الذي سوف أتناوله في وقت لاحق . ولكن من الطبيعي أن نراه لا يستخلص من المقدمات التي يسوقها كافة الاستدلالات التي يبدو لي أن استخلاصها أمر مؤكد .

ومن المهم ألا نصور مذهب التصوف على نحو كاريكاتوري نظرا لاعتقادي أنه ينطوي علي جوهر الحكمة . دعنا نرى كيف أن هذا المذهب يسعي إلي تجنب العواقب المتطرفة التي يبدو أنها تنشأ من إنكار الزمن.

إن الفلسفة القائمة على التصوف تستند إلى تقليد عظيم يمتد من الفيلسوف الاغريقي بارمينيدس إلي الفيلسوف الألماني هيجل . يقول بارمنيدس : «إن ما هو موجود لم يخلق وليس قابلا للفناء لأنه كامل وثابت وبلا نهاية وهو لم يكن أبدا ولن يكون لأنه الآن كائن كواحد مستمر في دفعة واحدة» . (هذه الفقرة مأخوذة من كتاب بيرنت «الفلسفة الاغريقية الباكرة» ص١١٩ . لقد أدخل بارمينيدس في علم الميتافزيقا الفرق بين الحقيقة والظاهر أو بين طريق الحق وطريق الرأي

كما يسميهما ومن الواضح أنه يتعين على كل من ينكر حقيقة الزمن أن يستقدم هذا الفرق لأنه من الواضح أن العالم له وجود ظاهرى فى الزمن . ومن الواضح أيضا أنه إذا كانت تجارب الحياة اليومية ليست وهما كاملا فإنه يجب أن يكون هناك شىء من العلاقة بين الظاهر وبين الحقيقة القابعة وراء هذا الظاهر . وعلى أية حال فإن الصعوبات الكأداء تنشأ عند هذه النقطة . فلو كانت العلاقة بين الظاهر والحقيقة حميمة أكثرمما ينبغى فسوف نصبح كل ملامح هذا الظاهر غير السارة لها نظيرها غير البهيج في الحقيقة فى حين أنه لو كانت العلاقة بينهما أبعد مما ينبغى فسوف تصبح عاجزين عن استخلاص الاستدلالات من طبيعة هذا الظاهر للوصول إلى طبيعة هذه الحقيقة . عندئذ سوف تصبح الحقيقة شيئا غامضا وغير معلوم كما نجد عند الفيلسوف هربرت سبنسر . وتواجه المسيحيين صعوبة متعلقة بهذا تختص بتجنب مذهب واحدية الوجود أى أن الله والكون شىء واحد . فلو افترضنا أن العالم مجرد ظاهر فمعنى هذا ان الله لم يقم بخلق شىء وتصبح الحقيقة المناظرة للعالم جزءا من الله . ولكن لو كان العالم بأى درجة من الدرجات حقيقى ومنفصل عن الله فإننا فى هذا الحالة ننبذ واحدية كل شىء وهو ما يشكل حجر الزاوية فى مذهب التصوف ونضطر إلى الافتراض أنه بقدر ما يكون العالم حقيقى فإن الشر الذى يحتويه هذا العالم حقيقى أيضا . مثل هذه الصعوبات تجعل من التصوف الكامل

شيئا يصعب جدا على المسيحى الايمان به ..وكما يقول أسقف برمنجهام : يبدو لى أنه يتعين نبذ كل أشكال واحدية الوجود لأنه إذا كان الانسان بالفعل جزءا من الله فإن الشر الموجود فى الانسان هو أيضا موجود فى الله..

إننى كنت أفترض طيلة هذا الوقت أننا بمثابة جماعة من المحلفين مهمتنا السماع إلى شهادة المتصوفين لمحاولة أن نقرر إذا كنا سنقبل أم نرفض هذه الشهادة . وإذا فهمنا من كلامهم حين ينكرون حقيقة الحواس أنهم يعنون الحقيقة بمعناها المعتاد فى قاعات المحاكم فإنه ينبغى ألا نتردد فى رفض ما يقولون لأننا سوف نجد أن ما يقولون يتعارض مع سائر الشهادات الأخرى بل أنه يتعارض مع شهادتهم فى لحظات حياتهم الدينوية . ولهذا يتعين علينا أن نبحث عن معنى آخر يقصده المتصوفون حين ينكرون حقيقة الحواس وأنى أعتقد أنه عندما يقابل المتصوفون «الحقيقة» بالظاهر ، فإنهم لايستخدمون كلمة «الحقيقة» بالمعنى المنطقى بل بالمعنى العاطفى . فهى تعنى بشكل ما ما هو مهم . وعندما يقال إنه الزمن «غيرحقيقى» فإن المقصود بهذا القول إنه - بمعنى ما وفى بعض المناسبات من المهم أن نفهم الكون ككل مثلما تصوره الله (لو أن الله موجود) عندما قرر القيام بخلقه، وعند تصور الكون على هذا النحو فإن كل العملية تصير داخل كل واحد كامل . وسوف يكون للماضى والحاضر والمستقبل مجتمعين وجود

بمعنى ما. سيفقد الحاضر اتصاف حقيقته بالأهمية والبروز كما هو حالنا مع طرائقنا المعتادة فى فهم العالم، ولو أننا قبلنا هذا التفسير فسوف أرى أن التصوف يعبر عن عاطفة وليس عن حقيقة . والتصوف لا يقوم بتأكيد أى شىء ومن ثم لا سبيل إلى أن يستيقن العلم من صحته أو يتصدى لنقضه . وإذا كان المتصوفون يلجأون إلى التأكيدات فهذا يرجع إلى عجزهم عن فصل الأهمية العاطفية عن السلامة العلمية فيما يذهبون إليه. ونحن بطبيعة الحال لا نتوقع أن يقبل المتصوفون مثل هذا الرأى. غير أنه بقدر ما أرى الرأى الوحيد الذى لا يعتبره الذكاء العلمى منفرا والذى يسلم فى نفس الوقت بشىء من وجهة نظرهم .

إن يقين المتصوفين واجماعهم إلى حد ما فى الرأى لا يعتبر سببا يدعونا إلى قبول شهادتهم فيما يتعلق بحقائق الحياة ، فعندما يرغب رجل العلم فى أن يشاركه الآخرون فى وجهة نظره فإنه يقوم بتجهيز مجهره أو تليسكوبه أى أنه يقوم باجراء تغييرات فى العالم الخارجى ولا يطلب من الرائى غير قوة الابصار المعتادة. وعلى النقيض من ذلك نجد أن المتصوف يطلب اجراء تغييرات فى الرائى نفسه عن طريق الصيام والتدريب على التنفس والامتناع الحريص عن مراقبة الخارج (بعض المتصوفين يعترضون على فرض هذا النظام ويعتقدون أن الاشراق الصوفى لا يمكن بلوغه بطريقة مفتعلة وهذا من وجهة النظر

العلمية يجعل من العسير وضع آرائهم موضع الاختبار أكثر من العسر في اختبار الذين يعتمدون في تصوفهم على تدريبات اليوجا. ولكن كل المتصوفين تقريبا يتفقون على أن الصيام وحياة الزهد والتقشف عوامل مساعدة.) ونحن جميعا نعرف أن الأفيون والحشيش والخمور يمكنها أن تترك آثارا معينة فيمن يتعاطاها . ولكن نظرا لأننا لا نعتبر هذه الآثار موضع إعجاب فإننا لا نقيم لها وزنا فيما ننشئه من نظريات خاصة بالكون ، بل انها في بعض الأحيان تكشف لنا عن شذرات من الحقيقة. ومع ذلك فإننا لا نعتبرها مصدرا للحكمة فى عمومها. إن السكير الذي يشاهد الافاعي لا يتخيل فيما بعد أنه قد تجلت له رؤية منزلة لحقيقة تخفي عن الآخرين. وبالرغم من ذلك فإن إيماننا لا يختلف تماما عن هذا لابد وأن يكون السبب في نشأة عبادة باكوس إله الخمر والانتشاء . ونحن في يومنا هذا - حسب مايخبرنا الفيلسوف الأمريكى وليم جيمس فى كتابه «أنواع التجربة الدينية - نرى أناسا يعتبرون حالة الانتشاء التي يخلقها الغاز المثير للضحك حقائق منزلة تختفى من حياة الانسان العادية. ومن وجهة النظر العلمية يمكننا أن نفرق بين الرجل الذي يأكل قليلا فيرى الفردوس نتيجة لذلك والرجل الذى يفرط في شرب الخمر فيشاهد الأفاعي تزحف أمام عينيه . إن كلا الرجلين في حالة بدنية غير طبيعية ولهذا فإنه يرى مدركات غير طبيعية وحتى تكون المدركات الطبيعية مفيدة للانسان فى صراعه من أجل الحياة

يجب أن يكون لها مايقابلها فى الواقع ولكن ليس هناك سبب فى حالة المدركات غير الطبيعية يجعلنا نتوقع مثل هذا المقابل أو النظير . ولهذا فإن شهادتها لا يمكن أن تفوق شهادة المدركات الطبيعية .

إن عاطفة التصوف - إذا ما تم تحريرها من المعتقدات التى لا يقوم على صحتها دليل وإذا لم تكن كاسحة لدرجة تجعل صلة الانسان منبتة تماما عن واقع الحياة العادية - يمكنها اضفاء شيء ذى أهمية بالغة وهو نفس نوع الاشياء ولكن بصورة مركزة الذى يوفره الاستغراق فى التأمل . إن الرحابة والسكينة والعمق جميعها قد تستمد جذورها من هذه العاطفة حيث تختفى الرغبات المتمركزة في الذات وحيث يصبح العقل مرآة تعكس اتساع الكون الفسيح . ومن الطبيعى أن نجد استمساكا بهذه التأكيدات ، المتصلة بطبيعة الكون من جانب أولئك الذين خاضوا هذه التجربة ويعتقدون أنها مرتبطة ارتباطا وثيقا ولا محيص عنه بمثل هذه التأكيدات ولكنى شخصيا أعتقد أن هذه التأكيدات غير جوهرية وليس هناك سبب يدعونا إلى الإيمان بصحتها. إننى لا أستطيع الاعتراف بغير الأسلوب العلمى كطريقة للوصول الى الحقيقة. غير أنى فى مجال العواطف لا أنكر قيمة التجارب التى كانت السبب وراء نشأة الدين وبالنظر الى ارتباط هذه العواطف بالمعتقدات الخاطئة فقد افضت الى كثير من الشر بقدر ما أفضت الى كثير من الخير. وإذا نجحت هذه العواطف فى التحرر من هذا الارتباط فسوف يحدونا الأمل إلى أن الخير وحده هو الذى سيبقى .

الفصل الثامن

الغاية الكونية

عندما لا يناصب رجال العلم الحديث العداء للدين أو يشعرون نحوه باللامبالاة نجدهم يستمسكون باعتقاد يرون أنه يمكن أن يستمر رغم مايصيب المسلمات الدينية من الأنهيار . ويتلخص هذا الاعتقاد في الايمان بوجود غاية وراء هذا الكون وبنفس القدر يستمسك اللاهوتيون الليبراليون بهذا الاعتقاد كجزء أساسي من عقيدتهم . ويتخذ المذهب المؤمن بوجود غاية في الكون عدة اشكال ولكن جميع هذه الاشكال تشترك في مفهوم للتطور يتجه نحو شيء له قيمته من الناحية الاخلاقية الذي يضفي على نحو ما معنى على كل العملية الكونية. وكما شاهدنا يذهب السير . ج آرثر تومسون الى أن العلم ناقص لأنه يعجز عن الإجابة عن السؤال : لماذا وجد هذا الكون ؟ في حين أن الدين في نظره يمكنه الآجابة عنه. لماذا تكونت النجوم ولماذا خرجت الكواكب ولماذا بردت الأرض لتنشأ الحياة عليها أخيراً . والأجابة الدينية عن كل هذه الاسئلة هي كي يتخمض هذا في نهاية الآمر عن شيء عجيب مدهش . وإني لست على يقين تماما من هذا الشيء المدهش ولكني

اعتقد انه يتمثل في وجود اللاهوتيين المناصرين للعلم والعلماء المناصرين للدين .

ويتخذ مذهب الغاية الكونية ثلاثة أشكال هى الشكل الديني والمذهب المنادى بوحدة الوجود أى أن الله والكون شىء واحد وما يمكن تسميته بالشكل الناشىء. ويذهب الشكل الأول وهو أبسط هذه الاشكال وأكثرها رسوخا فى الارثوذكسية الدينية أن الله خلق العالم وسن قوانين الطبيعة لأنه تنبأ بأن شيئا طيبا سوف يتمخض عنه فى الوقت المناسب.. وطبقا لهذه النظرة فإن الغاية من الكون تكمن بطريقة واعية فى عقل الخالق الذى يبقى خارج الكون. ونجد فى الشكل المنادى بوحدة الكون أن الله ليس خارج الكون ولكن محصلة كل هذا الكون. ولهذا لا يمكن أن تكون هناك عملية خلق ولكن يوجد نوع من القوة الخلاقة فى الكون تدفعه الى التطور وفقا لخطة يمكن القول بأنها كانت فى عقل القوة الخلاقة طيلة العملية الكونية .

وطبقا للشكل الناشىء ، فإن الهدف يصبح أكثر عشوائية ففى المرحلة الاولى من الكون لا يوجد فيه شىء قادر على التنبؤ بما سيحدث فى مرحلة لاحقة. ولكن نوعا من الدافع الاعمى يؤدى الى تلك التغييرات التى تتمخض عنها أشكال أكثر تطورا لدرجة أننا نجد بمعنى غامض بعض الشىء أن النهاية تكمن فى البداية .

كل هذه الاشكال الثلاثة يضمها مجلد الاحاديث الذى قامت بنشره محطة الإذاعة البريطانية وهى أحاديث سبق لنا الاشارة اليها. ويدافع اسقف برمنجهام عن الشكل الديني كما يدافع البروفيسور . ج . س هولدين عن الشكل المتمثل في وحدة الوجود . أما البروفيسور الكسندر فيدافع عن وجهة النظر التى اطلقنا عليها اسم الشكل الناشىء ولكن الفيلسوف برجسون و البروفيسور لويد مورجان قد يكونان أكثر تمثيلا لهذا النوع الأخير . وربما تصبح هذه المذاهب اكثر وضوحا إذا أوردناها بنفس العبارات التى سطرها أصحابها.

والرأى عند أسقف برمنجهام «أن هناك عقلانية فى الكون شبيهة بعقل الانسان وأن هذا من شأنه أن يجعلنا نشك فى عدم وجود عقل يوجه العملية الكونية.. غير أن هذا الشك سرعان ما يتبدد فنحن نعلم على الفور انه من الواضح أن هناك فى هذه البانوراما الواسعة تقدما يبلغ ذروته في خلق الانسان المتحضر. فهل يا ترى هذا التقدم من صنع قوى عمياء ؟ ويبدو لى ضربا من الغلوىء في الخيال أن نجيب بنعم على هذا السؤال . وفى حقيقة الأمر أن الخلاصة الطبيعية التى نستخلصها من المعرفة الحديثة التى يوفرها الأسلوب العلمى تتلخص فى خضوع الكون لقوة الفكر.. الفكر الذى توجهه الارادة نحو أهداف محددة . ولهذا فإن خلق الانسان ليس بالنتيجة غير المفهومة وغير المحتملة تماما لخصائص الالكترونات والبروتونات أو إذا شئت أن تقول نتيجة انقطاع

الاستمرارية فى المكان والزمان. فهو نتيجة غاية كونية ما. والأهداف التى تسعى هذه الغاية إلى تحقيقها لابد وأن تكون كامنة فى القوى والخصائص التى يتميز بها الانسان . ونحن نرى فى حقيقة الأمر أن «قدرات الانسان الاخلاقية والروحية فى ذروتها توضح طبيعة الغاية الكونية التى تشكل مصدر وجوده .

وكما رأينا يرفض الاسقف المذهب القائل بوحدة الوجود لأنه إذا كان الله هو العالم فيترتب على ذلك أن الشر الموجود فى العالم موجود فى الله.

وأيضا لأنه «يجب علينا ألا نعتقد أن الله شأنه فى ذلك شأن الكون فى حالة تكوين ، وهو يعترف باخلاص بوجود الشر فى العالم ويضيف .

«إن وجود كل هذا القدر من الشر أمر يدعو للحيرة وتعتبر هذه الحيرة المحاجاة الاساسية التى تستخدم ضد التوحيد المسيحى» ونحن نراه بأمانة تدعو الى الاعجاب لا يحاول نفى وجود هذه الحيرة أو رميها باللاعقلانية .

ويثير الدكتور بارنز مشاكل من نوعين. فهناك مشاكل تتعلق بالغاية الكونية بوجه عام ومشاكل تتعلق بوجه خاص بالشكل التوحيدى الذى تتخذه هذه الغاية. وسوف اتناول المشاكل المنتمية الى النوع الأول فى مرحلة لاحقة. ولكنه يتعين علىَّ أن أقول شيئا عن النوع الثانى .

إن مفهوم الغاية مفهوم طبيعى ينطبق على الانسان الصانع فالانسان الذى يرغب فى إقامة بيت لا يستطيع - سوى فى الف ليلة وليلة - أن يقيمه نتيجة مجرد رغبة بل يجب عليه بذل الوقت والجهد لتحقيق هذه الرغبة . ولكن القدرة على كل شيء لا تخضع لمثل هذه الحدود. ولو كان الله فى الحقيقة يحسن الظن بالجنس البشرى - وهو افتراض يبدو لى غير معقول - فلماذا نراه لا يقدم على خلق الانسان فى الحال مثلما فعل فى سفر التكوين. وما الحكمة فى خلق الكواسر مثل الزواحف السمكية المعروفة بالايتشيوصورات والديناصورات والديبلودوتشى والماستودون الحلمية الاسنان الخ.. ان الدكتور بارنز نفسه يعترف فى موضع ما بأن الغاية من خلق الدودة الشريطية سر مستغلق.. ثم اى غرض مفيد يخدمه خلق داء الكلب وداء الرعب من الماء؟ لا يكفى أن نجيب عن هذه الاسئلة بالقول بأنه لا مفر من ان تنتج قوانين الطبيعة الشر والخير على حد سواء لان الله هو الذى استن قوانين الطبيعة. ويمكن شرح الشر الناجم عن الخطيئة بأنه نتيجة حرية الارادة. ولكن هذا لا يحل مشكلة وجود الشر فى العالم السابق على وجود الانسان. واكاد ألا أعتقد ان الدكتور بارنز سوف يقبل الحل الذى يقدمه وليم جيلسباى ومفاده ان الشياطين سكنت اجسام الوحوش الكواسر وأن الخطايا الاولى التى اقترفتها هذه الشياطين كانت سابقة على خلق الوحوش. ومع ذلك

فمن العسير علينا ان نعثر على اى حل أخر يعادل هذا الحل فى قوة منطقة.

إن المشكلة قديمة ولكنها حقيقية. إن الكائن القادر على كل شيء الذى خلق عالما يحتوى على الشر الذى لا يرجع الى الخطيئة لابد وأن يحتوى هو نفسه على قدر من الشر (١) .

ويتعرض مذهب الغاية الكونية بدرجة أقل في شكله المؤمن بوحدة الوجود وشكله الناشيء، لمثل هذا الاعتراض.

وتوجد أنوا ع من التطور القائم على الايمان بوحدة الوجود (اى بأن الكون والله شيء واحد) تختلف باختلاف النوع المشار اليه، فالنوع الذى يؤمن به البروفيسور ج. س . هولدين والذى نحن بصدد مناقشته الآن يرتبط بفلسفة هيجيل، وهو ليس على الاطلاق سهلا فى فهمه مثل سائر الأفكار الهيجيلية، ولكن وجهة النظر هذه تركت أثرا عظيما أبان القرن الماضى أو ما ينيف ، ومن ثم فمن الضرورى أن نتناولها بالفحص والتمحيص، أضف الى هذا تميز أبحاث البروفيسور هولدين

---

١ - يقول دين انج فى هذا الصدد : «نحن نقوم بتضخيم مشكلة الشر بسبب ضيق مذهبنا الاخلاقى الذى نفرضه على الخالق وليس هناك دليل على صحة النظرية القائلة بأن الله مجرد كائن أخلاقى والشواهد التى نستخلصها من قوانين الله وعملياته على الأرض تبين أنه ليس كذلك . (مقالات صريحة المجلد السابع ص ٢٤) ..

فى بعض المجالات المتنوعة المتخصصة. كما انه قام بشرح فلسفته العامة عن طريق الاستقصاء المفصل وخاصة فى علم وظائف الأعضاء الذى أوحى له بأن علم الأجسام الحية فى حاجة لشرحه الى قوانين أخرى غير قوانين الكيميــاء والفيزياء . وهذه حقيقة تزيد من وزن وقيمة نظرته العامة .

وطبقا لفلسفة هولدين ليس هناك - إذا تحرينا وجه الدقة أى شىء اسمه «مادة ميتة» كما أنه لا وجود لأية مادة حية لا تتسم بشىء من طبيعة الوعى. ويخطو هولدين خطوة أبعد من هذا فيقول إن كل وعى يتسم بدرجة مامن القداسة . وتتضمن أراء البروفيسور هولدين الفرق بين الظاهر والحقيقة الذى عالجناه باختصار فى فصل سابق دون ان يذكر هولدين هذا الفرق صراحة . ولكن هذا الفرق صار الآن - كما هو الحال مع هيجيل - فرقا فى الدرجة أكثر من كونه فرقا فى النوع . والمادة الميتة اقل ما تكون فى وجودها الحقيقى والمادة الحية أكثر بقليل فى وجودها الحقيقى فى حين أن الوعى الانسانى يفوقهما فى حقيقة وجودهما . غير أن الحقيقة الوحيدة الكاملة تتمثل فى الله أى تتمثل فى الكون باعتباره مقدسا.. ويزعم هيجيل أنه يثبت هذه القضايا ببراهين منطقية . ولكن سوف نقفل مناقشة هذا الموضوع لأن مناقشته تتطب مجلدا قائما بذاته . وعلى كل حال سوف نلقى الضوء على أراء

البروفيسور هولدين من خلال النصوص الواردة في حديثه الذى تبثه محطة الاذاعة البريطانية .

يقول هولدين : «إذا حاولنا أن نجعل من التفسير الآلى الاساس الوحيد لفلسفتنا فى الحياة فعلينا أن ننبذ تماما معتقداتنا الدينية التقليدية وكثيرا من المعتقدات العادية الاخرى. ولكن لحسن الحظ يظن أنه ليست هناك حاجة لشرح كل شيء من منظور آلى ، أى شرحه بلغة الكيمياء والفيزياء . بل أنه في حقيقة الأمر يرى استحالة مثل هذا الشرح نظرا لحاجة علم الأحياء إلى مفهوم الكائن الحى . يقول هولدين : «إن الحياة من وجهة النظر الفيزيقية عبارة عن معجزة ماثلة امامنا» ويستطرد قائلا : «إن الانتقال الوراثى نفسه يتضمن الصفة المميزة للحياة كوحدة متسقة تميل دوما الى الاستمرار والتكاثر» «وإذا افترضنا أن الحياة ليست كامنة فى الطبيعة ولا بد من وجود وقت سابق على بدء الحياة فإننا نجد أن هذا الافتراض لا ينهض على دليل ومن شأنه أن يجعل ظهور الحياة شيئا غير مفهوم بالمرة» . و«إن قيام علم الأحياء باغلاق الباب بشكل حاسم فى وجه التفسير الآلى أو الرياضى لتجربتنا له مغزاه على أقل تقدير فيما يتعلق بأفكارنا عن الدين» . و«علاقات السلوك الواعي بالحياة تشبه علاقة الحياة بالآلية الميكانيكية» و«يذهب التفسير النفسانى إلى أن الحاضر ليس مجرد

لحظة عابرة فهو يضم فى طياته كلا الماضى والمستقبل ، «ويضيف هولدين انه مثلما يتطلب علم الأحياء مفهوم الكائن الحى فإن علم النفس يتطلب مفهوم الشخصية . ومن الخطأ أن نظن أن الشخص يتكون من روح زائد جسد أو أن نفترض أننا لا نعرف العالم الخارجى بل مجرد احساسات عنه فقط لأن البيئة فى حقيقة الأمر ليست خارجة عنا. يقول هولدين «المكان والزمان لا يقومان بعزل الشخصية بل يعبران عن نظام داخلها لدرجة أن ضخامة المكان والزمان الهائلة توجد داخلها حسبما رأها الفيلسوف كانط .» «والشخصيات لا تستبعد الواحدة الأخرى. «وأنها ببساطة لحقيقة اساسية فى تجربتنا أن نجد أن المثل الأعلى النشيط فى الحق والعدل والخير والجمال حاضر بيننا على الدوام ويمثل اهتمامنا ولكن لا يمثل اهتمامنا الفردى . فضلا عن أن المثل الاعلى واحد ولكن له جوانب مختلفة .»

ونحن على استعداد من هذا المنطلق أن نخطو الخطوة التالية للوصول من الشخصيات المفردة الى الله . يقول هولدين : إن الشخصية ليست مجرد فرد. ونحن نتعرف من خلال هذه الحقيقة على وجود الله – الله الموجود ليس كمجرد كائن خارجنا ولكن داخلنا وحوالينا باعتباره شخصية كل الشخصيات .»

«ونحن نجد التنزيل الالهى فقط داخل انفسنا وفى مثلنا العليا النشيطة للحق والصواب والخير والجمال ومن ثم فى زمالتنا للآخرين.»

ويخبرنا هولدين أن الحرية والخلود ينتميان إلى الله وليس إلى أفراد البشر الذين على كل حال ليس لهم وجود حقيقى تماما ولو أن كل الجنس البشرى زال من الوجود لاستمر الله من الازل الحقيقة الوحيدة . وفى وجود الله يستمر بقاء ماهو حقيقى فينا .»

وهناك تفكير أخير يدخل السلوى والعزاء ويترتب على كون حقيقة الله الحقيقة الوحيدة ألا يكترث الفقراء بفقرهم وانه لمن السخف الاستمساك بظلال اللحظة العابرة غير الحقيقية مثل حياة الرغد والترف عديمة الجدوى .. إن معيار الفقر الحقيقى قد يكون ابعث على الرضا من معيار الثراء.. ويخلص المرء من هذا أن الذين يتضورون جوعا سيعرفون راحة القلب إذا تذكروا : إن الحقيقة النهائية الوحيدة هى الحقيقة الروحيــة أو الشخصية التى نتبينها عن طريق وجود الله .

وهذه النظرية تثير عددا من الاسئلة ولنبدأ بأكثر هذه الاسئلة تحديدا : ما معنى القول إذا كان هناك أى معنى فى ذلك بأن علم الأحياء لا يمكن تخفيضه أو تحويله الى عناصر علمى الفيزياء والكيمياء أو تحويل علم النفس الى عناصر علم الاحياء ..

ومعظم المتخصصين فى الوقت الحالى يرفضون رأى البروفيسور هولدين فى العلاقة بين علم الاحياء وعلمى الكيمياء والفيزياء. ونحن نجد فى الكتاب الذى نشره جاك لويب عام ١٩١٢ بعنوان «مفهوم الحياة

الميكانيكية» تعبيرا بديعا وإن لم يكن حديثا عن وجهة نظر مخالفة . ويسجل أكثر فصول هذا الكتاب افادة نتائج التجارب الخاصة بالتناسل او التكاثر الذى يرى هولدين انه من الواضح انه لا يمكن شرحه على أساس ميكانيكى .. ووجهة النظر الميكانيكية المقبولة بالدرجة الكافية هى تلك الواردة فى الطبعة الأخيرة من دائرة المعارف البريطانية حيث يقول المستر إ.س جودريتش تحت عنوان «التطور» : إذن فالكائن الحى من وجهة نظر المراقب العلمى عبارة عن آلية فيزيائية كيميائية معقدة تقوم بتنظيم واصلاح نفسها بنفسها والذى نسميه «حياة» من وجهة النظر هذه هو محصلة عمليات فيزيائية - كيمائية تقوم بتكوين سلسلة مستمرة ومعتمدة على بعضها البعض بدون انقطاع وبدون تدخل أية قوة خارجية غامضة .»

ونحن نبحث فى هذا المقال دون جدوى عن أية اشارة الى عدم وجود عمليات فى المادة الحية لا يمكن تحويلها الى عناصر الفيزياء والكيمياء . ويبين كاتب المقال انه لا يوجد خط واضح فاصل بين المادة الحية والمادة الميتة . فهو يقول : لايمكن رسم خط واضح يفصل بين الحى وغير الحى . إذ أنه لا توجد مادة كيماوية حية خاصة ولا يوجد عنصر حيوى خاص يختلف عن المادة الميتة كما أننا لا نشاهد أية قوة حيوية خاصة تؤدى عملها. وكل خطوة فى العملية تحددها الخطوة السابقة عليها فضلا عن أنها تحدد الخطوة التالية عليها.» ويضيف

كاتب المقال بشأن أصل الحياة: «يجب علينا ان نفترض انه عندما كانت الظروف مواتية فى الماضى السحيق تكونت مركبات عالية نسبيا ذات أنواع متنوعة. ولم يكن الكثير من هذه المركبات يتصف بالثبات أو الاستقرار تماما بل كان يتحطم بمجرد تكوينه تقريبا فى حين أن بعض المركبات الأخرى قد يتصف بالثبات والاستقرار ويلح فى مجرد البقاء . غير أن مركبات أخرى ربما مالت الى أن تعيد تكوينها وتمثيلها بنفس السرعة التى تحطمت بها . وما أن يسلك المركب أو الخليط النامى هذا السبيل حتى أننا نراه يميل بالحتم والضرورة الى ابقاء نفسه، وقد يلتحم مع أو يتغذى على مركبات أخرى تقل تعقيدا عنه .» ويمكن اعتبار وجهة النظر هذه وليس وجهة نظر البروفيسور هولدين السائدة بين علماء الأحياء فى يومنا الراهن. فهم متفقون على أنه لا يوجد خط فاصل بين المادة الحية والمادة الميتة . ولكن فى حين يعتقد البروفيسور هولدين آن مانسميه المادة الميتة هى فى حقيقة الأمر مادة حية نرى أن غالبية علماء الأحياء يعتقدون أن المادة الحية هى فى حقيقة الأمر ألية فيزيائية كيميائية .

ومسألة العلاقة بين علم وظائف الأعضاء وعلم النفس أكثر صعوبة فهناك سؤالان جليان : هل يمكننا الافتراض أن مسلكنا الجسمانى يرجع الى أسباب فسيولوجية وحدها ؟ ثم ما العلاقة بين الظواهر الذهنية وأفعال الجسم المصاحبة والحادثة فى ذات الوقت.. إن المسلك

الجسدى فقط هو الذى يخضع للملاحظة العامة فى حين أن الآخرين قد يصلون الى أفكارنا عن طريق الاستنتاج . هذا على أقل تقدير ما يقوله لنا الادراك السليم. وإذا شئنا الدقة والتشدد النظرى فإننا لا نستطيع أن نراقب الأفعال التى يأتى بها الجسد. ولكن فقط نراقب ما تتركه اثار معينة علينا . والذى يلاحظه الآخرون فى نفس الوقت قد يكون مشابهها ولكنه يختلف بدرجات متفاوته عما نلاحظه ولهذا السبب ولأسباب أخرى نجد أن الفجوة بين علمى الفيزياء والنفس ليست واسعة كما كان يعتقد فى الماضى . ويمكن القول أن الفيزياء تتنبأ بما سوف نشـــاهده فى ظروف بعينها وهى بهذا المعنى فـــرع من فروع علم النفـس لأن رؤيتها للأشياء حدث ذهنى . وقد تجلت وجهة النظر هذه فى الفيزياء الحديثة بسبب الرغبة فى الاقتصـار فـقط على عمـــل التأكيدات التى يمكن التحقق من صحتها بطريقة تجريبية . بالاضافة إلى حقيقة مفادها أن التـــأكد من صـحتها هـو على الـــدوام مـلاحظة يقوم بها انسان . ومن ثم فهى حدث مثل الاحداث التى يضطلع علم النفس بدراستها. ولكن هذا كلــــه ينتمى الى فلســـفة كلا العلمين أكثر من انتمــائه الى ممارسات هذين العلمين . ولكن التكنيكين اللذين يستـخدمهما هذان العلمان يبقيان منفصلين ومتميزين الواحــــد منهما عن الآخـــر بشكل واضح على الرغم من قرب موضوعاتهما من بعضهما البعض .

ولنرجع الى السؤالين المطروحين فى بداية الفقرة السابقة وكما شاهدنا فى فصل سابق إذا صح أن كل أفعالنا الجسمانية لها اسباب فسيولوجية فإن عقولنا تصبح غير ذات أهمية من الناحية السببية. ونحن نستطيع الاتصال بالآخرين أو التأثير فى العالم الخارجى عن طريق الأفعال الجسمانية فقط. وتفكيرنا يصبح ذا أهمية فقط إذا امكنه التأثير فيما تقوم به أجسامنا من أفعال . وعلى أية حال حيث أن التمييز بين ماهو ذهني وما هو فيزيقي لا يعدو أن يكون تمييزا مريحا لنا فإن أفعالنا الجسمانية قد تكون لها أسباب داخل نطاق علم الفيزياء تماما. ومع ذلك فقد تعد الأحداث الذهنية من بين أسبابها . ومن الناحية العملية لا ينبغي علينا أن نعبر عن هذه المسألة باستخدام مصطلحي العقل والجسد . وربما أمكن التعبير عنها على النحو التالى : «هل تحدد قوانين الفيزياء الكيمائية أفعالنا الجسدية؟ وإذا كان الأمر كذلك فهل هناك رغم هذا علم مستقل هو علم النفس يتم فيه دراسة الأحداث الذهنية مباشرة دون تدخل التركيب المصطنع لمفهوم المادة ؟

ليس فى الامكان الاجابة بثقة عن أي من هذين السؤالين رغم وجود بعض الدلائل الدالة على الاجابة بنعم عن السؤال الأول . ولكن هذه الدلائل غير مباشرة فنحن لا نستطيع حساب حركات انسان مثلما نستطيع حساب حركات كوكب المشترى غير أنه لا يمكننا وضع خط

فاصل بين الاجسام البشرية وبين ادنى أشكال الحياة . ولا يوجد فى أى مكان مثل هذه الفجوة التى تغرينا بالقول : «عند هذه النقطة تصبح الفيزياء والكيمياء عارية عن الصحة . وكما سبق أن رأينا ليس هناك كذلك أى خط واضح يفصل بين المادة الحية والمادة الميتة . ولهذا يبدو من المحتمل أن يكتب للفيزياء والكيمياء التفوق طيلة الوقت .

وفى الوقت الحالى لا نستطيع أن نقول سوى الاقل من هذا عن إمكانية التعامل مع علم النفس بوصفه علما مستقلا . وإلى حد ما حاول التحليل النفسى أن يخلق مثل هذا العالم . ولكن نجاح هذه المحاولة بقدر تجنبها للسببية الفسيولوجية أمر قد يكون موضع شك حتى الآن. وإنى أميل الى الاعتقاد المشوب بشىء من التردد أنه سوف يظهر فى نهاية الأمر علم يجمع بين الفيزياء وعلم النفس رغم أن هذا العلم الجديد سوف يكون متميزا عن كلا العلمين كما نراهما فى الوقت الراهن . لقد تطور تكنيك الفيزياء متأثرا بالايمان بالحقيقة المتافيزيقية للمادة التى لم يعد لها وجود الآن. ويختلف تكنيك الميكانيكا الكمية الجديدة فى أنه يستغنى عن الميتافيزيقا الزائفة . وإلى حد ما تطور تكنيك علم النفس متأثرا بالإيمان بالحقيقة الميتافيزيقية للعقل.. ويبدو ممكنا أنه عندما يتحرر علما الفيزياء وعلم النفس تماما من الاخطاء العالقة بهما فسوف يتطور الاثنان الى علم لا يعالج العقل أو المادة بل يعالج الأحداث التى لن توصف بأنها فيزيقية أو ذهنية ،

وحتى يجيء الوقت الذى يتم فيه ذلك يجب علينا أن ننظر بشك الى علمية علم النفس .

إن آراء البروفيسور هولدين المتصلة بعلم النفس تثير على أية حال مشكلة ضيقة يمكننا أن نقول عنها أشياء أكثر تحديدا بكثير من هذا .

فهو يذهب الى أن مفهومه المميز الواضح يتمثل فى «الشخصية». وهو لا يعرف هذا المصطلح او يحدده ولكننا قد نفهمه بمعنى مبدأ ما يوجد ويجمع مكونات العقل الواحد جاعلا كل هذه المكونات تتوائم مع بعضها البعض .

وهذه الفكرة المشوشة وغير الواضحة تحل محل الروح ، بقدر ما نعتقد أنه لا يزال بامكاننا الدفاع عنها . والعقل يختلف عن الروح فى أنه ليس مجرد كينونة ولكنه شيء يتصف بالاكتمال . والذين يعتقدون فى العقل يظنون أن كل شيء فى عقل جون سميث يتميز بخاصية لاتوجد فى أحد غير جون سميث. وهو الأمر الذى يجعل من المستحيل على أى شيء يشبهه تمام الشبه أن يكون له وجود فى عقل أى انسان غير جون سميث. وإذا حاولنا أن نعطى وصفا علميا لعقل جون سميث فيجب علينا ألا نكتفى بالقواعد العامة مثل التى تقوم بوصف كل الاجزاء التى تتكون منها المادة دون تمييز بين جزء وآخر. ويجب علينا أن نذكر أن الأحداث المعينة تحدث لهذا الرجل المسمى جون سميث دون

سواء وأن هوية هذه الأحداث ترجع إلى كل من تاريخ وشخصية هذا الرجل.

وهناك شيء مغر وجذاب في هذه النظرة ولكني لا أرى سببا في اعتبارها نظرة حقيقية . ومن الواضح بطبيعة الحال أن أي رجلين في نفس الموقف قد يكون لهما ردود فعل مختلفة بسبب الخلاف الموجود بين ماضيهما ولكن نفس الشيء ينطبق على قطعتين من الحديد إحداهما ممغنطة والأخرى غير ممغنطة . ونحن نفترض أن الذكريات محفورة في المخ وتؤثر في السلوك عن طريق الاختلافات في تركيب الأبدان والأجسام . وتنطبق الاعتبارات المشابهة على الشخصية الانسانية . فالفرق بين الرجل الغضوب والرجل البارد الطباع يرجع في العادة الى الغدد . ويمكن في معظم الأحيان محو هذا الفرق عن طريق استعمال العقاقير المناسبة . إن الاعتقاد بغموض الشخصية الانسانية وعدم إمكانية تحويلها إلى عناصر مكونة لها أمر لاسند له من الناحية العلمية يقبله الانسان اساسا لأنه اعتقاد يرضي غروره واحترامه لذاته .

ولنأخذ أيضا هاتين العبارتين : «فيما يتعلق بالتفسير النفسي نجد أن الحاضر ليس مجرد لحظة عابرة فهو يحمل في احشائه كلا من الماضي والمستقبل.»

«والمكان والزمان لا يقومان بعزل الشخصية الانسانية فهما يعبران عن نظام بداخل هذه الشخصية .» وفيما يتعلق بالماضى والمستقبل فأظن أن البروفيسور هولدين كانت بباله مسائل مثل الحالة التى نجد أنفسنا فيها عندما نرى لتونا وميض البرق ونتوقع حدوث الرعد . ويمكن القول إن البرق وهو يمثل الماضى والرعد وهو يمثل المستقبل يدخلان معا فى تكوين حالتنا الذهنية الراهنة . ولكن استخدام مثل هذه الصورة المجازية يضللنا . فتذكر البرق ليس هو البرق وتوقع حدوث الرعد ليس هو الرعد . ولست أفكر فى أن التذكر والتوقع ليس لهما آثار فيزيقية فحسب . فالرؤية شيء والتذكر شيء آخر . والسماع شيء والتوقع شيء مختلف . وفى مجال علم النفس وغيره من المجالات نجد أن العلاقة التى تربط الحاضر بكلا الماضى والمستقبل هى علاقات سببية وليست علاقة قائمة على التغلغل المتبادل interpenetation (لست أعنى بطبيعة الحال أن توقعاتى هى السبب في حدوث الرعد بل ان تجاربى الماضية بوقوع الرعد فى أعقاب البرق فضلا عن حدوث البرق فى اللحظة الآنية هى السبب فى توقعاتى بحدوث الرعد) . والذاكرة لا تطيل الماضى ولكنها مجرد طريقة تجعل الماضى يترك آثاره .

وفيما يتعلق بالمكان نجد أن الأمر مشابه لهذا ولكنه أشد تعقيدا منه. فهناك نوعان من المكان .. مكان الفيزياء الذى تشغله أجسام الآخرين والكراسى والموائد والشمس والقمر والنجوم ليس فقط كما

تنعكس فى أحاسيسنا الخاصة ولكن كما نفترض وجودها فى حد ذاتها. والنوع الثانى من المكان افتراضى ويمكن لأى إنسان بالمنطق السليم أن ينكر وجوده طالما أنه على استعداد أن يفترض أن العالم لا يحتوى على شىء غير تجاربه الخاصة . ولكن البروفيسور هولدين ليس على استعداد لأن يقول هذا . ومن ثم يتعين عليه الاعتراف بالمكان الذى يحتوى على أشياء أخرى غير تجاربه الخاصة . أما فيما يتعلق بالنوع الذاتـــى من المكان فـهناك المكان المنظور المشـتمل على كل تجاربى المرئيـة . وهناك المكان المتـصل بحـاسـة اللمس . وهناك كـمـا أوضح الفيلسوف وليم جيـمس ذلك المغص الضخم والهائل . فعند النظر إلى شخصى باعتبارى واحدا من الأشيـاء التى يغص بها العالم فإن كل شكل من أشكال المكان الذاتى يصبح بداخلى . فالسموات ذات النجوم التى أراها ليست السموات ذات النجوم التى يحدثنا عنها علم الفلك بل مجرد ما تتركه هذه النجوم فى من أثر . فالذى تقع عليه عينى موجود بداخلى وليس له وجود خارج نفسى . أما النجوم التى يحدثنا عنها الفلك فموجودة فى المكان الفيزيائى أى أنها توجد خارجى . ولكنى أتوصل إليها فقط عن طريق الاستنتاج وليس عن طريق تحليل تجربتى الخاصة . ومقولة هولدين القائلة بأن المكان تعبير عن نظام موجود بداخل الشخصية الإنسانية سليمة فيما يتعلق بالمكان الخاص وليس

فيما يتعلق بالمكان الفيزيائى . وقوله المصاحب بأن المكان لا يعزل الشخصية صحيح فقط لو أن المكان الفيزيائى كان أيضا بداخلى ، وحتى يزول مافى قول هولدين من تشويش فإن موقفه سوف يظل يفتقر إلى المعقولية .

ويحرص البروفيسور هولدين - شأنه شأن أتباع هيجيل - على ايضاح أنه لا يوجد شىء منفصل فى حقيقة الأمر عن أى شىء آخر . وقد بين لنا الآن - هذا إذا كنا على استعداد للاقتناع بمحاجاته - بأن ماضى ومستقبل كل إنسان موجود فى نفس الوقت مع حاضره وأن المكان الذى نعيش فيه جميعا موجود أيضا داخل كل واحد منا . ولكنه يجب على هولدين أن يخطو خطوة أبعد من هذا لاثبات أن «الشخصيات لا تستبعد الواحدة منها الأخرى» . ويبدو أن شخصية الإنسان تتكون من مثله العليا وأن جميع مثلنا العليا واحدة . وسوف اقتطف كلماته مرة أخرى : «إن مثالنا الأعلى فى الحقيقة والعدل والخير والجمال ماثل أمامنا على الدوام .. أضف إلى هذا المثال الأعلى النشيط مثال أعلى واحد رغم اختلاف وجوهه . والتنزيل الإلهى يأتينا عن طريق هذه المثل العليا المشتركة وما تخلقه فينا من أحساس مشترك بالأخوة البشرية» .

ويجب علىَّ أن أعترف أن مثل هذه الأقوال تجعلنى ألهث وأكاد ألا أعرف من أين أبدأ لست أشك فى قول البروفيسور هولدين إن المثل

الأعلى النشيط فى الحقيقة والعدالة والخير والجمال لا يغيب عنه أبدا . وأنا على يقين من أن الأمر لابد وأن يكون كذلك طالما أن هولدين نفسه يؤكده . ولكن عندما ينسب هذه الدرجة من الفضيلة غير العادية إلى الجنس البشرى فانى أشعر أنه من حقى أن استمسك بما أراه فى هذا الشأن كما أن من حقه أن يفعل نفس الشيء بالنسبة لما يراه . فأنا شخصيا أرى أن الإنسان لا يكتفى بممارسة الكذب والظلم والقسوة والقبح فى واقع الحياة بل يعتبرها مثله الأعلى . فهل يعتقد هولدين حقا ان هتلر وانشتين يشتركان فى نفس «المثال الأعلى» كل منهما على الوجه الذى يراه ؟! ويبدو لى أن كلا منهما سيرفع قضية تشهير على الآخر بسبب مثل هذا القول . ومن الطبيعى أننا نستطيع القول إن أحدهما شرير لا يتبع فى حقيقة الأمر المثل العليا التى يؤمن بها فى قلبه . ولكن يبدو لى أن حلا كالذى يقترحه هولدين أسهل مما ينبغى . فهتلر يستمد مثله العليا أساسا من نيتشه الذى تدل جميع الشواهد على اخلاصه الكامل فيما يعتنق من آراء . وحتى يأتى الوقت الذى ينجلي فيه غبار المعركة الدائرة حول هذا الموضوع - وذلك عن طرق أخرى غير طريق الديالكتيك الهيجيلى - فإنى أجد نفسى عاجزا عن معرفة إذا ما كان الله الذى يتجسد فيه المثال الأعلى - هو يهوا أو واتون .

أما فيما يتعلق بالرأى القائل بأن بركات الله الخالدة توفر العزاء والسلوى للفقراء . فقد كان هذا دائما الرأى الذى ينادى به الأغنياء . ولكن الفقراء بدأوا يضيقون ذرعا به . وربما لا يبدو من الحكمة فى شىء فى يومنا الراهن الربط بين فكرة وجود الله والدفاع عن المظالم الاقتصادية .

إن مذهب الغاية الكونية القائم على الايمان بأن الله والطبيعة شىء واحد - مثله مثل المذاهب الأخرى المؤمنة بوجود الله - يواجه (ولو بطريقة مختلفة إلى حد ما) صعوبة فى شرح ضرورة التطور الزمنى أو الدنيوى . وإذا كان ليس فى نهاية المطاف ثمة حقيقة - كما يؤمن بذلك جميع المؤمنين بوحدانية الوجود - فلماذا تظهر أفضل الأشياء فى التاريخ فى الأزمنة اللاحقة وليس فى الأزمنة السابقة . وهل يتغير الوضع لو حدث قلب لهذا الترتيب ؟ ولو أن الفكرة القائلة بأن للأحداث تواريخ كانت وهما الله فى حل منه فلماذا يشاء الله أن يضع الأحداث السارة فى النهاية والأحداث غير السارة فى البداية ؟ إننى اتفق مع رئيس القساوسة إنج فى الاعتقاد بأن هذا سؤال لا إجابة عنه .

والمذهب الناشىء الذى نعرض له فيما يلى يتجنب هذه الصعوبة مؤكدا أن الزمن حقيقة . غير أننا نجد على الأقل أنه يثير مشاكل أخرى بنفس القدر من الضخامة .

والممثل الوحيد لمذهب النشوء الذى جاء ذكره في مجلد الأحاديث التي قامت محطة الإذاعة البريطانية بنشره والذى اقتطفت منه بعض الفقرات هو البروفيسور الكسندر الذى يبدأ بقوله إن نشأة المادة الميتة والمادة الحية والعقل تمت تباعا ثم يمضى قائلا :

«هذا النمو الآن - منذ أن قام المستر لويد مورجان بتعريفه أو إعادة التعريف بفكرته وبالمصطلح الخاص به - يدعى النشأة بمعنى أن الحياة تنشأ من المادة والعقل ينشأ من الحياة والكائن الحى هو أيضا كائن مادي ولكنه كائن يتكون بطريقة تظهر خاصية جديدة هى الحياة . ونفس الشئ يمكن أن يقال عن الانتقال من الحياة إلى العقل والكائن الذى له عقل هو أيضا مخلوق حى ولكنه كائن على قدر كبير من التطور المعقد وهو يتسم بتنظيم بديع فى أجزاء معينة منه وبالذات فى جهازه العصبى إلى حد يجعله يتصف بالعقل أو الوعي ، إذا شيئا استخدام هذه الكلمة ،

ويستطرد قائلا إنه لا يوجد سبب يدعو هذه العملية إلى التوقف بظهور العقل ، بالعكس فنحن نرى أنها «توحى أكثر من هذا بوجود خاصية تتجاوز العقل تربطها بالعقل علاقة تشبه العلاقة بين العقل والحياة أو بين الحياة والمادة وانى أسمى هذه الخاصية إلها ، وأن الذى يمتلك هذه الكينونة هو الله - ولهذا يبدو لى أن جميع الأشياء تشير إلى نشأة هذه الخاصية ، ولهذا السبب قلت إن العلم نفسه عندما يصبح

نظرية أوسع وأشمل يقتضى وجود إله» ، وهو يقول إن «العالم يسعى نحو أو يميل إلى وجود إله» ولكن «الكائن الإلهى فى طبيعته المتميزة لم يكن قد نشأ بعد فى هذه المرحلة من وجود العالم » .

وهو يضيف أن الله فى نظره «ليس خالقا مثلما جاء فى الأديان التاريخية ولكنه مخلوق » .

وهناك علاقة وثيقة بين أراء البروفيسور الكسندر وبين أفكار برجسون الخاصة بالتطور الخلاق . ويرى برجسون أن الجبرية مخطئة نظرا لظهور مستجدات حقيقية برزت أثناء عملية التطور وهى مستجدات لم يكن من الممكن التنبؤ بها سلفا أو حتى مجرد تصورها فهناك قوة غامضة تدفع كل شئ نحو التطور ، فعلى سبيل المثال نجد أن الحيوان العاجز عن الابصار يتمتع بقدرة صوفية على استشعار الرؤية ويتصرف على نحو يؤدى إلى تطوير العين ، وفى كل لحظة ينشأ شئ جديد ولكن الماضى لا يموت أبدا إذ أن الذاكرة تحتفظ به والنسيان لا يعدو أن يكون شيئا ظاهريا ، وهكذا يستمر العالم فى أن يصبح أكثر ثراء فى محتواه ويصير فى الوقت المناسب مكانا لطيفا للغاية للعيش فيه والشئ الجوهرى المطلوب هو تجنب الفهم intellect الذى يجمع بين الاستاتيكية والنظر إلى الخلف فى حين أن الحدس هو الشئ الذى يجب علينا استخدامه فهو يشتمل بداخله على الدافع إلى التجديد الخلاق ، ويجب علينا ألا نظن أن مثل هذا الرأى استند إلى أسباب

تدعونا إلى الاعتقاد بصحته فكل ما تقدم إلينا من أسباب لايخرج عن كونه شذرات متناثرة من علم الأحياء تعيد إلى أذهاننا ما قام به لا مارك . ويمكن اعتبار برجسون شاعرا يتجنب طبقا لمبادئه كل شئ قد يروق للفهم وحده intellect .

ولست أزعم أن البروفيسور الكسندر يقبل فلسفة برجسون فى مجملها ولكن هناك تشابها فيما يذهبان إليه من آراء رغم أن كلا منهما طور آراءه فى استقلال عن الآخر ، وعلى أية حال اتفقت نظرياتهما فى تأكيد الزمن وفى الاعتقاد بنشأة مستجدات لا سبيل إلى التنبؤ بها خلال عملية التطور .

وتصطدم الفلسفة القائمة على النشوء والتطور بعدة صعاب تجعل الإيمان بها أمرا لايبعث على الرضا ، وربما كان أهم هذه الصعاب - حتى تتفادى مذهب الحتمية - هو قولها باستحالة التنبؤ بوقوع أى شئ، ومع ذلك نرى أصحاب هذه النظرية يتنبأون بالوجود المستقبلى لله، وهذه الصعاب تشبه بالضبط وضع السمكة فى صدفتها التى يحدثنا عنها برجسون ، وهى سمكة تريد أن ترى رغم أنها لاتعرف ماهية الرؤية، والرأى عند البروفيسور الكسندر أن لدينا ادراكا غامضا بوجود إله ، نستشعر به من خلال بعض التجارب التى يصفها بأنها الخشوع لله ، وهو يقول عن الشعور الذى تتميز به هذه التجارب بأنه «الاحساس بوجود أسرار وبوجود شئ قد يبث الفزع فى نفوسنا أو قد

يكون داعما لاحساسنا بأنه ليس لنا حول أو قوة - ولكنه شئ يختلف عما تعرفه حواسنا أو أفكارنا » وهو لا يعطينا السبب الذى يدعوه لاضفاء أهمية على هذا الشعور أو لافتراضه - مثلما تتطلب نظريته هذا الافتراض أن التطور العقلى يبرز هذا الشعور ويجعل له دورا أكبر فى الحياة ، ولكن يمكن استنتاج عكس هذه تماما من نشاط علماء الانثروبولوچيا ، فالاحساس بوجود أسرار وبوجود قوة فوق إنسانية صديقة أو معادية تلعب دورا أكبر بكثير فى حياة الإنسان الهمجى عن حياة الإنسان المتحضر . وفى حقيقة الأمر إذا كان لنا أن نعتبر الدين مطابقا لهذا الشعور فإن كل خطوة يتخذها التطور الإنسانى المعروف تتضمن التقليل من شأن الدين ، ويكاد هذا ألا يتمشى مع المحاجاة التطورية المفترضة التى تقول بوجود إله ناشئ .

والمحاجاة على أية حال واهية بشكل غير عادى إذ يقال لنا أن هناك ثلاثة مراحل للتطور المادة والحياة والعقل ، وليس هناك سبب يدعونا إلى الافتراض أن العالم قد انتهى من التطور ، ومن ثم فإن المرء يفترض أنه من المحتمل أن تظهر مرحلة تطورية رابعة فى وقت لاحق تتلوها مراحل خامسة وسادسة الخ ، وهذا خلافا لما يراه الرأى السابق فى اكتمال التطور فى المرحلة الرابعة ، إن المادة لم يكن بامكانها التنبؤ بظهور الحياة كما أن الحياة لم يكن فى وسعها التنبؤ بظهور العقل ،

ولكن العقل يستطيع على نحو معتم أن يتنبأ بمقدم المرحلة التالية وخاصة إذا كان هذا العقل بدائيا ومن الواضح أن كل هذا لايعدو أن يكون مجرد تخمين قد يصدق وقد لا يصدق ، ولكن لايوجد سبب عقلانى يدعونا للافتراض بأنه سيصدق فعلا ، إن فلسفة النشؤ محقة تماما فى القول بأن المستقبل لايمكن التكهن به ، ولكن قولها هذا لا يمنع اتباعها من الاقدام الفورى على التنبؤ بالمستقبل . إن الناس غير مستعدين لنبذ كلمة «الله» ولكنهم على استعداد أكبر لنبذ الفكرة التى تمثلها حتى وقتنا الراهن كلمة الله ، والمؤمنون بمذهب التطور الناشئ اقتناعا منهم بأن الله لم يخلق العالم يكتفون بالقول إن العالم هو الذى يخلق الله ، ويكاد مثل هذا الآله ألا تكون بينه وبين ذلك الشئ الذى تضطلع العبادة التقليدية بتقديسه أية روابط مشتركة باستثناء اشتراكهما فى الاسم !

وعند النظر إلى الغاية الكونية بوجه عام نجد أنها - مهما أتخذت من أشكال تتعرض لنوعين من النقد ، ففى المقام الأول نرى أن المؤمنين بوجود غاية كونية يظنون دائما أن العالم سوف يستمر فى التطور فى نفس الاتجاه الذى سار فيه حتى وقتنا الراهن ، ثم أنهم فى المقام الثانى يعتقدون أن ما حدث بالفعل دليل على ما ينطوى عليه الكون من نوايا خيرة وطيبة ، ولكن هناك شكا فى صحة كل من هذين الاعتقادين .

والمحاجاة المتعلقة باتجاه التطور تستمد وجودها أساسا مما حدث على سطح الأرض منذ أن بدأت الحياة عليها ، ونحن الآن نعرف أن هذه الأرض تحتل ركنا ضيئلا للغاية من هذا الكون ، وهناك ما يدعو إلى الافتراض بأنها لا تمثل بقية الكون على الاطلاق ، فعالم الفلك السير جيمس جينز يعتقد أن وجود حياة في الوقت الحالي في بقية الكون أمر مشكوك فيه للغاية ، وقبل ثورة كوبر نيكوس الفلكية كان من الطبيعي أن يفترض أن غايات الله تنصب على الأرض بوجه خاص ، غير أن هذا أصبح الآن افتراضا يتجاوز المعقول ، ولو افترضنا أن تطوير العقل هو غاية الكون فيجب علينا حينئذ أن نعتبر أن الكون إلى حد ما يفتقر إلى الكفاءة لأن محصلة انتاجه ضئيلة بالمقارنة بالوقت الطويل الذى استغرقه هذا الانتاج . ويمكن بطبيعة الحال أن نرى في المستقبل في مكان ما في هذا الكون زيادة في العقل ولكننا لا نملك أي دليل علمي على هذه الإمكانية ، وقد يبدو غريبا أن تكون الحياة قد حدثت بالصدفة ولكن يمكن للمصادفات أن تحدث في كون في مثل هذا الاتساع .

وحتى إذا قبلنا الرأى الغريب بعض الشئ القائل بأن الهدف من الكون ينصب على كوكبنا الصغير بوجه خاص فإننا لانزال نجد ما يدعونا إلي الشك في أن الكون يهدف تماما إلى ما يزعم اللاهوتيون أنه الهدف منه ، ومن المحتمل (طالما أننا لانستخدم كميات من الغازات

السامة لتدمير جميع أشكال الحياة) أن تستمر الأرض مسكونة ومعمورة لفترة طويلة من الزمن ، ولكنها لن تبقى كذلك إلى الأبد ، ومن الجائز أن يتطاير الغلاف الجوى للأرض تدريجيا فى الفضاء ، ومن الجائز أن تحركات المد والجزر سوف تجعل الأرض توجه دائما أحد وجهيها إلى الشمس لدرجة أن نصف الكرة الأرضية سوف يصبح أسخن من اللازم ونصفها الآخر أبرد من اللازم ، ومن الجائز أن يتهاوى القمر ويسقط على الأرض (مثلما جاء فى الحكاية الأخلاقية التى ألفها ج . ب . س . هولدين) وإذا لم يحدث أى من هذه الأشياء فى مبدأ الأمر فسوف يتم تدميرنا جميعا على أية حال عندما تنفجر الشمس وتتحول إلى قزم أبيض بارد ، وهو ما سوف يحدث طبقا لقول جيمس جينز فى غضون مليون مليون سنة رغم أن التاريخ المضبوط لانطفاء الشمس لايزال إلى حد ما أمرا غير مؤكد .

إن انقضاء مليون مليون سنة سوف يعطينا الوقت للاستعداد لاستقبال هذه النهاية ، فضلا عن أننا قد نأمل فى نفس الوقت أن يحقق علم الفلك واطلاق المركبات الفضائية تقدما هائلا ، فالفلكيون قد يكتشفون كواكب أخرى صالحة للسكنى وقد يمكننا اطلاق المركبات الفضائية من الوصول إليها بسرعة تقترب من سرعة الضوء وفى مثل هذه الحالة فإن المسافرين الذين يبدأون رحلتهم فى سن الشباب قد

يصل البعض منهم قبل أن يموت من الشيخوخة ، ولعل هذا أمل واه وضعيف ولكن علينا أن نفيد منه ونتشبث به .

وعلى أية حال فإن الطواف حول الكون مهما تم بمهارة علمية شديدة ليس فى مقدوره إطالة الحياة إلى الأبد ، إن قانون الديناميكا الحرارية الثانى يخبرنا أن الطاقة بوجه عام تتحول من الأشكال الأكثر تركيزا إلى الأشكال الأقل تركيزا وأنها فى النهاية سوف تتحول إلى شكل يصبح من المحال أن يحدث فيه أى تغيير آخر وسوف تتوقف الحياة بعد أن يقع هذا وليس قبله ، ويضيف جيمس جينز قائلا : «الأكوان تشبه البشر الفانين ففيها نجد أن الحياة الممكنة الوحيدة تمهد الطريق إلى القبر» . ويقوده هذا إلى أفكار معينة وثيقة الصلة بموضوعنا . يقول جينز :

«إن الثلاثة قرون التى انقضت منذ استشهاد جيوردانو برونو بسبب إيمانه بوجود عوالم متعددة غيرت مفهومنا للكون تغييرا هائلا يكاد يتعذر علينا وصفه ، ولكن هذه القرون الثلاثة عجزت عن تقريبنا بدرجة كبيرة من فهم العلاقة بين الحياة والكون ، فنحن لانزال قادرين فقط على تخمين معنى هذه الحياة التى من الواضح أنها نادرة للغاية فى هذا الكون ، فهل هى الذروة النهائية التى تتجه إليها الخليقة بأسرها التى تكونت نتيجة استعدادات مسرفة أسرافا لا حد لها قوامها ملايين الملايين من سنوات التحول الذى يطرأ على مادة النجوم والسدم غير

المسكونة ؟ أم هل هى مجرد صدفة ، من الجائز أن تكون الحياة نتاجا ثانويا عديم الأهمية تماما لعمليات طبيعية لها غاية أخرى أشد روعة ، وإذا ما فكرنا على نحو أكثر تواضعا فهل يجب علينا اعتبارها شيئا شبيها فى طبيعته بالمرض الذى يؤثر على المادة فى شيخوختها عندما تفقد درجة حرارتها المرتفعة وقدرتها على توليد الاشعاعات ذات التردد العالى التى تتمكن بواسطتها المادة الأكثر شبابا وقوة ونشاطا من تدمير الحياة على الفور ؟ أو إذا صرفنا النظر عن التواضع فهل نتجرأ ونتخيل أنها الحقيقة الوحيدة التى خلقت الكتل الهائلة من النجوم والسدم وأفاق الزمن الفلكية الهائلة المديدة التى يكاد المرء أن يعجز عن تصورها بدلا من تكون من خلقها .»

وفى اعتقادى أن هذا الرأى يوضح البدائل التى يطرحها العلم توضيحا سليما وخاليا من التحيز ، والاحتمال الأخير أن العقل هو الحقيقة الوحيدة وأن هذا العقل هو الذى خلق المكان والزمان اللذين يحدثنا عنهما علم الفلك ، وهو احتمال هناك من الناحية المنطقية الكثير مما يقال فى الدفاع عنه ، لكن الذين يتبنون هذا الرأى أملا فى الهروب من النتائج الكئيبة لايدركون تماما ما ينطوى عليه ، إن كل شئ فى نطاق معرفتى هو على نحو مباشر جزء من عقلى ، والاستنتاجات التى أصل عن طريقها إلى وجود الأشياء الأخرى ليست استنتاجات قاطعة ، ولهذا قد لا يكون هناك وجود لغير العقل ، وفى هذه الحالة فإن الكون

سيندثر بموتى ، أما إذا اعترفت بوجود عقول أخرى غير عقلى فإنه يتعين علينا الاعتراف بكل الكون الذى يحدثنا عنه علم الفلك لأن الدليل فى كلتا الحالتين يتساوى تماما فى قوته ، ومن ثم فإن البديل الأخير الذى طرحه جينز ليس تلك النظرية القائلة بوجود عقول الآخرين دون وجود أجسامهم بل هذه النظرية القائلة بأننى وحيد فى عالم فارغ اخترع من نسج خيالى الخصيب وجود الجنس البشرى وعصور الأرض الچيولوچية والشمس والنجوم والسدم ، وبقدر ما أعرف لا توجد محاجاة منطقية سليمة بامكانها الوقوف فى وجه هذه النظرية ، ولكن هناك حقيقة فحواها أننا نستنتج دليلنا على وجود عقول الآخرين من دليلنا على وجود أجسامهم ، وهذا يمكننا من الاعتراض على أى شكل آخر من أشكال المذهب القائل بأن العقل هو الحقيقة الوحيدة وبناء عليه فإنه إذا كانت للآخرين عقول تكون لهم أجساد .

إن المرء بمفرده قد يكون عقلا بلا جسد هذا إذا كان يعيش وحده على الأرض .

والآن أصل إلى السؤال الأخير من نقاشنا حول الغاية الكونية : هل ما حدث فى الكون حتى الآن دليل على اتصافه بالخير والنوايا الطبية ؟ وكما سبق أن رأينا إن الاعتقاد بهذا يرجع إلى سبب زائف مفاده أن هذا الكون أنتجنا نحن البشر ، وهو أمر لا أستطيع انكاره ، ولكن هل نحن حقيقة بالروعة التى تبرر كل هذه الديباجة الطويلة ؟ إن الفلاسفة

يؤكدون القيم ، فهم يقولون أننا نعتقد أن أشياء معينة خيرة ، وبما أن هذه الأشياء خيرة يجب أن نكون نحن أخيارا جدا لأننا نفكر أن هذه الأشياء خيرة ، ولكن هذه محاجاة ليس لها بداية أو نهاية فكائن آخر غير الإنسان لديه قيم أخرى قد يرى أن قيمنا فظيعة لدرجة أنها تثبت أنها من وحي إبليس . أليس هناك شئ مضحك بعض الشيء في منظر البشر وهم يمسكون مرآة أمامهم ويظنون أن ما يرونه ممتازا لدرجة أنه يثبت أن الغاية الكونية لابد وأنها كانت تضع نصب عينيها طيلة الوقت خلق هؤلاء البشر ؟ ولماذا كل هذا التمجيد للإنسان على أية حال ؟ وماذا عن الأسود والنمور ؟ أنها تقتل عددا أقل من الحيوانات والآدميين عما نقتل . ثم إنهم يفوقننا بكثير في جمالهم ؟ وماذا عن النمل ؟ إن الدولة الشمولية التي يقيمها أنجح في دقة نظامها من أي نظام فاشستي ، أو ليس عالما من البلابل والطير المغرد المعروف باللارك والغزلان أفضل من عالمنا البشري القائم على القسوة والظلم والحرب ، إن المؤمنين بوجود غاية كونية يعلقون كثيرا من الأهمية على الذكاء المفترض في الإنسان ولكن كتاباتهم تجعلنا نشك في وجود هذا الذكاء ، ولو إني منحت القدرة على كل شئ وملايين السنوات أجرى فيها تجاربي فلست أظن لو أنني توجت مجهوداتي بخلق الإنسان لما كان في هذا ما يدعوني إلى الفخر .

إن الإنسان – وهو صدفة غريبة حدثت فى مكان مهمل – واضح ومفهوم فالخليط من الخير والشر الذى يتكون منه الإنسان يجعلنا نتوقع أن يكون قد نشأ بمحض الصدفة ، ولا يوجد سوى الرضا المروع عن الذات الذى يرى فى خلق الإنسان سببا يعتبره العليم بكل شئ باعثا قويا يدفع الخالق إلى خلق هذا الانسان . إن ثورة كوبرنيكوس لن تؤت ثمارها حتى يتلقى الإنسان درسا أكبر فى التواضع عما نراه فى الذين يظنون أن الإنسان دليل كاف على وجود غاية فى الكون .

الفصل التاسع

العلم والأخلاق

إن الذين يذهبون إلى عدم كفاية العلم على النحو الذي رأيناه في الفصلين الأخيرين يقيمون دعواهم على أساس أن العلم ليس لديه ما يقول بشأن القيم وإني أعترف بهذا ، ولكن إذا عن لامرىء أن يستدل على أن علم الأخلاق يحتوى على حقائق ليس من الممكن أثباتها أو دحضها فإني أختلف معه ، وليس من السهل بالمرة على المرء أن يفكر في هذا الموضوع بوضوح ، ورأيي في هذا الموضوع أصبح يغاير تماما ما كنت أراه منذ ثلاثين عاما ، غير أنه من الضرورى أن نفكر في هـــذا الأمر بوضوح إذا كنا نريد تقييم تلك المحاجات التى تستخدم للدفا ع عن وجود غاية وراء الكون ، وبما أنه لا يوجد اتفاق في الرأى بشأن علم الأخلاق فإنه من الواجب فهم ما يلي من آراء على أنها تعبير عن اعتقادى الخاص وليس تعبيرا عن كلمة العلم في هذا الموضوع .

إن دراسة علم الأخلاق - من الناحية التاريخية - تتكون من جزءين أحدهما يتعلق بقواعد الأخلاق والآخر يتعلق بما هو خير في حد ذاته

وتلعب قواعد السلوك (التى ينبع الكثير منها من الطقوس) دورا عظيما فى حياة الشعوب الهمجية والبدائية ، فمن المحرم على أى فرد من أفراد القبيلة أن يأكل من صحفة رئيس القبيلة أو يقوم بغلى الجدى فى لبن أمه من أنثى الماعز ، ومن ضمن الوصايا أن يقدم المرء للآلهة أضحيات كان يعتقد فى مرحلة معينة من مراحل التطور أنه من الأصلح أن تكون من البشر ، ولبعض هذه القواعد الأخلاقية فوائد اجتماعية واضحة مثل تحريم القتل والسرقة وقد استمرت هذه القواعد الاخلاقية حتى بعد اندثار النظم اللاهوتية البدائية التى كانت فى الأصل ترتبط بها ، ولكن كلما أوغل الإنسان فى الفكر نراه يميل بدرجة أقل إلى تأكيد القواعد والتركيز بدرجة أكبر على الحالة الذهنية ، ويرجع السبب فى هذا الى مصدرين هما الفلسفة والدين التصوفى فنحن جميعا نعرف تلك الأقوال التى وردت على لسان الأنبياء وفى الأناجيل حيث نرى نقاء القلب يتقدم اتباع الناموس بدقة ، ويعلمنا المديح المشهور الذى كاله القديس بولس على الخير أو الحب نفس المبدأ ، ونحن نجد نفس الشئ عند جميع المتصوفين العظام سواء كانوا مسيحيين أم غير مسيحيين .

وهم يعلقون الأهمية على حالة الإنسان الذهنية التى يقولون أن السلوك الحميد ينبع منها ، فالقواعد الأخلاقية تبدو فى نظرهم خارجية ولا تتوائم بالدرجة الكافية مع الظروف .

واحدى الطرق التي جعلت من الميسور الاستغناء عن الاعتماد على قواعد السلوك الخارجية هي الإيمان بوجود الضمير الذى كانت له أهمية وخاصة في علم الأخلاق عند طائفة البروتستانت ، وهذا يفترض أن الله يزرع فى قلب كل إنسان التمييز بين الصواب والخطأ ، فإذا أردنا تحاشى الوقوع فى الخطيئة فما علينا سوى الاستماع لأصواتنا الداخلية أى إلى أصوات ضمائرنا ، وعلى أية حال فهناك عقبتان تقفان فى وجه هذه النظرية أولاهما أن الضمير يقول أشياء مختلفة لمختلف الناس ، وثانيتهما أن دراسة اللاوعى أعطتنا مفتاحا لفهم الدوافع الدنيوية وراء ما تشعر به ضمائرنا .

ولتوضيح الاختلافات في أوامر الضمير ونواهيه نقول إن ضمير الملك چورچ الثالث أمره بحرمان الكاثوليك من الحرية الدينية لأنه لو وفر لهم هذه الحرية لكان بذلك يحنث بالقسم الذى أخذه على نفسه عند تنصيبه ملكا على البلاد ، ولكن الملوك الآخرين لم يجدوا فى توفير الحرية الدينية للكاثوليك أى انتهاك لضمائرهم . وضمير البعض يدين نهب الفقراء للأغنياء مثلما يدعو إلى ذلك الشيوعيون فى حين نرى آخرين يدينون استغلال الأغنياء للفقراء على نحو ما يفعل الرأسماليون والضمير يأمر إنسانا بضرورة الذود عن بلاده إذا تعرضت للغزو فى حين أن نفس الضمير يخبر إنسانا آخر بأن كل اشتراك فى الحرب ينطوى على الشر ، وفى خلال الحرب العالمية الأولى وجد الحكام الذين

لم يتوافروا على دراسة الأخلاق باستثناء عدد قليل منهم أن الضمير شئ محير للغاية الأمر الذى دعاهم إلى اتخاذ قرارات غريبة مثل القول بأنه بامكان الإنسان الامتناع عن القتال إذا كان ضميره مقتنعا بذلك . ولكن الحكام فى نفس الوقت لم يجدوا أية غضاضة فى السماح لمعترض الضمير أن يعمل فى الحقول بغية تمكينهم من تجنيد شخص آخر . هؤلاء الحكام رأوا أيضا أنه بينما يدين الضمير كافة الحروب فإنه ليس فى مقدوره إدانة الحرب الدائرة رحاها حينذاك حتى لايتهم بالغلواء والشطط ، أما هؤلاء الذين اعتقدوا لسبب أو لآخر أن الاشتراك فى الحرب خطأ فانهم اضطروا إلى التعبير عن موقفهم على أساس ذلك المفهوم البدائى وغير العلمى نوعا ما الذى يعرف بالضمير .

إن التنوع فى أوامر الضمير ونواهيه يصبح شيئا متوقعا حين نفهم أسبابها ففى مطلع حياتنا نرى أننا نرضى عن صنوف معينة من الأفعال ونسخط على صنوف أخرى منها ، وعن طريق تداعى الأفكار المعتادة تصبح اللذة والألم مرتبطتين بالتدريج بهذه الأفعال ولا يرتبطان بمجرد الرضا أو السخط الناتجين عن هذه الأفعال . وقد ننسى بمرور الوقت كل شئ يتصل بما مارسناه فى حياتنا الباكرة من تدريبات أخلاقية ، ورغم ذلك فسوف نستمر فى الشعور بالألم وعدم الارتياح بصدد بعض الأنواع المعينة من التصرفات ، فى حين أن بعض الأنواع

الأخرى يحيط بها وهج الفضيلة ، ويرى الإنسان المستبطن لنفسه أن هذه المشاعر غامضة نظرا لأنه لم يعد يتذكر الظروف التى نشأت هذه المشاعر في ظلها ، ولهذا فإنه من الطبيعي أن ننسب هذه المشاعر إلى صوت الله المحفور فى قلوبنا ، ولكن الضمير فى واقع الأمر نتاج التربية والتعليم ويمكن تشكيله عند السواء الأعظم فى الناس بحيث يشعر بالرضا أو السخط كما يرى رجال التربية والتعليم مناسبا ، ولهذا فبينما يكون من الصواب أن نرغب فى تحرير علم الأخلاق من التقيد بقواعد الأخلاق الخارجية فإننا نكاد ألا نستطيع تحقيق ذلك عن طريق الاستمساك بفكرة الضمير .

أما الفلاسفة فقد توصلوا باتباع طريق أخر إلى وضع مختلف تصبح فيه أيضا قواعد السلوك الأخلاقي في مرتبة أدنى ، وقام هؤلاء الفلاسفة بصياغة مفهوم الخير الذى يعني عموما فى نظرهم ذلك الشئ في حد ذاته وبغض النظر عن عواقبه الذى ينبغي أن نراه موجودا . إن معظم الناس يتفقون على تفضيل السعادة على الشقاء والصداقة على العداوة الخ .. وطبقا لوجهة النظر هذه نجد أن القواعد الأخلاقية لها ما يبررها إذا كانت ستزيد من رقعة الخير وليس التضييق من هذه الرقعة ، وفي معظم الحالات يمكننا تبرير تحريم القتل بما يحدثه هذا التحريم من نتائج ، ولكنه لا يمكن تبرير ممارسة حرق الأرامل على نعوش

أزواجهم عندما تصيبهم المنية . ومن ثم فإنه ينبغي الاحتفاظ بالقاعدة الأولى التي تحرم القتل ولا ينبغى الاحتفاظ بالقاعدة الثانية التى تأمر باحراق الأرامل ، وعلى أية حال هناك بعض الاستثناءات حتى فى حالة أفضل القواعد الأخلاقية لأنه لا يوجد صنف من الأفعال يترك دائما نتائج سيئة ، ولهذا فإن هناك ثلاثة معانى مختلفة يمكن لأى فعل من الأفعال بفضلها أن يحظى بالمدح والثناء .

(١) اتفاق هذا الفعل مع المفاهيم الأخلاقية السائدة .

(٢) الاعتقاد المخلص بأن النية من وراء الفعل هى إحداث النتائج الطيبة .

(٣) أن الفعل قد يكون له فى واقع الأمر آثار طيبة ، والمعنى الثالث على كل حال مستهجن فى مجال الأخلاق فطبقا للاهوت المسيحى التقليدى نجد أن خيانة يهوذا للمسيح كانت لها عواقب طيبة لأن هذه الخيانة كانت ضرورية كى يفدى المسيح البشرية . ولكن بالرغم من هذا فإنه تصرف يهوذا ليس بالتصرف الممدوح .

وللفلاسفة المختلفين مفاهيم مختلفة عن الخير ، فالبعض يعتقد أن الخير يتلخص في معرفة الله ومحبته ، والبعض الآخر يرى أنه يتلخص فى الحب الكونى الشامل ويؤمن آخرون بأن الخير يكمن فى الاستمتاع بالجمال في حين يؤمن فريق آخر بأنه يكمن فى اللذة

وبمجرد تحديد مفهوم الخير يصبح علم الأخلاق مترتبا عليه بحيث يصير من اللازم أن نتصرف على نحو نعتقد أنه أقدر ما يكون على خلق أكبر قدر ممكن من الخير وأقل قدر ممكن من الشر الناجم عنه ، وطالما أننا أفترضنا أننا نعنى المعنى النهائى للخير فإن صياغة القواعد الأخلاقية تصبح مجالا للاستقصاء العلمى ، مثل طرح القضية التالية : هل ينبغى فرض عقوبة الإعدام على السرقة أم ينبغى قصرها على القتل فقط أم أنه من المستحسن إلغاؤها ؟ إن الفيلسوف جيرمى بنثام الذى أعتبر أن الخير هو الحصول على اللذة كرس وقته للوصول إلى نوع من قانون العقوبات كفيل بتحقيق أكبر قدر من اللذة وخلص إلى ضرورة جعله أقل قسوة من القانون السائد فى يومنا الراهن ، وكل هذا يدخل فى نطاق العلم باستثناء القول بأن الخير هو اجتناء اللذة .

ولكن عندما نحاول أن نتحرى وجه الدقة والتحديد بشأن ما نعنيه حين نذكر أن هذا الشئ أو ذاك هو «الخير» فنحن نجد أنفسنا فى مواجهة صعوبات كأداء للغاية ، لقد أثارت عقيدة بنثام المؤمنة بأن الخير هو اللذة اعتراضا يتسم بالغضب العاصف . وقيل عن هذه الفلسفة إنها فلسفة خنزير . ولم يتمكن بنثام أو معارضوه من التقدم بمحاجاة فاصلة فى هذا الشأن ، أما فى القضايا العلمية فنحن نرى الجانبين المتنازعين يسوقان الأدلة على سلامة وجهة نظرهما ، وفى النهاية يتضح أن أحد هذين الجانبين يتمتع بمصداقية أكبر من الآخر ،

أو تبقى القضية غير محسومة إذا لم يتمكن الجانبان من أن يسوقا الدليل على صحة هذا أو ذاك الرأى ، ولكننا لا نستطيع إقامة الدليل أو ننقضه فيما يتعلق بصحة القول بأن هذا أو ذاك هو الخير النهائى إذ أن كل متنازع يستطيع فقط أن يحتكم إلى مشاعره الخاصة ويلجأ إلى استخدام تلك الحيل البلاغية القادرة على إثاره مشاعر الآخرين .

ولنأخذ على سبيل المثال مسألة أصبحت مهمة فى مجال السياسة العملية فقد ذهب بنثام إلى أن اللذة التى يشعر بها شخص لها نفس الأهمية الأخلاقية للذة التى يشعر بها شخص آخر بشرط أن يكون مقدار اللذة فى الحالتين متساويا ، وبناء عليه دافع بنثام عن الديمقراطية . وعلى النقيض من ذلك أمن نيتشه بأن الرجل العظيم فقط هو الذى نستطيع اعتباره مهما فى حد ذاته وأن السواد الأعظم من البشر مجرد أدوات يستخدمها الرجل العظيم لتحقيق سعادته ، وكانت نظرة نيتشه إلى البشر العاديين مثل نظرة كثير من الناس إلى الحيوانات ، فقد رأى أن هناك ما يبرر استغلالهم ليس لمصلحتهم ولكن لمصلحة السوبر مان ، ومنذ ذلك الحين وفريق من الناس يسوقون هذا لتبرير نبذهم للديموقراطية ، وهنا نجد خلافا حادا له أهمية عملية كبيرة غير أنه ليس لدينا بأى حال من الأحوال وسيلة علمية أو فكرية يتمكن بها طرف من اقناع الطرف الآخر بصحة ما يذهب إليه ، صحيح أن

هناك طرقا لتغيير أفكار الناس حول هذه الموضوعات ولكنها جميعا طرق عاطفية وليست فكرية .

والمسائل المرتبطة بالقيم - أي المرتبطة بما هو خير أو شر في حد ذاته بغض النظر عن نتائجه - تقع خارج نطاق العلم كما يؤكد ذلك بشدة المدافعون عن الدين . وأظن أنهم على حق في هذا الشأن . ولكني استخلص نتيجة أخرى مترتبة على ذلك مفادها أن القيم تقع تماما خارج نطاق المعرفة ، ومعنى هذا أننا عندما نؤكد أن هذا الشئ أو ذاك له قيمة فإننا نعبر عن عواطفنا الذاتية ولا نعبر عن حقيقة تتسم بالسلامة والصدق حتى لو كانت مشاعرنا الشخصية مختلفة . وكي نوضح هذا يجب أن نحاول تحليل مفهوم الخير .

وبادئ ذي بدء من الواضح أن فكرة الخير والشر بأسرها يربطها شئ من العلاقة برغبات البشر ، وكما يبدو للوهلة الأولى فإن أي شئ نجتمع على الرغبة فيه شئ حميد في حين أننا نعتبر أي شئ نخشاه جميعا شيئا ذميما . ولو أننا جميعا أتفقنا في رغباتنا لما كانت هناك مشكلة ولكن رغباتنا لسوء الحظ متعارضة ، فإذا أنا قلت : « الذي أريده شئ حميد سوف يرد عليّ جاري بقوله لا ، بل ما أريده أنا وليس ما تريده أنت » وعلم الأخلاق ليس إلا محاولة - رغم أنها في رأيي محاولة غير ناجحة - للهروب من الذاتية وسوف أحاول بطبيعة الحال في خلافي مع جاري أن أبين أن رغباتي تتسم بخصيصة تجعل منها شيئا

أجدر بالاحترام من رغباته ، ولو أنى أردت المحافظة على حقى فى التنزه فى حقول غيرى من الناس فسوف أوجه كلامى إلى سكان المنطقة ممن لا يملكون أرضا أو حقولا ، فى حين أن جارى الذى يعارضنى فى الرأى سوف يوجه خطابه إلى أصحاب الأراضى والحقول ، أنني سأقول : « ما فائدة جمال الريف إذا لم يكن هناك من يرى هذا الجمال؟» وسوف يرد علىَّ جارى بقوله : «أى جمال سيبقى لو سمح لكل متنزه أن ينشر الخراب ؟» وسوف يسعى كل واحد منا أن يضم إلى جانبه الأنصار مبينا أن رغباته الشخصية تنسجم مع رغبات الآخرين ، ولكن الأمر يختلف فى حالة حرامى المنازل ، فعندما يتبين سارق المنازل استحالة اكتساب انصار له فإن الرأى العام سوف يقوم بادانته واعتباره خاطئا على الصعيد الأخلاقى .

وهناك صلة وثيقة بين علم الأخلاق والسياسة ، فعلم الأخلاق عبارة عن محاولة لجعل الرغبات الجماعية لدى جماعة من الناس تؤثر فى الأفراد أو أنها بالعكس محاولة من جانب فرد كي يجعل رغباته تسود المجتمع الذى ينتمى اليه . وبطبيعة الحال نجد أن الوضع الثانى ممكن فقط فى حالة ألا تكون رغباته متعارضة بشكل واضح مع المصلحة العامة ، فمن العسير على الحرامى أقناع الناس بأنه يعمل لصالحهم رغم أن الذين يصلون إلى الحكم عن طريق الثروة والجاه يحاولون ذلك وينجحون فى معظم الأحيان . وعندما نرغب فى أشياء نستطيع جميعا

الاشتراك فى الاستمتاع بها فإنه يبدو من المعقول أن نأمل فى الحصول على موافقة الآخرين على ما نرغب ، وهكذا يبدو للفيلسوف الذى يقدر الحق والخير والجمال أنه لايعبر فقط عن رغباته الشخصية ولكنه يرسم طريق السعادة لكل البشر . وهو – على خلاف الحرامى – قادر على الاعتقاد بأن رغباته تهدف إلى شئ له قيمته العامة ، إن علم الأخلاق محاولة لاضفاء الأهمية العامة وليس مجرد الأهمية الشخصية على جانب معين من رغباتنا ، وإنى استخدم عبارة جانب معين من رغباتنا نظرا لأنه من الواضح أنه يستحيل أن ينطبق هذا على بعض رغباتنا كما شاهدنا فى حالة الحرامى ، فالإنسان الذى يجمع ثروة من المضاربة فى البورصة عن طريق معرفته ببعض أسرارها لا يرغب فى أن يشاركه الآخرون فى هذه المعرفة . والحقيقة – بقدر ما تحظى بتقديره – تصبح فى نظره ملكا خاصا به ، وليس الخير الإنسانى العام الذى يسعى الفيلسوف إلى تحقيقه . صحيح أن الفيلسوف قد يهبط إلى مستوى سمسار البورصة مثلما يحدث عندما يزعم هذا الفيلسوف أنه المكتشف الأول لاكتشاف ما ، ولكن هذا مجرد انتكاسة تصيب الفيلسوف، ففى قدراته الفلسفية الخالصة نراه يريد فقط الاستمتاع بتأمل الحقيقة . وهو فى تأمله للحقيقة لا يزاحم الآخرين الذين يرغبون مثله فى تأملها أو يحول بينهم وبين ذلك .

ويمكننا أن نعـالج ما يبدو أنه إضفاء الأهمية على رغباتنا - وهو الشغل الشاغل لعلم الأخلاق - من وجهتين من وجهات النظر : من وجهة نظر المشرع ووجهة نظر الواعظ ولنبدأ بوجهة نظر المشرع .

سوف افترض جدلا أن المشرع لا يفكر في مصلحته بمعنى أنه إذا اكتشف أن احدى رغباته تتصل بسعادية الشخصية وليس سعادة الآخرين فإنه لايدع هذه الرغبة تؤثر عليه في استنان القوانين . وهو على سبيل المثال لا يستن قانونا يهدف من ورائه إلى زيادة ثروته الشخصية . ولكن للمشرع رغبات أخرى تبدو في نظره غير شخصية فهو قد يؤمن بنظام اجتماعي هرمي يعتلي الملك قمته ويفترش الفلاح سفحه أو بنظام يبدأ بصاحب المنجم وينتهي بالسود من العمال ، وقد يؤمن بأنه ينبغي على النساء الخضوع للرجال ، وقد يرى أن انتشار المعرفة بين الطبقات الدنيا أمر ينطوي على الخطر الخ .. الخ .. عندئذ سوف نراه يسعى ما وسعه السعي إلى صياغة القانون بحيث يكون السلوك المؤدي إلى تحقيق غايته التي يكن لها الاحترام والتقدير متمشيا مع مصلحة الفرد الذاتية ، وسوف يقيم نظاما للتعليم الأخلاقي من شأنه إذا نجح أن يجعل الناس يشعرون بأنهم أشرار لأنهم يسعون إلى تحقيق أهداف تختلف عن أهداف هذا

المشــرع (١) وهكذا تصبح الفضيلة ، في واقع الأمر وليس في تقدير الأمور على نحو ذاتي خاضعة لرغبات المشرع بقدر ما يعتبر هذا المشرع هذه الرغبات جديرة بالتعميم.

وبالضرورة يختلف موقف وأسلوب الواعظ بعض الشئ عن موقف المشرع لأن الواعظ لايسيطر على آلة الدولة ، ومن ثم لايستطيع خلق انسجام مصطنع بين رغباته ورغبات الآخرين وطريقته الوحيدة تتلخص في سعيه إلى أن يثير في الآخرين نفس الرغبات التي يشعر بنفسه بها، وللوصول إلى هذا الهدف فلابد له من مخاطبة العواطف ، وهكذا فعل الأديب الانجليزي راسكين عندما جعل الناس يحبون العمارة القوطية ليس عن طريق استخدام الحجج ولكن عن طريق كتاباته النثرية الموسيقية التي تحرك العواطف . وأسهمت رواية «كوخ العم توم» في جعل الناس يفكرون أن العبودية شر وذلك عن طريق جعلهم يتخيلون

---

(١) قارن النصيحة التالية التي يزجيها معاصر لأرسطو (من الصينيين وليس من الاغريق) : « ينبغي علي المشرع أن يتجاهل أولئك الذين يؤمنون بحق الناس في أن تكون لهم أراؤهم الخاصة بهم وبأهمية الفرد . مثل هذه التعاليم تجعل الناس يلوذون بالأماكن الهادئة ويختبأون في الكهوف وأعلى الجبال حيث يسخرون من الحكم السائد ويهزأون بأصحاب السلطة ويقللون من أهمية الرتب والترقيات ويحتقرون كل من يحتلون الوظائف الرسمية » (أنظر والي في كتابة «الطريق وقوته» (ص ٣٧) .

أنفسهم فى نفس وضع العبيد . وكل محاولة لاقناع الناس بأن هذا خير وذاك شر فى حد ذاتهما وليس لمجرد ما يتركان من نتائج ويخلفان من آثار تعتمد على فن استثارة العواطف وليس عن طريق الاستناد إلى دليل . ونحن نجد فى كل الحالات أن مهارة الواعظ تكمن فى قدرته على نقل مشاعره الخاصة إلى الآخرين . أو إذا كان هذا الواعظ منافقا نجد أن قدرته تكمن فى جعل الآخرين يشعرون بمشاعر تختلف عن مشاعره الحقيقية . ولست أقول هذا رغبة منى فى توجيه النقد إلى الواعظ ولكن لتحليل الخصيصة الجوهرية التى يتميز بها نشاطه.

وعندما يقول انسان «هذا طيب فى حد ذاته» فإنه يستخدم فى الظاهر أسلوبا تقريريا مثل قوله «هذا مربع» و «هذا حلوالمذاق» ولكنى أعتقد أن هذا خطأ وأرى أن ما يعنيه هذا الانسان فى حقيقة الأمر هو «أتمنى أن يرغب كل انسان فيما أرغب» أو ياليت كل انسان يرغب فيما أرغب ، وإذا تم تفسير قوله على أنه بيان حالة أو تقرير واقع فإنه يصبح مجرد تأكيد لأمنيته الشخصية . ولكن على العكس من ذلك إذا فسر بطريقة عامة فإنه فى هذه الحالة لا يقرر شيئا بل يصبح مجرد تعبير عن الرغبة فى شيء . والتمنى مسألة شخصية ولكن الرغبة التى يرنو إلى تحقيقها هذا التمنى تتسم بالعمومية والشمول . والرأى عندى أن هذا التلاحم الغريب بين الخاص والعام هو الذى خلق كثيرا من الاضطراب فى علم الأخلاق .

وقد يتضح الأمر أكثر إذا بينا التضاد بين العبارة الأخلاقية والعبارة التقريرية . فإذا قلت «كل الصينيين بوذيون» فإنه يمكن دحض ما أقول عن طريق الإشارة إلى صيني يدين بالمسيحية أو الاسلام لكني إذا قلت (اعتقد أن كل الصينيين بوذيون) فإنه لا يمكن دحض ما أقول عن طريق الاستناد إلى دليل مستمد من الصين ولكن يمكن دحضه فقط عن طريق ابراز الدليل على أني لست مؤمنا بما أقول لأن ما أؤكده ليس سوى تعبير عن حالتي الذهنية . وإذا قال فيلسوف الآن «الجمال شيء طيب» فانه بإمكاني تفسير هذا على واحد من معنيين أولهما «ياليت كل انسان يحب ما هو جميل» (الذي يناظر القول بأن «كل الصينيين بوذيون») أو «أتمنى أن كل انسان يحب ما هو جميل» (الذي يناظر «أعتقد أن كل الصينين بوذيون») . والعبارة الأولي لاتؤكد شيئا ولكنها تعبر عن رغبة . ولأنها لاتؤكد شيئا فإنه يستحيل من الناحية المنطقية الدفاع عنها أو الهجوم عليها أو أن يقوم الدليل علي صحتها أو زيفها . أما العبارة الثانية فبدلا من أن تكون مجرد صيغة للاعراب عن التمني تقرر واقعا ولكنه واقع يتصل بحالة الفيلسوف الذهنية . ويمكن فقط دحضها عن طريق ابراز الدليل على أن هذا الفيلسوف ليست لديه الرغبة التي ينسبها إلى نفسه . وهذه العبارة الثانية لاتنتمي إلى علم الأخلاق ولكنها تنتمي إلى علم النفس أو إلى سيرة الحياة (البيوجرافيا)

. أما العبارة الأولى التي تنتمي إلى علم الأخلاق فتعبر عن الرغبة في شيء دون أن نؤكد شيئا .

وإذا كان هذا التحليل السابق سليما فإن علم الأخلاق لايحتوى على بيان حالة سواء كان صادقا أم كاذبا . ولكنه يتكون من رغبات من نوع عام معين هو ذلك النوع من البيان الذى يهتم برغبات البشر جميعا ويهتم بالآلهة والملائكة والشياطين إذا كان لها وجود . وبامكان العلم مناقشة أسباب الرغبات وطرق تحقيقها ولكن لا يمكنه أن يحتوى على أية عبارات أخلاقية حقيقية وخالصة لأنه يعني باستقصاء ما هو حقيقى وماهو زائف .

إن النظرية التى أتولى الدفاع عنها شكل من أشكال المذهب الذى يعرف بذاتية القيم . ويتلخص هذا المذهب فى القول إنه إذا اختلف شخصان حول القيم فإن الخلاف بينهما لايتعلق بأى نوع من أنواع الحقيقة ، ولكنه أختلاف فى الذوق . وإذا قال انسان «حيوان الصدف طعام شهى» فنحن فى هذه الحالة ندرك أنه ليس هناك ما نتجادل بشأنه أو نتناقش حوله . والنظرية التى أناقشها تذهب إلى أن كافة الخلافات حول القيم هى من هذا النوع رغم أنه من الطبيعى ألا نظن كذلك عندما نعرض لاشياء تبدو لنا أكثر سموا ورقيا من حيوان الصدف . والأساس الرئيسى الذى أبنى عليه اعتناقى هذا الرأى الاستحالة المطلقة فى إيجاد أية محاجاة من شأنها أن هذا الرأى أو

ذاك له قيمة نابعة من داخله . وإذا حدث وأن أجمعنا على رأى واحد فيمكننا القول بأننا ندرك القيم عن طريق الحدس . ونحن لانستطيع أن نثبت لشخص مصاب بعمى الألوان أن الحشائش خضراء وليست حمراء . ولكن هناك طرقا مختلفة نثبت بها له أنه يفتقر إلى القدرة على التمييز التى تتوافر لدى معظم الناس بينما لاتوجد مثل هذه الطرق فى حالة القيم . كما أن الخلافات فى الرأى تتكرر بكثرة فى الحكم على القيم عما هو الحال مع الألوان . وحيث أنه لايمكننا أن نتخيل طريقة نحسم بها الخلاف حول القيم فإنه يتبع ذلك نتيجة تفرض نفسها علينا فحواها أن الخلاف خلاف فى الذوق وليس خلافا متعلقا بالحقيقة الموضوعية .

والنتائج المترتبة على هذا المذهب هائلة . ففى المقام الأول ليس هناك شىء اسمه الخطيئة بأى معنى مطلق فالذى يسميه شخص رذيلة يسميه شخص آخر فضيلة ، ورغم أن كلا الشخصين يحملان الكراهية الواحد منهما للآخر بسبب مانشب بينهما من خلاف فليس فى مقدور أى منهما أن يصم الآخر بالخطأ الفكرى . ولا يمكن تبرير عقاب المجرم على أساس أنه شرير ، ولكن فقط على أساس أنه تصرف على نحو لايرغب فيه الآخرون . وهكذا يصبح الجحيم كمكان لمعاقبة الخطاة أمرا غير عقلانى تماما .

وفى المقام الثانى يستحيل الدفاع عن أسلوب الحديث عن القيم الشائع بين الذين يعتقدون بوجود غاية من وراء هذا الكون . وتتلخص المحاجاة التى يسوقونها فى أن بعض الأشياء المعينة التى تطورت تتسم بالخير ، ومن ثم فإن العالم لابد وأن يكون وراءه غاية تدعو إلى الاعجاب من الناحية الأخلاقية . وإذا استخدمنا لغة القيم الذاتية فإننا نطالع هذا على النحوالتالى «بعض الأشياء فى العالم تروق لنا . ولهذا فلا بد من أن يكون كائن بنفس أذواقنا هو الذى قام بخلقها . ومن ثم فإنه بالتالى خالق يتسم بالخير. ويبدو الآن أنه يكاد يكون من الواضح أنه إذا كان للمخلوقات بما تحب أو تكره أن يكون لها وجود فى هذه الحياة فمن المؤكد أنها سوف تحب بعض الأشياء الموجودة فى بيئتها لأنها إن لم تفعل ذلك فسوف تجد الحياة لا تطاق . إن قيمنا تطورت مع بقية الأشياء المكونة لنا . وليس هناك شيء يتعلق بالهدف الأصلى يمكننا الاستدلال عليه من كون هذه القيم على ما هى عليه . أما الذين يؤمنون بالقيم الموضوعية فيحتجون فى الغالب بأن الرأى الذى أدافع عنه يفضى إلى الانحلال وانتفاء الأخلاق الحميدة .. ويبدو لى أن هذا نتيجة تورطنا فى الاستدلال الخاطئ . هناك كما أسلفنا عواقب أخلاقية معينة تستتبع الإيمان بمذهب القيم الذاتية على رأسها نبذ كل العقوبات القائمة على التشفى والانتقام وكذلك نبذ فكرة الخطيئة ، ولكن ليس من المنطق فى شئ أن نستدل من ذلك على

ظهور العواقب الأعم التى يخشاها المرء مثل انهيار احساسنا بكافة الالتزامات الأخلاقية . فالالتزام الأخلاقى - إذا كان له أن يؤثر فى السلوك - لابد وأنه لا يتكون من مجرد الاعتقاد بل أن يتكون من الرغبة . وقد يرد على هذا قائل بقوله إن الرغبة التى تتحرك فينا هى الرغبة فى أن نكون «أخيارا» بالمعنى الذى لم أعد أقبل السماح به . ولكننا عندما نقوم بتحليل الرغبة فى أن نكون «أخيارا» فإنه يتضح لنا فى الغالب الأعم أنها لا تعدو أن تكون رغبة فى الحصول على رضاء المجتمع علينا أو كبديل لهذا أن نتصرف على نحو قمين بأن تنجم عنه بعض العواقب العامة المعينة التى نرغب فيها . والبشر لديهم تمنيات ليست شخصية تماما . ولولا هذا لما أمكن لأى قدر من التعليم الأخلاقى أن يؤثر فى سلوكنا إلا عن طريق خوفنا من إثارة سخط المجتمع علينا . ونوع الحياة التى يبدى معظمنا اعجابا بها هو ذلك النوع الذى يسترشد بالرغبات الكبيرة العامة وغير الشخصية . وبكل تأكيد من المكن تشجيع مثل هذه الرغبات عن طريق القدوة والتربية والمعرفة . ولكن من العسير خلقها عن طريق مجرد الإيمان المجرد بأنها رغبات طيبة . كما أنه لا يمكن أن يكون تحليل معنى كلمة «الخير» سببا فى استبعاد مثل هذه الرغبات الطيبة من حياتنا .

وعندما نتأمل الجنس البشرى فإننا قد نرغب له السعادة أو الصحة أو الذكاء أو القدرة على القتال . إلخ .. وإذا اشتدت أى من هذه الرغبات فإنها قمينة بتوليد الأخلاق الخاصة بها . ولكننا إذا افتقرنا إلى مثل هذه الرغبات العامة فمهما كانت أفكارنا الأخلاقية فسوف يخدم سلوكنا فقط الأهداف الاجتماعية بقدر ما يكون هناك من انسجام بين مصلحة الفرد ومصلحة الجماعة . إن وظيفة المؤسسات الحكيمة هي خلق مثل هذا الانسجام بقدر المستطاع . وفيما عدا هذا - فمهما كان تعريفنا النظري للقيم - فإنه يجب علينا الاعتماد على وجود رغبات عامة وغير شخصية . وعندما تقابل شخصا تختلف معه من الناحية الاخلاقية اختلافا جوهريا فسوف تجد نفسك عاجزا عن التعامل معه لا فرق فى ذلك إذا كنت مؤمنا بالقيم الموضوعية أم لا . ومثال ذلك إذا كنت ترى أن كل البشر سواسية في حين يرى معارضك أن طبقة اجتماعية بعينها هى المهمة . وفى كلتا الحالتين أنت لا تستطيع التأثير فى سلوكه إلا عن طريق التأثير فى رغباته . فإذا أفلحت فى ذلك فسوف تتغير نظرته الأخلاقية وإذا أخفقت فسوف لا تتغير هذه النظرة . ولو لم تكن المسألة كذلك لما أمكن لأية نظرية أخلاقية أن تجعل التحسن الأخلاقى أمرا ممكنا . ويمكننا دفع البشر - أكثر مما يفعلون فى الوقت الحالى - إلي التصرف على نحو يتناغم

مع سعادة البشر العامة . وفى حقيقة الأمر فإن هذا لا يتم عن طريق النظريات الأخلاقية ولكن عن طريق غرس الرغبات العريضة الكريمة من خلال الذكاء والسعادة والتحرر من الخوف . وأيا كان تعريفنا «للخير» . سواء كنا نعتقد أنه ذاتى أو موضوعى فإن الذين لا يرغبون فى إسعاد البشر لن يحاولوا توسيع رقعة هذا الخير فى حين أن الذين يرغبون فيه سوف يبذلون قصارى جهدهم لتحقيقه .

وفى الختام أقول بينما أنه صحيح أن العلم لا يستطيع أن يحسم مشكلة القيم لأنها مشكلة يعجز الفكر تماما عن حسمها ولأنها تكمن خارج نطاق ما هو حقيقى وما هو زائف فإنه لابد لنا من استخدام الوسائل العلمية لاكتساب أى نوع من أنواع المعرفة . إن الذى يعجز العلم عن اكتشافه لا يستطيع البشر معرفته .

الفصل العاشر

خاتمة

تتبعنا في الصفحات السابقة على نحو موجز بعض الصراعات التي نشبت بين علماء اللاهوت ورجال العلم خلال الأربعة قرون الماضية . وحاولنا تقييم أثر العلم في يومنا الراهن في اللاهوت الحالي . وشاهدنا كيف أنه منذ كوبرنيكوس كان النصر حليف العلم في كل مرة اختلف العلم مع اللاهوت . ورأينا أيضا كيف أن العلم انتصر للتخفيف من عذاب البشر وويلاتهم في المسائل العملية مثل السحر والطب في حين أن اللاهوت أبرز وحشية الإنسان الطبيعية وشجعها على النماء . وعلى نقيض النظرة اللاهوتية كان انتشار النظرة العلمية حتى يومنا هذا سببا دون منازع في تحقيق السعادة للبشر .

وعلى أية حال فإن القضية الآن تدخل مرحلة جديدة تماما . ويرجع هذا إلى سببين أولهما أن التقنية العلمية أصبحت أكثر أهمية في نتائجها من المزاج العقلي العلمي الذي يتصف به العلماء . وثانيا أن أديانا جديدة أصبحت تحل محل المسيحية

وترتكب نفس الأخطاء التي سبق للمسيحية أن ارتكبتها ثم ندمت عليها .

إن المزاج العقلي العلمي يتسم بالحرص والحذر فهو لا يقطع بشئ ويخطو إلى الأمام خطوة بخطوة . وهو لا يزعم أنه يعرف الحقيقة بأكملها أو حتى يتخيل أن أفضل ما يتوصل إليه من معرفة صائب صوابا كاملا . وهو يعرف أن كل مذهب يحتاج إلى التعديلات السريعة أو اللاحقة وأن التعديل اللازم يتطلب حرية الاستقصاء والنقاش . ولكن ظهرت إلى الوجود التقنية العلمية المستمدة من العلم النظري . وهذه التقنية العلمية لا تتميز بما تتميز به النظرية من امتناع عن اتخاذ رأى قاطع . لقد أحدثت النظرية النسبية والنظرية الكمية ثورة فى القرن الحالى . ولكن جميع المخترعات القائمة على الفيزياء القديمة لا تزال قادرة على أن تبعث الرضا عنها . فتطبيق الكهرباء فى مجال الصناعة وفى الحياة اليومية بما فيها من منشآت مثل محطات توليد القوى والبث الإذاعى وضوء المصابيح الكهربائية يقوم على تطبيق أبحاث كلارك ماكسويل الذى سبق أن نشرها منذ أكثر من ستين عاما . ولم يمنى أى من هذه الاختراعات بالفشل رغم أن ماكسويل كما نعرف أتخذ فى كثير من النواحى آراء غير سليمة . وهكذا نجد أن الخبراء

العمليين الذين يستخدمون التقنية العلمية (وأكثر من ذلك الحكومات والشركات الكبرى التى تستخدم الخبراء العمليين) يكتسبون مزاجا عقليا يختلف تماما عن مزاج العلماء فمزاج هؤلاء الخبراء يمتلئ بالإحساس بالقوة التى ليس لها حدود وباليقين الصلف المغرور واللذة القائمة حتى على استغلال المادة البشرية نفسها. وهذا يتعارض تماما مع المزاج العقلى العلمي . ومع ذلك فنحن لا نستطيع أن ننكر أن العلم أسهم فى تصاعد هذا الإحساس . وكذلك نلاحظ أن الآثار المباشرة الناجمة على التقنية العلمية لم تكن بحال من الأحوال مفيدة تماما . فهى من ناحية زادت قدرة أسلحة الحرب على الفتك والدمار كما أنها زادت من حجم السكان الذين يمكن تحويلهم من صناعة السلام إلى صناعة الحرب وانتاج الذخيرة . فضلا عن أن هذه الآثار جعلت من الصعب للغاية على النظام الاقتصادى القديم القائم على الندرة الانتاجية أن يؤدى عمله وذلك بسبب زيادتها لانتاجية العامل كما أنها تسببت فى اهتزاز موازين الحضارات القديمة عن طريق الآثار المترتبة على الأفكار الجديدة فدفعت الصين إلى الابتلاء بالفوضى واليابان إلى الاقتداء بالغرب فى اتباع سياسة استعمارية لا ترحم . فضلا عن أنها دفعت روسيا إلى أن تحاول بعنف إقامة نظام اقتصادى جديد وألمانيا إلى أن تحاول بعنف الحفاظ على نظام

اقتصادى قديم . وجميع هذه الشرور التى يعانى منها زماننا ترجع إلى حد ما إلى القضية العلمية . ومن ثم فهى ترجع فى نهاية الأمر إلى العلم .

إن الحرب بين العلم واللاهوت كادت أن تنتهى . ولكن هذا لم يمنع دون اندلاع المناوشات بين حين وآخر فى المناطق الواقعة على الأطراف ويعترف المسيحيون أن دينهم أصبح أحسن حالا بعد انتهاء هذه الحرب تقريبا . وتطهرت المسيحية من عناصرها غير الجوهرية الموروثة من عصر البربرية كما أنها تطهرت من الرغبة فى اضطهاد المخالفين لها . ويتبقى لدى المسيحيين الأكثر ليبرالية مذهب أخلاقي له قيمته يتلخص فى قبول تعاليم المسيح المنادية بضرورة حب الجار والإيمان بأنه يوجد فى كل فرد شئ يستحق الاحترام حتى وإن لم يعد هذا الشئ يسمى بالروح . وأيضا يتزايد فى الكنائس اعتقاد بأنه ينبغى على المسيحيين الاعتراض على الحرب .

ولكن فى حين نرى أن الدين القديم قد يتطهر ويصير مفيدا من عدة نواح نجد أن أديانا جديدة قد نشأت تصاحبها فتوة الشباب ورغبته المتحمسة فى الاضطهاد والاستعداد العظيم للاعتراض على العلم . وهى فتوة لا تقل عما كان عليه الحال فى محاكم التفتيش

أيام جاليليو . فلو أنك في ألمانيا (النازية) قلت أن المسيح يهودى أو فى روسيا (السوفيتية) أن الذرة فقدت ماديتها وأصبحت سلسلة من الأحداث فإنك بذلك تعرض نفسك إلى عقوبة بالغة القسوة وربما كانت هذه العقوبة من الناحية الأسمية عقوبة اقتصادية أكثر منها عقوبة قانونية . ولكنها ليست بالعقوبة المخففة رغم ذلك . إن اضطهاد المثقفين فى ألمانيا وروسيا فاق فى قسوته أى اضطهاد مارسته الكنيسة خلال المائتى والخمسين عاما الماضية .

والاقتصاد هو العلم الذى يتحمل وطأة الاضطهاد على نحو مباشر في يومنا الراهن . ففى انجلترا - التى تعتبر دائما بلدا متسامحا بصورة غير عادية - نرى أن الإنسان الذى يدين بآراء اقتصادية منفرة وكريهة فى نظر الحكومة يمكنه أن يتجنب توقيع كافة أنواع العقوبات عليه - إذا احتفظ بهذه الآراء لنفسه أو عبر عنها فقط فى كتب كبيرة الحجم . ولكن حتى فى انجلترا نفسها نجد أن التعبير عن الآراء الشيوعية فى الخطب والنشرات الزهيدة الثمن يعرض الإنسان لفقدان مصدر رزقه والزج به في السجن من آن إلى آخر . وقد صدر فى انجلترا قانون حديث - لم يطبق حتى الآن إلى أقصى مداه - مفاده أنه يمكن توقيع العقوبة على الشخص ليس فقط لأنه مؤلف كتابات تعتبرها الحكومة قذفا بل

أيضا يمكن توقيعها على كل من يحتفظ بها في حوزته على أساس أن هذا الشخص قد يعن له التفكير في استخدام هذه الكتابات في تدمير الولاء لقوات صاحب الجلالة المسلحة .

وللعقيدة التقليدية السائدة في كل من ألمانيا النازية والاتحاد السوفيتي مجال أوسع . والعقاب الذى تفرضه هاتان الدولتان يتصف بقسوة من نوع مختلف تماما . ففى كل من هاتين الدولتين تتبنى وتشجع الحكومة مجموعة من العقائد الجامدة القاطعة ويتعرض الذين يختلفون صراحة مع هذه العقائد - حتى لو لم يحكم عليهم بالموت - لأحكام بالأشغال الشاقة في معسكرات الاعتقال . صحيح أن ما هو هرطقة فى احدى هاتين الدولتين يعتبر عقيدة راسخة وثابتة فى الدولة الأخرى ، وأن الشخص الذى يتعرض للاضطهاد فى أى منهما إذا استطاع الهرب إلى البلد الأخرى فسوف يستقبل استقبال الأبطال ، ولكن البلدين على كل حال يشتركان فى الاستمساك بمبدأ محاكم التفتيش القائل بأنه إذا شئنا ادراك الحقيقة فما علينا إلا أن نحدد مرة واحد ماهية هذه الحقيقة . ثم نعاقب كل من تسول له نفسه الاختلاف معنا . ولكن تاريخ الصراع بين العلم والكنيسة يبين لنا زيف هذا المبدأ . فنحن الآن مقتنعون بأن الذين اضطهدوا جاليليو لا يعرفون كل الحقيقة . غير أنه يبدو أن بعضنا لا يزال لديه شك فى فظاعة كل من هتلر وستالين .

ولسوء الحظ فإن الفرصة فى ممارسة التعصب قد نشأت على الجانبين فلو كان هناك بلد يمكن فيه لرجال العلم أن يضطهدوا المسيحيين فمن الجائز أن أصدقاء جاليليو لم يكونوا ليعترضوا على كل أشكال التعصب والاضطهاد . وفي هذه الحالة فإن أصدقاء جاليليو كانوا سيرفعون من قدر مبدأه ويحولونه إلى مذهب جامد قاطع وغير قابل للمناقشة . ولو أن هذا حدث لقامت الدولتان بتقديم اينشتين إلى المحاكمة دون أن يجد مكانا يلوذ به بتهمة أنه اثبت خطأ كل من جاليليو ومحاكم التفتيش .

وقد يصر البعض على أن الاضطهاد فى زماننا يختلف عن الاضطهاد فى الماضى فى أنه اضطهاد سياسى واقتصادي أكثر من كونه اضطهادا لاهوتيا ولكن مثل هذا الدفاع يجانبه الصواب من الناحية التاريخية . فهجوم مارتن لوثرعلى صكوك الغفران سبب للبابا خسارة مالية ضخمة وثورة هنرى الثامن ضده حرمته من الدخل الكبير الذي كان يتمتع به منذ أيام هنرى الثالث . وقد اضطهدت الملكة اليزابيث الكاثوليك الرومان لأنهم أرادوا استبدالها بمارى ملكة اسكتلندا أو بفيليب الثاني . لقد أضعف العلم من قبضة الكنيسة على عقول الناس الأمر الذى أدى فى النهاية إلى مصادرة كثير من أملاك الاكليروس فى بلاد كثيرة . فالدوافع الأقتصادية والسياسية كانت على الدوام جزءا من السبب فى الاضطهاد وربما كانت السبب الأساسى

له . وعلى أية حال فإن المحاجاة التى تساق ضد أضطهاد الرأى لا تعتمد على ما يقدم من مبررات وأعذار لهذا الاضطهاد بل إن هذه المحاجاة تعتمد على أن أحدا منا لا يعرف الحقيقة بأكملها وأن اكتشاف الحقائق الجديدة يتأتى عن طريق النقاش الحر وأن القمع يجعل اكتشافها أمرا عسيرا للغاية . فضلا عن أن اكتشاف الحقيقة سيزيد من سعادة الجنس البشرى على المدى البعيد كما أن الفعل المنطوى على الخطأ من شأنه أن يعطل انتشار السعادة وفى أغلب الأحيان نجد أن الحقيقة الجديدة تقض مضجع أصحاب المصلحة فى اخفائها . فالمذهب البروتستانتى القائل بأن الصيام فى أيام الجمع ليس ضروريا قوبل بمقاومة شديدة من قبل بائعى الأسماك فى عصر الملكة اليزابيث . ولكن نشر الحقيقة الجديدة بحرية أمر فى مصلحة المجتمع ككل .

وحيث أنه لا يمكن فى البداية معرفة إذا كان الرأى الجديد صحيحا أم لا فإن حرية اكتشاف الحقائق الجديدة تتطلب حرية مساوية فى ارتكاب الأخطاء . هذه المبادىء التى أصبحت مسائل عادية ومألوفة صارت مقيتة فى كل من ألمانيا وروسيا كما أنها لم تعد تلقى الاعتراف الكافى بها فى البلاد الأخرى .

إن الخطر الذى يهدد الحرية الفكرية أكبر فى يومنا الراهن مما كان عليه منذ عام ١٦٦٠ . ولكن هذا الخطر لم يعد يأتى الآن من الكنائس

بل من الحكومات التى كانت مخاطر الفوضى والاضطراب الحديثة التى تواجهها سببا فى أن تأخذ عن السلطات الكهنوتية الماضية قدسيتها . ومن الواضح أن واجب رجال العلم وكل الذين يقدرون المعرفة العلمية يقتضى منهم الاحتجاج ضد أشكال الاضطهاد الجديدة أكثر من تهنئتهم لأنفسهم ورضاهم عنها بسبب اندثار أشكال الاضطهاد القديمة .

ومهما بلغ حبنا لأى مذهب يجد فى الاضطهاد سنده فإن هذا الحب لا يجب أن يعمينا عن واجبنا . ومهما بلغ حبنا للشيوعية فإن ذلك لا ينبغى أن يجعلنا غير مستعدين للاعتراف بأخطاء روسيا السوفيتية أو أدراك أن النظام الذى لا يسمح بنقد أفكاره الجامدة سوف يصبح فى النهاية عائقا أمام اكتشاف المعارف الجديدة . وبالعكس لا ينبغى لكراهيتنا للشيوعية أو الاشتراكية أن تفضى بنا إلى السماح بالقطاعات التى أرتكبتها ألمانيا فى سبيل قمعها . وفى البلاد التى يكاد أن يحظى فيها رجال العلم بما ينشدونه من حرية ينبغى عليهم أن يبينوا – عن طريق الإدانة المحايدة – أنهم يكرهون تقليص هذه الحرية فى سائر بلاد العالم مهما كان المذهب الذى يجرى قمع الحرية بسببه .

وقد يكون الذين يرون أن الحرية الفكرية تهمهم شخصيا أقلية فى المجتمع ولكنها أقلية تضم أكثر الناس أهمية بالنسبة للمستقبل . لقد شاهدنا أهمية كوبرنيكوس وجاليليو وداروين فى تاريخ الانسانية .

وليس من المفترض أن يعجز المستقبل عن انتاج مثل هؤلاء الرجال . فإذا تم منعهم من أداء عملهم وحيل منهم وبين أن يكون لهم التأثير الخليق بهم فسوف يصيب الأسن والركود الجنس البشرى وسوف تظهر عصور مظلمة جديدة مثل العصور المظلمة التى جاءت في أعقاب الأقدمين النابهين . وفى الغالب الأعم نجد أن الحقيقة لا تبعث على الراحة وبخاصة بالنسبة لأصحاب السلطة . ومع ذلك فإنها أهم إنجاز حققه الجنس البشرى الذى يجمع بين الذكاء والسلوك المنحرف طوال الفترات المديدة التى سادها التعصب والقسوة .

كتب وأبحاث أخرى للمؤلف

١ - كتب باللغة العربية :

(١) برتراند راسل الانسان ، الدار القومية ، القاهرة ١٩٦١ .

(٢) برتراند راسل المفكر السياسى ، الدار القومية ، القاهرة ١٩٦٦ .

(٣) دراسات تمهيدية فى الرواية الانجليزية المعاصرة ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٧٦ .

(٤) توفيق الحكيم الذى لا نعرفه ، مطبعة وهدان ، ١٩٧٤ .

(٥) اتجاهات سياسية فى المسرح قبل ثورة ١٩١٩ ، الهيئة العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٧٩ .

(٦) برتراند راسل تأليف ألان وود (ترجمة) ، الأندلس ، بيروت ١٩٨١ .

(٧) س. ب . سنو والثورة العلمية ، الهيئة العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٨١ .

(٨) موسوعة المسرح المصرى البيليوجرافية (١٩٠٠ - ١٩٣٠) الهيئة العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٨٢ .

(٩) موقف ماركس وانجلز من الآداب العالمية ، مكتبة الأنجلو ، القاهرة ١٩٨٤ .

(١٠) شكسبير فى مصر ، الهيئة العامة للكتاب القاهرة ١٩٨٦ .

(١١) ماذا قالوا عن أهل الكهف ، الهيئة العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٨٦ .

(١٢) چورچ أورويل (حياته وأدبه) ، الهيئة العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٨٧ .

(١٣) الأدب الروسى قبل الثورة البلشفية وبعدها ، الألف كتاب الثانى رقم ٤٦ ، الهيئة العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٨٩ .

(١٤) وول سوينكا (ترجمة) ، الهيئة العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٨٩ .

(١٥) أدباء روس منشقون فى عهد جوزيف ستالين ، الهيئة العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٩١ .

(١٦) الأدب الروسى والبريسترويكا ، دار الهلال ، القاهرة ١٩٩١ .

(١٧) الأدب والجنس ، دار أخبار اليوم ، القاهرة ١٩٩٣

(١٨) الثالوث المحرم ، دار الهلال ، القاهرة ١٩٩٤ .

(١٩) الشذوذ والابداع ، دار الهلال ، القاهرة ١٩٩٥.

(٢٠) دراسات فى الأدبين الانجليزى والأمريكى ، كلية الألسن جامعة عين شمس ، ١٩٩٥ .

(٢١) الالحاد فى الغرب المسيحى ، دار سينا ، القاهرة ١٩٩٦ .

(٢٢) الهرطقة فى المسيحية ، دار سينا ، القاهرة ١٩٩٦ .

(٢٣) من ستالين إلى جورباتشوف ، مكتبة الأنجلو ، القاهرة ١٩٩٦ .

(٢٤) سيرة برتراند راسل ، مكتبة الأنجلو ، القاهرة ١٩٩٦ .

(٢٥) ملحدون محدثون ومعاصرون (تحت الطبع) .

٢ - مقالات باللغة العربية :

١- في مدح الكسل (ترجمة عن برتراند راسل) ، الكاتب ، أكتوبر ١٩٦١ .

٢ - إطار المذهب الانسانى (ترجمة عن جوليان هكسلى) الآداب البيروتية أعداد ديسمبر ١٩٦٢ ويناير وفبراير ١٩٦٣ .

٣ - تحديد النسل (ترجمة عن جوليان هكسلى) ، الأهرام ٢٠ أغسطس ١٩٦٣ (ثلاث حلقات) .

٤ - نقد رواية العنقاء تأليف لويس عوض، المجلة ، القاهرة فبراير ١٩٧٠ .

٥ - صورة دوريان جراى ، تراث الانسانية ، القاهرة مجلد ٥ عدد ٤ .

٢ - كتب باللغة الإنجليزية :

(1) Naguib Mahfouz. The Beginning and the End (translation), The American Univ. in Cairo,1975.

(2) George Orwell as an Ambivalent Writer, National Bookshop, Cairo,1978.

(3) Animal Farm, National Bookshop, Cairo,1978.

(4) Nineteen Eighty Four, National Bookshop, Cairo,1978.

(5) Hardy's Tragic and Ironic Vision in

Tess, National Bookshop, Cairo,1978.
(6) Shakespeare in Egypt, Rapack, Cairo,1980.
(7) English Literary criticism, Univ. Books, Tanta,1985.
(8) Macbeth, Anglo-Egyptian, Cairo,1988.
(9) The Mayor of Casterbridge, Anglo-Egyptian, Cairo,1988.
(10) Sons and Lovers, Anglo-Egyptian, Cairo,1989.
(11) Joseph Andrews, Anglo- Egyptian, Cairo,1989.
(12) King Lear, Anglo-Egyptian, Cairo,1989.
(13) Merchant of Venice, Anglo-Egyptian, Cairo1989.

رقم الايداع ١٤١٤٤ / ٩٦
I. S. B. N
977-07-0514-4

المحتويات

الهــــلال

المجلـة الثقافية الأولى فى مصـر والعالـم العربى
فبراير ١٩٩٧ .. تقرأ فيها .

فكر وثقافة

دائرة حوار

محمود شاكر فى يوم مولده

جـــزء خـاص

شعر وقصة

فنـــون

الابواب الثابتة

رئيس مجلس الادارة
مكرم محمد أحمد

رئيس التحجرير
مصطفى نبيل

روايات الهلال تقدم

ليل ونهار

تأليف

سلوى بكر

تصدر ١٥ فبراير ١٩٩٧

كتاب الهلال يقدم

القلم والاسلاك الشائكة

بقلم :

كمال النجمى

يصدر ٥ مارس ١٩٩٧

هذا الكتاب

هذا الكتاب للفيلسوف برتراند رسل الذى كان يتوق دائما إلى المعرفة التقنية، بنفس الطريقة التي يتوق بها بعض الناس إلى الإيمان بالدين، ولكن الأمر انتهى به، شأنه فى ذلك شأن سائر الفلاسفة العظام، إلى طرح أسئلة أكثر مما استطاع الاجابة عنها.

والكتاب الذى بين أيدينا يخاطب المثقفين، دون أن يكون قاصرا على خاصتهم، يتضمن قضية لها أهميتها فى كل زمان ومكان، هى قضية الدين والعلم، وسجل برتراند رسل هنا الصراع الذى اشتد واحتدم بين رجال الدين ورجال العلم فى أوربا، وسنرى موجز بعض الصراعات التى نشبت بين علماء اللاهوت ورجال العلم، خلال الأربعة قرون الماضية، وعلى نقيض النظرة اللاهوتية كان انتشار النظرة العلمية حتى يومنا هذا، سببا دون منازع في تحقيق السعادة للبشر، وعلى أية حال، فإن القضية الآن، تدخل مرحلة جديدة تماما ويرجع ذلك إلى أن التقنية العلمية أصبحت أكثر أهمية فى نتائجها من المزاج العقلى العلمى الذى يتصف به العلماء.

والصراع القائم بين الدين والعلم لم يعد له محل، فهى علاقة تكامل، وليس علاقة تنافس، العلم يغذى العقل، والدين يغذى الوجدان.

ويتميز هذا الكتاب بالصراحة والصدق، وبأسلوب متميز وسهل فى طرح قضية لها أهميتها قديما وحديثا.

الاشتراكات

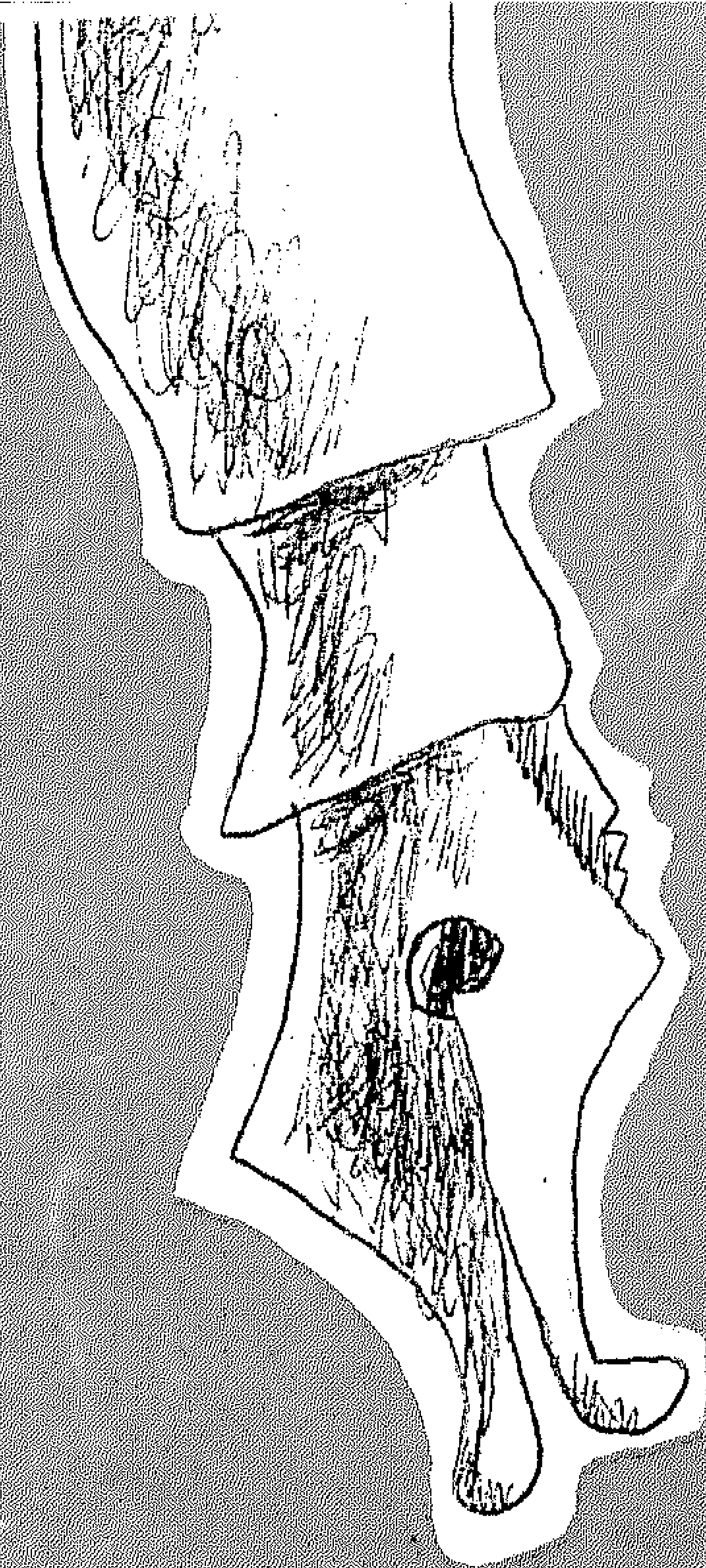
قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) ٤٥ جنيها داخل ج . م .ع تسدد مقدما نقدا أو بحوالة بريدية غير حكومية - البلاد العربية ٣٠ دولارا - امريكا واوربا واسيا وافريقيا ٤٠ دولارا - باقى دول العالم ٥٠ دولارا .

القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد .

● وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

الكويت . السيد/ عبدالعال بسيونى زغلول ، الصفاة ـ ص . ب رقم ٢١٨٣٣

للحصول على نسخ من كتاب الهلال اتصل بالتلكس : 92703 Hilal.V.N



كمال النجمي

القلم والأسلاك الشائكة



KITAB
AL-HILAL

الاصدار الاول
يونيو ١٩٥١

سلسلة شهرية تصدر عن دار الهلال

مركز الإدارة

دارالهلال ١٦ ش محمد عزالعرب. تليفون: ٣٦٢٥٤٥٠ سبعة خطوط

العدد ٥٥٥ - شوال - مارس ١٩٩٧ NO. 555- MA-1997

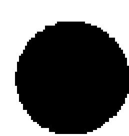
فاكس FAX-3625469

أسعار بيع العدد فئة ٤٠٠ قرش

سوريا ١٣٠ ليرة - لبنان ٨٠٠٠ ليرة - الأردن ٣٠٠٠ فلس- الكويت ١٥٠٠ فلس - السعودية ١٥ ريالا .

القلم والأسلاك الشائكة

بقلـــــم
كمال النجمى



دار الهلال

الغلاف للفنان
حلمى التونى

مقدمة

فى هذا الكتاب نلتقى بعدد غير قليل من الشخصيات المصرية البارزة فى الصحافة والأدب والشعر والفن والسياسة ، ونتحدث عن حياتهم وحكاياتهم ، وعن غرامياتهم أحيانا .. إلا أننا نكاد نقف مع كل منهم عند حدود الأسلاك الشائكة التي أحاط بها نفسه، أو أحاطته بها دنياه، ونكتفى بالنظر إليه كما رسم نفسه للناس ، أو كما رسمه الناس لأنفسهم من خلال ما يطالعهم به من فكرٍ أو أدب أو أى نشاط له بين الناس ، إلا أن لنا فى كل حال وجهة نظر لا نخفيها .

ولهذا يتفاوت الكلام على شخصيات هذا الكتاب، فمن حكاية إلى نقد، إلى تحليل، أو تعليل ، أو تصوير فى المرآة !

وقد آثرنا أن يكون عنوان المقالة الأولى فى الكتاب هو اسم الكتاب نفسه، لأن لمغزى هذا العنوان صدى يتردد فى أكثر ما يحتويه هذا الكتاب .

وكنا قد اتخذناه عنوانا لمقالتنا فى الهلال - يونيو ١٩٨٩ - عن الكاتب الصحفى الكبير المرحوم أحمد بهاء الدين، وهى فاتحة هذا الكتاب ..

ولم نجد عندنا لبهاء الدين في محنة المرض التى كان يكابدها عند نشر هذه المقالة أيامئذ ، إلا أن نجعلها تحية لذكراه على صدر كتابنا هذا لا نملك سواها ، وهي جهد المقل ..

ونرجو أن تسنح لك - يا عزيزى القارئ - جولة فى هذا الكتاب تعقد خلالها أواصر الصداقة مع الشخصيات الممتازة التى تجتمع فيه، ولعلك لاقيتهم كلهم أو لاقيت بعضهم من قبل لقاء شخصيا أو لقاء على الورق أو في سبحات الفكر .

فهلم معنا إلى لقاء معهم يتجدد على هذه الصفحات .

كمال النجمى

أحمد بهاء الدين
القـــــلم ..
والأسلاك الشائكة

أحمد بهاء الدين هو الكاتب الصحفى المصرى العربى الثائر الذى لم تنقطع ثورته طوال أربعين عاما فى سبيل الحرية والديمقراطية والتقدم لكل الأمة العربية.. ولكنه حرص دائما على توضيح معالم ثورته هذه والوقوف بها عند حدود أسوار الأسلاك الشائكة المقامة فى البلدان الناطقة بالضاد حول الصحافة والصحفيين، وحول كل حرف مطبوع، أو صوت مسموع ! .

إن قلمه الثائر كثيرا ما يلامس أشواك السور، ولكنه لا يفكر أن يقفز فوقه ، لأنه يكتب فى صحف علنية لا فى منشورات سرية ، وهو يلتزم حدود النشر فى اتساعها وضيقها متذمرا، ولكن فى تسليم للمقادير ، مع قدرة فائقة على القفز بالتعبير اللبق فوق المحاذير ..

هذه الصورة للأستاذ بهاء الدين ، هى فى الأصل من لمسات

ريشته، نقلنا خطوطها بأمانة ، لأنها - كما تبدو لنا - هى صورته التى تحكيه قلبا وقالبا ، وتحدد ملامحه كاتبا صحفيا ، ومفكرا سياسيا ، وداعية للحرية والديمقراطية والتقدم من أبرز دعاة هذا المضمار فى الصحافة المصرية والعربية طوال النصف الثانى من القرن العشرين ..

لكن هذه الصورة - على صدقها - لا تفصح عن فضيلة نادرة يتحلى بها هذا الكاتب الداعية، وهى - «الثبات على المبدأ» .. فهو من الكتاب القلائل الذين لم تزحزحهم تقلبات الدنيا عن توجهاتهم المبدئية ، فلبث منذ اشتغل بالكتابة الصحفية يقبض بيده على الجمر فى سبيل ألاَّ يتنكر لطريقته ورؤيته وفكره ..

ما أشبهه فى هذا المجال بأساتذة الصحافة المصرية القدماء الذين كان «الثبات على المبدأ» فضيلة فيهم ، تدل على مروءتهم كما تدل على فكرهم وعملهم ، ولا تناقض مرونتهم وسماحتهم وتقبلهم للمتغيرات وتعبيرهم عنها بدقة وبراعة ..

ولما انتقل من «روز اليوسف» إلى «أخبار اليوم» لم ينزع رداء «الأحرارية» السياسية والفكرية ، ويدخل فى ثوب «اليمينية» التى كانت تمثلها أخبار اليوم حينذاك ، بل استمسك بفضيلته التى تدل على مروءته، وواصل فكره وعمله بلا أدنى تبديل، حرا مستقلا ، فردا فى حريته واستقلاله .

وبعد تأميم الصحافة احتفظ باستقلاله، وثابر على دعوته إلى الحرية والديمقراطية والتقدم من وراء أسوار الأسلاك الشائكة دون أن تثبط الأسوار عزيمته فيتنازل عن شئ من جوهر دعوته، وإن كان قد خلع القديم ولبس الجديد مرة بعد مرة ..

وفى سنة ١٩٦٤ أصدر الرئيس جمال عبد الناصر قرارا بتعيينه رئيسا لمجلس إدارة دار الهلال ورئيسا لتحرير مجلة المصور ، فتحولت «المصور» إلى منبر للحرية والديمقراطية والتقدم، وكاد بهاء الدين أن يكون فى تلك الأيام أقل الصحفيين الكبار حديثا عن الرئيس والثورة والاشتراكية ، مع أن الرئيس والثورة والاشتراكية لم تكن كلمات يعاب الحديث عنها، ولكن فضيلة هذا الكاتب ومروءته أبتا عليه أن ينسى أنه يكتب من وراء أسوار الأسلاك الشائكة، وأن الحرية والديمقراطية غائبتان وإن كان التقدم حاضرا بعض الحضور .

وفى تلك السنة أفرج عبد الناصر عمن كانوا فى سجونه من الماركسيين واليساريين، وعمل بعضهم فى دار الهلال وكتبوا فى مجلة «المصور» .. فأذكر أننى كنت أتأمل كتاباتهم وكتابات بهاء وأسأل نفسى: كيف يكون بهاء الدين رزينا حصيفا صادقا إلى هذا الحد فى تأييد النظام ونقده، بينا ينطلق القادمون من سجون عبد الناصر إلى تأييده بلا قيد ولا شرط تقريبا ؟!

لعل عذرهم أنهم جاءوا من وراء الأسوار ، فشعروا أنهم أصبحوا في سعة من الحرية فلهجت ألسنتهم بتلك الأمداح العجيبة، وخيل إليهم أن عبدالناصر الذى يبنى الاتحاد الاشتراكى ، يبنى فى الوقت نفسه «صرح الاشتراكية» ! ..

إن كثيرا من محبى الاشتراكية ودعاتها أيامئذ فقدوا قدرتهم على الرؤية ، ولكن بهاء الدين الذى كان اشتراكيا أيضا - وإن لم يكن ماركسيا - لبث هادئ التفكير، ثاقب البصر، مدركا ما يجرى حوله بكل تفاصيله ، وبلا تزويق أو تلفيق، وبكثير من التوتر والرغبة فى قول ما لا يقال ...

ولقد كان بصره الثاقب يريه أحيانا ما لا يستطيع أن يراه الكثيرون، ففى سنة ١٩٥٥ ، عرضت احدى دور السينما فى القاهرة فيلم «سقوط برلين» السوفييتى الذى يؤدى فيه ممثلون بارعون أدوار ستالين وتشرشل وروزفلت وغيرهم .. فكتب بهاء يبدى دهشته من «تقديس» شخصية ستالين فى هذا الفيلم، ويبين أن تقديس الزعيم مخالف لمبادئ الاشتراكية والديمقراطية ، كأنما أراد بهاء أن يقول للذين كانوا يقدسون الزعيم عبد الناصر إنهم مخطئون ! .

كانت كلمة بهاء عن تقديس ستالين، أول كلمة تنشر باللغة العربية فى هذا المعنى ، ولم يسبقه أحد إلى التنديد بتقديس أو عبادة شخصية

ستالين ولم يكن أحد يعرف أن خروشوف سيقف بعد عام كامل في مؤتمر الحزب ليقول هذا الكلام نفسه ! .

لم يكن يهمنى فى ذلك الوقت هجوم بهاء على تقديس الفرد أو الزعيم، ولكنى كنت قد شاهدت فيلم «سقوط برلين» فأعجبنى كعمل فنى رائع عن الحرب العالمية الثانية، فكتبت كلمة في مجلة «العالم العربى» التي كان سيد قطب قد ترك رياسة تحريرها وتسلمها منه زميلنا أسعد حسني رحمه الله ..

ناقشت في كلمتى مسألة شخصية ستالين كما ظهرت فى الفيلم وقلت إن السوفييت يرونها هكذا فلا شأن لنا بما يرون، وإنما الشأن كله بما تضمنه الفيلم من روعة فنية .

ويبدو أن كلمتى - كعادتى فى الكتابة أيام الشباب - كانت على شئ كثير من الحدة ، فامتشق بهاء قلمه ورد عليها بمقال ضخم جعل له عنوانا هائلا هو : «الإرهاب» .. وتحدث فى هذا المقال ما شاء عن الإرهاب الذى يشنه «بعضهم » على المفكرين المستقلين أمثاله ! ..

أذهلنى هذا المقال فأنا لم أكن قط منتميا إلى حلقة فكرية أو سياسية أو فنية ، وكنت مستقلاً فردى النزعة مثل بهاء، فسألت صديقى أسعد حسني عما وراء هذا المقال العنيف ، فاتصل بصديقه المرحوم الصحفى الفنان حسن فؤاد ووجده خالي الذهن من كل شئ ، فاتصلت

بصديقنا الأستاذ محمد عودة، فصحبني إلى بهاء في مكتبه بدار روز اليوسف حيث تبين له أنني مثله رجل شديد الاستقلال أكتب في الحدود التي تتيحها الأسوار الشائكة وإن كنت أحاول أحيانا أن أقفز فوقها !..

فانظر - أعزك الله أيها القارئ - كيف أدرك بهاء بقوة بصيرته واستقلال رأيه أن السوفييت غارقون في تقديس الزعيم، قبل أن يعلنوا هم براءتهم من تقديسه بعام على الأقل .. وانظر كيف أدرك أن «الإرهاب الفكري» يمكن أن يواكب الدعوة إلى الاشتراكية، وذلك قبل أن يقول عبدالناصر حرفا واحدا عن الاشتراكية ! ..

إن هذا الاستقلال الذي حافظ عليه بهاء قبل الثورة ثم في عهد عبدالناصر، كان خليقا أن يورده موارد لا يسيغ ماءها ، لولا أن بهاء كانت له دائما - كما قدمنا - قدرة فذة على القفز بالتعبير اللبق فوق جميع المحاذير ! ..

وأذكر أن المرحوم أنطون الجميل باشا رئيس تحرير الأهرام حتى سنة ١٩٤٨ كان يلقب الصحفي الكبير المرحوم محمد التابعي «بالكاتب اللبق» .. حين ينشر بعض مقالاته في الأهرام ، وإنما أراد أنطون الجميل باشا - وكنت أعرف أساليبه لصلتي به - أن يتجنب تلقيب التابعي بالكاتب الكبير ، فهدته لباقته المبدعة إلى تلقيبه بالكاتب اللبق ! ..

ولكن بهاء الدين، الكاتب اللبق، هو أيضا كاتب كبير، وإنه ليبلغ فى كتابته أجواء فى البلاغة لا يبلغها إلا أكابر الكتاب الذين أنفقوا أعمارهم فى دراسة العربية واستيعاب أسرارها .

وهو لا يبلغ هذا الحد من البلاغة بأساليب قديمة، بل بأساليب بالغة الحداثة ، ولا يبلغه بقوة اللفظ، بل يبلغه بقوة الروح ، كأنه جمال الدين الأفغانى الذى كان يبلغ بقوة روحه فى الكتابة مالا تتيحه لسواه من أئمة العربية قوة ألفاظهم وبراعة أساليبهم .

ولبلاغة بهاء جاذبية خاصة، هى التى لفتت إليه حتى غير البلغاء، أعنى الزعماء والرؤساء، ومنهم الرئيسان جمال عبدالناصر وأنور السادات .

ومع ذلك لم تستطع جاذبية قلم بهاء أن تبعده عن الخيل التى تجمح عادة فى وجوه المارين بطريق السلاطين، فناله من جماحها أذى كبير، يعجب له كل العجب من يعرف قصته ! ..

فإن بهاء رجل هادئ لا تثيره الأمور بسهولة ، ومع ذلك لم يصمد فى الطريق السلطانى ، وناله منه ارهاق شديد أدى إلى ارتفاع السكر والضغط وجلطة فى أحد الشرايين قبل بضعة عشر عاما حتى اقترح عليه الأطباء أن يتقاعد طلبا للراحة وهو فى تلك السن الصغيرة .

ولكنه لم يتقاعد ، وعاد إلى ثورته الدائمة في سبيل الحرية والديمقراطية والتقدم، جالسا القرفصاء، سعيدا بجلسته، يوشك أن يبتسم، وإن كان جالسا على سطح صفيح ساخن ...

واقتضت لباقته أن يصمت في أواخر عهد الرئيس السادات رحمه الله، فلا يكتب مدحا ولا قدحا ، ولكن الصمت لم يكن مقبولا، وكان المطلوب هو التأييد الصريح، وإلا فلا كتابة ولا صمت .. وكان ذلك كما قال بهاء في بعض أحاديثه : «أخطر صور الرقابة التى عرفتها مصر»..

ولم يستطرد بهاء بطبيعة الحال ليقول إن هذه الصورة البالغة الخطورة من صور الرقابة، كانت موجودة أيضا في عهد الرئيس عبدالناصر، وإن السادات إنما ورثها عن عبدالناصر كما ورث أمورا خطيرة أخرى ! ..

وكانت هذه هى الأزمة الثانية التى تنتاب بهاء في عهد الرئيس السادات، بعد أزمته سنة ١٩٧٢ عندما نقله السادات مع تسعين صحفيا إلى مصلحة الاستعلامات ، فلما اعترض بهاء على هذه الاهانة التى لحقت بزملائه التسعين الابرياء .. جاءه خطاب الفصل من العمل ! ..

ظل بهاء مفصولا من العمل إلى ما قبل حرب أكتوبر سنة ١٩٧٣ إذ

أعاده السادات إلى العمل ، وطلب إليه أن يشترك فى كتابة «ورقة أكتوبر» المشهورة ! ..

استأنف الكاتب اللبق الكبير عمله، واشترك فى ورقة أكتوبر ، ثم وجد نفسه رئيسا لتحرير الأهرام، وحوله زملاؤه الذين كانوا مفصولين معه من مصلحة الاستعلامات ومن الصحافة المصرية جملة وتفصيلا .

ولبث مدة بين العمل والاستشفاء، ثم هاجر إلى الكويت طلبا للاستجمام والعمل الهادئ فى بلد هادئ ومجلة شهرية ليس وراءها هزات سياسية ولا يرتفع سور الأسلاك الشائكة حولها إلى أعلى من قمة الرأس ! ..

وهكذا مضى إلى تلك الرحلة الطويلة ذلك الرجل الذى لم يذهب فى صباه إلى أية رحلة مدرسية، ولو إلى الأهرام وأبى الهول فقط ، وتعززت بهجرته فكرة تعدد مراكز الاشعاع الثقافى فى العالم العربى ..

ولكنهم قالوا : إنما ذهب فى رحلتــه تلك يطلب الثراء فى بلاد البترول!..

ولو كان الثراء مطلب بهاء لبادر إليه قبل ذلك بعشر سنوات أو عشرين، وكانوا يلحون عليه فى الذهاب إليهم ، ولو كان الثراء مطلبه لظفر به منذ كان مرشحا للوزارة فى عهد «الوحدة» بين مصر وسوريا،

فأبى له افتقاره إلى «الإنتهازية» أن يدخل من باب الوزارة ، وهو باب يفضي بمن شاء إلى الثراء ! ..

إن أحمد بهاء الدين قد بلغ الآن المكانة التى تجعله فى عيون قرائه ومحبيه أشبه بالضوء المعلق فى الفضاء ، يراه الناس يلمع من بعيد ، كأنه رمز للمعانى التى تجسمت فى اسمه الذى رن في أسماعهم وبرق فى عيونهم عشرات السنين ، بلا انقطاع حتى عند انقطاعه ..

واسمه فى أية صحيفة مصرية أو عربية شهادة لها بأنها استطاعت أن تقنعه ، وأن توفق بين أوضاعها وبين استقلاله الدائم وعمله الدائب في سبيل الحرية والديمقراطية والتقدم ولو عن طريق لباقته البليغة التى تتجاوز الشكل إلى الجوهر، وتأخذ كل قارئ - مهما يكن اتجاهه - صديقا لها، مقتنعا بها أو متحفظا عليها ! ..

وقد قيل فى بداية ظهور بهاء الدين وشهرته إنه ابن النجاح السريع الذى يشبه ضربة الحظ ..

وقد مضت على ذلك خمسة وثلاثون عاما، وانتهت ضربة الحظ الأولى، وبقى كوكب النجاح يدور بنفس سرعته ! ..

★ ★ ★

وبعد .. فهذه الكلمة كتبناها قبل عام واحد من اعتكافه مع مرضه الطويل الذى انتهى بوفاته - رحمه الله - سنة ١٩٩٦ وهذه الكلمة نضعها كزهرة على مثواه ، وهو فى خلوده يسطع كوكبا يدور بنفس سرعته ، مقيما وراحلا ! ..

مكرم عبيد
خريج المدرسة القنائية

السياسى الكبير المرحوم مكرم عبيد باشا ، قرأت كتابا عن حياته وجهاده ومكانته السياسية والأدبية فى عصره ، وما بقى منه للجيل الحاضر والأجيال القادمة ..

مؤلفة الكتاب هى السيدة منى مكرم عبيد ابنة شقيق هذا السياسى الكبير الذى ترك دويا فى عصره مازال يتردد صداه فى الأسماع .

يتضمن الكتاب مقالات لبعض المشاهير من السياسيين والأدباء والصحفيين كتبوها قديما أو حديثا عن حياة مكرم عبيد وعمله الوطنى والسياسى، ومكانته فى الخطابة والكتابة، وأثره فى الوحدة الوطنية المصرية، وفى الاتجاهات العروبية فى مصر والبلاد العربية .

من أبرع مقالات هؤلاء الكتاب ، مقالة للأستاذ عباس محمود العقاد - رحمه الله - تضىء ناحية لم يتطرق اليها أحد ممن كتبوا عن مكرم عبيد باشا فى حياته وبعد مماته ، وهى ناحية تكوينه الثقافى والأدبى الذاتى الذى جعل منه خطيبا مصقعا ، وكاتبا بليغا ، مع أنه لم

يدرس الأدب العربى دراسة منتظمة ، لا في الأزهر بطبيعة الحال، ولا فى دار العلوم ولا فى مدرسة المعلمين العليا ، بل لم يتح له أن يتلقى دراسته العالية باللغة العربية ، لأنه تخرج فى جامعة أكسفورد الإنجليزية سنة ١٩٠٨ ، ثم جامعة ليون الفرنسية سنة ١٩١٢ ، وعين سنة ١٩١٥ سكرتيرا للمستشار القانونى الإنجليزى فى الحكومة المصرية ، فلبث لا يتكلم ولا يكتب إلا بالإنجليزية إلى سنة ١٩١٩ إذ حفزته الثورة الوطنية إلى ترك هذا العمل الذى كان يعيش فيه مغتربا عن لغة بلاده ، بل لغة أهله وقرابته الادنين فى مسقط رأسه «قنا» بالصعيد الأعلى ..

وفى سنة ١٩٢٠ضمه سعد زغلول باشا إلى «الوفد المصرى» الذى وكلته الأمة المصرية للمطالبة بحقها فى الحرية والاستقلال بزعامة سعد، فبزغ مكرم عبيد - فجأة - خطيبا عربيا فصيحا، وكاتبا أديبا مبينا، وهو الذى عاش مغتربا عن لسانه العربى طوال دراسته فى انجلترا وفرنسا، ثم خلال عمله مستشارا لكبار الموظفين الانجليز فى الحكومة المصرية حتى ظن من عرفوه فى تلك الفترة أنه قطع ما بينه وبين لغة أهله وعشيرته إلى الأبد ..

فكيف لم تتمخض هذه الغربة الطويلة عن رجل متفرنج أو مستعجم معوج اللسان عاجز عن البيان بلغة العرب ، وكيف انجلى

غبار تلك السنين الطوال عن خطيب من أخطب الخطباء، وأديب من أبين الأدباء؟!

ما تفسير ذلك ؟!

لقد استوفى الأستاذ العقاد جواب هذا السؤال فى مقالته البارعة عن مكرم عبيد التى حرصت السيدة منى عبيد على نشرها فى كتابها القيم .. وكانت هذه المقالة قد نشرت منذ قرابة خمسين عاما فى كتاب «المكرميات» الذى جمع فيه الصحفى الكبير المرحوم أحمد قاسم جودة طائفة من خطب مكرم عبيد وأقواله ... وجاءت السيدة منى عبيد فضمت هذه المقالة الهامة إلى كتابها الذى كأنه جزء ثان من «المكرميات» بعد الجزء الأول الذى أصدره المرحوم أحمد قاسم جودة ..

قال العقاد عن سر الفصاحة والبيان فى خطابة مكرم عبيد وكتابته:

« .. فصاحب المكرميات بحق، وليد مدرسة عريقة فى قديمها وحديثها .. ومن عرف هذه الحقيقة ، عرف لماذا يعنى صاحب المكرميات بجمع هذه المحسنات فى نثره ، فلا تخلو خطبه أو فصوله من سجع تتلوه تورية، ويمتزج بها جناس هنا وطباق هناك، ولايزال موفقا فى اختيارها كل التوفيق حيثما ذهب طوع السليقة فى هذه الخطب والفصول .. فلا يسع القارئ الذى يتابعها إلا أن يرى فيها الأسلوب الطبيعى المعقول لمن ورث ذخائر المدرسة القنائية من يوم احتفظت بروح

النثر والشعر كما صاغها البهاء زهير وابن مطروح والقاضى الفاضل والعماد» ..

هكذا تحدث العقاد عن مكرم عبيد ابن مدينة قنا وابن المدرسة القنائية فى الأدب والشعر .. فما هى هذه المدرسة القنائية ؟!

يقول العقاد :

«كان أول اشتغالى بوظائف الحكومة فى إقليم قنا ، وهو أقرب الأقاليم إلى بلدتى أسوان، فرأيت فى قنا عجبا بين البلاد المصرية فى ذلك الحين ، وأعنى به تلك الحركة الأدبية التى تعد تالية لحركة القاهرة نفسها فى أوائل القرن العشرين، لأننا لم نعرف مدينة بين مدن هذا القطر جمعت من الأدباء والشعراء من يضارعون أدباء قنا وشعراءها فى الكثرة والجودة فلم يكن عددهم فيها يقل عن عشرين ، ولم يكن لمجالسها حديث فيما هو أفضل عند أهلها من النظم الرائق والنثر البليغ» ..

لم يستطرد العقاد فى بيان سبب ذلك، فنستطرد نيابة عنه قائلين إن السبب هو أن مدينة قنا هى عاصمة الاقليم العريق الذى كان يلي إقليم القاهرة وإقليم دمياط فى الأهمية طوال القرون الوسطى ..

وهذا الإقليم اشتهرت فيه مدينته الكبرى «قوص» التى كانت فى

القرون الوسطى أكبر المدن المصرية بعد القاهرة ودمياط ، وربما كانت أكبر من دمياط .. وقد أحصت كتب الأدب والتاريخ مئات الشعراء والأدباء والعلماء، انتسبوا إلى قوص أو إلى الكور المزدهرة القريبة منها، ثم انتقلت حكومة الاقليم من قوص إلى قنا بعد أن انقطع طريق الحج القديم بين قوص وعيذاب التي كانت ميناء على البحر الأحمر تواجه ميناء جدة على ساحل الحجاز .

يقول العقاد :

«بقي للأدب منزلته فى ذلك الإقليم زمنا طويلا حتى جاء العصر الحديث فوصل ما انقطع منه باجتماع عشرات من الدارسين والمتعلمين فى عاصمة الإقليم الحديثة، وهى قنا، بلدة صاحب «المكرميات» فكانت مثابة القضاة والمحامين والمعلمين والمهندسين والفضلاء من كل فن ومشرب، ولم يكن لهم شاغل يشغلهم باللهو والسمر فى غير الأدب وأحاديثه ، والكتب وطرائفها .. فلا عجب أن تكون بقديمها وجديدها صاحبة الحركة الأدبية الثانية بعد حركة القاهرة من أوائل القرن العشرين » ..

« .. وصاحب المكرميات بحق هو وليد تلك المدرسة العريقة فى قديمها وحديثها ، فلا يسع القارئ الذى يتابع المكرميات إلا أن يرى فيها ذخائر المدرسة القنائية فى النثر والشعر» ..

قلت : لم يستطع أحد أن يتكلم عن سر فصاحة مكرم عبيد وبلاغته بمثل هذا الذى تكلم العقاد به، فالعقاد نفسه، من أبناء المدرسة القنائية التى كانت ظلالها تمتد إلى ما وراء حدود «مديرية قنا» حتى تبلغ أدفو وأسوان جنوبا ، وجرجا وطهطا شمالا ..

وإلى عقد العشرينات من هذا القرن كان الأدباء الموظفون الذين ينقلون من القاهرة إلى قنا، يجدون فيها بيئة أدبية حية واسعة ، لا تقل حيوية واتساعا عن البيئة الأدبية فى القاهرة ، وقد اعترف بذلك عدد من كبار هؤلاء الأدباء ومنهم الشاعر اللغوى الفقيه العلامة حفنى ناصف - رحمه الله - وله قصيدة مشهورة فى الشكوى من حرارة جو قنا صيفا، كانت مقررة على تلاميذ المدارس ، وكنا نحفظها فى صبانا ..

ومن مشاهير الموظفين الشعراء الذين نقلوا من القاهرة إلى قنا الشاعر عبد الحليم المصرى الذى كان ينافس شوقى وحافظ منذ ثمانين عاما، وله مساجلات مع شعراء قنا ..

وآخر موظف مشهور نقل من القاهرة إلى قنا ورأيناه هناك ولاقيناه كثيرا ، كان المرحوم الشيخ حسن البنا .. نقلته وزارة المعارف سنة ١٩٤١ مدرسا بمدرسة قنا الابتدائية ابعادا له عن القاهرة بايعاز من السلطات البريطانية ، وكانت الحرب العالمية الثانية محتدمة حينذاك ..

ولو ذهبنا نحصى العلماء والأدباء والشعراء والزجالين الموظفين القاهريين الذين أقاموا فى قنا زمنا وعاشوا بين ظهرانى زملائهم الأدباء القنائيين ، لما اتسع لنا المجال، وأذكر أننى جلست مرة مع صديقنا الزجال الكبير محمد عبد المنعم «أبو بثينة» – وكان هو نفسه أحد أدباء القاهرة الذين أقاموا مدة فى قنا – فعددنا فى جلستنا هذه أسماء سبعين أو ثمانين أديبا قاهريا عاشوا فى قنا بين أوائل القرن العشرين وأربعيناته ..

هؤلاء جميعا وردوا ماء المدرسة القنائية، وهى ليست مدرسة مشيدة بالحجر أو الآجر ، ولكنها اسم مستعار للحركة الأدبية والفكرية الزاخرة التى كانت تسود إقليم قنا وما يلى هذا الإقليم جنوبا وشمالا ..

فى هذا الجو الفكرى والأدبى الذى ورثته مدينة قنا من مدينة قوص العظيمة ، نشأ مكرم عبيد وعاش إلى سن العشرين تقريبا ، فكان غذاء عقله ووجدانه ولسانه من هذه المدرسة الفذة التى كانت حصنا للأدب العربى وعلوم الدين الإسلامى والتاريخ والفن، على أعلى مستوى عرفته مصر والبلاد العربية منذ أواخر دولة المماليك البرجية إلى أوائل القرن العشرين ..

وتخرج مكرم عبيد فى هذه المدرسة العريقة كما تخرج فيها كل من خالط أساطينها وأساتذتها وتلاميذها ومريديها ، بلا تفرقة بين مسلم

ومسيحى .. فكان مكرم عبيد من أثقف أبنائها فكرا، وأبصرهم بالبيان العربى كتابة وخطابة ..

ولم يكن مكرم عبيد فى ذلك بدعا بين المسيحيين القنائيين فى هذا المجال، فإن بعض ذوى قرباه ساروا على هذا النهج ، مثل الأستاذ اسحاق عبيد الذى كنت أحفظ فى صباي أبياتا فى امتداحه نظمها والدى - رحمه الله - وكان له صديقا :

قلت للفضل : كيف آل عبيد

قال : قوم زكت لهم أعراق

حببتهم إلى النفوس نفوس

زينتها الآداب والأخلاق

ووفاء للمجد ما خاس فيه

موعد منهم ولاميثاق

هم رجال الاخلاص فى القوم إما

زين الغدر للرجال النفاق

مبدأ ثابت يخفض الطرف «م»

حياء حياله الانشقاق

وجهاد يفت فى عضد الخصم «م»

ويقــــوى فى نوره الاتفــاق

قلت : ما هـذه الدعـــابة فيهم ؟!

قال : ظـرف تسيغه الأذواق

قلت : صفهم ولا تطل ، قال : حبا

هـم غصـون زهـت لها أوراق

ونجـوم يكشــــف الخطـب منــها

إن تداعـــت ظلماؤه إشراق

قلت : هل «وليــم» المجـاهد منهـم

قال : منهم ، ومنــهم اسحاق

هذه الأبيات قيلت سنة ١٩٣٤ وكان والدى قد سافر من بلدتنا نجع حمادى إلى قنا ليلقى قصيدة رثاء فى حفل تأبين الشاعر الفقيه المتصوف المرحوم حسين محمد الحكيم، فنزل الوالد فى ضيافة صديقه اسحاق عبيد كما اعتاد أن يفعل كلما زار قنا، ثم حضرا معا حفل تأبين شيخ الصوفية وألقى فيه والدى قصيدته ، كما ألقى أحد الأدباء قصيدة بعث بها العقاد من القاهرة ، وكان العقاد صديقا للمرحوم

حسين الحكيم ، جمعهما العمل الحكومي في قنا أيام الصبا والشباب، وإلى ذلك يشير العقاد في مطلع قصيدته مخاطبا صديقه الفقيد :

رفيق الصبا المعسول أبكيك والصبا

وما كان أغلى ما بكيت وأطيبا

ولا تجد شاعرية العقاد ظاهرة في شيء من شعره ظهورها في هذه القصيدة الفياضة بالمشاعر الصادقة .

أما أبيات الوالد - رحمه الله - في تحية اسحاق عبيد فقد لفت نظري فيها حين طالعتها في حينها اسم «وليم» لأنني لم أكن سمعت به ، فأخبرني الوالد أنه فاتحة الاسم الثلاثي لمكرم عبيد ، وأنه تعمد أن يذكره في هذه الأبيات لأنه يمتدح بها جميع آل عبيد ، وفيهم إخوة لمكرم ولهم أسماء أيضا ، فلابد من تمييزه .

وإذا كان اسم «وليم» قد ورد هنا في معرض المدح فإن بعض الكتابات قد أوردته في معرض آخر عند اشتداد لجاجة الخصومة السياسية بين الأحزاب ، وانشقاق الحركة الوطنية ، وتثاؤب الطائفية في بداية يقظتها بعد الحرب العالمية الثانية .

أما قبل ذلك ، فكما ترى في هذه الأبيات ، كان الشاعر المسلم يصف أصدقاءه المسيحيين بزكاء الأعراق أو الأصول ، وينسبهم إلى المجد والإخلاص ، والثبات على المبدأ ، والجهاد ، ولم ينس روح الدعابة وخفة الظل فيهم ، وهى الروح التى كانت واضحة فى رجلهم الكبير وليم مكرم عبيد ..

وقد رأيت مكرم عبيد فى صباى منذ بضعة وخمسين عاما خلال مناسبتين زار فيهما قنا ، فاحتشد طلبة المدرسة الثانوية ، وكنت فيهم لتحيته وسماع كلامه .

ولم أسمعه خطيبا إلا مرة واحدة فى «سراى» الشيخ أبى الوفاء الشرقاوى شيخ الصوفية فى إقليم قنا وفى الصعيد الأعلى كله ، ومن أساطين المدرسة القنائية فى الفقه والتفسير والحديث والشعر والأدب ..

وكانت «سراى» الشيخ الشرقاوى فى نجع حمادى - وهى من أكبر مدن إقليم قنا - مثابة للعلماء والأدباء من جميع أنحاء مصر .. وكان الشيخ الشرقاوى ومكرم عبيد يتبادلان المودة والإعجاب ، فقد كان كلاهما علما خفاقا من أعلام قنا والمدرسة القنائية ..

ويرحم الله مكرم عبيد .. قد كان رمزا لوحدة الوطن قبل

أن يعبث الزمن بحرمة الرموز ، وما أجدر أبناء الوطن أن يستأنفوا النضال من أجل أن تبقى رموز وحدتهم مرفوعة ، دليلا على بقاء وجودهم ذاته ، فإن فناء الأمم يجيء في أعقاب اندثار أعلامها ورموزها ..

وقد كان مكرم عبيد رمزا للوحدة لا يتمارى فيه أحد ، ولكنه في أخريات أيامه كان يقول وهو بين اليأس والرجاء : «إننا في معاركنا الداخلية أشبه بالسمك يرتطم في شباك صياد فيحسب نفسه في عراك ! .. فإذا كان هذا هو الجهاد ، أو ما انتهى إليه في نظرنا هدف الجهاد ، فهنيئا بالصيد للصياد» !

وإننا لنرجو ألا نصبح سمكا في شباك الصياد ، وإن كانت أمورنا قد هزلت حتى ثقلت على النفوس ، أو كما قال مكرم عبيد في كلمته التي جمعت البلاغة من أطرافها :

- «لقد هزلت ، حتى ثقلت» ! ..

غراميات العقاد

كانت مغامرات الأستاذ عباس محمود العقاد العاطفية – منذ منتصف العشرينيات – تثير غمزات خفيفة أو ثقيلة فى الصحف المعادية للوفد المصرى ، وبخاصة المجلات الهزلية ، لأن العقاد كان من كبار الكتاب الصحفيين المدافعين عن السياسة الوطنية للوفد بزعامة سعد زغلول باشا ، فكان خصوم الوفد يتتبعون الحياة الخاصة لزعمائه وكتابه ابتداء بسعد زغلول ، وانتهاء بكل من يحمل قلما يؤيد به سياسة سعد !

وكانت غراميات العقاد متواضعة لأنه كان فقيرا ، لم يقتن من وراء تأييده للوفد عمارة ولا ضيعة ولا حتى سيارة كما اقتنى غيره ممن جعلوا تأييدهم للأحزاب طريقا إلى الثراء ، فصار بعضهم أصحاب صحف يومية ، وملاك عقارات فى الريف والحضر .. ولبث العقاد بينهم يكتب كل يوم منافحا عن الوطنية والديمقراطية ولا تهفو نفسه إلى امتلاك شئ ، إلا امتلاك الكتب ! .. كانت غريزة التملك عنده لا تتعدى الرغبة فى تملك الكتب وإقامة مكتبة خاصة يناجي فيها عرائس أحلامه الفكرية .

أما الغريزة التى تدفع الرجل دفعا إلى امتلاك المرأة ، فكانت

عند العقاد فى شبابه لا تجد لها طريقا إلا الزواج على سنة الله ورسوله .. وكان العقاد مصروفا عن ذلك الطريق مكرها لا بطلا ، لأن مرتبه لم يكن يفى بغير طعامه وملابسه ومسكنه وكتبه ، مع أنه كان كاتب الوفد الأول ، وفى الطبقة العليا من أدباء عصره .

وهكذا تخبط العقاد فى طريق المرأة ، أو تخبطت المرأة فى طريق العقاد .. أما هو فطريقه إليها تتحكم فيه المصادفات ، وأما هى فقد تعشو إلى الضوء الباهر المنبعث من اسمه الشهير فتجئ إليه يدفعها التطلع أو الفضول أو الظن الحسن بما فى يده أو فى جيبه من المال ! ..

وكثير من أبناء جيلى فى الأدب والصحافة لبثوا يسمعون عن غراميات العقاد أربعين عاما أو أكثر ، ولو كانت الكتابة الآن فى مثل هذه الأمور حرة طليقة كما كانت خلال العصور العربية الأولى - فى عهد الجاحظ مثلا ، أو بعد ذلك فى عهد أبى الفرج الأصبهانى إلى آخر عهد الدولة العباسية - لسهل الأمر ، ولكتب كل أديب عاصر العقاد ما سمعه منه أو من صديقاته أو من أصدقائه ، أو ما شاهده بعينيه مما نسميه مغامرات العقاد العاطفية !

على أن الأمر هين ، فالعقاد الذى عاش كالنجم المتلألئ شهرة ومكانة ، كان فى الميدان العاطفى متواضعا - كما سلفت الإشارة -

ولولا قيمته الأدبية العظيمة لما كانت مغامراته هذه تستحق أن يبالى بها أحد .. فأين هى من مغامرات الأديب فلان والشاعر علان والصحفى ترتان ؟!

وأصدقاء العقاد وتلاميذه هم الذين جعلوا من الحبة قبة فى «غراميات العقاد» .. فلم يكد يلحق بالرفيق الأعلى حتى تنافسوا فى تعريف القراء بما خفى عليهم من الحياة الخاصة للكاتب العملاق ، وأوشكوا أن يزعموا أنه كان على مذهب دون جوان أو كازانوفا .

وكنا نقرأ ما يكتبون ونتساءل : ما بال أقرب الناس إليه ، وهو عامر العقاد ، لا يكتب عن هذه الغراميات ؟! ..

فلما كتب عامر العقاد - رحمه الله - كتابه «غراميات العقاد» بعد سنوات من الصمت لم يجئ بجديد ، ولم يضف شيئا إلى ما كتبه من قبل أصدقاء وتلاميذ العقاد عن غرامياته ، ولكن كتاب عامر العقاد كانت له أهمية خاصة ، فمؤلف هذا الكتاب هو ابن شقيق العقاد ومدير أعماله وكاتم سره فى العقود الثلاثة الأخيرة من حياته .. عاش بجواره يسمع ويرى ما لا يتاح لغيره أن يسمعه أو يراه .. واطلع على وثائقه الخاصة فى حياته وبعد مماته ، واكتملت له بذلك صفة المصدر الموثوق فيما يتعلق بأسرار العقاد التى عرفها الناس ، وأسراره التى

لم يعرفها إلا قليل من «خاصكية» العقاد - على حدّ التعبير المملوكي عن خواص السلطان فقد كان العقاد سلطانا على أولئك الخاصكية - وبهذه الصفة الخاصة جدا ، نشر عامر العقاد - رحمه الله - كتابه الذي سماه «غراميات العقاد» فلم يضف شيئا مذكورا إلى ما رواه أصدقاء العقاد وتلاميذه وخواصه في كتبهم ومقالاتهم وأحاديثهم وأسمارهم ، بل لعلهم زادوا عليه واستفاضوا في كشف خبايا هذه «الغراميات» أكثر مما استفاض ، حتى اضطروه اضطرارا إلى أن يقتبس منهم في كتابه ويستشهد بأقوالهم ، ويسند كلامه إلى كلامهم ، وكأنه ناقل متواضع المعلومات يأخذ من مصادر أصلية غنية بالمعلومات ، مع أنه - فيما كنا نظن - كان المصدر الأصلي الذي يأخذ عنه الناقلون ! ..

وقد سألت عامر العقاد عند صدور كتابه ذاك : لماذا أصدره ؟! .. فقال : أردت أن أنفي غير الصحيح مما كتب أصدقاء العقاد في هذه الأمور الدقيقة ! .

كأنما ظن عامر - رحمه الله - في لهفته على توضيح تاريخ عمه العظيم أن الناس لن يصدقوا ما قرأوا عن غرامياته إلا إذا أكدها عامر بنفسه وقال لهم إنه رأى هذه الغراميات بعينيه ، وسمعها أو سمع عنها بأذنيه ، وعرف أسماء بطلاتها الحقيقية غير المستعارة ، ولمس

وثائقها الخطية والمادية بأصابع يديه ! .. عندئذ لا يبقى فى نفس أحد أدنى ريب فى أن العقاد هو صاحب تلك الغراميات المشهورة فى الكتب والصحف وشاشة التليفزيون !

إلا أن عامرا - رحمه الله - أدرك وهو يقلب فى صفحات غراميات عمه أنها صفحات قليلة ، بسيطة ، بل ساذجة لا تستحق أن يؤلف المؤلفون عنها كل هذه الأكداس وكأنها من كبريات قضايا عصر العقاد، ومن مقومات أدب العقاد وفكره وشعره ونثره ! ..

لكن عامرا أراد أن يثير اهتمام الجيل الجديد الذى لا يمكن أن يهتم بسذاجات العقاد فى الحب ، فأضاف إلى غراميات عمه ما تفتقر إليه من غرابة وحرارة فروى فى كتابه أن العقاد كان يخلط بين قسوته فى مقالاته على أعدائه السياسيين وبين طلبه الشفقة والرحمة من حبيباته ، فيخوض فى وقت واحد معركة القسوة السياسية ، ومعركة طلب الرحمة الغرامية !!

وقد أثارت هذه الحكاية أنيس منصور فحمل فى إحدى مقالاته على صديقه عامر ونعى عليه أنه قد ظلم عمه ظلم ذوى القربى الذى هو أشد مضاضة على النفس من وقع الحسام المهند .. كما قال الشاعر القديم ..

وقال أنيس إن العقاد لو كان فى العشق والسياسة على ما

وصفه ابن اخيه لما كان إلا مريضا عاديا من المرضى الذين يتلذذون بتعذيب أنفسهم وتعذيب غيرهم ، ولكان مكانه الصحيح طوال حياته هو مستشفى الأمراض النفسية أو العقلية ، لا قمة الحياة الأدبية ! ..

ويؤكد أنيس أن اقصى ما كان يذهب إليه العقاد هو اللعب أو التلاعب بعواطف من يحب ، وإن لم يكن العقاد لعوبا فى الحب أو فى غير الحب !..

ومهما يكن من شئ فإن العقاد كان فى الموقف الأضعف بالنسبة لمن أحبهن .. ابتداء بالآنسة مى ، وانتهاء بالثلاث الأخريات اللاتى ذكرهن عامر العقاد فى كتبه ، إلى غيرهن من المجهولات والمتواضعات اللاتى سمعنا عنهن ورأينا بعضهن .. وهذا ما جعل العقاد دائما مفتقرا إلى عطفهن ، بالرغم مما كانت تصوره له كبرياؤه من أنه قابض بيد من حديد على زمام كل منهن ، جالس إليهن جميعا فى مركز القوة الذى لا يتزعزع !

غير أن العقاد العاشق كانت له - على حد تعبير سياسى من أشهر تعبيراته - «يد من حديد فى ذراع من جريد» .. وكان جمعه بين الحديد والجريد فى يده وذراعه يورده موارد الفشل والحسرة فى كثير من الأحيان ، فهجرته «إليس» الشقراء التى سماها «سارة» إلى كثير من الرجال المختلفى الطبائع والأشكال .. ثم هجرته «السمراء»

الفارعة القوام إلى مثل هؤلاء الرجال ، وصارحته بأنها لا تريده إلا واحدا من هؤلاء ، فلما أبى ذلك باعدها مكرها مهزوما ، ثم بكى من هجرانها الذى لم يترك له بصيصا من الأمل في الوصال ، ولم يُعْقب فى قلبه إلا عقابيل كالجمر يتقلب عليها !

أما الآنسة مى ، فزعموا فى المسلسل التليفزيونى أنها بادلته الحب ، بل بادأته الحب ، وقد علم الله أن هذه الآنسة لم يكن بينها وبين العقاد إلا الحب المشترك للأدب ، وأنها لو فتحت باب الحب لرواد صالونها الأدبى ، لدخل منه عشرات الأدباء وغير الأدباء من كبراء زمانها المفتونين بها ..

لقد أحب العقاد «الآنسة مى» حبا شفويا فى صالونها الأدبى المزدحم بالمعجبين والعاشقين وعلى رأسهم المجنون بها مصطفى صادق الرافعى الذى ردت على جنون حبه بالتفكير فى تقديم بلاغ إلى «النيابة» تشكوه فيه .. ولو كتب العقاد عن حبه لها معشار ما كتبه الرافعى لساقته أيضا إلى النيابة العمومية بتهمة السب والقذف العلنى ! ..

إن حبائب العقاد كن محترفات حب ، على اختلافهن فى أساليب الاحتراف ، ولو تتبعنا واحدة منهن فقط لرأينا لها فى عشرين أو ثلاثين عاما بعد هجرها للعقاد ثلاثين قصة حب وزواج فى مصر وخارج

مصر ، وليت العقاد عاش حتى رأى حبيبته هذه وقد قاربت الثمانين من عمرها المديد السعيد .

وهؤلاء الحبائب المتنقلات حيث شئن من الهوى ، أرغمن العقاد على طلب العطف والحنان من المرأة ، بعد الاكتواء بنيران الغيرة والشك ومحاولات التسامى الرومانتيكى الساذج الذى يلطمه الواقع بعنف وقسوة !

لقد جرت المقادير على العقاد بذلك النوع البدائى القاسى من الحب ، مرة بعد مرة ، في عصر الحجاب والنقاب ، والرومانسية ، والحبيبات البائعات اللاتى كن فئة فى المجتمع قائمة بذاتها ! ..

ومن هذا النوع الأخير عرف العقاد نساء كثيرات ، وله مع بعضهن «مغامرات» لم يسلم من عواقبها القانونية والاجتماعية الخطيرة إلا بحسن الحظ أحيانا ، وبصعوبة وتضحية أحيانا أخرى ، وكان أساسها دائما قلة تجربته وعجزه عن فهم الفرق بين حبيبات القصائد الشعرية ، وحبيبات السويعات العابرة !

وليس من هؤلاء بعض الأديبات اللاتى كن يجتمعن حوله اجتماع الفراشات حول المصباح الوهاج ، فهؤلاء طبقة من حبائب الندوات والمجالس يذكرهن العقاد ساعة ثم ينساهن .

وليس منهن بعض الأوربيات اللاتي عرفهن معرفة عابرة جدا عن

طريق صديقه الشاعر الفنان عبدالرحمن صدقى الذى كان سكرتيرا أو مديرا لدار الأوبرا .

وليس منهن تلك الأديبة التى تكتب القصص والروايات على كثرة ما يتناقله عنها وعنه الرواة !! ولا المطربة التى نظم لها بعض الأغانى .. وليته ما نظم لها ولا غنت له !

أما «زوجته» التى كانت تعمل بالتمريض - أو ما يشبه هذا العمل - فقد تواترت الروايات عنها ، فلاشك فيها وإن لم يتزوجها بعقد رسمى ..

روى لى قريبه المرحوم الصحفى الأستاذ سيد العقاد ، وكنت عرفته عندما كنت أنشر مقالات فى جريدة المساء فى أوائل الستينيات ، أن العقاد احب تلك السيدة نوعا من الحب ، وأوجب على نفسه نفقتها ، ثم فوجىء بأنها حملت منه فلم يطلب منها اجهاض الحمل ، حتى ولدت بنتا جاءت صورة وجهها كصورة وجه العقاد تماما مع شئ من جمال أنثوى ، وقد نشرت الصحف صورة هذه الفتاة بعد وفاته .

وتعهد العقاد البنت وأمها بالنفقة والرعاية ، وكان من فرط شعوره بالحنان الأبوى نحو بنته هذه ، يغسل ملابسها بيديه ، فلا يترك حتى ملابسها الداخلية ، وهى يومئذ طفلة تتسخ ملابسها

بسرعة وتتلوث بالقاذورات .. فكان العقاد يغسل هذه القاذورات بيديه ، ثم «ينشر الغسيل» بيديه أيضا على الحبال في شرفة الشقة التي تسكنها بنته وأمها ومعهما شخص اضطر العقاد أن يكتب باسمه شهادة ميلاد هذه البنت ، فكان في عمله هذا ناقص الشجاعة ، لا يمكن التماس عذر له في إنكاره ابنته وإضافة اسمها إلى اسم شخص غريب ..

ولكن العقاد فعل ذلك ولا يعلم سره أحد ، غير أنه كتب وصية للفتاة مزقها الآخرون ، وطردوها حين جاءت إليهم عند وفاته تبكى .. ثم دفعها اليأس إلى الانتحار !

روى لى المرحوم سيد العقاد هذه القصة ، وكان وثيق الصلة بالعقاد ، مطلعا على أسراره .. وكم كنت أود لو كان المرحوم سيد العقاد حيا الآن ، إذن لأدلى فى شهادته بالتفاصيل الكثيرة التى لا أتذكرها .

وقال لى سيد العقاد - رحمه الله - إنه يقال إن للعقاد ابنا من إحدى حبائبه هاجر من مصر إلى بلاد الخليج ، وهو شديد الشبه بالعقاد كأخته غير الشقيقة التى ذكرناها .. ولا يعلم إلا الله حقيقة هذا الذى قيل ..

ولا أتعدى فى قصة هذا الابن ، هذه الكلمات وإن كان عندى الكثير

غيرها ، لأن سيد العقاد - مع شديد الأسف - لم يعد موجودا بيننا .. وتقتضى الأمانة أن نقف عند هذه الحدود .. ويرحم الله العقاد .. لقد عذبه أبناؤه أيضا ، وأرغمته الدنيا على أن ينكرهم ، إن صحت رواية المرحوم سيد العقاد ، التى نعرضها ولا نقول فى صاحبها إلا خيرا . ولا نجد مصداقا لها إلا أن نؤكد أن هذا ما سمعناه منه حرفيا .. ولعل من قدامى أصدقاء العقاد وخلطائه من شهد بذلك ، وفيهم من لا يستحل الكذب ووضع الأخبار ، وكان فى مقدمتهم الأستاذ محمد خليفة التونسى .

على أننا فى كل الأحوال نكن للأديب الكبير الراحل ، كل احترام وتقدير ، ولا نقصد إلا إلقاء الضوء على جوانب من حياته - رحمه الله - كما جرت العادة عند الكتابة عن أمثاله من عظماء الرجال ..

ثم لابد لنا أن نعود إلى حكايته مع الآنسة مى ..

فلا عجب أن تكون له حكاية تدور حول اسم هذه الآنسة الأديبة الشهيرة ، فإن جميع قصص الحب المأثورة عن أدباء عصرها - إلى أواخر العشرينيات - تبدأ دائما بقصة هذا الأديب أو ذاك معها هى بالذات ، لأن عصرها كان خاليا من أديبة برزة جميلة إلا منها !

أما رسائل العقاد إلى مى ، فليس فيها سطر واحد يثبت أن حبا

كان متبادلا بينهما ، أو كان بينهما شروع فى حب ، أو تفكير فى حب ، إلا ما تدل عليه بعض السطور من الحب اليائس الذى حمله العقاد من طرف واحد ، كما حمل مثله الرافعى وإسماعيل صبرى باشا وولى الدين يكن وغيرهم ..

إن العقاد لم يفز من مى ولا بإشارة واحدة تقول له ولو من بعيد جدا إنها فهمت أنه يحبها ، مع أنها بطبيعة الحال كانت تفهم ذلك كل الفهم ..

وعزاء العقاد فى ذلك أن جميع من أحبوا تلك الآنسة العنيدة التى بلغ عنادها حد الشذوذ ، ثم حد الجنون ، قد رجعوا من حبهم يجرون أذيال الخيبة والخذلان ! ..

لقد كانت غراميات العقاد ومغامراته الساذجة التى يقوم بمثلها كل رجل عزب مثله ، زاده الوحيد فى تطلعاته الرومانتيكية المحرومة ..

وحين تزوج ، لم يتزوج عن حب ، ولم يعترف بثمرة الزواج ، مع أن ثمرته ملأت قلبه وأحرقته خوفا عليها وقلقا على مستقبلها .

ولا أحد من العارفين بفن الشعر وفن النثر يقول بأن غراميات العقاد ألهمته أحسن الشعر ولا أحسن القصص ، ولكنها على أية حال فتحت له بابا إلى الإلهام ، فقد كان يستشفى من داء الحب بداء الشعر والكتابة .. .. كقول المتنبى :

قد استشفيت من داء بداء

وأقتل ما أعلك ما شفاكا

وبين المتنبى والعقاد مشابه فى هذا الباب ، فقد كان المتنبى يوصف بأنه رجل «عزهاة» أى ليس بصاحب غزل وصحبة للنساء لانشغاله بأحلامه في المجد والعظمة ، وكذلك كان العقاد ، فهو «عزهاة» كالمتنبى ، ولم تكن مغامراته هذه إلا على هامش حياته ، ولم تستغرق من عمره الذى بلغ خمسة وسبعين عاما ، إلا مدة يسيرة متقطعة الأيام والساعات بين السنين والشهور .. فلو أنصفه من كتبوا عن غرامياته لبينوا للناس هذه الحقيقة ، ليعرفوا أن المرأة دخلت حياة العقاد كما تدخل المرأة حياة كل رجل ، ولكنها لم تقتطع من حياته إلا هنيهات ، سعد ببعضها ، وشقى ببعضها الآخر ، ولكنه فى النهاية كان يعود إلى طبيعته كرجل عزهاة بين أمثاله من الرجال العزاهى الذين يطربون للجد والمجد أكثر مما يطربون للغزل واللهو ومحاورة النساء وانفاق العمر الطويل بين أيديهن ! ..

وقد أعانته طريقة حياته أو أرغمته على أن يأخذ من النساء نصيبا قليلا ، بل ضئيلا ، ولا يدرى أحد أى نصيب كان العقاد يأخذه من النساء لو لم يتحكم فيه ضيق ذات يده ، ثم ضيق ذات العصر الذى عاش فيه ، ثم إخلاصه الشديد لمجد الأدب والفكر ! ..

العقاد
وقصة ابنته المنتحرة

كانت مقالتنا عن «غراميات العقاد» مثار تعليقات ونقدات شتى حين نشرناها في مجلة «الهلال» .. تتابعت علينا ؛ فصار لزاما أن نعود إلى هذه «الغراميات» نجلو ما غمض من كلامنا حولها . ونرد شبهة من هنا أو هناك حول بواعث ما كتبناه عن هذا الجانب «الحساس» الذى استعظم أمر الكلام فيه بعض محبى العقاد ، كأنما كان العقاد راهبا في دير ، أو عاشقا من بنى عذرة فى سالف الزمان ! ...

وليس أحد ممن أبدوا الغيرة على تاريخ العقاد أو اسمه الكبير ، أغير منا على تاريخه واسمه ، فله علينا يد نحفظها ، وهو عندنا واحد من أبلغ كتاب العربية من لدن بداية النثر الفنى فى عهد عبد الحميد أو ابن المقفع ، أى خلال أكثر من ألف ومائتى سنة ..

ولم نكتب عن غراميات العقاد إلا بعد أن كتب عنها أخلص أصدقائه وأقرب ذوى قرابته ، وحسبك منهم عامر العقاد - ابن أخيه - الذى ألف كتابا عنوانه «غراميات العقاد» .. ومنه استعرنا عنواننا ! .. وطاهر

الجبـــلاوى - صديقه الصدوق وكاتم أسراره - وأنيـــس منصور أشـــهر تلاميذه وصاحب أعظم الكتابات عنه وأشدها صراحة واستفاضة ..

ولم نقصد بمقالنا السابق إلا إلقاء الضوء على جانب من حياة العقاد ، وقد جرت العادة على عدم اغفال مثل هذا الجانب عند الكتابة عن أمثاله من عظماء الادباء والمفكرين .

والسادة الذين كتبوا إلينا مختلفو القرائح والفهوم والعلوم ، أخذوا من مقالنا على قدر اختلافهم فى هذه المواهب ، فاختلفت كلماتهم ونبراتهم ، ولكن اكثرهم يرى أننا أخطأنا على العقاد ، أو تزيدنا عليه ، أو جحدنا حقه ، فى النقاط التالية :

- علاقته بالأديبة الآنسة مى ، وقولنا انها بادلته حب الادب والفكر ولم تبادله حبا وراء ذلك ، وإنه لو كان طاردها بغرامه لقدمت فيه شكوى إلى النائب العام كما أوشكت أن تفعل ذلك بمجنون غرامها الاول الاديب الكبير مصطفى صادق الرافعي رحمه الله ورحم العقاد ...

- قولنا إنه اكتوى بنار الحب والغيرة والشك ، وإن حبائبه كن خبيرات بهذا المضمار ، وكان ساذجا فيه ، يخلط بين حبيبات القصائد الشعرية وحبيبات السويعات العابرة .

- حديثنا عن «ابنته» التى انتحرت يأسا عقب وفاته إذ أنكر عليها

الآخرون حقها فى ميراثها منه ، وكان مسجلا فى وصية بخط يده أخفاها أولئك الآخرون ..

– ما وصفنا به العقاد من أنه كان «عزهاة» كأبى الطيب المتنبى ، وأنه كان له فى الحب يد من حديد فى ذراع من جريد .

– قولنا إن العقاد لم يكسب مالا من تأييده للوفد وسعد زغلول باشا، وأنه لم يقتن عمارة ولا بيتا ولا سيارة من تأييده لسعد والوفد ..

– استعظام بعضهم أن «نرمى» العقاد «بتهمة» حب نساء لم يكن زوجات له .. من أمثال سارة وسمراء الفن والمرأة التى أنجبت له ابنته .. وأخريات ! .

وعلى هذه النقاط نتكلم بوجازة ، لأن المقام لا يتسع للاسهاب وإن كان الاسهاب ممكنا..

ونتخذ من أقوال أصدقاء العقاد مصداقا لقولنا ، فلا نقول من عندنا شيئا إلا بسند من قولهم ..

فأما الآنسة مى ، فيقول من كتبوا إلينا انها بادلته الحب ، أو بادأته بالحب ، أو أعلنت عليه الحب كما ظهر ذلك فى المسلسل التليفزيونى الساذج الذى صنعوه عن العقاد .. ولكن الحقيقة غير ذلك ، وكنا نود لو أنها كانت كذلك ، إذن لصنعت للعقاد تاريخا فى الحب غير تاريخه الذى

نعرفه ، ولصنعت للآنسة مى تاريخا فى الحب والحياة ، وقد أجمع معاصروها على أن العقاد كان فى آخر صفوف محبيها أو عاشقيها ، ولم يجعل منه ومنها حبيبين متفاهمين إلا صديقه طاهر الجبلاوى فى كتابه الذى عنوانه «فى صحبة العقاد» . ولم يجد دليلاً على ذلك إلا قصيدة كتبها العقاد تشوقا إلى مى حين سافرت إلى الفاتيكان ، للحج أو للسياحة ! ..

ولو أن كل من كتب شعرا أو نثرا عن مى كان فى الواقع – الذى صار الآن ماضيا – متفاهما معها على الحب ، لكان قد سبق الناس جميعا إلى حبها مصطفى صادق الرافعى الذى ملأ الدنيا وشغل الناس بكتابته عنها شعرا ونثرا منذ عرفها إلى آخر حياته رحمه الله ! ..

وأقصى ما بلغه العقاد في حب مى ما أشار اليه الجبلاوى بقوله فى كتابه : «كان يداعبها فتقبل منه المداعبة البريئة ، فإذا تعدى هذه الحدود ، أشارت إليه ليقف عند حدوده !» ..

أهذه حال امرأة محبة مع محبوبها ؟! .. لقد كانت الدعابة بين شاب وشابة أو رجل وامرأة فى الأوساط المختلطة ، تجرى مجرى الدعابة بين انسانين متساويين فى الحظ من حرية القول والعمل فى الحدود الاجتماعية المتعارف عليها .. وأقصى ما بلغه العقاد من حب مى هو

هذه الدعابة البريئة التى كان يحاول أحيانا أن يتعدى بها الحدود فتصده باشارة حازمة من يدها أو أصبعها أو قسمات وجهها ! . وما أبلغ هذه الإشارة ، كأنها تقول له : الحب شيء آخر ، ولست أنت صاحبى فيه !

أما كتابته إليها - على نحو ما ذكر الجبلاوى - فلم يجلس فى ندوتها اديب إلا كتب إليها ، وكان بعضهم يعلن شوقه إليها علانية وبعضهم يعلن شوقه إليها إعلانا - وقد ذكرنا أديبنا الكبير الرافعى - ونضيف اليه ولى الدين يكن - وقصائده فى ديوانه تفصح عن شأنه - ونضيف اليهما اسماعيل صبرى باشا الذى ذاع وشاع قوله الجميل عن ندوتها التى كان موعدها الاسبوعى يوم الثلاثاء :

روحى على دور بعض الحى حائمة

كظاميء الطير رفافا على المـــــاء

إن لم أمتع بمي ناظـــريّ غــــدا

أنكرت صبحك يا يـــــوم الثلاثاء

لقد كانت مى أشبه ببعض جوارى العصر العباسى - والتشبيه مع الفارق - اللاتى كن أديبات شاعرات مغنيات ، فكان الشعراء والادباء ينظمون فيهن وينثرون وليس فيهم من يظفر بغير المجالسة والمشاهدة

والمتعة بالنظر والحديث والغناء .. ولم يكن للعقاد في مي نصيب اكبر من نصيب شاعره المفضل «ابن الرومي» الذي جلس مرة أو مرتين في صالون الجارية المغنية وحيد فقال فيها قصيدته الرائعة : «يا خليلي تيمتني وحيد» التي لم يقل مثلها شاعر حتى اليوم في مغنية ولا أديبة ، ولو كان ابن الرومي قد بعث في عشرينيات القرن العشرين وقال في مي قصيدة كقصيدته الرائعة في وحيد لما ظفر من مي بنصيب أوفى من نصيب العقاد الذي لم يقل في مي إلا شعره العادي المعروف ..

وقد بلغ من جنون حب الرافعي لمي أنه فكر في الزواج منها كما يقول عنه تلميذه محمد سعيد العريان في كتابه الرائع : «حياة الرافعي» اما العقاد فكان الزواج عنده أبعد شيء عن حبيباته .. يقول الجبلاوي أنه «طبع على ألا يشاركه أحد في حياته ولا يطيق هذه المشاركة» .. فالحب عنده أحلام رومانسية ، كحبه لمي ، أو علاقة رجل بامرأة كسائر علاقاته بالنساء اللاتي تحدث عنهن من اطلعوا على حياته من قريب ..

فأين تقع مي من العقاد ، وأين يقع العقاد من مي ؟! لشتان ما حالها وحاله ، وما أبعده عنها وأبعدها عنه ! ..

أما انه اكتوى في حب سارة الشقراء والأخرى السمراء بنار الشك والغيرة ، فيقول الجبلاوي ان العقاد بعد أن امتلأت حياته سرورا بحب

سارة بدأ الشك فى سلوكها يساوره .. «رآها مصادفة فى عرض الطريق فلفت نظره تغير نظام ملبسها وتناثر فى خصلات شعرها وقد اشتم رائحة من الطيب لا تستخدمها لغير «غرض» فلم يستطع أن يعلل ما رآه .

وسمع ابنتها الصغيرة التى كانت تلازمها تنبس بكلمات مريبة فدب دبيب الشك فى نفسه وانصرف إلى منزله مكتئبا حزينا فلم تطب له راحة ولم يهدأ له بال وجافى عينه الرقاد» .. وعرض عليه صديق من خلصائه أن يقبل سارة كامرأة ويستمتع بما تهبه من متع الحياة ولهوها فأبت نفسه فهو يريدها خالصة له دون سواه ..

وكان بعد ذلك ما كان من مطاردته لها فى كل مكان ، وقد اشترك صديقه الجبلاوى فى هذه المطاردات حتى ثبت للعقاد أن سارة ذات نشاط واسع وأن قلبها مفتوح للرجال فقهر نفسه على قطع علاقته بها وهو متيم جريح الفؤاد مغلوب على أمره ..

وخُيِّل إليه بعد مدة أنه نسيها ، حتى سمع يوما أغنية على الفونوغراف لمطرب لبنانى يقول فيها بلهجته العامية الشامية :

نار الغرام لم تنطفى .. ولا المحبة بتختفى ..

يقول الجبلاوى إن العقاد لم يكد يسمع مطلع هذه الاغنية حتى بكى وأغلق الفونوغراف ولم يفتحه الا بعد سنوات ! ..

وكان العقاد يقول - وقد تهاجرا وتخاصما - انها حبه الاخير الذى لا حب بعده ، ويتمثل بقول المتنبى :

ولو زلتـم ثـــم لم ابككـم
بكيـت علـى حـبى الزائـل

ولعله كان يتمثل بقول المتنبى أيضا :

يـُراد مـن القلب نسـيانكم
ويأبى الطبـاع علـى الناقـل

أما الفتاة السمراء الجميلة التى عرفها وهى فى سن العشرين وهو فى الخمسين - سنة ١٩٣٩ - فقد أحبها حبا جارفا وظن لقلة خبرته أنها تخصه بحبها دون سواه ممن تعرف من الرجال وهم كثير حولها لأنها تشتغل بالفن ، فلما عرف أن الأمر لم يكن على ما صورته له أوهامه ، فارقها باكيا محطم القلب ، مقهورا بالوحدة والفراغ والهجر المؤلم الموحش بعد الوصال الممتع الصاخب ، فتكررت مع السمراء قصته مع سارة و«ما أشبه الليلة بالبارحة» .. كما قال الشاعر الجاهلى طرفة بن العبد ..

وظن العقاد لسذاجته أنه انتقم لنفسه منها عندما اقترح على صديقه الرسام الفنان صلاح طاهر أن يرسمها فى صورة «فطيرة حلوة

يتوســـطها قدح من العسل الأبيض وقد تجمع حولها الذباب والصرصور ، فأصبحت تعافها النفس » ! ..

كان يخدع قلبه ووجدانه بهذه الصورة التى تعافها النفس لمحبوبته السمراء التى كانت ترضى بالبقاء معه «لو أن صاحبها ممن يقبل المشاركة في هواه» .. كما يقول الجبلاوى .. «وافترقا على رغم ، وكان العقاد يذكر لى وقع هذا الفراق الذى رضيه كارها ويقول لى : ما ظنك برجل يحس يده وقد قطعت وفصلت عن جسمه وهو يراها بعينه بعيدة عنه ؟!».

ومع ذلك هجاها العقاد - على المكشوف - بقوله متهما إياها بالتنقل حيث شاءت من الهوى ، حتى هانت - في رأيه - على الرجال وعلى نفسها بعد أن هانت عليه :

خذى عشيقين مثلى

لا بل خذى الناس طرا

يلقاك هــذا بليـــل

وذاك يلقــاك ظهرا

قد هنت والله هنت

يقول هذا ثم يلجأ إلى سماع الغناء من وقت إلى وقت ، يتداوى به

من داء الغرام ، ويسمع أم كلثوم تغنى فى اسطوانة لها من شعر اسماعيل صبرى باشا وتلحين أحمد صبرى النجريدى:

يا آسى الحى هل فتشت فى كبدى

وهل تبينت داء فى زواياها ؟!

أواه من حرق أودت بمعظمها

ولم تزل تتمشى فى بقاياها

هكذا اكتوى العقاد بنار الحب والغيرة والشك والخيبة والعجز ، وإلى هذا الحد كان مثاليا وطيبا وساذجا فى حب امرأتين خبيرتين بالرجال : سارة والسمراء ! ..

★ ★ ★

أما حديثنا عن ابنته وكيف كان يغسل ملابسها بيديه وينشرها على حبل الغسيل فى شرفة البيت غير مبال بنظرات الجيران ، فقد أزعج المعجبين بالعقاد «الكاتب الاسلامى» .. وتساءلوا : أليس ما فعله حراما ؟! ، وتساءلوا أيضا : أليس هذا من اختلاق الوضاعين والرواة ؟! ..

ولكن صديقا قديما لنا هو الدكتور عصام الطاهر الطبيب ورجل الأعمال الذى كان يعمل فى الكويت بعث إلينا بقصاصة كبيرة من

إحدى الصحف الكويتية ومعها رسالة يقول فيها : «طالعت ما كتبتموه في الهلال وقرأت بشغف كبير حديثك الممتع عن غراميات العقاد ، فقد أضاف إلى معلوماتى الشيء الكثير ، ذلك أنى من المهتمين بالعقاد وقد كتبت عنه مرات فى صحف الكويت .. وقد وجدتك تطلب من أصدقاء العقاد أن يلقوا الأضواء على حياته الشخصية التى أتيح لهم أن يعرفوها ، وقدرت أنك لابد لم تطلع على ما نشره الأستاذ خليفة التونسى - صديق العقاد - فى مارس سنة ١٩٨٦ بجريدة القبس على ثلاث حلقات ، فرأيت أن أحصل لك عليها وأرسلها اليك مع رسالتى هذه ...» .

وصديقنا الدكتور عصام هو ابن شقيق المجاهد الفلسطينى الصحفى الكاتب المرحوم محمد على الطاهر .. تعلم الطب فى جامعة القاهرة وعرفته حين كان طالبا قبل ثلاثين عاما ، وغابت عنى اخباره طويلا بعد سفره ، وهو الآن رجل أعمال ترك الطب ،، واشتغل بالأدب إلى جانب الأعمال ..

جاءتنى قصاصات الاستاذ التونسى فى وقتها لأننى كنت أبحث عن شاهد صدق على ما ذكرته من قصة ابنة العقاد .. وننقل هنا - باختصار - شهادته .. قال :

«لم تكد تمضى ساعة على نعيه حتى رأينا البنت وأمها حضرتا

وهما تلبسان الملابس السوداء ، والبنت تصرخ وتتلهف ، حتى دخلتا غرفة نومه ، فأغلقت وراءهما باب حجرته ولكنى عندما سمعت الفتاة تولول خانتنى دموعى ، إذ تصورت كأننى أنا الميت ، وكأن بنتى الكبرى قد أكبت على رأسي تقبله وتعاتبنى لأنى تركتها ، وذلك ما رأيت الفتاة - يقصد بنت العقاد - عليه عند دخولها غرفة نوم الاستاذ ، فأدركتنى الرقة والضعف وسالت منى الدموع» .. و«استمر صراخ الفتاة بضع دقائق فلم أجد بدا من الذهاب اليها وتعزيتها ، وكانت الفتاة مكبة على رأسه تحتضنه وتقبله وتعاتبه فى مرارة : كيف تتركنى وحدى يابابا ؟! كيف هان عليك أن تتركنى وكنت غالية عندك ؟! لن أعيش بعدك! .. كما كانت السيدة - والدة الفتاة - منبطحة على الارض تجول يمينا ويسارا على سجادة الغرفة كأنها أفعى ضربت على رأسها ! .. وقبل خروجها وقفت فى تحد وقالت للشاب عامر : يا عامر افتح هذا الدرج من هذا الدولاب . ولما فتحناه لم نجد سوى بعض الملابس فقالت لى : إن الاستاذ كتب وصيته قبل موته بمدة طويلة وكان يضعها فى هذا الدرج ، وأنه أوصى بايراد سبعة عشر كتابا حددها بأسمائها لتكون لهذه البنت ! .. وخرجنا إلى غرفة الجلوس والفتاة تولول : آه يا بابا لمن تتركنى يا بابا ؟! لن أعيش بعدك» ! .. ثم بدأت أفكر فى الخلاص من السيدة والفتاة قبل أن يطلع النهار ويأتى المعزون ، توقيا للفضيحة ،

ولم أجد بدا من الاستعانة بأوثق أصدقاء العقاد محمد طاهر الجبلاوى .. فحضر وعزاهما وحاول التسرية عنهما ثم طلب منهما العودة إلى بيتهما اتقاء للفضيحة» .

وأول كلمة قالها التونسى للشيخ أحمد خادم العقاد عندما قضى العقاد نحبه : هل أعلمت الفتاة - يقصد بنت العقاد - الخبر ؟! . قال خادم العقاد : لا . فسأله التونسي : هل تعرف رقم تليفونها ؟ .. قال : نعم .. فلما أمره التونسى باستدعائها عارض فى ذلك أقارب العقاد ، لكن الخادم نفذ امر الاستاذ التونسي وجاءت البنت وأمها ..»

هذه هى قصة بنت العقاد كما رواها شاهد صدق كان من أعز أصدقائه .. وهو يستشهد فيها بأقرب أصدقاء العقاد وكاتم سره : الجبلاوى . وبألصق الناس بالعقاد وهو خادمه الشيخ أحمد ، وواضح جدا أن جميع أقارب العقاد كانوا يعرفون الفتاة ووالدتها ..

وفى كتاب «صالون العقاد» قال أنيس منصور إن الفتاة ووالدتها ضربتا بالأحذية فى بيت العقاد بعد موته ؟ ..

وبهذه الكلمات التى نقلناها عن أقرب الناس من العقاد نختم الكلام عن ابنته ووالدتها .. والقصة أبلغ من كل كلام ، والبراهين عليها تكفى مائة قضية شرعية لاثبات البنوة برغم كل «*الدفوع الشكلية*» على حد تعبير أهل القانون .

بقيت النقاط الثلاث الأخيرة . فقولنا إن العقاد كان «عزهاة» كالمتنبى لا يعنى أنه كان ضعيفا فى خلوته بالنساء ، بل معناه أنه كان مشغولا عنهن أغلب وقته بطلب العلم والادب .. ولا توجد أية اشارة إلى ضعفه فيما قلناه من أن العقاد كانت له مع النساء يد من حديد فى ذراع من جريد .. فإن هذه عبارة شهيرة من عباراته السياسية قالها فى المرحوم محمد محمود باشا حين صار رئيسا للوزراء قبل ستين عاما وأعلن أنه سيحكم البلد بيد من حديد ! ..

أما البيت والسيارة فلم يقتن العقاد بيتا من تأييده للوفد ولا اقتنى سيارة ، وانما اشترى السيارة بعد أن صار عضوا فى مجلس الشيوخ على عهد السعديين والاحرار الدستوريين ، وقد رأيته وهو يمر بهذه السيارة فى شوارع القاهرة فى مطالع الأربعينيات وكان له سائق ثم ضاق ذرعا بالسيارة فنفض يديه منها وعاد إلى التنقل بالمترو والتاكسى والترام وكانت المواصلات العامة أيامئذ فى غاية السهولة .. والمتعة .. والمدينة هادئة كأنها تحلم ! .

أما المستنكرون لحب العقاد نساء كثيرات وهو الكاتب الإسلامى ، فلا تعليق لنا على استنكارهم ، ونقول لهم : الله أعلمُ بالسرائر ، وليست حياة الرجال نمطا واحدا ، ولو كان العقاد قد عاش فى العهد الذى يباح فيه شراء مائة جارية من سوق الرقيق ، فماذا تراه كان يفعل ؟!

من الوجهة الدينية : لا أدرى الحكم فى قضية العقاد مع حبائبه ومع المرأة التى ولدت له ابنته التى لاشك فى أنها ابنته ..

وقد مات العقاد وماتت ابنته ومات الذين مزقوا وصيته ، ولم تبق لهم جميعا إلا رحمة الله التى وسعت كل شىء ، وقد أنجب العقاد ابنته سنة ١٩٤٤ أى بعد هجرة حبيبته السمراء ، ولم يشتهر العقاد بالكتابة الإسلامية إلا منذ ذلك الحين تقريبا ، ولا يعرف له أحد «غراميات» بعد ذلك التاريخ .. وكان بينته وبين والدة ابنته - فيما بعد - عقد غير رسمى، هو بمنزلة العقد الرسمى فى نظر الدين ، وشهوده كثيرون ... وليت طاهر الجبلاوى كان حيا ليشهد على ذلك .

فالعقاد معذور من هذه الجهة ، ولكنه فر من ميدان أبوته وربط اسم ابنته باسم شخص من الاشخاص وجنى عليها ذلك فى حياتها ومماتها، وليغفر الله للجميع .. ومن كان منكم بلا خطأ كبير أو صغير فليزم ذوى الأخطاء الكبيرة والصغيرة بما شاء من الأحجار الكبار والصغار ، وليعلن أنه مبرأ معصوم .

كاتب سيىء الحظ

الكاتب الكبير إبراهيم عبد القادر المازنى - رحمه الله - كان يؤمن بأن الحظوظ تتفاوت حلاوة ومرارة فى حياة الإنسان وبعد مماته ، فقد يعيش محظوظا ، ثم يموت فلا يتركه الحظ : شهرة وتكريما ، وبقاء فى أذهان الناس ، إلى غير ذلك مما يجلبه حسن الطالع ومواتاة الحظ للإنسان وإن مضى فى الذاهبين ألف سنة أو ألوف السنين .

وكان المازنى - بالتجربة الطويلة - قد لمس باليدين سوء حظه وعرف أن التراب ينقلب ذهبا فى يد عامى جاهل محظوظ ، أما هو - المازنى - فإن الذهب الخالص فى يده لا يمكن أن يبقى ذهبا إلا ريثما تتم العملية الكيميائية العجيبة التى تحوله الى تراب .

ثبت هذا يقينا عند الكاتب العظيم - المازنى - فصار شعاره الدائم بيت الشاعر ابن الرومى الذى يقول :

إن للحــظ كيمــياء إذا مـــا

مــس كلــبا أحـــاله إنســـانا

وكثيرا ما وصف المازنى أو تفكه بغير دهشة وبلا مبالاة كثيرة من

«كيمياء الحظ» التي شاهد عجائب فعلها في أناس عايشهم من أواخر القرن التاسع عشر إلى آخر العقد الرابع من القرن العشرين .

ومن يعرف ذكاء المازني ، يدرك أنه حاول أن يلتمس الحظ الحسن في مظانه من دنياه فأخطأه ، وكان المازني قنوعا ولكنه لم يكن يكره المال ولا ما يجلبه السعي من كرامة لصاحبه ، وحقن لماء وجهه ، وستر لعياله في حياته وبعد رحيله !

ومن المعروف أن أقران المازني من خريجي مدرسة المعلمين العليا . بلغوا أكبر مناصب الحكومة وتلقبوا بألقاب فخمة في ذلك الزمان ، وتمولوا وتأثلوا ، وخرج هو عن سبيلهم هذه فلم يصل إلى شيء مما وصلوا اليه ، ولم يكن بعضهم يبلغ أن يكون مذبة في يد المازني أو أقل من ذلك .

ومن سوء حظه أيضا أنه كان صديقا وزميلا للكاتب الكبير عباس محمود العقاد ، فحظي العقاد عند الناس ، ولو شاء العقاد لكانت حظوته هذه أكبر وأجلب للمنفعة ، في حين أشاح الحظ عن المازني ، فلم يذكره الأكثرون في حياته وبعد مماته إلا في معرض الحديث عن العقاد، كما يذكرون مثلا اسم الشاعر عبد الرحمن شكرى أو غيره من أصدقائه وغير أصدقائه .. وشتان بين المازني وبين عبد الرحمن شكرى وأمثاله !

وأوشك المازني بعد انقضاء أكثر من ثلاثين عاما على رحيله أن

ينساه الناس ، بل ان كتب المدارس المصرية تهتم بأدباء لا أهمية لهم في الحقيقة وتكاد لا تجعل للمازنى أهمية ، وهو ذو الأهمية الحقيقية لو أنصفوا .

أما دور النشر المصرية والعربية فلم يفتها أن تعيد طبع مؤلفات أدباء وشعراء كثيرين ، ولم تلتفت إلى المازنى .

ولو راجعت عدد طبعات كتب العقاد وطه حسين ومصطفى صادق الرافعى وغيرهم لوجدتها كثيرة تملأ السوق ، وهذا حسن جدا ؛ وليس بالحسن ألا يكون للمازنى مع رصفائه وأقرانه هؤلاء كتب أعيد طبعها مثل كتبهم مرة بعد مرة ، دعك من اهمال النقاد والدارسين له ، سواء فى الصحف والمجلات الأدبية ، أو فى المعاهد والكليات المتخصصة فى الأدب العربى ! ..

وقبل عشرين عاما حاول بعض المعجبين بالمازنى إعادة طبع شىء له فطبعوا بعض كتبه مختصرة حافلة بالأغلاط ، رديئة الورق ، سيئة الحظ مثل صاحبها !

وسمعت منذ مدة أن دار النشر التابعة لوزارة الثقافة ستعيد طبع مؤلفات المازنى ، وتجمع مقالاته فى كتب ، ولم أر شيئا من ذلك بعد ، ولكنى تلقيت نسخة جديدة من كتاب «حصاد الهشيم» للمازنى ، ظننتها قديمة لميل ورقها الى الاصفرار والسواد ، وطالعتها فإذا الأغلاط

المطبعية فيها غير قليلة ، وإذا بالكتاب لا فهرس له ، ولادراسة في أوله أو في آخره عن المازني تقدمه الى الناس بعد أن مضى على صدور الطبعة الأولى من الكتاب أكثر من خمسين عاما .

ومع ذلك سرني صدور هذه الطبعة من كتاب المازني ، وقلت : أول الغيث قطرة وربما كان الكتاب الثاني له أحسن شكلا وورقا وطباعة ، وأقل أخطاء ، ولعلهم يستدركون فيه ما فاتهم في الأول .. ولعل .. ولعل !

فقد لاحق المازني سوء حظه حتى عندما تذكره أهل الغيرة والنخوة من العرفاء بالأدب في أيامنا ، فخرج كتابه على النحو الذى ذكرنا ، ولكنه على أية حال جهد مشكور جدا لدار النشر التى قامت به ، فإن المازني هو أعظم كاتب مصري من المجددين في الجيل الماضى ، وإن كان انتاجه ليس كبيرا جدا ، وكتبه ليست كثيرة ؛ فقد استغرقه عمله الصحفى وأكل حياته الثمينة بالثمن البخس !

وساقه الفكر إلى الاستخفاف بالدنيا وإن لم يفته منها بعض الستر وحسن الأحدوثة عند عارفيه .

وأسلمه الاستخفاف بالدنيا الى السخرية منها وإلى السخرية من الناس ومن نفسه مع الناس !

فكان فنه في السخرية فن طبع كفن الشعراء المطبوعين ، لا تشعر

وأنت تقرؤه أنه تريث لحظة ليؤلف جملة ساخرة أو نكتة أو ما يشبه النكتة ، بل تراه متدفقا بسهولة من يواتيه طبعه بلا تكلف كنبع منبثق في الصخر ، يمده بحر من الماء العذب كامن وراءه لا ينضب ولا يتوقف !

كذلك كان عظماء الأدباء الساخرين فى الأدب العربى وغيره من آداب العالم ، على اختلاف مذاهبهم وطبائعهم فى السخرية ، وماتتضمن من «خلفيات» تتعلق بالنظر الى الحياة والكون والمجتمع والنفس وما تخلعه موهبة الكاتب على صناعته الساخرة هذه ، وهى أدق صناعات الأدب وأحوجها الى الطبع والفطرة والموهبة .

وإن المازنى ـ فى هذا المضمار ـ ليقف فى الصف الأول بين هؤلاء جميعا شرقا وغربا .. فيما أتيح لنا أن نعلم ونتقصى .

ومن خفيف سخره وظرفه أنه حين قدم الطبعة الأولى لكتابه «حصاد الهشيم» قبل سبعين عاما ، لم يدع الفرصة السانحة تفلت دون أن يقول شيئا فقال لقارئه : «هذه مقالات لا أزعمها ستحدث انقلابا فكريا فى مصر ، أو فيما هو دونها ، ولكنى أقسم أنك تشترى عصارة عقلى وإن كان فجا ، وثمرة اطلاعى وهو واسع ، ومجهود أعصابى وهى سقيمة ، بأبخس الأثمان ، وتعال نتحاسب .. إن فى الكتاب أكثر من أربعين مقالا تختلف طولا وقصرا .. وعمقا وضحولة ، وما أحسبك ستزعم أنك

تبذل فى ثمنها مثل ما أبذل فى كتابة هذه المقالات من جسمي ونفسي، ومن يومي وأمسي ، ومن عقلي وحسي ، ثم انك تشترى كتابا ، هبه لا يعمر من رأسك ، خرابا ، ولا يصقل لك نفسا ، أو يفتح عينا ، أو ينبه مشاعر ، فهو ـ على القليل ـ يصلح أن تقطع به أوقات الفراغ ، وتقتل به ساعات الملل والوحشة ، أو هو على الأقل زينة على مكتبك ، ثم أنت بعد ذلك تستطيع أن تبيعه وتنكب به غيرك ، أو تفككه وتلف فى ورقه ما يلف ، أو توقد به النار على طعام أو شراب أو غير ذلك» .. إن هذه المقدمة الساخرة لا يكتبها إلا المازنى .

الكاتب والأوهام

أكتب عن الكاتب الكبير المرحوم ابراهيم عبد القادر المازنى ، بعد أن قرأت في الصحف اعلانا صغيرا عن مجموعة كتبه ، تعرض كاملة لأول مرة فى معرض الكتاب الدولي بالقاهرة «١» .

وقد أخرجت دور النشر مجموعات كثيرة لأدباء أقل من المازنى شأنا ، ولكنهم أوفر حظا .. وكان المازنى ـ حيا وميتا ـ قليل البخت !

وآثار المازنى أكثر من مجموعة كتاباته في المعرض ـ وقد جاءني

«١» أقيم فى أوائل الثمانينات .

بهـا أحـد الأصدقـاء - وحيـاة المـازنى أعـرض وأحـفـل من جمـيع كتاباتـه وآثاره .

ومقالاته السياسية لا تقع تحت حصر ، عالم من الكتابة قائم بذاته ، ولو جمعها الناشرون لاكتملت «مجموعته» حقا .. وهذا عمل عجزت عنه دور النشر حتى الآن ، كما عجزت عن نشر مقالات العقاد السياسية إلا قصاصات منها لا تغنى شيئا .. ولا يجهل عارفو العقاد ومعاصروه أهمية مقالاته السياسية وقيمتها الكبيرة للتاريخ والأدب .

كتب المازنى الشعر والمقالة والقصة والحواريات التى تشبه أن تكون محاولات مسرحية قصيرة .. وأوغل فى الأدب الانجليزى ، وترجم منه الكثير ، وخاض فى الأفكار الأوربية متأملا أو ناقلا أو مقتبسا أو معلقا أو ناقدا أو شارحا أو متحيرا يحاول أن يفهم أو لا يبالى أن يفهم !

وأنحى باللائمة على أدباء فى عصره سماهم «المحافظين» أو التقليديين - وكذلك كان يسميهم من على مذهبه في وقته - وركبهم بالسخر.

اتهم المازنى غرماءه المحافظين هؤلاء بأنهم صرعى قوالب لغوية وفكرية ، شعرا ونثرا ، ودعا الى القفز فوقهم .. لأنهم حاجز بين الزمن القديم والزمن الجديد .. وهل ينسى أحد من المخضرمين أو ممن سلك

طريقهم من جيلنا وقرأ كتاباتهم ما اشتجر من عراك فى العشرينات والثلاثينات بين هاتين الطائفتين الكبيرتين من أدباء مصر ؟!

ولكن الزمن الذى يكنس أتربة الذكريات ويحل الجديد دائما محل القديم ، سخر من المازنى وأصحابه سخرية لاذعة ، فلم يكد الزمن يدور قليلا فيبلغ الخمسينات ، حتى وثبت طائفة جديدة من المجددين ، تصف المازنى والعقاد وطه حسين والدكتور هيكل ، ومن اليهم ، بأنهم صاروا من القدماء ، أعداء التقدم الاجتماعي والسياسي والأدبى والفنى وكل ما يعمله الجيل الجديد أو يحلم به فى سبيل حياة أكثر تقدما !

لم يكن المازنى على قيد الحياة حين اشتدت الدعوة الجديدة ، فقد توفي - رحمه الله - سنة ١٩٤٩ وهذه الدعوة فى بداية أمرها ، لا يكاد أحد يتبينها أو يباليها ، ولكن سرعان ما اشتد ساعدها ، وفى الميدان يومئذ العقاد وطه حسين وأمثالهما ، فى بدايات الخمسينات الى أواسط أو أواخر الستينات ، فتصدى هؤلاء «القدماء» للهجمة الجديدة ، وحاولوا الضرب علي أصحابها بيد من حديد .. ولعل المازنى لو عاش إلى منتصف الستينات - كزميله العقاد - وشهد هذه الوقعة الفكرية الجديدة لسارع مستسلما ساخرا من خائضيها منتصرين ومنهزمين ، مجددين وغير مجددين .

ولعل أقصى ما كان يشارك به فى هذه المعركة أن يرفع عقيرته

صائحا : عشنا وشفنا أنفسنا نحن دعاة التجديد ، يقال لنا : رجعيون وأعداء للتقدم !

كان المازنى واقعيا جدا ، لا تداخله الأوهام ، بارد العقل وإن احتدمت عاطفته أحيانا واستعرت .. فلم يكن يؤمن بما يسميه بعض الأدباء المتفائلين : «الخلود الأدبي» . هذا الخلود يحلم به بعض الأدباء وهو أضحوكة تدعو للرثاء لهم ، فأى قلة عقل هذه التى تجعل هذا الأديب أو ذاك يحلم بالخلود على ورق الكتب مئات السنين وهو تراب فى القرافة ؟!

وكتبنا مرة عن المازنى أنه كان يمت الى الوجوديين الماديين بأواصر فكرية واضحة ، وإن كان كلامه لا ينم عن اطلاع على الفكر الوجودى المادى أو الوجودى المثالى أو الغيبى .. فإن الوجودية فى عصر المازنى لم تكن مذهبا يلفت أنظار مفكرينا وأدبائنا المطلعين على الفكر الأوربى .. وحسبك أن العقاد وهو أوسع أدبائنا اطلاعا على الفكر الأوربى لم يلتفت الى الوجودية التفاتا فاحصا إلا فى الخمسينات .. بعد أن صار تلميذه أنيس منصور من أعلامها فى مصر .

مع ذلك يمكن أن يقال إن فكر المازنى يحتوى عناصر وجودية .. فالوجودية ذات أصول قديمة ترجع إلى السوفسطائيين قبل سقراط .. وكان سقراط نفسه سوفسطائيا ، وإن كانت حكمته الواقعية تجعله فى

نظرنا كأنه من حكماء العرب في الجاهلية .. والفكر الإنسانى على أية حال أرحب من أن تكون جذوره الوجودية وغير الوجودية مقصورة على تراث الاغريق !

هكذا يبدو لنا المازنى وجودى الفكر بلا مذهب وجودى مادى أو دينى .. فلم يكن له تحصيل يذكر فى هذا المذهب من كتبه ومراجعه الأوربية أو غيرها .. ولم يمر به إلاّ مرّ الكرام ضمن قراءاته الأخرى المترامية الاطراف !

وهذا ـ فيما نظن ـ من الفروق الواضحة بين المازنى وصديقه العقاد، مع أن العقاد تعاطى الفلسفة بشراهة ، ودخل فى دهاليزها .. ولكنه بعد أن تجول طويلا فى الفكر والحياة ، شرع يتحول شيئا بعد شيء الى الفكر الدينى ، حتى صار بعد حين معدودا بين المفكرين الدينيين ، وكان بعض معاصريه من قبل يرمونه بمعاداة الدين والطعن فى إعجاز القرآن .

ومن ذلك ما يذكره الأديب الكبير المرحوم مصطفى صادق الرافعى حول كلام له مع العقاد عن إعجاز القرآن ، فإن العقاد ـ كما يقول الرافعى ـ صرح خلال هذا الحوار بنفي الاعجاز .. فاتهمه الرافعى بالكفر البواح ، وقال فى رسالة الى صديقه الأديب محمود أبو رية ان تحت يده «مستندا» بخط العقاد يسجل فيه أنه لا يعتقد فى إعجاز

القرآن ! وقال الرافعي حرفيا: «إن الرجل ـ يعني العقاد ـ صرح لى أنه لا يعتقد بالقرآن ولا بالنبوة ولا بالوحى» !

لا دليل فى يدنا على كلام الرافعي .. ولكن الثابت أن العقاد صار بعد ذلك من ذادة الاسلام ، واتخذت كتبه الاسلامية مكانا فى الأدب العربى الحديث .. وسقط الاتهام عن العقاد ، وليس بلاؤه في الإسلام أقل من بلاء الرافعى نفسه ، رحمهما الله جميعا !

كان المازنى أسلس قيادا من العقاد ، مع اتفاقهما فى بداية أمرهما حول التجديد وحرب المحافظين أو التقليديين .. وكان المازني في كتابته أكثر اعلانا لتمرده على القديم كله ، حتي ليمس بتمرده هذا هوامش أو حواشى عن الدين هنا وهناك .. ولكن سخريته بكل شيء ، ولامبالاته كانت لاتفوته أبدا ، فعندما ذهب اليه الرافعى وأطلعه على «غلطة» فى مقالة للعقاد حول إعجاز القرآن ، كان قد نشرها فى الصحف ، قال المازنى للرافعي ضاحكا : «إن الانس والجن لايمكنهم انقاذ العقاد من هذه الغلطة» !

نذكر هذا الكلام كله عن المعركة بين المجددين والمحافظين على حد التسمية التى كانت شائعة فى حينها ـ لأن المازنى الذى كان مجددا باستيعاب الفكر الأوربى وترجمته وتلخيصه وتفهيمه للقراء والنسج على منواله ، كان فى الوقت نفسه من أكابر «المحافظين» أو «التقليديين» فى

لغته وأسلوب كتابته .. وكان هذا الاسلوب بفصاحته وسجعه «نعم سجعه الذى يشبه سجع ابن العميد ـ لا يفترق فى جوهره ومظهره عن كتابات القرون الغابرة !

كان أسلوب المازنى ـ فى مجموعه ـ يذكرنا بأسلوب الجاحظ وأدباء العصر العباسى الأول من ابن المقفع الى ابراهيم بن المدير وعمرو بن مسعدة ومحمد بن عبد الملك الزيات والمبرد وأمثالهم ممن لا يحصون لكثرة براعاتهم وكثرة اسمائهم .. وكان حين يسجع يغبر فى وجه ابن العميد والصاحب ابن عباد والقاضى الفاضل ..!

وكان هذا التناقض بين أسلوب كتابته وفكر كتابته يبدو عجيبا ، ولكن الجميع أقروا كلهم بأنه استطاع أن يؤدى بهذا الاسلوب جميع ما أراد أن يؤديه الى قراء زمانه من المعانى الدقيقة المختلفة المتنوعة فى الفكر الأوربى المعاصر .

لم يكن المازنى يتعمد أن يكتب بلغة الأسلاف ، بل كانت هذه لغته الأدبية التى تجرى منه مجرى الطبع ، وتسيل من قلمه بلا تكلف ؛ فقد استوعب لغة الأدب العربى استيعابا رسخ فى سليقته وطبيعته رسوخا عظيما يندر أن يحصل لأديب فى عصرنا ، فجرت تركيبات التعبير الكلاسيكى على قلمه فى كل ما كتب ، وصار مطبوعا عليها ، كأنه نشأ بين أهلها .. والحقيقة قريبة من ذلك كل القرب لأنه نشأ على كتب أهلها

ففصح لسانه كأنه نشأ فى البادية .

ولما حاول التخفيف من هذه الطبيعة البيانية أو اللغوية فى مقالاته الفكاهية فى مجلة الرسالة وغيرها – فى أخريات سنيه - غلب فيه الطبع محاولة التطبع – فجاءت مقالاته فكهة بارعة الفكاهة ، خفيفة اللفظ ، ولكن فى مثل خفة لفظ الجاحظ تقريبا حين يتفكه ويبرع فى الفكاهة ، لا فرق إلا مسحة من الكلام العصرى الذى لابد منه ، وألفاظ لم تكن موجودة فى حضارة بغداد قبل ألف سنة .

بهذا الاسلوب العربى الحسيب النسيب «المحافظ» كتب المازنى شعره ونثره على اختلاف أغراضهما ، وشارك زملاءه المجددين فى الدفاع عن التجديد ، وساهم فى محاربة شوقى وحافظ ومصطفى صادق الرافعى والمنفلوطى وغيرهم !

ولم يكن المازنى – فى الحقيقة - وحده فى قضية الاسلوب هذه ، فإن مجددى عصره جميعا - ماعدا سلامة موسى – لم يروا فى اللغة العربية والبيان العربى ما يحول دون تجديد الافكار وأساليب الأدب وتنويعها وتطويعها لتطورات عصرهم .

رأسه قطعة من أوربا

فى كتابه «هؤلاء علمونى» يعود الكاتب سلامة موسى الى رفع الشعار المشهور الذى ارتفع فى أواخر القرن التاسع عشر ، مكتوبا عليه بحروف بارزة «مصر قطعة من أوربا» ..

وإذا أتيح لك أن تتم قراءة الكتاب «١» وهو كتاب شائق فعلا ـ فلعلك تقول لنفسك بعد أن تنحيه جانبا : ان سلامة موسى قد أنجز فى حياته شيئا واحدا مؤكدا ، هو أنه جعل من نفسه أو من رأسه قطعة من أوربا .

فليس فى كتابه هذا إلا تأثير أوربا فى رأسه أو فى نفسه ، ولكنه يدعو قراء كتابه ـ أو يدعو بعضهم على الأقل ـ أن يتعلموا من هؤلاء المؤلفين أو المفكرين أو العلماء العشرين الذين تعلم هو نفسه من قراءة كتبهم ، وشعر أن من حقهم عليه أن يقول : «هؤلاء علمونى» !

وإذا بحثت عن مؤلف أو مفكر مصرى واحد بين هؤلاء المؤلفين العشرين ، فلن تجد .. فهل كان سلامة موسى يحاول

«١» صدر هذا الكتاب فى أوائل الستينات وعلقنا عليه بهذه المقالة .

الحجر على ذهن القــارىء المصرى بتعيين الكتــب التى لابــد له من قــراءتها وليــس بينــها كتــاب مصرى ولا كتاب عربى واحد ؟!

إن سلامــة مـوسى ، بعـد أن يستـبـعـد تماما كل الكتب المصــرية والعربية ويحجر عليها وعلى كاتبيها من قدماء ومحدثين ، يصارح قراء كتـابه بأن هناك جـريمة تعلو على جـمـيع الجـرائم .. «هـى الحـجـر على الذهن البشرى ومنعه من التطور بتعيين الكتب التى لا تقرأ . هذه هى الخيانة الكبرى للإنسانية»

فلماذا استـبعد سلامة موسى ، عقب كلمته الصريحة هذه ، كل الكتب المؤلفة بالعربية فى مئات السنين ؟!

ألأنها تعبر عما يسميه «المجتمع الزراعى الراكد» .. وقد وقف سلامة موسى دائما موقف التنديد من هذا المجتمع الذي يتكاثر فيه ـ كما يقول ـ «مؤلفو التاريخ ودعاة التقاليد .. أما المجتمع الصناعى أو التـجـارى المتـغـيـر فـإنه يبـعث المؤلف على بحث الاخلاق والعـقـائد والافكار» ! ..

لا تصعب على أحد مناقشة هذا الرأى ، فإن أكثر دعاة التاريخ والماضى والفلسفات الرجعية والتقاليد كانوا ومازالوا موجودين في المجتمعات الصناعية ، من ألمانيا النازية الى أمريكا ، الى اسرائيل وغيرها ..

وأكثر دعاة التحرر والانطلاق يعيشون أمام عيوننا الآن فى مجتمعات مازالت زراعية أو نامية أو حتى بدائية .. ولم تكن هذه «الظاهرة» شديدة الوضوح فى عصر سلامة موسى .. فما عساه يقول عنها لو عاد الى الحياة فرآها بعينيه !

إن العبرة ليست بالصناعة ولا بالزراعة ، بل بالحركة الاجتماعية فى البلد وهدفها .

هذه الحركة الهادفة الى التقدم هى التى تجعل من الصناعة والزراعة معا حافزا للفكر العلمي الذى لا يحتقر التاريخ ولا يرمى الماضى فى القمامة ، ولا يقف حيالهما موقفا عصبيا حانقا رافضا كل موقف سواه .

ولكننا نعتذر لسلامة موسى الآن من بعض أفكاره هذه ، فلو عاش لفكر فى العدول عنها ، أو لعدل عنها فعلا ، فقد كان ـ برغم الرفض ـ محبا للتعلم من الحياة ، حبه للتعلم من الكتب ، وقد أثبتت الحياة أن أفكاره لم تكن كلها غير قابلة للنقض ، وقال بلسانه فى حديثه عن أولئك الذين علموه أن بعض مؤلفاتهم قد أفسدت ذهنه نحو أربعين سنة ، وأفقدته «الحنان والرقة والعطف» على الناس .. وكان يظن بفقده هذه المشاعر الإنسانية أنه قد أصبح «علميا» .. ثم اتضح له ـ بعد أربعين عاما ـ فساد هذا الطريق «العلمى» !

هذه المحنة الفكرية والوجدانية التي كابدها سلامة موسى عشرات السنين وأذبل فيها زهرة عمره تدعونا للنظر اليه بالعدالة المناسبة لهذه المحنة القاسية التى كانت فى حقيقتها مرضا فكريا ونفسيا لم يبرأ منه إلا بصعوبة فى أخريات حياته .

وهو يتهم المؤلف الألمانى «فيسمان» بأنه أفسد مشاعره الإنسانية الطبيعية طوال هذه السنين ، وأصابه بمركبات نفسية «تتلوها مركبات اجتماعية» .. وأقنعه بأن «تنازع البقاء» يجب أن يغمر المجتمع كما يغمر الغابة الوحشية .. فالعاجز والعليل والضعيف يقتلهم الأقوياء والأصحاء بلا حرج .. والزنوج والهنود الحمر يزولون من الوجود مادامت هناك شعوب أقوى منهم .. ثم قرأ سلامة موسى الفيلسوف الألمانى «نيتشة» فالتهمه التهاما لأنه ـ على حد قوله ـ «كان يدعو الى إبادة الضعفاء» .. «ومضت سنوات كنت أحس عندما أرى إنسانا يتصدق على سائل بقرش أنه جنى على المجتمع والأجيال القادمة» !

هكذا عاش سلامة موسى أربعين سنة ، فكانت كتابته صدى هذا العنف الفكرى الذى يعيش فيه ولكنه ـ للعجب ـ كتب فى هذه الحقبة طائفة من أفكاره التى يمكن أن نعدها ميراثه الحقيقى لأن أفكاره الأخرى لم يكن مصدرها الا تلك المحنة ، أو ذلك الداء !

تحدث سلامة موسى في كتابه «هؤلاء علموني» عن عشرين علما من أعلام الفكر ، قرأ كتبهم فاستوعبها وتثقف بها .. وكان أكبر جزء في مشروع حياته ـ كما قال ـ أنه احترف الثقافة !

ولكن هؤلاء المفكرين العشرين ليس بينهم ـ كما أسلفنا ـ مفكر واحد من مصر أو البلاد العربية قديما وحديثا ، مع أن سلامة موسى ـ وبخاصة فى أخريات حياته - كان يذكر فى كتاباته الصحفية أحيانا بعض مفكرى بلاده .

وغاندى هو المفكر الشرقى الأوحد بين أولئك المفكرين الغربيين الذين جعل فى مقدمتهم ڤولتير ووصفه بأنه «محطم الخرافات» .. كأنما أراد سلامة موسى أن يقول إنه لم يتعلم شيئا من أساتذة التراث العربى ، ولم يأخذ قليلا ولا كثيرا من الأدب العربى ، ولكن قلمه يشهد بأنه تعلم من هؤلاء الأستاذة شيئا خطيرا ، هو الكتابة باللغة العربية ، فإن أسلوب سلامة موسى بعباراته الدقيقة الواضحة ، لم يكن ليتاح له بغير قراءة طويلة مستوعبة للأدب العربى مع أن كتاباته لا تعد فى الكتابات الأدبية العالية.

ولكنه كان يحب أن يحدد مكانه بين مثقفى عصره فى مصر والبلاد العربية تحديدا خاصا . فكان يؤكد دائما أنه أوربى العقل ، وأن مصر يجب عليها أن تفكر كما تفكر أوربا ، أى تنتقل بفكرها

الى العصر الحديث .. فماذا كان يحدث لمصر لو أنها اعتنقت أفكار «فيسمان» أربعين عاما ، كما اعتنقها سلامة موسى ؟ .. هل كان المواطن المصرى ينتقل حينئذ الى حضارة أوربا ، أو ينتقل الى وحشية الغابة ؟! ..

لا نناقش اغفال سلامة موسى للسمات القومية الخاصة التى لا يصح إلغاؤها ولا يمكن أن يكون إلغاؤها مرادفا للتطوير أو دليلا على التغيير ، فإن هذه المسألة لم يكن لها مكان بين «اهتمامات» سلامة موسى الذى كان يريد لبلاده أن تصبح أوربية والسلام ، دون أن يحدد ما تعنيه كلمة «أوربا» . وكان يبدو كأنه يناقش أبسط الأمور من وجهة نظر «كونية» شاملة، ولو صحت هذه المناقشة على مستوى الكون فإنها لا تصح على مستوى الكرة الأرضية الصغيرة ، فضلا عن المستويات الأخرى الأقل التى يجىء الإنسان فى آخرها أو فى ذيلها !

لقد قرأ سلامة موسى كل شىء ولكنه لم يقرأ الناس ولا قرأ البلاد التى عاش تحت سمائها فوقع فى التناقض بين العلم بالكتب وعدم العلم بالبلاد والعباد .. وكان يسمي موقفه هذا استقلالا فكريا ، حارب فى سبيله بلا هوادة ، وخاصم أدباء التجديد فى عصره كالعقاد وطه حسين ، كما خاصم الأدباء السلفيين كمصطفى

صادق الرافعي ، برغم أن المجددين والسلفيين كانوا على خلاف شديد فيما بينهم ، ولكن سلامة موسى كان يرى أن أولئك المجددين أيضا كانوا سلفيين ولكن بطريقة جديدة !

والتناقض فى كتابات سلامة موسى بحر لا ساحل له ، ولكن البحر دائما لا يخلو من النفائس .. وهكذا كان هذا الرجل .

وكتابه «هؤلاء علموني» جمع بين المتناقضات .. تلتقى فيه بنيتشه الذى يعد رائدا للفكر الفاشى ، كما تلتقى بجوركى الماركسى ، وبرناردشو الاشتراكي الفابى وغاندى المتصوف المسالم وتولستوى عدو الرق والجشع ، وجون ديوى فيلسوف المجتمع الأمريكى ، وفرويد الباحث فى النفس البشرية ، وسارتر الوجودى الذى يرى أن «الاخفاق» مصير جميع الأعمال الطيبة والرديئة .. ولاتنس المفكر الألمانى فيسمان الذى أفسد ذهن سلامة موسى أربعين عاما .. ولا يتسع مجالنا للأساتذة العشرين مجتمعين ! ..

وقد يدهشك ألا تجد بين هؤلاء العشرين الذين علموه الا شاعرا واحدا هو جيته الألمانى .. أما شيكسبير فلم يتعلم منه شيئا ، وكذلك بقية الشعراء المعروفين فى الآداب الأوربية كهاينى الألمانى وهوجو الفرنسى مع أن سلامة موسى لم ينس ابسن كاتب المسرح ، وديستويفسكى كاتب الرواية ، ولكنك حين تبحث

عمـا تعلمـه منهـما سـتجد أشـياء كثـيرة ، ليـس بينهـا المسرح ولا الرواية .

السبب فى ذلك أن سلامة موسى لم يكن يملك الطبع الأدبى .. كان عقلانيا بحتا .. ولو لم يكن كذلك لكان شيكسبير الشاعر ، أو بيتهوفن الموسيقار بين من ذكرهم من معلميه .

برغم ذلك كله لا ينكر المنصفون أن سلامة موسى قد أثر فى عصره تأثيرا واضحا ، كان رائدا لاينكر أحد جهوده الثقافية : علم نفسه بنفسه ، واستبحر فى القراءة والبحث عن كل معرفة صحيحة أو غير صحيحة ، وحاول دائما أن ينقل زوايا مختلفة من معرفته الى قرائه الذين تابعوه عشرات السنين حيا وميتا .

ولا غبار على دعوته الى ما كان يسميه «استقلال الفكر» و «أوربية العقل» الا تشدده فى هذه الدعوة الى حد الانفصال عن أفكار الناس ، والانعزال عن الحقائق التى يعيشونها ، وظنه بأنه فى الامكان استيلاد حل لكل مشكلة من الدماغ البشرى «المستنير» منعزلا عن الحقائق الصلبة التى تكتنفه من كل جانب .

وكان يقول إن الأدب يجب أن يصور العصر الذى يعيش فيه ، وليس هذا كلامه وحده ، فالجميع يقولونه .. ولكن سلامة موسى لم يصور فى كتاباته عصره ، بل صور العصر الذى كان يحلم به ولا يرضى بغيره

بديلا ، وهو عصر معلق في الفضاء ، لا ينتمي لغير الأوراق والأقلام التى استعملها سلامة موسى فى تصويره .

وكان يندد بالبقايا الفكرية القديمة فى اذهان أدباء بلاده ولكنه لم يسائل نفسه عن البقايا والاخلاط الفكرية التى استعارها من العصور الماضية .

إلا أن اجتهاده في الرأى يدعو الى الاعجاب والتقدير ، مهما كانت بواعث آرائه ، ومهما كان حظها من الخطأ والصواب .. لقد كان سلامة موسى ومازال متعة لمن يقرؤه ولو كان من مخالفيه أو ناقديه ، أو حتى من الساخرين منه أو الطاعنين فيه .

أسرار من حياة شاعرة

فى سلسلة «كتاب الهلال» قرأنا كتاب «صفحات من حياتى» للشاعرة المصرية المشهورة السيدة جليلة رضا.

عرفت الشاعرة منذ أربعين عاما، أو أكثر قليلا، عندما أخذت تتردد على مجلة «العالم العربى» بعد انتقال رئاسة تحريرها من الأديب الشاعر الأستاذ سيد قطب الذى صار داعية دينيا بعد ذلك، إلى الصحفى المعروف الأستاذ أسعد حسنى.

ولما عرفنى بها أسعد حسنى قال مداعبا إياها : هذه شاعرة «ناشئة» سارت خطواتها الأولى فى الشعر على يد صديقنا الدكتور إبراهيم ناجى رحمه الله.

كان ناجى يتحدث عنها حين كان يعمل معنا سنتى ١٩٥٢ و ١٩٥٣ فى جريدة الجمهور المصرى، بعد عزله من وظيفته بوزارة الأوقاف فى «حركة التطهير الكبرى» التى أجريت فى المناصب الحكومية حينذاك وكانت التهمة التي عزل بسببها هى «قلة الإتاج».. وكان ناجى يسخر من «قلة الإنتاج» هذه ويقول : «أنا طبيب، فكيف أزيد من إنتاجى ؟ هل أنتج المرضى أو أزيد المصابين فى الحوادث ؟!».

وقد مات ناجي في مارس سنة ١٩٥٣ من فرط تأثره بإخراجه من عمله الحكومى، وحزنت عليه جليلة رضا ووجدت نفسها فجأة بلا أحد يأخذ بيدها في بحور الشعر العاصفة!

كانت جليلة رضا حين رأيتها سنة ١٩٥٤ قليلة الكلام، تضع على وجهها ملامح اكتئاب فتبدو أكبر من سنها برغم جمالها الشركسى الواضح الخالى من كل تجميل.. وإذا تحدثت كان نصف كلامها عن ابنها الذى أصيب بمرض عقلى وأفسد عليها حياتها وهى مطلقة وحيدة فى الدنيا .

وكان من عملى الذى أقوم به مجانا فى «العالم العربى» نظرا للصداقة الحميمة بيني وبين رئيس تحريرها، أن أنظر فيما يرد إليها من القصائد قبل إرسالها إلى المطبعة. فكنت أجد فى شعر جليلة رضا موهبة شعرية ينقصها سعة العلم باللغة، ويعيبها أحيانا خلل فى بعض الأوزان.

كانت «ناشئة» فى الشعر على حد تعبير أسعد حسنى - رحمه الله - مع أنها كانت قد جاوزت قليلا سن الثلاثين.

ثم أدبرت أيام «العالم العربى» وانقطعت قراءتى لشعر جليلة رضا، إلا من قصائد ألتقى بها فى هذه المجلة أو تلك من حين إلى حين ، فيدهشنى أنه ينضج بسرعة وأن الشاعرة الناشئة قد اشتد عودها

ونبغت في الشعر كالنابغة الذبياني في سن الأربعين أو بعدها بقليل حتى صارت من أبلغ الشاعرات العربيات المعاصرات بيانا، وأصحهن أوزانا، وأصبحت أحسن الشاعرات المصريات بلا جدال .

وكتاب جليلة رضا الجديد دليل آخر على نضجها الشعرى والنثرى والفكرى، ولها فيه سطور، بل صفحات تعد من الشعر المنثور الفائق، ومن البيان البليغ الذى لا يتفق إلا لفحول الكاتبين.

وهذا أيضا يتفق لها في الشعر، فان في شعرها قصائد نادرة المبنى والمعنى، عميقة الشعور، بديعة التصوير، تستحق بها هذه المنزلة التى بلغتها بين شاعرات عصرها.

ويمكن القول بأن الشعر المصرى النسائى المعاصر الذى كانت بدايته عائشة التيمورية ، قد بلغ غايته عند جليلة رضا .

ولعلها أحست أنها بلغت غايتها في الشعر، وأنها توجت نفسها بعد هذا العمر الطويل في الشعر، فجلست على كرسى الاعتراف، تحكى شذرات من قصة حياتها أسوة بمن سبقنها إلى ذلك من شاعرات الغرب وأدبياته وفناناته وما أكثرهن.

إن جليلة رضا توحى إلى قارىء كتابها بلهجتها الناعمة أنها تعترف له بكل شىء، مع أنها لا تخفى عنه أنه لا يمكن الاعتراف بكل شىء.

والحقيقة أن حياة جليلة رضا أغنى وأعمق مما روته فى كتابها ؛ ولو روت كل شىء أو شيئا من كل شىء، لكان كتابها هذا أحد الكتب العالمية فى باب الاعترافات.

ولكنها على كل حال امرأة «شرقية» بالمعنى الذى يعنيه الإفرنج من كلمة «شرقية» حين يتحدثون عن المرأة المصرية والعربية بوجه عام.

بدأت القلاقل فى دخيلة نفسها حين ألحقها أهلها بمدرسة داخلية للراهبات، فهذا جو غير طبيعى لتنشئة فتاة مسلمة ، زادها انفلاتا فى مشاعرها العميقة برغم احتفاظها بكل مظاهر السلوك الاجتماعى السوى، الذى يبلغ حد الوقار !

وراء هذا الوقار قصة حبها الأولى الصبيانية، والقصص التالية، حتى إذا دخلت مضمار الشعر ، صارت موردا عذبا كثير الزحام فى ذلك المجتمع الذى كان قبل أربعين عاما يبهره أن يرى المرأة فى الندوة الشعرية وبخاصة إذا كانت فى جمال هذه الشاعرة وخبرتها بمشاعر الرجال والنساء ولطف معاملتها للقريب والغريب.

وكنت أرى أسعد حسنى مشغولا بمحاولة تزويج جليلة رضا، فقال لى يوما : ما رأيك فى صديقنا الشاعر فايد العمروسى زوجا لجليلة ؟!.

كان فايد العمروسى قد أكمل بعثته فى باريس وعاد إلى القاهرة فى وظيفة كبيرة بوزارة المعارف، وكان شاعرا حسن الشعر درعميا قديما،

ساخطا على أيامه فى باريس لأسباب نضرب عنها صفحا.. فلما رأى جليلة رضا أعجبته وتكلم عنها مع أسعد حسنى، وخيل إلينا أنه سيتزوجها من فوره، ولكنه - فيما يبدو - لم يتم مشروع زواجه هذا ولعل جليلة رضا لم تشر إليه فى كتابها لأنها تراه حدثا عابرا فى حياتها .

وقد أشارت إلى الشاعر «م. ف. وهو صديقنا الشاعر محمد الفيتورى» الذى كان حريقا مشتعلا فى الحب، وكان له فى جليلة أشعار من نار، وقصص أكثرها من خياله، إذ كان شابا صغيرا مشبوب الخيال فى تلك الأيام.. وقد رأيت بعينى ومعى أسعد حسنى معارك الكر والفر، والشد والجذب فى محاولاته الزواج من جليلة ولكن كل شىء بينهما انتهى إلى لا شىء، وكان هذا اللا شىء بقية من رماد حب عنيف تحول إلى حقد أشد عنفاً !

أما الشاعر الدينى عبد الله شمس الدين - مؤلف نشيد الله أكبر - الذى تشير إليه فى كتابها بحرف «ع».. فكان من الجلى فى أمره أن حبه لها وزواجه منها إلى انتهاء عاجل .. وقد كان .

وقد أظهرت جليلة رضا مع زوجها الأخير الصحفى محمد السوادى - رحمه الله - فضائلها «الشرقية» فى الحفاظ على الزوج والبيت ، تلبية لداعى المرءوة والوفاء بالرغم من زوال الأسباب التى قام عليها هذا

الزواج ، فلبثت ترعاه حتى وافاه الأجل المحتوم .. يرحمه الله !

لقد عاشت جليلة رضا حياة صعبة كان من الممكن أن تقضى على أحاسيسها الشاعرة، أو تمنعها على الأقل من الاستمرار فى قول الشعر، ولكنها خرجت من مأساة ابنها الذى مات أخيرا ومن مآسى أزواجها الثلاثة الذين رضيت أن تذكرهم فى كتابها، وقد ماتوا واحدا بعد الآخر.. خرجت من هذه المآسى كلها، ومعها عشرات من المآسى الأخرى، وهى محتفظة برغبتها الحارة فى الالتصاق بالشعر وعدم مفارقته لأنها وجدت فيه معنى حياتها ولا حياة لها إلا تحت جناحه .

وقد أخفت في كتابها أسماء الرجال الذين التقت بهم فى حياتها بعد طلاقها الأول، ما عدا إبراهيم ناجى، أستاذها فى الشعر الذى استظلت به وابتردت من حرارة الخطوب .

وسمحنا لأنفسنا هنا أن نذكر بعضهم بالاسم، لأن من حق تاريخ الشاعرة أن يعرفهم قراؤها، وحسبها ما كتمت من الأسماء الأخرى.

ولن تكون اعترافاتها هذه اعترافات بمعنى الكلمة إذا قورنت باعترافات أترابها الأوربيات والأمريكيات. أو كانت «الحروف» هى كل حصيلتها من أسماء الرجال .. ولا شك أنها قرأت فى الفرنسية وغيرها الاعترافات التى لا تحصى للأديبات الغربيات اللاتى لم يتركن شاردة ولا واردة. ن

واعترافات جليلة رضا، تتستر وراء الحياء والخفر، برغم ما تتصوره من أنها قد هتكت كل الأستار ، ولكنها في الوقت نفسه - تعد أول «اعترافات» من نوعها تتقدم بها امرأة «شرقية».. ولن نجد فى العالم العربى كله امرأة تجرؤ على مجاراة جليلة رضا فى هذا المضمار .. بالرغم من جرأة الكثيرات على الادلاء بدلوهن فى «الأدب المكشوف».. ولكنهن هنا يتحدثن بضمير الغائب ، وهن يقصدن أنفسهن، أما جليلة رضا فتحدثت بضمير المتكلم أو المتكلمة ، وهى تقصد نفسها، وإن كانت قد أسبلت سترا على ما كشفته من أسرار هذه النفس الشاعرة العميقة الشعور !

أبو نواس من سنتريس

الكلام عن الكاتب الكبير زكى مبارك يجتذب أسماع عارفى هذا الرجل الذى عرفه جيلنا وأحبه ؛ فإن زكى مبارك نسيج وحده بين أدباء جيله. تتمتع شخصيته بجاذبية خاصة ، ولا أظن أحدا قرأ هذا الكاتب أو جلس إليه أو عرفه، يستطيع أن ينساه، مع أن صوته - رحمه الله انقطع من هذه الدنيا منذ بضعة وأربعين عاما نسى فيها الناس الكثير وعرفوا الكثير، وتغير وجه الحياة والأحياء .

عاش زكى مبارك يهتف بحياة نفسه .. يسمع الناس يهتفون : «يحيا فلان» .. فيرفع عقيرته هاتفا : «يحيا زكى مبارك» .. كان يرى أنه أرفع شأنا ممن يهتف الناس لهم . بل كان يرى أنه أحق من هؤلاء بالمكانة الكبيرة فى الأدب .. وفى المناصب .. وفى المال !.

وثمة مقال كتبه زكى مبارك فى مجلة الهلال فى الثلاثينات عن الشاعر أبى نواس، لم يتنبه أحد إلى ما فيه من اعترافات زكى مبارك كتبها على لسان أبى نواس .

فمن قول زكى مبارك ان أبا نواس انما انهمك فى شرب الخمر

والغـزل بـالمؤنث والمذكـر ومـا إلى ذلك ، لكى ينسى ضـيـاع حـقـه فى مجتمعه.

كـان أبو نواس فـى رأى زكى مـبـارك يرى نفسـه حـقـيـقـا بمنصب الوزارة أو الكتابة، أو القرب الحميم من الخليفة هارون الرشيد، ولكن أبا نواس عاش حياته فى عهد الرشيد صعلوكا .

ولا أتذكر الآن ما كتبه زكى مبارك بالضبط، ولكنى أقول إنه لا يوجد فى ديوان أبى نواس مـا يثـبت أنه كـان من حـاشـيـة الرشـيـد أو من شعرائه.. بل لا يوجد فيه ولا فى كتب الأدب ما يقطع بأن الرشيد سمح لأبى نواس بالمثول فى حضرته وانشاده شعرا، مع أن العامة يظنون أن أبا نواس كان من خاصة ندماء الرشيد.

والأصح أن أبا نواس لم يلتق بالخليفة الرشيد قط لقاء شاعر يعرفه الخَليفة ويرتاح إليه.. ولم يجد أبو نواس حبا وكرامة فى قصـر الخلافة إلا على عهد الأمين الذى لم يعش فى الخلافة إلا أربع سنوات كانت هى السنوات التى استمتع فيها أبو نواس وعاش كما تمنى أن يعيش .

وبعد ذهاب دولة الأمين وتربع المأمـون على العرش، عـاد أبو نواس إلى الصعلكة، ثم جنح إلى الزهد، ثم مات بعد قليل منسيا مطويا على أوجع الأحزان والأسقام البدنية والروحية !..

كان زكى مبارك – فى مقالته التى أشرنا إليها – يتحدث عن أبى

نواس ، ويسقط الكلام بوضوح على نفسه.. كأنه يقول : أيها الناس : أحدثكم عن أبي نواس وأنا أعني نفسي !.. فقد عاش زكي مبارك حياة تشبه في خطوطها العامة حياة أبي نواس، مع الفارق بينهما بطبيعة الحال في الزمان والمكان والخصال .

وفي كتابه «أفكار للكبار» يفرد الكاتب المرحوم فتحي رضوان مقالتين لزكي مبارك ، بين بضع عشرة مقالة عن طه حسين ويحيى حقي ومحمد كامل حسين والشاعرين شوقي ومحمد إقبال «الباكستاني» ومحمد صبري السربوني ومحمود محمد شاكر ومحمد عبد الله عنان.

كان زكي مبارك من جيران فتحي رضوان في مصر الجديدة، فكانا يلتقيان كثيرا في المترو، في الغدو والرواح يوما بعد يوم وكانا يتزاوران، ثم تمت الالفة بينهما بعد أن صار فتحي رضوان من زعماء الحزب الوطني قبل ٢٣ يوليو ١٩٥٢، فمن مفارقات زكي مبارك، وهو الذي رفض أن يؤيد بالكتابة في الصحف أي حزب سياسي، مهما دفع له الحزب من أموال ، أو أهدى إليه من مناصب، أنه لبث يؤيد مبادئ الحزب الوطني وأولها المبدأ الشهير : لا مفاوضة إلا بعد الجلاء !.

لم تأخذ الأحزاب المصرية بهذا المبدأ الذي أثبتت الحياة أنه غير واقعي – فقد تم الجلاء بالمفاوضة – ولكن زكي مبارك تمسك بهذا المبدأ وأقسم أنه لو سلم المصريون جميعا ، وخرج مصطفى كامل من قبره

ليصافح الانجليز لما كان في ذلك ما يزحزحه - أي زكي مبارك - قيد أنملة عن معاداة الانجليز حتى يكون الجلاء التام .

لقد كان زكي مبارك يرى نفسه خليقا بالجاه والمال والمناصب الرفيعة وينأى في الوقت نفسه عن الأسباب التي يبلغ بها مأربه هذا ، وكأنه كان ينتظر أن يجيء إليه أرباب الحل والعقد فيقدموا إليه ما يشتهي على طبق من الذهب ، وهو جالس على المصطبة في قريته سنتريس التي ملأ الدنيا باسمها وكأنها مدينة النور باريس !.

وكان يهاجم من بيدهم أن يلحقوا به الضرر ويمدح من لا مصلحة له في مدحهم،. ثم يقول : «تنصحني يا هذا بأن أنافق، ويحك ! .. انما ينافق الضعفاء .. ان الله لم يخلقني لأكون ألعوبة، أداري هذا، وأحابي ذاك.. أنا في نعمة من ذلك لا أبالي بعدها أين يكون سخطكم وأين يكون رضاكم» !.

يقول فتحي رضوان تعليقا على ذلك «وتعجب كيف أفلت صاحب قلم كزكي مبارك من شباك الأحزاب التي كانت تجزل العطاء لمن يأخذ بناصرها، ويروج لمذاهبها، ويحارب بسيفها، ولو فعل ما فعل زملاؤه لتغير الأمر معه تماما، فاسمه كان سيزداد ذيوعا، ورزقه اتساعا ، ومقامه من أصحاب السلطة ارتفاعا ، ولما أمكن أن تمر البلاد على نبأ

وفاته فى ٢٣ يناير سنة ١٩٥٢ كأنها لم تقرأ له شيئا من أدبه ، ولم تسعد به »! .

هكذا كان زكى مبارك .. أبا نواس عصرنا .. ولكنه اختلف عن أبى نواس فى أنه لم يجامل ولم ينافق ولم يزاحم لبلوغ باب ذوى السلطان وان كان يرى نفسه خليقا بمكان فى قمة المجتمع، غير متخذ ولو سببا واحدا لبلوغ هذه القمة.. فحقوقه ينبغى أن تجىء إليه بنفسها منقادة تجرر أذيالها، فلما لم يتيسر له ذلك صرخ : « لم يعان أحد من الظلم فى وطنه ما عانيت، فما زادنى ذلك الظلم الأليم إلا عرفانا بجمال وطنى .. وهل رأيتم جميلا غير ظالم ؟!».

هكذا .. مزج زكى مبارك الشكوى بالغزل الذى كان يمزجه بكل كتابته.. فالوطن هنا أشبه بجميل ظالم يحبه زكى مبارك ويشكو ظلمه وهجره !.. ويقول له : «وطنى .. إن لم أحمل السيف فى حمايتك، فقد حملت قلبى فى الدفاع عنك .. وطنى .. أنت تذكر أنه ما استطاع أمير ولا وزير أن يأجرنى فى العصبية لك، لأنك وطنى وحدى، ولأنى لا أسمح لأحد أن يسبقنى فى الوصول إلى مواقع هواك» !.

وفى السنوات الأخيرة من حياته - رحمه الله - رأى كيف أن الطريق فى المجتمع الذى عاش فيه ، لم يكن طريق الحق ، كان طريق القوة والتجارة بالمبادىء ، وقد نأى زكى مبارك عن هذا الطريق، ورفض

التعامل بقوانين النجاح فى ذلك المجتمع، فرسب فيه ونجح غيره ممن لا يبلغ بعضهم أن يكونوا تلاميذ يتعلمون فى مدرسته .

وانعكست فى كتابة زكى مبارك عندئذ حالته المعنوية ، فكان يكتب بلا روح، كأنه يئس من كل شىء ، وكنا نطالع مقالاته فى أخريات أيامه فنتساءل : هل هذا هو زكى مبارك حقا ؟! .. لقد اختفى الكاتب القوى القديم، وفارقت روحه حروف كتابته، فصارت كتابته بلا روح !

وكان هذا مما جناه عليه المجتمع الفاسد ، ومما جناه هو على نفسه، حتى صار فى أخريات عمره لا يبالى أن يراه الناس كل ليلة جالسا إلى مائدة صغيرة فوق رصيف مشرب بميدان التوفيقية يمزج ما فى كأسه بالماء، فيتحول لون ما فى الكأس إلى بياض يشبه بياض اللبن الصافى، ثم يتجرعه ، ويطلب غيره حتى ينسى نفسه ، ثم ينهض إلى المترو الذى كان حينذاك يبدأ من شارع عماد الدين فى ملتقاه بشارع فؤاد، وهى البقعة التى طالما تغزل فيها زكى مبارك وبالغ فى وصفها حتى زعم أنها أجمل مكان فى العالم، وأنه شاهد فيها أجمل جميلات العالم !.

مجنون سعاد

«مجنون سعاد» اسم كتاب مجهول للدكتور زكى مبارك .. أصله مجموعة من رسائل الحب كتبها فى الثلاثينات ونشرها فى مجلة «الصباح» التى كانت أكثر المجلات الشعبية رواجا فى تلك السنين .

و«مجنون سعاد» هو الدكتور زكى مبارك نفسه ، والفتاة التى جن بها لها اسم آخر لكنه اختار لها هذا الاسم ، وكتب إليها الرسائل الغرامية مصدرة به ، ثم نشرتها «الصباح» بتوقيع «بديع الزمان» لأن كتابة الرسائل الغرامية ونشرها على رءوس الأشهاد لم يكن يرتاح إليه معظم الأدباء فى تلك الأيام ، وان كانوا جميعا يشتهونه ، ومن بينهم من كتب رسائل ملتهبة تفيض حبا حقيقا ، ولم ينشرها .. وضاعت فى الأوراق التى أكلها الاهمال والنسيان !..

فى الثلاثينات استبدت الرومانتيكية بقلوب الشعراء والكتاب المصريين ، فكانوا يتنافسون على حب كل من تسمح لها ظروفها فى ذلك المجتمع المغلق بأن تجلس إلى الرجال وتناقشهم .. وتبتسم إلى هذا

وتعبس فى ذاك، وتنظر إلى غيرهما بعينين فارغتين من المعانى أو مليئتين بها .

كانت الأديبة الكبيرة «مى» - مثلا - تبرز فى ندوتها لعدد كبير من الكتاب والشعراء، أحبها الجميع، وليس فيهم من لم يكتب إليها رسائل غرامية، وزعم لنفسه أو للناس أنها تخصه بحبها دون أصحاب ندوتها كل يوم ثلاثاء .

ولما نظم الشاعر الكبير إسماعيل صبرى باشا هذين البيتين :

روحى على دور بعض الحى حائمة
كظامىء الطير رفافا على الماء
إن لم أمتع بمي ناظري غدا
أنكرت صبحك يا يوم الثلاثاء

كان يعبر فى الحقيقة عن مشاعر جميع الملتفين حول مى الجميلة من أدباء العشرينات، من خليل مطران إلى انطوان الجميل إلى مصطفى صادق الرافعى إلى ولى الدين يكن إلى العقاد.. إلى الآخرين الكثيرين، وفيهم باشوات وأثرياء أمثال إسماعيل صبرى باشا ، وفيهم أفندية وفقراء أمثال الرافعى والعقاد .

وما أظن أحدا من أدباء عهد مى نجا من حبها، إلا الأديب الساخر

الكبير إبراهيم عبد القادر المازنى ، لأن مذهبه فى الحب حماه من الوله والجنون ؛ كان يرى أن الحب جوع فإن ذهب ، لم يبق للرجل ولا للمرأة رغبة فيه !.

ولهذا أحب المازنى عشرات وعشرات من الوجوه الجميلة ، حب يوم، أو حب ساعة، أو نصف ساعة، أو مجرد نظرة ، ومع ذلك كان تعبيره عن الحب بالغ القوة والطلاوة، وزعم فى بعض كتبه أن قد كان له فى صدر شبابه حب رومانتيكى عنيف، عبر عنه ببلاغة مؤثرة حقا ، ولكن هذا الحب، بعد انقضائه لم يعقب إلا السخرية اللاذعة والفكاهة البديعة .. هكذا كان المازنى فى سائر أحواله مع الدنيا وأهلها.. رحمه الله .

أما الدكتور زكى مبارك فكان رجلا قوى العاطفة ، إذا أتيح له أن يحب ولو من بعيد ، أو حتى فى الخيال ، ملأ الدنيا حبا وكلاما عن الحب ، وأتى فى ذلك بألطف الكلام عن أعمق مشاعر الحب، وربما أتى بأفظع الكلام دون أن ينتقص حبه هجر ولا خصام !.

تجد هذا - مثلا - فى مطولاته الممتعة التى نشرها فى مجلة الرسالة فى الثلاثينات وسماها «ليلى المريضة فى العراق».

الأصل فى هذه المقالات الحب ، والكلام عن ليلى وظمياء والاخريات، ولكن الكلام عنهن تعطل وفرغ بعد حين، فلم يتوقف زكى مبارك .. واستمر يكتب تحت هذا العنوان المأخوذ من بيت الشعر القديم المعروف،

واختلطت فى كتابته السياسة بالحب بذكريات باريس، بالهجمات الأدبية، والطرائف والنوادر، والمدح والهجاء ، والزهو بالنفس، والتواضع لله فى وقت معا .

كانت العقدة التى تسللت إلى زكى مبارك فى وقت مبكر من حياته هى الشعور بالاضطهاد .. فقد اضطهده أهل النفوذ من معاصريه أعنف اضطهاد.

وكان كاتبا متميز الديباجة قوى الروح غزير المادة، متعلما فى الأزهر وباريس، ولكنه لم ينل حقه ولا بعض حقه كما نال الآخرون الذين حاربوه وذادوه عن حقه فأهدروه .. بدلا من أن يعينوه على بلوغه ، أو يسكتوا عنه على الأقل!.

ورسائل «مجنون سعاد» ليست أول رسائل غرامية فى الأدب المصرى المعاصر .. سبقتها رسائل للأديب الكبير مصطفى صادق الرافعى، ولا تشابه بين هذه وتلك، لا شكلا ولا مادة .

فإن الرافعى قد أحب «مى» حبا انتحاريا، فجاءت رسائله إليها أو رسائله عنها من أعجب الكلام وأعقده وأروعه وأكثره هدوءا وجنونا، وأحفله بفن الوضوح وفن الغموض !.

ولا تدرى حين تقرأ رسائل الرافعى فى فلسفة الحب والجمال على صفحات كتبه : «رسائل الأحزان» و«السحاب الأحمر» و«أوراق الورد»

كم من الجميلات كان يحب الرافعي؟! .. فهن كثيرات الأوصاف .. ولو حازت امرأة واحدة كل ما ذكر الرافعي في كتبه من عظمة الجمال، لكانت من أهل الفضاء لا من أهل الأرض !..

ولكن هذا ليس بدعا في التعبير عن الحب الصادق ، فإن المرأة المحبوبة هي الكون الذي يعيش فيه محبها .. وان الكون لرحب إلى ما لا نهاية !.

وكان زكي مبارك أيضا يعيش في الكون اللانهائي لمن يحب من الجميلات اللاتي خلقهن الله ، أو خلقهن خيال زكي مبارك .

وله حبائب عجيبات حقا خلدهن في مقالاته .. فقد لبث في أواخر الثلاثينات يتغنى بما يسميه « ملتقى شارعي عماد الدين وفؤاد في القاهرة » .. كان لا يمل الوقوف في هذا الملتقى من العصر إلى ما بعد غروب كل يوم ليرى « الظباء » – على حد وصفه للحسان – وهو بطبيعة الحال لا يعرفهن ولا يعرفنه ، فإنما هن عابرات سبيل مع أزواجهن أو مع غيرهم أو مع أنفسهن فقط ولكن زكي مبارك كان يعتبر هؤلاء الظباء جميعا أسيرات هواه ، وملكا خالصا له ، بدون أن يبادلهن كلمة واحدة ..

وأسرف في التغني بجمال ملتقى فؤاد بعماد الدين حتى امتلأنا تشوقا إلى هذا الملتقى ، ورؤيته ملء العينين ، وكنا حينذاك

صغارا فى الأرياف البعيدة من الصعيد ، فلم أكد أصل إلى القاهرة فى آخر الثلاثينات زائرا ، حتى هرولت إلى ملتقى عماد الدين وفؤاد لأراه ! ..

ورحم الله زكي مبارك لقد جعل من الحبة قبة ، ورسم لنا الجنة في ذلك الملتقى المتواضع الذى لم يكن يمشى فيه عصرا ومغربا إلا بعض «الخواجات» مع ذويهن .. يونانيات وإيطاليات وفرنسيات ويهوديات ، وكانت اللغة العربية لا تكاد تسمع فى هذا الملتقى ، واللغة الغالبة هى الفرنسية ، وكان زكي مبارك يشنف أذنيه كل مساء برنين هذه اللغة على شفاه ظبائه السانحات فى ملتقى فؤاد وعماد الدين ! ..

ورسائل مجنون سعاد التي جمعتها ابنته الأديبة كريمة زكى مبارك، تسجل صورة من حلاوة أسلوب زكى مبارك وبساطة قلبه ومشاعره مع فورانها، وترينا كيف جعل من نفسه مجنون حب ، حيث لا جنون ، ولا أقول حيث لا حب ، فإن زكي مبارك كان محبا لا يخلو قلبه من الحب لحظة من الزمان .. ولهذا سمي نفسه في رسائل مجنون سعاد «بديع الزمان» .. ولم يكن يقصد استعارة اسم بديع الزمان الأديب القديم المعروف بل كان يقصد أنه بديع زمانه فى الحب .

ومن ظرفه البالغ أنه كتب لرسائله حين نشرها فى « الصباح » مقدمة تنم عليه ، لأنه مدح فيها نفسه ، ومن المؤكد أن المرحوم

. مصطفى القشاشى صاحب مجلة « الصباح » لم يكتب هذه المقدمة ، فإنه كان يترك الكتابة لغيره ، ووصف زكى مبارك قصة حبه الظريفة الخفيفة بأنها « أعنف مأساة غرامية عرفتها مصر فى العصر الحديث » .. وكذلك كانت مبالغاته المحببة إلى القلوب دائما .. ثم يصفها بأنها من «الأدب العبقرى» حتى يبلغ بيت القصيد إذ يقول ان صاحب هذه الرسائل لا يقل فى مواهبه الأدبية عن المازني والعقاد وهيكل وزكى مبارك وطه حسين وتوفيق الحكيم .. « ولو وجد هذا الشاب من ينصفه لجعله إمام الكتاب فى هذا الجيل » ..

هكذا كتب زكى مبارك بأسلوبه الخفيف الظل ، المرح السهل الممتنع .. وقد صدق فى الموازنة بين نفسه وبين من ذكر من كتاب جيله ، ويلاحظ أنه وضع اسمه قبل اسم طه حسين ، وكانت العداوة بينهما فى وقتها مشبوبة الاوار ، وإنما أراد زكى مبارك أن يصرف الأنظار عن نفسه حين وضع اسمه بين تلك الأسماء .

ولما اعترف زكى مبارك بعد ذلك بأنه صاحب الرسائل قال : « أنا ذلك المجنون ، وأنا بديع الزمان .. كانت هذه الرسائل ترسل بطريقة سرية إلى صاحب مجلة الصباح لأننى كنت من أكابر المفتشين بوزارة المعارف ، ولا يجوز لرجل من أكابر المفتشين أن يتحدث عن الحب والجمال » .

الحق أن هذه الرسائل من أجمل ما كتب زكى مبارك ، ومن أحسن النماذج لبيانه ذى النكهة الخاصة التى لم يكن لها مثيل فى عصر ولا لها مثيل الآن ، فقد ذهب الرجل منفردا فى حياته وبعد مماته .

ورسائله هذه اثنتان وستون ، بعضها أسطر قلائل ، وبعضها صفحة أو صفحات ، وبما أنه كما قال فى مقدمة الرسائل كان من أكابر المفتشين فى وزارة المعارف ، فقد زعم فى رسائله أنه دكتور «طبيب» لا دكتور فى الأدب ، وأثمر هذا الزعم لمحات بديعة فى الرسائل عن الطب والأطباء ، والمرضى والأصحاء كأنما الكاتب طبيب فعلا ..

التقى زكى مبارك و« سعاد » فى سهرة أو عشاء بنادى القلم ، وهو ناد متحرر فى ذلك العهد المتحفظ ، وكان هذا اللقاء موضوع رسالته الأولى إليها ، ولكن زكى مبارك - فيما يقول - كان يحب سعاد قبل ذلك اللقاء فعمد محرر مجلة « الليبرتيه » الفرنسية إلى إجلاسه بجوار محبوبته .

يقول زكى مبارك فى هذه الرسالة : « وما أنكر غمزات محمد عوض «يقصد الدكتور محمد عوض محمد» والدكتور كامل حسين .. ولكن ماذا يعنينى ؟ .. المهم أنك أصبحت لى وحدى ، وأنى خرجت معك إلى

سينما البورتنيير يا سعاد .. خرجت من النادى وذراعك فى ذراعى ، وخرج الزملاء خروج المساكين فالشيخ مصطفى عبد الرازق «شيخ الأزهر فيما بعد» لم يكن فى صحبته غير نسخة من جريدة البلاغ ، والدكتور هيكل لم يكن يصاحبه غير عصاه » ..

ولن تجد فى هذه الرسائل إلا شذرات من قصة ، ولكنك ستقف عند وثبات بديعة من عاطفة زكى مبارك وفكره وستجد ملامح من حياته الصعبة الباسلة ؟ ..

النقاء اسمه فكرى أباظة

أكثر الذين عرفوا الصحفى الكبير فكرى أباظة – رحمه الله – يحدثونك عن عمله ونشاطه وكتابته وحياته جملة وتفصيلا ، فى شبابه وعنفوان نضجه بعد شبابه .. ويروون لك الكثير عن ذلك كله .. ثم يقولون : لو رأيته فى تلك الأيام ، لرأيت منه وسمعت ما لم تر مثله ولم تسمع قط فى حياتك ! ..

ولقد كان فكرى أباظة فى شبابه وعنفوانه كما يقولون عنه وأكثر مما يقولون عنه .. ولكنى كلما فكرت فيه – رحمه الله – تمثلت لى حياته وصورته العظيمة ، لا فى شبابه وعنفوانه ، بل فى أخريات زمانه .. ففى هذه السنوات الأخيرة من عمره اجتمعت فلسفة حياته كلها واحتشدت وتركزت ، كأنها السيل العظيم اجتمع فى ملتقى شعاب ممتدة طويلة ! .

وأضاءت الجذوة الأخيرة من دنياه وهى تنطفىء كما لم تضىء شعلة دنياه كلها من قبل، على شدة وهجها وقوة ضوئها .

فى السنوات الأخيرة من حياته كان فكرى أباظة يمشى متأبطا ذراع القضاء والقدر ، لا يدرى أين يمضى به ، ولا يزعجه أن يذهب به

هنا أو هناك ، أو يضعه فى موضع يحبه، أو فى موضع لا يراه أهلا للحب .

كان فكرى أباظة قدريا طول حياته .. ومنذ شبابه الأول أعلن فى كتاباته أنه يرضى بكل ما تجيء به إليه الدنيا من خير وشر، لأنه قضاء وقدر، ينبغي الخضوع له والرضا به وعدم الاحتجاج عليه بأية حال ! .

وعلمته هذه الفلسفة ، على امتداد عمره المديد أن يكون هادئا دائما حتى فى حالات غضبه القليلة، متسامحا حتى مع الأنذال والأوغاد من الرجال والنساء الذين اكتوى بنارهم فى دائرة عمله ، وفيما وراءها من دوائر هذه الحياة التى يطبق بعضها على بعض إطباقا عنيفا عجيبا، لا قبل به إلا لأولى العزم من الصابرين على تقلبات الحياة ..

كل شيء يقع له ، يلاقيه بصمت وامتثال للأمر الواقع ، وفوق ذلك ابتسامة ، وربما ضحكة أو نكتة ! .. لأن ما يقع له هو دائما قضاء وقدر، وقد راض نفسه رياضة تامة على التسليم به ، بل على الترحيب به ، كأنه ضيفه العزيز .

رأيت الاستاذ فكرى أباظة - رحمه الله - فى مكتبه بمجلة المصور وهو رئيس تحريرها فى أواخر الخمسينات ثم رأيته خارج هذا المكتب وقد أبعدته عنه السلطة ، فلما توسط له بعض محبيه وعارفي فضله عند السلطة ، وعاد إلى العمل ، وجد مكتبه قد شغله مرءوس له ، فظل فكرى

أباظة – وهو رئيس تحرير المجلة – عدة أيام يبحث عن مكتب آخر ، تحرجا من دخول مكتبه الذى تمسك مرءوسه بالبقاء فيه !..

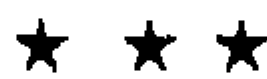
ولم تبدر منه ، فى أى حال آخر طوال اثنين وعشرين عاما رأيته وصحبته خلالها ، أية شكوى من أى شىء .. كان أقصى شكواه أن يتفكه بما يشكو منه ، أو يجعله مفتاحا لحديث شائق من أحاديث الذكريات فى الصحافة أو السياسة أو الحب أو كرة القدم ! .

وفكرى أباظة من أسرة غنية كبيرة العدد ، ولكنه لم يكن يملك مالا ولا جاها فى هذه الدنيا ، والناس يظنونه من كبار الاغنياء ومن عظماء ذوى النفوذ .. وكان فى مقدروه أن يكون كذلك لو سلك الطرق الصحيحة إلى مآربه ، ولو سلكها لنال الثراء والجاه وجلس على قمة من القمم . ولكنه تعفف وتخفف من عبء الدنيا ، واعتصم بمروءته وكبريائه وقناعته وبساطته المذهلة ، وقضائه وقدره ! ..

وهو فى ذلك نسيج وحده فى العصر الذى عاشه قبلنا ، وفى العصر الذى عشنا معه في الصحافة المصرية وفي المجتمع المصرى .. فما رأيناه فى تعامله مع الناس يضع على كتفيه مقدار ذرة ولا هباءة من التكبر أو التعمل أو الاعجاب بالنفس أو الاعتزاز بجلائل

الاعمـال .. فى حين رأينا الكثـيـرين سـواه ينتـفـشـون كـالديكة أو كـالطـواويس ، لأدنى وأرخص شىء يتـيـسـر لـهم من زخـرف الدنيـا ، ووثارة كراسيها ، ونعومة ملمسها ! ..

وكان الناس جميعا فى نظره أساتذة ومتفضلين عليه وهـو أستاذهـم والمتفضل عليـهم .. فيقول مثلا : أستاذنا فلان قال كذا وكذا .. أو صنـع كـذا وكـذا .. بل كـان فكرى أباظة يكتب أحـيـانا فى مـقـالاته مـؤكـدا أسـتاذية بـعض الناشئين عليـه .. ولا تساوره خواطر الكبرياء الحمقاء وهو يقول ذلك أو يكتبه عن «زملائه» الأصغر منه سنا وعملا وسابقة فى الجهاد الوطنى والصحفى والادبى .. وفى كل شىء ! ..



سمعته مرة يتحدث إلي أحد الزملاء قائلاً :

– يا أخى .. ان الصداقة التى بيننا تجعل حسن الظن أقرب الينا دائما من سوء الظن ! .

وزميله هذا ، أو صديقه ، الذى يحدثه بهذه الندية التى لا زيف فيها ولا اعتمال ، لم يكن إلا انسانا عاديا ، قد لا يستطيع اقامة صداقة مع انسان عادى مثله ! .

كذلك ..كان فكرى اباظة .. أنقى انسان عرفته قط ، وأبسط إنسان

وأكثـر من عرفت مـروءة ومســـــاواة لنفسه مع أصغــــر النـاس .. في حين يضج الزمـــــان من حوله بذوي العقد النفسية المتـورمة المنتفخين بعــزة المكـانة أو ســطوة المــال أو الجـاه أو التـمـاع الاضــواء حـول أسمائهم ! .

ومع هذا الخلق السمح العبقري السماحة ، الذي يبدو صاحبه كأنه يفرط في حقوق نفسه ويتنازل عنها للناس .. كان فكري أباظة معدودا دائما من المعارضين ذوي الشكيمة والفتوة والثبات في معترك المعارضة ثبات المناضلين الراسخين في مواقف النضال والصيال ! .

ولقد عاش يقبض على الجمر بيديه ، ثابتـا على مـوقـفه هذا منذ طفولتـه في العـقـد الأول من القـرن العشـرين ، وهو تلميـذ في المرحلة الابتدائيـة يؤيد الحـزب الوطني وزعيمـه مـصطفى كـامل .. إلى العـقـد الثامن الذي ألقى فيه على الدنيا تحية الوداع الأبدي ، وانصرف عنها هادئا وادعـا ، لا عليه منهـا ولا له إلا مـا سـجله في الخلود من جـهـاده وسيرته .. متـأبطا في خطوته الاخيرة ذراع القضـاء والقدر ، حتى بلغ المثوى الاخير! .

كانت معارضة فكري أباظة التي استمرت سبعين عاما ، غير بعيدة ولا منفصلة عن شمـائله التي تفرد بها .. فهو لم يتخل في معارضته التي لا تنكسر ، عن مروءته وبساطته وسلامة قصده ، وتسليمه بالقضاء

والقدر ، ونقاء سريرته نقاء سرائر الاطفال الابرياء .. وتقشفه العجيب كأنه زاهد أو متصوف .. وتفويضه أمره إلى الله فى كل حال ، وانطلاقه فى كل اعماله من فكرة بساطة الانسان لا من فكرة جبروته ، وغفلة عظموته ..

لهذا كان يبدو احيانا ، وهو المعارض القوى العارضة والمعارضة ، كأنه مؤيد على طول الخط .. كان بعض الناس يرونه ناقدا كمادح ، أو ثائرا كقاعد مصفق ، أو غاضبا كمبتسم بسمة الرضا والسعادة والاقتناع !.

لكنه فى الحقيقة كان إنسانا فولاذى الاحتمال متين الارادة ، بارع الذكاء ، عميق الفهم للدنيا ، لا يتقهقر الا استجابة لما وقر فى أعماق وجدانه من التسليم بالقضاء والقدر تسليم الانسان الذى خلق ضعيفا وان كان أقوى الاقوياء !..

وقد لمس زميلنا المفضال الاستاذ فاروق أباظة فى كتابه الذى سماه : «فكرى أباظة .. فارس المعارضة» جوهر الحياة السياسية والصحفية لهذا الرجل العظيم حين أدار كتابه كله حول مواقف المعارضة التى وقفها فكرى أباظة فى البرلمانات ، أو فى الصحف ، فلقد عاش هذا الفارس النبيل معارضا طوال حياته ، يريد بمعارضته أن ينشىء عالما أفضل من عالمنا ، ولكنه كان يتفهم جيدا

منذ بداية أمـره فى هذا المجال أن المعارضة هى واجب يؤديه استجابة لضـميره ومثله العليـا ، أمـا «اصـلاح الكون» فإنه من اختـصـاص القضاء والقدر .

ولم يقع فى ضميره ولا فى نفسه أى تناقض بين مـا يريده أن يكون وبين ما هو كائن فعلا ، فحسبه أنه نهض بواجبه فى كل موقف ، وليس عليه بعد ذلك بلوغ ما يريده أو ما يحلم به ! ..

رحم الله فكرى أباظة ، كان والله من أندر الرجال فى كل ما يتصف به الرجـال من المروءة والأريحية وسـلامـة الصـدر وسـعة العقل ويقظة الضمير ، ونجدة الفارس الباسل ! .

ولعل هذا الكتـاب الذى نشـره زميلنا فـاروق أباظة عن أسـتـاذه وأستاذنا فكرى أباظة ، يفتح الباب لكتب أخرى كثيرة عن هذا الرجل العظيم ، الذى أوشك قـومه أن يضيـعوه حيـا وميتـا ، وهو من أجـدر الناس بالتخليد .

وأخشى أن نسمعه ذات يوم من وراء الغيب يتمثل بقول الشاعر العرجى حفيد عثمان بن عفان :

أضـــاعونى وأى فتـى اضـاعوا

ليـوم كريهـــة وسـداد ثغـــر !

المطربة
ورئيس الديوان

الكثيرون من محبي صوت أسمهان مازالوا يقولون : لو عاشت لملأ صوتها الدنيا وشغل الناس ، ومع أنى أقول مثلهم بأسف بالغ : ليتها عاشت .. لكنى أقول : لو عاشت اسمهان - رحمها الله - لما عاش صوتها، لأنها خلقت للمغامرات الكبرى لا لاحتراف الغناء !

فى أواخر سنة ١٩٤٣ كنت مع صديقين من صغار الطلاب نمر بشارع المساحة بالدقى، فتوقفنا عند مدخله فى ميدان عبد المنعم - لا أدرى اسمه الآن - وتعلقت أنظارنا على امرأة أنيقة رشيقة غضة الشباب، تخرج من قصر فى ذلك الميدان ..

هتف أحدنا :

- هذه اسمهان ! ..

رد الآخر :

- غير معقول ! .. اسمهان تركت مصر منذ سنوات ! ..

وتحركنا فى سرعة إلى باب حديقة القصر .. نسأل البواب بسذاجة عن هذه السيدة !

اتسعت عينا البواب دهشة وغضبا، ورمانا بنظرة تهديد ، ومد سبابته نحونا منذرا :

– إمش أنت وهو من هنا ... إمش !

أخافنا البواب النوبى الضخم فمشينا ، ولكننا توقفنا عند عمارة قريبة من ذلك القصر، وتقدمنا إلى بوابها نسألة بأدب جم واحتشام :

– ياعم .. من صاحب هذا القصر المجاور لعمارتكم ؟!

رد الرجل بسرعة وسماحة رد عليم ببواطن الأمور :

– هذا قصر حسنين باشا ..

– حسنين باشا من .. يا عم ؟!

– عجيب يا أخى أنت وهو .. حسنين باشا رئيس الديوان !

– الديوان الملكى .. ياعم ؟!

غضب بواب العمارة من جهلنا .. وتغير وجهه ، حتى ظننا أنه سيطردنا بغير اجابة عن سؤالنا كما فعل زميله بواب القصر، لكنه عاد إلى سماحته وقال بهدوء :

– نعم . الديوان الملكى !

انصرفنا يسأل بضعنا بعضا :

- إذا كانت تلك اسمهان فمتى جاءت إلى مصر ولماذا ؟ .. وما شأنها بقصر حسنين باشا رئيس الديوان ؟!

ولبثنا مختلفين حول هذه الأمور ، حتى نشرت بعض المجلات حديثا لاسمهان ، وزفت إلى القراء بشرى عودتها إلى عالم الغناء بعد ذلك الانقطاع الطويل ! ..

كان جيلنا معجبا باسمهان منذ شاهدناها فى فيلم «انتصار الشباب» مع أخيها فريد الاطرش سنة ١٩٤٠ ولما تركت مصر إلى فلسطين وسوريا ولبنان ، صرنا نتعجب من أمرها ونتساءل :

- كيف يكون لها هذا الصوت الرائع ثم تحتجب وتنقطع عن الغناء؟!

وظللنا بين الإعجاب بصوتها والتعجب من أمرها حتى طلعت علينا الصحف بنبأ عودتها، ثم فاجأتنا بقصتها «البوليسية» المثيرة مع زوجها» أحمد سالم الذى أطلق عليها الرصاص فلم يصبها وأصاب نفسه .

نشرت الصحف هذه القصة فى أوائل يوليو سنة ١٩٤٤ بتوسع لفت الأنظار وأطلق علامات الاستفهام ؛ فالحرب العالمية الثانية محتدمة نارا ما فى جبهتيها الغربية والشرقية ، لكن الرصاص الذى أطلقه أحمد سالم على اسمهان غطى على دوى القنابل التى تطلقها مدافع الجيوش

فى ميادين الحرب ! .. و«المانشيت» الذى نشرت به «الأهرام» معركة اسمهان وأحمد سالم ، أكبر من المانشيت الذى نشرت به معارك المارشال جوكوف لتحرير بيلوروسيا وبولندا ، ومعارك الجنرال ايزنهاور الزاحف إلى باريس فى تلك الأيام التى كانت الأقدار ترسم فيها مصير الحرب كلها ! ..

كنا نجهل تماما ما وراء الستار فى حياة اسمهان المطربة ذات الصوت الملائكى .. ولا نتصورها إلا شعرا وخيالا وطيوفا ساحرة وحتى حادث اطلاق الرصاص عليها وما أثاره من غبار حولها لم يغير تصوراتنا الشعرية المحفوفة بالخيال !

ولما غرقت فى «ترعة الساحل» بعد أيام قلائل من اطلاق الرصاص هيلها بكاها عشرات الألوف من أبناء جيلنا ومن الأجيال الأكثر نضجا كذلك، وبعضهم شرع فى الانتحار وتم انقاذهم ، وآخرون انتحروا ولم ينقذهم أحد ..

وفى تاريخ الغناء العربى كله ، لم يكتب الشعراء والأدباء عن مطربة أكثر مما كتبوا عن أسمهان ، وشغلت مأساة حياتها وموتها كثيرين آخرين لم تكن لديهم موهبة التعبير عن احساسهم بشعر أو نثر .

وقد عشنا زمنا بعد رحيلها نترنم بقصيدة الشاعر اللبنانى بشارة عبدالله الخورى التى منها هذا البيت :

أضـــاع جبـريل من قيثاره وترا

في ليــلة ضــل فيها نجمه الهادى

كـانت اسـمـهـان فى رأى الشـاعـر بشـارة الخـورى ، وترا من قيثارة ملائكية ضاع فى ليـلة حالكـة السواد حجبت السحب الكثيفة فيها ضوء النجوم !

أما الشاعر على أحمد باكثير ، فخلع رداء التحفظ وبكى اسمهان بقصيدة من عيون شعره ، قال منها :

غرقت .. كيف يغرق النور والحسن «م»

وفن الخـــلود فى شـــبر مـاء ؟!

ماتقـــولون ؟ .. هل تجـدون أو تلهون

أم هـــل يجـد صـرف القضاء ؟!

لو حـواها البحـر العريض لضـاق ..

البحر ذرعـا عن روحـها الشـماء

أو حـوتها الصحـراء لا نتفضت ظـلا
ومـــاء فـى جنـــة خضـــراء

وقلنا نحن من قصيدة :

اســـمهـان .. أى طيـــر تعـــس
غـــال آهـــاتك لـمـــا نعـــبا ؟!
طـــرق الســمع فغشـــاه أســـى
وأتـــى النفس فشـبت لهبـــــا
أين صـــوت كان إن غـــنى لنـــا
وثـب القلـــب اليـــه وصـــبا
ذو أنـــين وحـــــنين إن ســـرى
مـس دمعـــا جامــدا فانسـكبا

لقد لفت صوت اسمهان أسماع جيلنا والجيل الذى سبقنا ، وأعجبتنا جميعا شخصيتها المشعة بالجاذبية الفائقة ، فلا عجب أن يتحزن لها شعراء كبشارة الخورى وباكثير ، ومعهما الشبان الصغار من أمثالنا فى ذلك الحين ! ..

كانت اسمهان صوتا دقيق الملامح ، فريد النبرات ، مطربا أشد الإطراب ، من أعلى جوابه إلى أدنى قراره ، وفى هذا الصوت البديع

امتزج صوت المرأة وصوت الكمان وصوت القانون وصوت الناى وصوت الحمامة المطوقة ، فى تركيب عجيب فاتن يكاد يجعل منه صوتا غير بشرى !

واكتلمت له صفات القوة والوضوح وشدة الأسر ، فإذا استعرضنا الاصطلاح الأوروبى ، فهو صوت من قسم «السوبرانو» فى الأصوات النسائية ، غني بمقاماته ومساحته ، ولم يكن جماله خافتا كبعض الأصوات الجميلة ، بل كان عاليا متوهجا كعين الشمس .

ولكن اسمهان - رحمها الله - لو عاشت لفقدت صوتها وعاشت على ذكراه تتحسر بعد فوات الأوان ، فقد كان مذهبها فى الحياة يؤدى إلى هذه النتيجة الفاجعة .

لقد بدأت اسمهان تفقد صوتها فى السنوات الثلاث الأخيرة من حياتها، وهى السنوات التى عرفت فيها محمد التابعى الصحفى الكبير، وأحمد حسنين باشا رئيس الديوان الملكى، ومراد محسن باشا ناظر الخاصة الملكية ، وعددا آخر من الوجهاء والاكابر .

ولما دخلت اسمهان فى خدمة الاستخبارات البريطانية منذ سنة ١٩٤١ كان ذلك ايذانا بخروجها من عالم الغناء ولو بعد حين !

ولكن هذا آخر القصة الذى عليه يسدل الستار فلنعد إلى بداية هذا الفصل الأخير كما رواه الصحفى الكبير محمد التابعى فى كتابه

«اسمهان تروى قصتها» ثم فى كتابه : « أسرار الساسة والسياسة» .

كان التابعى أستاذا من أساتيذ الصحافة المصرية ، أسلوبه فى الكتابة لا يدانيه أسلوب صحفى آخر فى سلاسته ولباقته وطلاوته، حتى عده بعض النقاد من الأساليب الأدبية الجديدة التى أدخلتها الصحافة فى عالم الأدب .

وفى كتابه الرائع عن «اسمهان» يروى قصتها معه، وقصته معها بحذافيرها ، ويطلعك على خفاياها بألطف بيان وأعف لفظ وأبرع إشارة بلا كلمة مباشرة أو تلميح جارح ، حتى تظن حين تفرغ من قراءة هذا الكتاب أنك رأيت كل شئ ، وأنت لم تر شيئا ، أو لم تر إلا القليل ، ولكنك على أية حال استمتعت وامتلأت دهشة وسرورا .

وفى كتابه ، « أسرار الساسة والسياسة » يكمل التابعى فى سياق الأحداث قصته وقصة أحمد حسنين باشا مع اسمهان .

رأى التابعى اسمهان لأول مرة فى بداية الثلاثينيات وهى تغني فى كباريه أو صالة الراقصة مارى منصور، وكان الأثر الذى تركته فى نفسه هو أنها - على حد تعبيره - «شىء صغير نحيل مسكين يبعث الرحمة فى الصدور» !

وفى سنة ١٩٣٣ جاء من سوريا أحد أقربائها وتزوجها ونقلها إلى السويداء أو إلى دمشق أو بيروت .

وبعد ست سنوات انفصلت اسمهان عن زوجها وعادت إلى القاهرة تجرب حظها من جديد ، ولم تطرق باب كباريه مارى منصور بل تلقفها الموسيقار عبد الوهاب ولحن لها ماغنته معه فى قطعة من مسرحية «مجنون ليلى» ظهرت فى أحد أفلامه ومازالت هذه القطعة الرائعة متداولة فى الإذاعات مسموعة من الجماهير ، كأنها خرجت أمس من حنجرة اسمهان ، وكأن اسمهان مازالت فى ربيع الحياة .

وعن طريق عبد الوهاب عرف التابعى اسمهان ، وعقد عبد الوهاب بينهما التعارف ثم تركهما وشأنهما ومضى يتفرج ويتسلى بما يقع بينهما من شئون وشجون!

والتابعى هو الوحيد الذى كتب قصته مع اسمهان بين جميع من عرفوها ، من نجوم المجتمع المصرى، فى الثلاثينيات والاربعينيات، وليس فيما كتب مغالاة ولا خيال ولا إعجاب بالنفس ، فقد كانت تجاربه كثيرة ، أكسبته كثرتها تواضعا ، وكياسة فى النظر إلى أشد الأمور إثارة ، فقد عرف الخبئ وراء كل بريق فى عينى امرأة جميلة .

ولو ذهبنا معه إلى كل مكان شهد فصلا من قصته مع اسمهان لشينا حتى أعيينا ، فقصته طويلة ذات فصول وهى فى الحقيقة أكبر القصص فى حياة اسمهان ، وأظن ظنا - غير مستيقن - أنها من أكبر

القصص في حياة التابعي على ضخامة ما اضطلع به من بطولات قصص الحب في عصر الرومانسية الباهر .

وإنما نريد هنا أن نلم بقصتين متداخلتين في حياة اسمهان ،، قصتها مع حسنين باشا رئيس الديوان وقصتها مع وكلاء الجاسوسية البريطانية ، والفرنسية ، والألمانية خلال الحرب العالمية الثانية .

يحدد التابعي بدقة يوم عرفها حسنين باشا ،، ففي ٨ فبراير ١٩٤٠ التقيا في حفلة اقامها التابعي بمنزله في الزمالك، وكان كثير الحفلات ، ولم يذكر مناسبة الحفلة ، إلا أنها – على أية حال – كانت مفتاح التعارف بين المطربة الجميلة ورئيس الديوان .

ولم تمض على الحفلة أيام قلائل حتى دعا حسنين باشا صديقه التابعي مع اسمهان إلى الغداء ، ثم إلى حفلة ساهرة في داره ، ثم توالت الحفلات والسهرات عند التابعي ، أو عند أصدقائه ، أو عند حسنين باشا، فتعددت فرص اللقاء بينه وبين أسمهان .

ولم يكن لاسمهان في تلك الأيام عمل يدر دخلا كبيرا ولكنها – مع ذلك – كانت تقيم في فندق ميناهاوس وهو أغلى الفنادق أيامئذ .

يقول التابعي : «دعتني مرة لتناول الشاي معها بفندق ميناهاوس، وبينما نحن جالسون نتحدث دخل علينا حسنين باشا ، وقالت هي بعد انصرافه إنها لم تدعه لتناول الشاي وإنه جاء على غير موعد، وقد تكون صادقة في قولها هذا يومئذ» .

يتساءل التابعى : هل أحبت أسمهان أحمد حسنين وهل أحبها أحمد حسنين ؟

أما اسمهان فكانت لا تحب أحدا ، هكذا يؤكد التابعى فى مواضع كثيرة من كتابه ، ولكنها تأنس إلى هذا أو ذاك ، من الرجال أنسا مؤقتا ، ومع ذلك لم تستطع إلا أن تتريث قليلا عند حسنين ، لماذا ؟ .. يقول التابعى : لأن أحمد حسنين «كان رجلا ولا كل الرجال .. كان يفتن يسحر ويبهر ويستوقف النظر فى أية حفلة مهما اشتد فيها الزحام ! شكله .. مظهره .. أناقته .. رجولته .. اسمه المدوى .. تاريخه الملئ .. منصبه الخطير .. مغامراته المشهورة .. حديثه الساحر ، خبرته العميقة بالنساء ، فلا عجب أن بهرت به أسمهان ، ولأول مرة أحست بما يشبه لحب» .

ولكن هل أحبها حسنين باشا ؟

يجيب التابعى : «نعم .. أحبها وفى غير تحفظ إلا ما كان يفرضه عليه منصبه الكبير الخطير .. وكان حبه لأسمهان أمرا معروفا فى المحيط الرفيع الذى يتحرك فيه» .

وكان حسنين باشا متزوجا من السيدة لطيفة بنت الأميرة شويكار مطلقة الملك فؤاد ، فكان بهذا الصهر يعد من أقرباء الأسرة المالكة ، وكان صديقا خاصا للملكة نازلى والدة الملك فاروق منذ عام ١٩٣٧ ، ثم

طلق زوجته بناء على طلبها بعد أن ذاع وشاع ما بينه وبين الملكة نازلى، ولم يطب له أن يكون مجرد صديق للملكة ، وعزم على أن يتزوجها ، فبدأ يبتعد عنها لتزداد ولعا به ، وطال ابتعاده عنها فذهبت إليه ، ودار بينهما الحوار التالى كما يرويه التابعى :

قالت نازلى لحسنين :

- أنا أعطيك إنذارا نهائيا ، اما أن تعاملنى كامرأة أو سأقطع كل علاقة بيننا وأصبح حرة أفعل ما أشاء .

وأجاب حسنين وهو يتظاهر بالبكاء أنه لا يستطيع أن يقربها إلا إذا تزوجها على شرع الله وسنة رسوله ، ثم أسرع يقول :

- وغير معقول أن أتزوج الملكة .

وهنا صاحت الملكة نازلى :

- طظ فى لقب الملكة !

واشتد الجدال بينهما حتى قالت له نازلى ساخطة ثائرة :

- يعنى عاوزنى أعمل إيه ؟! .. زوجة .. لا ! . رفيقة .. ؟! .. لا ! .. عاوزنى أبقى إيه ؟!

ثم قالت :

- سأذهب إلى فاروق وأقول له إنى سأتزوجك !

قال حسنين :

– اذهبى .. ولكنه سيرفض !

وذهبت الملكة نازلى إلى ابنها الملك فاروق وعرضت عليه الأمر، تفكر مليا ، ثم قال لأمه بهدوء وسكينة :

– رافقيه أحسن !

قالت لابنها :

– إنه يرفض أن يكون عشيق الملكة !

قال الملك :

– سأصدر إليه أمرا ملكيا بذلك !

ولعل فاروقا – كما يقول التابعى – كان يسخر من أمه ! ولعله – كما يبدو الآن – كان جادا كل الجد !

وهربت نازلى سنة ١٩٤٢ إلى فلسطين وأقامت بفندق الملك داود فى القدس ، تراقص الضباط البريطانيين ، فاضطر الملك فاروق إلى مصالحتها والموافقة على زواجها من حسنين ، ولكنه اشترط أن يكون عقد الزواج عرفيا، يقول التابعى : «وهكذا كان .. تزوج أحمد حسنين ابن المرحوم الشيخ محمد حسنين العالم الأزهرى بالملكة نازلى أرملة الملك أحمد فؤاد ، وكان أحد شهود العقد المرحوم الأستاذ سليمان

نجيب مدير دار الأوبرا ، وكان حسنين يثق كل الثقة بحذره وكتمانه ، ومثله الملك فاروق ، أما الشاهد الآخر فلعله كان مراد محسن باشا ناظر الخاصة الملكية أو لعله كان أحد خدم فاروق المقربين » !

ماذا كانت اسمهان تصنع عندما تم زفاف حسنين ونازلى زوجين سعيدين فى «سراى الدقى» التى ورثتها نازلى عن والدها المرحوم عبد الرحيم صبرى باشا .

إن حسنين باشا لم يتخل عن اسمهان ولكنها هى تخلت عنه وسافرت إلى فلسطين فى مهمة كلفتها بها الاستخبارات البريطانية .. يقول التابعى : « إن بريطانيا لجأت إلى المطربة اسمهان لتستعين بها على دخول سوريا ولبنان وطرد قوات حكومة فيشى الفرنسية التى كانت قد أسلمت زمامها للألمان ، وكانت بريطانيا قد نجحت قبل ذلك بشهر واحد فى القضاء على ثورة رشيد عالى الكيلانى فى العراق ونشطت إلى تثبيت أقدامها فى الشرق الأوسط والقضاء على كل نفوذ لألمانيا فيه» .

كان الاتفاق بين بريطانيا واسمهان سهلا سريعا ، التقى المستر نابيير نائب مدير الدعاية فى السفارة البريطانية ، بالمطربة اسمهان فى حديقة سطح فندق الكونتننتال وقال لها : إنه يريد أن يحدثها فى أمر فيه نفع لها ولبريطانيا ، فإذا وافقت فما عليها إلا أن تسافر إلى القدس وتنتظر قليلا بفندق الملك دواد ، وبعد ذلك تسافر إلى عمان ثم إلى

سوريا ومعها أربعون ألف جنيه ، تساوى أربعة ملايين الآن ، لتوزعها على رؤساء قبائل البادية وشيوخ الدروز في السويداء .

أدت اسمهان مهمتها على خير وجه ، ودخلت القوات البريطانية سوريا ولبنان وطردت ممثلى حكومة فيشى من هناك ، وعادت اسمهان من جديد زوجة لابن عمها حسن الاطرش ، ولكنها أقامت بمفردها فى القدس لا تبرحها إلا إلى تل أبيب أو حيفا أو يافا ، وأصبح بذخها واسرافها مثار الأحاديث .

ثم بدأ الانجليز يقبضون عنها أيديهم بعد انتهاء مهمتها ، وهنا هبط عليها وكلاء المخابرات الألمانية يعرضون عليها أن تعمل لحساب الألمان ، وأعدت كل شئ للسفر وركبت القطار من حلب قاصدة الحدود التركية ، ولكنه لم يكد يقترب من الحدود التركية حتى توقف ودخل ضابط بريطانى وطلب إليها أن تغادر القطار ، وكانت إحدى السيارات الحربية فى انتظارها ، وعادت بها إلى حلب .

هكذا عرف الانجليز أن جاسوستهم الحسناء قد أدارت ظهرها اليهم وتوجهت للألمان .

يقول التابعي : ولكن السلطات الفرنسية فى سوريا لم تلبث أن مدت يدها إلى اسمهان ، إلا أن فرنسا «الحرة» كانت فقيرة ولم يكن بوسعها أن تمنح عميلتها أكثر من ثلاثمائة جنيه فى الشهر ، فضاقت الدنيا

باسمهان ولم تعرف كيف تعيش بهذه الثلاثمائة بعد أن كانت تعيش بثلاثة آلاف .

وكان ينزل بفندق الملك داود بالقدس أحد كبار موظفى وزارة الخارجية المصرية فى تلك الأيام ، فأعجبته اسمهان كل الاعجاب وأقسم لها لئن عاد إلى مصر ليسعين فى عودتها بكل الوسائل !

وعاد الموظف الكبير وتحدث إلى صديقه حسين سعيد خال الملكة فريدة ، وأطنب له في وصف اسمهان وصوتها وسحرها وفتنتها ، وكان حسين سعيد يومئذ مديرا لستوديو مصر وشركة مصر للتمثيل والسينما التى أنشأها طلعت حرب، فسافر إلى القدس وجاء باسمهان ، بعد أن وقع بدوره أسير فتنتها وسحرها ، على حد تعبير التابعى .

وهكذا عادت اسمهان إلى القاهرة فى أواخر سنة ١٩٤٣ ، عادت إلى أحمد حسنين باشا رئيس الديوان .

وكانت حين رأيناها تخرج من قصره – كما تقدم فى أول الكلام – لم تزل فى بداية عهدها الجديد بالقاهرة .. وفى بداية عهدها الجديد كذلك مع أحمد حسنين باشا الذى كان قد أصبح زوجا للملكة نازلى منذ سنتين وكانت نازلى يومئذ فى الثانية والخمسين من عمرها، وكانت اسمهان فى الحادية والثلاثين .

ارتفع الستار عن الفصل الأخير ، واسمهان على خشبة المسرح ،

جاسوسة سابقة لثلاث دول ، وزوجة سابقة مطلقة أربع مرات ، مرة من زوجها الأول المطرب فايد محمد فايد ومرتين من زوجها الثانى حسن الاطرش ، ومرة من زوجها الثالث أحمد بدرخان ، ثم هى الآن زوجة شرعية لزوج رابع هو الوجيه أحمد سالم الذى كان صديقا لعدد كبير من الممثلات والراقصات .. وكان حين تزوج اسمهان فى القدس يصحب الراقصة تحية كاريوكا وهى فى جولة فنية هناك .

ومع كثرة صديقات أحمد سالم كان غيورا على أية امرأة تنتسب إلى اسمه بالزواج أو بالصداقة .

فلما علم أن اسمهان قد عادت إلى حسنين باشا كأنها لم تكن فارقته بضعة عشر شهرا ، ثار الدم فى عروقه ، واندفع يراقبها ، فرآها تدخل قصر الباشا وتخرج منه ، ورفع سماعة التليفون وطلب حسنين باشا :

- من حقى أن أسألك يا رفعة الباشا ماذا كانت زوجتى تفعل عندك ؟!

ورد حسنين باشا :

- عيب يا أحمد دا انت زى ابنى .. ومراتك زى بنتى وأنا كنت فاكر انها قالت لك ، وإنك عارف بزيارتها لى !

واستمر أحمد سالم يراقب اسمهان ويقف لها متخفيا على مقربة من قصر الباشا حتى أيقن أنهما على رباط وثيق ، فانتظرها فى البيت وعاتبها واشتد بينهما العتاب فأطلق عليها رصاصة هربت منها إلى بيت الجيران .

ولما جاء إليه رجل البوليس السياسى المشهور حينذاك الاميرالاى إبراهيم إمام ليقبض عليها تلقاه أحمد سالم برصاصة أعقبها برصاصة أخرى استقرت فى صدر أحمد سالم نفسه !

كانت حادثة سياسية مائة فى المائة ، لا مجرد مشاجرة زوجية ، ولهذا انتدبت لها الحكومة أبرع ضباط القسم السياسى فى وزارة الداخلية .

وخرجت الصحف بالمانشتات العريضة تروى قصة المعركة .. كأنها من معارك الحرب العالمية الدائرة فى تلك الأيام .

وكانت اسمهان تعمل فى فيلمها «غرام وانتقام» فاستأذنت من مخرجه يوسف وهبى فى اجازة قصيرة تقضيها فى رأس البر للاستجمام .

وكان اسم الفيلم يلخص في سخرية عجيبة قصص «آمال أو اميلى الاطرش» الشهيرة باسمهان مع أزواجها الأربعة ، بل كان يلخص حياتها كلها مع الرجال ، من زبائن صالة مارى منصور فى بداية

الطريق ، إلى العليـة والكبـراء ورجـال الدولة المصـرية والبـريطانيـة والفرنسية وكل من عرفوها وهي نجمة ساطعة !

وابتلعتها مياه الترعة الصغيرة في طريق رأس البر ! غرقت فيها السيارة التي تقلها ونجا سائقها من الغرق .

وثارت التسـاؤلات والأقـوال من جـديد .. كيف غـرقت هي وحـدها وكيف نجا السائق وحده ؟!

انتهت قصة اسمهان فـي مياه ترعة الساحل ، ولكن اسمهان كانت قد انتهت قبل أن تفتح لها ترعة الساحل ذراعيها وتأخذها إلى أعماقها القاتلة !

ولو عاشت اسمهان - رحمها الله - سنوات قلائل أخرى في هذا الصخب الماحق ، لقتلت صوتها بالشراب ، والدخان ، وسهر الليالي .

وما كان شئ ليبقى من اسمهان بعد ذهاب صوتها !

زعامة سياسية
وزعامة غنائية

كانت تلك الحفلة فى مسرح الأوبرا «الملكية» أجمل حفلات سنة ١٩٢٥ على الاطلاق وأعظمها إثارة للتعليقات المختلفة فى الأوساط الفنية والأدبية والصحفية والسياسية وغيرها .

احتشد فى الحفلة كبار الممثلين والمطربين والمطربات فى تلك الأيام ، وكانوا مرشحين لجوائز قيمة أهدتها اليهم وزارة الأشغال العمومية .. وبينهم جورج أبيض ويوسف وهبى وزكى طليمات وعبدالله عكاشة وعبد العزيز خليل وزكى مراد وحامد مرسى وروز اليوسف وفاطمة رشدى.. وكانت منيرة المهدية نجمة الحفل المشار إليها بالبنان !

وأذكر أني كتبت منذ سنوات شيئا حول هذه الحفلة «التاريخية» فسأل بعض زملائنا شيخنا المرحوم الأستاذ فكرى أباظة عن صحة ما كتبناه ، فأبدى - رحمه الله - دهشته واتصل بى يسألنى : من أين جئت بهذا الكلام ، فلما أجبته تذكر واقتنع وزالت دهشته ..

ودعنا الآن نبدأ الحكاية ..

فقبل سبعين عاما كانت وزارة الأشغال العمومية تشرف رسميا على

الفنون المسرحية في مصر ، لأن هذه الوزارة - ومهمتها الأساسية الرى والطرق والجسور - كانت مسئولة أيضا عن المحافظة على مبانى مسرح دار الأوبرا ، فامتدت مسئوليتها إلى الفن المسرحى ذاته، واجتمعت فى يد وزير الأشغال وموظفى وزارته مقاليد الرى والمعمار والفن فى وقت واحد !

وفى سنة ١٩٢٥ اعتمدت وزارة الأشغال العمومية ميزانية هائلة تبلغ ألفى جنيه بعملة ذلك الزمن ، تشجيعا للفن المسرحى ، وخصصت من هذه الثروة ثمانمائة جنيه جوائز للمتفوقين من رجال المسرح وسيداته وآنساته !

وكان لابد من حفل يناسب المقام توزع فيه هذه الجوائز الثمينة ، فأقامته الوزارة فى دار الأوبرا ودعت إليه كبار موظفى الرى وغيرهم من رجال الحكومة ، وبعض كبار الصحفيين والأدباء ، ومنهم الكاتب الشهير المرحوم الدكتور محمد حسين هيكل وكان فى ذلك الوقت رئيسا لتحرير جريدة «السياسة» لسان حزب الأحرار الدستوريين .

وبدئت الحفلة بخطاب رسمى ألقاه سعادة وكيل وزارة الأشغال العمومية عن الفن المسرحى وفوائده .

ثم أخلى سعادة الوكيل المسرح لسلطانة الطرب منيرة المهدية

وفرقتها الموسيقية ، فجلجلت تحت قبة الأوبرا حنجرة السلطانة وهزت الحاضرين طربا .

في سنة ١٩٢٥ كانت أم كلثوم قد استقرت في القاهرة منذ ثلاثة أعوام، وكانت تغنى كل ليلة تقريبا ، ولكنها كانت بالقياس إلى منيرة سلطانة الطرب ، مجرد مطربة ناشئة صغيرة السن ، متواضعة الشهرة - وإن كان صوتها عند كل من سمعه يبشر بأعظم الآمال ، وينذر منيرة بأن سلطنتها على وشك الانهيار !

وفي سنة ١٩٢٥ كان الصراع السياسى محتدما بين سعد زغلول باشا زعيم الأغلبية وبين منافسيه الذين لا وجود لأحزابهم فى الحقيقة إلا على اللافتات المثبتة على أبوابها ، فضلا عن وجودها اليومى فى الصحف التى تصدرها ناطقة بحالها ، وكانت جريدة السياسة ، ومجلة السياسة الأسبوعية من أحسن صحف مصر بغض النظر عن مواقفها السياسية والحزبية التى لم تكن تروق للأغلبية .

كان الأحرار الدستوريون الذين تنطق جريدة السياسة بلسانهم يتهمون سعد زغلول بالغوغائية وبما هو أغلظ من ذلك فى قاموس الهجاء السياسى القديم .. ويحصبونه بالشتائم الصريحة !

ولم تكن صحف الوفد المصرى تسكت على هذا الضيم ، فكانت تكيل الصاع صاعين لصحف الأحرار الدستوريين مباهية بأن ما تكتبه

هذه الصحف يقرؤه أعضاء حزب الأحرار الدستوريين وحدهم ، وهم أفراد قلائل .

كانت زعامة الأمة منقسمة على نفسها فى ذلك الحين .. فزعماء الأغلبية يطلبون حقهم الدستورى وزعماء الأقلية يتهمون الدستور بأنه ثوب فضفاض ارتداه أصحاب الجلابيب الزرقاء وحاولوا به فرض سيطرتهم على سادة البلاد ، وعلى رأسهم الملك والأمراء والباشوات وكبار المفكرين المتعلمين فى أوروبا أو الذين يتعلمون من أوروبا وهم مقيمون فى مصر !

وفى كلمات قصار : كانت الحياة الحزبية حينذاك تعطى الملك والانجليز فرصتهم الذهبية لتبديد حقوق البلاد !

ولم تكن الصحف الحزبية تترك فرصة تسنح لها دون اقتناصها فى الكيد للخصوم .. وهكذا خرجت جريدة السياسة تصف حفلة توزيع الجوائز على الممثلين والممثلات فى دار الأوبرا ، وتنوه بسلطانة الطرب، وتعقد مقارنة بين السلطانة وبين سعد زغلول باشا ..

كان كاتب المقال هو الدكتور هيكل ، وقعه باسمه .. وجعل أساسه التهكم على سعد زغلول وأنصاره ..

كتب الدكتور هيكل ستة أعمدة كبرى فى جريدة السياسة يصف فيها بأسلوبه المتميز البليغ حفلة الأوبرا ، حتى إذا تكلم عن منيرة

المهدية ، اندفع يعقد مقارنة أو موازنة بين مكانتها الشعبية العظيمة ومكانة سعد زغلول !

كانت منيرة المهدية فى وقتها أشهر وأغنى وأجمل مطربة .. لا تنافسها مطربة أخرى ولا مطرب .. ولصوتها ببحته الساخنة العميقة سيطرة كاملة على الأسماع .. ولم تكن أم كلثوم - كما قلنا - قد برزت وأنزلت منيرة عن عرشها بعد !

وصف الدكتور هيكل بإبداع أدبى غناء منيرة فى مقالته الطويلة قال : إنه يطرب الأذن المصرية إلى حد يسحر صاحبها عن نفسه .

ثم التفت إلى منزلتها الرفيعة وقال : «إذا كان لعامة الناس من أهل هذه البلاد زعيم محبوب يسيرون وراءه ، فقد كانت منيرة لهذا الجمهور الراقى - يقصد جمهور حفلة الأوبرا - زعيمة محبوبة ، وكان إيمانه بفنها أكثر من إيمان ذلك السواد بشعوذة زعيمه » !

مقارنة مضحكة بين مطربة وزعيم !

ولكنها مكتوبة بأسلوب بديع لاذع !

والمعنى الذى يقصده واضح ، فإذا كان لملايين المصريين زعيم اسمه سعد زغلول ، فان للجمهور المثقف المرهف الذوق ، جمهور حفلة الأوبرا ، زعيمة اسمها منيرة المهدية!

هكذا انقسمت البلاد فى غمرة الصراع الحزبى قسمين فى نظر

كاتبنا الكبير : سواد الناس - الشعب - بزعامة سعد .. وبياض الناس أو الطبقة الراقية بزعامة منيرة !

نكتة مضحكة ، ومقارنة كاريكاتورية ، نتأملها الآن مندهشين ، ولكن الناس في سنة ١٩٢٥ لم تكن تدهشهم هذه الأمور ...

كان الدكتور هيكل من أشد الكتاب حصافة ، ولكنه في مقالته هذه لم يلتفت إلى معنى كلامه الذى كتبه، فقد جعل حزب الأحرار الدستوريين وزعماءه مجرد مصفقين في سهرات منيرة !

وماذا قال الباشا رئيس الحزب يا ترى عندما وجد كاتب الحزب قد نادى بمنيرة زعيمة لأعداء سعد زغلول ، زعيم السواد أو الغوغاء أصحاب الجلابيب الزرقاء !

الحقيقة - كما تبدو لنا الآن من وراء سبعين عاما ، وبعد خمود الصراع الحزبى القديم - أن كل الأساليب كانت مستساغة في هذا الصراع ، وكل طوبة في اليد تصلح قذيفة في وجه العدو .

والعدو هنا لم يكن الانجليز الذين يحتلون البلاد ، بل الحزب الذى يحتل الحكم، أو يحتل قلوب الجماهير ..

لقد استطاع الملك بحقه المقدس في حل البرلمان أن يجعل من الأغلبية الحزبية لعبة في يده ، يستطيع أن يستبدل بها حين يشاء لعبة

الأقلية، وقد استظلت بقبة البرلمان أغلبيات جاءت من الأقلية الحزبية أكثر مما استظلت بها أغلبيات جاءت من الأغلبية .. وتاريخ ذلك كله مسجل معروف لنا الآن، وكان معروفا منذ ذلك الزمان .

وكل الذين تحدثوا عن أسباب فشل ثورة ١٩١٩ في طرد الانجليز من مصر عرفوا هذا السبب الرئيسي ، وهو الانقسام الحزبى الجنونى ، الذى جعل من منيرة المهدية زعيمة للطبقة الراقية ، ومن سعد زغلول زعيما للسواد والطبقة التى لا تملك إلا الأصوات الانتخابية .

وتتمة القصة – وقد حدثتك عما دار بينى وبين أستاذنا المرحوم فكرى أباظة – أن أستاذنا أنكر بشدة أن يكون الدكتور هيكل قد كتب مقالا كهذا ، فأحضرت لأستاذنا رقم عدد السياسة وتاريخه ونص كلام الدكتور هيكل ، وقلت له : إذا لم يكن هذا كافيا فاسأل الصحفى المخضرم الأستاذ حافظ محمود فلابد أنه يذكر هذا المقال ويعرف مكانه من مجلد سنة ١٩٢٥ من جريدة السياسة التى صار رئيسا لتحريرها بعد هيكل باشا .

ولست بهذا كله أنحي باللائمة على الدكتور هيكل ، ولا أسخر من أسلافنا الكرام، وإنما أقول : هكذا كان نهج الحياة الحزبية فى ذلك العهد عندما انقسمت البلاد إلى زعامة سياسية ، وزعامة غنائية .. على رأى الدكتور هيكل رحمه الله !

الارستقراطي ابن البلد

في مقالة تفيض حبا لمحمود تيمور وتقديرا لأدبه ، يسميه المستشرق الروسي أغناطيوس كراتشكوفسكي : «الارستقراطي الفلاح» .. لأن كراتشكوفسكي أتيح له في العشرينات أن يشاهد «عزبة» أحمد تيمور باشا ويسمع الفلاحين هناك يصفون أولاد الباشا ، وبينهم «محمود» بأنهم ليسوا متجبرين ولا متكبرين كأولاد الذوات ، وإنما هم أشبه في دعتهم وطيبتهم بالفلاحين ! ..

ولكنى أوثر أن أسمي محمود تيمور - رحمه الله - بالارستقراطي ابن البلد ، فهو قاهري صميم ، عاش في القاهرة طولا وعرضا أكثر من سبعين عاما ، منذ ولد في «درب سعادة» سنة ١٨٩٤ ولم يغادر القاهرة إلا في رحلات متفرقة غير طويلة إلى أوربا وأمريكا وبعض البلاد العربية ، وقد عاد من هذه الرحلات وهو ابن بلد لم يتغير فيه شيء ولا يمكن أن يتغير ..

قد لا تكون التسعة والسبعون عاما التي عاشها تيمور مدة مديدة في صحبة القاهرة التي لا ملل في صحبتها ، ولكن هذه

المدة كانت على أية حال كافية لتخلق من هذا الأديب الارستقراطى «ابن بلد» صحيح النسب إلى بلده ، فى الوقت الذى كان فيه انتسابه إلى الفلاحين صحيحا كذلك ولا مطعن فى صحته ، لأنه برهن على صحة هذين النسبين الأصيلين فى أكثر من سبعين عملا أدبيا بين رواية ومسرحية ومجموعة قصصية أو مجموعة مقالات وصور وصفية ، كتبها خلال أكثر من خمسين عاما منذ نشر قصته الأولى «الشيخ جمعة» فى العشرينات وأتبعها بقصة «يحفظ بشباك البريد» إلى آخر سطر خطه الفقيد ولم ينشر حتى اليوم ..

ولد المرحوم محمود تيمور وفى فمه ملعقة من ذهب - على حد التعبير الشائع - فوالده هو أحمد تيمور باشا ، وعمته عائشة التيمورية .. وأسرته المتحدرة من أصل كردى قد ورثت من أجدادها أرضا زراعية خصبة واسعة ، وورثت بيوتا وأموالا ، وعاشت فى هناءة الثراء منذ عصر محمد على باشا .

ولكن أحمد تيمور باشا «انحرف» إلى الأدب والعلم ، فكان من أشهر رجال العلم والأدب فى الثلث الأول من القرن العشرين ، ومن أكثرهم اخلاصا فى حبه للأدب والعلم ، وقد بذل فى سبيله من صحته ومن ماله الكثير ، وقدم للأمة العربية خدمات

جليلة لا يقدمها إلا عظماء أهل الفكر من العروبيين الثابتين على الولاء لفكرة العروبة فى عصر لم تكن فيه هذه الفكرة قد نضجت بعد ...

وكان من عادة الباشوات فى تلك الأيام أن يلحقوا أولادهم بالمدارس الاجنبية فى مصر وأوربا . ولكن هذا الباشا الاسلامى العروبى ، ألحق ابنه محمودا بالمدارس المصرية الحكومية ليتلقى ما يتلقاه أبناء الشعب من التعليم ، ويعرف لغة بلاده .

وبعد أن نال محمود تيمور البكالوريا لم يرسله والده إلى أوربا كما أرسل أخاه محمد تيمور من قبل ، بل ألحقه بمدرسة الزراعة العليا . ولكنه اضطر إلى الانقطاع عن الدراسة فيها لأن مرض «التيفود» أقعده مدة طويلة حتى خيف عليه الموت بهذا المرض الوبيل الذى كان عسير العلاج فى ذلك العصر ..

فلما شفي منه بعد شهور طوال ، كانت صحته من الهزال بحيث لا تسمح له بمواصلة الدراسة في الزراعة العليا .. فانقطع فى مكتبة والده - المكتبة التيمورية الشهيرة - للقراءة والتفكير ...

يقول تيمور فى بعض كتاباته عن تلك الفترة من حياته : «امتدت عينى إلى ما تحويه خزانة أبى من روايات عصرية

مترجمة ، فوجدتني أجنح إلى ايثار القصص البوليسي ، أعني قصص الحيلة والجريمة ، وأذكر منها الآن روايات نقولا كارتي وشرلوك هولمز وسنكلر ، ففتنت أيما فتنة بما يبديه الأبطال من ذكاء وسرعة خاطر» ..

ولكن قصص كارتي وهولمز وسنكلر لم تكن أول ما قرأ محمود تيمور من قصص في حياته ، فقبل أن يقرأها بسنوات أهدى إليه والده مجلدا ضخما من كتاب «ألف ليلة وليلة» .. وفي أجواء ألف ليلة وليلة المضمخة بالعطر والخيال ، تفتح ذهن محمود تيمور على فن القصة ، وهو بعد طفل صغير ..

يقول تيمور : «لقد أثار كتاب ألف ليلة وليلة ميلي إلى قراءة أمثاله ، فأمدتني مكتبة أبي بما أطمح إليه ، وأذكر أنه كان فيما قرأت يومئذ من كتب الأسمار ونوادر الأخبار ، كتاب «إعلام الناس ، بما وقع للبرامكة مع بني العباس» .. وكتاب «نفحة اليمن ، بما يزيل الهم والشجن» وغيرهما من النظائر والأشباه» ..

ومن أطرف ما يذكره تيمور عن نفسه أن أول قصة كتبها في طفولته قبل أن ينشر قصة «الشيخ جمعة» كانت قصة «هندية» .. تصف انتقام جماعة من الهنود لاحدى بناتهم من ضابط بريطاني اعتدى عليها ، وجعل عنوان قصته الساذجة هذه «الشرف

الرفيع» مستوحيا هذا العنوان الرنان من قول المتنبى الذى يحفظه الجميع :

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى

حتى يراق على جوانبه الدم

ويعترف تيمور بصراحته اللطيفة أن والده - الأديب الكبير البليغ - اطلع على هذه القصة ورفض التصريح له بنشرها .. وطلب منه معاودة تجربة الكتابة ! ..

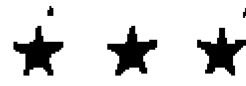
لكن إذا كان والده قد أتاح له القراءة ثم منعه أن ينشر ما يكتبه ، فإن أخاه «محمد تيمور» قد شجعه على الكتابة .. «إذ وجه موهبتى توجيها استفاده من ثقافته وخبرته وذوقه ؛ وكان يومئذ قد عاد من فرنسا بعد أن قضى فيها ثلاث سنين يتزود من الأدب العصرى الأوربى» ..

ولم ينصحه شقيقه بالاكتفاء بالأدب الأوربى ، بل نصحه بقراءة «حديث عيسى بن هشام» للمويلحى ، وقصة «زينب» للدكتور محمد حسين هيكل ، فقرأ هذين وغيرهما إلى جانب ما قرأه من موباسان الفرنسى وتشيكوف الروسى ..

وفى سنة ١٩٢١ توفى محمد تيمور - رحمه الله - شابا صغيرا

مبكيا على شبابه ، وأوشك شقيقه محمود أن يكف عن الكتابة حزنا عليه، وذهولا لفقده ، ولكن عجلة الحياة - كما يقول محمود تيمور - «تدفع بي في طريقها الممدود ، لا يعنيها من الأمر إلا أن تستكمل دورانها ولا تبالي من انقطعت به الطريق ، فأخذت جراح الفجيعة تندمل رويدا رويدا» ..

وفي سنة ١٩٢٥كان محمود تيمور قد جمع من أقاصيصه عددا لا بأس به فجعله نواة مجموعته القصصية الأولى «الشيخ جمعة وقصص أخرى» التي صدرت في ذلك العام .. ثم توالت أعماله الأدبية بانتظام حتى بلغت أكثر من ستين عملا .



ومحمود تيمور بدأ حياته الأدبية بمشايعة اللهجة العامية ، فكتب بها وتشيع لها وكأنها مذهبه الذي لا يحيد عنه ، ثم اختلفت به السبل فإذا به من أشياخ الفصحى ، ومن حماتها في مجمع اللغة العربية ، ومن دعاتها في بحوثه وكتاباته . وأصبحت رواياته وقصصه ومسرحياته ومقالاته معرضا للكلمات الفصحى والتعبيرات الضاربة بنسبها إلى الجاحظ وابن المقفع وعبدالحميد الكاتب .

وهذه من عجائب الأديب ابن البلد الذي بدأ حياته الأدبية يلهج في قصيصه بكلام أبناء البلد ، كأنه لا يعرف شيئا من كلام

سيبويه ، ولكن لا عجب فيما نعده هنا من العجائب لأن ابن البلد هذا هو أيضا ارستقراطى ، وهو لذلك ذو لغة ارستقراطية ، أى لغة فوق لغة أبناء البلد ، وهى اللغة الفصحى ، فلما وجد أن تطور حياته وأدبه يقتضى أن يلبس لهذه الحال الجديدة لبوسها ، قام بذلك الانقلاب اللغوى العام في حياته ، فخرج به من لهجة أولاد البلد إلى لهجة أدباء البلد ، وهم ارستقراطيته الفكرية واللغوية ، وهم - أغنياء كانوا أو فقراء - طبقة قائمة بذاتها تكتب لكل الناس ولكن قراءها ليسوا كل الناس ! ..

وما بى هنا أن آخذ عليه أنه انقلب من العامية إلى العربية ، فإنى ممن يعرفون أن هذا الانقلاب كان خيرا وبركة عليه وعلى القارئ معا ، لأنه أخرج أدبه من دائرة العامية المصرية الضيقة إلى دائرة العربية الفصيحة ، اللغة القومية للعرب بين المحيط والخليج ..

غير أن المهم حقا أن محمود تيمور بقى بعد ذلك على ولائه لانتمائه البلدى - إن صح التعبير - فلبثت أغراضه فى القصة والمسرح وغيرهما تدور حول أبناء البلد وبناته ، فضلا عن فلاحيه ؛ ولكنه كان يصور الفلاحين تصوير من يراهم من الخارج ، وعلى غير مقربة منهم ، بينما توغل فى تصويره أولاد

البلد من العمـال والكادحـين من الفئات المتوسطة الصغيرة ، توغلا لا يمكن حسبانه تصويرا من الخارج أو تصويرا على غير كثب ممن يصورهم ، على الرغم من تسليمنا بما قد يراه بعض النقاد من نواقص هنا وهناك فيما كتب فى هذا المجال ..

وبعض من كتبوا عن تيمور يحلو لهم أن يصفوه بالأديب الواقعى ، فهو فى رومانسيته واقعى ، يصف واقعا من الحب يعيشه أناس فى مجتمعنا .. وهو فى واقعيته يصف الواقع كما يراه فى الواقع ، ولكن ثمة سؤالا : ما الفرق فى الواقعية بين كاميرا التصوير الصادقة الناطقة بكل التفاصيل الخارجية ، وبين فرشاة الرسام الهامسة بما لا يدخل فى مجال كاميرا التصوير ؟ ..

وسؤال آخر ، أو صيغة أخرى للسؤال السابق : أيهما أحق بصفة الواقعى ، وصف لواقع الحال كوصف المتفرج ، أم وصف له كوصف المتعمق ؟!

وقد كان هذا السؤال أو هذان السؤالان محور الجدل حول أدب تيمور طوال حياته الأدبية تقريبا .. فالرجل غزير المادة ، متنوع الانتاج ، متعدد الاتجاهات ، وكأنما كان تيمور - رحمه الله - يرد على ذلك فى حديث صحفى قال فيه : «الحق الذى أومن به أن

الأدب جوهر لا شكل ، وأنه إذا استوفى العمل الأدبى حظه من الجوهر - أعنى جوهر الحياة والمجتمع - فإنه سيأخذ نصيبه من الخلود على أى شكل يكون» ..

ويعتذر من مقاطعته للأشكال الجديدة فى صياغة القصة بقوله : «إن مثلى - وأنا قصصى مخضرم - لا يسرع إلى الأنس بهذه الطفرات التى تحاول المروق من الأوضاع الفنية» ..

وهكذا كان محمود تيمور بالفعل ، وبخاصة فى المرحلة الأخيرة من حياته الأدبية التى أصبح فيها عضوا فى المجمع اللغوى المصرى والمجمع اللغوى العراقى والمجمع اللغوى المجرى ، ومنح فيها جائزة الدولة التقديرية فى الآداب ووسام الاستحقاق ووسام العلوم والفنون ، وصارت قصصه تترجم إلى اللغات الأجنبية بوصفها نموذجا للقصة المصرية وبوصف كاتبها بأنه من أبرز الأدباء المصريين ، ومن رواد القصة المصرية بعد مرحلتها الأولى فى عصر المويلحى ومن تلاه من أصحاب المحاولات فى هذا المجال .. وباختصار أصبح على حد تعبير للدكتور طه حسين «أديبا عالميا بأدق معانى هذه الكلمة وأوسعها» ..

ومهما تكن أقوال ناقديه ومقدريه فإن محمود تيمور أديب حقيقى تفرغ للأدب وأخلص له الاخلاص كله ، وامتلأت كتابته

بالعطـف والحـنو على الإنسـان المصـرى وغيـر المصرى ، وعلى ابن البلد وعلى الفـلاح ، وكـان في كـل مـا كتب لا يمسح عن جبينه مـا ارتسم عليه من مسـحة ارسـتقراطية مـوروثة لا حيـلة له فيـها ، ولا عـيب فـيـهـا عليـه ، ولكنه - مع ذلك - كـان يتـخـذ النـاس البسطاء موضـوعـات له ، يحـاول أن يتـعـمقـهـا وأن يقـف منـهـا مـوقف المتفـهـم لا مـوقـف المتفـرج ، ويرتفع فى كل مـا يكتب إلى مسـتوى هموم الإنسان المعاصر ..

ولـو لم يكن له من فـضل إلا فـضـل الريادة فى فـن القـصـة ، لكفـاه هذا منزلا يتـبـوأه بين أصـحـاب الفـضل فى الأدب العـربى الحديث، فكيـف إذا أضـفنا إلى الريادة كل مـا ذكـرناه عنه هنا من أفضال ، وإنها لقلـيل من كثيـر طوق به هذا الارستقراطى ابن البلد جـيد بلاده التى لم تنسـه فى حـيـاته ولن تنسـاه وقـد أصـبح من ذكرياتها وأصبح أدبه من ذخائرها !

الكاتب الجنتلمان

أكثر من عشرين عاما لبثت أبحث عن فرصة أكتب فيها شيئا عن هذه الشخصية الأدبية العلمية الاجتماعية التى لمعت فى عصرها ثم انطفأت ولم يعد يتذكرها إلا القليلون ..

ثم كتبت فعلا مقالة طيبة عن هذه الشخصية ، ولكنى أضعتها قضاء وقدرا ، فعزمت لأكتبن غيرها .. مثلها .. أو أحسن منها ! .. وها أنذا أفعل (!) ..

هذه الشخصية هي المرحوم الدكتور أمير بقطر الذى كان يكتب البحوث والمقالات ، ويؤلف كتبا عجيبة فى علم النفس وما يجرى هذا المجرى ، فكانت كتاباته هذه فى أيامه ممتعة للقراء ، من جميع البيئات والفئات .

كنت أراه من وقت إلى آخر فى الخمسينات ، يمشى وقورا مفكرا فى ردهات دار الهلال ، وأسمعه يتحدث بصوت ممزق يخرج بصعوبة من حنجرته .. كان مصابا بحبسة شديدة فى صوته لا يكاد المرء معها يسمع منه شيئا واضحا مفهوما ، أو هكذا كان يخيل لى فى تلك الأيام ويدهشنى أن أرى عارفيه وخلصاءه يتحدثون إليه ويستمعون فلا يفوتهم حرف مما يقول ! ..

كان الدكتور بقطر من ذلك الرعيل الأدبي والفكرى الذى اشتهر في الربع الثاني من القرن العشرين .. يتربع فى مكان بين «جنتلمانات» الكتابة والصحافة والمحاضرات الجامعية وغير الجامعية .. وقد وجد الناس شديدى الاهتمام بمسائل السياسة الداخلية والخارجية ، فصرف اهتمامه كله إلى الكتابة عن فوضى الأزياء وآداب المائدة في مصر ، كأنه لا يعرف شيئا عن السياسة .. وكان يعرفها ! ..

وتهش له ذكرياتنا الآن ، وربما تضحك ، إذا تذكرنا مقالة من مقالاته المدوية خصصها للاجابة عن هذا السؤال الذى كان يشغله طوال الثلاثينات والاربعينات :

– إذا كان الناس فى مصر يلبسون البدلة البيضاء فى مايو وربما فى أبريل ، فماذا يلبسون فى يوليو وأغسطس ؟! ..

كان صادقا جادا فى سؤاله هذا ، يعتبره من أكثر الأسئلة وجاهة وأهمية فى عصره .. فأين تذهب الأصول والاتيكيت إذا لبس الناس البدلة البيضاء فى الربيع ، وإنما هى للصيف دون سائر الفصول ؟!

وفى مقالته هذه التاريخية الممتعة ، دعا أهل مصر أجمعين إلى تنظيم اللبس صيفا وشتاء وربيعا وخريفا ، فلون البدلة مهم جدا

ولابد من موافقته للفصل .. دعك من قماش البدلة وربطة العنق والحذاء والجورب ، فهذه بديهيات .. ولكل حالة جوية لبوسها الخاص ، والدقة هنا واجبة على الجنتلمان ، بل حتى على العامة والسوقة والعيارين والشطار ممن تغص بهم الأحياء الشعبية ولا يراهم الدكتور ، ولا يتصور بحال وجودهم الفظيع المخالف لجميع قواعد الاتيكيت ! ..

كان الدكتور بقطر مثقفا واسع النظر فى الأبواب التى اختارها من الثقافة العالمية .. وله برج عاجى خاص يرى من فوقه شواهق الافلاك ، ولا ينظر منه إلى الأرض ! .. وكان هذا حال عدد غير قليل من مفكرى جيله ..

وكتابته العربية ذات لغة طيبة ، وديباجة حسنة ، لكنها كانت تمر على المراجعين ليعيدوا صياغة بعض عباراتها ، كما كانت تمر عليهم كتابات أدباء مشهورين كسلامة موسى وحبيب جاماتى ، وأسماء أخرى .. ولم يكن فى هذا ما يغض من قدرهم فإن الصحف ، وبخاصة دار الهلال والأهرام ، كانت بالغة الدقة فى هذه الناحية ، فلم تكن مقالات أى كاتب تمر إلى المطبعة قبل أن تمر على من ينقحها ويراجعها من العارفين بالعربية حق المعرفة .. لا يستثنى من ذلك إلا الكتاب العلماء بالعربية كالعقاد وطه حسين

ومصطفى صادق الرافعى وزكى مبارك وأحمد زكى وأحمد أمين ومن إليهم ..

ذكرت ذلك كله إذ حصلت - مرة واحدة - على طبعتين جديدتين من كتابين للدكتور أمير بقطر صدرا عن سلسلة «كتاب الهلال» .. أحدهما عنوانه : «لا تخف» .. وعنوان الآخر : «إعرف نفسك» .. وكنت قرأتهما من سنين حين صدرا أول مرة ، ثم نسيتهما ولكن قراءتهما الآن عملت فى النفس والفكر عملا جديدا .

هذا النوع من الكتب ، يؤلفه أصحابه لأمور كثيرة ، وبواعث معقدة فى مجتمعاتهم وما يتعلق بها من مشكلات نفسية، واضطراب أهلها بين العقل والجنون ! ..

لكنها فى كل حال كتب مسلية مفيدة لمن تكون له بصيرة بقراءتها على وجهها الصحيح .. فمن الناس من يقرؤها فلا تعود عليه بعائدة ، ومنهم من يجدها ذات فائدة .. ومنهم من يخرج من قراءتها لا عليه ولا له ! ..

قديما - فى شبابنا الأول - كنا نقرأ بسرور كتابا عنوانه : «دع القلق وابدأ الحياة» ..

لم يكن بنا قلق فى شبابنا على أى شئ ، برغم افتقارنا إلى

كل شئ تقريبا .. وكنا لا نفهم أسباب القلق العنيف الذى يتحدث عنه الكتاب .. فالحياة فى نظر واحد من أمثالى هى بضعة قروش ، وجلسة على مقهى هادئ ، وورقة بيضاء ينشرها أمامه ثم ينهمك فى نظم قصيدة من الشعر ..

برع الكتاب الأجانب أصحاب هذا النوع من الكتب فى صياغة ما يكتبون ، لأنهم يعرفون من يخاطبون من مواطنيهم ، وفيم يخاطبونهم ، وكيف يكون الخطاب والتوجيه ومس الجراح النفسية برفق وكياسة !..

وكتاب : «لا تخف» قديم نسبيا ، ولكن طبعته العربية التى أحدثك عنها جديدة .. المؤلف طبيب أمريكى من أطباء النفس - وهم غير علماء النفس النظريين أمثال فرويد - وقد حشد الدكتور ادوارد كولز - مؤلف الكتاب - جهوده كلها لمحاربة «الخوف» عند جميع الناس فى بلاده وخارج بلاده .. وهى مهمة تبدو جسيمة وخيالية ! .

ولكن أى خوف يعنيه الدكتور كولز ؟!

لكل إنسان فى الدنيا مخاوفه ، على حسب ظروفه المتشعبة فى مجتمعه وعصره .. فى مكانه وزمانه ، بقدر ما اجتمع له من المال والصحة البدنية والنفسية والعقلية ومئات وألوف أخرى من

تفاصيل الحياة ، ترتبط كلها بالواقع الصلب للمكان والزمان ، وكيان الإنسان ! ..

هذا كله ينطبع فى النفس فتتلون به ، ولا توجد نفس «بيضاء» لا تنطبع فيها صورة ما حولها ، ظاهرا وباطنا ، بألوان بيضاء وسوداء ورمادية وحمراء وصفراء لا تسر الناظرين ..

لهذا ترتبط الكتب من طراز كتاب : «لا تخف» بأهل زمانها ومكانها ، ولو قرأها إنسان من عصر الفراعنة أو عصر الرومان ، أو أى عصر مضى لأنكرها وعجز عن فهمها ، كما أن أبناء القرن الثلاثين أو الأربعين - مثلا - سوف يدرسونها مع بقايا «حفريات» القرن العشرين فى الأدب والفن والاجتماع والسياسة والعلم وغير ذلك ، وسوف يكون ذلك مسليا لهم وباعثا عندهم للدهشة والفكاهة معا ، إن بقى للفكاهة والدهشة مكان عندهم ! ..

لقد أنهك الخوف والتعب إنسان عصرنا ، ولكن الدكتور بقطر يقول له مترجما عن الدكتور كولز : اطمئن يا عزيزى وعش بلا مخاوف ! ..

فيا أيها الإنسان الخائف من دنياك المخيفة هذه ، حاول أن تكون عند حسن ظن الدكتورين الفاضلين ، وقل لنفسك كلما ساورتك

المخاوف : لا تخف ! .. فإن زماننا لا خوف فيه ، ولعلنا نخاف من زماننا والخوف فينا .. منا وإلينا .. والزمان برىء ! ..

لا تخف أيضا عندما تقرأ هذا الكتاب بحثا عن مهدىء لأعصابك ، فتجد فيه أن ضعف الأعصاب معناه «النورستانيا» .. وأن النورستانيا تؤدى إلى «الملانخوليا» أو «المناخوليا» كما اعتاد الناس أن ينطقوا هذا الاسم العصبى المزعج .

لا تنزعج عندما يؤكد لك المؤلف أن من أعراض المناخوليا الهم والغم والقلق والصداع والأرق وسوء الهضم والامساك والاسهال .. ومن عواقبها وخواتيمها المحتملة .. الانتحار ! .

يقول المؤلف : «لعل الآلام العقلية والاوجاع النفسية التى يقاسيها المريض بالملانخوليا ، أشد ما يعرفه علماء الطب من الالام والاوجاع .. وما لم تشتد الرقابة على المريض أطلق على نفسه الرصاص ، أو قفز من النافذة ، أو جز عنقه ، أو شنق نفسه ، أو ابتلع سما زعافا» .. تعددت وسائل الهلاك .. والنهاية واحدة ! ..

لا تخف من هذا الكلام الفضفاض عن الانتحار ووسائله ، فالكتب لا تسجل إلا كلمات من اللغة السرية للحياة .. ومن قرأ هذا الكتاب وأمثاله ففهمه وأفاد منه ولم يداخله منه خوف ، سعد به فى حياته ، وأفلح بإذن الله ! ..

ثم يجيء كتاب «اعرف نفسك» للمؤلف نفسه والمترجم نفسه أيضا ، فيزيدك نورا في هذه الظلمات المطبقة عليك في الحياة والتي نرجو أن تسفر عن صبح مبين ، كما نرجو – عزيزي القارىء – أن تكون ممن أضاءت حياتهم بنور ربها ، فلا ظلام يغشاها ..

والاسم الأصلي لهذا الكتاب الثاني هو «التغلب على التعب والخوف» .. ولا نستبعد أن يختلط اسم هذا الكتاب الثاني عند القارىء باسم الكتاب الأول ، لولا أن الناشر العربي اختار أن يعفيه من اسمه الأصلي ويجعل عنوانه : «اعرف نفسك» ! ..

والمعنى واحد من العنوان الافرنجي الطويل ، والعنوان العربي المختصر ، فإنك متى عرفت نفسك حق المعرفة ، تغلبت على التعب والخوف ، وعرفت داءك ودواءك ! ..

والكتب الكثيرة التي تصف الأمراض النفسية للانسان في عصرنا – وهي أكداس بجميع اللغات – سوف تكون مرجعا عظيم الفائدة لمن يأتون بعدنا بألوف السنين .. إذا بقيت الكرة الأرضية في مكانها من الفضاء هذه المدة الطويلة .. ومن هذه الكتب سوف يعرفوننا على حقيقتنا تقريبا ..

ولا يمكن طبعا أن يعرفونا على حقيقتنا تماما .. وسوف يرون صورتنا الضاحكة وما وراءها من بواعث الضحك ، وصورتنا التعسة

بكل بؤسها وضياعها فى ظلمات القرن العشرين ، أو فى نور القرن العشرين المتلالىء فى جميع القارات كما نشاهده الآن ! ..

إن إنسان القرن العشرين ، وبخاصة فى هزيعه الأخير هذا - هو الإنسان الخائف الذى يقال له : لا تخف ! .. يطارده الزمن ، وتطارده الاشباح ، ويطارد نفسه ، كما يطارده الناس جميعا ، الأوغاد منهم والكرام الأخيار ! ..

ومطلوب منه - وا عجبا - ألا يخاف ، بل يكون ثابت الجنان فى الغمرات والأهوال والمهالك وإذا ارتعد خوفا ، قيل له : عيب يا رجل .. لا تخف ! ..

كأنما هو سيف الدولة الذى قال فيه أبو الطيب المتنبى فى القرن العاشر :

وقفت وما فى الموت شك لواقف

كأنك فى جفن الردى وهو نائم

تمر بك الأبطال كلمى هزيمة

ووجهك وضاح وثغرك باسم

بل ان رجل القرن العشرين أعجب من سيف الدولة ، لأن سيف الدولة حين وقف فى ساحة الحرب كان - فى زعم المتنبى - يقف فى

جفن الموت ، والموت يغط في النوم ، غير شاعر بشيء يقف في عينه الواسعة التي أغمضها التعب من الحرب ! ..

أما رجل القرن العشرين فهو يتكوم في قبضة الموت .. ولا أبطال تمر به جريحة مهزومة ، ولا هو يضحك وضاح الوجه يستقبل بشائر النصر كما كان يستقبلها سيف الدولة ! ..

ومع ذلك لا يمكن انكار شجاعة رجل القرن العشرين ، فلو لم يكن شجاعا لتمنى أن يصحو من نومه ذات صباح فيجد نفسه قد عاد القهقرى إلى القرن العاشر ، أو قفز إلى القرن الخمسين أو التسعين ، أو بعد ذلك إلى مليون سنة .. إن كان للكون عمر وعاش مليون سنة أخرى ! ..

حسب هذا الإنسان من شجاعة ، مصارعته مشكلات عصره ، وإن كان مكرها في ذلك لا بطلا .. ولكن المكره قد يفوز أحيانا بإكليل البطل ..

ولو لم يكن شجاعا على هذا النحو أو ذاك لانطلق حانقا إلى مخازن قنابله النووية ، فوضع في بضع دقائق حلا لكل مشكلة على وجه الأرض وعلى وجه القمر أيضا ، وأولها مشكلة بقائه هو نفسه ، فإنه سيتبدد مع الأرض والقمر نثارا في الفضاء ! ..

ان انسان السنين الأخيرة من القرن العشرين قد يجن

خوفا ، فينسف كرته الأرضية التى لا يملك فى الوقت الحاضر غيرها ، فتذهب ذرات ويخلو مكانها كمكان عمارة قديمة هدمها صـــاحبها وباع أنقاضهــــا وترك مكانها أرضا خالية ريثما يتهيأ لبنائها شققا للتمليك ! ..

ولكن الأرض حين يخـــلو مكانها ، لن يبنيـها أحـد للتـمليك ولا للإيجار ! ..

ولا داعى عندئذ لنصـــائح الدكتور كولز ، ولن يقـــول للنـــاس : لا تخافوا ! فلا خوف بعد أن تتهدم الأرض وينشق القمر ، وتفتح الجنة للمساكين والصالحين .. والنار للمجرمين والطغاة .

ساخر الحرافيش (١)

إذا قيل : من هو الكاتب الكبير الذى يتذكر الناس فى أيامنا هذه جميع الكتاب الكبار قبل أن يتذكروه ، قيل : محمد عفيفى عضو فرقة الحرافيش ذات الشهرة الأدبية والفنية العريقة .

وإذا قيل : من هو الساخر الكبير الذى يبدو كأنه جاد ، بل متجهم ، بل شديد المرارة ، فالجواب أيضا : محمد عفيفى ساخر فرقة الحرافيش ! ..

فإن محمد عفيفى كاتب كبير وساخر كبير ، اجتمعت له أداة الكاتب الساخر .. ولكن شيئا ما يجعل هذه الأداة الأدبية الساخرة الناضجة كأنها بعيدة عن الناس ، أو كأنما الناس أنفسهم بعيدون عنها ..

ونوشك أن نقول ان سرا من الأسرار يجعلها كذلك ، ولكن لا سر هناك عند التدقيق ، فإن محمد عفيفى المنطوى على نفسه ، الزاهد فى الكلام . بل الزاهد – أخيرا – فى الدنيا زهد المتصوفين إلى حد أنه سئل من أحد قرائه عن رأيه فيها فأجاب أن رأيه فى الدنيا جملة وتفصيلا يتألف من حرفين فقط هما «هـم» ! ..

---

(١) كتبت هذه المقالة فى أوائل السبعينيات ، وتوفى رحمه الله في أوائل الثمانينات .

و «هع» بالعامية المصرية الزاعقة ، معناها اللفظ المعروف : «طظ» .. وربما أقل منه كثيرا .. ومعناها بالعربي الفصيح : لا تساوى جناح بعوضة !..

وقد بلغ محمد عفيفى هذه «الحالة» النفسية والعقلية بعد حياة امتدت أكثر من تسعة وأربعين عاما – وهو لا يعترف بما فوق هذه السن – طال خلالها جداله مع الحياة علويها وسفليها ، وخاض من التجارب العملية والذهنية والنفسية ما يجعل كلمة «هع» كثيرة على الدنيا ! ..

مع ذلك ، فليس هو بالصخرة التى لا تحركها أغاريد الدنيا وكئوس «البلهنية» المترعة .. لأن المتنبى نفسه ، ذلك الرجل الصخرى الذى سمع عنه الكثيرون منا ، قد تساءل ذات يوم فى بعض شعره وعلامات الدهشة مرتسمة على وجهه : «أصخرة أنا ؟! .. ما لى لا تحركنى هذه المدام ، ولا تلك الأغاريد ؟! » ..

ان محمد عفيفى – وهو يختلف تماما عن المتنبى – قد لا يجد بينه وبين نفسه حرجا من التمثل بهذا البيت ، سواء نطق كلمة «المدام» بضم الميم أو بفتح الميم (١) .. ففى تعامله مع الدنيا ، يستخدم عفيفى كلمة «هع» أو مرادفتها الأخرى التى أشرنا إليها ، ولكنه أحيانا

---

(١) «المدام» بضم الميم كلمة عربية معناها : الخمر وهى التى يقصدها المتنبى هنا .. أما المدام – بفتح الميم – فكلمة افرنجية معناها السيدة أو المرأة .

يخاطب نفسه همسا بكلمتين أخــــريين هما : «معلهش يا زهــر» .. وهما فى عاميتهــما البليغة لا يقلان قدرة على تصوير ما وراء اللثام الفلســفى الذى يضمه على وجهه حتى وهو جالس إلى المرآة متفرسا فى ملامحه ، مدهوشــا أو غير مدهوش ، خاليا بنفســه على كل حــال ! .

فهذا الكاتب الذى صفته أنه كبير بلا جدال ، وأنه ساخر من طراز رفيع ، يشعر أنه قد فاته الكثير من دنياه ذات التسعة والأربعين ربيعا حتى الآن ، والتى ستمتد أربعينات وتسعات أخرى إن شاء الله .. ولكنه لا يأسى على ما فاته ، فقد انتزع من الدنيا بسن قلمه كل ما أراد من ضحك ومتاع وحـــلاوة ! .. ولم يبق لديــــه إلا أن يقول لكــل شىء فيها : «هع» .. علامة الارتواء إلى درجة السخر منها ، مردفا هذه الكلمة بما يكمل معناها ودلالتها : «معلهش يا زهر» .. إشارة إلى أن «جناح البعوضة» لا يمكن أن يكتمل لأحد ، بالرغم من أنه مجرد جناح بعوضة ! ..

كثيرون لا يرون فى محمد عفيفى إلا امتــدادا للكاتب الساخر الكبير ابراهيم عبد القادر المازنى .. الملامح واحدة تقريبا فى الأسلوبين .. اللغة أيضــا ، إذا أغضينــا عن حجم التعبيرات العامية عند كل منهما ..

كلاهمـــا مثقف جدا ، نظـــرته إلى الحياة والكون فلســـفية شاملة ، ويكاد الأمر يشتبه على من يقرأ بعض كتابات عفيفى فيظنها من كتابات المازنى .. إلا أن لعفيفى شخصية فى الكتابة ذات استقلال معترف بـــه ، وإن كان وجود التشابه الشكلى بينه وبين المازنى معترفا به كذلك ..

لقد تأثر عفيفى بالمازنى إلى درجة الحب والنسج على المنوال لغة وأسلوبا ونهجا وثقافة ، وسار وراءه زمنا ، ولكنه بعد مرحلة وجد نفسه يكتب ويسخر «منفردا» .. ولحسابه الخاص - إن كانت كلمة «الحساب الخاص» مقبولة لديه - .. وعلى مسئوليته وحده .

وكتابه «تائه فى لندن» مجموعة من اللوحات الساخرة «السياحية» .. فــقــد ســـاح فى لندن وليــس فى جــيـبــه إلا مــا يعــيش به على «السندوتشات» .. ساكنا فى «بدروم» منخفض جدا يرى من نافذته الأرضية منظر المارة من القدم إلى ما فوق الركبة بعشرة أو عشرين سنتيمترا على الأقل .. فإذا أراد أن يرى الوجوه أيضا فلابد له من مبارحة هذا الجحر .. عندئذ لا يرى الوجوه فقط ، بل يرى تحركاتها بعضها إزاء بعض فى لحظات الوجد السكسونى ، وما أكثرها وأطولها فى شوارع لندن ، وفى المترو ، وفى أى مكان ، برغم ما هو مشـــهور عندنا من برود أولئك الناس !

يصف محمد عفيفي بداية دخوله لندن ظافرا فيقول : «ما كدت أيخل بهو المطار حتى جلجل في الميكروفون صوت نسائي يردد هذا النداء الغريب : مستر موهاميد أفيفي هوسين .. وحيث إن العبارة تبدأ بكلمة مستر فقد كان من الواضح أنها تردد اسم رجل ما .. ذلك الاسم الذي خيل إلى أنه ليس غريبا عنى تماما ..

- مستر موهاميد أفيفي هوسين .

«هكذا كررت نداءها ، ولم أحتج إلى أكثر من تكراره لكى أتنبه إلى أنه لا يخرج عن كونه اسمي الكريم ! .. فلماذا ينادون على ، وماذا يريدون مني ؟!

«هناك احتمال لأن يكونوا قد اشتبهوا في أمرى وظنوا أننى حضرت بقصد إجرامى كسرقة جواهر التاج مثلا ، ولكنى رأيت أنه بالنظر إلى صحيفة سوابقى احتمال ضعيف جدا .. فلا يبقى إلا أن يكونوا متابعين لكتاباتي ، وأنهم ما برحوا ينتظرون وصولى لكى يحاولوا استدراجي للكتابة في إحدى صحفهم .. الأمر الذى لا أظن أنه سوف يجعلنى أتزحزح عن مائة جنيه استرلينى كثمن للمقال الواحد !»

وبعد أن عرف أنهم لم يشتبهوا في أمره ولم يخطر على بالهم أنه جاء لسرقة التاج ، وليس في نيتهم استدراجه للكتابة في صحفهم نظير مائة جنيه استرلينى للمقال الواحد .. بدأت جولته في لندن .. يقول

عفيفى : «كذكر شرقى أعترف بأن أول ما لفت نظرى فى الشارع اللندنى هو المينى جوب ، مع ازدياد فى الاهتمام من ناحيتى عندما يتحول إلى ميكروجوب ، مرتفعا إلى أعلى حتى يصل إلى مستويات ينسى معها أنه كان فى أى يوم من الأيام عند الركبة ، وحتى يوشك أن يتحول مما فوق هذا إلى ما تحت ذاك .. ونسمة لندنية عابثة .. تعطيك فكرة عن حقائق الحياة ما كنت لتأخذها بغير شهادة من المأذون أو من كلية الطب» ! ..

إن محمد عفيفى وهو «تائه فى لندن» لم يشرع قلمه للفكاهة والسخرية كيفما اتفق ، فالواقع أنه - وهو «يرى حقائق الحياة» ويحلم بكتابة المقال نظير مائة جنيه استرلينى ، قد جال فى عصرنا كله جولة واسعة عميقة ، ونقد هذا العصر بل هجاه ، فى الوقت الذى لم تغب فيه عنه العوامل الايجابية فى كل شىء من حوله ..

وعاد من «التيه» اللندنى بهذه المجموعة الفريدة من الفكاهة المصرية المصوغة فى قالب يمكن أن يسمى عالميا .. فإن لم يعجبك التعبير فقل إنه عاد بفكاهة عالمية الطعم مصرية الصياغة .. والمهم حقا أنه استطاع برغم كل شىء أن يعود من ذلك التيه لينعم من جديد بعضويته فى فرقة الحرافيش برياسة نجيب محفوظ .. وإن كان يقال إنها صارت مجرد اسم بلا فرقة ، أو مجرد فرقة بلا اسم !

راقصة الامتحان

رأيت كثيرين ممن شاهدوا نبوية موسى أو قابلوها فى أخريات أيامها الحافلة يضحكون من قلوبهم وهم يقرأون فى الصحف أن بعض طلاب العلم وصفوها فى اجابات امتحانهم بأنها كانت من أشهر الراقصات فى زمانها ؛ فقد أتعبت المرحومة نبوية موسى معاصريها بنداءاتها الحارة ودعواتها المتصلة إلى الحشمة ومكارم الأخلاق ، دون أن يخطر على بالها - طبعا - أن اسمها المبجل الوقور سوف يدخل التاريخ من أبعد أبوابه وأعجبها ، فإذا به اسم لامع ذو رنين كرنين «الصاجات» بين أسماء بطلات الرقص الشرقى فى القرن العشرين (١) .

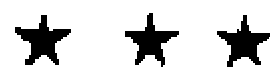
ولا شماتة فى السيدة نبوية موسى ممن ضحكوا .. فالمفارقة صارخة ، والنكتة لاذعة تضحكها هى نفسها لو كانت خطرت ببالها ، برغم ما اشتهرت به من التجهم الذى تضاعفه النظارة

---

(١) كان السؤال فى امتحان طلاب العلم هؤلاء ، عن السيدة نبوية موسى ، وكانوا يجهلونها ، فأجاب بعضهم أنها كانت راقصة ، ولعل الأمر التبس عليهم بينها وبين الراقصة نبوية مصطفى التى كانوا يعرفونها ! ..

الطبية الغليظة فوق عينيها الذابلتين من سهر الفكر لا من سهر الأفراح والليالى الملاح !

وقد كانت نبوية موسى شاعرة غزيرة القوافى ، فلعلها لو عاشت حتى رأت اسمها يتلألأ بين أسماء الراقصات ، لنظمت ديوانا هائلا نصفه هجاء عنيف لمن جهلوا اسمها ، ونصفه الآخر رثاء شفيف لنفسها وقد صيرها الزمن الغادر مجهولة بين بعض طلاب العلم ، فما عساه يصنع بها عند الملايين ممن لا يقرأون ولا يكتبون ؟! »



تطغى على صورة المرحومة نبوية موسى ، أو على ما تبقى من صورتها فى أذهان أمثالنا ممن عاصروا الفصل الأخير من حياتها ، ملامح سيدة كهلة وقور اتخذت منها المجلات مادة للرسوم الكاريكاتيرية والنكات التى تقال - بلا رحمة - عند المقارنة بين الجميلات وغير الجميلات ! ..

فلم تكن السيدة نبوية موسى جميلة الملامح ، حتى بمقاييس جمال الشيخوخة .. وكانت فى الوقت نفسه داعية متحمسة من دعاة التقاليد ، ومن هنا نفذت إليها سهام رسامى الكاريكاتير ومؤلفى النكت الصحفية ، فى إيقاع ساخر لا ينقطع جعلها شخصية شعبية يلذ للقارىء منها جانب الفكاهة والنادرة

والمفارقة ، وكأنه نسي نبوية موسى الحقيقية الرائدة النسائية ، والأديبة الشاعرة ! .

ومن لم ير نبوية موسى فى حياتها ، أو فى صورتها ، ففى وسعه أن يراها فى ديوانها الذى صدقت فيه تعبيرا عن نفسها ، فجاء صورة منها بلا زيادة ولا نقصان .

كانت السيدة نبوية تتخفى وراء الطرحة السوداء والنظارة السميكة، ولم تخرج فى ديوانها على عادتها فى التخفى ، فلم تضع له اسما كما اعتاد الشعراء أن يضعوا أسماء لدواوينهم ، وحسبك منه ما هو مكتوب على غلافه : «ديوان السيدة نبوية موسى صاحبة مدارس بنات الأشراف .. الجزء الأول .. حقوق الطبع محفوظة» .. وكانت فى ذلك أكثر تشددا من أستاذة جيلها فى الشعر المرحومة عائشة التيمورية التى لم تر بأسا فى أن تسمى ديوانها «حلية الطراز» .. وهو اسم نسائى كأنه مأخوذ من التطريز وشغل الابرة ! .

والسيدة عائشة التيمورية ، كما تصفها الأديبة المرحومة الآنسة مى – نقلا عن الزعيمة النسائية المرحومة هدى شعراوى ، كانت «سيدة تركية» .. أو كما قالت هدى شعراوى حرفيا : «كانت ست كدا ألا توركا» .. أى كانت من الطراز العثمانى المحافظ فى تفكيرها وطريقة حياتها ..

ولم تكن نبوية موسى تركية شركسية أو كردية عظيمة الثراء كما كانت عائشة التيمورية ، ومع ذلك اختارت نبوية موسى أن تكون «ألا توركا» كما كانت التيمورية . فإن نخبة سيدات القاهرة في ذلك العهد انقسمن طائفتين : ألا توركا ، وألا فرانكا ؛ أى «عثمانليات» و «متفرنجات» وكان طبيعيا أن تكون نبوية موسى التى نشأت فى حضن الدين «عثمانية» الفكر والحياة ، مع أنها حين دخلت المدارس واشتغلت بعد تخرجها بالتعليم ، وكتبت الشعر وتحدثت إلى الرجال ، كانت فى واقع الأمر تسلك طريقا لا تسلكه إلا سيدة «ألا فرانكا» وان لبست اليشمك التركى وترنمت فى شعرها بمدح خليفة آل عثمان !

وديوان نبوية موسى يقول لنا إنها نظمت الشعر منذ أواخر القرن التاسع عشر وإن كان يزعم أنها كانت فى ذلك الحين فى العقد الأول من عمرها . وقد دخلت المدارس وهى كبيرة السن ، فلما كانت فى السنة الثالثة الابتدائية نظمت قصيدة فى رثاء المرحوم الشيخ محمد عبده . ومن يتأمل هذه القصيدة لا يتصور أن نبوية موسى كانت دون سن العشرين عند وفاة الشيخ محمد عبده سنة ١٩٠٥ .

ويمكن أن يقال إن نبوية موسى كانت معاصرة للشاعرة ملك حفنى ناصف - باحثة البادية - يوما بيوم وان كانت باحثة البادية قد ماتت فى باكورة الشباب .

وهكذا تكون نبوية موسى - على حسب الترتيب التاريخى - الرائدة الثالثة فى الفكر والأدب والشعر بعد عائشة التيمورية وباحثة البادية ، ولكن الناس يذكرون التيمورية والباحثة ويؤلفون عنهما الكتب ولا يذكرون نبوية موسى ولا يكتبون عنها شيئاً ، مع أنها أضافت إلى النشاط الفكرى والأدبى نشاطا عمليا خلاقا يتمثل فى إصرارها على الاشتغال بالتدريس بعد تخرجها فى المدرسة السنية ، برغم ما لاقته فى هذا الطريق من صعوبات . وقد بلغت بجهدها الكبير منصب «كبيرة مفتشات وزارة المعارف» .. فلما تركت المنصب لم تتقاعد وتستسلم للشيخوخة بل أنشأت «مدارس بنات الأشراف» وواصلت فيها حياتها العملية إلى جانب حياتها الفكرية .

والعقلية التى كانت توصف بأنها «ألا توركا» تتجلى فى هذا الاسم الذى اختارته نبوية موسى لمدارسها ، فهى مدارس بنات «الأشراف» .. أى بنات السادة بلغة ذلك العصر . وقد اختلطت فى مدارس نبوية موسى بنات السادة «العثمانية» وبنات السادة «المتفرنجين» ، بعد أن قارب التطور وامتزاج المصالح الطبقية بين من كانوا «ألا توركا» ومن كانوا «ألا فرانكا» ! .

وقد وضعت نبوية موسى «مواصفات» للفتاة المهذبة التى تلتحق

بمدارس بنات الأشـراف ، لم تشـأ أن تكتب هذه المواصـفـات نثـرا فنظمتها شعراً :

إن الفتـاة تبـدى حـالة الصغر
كزهـرة أينعـت مجهـولة الخبـر
فإن تغـذت بمـاء العـلم نبعتـها
أهدت إلى الكون طيب العنبر العطر
فلا يغـر فتـاة حسـن منظرها
ليـس التفـاضل بين الناس بالصور

ومـادام التـفـاضـل بين النـاس - وبين النسـاء خـاصـة - ليس بحسـن المنظـر ولا بالصـورة الجميلـة ، فلابد من الحشمـة التامـة والوقـار الدقيـق فى مـلابس الطالبات بمدارس بنـات الأشـراف التى تملكـها وتديرها داعيـة الفضـيلة السـيدة نبـوية موسى .

والحـق أن سياستـها التـربوية هـذه القـائلة : «ليـس التفـاضل بين النـاس بالصـور» قـد أثمـرت إقـبـالا منقطع النظيـر على مدارسها ، كما أثمـرت تلك الحمـلة الصحفية السـاخرة التـى خـاض غمارها رسـامو الكاريكاتير ومـؤلفو النكـت اللاذعـة ! .

وبرغم نجاح نبوية موسى فى سياستها التربوية ، كانت تشكو دائما من الحالة الأخلاقية فى المدارس ، فضلا عن تدهور التعليم .

هذى ديار العلم تحت عيونكم
فضل يموت وعفة تتعذب
فعسى يفيق المفسدون فإنهم
اخفوا بما فعلوا الكمال وغيبوا

وتقول :

إذا ألقت الأقدار يوما جواهرا
بأيدى وحوش ضاريات «كواسرا»
فقد خسر الدر النفيس فخاره
وصار حشيش الأرض أغلى وأفخرا
واكثر ما يأتيك فى الدرس لا يفي
بحاجة راجى العلم إلا تظاهرا

وكأنما كانت فى هذا البيت الأخير تسخر من بعض الطلبة الذين زعموا أخيرا أنها كانت راقصة شرقية يشار إليها بالبنان فى زمن بمبة كشر ، أو أيام بديعة مصابنى .

بقي أن نعقب بكلمة إنصاف على ما سلف من أنها كانت «ألا توركا» أو «عثمانلية» في طريقة تفكيرها وحياتها ..

فقد نشأت نبوية موسى ومصر لم تخرج بعد من نير الخلافة العثمانية برغم الاحتلال البريطاني .. وكانت بحكم نشأتها في تلك الأيام لا تستطيع أن تحرر فكرها ولا حياتها من طريقة الحياة السائدة في الطبقة التي تتعامل معها ، وهي طبقة الأثرياء المنحدرين من أصول تركية ..

ولهذا نجد ديوانها غاصا بمديح الخليفة التركي والخديو عباس حلمي والسلطان حسين كامل وعدد كبير من باشوات وهوانم ذلك العصر .

وعندما بلورت ثورة ١٩١٩ شخصية الشعب المصري الذي تحرر من خلافة العثمانيين ونهض ليتحرر من البريطانيين ، تغيرت النغمة في ديوان نبوية موسى ، وظهر في صفحاته سعد زغلول وغيره من المصريين البارزين .

صحيح أنها بقيت على ولائها للبيت المالك ، وحبرت في مدائح فؤاد وفاروق صفحات غير قليلة ، ولكن هذا أيضا كان مبررا ومفهوما في حينه ، ولا يقدح في أن نبوية موسى كانت رائدة مصرية مكافحة قوية العزيمة شاركت في إيقاظ المرأة المصرية

وتعليمها وإخراجها من عهد «الحريم» إلى العهد الذى كانت بدايته «ألا فرانكا» وكانت نهايته شخصية مصرية عربية للمرأة كما نراها فى بلادنا الآن .

واعتذر من الوقوف عند هذا الحد فى الحديث عن هذه الرائدة الكبيرة التي يتسع مجال الحديث عنها ، ولعلى استطعت تصويرها لك من خلال ديوانها الذي لا يوجد كتاب سواه يمكن التقاط صورتها منه ، حسبنا أن يعلم من يريد أن يعلم أن نبوية موسى - رحمها الله - لم تكن تلك الراقصة التى يتصورها طلاب العلم فى الزمن الأخير.

آخر الزجالين الكبار

عاد الزجال الكبير أبو بثينة إلى بيته في حي دير النحاس بمصر القديمة ، وهو يسكن هناك منذ أواخر العشرينات ولم ينتقل من شقته القديمة جدا في احدى عمارات هذا الحي إلا بعد أن هددها السقوط ، فسكن منذ الستينات في شقة بالدور الثالث من عمارة صغيرة كان مالكها قد فرغ توا من بنائها حينذاك ! .

كان أبو بثينة حين عاد إلى بيته في ذلك اليوم «٢ يونيو ١٩٧٩» قد أدى آخر عمل صحفي في حياته، وهبط سلالم دار الهلال ببطء شديد كعادته منذ ضعف بصره واعتلت صحته.. وجيء له بتاكسي، ومضى إلى بيته بسلام !.

خلع بدلته وارتدى الجلباب ، واضطجع على سريره يستريح من عناء صعود سلالم العمارة ، فإن صعود ثلاثة أدوار ينهك قلبه العليل .. ولم يكد يضطجع مستريحا حتى أغمض عينيه .. ومات !.

مات الشاعر الزجلي الكبير هادئا في لحظة خاطفة ، كما عاش هادئا طوال بضعة وسبعين عاما.. وانسدل الستار على آخر الزجالين

الكبار من عصر بيرم التونسى ومحمود رمزى نظيم وبديع خيرى وتلك الطبقة من فحول الزجل المصرى الكلاسيكى الحديث .

عاش أبو بثينة السنوات الثمانى الأخيرة من حياته بذبحتين فى القلب.. أصابته الأولى سنة ١٩٧١.. والثانية سنة ١٩٧٩ وقد غالبها فى المرة الأولى بروح معنوية عالية.. ثم توفيت زوجته فجأة وكانت رفيقة حياته وأحنى الناس عليه، وأصدقهم خدمة له، وأكثرهم سهرا على راحته، فى صحته ومرضه، وفى جميع حالاته على مر السنين .

فخلا البيت بموتها إلا من أبى بثينة وحده ، فقد فارقه الأولاد والبنات الذين كبروا وتزوجوا وصاروا آباء وأمهات ناجحين نابهين .

تماسك أبو بثينة تحت وطأة هذا الرزء، ولكن الحزن كان يقوده برغم تماسكه إلى الذبحة الثانية والأخيرة .

قال لى أبو بثينة بعد وفاة زوجته بقليل :

– اننى أتنقل بذكرياتى وأحزانى طوال اليوم بين حجرات البيت، أتذكر زوجتى التى فارقتنى.. أقف هنا وهنا وكأننى أقف على الأطلال كقدامى الشعراء.. أذكر ما فات من حياتنا فى هذه الشقة الصغيرة، ثم أتعب فأجلس أو أضطجع ، فإذا استرحت قليلا أخذت أكتب أو أنظم أزجالا أرثى بها فقيدتى وأبكى ما فات من حياتى معها وما بقى من حياتى بعدها ، وإنه لقليل هين !

وقد أسمعني أبو بثينة - رحمه الله - بعض هذه الأزجال.. ومن أسف أنني لم أسجلها، وذاكرتي لا تسعفني بشيء منها أرويه لك، ولعله تركها ضمن أوراقه وأزجاله التي لم تنشر .

ولكن هذه البكائيات الزجلية كانت على كل حال من نفس النبع الذي تدفقت منه أزجال أبي بثينة طوال حياته، وقلما نجد زجالا أو شاعرا مثله لم يتوقف عن النظم منذ كان في العاشرة من عمره إلى أن طرق أبواب الثمانين .. ومن يقرأ شعره الزجلي في سنة ١٩٧٩ يدهشه أن القوة الفنية لهذا الشاعر الزجلي المطبوع الموهوب ، لم تضعف حتى آخر يوم في حياته بالرغم من كل المثبطات والأدواء والأرزاء !.

وبعد أن مضت مدة على وفاة زوجة أبي بثينة - رحمهما الله - وكان قد مر على الذبحة القلبية الأولى بضع سنوات، تحسنت صحته تحسنا ملحوظا ، ومس الضوء وجهه مع ظلال خفيفة، وامتلأت وجنتاه قليلا ، وظهر فيهما أثر نشاط الدورة الدموية للشرايين التاجية والدورة الدموية في الجسم كله .. فقلت له مداعبا :

- ألا تدلني على الدواء السحري الذي تعاطيته فرد إليك شبابك وصحتك وروحك المعنوية ، لعلي أتعاطاه فأعود مثلك إلى الصحة والشباب وما يتلألأ فيهما من قوة المعنويات أو قوة الروح !

ضحك قائلا :

- لا دواء ولا حاجة، ولكنى تفكرت فى أمر هذه الدنيا فقررت ألا أبالي بها أدنى مبالاة ، ونفذت قرارى هذا تنفيذ التائب لتوبته أمام الله .. فصرت لا أحفل بما تذهب الدنيا به ، أو تجيء من قليل أمرها وكثيره ، وأتذكر دائما قول رسول الله إنها لا تساوي عند الله جناح بعوضة ، فلا أفكر في شيء كسبته أو خسرته .. تساوت الأشياء عندى ، وتحررت من الأسى والأسف والغضب والتأمل فى خير يأتى من هنا ، أو التوجس من شر يأتى من هناك !.

ثم تفكر أبو بثينة قليلا وأنشد قول أبى الطيب المتنبى :

لا أشرئب إلى ما لم يفت طمعا

ولا أبيت على ما فات حسرانا

قلت له :

لعل المتنبى لم يقل هذا الا فى ساعة يأس عابرة لا تمثل مجمل أحواله فى حياته.. وإلا فإنه - كما تعلم - عاش حياته حتى آخرها مشرئبا من فرط الطمع، حسران من شدة الندم ! .

قال أبو بثينة وقد ارتسم على وجهه الرضا وصحة النفس:

- ولكنى أنا - والحمد لله - تحررت فعلا من كل أثقال الدنيا ،

وعلـمت أنـى كنت منهـا فى غـرور.. فلم يبق لى فى الدنيـا إلا أنفـاس الحياة ، وهذه الدماء تجرى فى عروقى بأمر الله حتى يحين الأجل .

ثم لبـثت بعـد لقـائى هذا بزجـالنا الكبيـر الذى بايعـه الزجـالون فى أوائل الثـلاثينـات - وهو فى ريعـان شبـابه - بإمـارة الزجل .. أفكر فى كلامه وأقول لنفسى :

- وهل العيش إلا ذاك ؟! .. إن الإنسان لا يؤتى فى صـحتـه إلا من قبل «بكسـر القـاف وفتح البـاء» التوتـر الأحمـق والقلق والحزن والغضب واللهـاث وراء الدنيـا .. فمن نأى بنفسـه عن هـذه المهلكات انتـصـر على الدنيا، فلا سلطان لها عليه بعد ذلك !

ثم انقضت أشهر قلائل، والتقيت بأبى بثينة عند مدخل دار الـهلال، فلم أعرفـه للوهلة الأولى والثـانيـة.. تغيـرت مـلامح الصـحـة والعـافيـة والحيوية فيه إلى ضدها، وانقلب كأنه جاوز سن المائة ، وكنت رأيته منذ أشهر فى سن السبعين كأنه فى الخمسين أو دونها !.

أذهلنى هـذا الانقلاب ، ولكنى لـم أسـأله عن سـببـه، ولا بينت له أنى لاحظتـه، ثم بادلته الفكاهات والمطايبـات التى اعـتـدنا تبـادلهـا بطريقـة عفـوية حين نتـلاقى ، فـهـو انسـان سـمـح تأنس إليـه وإن لم تكن تعـرفـه، فكيف إذا عرفته ، أو كان لك صديقا مدة ثلاثين عاما ؟!.

ومضـى إلى بيتـه فى ذلك اليـوم، ودخلت إلى عـملى بالدار مـغـمـومـا

أفكر فى سر هذا الانقلاب الصحى الرهيب.. لقد رأيته أيتها الدنيا المتقلبة فى غاية من الصحة منذ ثلاثة أشهر فقط.. فما الذى أحدثته به أيتها الدنيا ؟!.

وأخذت أسأل من يعرفون من خاصة أمره أكثر مما أعرف، فعلمت أن ذبحة قلبية ثانية دهمته فصيرته إلى هذه الحال !.

إن الذبحة إنما تجىء من توتر ساحق ، أو قلق مدمر، أو غضب عاصف، أو كمد شديد، أو خيبة مريرة .. فهذه الأفاعى النفسية المعنوية تحشد كل العوامل البيولوجية والفسيولوجية لتفجير الذبحة فى صدر الإنسان !.

وأعرف أن أبا بثينة – كما قال لى – قد صار حرا تماما من هذه الأدواء القاتلة ، فمن أين جاءته هذه الذبحة الثانية ؟!.

لم يقل لي أحد شيئا، ولا جرؤت أن أسأل أبا بثينة عن شىء حولها، ولكنى رجوت أن يفىء إلى فلسفته التى أوجزها فى بيت المتنبى الذى مر بك فى هذا المقال، فتعود إليه صحته ، أو بعض من صحته، ولو قليل !.

إلا أن الأقدار كانت قد قررت النهاية.. ففى صباح السبت الذى حدثتك عنه كان الشاعر الزجلى الكبير محمد عبدالمنعم الشهير بأبى بثينة ، يتجول بين مكاتب دار الهلال ، يسلم أزجاله ومقالاته الأخيرة ،

ويقبض آخر نقود مستها يداه في حياته ، ويتفق مع بعض زملائه على السفر فى اليوم التالى «الأحد» إلى السويس لصيد السمك بالسنارة ، فإن أبا بثينة من هواة الصيد بالسنارة ويمارس هذه الهواية بحماسة وصبر ولذة ، ويقص عنها الحكايات والنوادر.. وله فى عشق السنارة أزجال ، وله معها صحبة حميمة تمتد عشرات السنين بلا انقطاع .

ولكن الاتفاق على السفر إلى السويس حال دونه الأجل ، فلم تمض عليه ساعات حتى كان أبو بثينة فى جوار الله ، وفى سابغ رحمته وغفرانه ، وقد نفض يديه من دنيا لا تساوى عند الله جناح بعوضة !.

هكذا تمت فصول حياة هذا الفنان القدير المتواضع الذى عاش كادحا بمعنى الكلمة الحرفى، من طفولته إلى آخر يوم فى شيخوخته وقد شاهده معاصروه فى أواخر العشرينات وأوائل الثلاثينات وهو أشهر الزجالين فى مصر.. يناطح اسمه الشاب أسماء فحول الزجل وعلى رأسهم بيرم التونسى الذى كان فى ذلك الحين منفيا فى أوربا لأنه شتم السلطان وابن السلطان وامرأة السلطان .

ولعل عارفى أبى بثينة يومئذ ظنوا أنه سيبلغ بشهرته المدوية هذه كثيرا من الجاه والمال وترف الحياة وراحة البال والتقدير والتكريم . ولكن الرجل لم يبلغ من ذلك شيئا فى حياته ، على استحقاقه له .. وذهب مع النابغين الذين نبكيهم ونعرف قدرهم بعد ذهابهم !.

فمن أراد أن ينوه بقدر هذا الفنان الكبير فليتقدم الآن ، فقد مات الرجل ، والموت جواز المرور إلى التقدير والتكريم واطلاق الصواريخ الملونة فوق رءوس الراحلين .. لقد مات الرجل فأقيموا له إذن تمثالا كبقية الموتى ، وأزيحوا الستار عن تمثاله (١) .

إن أبا بثينة واحد من كبار الزجالين فى عصرنا ، ولسنا بصدد تقييمه هنا ولكنا نقول ونحن نلقى التحية على اسم هذا الراحل الكريم انه ورفاق جيله من زجالى مصر الكبار الراحلين ، لم ينالوا من الدراسة الجدية شيئا بعد ، مع أن أزجالهم ترسم صورة لمصر أشمل وأصدق فى بعض خطوطها وألوانها وظلالها من صور أدبية أخرى فى الشعر والنثر باللغة الفصيحة ..

وما أكثر وأطيب ما أنجبت مصر من النابغين ، تنطوى صفحاتهم فينشرها بعد موتهم عشاق النبوغ الدفين.

وسلام عليك أيها النبوغ الدفين فى الرجام .. سيذكرك قومك غدا فى تمثال من حديد أو رخام !.

---

(١) كتبنا هذه المقالة عقب وفاة أبى بثينة ولم يتحرك أحدلتكريم ذكراه .

رومانتيكيات كاظم

أعرف صافى ناز كاظم من صوتها (١)

عندما أسمع من أقصى دار الهلال زعيقا مرحا، أعرف أن صافى ناز كاظم قد وصلت ..

وعندما يرتفع الصراخ الاوبرالى إلى طبقة السوبرانو الحادة كنصل السكين، لا يبقى عندى شك فى أن صافى ناز تقف أو تجرى فى مكان مجاور للمكان الذى أجلس فيه ..

ولما شجعنى زميلنا الرسام بهجت ذات يوم على سماع صوت صافى ناز وجها لوجه أصغيت إلى صوتها باهتمام صادق، لأنى لا أستطيع مواجهة أى صوت أسمعه لأول مرة إلا باهتمام صادق.

فو الله لقد أدهشنى أنه صوت غنائى فعلا، وأنه سوبرانو فعلا.. يمتد ديوانين - أو كتافين - ويشغل ست عشرة درجة موسيقية سليمة، أو ستة عشر مقاما .. بلغة سادتنا الموسيقيين العرب.

صوت قوى واسع المساحة بحساب الدرجات الموسيقية أو المقامات، ولكنى صارحتها :

---

(١) كتبنا هذه المقالة فى الستينات .

– صوتك غير عربى .. لو غمست روحك فى الغناء العربى ، ودربت نبراتك على ثلاثة أرباع الصوت لأصبحت أشهر مغنية مصرية انتقلت من الاوبرا إلى السيكا والبياتى والراست !

قالت بحرارة : سأتدرب ..

ولكنها لم تتدرب، واكتفت حتى الآن بالزعيق الاوبرالى ، تعلن به حضورها وانصرافها ، وتثبت به انها لو شاءت لاحترفت الغناء ولكنها تشفق على مصير المطربات ولا تريد أن تخرجهن من ميدان المنافسة الفنية مقهورات محسورات !

وصافى ناز تغنى بصوتين، صوت حنجرتها، وصوت قلمها ..

وإذا كان صوت حنجرتها لم يستعرب بعد ، فإن صوت قلمها الذى كانت نبراته غريبة أو غربية قد استقام مساره أو كاد فأصبح يغنى بالعربى .

فكيف تغنى صافى ناز بقلمها وماذا يقول للمستمعين ؟!!

إن كتابها «رومانتيكيات» يسجل لنا بأمانة هذا الصوت الأدبى النسائى الجديد الذى يبالغ بعض سامعيه فى انكاره ويبالغ بعضهم فى الاعتراف به .. والحقيقة أن صافى ناز كاظم صاخبة غامضة جارحة مبالغة فى العشق والبغضاء والانفعال ، ولكنها ليست مشعوذة ولا دجالة

ولا كذابة حتى أن تجردها في الصدق يرسم لها عند بعض الناس صورة فتاة بلهاء تجهل مصلحتها ولا تبالي حقائق الحياة !.

وكتاب «رومانتيكيات» هو صافى ناز كاظم بلا زيادة ولا نقصان.. تركيبها النفسي والعقلي والبيولوجي والفسيولوجي والاجتماعي.. سراديبها الروحية وأغوارها الانسانية والوحشية.. تناقضها وانسجامها .. لونها ورائحتها .. كلها مسجلة على الورق، مطابقة تمام المطابقة ما في داخل ذاتها.. ولو شاءت لاستبدلت باسم «صافى ناز» اسم «رومانتيكيات» وأعادت تسجيل نفسها في شهادة الميلاد باسم «رومانتيكيات كاظم» بعد اتخاذ الاجراءات القانونية المعروفة فى السجل المدنى .

ويمكن أن يقال انه لم توجد كاتبة فى الأدب المصرى الحديث أصدق من صافى ناز كاظم أو رومانتيكيات كاظم، تعبيرا عما فى نفسها ... وليس صدقها هو الجرأة المبتذلة على اطراح الحياء التقليدى اطراحا تاما كما تفعل بعض الكاتبات في لبنان مثلا ؛ فهذا أقل أنواع الصدق وزنا ، ولعل امرأة تتعرى للتجارة أو الاثارة فيراها الناس علانية ، أصدق جرأة من أولئك الجريئات على الورق.!

وأساس الصدق عند صافى ناز كاظم أنها تخلصت من عقدة «الحريم» التى مست بدرجات متفاوتة جميع كاتبات مصر منذ عهد

عائشة التيمورية إلى عهد مي.. إلى عهد الكلمات النسائية التى نطالعها الآن .

فهى لا تخاف أن تعبر بصراحة ودقة عن كل ما يعبر عنه الرجل فى تمام قدرته على التعبير ، لأنها تشعر شعورا حقيقيا بأن الرجل والمرأة متساويان في حق التعبير تساويهما فى حق الحياة.. ولكنها لا تتخلى عن جنسها ولا تتمرد على أنوثتها، ولا تقول لنفسها : خلقنى الله امرأة .. وخلقت نفسىَ رجلاً !.

وأول صدقها فى كتابها الجديد أنها اختارت له اسم «رومانتيكيات» لأنه حقا مجموعة أفكار وخواطر وهواجس وأحلام ولفتات فنية وذهنية ووثبات عبقرية وخبطات طائشة ، تنبع كلها من هضبة الرومانتيكية التى تسلقها فى عصرنا الحديث عشرات ومئات من الكتاب والشعراء والفنانين الواقعيين والثوريين وأعداء الحرب وأنصار التقدم .. لا هربا من الواقع ، بل محاولة لتعميقه وتقريبه من روح الانسان المعاصر المأزوم ...

فالرومانتيكى الثورى الحديث هو أب صغير للبشرية المعذبة التى يهددها الفناء تهديدا مباشرا ماحقا لأول مرة منذ مشى الانسان على ظهر الأرض !.

والرومانتيكى الثورى الحديث فنان صوفى يلقي على الحياة والكون

نظرة فزع وجزع ولكنه لا يسقط فى اليأس النهائى ولا ينعى النوع الانسانى على صفحات المجلات والكتب وشاشة السينما والتليفزيون وخشبة المسرح كما يفعل بعض القانطين من أدباء وفنانى العالم الآن ..

وقد عاشت صافى ناز سنوات كثيرة فى الولايات المتحدة الأمريكية وكان ظن بعض الناس بها أن تعود من هناك متأمركة من فرعها إلى قدمها، ولكنها عادت فطرحت أثر السنين الأمريكية ، وانهمكت فى تدريب قلمها على الغناء بنبرات عربية لا تخالطها نبرات الغربة الطويلة .

وكتابها «رومانتيكيات» هو ثمرة الغربة وعذابها الروحى والفكرى، وهو كذلك ثمرة العودة إلى الوطن والنظر من جديد إلى الأمور ، وتبديل الرأى أو تعديله فى أمور، ومراجعة كشف حساب السنين بلا محاولة لاتخاذ موقف متكامل.. فالنظرة الجديدة والتبديلات والتعديلات والمراجعات كلها فى هذا الكتاب الجميل شذرات فكر لا فكر متكامل، وبراعم مواقف لا مواقف واضحة .

وبهذا يمتاز الكتاب ولا يعاب ، لأن الكاتبة صدقت فى التعبير والتقرير ، فلم تعبر عن شىء لم يتقرر لديها ، ولم تندفع وراء نظرة أو نظرية شاملة للإنسان والمجتمع والكون قبل أن تتبلور هذه النظرة أو هذه النظرية فى عقلها ووجدانها .

ولكن كتابها يخيل إليك بثراء تعبيراته ومعانيه وشاعريته وجدته وطلاوته وبلاغته العربية والمستعربة أنك أمام فيلسوفة أتمت شرح فلسفتها فى مقالات الكتاب الأحدى والعشرين، وقالت فى كل شىء كلمتها المتكاملة .. وصافى ناز كاظم لا تزعم هذا كله لنفسها ، وتعترف بصراحة: «خطر لى فجأة أننى لا أريد أن أتزوج أبدا ، لا أريد أن أقيد خيمتى بأوتاد تشدها إلى أرض . إلا إذا قابلت مجنونا مثلى .. وماذا أريد أن أحققه أذن من الحياة ؟! اكتشفت أخيرا أننى لا أريد أن أحقق شيئا بالذات وأن كل ما أحققه سيكون بالصدفة. على الماشى . فى لحظة استراحة وأنا أتفرج . أنا ممتلئة بالاهتمام . هكذا يقول عنى الناس . وأيضا بالحيوية والطاقة والصراع . وأحيانا أبدو جادة الرغبة فى البناء وفى الوصول إلى حلول ، ولكنى لا أعنى فعلا أن أكون هكذا .. أحب أن أجلس وأمد ساقى وأسرح فى مناقشة قضية ما أو تخطيط ما سأفعله يوم الأربعاء ١٧ أغسطس سنة ١٩٩٠ عيد ميلادى الـ ٥٣ وماذا سيقول لى جعفر ابنى الذي سيكون .. أشياء هامة كهذه أرتب لها ساعة أو ساعات هنيئة لا يفهمها الآخرون .

وصافى ناز صاحبة هذا الخيال الرومانتيكى والواقع الرومانتيكى أيضا، وصاحبة الثورة الرومانتيكية على كل شىء بدون تحديد شىء ،

كانت تشرب الحبر وتأكل الطباشير وهى تلميذة فى الابتدائية ، لتنفرد بأعجوبة خاصة .

وكتابها هذا يمتعك ويفتح لك آفاقا من الواقع والخيال والعقل والجنون .. رحبة مدهشة ، وربما قلت مفتونا : هذه الكاتبة أعجوبة .. ولكن الكاتبة الأعجوبة ستطل عليك من سطور كتابها وهى تشرب الحبر وتأكل الطباشير ، فإذا فرغت من مائدتها الشهية هذه ، لم يبق إلا أن تغني لك لحنا من طبقة السوبرانو الحادة كنصل السكين !.

الشاعر الطفل العنيف

هل من كلمة تقال عن الشاعر صالح جودت – رحمه الله – وقد مضت على مفارقته الدنيا سنوات ، فتوارى اسمه ، وهدأت الرياح التي أثارها طوال حياته في وجوه شانئيه ومحبيه جميعا ، وأقصر عن الكلام فيه من كان يراه شاعرا لا يشق له غبار ، وانصرف عن ذكره من كان يراه شاعرا كثير الإغارة ، يأخذ من هذا الشاعر ومن ذاك ثم يدعي على الشعراء الزعامة والإمارة ، بلا جدارة ! ..

كان صالح جودت طفلا كبيرا اجتمعت فيه براءة الأطفال وعنفهم وطيشهم وحبهم لأنفسهم ، عاش حياة مفعمة شعرا ، لم ينقض يوم منها دون أن ينظم شعرا . أو يحياه ، أو يصحب واحدا من أهله أو واحدة ، وكان في كل أحواله لا يفارق طفولته بريئا عنيفا طياشا ، وإن كان من أكثر الناس معرفة بالجانب العملي من الحياة ، فهو في هذا الجانب خراج ولاج لا يضيع من يده شئ !

وكان إذا اتخذ موقفا عنيفا من أحد ، طلب إليك – إن كنت

صـديقـه - أن تؤيده في مـوقـفـه ذاك .. فـإن لم تفـعل ، أحـقـده ذلك عليك، وربما نالك من عنفه ما ينال خصومه أو أشد .

إلا أنـه لم يثـبت قـط على خصومة ، مع أنه ثبـت عـلى صداقات كثيـرة ، أشـهرها صداقته للشـاعر أحمد رامي ، بالرغـم مما وضعه رامـي مـن عـراقيل وحـواجـز تمـنع شـعـراء عصـره مـن تقديم أشـعارهم إلى أم كلثـوم رجـاء أن تغنيـها كـما تغني شـعـر أحمد رامي ، وكان من هـؤلاء الشـعـراء المتعطشين إلى سـمـاع أشـعـارهم بصـوت أم كلثوم ، أصـدق أصـدقاء رامي وأكـثرهم دفـاعـا عنـه صالح جودت !

فكـان صـالح دائم الشكاة من مـوقف صـديقـه هذا ، ويقـول بلا مـداراة : «إن رامي يغـار مني كلمـا قدمت إلى أم كلثوم قصـيدة أو زجلا ، وقد حـرضها على ألا تغـني من شعري لأنه مستشارها الذي لا تصدر إلا عن رأيه» ! ..

ولم تكن غيـرة صـالح ممن يعتبرهم «منافسـين» له في الشـعر أقـل حدة من غيـرة رامـي ممن يحـاولون - من وراء ظهـره - تقديم أشـعارهم إلى أم كلثوم ، إلا أن رامـي كان يغار فيما يخص أم كلثوم فقط ، ثم يفتح صدره على مصـراعيه لجميـع الشـعراء بعيدا عن هذا «الصـرح الفنـي» الذي يتولى سدانته !

أما صالح فكان لا يطيق أن يقال إن شاعرا يتفوق عليه أو يباريه أو يساويه ، ولعل هذا سبب خصومته فى أخريات حياته للشاعر نزار قبانى وشعراء آخرين من عارفيه وأصدقائه !

يذكرنى هذا بأول مرة رأيت فيها صالح جودت ، وكنت قبلها أقرأ شعره فى الصحف منذ سنة ١٩٣٥ ، بل أذكر أول قصيدة قرأتها من شعره فى مجلة «أبو الهول» عن العيون الزرق والشعر الذهبى ، وقد لبث عمره كله مفتونا بهذا اللون من الجمال ..

رأيت صالح جودت أول مرة سنة ١٩٤٨ ، وكان أستاذنا أنطون الجميل باشا رئيس تحرير جريدة الأهرام ، قد توفي فجأة فنظمت قصيدة فى رثائه ؛ فقد كان هذا الباشا الأديب النبيل ، كثير العطف والحدب على شخصى الضعيف ، حفيا بما أنظمه من الشعر وأنا يومئذ فى بداية العشرينات من عمرى ، فكان ينشر كل ما أرسله إليه من شعر ولو بلغ ثمانين بيتا ..

وقد نشر إحدى قصائدى - وكانت عن فلسطين - فى يسار الصفحة الأولى الذى كان مخصصا منذ عهد سلفه داود بركات لنشر قصائد شوقى وحافظ .. ثم صار هذا الركن البارز من الصحيفة

وقفا على أشهر الشعراء بعد رحيل حافظ وشوقى أمثال على محمود طه وعلى الجارم وبشارة الخورى ومحمد الأسمر .

وأتذكر الآن أننى عجزت عن نشر مرثيتى تلك فى الأهرام بعد أن تولاه الاستاذان عزيز . ميرزا ومحمد زكى عبدالقادر ، وكلاهما بعيد عن الشعر ، فضلا عن أننى - فيما بدا لى بعد التفكير فى هذا الأمر - لم أكن أتكلف التقرب إلى أحد فى الأهرام أيام أنطون الجميل باشا ، فأبعدنى هذا عن عطف خلفائه !

ثم إن ناديا لا أتذكر اسمه الآن أعلن عن إقامة حفل تأبين لأنطون الجميل فقصدت النادى مع صديقنا عبدالعزيز عرابى - نجل عرابى باشا - الذى قال لى : إن صديقه الشاعر صالح جودت يشرف على الحفل ويقدم الشعراء لإلقاء قصائدهم .

فلما صرنا وسط المحتفلين تقدم عبدالعزيز عرابى - رحمة الله - فاستأذن لى صالح جودت فى إلقاء قصيدتى ، فإذا به يغضب وينتفض وسط الحفل قائلا بصوت حانق : «هذا حفل يقيمه أعضاء النادى ، ولا يسمح فيه بالكلام لغيرهم ، خصوصا من لم يكن مدعوا إلي الحفل» !

انصرفت بقصيدتى من الحفل وقد أذهلنى غضبه وزعيقه

وحــدة كلمــاته ، فقد كان بوسعه إفهامــنا ما يريده هامــسا بلطــف معتــذرا أو غيــر معتــذر .

وكــأنما أرادت الاقدار أن تنصــفنى منه ، فلما تقـدم وتقـدمت إلى مباراة الشعر في مجمع اللغة العربية سنة ١٩٥١ فزت بالجائزة الأولى ، ولم يفز هــو بشئ ، وكأنه عرف منذئذ مــكانى ، فصرنا أصدقاء .

كــان صــالح جودت الشــاعر الحــالم ، غضـوبا عـصـوفا ، لكنه حين يتقمص طفـولته ينــقلب عطــوفا شــفيفا يهمــس بالحديث همسا ، كأنه يخشــى أن يدمــي بنان مــن يتـحدث إليه !

وكــان فى كل حال يحب التعلم ولا يســتنكف أن يصــحح له أحد خطأ فى اللغــة أو الوزن - وقلما كان يخطئ فيهــما - أو يلفـت نظــره إلى النطــق الصحيح أو الإعــراب المتفــق وقــواعد النحــو ..

أذكــر أنــه كتب مرة فى بعــض شعــره كلمة «الحــكايا» - يقــصد جــمع حكــاية - فقلت لــه : هــذه غلطــة يقــع فيــها الشعراء الشــبان مــن التفعيــليين ، وإنما تجمــع «حكــاية» على «حــكايات» ..

فطفـق يقــرأ جميع قصــائده الجـديدة ليصحح فيــها هــذا الخطأ ، ويتجشــم فى ذلك تغييــر الأوزان وتغييــر المعــنى والمبــنى أحيــانا ..

وســألنى مــرة : «أعندك ديوان زهيــر بن أبى سلمى ؟» .. ونطق السين مفتوحة فى «سلمى» .. فقلت له : «بل عنــدى ديــوان ابن أبى

سلمى» .. بضم السين .. فدهــش وقال بتواضع وبراءة : «يا للعــجب .. لقد عشت إلى سن الستين أنطــق اسم هــذا الشاعـر المشـهور بفتـح السين ! .. وصدق مـن قال إن المـرء يتعلم مــن المهـد إلى اللحد» !

الذكريات عن صالح جودت كثيرة ، لكن المهم أن نتكلم عن شعره بما ينصفه ولا يسلكه فى الخاملين والعاجزين ، بعد أن عاش حياته كلها شاعرا مرموقا ، على اختلاف الناس فى النظر إلى شعره وشاعريته ..!

ربما جنــى عليه أنه انحاز إلى فكر اجتماعى أو سياسى أو أدبى لم تكن تنحاز إليه غالبية نقاد الشعر والأدب فى مصر خلال الخمسينيات والســتينيات ، فضــلا عــن السبعينيات التى عــاش صــالح جودت إلى ما بعد منتصفها لسانا مــن الألسنة الرسـمية ، يضرب فى جميــع الاتجاهات ، ويصيب عارفيه وغـير عـارفيـه عـلى الســواء ، كأنه كان يحاول الثأر ممن تجــاهلوه طويلا وأقـاموا لشعره ميــزانا اجـتماعيا وسياسيا خدش جـوهـر شـاعريته - وهو فى رأينا جوهـر صـحـيح - وتحيـف فنــه الشـعرى الرقيـق المنغـوم المتميز ..

ولم يكــن يقبل هدنة فى هذا المجال .. أذكر أنه كتب عدة مقالات ضد كـاتب معــروف ، فـأكــثر فى مقــالاته من كلمـة «عملاق» وكلمـة «قـزم» .. وكأنه يقــابل بينهما .. فقـلت له يومــا بين السخرية والدعـابة : «أراك تفــخر بطــول قامتك ، ولا فخر» !

فغضب أشد الغضب وقاطعنى أشهرا وأمر فأنقصوا المساحة المخصصة لمقالي في مجلة المصور - وكان رئيسا لتحريرها - من صفحتين إلى نصف صفحة ولم تتعد مقالتى بعد ذلك نصف صفحة طوال رياسته التحرير .. يرحمه الله !

أما عن شعره وشاعريته فما من سبب يدعونى إلى التهويل فى شأنهما ، ولكننا نعرف أن النقد الحديث فى أوروبا وغيرها ، يحاول الآن ألا يدين الشاعر أو الكاتب أو الفنان بموقفه الفكرى أو الاجتماعى ، وألا يجعل تقييمه أو تقويمه رهنا بهذا الموقف جهة اليمين أو اليسار أو الوسط ، فإن الدنيا قد أظهرت لأهلها فى الزمن الأخير أنها أشد تعقيدا وتنوعا من هذا التبسيط ..

وقد نسمع الآن من يقول إن فلانا يمينى فى التفكير أو فى الموقف الاجتماعى أو السياسى ، ولكنه روائى موهوب .. ونسمع من يقول : هذا الرسام أو النحات يسارى الفكر لكن فنه ذو أبهة كلاسيكية ، ولا أثر فيه للدعاية الجوفاء !

فالأدب الحق والفن الصراح يوجدان عن يمينك وعن يسارك وأمام ناظريك ، وفى كل اتجاه لأن الدنيا واسعة يا صديقى وقد ضمت إلى مساحتها شطرا من الفضاء ، فلم تعد ذات جهات أصلية وفرعية فقط ، بل صارت ذات جهات يعييك حصرها !

وقد كسب الأدب والفن قيمة مستقلة ، وإن كان استقلالا ذاتيا ، أي متعلقا بذات صاحبه ووجدانياته ومدركاته ولمساته الخاصة وشطحاته ..

والحق أن الأدب والفن كان كذلك منذ أول الدهر برغم كل اختلال بين العصور والأجيال .. وقد يلتفت الناس إليك دهشة وذهولا ، إذا حدثتهم عن المواقف الاجتماعية والسياسية لهوميروس وشيكسبير وبيتهوفن والمتنبي وشوقي وأم كلثوم وسيد درويش ! ..

صحيح أنهم جميعا كانوا ذوي مواقف ، بحسب أزمانهم ، ولكن ماذا بقي منها للناس ؟! ..

وأنا كثير الإلمام بالأماكن الأثرية في القاهرة ، فإذا مررت بجامع السلطان حسن - التحفة المعمارية المملوكية في القاهرة - أقول في نفسي : «ليت أحدا يخبرنا كيف كان الموقف الفكري أو السياسي للمهندسين العباقرة الذين شادوا هذا الجامع الرائع» .

وفي ظل الأفكار والنظم جميعها من عصر العبودية الأولى إلى الاقطاع ، إلى عصرنا هذا بأنظمته التي عرفنا منها الرأسمالية والاشتراكية ، شيد أناس مجهولو المواقف أهرام الجيزة وآثار الهند والصين وبابل وآشور واليمن والاغريق والرومان وناطحات السحاب وسفن الفضاء ..

لكن المرء لا يفلت من موقفه في حياته ، ولا يصح في الذهن أن يقف أحد موقفا لا حساب عليه ، خيرا كان أو شرا .. وهذا ما حدث لصالح جودت ، فقد أضاعه عند نقاد عصره ، مواقفه التي أوجزنا الاشارة إليها ، وغلبه النقاد وأهملوه وشوهوا صورته .. وكانت بضاعته الفكرية متواضعة مع أنه كان يقرأ بالعربية والانجليزية والفرنسية ، فلم يثبت وسط المعمعة وخلال زحام «المدارس» التي استولت على ساحة الأدب والشعر وحاول برغم ذلك أن يعد نفسه في الثوريين وأن يقيم الأدلة على ثوريته ، لكن خصومه نزعوا عنه هذا اللثام !

والمفارقة في هذا : أن صالح جودت هو حفيد ثائر تركي شديد المراس اسمه اسماعيل جودت بك ، نجل جودت باشا .. كان من أحرار العثمانيين .. أديبا خطيبا مفوها ، ينظم الشعر بالتركية والفرنسية .. اضطهده سلاطين آل عثمان فلجأ إلى مصر وشارك في الثورة العرابية فقبض عليه الانجليز وأخرجوه منها !

وتاريخ صالح جودت الشعرى بدأ في مسارح عماد الدين وروض الفرج بالقاهرة ، ولهذا ظل «الفن» يلازمه إلى آخر حياته ..

وبسبب علاقاته الحميمة بالوسط الفني ، أخرجته الحكومة من وظيفته بالإذاعة سنة ١٩٥٢ كما أخرجت صديقه الشاعر إبراهيم ناجي من وظيفته في وزارة الأوقاف .

وإذا كان صالح قد بدأ حياته شاعرا رومانسيا أقرب إلى تهافت التعبير منه إلى جزالته ، فإنه اتسع بعد ذلك فى الاطلاع على الشعر العربي واللغة العربية ، فطرأ على شعره الكثير من الرصانة ، وداخلته مائية الشعر الكلاسيكى الحديث كما نراها فى شعر شوقى .. وقد تعلق صالح جودت بشوقى ، فجرى فى آثاره ، وافتتن بأسلوبه ، حتى اختلطت الانغام الرومانسية فى شعره بالأنغام الكلاسيكية وصار أعرب لغة مما كان فى نشأته ، ولكن جوهر شعره بقى رومانسيا حالما مشبوبا ، يستمد الجاذبية من صدق تجاربه فى الحب ، وما أكثرها ..

والشعر الرومانسى المصرى لا تكتمل صورته إذا استبعدنا منها الخطوط المتميزة الزاهية الألوان التي أضافها صالح جودت إلى هذه الصورة ، وأودعها دواوينه الكثيرة التى أصدرها بين سنتى ١٩٣٤ و١٩٧٥ .

وكلمتنا هذه مجرد إشارة إلى ذكراه ، وإيماءة بالتحية إلى شعره وشاعريته .. وعسى أن يتاح لنا أن نكتب عنه يوما ما نضع به حقه فى نصابه ، فلا يضيع بين الذاكرين والناكرين .. ولا يضيع صوته واسمه بعد أن غنى للناس ما غنى طوال خمسين عاما ..

فكرة فى المنفى

. فى بعض كتـابات الأستاذ أنيس منصور قرأت أن الصحفى الكبير الأستـاذ على أمين يعمل وكـأنه يملك صحـة من حـديد، لا من لحم ودم، وأنه إذا سمع نصيحة ببعض الراحة، عدل عن كل راحة، كأنه فى مباراة عناد مع صحته، أو مع الناصحين المشفقين على لحمه ودمه وأعصابه !.

وعلى أمين عاش فى المنفى - بعيدا عن مصر أو مبعدا عن مصر - تسع سنوات .. خرج منها شابا ، وعاد كهلا ، لكن شـبابه وكهولته لم يشعر بهما وإن مرا بالأيام والشهور والسنين على شهادة ميلاده . وقد أقنع نفسـه أنه عـاد كمـا ذهب ، وأنه غـادر المنفى ولكنه لم يغـادر تلك السنين التسع وراءه بل جاء بها معه فـأثبتـها فى مكانها الذى انتزعت منه وعاد شابا كما كان ، وكمـا ينبـغى له دائمـا أن يكـون !

وفى غـمرة التفـاؤل نسى تلك اللحظة الطويلة التى مـقدارهـا تسع سـنين فى اللحـظة الخاطـفة التى لامسـت فيـها قدماه مطار القاهرة ..

ولكن الكتـاب الذى نشـر لعلى أمين (١) أكثر اعـترافا بالواقع من على أمين نفسه ..

---

(١) نشره بعد عودته ، وقد توفى إلى رحمة الله بعد مـدة قصـيرة فى أواخر السبعينات ، وكتبنا هذه المقالة قبيل وفاته بقليل .

اسم الكتاب «فكرة فى المنفى» .. يضم أكثر من مائتين وخمسين صفحة ، وعدد الأفكار فيه أكثر من عدد الصفحات ..

وكيف بالله ينزع المرء من لحمه ودمه مائتين وخمسين قطعة في المنفى ، ثم يوهم نفسه ، أو توهمه نفسه أنه مازال قائما بوزنه والمقاسات القديمة لثيابه وعدد الشعرات الباقية في رأسه ، ولونها .. برغم كل ما رسم الزمن تحت العينين من سهر وشجن ، وما كتب من سطور فى الوجه والجبين ، وما أضاف أو اختزل من خفقات الصدر ، طوال تسع سنين ؟!

لم أر على أمين منذ اثنى عشر عاما تقريبا ، حين نقل من دار الهلال وكان رئيسا لمجلس إدارتها ورئيسا لتحرير المصور والهلال بها ..

وكان لحنه المتميز فى تلك الأيام ، دخان سيجارته ، متوهجة بين أصابعه دائما أبدا .. وكانت شبارته وطابع بريده إلى القراء ، كلمته الاسبوعية «فكرة» التى لم يكن يجد مكانا لها يوميا كما وجد فى جريدة الأخبار ، وكما وجد لها فى المنفى ، لأن دار الهلال تصدر مجلات فقط ..

وكان يرأس الاجتماع الاسبوعى الذى يسمى «اجتماع التحرير» ويضم صالح جودت ومرسى الشافعى وأحمد رجب وسعد الدين توفيق ومحمد حسن وكاتب هذه السطور .. ويستضيفنا جميعا فى حجرة

مكتبه ، الاستاذ الكبير فكرى أباظة غير باخل علينا بشئ من طرائف ذكرياته وسخرياته ، أو شايه وقهوته وسائر مظاهر كرمه الحاتمى ..

وكنا – أو كان بعضنا – يظن على أمين طفلا كبيرا ، يقال له : كذا .. فيوافق .. ولكنه فجأنا ذات يوم قائلا بكل صراحة :

– إنكم تظنون أنكم تنفذون ما شئتم من الاقتراحات والآراء ، ولكنى أقول إنكم مجرد مستشارين لى .. تقولون ما شئتم وقد أعمل بآرائكم ، وقد لا أعيرها أى اهتمام» !

ثم ضحك ومضى يدخن ويتحدث ، ونحن أيضا .. رحنا نتحدث ونضحك وندخن ، مستشارين لا أهمية لموافقتنا أو عدم موافقتنا .. فقد كنا واثقين بأن على أمين كان يريد امتداح آرائنا بتلك اللفتة الساخنة والذم المراد به المدح !

وعلي أمين بسيط الفكرة كبساطة تعبيره ولكنك إذا تأملت تعبيره البسيط وجدته من السهل الممتنع الذى يندر مثله فى الاساليب الصحفية ، بل والادبية الآن .. إنه بليغ ، وبلاغته هى لغة الصحافة الحديثة وإذا صح أن الاسلوب صورة من الفكر ، فإن فكر هذا الكاتب الذى يبدو بسيطا ، هو – كأسلوبه – سهل ممتنع ، بل لعله ممتنع فقط ، وإنما هو سهل فى الظاهر فقط ، وفوق ملمس قشرته ليس إلا ..

وظاهر فكره – كماتقدمه إلينا فكرته اليومية هنا أو فى المنفى –

أنه يؤمن بقوتين عظيمتين ، احداهما سماوية هى قوة الخالق .. والثانية أرضية هى قوة العلم ..

وبين قوة السماء وقوة العلم الحديث ، يتعلق علي أمين بشعرتين أدق من شعرة معاوية المأثورة وأشد منها متانة واستجابة لتطورات الدنيا وتحولات الناس ..

أما الشعرة الدقيقة الأولى وهى ذات سحر نفسى هائل عليه ، فهى «الدعاء» .. فإن على أمين لا تخلو له «فكرة» من دعاء .. يرفع كف الضراعة إلى السماء ويقول : يارب ..

والشعرة الاخرى ، ليست فى الحقيقة شعرة ، بل هى «زر» .. فإن الأزرار الساحرة التى اخترعها العلم الحديث وفتح بها أبوابا فى الارض والفضاء ، هى الفتنة الطاغية التى تأسر قلب على أمين ، وهى أبهى لديه من أجمل حسناء فى العالم ، ولو قيل له : هذه ملكة جمال العالم ، وهذه مجموعة أزرار اليكترونية حديثة ، لأشاح بوجهه عن ملكة الجمال ، وأقبل على الازرار الاليكترونية بالاحضان والقبلات !

إن أزراره الساحرة تعمل على ظهر الارض وفى اجواز الفضاء ، أما دعاؤه فإنه يسبح في علياء السموات .. وبين الازرار السحرية والدعاء المستجاب ، يعيش على أمين ، وتمر به الأيام فلا يشعر بها ، ولكن الايام لا تنسى أحدا ..

وأول كتاب يجمع «فكرة» على أمين صدر فى القاهرة سنة ١٩٦٤ واختار له الناشر اسم «دعاء» وجمع فيه أكثر من ستين دعاء فى مناسبات عديدة .. دعاء بعد تأميم قناة السويس .. دعاء لمصر .. دعاء لشارلى شابلن .. دعاء سنة ١٩٦٤ .. الخ .

ويومها كتبت اقول إن على أمين قد اسرف فى الدعاء ، حتى أحس هو نفسه أنه اسرف فقال : يارب إننى لا «أتعب» بإسرافي فى الدعاء ، وأشعر بالراحة وأنا اتجه إليك .

ولو استجيب كل دعاء لعلى أمين فى كتابه الأول لكان ممن لهم قصور فى جنة الخلد مع الصلحاء والأتقياء وأهل الورع .. وكأنما اقتنع بعد طول دعاء أن له فعلا هذه القصور فكتب يقول : «أشعر أن سيدنا رضوان لن يتركنى انتظر فى طابور الواقفين امام باب الجنة .. لن يطالبنى بتقديم أوراق تحقيق الشخصية وشهادة حسن السير والسلوك».

ذلك هو على أمين ذو الدعاء ، وهذا رجاؤه فى السماء ، أما علاقته بالازرار فهى علاقة الرجل «العلمانى» المنغمس فى التكنولوجيا إلى الأذقان ، وحتى النخاع .

أن لدى هذا الكاتب التكنولوجى ازرارا سحرية لا تحصى ، مختلفة الألوان والاشكال والافعال .. زر يقدم الطعام .. وزر يحلق اللحية . زر

يشعل السيجارة – ولاشك أن سيجارته التي لا تنطفيء تحتاج إلى مجموعة أزرار لا إلى زر واحد – ثم زر يقود الطائرة أو ينشر الغسيل أو يجيء إليه بفكرة إذا استعصت عليه الافكار..

ولم يبق له من مطمع إلا زر عظيم القدر لم يخترعه أحد حتى الان ، هو الزر الذي يستطيع أن يحمل الدعاء ويطير به إلى الفضاء .. وهذا ولا شك مجرد حلم ، ودعاء غير مستجاب ، وليس يضير على أمين أن يسقط له دعاء واحد فلا يستجاب بين ألف دعاء استجيبت فعلا ، أو هي مرجوة الاستجابة إن شاء الله ..

قالوا إن على أمين ببراعته الصحفية التى يعترف بها الجميع قد أدرك أن للروحانيات جمهورا كبيرا ، وأن الدعاء الذى يكتبه يوميا ينتظره عشرات الالوف ليجدوا فيه الراحة .. ويجد هو فيه «التوزيع» .. وماذا فى هذا ؟!

فيما مضى كان الشعب لا يملك إلا الدعاء يواجه به طغيان سلطان مثل السلطان خوشقدم أو السلطان جقمق أو السلطان قنصوه الغورى .. وباشوات العثمانيين وبكواتهم من بعد ..

وكان الشعب لايملك إلا الدعاء في مواجهة المجاعات والأوبئة والحروب وعنتريات البكوات المماليك فى العهد العثمانى الطويل .

وحتى فى زماننا الاخير ظل الشعب فترة يدعو أن يرفع الله عنه

العبء الثقيل حتى استجاب له ، ولكن عقابيل العبء تحتاج إلى مزيد من الدعاء .

فإذا جاء على أمين ودخل مع الشعب داعيا ضارعا ، فإنه لم يفعل إلا ما فرضته عليه طبيعته المتدينة برغم كل علمانيتها .. وقديما كان السلاطين الطغاة يخشون دعاء الزهاد والمتصوفين نزلاء الخانقاه ،لإنهم كانوا يطلقون على هؤلاء الظالمين صواريخ الدعاء كل ليلة ، وكثيرا ما أصابت هذه الصواريخ أولئك الطغاة !

ولكن حدث بعد ذلك أن السلاطين استمالوا إليهم بعض هؤلاء الداعين المنقطعين عن فتنة الدنيا وزينتها ، فألحقوهم بحواشيهم ، وكانوا يصحبونهم في حروبهم ، لمهمة واحدة فقط هى الدعاء بالنصر للسلطان .. مع دوام العز والتأييد !

وكان أكثر هؤلاء السلاطين ينهزمون ، وآخرهم قنصوه الغوري الذى أسفرت هزيمته في مرج دابق عن أسر جميع أصحاب الدعوات الصالحة الذين كانوا في معيتة السنية ، ووقوعهم فى قبضة السلطان سليم العثمانى الذى كان له هو أيضا فرقة من أهل الدعاء !

ولكن حرفة «الدعاء» القديمة قد بطلت حديثا .. والدليل على ذلك أنها – كما نرى – قد أصبحت كلاما يوميا ينشر فى الصحف ويجمع فى الكتب ، ولا يتقاضى صاحبه شيئا من السلطان ولا يدعو له بالعز والتأييد ..

إن صـاحب «الدعـاء» قـد قـذف به الزمن إلى المنفى ، وقـذف مـعـه الازرار السحرية أيضا .. وأصبحت «الفكرة» البسيطة التى تضع فى يمينها مجموعة الازرار وفى شمالها مجموعة الأدعية ، مطرودة من بلدها، بأدعيتها وازرارها جميعا !

ولم يعد لصاحب الدعاء المستجاب ، والزر السحرى العجاب صوت إلا من وراء البحار .. وكان هذا أفضل بطبيعة الحال من أن يكون له صوتٍ من وراء جدران السجن مع شقيقه مصطفى أمين !

وكأنما شعر على أمين بعدعودته أنه لابد أن يقدم نفسه من جديد للقارىء .. فقال : «عشت بعيدا عن بلادى تسع سنوات كاملة كنت خلالها أنتقل بجسمى بين لندن وبيروت وروما وباريس وميونيخ وعدد من بلاد أوروبا .. ولكن قلبى استمر يعيش فى مصر .. كنت طوال هذه السنين أعيش في مصر .. أرى مياه النيل تتراقص فى دلال وأرى عيون شعب بلادى الساخرة ، أكتوى بآلامها واحس بجروحها ودموعها .. كنت اعيش مع هزائمها واحلم بانتصاراتها .. وتحملت مطارق السنين . ولكن الله كان معى فى منفاى .. يزرع الامل فى صدرى ، ويرد الايمان إلى قلبى . وكان معى قلمى ، ورفض القلم أن يستسلم للنفى والتشريد، وأصر على أن يكتب ويسجل كل نبضات قلبى وبعض نبضات عقلى .. وفى المنفى كتبت ٣٢٨٥ فكرة .. بعضها بدمى ، وبعضها بعرقى ،

والباقى بقلمى .. وإننى أقدم لك اليوم بعض ما كتبت فى المنفى ، أما الباقي فقد احتفظت به لنفسي قبل أن أقدمه لك» ..

بهذا الايجاز البسيط البديع حقا صور على أمين كتابه كله ، ورسم له فى أضيق حيز بانوراما لامعة ، ثم ترك القارى بعد ذلك يتفرج عليها من بعيد ومن قريب ، ويتأمل ظاهرها وباطنها ، ويقول فيها رأيه ، مع الكاتب أو عليه ، أو معه فى شىء وعليه فى شىء آخر ..

وأول كلمة يقولها على أمين لقارئه فى أول فكرة : «إن الشعب الذى لا يستخدم حقه الانتخابى يفقد فرصته فى أن يقول للحكام : لا .. ويفقد انسانيته وحريته ، لأن الانسان الحر وحده هو الذى يستطيع أن يقول :لا» ..

ويقول فى فكرة أخرى : «أتمنى أن أدير اسطوانة : «للصبر حدود» فى قاعة الامم المتحدة ! .. فقد ضاق صبرنا بعد أن سجلنا أرقاما عالمية فى الصبر لم يسجلها سيدنا أيوب .. لقد تآمر الأقوياء علينا ، وساعدوا اللصوص على احتلال وطننا وطردنا منه .. أصبحنا نعيش فى الخيام ؛ واللصوص يعيشون فى بيوتنا» ..

فى هذه المأساة لم يجد على أمين دعاء يصلح الحال ، ولا أزرارا تقلب الهزيمة نصراً .. ولم يجد إلا صوت أم كلثوم ، يحلم بأن تسمعه الامم المتحدة فى أغنية «للصبر حدود» !..

كامل الشناوى يتدحرج بخياله

كان القراء يتوقعون من كامل الشناوى كتابا عنوانه «لقاء معهن».. وأغلب القراء تسرعوا فى قراءة عنوان الكتاب.. انقلبت الميم فى عيونهم إلى «ن».. ثم فوجئوا فى أول الكتاب بأول لقاء لكامل الشناوى مع جمال الدين الأفغانى (١).

عندها فقط استيقظوا من حلمهم الجميل.. أدركوا أن كامل الشناوى يكتب فى هذه المرة عن الرجال، لا عن الفاتنات وغير الفاتنات اللاتى ملأ بهن الدنيا وشغل الناس.

يكتب فى هذه المرة عن ثوار ورواد ومفكرين وشعراء ورجال كانوا يطلقون لحاهم، ويضعون على رءوسهم عمائم الورع والتقوى.

رجال لا يمكن أن يعلق بهم أبدا حرف النون الذى برق فى عيون القراء وهم يطالعون بسرعة ولهفة عنوان الكتاب!

إن كامل الشناوى فى نظر القراء هو الكاتب الذى يستخدم نون النسوة أكثر مما يستخدمها أى كاتب آخر فى القاهرة.. فإن ثلاثة أرباع كتاباته نواح عليهن أو غزل فيهن، أو تنديد بهن، أو توسل اليهن..

---

(١) أول كتاب جمع فيه كامل الشناوي بعض مقالاته وصدر سنة ١٩٦٢ قبل وفاته بسنتين، عنوانه «لقاء معهم» .. وكلمتنا هذه نشرت وقت صدوره .

وهو يخرج من حب، ليدخل فى حب. ويقوم من عثرة ، ليقع فى حفرة.. ويداوي جراحه من معركة ، ليلقي بنفسه فى حرب طاحنة.

إنه الرجل الذى ينطبق عليه قول المتنبى:

لم يترك الدهر من قلبى ولا كبدى

شيئا تتيمه عين ولا جيد

نعم .. لم يبق فى قلبه ولا كبده شيء لم يحرقه الحب أو حقد الحب أو الجرى وراء الحب.

لم يبق فى قلبه ولا كبده مكان خال.. كل الأمكنة مشغولة، أو مغلقة لأن أصحابها رحلوا ومعهم مفاتيحها.

ان قلبه وكبده يشبهان القاهرة والاسكندرية فى أزمة المساكن.. لا توجد فيهما شقة واحدة خالية..

ليس معنى هذا أن كامل الشناوى فاتك من طراز كازانوفا مثلا. فالحقيقة أنه بعيد تماما عن هذا الاتجاه، وإنما هو إنسان شاعر عميق الشعور بجمال الدنيا، وبخاصة جمال المرأة.

ومن هنا تكاثرن على قلبه، وتكاثرت عواطف قلبه عليهن.. واختلط الأمر ، حتى كأن معركة دائمة تدور بينه وبينهن.

وهو فى هذه المعركة الدائمة، دائم الهزيمة . مجروح فى كل لقاء،

يمارس عشق الجمال بطريقة فذة تكاد تشبه طريقة دون كيشوت فى حرب طواحين الهواء.

وحكايات حبه الدائم مباحة للأسماع والأنظار، فوق الورق الذى يملؤه بكتاباته وأشعاره، وفوق ألسنة الأصدقاء والصديقات التى تمتلىء دائما بالحديث اليه، وتفرغ دائما بالحديث عنه !

وهذا هو السبب في أن قراء كامل الشناوى، لا ينتظرون منه أن يحدثهم عن جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده ومحمود سامي البارودى وأحمد شوقى وإسماعيل صبرى والدكتور مشرفة ولطفى السيد وأمثالهم.

إن قراءه ينتظرون منه أبدع ما فيه وأصدق ما فيه وأغرب ما فيه وأسوأ ما فيه.. ينتظرون منه اعترافات قلبه.

وكامل الشناوى الذكى المدرب الذى عاش فى أعماق الدنيا يوهم القراء دائما أنه يقدم اليهم اعترافات قلبه.. ولكنه لا يقدم إليهم شيئا.

فما من قارىء عرف اسم بطلة من بطلات كامل الشناوى من خلال سطوره التى يكتبها.. ولكن عشرات ممن لا يعرفون كامل الشناوى معرفة شخصية ، لا تفوتهم طائفة من أخص أسرار قلبه التى لم يكتبها على الورق.. لأن هذه الأسرار أصبحت مؤممة تقريبا بفضل ذلاقة الألسنة التى تتحدث عن كامل الشناوى.

وهو لا يتأذى من ذلك ، فإنه صديق ملايين من الناس لا يعرفهم ، ولكنهم يعرفونه، ويعطفون عليه كأنه ابنهم، أو كأنه والدهم، أو كأنه أخوهم.

فقد بلغ كامل الشناوى هذه المنزلة التى تصبح فيها شخصية الرجل اللامع معنى مجردا من الكيان المادى.. كأنه مجرد رمز أو ضوء معلق فى الفضاء..

فإذا قيل : كامل الشناوي .. لم يتبادر الي الأذهان رسم رجل فى الخمسين من عمره .. يحمل آثار بدانة أذاب أكثرها إعياء البدن والروح.. وانما يقفز إلى الخاطر معنى مجرد ، خال من صورته المادية .. كأنما كامل الشناوى اسم اسطورى قديم ، لم يبق فى أذهان الناس الا رمزه ومعناه .

لهذا صدم أكثر قرائه حين اكتشفوا ان عنوان كتابه «لقاء معهم» لا «معهن».. فإن نون النسوة هنا ليست مجرد وضع لغوى وانما هى أداة فعالة من أدوات الرمز الأسطورى الذى لم يترك الدهر من قلبه ولا كبده شيئا لوافدة جديدة تخلص إليه من الزحام الشديد!!

ومع ذلك فإن كتاب «لقاء معهم» تكتمل به الصورة الأسطورية لكامل الشناوى.

فهؤلاء الذين كان له مع كل منهم لقاء لم يبق منهم أحد فى دنيانا .. فرغوا جميعا من أمرها ورحلوا إلى آخرتهم.

ولكن كامل الشناوي... التقى بكثيرين منهم بعد رحيلهم ، وهو الذى لم يلتق بهم فى حياتهم!

لقد حملته قوة فى قلمه وبيانه تشبه القوة الروحية ، إلى هؤلاء الخالدين، فحدثهم وحدثوه من وراء الغيب، فكأنه استنزلهم أحياء إلى أرضنا يمشون بيننا ويتكلمون.

وبهذه القوة الروحية استطاع ان يلتقى بشخصيات من تاريخنا، كجمال الدين الأفغانى والكواكبى وقاسم أمين وسيد درويش.

وكان لقاؤه بهذه الشخصيات - كما يقول - من خلال آرائها وأفكارها وكتبها وتاريخ حياتها.. ولكن أقوى وسيلة من وسائل اللقاء كانت قوة الروح والشعور.. فهى القوة التى استحضر بها كامل الشناوى هذه الشخصيات الى صفحات كتابه ، قبل أن يستحضرها من خلال آرائها وكتبها وتاريخ حياتها.

حسبك شاهدا على ذلك، لقاؤه مع جمال الدين الأفغانى الذى رحل عن الدنيا قبل أن يولد كامل الشناوى.

كيف التقى به؟

«لا أدرى - هكذا يقول كامل الشناوى - كل ما أدريه أنى تدحرجت وتمرغت بخيالى ومعلوماتى خلال حلقة الزمن ، وانتقلت من مكانى فى

عام ١٩٦١ إلى مجلس العالم الثائر المفكر : جمال الدين الأفغانى فى عام ١٨٧٩».

إن كامل الشناوى يتدحرج بخياله ليلتقى بجمال الدين الأفغانى .

تأمل معى هذا التعبير - يتدحرج بخياله - فإن الخيال الذى يتدحرج عنصر أصيل من الفنان الكاتب الشاعر كامل الشناوى !

يتدحرج بخياله مندفعا إلى هدف من أهداف قلبه، او أهداف عقله.. لا يبالى عاقبة أمره، فإن الذى يتدحرج لا يستطيع أن يتوقف الا مرتطما او مصطدما او ممزقا او مفيقا فى حضن حورية من حوريات الجنة !

ولقد عاش كامل الشناوى.. طوال حياته يتدحرج بخياله.. ويجفل من الواقع ويبكى منه ويتعذب فى ناره.. فيلجأ إلى خياله يتدحرج معه إلى حيث تشاء الأقدار.

وليس كتابه إلا نوعا من التدحرج مع الخيال .. والإجفال من الواقع..

لقد أتعبه اللقاء الطويل مع بطلات قلبه ، فتدحرج عنهن بخياله إلى لقاء مع أبطال التاريخ ..

العاشق الأصم

الناس لا يعرفونه الآن .. حتى فى طنطا ، المدينة التى عاش فيها ومات ..

مررت بطنطا.. خيل إلى أن أهلها يعرفون مصطفى صادق الرافعى كما يعرفون السيد البدوى، ولكن جميع الذين سألتهم عنه هزوا رءوسهم، وسخر منى بعضهم، فقد سألتهم عن رجل مات فى مدينتهم سنة ١٩٣٧.

سألتهم عن الشارع الذى يحمل اسم الرافعى فى طنطا فلم يعرفوه، ثم علمت أن بلدية طنطا أزالت اسمه من الشارع.

شيء واحد بقي يحمل اسمه : مدرسة مصطفى صادق الرافعى الثانوية..

وقفت على بابها وسألت أحد تلاميذها عن الرافعي، فأجابني ببراءة تامة، انه لا يعرف عنه شيئا الا اسمه.

كان الرافعي سوري الأصل ، مصرى المولد والديار ، عربى النزعة ، يرى وطنه فى كل أرض عربية .. فكان بذلك من الرعيل الأول لدعاة القومية العربية.

وكان صاحب أسلوب فى الكتابة لا يشبهه أى أسلوب آخر منذ عهد عبدالحميد الكاتب الى عهدنا الحاضر..

وانتاجه الأدبى مازال مظلوما ومفترى عليه من جيلنا ، ولو أنصفناه لانفتح لنا منه صندوق سحرى ، كصناديق ألف ليلة وليلة ، مترع باللآلىء والجواهر والذهب..

وقد مات الرافعى فى قمة عطائه ، ولم يقدره المجتمع الذى عاش فيه ، ولم يفهمه .. وورثنا نحن هذا الموقف القديم .. فمازلنا لا نفهم الرافعى .. ومازلنا لا نقدره !!

كان الرافعى – حتى يوم وفاته – كاتبا بمحكمة طنطا الكلية، فى الدرجة السادسة.

لم يكن يتقيد بمواعيد الوظيفة المفروضة على الموظفين، فقدم ضده أحد رؤساء هذه المحكمة شكوى إلى وزارة العدل مطالبا بفصله.. وكان الدافع لهذه الشكوى أن الرافعى لم يكن موجودا على مكتبه ولم يشترك فى السلام والترحيب بهذا الرئيس الجديد .. وانتدبت الوزارة يومها الشاعر حفنى ناصف – وكان موظفا كبيرا بها – ليحقق فى هذه الشكوى ؛ فكتب حفنى ناصف إلى وزارة العدل يقول :

«إن الرافعى ليس من طبقة الموظفين الذين تعنيهم الوزارة بهذه القيود.. ان له حقا على الأمة أن يعيش فى أمن ودعة وحرية.. دعوه

يعش كما يشتهي أن يعيش واتركوه يبدع لهذه الأمة في آدابها مايشاء أن يبدع، والا فاكفلوا له العيش الرضى فى غير هذا المكان» (١).

وكان الرافعى رومانسي المزاج، كلاسيكى التعبير، ولكن كلاسيكية تعبيره كانت تتمثل فى تمسكه باللفظ العربى الصحيح فقط ، أما جملته النثرية فكانت تشبه الجملة المترجمة أحيانا لفرط تحررها وامتلائها بالاحساس.

والحقيقة أن الرافعى المتزمت في الدين واللغة كان متحررا فى الذوق الأدبى والفنى.

كان يضع على مكتبه فى بيته صورة الشيخ محمد عبده وصورة الآنسة كريمان خالص، ملكة الجمال التركية التى زارت مصر عام ١٩٣٢ ورآها الرافعى فى حفلة تكريم أقيمت لها فى جريدة «السياسة» وقال عنها: « انى برغم نقمتي على سفور المرأة المسلمة، راض عن سفور هذه الفتاة لأنها أشبه بتسبيحة الهية فى شكل انساني» !

وكان الرافعى أصم ، لا يسمع شيئا ، فانعزل عن الناس ، وعاش مع خياله كمن لا تجارب له في دنيا المرأة. ولكنه كان متصوفا، استطاع اعلاء نوازعه الى سماء من الفن والشاعرية لا نظير لها فى السماوات التى رفعها الشعراء والفنانون العرب.

---

(١) هكذا روى الحكاية محمد سعيد العريان فى كتابه «حياة الرافعى».

وقـادته صـوفـيتـه ورومـانسـيتـه وقلـة تجربتـه الى الحب العـذري في تجارب حب كثيرة.

وكانت «مي» هي آخر حب كبير في حياة هذا المتصوف الرومانسي القليل التجربة في دنيا المرأة، على كثرة من تعلق بهن يوما أو يومين، أو ساعة أو أقل.

وعندما أحبها، كان أشهر الأدباء والشعراء في مصر يحبونها، ولكن الرافعي كان الوحيد الذي سجل حبه في كتب بأكملها .

وعندما وجد الرافعي قلبه متعلقا بـ «مي»، ووجد نفسه عاجزا عن الخلاص من حبها، قال لنفسه: «ما أنا وهذا الحدث الذي يعترض طريقي ويغلبني على ارادتي؟.. ان في بيتي زوجة أحبها وتحبني، وإن لها حقا علي ليس منه أن يكون مني لغيرها نظرة أو ابتسامة، إلا أن تأذن لي .. ماذا يكون من أمري وأمرها غدا أمام الله حين يطلب كل ذي حق حقه؟»..

ولم يهدأ الا حين صارح زوجته بحبه لـ «مي» واستأذن منها في هذا الأمر ، وأصبح لا يكتب الى «مي» رسالة إلا قرأها لزوجته قبل أن يلقيها في البريد !

ويقول مؤرخ حياته المرحوم محمد سعيد العريان وهو يصف هذا التناقض الذي عاش فيه: «هذا الذي يكتب عن اعجاز القرآن وأسرار

البلاغة النبوية ، ويصف عصر النبوة ومجالس الأئمة فتحسبه رجلا من التاريخ قد طوى الزمان ليعيش فى عصرنا .. هذا الرجل كان عاشقا غلبه الحب على نفسه ، وما غلبه على دينه وخلقه» !

ويصف سعيد العريان بداية حب الرافعي لـ«مي».. «فى أوائل عام ١٩٢٣ قصد الرافعي إلى ندوة الآنسة «مي» ، فى مجلس الثلاثاء المعتاد، حيث تستقبل الأدباء.. رآها فوقعت من نفسه موقعا فى أول لقاء.. وكانت هى فى منتصف العقد الثالث من عمرها.. مهيبة رزينة بديعة التكوين».

وكان الرافعي يسافر من طنطا الى القاهرة كل ثلاثاء، فإن لم يستطع كتب اليها من طنطا، وكتبت هي اليه ردا قصيرا أو طويلا ..

«كان يحبها حبا عنيفا جارفا، ولكن حبه ليس من حب الناس. انه حب فوق الشهوات والغايات .. لقد كان يلتمس مثل هذا الحب من زمان ليجد فيه ينبوع الشعر وصفاء الروح» !

وخيلت إليه سذاجته أن «مي» تحبه كما يحبها تماما، وانها يجب أن تترك الناس جميعا وتفرغ له، وتغلق ندوة الثلاثاء، أو تجعلها له وحده!!

«وراح الرافعي يوما الى ميعاده وكان في مجلسها شاعر جلست اليه تحدثه ويحدثها. ودخل الرافعي فوقفت له حتى جلس ثم عادت الى شاعرها لتتم حديثا بدأته ، وجلس الرافعي مستريبا ينظر – وهو لا

يسمع طبعا – وأبطأت به الوحدة . ونظر الى نفسه والى صاحبه .. وقالت له نفسه : ما أنت هنا ، وهى لا توليك من عنايتها بعض ما تولى الضيف ؟ فاحمر وجهه ، وغلى دمه، ورمى اليها نظرة أو نظرتين، ثم وقف واتخذ طريقه الى الباب.. واستمهلته فما تريث، وكتب اليها كتاب القطيعة. وعاد البريد اليه برسالتها تعتذر وتعتب وتجدد الحب فى اسطر ثلاثة، ولكن الرافعى حين وجد كبرياءه نسى حبه، وكان هو الفراق» .

هكذا وصف محمد سعيد العريان آخر لقاء بين الرافعى و«مى» .. لقد قطع الرافعي علاقته بها لمجرد اهتمامها بضيف، وثار عليها كما يثور العاشق المراهق على محبوبته الصغيرة !

وخرج الرافعى من هذه التجربة بكتابه «رسائل الأحزان».

وقد وصف هذه الرسائل الحزينة بقوله: «هى رسائل الأحزان لا لأنها من الحزن جاءت ، ولكن لأنها إلى الحزن انتهت .. ثم لأن هذا التاريخ الغزلى كان ينبع كالحياة .. وكان كالحياة ماضيا الى القبر»!

وفى رسائل الاحزان قال عن «مى» : «عطر قلبها ينفذ الى قلبك من الهواء ، فإذا تنفست امامها فقد عشقتها».

ويقول سعيد العريان: «فلما استفرغ ما كان فى نفسه عن خواطر الحب المتكبر، ونفس عن غيظه بما ذكر من معانى البغض والهجر والقطيعة ليخدع بذلك نفسه عما تجد من آلام الفراق ويثأر لكبريائه ؛

هدأت ثائرته وفاءت اليه نفسه فاستراح الى اليأس، وفرغت أيامه من الحادثة لتمتلىء من بعد بالشعر والحكمة والبيان»..

وبعد سنوات من الفراق، أخرج الرافعى «أوراق الورد» وهو كما يقول العريان: «طائفة من الخواطر المنثورة فى فلسفة الحب والجمال ، أنشأه الرافعي ليصف حالة من حالاته، ويثبت تاريخا من تاريخه فى فترة من العمر لم يكن يرى لنفسه من قبلها تاريخا ولا من بعد».

والعريان مقتنع بأن أوراق الورد تحوى رسائل الرافعى الى «مى» فعلا.. أما الرسائل التى كان الرافعى يقول انه تلقاها من مى وضمنها أوراق الورد ، فلا يكاد القارىء يتبين موضعها بين رسائل الرافعى، ويؤكد العريان نفسه أنه لايدرى أين موضع رسائل مى من أوراق الورد «الا رسالة واحدة وجزازات من كتب ونتف من حديثها وحديثه».

وقد كان زكى مبارك يكتب رسائل «مجنون سعاد» ويرسلها الى مجلة «الصباح» لا الى سعاد نفسها، فتقرؤها سعاد منشورة فى المجلة، وكذلك كان الرافعى، فإن رسائله فى «أوراق الورد» لم يبعث بها الى «مى» وانما كتبها اليها ليقرأها هو نيابة عنها وبالأصالة عن نفسه بطبيعة الحال .. «إلا رسالتين أو ثلاثا مما فى أوراق الورد» أرسلها الى «مى» فى البريد ، ولم يتلق عنها ردا.

قد يدعو الى بعض الابتسام أن الرافعى لم يسجل فى «أوراد

الورد» رسائله إلى حبيبة واحدة هى «مى» .. بل أضاف إلى هذه الرسائل بعض ما كانت احدى حبائبه الاخريات قد أوحته اليه من معانى الحب والجمال .. وهى الحبيبة التي أدار حولها حديثه البليغ فى كتابه «حديث القمر» .. وهو كتاب عسر لم يفهمه عامة قرائه ..

وكما يقول سعيد العريان : «هما اثنتان لا واحدة ، تلك يستمد من لينها وسماحتها وذكرياتها السعيدة معاني الحب التى تملأ النفس بأفراح الحياة ، وهذه يستوحيها معاني الكبرياء والصد والقطيعة وذكريات الحب الذى أشرق في خواطره بالشعر وأفعم قلبه بالأمل» .

أما «تلك» التى يعنيها العريان فهى صاحبة «حديث القمر» التى عرفها الرافعي «في ربوة من لبنان» ..كما يقول العريان .

وأما «هذه» فهى الانسة مى بعينها .. جارحة كبريائه وقلبه ، وصاحبة ذكرياته الأليمة ! ..

وببصيرة الناقد الذكي الدقيق نفذ العريان إلى حقيقة كتاب أوراق الورد .. قال : «هو كتاب يصور نفسه وخواطره في الحب ، ثم يصور فنه وبيانه في لغة الحب ، ثم لا يصور شيئا من بعد مما كان بينه وبين صاحبته على وجهه وحقيقته ، إلا أن يتدبر قارئه ويستأني ليستخلص معنى من معنى ، على صبر ومعاناة فى البحث والاستقراء» ..

وهو «كتاب ليس كله من نبضات قلبه الذى كان يعشقها – أي

يعشق مي – ولكن فيه إلى جانب ذلك فكر المفكر وعقل الاديب وحيلة الفنان» .... والكتاب باختصار : «كان حبا فى الدم فصار حديثا فى الفكر ، ثم استتبع شىء شيئاً» .. على حد تعبير العريان وهو تعبير صحيح بليغ بلا جدال ، فى هذا المجال ..

ويكاد العريان ، وهو مؤرخ حياة الرافعى ، وكاتب وحيه ، وصفيه وتلميذه ، يلذع الكتاب بنقد يصدم عاطفة الرافعى ، وذلك حيث يقول العريان في لباقة لا تخفي ما وراءها : «وما قرأت من قول مزوق ، وبيان منمق ، ومعنى يلد معنى ، وفكرة تستجر فكرة ، وعبارة تتوكأ على عبارة، فهو من أداء الفن وولادة الفكر» ..

والعريان هنا يستعمل كلمة «ولادة» وقد استعملها طه حسين فى نقد الرافعى حين نشر «رسائل الاحزان» فرد عليه الرافعى ساخرا يقول : «لقد كتبت رسائل الأحزان فى ستة وعشرين يوما ، فاكتب أنت مثلها فى ستة وعشرين شهرا» ..

ولم يكتف الرافعى بتحديه هذا لطه حسين .. فمضى يتحداه قائلا :

«ها أنا أتحداك أن تأتى بمثلها أو بفصل من مثلها ، وإن لم يكن الامر عندك فى هذا الاسلوب الشاق عليك إلا ولادة وآلاما من آلام الوضع كما تقول ، فعلي نفقات القابلة والطبيبة متى ولدت بسلامة الله» ..

كان الرافعى على جده وتزمته وضخامة بيانه ، ساخرا من أبرع الساخرين وأحلامهم فكاهة ، وله فى ذلك ما لم يكن للجاحظ فى زمانه ! .. ولا للمازنى فى زماننا، ولكن الناس فى أيامنا هذه يجهلون الرافعى .

فانظر كيف غضب الرافعى من لفظة «الولادة» فى كلام طه حسين ، ثم جاء العريان تلميذ الرافعى المحب له كل الحب ، فذكر اللفظة ذاتها ، كأنه لم يقرأ ما كتب طه حسين وما كتب الرافعى عنها ، وما ثار حولها من غبار ! ..

ومما كتبه العريان عن أوراق الورد ، كلام يدخل فى باب السخرية غير المقصودة بسذاجة الرافعى ، فإنه لما نجح كتاب «أوراق الورد» وتداوله القراء ، وعاد بالربح على صاحبه فرح الرافعى وتعزى بنجاح الكتاب عن الفشل فى الحب ، مع أن هذا الكتاب الناجح هو كتاب ذلك الحب الفاشل !

يقول العريان تخفيفا للسخرية من أستاذه : «لقد فارقها ولكنه احتواها فى كتاب» !

أما الرافعى فيقول عن أوراق ورده هذه : «لعمرى ، لئن كتب فى الحب والجمال بقلم ، لقد كتب صاحب هذه الرسائل بقلب» .

أما سبب تسمية الكتاب بالورد ، فإنه كما زعم الرافعى ، وأظنه خيالا جميلا منه لا أكثر : «دنت الشاعرة الجميلة فناطت وردتها إلى

عروة صاحبها ، فقال لها : وضعتها رقيقة نادية فى صدرى ، ولكن على معان فى القلب كأشواكها .. فاستضحكت وقالت : فإذا كتبت يوما معاني الأشواك فسمها : أوراق الورد .. وكذلك سماها » ! ..

ويخاطب صاحبته : «ان حقيقة الجمال الذى يغمر العالم أراها كأنها بجملتها مستقرة في الموضع الضيق الذى بينك وبين قلبى ، تملأ مع هذا الكون عالما آخر من شعورى بك» .

وأهدت إليه صورتها مرة – والعهدة فى هذا الخبر عليه – فكتب اليها : «هل فى الحسن أحسن من هذا الوجه الذى يرف على القلب بأندائه ويتلألأ بنضرته ، حتى لكأنه خلق من نور الفجر ، وكأن علامة الفجر فيه انما هى هذا الروح الذى يحيط القلب من وجهك بمعان كنسمات الصبح، عليلة من شدة الرقة ذابلة من فرط الجمال ، مملوءة من روح الندى بما يجعلها حول النفس كأنها جو من شعور حى فرح لا نسمات فى الجو .. هذا الوجه الفاتن ما رأيته مرة إلا حسبتها أول مرة .. وجه الحبيب يطل جديدا على كل نظرة من محبه وإن طال ترداد النظر وتكراره .. وهذه الابتسامة الواقفة على ثغرك ترق فيها الروح مرة وتتكاثف مرة ، حتى كأنها وهى فى الرسم ، لون روحى ظهر يتموج على شفتيك ، فما أقلب فيه عينى الا شعرت أن روحى تذوب فيه كما يتمازج لونان فى السماء على الشفق الأحمر» ..

وما أظن الا أن الرافعي - رحمه الله - قد رأى صورة مي التى كثيرا ما كانت تنشرها الصحف ، وإنها لقريبة من هذا الوصف الذى يصفها به ، فلم تهد إليه صورتها ولا وضعتها في يديه ، ولكنه يصف صورة رآها في جريدة ..

وقد بنى على هذه الصورة الباهتة هذا المعمار الباذخ من التعبير الجميل ، الذى يتراوح بين صدق العاطفة ، ووطأة اللغة والبيان كأنه يبنى من خفقات قلبه أهراما !

ان للرافعي رسالة اسمها «البلاغة تتنهد» وما أظن عنوانا أشبه بكتابه هذا من عنوان رسالته هذه ، فإن بلاغة الرافعى الضخمة المدوية تتنهد أحيانا فى هذا الكتاب ، وتفور أحيانا كالنار فلا يجسر أحد أن يقربها ، ولا يجرؤ أن يطالعها ! ..

وحين يبلغ الحب بالرافعي غايته يقول : «وقفت يوما على شاطيء البحر ، فخيل إلى أنه عين تبكى بها الكرة الارضية بكاء على قدرها ، وتأملت الجبال فحسبتها هموما ثقيلة مطبقة على صدر الأرض ، وفكرت في البراكين فقلت : لوعة أحزانها تثور وتهمد .. ثم رجعت بهذا النظر فى الانسان فإذا له على قدره بحر وجبال وبراكين .. عند الطبيعة لا ألم ولكنه نظام .. وعند الانسان : لا نظام ولكنه ألم» .

كذلك كان الرافعى فى الحب ، وما نقلنا إليك إلا قطرة من معانى حبه الذى تلاطم بشاطىء حياته كما تتلاطم الامواج بالصخور .

لقد كان الرافعى يابسا لا ينعصر ، ولكنه انعصر فى الحب ، فأخرج ذلك الرحيق ! .. فشكرا للآنسة مى ! ..

وكان الرافعى يعتقد دائما أن «مى» قد أحبته ، مع أنه كان واحدا من رواد مجلسها الكثيرين أمثال : ولي الدين يكن ، وانطون الجميل ، واسماعيل صبرى ، وخليل مطران ، وشبلي شميل ، وسلامة موسى ، ومنصور فهمى ، وعباس محمود العقاد .. فضلا عن جبران خليل جبران الذى كانت معجبة به ، مع أنها لم تره طيلة حياتها ..

ومات الرافعى ، ولم تعش «مى» بعد موته إلا أربع سنوات تقريبا بعد أن شيبتها مؤامرت أقاربها لاقتناض ثروتها ، حتى أدخلوها مستشفى المجاذيب فى لبنان ، ولم تخرج منه إلا بعد جهد كبير بذله بعض أصدقائها ...

وفى آخر أيامها ، رآها سلامة موسى فقال : «رأيت شخصا لا أعرفه .. رأيت سيدة بيضاء الشعر ، كأنها فى السبعين» ! ..

وانتهت المرأة الذكية الاديبة الفنانة التى فتنت عباقرة جيلها .

انتهت زينة المحافل التى قالوا عنها : «كانت تختصر للجليس سعادة العمر فى لفتة أو لمحة أو ابتسامة» !

وبعد موتها انطلق الرواة يقولون : كانت تحب فلانا أو فلانا ..

ولا أحد يعرف الحقيقة .. ولن يعرفها أحد فقد أخذت «مى» معها قلبها إلى القبر .. ولم تترك وراءها إلا مزاعم الرواة !

ولم تترك مى وراءها أبلغ ولا أمتع مما كتبه عنها العاشق الأصم الساذج الذى كانت بلاغته تتنهد فى حب مى !

المهذار الجبار

أحمد رجب هو فى هذا الزمن الأخير ، أشهر مهذار جاد ، أو جاد مهذار .. لأن كتابته يمكن أن تؤخذ على أنها هذر فى هذر ، كما يمكن أن تؤخذ على أنها جد في جد .. وفى الحالتين تجد فيها حلاوة الفكاهة ومرارة الجد ..

فى كتابته اليومية يسجل بلا تعمد تاريخا موجزا لعصره يشبه من بعض وجوهه ما سجله الجبرتى فى تاريخه .. الصدق والتلقائية والتجرد من الهوى ، والرغبة فى اصلاح الحال ، والغيرة على مصالح الناس ، والسخط على العبث والفساد وخراب الذمة .

وكان أحمد رجب قبل أن يندمج منذ سنوات فى كتابة يومياته القصيرة ، يكتب مقالات طويلة ، بعضها تحقيقات صحفية ، وبعضها كتابات متنوعة الأهداف .. وبعضها فى الأدب والفن ، ولكنه فى كل ما كتب كان هو نفسه المهذار الجاد الذي يتفكه حين يجد ، ويجد حين يتفكه ، ويشعر بالمرارة فى الحالتين ..

ذات يوم - منذ سنوات - كتب مسرحية قصيرة وادعى أنها من تأليف الكاتب دورنمات ، وطلب إلى النقاد رأيهم فيها .. وانهال النقاد

كلاما عن مسرحية دورنمات المدعاة ، فارتفعوا بها إلى السماء ، حتى رأوا أحمد رجب يمد لهم لسانه مصرحا لهم بالحقيقة ، ساخرا منهم ومن مسرحيته هذه التى وصفها بأنها مجرد كلام فارغ انخدع به النقاد لمجرد نسبته إلى كاتب أوربى مشهور ..

وأحمد رجب هو صاحب أشهر المسلسلات الاذاعية الفكاهية الزاعقة ذات العبارات التى تجرى مجرى الأمثال الشعبية السائرة ، ومن المدهش أن هذه العبارات غير مفهومة ، وقد سألته مرة عن معنى إحداها ففكر قليلا ثم اعترف بأنه مضطر إلى البحث عن معناها في قواميس اللغة العامية !..

وقد اتخذ أحمد رجب الان فى الصحافة والكتابة وضعه النهائى ، أو شبه النهائى .. فهو الان كاتب فكاهى ، بل كاتب «هجاس» أحيانا ، ولا أعتقد أنه يريد العودة مرة أخرى إلى الكتابة باللغة العربية الفصحى في تلك الموضوعات المتقعرة التى كان يكتب فيها قبل زمن طويل .

ومع ذلك فأحمد رجب من أرشق الكتاب باللغة العربية ، وقد قرأت له تحقيقات صحفية ومقالات ، نشر بعضها وبعضها لم ينشر ، وكلها باللغة الفصيحة ، ومن أجمل الكتابات حقا ، ولا يكتبها إلا قلم ذو موهبة صحيحة في الكتابة !..

إلا أن أحمد رجب – كما قلنا – هو الآن ، وبعد الآن كاتب الفكاهة

الأكثر نشاطا والأعلى صوتا فى مصر .. ومجاله أوسع من مجالات غيره من الكتاب الفكاهيين ، وطريقته فى الفكاهة متفردة بأسلوبها وأن كانت تقلد نفسها أحيانا ..

وكتابه الذى نتحدث عنه هنا واسمه «توته .. توته» يمثل هذا الاسلوب الفكاهى أحسن تمثيل .. يجعل اللهجة العامية فى خدمة اللغة الفصيحة ، ويجعل اللغة الفصيحة في خدمة اللهجة العامية ، ويجعلهما معا فى خدمة هدفه الفكاهى النقدى اللاذع .

ويدعي أحمد رجب أنه خصص كتاب «توته .. توته» للدفاع عن المرأة .. يقول «إننى ضد كل أعداء المرأة .. ضد أى واحد يقول ان المرأة شر محتوم ، أو اغراء لا مفر منه ، أو مصيبة مرغوب فيها ، أو مرض مستحب !.. كل هذا تشنيع صنعه ضعف الرجل أمام المرأة ، لأن الضعفاء لا يملكون إلا الشتائم والتشنيعات» !..

ومعنى كلامه هذا أن «توته .. توته» هو مثل كتاب قاسم أمين مثلا عن تحرير المرأة .. دفاع عنها ودعوة إلى إنصافها وما إلى ذلك من دعوات أنصار المرأة !..

ولكن الحقيقة هى الحقيقة ، فإن أحمد رجب فى هذا الكتاب يسكب على نساء الدنيا كلها ، منذ أيام آدم وحواء إلى اليوم ، أكبر كمية من التشنيع ، مصورا المرأة بأنها شر محتوم ، واغراء لا مفر منه ، ومصيبة

مرغوب فيها ، ومرض مستحب .. ويصور الرجل بأنه شهيد طغيانها واستبدادها ومكرها وذكائها وأحابيلها التى لا أول لها ولا آخر ..

صحيح أنه يصوغ تشنيعاته على المرأة فى أظرف تعبير ، ولكنه يدس لها فى كل تعبير ظريف جرعة لا بأس بها من السم ، متمنيا لها أحسن التمنيات مع كل جرعة تتناولها من يده وهو يبتسم لها منحنيا كالخادم المطيع !

والفكرة الفكاهية الاساسية التى تدور حولها مقالات أحمد رجب فى «توته .. توته» هى أن المرأة ليست هى المخلوقة الأحلى والأجمل والألطف والأظرف فقط ، وانما هى - بوجه خاص - المخلوق الأذكى والأقوى !..

وبذكائها أدارت الرجل فى اصبعها كالخاتم وجعلته لعبتها ، وهو يتصور أنها لعبته .. فالرجل أقوى عضلا من المرأة ، وهو يظن أن قوة عضلاته تكفل له السيادة ، ولكن العضلات لو كانت من نصيب المرأة لا الرجل .. «لخسرت المرأة أقصر الطرق لتحقيق غاياتها وهو : هبالة الرجل . فضعف الانوثة أقوى بمراحل من عضلات شمشون الجبار» .. وبهذا الضعف امتلكت المرأة الرجل القوى وجعلته «أهبل» على حد تعبير أحمد رجب !

ومن مزايا ضعف المرأة ، أنهامضطرة - بسببه - إلى استخدام

ذكائها و«مسألة التفوق الذكائى للمرأة على الرجل مفروغ منها ، مهما كابر الرجل فيها وسفسط» .. هكذا يقول أحمدرجب ، متمثلا بما يجرى فى كل يوم بين الاناث والذكور .

مثلا :

«يظل الشاب يسخر من الزواج حتى يجد نفسه فجأة مربوطا من رجليه بحبل ، والطرف الآخر من الحبل فى يد المرأة ، والمرأة تسحله ، تجره على وشه إلى عش الزوجية السعيد ، وهذا السحل يتم عادة بدون ألم ، وذلك بفضل حقنه البنج أو حقنة الحب التي تحقنه بها قبل سحله»! وذكاء المرأة جزء من غريزتها ، وبخاصة غريزتها فى التعامل مع الرجل ، وبهذا الذكاء تعرف دائما كيف تربطه بعجلتها فلا يفلت منها حتى لو اكتشف أنه قد ربط نفسه فيها فى ساعة غفلة أو ساعة «هبالة» .. فلا يعرف التاريخ «اسم امرأة واحدة مرت بمراية دون أن تتوقف أمامها لتحييها بنظرة أو بالتفاتة من بعيد لبعيد .. فالمراية عند المرأة هى عين الرجل ، أو هى بروفة نهائية لعين الرجل وما ستراه . وهى تتميز عن عين الرجل بأنها عين مؤدبة ومهذبة ولا تعرف قلة الحيا» ..

ولكن المرأة تطلب عين الرجل لا عين المرآة ، لأن عين الرجل مرآة ناطقة .

«تتكلم وتبدى الرأى فى الحسن والجمال ، وهو رأى مخلوط غالبا

بالأكاذيب التى تثير ابتسامة المرأة ، فما حيلة المرأة وقد كتب عليها أن تعاشر مخلوقا كذابا ، ليس لها طبعا إلا أن تروض نفسها على الابتسام لأكاذيبه ، فهو يكذب أيام الخطوبة من باب الفشر ، ويكذب بعد الزواج من باب الخوف .. والمرأة تبتسم لاكاذيبه لا من باب الغفلة ولكن لانها تعرف أن الكذب سلاح الضعفاء ، فهي القوية وهو الضعيف» ..

هكذا يحاول أحمد رجب في كل مقالات كتابه أن يدور ويلف حول فكرته الاساسية التى جعلها محور فكاهاته الجميلة البارعة ، وهى أن المرأة أذكى وأقوى من الرجل ، وان خيل إليه غرور عضلاته فى الساعات الجميلة انه هو الكل فى الكل ، وأن الكلمة كلمته ، وأنه يقول فتسمع المرأة ، ويأمر فتطيع ، ويحكي لها فتبقى مرهفة اذنيها لكلامه الفارغ ، حتى ينهي حكايته ويقول لها : توته .. توته ، وتقول هى له : فرغت الحدوته (١).

---

(١) كتبنا هذه المقالة فى أواخر الستينات ، ومازالت تنطبق على كتابات صديقنا الأستاذ أحمد رجب .

تاريخ لم يهمله التاريخ

هذه الشخصيات المثيرة اللامعة رآها بعينيه ، وذكرياته عنها مطبوعة في ذاكرته انطباع الحروف على أوراق جريدة أو مجلة عتيقة مهيبة المنظر ، أو عجيبة المنظر .. ولا غرابة ، فإنه صحفى طويل العهد بالصحافة ، اعتاد أن يتعامل مع « المطبوعات » بأنواعها وألوانها المختلفة ، مطبوعة على الورق ، ومحفورة في تلافيف الذاكرة ! ..

الكتاب عنوانه «شخصيات وذكريات في السياسة المصرية » .. مؤلفه شيخ من شيوخ الصحفيين المصريين هو المرحوم الاستاذ محمد نجيب الذى امتد عمله فى الصحافة أكثر من نصف قرن .

ومحمد نجيب دخل الصحافة في العشرينيات ، من بابها الأكثر اتساعا وسهولة في ذلك الحين ، وهو باب الأدب ، لأن لمحمد نجيب أسلوب أديب ، ولكن مهنة الصحافة أدركته سريعا فتحول من باب الادب الى باب الاخبار وما حوله من الشئون الصحفية الاخرى .. ثم انغمس فى العمل الصحفى الدءوب وراء «الكواليس » زمنا طويلا ، فلم يتح له أن يضع اسمه بين الاسماء ذات الرنين والوهج في الصفحات الأولى أو الصفحات الاخيرة ، في الوقت الذى كان يتعلم فيه على يديه ويتخرج أجيال من الصحفيين وحملة الأقلام ، قفزت أسماؤهم على

المسرح ، وبقى هو قائما برسالته الصامتة في ذلك المعترك السرى الصاخب وراء جدران الصحف ..!.

ليس معنى ذلك أن محمد نجيب جلس القرفصاء كالكاتب الفرعونى طوال حياته الصحفية ، فقد كان له فى المجال الاخبارى - خارج مكاتب الصحف - نشاط موفور مثمر ، التقى خلاله بالمشهورين وذوى الحظوة والأبهة من نجوم الادب والفن والسياسة في عشرات السنين..

وعرف أخبارا كثيرة وأسرارا ذات أهمية فى تاريخ الصحافة المصرية ، بل فى تاريخ بلادنا كلها فى المرحلة التاريخية الهائلة التى شهدت نتائج فشل الثورة العرابية ، وارهاصات ثورة ١٩١٩ ، ثم هذه الثورة نفسها ، وما تلاها من أحداث كبيرة حملت على أمواجها العاتية زعماء حقيقيين وزعماء زائفين ، وغرق فى لجتها رجال حقيقيون ، وسبح الى شاطىء السلامة أشباه رجال وأدعياء .. !

وعاصر محمد نجيب حقبة مديدة ظهر فيها حق مصر فى الاستقلال واضحا ، ولكنه - مع ذلك - كان حقا زاهقا .. وواصلت مصر البقاء ومازالت ولن تزال .

يقول الأستاذ نجيب في مقدمة كتابه : «تاريخنا القومى بعد نكسة الثورة العرابية ، حافل برجال وشبان لهم مواقف وطنية خالدة ، فقد أحبوا مصر حبا أسطوريا ، وضحوا فى سبيل إعلاء كلمتها ، وجادوا

بأنفسهم لتحقيق حريتها .. ولقد عاصرت بحكم عملي الصحفي وشهدت أحداثا اقترن بعضها ببعض هؤلاء الرجال والشبان .. ولما كانت هذه الاحداث تكشف عن أسرار وخفايا يجب أن يقف عليها أبناء هذا الجيل، فقد رأيت ان أسجلها في هذا الكتاب .. » ..

وهذا الكتاب « شخصيات وذكريات في السياسة المصرية » يبدأ بصاحب الدولة حسين رشدي باشا . ولعل مايعرفه عنه الكثيرون الان أنه كان يعقد مجلس وزرائه أحيانا في عوامة سلطانة الطرب « منيرة المهدية » في بدايات القرن العشرين ..

وقد كاد الرجل « يدخل التاريخ » بهذه الحكاية وحدها ، وأصبح اسمه يتردد في التمثيليات والمسرحيات التي تمس حياة منيرة المهدية من قريب أو بعيد . وزاد الطين بلة - كما يقال - أن رشدي باشا كان رئيس الوزارة حين أعلن البريطانيون الحماية على مصر سنة ١٩١٤ فعده المصريون مواليا للأعداء ..

ولكن محمد نجيب يحدثك عن رشدي باشا حديثا آخر : « .. تم تأليف الوفد المصري برياسة سعد زغلول ، وكان حسين رشدي - رئيس الوزارة - على علم تام بخطوات تأليفه ، وكان يشجع هذه الخطوات.. وفي الخفاء كان حسين رشدي يغذي الثورة ويؤازرها ويشعل وقودها » ..

« وفى مفاوضات عدلى – كيرزن ، اعترض اللورد كيرزن على مطلب الاستقلال وتهكم على المفاوضين المصريين وقال لهم فى وقاحة : إن مصر لا تملك قوة تدافع عنها – اذا استقلت – بحيث ان أصغر دولة فى حوض البحر الأبيض تستطيع غزوها والاستيلاء عليها فى سهولة! .. وغضب رشدى باشا ، ورد على كيرزن فى انفعال شديد : لقد كان لنا قبل أن تحتلوا بلادنا جيش قوى ، وإن هذا الجيش هو الذى ألقى بقواتكم فى البحر فى معركة رشيد ! .. وما كاد حسين رشدى يكمل رده حتى سقط مصابا بالشلل لفرط انفعاله » ! ..

هذه هى شخصية تاريخية من الشخصيات التى حواها كتاب محمد نجيب .. لقد حبس بعض الناس حسين رشدى طويلا فى عوامة منيرة المهدية ، ولكن الرجل الذى كان – فعلا – يهيم بمنيرة وصوتها ، لم تكن معركته الحقيقية فى عوامتها ، ولهذا لم يرقد عند قدمى منيرة رقدة النشوة وعلى الدنيا العفاء ، بل سقط مشلولا من القهر والمذلة فى حضرة اللورد البريطانى الذى تهكم بالعجرفة والتعالى على استقلال مصر ! ..

وبعد صدور تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ الذى اعتبرت مصر بمقتضاه دولة « مستقلة » ذات نظام ملكى ، بدىء فى كتابة « الدستور » الذى عرف فيما بعد بدستور ١٩٢٣ ولم يكن محققا الا للحد الادنى من

الحريات الشعبية ، ولكنه - مع ذلك - لم يعجب الانجليز بسبب نص فيه على لقب الملك فؤاد ، فأرسلوا أسطولهم الى الاسكندرية مهددا ، وأرسلوا الى فؤاد إنذارا بحذف السطر الذى لم يعجبهم فى الدستور ..

يقول محمد نجيب : « كان الوزراء أضعف من أن يواجهوا الموقف مع الانجليز من جهة ومع فؤاد من جهة أخرى ، فوافقوا على الانذار وبرروا موافقتهم بأن « فؤاد » قال لهم مستعطفا : ان كل واحد منكم سيذهب بعد استقالته الى عزبته يقيم فيها ، أما أنا فسيخلعنى الانجليز ولا أعرف الى اين سيذهبون بى على بارجتهم الراسية فى الاسكندرية .. ثم ارتمى على مقعده وتظاهر بالاغماء » ! .. وقابل الشعب موافقة الوزراء على الانذار البريطانى بمزيد من السخط .

وحاول توفيق نسيم رئيس الوزارة أن يبرر الموافقة ، فقال لأحد الصحفيين المعارضين فى ذلك العهد :لقد كنت مصمما على الاستقالة ، لكن حدث على أثر ارتماء الملك فؤاد على مقعدة ان تناول الوزراء وثيقة قبول الانذار ووقعوها واحدا واحدا .. وكنت أنا آخر الموقعين ! ..

يقول محمد نجيب : « .. من العجيب أن كل وزير من أعضاء الوزارة قال عن نفسه إنه كان آخر من وقع وثيقة قبول الانذار البريطانى » ! ..

وتوفيق نسيم باشا هو رئيس الوزارة الذى تم على يديه مسخ

دستور ١٩٢٣ ، ولكنه « استحق تقدير الوطن » .. وهذه من العجائب التاريخية التى يشير اليها محمد نجيب : بينما موجة سخط الشعب على موقف توفيق نسيم وتفريطه فى حقوق البلاد ودستورها تشتد ، اذا بسعد زغلول يبعث من منفاه في جبل طارق برقية يعلن فيها أن توفيق نسيم يستحق تقدير الوطن ..

«وقوبلت هذه البرقية بالوجوم والفتور ، ولكن تبين أنها كانت بمنزلة الخطوة الأولى فى سياسة التقارب بين الوفد والقصر وكان من آثار هذه السياسة الجديدة أن قابل سعد زغلول عقب عودته من منفاه مباشرة الملك فؤاد فى قصر رأس التين » .. « على أن هذه السياسة لم تستمر ، لأنها قامت على التناقض ، فسعد يطالب « فؤاد » باحترام الدستور ، وفؤاد يمقت الدستور ويعمل على حكم البلاد حكما أتوقراطيا » ...

ويمضى محمد نجيب فيحدثنا عن زوايا مجهولة من السياسة المصرية « العليا » فى العقود الماضية : مقتل سردار الجيش المصرى وحاكم السودان السير لى ستاك باشا « البريطانى » .. والانذار الذى قدمته بريطانيا واستغلال بريطانيا للحادث فى توسيع وتحقيق مطامعها ، واقتداء فؤاد بها فى استغلال الحادث لتحقيق أمنية عزيزة لديه وهى تعطيل الحياة النيابية ..

ويتحدث محمد نجيب عن « فدائى » من شبان الفورة الوطنية قبض

عشرة آلاف جنيه وصار عميلا .. وعن قضية الاغتيالات السياسية التى تفرعت من قضية مقتل السردار ، ولا تنقطع خلال أحاديثه سلسلة الأسماء التى كنا نراها عن كثب أو نسمع عنها فى صبانا وشبابنا الباكر : اسماعيل صدقى .. أحمد زيور .. حسن نشأت .. الدكتور هيكل .. حافظ رمضان .. أحمد ماهر .. النقراشى .. وغيرهم ممن لا يحصون لكثرتهم ..

وحول كل منهم سطر مجهول من التاريخ ونقطة ضوء أو نقطة حبر فى صفحته التى طوتها الايام ! ..

والكتاب شائق .. أسلوبه مصقول ممتع .. منهجه يذكرك بعنوان كان الصحفى الكبير حبيب جاماتى يكتبه دائما وهو : « تاريخ ما أهمله التاريخ » ..

فالصحفى الذى يرى الاحداث طازجة نابضة يعلم أن التاريخ يكتب ما يشاء أو يكتبه ذووه كما يشاءون ، ولكن ما أهمله التاريخ لا ينساه المؤرخون .. ولا تضيع الحقيقة ! ..

إعادة اكتشاف أحمد أمين

مرت ذكرى الأديب المؤرخ الفقيه الشيخ الدكتور أحمد أمين ، كما تمر كل عام ، في صمت ، وبلا تحية أو زهرة توضع على اسمه الذى كان في حياته مكللا بالأزهار [(١)]

لماذا لا نجد الآن أثرا لذكراه بين الذكريات المشهورة المحتفل بها دائما من عامة القراء وخاصتهم ، وقد كانت له يد طولى فى دنيا الأدب والفكر ؟!

الذين رأوا شهرة الشيخ الدكتور [(٢)] أحمد أمين فى حياته ، لم يخطر ببالهم أن مصيرها إلى انتهاء ، وأن الصمت المطبق سيعاجل اسم هذا الرجل اللامع المشهور فيحجب آثاره الأدبية والفكرية التى كان لها فى عهدها القريب دوى بعيد ..

الحقيقة أن الرجل لم يدخل دائرة النسيان وحده ، فقد سبقه وتلاه إليها جماعة من أعز أدباء عصره انتاجا وأبعدهم

---

(١) كتبت فى مايو سنة ١٩٧١ لمناسبة الذكرى السابعة عشرة لوفاته، ونشرت فى مجلة « الهلال ».. وقد استفاض الحديث بعد ذلك عن أحمد أمين ، وأصدر بعضهم كتبا عنه .. ولم يكن لذكراه أثر عندما كتبنا عنه كلمتنا هذه .

(٢) كان الشيخ أحمد أمين يحمل الدكتوراه الفخرية من جامعة القاهرة .

صيتا ، وكان الظن أن يمتد الأجل بأسمائهم طويلا بعد حياتهم الحافلة ..

ولكن .. ألا نلتقى أولا بأحمد أمين ونتعرف عليه وعلى عمله خلال ثمانية وستين عاما عاشها بين الأزهر والقضاء الشرعى والجامعة المصرية والمجمع اللغوى والجامعة العربية ووزارة المعارف والجامعة الشعبية والصحافة الأدبية ، كاتبا فقيها مؤرخا محبا للحكمة ، ناطقا باللغة العربية واللغة الانجليزية ؟!..

رسم أحمد أمين بقلمه صورة «رسمية» لحياته عندما طلب منه مجمع اللغة العربية أن يكتب كلمة عن حياته ، قال أحمد أمين متحدثا عن نفسه بصيغة «المجهول» التى اعتاد المجمعيون أن يكتبوا بها كلمات عن حياتهم تحفظ فى ملفات المجمع :

● ولد بالقاهرة فى أول اكتوبر سنة ١٨٨٦ ، وابتدأ دراسته بكتاتيب مختلفة ، ثم الأزهر ، ثم مدرسة القضاء الشرعى ، فنال العالمية سنة ١٩١١ وعين مدرسا بمدرسة القضاء الشرعى فى نفس السنة الى سنة ١٩١٣ فعين قاضيا فى محكمة أسيوط الشرعية ، ومنها انتدب لمحكمة الواحات الخارجة وبقى بها ثلاثة أشهر ، ثم عاد مدرسا بمدرسة القضاء إلى سنة ١٩٢١ .

● عمل قاضيا فى محاكم طنطا وقويسنا وطوخ والأزبكية إلى سنة

١٩٢٦ حيث عين مدرسا فى كلية الآداب ، فأستاذا إلى أن أحيل إلى المعاش فى أول اكتوبر سنة ١٩٤٦ ، وفى أول يناير سنة ١٩٤٧ عين مديرا للادارة الثقافية بالجامعة العربية .

● نال البكوية سنة ١٩٤٠ وفى نفس السنة عين عضوا بالمجمع اللغوى ، وفى سنة ١٩٤٨ نال الدكتوراه الفخرية وجائزة فؤاد الاول وفى أثناء أستاذيته بكلية الاداب اختير نحو عشر سنوات عضوا لمجلس جامعة فؤاد الاول ، وفى سنة ١٩٤٥ مديرا لادارة الثقافة بوزارة المعارف مع عمله فى الكلية .

● فى سنة ١٩١٤ أسس لجنة التأليف والترجمة والنشر ولبث رئيسا لها من يوم تأسيسها بلا انقطاع . وفى سنة ١٩٤٥ حينما كان مديرا للادارة الثقافية بوزارة المعارف فكر فى انشاء الجامعة الشعبية فأسست ، وكون لها مجلس ادارة كان رئيسه بعد ذلك التاريخ .

واختير سنة ١٩٣٩ عضوا للمجلس الاعلى لدار الكتب وفى سنة ١٩٤٥ عضوا للمجلس الاعلى للمعلمين . وابتدأ اتصاله بالصحافة سنة ١٩٣٤ فى الرسالة والثقافة – وكان مديرا لها – ثم مجلات داو الهلال ، وكذلك بدأ اتصالاته بالاذاعة المصرية واذاعات الشرق الادنى ولندن العربية ..

● فى سنة ١٩١٨ ترجم كتاب مبادىء الفلسفة . وفى سنة ١٩٢٢ ألف كتاب الاخلاق ، ثم فجر الاسلام وضحى الاسلام وظهر الاسلام ، وله قصة الفلسفة اليونانية وقصة الفلسفة الحديثة مع الدكتور زكى نجيب محمود ، واشترك فى كتب مدرسيه ، ثم اشترك فى نشر كتاب الامتاع والمؤانسة والعقد الفريد ، ثم ألف كتاب قصة الادب فى العالم مع زكى نجيب محمود ، ثم كتاب فيض الخاطر ثم كتاب زعماء الاصلاح فى العصر الحديث ، وحياتى ، وقاموس العادات والتقاليد وكتاب الشرق والغرب (١) .

هذه هى الصورة الوظيفية التى رسمها الشيخ أحمد أمين لنفسه بدقة وصدق وبلا تزويق . وتكتمل صورته الانسانية فى كتابه «حياتى» وفى شذرات أخرى من كتاباته ، منها قوله : «لم انتفع بزمن الصبا كما أود فلم يجد المرح والنشاط ولا اللهو ولا الحب لقلبى منفذا . ولم أكن محوطا بفرح وسرور فى المنزل . وانى أحس بميل إلى الحركة والنشاط على أثر درس اللغة الانجليزية على سيدة انجليزية عجوز كانت تصلح من نفسى كما تصلح من لسانى ، وقد تغير كثير من أخلاقى إلى خير ، ويرجع ذلك إلى عوامل أهمها تعلم الإنجليزية وما كان يدعو إليه من مخالطة إنجليزيتين إحداهما عجوز والاخرى فتاة متزوجة ، ومما أحس

(١) من كتاب «أحمد أمين بقلمه وقلم أصدقائه» . وقد اعتمدنا على هذا الكتاب فى مقالنا هذا وعلى بعض مؤلفات أحمد أمين ..

به أنني الان أكبر حرية في الفكر ، لا أتحرج من انتقاد بعض المسائل الفقهية وما يتبعها » ..

كتب هذه السطور في صيف سنة ١٩١٦ وختمها بقوله : «أنا الان مدرس بمدرسة القضاء مرتبي ١٣٢٠ قرشا ، وأنا أرجو من الله أن يعينني على القيام بعمل عظيم لأمتي من الجهة الخلقية والاجتماعية».

وتبلغ صورة أحمد أمين غاية اكتمالها بما كتبه عنه خمسة عشر من زملائه الأدباء وأساتذة الجامعات في ذكراه الأولى التي احتفلوا بها سنة ١٩٥٥ فكانت الاحتفال الأول والأخير بذكرى أحمد أمين منذ توفي إلى اليوم ..

قال الدكتور ابراهيم بيومي مدكور في تلك الذكرى : «إن ثقافة أحمد أمين من تلك الثقافات الخصبة المتعددة الألوان .. وهناك ناحية تعتبر نقطة البدء في حياته العقلية كلها ، ونعني بها التربية ، عن طريقها امتد به البحث إلى شتى النواحي . ولم يكن بد من أن يكون أحمد أمين مربيا ، فقد أخذ عن أبيه الوعظ والإرشاد والترغيب والترهيب ، وهي إحدى وسائل التربية . ثم تتلمذ لعاطف بركات أحد أئمة المربين المصريين في نصف القرن الأخير» .

نشأ أحمد أمين في أسرة مصرية فقيرة . كان والده «فلاحا فقيرا

من مديرية البحيرة ، هجر القرية إلى القاهرة هربا من الظلم والسخرة والتحق بالأزهر ، ثم كان مصححا بالمطبعة الأميرية ببولاق ، وجعل ينسخ المخطوطات ويجمع الكتب ، فنشأ ابنه أحمد أمين بين الكتب والمحابر» (١) .

وفى شبابه اشترك أحمد أمين فى ثورة ١٩١٩ ثم فى الحركة الوطنية التى أعقبت الثورة بزعامة سعد زغلول باشا ، وكان من الثابتين على مناصرة «الوفد المصرى» عندما اضطهده الانجليز والملك فؤاد وتآمرت عليه الأحزاب الصغيرة .. وقد اغترف الكثيرون من خيرات الحركة الوطنية ، ذهبا وفضة ، بعد أن هدأت الروح الثورية وأصبح مجاهدو ١٩١٩ وزراء وحكاما فى العشرينات والثلاثينات وما تلاها ، ولكن أحمد أمين كان من القلائل الذين لم يغنموا لأنفسهم شيئا ، فلبث طوال عمره فى سلك القضاء أو التدريس .

ويبدو أن أحمد أمين لم يكن يشعر بتمام الرضا عن حظه فى الحياة برغم إعلانه الدائم للرضا ، فقد كان شديد الكتمان والكظم لما فى نفسه .. قال ابنه جلال أحمد أمين : «كان أبى من هؤلاء القلة الذين يطوون الآلام على أنفسهم ، ولا يشركون غيرهم فيها» ..

(١) من كلمة لمحمود تيمور فى تأبين أحمد أمين سنة ١٩٥٥ .

وقال الدكتور أحمد زكى :«ظن أحمد أمين – فى أخريات عمره – أن الحياة قد عافته وأنها هجرته ، والحق أنه هو الذى عافها فى أيامه الأخيرة واحتقر ناسها .. حضرنا حفلا فى إحدى السفارات وهناك التقيت بأحمد أمين .. ظهر فى هذا الحفل بما لم يجر الناس على أن يظهروا عليه فى هذه الحفلات : الذقن لم يحلق منذ أيام ، والقميص مفتوح صدره ، وليس بياقته رباط ، والهندام كله يكاد يهزأ بالحاضرين .. ودلف إلي فى الحفل صديق قال لى : ماذا جرى لأحمد أمين ؟! .. قلت : ذهب عنه احترام الدنيا ، فقال الصديق : بل إن أحمد أمين ارتفع عن المجتمع فلم يأبه فيه بما يصنع» !..

هكذا .. فى النهاية انفجر البركان الكظيم الذى كان يبدو هادئا فى كتابه «حياتى» مفتونا كالطفل بذكريات بيت أسرته القديم والكتاتيب وصحن الازهر ومدرسيه فى مدرسة القضاء الشرعى وأستاذتيه البارعتين فى اللغة الانجليزية ..

كان كتابه هذا قصة حب للناس والحياة فى مطلع شبابه وأيام شهرته وصعود نجمه فى التأليف .. ولكن هذا الحب لم يصمد إلى النهاية .. نهاية حياته ، فقد انحسرت أضواء الأيام الحلوة ..

وفى نهاية العمر قال لصديقه الدكتور أحمد زكى : «اليوم لا أرى شيئا عندى أكره من الناس ، ولا أصوب فى هذه الدنيا من قطيعة ،

وأنا اليوم سائر فى سبيل والدك من قبلى» ..

وكان والد الدكتور أحمد زكى قد تحول فى شيخوخته إلى كاره للدنيا غير مؤمن بالناس .. وتم عزوفه عن الدنيا وعن الناس بأن «قطع علاقته بالناس ، وبأكثرهم قربا اليه» ! ..

وبرغم نجاح أحمد أمين موظفاً كبيرا ومؤلفا شهيرا طوال أربعين عاما ، كان يعانى عقدة الخوف من استبداد الأقوياء به وجورهم عليه وكان شعاره إلى آخر حياته أن الاستبداد «يجعل من النفاق سياسة ، والتحايل كياسة ، والدناءة لطفا ، والسفالة دماثة وظرفا»..

وقد أفضى به تمسكه بهذا الشعار إلى الشعور بالوحدة فى الحياة وسط حشود المنافقين والمحتالين والادنياء والانذال والظرفاء ، فكان عزاؤه أن يعمل ويكتب بلا انقطاع ، ففى العمل والكتابة ينسى هذه الدنيا من حوله ، ولو استراح من العمل والكتابة لانفتح له باب التفكير فيما حوله بما يجره عليه من الغيظ والاسف والكمد ، وكان يقول : لو استرحت من العمل والكتابة لمت كمدا ! .

هكذا نرى أحمد أمين شخصية تبعث الاحترام فى كل من يعرفها ، ولكنه - بعد وفاته - ذهب بلا ذكرى باقية يجدها الناس بين أيديهم

كمـا يجدون ذكرى هــذا الاديب أو ذاك المفكر ممن لا يتـفـوقـون على أحمـــد أمين بأدب ولا فكر ، بالرغم من أن اسمه قد أطلق على شارع فى مصـر الجديدة ، وخـصصت له جائزة تمنح لخـريجى اللغة العـربية بآداب القـاهرة كل عـام ، وتشـغل مكـتبـتــه الان مكـانا فى إحـدى قـاعات «المؤتمر الاسـلامى» بالقـاهرة مـذكـرة كل من يغشاها باسم هذا الرجل الكبير ..

ولكن الذى حـدث أن الزمن قـد أحـدث هـوة مـفـاجـئة بين أفكار الثلاثينـات والاربعينات ، حـتى بدا كـثير من ألمع أدباء ومـفكرى تلك الفترة كأنـهم متخلفون فكريا أو واقـفون ضـد التقدم ، وقد أصـاب هذا الرذاذ حـتى عمـالقــة الشـهرة فى الادب أمـثال العـقاد والمازنى وطه حسين ، فضـلا عن الاخرين الذين لم يكونوا فى عـصرهم دعاة تجـديد كما كان العقاد وطبقته ..

وأحمـــد أمين - مع الأسف - اعتبر من هذا الطراز الذى حجـزته عن الجيل الجديد تلك الهوة المفاجئة التى شقـهـا زلزال الحـرب العالمية الثانية ثم ثورة ٢٣ يوليو كما يشق الزلزال الأرض .. فـأين يقع ميـراثه الفكرى الان من الجديد الدائم المتـجـدد فى الشـعـر والقـصـة والرواية والمسرح والسيـنما والغناء والموسـيقى ، فضلا عن الأفكار الاجتماعية والاخلاقية التى اتخذت مسارا لم يـخطر على باله حين قال : «أرجو أن

يعـينني الله على القـيـام بعـمل عظيم لأمـتى من الجـهـة الخلقـيـة والاجتماعية» ؟! ..

مع ذلك ، مازال ميراث المرحوم الدكتور الشيخ أحمد أمين قادرا على العطاء وتفتيح أبواب لفكر الأجيال العربية الصاعدة ، ولو قيض له من يكتشفه من جديد ويعرف الناس به ، لبلغ أحمد أمين من التقدير والتأثير في غيابه ما بلغ منهما وهو فى الاسماع والابصار طوال أربعين عاما ..

الخيط والجدار

رحلة طويلة قطعتها المرأة المصرية «المثقفة» منذ بدأت تتململ من طريقة الحياة الاجتماعية التي كانوا يسمونها منذ سبعين عاما «ألا توركا» أي طريقة الحياة «العثمانلية» .. حتى بلغت عصرنا .. بل ان طريقة الحياة الاجتماعية التي كانت المرأة المصرية تسميها «ألا فرانكا» أي طريقة الحياة «الافرنجية» قد تجاوزتها حياة المرأة المصرية الآن ، فتم لها في زمن قصير نسبيا الانتصار على عقلية المرأة العثمانلية وعقلية المرأة «المتفرنجة» معا كما كانتا معروفتين في الثلاثينات وما قبلها ، وبدأت المرأة المصرية تشترك في حياة المرأة «العالمية» كما هي معروفة اليوم على مستوى القارات الست !

وكتابات الدكتورة نوال السعداوي تكاد تقول لنا : فكروا في هذا الشوط الواسع الذي سجلته المرأة المصرية خلال هذه العشرات القليلة من السنين .. فإن الدكتورة نوال السعداوي تعيش بقلمها في أوربا وأمريكا واستراليا أيضا .. وتكتب كأديبات العالم ، ولا أقول «العالميات» فلست في مقام المبالغة .. وقد حررت قلمها حتى أوشك أن يقول ما يشاء كما تقول أقلامهن هناك ما تشاء !..

ونوال السعداوي ليست الأديبة المصرية الوحيدة في هذا المجال ..

عندنا أيضا غير واحدة .. هدفهن - كما يبدو لى - أن يتجاوزن مرحلة «الكسوف» من أنهن خلقن اناثا لا رجالا وأن تكون لهن من حرية القول والكتابة ما للرجال من هذه الحرية .

وفى بلد عربى شقيق كلبنان، كتبت الأديبات ما شئن، وتجاوزن ساجان وأمثالها من نساء باريس قولا وكتابة، ولا شأن لنا هنا بما تجاوزنه هناك فى القول من السدود الحاجزة بينهن وبين التساوى المطلق بالرجال على اختلاف فهومهن ومواقفهن حيال هذه السدود والحواجز..

وواضح الآن - بالبداهة - اتساع الشقة الفكرية والحياتية بين أديبات أيامنا وبين أول أديبة وشاعرة مصرية اشتهرت فى القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين وهى عائشة التيمورية.. وقد جاءت بعد التيمورية الأديبة الشاعرة باحثة البادية.. ثم جاءت أخريات من أقربهن إلى عصرنا الشاعرة الأديبة نبوية موسى «صاحبة مدارس بنات الأشراف».. ولكنهن اتخذن شعارهن قول إحداهن فى شطر بيت من شعرها : «بيد العفاف أصون عز حجابى» .. وسار الجيل التالى لهن على حذر، حتى تخرجت الطلائع النسائية الأولى فى الجامعة، ثم توالت الأفواج.. وطوى الزمان صفحات وفتح صفحات، وانتهت تماما حكاية «ألا توركا» و«ألا فرانكا» واستقلت المرأة المصرية بشخصيتها، وفى

الوقت نفسه أصبحت «عالمية» التفكير والتدبير في عصر أصبح فيه كل شيء عالميا ولم تعد قومية الشيء تنفى عالميته .

صحبتنى هذه الخواطر طوال قراءتي مجموعة قصص «الخيط والجدار» للدكتورة نوال السعداوى. فالمرأة المصرية المتعلمة المتحررة التى تمسك بالقلم ، تتمثل بلا خفاء فى نوال السعداوى، أعنى فى تعبيرها عن النفس البشرية والجسد البشرى .

طبعا .. ليست كل امرأة مصرية بقادرة أن تمسك قلما كما تمسك نوال السعداوى بقلم ، ولا هن قادرات حتى على الصمود أمام بعض تعبيرات الدكتورة ، وان كانت تعبيرات جميلة لبقة، ولكن الدكتورة هنا تمثل حالة من التحرر الفكرى يمكن أن نسميها - بحسب مقاييسنا في مصر - حالة فردية أو شبه فردية.. فهى في واد لم يطأه بعد فكر المرأة المصرية - في مجموعها ، وقد لا تبلغه قبل عشرات السنين .

هذا لا يعنى أن نوال السعداوى سابقة لزمانها في كتابتها، فما من امرأة ولا رجل بقادر على أن يسبق عصره فيما يكتب. وكل مادة يخطها قلم انثى أو ذكر فى عصر من العصور فهى من نتاج ذلك العصر بشكل من الأشكال، ولابد أن يكون العصر متضمنا إياها في زاوية من زواياه الظاهرة أو الخفية التي لا تقع تحت حصر .

وحين يقال ان لونا معينا من التفكير قد سبق عصره، فالمعنى أن العصر الذى ظهر فيه هذا اللون من الفكر قد بدأ فعلا يفسح مساحة ولو ضيقة ضيئلة لهذا الفكر.. ولا يمكن لأى فكر - مهما كان - أن يظهر قبل أوانه فى عصر يرفضه جملة وتفصيلا رفضا اجماعيا لا يشذ فيه عن الاجماع فرد واحد .

نقول هذا ولا نحاول أن نثقل مجموعة «الخيط والجدار» بما لا قبل لها باحتماله من سبق زمانها بأية حال. فهى مجموعة قصص قصيرة قد تبدو عادية لو كتبها رجل، ولكن حين تكتبها سيدة، فهنا قد يقال ان هذه السيدة لا تسير بدقة في «الطابور» الاجتماعى النسائي بل تتمرد عليه بقدر ما تسمح الظروف !..

إلا أن نوال السعداوى طبيبة، تعرف الجسد البشرى بتفاصيله باطنا وظاهرا.. وهذا - فيما يبدو لى - يشعرها بأن من حقها أن تكتب عن الجسد البشرى كما يكتب الرجل عندما يكون طبيبا .. وكأنها - وهى تكتب قصة لا تشريحا - تضع القصة إطارا للتشريح، أو كأنها تكتب قصة وتشريحا فى وقت معا.

مع ذلك لا يعدو الحقيقة من يقول إن نوال السعداوى كاتبة قصصية ذات موهبة ، تملأ رأسها حياة مجتمعها ولكنها تكتب فيها بأسلوب قد لا يكون أسلوب مجتمعها فى غالبيته .

ولا تطالبني بعدذلك أن أنقل إليك هنا قصة أو بعض قصة من قصص النفس والجسد فى مجموعة «الخيط والجدار».. فأنت حر أن تقرأ كما أن من حق الدكتورة نوال أن تكتب، وستجد فيما تقرؤه لها الكثير مما يمكن أن تقرأه المرأة فى «خدرها».. والرجل فى مقهاه.. وستجد هذا وذاك.

موهوب والأسوار العالية

فوق «الأسوار العالية» رواية الأستاذ عباس الأسوانى، الكاتب الساخر.. الجالس القرفصاء على مقهى «ريش» فى شارع طلعت حرب بالقاهرة جلسة الكاتب الفرعونى القديم فى المتحف المصرى.. يرفع صوته الأجش الممطوط بالسخرية والتهكم والتهجم على أحوال الدنيا وأحوال الناس، كعادته منذ بدأ يكتب قبل ثلاثين عاما. ولكن أسلوب سخريته فى «الأسوار العالية» يختلف عن أسلوبها فى «المقامات الأسوانية» .. و «موهوب وسلامه» والفكاهات الزاعقة الأخرى التى قرئت له فى كتبه أو أذيعت له فى تمثيلياته الإذاعية الرمضانية (١) .

سخريته فى «الأسوار العالية» تشبه فى جوها – إذا كان لابد من البحث عن «مشبه به» كما يقول سادتنا اللغويون – سخرية نجيب محفوظ ، وان كانت سخرية كل منهما تنفرد بجوها وأسلوبها وسراديبها ، ولكن انفراد هذه بمزاياها الخاصة عن تلك، لايمنع وجود «مشبه، ومشبه به» بطريقة لا أدرى فى الحقيقة كنهها إلا أن التشابه هنا، يكاد يكون نوعا من «التشبيه البليغ» لأنه يجىء بلا وجه للشبه، إلا ما يتفق من الملامح على غير اتفاق !..

(١) كانت هذه ألوانا من كتاباته ، وقد توفي إلى رحمة الله فى أواخر السبعينات .

هذا تقريبا ما بدا لى وأنا أقرأ رواية «الأسوار العالية».. فإن عباس الأسوانى يكاد فى بعض صفحاتها يذكرك بنجيب محفوظ وسخريته الخالية من ظواهر السخرية، وحواره باللغة الفصيحة، ودقة نظره إلى ما يراه ويلمسه في شخوصه وحيواتهم..

حتى الجو العام لرواية «الأسوار العالية» يهمس أحيانا أو يضج بموسيقى خلفية أو أمامية تكاد إذا أغمضت عينيك عنها وأرهفت لها أذنيك أن تقول : هذا صدى القلم الذى كتب به نجيب محفوظ «القاهرة الجديدة» و «بداية ونهاية» و «السمان والخريف» .. وأمثالها.

ولكن نجيب محفوظ لم يقف بفنه الروائى - كما نعرف - عند هذا الحد.. فبعد السمان والخريف جاءت روايات : اللص والكلاب، وأولاد حارتنا، والطريق، وثرثرة فوق النيل ، وميرامار .. إلى تهويماته القصيرة ونصف القصيرة فى «خمارة القط الأسود» و «تحت المظلة» و «حكاية بلا بداية ولا نهاية» .. وما توالى على تقلبات الأيام والأفكار والأحلام .

أيعنى ذلك أن عباس الأسوانى - بعد «الأسوار العالية» سوف يسلك طريق نجيب محفوظ فى الرمز وما فوق الرمز وما تحت الرمز وكل الضروب الحديثة والصيحات البالغة التجدد فى فن الرواية والقصة التى جربها فى فنه ، ومازال سن قلمه يقطر منها بشح أو بسخاء حينا بعد حين ؟!

في الحقيقة لا أدرى.. لكنى أعتقد أن عباس الأسوانى ليس مقلدا بالمعنى الذى أرجو ألا يتبادر إلى بعض الأذهان. غير أنه متأثر - ولا خفاء - بنجيب محفوظ «القديم».. وان كان تأثره بنجيب محفوظ «الجديد» لا يخفى أيضا ، ولكنه أقرب إلى الخفاء، يثب هنا أو هناك فوق «الأسوار العالية» كأنه شبح لا تراه !..

لا أكتمك اننى فكرت كيف تأثر عباس الأسوانى بنجيب محفوظ .. فكان الجواب تقريبا : ان كلا منهما - على غير اتفاق - يجلس على مقهى «ريش» .. ولقاءهما فى هذا المقهى شبه دائم ، بل هو دائم ، لأن عباس الأسوانى هو الجالس رقم «١» فى مقهى ريش.. ومن أسراره العجيبة أنه يجد وقتا للجلوس فى هذا المقهى «الأدبى» كل يوم تقريبا ولكنه مواظب بدقة ونظام على الكتابة وأداء أعماله التى يعيش منها .. فما سر هذه المعادلة الصعبة : جلوس فى مقهى الأدب والأدباء يبدو لك أنه جلوس أبدى .. وعمل وكتابة لا يتوافران الا لمتوفر عليهما طيلة الساعات الأربع والعشرين بجهد جهيد ؟!.

المهم أنه إذا كان بين فن نجيب محفوظ، وفن عباس الأسوانى نسب أو شبه نسب أو شبهة نسب ، فإن مقهى ريش هو المسئول عن ذلك، وله الفضل فيه ان كان فضلا، واللوم عليه ان لم يكن كذلك .. ومن حق هذا

المقـهى أن يدخل تاريخ الأدب المصـرى بـهـذا الفـضـل - إن صح - أو بهذا اللوم، ان كان عليه ملام !..

فى رواية «الأسوار العالية» إنسان فقير يشتغل بالتأليف المسرحى ، تخـفـضـه الأيام ثم ترفـعـه ثم تخـفـضـه وتذيقـه الويلات .. وفـى الرواية ممثـل فقير أيضـا ، ولكن هذا الممثل الفـقير يرث تـركة ضـخمة فـيقيم لنفسه مسرحا، ويتحـول إلى ممـثل عظيم ومخرج ومؤلف عظيم أيضا، ويحطـم فى طـريقه كل منافسيه ، ويزيح عن طريقه حتى يوسف وهبى ونجيب الريحانى - كما يتخيل مؤلف الرواية - ويشـترى النقاد والمؤلفين والممثلين ويغلق المسارح التى تنافسه، ويدوس على الناس بلا رحمـة !.. ثم ينتهـى على يد صـديقه المسرحى نهاية لا رحمة فيها !..

وفـى «الأسـوار العـاليـة» صـفـحـات ممتـعـة عن الفن والفكر والأدب والسـياسـة والحكمـة والوظائف والصـحف.. وعن القـاهرة فى الأربعينات بخيرها وشرها وأفكارها الاجتماعية الفجة والناضـجة وحياة الرجال والنساء فى كل درجات المجتمع وما فوق الأرض وتحت الأرض ! ..

وفـى «الأسوار العالية» لغة روائيـة وأدبيـة عالية تدهش من لم يقرأ من قـبل رواية لعبـاس الأسـوانى ، فـإنه روائى مـوهوب فـعـلا ، لم يدخل باب الرواية من باب مقـهى ريش ، وان كـان قـد جالس فى هذا المقـهى نجيب محفوظ ، كما جالس رواياته..

ويكاد يدهشني أن رواية «الأسوار العالية» - وهي ذات طلاوة وخصوبة وقيمة حقيقية - لم تجد حتى الآن ما تستحقه من التنويه والالتفات .

ويدهشني فعلا أن عباس الأسواني وهو الكاتب الفكاهي الذي يكاد يكون مهذارا، والمتحدث العاشق للكلام حتى ليتكلم دون أن يشبع من الكلام منذ تغيب الشمس إلى أن تعود إلي الشروق.. هو نفسه عباس الأسواني الذي كتب «الأسوار العالية» بكل ما تحويه من دهاليز وخفايا وتناقضات حياة الرجال والنساء والأطفال والمشاهير والصعاليك والشخصيات الخيالية والحقيقية سالكا في الفن الروائي طريقا يسلكه الموهوبون وحدهم في هذا الفن ، وان كان أسلوب فنه الروائي على خصوبته لا يحمل آخر البصمات العالمية - واغفروا لي كلمة «البصمات» هذه - ولا يحفل كثيرا برموزه وأعاجيبه وألاعيبه.

لقد بدأ عباس الأسواني حياته الأدبية شاعرا، ولعله ترك الشعر زهدا فيه أو حزنا عليه لما أصابه في الزمن الأخير على أيدي الكثيرين من الشعارير.. ثم كتب الفكاهات والطرائف والمطايبات والهزليات جريا في تيار سفساف الأمور أو احتجاجا على هذا التيار.

أما فنه الروائي - ودعك من كل ما أسبغه عليه وأكسبه إياه الجلوس في مقهى ريش - فإنه فن حقيقي يثبت به أنه فنان حقيقي،

ويغيظ به نفسه كما يغيظ الناس بأنه فنان حقيقي تطلب منه الحياة فنا قد لا يكون أكثره حقيقيا..

ولكن يبدو أن عباس الأسواني – كما وصف طه حسين بعض الناس – يسخر من نفسه ومن كل شيء ، بل إنه يسخر من نفسه ومن فنه ، أشد مما يسخر من الناس ومن كل شيء !.

وأخشى عليه – بعد أن يطول جلوسه في مقهى ريش – أن يجيء إليه بعض الناس ويشتروا منه قصصه وينسبوها إلى أسمائهم كما اشترى بطل روايته «الأسوار العالية» مسرحية صديقه «سامي» ونسبها إلى نفسه !.

ولكن سامي قال عندما عرض عليه صديقه بطل الرواية «زهران» أن يشتري منه مسرحية يضع عليها اسمه :

– لا.. ولو دفعت لي مليون جنيه !

قال زهران لسامي :

– كيف ستعيش إذن؟!

ولكني لا أعتقد أن هذا سيحدث لعباس الأسواني .. فلا «زهران» سيعرض عليه مليون جنيه، ولا هو ينتظر هذا العرض ، لأن ثمن القهوة في «ريش» لا يتعدى ثلاثة قروش [1] .

---

(١) كان مقهى ريش حتى نهاية عقد السبعينات ملتقى كثير من الأدباء ، وكان من أشهرهم فيه بعد نجيب محفوظ بوجه خاص، عباس الأسواني رحمه الله .

رقم الإيداع
٩٧ / ٣٤٦٣
I. S . B. N
977 - 07 - 0523 - 3

الفهرس

ص

الهلال

المجلة الثقافية الأولى فى مصر والعالم العربى
مارس ١٩٩٧ .. تقرأ فيها .

فكر وثقافة

- العلم والدولة العصرية ...... د. مصطفى سويف
- مصر والدخول إلى القرن الحادي والعشرين..... د. محمد القصاص
- جواز المرور للقرن الحادى والعشرين .... د. سعيد اسماعيل على
- ابناء النيل المهاجرون (القفز على الاشواك) .... د.شكرى محمد عياد
- ماذا حدث للمصريين ؟ المصريون ضدالمصريين.... د.صبرى منصور
- السيارة الخاصة والحراك الاجتماعى فى مصر ...... د.جلال أمين
- من اليقين إلى الحيرة ومستقبل الصراع ...... محمد سيد أحمد
- (كتاب جديد) سير كارل بوبر أحد صناع القرن العشرين -.. .... ليلى الجبالى
- معارك بلا ضحايا .... مصطفى نبيل
- فى ذكراه الخمسين - الشيخ مصطفى عبد الرازق فى آثاره الأدبية .... أحمد حسين الطماوى
- السجن فى الخيال القصصى .... إبراهيم فتحى
- إلى الشباب الحائر «هذا هو الطريق» .... أمين محمود العقاد
- والأدب يعبد الشيطان ... ابليس .. معبودى الخائن.....محمود قاسم
- ٢٠ مارس ميلاد محمد عبد الحليم عبدالله .... صافى ناز كاظم

دائرة حوار

فنــــون

شعر وقصة

التكوين

الأبواب الثابتة

رئيس مجلس الإدارة　　رئيس التحرير

مكرم محمد أحمد　　مصطفى نبيل

روايات الهلال تقدم

شرف

تأليف

صنع الله إبراهيم

كتاب الهلال يقدم

إلتقاء العمارة العربية بالشعر مع تطبيقات على الشعر الحديث

تأليف

د . عبده بدوى

هذا الكتاب

تجئ مادة هذا الكتاب في أوانها وإن تراخت بها الأيام فلم تجتمع هنا إلا بعد أن تفرقت في الصحف فترة تمتد بين الستينات والتسعينات، وإنما يجئ هذا الكتاب في أوانه لأنه يضم طائفة من الأفكار مازال الكلام ساخنا حولها بين أهل الفكر وبين أنفسهم - على اختلافهم - أو بينهم وبين المجتمع المصرى والمجتمعات الناطقة - بالعربية بين المحيط والخليج ، بل إن بعض أفكار الكتاب تطالع آفاق الحياة وترمى كل أفق بعيد أو قريب بشهاب يضئ أو يخبو ، جاهدا في الحالين أن يبلغ هدفه القريب أو البعيد .

وصورة القلم والأسلاك الشائكة ، هى - فى الحقيقة - صورة أى قلم عربى هنا أو هناك فى هذه المرحلة التاريخية التى لا يدرى أحد على وجه الدقة أين الصحيح فيها وأين الزائف ! ..

إن القلم ينشد الحرية وقد حاصرته أسلاك شائكة ، وأوضاع انقضى زمانها ، وإرهاب دموى قتل من حملة الأقلام العربية فى عصرنا هذا أكثر مما قتل فى جميع عصورنا ، ولهذا يقف القلم العربى عند حدود الأسلاك الشائكة وإن كان - كما فى هذا الكتاب - يحاول أن يجد ثغرة فيها ، فيقفز فوقها ، أو يتطلع إلى ما وراها ..

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) ٤٥ جنيها داخل ج . م . ع تسدد مقدما نقدا أو بحوالة بريدية غير حكومية - البلاد العربية ٣٠ دولارا - امريكا واوربا واسيا وافريقيا ٤٠ دولارا - باقى دول العالم ٥٠ دولارا .

القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لآمر مؤسسة دار الهلال ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد .

● وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

الكويت : السيد / عبدالعال بسيونى زغلول ، الصفاة - ص . ب رقم ٢١٨٣٣
للحصول على نسخ من كتاب الهلال اتصل بالتلكس : 92703 Hilal.V.N